

تأليف

عبدالله بن محمد الغنيمان

رئيس قسم الدراسات العليا

بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

الجزء الأول



الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ

توزيع

مكتبة الدار بالمدينة المنورة

شارع الستين . أمام مسجد الإجابة

ص ب (٢٠٨) هاتف (٨٣٨٣٠٩٥)



مقدمة

الحمد لله ، الأحد الصمد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له فى ألوهيته وربوبيته ولا ند له ، فى أسمائه وصفاته .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، ألأسله بالهدى ، ودين الحق ، فدعا إلى توحيد الله الخالص من كل شائبة شرك ، فى حقه ، أو فعله ، أو أسمائه وصفاته ، وجاهد فى هذا السبيل حتى وضح الحق ، واستبان وكمل به الدين ، وتمت النعمة ، فترك الأمة على البيضاء ، ليلها كنهارها ، لايزيغ عنها إلا هالك .

وسار على نهجه صحابته ، فلم يغيروا ، أو يبدلوا ، بل بذلوا جهدهم فى دعوة الخلق إلى عبادة الله وحده ، حتى مضوا لسبيلهم .

فصلاة الله وسلامه على عبده ورسوله محمد بن عبد الله ، إمام الحنفاء وسيد الأصفياء ، ورضى الله عن صحابته أجمعين ، وعمن سلك نهجهم إلى يوم الدين .

كمال الهداية وتمام على النعمة على هذه الأمة

أما بعد ، فقد عُلمَ أن الله – بعث رسوله محمداً – ﷺ على حين فترة من الرسل ، « وفى جاهلية لا تعرف من الحق رسما ، ولا تقيم به فى مقاطع الحقوق حكما » (١) وإنما ينتحلون ماتهواه نفوسهم ، وما تزينه لهم شياطينهم ، وما

---

(١) انتزاعا من خطبة الاعتصام للشاطبى ص ٢ .

وجدوا عليه آباءهم ، فجاهدهم وجادلهم باللين والحكمة ، وقارعهم بالسنان والحجة ، لمن كابر وعاند ، وكان نصر الله حليفه ، فاستقام أمره ، وانتصر على عدو الله ، وظهر دينه ، فجاء نصر الله ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وبعد تمام نعمة الله – تعالى – عليه وعلى أمته ، وظهور ما جاء به من الحق ، ووضوح الطريق توفاه الله إليه ، فقام بعده صحابته بأمره خير نيام ، فجاهدوا فى الله القريب والبعيد ، حتى تحقق ما أخبر به رسولهم – ﷺ – فيما رواه مسلم فى صحيحه عن ثوبان ، قال : قال رسول الله – ﷺ : « إذ الله زوى [1] لى الأرض فرأيت مشارقها ، ومغاربها ، وإن أمتى سيبلغ ملكها مازوى لى منها – وأعطيت الكنزين ، الأحمر ، والأبيض [2] ، وأنى سألت ربى لأمتى أن لايهلكها بسنة عامة ، وأن لايسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم [3] ، وإن ربى قال : يامحمد ، إنى إذا قضيت قضاءً فإنه لايرد ، وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة [4] وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، يستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلكهم بعضا ، ويسبى بعضهم بعضا » [5] .

ففتحت بلاد الروم ، وفارس فى عهد الخليفة الثانى ، وأنفقت كنوزها فى سبيل الله – تعالى – وواصلت جحافل التوحيد إلى مشارق الأرض ومغاربها ، تفتح القلوب إلى معرفة الله وتوحيده قبل البلاد ، حتى تمت نعمة الله على أكثر أهل

---

(١) معناه جمعها لى فرأيت أقصاها من الشرق ومن الغرب .

(٢) المقصود بالكنزين كنوز الفرس ، والروم ، الأحمر الذهب ، والأبيض الفضة .

(٣) أى يهلكهم جميعا ، ويستولى على بلادهم ، وذراريهم ، وأموالهم .

(٤) أى لا أرسل عليهم عذابا يعمهم ، ويستأصلهم .

(٥) صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢١٥ رقم ٢٨٨٩ .

الأرض ، فاتجهوا إلى عبادة الله وحده ، بعد ماكانوا يعبدون كل شئ ، وكانت تستعبدهم شياطين الجن والإنس .

ولكن كثيرا من الناس لايعجبهم ذلك ، بل يسؤوهم ويحزنهم .

ومن حكمة الله تعالى – أن جعل للباطل جنودا يناصرونه ، ويدافعون الحق ويردونه ، كما جعل للحق أنصارا يتفانون فى الذياد عنه ، والدعوة إليه .

وقد كان ذلك منذ باء إبليس اللعين بالطرد عن رحمة الله ، والبعد عن كل خير ، فأقسم بعزة الله ليغوين بنى آدم أجمعين ، إلا عباد الله المخلصين ، كما قال الله تعالى عنه : (فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين) [١] .

ومن المعلوم أن الله تعالى لم يقبض نبيه محمدا – ﷺ – حتى أكمل له دينه ، وأظهره على من عاداه بالحجج والبراهين ، وبقوة القتال لمن وقف فى وجهه وعاند الحق ، كما قال تعالى فى آخر ما أنزله الله عليه : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) [٢] فإذا كان الله قد أكمل لهم دينهم ، فلابد من أنه وضحه لهم بحيث لايبقى فيه أى التباس أو اشتباه ، ولابد من أنهم فهموه واعتقدوه على ما أريد منهم وعملوا به ، ولابد من الاستغناء به عن كل ماسواه ، فلا يحتاجون معه إلى غيره ، وأعظم مايحتاجونه وأشرفه هو معرفتهم ربهم بأسماءه وصفاته ، ومايجب له ويستحقه ، ويحمد ويمجد به ، ويثنى به عليه ، لأن هذا من أفضل العبادة التى أوجبها الله عليهم ، كما قال تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسماءه سيجزون ماكانوا يعملون) [٣] .

---

(١) الآيتان ٨٢ و ٨٣ من سورة ص .

(٢) جزء من الآية ٣ من سورة المائدة .

(٣) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

قد أوضح الله ورسوله العقيدة وضوحاً جلياً

فلا بد من إيضاح الواجب لله تعالى ، والممتنع عليه ، والجائز عليه ، حتى يكونوا على بينة من دينهم ، ومعبودهم ، لأنه لا سبيل إلى معرفة ذلك إلا من الوحى ، إذ هو من الغيب ، الذى لا يعلم بالقياس ، ولا بالعقل .

وقد بين الله لنا طريقة الأنبياء التى كانوا يدعون بها أممهم ، كما قص الله تعالى عنهم فى القرآن ، فقد اتفقت طريقتهم فى الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده ، وخاتمهم جاء مقتفا أثرهم فى ذلك ، فدعا أمته إلى مادعت إليه الرسل قبله ، من توحيد الله ومعرفته ، فلم يفارقهم حتى وضح لهم الطريق ، واستبان الحق من الباطل .

روى ابن ماجه عن أبى الدرداء ، قال : خرج علينا رسول الله - ﷺ - ونحن نذكر الفقر ونتخوفه ، فقال : « آلفقر تخافون ؟ والذى نفسى بيده لتصبن عليكم الدنيا حتى لا يزيغ قلب أحدكم إلاهيه ، وأيم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء »

قال أبو الدرداء : صدق والله رسول الله - ﷺ - « تركنا على مثل البيضاء ، ليلها ، ونهارها سواء » (١)

وقال الله تعالى : (وأنزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (٢) ، وقال تعالى : (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) (٣) وقال تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ، ولعلهم يتفكرون) (٤) .

---

(١) سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٤ رقم ٥ .
(٢) النحل الآية ٨٩ .
(٣) سورة النحل الآية ٦٤ .
(٤) النحل الآية ٤٤ .

فالإيمان بالله وأسماءه وصفاته أعظم الأشياء وكذلك عبادته ، فلا بد أن يبين الكتاب الذى هو تبيان لكل شئ ذلك أوضح البيان .

ولابد أن يدل على أعظم الهدى الذى هو معرفة الله – تعالى بأسماءه وصفاته – كما أن من أعظم ما وقع فيه الخلاف فى الأمة هو فى هذا الباب ، فلابد أن يكون قد بينه ، لأنه تعالى أخبرنا أنه نزله ليبين لنا ما اختلفنا فيه ، ولابد أن نجد فيه ما يزيل كل شك ولبس ، لأنه هدى ورحمة – لكن ليس لكل أحد بل للمؤمنين فقط .

وأعظم ما أنزل إلينا هو الإيمان بالله ، ومعرفته ، وقد أخبرنا تعالى أنه أنزل الكتاب ليبين للناس مانزل إليهم ، فكيف يترك أعظم الأشياء المنزلة إلينا بدون بيان .

فعلم بهذا ونحوه أن الله تعالى بيَّن على لسان رسوله – ﷺ – للأمة كل ما تحتاج إليه فى دينها ، ومعرفة ربها ، ولم يكل ذلك إلى عقولهم ، أو قياساتهم .

قال ابن عباس فى قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) [1] أخبر الله نبيه والمؤمنين ، أنه أكمل لهم الإيمان ، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً ، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدا ، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدا » [2] .

فإذا كان الله تعالى قد أكمل لهم الإيمان ، فكل مالم يقله رسول الله – ﷺ – فى باب الإيمان ، ولم يأمر به ويبينه للأمة فهو باطل ، وليس من الدين الكامل الذى جاء به .

وأصل الدين وأساسه معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته ، ومعرفة ما يجب له على عباده .

---

(١) الآية ٣ من سورة المائدة .

(٢) رواه ابن جرير بسنده ، انظر تفسيره جـ ٩ ص ٥١٨ ط المعارف .

ولا يجوز لمسلم يؤمن بالله ورسوله ، واليوم الآخر أن يظن برسول الله ﷺ أنه لم يبين مايعتقده العبد فى ربه ، لأن هذا هو الذى أمر بتبليغه .

قال شيخ الإسلام : « من المحال فى العقل والدين أن يكون الرسول الذى أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور ، وأنزل عليه الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبسا مشتبها ، ولم يميز بين ما يجب لله ، من الأسماء الحسنى والصفات العليا ، وما يجوز عليه ، وما يمتنع عليه ، فإن معرفة هذا أصل الدين ، وأفضل الأعمال ، فكيف يكون القرآن والرسول والصحابة – وهم أفضل الخلق بعد النبيين – لم يحكموا هذا الباب اعتقادا وقولا .

ومحال أن يعلم النبى – ﷺ – أمته أدب الأكل والشرب ، وقضاء الحاجة ، ونحو ذلك ، ويترك تعليمهم مايقولونه بألسنتهم ، وما يعتقدونه فى قلوبهم ، فى ربهم ومعبودهم ، مع كون ذلك غاية المعارف ، وأشرف المقاصد ، والوصول إليه غاية المطالب ، مع قوله – ﷺ – : « ما بعث الله من نبى إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير مايعلمه لهم ، وينهاهم عن شر مايعلمه لهم » [1] .

ومحال أن يكون الذين كان فيهم رسول الله – ﷺ – والذين يلونهم غير عالمين للحق فى باب معرفة الله ، وغير قائلين به .

ومعلوم أن من فى قلبه حياة ومحبة للعبادة ، أنه يحرص أشد الحرص على معرفة ذلك .

وقد صح عنه – ﷺ – أنه قال [2] : « خير الناس قرنى ، ثم الذين

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ١٢ ص ٢٣٣ شرح النووى فى الإمارة باب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول ، وابن ماجه فى الفتن ، انظر جـ ٢ ص ١٣٠٦ رقم ٣٩٥٦ ، والنسائى فى البيعة جـ ٧ ص ١٥٣ .

(٢) البخارى ، انظر الفتح جـ ٧ ص ٢ وجـ ١١ ص ٢٤٤ و ٥٤٣ .

يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجىء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » [١] .

بدء الانحراف

لما سيطر حكم الإسلام على أكثر البلاد ، فى آسيا ، وأفريقيا ، وغيرهما . دخل تحت حكمه أمم كثيرة ، رغبة ورهبة ، وكان لها أديان مختلفة ، من يهودية ، ومجوسية ، ونصرانية ، ووثنية ، وغير ذلك ، وقد كان لكثير من هذه الأمم سلطان كبير ، مثل المجوس ، والرومان ، فسلبهم المسلمون ذلك ، وكان عند هؤلاء من الكبر والاستعلاء مايجعلهم يأنفون من كونهم تحت سلطان المسلمين ، ولاسيما وقد كانوا يرون العرب من أحقر الأمم ، وأقلها شأنا ، كما أن اليهود واجهوا الإسلام ورسوله من أول أمره بالعداء ، وحاولوا القضاء عليه بأنواع من المكائد ، والمؤامرات . ولما يأس هؤلاء جميعا من قدرتهم فى مجابهة الإسلام بالقوة وجها لوجه انصرف جهدهم وكيدهم إلى الدسائس ، والمؤامرات ، والاغتيالات لرجاله العظام .

ودخل فى الإسلام ظاهراً من هؤلاء من قصده إفساده ، وتمزيق وحدة أهله ، ولابد أن يكون ذلك عن دراسة ، وإعمال فكر وتخطيط . وربما يكون هناك جمعيات متعاونة ، من المجوس واليهود ، والنصارى والهنود ، وغيرهم ، وقد تكون لكل طائفة مؤسسات تعمل لإفساد عقائد المسلمين ، لتيقنهم أنه لا يمكن هزيمة المسلمين ، إلا بإفساد عقيدتهم . فبدأت آثار تلك المؤامرات تظهر ، شيئا فشيئا ، فقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب بأيدٍ مجوسية ، وربما بمؤامرة مجوسية يهودية .

ثم قتل الخليفة بعده ، بأيدٍ مشبوهة ، من غوغاء ، يدفعهم بعض دهاة اليهود والمجوس .

---

(١) الفتوى الحموية ، ملخصاً ، انظر مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٧٠٦ .

ثم ظهر القول بنفى القدر ، وأول من عرف بذلك رجل مجوسى يقال له : سيسويه ، من الأساورة ، وإن كان قد اشتهر أن أول من قال به معبد الجهنى [١] .

ثم أوقدت نار الفتنة بين المسلمين ، وقتال بعضهم بعضا .

ثم خرجت الخوارج بجهلهم ، وعتوهم ، وتكفيرهم المسلمين ، وقتلهم إياهم .

ثم نجم التشيع الشنيع ، من قبل يهود ومجوس يوقدون ناره ، وأظهروا القول بأن للرسول – ﷺ – وصياً ، هو علىّ بن أبى طالب ، ولكن الصحابة تمالؤا على ظلمه ، وكتمان الوصية على حد زعمهم الكاذب .

ولم يزل التشيع يتطور بتطرفه ، وتشعبه ، حتى صار ملجئا لكل من يريد أن يحارب الإسلام والمسلمين ، وظهر فيه القول بأن القرآن مبدل ومحرف ، ومزيد فيه ، ومنقوص منه ، وأن أعظم الصحابة ارتدوا بعد إسلامهم إن لم يكونوا كلهم ، ماعدا عليّ بن أبى طالب ونفر قليل معه .

وقد يصل الضلال ببعضهم والجرأة على الله تعالى ، إلى أن يقول بخيانة جبريل للرسالة ، وأنه أرسل إلى علي فعدل بها إلى محمد .

ولم يزل الرفض يبتعد بأهله عن الدين . والعقل والفطرة إلى يومنا هذا .

ثم ظهر القول بإنكار الصفات لله تعالى ، وأنه لايحب أحداً من عباده ولا يحبه أحد ، ولا يتكلم ، وليس له يد ، ولا وجه ، ولا شيء مما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله .

---

(١) معبد الجهنى البصرى تابعى كان داعية فى ضلال ، قال الدارقطنى : حديثه صالح ومذهبه ردىء . تكلم فيه كثير من السلف من أجل قوله بنفى القدر ، قتله عبد الملك سنة ثمانين ، انظر تهذيب التهذيب جـ ١٠ ص ٢٢٥ .

وكان أول من عرف بذلك ، رجل يقال له : الجعد بن درهم . (١)

قال شيخ الإسلام : « أصل مقالة تعطيل الصفات ، مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين ، وضلال الصابئين ، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة فى الإسلام – أعنى أن الله ليس على العرش حقيقة ، وأن الاستواء بمعنى الاستيلاء ونحو ذلك – هو الجعد بن درهم ، وأخذها عنه الجهم بن صفوان ، وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه .

وقد قيل : إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان ، وأخذها أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم ، وأخذها طالوت عن لبيد بن الأعصم اليهودى الساحر ، الذى سحر النبى ﷺ » (٢) وهذه سلسلة يهودية لها سوابق فى محاربة الإسلام .

وقال البخارى : « حدثنا قتيبة ، حدثنى القاسم بن محمد ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حبيبة ، عن أبيه ، عن جده ، قال : شهدت خالد بن عبد الله القسرى بواسط فى يوم أضحى ... وقال : ارجعوا فضحوا تقبل الله منكم ، فإنى مضح بالجعد بن درهم ، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله علوا كبيراً عما يقول ابن درهم ، ثم نزل فذبحه »

قال أبو عبد الله : قال قتيبة : بلغنى أن جهماً كان يأخذ الكلام من الجعد بن درهم » (٣) .

فتبين أن هذا الإلحاد جاء من قبل اليهود الذين أرادوا إفساد دين الإسلام ،

---

(١) عداده فى التابعين ، قتله خالد بن عبد الله القسرى على الزندقة يذكر أنه جعل فى قارورة ، ماء وترابا ، فاستحال دوداً ، فقال : أنا خلقت وهو فارسى ، قتل سنة ١٢٤ . انظر البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٩٤ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٢٠ .

(٣) خلق أفعال العباد ص ٢٩ – ٣٠ . ورواه عثمان بن سعيد فى الرد على الجهمية ص ٢٥ .

كما أن الرفض أول من عرف من دعاته يهودى ماكر ، حاقد وهو ابن سبأ ، يقال له ابن السوداء ، واسمه عبد الله بن وهب بن سبأ من يهود صنعاء ، ولابد أن هؤلاء الأفراد الذين شهروا بدعواتهم المنحرفة ، وراءهم من يدعمهم ، ويخطط لهم ، وهذا الموضوع بحاجة إلى دراسة فاحصة ، تبين الأمر بوضوح ، وهذا الذى أشرت إليه تدل عليه كثير من الوقائع ، والآثار عن السلف ، وغيرهم .

فكان هذا هو سبب التفرق الحقيقى ، إذ هو تفرق فى الاعتقاد ، وهو منشأ الخلافات ، والحروب الكلامية الممزقة ، التى لم تزل تنخر فى كيان المسلمين إلى يومنا هذا .

وقد ينضم إلى ذلك عوامل جديدة فى كل فترة زمنية ، من أنواع الإلحاد ومحاربة الإسلام بأساليب شتى ، وأسلحة مختلفة ، مقروءة ، ومرئية ومسموعة ، ولولا أن الله تعالى تكفل ببقاء هذا الدين إلى آخر وقت من الدنيا ، لقضى عليه منذ زمن بعيد ، وهذا بالإضافة إلى ماهو كامن فى طباع البشر مما يبعدهم عن الحق ، مثل التقليد ، واتباع المألوفات ، وما يكون عليه رؤساء القوم وعظماؤهم ، كما ذكر الله تعالى عن الأمم السابقة مع أنبياءهم قال تعالى : (أم آتيناهم كتابا من قبله ، فهم به مستمسكون ، بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون . قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا : إنا بما أرسلتم به كافرون) [١] فهذا يدل على أن الإنسان يصعب عليه ترك المألوف له ، كما أن شيخه ، ومن يعظمه قد يسيطر على توجيهه إلى مايعتقده ، كما هى طريقة المتكلمين ، حيث يأخذون بآراء شيوخهم ومعظميهم ، مع مخالفتها لكتاب الله وسنة رسوله .

ومن ذلك الجهل ، واتباع الهوى ، كما هو حال أكثر الخوارج ، فإنهم

---

(١) الآيات من ٢٠ إلى ٢٤ من سورة الزخرف .

جهلوا معانى الكتاب ، وأرادوا من عموم الأمة أن لايكون لهم ذنوب ، وإلا أصبح عندهم كافرا مخلداً فى النار .

وأما الهوى فبابه واسع ، وقد قال الله تعالى : (أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه) (١)

وقال تعالى : (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) (٢) إلى غير ذلك من الدوافع نحو الانحراف ، وسأذكر شيئا مما ذكره أهل العلم يؤيد ما ذكر هنا :

قال شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى : « وقد روى أن أول من ابتدع [القول بنفى القدر] بالعراق رجل من أهل البصرة يقال له : سيسويه من أبناء المجوس وتلقاه عنه معبد الجهنى » (٣)

وقال الإمام ابن حزم : « الأصل فى أكثر خروج هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانوا من سعة الملك ، وعلو اليد على جميع الأمم ، وجلالة الخطر فى أنفسهم ، حتى إنهم يسمون أنفسهم الأحرار ، والأبناء ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم ، على أيدى العرب ، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً ، تعاظمهم الأمر ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة ، فى أوقات شتى ، ففى كل ذلك يظهر الله سبحانه وتعالى الحق ، وكان من قائمتهم « منقاذ » و « المقنع » ، و « استابين » ،

---

(١) سورة الجاثية الآية ٢٣ .

(٢) الآية ٥٠ من سورة القصص .

(٣) مجموع الفتاوي جـ ٧ ص ٣٨٤ ، وذكره المقريزى فى الخطط جـ ٣ ص ٣٦٠ ، وسيأتى ، وأما ماذكره أبو لبابة حسين فى كتابه « موقف المعتزلة من السنة » أن معبداً أخذ مقالته عن نصرانى من أهل العراق أسلم ثم تنصر ، نقلا عن أدب المعتزلة ففيه نظر ، إذ هو خلاف المشهور .

و « دبابك » [١] ، وغيرهم ، وقبل هؤلاء رام ذلك عمار الملقب « خداشا » ، و « أبو مسلم السراج » .

فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع ، فأظهر قوم منهم الإسلام ، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله – ﷺ – واستشناع ظلم [٢] علي – رضى الله عنه – ثم سلكوا بهم مسالك شتى ، حتى أخرجوهم عن الإسلام ، فقوم منهم أدخلوهم إلى القول بأن رجلا ينتظر يدعى المهدى ، عنده حقيقة الدين ، إذ لايجوز أن يؤخذ الدين من هؤلاء الكفار .

وقوم خرجوا إلى نبوة من ادعوا له النبوة .

وقوم سلكوا بهم المسلك الذى ذكرنا ، من القول بالحلول ، وسقوط الشرائع .

وآخرون تلاعبوا بهم ، فأوجبوا عليهم خمسين صلاة فى كل يوم وليلة .

وآخرون قالوا : بل هى سبع عشرة صلاة ، فى كل صلاة خمس عشرة ركعة .

وهذا قول عبد الله بن عمرو بن الحارث الكندى ، قبل أن يصير خارجيا ، صفريا [٣]

---

(١) هذه الأسماء فيها اختلاف بين النسختين من الفصل المحققة والمطبوعة سابقاً ، ففى القديمة « ستقادة » « واستاسيس » والملقب « بخداش » و « أبو مسلم السراج » ولم يشر المحققان إلى هذا الاختلاف .

(٢) لم يقع على علي بن أبى طالب ظلم من الصحابة كما زعمته الرافضة ، وإنما هو شئ اختلق للتشنيع والوصول إلى المقصد الخبيث .

(٣) يجوز أن يكون عبد الله هذا يهوديا ، لم يشف حقده مافعله من إفساده دين من أفسد دينه ، فدخل فى الخوارج ليروى ظمأ حقده بدماء المسلمين . فالله أعلم .

وقد سلك هذا المسلك أيضا عبد الله بن سبأ الحميرى اليهودى [١] فإنه لعنه الله ، أظهر الإسلام ليكيد أهله ، فهو كان أصل إثارة الناس على عثمان – رضى الله عنه ، وحرق علي بن أبى طالب طوائف أعلنوا بإلٰهتيه .

ومن هذه الأصول الملعونة ، حدثت الاسماعيلية ، والقرامطة ، وهما طائفتان مجاهرتان بترك الإسلام جملة ، قائلتان بالمجوسية المحضة ، ثم مذهب مزدك الموبذ ، الذى كان على عهد أنو شروان بن قباذ ، ملك الفرس ، وكان يقول بوجوب تواسى الناس في النساء ، والأموال .

قال أبو محمد : فإذا بلغ الناس إلى هذين الشعبين أخرجوهم عن الإسلام كيف شاؤوا ، إذ هذا هو غرضهم فقط » [٢]

وهذا الذى ذكره أبو محمد ابن حزم – رحمه الله – ظاهر فى أنه كان هناك جمعيات تنظيمية تخطط لهدم عقيدة المسلمين ، بشتى الوسائل .

قال البخارى رحمه الله – تعالى – : « حدثنا محمد بن عبد الله – أبو جعفر البغدادى قال : سمعت أبا زكريا ، يحي بن يوسف الزمى ، قال : كنا عند عبد الله بن إدريس ، فجاءه رجل ، فقال : يا أبا محمد ، ماتقول فى قوم يقولون : القرآن مخلوق ؟ فقال : أمن اليهود ؟ قال : لا ، قال : فمن النصارى ؟ قال : لا ، قال : فمن المجوس ؟ قال : لا ، من أهل التوحيد ، قال : ليس هؤلاء من أهل التوحيد ، هؤلاء الزنادقة ، من زعم أن القرآن مخلوق ، فقد زعم أن الله مخلوق ، يقول الله – تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ، فالله لايكون مخلوقا ، والرحمن لايكون مخلوقا ، والرحيم لايكون مخلوقا .

---

(١) إن فعل هذين الرجلين يدلنا على أن هناك منظمات تتعاون على حرب الإسلام من اليهود والمجوس وغيرهم ، كما أشرت إليه قبل ذلك .

(٢) الفصل جـ ٢ ص ١١٥ – ١١٦ ، وانظر المحققة جـ ٢ ص ٢٧٣ – ٢٧٤ .

وهذا أصل الزندقة ، من قال هذا فعليه لعنة الله ، لاتجالسوهم ، ولا تناكحوهم » [١] .

وقال أبو سعيد الدارمى – رحمه الله تعالى : « لم يزل [أهل الباطل] مقموعين أذلة ، مدحورين ، حتى كان الآن بآخرة ، حيث قلَّت الفقهاء ، وقبض العلماء ، ودعا إلى البدع دعاة الضلال ، فشدَّ ذلك طمع كل متعوذ فى الإسلام من أبناء اليهود ، والنصارى ، وأنباط العراق ، ووجدوا فرصة للكلام ، فجدوا فى هدم الإسلام ، وتعطيل ذى الجلال والإكرام ، وإنكار صفاته وتكذيب رسله ، وإبطال وحيه ، إذ وجدوا فرصتهم ، وأحسوا من الرعاع جهلا ، ومن العلماء قلة ، فنصبوا عندها الكفر للناس إماما ، بدعوتهم إليه . وأظهروا لهم أغلوطات من المسائل ، وعمايات من الكلام ، يغالطون بها أهل الإسلام ، ليوقعوا فى قلوبهم الشك ، ويلبسوا عليهم أمرهم ويشككوهم فى خالقهم ، مقتدين بأئمتهم الأقدمين » [٢]

وقال البخارى : « حدثنى أبو جعفر ، حدثنى يحي بن أيوب ، قال : سمعت أبا نعيم البلخى ، قال : كان رجل من أهل « مرو » صديقاً للجهم ، ثم قطعه وجفاه فقيل له : لم جفوته ؟ فقال : جاء منه مالا يحتمل ، قرأت يوما آية كذا وكذا ، نسيها يحي – فقال : ما كان أظرف محمداً ، فاحتملتها ، ثم قرأ سورة طه فلما قال : (الرحمن على العرش استوى) قال : أما والله لو وجدت سبيلا إلى حكها لحككتها من المصحف ، فاحتملتها ، ثم قرأ سورة القصص فلما انتهى إلى ذكر موسى ، قال : ماهذا ؟ ذكر قصته فى موضع فلم يتمها ، ثم ذكرها ها هنا فلم يتمها ، ثم رمى بالمصحف من حجره برجليه ، فوثبت عليه » [٣]

---

(١) خلق أفعال العباد ص ٣٠ .
(٢) الرد على الجهمية ص ٢٥٩ عقائد السلف .
(٣) خلق أفعال العباد ص ٣٨ ، وانظر عقائد السلف ١٢٨ – ١٢٩ .

فهذه الوقائع – ومثلها كثير جداً – تدل على حقد دفين ، على هذا الدين ، وأنه دخل فى المسلمين الدخيل ، ذى القلب الموتور ، والصدر الموغور ، والنفس التى تأكلها نار عداوة الإسلام ، ونبى الإسلام ، وأن هؤلاء يحاولون اجتثاث الإسلام من قلوب الناس ، بالتشكيك فى أصوله ، وأن كثيراً من علماء السلف عِلِمُوهم ، وعرفوا أن مرادهم صدّ الناس عن الإسلام ، وإفساد عقائدهم . وأن تعاونا يهوديا ، ومجوسيا ، ونصرانيا وإلحاديا لم يزل ينتهز الفرص ، جاهدا فى إطفاء نور الله – ويأبى الله إلا أن يتم نوره .

ولاشك أن الصراع بين الحق والباطل قديم ، وأنه لايخلو زمان ، ولا مجتمع من ذلك ، وأن الله تعالى جعل للباطل هواة ومحبين ، ينفقون أموالهم ويبذلون نفوسهم فى الدفاع عنه ، كما جعل للحق أنصاراً ، وهذا أمر ظاهر كما قال تعالى : (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) [١]

وإذا كان الإنسان متظاهرا بمساندة الباطل ونصرته ، فأمره أسهل ممن يخفى ذلك ، ويتظاهر بالخير والإيمان ، وهو من أبعد الناس عنه ، وأشدهم عداوة له ، وإنما مقصده معرفة مواطن الضعف من الإسلام وأهله ، والمداخل التى تنفذ سمومه منها فيهم ، ثم برميهم بكل ما يستطيع .

وربما يكون هناك تنظيمات تلبس لباس العلم والمعرفة ، والإصلاح ، والتجديد ، والمقصود منها القضاء على الدين ، وهم ينوعون أساليبهم فى كل وقت بما يناسبه ، وإن مصائب الإسلام بهؤلاء وأمثالهم ، من فجره إلى يومنا هذا تتوالى ، وقد وصف ذلك المقريزى – رحمه الله – وصفا مفيدا ألخصه فيما يلى : قال :

---

(١) سورة النساء الآية ٧٦ .

« لما بعث الله محمداً – ﷺ – إلى الناس ، وصف لهم ربهم بما وصف به نفسه ، فلم يسأله أحد من العرب بأسرهم ، قرويهم وبدويهم عن معنى شئ من ذلك ، كما كانوا يسألونه عن أمر الصلاة ، وشرائع الإسلام . إذ لو سأله أحد منهم عن شئ من الصفات لنقل ، كما نقلت أحاديث الأحكام وغيرها .

ومن أمعن النظر فى دواوين الحديث والآثار عن السلف ، علم أنه لم يرد قط لا من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة على اختلاف طبقاتهم ، وكثرة عددهم ، أنه سأل النبى ﷺ عن معنى شئ ، مما وصف الرب سبحانه به نفسه ، فى القرآن وعلى لسان نبيه ، بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا سكوت فاهم مقتنع ، ولم يفرقوا بين صفة وأخرى ، ولم يتعرض أحد منهم إلى تأويل شئ منها ، بل أجروا الصفات كما وردت بأجمعهم ، ولم يكن عند أحد منهم مايستدل به سوى كتاب الله ، وسنة رسوله .

ومضى عصرهم – رضى الله عنهم – على هذا ، وحدث القول بنفى القدر فى عهد آخرهم .

وكان أول من فاه بذلك معبد الجهنى ، أخذه عن رجل من الأساورة ، يقال له : أبو يونس سنسويه ، ويعرف بالأسوارى ، وتبرأ من هذه المقالة الصحابة .

ثم خرجت الخوارج ، وكفروا بالذنوب ، فقاتلهم أمير المؤمنين ، علي بن أبى طالب .

وحدث التشيع لعلي ، وغلا فيه طائفة بدعوة ابن سبأ اليهودى فحرقهم فى النار ، كما أحدث ابن سبأ القول بالوصية لعلي بالإمامة من بعد الرسول – ﷺ – والقول بالرجعة – أى رجعة علي بعد موته ، وأن فيه جزء من الإلٰهية .

ومن دعوة هذا اليهودى تشعبت الغلاة من الرافضة ، كالإمامية الاثنى عشرية ، والإسماعيلية ، والقرامطة ، والنصيرية ، وغيرهم ، وهو الذى أثار الفتنة على أمير المؤمنين ، عثمان حتى قتل ، ولم يزل مذهب الرفض يستفحل حتى ملأ الدنيا فساداً .

ثم حدث مذهب الجهمية ، وتعطيل الرب – تعالى – عن صفاته ، والقول بخلق القرآن ، وغير ذلك من العظائم ، وعربت كتب الفلاسفة فى عهد المأمون ، فعظمت الفتنة والضلال .

ثم ظهر الأشعرى ، وكان أخذ عن الجبائى الاعتزال ، ولازمه دهراً طويلا ، ثم سلك طريق ابن كلاب فى الصفات ، والقدر وغير ذلك .

وسلك طريقه جماعة من العلماء ، مثل الباقلانى ، وابن فورك ، والاسفراينيى والشيرازى ، والغزالى ، والشهرستانى ، والرازى وغيرهم ، وملئوا الدنيا بتصانيفهم ، يحتجون ، ويدعون أن طريقتهم هى طريقة أهل السنة والجماعة ، فانتشر هذا المذهب فى البلاد الإسلامية ، وجاءت دولة بنى أيوب ، وكانوا على هذا المذهب ، ثم مواليهم الأتراك ، وأخذه ابن تومرت إلى المغرب ، ونشره هناك ، فصار هذا المذهب هو المعروف فى الأمصار ، بحيث نسى ماعداه من المذاهب ، أو جهل ، حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه ، إلا أن يكون مذهب الحنابلة .

حتى جاء تقى الدين – أبو العباس ابن تيمية – ، فتصدى للانتصار لمذهب السلف ورد على الأشاعرة ، والرافضة ، والصوفية ، فافترق الناس فيه فريقان : فريق يقتدى به ، ويعول على أقواله ، ويرى أنه شيخ الإسلام حقا ، ومن أجل حفاظ أهل الملة الإسلامية .

وآخر يبدعه ، ويضلله ، ويزرى عليه إثبات الصفات وغيرها » .

ثم قال المقريزى :

« فهذا أعزك الله بيان ما كانت عليه عقائد الأمة من ابتداء الأمر إلى وقتنا ، قد فصلت فيه ما أجمله أهل الأخبار ، وأجملت مافصلوا ، فدونك طالب العلم تناول ماقد بذلت فيه جهدى ، وأطلت بسببه سهرى وكدى ، فى تصفح دواوين الإسلام ، وكتب الأخبار ، فقد وصل إليك صفوا » [١]

---

(١) الخطط للمقريزى ملخصا جـ ٣ ص ٣٠٩ – ٣١٤ .

وقال أحمد أمين فى كلامه على ابن سبأ : « والذى يؤخذ من تاريخه ، أنه وضع تعاليم لهدم الإسلام ، وألف جمعية سرية لبث تعاليمه ، واتخذ الإسلام ستاراً يستر به نياته » (١)

وذكر الطبرى : « أن ابن السوداء لما وصل إلى الشام لقى أباذر – رضى الله عنه – فقال له : ياأباذر ألا تعجب لمعاوية ، يقول : المال مال الله ، ألا إن كل شئ لله ، يريد أن يحتجنه دون المسلمين ، فذهب أبو ذر إلى معاوية وقال له : مايدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله » ثم أتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له أبو الدرداء : من أنت أظنك والله يهوديا ، وأتى عبادة بن الصامت فأخذه عبادة ، وذهب به إلى معاوية ، وقال له : هذا والله الذى بعث عليك أباذر » (٢) فإذا كان هذا اليهودى قد طمع بالصحابة ، فكيف بغيرهم .

ومن استقرأ التاريخ يرى أن أعداء الإسلام لم يدخروا وسعاً فى محاولة القضاء عليه ، إلى يومنا هذا .

كبريات الفرق الإسلامية

كان من نتائج التآمر على عقيدة المسلمين من جهات متعددة ، كما سبقت الإشارة إليه ، أن انشطر من الأمة الإسلامية عدة فرق ، انحرفت عن الطريق الصحيح ، الذى رسمه لها نبيها – ﷺ – وأخذت بنيات الطريق ، كما سبق فى حكم الله القدرى الكونى قال تعالى : (ولو شاء ربك لجعل الناس أُمة واحدة ، ولايزالون مختلفين * إلا من رَحِمَ ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمَّت كلمة ربك لأملأنَّ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين) (٣)

---

(١) فجر الإسلام ص ٢٦٩ .

(٢) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٢٨٣ .

(٣) الآيتان ١١٨ و ١١٩ من سورة هود عليه السلام .

روى ابن جرير عن الحسن « قال : الناس مختلفون على أديان شتى ، إلا من رحم ربك ، فمن رحم غير مختلفين »

وروى عن مجاهد : قال : « ولايزالون مختلفين » أهل الباطل ، (إلا من رحم ربك) أهل الحق » (١)

وقال : « معنى ذلك : ولايزال الناس مختلفين فى أديانهم ، وأهوائهم ، على أديان وملل ، وأهواء شتى ، إلا من رحم ربك ، فآمن وصدق رسله ، فإنهم لا يختلفون فى توحيد الله « وتصديق رسله ، وماجاءهم من عند الله » (٢)

وقال ابن كثير : « يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة ، من إيمان أو كفران ، كما قال تعالى : (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا) (٣) .

وقوله : « ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك » أى : ولايزال الخلف بين الناس فى أديانهم ، واعتقاداتهم فى مللهم ونحلهم ، ومذاهبهم ، وآرائهم . إلا المرحومون من أتباع الرسل ، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين الذى جاءت به رسل الله إليهم ، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة ، لأنهم الفرقة الناجية » (٤)

وقد أخبر النبى ﷺ بوقوع هذا الاختلاف ، محذرا منه ، فروى أبو داود ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله - ﷺ : « افترقت اليهود على إحدى ، أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على إحدى ، أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » (٥)

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٥ ص ٥٣٤ ط المعارف .

(٢) المصدر السابق ص ٥٣٤ .

(٣) الآية ٩٩ من سورة يونس عليه السلام .

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩٠ - ٢٩١ ملخصا ط الشعب .

(٥) السنن جـ ٥ ص ٤ رقم ٤٥٩٦ ، ورواه الترمذى التحفة جـ ٧ ص ٣٩٧ ، وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه جـ ٢ ص ١٣٢١ رقم ٣٩٩١ .

ورواه أيضا من حديث معاوية بن أبى سفيان – رضى الله عنه – قال رسول الله – ﷺ : « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب ، افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وأن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ، اثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة ، وهى الجماعة » [١] .

قال ابن كثير : « روى هذا الحديث فى السنن ، والمسانيد من طرق يشد بعضها بعضا » [٢] .

وأصل الفرق الذى ترجع إليه أربع كما قاله طائفة من السلف ، وهم الروافض ، والخوارج ، والقدرية [المعتزلة] ، والمرجئة ، وبعض العلماء يجعلها خمسا ويدخل أهل السنة ، كما قال أبو محمد بن حزم : « فرق المقرين بملة الإسلام خمس : وهم : أهل السنة ، والمعتزلة ، والشيعة ، والخوارج ، والمرجئة ، ثم افترقت كل فرقة من هذه على فرق » [٣] .

ومراده غير أهل السنة فإنهم فرقة واحدة ، وهم الذين تمسكوا بكتاب الله واتبعوا سنة رسوله ﷺ .

وقال الطرطوشى : « اعلم أن علماءنا قالوا : أصول البدع أربعة ، وسائر الأصناف الاثنتين والسبعين فرقة عن هؤلاء تفرقوا ، وتشعبوا . وهم : الخوارج : وهى أول فرقة خرجت على علي بن أبى طالب ، والروافض والقدرية ، والمرجئة » [٤]

---

(١) السنن جـ ٥ ص ٥ ، والترمذى من حديث عبد الله بن عمرو مع بعض الاختلاف فى اللفظ ، وقال : حديث حسن مفسر ، انظر تحفة الأحوذى جـ ٧ ص ٣٩٩ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩١ .

(٣) الفصل جـ ٢ ص ٢٦٥ .

(٤) الحوادث والبدع ص ٣١ .

ومن هذه الفرق تشعبت سائر الفرق ، وقد ألف فيها وفى بيان نحلها مؤلفات قديما وحديثا .

وكان من أول هذه الفرق الشيعة فإنها حدثت فى آخر عصر الصحابة ، ثم تطور التشيع الى الرفض ، ومبدأه من ابن سبأ اليهودى ، وغيره من المجوس ممن دخل فى الإسلام ظاهرا وفى الباطن هم إما يهود ماكرون ، أو مجوس موتورون ، قصدهم إفساد الدين الإسلامى ، كما تقدم .

فكان الرفض فى أوله يسمى التشيع ، فاشتهروا بالشيعة – أى شيعة علي ابن أبى طالب ، وكانوا فى زمنه ثلاث فرق .

فرقة تقول : إنه إلٰه ، وقد صرحوا له بذلك فحرق الذين تمكن منهم بالنار .

والثانية : الذين يسبون أبا بكر وعمر ، وقد توعد علي – رضى الله عنه – من فعل ذلك بأن يقيم عليه الحد – قيل : إنه القتل .

والثالثة المفضلة ، الذين يفضلون علياً على أبى بكر ، وعمر ، وبقية الصحابة ، وقد روى عنه أنه قال : « لا أتى برجل يفضلنى على أبى بكر وعمر إلا جلدته الحد » [1] .

ولما خرج زيد بن علي بن الحسين فى أوائل المائة الثانية ، سأله الشيعة عن أبى بكر وعمر ، فترضى عنهما ، وبين أنه يتولاهما ، تبرأ منه عند ذلك أكثرهم ، فقال : رفضتمونى ، فسموا الرافضة ، والذين اتبعوه سموا زيدية .

وأما القدرية : فأصلهم فيما يبدو والله أعلم ، من المجوسية المتعاونة مع اليهودية والنصرانية على حرب الإسلام .

---

(١) انظر فضائل الصحابة للإمام أحمد جـ ١ ص ٨٣ .

وحدثت هذه الضلالة أيضا فى آخر عهد الصحابة – رضى الله عنهم – ثم تطورت إلى الاعتزال .

وقد اغتر بهذا المبدأ كثير من الناس ، الذين عجزت عقولهم عن استيعاب الإيمان بقدر الله ، وأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وظنوا امتناع الجمع بين ذلك ، فنفوا علم الله بالمستقبل لظنهم أنه لايحسن أن يأمر من يعلم أنه يعصى أمره ثم يعذبه على ذلك ، حيث جعلوا هذا ظلما لايجوز فقابلتهم الجبرية ، الذين هم صنو منهم ، ثم تطورت إلى التجهم ، والتعطيل بتغذية اليهودية ، المفسدة فى الأرض .

وأما الخوارج فهم الذين خرجوا عن الحق من جيش أمير المؤمنين علي بن أبى طالب ، وهم كذلك كان ظهورهم فى آخر عهد الصحابة رضى الله عنهم . وهم إنما أتوا من سوء فهمهم للنصوص ، ولم يقصدوا مخالفة القرآن ، ولكن فهمهم أداهم إلى مالم يدل عليه القرآن ، وهو تكفير أهل الذنوب ، والقول بخلودهم فى النار ، ولابد أنه اندس فى صفوفهم من يضللهم من منظمات الموتورين ، والحاقدين على دين الله وعباده المؤمنين .

وأما الإرجاء ، فإنه وإن كان أخف هذه البدع ، ومعتنقوه من أقربهم إلى أهل السنة ، ففيه من الضلال ، والمخالفة لشرع الله تعالى ماهو معروف فى مواطنه .

الأشعرية

من نتائج الافتراق والتشتت ، برزت الأشعرية ، وهى عبارة عن خليط من مذاهب عدة فرق ، كالمعتزلة ، والكلابية ، والجهمية ، وقد كان إمام هذه النحلة – أبو الحسن الأشعرى – تلميذاً لأبى علي الجبائى ، قرأ عليه أصول المعتزلة ، ولازمه ما يقرب من أربعين عاما ، ولهذا كان خبيراً بمذاهب المعتزلة ، ثم انتقل إلى طريقة عبد الله بن سعيد بن كلاب ، وهى أقرب إلى مذهب أهل السنة من طريقة

المعتزلة ، وجعل يبين فساد مذهب الاعتزال ويرد عليهم ، ويوضح فساد أصولهم . وتناقضهم ، وبعدهم عن الحق ، ومثلهم الرافضة والفلاسفة ، ولهذا صار له ذكر حسن وقدر عند المسلمين .

والذين ينتسبون إليه من المتأخرين ليسوا على طريقته ، مع أنه لم يكن من أهل السنة المحضة ، إذ لم يستطع أن يتخلص من بعض مسائل أهل الكلام .

قال شيخ الإسلام : « لا ريب أن الأشعرية إنما تعلموا الكتاب والسنة من أتباع الإمام أحمد ، ونحوه ، ولهذا يوجد أكثر ألفاظه التى يذكرها عن أهل السنة والحديث ، إما ألفاظ زكريا بن يحي الساجى ، التى وصف بها مذهب أهل السنة ، أو ألفاظ أصحاب الإمام أحمد ، وما ينقل عن أحمد فى رسائله الجامعة فى السنة ، وإلا فالأشعرى لم يكن له خبرة بمذهب أهل السنة ، وأصحاب الحديث ، وإنما يعرف أقوالهم من حيث الجملة ، لا يعرف تفاصيل أقوالهم ، وأقوال أئمتهم ، وقد تصرف فيما نقله عنهم باجتهاده فى مواضع يعرفها البصير .

وأما خبرته بمقالات أهل الكلام فكانت تامة على سبيل التفصيل .

ولهذا لم يذكر عن أهل السنة فى كتاب « مقالات الإسلاميين » إلا جملة مقالاتهم ، مع أن لهم فى تفاصيل تلك ماليس لأهل الكلام .

ولا ريب أن للأشعرى فى الرد على أهل البدع كلاما حسناً ، هو من الكلام المقبول ، الذى يحمد قائله إذا أخلص فيه النية .

وله أيضا كلام خالف به بعض السنة هو من الكلام المردود ، الذى يذم قائله إذا أصر عليه بعد قيام الحجة » [1] والله يغفر لنا وله .

وقد انتسب إلى الأشعرى أكثر العالم الإسلامى اليوم من أتباع المذاهب الأربعة ، وهو يعتمد على تأويل نصوص الصفات تأويلا يصل أحيانا إلى

---

(١) التسعينية جـ ٥ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ من الفتاوى المصرية . ملخصا .

التحريف ، وأحيانا يكون تأويلا بعيداً جداً ، وقد امتلأت الدنيا بكتب هذا المذهب ، وادَّعى أصحابها أنهم أهل السنة ، ونسبوا من آمن بالنصوص على ظاهرها إلى التشبيه والتجسيم .

هذا ولابد لعلماء الإسلام – ورثة رسول الله ﷺ – من مقاومة هذه التيارات الجارفة ، على حسب ماتقتضيه الحال ، من مناظرات ، أو بالتأليف ، وبيان الحق بالبراهين العقلية والنقلية ، وقد يصل الأمر أحيانا إلى شهر السلاح .

وقد أكثر علماء السنة من التأليف فى الرد على أهل الأهواء والانحراف ، كما ظهر بعض الطوائف المقابلة لتلك البدع كالسالمية والكلابية ، الذين تولوا أيضا الرد على أهل تلك الانحرافات ، غير أنهم كثيراً مايردون البدع ببدع مماثلة لما يرد أو قريبا منها ، فيزداد من أجل ذلك التباس الحق على كثير من الناس ، بخلاف ما إذا كان الرد بما دل عليه كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، كما هو نهج أهل السنة بالإضافة إلى المعقول الصريح .

ومن كبار علماء السنة الذين ردُّوا على أهل البدع ، الإمام البخارى – رحمه الله تعالى – فى كتاب أفرد لذلك سماه « خلق أفعال العباد » ، ولم يقتصر فيه على ما يفهم من الاسم ، بل ردَّ فيه على الجهمية والقدرية وغيرهم ، كما رد على المرجئة فى كتاب الإيمان من الجامع الصحيح ، ورد على الجهمية والمعتزلة ومن سلك طريقهم فى كتاب التوحيد ، الذى ختم به كتابه الجامع الصحيح ، وسلك فيه طريقا واضحا فى الرد ، إذ اقتصر على ذكر النصوص ، من الكتاب والسنة ، التى فيها بيان بطلان مذاهب هؤلاء المشار إليهم ، فكأنه يقول : هذا كتاب ربنا الذى أنزله علينا وأمرنا باتباعه ، وحضَّنا على تدبره وفهمه ، وجعله هدى ونوراً وشفاءً للمؤمنين به ، وهذه سنة نبينا الذى كلفنا بطاعته ، ومتابعته ، وفيهما العصمة عن الخطأ ، وهما صريحان فى بيان الحق ، الذى ضل عنه هؤلاء المبتدعة ، وقد تكفلا برد ماجاؤا به ، فلا يسع المسلم إلا الأخذ بهما ، ورد ما خالفهما ، ففيهما الهدى والنور ، وفى تركهما الضلال والهلاك ، والله تعالى لم يكلنا إلى

عقولنا ، بل أرسل إلينا رسولا بين لنا كل ما نحتاج إليه من أمور ديننا ، وأنزل عليه كتابه ، فيه تبيان لكل شئ ، فرَّق فيه بين الحق والباطل ، فلسنا نحتاج معه إلى غيره ، فإن تمسكنا به أوصلنا إلى الله من أقرب طريق وأهداه ، وإن أعرضنا عنه تخطفتنا الشياطين من كل جانب كما قال الله تعالى : (ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمَن نقيّض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بُعْدَ المشرقين فبئس القرين) [١] .

الإمام البخارى

هو أبو عبد الله ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه [٢] .

قال النووى : « اتفق العلماء على أنه ولد بعد صلاة الجمعة ، لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال ، سنة أربع وتسعين ومائة ، وتوفى ليلة السبت ، عند صلاة العشاء ليلة الفطر ، سنة ست وخمسين ومائتين ، ودفن يوم الفطر بعد الظهر » [٣] .

طلب العلم من صغره ، وتبينت نجابته وذكاءه ، وفطنته ، وحفظه ، ونبله من صغره ، وقد طوف البلاد مراراً لطلب الحديث ، وأخباره مشهورة ، واتفق العلماء على جلالته ، وإمامته فى الحديث ، وفقهه ، وتميز بذلك عن غيره ، وقد كتب فى ترجمته كثيرا ، فى كتب الرجال ، والشروح ، وأفرد لذكر فضائله ، وشمائله كتب خاصة ، فلا نطيل فى ذلك .

وأما كتابه « الجامع الصحيح » فقال النووى - رحمه الله - : « اتفق

---

(١) الآيات من ٣٦ - ٣٨ من سورة الزخرف .
(٢) هدى السارى جـ ٢ ص ٢٥٠ ، وتاريخ بغداد جـ ٢ ص ٤ .
(٣) شرح النووى للبخارى ص ٤ .

العلماء على أن أصح الكتب المصنفة صحيحا البخارى ومسلم ، واتفق الجمهور على أن صحيح البخارى أصحهما صحيحا ، وأكثرهما فوائد » (١)

قلت : هو كتاب عظيم ونافع جدا لمن قرأه ، وتدبره ، وقد أودعه من التراجم التى تعين على الفهم الشئ الكثير ، وهى تدل على عظيم فقهه فى الحديث ، ودقة استنباطه ، وقد بلغت ثلاثة آلاف وثمانمائة واثنتين وثمانين ترجمة ، وتزيد على ذلك فى بعض النسخ .

هذا ، وقد اعتنى العلماء به عناية فائقة ، قراءة ، وحفظاً ، وتدريساً ، وشرحاً . فحظى بشروح كثيرة جدا ، فذكر فى كشف الظنون ما يقرب من ثمانين شرحا للبخارى (٢) ، وله أكثر من ذلك بكثير .

ومع هذا ، فإن كتاب التوحيد منه بحاجة إلى شرح يبين مقاصد البخارى – رحمه الله تعالى – ووجه الرد منه على أهل البدع ، لأن غالب من قام بشرحه ، على المذهب الأشعرى ، ولاسيما الشروح المتداولة اليوم ، ولهذا تجد أحدهم يوجه الكلام من النصوص ، ليتفق مع مايعتقده ، ولو بالتعسف .

وكثير من الصفات التى يثبتها البخارى ، مستدلا عليها بنص من كتاب الله ، أو عن رسوله ، يحاولون ردها ، إما بالتحريف الذى يسمونه تأويلا ، أو بدعوى الإجماع على خلافها ، كما ذكر الحافظ – رحمه الله تعالى – عن ابن بطال ، فى قوله – ﷺ : « لا شخص أغير من الله » .

قال : « أجمعت الأمة على أن الله تعالى لا يجوز أن يوصف بأنه شخص » (٣) .

---

(١) شرح النووى للبخارى ص ٧ .
(٢) انظر كشف الظنون جـ ١ ص ٥٤٥ .
(٣) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٠ وسيأتى إن شاء الله الكلام عليه وذكر من رواه .

وذكر عن الخطابى : أنه رد وصف الرب – تبارك وتعالى – بالأصابع كما فى حديث عبد الله بن مسعود فى ذكر الخبر الذى سأل رسول الله – ﷺ – ونسب ذلك إلى تخليط اليهود ، وتشبيههم ، وقال فى قوله فى الحديث « فضحك رسول الله – ﷺ – تصديقا لقوله » أنه ظن من ابن مسعود ،وحسبان ، وحاول عكس الأمر ، وأن الضحك من جرأة اليهود على التشبيه (١) ، وأمثال ذلك كثير ، مما هو خلاف ما أراد إثباته مؤلف الكتاب .

ولذلك أرى من الواجب أن يتولى شرح هذا الكتاب العظيم ، الذى ألفه ذلك الرجل السلفى الفاهم للحق تمام الفهم ، من هو على نهج المؤلف فى العقيدة ، ويفهم مقصده ، وماذا يريد من إيراده للنصوص .

ولما أعوزنى وجود شرح على هذا الوصف ، ولم يسعفنى من طلبت منه القيام بذلك من مشائخنا ، تطفلت على كتب العلماء ، وقمت بجمع ما أراه مناسبا لشرح ماأورده البخارى – رحمه الله تعالى – وأرجو من الله الإمداد بالعون والسداد ، فإنه لايخيب سأله ، ولا يحرم أمله ، ولست أزعم أننى أفهم من كتاب البخارى – رحمه الله – مالا يفهمه شارحوه ، أمثال ابن حجر ، والعينى والخطابى وابن بطال ، والقسطلانى وغيرهم ، ولكن لكل منهم نهجه الخاص ، وعقيدته التى تملى عليه مسلكا معينا .

١ ــ وطريقتى فيه أنى أذكر نص الحديث بسنده ، ثم أتبعه بترجمة لراويه من الصحابة موجزة جداً .

٢ ــ أحاول بيان مراد البخارى – رحمه الله – من إيراده للنص ، وبيان وجه استدلاله بذلك ، حسب المستطاع .

---

(١) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٣٩٨ . وسيأتى إن شاء الله تعالى ذكر ذلك فى موضعه ، وإبطاله بالبراهين المعتمدة على الحق اليقينى ، لا ظنون المتكلمين وشكوكهم ، والله المستعان .

٣ ــ أعزو الكلام إلى قائله ، مبينا مكانه من المصدر ، بالجرء والصفحة . وأذكر رقم الآية واسم السورة ، ومكان الحديث فى المصدر ، وأما صحيح البخارى فغالبا أعزوما فيه إلى الفتح .

٤ ــ لا أتطرق إلى الكلام على رجال السند ، إذ هو أمر مفروغ منه ، فكل مافى البخارى ثابت ، عن المصطفى ﷺ . وقد تلقته الأمة بالقبول . فلا يطعن فيه إلا من له غرض . أو فى قلبه مرض ، خلا بعض المعلقات ، وقد تولى الحافظ رحمه الله وصل أسانيدها ، والإجابة عما قيل فيها فى كتابه تغليق التعليق .

٥ ــ أحاول جهدى بيان مذهب السلف ، فى أسامى الله تعالى ، وأوصافه ومدى تمسكهم بالكتاب والسنة ، مستعينا على ذلك بنقل ما تيسر لى من كلامهم على سبيل الإيجار .

٦ ــ أحاول رد القول الباطل ، أو الضعيف ، الذى لاتؤيده النصوص ، إذ أن مبنى أوصاف الله تعالى على ثبوت النص فى ذلك ، ولادخل لقياس وعقل فى ذلك ، وكل ذلك حسب المستطاع .

★ ★ ★

قال البخارى - رحمه الله تعالى :

« باب ماجاء فى دعاء النبى - ﷺ أمته إلى توحيد الله - تبارك وتعالى »

* * *

مقصده بهذا أن يبين أن النبى - ﷺ - قد أوضح مايجب على المسلم أن يعتقده فى حق الله - تعالى نفيا و إثباتا ، وأوضح مايجب لله على عباده ، من توحيد القصد والنية ، لأن قوله : « توحيد الله » يعم أنواع التوحيد ، فلم يترك الأمر مشتبها ، بل بينه ، فيجب أن يتبع بيانه فى ذلك ، فلا يصار إلى رأى متكلم ، أو عقل متفلسف ، أو قول مؤول .

وقوله : « دعاء النبى - ﷺ - أمته » أى الدعوة التى كلفه الله بها وأمره بإبلاغها .

يعنى : أن هذا مقصود الرسالة ، فلابد أن يبينه ، ويبلغه أمته ، البلاغ المبين ، بحيث لايبقى فيه التباس ، أو اشتباه .

وقد قام - صلوات الله وسلامه عليه - بهذا الواجب خير قيام ، فأوضحه غاية الإيضاح ، فلا عذر لمن انحرف عنه ، وتلقى توحيده من الفلاسفة والمتكلمين الذين كثر فى هذا الباب اضطرابهم ، وغلظ عن معرفة الله تعالى حجابهم [١] .

وهو بهذا يبين أن معرفة التوحيد ، الذى جاء به رسول الله - ﷺ -

---

(١) اقتباس من كلام شيخ الإسلام فى أول الحموية ، انظر ص ٥ بتعليقات محمد عبد الرزاق حمزة .

ودعا أمته إليه ، لايمكن الوصول إليها إلا بما جاء به – ﷺ – من كتاب الله تعالى ، وسنته التي هي شارحة ومبينة لكتاب الله تعالى .

والأمة هنا يقصد بها الأمة المطلقة – أى أمة الدعوة .

* * *

١ ــ « حدثنا أبو عاصم ، حدثنا زكريا بن إسحاق ، عن يحي ابن عبد الله بن صيفى ، عن أبى معبد ، عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن النبى – ﷺ – بعث معاذا إلى اليمن » .

٢ ــ وحدثنى عبد الله بن أبى الأسود ، حدثنا الفضل بن العلاء ، حدثنا إسماعيل بن أمية ، عن يحى بن عبد الله بن صيفى ، أنه سمع أبا معبد مولى ابن عباس يقول : سمعت ابن عباس يقول : « لما بعث النبى – ﷺ – معاذا إلى نحو أهل اليمن ، قال له : إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب ، فليكن أول ماتدعوهم ، إلى أن يوحدوا الله تعالى . فإذا عرفوا ذلك ، فأخبرهم ، أن الله فرض عليهم خمس صلوات ، فى يومهم وليلتهم فإذا صلوا ، فأخبرهم ، أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم ، تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم فإذا أقروا بذلك ، فخذ منهم ، وتوق كرائم أموال الناس » .

* * *

عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، الهاشمى ، ابن عم رسول الله ﷺ ، وحبر هذه الأمة ، من المكثيرين عن النبى ﷺ ، وجلّ مايرويه بواسطة أحد الصحابة ، دعا له النبى ﷺ – بأن يفقهه الله فى الدين ، ويعلمه التأويل ، فظهرت عليه آثار دعوته – ﷺ – حتى عرف بأنه ترجمان القرآن .

توفى النبى ﷺ – وهو ابن خمس عشرة سنة ، على الراجح .

وقد توفى سنة ثمان وستين – فى الطائف (١) .

ومعاذ بن جبل بن عمرو بن أوس ، الأنصارى ، الخزرجى ، من علماء الصحابة وساداتهم قال له رسول الله – ﷺ فيما رواه أبو داود ، والنسائى بإسناد صحيح : « والله يا معاذ إنى أحبك » (٢)

وقال ابن مسعود : « إن معاذاً كان أمة ، قانتاً لله حنيفياً ، ولم يكن من المشركين إنا كنا لنشبه معاذاً بإبراهيم ، عليه السلام » (٣)

شهد العقبة ، والمشاهد كلها مع رسول الله – ﷺ – توفى فى الشام بطاعون عمواس ، سنة ثمانى عشرة ، وكان عمره ثمان وثلاثون سنة (٤)

قوله : « بعث معاذاً إلى اليمن » أى أرسله مبلِّغا عنه ، وداعيا إلى عبادة الله وتوحيده

« وأصل البعث إثارة الشىء ، وتوجيهه .

ويختلف باختلاف ماعلق به .

فبعثت البعير : أثرته من مبركه ، وسيرته ، وقوله تعالى : (والموتى يبعثهم

---

(١) انظر الإصابة جـ ٤ ص ١٤١ ، تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٣٧ ، أسد الغابة جـ ٣ ص ٢٩٠ ، سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ٣٣١ وغيرها كثير .

(٢) السنن جـ ٢ ص ١٨٠ الحديث رقم ١٥٢٢ ، وانظر المجتبى جـ ٣ ص ٥٣ .

(٣) انظر الإصابة جـ ٦ ص ١٣٧ .

(٤) سير أعلام النبلاء جـ ١ ص ٤٤٣ ، أسد الغابة جـ ٥ ص ١٩٤ ، الإصابة جـ ٦ ص ١٣٦ .

الله) [١] أى يخرجهم من الأرض أحياء ، ويسيرهم إلى المحشر .

وقوله تعالى : (ولكن كره الله انبعاثهم) [٢] أى توجههم ، ومضيهم معك .

وقوله تعالى : (فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض) [٣] أى قيضه لذلك .

وقوله تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا) [٤] أى أرسلناهم لدعوة قومهم ، إلى الله تعالى ، فالبعث ضربان :

أحدهما يتعلق بفعل المخلوق ، كبعث البعير ، وبعث الإنسان فى حاجة .

والثانى : إلهى ، وهو قسمان :

الأول إيجاد الأعيان ، والأجناس ، والأنواع من العدم ، على غير مثال سابق ، وهذا خاص بالله تعالى .

والثانى : إحياء الموتى ، وهذا قد أعطى جل وعلا بعض من يشاء من عباده شيئا منه ، كعيسى – عليه السلام – ليكون آية على صدقه » [٥]

و « اليمن » اسم البلاد المعروفة الواقعة فى الجنوب الغربى من جزيرة العرب .

قال فى القاموس : « اليمن ماكان عن يمين القبلة من بلاد الغور » [٦] وفى المراصد : « سميت اليمن لتيامنهم إليها ، لما تفرقت العرب من مكة ، كما سميت

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٤٦ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٣١ من سورة المائدة .
(٤) الآية ٣٦ من سورة النحل .
(٥) المفردات للراغب بتصرف ص ٥٢ .
(٦) القاموس جـ ٤ ص ٢٧٩ .

الشام لأخذهم الشمال » [١] .

قلت : وفيه نظر . وذلك أن اليمن قديم ، قبل وجود مكة على يدي إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ، إلا أن تكون التسمية حادثة وقال قطرب : « سمى اليمن ليمينه » [٢] .

قال الحافظ : « كان بعث معاذ إلى اليمن سنة عشر ، قبل حجة الوداع » [٣] . وعند أهل المغازى ، أن ذلك فى ربيع الآخر ، من سنة تسع ، والصحيح ماقاله الحافظ . وقد أشار البخارى – رحمه الله – إلى ذلك بقوله : باب بعث أبى موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع » [٤]

وقيل : كان ذلك فى اواخر سنة تسع ، عند منصرفه – ﷺ من تبوك ، رواه الواقدى بإسناده إلى كعب بن مالك ، وحكى ابن سعد أنه كان فى ربيع الآخر سنة عشر » [٥] فالله أعلم .

قوله : « إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب » . تقدم بفتح الدال ماضيه ثلاثى مكسور العين ، ومصدره قدوما ، لأنه يدل على معالجة .

« القوم » الجماعة من الرجال ، والنساء ، أو من الرجال خاصة وتدخل النساء على التبعية . قاله فى القاموس [٦] .

« وأهل الكتاب » هم اليهود والنصارى ، « والمقصود هنا اليهود ، وكان

---

(١) المراصد جـ ٣ ص ١٤٨٣ .
(٢) تاج العروس جـ ٩ ص ٣٧١ .
(٣) الفتح جـ ٣ ص ٣٥٨ .
(٤) انظر البخارى جـ ٥ ص ٢٠٤ .
(٥) انظر الفتح جـ ٣ ص ٣٥٨ .
(٦) انظر القاموس جـ ٤ ص ١٦٨ .

ابتداء دخولهم اليمن فى زمن « أسعد ذى كرب » تبع الأصغر ، كما ذكر ذلك ابن إسحاق فى السيرة » [١] .

والمقصود بالكتاب : الجنس ، والمراد : التوراة ، والإنجيل .

وسمى اليهود ، والنصارى أهل الكتاب ، لأن الله تعالى أنزل عليهم التوراة والإنجيل ، فيهما أوامر الله ، ونواهيه ، ليعملوا بهما - وهدى من الله ونور يخرجهم من ظلمات الغى والشهوات قال الله تعالى : (وأنزل التوراة والإنجيل . من قبل هدى للناس) [٢] . فتوارثوه جيل عن جيل ، ثم إنهم حرفوه ، وغيروا فيه وزادوا ونقصوا ، فاختلط حقه فى باطلهم ، ثم نسخه الله تعالى بالقرآن الذى أنزله على خاتم الرسل - ﷺ .

قال الحافظ : قوله : « إنك تقدم » الخ . كالتوطئة للوصية ، لتستجمع همته عليها لكون أهل الكتاب ، أهل علم فى الجملة ، فلا تكون مخاطبتهم كمخاطبة أهل الجهل من عبدة الأوثان » [٣] . ولايدل على أن كل من يقدم عليهم من أهل الكتاب ، بل أغلبهم من عبدة الأوثان ، كما هو معلوم .

قوله : « فليكن أول ماتدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى » اللام للأمر ، وإذا اقترنت بالفاء أو الواو فهى ساكنة فى الغالب الأكثر .

وقوله : « إلى أن يوحدوا الله تعالى » ذكره فى الزكاة بلفظ : « ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله » [٤] .

وفى رواية : فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا الله

---

(١) فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٤٨ .
(٢) الآية ٣ ، ٤ من سورة آل عمران .
(٣) الفتح جـ ٣ ص ٣٥٨ .
(٤) انظر الفتح جـ ٣ ص ٢٦١ .

فأخبرهم » الخ [١]

وفى أخرى : « فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » [٢] .

وفى رواية لمسلم : « فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله – عز وجل – فإذا عرفوا الله فأخبرهم » الخ [٣] .

وهذه الروايات متفقة فى المعنى .

فمعنى شهادة أن لا إلٰه إلا الله ، توحيد الله بالعبادة ، والبعد عن عبادة ماسواه ، وهذا هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ، الذى قال الله تعالى فيه : (فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) [٤] .

والطاغوت : كل ما عبد من دون الله ، كما قال مالك – رحمه الله [٥] سواء كان من البشر ، أو من الحجر ، أو الشجر ، أو الحيوان ، أو الأضرحة والعتبات .

والكفر به : الابتعاد عن عبادته ، التى هى طلب البركات منه ، أو

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٢٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٧ وجـ ٨ ص ٦٤ الفتح .

(٣) انظر مسلم بشرح النووى جـ ١ ص ١٩٩ .

(٤) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة .

(٥) قال ابن جرير : « الطاغوت كل ذى طغيان على الله لمن عبده من دونه ، إما بقهره لمن عبده أو بطاعة من العباد له ، إنسانا كان ذلك المعبود ، أو شيطانا ، أو وثنا ، أو صنما ، أو كائنا ما كان من أى شئ » انظر تفسير الطبرى جـ ٥ ص ٤١٩ تحقيق أحمد ومحمود شاكر .

الشفاعات أو دفع البليات ، أو إنالة الحاجات ، أو التوجه إليه بالدعاء ، ولابد من بغضه وعداوته ، وعداوة عابديه ومقاطعتهم ، والتبرىء منهم . لقول الله تعالى : (لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) (١)

والإيمان بالله – تعالى – هو : إفراده بالعبادة ، التى تتضمن غاية الحب ومنتهاه مع غاية الذل وأقصاه ، والانقياد لأمره ، والتسليم له .

وهذا هو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله ، كما قال ﷺ لوفد عبد القيس « آمركم بالإيمان بالله وحده ، أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال شهادة أن لا إله إلا الله » الخ (٢) .

وقال تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك) (٣) ، أخذ البخارى رحمه الله من هذه الآية وجوب العلم قبل العمل ، فقال : باب العلم قبل القول والعمل . لقول الله تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) (٤)

فالعلم بمعنى هذه الشهادة التى لابد لكل داخل فى دين الإسلام أن يشهد بها هو الإيمان المطلوب من العباد ، وهو معرفة حق الله على عباده ، الذى لايجوز الإخلال بشىء منه ، وإلا استحقوا عذابه .

وأما معنى شهادة أن محمداً رسول الله ، فهو : العلم اليقينى بأنه رسول من الله كلَّفه إبلاغه العباد أوامر الله ونواهيه ، وطاعته فى كل ماأمر به ، واجتناب ما نهاهم عنه ، وأن لا يعبد الله إلا بما جاء به ، وأن كل من سلك طريقا غير سنته

---

(١) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .
(٢) انظر الفتح البخارى جـ ١ ص ١٢٩ ، ومسلم بشرح النووى جـ ١ ص ١٨٨ .
(٣) الآية ١٩ من سورة محمد ﷺ
(٤) انظر الفتح جـ ١ ص ١٥٩ .

فمصيره إلى النار ، وأنه بلَّغ العباد ما أرسل به ، وبيَّن لهم دينهم أتم بيان ، وأنه عبد الله أكرمه بالرسالة ، وليس له من العبادة شيء ، بل العبادة كلها لله تعالى .

وهاتان الشهادتان متلازمتان ، لا تقبل إحداهما دون الأخرى ، فمن شهد أن لا إله إلا الله ، ولم يشرك به شيئا ، ولم يشهد أن محمداً رسول الله ، فهو كافر بالله وخالد فى النار ، وإن جاء بعبادة أهل الأرض .

ومن شهد أن محمداً رسول الله ، وأشرك بالله شيئا شركا كبيراً ، فهو كافر خالد فى النار ، فلابد من اجتماع هاتين الشهادتين فى العبد حتى يكون موحِّداً .

وأما مجرد النطق بشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، مع عبادة غير الله وتعلق القلب بمن يعتقدهم أولياء ، وطلب الحاجات منهم التى لايقدر عليها إلا الله ، ومع مخالفة أوامر رسول الله – ﷺ – وارتكاب مانهى عنه ، فإن ذلك لايفيد شيئا ، ولايكون الإنسان به مسلماً .

قال النووى – رحمه الله : « واتفق أهل السنة من المحدثين والفقهاء ، والمتكلمين على أن المؤمن الذى يحكم بأنه من أهل القبلة ، ولايخلد فى النار ، لايكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام ، اعتقاداً جازماً خالياً من الشكوك ، ونطق مع ذلك بالشهادتين ، فإن اقتصر على أحدهما لم يكن من أهل القبلة أصلا ، بل يخلد فى النار ، إلا أن يعجز عن النطق لخلل فى لسانه » [١] .

وهذه الشهادة أيضا تتضمن الإيمان بأسماء الله وصفاته ، لأن ذلك من عبادة الله التى تعبَّدَ الخلق بها .

وهذا الحديث دليل ظاهر على أن التوحيد الذى هو إخلاص العبادة لله وحده ، والبعد عن عبادة ماسواه ، والإيمان بأسمائه وصفاته كما جاءت فى وحيه إلى رسله – هو أول واجب على العباد .

---

(١) شرح النووى للبخارى ص ١١٣ .

لا كما يقول أهل الكلام ، من المعتزلة ، والأشعرية ، وغيرهم : أن أول مايجب على العبد ، النظر فى الأدلة العقلية على وجود الله تعالى ، أو القصد إلى النظر أو الشك ، فهذا الحديث وأمثاله من نصوص الكتاب والسنة يبطل هذا الزعم الخاطىء .

« وذلك أن أصل العلم الإلهى ومبدأه ، هو الإيمان بالله ورسوله ، والاهتداء بوحيه ، كما قال تعالى : (قل إن ضللتُ فإنما أضِلّ على نفسى ، وإن اهتديت فبما يوحى إلىَّ ربى إنه سميع قريب) (١) . وقال تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا) (٢)

وقال ﷺ : « أمرت أن أُقاتل الناس ، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم ، وأموالهم إلا بحقها » (٣)

ولهذا ابتدأ البخارى – رحمه الله تعالى – صحيحه ببدأ الوحى ونزوله ، الذى يحصل به الهدى ، والنور ، ثم أتبعه بكتاب الإيمان ، الذى هو الإقرار بالوحى والانقياد له ، ثم أتبعه كتاب العلم الذى هو معرفة ماجاء به الرسول ﷺ ، وفقهه ، فهذا هو الترتيب الحقيقى .

والمطلع على أقوال أهل الكلام يعجب مما جعلوه أصل الدين الإسلامى ، وبنوا عليه أن من لم يعرفه فليس بمسلم .

---

(١) الآية ٥٠ من سورة سبأ .

(٢) الآية ٥٢ من سورة الشورى .

(٣) رواه البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن عمر ، انظر الفتح جـ ١ ص ٧٥ ، وانظر مسلم بشرح النووى جـ ١ ص ٢١٢ ، وروى من حديث جماعة من الصحابة فى الصحيحين وغيرهما .

قال القرطبى : « لو لم يكن فى الكلام إلا مسألتان ، هما من مبادئه لكان حقيقا بالذم ، إحداهما قول بعضهم : إن أول واجب الشك ، إذ هو اللازم لوجوب النظر ، أو القصد إلى النظر .

والثانية : قول جماعة منهم : من لم يعرف الله بالطرق التى رتبها أهل الكلام ، لم يصح إيمانه .

والقائل بهاتين المسألتين كافر ، لجعله الشك فى الله – تعالى – واجبا ، ومعظم المسلمين كفارا ، حتى يدخل فى عموم كلامه السلف الصالح ، من الصحابة والتابعين ، وهذا معلوم الفساد من الدين بالضرورة ، وإلا فلا يوجد فى الشرعيات ضرورى » (١) .

وقال الغزالى : « أسرفت طائفة فكفَّروا عوام المسلمين ، وزعموا أن من لم يعرف العقائد الشرعية بالأدلة التى حرَّروها فهو كافر ، فضيقوا رحمة الله الواسعة ، وجعلوا الجنة مختصة بشرذمة يسيرة من المتكلمين » (٢) .

وقوله : « فإذا عرفوا ذلك ، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات فى يومهم وليلتهم » .

أى إذا عرفوا توحيد الله ، وعملوا به ، بأن أخلصوا عبادتهم لله وحده ، واجتنبوا عبادة كل معبود سواه ، عند ذلك يخبرون بفرائض الإسلام ، ويؤمرون بها ، وأعظمها بعد التوحيد الصلوات الخمس .

وفى هذا دليل على أنه لا يجب على العبد من الصلاة غير الخمس المذكورة .

ومعلوم أن بعث معاذ إلى اليمن فى آخر حياة الرسول – ﷺ – كما سبق .

---

(١) من الفتح جـ ١٣ ص ٣٥٠ بتصرف .
(٢) نفس المصدر جـ ١٣ ص ٣٤٩ بتصرف أيضا .

كما فيه : أنه يجب على إمام المسلمين بعث الدعاة إلى توحيد الله تعالى ، وتعليم الناس شرائع الإسلام ، وأمرهم بالتزامها ، وجباية الزكاة ، ودفعها إلى مستحقيها ، الذين ذكرهم الله تعالى بقوله : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) الآية (١) .

وفيه : أن الإنسان لايصير مسلما إلا إذا وحَّد الله تعالى بالعبادة ، بأن لايقصد بعبادته غير الله أحداً ، بل تكون عبادته كلها لله وحده ، وهذا هو معنى شهادة أن لا إلٰه إلا الله ، وأما معنى شهادة أن محمداً رسول الله هو أن يعبد الله بما جاء به الرسول - ﷺ ، والإيمان بأن الله أوحى إليه أوامره ، ونواهيه ، وكلفه إبلاغ الثقلين ذلك .

وفيه : أن أى تعبد يتعبد به العبد غير معتبر ، ولا معتدّ به بدون التوحيد .

وفيه : أن أخذ خيار المال فى الزكاة ظلم يجب اجتنابه .

وقصد البخارى - رحمه الله - بيان أن النبى - ﷺ - قد بيَّن للناس التوحيد بأنواعه ، وأنه أول واجب ، وأول مايدعى إليه ، فلا حاجة بعد بيانه إلى بيان أحد من الناس ، كما تقدم .

قال شيخ الإسلام : « وقد علم بالاضطرار من دين الرسول - ﷺ - واتفقت عليه الأمة ، أن أصل الإسلام ، وأول مايؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فبذلك يصير الكافر مسلما ، والعدو ولياً ، والمباح دمه وماله ، معصوم الدم والمال ، ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل فى الإيمان .

وإن قاله بلسانه دون قلبه ، فهو فى ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان » (٢) والبخارى - رحمه الله - فى بداءة كتاب التوحيد بهذا الحديث ، يشير إلى الرد على

---

(١) الآية ٦٠ من سورة التوبة .

(٢) نقلا من يثير العزيز الحميد ص ١٠١ .

المتكلمين الذين جعلوا عمدتهم ، فى إثبات ما يثبتون ، ونفى ماينفون العقل .

فهذا الحديث دل على أن أول مايجب على العبد ، عبادة ربه تعالى بامتثال أوامره ، واجتناب مانهى عنه ، وأن المقصود من الدعوة : وصول العباد إلى ماخلقوا له ، من عبادة الله تعالى وحده لاشريك له .

ولا سبيل إلى ذلك إلا باتباع الوحى الذى جاء به محمد - ﷺ - فيجب أن يتبع ، وأن يكون هو الأصل المعول عليه فى معرفة عبادة الله ، والإيمان به ، وبرسله . وملائكته ، وكتبه ، واليوم الآخر ، والإيمان بأسمائه وصفاته وعبادته بها ، خلافاً لطريقة المتكلمين ، الذين جعلوا عمدتهم عقولهم فى إثبات وجود الله تعالى ، بناء على حدوث الكون ، ثم إثبات صفاته نفيا وإثباتا بالقياس العقلى ، ثم إثبات النبوات ، ثم بعد ذلك يتكلمون فى السمعيات .

وهذه طريقة المعتزلة ، والكرامية ، والكلابية ، والأشعرية ، غير أن الأشعرية سلكوا هذه الطريقة فى الأصول الاعتقادية العلمية ، دون العملية .

وأما المعتزلة فلم يفرقوا بين العقيدة ، والعمل فى القياس العقلى . حتى إنهم ينظرون إلى القدر المشترك فى الأفعال بين الرب والعباد ، فما كان حسناً من العباد فى نظرهم ، فهو عندهم حسن من الله تعالى ، وما كان قبيحا منهم ، فهو من الله تعالى قبيح ، ولهذا سماهم أهل السنة مشبهة الأفعال نفاة الصفات .

★ ★ ★

٣ ــ «حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة ، عن أبى حصين ، والأشعث بن سليم ، سمعا الأسود بن هلال ، عن معاذ بن جبل – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – : « يامعاذ بن جبل ، أتدرى ماحق الله على العباد ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئا . أتدرى ماحقهم عليه ؟ قال الله ورسوله أعلم ، قال : أن لايعذبهم » .

* * *

جاء بصيغة الاستفهام ليكون أوقع فى النفس ، وأبلغ فى التعليم ، لأن الإنسان إذا سئل عن شئ لايعلمه ، ثم أخبر به بعد الامتحان بالسؤال صار ذلك أدعى لفهمه وحفظه .

وهذا من حسن تعليمه ، وإرشاده ﷺ ، وهذا الأسلوب ورد عنه ﷺ كثيرا .

يقال : درى يدرى ، دراية : إذا عرف ، فالدراية هى المعرفة .

و « الحق » : كل موجود متحقق ، أو ما سيوجد لا محالة ، ويقال للكلام الصدق حق ، لأن وقوعه متحقق ، لاتردد فيه ، ولأنه مطابق للواقع ، وكذا المستحق على الغير ، إذا كان لاتردد فيه ، فهو حق .

والمراد هنا « ما يستحقه الله تعالى على عباده ، مما جعله متحتما عليهم ، وألزمهم إياه بخطابه » [1] .

فحقه تعالى على عباده ، أن يعبدوه ، مخلصين له العبادة ، ممتثلين ما أمرهم به وأوجبه عليهم ، وأعظمه التوحيد ، ومجتنبين ما نهاهم عنه ، وحرمه عليهم

---

(١) فتح البارى جـ ١١ ص ٣٣٩ .

وأعظمه الشرك ، فإذا فعلوا ذلك ، فحقهم عليه أن يغفر لهم ، ولا يعذبهم وأن يدخلهم الجنة ، وقد وعدهم ذلك ، ووعده حق لا يخلف .

قوله : « الله ورسوله أعلم » يؤخذ منه حسن الأدب فى التعلم ، وأنه لاينبغى لمن سئل عما لا يعلمه أن يتكلف الجواب بدون يقين ، ولكن يكل العلم إلى عالمه .

« ذكر يعقوب بن سفيان بإسناده ، عن ربيعة قال : قال ابن خلدة : إذا جاءك الرجل يسأل ، فلا يكن همك أن تخرجه مما وقع فيه ، وليكن همك أن تتخلص مما سألك عنه » (١)

قوله : « أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئا » المراد بالعبادة : فعل الطاعات ، واجتناب المعاصى .

والعبادة فى اللغة هى : الذل ، والخضوع .

قال الأزهرى : « معنى العبادة فى اللغة : الطاعة مع الخضوع ، يقال طريق معبد ، إذا كان مذللا بكثرة الوطء ، وبعير معبداً إذا كان مطليا بالقطران » (٢)

وقال الجوهرى : « أصل العبودية : الخضوع والذلة ، والتعبيد التذليل ، والعبادة الطاعة . والتعبد النسك » (٣) .

وأما العبادة الشرعية فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ، ويرضاه من الأقوال ، والأعمال الباطنة ، والظاهرة » (٤)

---

(١) تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ٤٤٣ .

(٢) تهذيب اللغة جـ ٢ ص ٢٣٤ .

(٣) الصحاح جـ ٢ ص ٥٠٣ ، هذا متفقة عليه كتب اللغة .

(٤) انظر أول فقرة من رسالة العبودية .

وقيل : هى كمال الحب مع كمال الخضوع . لأن الحب الكامل مع الذل التام يتضمن طاعة المحبوب ، والانقياد له ، فالعبد هو الذى ذلله الحب والخضوع لمحبوبه ، فطاعة العبد لربه تكون بحسب محبته وذله له .

وعطف على العبادة عدم الشرك ، لأن العبادة لاتنفع عند الله ، ولاتعتبر إلا إذا كانت خالصة من الشرك .

والمشركون كانوا يعبدون الله ، ويعبدون معه غيره ، ولهذا اشترط نفى الشرك . والجملة حالية ، والتقدير : يعبدونه فى حال عدم الإشراك به .

قال ابن حبان : عبادة الله : إقرار باللسان ، وتصديق بالقلب ، وعمل بالجوارح .

ولهذا قال فى الجواب : « فما حق العباد إذا فعلوا ذلك . فعبر بالفعل ، ولم يعبر بالقول » (١)

قوله : « أتدرى ما حقهم عليه ؟ » فسره بقوله : أن لا يعذبهم .

وفى الرواية الأخرى : « أن لايعذب من لايشرك به شيئا » (٢) ، والتقدير : أن لايعذب من يعبده ، ولا يشرك به شيئاً ، لأن عدم الشرك مع عدم العبادة لاينفع ، وهذا معلوم من نصوص الشرع .

قال الحافظ : « اقتصر على نفى الشرك ، لأنه يستدعى التوحيد بالاقتضاء ، ويستدعى إثبات الرسالة باللزوم ، إذ من كذب رسول الله فقد كذب الله ، ومن كذب الله فهو مشرك ، أو هو مثل قول القائل : من توضأ صحت صلاته . أى مع سائر الشروط ، فالمراد : من مات حال كونه مؤمنا

---

(١) فتح البارى جـ ١١ ص ٣٣٩ .
(٢) انظر الفتح جـ ٦ ص ٥٨ .

بجميع مايجب الإيمان به » [١] .

وحق العباد على الله تعالى هو من فضله وكرمه ، وليس استحقاق عوض ، وجزاء كما تقول المعتزلة .

والناس فى هذه المسألة ثلاث فرق .

منهم من يقول : للمخلوق على الله حق يعلم بالعقل .

فهم يقيسون الخالق تعالى على المخلوق – كما تقدمت الإشارة إليه .

ومنهم من يقول : لا حق للمخلوق على الله تعالى بحال ، ولكن يعلم مايفعله [بعبده] بحكم وعده وخبره . وهذا قول أتباع جهم ، والأشعرى ، وبعض من ينتسب إلى السنة .

ومنهم من يقول : بل أوجب الله تعالى على نفسه حقا لعباده المؤمنين ، كما حرم الظلم على نفسه ، ولم يوجب ذلك عليه مخلوق .

ولا يقاس بمخلوقاته تعالى ، بل هو برحمته ، وحكمته ، وعدله كتب على نفسه الرحمة ، وحرم على نفسه الظلم . كما فى الحديث الذى فى صحيح مسلم وغيره [٢] « ياعبادى إنى حرَّمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا » .

وقال تعالى : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) [٣] . وقال تعالى : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) [٤] .

فمن قال : ليس للمخلوق على ربه حق ، فهو صحيح ، إذا أراد أنه ليس

---

(١) فتح البارى جـ ١ ص ٢٢٨ .
(٢) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٩٩٤ الحديث رقم ٢٥٧٧ .
(٣) الآية ٥٤ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٤٧ من سورة الروم .

عليه حق بالاعتبار والقياس على خلقه ، كما يجب للمخلوق على مثله ، وكما يظن جهال العباد أن لهم على الله حقا بعبادتهم ، لأن النفوس الجاهلة تتخيل أن الإنسان بعبادته ، وعلمه يصير له على الله حق ، من جنس مايصير للمخلوق على المخلوق [١] كمن يطيع سيده ورئيسه فيجلب له منفعة ، أو يدفع عنه مضرة ، ويبقى يتقاضى العوض ، والمجازاة على ذلك ، ويقول عند الجفاء والإعراض : ألم أفعل كذا ؟ يمن عليه بما فعل معه ، وإن لم يقله بلسانه ، كان ذلك فى قلبه ، وتخيل مثل هذا فى حق الله من جهل الإنسان وظلمه .

ولهذا بين تعالى أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه ، وأن الله غنى عن الخلق .

قال تعالى : (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم) [٢]

وقال تعالى : (من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها وماربك بظلام للعبيد) [٣]

ومن قال للمخلوق على الله حق فهو صحيح ، إذا أراد به الحق الذى أخبر الله بوقوعه ، فإن الله لايخلف الميعاد ، وهو الذى أوجبه على نفسه بحكمته وفضله ورحمته » . [٤] .

---

(١) ولهذا نجد الجهال ، وأنصاف المتعلمين يلهجون إلى الله تعالى بسؤاله بحق فلان ، وفلان . ويعتقدون أن هذا أقرب إلى حصول مطلوبهم ، وهو من جهل الإنسان بربه ، وعدم تقديره حق قدره ، وأكثر ما يقع الشرك فى المسلمين من هذا الباب .

(٢) الآية ٤٠ من سورة النمل .

(٣) الآية ٤٦ من سورة فصلت .

(٤) مجموع الفتاوى جـ ١ ص ٢١٣ بتصرف .

وهذا القول : هو الحق الذى دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، وأما القول الأول فهو ضلال بيِّن ، حيث لم يفرق قائله بين مايجب على الخالق تعالى ، ومايجب على المخلوق .

« والفروق بين الخالق والمخلوق لاتخفى إلا على من عميت بصيرته .

منها : أن الرب تعالى غنى بنفسه عن كل ماسواه ، ويمتنع أن يكون محتاجا إلى غيره ، بوجه من الوجوه ، وأما الخلق فسادتهم وملوكهم ومن دونهم محتاجون إلى غيرهم ، حاجة ضرورية .

ومنها : أن الرب تعالى وإن كان يحب الأعمال الصالحة ، ويفرح بتوبة التائبين . فهو الذى يخلق ذلك ، وييسره ، فلا يحصل مايحبه ويرضاه إلا بقدرته ومشيئته ، والمخلوق كثيرا ما يحصل له مايحبه بغير فعله بل بفعل غيره

ومنها : أن الرب تعالى أمر العباد بما يصلحهم ، ونهاهم عما يفسدهم .

قال قتادة : « إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم ، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً عليهم ، بل أمر بما ينفعهم ، ونهاهم عما يضرهم . بخلاف المخلوق الذى يأمر غيره بما يحتاج إليه هو وينهاه بخلاً عليه .

ومنها : أنه سبحانه هو المنعم بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وهو المنعم بإيجاد القدرة والحواس ، وغير ذلك مما يحصل به العلم والعمل الصالح . وهو الهادى لعباده ، والمخلوق لايقدر على شئ من ذلك .

ومنها : أن نعمه تعالى على عباده أعظم من أن تحصى ، فلو قدر أن العبادة جزاء لنعمه لم نقم بشكر قليل منها ، فكيف والعبادة من نعمه .

ومنها : أن العباد لايزالون مقصرين فى حقه ، محتاجين إلى عفوه ، ومغفرته ،

فلن يدخل أحد الجنة بعمله [١] ، وما من أحد إلا وله ذنوب يحتاج فيها إلى مغفرة ربه ؛ (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة) [٢]

فمن ظن أنه قائم بما يجب عليه ، وأنه غير محتاج إلى مغفرة ربه وعفوه وهدايته وتوفيقه فهو ضال » [٣]

والمقصود من الحديث هنا : بيان أن حق الله على عباده هو عبادته تعالى الخالصة من الشرك ، وهى طاعته بفعل ما أمر به ، واجتناب مانهى عنه ، فلا يخالف ماجاء عن الله ، أو جاء عن رسوله لغرض أو منفعة عاجلة أو آجلة : وغير ذلك .

ومن ذلك - يعنى حق الله على عباده - اتباع ما وصف الله به نفسه ، أو وصفه به رسوله من غير تحريف ، ولا إلحاد فيه ، ولهذا ترجم على هذا الحديث فى كتاب الرقاق بقوله : باب من جاهد نفسه فى طاعة الله .

ومراده : أن الرسول ﷺ قد بيّن مايجب لله على عباده من عبادته باتباع أمره ، واجتناب نهيه ، وعبادته بأسمائه وصفاته ، وتنزيهه عن مشابهة المخلوق ، وما يستحقه من فعل ذلك .

* * *

---

(١) فى صحيح مسلم ، عن جابر ، سمعت النبى ﷺ يقول : « لايدخل أحداً منكم عمله الجنة ولايجيره من النار ، ولا أنا إلا برحمة من الله » جـ ٤ ص ٢١٧١ رقم الحديث ٢٨١٧ وأخرجه البخارى فى عدة مواضع من صحيحه من حديث أبى هريرة وعائشة . انظر الفتح جـ ١١ ص ٢٩٤ .

(٢) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٣) مجموع الفتاوى جـ ١ ص ٢١٦ .

٤ ــ « حدثنا إسماعيل ، حدثنى مالك ، عن عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبى صعصعة ، عن أبيه ، عن أبى سعيد الخدرى : « أن رجلا سمع رجلا يقرأ « قل هو الله أحد » يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبى – ﷺ – فذكر له ذلك ، وكأن الرجل يتقالها ، فقال رسول الله – ﷺ : – والذى نفسى بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن » .

زاد إسماعيل بن جعفر ، عن مالك ، عن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبى سعيد – أخبرنى أخى قتادة بن النعمان ، عن النبى ﷺ .

* * *

أبو سعيد الخدرى هو : سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن الأبجر – وهو خدرة – الذى ينسب إليه ، أنصارى خزرجى ، بايع تحت الشجرة ، وغزا مع رسول الله ﷺ غزوات عدَّة ، وكان أبوه من شهداء أُحد . وأبو سعيد من علماء الصحابة وفقهائهم ، والمكثرين الحديث عن رسول الله ﷺ .

توفى رضى الله عنه سنة أربع وسبعين (١)

قوله : « أن رجلا سمع رجلا » السامع هو أبو سعيد راوى الحديث ، والقارى هو قتادة كما بينه البخارى بقوله : « زاد إسماعيل » الخ . وقد جاء مصرحا به فى مسند أحمد .

ولفظه : « بات قتادة بن النعمان يقرأ من الليل كله : قل هو الله أحد ، فذكر ذلك للنبى ﷺ ، فقال ﷺ : والذى نفسى بيده : لتعدل نصف القرآن أو ثلثه » (٢)

---

(١) الإصابة جـ ٣ ص ٧٨ ، أسد الغابة جـ ٢ ص ٣٦٥ .

(٢) المسند جـ ٣ ص ٨٥ ، وانظر الفتح الربانى جـ ١٨ ص ٣٤٦ .

« وقتادة هو أخو أبى سعيد لأمه ، وكانا متجاورين فى السكن » (١)

قوله : « وكأن الرجل يتقالها » بتشديد اللام أى يعدها قليلة بالنسبة إلى غيرها من سور القرآن « يقال : تقلل الشئ واستقله ، وقاله إذا رآه قليلا . والمراد أنه رآها قليلة فى العمل . لا أنه عدَّها ناقصة (٢)

قوله : « والذى نفسى بيده » كان ﷺ أكثر مايحلف بهذه الصيغة ، وقد ذكر البخارى – رحمه الله – فى الأيمان والنذور ، فى باب كيف كانت يمين النبى ﷺ – عدة أحاديث بهذا اللفظ .

وقد روى الطبرانى ، وابن ماجه ، عن رفاعة بن عرابة : « كان النبى – ﷺ إذا حلف قال : والذى نفسى بيده » .

وروى ابن أبى شيبة ، عن أبى سعيد ، كان النبى – ﷺ – إذا اجتهد فى اليمين قال : « لا والذى نفس أبى القاسم بيده » . ورواه ابن ماجه من وجه آخر ، بلفظ : « كانت يمين رسول الله التى يحلف بها – أشهد عند الله – والذى نفسى بيده » (٣)

قلت : وحديث أبى سعيد رواه أبو داود فى السنن (٤)

فقوله : « والذى نفسى بيده » أى روحى ، وحياتى وموتى ، يتصرف فىَّ كيف يشاء . وسيأتى إن شاء الله تعالى الكلام على صفة اليد ، وأنها من صفات الله الثابتة قطعا ، وأنها يد حقيقة تليق بعظمة الرب وقدره تعالى وتقدس عن مشابهة الخلق ، وعن الظنون السيئة التى أوجبت لأصحابها تعطيل الله – تعالى – عن

---

(١) فتح البارى جـ ٩ ص ٦١ .

(٢) المنهل العذب المورود جـ ٨ ص ١١٣ .

(٣) فتح البارى جـ ١١ ص ٥٢٦ .

(٤) انظر الحديث رقم ٣٢٦٤ .

صفاته ، ودعتهم إلى الإلحاد فى أسمائه وصفاته .

قوله : « إنها لتعدل ثلث القرآن » عدل الشئ بفتح العين ، ما عادله من غير جنسه ، والعدل بكسر العين : المثل ، تقول : عندى عِدل شاتك ، أو عِدل مالك ، إذا كان عندك شاة مثل شاة من تخاطبه ، ومال مثل ماله ، فإن أردت مايعادل ذلك من غير جنسه فتحت العين ، ذكر ذلك أهل اللغة [(١)] .

ومعنى كونها تعدل ثلث القرآن : – أن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام :

ثلث منه الأحكام وبيان الحلال من الحرام .

وثلث منه الوعد والوعيد ، والجزاء ، وما وقع بمن كذب الله ورسله ، وما سيقع بهم فى الآخرة ، وكذا ومن أطاعه .

وثلث منه فى أسماء الله تعالى وصفاته ، وهذه السورة خالصة فى الأسماء والصفات ، قاله أبو العباس ابن سريج ، وغيره من السلف .

واعتراض ابن عبد البر على هذا : بأن فى القرآن آيات كثيرة اشتملت على أكثر مما فى هذه السورة من التوحيد ، كآية الكرسى ، وآخر سورة الحشر ، وأول سورة الحديد – قد أجاب عنه القرطبى فى شرحه لمسلم : بأن سورة الإخلاص قد اشتملت على اسمين من أسماء الله متضمنين جميع أوصاف الكمال ، ولم يوجدا فى غيرها من السور ، وهما « الأحد » و « الصمد » .

« والقرآن باعتبار معانيه ثلاثة أقسام : توحيد ، وقصص ، وأمر ونهى ، وكله كلام الله تعالى والكلام – إما انشاء ، وإما إخبار .

فالإنشاء : هو الأمر والنهى ، وما يتبع ذلك كالإباحة .

والإخبار : إما عن الخالق تعالى ، أو عن المخلوق ، فالإخبار عن الخالق ،

---

(١) انظر ترتيب اللسان جـ ٣ ص ٧٠٧ .

هو التوحيد ومايتضمنه من أسماء الله وصفاته .

والإخبار عن المخلوق ، هو القصص ، وهو الخبر عما كان ، وما يكون .

« وقل هو الله أحد » هى صفة الرحمن خالصة لذلك ، وبهذا الاعتبار عدلت ثلث القرآن ، لما فيها من التوحيد ، الذى هو ثلث معانى القرآن ، وليس معنى ذلك أنه يكتفى بها عن سائر القرآن ، بمعنى أن من قرأها ثلاثا كفاه عن قراءة القرآن ، لأن النبى ﷺ قال : « إنها تعدل ثلث القرآن » .

وقد تقدم أن عَدْل الشيء – بالفتح – يطلق على ماليس من جنسه ، كما قال تعالى :

(أو عدل ذلك صياما) فجعل الصيام عدل الكفارة ، وهما جنسان .

فثواب قراءة « قل هو الله أحد » وإن كان يعدل ثواب قراءة ثلث القرآن فى القدر ، فلا يلزم أن يكون مثله فى النوع والصفة ، لأنها لاتغنى عما اشتمل عليه القرآن من الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، وسائر مايحتاج إليه العباد . فالناس محتاجون إلى جميع القرآن . ومنتفعون به منفعة لاتغنى عنها سورة الإخلاص ، وإن كانت تعدل ثلث القرآن » [١]

وفى هذا الحديث دلالة ظاهرة على تفاضل كلام الله تعالى ، وصفاته ، وهو المأثور عن السلف ، وعليه أئمة الفقهاء وغيرهم ، ونصوص الكتاب والسنة تؤيد ذلك .

قال الله تعالى : (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) [٢] فأخبر تعالى أنه يأتى بخير منها أو مثلها ، فدل على أن الآيات تتماثل مرة ، وتتفاضل أخرى ، والتوراة ، والإنجيل والقرآن كلها كلام الله تعالى ، وقد أجمع

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٧ ص ٢٠٧ – ٢٠٨ بتصرف .
(٢) الآية ١٠٦ من سورة البقرة .

المسلمون على أن القرآن أفضلها كما قال تعالى : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) (١) أى هو المؤتمن ، والشاهد ، والحاكم على ماسبقه من الكتب .

وأما الأحاديث فكثيرة . من جملتها هذا الحديث ، ومن تأمل كلام السلف ، ومن سار على نهجهم علم أن هذا من الأمور المستقرة فى نفوسهم ، ولم يعرف من السلف من قال : لايكون كلام الله بعضه أشرف من بعض ، لأنه كله من صفات الله ، وإنما حدث ذلك لما ظهرت البدع من المعتزلة ، والجهمية ، ومن سلك طريقهم ، الذين اختلفوا فى القرآن ، وجعلوه عضين .

وتفاضل الكلام من جهة المتكلم فيه - سواء كان خبرا أو إنشاء - أمر معلوم بالفطرة ، والشرع ، فليس الخبر المتضمن حمد الله والثناء عليه بأسمائه الحسنى ، كالخبر المتضمن لذكر إبليس ، وفرعون وأبى لهب ، ونحوهم ، وإن كان الكل كلاما عظيما تكلم الله به .

وكذلك ليس الأمر بالتوحيد ، والإيمان بالله ورسله ، والنهى عن الشرك وقتل النفس بغير حق ، والزنا وغير ذلك مما أمرت به الشرائع كلها ، أو حرمته كالأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد ، أو الأمر بالإنفاق على الحامل ، والنهى عن قول : « راعنا » وإن كان الكل واجبا .

وليس تفاضل الكلام باعتبار نسبته إلى المتكلم به ، فإنه سبحانه واحد ، ولكن باعتبار معانيه التى يتكلم بها ، وباعتبار ألفاظه المبينة لمعانيه .

قال شيخ الإسلام : « الكلام له نسبتان : نسبة إلى المتكلم به ، ونسبة إلى المتكلم فيه ، فهو يتفاضل باعتبار النسبتين ، وباعتبار نفسه أيضا ، فقل هو الله أحد ، و « تبت يدا أبى لهب » كلاهما كلام الله تعالى ، وهما مشتركان من هذه

---

(١) الآية ٤٨ من سورة المائدة .

الجهة ، ولكنهما متفاضلان من جهة المتكلم فيه ، المخبر عنه ، « فقل هو الله أحد » كلام الله وخبره الذى يخبر به عن نفسه ، وصفته التى يصف بها نفسه ، وكلامه الذى يتكلم به عن نفسه .

و « وتبت يدا أبى لهب » كلام الله الذى يتكلم به عن بعض خلقه ، ويصف به حاله ، فهما من هذه الجهة متفاضلان » [١] .

ولا يلزم من كثرة الحروف أفضلية ذلك ، كما توهمه بعض العلماء ، لأن الفضل يتبع تفاضل المعانى .

فحروف الفاتحة لقارئها بكل حرف حسنة أعظم من حسنات حروف (تبت يدا أبى لهب) .

فلا يلزم من مماثلة الشئ مساواته فى الفضل ، كما أخبر النبى ﷺ « أنه لو أنفق من جاء بعد السابقين مثل أُحد ذهبا ، ما بلغ مُدَّ أحد السابقين إلى الإسلام ، ولا نصيفه » [٢]

قال شيخ الإسلام : « فإذا قرأ الإنسان (قل هو الله أحد) حصل له من الثواب بقدر ثلث القرآن ، لكن لايلزم أن يكون الثواب من جنس الثواب الحاصل بقراءة ثلث القرآن ، لأن الإنسان يحتاج إلى مايحصل له من ثواب الأمر ، والنهى والقصص وغير ذلك ، و « قل هو الله أحد » لا تسد مسد ذلك ، ولا تقوم مقامه ، مع أن فضل القراءة والذكر والدعاء وغير ذلك ، يختلف باختلاف حال الإنسان ، فالقراءة بتدبر أفضل من القراءة بلا تدبر ، والصلاة بخشوع وحضور قلب ، أفضل من الصلاة بدون ذلك ، فإذا كانت « قل هو الله أحد » يعدل

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٧ ص ٥٧ .

(٢) رواه البخارى فى فضائل الصحابة ولفظه : « لاتسبوا أصحابى ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا مابلغ مُدَّ أحدهم ولانصيفه » انظر الفتح جـ ٧ ص ٢١ ، ورواه مسلم فى الفضائل جـ ٤ ص ١٩٦٧ .

ثوابها ثواب ثلث القرآن ، فلابد من اعتبار التماثل فى سائر الصفات ، وإلا فقراءة غيرها مع التدبر والخشوع أفضل من قراءتها مع الغفلة والجهل .

والناس متفاضلون فى فهم هذه السورة ، وما اشتملت عليه ، كما هم متفاضلون فى فهم سائر القرآن » (١) .

وهذا الحديث يدل أيضا على تعدد صفات الرب تعالى ، وتفاضلها ، لأن القرآن كله كلامه ، وكلامه من صفاته .

والتفاضل إنما يقع بين شيئين فصاعداً ، إذ الواحد لايعقل فيه شىء أفضل من شىء ، وقد دلت النصوص الكثيرة على تعدد أسمائه تعالى وصفاته ، وأن لها معان متعددة ، وهذا المعنى هو الذى قصده البخارى بهذا الحديث ، فيما ظهر لى ، ولاشك أن فضل هذه السورة لما اشتملت عليه من أوصاف الله تعالى . ولهذا أعقب ذلك بأن ترجم بقوله تعالى : (قل ادعو الله أو ادعوا الرحمن أيًّاما تدعوا فله الأسماء الحسنى) .

وقال الحافظ : « مراده ما فيه من التصريح بلفظ الأحدية فى وصفه تعالى ، كما فى الذى بعده » (٢)

وقول ابن بطال : « ومذهب الأشعرى ، وأبى بكر بن الطيب ، وابن أبى زيد ، والداودى ، وأبى الحسن القابسى ، وجماعة علماء السنة : أن القرآن لايفضل ، بعضه بعضا ، إذ كله كلام الله وصفته ، وهو غير مخلوق ، ولا يجوز التفاضل إلا فى المخلوقات »

ومثله قول ابن الدراج : « أجمع أهل السنة على أن ماورد مما ظاهره المفاضلة بين أى القرآن وسوره ، ليس المراد به تفضيل ذوات بعضها على بعض ، إذ هو

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٧ ص ١٣٨ - ١٤٠ بتلخيص وتصرف .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٣٥٥ بالمعنى .

كله كلام الله ، وصفة من صفاته » [١]

فهذا النقل عمن ذكرهم ، والزعم بأن هذا مجمع عليه من أهل السنة هو بحسب ظن هؤلاء – يعنى ابن بطال ومن يقول ذلك – لأنهم ظنوا : أن هذا القول الذى هو عدم المفاضلة لازم لمن يقول : إن القرآن كلام الله ، فهو من صفاته ، والتفاضل لايكون إلا فى المخلوقات ، والقرآن عندهم غير مخلوق .

وهو ظن خطأ ، فلم ينقل عن أحد من السلف أنه نفى المفاضلة بين آيات القرآن وسوره ، ونحن نطالب مدعى الإجماع على نفى ذلك بالدليل ، ولن يجد ذلك ، والنصوص من الكتاب والسنة تبطل هذه الدعوى كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، وابن بطال – عفا الله عنا وعنه – كثيرا ما يدعى الإجماع على مسائل ، الحق خلافها ، كما ستأتى الإشارة إلى بعضها إن شاء الله تعالى .

* * *

---

(١) انظر مجموع الفتاوى جـ ١٧ ص ٧٣ .

٥ ـــ حدثنا محمد ، حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، حدثنا عمرو ، عن ابن أبى هلال ، أن أبا الرجال محمد بن عبد الرحمن حدثه ، عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن – وكانت فى حجر عائشة زوج النبى – ﷺ – عن عائشة ، « أن النبى ﷺ ، بعث رجلا على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه فى صلاته ، فيختم بقل هو الله أحد ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبى – ﷺ – فقال : – سلوه لأى شئ يصنع ذلك ؟ فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال النبى – ﷺ – : أخبروه إن الله يحبه »

* * *

عائشة بنت أبى بكر الصديق ، وزوجة رسول الله – ﷺ – وحبيبته . كانت فقيهة ربانية ، وعالمة بأشعار العرب ، وأنسابهم ، وأيامهم .

أكثرت عن رسول الله – ﷺ – الرواية ، فلذلك صارت مرجعاً للصحابة فى كثير من أمور الدين ، فهى من حفاظ الصحابة وعلمائهم .

روى عنها خلق كثير من الصحابة ، والتابعين .

ولدت – رضى الله عنها – سنة أربع من البعثة النبوية ، وتزوجها رسول الله – ﷺ – بعد موت خديجة رضى الله عنها بثلاث سنوات ، ودخل بها فى المدينة ، وهى ابنة تسع ، وتوفى عنها ولها من العمر ثمانى عشرة سنة ، ومات ﷺ وهى حاضنته على صدرها .

مناقبها كثيرة ، توفيت فى المدينة سنة سبع أو ست وخمسين ، وقيل ثمان

وخمسين ، وصلى عليها أبو هريرة ، ودفنت فى البقيع رضى الله عنها . (١)

قوله : « بعث رجلا على سرية » هذا غير الرجل المتقدم ذكره فى باب الجمع بين السورتين فى ركعة واحدة ، للفروق الواضحة بين القصتين .

والسرية قطعة من الجيش ، يقال : خير السرايا أربعمائة رجل ، وفى اللسان مابين خمسة أنفس إلى ثلاثمائة ، سميت سرية لأنها تسرى ليلا فى خفية لئلا ينذر بهم فيحذر الأعداء ويمتنعوا » (٢) .

قوله : فيختم بقل هو الله أحد » قال ابن دقيق العيد : يدل على أنه كان يقرأ بغيرها ، والظاهر أنه كان يقرأ : « قل هو الله أحد » ، مع غيرها فى ركعة واحدة ، ويختم بها فى تلك الركعة ، وإن كان اللفظ يحتمل أن يكون يختم بها فى آخر ركعة يقرأ فيها السورة » (٣) .

وقوله : « لأنها صفة الرحمٰن » قال ابن دقيق العيد : « يحتمل أن يراد : أن فيها ذكر صفة الرحمن ، كما إذا ذكر وصف ، فعبر عن ذلك الذكر بأنه الوصف ، وإن لم يكن ذلك الذكر نفس الوصف ، ويحتمل أن يراد به غير ذلك ، إلا أنه لايختص ذلك بـ « قل هو الله أحد » ، ولعلها خصت بذلك لاختصاصها بصفات الرب تعالى دون غيرها » (٤) .

قلت : يريد بيان وجه تخصيص الصحابى لها بما ذكر ، أنها خالصة لذكر وصف الرحمٰن تعالى وتقدس

---

(١) انظر الحلية جـ ٢ ص ٤٣ ، أسد الغابة جـ ٧ ص ١٨٨ ، الاستيعاب جـ ٤ ص ١٨٨١ ، الإصابة جـ ٤ ص ، سير أعلام النبلاء جـ ٢ ص ١٣٥ .

(٢) ترتيب اللسان جـ ٢ ص ١٤١ .

(٣) شرح العمدة جـ ١ ص ٢٤٦ .

(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٤٧ .

وقوله : إلا أنه لايختص ذلك بـ « قل هو الله أحد » . يعنى أن أوصاف الرحمٰن تعالى موجودة فى آيات كثيرة من القرآن .

وهذه السورة وسائر سور القرآن هى صفة الرحمن ، لأنها كلامه ، وكلامه من صفاته ، ولكن تميزت هذه السورة بأنها خالصة لذكر أوصاف الرحمن تعالى – وهذا هو المتبادر إلى الفهم من مراد الصحابى – رضى الله عنه – أى أنها خالصة لوصف الرحمن – تعالى – دون غيره .

« قال ابن التين : إنما قال : لأنها صفة الرحمن لأن فيها أسماءه ، وأسماءه مشتقة من صفاته » .

وقال غيره : يحتمل أن الصحابى قال ذلك : مستنداً إلى شئ سمعه من النبى ﷺ – إما بالنص ، أو بالاستنباط .

وروى البيهقى فى الأسماء والصفات ، عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن اليهود أتوا النبى – ﷺ – فقالوا : صف لنا ربك ؟ فأنزل الله – عز وجل « قل هو الله أحد » إلى آخرها ، فقال : هذه صفة ربى – عز وجل [(١)]

وفى الحديث حجة لمن أثبت أن لله صفات ، وهو قول الجمهور ، وشذ ابن حزم فقال : هذه لفظة اصطلح عليها أهل الكلام ، من المعتزلة ، ومن تبعهم ولم يثبت عن النبى – ﷺ – ولا عن أحد من أصحابه ، فإن اعترضوا بحديث الباب ، فهو من أفراد سعيد بن أبى هلال ، وفيه ضعف ، وعلى تقدير صحته فـ « قل هو الله » صفة الرحمن ، كما فى هذا الحديث ، ولا يزاد عليه ، بخلاف الصفة التى يطلقونها ، فإنها فى لغة العرب لاتطلق إلا على جوهر ، أو عرض » [(٢)] وسعيد متفق على الاحتجاج به ، فلا يلتفت إلى تضعيفه .

---

(١) انظر الأسماء والصفات للبيهقى ص ٢٧٩ ، وفيه تسمية بعضهم وقد ذكر عدة أحاديث بمعناه .

(٢) انظر الفصل جـ ٢ ص ٢٨٤ ، وقد أطال الكلام على هذا المعنى ، واحتج بأشياء لا تدل على مراده .

وكلامه الأخير مردود ، باتفاق الجميع على إثبات الأسماء الحسنى ، قال الله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) . وقال تعالى : (له الأسماء الحسنى) والأسماء المذكورة فيها صفات ، ففى إثبات أسمائه إثبات صفاته » [(١)]

قلت : كلام ابن حزم – رحمه الله – باطل ، ولا حجة له فيما ذكر ، لأن الصفة : مصدر وصفت الشئ أصفه وصفا ، وصفة ، مثل : وعد ، وعداً ، وعدة .

فإذا قيل : إن الله بكل شئ عليم ، وهو رحمٰن رحيم ، وعلى كل شئ قدير ، فالمعانى القائمة بالرب تعالى – التى دل عليها هذا الكلام ، من العلم ، والرحمة والقدرة ، هى الصفات المقصودة ، وإنكار ذلك مكابرة ، أو عناد وضلال ، وإلحاد .

وقد دلت نصوص كتاب الله – تعالى – وسنة رسوله – ﷺ – والفطرة والعقل على ذلك ، قال الله تعالى : (ولا يحيطون بشئ من علمه) [(٢)] .

وقال تعالى : (أنزله بعلمه) [(٣)] ، وقال تعالى : (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) [(٤)]

وقال تعالى : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) [(٥)]

وقال تعالى : (ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما) [(٦)] .

---

(١) فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ .
(٢) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .
(٣) الآية ١٦٦ من سورة النساء .
(٤) الآية ٥٨ من سورة الذاريات .
(٥) سورة المنافقون الآية ٨ .
(٦) سورة غافر الآية ٧ .

وفى الحديث الصحيح « اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك » (١)

وفى حديث عمار بن ياسر ، عن النبى ﷺ : « واللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق » (٢) .

وفى صحيح البخارى فى قصة أيوب : « قال : بلى وعزتك ، ولكن لاغنى بى عن بركتك » (٣)

وقال البخارى : « باب الحلف بعزة الله وصفاته ، وكلماته » . وقال ابن عباس : كان النبى ﷺ – يقول : أعوذ بعزتك . وقال أبو هريرة : عن النبى ﷺ : يبقى رجل بين الجنة والنار ، فيقول : يارب اصرف وجهى عن النار ، لا وعزتك لا أسألك غيرها ، ثم ذكر حديث أنس : « لاتزال جهنم تقول : هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فتقول : قط قط ، وعزتك » (٤)

وفى هذا الحديث الذى نحن بصدد الكلام عليه : « لأنها صفة الرحمن »

وقال الله تعالى : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) (٥) وهذا من إضافة الموصوف إلى صفته ، فثبت بهذه النصوص ، وغيرها كثير ، أن لله صفات ، وأن كل اسم تسمى الله به يدل على الصفة ، لأن الأسماء مشتقة من الصفات .

وبهذا يتبين بطلان قول المعتزلة ، الذين ينفون أن يكون لله علم ، وقدرة ومشيئة ، ويجعلون هذه الصفة هى الأخرى ، أو الصفة هى الموصوف . كما يتبين

---

(١) هو حديث جابر ، انظر البخارى جـ ٢ ص ٥٠ ، وسنن أبى داود رقم ١٥٣٨ ، والترمذى رقم ٤٨٠ وسيأتى .

(٢) انظر سنن النسائى جـ ٣ ص ٥٤ و ٥٥ فى السهو فى باب نوع آخر من الدعاء .

(٣) صحيح البخارى كتاب التهجد باب ٢٠ جـ ١ ص ٥٤ وفى مواضع أخرى وسيأتى .

(٤) الصحيح ، كتاب الأيمان والنذور باب ١٢ جـ ٨ ص ١١٤ وسيأتى ذلك .

(٥) الآية ١٨٠ من سورة الصافات .

بهذا أيضا الفرق بين الأسماء والصفات .

١ ــ فالأسماء تدل على الذات ، والصفات تدل على معنى قائم بالذات ، وهذه المعانى أيضا أسماء .

٢ ــ وتقدم أن الأسماء مشتقة من الصفات .

قوله : « أخبروه أن الله يحبه » قد يكون سبب محبة الله له ، محبته لهذه السورة أو لمحبته ذكر صفات الرب عز وجل ، وحسن فهمه وعقيدته فى ذلك ، أو لمجموع الأمرين ، وهو الأولى .

وفيه ثبوت محبة الله تعالى لأهل طاعته من عباده ، والأدلة عليه كثيرة جداً ، فلذلك صار إنكاره ضلالا بيِّنا .

قال المازرى ، ومن تبعه : محبة الله لعباده : إرادته ثوابهم ، وتنعيمهم .

وقيل : هى نفس الإثابة ، والتنعيم .

ومحبتهم له ، لا يبعد فيها الميل منهم إليه ، وهو مقدس عن الميل .

وقيل : محبتهم له : استقامتهم على طاعته .

والتحقيق : أن الاستقامة ثمرة المحبة .

وحقيقة المحبة له : ميلهم إليه ، لاستحقاقه سبحانه المحبة من جميع الوجوه .

قال الحافظ : « وفيه نظر ، لما فيه من الإطلاق فى موضع التقييد » [١] ومقصده من الإطلاق ، قوله : « لاستحقاقه – سبحانه – المحبة من جميع الوجوه » لأنه قد يدخل فيه الحب المتضمن للشهوة ، ونحو ذلك .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٥٧ .

وقول المازرى : إن محبة الله لعباده إرادته ثوابهم ، ونعيمهم ، أو هى نفس الثواب والنعيم ، ظاهر البطلان ، والنصوص فيه لا تقبل هذا التأويل لكثرتها ، وتواطئها على أن الحب فيها هو ما يفهمه المخاطب الذى لم تفسد فطرتها بالعقائد المنحرفة عن الحق .

وهذه طريقة أهل التأويل فى كثير من صفات الله - تعالى - إما أن يجعلوها إرادة الثواب أو العقاب ، أو هى نفس الثواب ، والعقاب .

ومعلوم أن الثواب ، والعقاب ونحوهما مخلوق .

والإرادة التى يرجعون المحبة ، والرحمة ونحوهما من صفات الله - تعالى - إليها ، يلزمهم فيها نظير ما فروا منه فى المحبة والرحمة ، حيث قالوا : إن المحبة هى : الميل إلى المحبوب ، فيقال : والإرادة هى : ميل المريد إلى من يوافقه فى إرادته .

وأما تفسيرها بالثواب والعقاب ، فيلزم منه أن تكون صفته تعالى مخلوقة ، ثم نقول لسنا بحاجة إلى مثل هذا التأويل السخيف البارد ، لأن الله تعالى : ليس كمثله شئ فى صفاته ، كما أنه لا مثل له فى ذاته .

ومحبته تبارك وتعالى لعبده المؤمن شئ فوق إنعامه ، وإحسانه ، وعطائه وإثابته ، فإن هذا أثر المحبة وموجبها ، أما هى فأعظم من ذلك ، وأشرف . وهى التى يتسابق إليها أنبيائه وملائكته وأولياؤه ، وعباده الصالحون . وكم فى كتاب الله وسنة رسوله من نص صريح بأنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه ، كقوله تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) [١] وقوله تعالى : (إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين) [٢] (بلى من أوفى بعهده واتقى ،

---

(١) الآية ٣١ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٢٢٢ من سورة البقرة .

فإن الله يحب المتقين) [١] (والله يحب المحسنين) [٢] (فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) [٣] والآيات فى هذا كثيرة .

وأما الأحاديث عن رسول الله ﷺ التى تنص على أن الله يحب عباده المؤمنين فإحصاءها عسير ، كقوله ﷺ : « لأعطين الراية غداً رجلا يحبه الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله » [٤] وقوله – ﷺ : « إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى » [٥]

وأما محبة العباد لربهم فعجيب إنكارها ، إذ هى من الضروريات الثابتة بالشرع ، والعقل ، والفطرة ، وإنكارها إنكار للواقع المحسوس .

كما أن تأويل المحرفين بأنها الاستقامة على الطاعة ، كما ذكره المازنى ، أو أنها إرادتهم أن ينفعهم كما نقله الحافظ عن ابن التين [٦] مخالف للشرع ، والعقل ، والواقع المحسوس ، بل قد يؤول ذلك إلى إنكار أصل دين الإسلام ، لأن مبنى دين الإسلام على شهادة لا إله إلا الله .

ومعنى الإله : المحبوب الذى تأله القلوب ، وتحبه ، وتعظمه وتجله ، وتقصده بالإنابة والخضوع والذل ، والافتقار إليه ، والخوف منه ، ورجاءه .

فمن أنكر ميل القلوب إليه تعالى بالحب والتأله ، فقد أنكر حقيقة الإسلام . وهل الشرك الذى حرمت الجنة على صاحبه إلا أن يجعل للمخلوق

---

(١) الآية ٧٦ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ١٣٤ من سورة آل عمران ، والآية ٩٣ من سورة المائدة . والآية ١٤٨ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ١٥٩ من آل عمران .

(٤) رواه صاحبا الصحيحين ، انظر الفتح جـ ٦ ص ١١١ وأماكن أخرى . ومسلم جـ ٤ ص ١٨٧١ و ١٨٧٢ .

(٥) رواه مسلم فى الزهد جـ ٤ ص ٢٢٧٧ رقم ٢٩٦٥ .

(٦) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٣٥٧ .

نصيبا مع الله تعالى فى هذا الحب كما قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله) [(١)]

فبين تعالى أن الذى يحب المخلوق كحب الله أنه مشرك قد اتخذ لله نداً ، وأخبر تعالى عن هؤلاء أنهم سيقولون لأندادهم وهم فى النار : (تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين) [(٢)] ولايجوز أن تكون تسويتهم لهم برب العالمين إلا فى الحب ، لأنه لايمكن أن يقول عاقل أن أحداً من الخلق يساوى الله تعالى فى الفعل والتصرف .

وقول ابن التين الذى نقله الحافظ : « إن معنى محبة المخلوقين لله : إرادتهم أن ينفعهم [(٣)] » من أبطل الكلام المخالف للواقع ، وللشرع والعقل ، ولولا أن هذا مسجل فى الكتب المتداولة بين المسلمين ، لم يجز ذكره ، وهل يوجد أحد من الخلق لايريد أن ينفعه الله ، حتى إبليس ، ومن دونه من دعائم الكفر والإلحاد ، من الأولين والآخرين ، بل كلهم يريد أن ينفعهم الله ، فهل يقال : إنهم يحبون الله ؟ ولا شك أن مثل هذا القول نتيجة نقص العلم بكلام الله وكلام رسوله ، ونقص الإيمان بذلك .

« وإلا فإن من تيقن أن الله أصدق القائلين ، وأن قوله الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، وأن قوله الفصل ، ليس بالهزل ، وأنه الهدى ، والنور ، والشفاء لما فى الصدور ، من الجهل والشكوك ، وأنه تعالى أعلم بنفسه وبغيره من خلقه .

وعلم أن الرسول – ﷺ – أعلم الخلق بالحق ، وأفصح الخلق فى النطق

---

(١) الآية ١٦٥ من سورة البقرة .

(٢) الآيتان ٩٧ و ٩٨ من سورة الشعراء .

(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٣٥٧ .

والبيان . وأنه أنصح الخلق للخلق ، من علم ذلك تيقن أنه قد اجتمع له كمال العلم بالحق ، وكمال القدرة على بيانه ، وكمال الإرادة له ، ومع كمال العلم والقدرة والإرادة ، يجب وجود المطلوب على أكمل وجه .

فيجب أن يعلم أن كلام الله ورسوله ، أبلغ مايمكن ، وأتم مايكون ، وأعظمه بيانا لأمور الدين ، من حقوق الله وأسمائه ، وصفاته ، وغير ذلك .

فمن وقر هذا فى قلبه لم يجرأ على تحريف النصوص بمثل هذه التأويلات التى إذا تدبرها العاقل المنصف ، وجدها أبعد شئ عن كتاب الله ، وعن صفات الرسول ﷺ — وعلم أن من سلك هذا المسلك فإنما هو لنقص فى علمه ، وإيمانه بكلام الله ، وكلام رسوله — ﷺ » (١)

وقد علم المؤمنون أن محبة العباد لربهم هى حياة القلوب ، ونعيم الروح ، بل هى أعلى نعيم فى الدنيا والآخرة ، وهى فوق كل محبة تفترض ، ولا نسبة لسائر المحاب إليها ، وهى حقيقة لا إله إلا الله ، وبتمامها وكمالها تتفاوت منازل العباد عند الله فى الدنيا والآخرة ، وقد جاء فى الحديث عنه — ﷺ — أنه قال : « أحبوا الله من كل قلوبكم » (٢) يعنى لا يبقى فى القلب موضع لغير محبة الله تعالى .

وفى الصحيحين : مرفوعا : « ثلاث من كنَّ فيه ، وجد بهنَّ حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف فى النار » (٣)

وأصل التأله التعبد ، والتعبد هو آخر مراتب الحب ، يقال : عبده

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٧ ص ١٢٩ بتصرف وزيادة .
(٢) رواه ابن إسحاق فى السيرة انظر مختصرها لابن هشام جـ ٢ ص ١٤٧ .
(٣) انظر الفتح جـ ١ ص ٧٢ وجـ ١٠ ص ٤٦٣ ، ومسلم جـ ١ ص ٦٦ .

الحب وتيمه إذا ملكه ، وذلَّله لمحبوبه .

فالمحبة هى حقيقة العبودية ، ولايمكن وجود العبادة التى يريدها الله ويأمر بها عباده بدونها أبداً ، بل لايوجد أى نوع من أنواع العبادة المطلوبة شرعا بدونها ، مثل الإنابة ، والخشية ، والخوف ، والرجاء ، والحمد ، والشكر ، والصبر ، والدعاء ، والاستغاثة ، والاستعانة ، وغير ذلك من أنواع العبادة ، فمنكر المحبة فى الحقيقة منكر لجميع مقامات الإيمان والإحسان ، وهؤلاء المحرفين لمثل هذا النص فى المحبة ، يغالطون أنفسهم . وهذا الحديث يدل على حسن فهم الصحابة لمعانى القرآن ، حيث قالوا عن سورة الصمد : إنها صفة الرحمن ، ووجه ذلك : أن هذه السورة تضمنت أنواع التنزيه لله تعالى والتحميد ، ونفى النقائص كلها ، وإثبات الكمال جميعه . ولهذا عدلت ثلث القرآن - كما تقدمت الإشارة إليه .

(الكلام على معنى أحد وصمد)

فالصمدية تثبت الكمال المنافى لكل نقص وعيب ، والأحدية تثبت الانفراد بذلك الكمال ، فهى تدل على أنه - تعالى - أحد ليس من جنس شئ من المخلوقات ، « وأنه صمد ليس من مادة ، بل هو صمد لم يلد ولم يولد ، وإذا نفى عنه أن يكون مولوداً من مادة الوالد ؛ فلأن ينفى عنه أن يكون من سائر المواد أولى وأحرى ، فإن المولود من نظير مادته أكمل من المولود من مادة أخرى » (١)

وقال أيضا : « وقد فسر السلف الصمد بأنه الذى لا جوف له ، كما فسروه : بأنه السيد الذى يصمد إليه فى الحوائج ؛ والأول قول أكثر السلف ، من الصحابة ، والتابعين ، وطوائف من أهل اللغة .

والثانى : قول جمهور أهل اللغة ، وطوائف من السلف والخلف .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٧ ص ٤٥٢ .

قال الجوهرى : صمده يصمده صمداً إذا قصده ، والصمد بالتحريك : السيد لأنه يصمد إليه فى الحوائج [١]

وقوله – تعالى – : (قل هو الله أحد ، الله الصمد) أدخل اللام فى « الصمد » ولم يدخلها فى « أحد » لأنه ليس فى الموجودات مايسمى أحداً فى الإثبات مفرداً غير مضاف إلا الله تعالى ، بخلاف النفى ، وما فى معناه كالشرط ، والاستفهام .

قال أهل اللغة : تقول : لا أحد فى الدار ، ولا تقول : فيها أحد .

وأما « الصمد » فأدخل عليه الألف واللام ليبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ماسواه ، فإنه المستوجب لغايته على الكمال .

فالمخلوق وإن كان قد يطلق عليه بأنه صمد ، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه فإنه يقبل التجزئة ، وهو محتاج إلى غيره ، فإن كل ما سوى الله فقير محتاج إلى الله ، وليس أحد يصمد كل شئ إليه [٢] ، وهو لا يصمد إلى شئ إلا الله تعالى . وليس فى المخلوقات شئ إلا ويقبل التجزئة ، ويتفرق ، وينفصل بعضه من بعض ؛ والله سبحانه هو الصمد ، الذى لايجوز عليه شئ من ذلك ، بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة ولازمة ، لايمكن عدمها بوجه من الوجوه ، كما لايمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه ، فهو أحد لايماثله شئ من الأشياء بوجه من الوجوه » [٣] .

فقوله تعالى : « أحد » مع قوله : « لم يكن له كفواً أحد » ينفى المماثلة ، والمشاركة .

---

(١) انظر الصحاح جـ ٢ ص ٤٩٩ وتمامه : « قال :

علوته بحسام ثم قلت له : خذها حذيف فأنت السيد الصمد

وبيت مصمد – بالتشديد – أى مقصود » .

(٢) الصمود هنا هو الطلب والقصد والتوجه إلى المصمود إليه بالحاجة .

(٣) مجموع الفتاوى جـ ١٧ ص ٢٣٧ ملخصا .

وقوله تعالى : « الصمد » يتضمن إثبات جميع صفات الكمال . فالنقائص منتفية عن الله تعالى ، وكل مايختص به المخلوق فهو من النقائص التى تنزه ربنا عنها جل وعلا .

وأما ما يوصف به العبد من بعض الكمالات مثل العلم ، والقدرة ، والرحمة ، ونحو ذلك ، فالذى يثبت لله تعالى من هذه المعانى يكون على وجه لايقاربه فيه أحد من الخلق ، فضلا عن أن يماثله فيه .

وقد ثبت أن ماخلقه الله فى الجنة من المآكل وغيرها ، لايماثل ماخلقه فى الدنيا ، وإن اتفقا فى الاسم ، مع أن كليهما مخلوق ، فالخالق تعالى وتقدس أبعد عن مماثلة المخلوقات .

والمعنى الصحيح الذى هو نفى المثل ، والشريك ، والند ، قد دل عليه قوله سبحانه (لم يكن له كفواً أحد) وقوله : (قل هو الله أحد) وقوله تعالى : (هل تعلم له سميا) [1] وأمثال ذلك ، فالمعانى الصحيحة لصفات الله نفياً وإثباتا ، ثابتة بالكتاب والسنة والعقل يدل على ذلك .

وقول بعض أهل الكلام : الأحد ، والصمد ، هو الذى لاينقسم ، ولا يتفرق ، أو ليس بمركب ، ونحو ذلك من العبارات ، إن عنى بها أنه لايقبل التفرق والانقسام فهو حق ، وإن عنى بها أنه لا يشار إليه بحال ، فهذا يمتنع وجوده ، وإنما يقدر وجوده فى الذهن تقديراً .

وقد علمنا أن العرب حين أطلقوا لفظ الواحد ، والأحد نفياً ، وإثباتاً لم يريدوا هذا المعنى .

ولهذا لما قال الذين جادلوا الإمام أحمد ، فى نفى الصفات – مستدلين باسم الواحد – : لا تكونون موحدين أبداً حتى تقولوا : كان الله ولا شئ .

---

(١) جزء من الآية ٦٥ سورة مريم .

قال أحمد : قلنا نحن نقول : كان الله ولا شيء ، ولكن إذا قلنا : إن الله لم يزل بصفاته كلها ، أليس إنما نصف إلهاً واحداً ؟ .

وضربنا لهم فى ذلك مثلا ، فقلنا : أخبرونا عن هذه النخلة ، أليس لها جذع ، وكرب ، وليف ، وسعف ، وخوص ، وجمار ؟ . واسمها شيء واحد ؟ سميت نخلة بجميع صفاتها ؟ . فكذلك الله – وله المثل الأعلى بجميع صفاته إلٰه واحد .

ولا نقول : إنه كان فى وقت من الأوقات ولا قدرة له ، حتى خلق لنفسه قدرة ، أو كان ولا علم له ، حتى خلق له علما ، ولكن نقول : لم يزل عالما ، قادرا ، مالكا ، لا متى ، ولا كيف » انتهى (١)

وقال أيضا : « ودل قوله تعالى : (قل هو الله أحد الله الصمد) على أنه لم يلد ، ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ولهذا فسر الصمد بأنه الذى لم يلد ، ولم يولد .

فإن الصمد : هو الذى لاجوف له ، ولا أحشاء ، فلا يدخل فيه شيء ؛ فلا يأكل ولا يشرب ، كما قال تعالى : (وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ) (٢) وفى قراءة بفتح الياء الأخيرة .

وفسر بعض السلف « الصمد » بأنه الذى لايخرج منه شيء ، وليس مرادهم أنه لايتكلم فإنه يقال فى الكلام : خرج منه ، كما فى الحديث : « ما تقرب

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٧ ص ٤٤٩ ، وانظر رد الإمام أحمد فى مجموع عقائد السلف ص ٩١ .

(٢) الآية ١٤ من سورة الأنعام .

العباد إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه » انتهى [١]

ودل الحديث على استحباب قراءة الآيات التى تشتمل على صفات الله تعالى ، خلافا للمبتدعة الذين يكرهون قراءة آيات الصفات عند العامة ، وفيه التصريح بأن الله يحب ذلك ويحب من يحبه .

★ ★ ★

---

(١) المصدر السابق والحديث خرجه الترمذى جـ ٤ ص ٢٤٩ ، وعبد الله بن الإمام أحمد فى السنة ص ٢٠ .



« باب قول الله تعالى : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ماً تدعوا فله الأسماء الحسنى) [١]

* * *

قال الطبرى – رحمه الله تعالى – « يقول تعالى ذكره لنبيه : قل يامحمد لمشركى قومك المنكرين دعاء الرحمن (أدعو الله) أيها القوم ، (أو ادعوا الرحمن ، أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) بأى أسمائه جل جلاله تدعون ربكم فإنما تدعون واحدا ، وله الأسماء الحسنى وإنما قيل ذلك له ﷺ – لأن المشركين فيما ذكر ، سمعوا النبى – ﷺ – يدعو ربه : ياربنا الله ، وياربنا الرحمن ، فظنوا أنه يدعو إلهين ، فأنزل الله الآية ، ثم روى ذلك عن ابن عباس ، وعن مكحول [٢] قال ابن حجر « كأنه لمح فى هذه الترجمة بهذه الآية إلى ماورد فى سبب نزولها ، وهو ما أخرجه ابن مردويه بسند ضعيف ، عن ابن عباس : أن المشركين سمعوا رسول الله ﷺ يدعو ياالله يارحمن ، فقالوا : كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد ، وهو يدعو إلهين . فنزلت ، وأخرج عن عائشة بسند آخر نحوه » [٣] .

قلت : يظهر لى أن مقصود البخارى – رحمه الله – بالترجمة بهذه الآية بيان اختصاص الله – تبارك وتعالى – بالأسماء الحسنى ، وأن أسمائه كاملة المعانى ، لايلحقها نقص ، أو عيب ، وأن اتصاف المخلوق ببعض مايتصف الرب تعالى به من المعانى ، لا يلزم منه نقص أو عيب فى أسمائه ، وصفاته – تعالى – لأنها حسنى

---

(١) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

(٢) تفسير الطبرى جـ ١٥ ص ١٨٢

(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٣٦٠ .

كاملة تناسب عظمته ، وكبرياءه ، فلا يتوهم أن فى ذلك تشبيها كما يزعمه أهل البدع الذين ظنوا أن مجرد المشاركة فى الاسم ، أو المعانى يفيد التشبيه . فنفوا صفات الله تعالى من أجل ذلك .

وأما المخلوق فأسماؤه وصفاته ليست حسنى ، ولا كاملة فهى تناسب ضعفه وعجزه ، والذى يوضح مراد البخارى بذلك الحديثان اللذان ذكرهما « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » وفى الآخر « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » ، فإذا كان المخلوق يرحم ، ويسمى رحيما ، والله تعالى يرحم ويسمى رحيما ، فليس مايخص الله تعالى من هذا الاسم أو الفعل مماثلا أو مقاربا لما يخص المخلوق ، فلا يجوز تأويل أو نفى رحمة الله تعالى وغيرها من صفاته ، من أجل توهم أن مجرد المشاركة فى المعنى يلزم منها التشبيه ، والله أعلم .

قال ابن القيم : « أسماؤه – تعالى – كلها مدح وثناء وتمجيد ، ولذلك كانت حسنى وصفاته كلها صفات كمال » [1] .

وماذكره بعض الشراح : من أن البخارى ذكر هذا الباب ليكون كالأصل لما بعده من الأبواب ، ومابعده كالفرع عليه ، وقال : إنه قصد الاسمين المذكورين فى الآية وهما « الله » ، و « الرحمن » ، لأنهما خاصان بالله تعالى .

فليس بظاهر ، وهذان الاسمان جاء ذكرهما كثيرا فيما بعد ، والظاهر لى – والله أعلم – ما أشرت إليه فيما سبق قبل قليل ، يوضح ذلك ماجاء فى سبب النزول كما قال الحافظ ، والرحمن يأتى تابعا « لله » كغيره من الأسماء الحسنى .

فهو أراد بهذا الباب مادلت عليه الآيات الأخرى كقوله – تعالى –: « هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى » [2] وقوله : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » [3] وقوله « الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » [4] .

---

(١) مدارج السالكين جـ ١ ص ١٢٥ .
(٢) الآية ٢٤ من سورة الحشر .
(٣) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ٨ من سورة طه .

٦ ــ قال : « حدثنا محمد ، أخبرنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن زيد ابن وهب ، وأبى ظبيان ، عن جرير بن عبد الله ، قال : قال رسول الله – ﷺ – : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس »

* * *

جرير هو أبو عمرو ، جرير بن عبد الله بن جابر البجلى ، الأحمسى ، وأحمس بطن من بجيلة ، وبجيلة وخثعم أخوان ، وهما من قحطان ، وقيل : من ربيعة بن نزار .

قدم جرير على النبى ﷺ فى آخر حياته ، فبشَّر به أصحابه ، وبسط له رداءه .

وكان – رضى الله عنه – صادق الإيمان ، صادعا بالحق ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وكان يقول كما فى الصحيحين ، وغيرهما « بايعت النبى ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم » (١)

وبعثه النبى – ﷺ – لهدم ذى الخلصة ، وهو صنم كبير كان لدوس ، فهدمه .

ودعا له النبى ﷺ ، ولخيل أحمس ورجالها .

وكان حسن الوجه حيث كان يقال له : يوسف هذه الأمة ، وكان طويلا إذا ركب الفرس تكاد تخط رجلاه فى الأرض .

نزل الكوفة ، فأرسله علي رسولا إلى معاوية ، ثم اعتزل الحروب بينهما وتحول إلى جزيرة ابن عمر ، توفى بقرقيسيا سنة إحدى وخمسين ، وقيل بعدها رضى

---

(١) انظر الفتح جـ ١ ص ١٣٧ وغيره ، ومسلم جـ ١ ص ٧٥ فى الإيمان رقم ٥٦

الله عنه . (١)

« قوله : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » فى رواية لمسلم « من لا يرحم الناس ، لا يرحمه الله »

وعند الطبرانى « من لا يرحم من فى الأرض ، لا يرحمه من فى السماء » ورواته ثقات .

ولأبى داود ، والترمذى ، والحاكم « ارحموا من فى الأرض ، يرحمكم من فى السماء » .

وفى الطبرى « من لا يرحم المسلمين لم يرحمه الله » (٢) .

قلت : ومعنى هذه الروايات واحد ، ففى هذه الأحاديث وأمثالها كثير ، دليل على أن الرحمة صفة تقوم بمن يشاء الله من عباده ، الذين يريد جل وعلا رحمتهم ، وتتخلف عن الأشقياء ، الذين لا يرحمهم الله تعالى .

وقد روى البخارى فى الأدب المفرد ، من حديث أبى هريرة ، أن النبى ﷺ قال : « لا تنزع الرحمة إلا من شقى » (٣) .

وقد علم من دين الرسل ، وكتب الله تعالى أن الله متصف بالرحمة ، وليست رحمته ثوابه وجزاؤه ، كما يقوله أهل التحريف المؤولة ، من الأشعرية وغيرهم.

---

(١) انظر أسد الغابة جـ ١ ص ٣٣٣ ، والاستيعاب جـ ١ ص ٢٣٦ ، والإصابة جـ ١ ص ٤٧٥ ، وسير أعلام النبلاء جـ ٢ ص ٥٣٠ .

(٢) الفتح جـ ١٠ ص ٤٤٠ .

(٣) انظر الأدب المفرد ص ١٣٦ ، قال محققه أخرجه الترمذى ٢٥ كتاب البر والصلة ١٦ باب ما جاء فى رحمة المسلمين وأبو داود ، كتاب الأدب ٥٨ باب فى الرحمة ، وأحمد فى المسند رقم ٧٩٨٨ ، ٩٧٠٠ ، ٩٩٤١ ، ٩٩٤٦ ، ١٠٦٤ وسنده صحيح وغيرهم .

وقد قال الله تعالى : (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) [١]

فعطف الرحمة على الفضل يدل على المغايرة ، وفضل الله – تعالى – الذى هو الثواب والجزاء مخلوق ، ليس من صفات الله – تعالى – القائمة به .

وإذا كان الإجماع حاصل بين الأمة ، بأن الله تبارك وتعالى ليس كمثله شئ فى ذاته المقدسة ، فيجب أن تكون صفاته ليست كصفات خلقه ، لأن الصفة تتبع الموصوف ، فصفات الله – تعالى – من الرحمة ، والرضا ، والغضب وغير ذلك . تليق بعظمته ، وتناسبه ، وصفة المخلوق من ذلك وغيره تليق بضعفه ، وعجزه وفقره .

وإن من الضلال ، والبعد عن كتاب الله ، وهدى رسوله ، وسبيل المؤمنين حقا ، نفى صفات الله – تعالى – وتعطيله منها اعتلالا بأنها تفيد التشبيه . لأن المخلوق يوصف بتلك الصفات ، وهل هذا إلا مثل من يقول : أنا لا أقر بوجود الله تعالى لأن المخلوق موجود ؟ .

وقد تقدمت الإشارة إلى أن مجرد الاشتراك فى الاسم أو فى المعانى العامة لا يقتضى تشبيها ، وسيأتى لذلك مزيد إن شاء الله تعالى .

* * *

---

(١) الآية ٥٨ من سورة يونس .

٧ ـــ قال : حدثنا أبو النعمان ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عاصم الأحول ، عن أبي عثمان النهدى ، عن أُسامة بن زيد ، قال : كنا عند النبى ﷺ – إذ جاءه رسول إحدى بناته تدعوه إلى ابنها فى الموت ، فقال النبى – ﷺ : « ارجع فأخبرها ، أن لله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل شئ عنده بأجل مسمى ، فمرها فلتصبر ، ولتحتسب . فأعادت إليه الرسول ، أنها أقسمت لتأتينها ، فقام النبى – ﷺ – وقام معه سعد ابن عبادة ، ومعاذ بن جبل ، فدفع الصبى إليه ، ونفسه تقعقع كأنها فى شن ، ففاضت عيناه ، فقال له سعد : يارسول الله ما هذا ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء »

* * *

أسامة بن زيد بن حارثة بن سراحيل ، الكلبى ، حِبّ رسول الله – ﷺ – وابن حبه ومولاه ، وابن مولاته أم أيمن .

أمَّره رسول الله – ﷺ – على جيش فيه كبار المهاجرين ، والأنصار ، منهم أبو بكر وعمر ، وقال فيه ﷺ : « وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة » (١)

وفى البخارى ، وغيره أنه ﷺ قال له ، وللحسن : « اللهم إنى أحبهما ، فأحبهما » (٢)

وزوجه فاطمة بنت قيس ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، وتوفى رسول الله – ﷺ – وهو ابن تسع عشرة سنة ، وفضَّله عمر رضى الله عنهما فى العطاء على

---

(١) أخرجه البخارى فى مواضع من الصحيح ، انظر الفتح جـ ٧ ص ٤٩٨ ، ٨٦ و جـ ١١ ص ٥٢١ .

(٢) انظر الفتح جـ ٧ ص ٨٨ ، ٩٤ وجـ ١٠ ص ٤٣٤ .

ابنه عبد الله ، وحين راجعه قال له : إنه أحبُّ إلى رسول الله - ﷺ منك .

واعتزل الحروب بين أهل الشام وأهل العراق ، ومات بوادى القرى سنة أربع وخمسين ، وقيل غير ذلك [١] .

قوله : « إحدى بناته » قال الحافظ : هى زينب ، كما جاء فى مصنف ابن أبى شيبة » [٢]

قلت : يشير إلى ما رواه ابن أبى شيبة بالسند المذكور هنا . قال : « دمعت عين رسول الله ﷺ حين أتى بابنة زينب ، ونفسها تقعقع كأنها فى شن ، قال : فبكى قال : فقال له رجل : تبكى وقد نهيت عن البكاء » فذكر بقية الحديث كما ذكره البخارى [٣]

ثم قال الحافظ : « ووجدت فى الأنساب للبلاذرى ، أن عبد الله بن عثمان ابن عفان من رقية بنت النبى - ﷺ - لما مات ، وضعه النبى ﷺ - فى حجره وقال : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » ، وفى مسند البزار ، عن أبى هريرة ، قال : ثقل ابن لفاطمة ، فبعثت إلى النبى ﷺ . فذكر نحو الحديث المذكور هنا .

فعلى هذا ، فالابن هو محسن بن علي بن أبى طالب ، وقد اتفق أهل العلم بالأخبار أنه مات صغيرا ، فى حياة النبى - ﷺ - فهذا أولى أن يفسر به الابن لكن الصواب أن المرسلة ؛ زينب ، وأن الولد صبية ، كما ثبت فى مسند أحمد بالسند المذكور ، ولفظه : « أتى النبى - ﷺ بأمامة بنت زينب ، ونفسها تقعقع

---

(١) انظر الإصابة ص ١ ص ٤٩ تحقيق البجاوى ، وسير أعلام النبلاء جـ ٢ ص ٤٩٦ وغيرها .

(٢) انظر الفتح جـ ٣ ص ١٥٦ .

(٣) انظر مصنف ابن أبى شيبة جـ ٣ ص ٣٩٢ .

كأنها فى شن » وذكر بقية الحديث [١] . ومثله فى معجم الطبرانى ، وقد شفاها الله تعالى - فعاشت زمنا بعد وفاة رسول الله - ﷺ - وتزوجها على بن أبى طالب ، بعد وفاة فاطمة ، وقتل وهى عنده رضى الله عنهم جميعا » [٢] .

قوله : « إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى » . قال النووى - رحمه الله - : هذا أحسن مايعزى به . ثم قال : « وهذا الحديث من أعظم قواعد الإسلام ، لاشتماله على مهمات كثيرة من أصول الدين ، وفروعه ، والآداب ، والصبر على النوازل كلها ، والهموم ، والأسقام وغير ذلك ، ومعنى قوله : « إن لله ما أخذ » أن العالم كله ملك لله تعالى ، فلم يأخذ ماهو لكم ، بل أخذ ماهو له عندكم ، فى معنى العارية .

ومعنى : « وله ما أعطى » أن ما وهبه لكم ليس خارجا عن ملكه ، بل هو له يفعل فيه مايشاء ، وكل شئ عنده بأجل مسمى ، فلا تجزعوا فإن من قُبض فقد انقضى أجله المسمى ، فمحال تأخره أو تقدمه عنه ، فاعلموا ذلك ، واصبروا ، واحتسبوا مانزل بكم » [٣]

وقوله : « وكل شئ عنده بأجل مسمى » من فقد محبوب ، أو حصول مرغوب ، وتصرف فى هذا الكون الذى هو بأسره ملك لله يفعل فيه ما يريد ، والأجل المسمى : هو المقدر بوقت معين لايتأخر عنه ، ولا يتقدم .

وفى هذه الجملة من الحديث دليل واضح على أن الله تعالى قدر كل شئ وكتبه ، وعلم وقته وحاله ، وأن الحوادث كلها تقع على تقدير دقيق ، لا تتأخر عن ذلك لحظة ولا تتقدم ، وهذا أصل عظيم من أصول الدين الإسلامى ، يجب

---

(١) انظر المسند جـ ٥ ص ٢٠٤ .
(٢) الفتح جـ ٣ ص ١٥٦ .
(٣) انظر الأذكار ص ٢١٢ - ٢١٣ .

أن يعلم . والإيمان به من أركان الدين لابد منه ، والأدلة عليه من الكتاب والسنة كثيرة .

قوله : « فلتصبر ، ولتحتسب » الصبر : حبس النفس عن الجزع ، والتسخط ، وحبس الجوارح عما نهى عنه الشرع من شق الثياب ، وخمش الوجوه ولطمها ، والكلام الذى ينافى التسليم لرب العالمين ، وما أشبه ذلك مما يدل على تسخط الأقدار ، والاعتراض على القضاء الذى قضاه الله قبل وجود الخلق .

والاحتساب : هو نية طلب الثواب من الله على الإيمان بالقدر ، والتسليم لأمر الله تعالى ، والإيمان بوعد الله تعالى ، فإنه وعد على الصبر الجزاء .

قال ابن القيم : « حقيقة الصبر : أنه خُلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل مالا يحسن ، ولا يجمل » (١)

قوله : « فأعادت إليه الرسول ، أنها أقسمت لتأتينها » جاء فى بعض الروايات أنها راجعته ثلاث مرات ، وإنما ذهب إليها بعد الثالثة .

وإلحاحها لما علمت من أن حضور النبى ﷺ فيه الخير والبركة ، وأنه يتوقع أن يرفع الله ببركة دعائه وحضوره ماهى فيه وابنتها من ألم وتوجع . وقد حقق الله تعالى أملها ورغبتها ، فشفا مريضها كما سبق .

ولا يعترض بهذا على أن القدر لا بد من وقوعه ، فكيف يتخلف من أجل الدعاء أو غيره ، فإن الله تعالى جعل لكل شئ سبباً ، ورتب المسببات على أسبابها فقدَّر أن هذا الشئ يقع فى وقت معين إذا تخلف السبب من دعاء أو غيره ، وإذا وجد ، هذا السبب مثلا فإنه يتأخر إلى وقت آخر ، أى أن الله تعالى قد يجعل لوقوع هذا الحادث أجلين ، أجل إذا لم يفعل السبب – مثل الدعاء والعمل الصالح – وأجل آخر إذا فعل ذلك ، وقد علم الله أيهما يقع ، وهو جل

---

(١) عدة الصابرين ص ١٢ .

وعلا : يبتلى خلقه بالمصائب ، تأديبا لهم ، وتكفيراً لذنوبهم ، رحمة منه بهم .

قوله : « ونفسه تقعقع كأنها فى شن » القعقعة صوت الشئ اليابس الجاف الخفيف إذا حرك . يعنى بذلك صوت نفسه عند صعوده ونزوله فى صدره من شدة الألم .

والشن : بفتح الشين وتشديد النون ، القربة الخلقة اليابسة .

قوله : « ففاضت عيناه » أى ذرفت عينا رسول الله – ﷺ – بالدموع رحمة لهذا الضعيف ، وتوجعا لما نزل به من الألم الشديد .

« فقال سعد : يارسول الله ماهذا » كان ﷺ ينهى عن البكاء على الميت ، فظن سعد – رضى الله عنه وغيره أن النهى يدخل فيه دمع العين ، وحزن القلب ، فبيَّن لهم النبى ﷺ أن النهى عنه هو التسخط من المقدور ، ودعوى الجاهلية من العويل والنوح ، وتعداد محاسن الميت ، وما أشبه ذلك من لطم الوجه وشق ونحوه ، مما يدل على السخط من الواقع ، وعدم الصبر .

وأما دمع العين وحزن القلب ، فهو من الرحمة للضعفاء التى هى سبب رحمة أرحم الراحمين جل وعلا .

قوله : « هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده » أى الدمع الذى رأيته من أثر الرحمة التى جعلها الله تعالى فى قلوب عباده ، الذين أراد تعالى رحمتهم ، لأن الجزاء من جنس العمل ، والإضافة هنا خاصة أى الذين عبدوه باتباع أمره ، واجتناب نهيه .

قوله : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » أى رحمة الله تعالى للمحسنين إلى عباده برحمتهم ، والرحماء من صيغ المبالغة ، ولهذا قال بعض الشراح : « المعنى أن الله تعالى لا يرحم من عباده إلا كثير الرحمة ، فالرحماء جمع رحيم ، وهو من صيغ المبالغة » (١)

---

(١) المنهل العذب المورود جـ ٨ ص ٢٧٧ .

قلت : هذا الحصر لاينبغى ، وإن كان التركيب فى الحديث يفيده ولكن فيما يظهر لى – والله أعلم – أنه غير مقصود للأدلة على أن رحمة الله وسعت كل شئ ، وإنما المقصود هنا رحمة خاصة بمن هذه صفتهم .

وهذا القدر من الحديث هو محل الشاهد الذى سيق الحديث من أجله ، مع قوله « هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده » وذلك أن القدر المشترك بين أسماء الله تعالى وصفاته ، وبين أسماء المخلوقين وصفاتهم فى اللفظ والمعنى لا يقتضى المشابهة ، لأن أسماء الله تعالى حسنى ، لا يلحقها نقص ، ولا عيب . بخلاف أسماء المخلوقين – وإن كان منها الحسن – فليست بحسنى ، ولأن الصفات تابعة للموصوف ، وكذلك الأسماء ، فالرحمٰن اسمه تعالى . والرحمة صفته ، والمخلوق يتصف بالرحمة التى يرحم بها ، وهى تابعة له فى الخلق والمعنى ، فهى مخلوقة فيه ، لأنه مخلوق فصفاته مخلوقة ، وهو ضعيف فقير محتاج ، وصفاته تناسبه فى ذلك مع أنه يسمى رحيم ، وراحم ، والله تعالى موصوف بالرحمة ويسمى رحيم ، ولا يكون فى ذلك تشبيه ، لأن المخلوق اسمه وصفته يختص به ، والله تعالى اسمه وصفته يختص به ، فرحمة الله صفة له عليا صفة كمال ، وسالمة من كل نقص أو عيب يمكن أن يلحق المخلوق ، فليست رحمته تعالى عن ضعف أو عجز ، بل عن كمال فضله وإحسانه . ولا يجوز أن تؤول بالتواب أو العطى ، أو إرادة ذلك وما أشبهه مما يقوله أهل التأويل . كما ذكر الحافظ ابن حجر عن شراح البخارى . وغيرهم ، كقول ابن بطال : « إن المراد برحمته إرادته تقع لمن سبق فى علمه أنه ينفعه ، وأما الرحمة التى جعلها فى قلوب عباده ، فهى من صفات الفعل [1] وصفها بأنه خلقها فى قلوب عباده وهى رقة على المرحوم ، وهو سبحانه منزه عن

---

(١) صفات الفعل عند الأشعرية : ما فعله تعالى منفصلا عنه – يعنى مخلوقاته التى وجدت بصفة الخلق ، وليس هناك اشتباه بين ما يسميه ابن بطال صفات فعل ، وبين صفات الله حتى يلزم ما ذكره .

الوصف بذلك ، فتتأول بما يليق به » [١] .

وذكر من هذا النوع أشياء تخالف نصوص كتاب الله ، ونصوص سنة رسوله ﷺ – كما هى عادته ، لأنه عفا الله عنا وعنه ، على المذهب الأشعرى الذى يعتمد على تأويل صفات رب العالمين – وإن كان أحيانا يذكر مذهب السلف فيما ينقله ، ولكنه لايتبناه ، بل يخلط بينه وبين ما يخالفه .

وهذا المذهب – يعنى مذهب الأشعرية الذى عليه أكثر المتأخرين – مخالف لما عليه رسل الله صلى الله عليهم وسلم ، ومخالف لكتبه ، ولما عليه أتباع الرسل ، كما اعترف بذلك بعض كبار علماء هذا المذهب ، كالفخر الرازى ، والجوينى ، والغزالى ، والشهرستانى ، وغيرهم كما يأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

وهكذا تبرر الأشعرية تأويل صفات رب العالمين بما تعرفه من صفات المخلوقين . فكأنهم لم يعرفوا من الرحمة إلا أنها رقة على المرحوم ، ولا من الغضب إلا أنه غليان دم القلب ثم طلب الانتقام ، وما أشبه ذلك ، ولهذا لجأوا إلى التحريف الذى يسمونه تأويلا ، وجعلوه واجبا ضروريا ، حتى لا يلزم التشبيه ، فيسلم المسلم من التشبيه والتجسيم على مازعموا .

زعموا هذا مع أنهم ينكرون على الفلاسفة تأويلهم نصوص المعاد ، وعلى الباطنية تأويلهم الشرائع أشد الإنكار ، فما الذى سوَّغ لهم تأويل نصوص الصفات مع كثرتها ووضوحها ؟ وما ادعوه أن العقل يوجب ذلك بإمكان كل مبطل أن يدعيه .

فليس هناك عاصم من الضلال ، إلا الوقوف مع نصوص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك فى المقدمة .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٥٨ .

قال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن على بن المرتضى اليمانى – رحمه الله تعالى : « الأمر الثانى وهو النقص فى الدين ، برد النصوص والظواهر ، ورد حقائقها إلى المجاز ، من غير حجة قاطعة ، تدل على ثبوت الموجب للتأويل ، إلا مجرد التقليد لبعض أهل الكلام فى قواعد لم يتفقوا عليها ، وأفحش ذلك مذهب القرامطة الباطنية فى تأويل الأسماء الحسنى كلها ، ونفيها عن الله تعالى ، على سبيل التنزيه له عنها ، وتحقيق التوحيد بذلك ، ودعوى أن إطلاقها يقتضى التشبيه ، حتى قالوا : لا يقال إنه موجود ، ولا معدوم .

فكما أن كل مسلم يعلم أن هذا كفر صريح ، فكذلك المحدث الذى طالت مطالعته للآثار ، قد يعلم أن تأويل بعض المتكلمين مثل ذلك .

ومن الضرورى ورود أسماء الله الحسنى فى كتابه على سبيل التمدح بها والثناء العظيم عليه بها ، ألا ترى – مثلا أن الرحمن الرحيم متلُوَّان فى جميع الصلوات مذكوران فى أكثر محافل المسلمين ، مجمعين على أنهما أحسن الثناء على الله تعالى متقربين إلى الله تعالى بمدحه بهما .

وكرر تعالى التمدح بالرحمة فى كتابه أكثر من خمسمائة ، مرة باسمه الرحمن أكثر من مائة وستين مرة ، وباسمه الرحيم أكثر من مائتى مرة ، وجمعهما مائة وستين مرة . وجاء الرحيم مقترنا مع التواب مراراً ، ومراراً مع الرؤوف ، والرأفة أشد الرحمة . ومرارا مع الغفور ، وهى كثيرة ، عرفت منها سبعة وستين موضعا .

وقد فطر الله العقول على معرفة رحمة الله ، وسعة علمه ، وكمال قدرته .

فما هو المانع من إثبات صفة الرحمة ونحوها مما أثبته الله ورسوله ، مع نفى النقائص المتعلقة بصفات المخلوقين فى حياتهم ، وكذلك كل صفة يتصف بها الرب ، تعالى ويوصف بها العبد . فإنه جل وعلا يوصف بها على أكمل وجه ، خالية عن جميع النقائص ، والعبد يوصف بها على ما يناسبه ، من نقص وضعف ، وبهذا فسر أهل السنة نفى التشبيه ، ولم يفسروه بنفى الصفات كما فعل المعطلة .

ومما يدل على بطلان التأويل ، كون المعتزلة يسخرون من تأويل الأشعرية للحكيم والأشعرية تسخر من تأويل بعض المعتزلة للسميع البصير ، وأهل السنة يسخرون من تأويل الفريقين للرحمن الرحيم ، وما أشبههما ، والكل يسخر من تأويل القرامطة . فيجب إثبات ما وصف الله به ذاته الكريمة ، من غير تأويل ، ولا تعطيل .

ولا يجوز القول بأن ظاهر هذه الأسماء كفر ، وضلال ، وأن الصحابة والسلف الصالح لم يفهموا ذلك ، أو أنهم فهموه ولم يقوموا بالواجب من نصح المسلمين وبيان التأويل الحق ، لأمرين :

الأول قاطع ضرورى ، وهو أن العادة توجب أن ما كان كذلك أن يظهر التحذير منه ، من رسول الله - ﷺ - ومن أصحابه ، ويتواتر أعظم من تحذيرهم من الدجال الكذاب ، ولا يجوز مع كمال عقولهم ، وأديانهم أن يتركوا صبيانهم ونساءهم ، وعامتهم يسمعون ما ظاهره كفر ، منسوباً إلى الله - تعالى - ورسوله ويسكنون عليه ، مع بلادة الأكثرين .

ولو تركوا بيان ذلك ، ثقة بنظر العقول الدقيق ، لتركوا التحذير من فتنة الدجال ، فإن بطلان ربوبيته أظهر فى العقول من ذلك ، ألا ترى أن المتكلمين لما اعتقدوا قبح هذه الظواهر ، تواتر عنهم التحذير عنها ، وتأويلها ، فصنفوا فى ذلك ، وأيقظوا الغافلين ، وعلموا الجاهلين ، وكفروا المخالفين ، وأشاعوا ذلك بين المسلمين ، بل بين العالمين ، فكان أحق منهم بذلك سيد المرسلين وقدماء السابقين ، وأنصار الدين ، لو كان ذلك حقا .

الثانى : أنه ثبت تحريم الزيادة فى الدين ، فلا يصح سكوت الشرع عن النص على ما يحتاج إليه ، من مهمات الدين ، فالإسلام متبع ، لا مخترع ، ولذلك كفر من أنكر شيئا من أركان الدين ، لأنها معلومة ضرورة ، فأولى وأحرى أن لا يجىء الشرع بالباطل منطوقا متكرراً من غير تنبيه على ذلك ، لاسيما إذا كان ماسموه باطلا ، هو المعروف فى جميع كتب الله ، ولم يأت ما يعارضه من طريق شرعى ، ولا عقلى ، حتى يجب التأويل .

وكثير منهم يزعم أنه ما جاء التصريح بالحق فى آية واحدة تكون هى المحكمة التى رد إليها جميع المتشابه ، والله تعالى ذكر أنه أنزل فى كتابه آيات محكمات ، ترد إليها المتشابهات ، ولم يذكر أن جميع كتابه متشابه ، فبطل ما يقولون .

وقد اعترف الرازى – فى كتابه الأربعين [(١)] – وهو من أكبر خصوم أهل السنة : أن جميع الكتب السماوية جاءت بصفات الله – تعالى – ولم ينص الله – تعالى – فى آية واحدة على أنه منزه عن الوصف بالرحمة ، والحلم والحكمة ، وما أشبه ذلك ، والأمر ظاهر وإن لم يعترف به ، وهذه الكتب السماوية موجودة .

وهبك تقول : هذا الصبح ليل   أيعمى العالمون عن الضياء » [(٢)]

قلت : دعوى المجاز فى اسمه تعالى « الرحمٰن » وغيره من الأسماء الحسنى – – من أبطل الدعاوى ، لأن ذلك يتضمن إنكار حقيقة صفة الرحمة ، وهو أعظم من إنكار الكفار لاسمه تعالى « الرحمٰن » ، كما ذكر الله تعالى عنهم ذلك ، قال تعالى : (كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن ، قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب) [(٣)]

وقال تعالى : (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا : وما الرحمن) [(٤)]

فهؤلاء الذين كفروا بالرحمن ، وأنكروه ، لم يكفروا بذاته تعالى ، وربوبيته ولم ينكروا مايدعيه المؤولة – أن معنى اسمه الرحمٰن هو الإحسان والإنعام إلى خلقه ،

---

(١) كتاب الأربعين فى أصول الدين فى علم الكلام .

(٢) إيثار الحق على الخلق ، بتلخيص وتصرف ص ١٢٩ – ١٣٩ .

(٣) الآية ٣٠ من سورة الرعد .

(٤) الآية ٦٠ من سورة الفرقان .

وإنما أنكروا اسمه تعالى « الرحمٰن » أن يسمى به .

وإنكار صفة الرحمة أعظم من إنكار الاسم ، وهو من أعظم الإلحاد فى أسماءه تعالى ، لأن وضع الاسم مقصود به الدلالة على المعنى المراد منه ، وهو الرحمة كما هو معلوم فى جميع أسماءه تعالى .

وتعليلهم لنفى الرحمة عن الله تعالى بأنها رقة القلب التى تحمل على الميل إلى المرحوم .

جوابه : أن هذه رحمة المخلوق ، ووصفه ، وأما رب العالمين ، فليس كمثله شئ فى ذاته وصفاته ، فليست رحمته تعالى من جنس رحمة خلقه جل وعلا . ومما يعجب منه أن أهل التأويل [١] يجعلون الرحمة بالنسبة للمخلوق حقيقة ، وبالنسبة لله تعالى مجازا ، فكيف تكون رحمة أرحم الراحمين التى وسعت كل شئ مجازا ، ورحمة المخلوق الضعيف حقيقة ؟ .

وكل العقلاء يدركون آثار رحمة الله تعالى فى الخلق ، كما يدركون آثار ربوبيته أو أعظم ، وهذا من أظهر الأشياء وأوضحها .

ومعلوم أن الأسماء التى تسمى الرب – تعالى بها وهى كلها حسنى – لها معانٍ يستدل بها عليها ، لأنها مشتقة من تلك المعانى ، وهذه المعانى هى الصفات ، وليست أسماءه تعالى . مجرد إعلام ، فالرحمٰن يدل على الرحمة ، والعليم يدل على العلم ، والحكيم يدل على الحكمة، وهكذا جميع أسماءه تعالى .

★ ★ ★

---

(١) أقصد الذين يؤولون الصفات كما هى طريقة أكثر الأشعرية .

قال : باب قول الله تعالى : (أنا الرزاق ذو القوة المتين)

٨ ـــ « حدثنا عبدان ، عن أبي حمزة ، عن الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، عن أبي عبد الرحمن السلمى ، عن أبي موسى الأشعرى ، قال : قال النبى – ﷺ – : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، يدعون له الولد ، ثم يعافيهم ، ويرزقهم » .

* * *

أبو موسى الأشعرى : هو عبد الله بن قيس بن سليم الأشعرى .

وأمه ظبية بنت وهب بن عك . هاجر إلى الحبشة قديماً ، ثم قدم على النبى ، ﷺ فى خيبر ، مع جعفر وأصحابه ، وهو من سادات الصحابة وعلماءهم . عرف بالشجاعة والاجتهاد فى طلب الخير ، وكان قارئاً حسن الصوت ، حتى قال فيه النبى ﷺ « لقد أُعطى مزماراً من مزامير آل داود » (١)

توفى رضى الله عنه بمكة ، وقيل بالكوفة سنة اثنتين ، أو أربع وأربعين ، عن ثلاث وستين سنة (٢) .

أما الآية فهكذا قرأها ابن مسعود ، وقال : إنه أقرأه إياها رسول الله ﷺ « كما رواه الإمام أحمد بسند صحيح » (٣) وأبو داود ، والنسائى ، والترمذى ، وقال : حسن صحيح (٤) .

---

(١) انظر البخارى جـ ٦ ص ١٦١ فضائل القرآن .

(٢) انظر الاستيعاب جـ ٣ ص ٩٧٩ ، أسد الغابة جـ ٣ ص ٣٦٧ ، الإصابة جـ ٦ ص ١٩٤ .

(٣) انظر المسند جـ ١ ص ٣٩٤ .

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٠٢ ، وانظر سنن أبى داود جـ ٤ ص ٢٩١ وفيه « إنى أنا الرزاق » الخ ، ومثله فى الترمذى جـ ٤ ص ٢٦٢ .

وهذه الآية مرتبطة بالآية قبلها فى المعنى ، وهى قوله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) [١] . والمعنى : أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه ، ولا يشركوا به شيئا ، فمن أطاعه فى ذلك جازاه أتم الجزاء وأحسَنه ، ومن أبى وعصاه عذَّبه أشد العذاب .

وأخبر أنه غير محتاج إليهم ، بل هم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم ، فهو خالقهم ورازقهم » [٢] .

فهو جل وعلا لم يخلقهم ليستعين بهم أو ليقوى بهم ، كما يقصد السادة من عبيدهم .

قوله : « إن الله هو الرزاق » هذه القراءة المجمع عليها ، المتواترة ، وقراءة ابن مسعود تتفق معها فى المعنى .

والمعنى : أن الله تعالى هو المتكفل بأرزاق الخلق وحاجاتهم ؛ وأكد الجملة بإن ، والضمير ، لقطع توهم من يعتمد على قوته ، أو علمه وصنعته ، أو غير ذلك فى أمور الرزق ، ليصرف اعتمادهم إلى الله وحده .

« ذو القوة » أى القوة العظيمة التى لا تضاهى ، ولا تقاس بقوة خلقه مهما بلغت قوتهم ، فهو تعالى على كل شئ قدير ، لا يمتنع عليه شئ .

« والمتين » الشديد القوة ، الذى لا يطرأ عليه عجز أو ضعف ، تعالى وتقدس ، وهذا المروى عن ابن عباس كما ذكره الطبرى [٣]

قال ابن الجوزى : « والمتين : الشديد القوة الذى لاتنقطع قوته ،

---

(١) الآيات من سورة الذاريات من الآية ٥٦ - ٥٨ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٠٢ .

(٣) انظر تفسير الطبرى جـ ٢٧ ص ١٣ .

ولايلحقه فى أفعاله مشقة »[(١)] .

ورفع « المتين » على أنه وصف لـ « الرزاق » أو لذو ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو خبر بعد خبر ، وهذه قراءة الجمهور ، وقرأ يحي بن وثاب ، والأعمش بجر « المتين » على أنه صفة للقوة .

وهذه الآية ونظائرها تدل بوضوح على أن الله – تعالى – موصوف بالصفات العليا ، كما أنه مسمى بالأسماء الحسنى ، فالقوة صفته ، والرزاق اسمه ، وتقدم أن كل اسم لا بد أن يتضمن الصفة ، وبذلك وغيره يرد على المنكرين للصفات ، كما سبقت الإشارة إليه . والله أعلم .

وأما معنى الحديث : فقال النووى : « قال العلماء : معناه : أن الله تعالى واسع الحلم حتى على الكافر الذى ينسب إليه الولد والند ، قال المازرى : حقيقة الصبر : منع النفس من الانتقام أو غيره ، فالصبر نتيجة الامتناع ، فأطلق اسم الصبر على الامتناع فى حق الله تعالى »[(٢)] .

قال القاضى : والصبور من أسماء الله تعالى ، وهو الذى لايعاجل العصاة بالانتقام . وهو بمعنى الحليم فى أسمائه سبحانه وتعالى ، والحليم : هو الصفوح مع القدرة على الانتقام »[(٣)]

قلت : قوله : « فأطلق اسم الصبر على الامتناع فى حق الله تعالى » . فيه نظر ، وذلك أن رسول الله – ﷺ – أطلق على ربه الصبر ، وأنه ما أحد أصبر منه وهو ﷺ أعلم الخلق بالله – تعالى – وأخشاهم له ، وأقدرهم على البيان عن

---

(١) تفسير ابن الجوزى جـ ٨ ص ٤٤ .

(٢) قلت : هذا الكلام فيه نظر فقد جاء فى أسماءه تعالى الصبور ، وفى هذا الحديث : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله تعالى » .

(٣) شرح النووى على مسلم جـ ١٧ ص ١٤٦ .

الحق ، وأنصحهم للخلق ، فلا استدراك عليه ، فيجب أن يبقى ما أطلقه ﷺ على الله تعالى بدون تأويل ، إلا اذا كان يريد بذلك تفسير معنى الصبر ، ولكن الأولى أن يبقى كما قال ، لأنه واضح ليس بحاجة إلى تفسير .

قوله فى الحديث : « أصبر » أفعل تفضيل من الصبر ، ومن أسمائه الحسنى « الصبور » ومعناه : الذى لا يعاجل العصاة بالعقوبة ، وهو قريب من معنى الحليم . والحليم أبلغ فى السلامة من العقوبة » [(١)] .

وقال الزجاج : « أصل الصبر فى الكلام : الحبس ، يقال : صبرته على كذا صبرا إذا حبسته ، ومعنى الصبر ، والصبور فى اسم الله – تعالى – قريب من معنى الحلم » [(٢)]

وقال ابن الأثير : « الصبور : هو الذى لا يعاجل العصاة بالانتقام منهم ، بل يؤخر ذلك إلى أجل مسمى ، فمعنى الصبور فى صفة الله – تعالى – قريب من معنى الحليم ، إلا أن الفرق بين الأمرين أنهم لا يأمنون العقوبة فى صفة الصبور ، كما يأمنون منها فى صفة الحليم » [(٣)] .

يقصد أن صفة الحلم أكثر رجاء ورحمة وأوسع لعباده ، من صفة الصبور. والله أعلم .

قوله : « على أذى سمعه من الله » لفظ الأذى فى اللغة هو لما خف أمره ، وضعف أثره من الشرك والمكروه ، ذكره الخطابى ، قال شيخ الإسلام : وهو كما قال بخلاف الضرر ، فقد أخبر – سبحانه – أن العباد لايضرونه ، كما قال تعالى (ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا) [(٤)] فبين أن

---

(١) فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٦١ .
(٢) تفسير أسماء الله الحسنى ص ٦٥ .
(٣) جامع الأصول جـ ٤ ص ١٨٣ .
(٤) الآية ١٧٦ من سورة آل عمران .

الخلق لا يضرونه ، لكن يؤذونه » [١]

فأبن آدم يؤذى الله تعالى ، ويسبه بإضافة ما يتعالى ويتقدس عنه ، مثل نسبة الولد إليه - تعالى - والند ، والشريك فى العبادة ، التى يجب أن تكون خالصة له وحده ، ومثل إسناده نعمه وأفعاله إلى غيره . من الدهر ، والطبيعة ، والكون والمخلوقات ، وغير ذلك ثم يسبون ما أسندوا تلك الحوادث إليه ، فيقولون أصابتهم قوارع الدهر ، وأبادتهم حوادثه ، وأهلكتهم كوارث الطبيعة ، وياخيبة الدهر ، وهذا زمان سوء ، وما أشبه ذلك .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال رسول الله - ﷺ : يقول الله - تعالى - « يؤذينى ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره » [٢] .

وأذية الله - تعالى - بنسبة الحوادث ، والكوارث إلى الدهر ، أو الطبيعة ، وتوجيه اللوم ، والقدح والسب إلى ذلك كثيرة فى كلام أهل الأدب وغيرهم ، مع أن ذلك صنع الله وفعله ، ولذلك يرجع السب إليه ، تعالى عن قولهم علوا كبيراً ، كقول ابن المعتز :

يادهر ويحك ما أبقيت لى أحدا ... وأنت والد سوء تأكل الولدا

وقول أبى الطيب المتنبى :

قبحاً لوجهك يازمان كأنه ... وجه له من كل قبيح برقع

وقول الطرفى :

إن تبلى بلئام الناس يرفعهم ... عليك دهر لأهل الفضل قد خانا

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٥٤٢ .

(٢) انظر البخارى جـ ٦ ص ١٦٦ وتفسير سورة الجاثية جـ ٨ ص ٥٧٤ ، وجـ ١٠ ص ٥٦٤ الأدب وجـ ٩ ص ١٧٩ التوحيد ، ومسلم الأدب جـ ٧ ص ٤٥ .

وقول التهامى :

ليس الزمان وإن حرصت مسالما   خلق الزمان عداوة الأحرار

وقول الآخر :

وغاض رزقى ، وعادانى الزمان ، ولم   ينظر لما بى من العليا ، ولا حسبى

وقول الحريرى :

ولا تأمن الدهر الخؤون ، ومكره   فكم عالم أخنى عليه ، ونابه

وقوله أيضا :

ولما تعامى الدهر ، وهو أبو الردى   عن الرشد ، فى إيجابه ومقاصده

تعاميت ، حتى قيل : إنى أخو عمى   ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والده

وقوله أيضا :

ولو أنصف الدهر فى حكمه   لما ملك الحكم أهل النقيصة

وقول موفق الدين ، عبد الله بن عمر الأنصارى فى تخميسه مقصورة ابن دريد :

يا زمنى ماذا العمى   فوقت لى من الرزايا أسهما ....

يا دهر كم هذى الحقود   والإحـــن .... (١)

وقال تميم بن المعز :

يا دهر ما أقساك من متلون   فى حالتيك ، وما أقلك منصفا

أتروح للنكس الجهول ممهدا   وعلى الحر اللبيب سيفاً مرهفا

وإذا صفوت كدرت ، شيمة باخل   وإذا وفيت نقضت أسباب الوفا

لا أرتضيك ، وإن كرمت لأننى   أدرى بأنك لاتدوم على الصفا

---

(١) انظر تخميس مقصورة ابن دريد ص ٤٢ .

زمن إذا أعطى ، استرد عطاءه　　وإذا استقام ، بدا له فتحرفا
ما قام خيرك يازمان بشره　　أولى بنا ما قل منك ، وما كفى

وقال عبد الرحيم الاسطنبولى :

أرى الدهر يسعف جهاله　　وأوفر حظ به الجاهل

ومثل هذا كثير جدا فى أشعار أهل الأدب قديما وحديثا ، وهو لايجوز لما دل عليه هذا الحديث الذى نحن بصدد شرحه ، وللأحاديث الأخرى الصحيحة الصريحة فى النهى عن ذلك ، كحديث أبى هريرة الآتى : « يقول الله تعالى : يؤذينى ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره » (١)

يعنى أن الدهر الذى هو الليل والنهار مخلوق لله مسخر ، وهو مؤتمر بأمر الله تعالى مطيع له ، فإذا سبه الساب ، فإن السب يعود إلى فاعل الدهر وخالقه . ومعلوم أن توجيه الخطاب والملام إلى الأيام والليالى لأنها ظرف لوقوع الحوادث ، وما يؤلم ، فوجب اللوم إلى الدهر لذلك ، وإلا فغالب هؤلاء ، إن لم يكن كلهم لايعتقدون أن الليل والنهار هو المصرف المدبر ، والموجد لما يقع فيه ، فرجع اللوم فى الحقيقة إلى تلك الحوادث الواقعة فى الليل والنهار ، فبذلك يعلم أن اللوم والسب يعود إلى مقدرها وموجدها ، وهو الله – تعالى – خالق كل شئ ، فليحذر المسلم من مجارات هؤلاء الذين سلكوا طريق أهل الجهل من الكفار ، وغيرهم ، فى القدح فى أفعال الله تعالى ، وسخط أقداره وتدبيراته .

قال ابن الجوزى – رحمه الله – تعالى – : « ما رأت عينى مصيبة نزلت بالخلق أعظم من سبّهم للزمان ، وعيبهم للدهر ، وقد كان هذا فى الجاهلية ، ثم نهى رسول الله ﷺ عنه ، فقال : لاتسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر » (٢)

---

(١) سيأتى هذا فى باب قول الله « يريدون أن يبدلوا كلام الله » .

(٢) رواه مسلم فى الألفاظ من الأدب وغيره جـ ٤ ص ١٧٦٢ رقم الحديث ٢٢٤٦ وله عدة طرق عنده .

ومعناه : أنتم تسبون من فرّق شملكم ، وأمات أهليكم ، وتنسبونه إلى الدهر ، والله – تعالى – هو الفاعل لذلك .

وهؤلاء إن أردوا بالدهر ، مرور الزمان ، فذلك لا اختيار له ، ولا مراد ، ولا يعرف رشداً من ضلال ، ولا ينبغى أن يلام ، فإنه زمان مدبر ، ولا يعقل أن يكون ذم هؤلاء يقصد به الزمان الذى لاتصرف له ، فلم يبق إلا أن القوم خرجوا عن ربقة الإسلام ، ونسبوا القبائح إلى الله – تعالى – فاعتقدوا قصور حكمته ، وأنه يفعل مالا يصلح كما اعتقده إبليس فى تفضيل آدم ، وهؤلاء لا ينفعهم مع هذا الزيغ اعتقاد إسلام ، ولا فعل صلاة ، بل هم شر من الكفار » (١)

قلت : أكثر هؤلاء من الشعراء والأدباء لا يقصدون نسبة القبائح إلى الله – تعالى – من الجور والظلم ، وإنما ساروا فى ذلك على سبيل المتابعة لأهل الجاهلية والتقليد ، بدون تبصر لذلك . والله أعلم .

وكذلك يؤذى ابن آدم ربه بمخالفته أوامره تعالى – وارتكابه نهيه ، والإصرار على ذلك ، وأذية رسله ، وأوليائه ، وعباده الصالحين ، بعيبهم ، وتنقصهم ، كما فى مسند الإمام أحمد ، من حديث عبد الله بن مغفل المزنى – رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله – ﷺ : « الله ، الله ، فى أصحابى ، لا تتخذوهم غرضا بعدى ، فمن أحبهم ، فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم ، فقد آذانى ، ومن آذانى ، فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » (٢) .

وقد قال الله تعالى : (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعدَّ لهم عذاباً مهيناً) (٣) .

---

(١) صيد الخاطر ص ٤٩٠ باختصار وتصرف يسير .
(٢) المسند جـ ٤ ص ٨٧ .
(٣) الآية ٥٧ من سورة الأحزاب .

قال ابن جرير رحمه الله تعالى : « أى الذين يؤذون ربهم بمعصيتهم إياه ، وركوبهم ما حرم عليهم »[١] .

وفى قوله : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله » دليل واضح على تسميته تعالى بذلك ، أعنى « الصبور » كما جاء فى حديث الأسماء الحسنى .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : « فقد أطلق عليه – تعالى – أعرف الخلق به ، وأعظمهم تنزيها له – هذه الصفة : وما أحد أصبر على أذى سمعه من الله » ، كما أن ما ورد فى الأسماء الحسنى « الصبور » من أمثلة المبالغة ، فهو أبلغ من « الصابر » والصبار .

ومعنى الصبر معلوم فى اللغة ، والشرع ، والعرف ، فلسنا بحاجة إلى تأويلات المتكلمين ، التى تبعد عن المعنى المقصود من الخطاب .

وصبر الله – تعالى – لا يماثل صبر المخلوق ، بل يختلف عنه من وجوه .

منها : أنه عن قدرة تامة .

ومنها : أنه لايخاف الفوت ، والعبد إنما يستعجل لخوف الفوت .

ومنها : أنه – تعالى – لا يلحقه بصبره ألم ، ولا حزن ، ولانقص بوجه من الوجوه .

وظهور أثر هذا الاسم الكريم مشهود فى العالم بالعيان ، كظهور اسمه – تعالى – الحليم .

والفرق بين الصبر والحلم : أن الصبر ثمرة الحلم ، وموجبه ، والحلم فى صفاته تعالى – أوسع من الصبر ، ولهذا جاء فى القرآن فى مواضع كثيرة ، وجاء مقرونا مع اسمه العليم ، كقوله تعالى – : (وكان الله عليما حليما)[٢] ، وقوله – تعالى : (والله عليم حليم)[٣] ، وحلمه تعالى من لوازم ذاته .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢١ ص ٤٤ .

(٢) الآية ٥١ من سورة الأحزاب .

(٣) الآية ١٢ من سورة النساء . وقد جاء اقترانه باسمه الغفور فى مواضع عدة=

وأما صبره – تعالى – فمتعلق بكفر عباده ، وشركهم ، ومسبتهم له – تعالى – وتقدس – وسائر معاصيهم ، وفجورهم ، فلا يدعوه ذلك إلى تعجيل عذابهم ، بل يصبر عليهم ويمهلهم ، ويرفق بهم ، ويستصلحهم بحلمه وصبره ونعمه ، حتى إذا لم يبق فيهم موضع للصنيعة ولا يصلحون على الإمهال ، ولم ينيبوا إليه ، لامن باب الإحسان والنعم ، ولا من باب البلاء والنقم أخذهم أخذ عزيز مقتدر ، بعد غاية الإعذار إليهم ، وبذل النصيحة لهم ، ودعاءهم من كل باب .

وهذا كله من موجبات صفة حلمه ، وهى صفة ذاتية له لاتزول .

وأما الصبر فإذا زال متعلقه كان كسائر الأفعال التى توجد لوجود الحكمة وتزول بزوالها ، فتأمله ، فإنه فرق لطيف قلَّ من تنبه له .

وقد أشكل على كثير من العلماء مجىء هذا الاسم فى أسماء الله الحسنى ، وقالوا : لم يأت فى القرآن ، فأعرضوا عن الاشتغال به .

ولو أنهم أعطوه حقه لعلموا أن الرب – تعالى – أحق به من جميع خلقه ، كما هو أحق باسم العليم ، والرحيم ، والقدير ، والسميع ، وسائر أسمائه الحسنى من المخلوقين ، وأن التفاوت الذى بين صبره – تعالى – وبين صبرهم كالتفاوت الذى بين حياته وحياتهم ، وعلمه وعلمهم ، وهذا فى سائر صفاته – تعالى – ولهذا قال أعرف خلقه به : « لا أحد أصبر على أذى ، سمعه من الله » تعالى – فعلم أرباب البصائر بصبره سبحانه كعلمهم برحمته ، وعفوه وستره ، مع أنه صبر مع كمال علم وقدرة ، وعظمة وعزة ، وهو صبر على أعظم مصبور عليه ، فإن مقابلة أعظم العظماء ، وملك الملوك ، وأكرم الأكرمين ، ومن إحسانه فوق كل إحسان – بغاية القبح ، وأعظم الفجور ، وأفحش الفواحش ، ونسبته تعالى إلى كل مالا يليق به ، والقدح فى كماله ، وفى أسماءه وصفاته ، والإلحاد فى آياته ، وتكذيب رسله – عليهم السلام – ومقابلتهم بالسب والشتم ، والأذى وتحريق أوليائه ، وقتلهم وإهانتهم . أمر لايصبر عليه إلا الصبور الذى لا أحد أصبر منه ، ولا نسبة لصبر جميع الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى صبره سبحانه وتعالى .

= من القرآن كقوله تعالى : (ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حليم) ١٥٥ آل عمران .

ومما يعين على معرفة صبره – تعالى – وحلمه ، والفرق بينهما ، تأمل قوله تعالى : (إن الله يُمسك السماوات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليما غفورا) [١] وقوله – تعالى – : (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدًّا . تكاد السماوات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدًّا . أن دعوا للرحمن ولدا) [٢] وقوله – تعالى : (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) [٣] . على قراءة فتح اللام .

فأخبر تعالى أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السماوات والأرض ، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر ، فبحلمه صبر عن معاجلة أعدائه .

وفى الآية إشعار بأن السماوات والأرض تهم وتستأذن بالزوال ، لعظم مايأتى به العباد ، فيمسكهما بحلمه ، ومغفرته ، وذلك حبس عقوبته عنهم ، وهو حقيقة صبره – تعالى .

فالذى صدر عنه الإمساك ، هو صفة الحلم ، والإمساك هو الصبر ، وهو حبس العقوبة ، ففرق بين حبس العقوبة ، وبين ماصدر عنه حبسها فتأمله » [٤] .

قال ابن المنير : « وجه مطابقة الحديث للآية [٥] اشتماله على صفتى الرزق والقوة الدالة على القدرة ، أما الرزق ، فواضح من قوله : « ويرزقهم » ، وأما القوة فمن قوله : « أصبر » فإن فيه إشارة إلى القدرة على الإحسان إليهم ، مع إساءتهم بخلاف طبع البشر ، فإنه لا يقدر على الإحسان إلى المسىء إلا من جهة تكلفه

---

(١) الآية ٤١ من سورة فاطر .
(٢) الآيات من ٨٨ إلى ٩٢ من سورة مريم .
(٣) الآية ٤٦ من سورة إبراهيم .
(٤) عدة الصابرين ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .
(٥) فى الفتح : مطابقة الآية للحديث – والمناسب ما أثبته .

ذلك شرعا ، وسبب ذلك أن خوف القوت يحمله على المسارعة إلى المكافأة بالعقوبة ، والله سبحانه قادر على ذلك حالا ، ومآلا ، لايعجزه شئ ولا يفوته » [١] .

قلت : ليس عجز الإنسان عن الصبر من أجل خوف الفوت فقط ، بل ولأنه لايستطيعه ولا يتحمله ، لأن ذلك يضره فى نفسه أو غير ذلك .

والذى يظهر أن ما أراده البخارى – رحمه الله – من الحديث ، هو البيان بأن الله تعالى مسمى بالأسماء الحسنى ، ومتصف بالصفات العليا حقيقة على مايليق به تعالى ، وعلى مايفهم من اللفظ الموضوع للمعنى المتعارف عليه من ظاهر اللغة – الذى أطلقه تعالى على نفسه أو أطلقه عليه رسوله ، دون تكلف تأويل ، أو رجوع إلى اصطلاح متكلم ، أو متفلسف كما بين ذلك قوله : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، يدعون له الولد ، ثم يعافيهم ويرزقهم » فهذا هو حقيقة الصبر المعروف من اللغة ، ونصوص الشرع فلا يجوز العدول عن ذلك بالتأويلات التى تبعد المعنى عن مقصود المتكلم من اللفظ ، ودل قوله : « ثم يعافيهم ، ويرزقهم » على فضله على عباده بالعافية والرزق ، وأن كل ما يقع بأيديهم من رزقه ، فهو الذى هيأ أسبابه ويسَّر طرقه .

وقوله : « ثم يعافيهم ويرزقهم » أى أنه تعالى يقابل إساءتهم بالإحسان ، فهم يسيئون إليه – تعالى – بالعيب والسب ، ودعوى مايتعالى عنه ويتقدس ، وتكذيب رسله ومخالفة أمره وفعل مانهاهم عن فعله ، وهو يحسن إليهم بصحة أبدانهم ، وشفاءهم من أسقامهم ، وكلاءتهم بالليل والنهار مما يعرض لهم ، ويرزقهم بتسخير ما فى السماوات والأرض لهم ، وهذا غاية الصبر والحلم ، والإحسان ، والله أعلم .

* * *

---

(١) فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٦١ .

قال : « باب قول الله – تعالى – : (عالم الغيب ، فلا يظهر على غيبه أحدا) (١) و (إن الله عنده علم الساعة) (٢) و (أنزله بعلمه) (٣) (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) (٤) (إليه يرد علم الساعة) (٥) .

* * *

أراد البخارى رحمه الله بيان ثبوت علم الله – تعالى – وعلمه تعالى من لوازم نفسه المقدسة ، وبراهين علمه تعالى ظاهرة مشاهدة فى خلقه ، وشرعه ، ومعلوم عند كل عاقل أن الخلق يستلزم الإرادة ، ولابد للإرادة من العلم بالمراد ، كما قال تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (٦)

والخالق هو : المبدع بتقدير سابق الوجود فى الخارج ، وهذا يتضمن تقدير المخلوقات فى العلم قبل إيجادها فى الخارج ، وهو أيضا يستلزم الإرادة والمشيئة ، والإرادة مستلزمة تصور المراد والعلم به .

ووصف نفسه تعالى فى هذه الآية بأنه (لطيف) يدرك الدقيق ، (خبير) يدرك الخفى .

والأدلة على وصف الله بالعلم كثيرة ، ولا ينكرها إلا ضال أو معاند مكابر. وفى هذه الآيات التى ذكرها البخارى مدح الله سبحانه وتعالى فيها نفسه

---

(١) سورة الجن الآية ٢٦ .
(٢) الآية ٣٤ من سورة لقمان .
(٣) جزء من الآية ١٦٦ من سورة النساء .
(٤) الآية ١١ من سورة فاطر والآية ٤٧ من سورة فصلت .
(٥) الآية ٤٧ من سورة فصلت .
(٦) الآية ١٤ من سورة الملْكِ .

بأنه عالم الغيب ، وأنه استأثر به دون خلقه ، فكان ذلك دليلا على أنه لا يعلم الغيب سواه ، فعلمه تعالى وسع كل شئ فى الماضى ، والمستقبل ، والحال . وفى الآية الأولى استثنى تعالى من ارتضاه من رسله ، فأطلعهم على مايشاء من غيبه ، عن طريق الوحى إليهم ، وأعلامهم به ، وجعل ذلك معجزة لهم ، ودليلا على نبوتهم وصدقهم .

وليس المنجم والكاهن ، ومن ضاهاهما كالضارب بالحصى ، والناظر فى الكتب والأكف ، وما أشبه ذلك ممن ارتضاه الله من الرسل ، حتى يطلعهم على مايشاء من الغيوب ، بل هم مفترون على الله ، يصطادون أموال الجهلة من الناس بالتلبيس والحدس والتخمين الكاذب والادعاء الفارغ .

« والغيب » مصدر غاب ، إذا استتر عن العين ، قال تعالى : (أم كان من الغائبين) [١] واستعمل فى كل غائب عن الحاسة ، وعما يغيب عن علم الإنسان ، قال تعالى : (وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين) [٢] ويقال للشئ : غيب ، وغائب باعتبار تعلقه بالناس .

أما الله تعالى فإنه لايغيب عنه شئ ، وقوله تعالى : (عالم الغيب والشهادة) [٣] أى ما يغيب عنكم ، وما تشهدونه ، والغيب فى قوله تعالى : (يؤمنون بالغيب) [٤] مالا يقع تحت الحواس ، ولا تقتضيه بدائه العقول ، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام » [٥]

---

(١) الآية ٢٠ من سورة النمل .

(٢) الآية ٧٥ من سورة النمل .

(٣) الآية ٢٢ من سورة الحشر .

(٤) الآية ٣ من سورة البقرة .

(٥) المفردات للراغب ص ٣٦٦ .

وقوله : « عالم الغيب » قال الحليمى : معناه أنه يدرك الأشياء على ماهى عليه ، وإنما وجب أن يوصف – عز اسمه – لأنه قد ثبت أن ماعداه من الموجودات فعل له ، وأنه لايمكن أن يكون فعل إلا باختيار ، وإرادة ، والفعل على هذا الوجه لايظهر إلا من عالم ، كما لايظهر إلا من حى » [١] .

فقوله : « عالم الغيب » أى المختص بعلم الغيب ، فلا يشاركه فيه أحد .

قال ابن جرير : عالم ما غاب عن أبصار خلقه ، فلم يروه ، « فلا يظهر على غيبه » أحدا فيعلمه أو يريه إياه إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يظهره على ماشاء من ذلك » [٢]

وقال القسطلانى : « عالم الغيب فلا يطلع على غيبه أحدا من خلقه إلا من ارتضى من رسول لاطلاعه على بعض الغيب ، ليكون إخباره عن الغيب معجزة له » [٣]

وقوله : و « إن الله عنده علم الساعة » الواو ليست من الآية وإنما جاء بها للعطف .

والمعنى : أن علم وقت مجىء الساعة – الذى هو النفخ فى الصور – لايعلمه إلا الله تعالى ، وحده ، فهو خاص به تعالى لا يشاركه فيه أحد .

قال الخازن : « ومعنى الآية ، أن الله عنده علم الساعة ، فلا يدرى أحد من الناس متى تقوم ، فى أى سنة ، أو أى شهر ، أو أى يوم ، ليلا أو نهارا » [٤]

وقوله : « أنزله بعلمه » أى أنزل القرآن عالما بما يترتب على إنزاله من الخير

---

(١) المنهاج جـ ١ ص ١٩١ .
(٢) تفسير الطبرى جـ ٢٩ ص ١٢١ .
(٣) إرشاد السارى جـ ١٠ ص ٣٦٣ .
(٤) تفسير الخازن جـ ٥ ص ٢٢٠ .

والفلاح وغير ذلك ، وعالما بمن يؤمن به ويقبله ، ويسعد بذلك ، ومن يكفر به ويرده ويشقى بذلك .

أو المعنى : أنزله فيه علمه الذى أراد أن يطلع عليه من يشاء من عباده من الإيمان به ، ومعرفته تعالى بأسمائه وصفاته ، وما رتب على ذلك من الجزاء فى الدنيا والآخرة ، ومعرفة حقه ، وأمره ونهيه ، والآية تدل على كلا المعنيين .

وقال ابن الجوزى : « فيه ثلاثة أقوال :

احدها : أنزله وفيه علمه ، قاله الزجاج .

الثانى : أنزله من علمه ، ذكره أبو سليمان الدمشقى .

الثالث : أنزله إليك بعلم منه أنك خيرته من خلقه ، قاله ابن جرير » (١)

وقال الخازن : « يعنى أنه تعالى لما قال : لكن الله يشهد بما أنزل اليك ، بين صفة ذلك الإنزال ، وهو أنه تعالى أنزله بعلم تام ، وحكمة بالغة .

وقيل معناه : أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله عليك ، وأنك مبلغه إلى عباده » (٢)

وقال ابن كثير : « أنزله بعلمه » أى فيه علمه الذى أراد أن يطلع العباد عليه ، من البينات والهدى ، والفرقان ، ومايحبه ويرضاه ، ومايكره ويأباه ، وما فيه من العلم بالغيوب ، من الماضى والمستقبل ، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التى لايعلمها نبى مرسل ، ولا ملك مقرب إلا أن يعلمه الله به ، كما قال تعالى : (ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما يشاء) ، وقال تعالى : (ولا يحيطون به علما) (٣)

---

(١) زاد المسير جـ ٢ ص ٢٥٧ ، وانظر تفسير الطبرى جـ ٦ ص ٣١ .
(٢) تفسير الخازن جـ ١ ص ٦٢٥ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٢٨ .

قوله : (وما تحمل من أنثى ولاتضع إلا بعلمه) اقتصر البخارى - رحمه الله تعالى على محل الشاهد من الآية ، وتمامها :

(والله خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم جعلكم أزواجا ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يعمَّر من مُعَمَّرٍ ، ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ، إن ذلك على الله يسير) (١) يخبر تعالى العباد بأنه ابتدأ خلقهم بخلق أبيهم آدم من تراب ، ثم جعل خلق ذريته من نطفة - من ماء مهين - وجعلهم أزواجا أى ذكرا وأنثى رحمة منه تعالى ولطفا ، ثم أخبر تعالى أنه عالم بأطوار خلقهم ، لايخفى عليه شئ من مبدأه ، ووضعه ، ونوعه ، وعمره وعمله ، وزيادة عمره ، ونقصانه ، وأن ذلك عنده فى كتاب ، وهو سهل عليه يسير (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) ففى هذه الآية بيان شمول علمه تعالى لكل شئ ، فلا تكون حياة ، ولا موت ، ولا حركة ، ولا سكون إلا بعلمه وتصريفه ومشيئته .

قوله : « إليه يرد علم الساعة » أى هو تعالى المختص بعلم الساعة أى وقت مجيئها .

قال ابن جرير - رحمه الله - تعالى - : « إلى الله يرد العالمون به علم الساعة ، فإنه لا يعلم قيامها غيره » (٢) .

ففى هذه الآيات ونحوها دلالة ظاهرة على ثبوت صفة العلم لله ، بحيث لاينكر ذلك إلا معاند مكابر يجادل بالباطل ، ليدحض به الحق ، أو جاهل قد تناهى جهله ، ومن أوجه البيان فى ذلك أنه تعالى أضاف العلم إلى نفسه الكريمة إضافة حقيقة ، والمضاف إلى الله تعالى إما أن يكون أعيانا قائمة بنفسها كبيت

---

(١) الآية ١١ من سورة فاطر وقال - تعالى : (إليه يرد علم الساعة ، وما تخرج من ثمرات من أكمامها ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلَّا بعلمه) الآية ٤٧ من سورة فصلت .

(٢) تفسير الطبرى جـ ٢٥ ص ٢ .

الله ، وناقة الله ، ورسول الله ، وعرش الرحمٰن ، وما أشبه ذلك ، وهذا النوع من إضافة المخلوق إلى خالقه ، لتفضيلها على غيرها من المخلوقات .

وإما إضافة معان كعلم الله وقدرة الله ، وحياة الله ، وسمع الله وبصره ، وما أشبه ذلك ، وهذا النوع لا يكون الإضافة صفة إلى من تقوم به لأنها لا تقوم بأنفسها كما هو معلوم .

ومراد البخارى – رحمه الله – فى إراده هذه الآيات إثبات هذه الصفة لله – تعالى – والرد على من ينكرها من المعتزلة ، ونحوهم ممن عميت بصائرهم ، فابتعدوا عن الحق ، مغترين بعقولهم .

قوله : قال يحى : « الظاهر على كل شئ علما ، والباطن على كل شئ علما » .

قال الحافظ : « يحى هو ابن زياد الفراء النحوى المشهور ، ذكر ذلك فى كتاب « معانى القرآن له » (١)

قلت : هو يحي بن زياد بن عبد الله ، بن مروان الديلمى ، أبو زكريا المعروف بالفراء إمام العربية ، وصفه مترجموه بأنه متدينا ورعا ، وكان ثقة ، له مصنفات كثيرة ، ضاع أكثرها ، توفى سنة ٢٠٧ سبع ومأتين .

وقول الفراء هذا ، جزء من معنى هذين الاسمين الكريمين ، وقد كان من عادة السلف أنهم يفسرون الشئ بجزء من معناه . وإلا فهو تعالى الظاهر على كل شئ ذاتا ، وقوة وقهرا ، وعلما وحكما ، والباطن على كل شئ إحاطة وقربا وعلما ، وقد صح عن رسول الله ﷺ كما فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ – أنه كان يقول : « اللهم أنت الأول فليس قبلك شئ ، وأنت الآخر فليس بعدك شئ ، وأنت الظاهر فليس فوقك

---

(١) فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٦٢ ، وانظر معانى القرآن للفراء جـ ٣ ص ١٣٢ .

شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء » [١] .

فهذا أحسن مايفسر به هذه الأسماء ، وأوضحه ، وأقربه إلى معنى الكلام مع كونه من المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ، فلا ينبغى العدول عنه إلى كلام الناس ، الذى هو عرضة للخطأ .

★ ★ ★

(١) انظر مسلم جـ ٤ ص ٢٠٨٤ رقم ٦١ .

٩ ــ قوله : « حدثنا خالد بن مخلد ، حدثنا سليمان بن بلال ، حدثنى عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر – رضى الله عنهما – عن النبى ﷺ – قال : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ، لا يعلم ماتغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم مافى غد إلا الله ، ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله تعالى »

* * *

ابن عمر : هو أبو عبد الرحمن ، عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل ، القرشى ، العدوى . وأمه : زينب بنت مظعون الجمحية ، ولد سنة ثلاث من البعثة النبوية ، وهاجر إلى المدينة وهو ابن عشر سنين ، وأول مشاهده مع رسول الله – ﷺ – الخندق ، وكان من سادات الصحابة ، وعبّادهم المجدين ، وهو من المكثرين فى الحديث عن رسول الله – ﷺ – ، عرف بالعزوف عن الدنيا ، والاستعداد للآخرة ، كما عرف بشدة تمسكه بسنة رسول الله – ﷺ – ، وتتبع آثاره . له فى الصحيحين مائتان وثمانون حديثا . توفى سنة ثلاث وسبعين فى مكة ، وقد بلغ من العمر سبعا وثمانين سنة رضى الله عنه (١)

« قوله : « مفاتيح الغيب » ذكر البخارى هذا الحديث فى الاستسقاء بلفظ « مفتاح » وفى بعض النسخ « مفاتح » وفى تفسير سورة الأنعام ، وسورة الرعد بلفظ « مفاتح » وفى بعض النسخ « مفاتيح » .

والمفاتح جمع مفتح ، بكسر الميم ، اسم الآلة التى يفتح بها ، مثل منجل ، ومناجل . وهى لغة قليلة ، والمشهور : مفتاح ، وجمعه « مفاتيح » ، وقد قرأ بها

---

(١) الإصابة جـ ٤ ص ١٨١ والرياض النظرة ص ١٩٤ .

ابن السميقع ، ويطلق المفتاح على ماكان محسوسا مما يحل غلقا ، كالقفل ، وعلى ماكان معنويا ، كما جاء فى الحديث الذى صححه ابن حبان : « إن من الناس مفاتيح للخير » الخ [١] .

قوله : « مفاتيح الغيب خمس ، لايعلمها إلا الله » . قد بيَّن هذه الخمس ، بأنها : ما يغيض من الأرحام – أى ما ينقص – ، وما يكون فى الغد من الحوادث ، والأعمال ، وغيرها ، ومجىء المطر ، والمكان الذى يموت به الإنسان ؛ ووقت مجىء الساعة .

وعبر عن هذه الأمور الخمسة بالمفاتيح . لتقريب الأمر من السامع ، لأن كل شئ جعل بينك وبينه حجاب ، فقد غيب عنك ، والتوصل إلى معرفته فى العادة من باب الحجاب ، فإذا كان المفتاح الذى لايمكن الوصول إلى ما فى داخل الحجاب إلا بمعرفته لا يعلم ، فكيف بما فى داخل الحجاب ؟ .

ودل الحديث على أن هذه الأمور ليست هى الغيب ، وإنما هى منه ؛ وأن علم الغيب من خصائص الله تعالى .

وأما ماجاء عن الأنبياء من الأخبار ببعض المغيبات ، كإخبار الرسول – ﷺ – بما يقع بعده من الفتن ؛ والفتوح على أمته ؛ وبعض أشراط الساعة ، وكإخبار عيسى عليه السلام – بما يأكله بنو إسرائيل ، ومايدخرونه فى بيوتهم ، ونحو ذلك ، فإن هذا مما استثناه الله تعالى بقوله : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) [٢] ، وهو من معجزاتهم التى تدل على صدقهم .

---

(١) فتح البارى جـ ٨ ص ٢٩١ .

(٢) الآية من ٢٦ – ٢٨ من سورة الجن .

وبهذا ، وغيره يتبين ضلال الذين يزعمون أن فريقا من الناس ممن يدعون لهم الولاية . أنهم يعلمون الغيب ، وكذا الذين يدعون ذلك لرسول الله – ﷺ – فإنه لايعلم الغيب إلا الله تعالى ، وقد أمره الله أن يعلم الناس أنه لا يعلم الغيب فقال تعالى : (قل لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون) [١] فنفى تعالى علم الغيب عن الخلق عموما من فى السماوات كالملائكة ، ومن فى الأرض كالأنبياء ، فكيف يدعى علم ذلك لغيرهم .

وأما أصحاب الدجل والتمويه ، الذين يحتالون على اكل أموال الناس بالباطل ، كالذين يزعمون معرفة ما فى المستقبل ، بواسطة النجوم ، أو بقراءة الكف ، أو فنجان القهوة ، ونحو ذلك . فهؤلاء لايخفى ضلالهم ، وكذبهم إلا على أجهل الناس ، والمغفلين منهم .

وأما الإخبار عما يسمى « بالطقس » أحوال الجو من أمطار ، أو رياح أو غيوم أو صحو أو غير ذلك ، فهى توقعات مبنية على مقدمات مستفادة من مراصد الأحوال الجوية التى تتأثر بالرطوبة واليبوسة ونحو ذلك ، ولهذا كثيرا مايكون الأمر على خلاف ماقالوا .

« وأراد بالغيب فى الحديث المذكور ، الغيب الحقيقى ، إذ لبعض الغيوب علامات ومقدمات يستدل بها على شئ من ذلك ، وهذا ليس غيبا حقيقيا ؛ فالغيب الحقيقى لايعلمه إلا الله تعالى .

ثم الغيب نوعان : أحدهما ما يتعلق بذات الله تعالى وحقائق صفاته .

والثانى يتعلق بمخلوقاته ، وهى كلها لديه معلومة ، وقد قال تعالى : (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حَبَّةٍ فى ظلمات الأرض ، ولا رَطْبٍ ولا يابس إلا فى كتاب مبين) [٢] .

---

(١) الآية ٦٥ من سورة النمل .
(٢) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

فلما كان كل شئ محصى فى كتاب كَتَبَهُ الله تعالى عنده ، وعلمه محيط وسابق لكل شئ ، شبه الرسول - ﷺ - ذلك بالمخازن التى لها أبواب ، والباب له مفتاح ، فإذا كان المفتاح لايعلمه أحد ولايصل إليه ، فكيف بما وراءه ؟ .

وقد قال تعالى : (وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) [١] وحصر - ﷺ - مفاتيح الغيب بالخمس لأنها تشمل العوالم كلها .

فقوله : « ما تغيض الأرحام » إشارة إلى ما يزيد فى النفوس ، وما ينقص منها ؛ وذكر الأرحام لأن للناس عليها عوائد يعرفونها ؛ وتجارب أدركوها . وقد قرر عليها أحكام شرعية ، ومع ذلك لا يعلم حقيقتها ، ومتى تزيد ومتى تنقص إلا الله تعالى ، فغيرها مما هو أخفى أولى بأن لا يعلمه الخلق .

وأشار بقوله : « ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله تعالى » إلى أمور العالم العلوى ، فذكر منه المطر لأن له مقدمات ، وعلامات يستدل بها عليه عادة ، أجراها الله تعالى ، ومع ذلك لا يعلم حقيقة الحال إلا الله تعالى - فكيف بما وراء ذلك مما فى السماوات ، وما بينهما ، وما يجد هناك من المخلوقات ، والحوادث ، والأوامر التى يريدها الله - تعالى - ويأمر بها ؟ .

وأشار بقوله : « وما تدرى نفس بأى أرض تموت » إلى الحوادث الأرضية ، وذكر موضع الموت من الأرض ، مع أن العادة قد جرت فى الغالب أن الإنسان يموت فى الأرض التى يستقر فيها ؛ ومع ذلك لا أحد يتيقن أنه يموت فى مكانه الذى يعيش فيه ، ولا يدرى أين موضعه الذى يوارى فيه .

فإذا كان الأمر فى مثل هذا غير معلوم ، فكيف بالأمور الأخرى التى لا علامات لها ، ولا مقدمات يستدل بها عليها ؟ .

---

(١) الآية ٢١ من سورة الحجر .

وأشار بقوله : « ولا يعلم ما فى غد إلا الله » إلى أنواع الزمان ، وما فيه من الحوادث والتقلبات الطارئة ، وخص منه غداً لأنه أقرب الأزمنة من المخاطب ، فإذا خفى ما فيه فما بعده أخفى ، وأبعد عن معرفته .

وأشار بقوله : « ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » إلى أمور الدار الآخرة . وذكر منها يوم القيامة لأنه أولها وأقربها إلى الدنيا ، ولا يعلم وقت مجيئه إلا الله ، فما بعده أولى بأن لا يعلم ، فهذا من أبدع الكلام ، وأبلغه ، فقد حصر فيه جميع أنواع الغيوب ، وأبطل جميع الدعاوى الفاسدة » (١)

ويقصد بالدعاوى الفاسدة كل من يدعى شيئا فى علم الغيب ، وهذا الحديث إيضاح لقوله تعالى : (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير) (٢)

* * *

---

(١) انتهى ملخصا من بهجة النفوس جـ ٤ ص ٢٧٢ .

(٢) الآية ٣٤ من سورة لقمان .

١٠ ــ « حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن إسماعيل ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : من حدثك أن محمدا – ﷺ – رأى ربه فقد كذب ، وهو يقول : لا تدركه الأبصار ، ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب وهو يقول : « لا يعلم الغيب إلا الله » .

* * *

« كأن سبب هذا القول من عائشة – رضى الله عنها – ما أخرجه عبد الرزاق فى هذا الحديث من طريق مجالد عن الشعبى ، قال : لقى ابن عباس كعباً ، فقال ابن عباس : إنا بنو هاشم نقول : إن محمدا رأى ربه مرتين ، فكبر كعب ، وقال : إن الله قسم رؤيته وكلامه بين موسى ومحمد ، فكلم موسى مرتين ، ورآه محمد مرتين ، قال مسروق : فدخلت على عائشة ، فقلت : هل رأى محمد ربه » ؟ فذكر الحديث .

قال النووى – تبعاً لغيره – : لم تنف عائشة وقوع الرؤية بحديث مرفوع ، ولو كان معها لذكرته ، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية ، وقد خالفها غيرها من الصحابة ، والصحابى إذا قال قولا ، وخالفه غيره منهم ، لم يكن ذلك حجة اتفاقا .

والمراد بالإدراك : الإحاطة ، وهو لاينافى الرؤية .

وهذا عجيب من النووى رحمه الله – فإن فى صحيح مسلم الذى شرحه هو : « قال مسروق وكنت متكئا ، فجلست فقلت : ألم يقل الله : (ولقد رآه نزلة أخرى) [1] » ؟

---

(١) الآية ١٣ من سورة النجم .

فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله – ﷺ – عن ذلك ، فقال : إنما هو جبريل .

وأخرجه ابن مردويه بسند مسلم . فقالت : « أنا أول من سأل رسول الله – ﷺ – عن هذا . فقلت : يارسول الله هل رأيت ربك ؟ فقال : لا ، إنما رأيت جبريل منهبطا » (١)

قلت : أعجب من كلام النووى ما قاله ابن خزيمة – رحمه الله – فإنه ذكر هذا الحديث بعينه – أعنى قول عائشة : « أنا سألت رسول الله – ﷺ – عن هذا قال : رأيت جبريل نزل فى الأفق ، على خلقه ، وهيئته ، ساداً ما بين الأفق » ثم بعد أسطر قال : « إن عائشة لم تحك أن النبى ﷺ أخبرها أنه لم ير ربه » (٢) فهذا ونحوه هو الذى غير النووى – رحمه الله – ودعاه إلى رد قول عائشة من غير تأمل للأدلة ؛ والله المستعان .

وكثير من العلماء يذكر الخلاف فى أن النبى ﷺ – رأى ربه ليلة – المعراج . « وليس فى الأدلة ما يقضى بأنه رآه بعينه ، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة صريحا ، ولا فى الكتاب والسنة ما يدل على ذلك ، بل النصوص الصحيحة على نفيه أدل ، كما فى صحيح مسلم ، عن أبى ذر ، قال : سألت رسول – الله ﷺ – هل رأيت ربك ؟ فقال : « نور أنى أراه » (٣)

وقد قال تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا) . ولو كان قد رأى ربه بعينه لكان ذكر ذلك أولى ، وكذلك قوله تعالى : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) (٤) . لو كان رآه لكان ذكر ذلك أولى .

---

(١) الفتح جـ ٨ ص ٦٠٧ .
(٢) انظر كتاب التوحيد لابن خزيمة ص ٢٢٦ .
(٣) انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٢ بشرح النووى .
(٤) الآية ١٨ من سورة النجم .

وفى الصحيحين ، عن ابن عباس ، فى قوله – تعالى – : (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ، والشجرة الملعونة فى القرآن) [١] قال : هى رؤيا عين ، أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسرى به ، وهذه رؤيا الآيات ، لأنه أخبر الناس بما رآه بعينه ليلة المعراج ، فكان ذلك فتنة لهم ، حيث صدقه قوم ، وكذبه قوم ، ولم يخبرهم بأنه رآى ربه بعينه ، وليس فى شئ من أحاديث المعراج الثابتة ذكر ذلك ، ولو كان قد وقع ذلك لذكره كما ذكر ما دونه » ا هـ [٢]

وبهذا تبين أن قول عائشة – رضى الله عنها – هو الراجح ، الذى تؤيده الأدلة والله أعلم ، وظاهر أن مرادها أنه تعالى لا يرى فى الدنيا .

قوله : « وهو يقول : ولا تدركه الأبصار » استدلت عائشة – رضى الله عنها – بظاهر الآية على نفى الرؤية ، وقد قال بذلك بعض المفسرين ، كما رواه ابن جرير بسنده ، عن السدى ، قال : « لا يراه شئ ، وهو يرى الخلائق » [٣] .

وذكر ابن كثير ما رواه ابن أبى حاتم بسنده إلى إسماعيل بن علية أنه قال : « هذا فى الدنيا ، وعن هشام بن عبيد الله نحوه [٤] » .

وذكر السيوطى : أن الحسن قال مثل ذلك ، قال : أخرجه أبو الشيخ ، والبيهقى فى كتاب الرؤية . [٥]

وبهذه الآية تعلق المعتزلة فى نفى رؤية الله تعالى فى الآخرة ، ووجه ذلك أنه جعل متعلق الإدراك البصر ، فلما نفاه عنه كان ظاهر ذلك نفى الرؤية . والحق ثبوت رؤية المؤمنين لله تعالى فى الآخرة ، كما تواترت النصوص فى ذلك .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٦٠ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٥٨٠ .

(٣) انظر تفسير الطبرى جـ ٧ ص ٣٠١ قال السيوطى : أخرجه ابن أبى حاتم . الدر المنثور جـ ٣ ص ٣٣٥ .

(٤) انظر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٣٠٣ .

(٥) الدر المنثور جـ ٣ ص ٣٣٥ .

والجواب عما استدلوا به : أن الرؤية ثبتت فى آيات أخر ، كقوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) [١] ، وقوله تعالى : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) [٢] والأخبار بذلك ثابتة عن رسول الله – ﷺ – بل متواترة ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

فيتعين أن المراد بالإدراك المنفى فى الآية هو الإحاطة . وبذلك فسره ابن عباس – رضى الله عنه – وغيره من السلف .

قوله : « ومن حدثك ، أنه يعلم الغيب فقد كذب ، وهو يقول : ولا يعلم الغيب إلا الله » الضمير فى قوله : « أنه يعلم » يعود على محمد – ﷺ – أى من زعم أن محمداً – ﷺ – يعلم الغيب ، فقد كذب ، لأن علم الغيب يختص بالله تعالى . كما قال تعالى مخاطبا نبيه ﷺ وآمراً له أن يقول : (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) [٣] والآيات فى هذا كثيرة .

وعلم الغيب من خصائص الرب تعالى التى بعث رسله وأنزل كتبه لبيانها ، ونفى ذلك عمن سواه تعالى .

وأما قوله تعالى : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) [٤] فهى كقوله تعالى : (ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء) [٥] فهى تبين أن الله تعالى يطلع من يشاء من رسله على ما يشاء من المغيبات ، وذلك بوحيه إليهم ، مثل إخباره عما جرى من الأمم الماضية ، وما أصيبوا به من

---

(١) الآية ٢٢ من سورة القيامة .

(٢) الآية ١٥ من سورة المطففين .

(٣) الآية ٥٠ من سورة الانعام .

(٤) الآية ٢٦ ، ٢٧ من سورة الجن .

(٥) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

العذاب وغيره ، كما قال تعالى : (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) (١) وكذلك الإخبار عن المستقبل من المعاد ، والجنة والنار ، التى أطلع الله عليها رسوله فآمن بها المؤمنون ، وعرفوها من كتاب الله تعالى ، ومن سنة رسوله ﷺ إجمالاً .

وأما الإحاطة بالمعلومات كلياتها وجزئياتها ما كان منها ، وما يكون . فهذا إلى الله وحده لا يضاف إلى غيره من الخلق ، فمن ادعى شيئا من ذلك لغير الله تعالى ، فقد أعظم الفرية على الله تعالى ، وعلى رسوله ﷺ .

« فعلم الغيب لله وحده ، ولا يقال لغيره عالم الغيب ، ومن أطلع على شئ منه بواسطة الوحى أو غيره يقال : أطلعه الله عليه ، كالإخبار عن حال البرزخ ، والحساب ، والجنة والنار ، وما أشبه ذلك ، وما يدعيه المتصوفة فى مشايخهم هو من تلاعب الشيطان بهم ، وكذا ما يسمونه الكشوف لا أصل له » ا هـ (٢)

« وقول الداودي : (ما أظن قوله : من حدثك أن محمداً يعلم الغيب محفوظاً ، وما أحد يدعي أن رسول الله ﷺ يعلم من الغيب إلا ما علمه الله تعالى) متعقب بأن بعض من لم يرسخ إيمانه يظن ذلك ، حتى ظن بعضهم أن صحة النبوة تستلزم اطلاع النبى ﷺ على جميع المغيبات ، كما فى مغازي ابن إسحاق ، أن ناقة النبى ﷺ ضلت ، فقال ابن الصليت : يزعم محمد أنه نبى ، ويخبركم عن خبر السماء ، وهو لا يدرى أين ناقته ، فقال النبى ﷺ : « إن رجلاً يقول : كذا وكذا ، إنى والله لا أعلم إلا ما علَّمنى الله ، وقد دلنى الله عليها ، وهى فى شعب كذا ، قد حبستها شجرة ، فذهبوا فجاؤا بها » فأخبر ﷺ أنه

---

(١) الآية ٤٩ من سورة هود عليه السلام .

(٢) غاية الأمانى بتصرف / حـ ١ / صـ ٣٤ .

لايعلم من الغيب إلا ما علَّمه الله » (١)

قلت : قد ادعى كثير من المتصوفة ، والغلاة أن مشايخهم ومعبوديهم من دون الله تعالى ، يعلمون الغيوب وكتبهم مشحونة بذلك مثل الطبقات الكبرى للشعرانى ، وجامع كرامات الأولياء للنبهانى ، وغيرهما من الكتب الخرافية

★ ★ ★

---

(١) القسطلانى ببعض التصرف جـ ١٠ / صـ ٣٦٥ .

قال : باب قول الله تعالى : (السلام المؤمن)

* * *

أي أن ذلك من أسماء الله تعالى التى سمى بها نفسه ، ومعناه : السالم من كل نقص وعيب . وسيأتى بيان ذلك

(قال ابن بطال : غرضه بهذا الباب إثبات أسماء من أسماء الله تعالى ، قال الحافظ : وفيما ذكره نظر ، ولو سلم له ذلك ، فإن وظيفة الشارح بيان وجه تخصيص هذه الأسماء بالذكر [١] دون غيرها ، وإفرادها بالترجمة ، ويمكن أنه أراد بهذا القدر جميع الآيات الثلاث ، فى آخر سورة الحشر ، فإنها ختمت بقوله تعالى : (له الأسماء الحسنى) .

وقد قال فى سورة الأعراف : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) [٢] وكأنه رحمه الله تعالى بعد إثبات القدرة ، والقوة ، والعلم ، أشار إلى أن الصفات السمعية ليست محصورة فى عدد معين ، بدليل الآية المذكورة [٣]

أو أراد الإشارة إلى ذكر الأسماء التى تسمى الله تعالى بها ، وأطلقت بعد ذلك على المخلوقين ، والسلام ثبت فى القرآن [٤] وفى الحديث « أنه من أسماء الله تعالى » .

---

(١) يعنى أنه قصر فى بيان وجه إيراد البخارى هذين الإسمين من بين الأسماء الأخرى .

(٢) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

(٣) هي قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) .

(٤) كما فى الآية المترجم بها .

وقد أطلق على التحية الواقعة بين المؤمنين .

والمؤمن يطلق على من اتصف بالإيمان ، وقد وقعا معاً من غير تخلل بينهما فى الآية المشار إليها ، فناسب أن يذكرهما فى ترجمة واحدة) أ . هـ [١]

قلت : ما ذكره من أن السلام أطلق على المخلوقين ، كالتحية الواقعة بين المؤمنين غير ظاهر ، لأن السلام الذى جعل تحية للمؤمنين اسم من أسماء الله تعالى ، كما رواه البخارى – رحمه الله تعالى – فى الأدب المفرد ، من حديث أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن السلام اسم من أسماء الله تعالى وضعه الله فى الأرض ، فافشوا السلام بينكم » [٢] وإسناده صحيح ، وترجم به البخارى فى الصحيح فقال : [باب السلام اسم من أسماء الله تعالى] [٣]

وفى حديث عبد الله بن مسعود المتفق عليه « إن الله هو السلام فإذا جلس أحدكم فى الصلاة فليقل التحيات لله » وسيذكره فى الباب . وقال ابن عباس : « السلام اسم الله وهو تحية أهل الجنة » أخرجه البيهقى فى الشعب [٤]

ويدل على ذلك حديث المهاجر بن قنفذ ، لما سلم على النبى ﷺ لم يرد حتى توضأ ، وقال : « إنى كرهت أن أذكر الله إلا على طهر » رواه أبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه [٥]

قال الحافظ : صححه ابن خزيمة وغيره [٦] .

---

(١) فتح البارى جـ ١٣ / صـ ٣٦٦ .
(٢) الأدب المفرد صـ ٣٤٣ .
(٣) انظر الفتح جـ ١١ / صـ ١٣ .
(٤) انظر الفتح جـ ١١ / صـ ١٢ .
(٥) انظر سنن أبى داود جـ ١ / صـ ٢٣ الحديث السابع عشر ، النسائى جـ ١ / صـ ٣٧ ، ابن ماجه رقم ٣٥٠ .
(٦) انظر الفتح جـ ١١ / صـ ١٣ .

قال الخطابي « وفيه دليل على أن السلام الذى يحي به الناس بعضهم بعضاً اسم من اسماء الله تعالى » [١]

وقد اختلف فى معناه . فنقل عياض أن معناه : اسم الله أي كلاءته عليك وحفظه كما يقال : الله معك ومصاحبك .

وقيل : معناه : أن اسم الله يذكر على الأعمال ، توقعاً لاجتماع معانى الخيرات فيها ، وانتفاء عوارض الفساد .

وقيل معناه : السلامة . كما قال تعالى : (فسلام لك من أصحاب اليمين) [٢] أن المسلم أعلم من سلم عليه أنه سالم منه ، وألاخوف عليه منه) [٣]

قلت : هذه المعانى متلازمة ، لأنه إذا حصل حفظ الله لعبده وكلاءته ، وكان معه ، فقد حصل له الخير ، والبركة والسلامة .

قال ابن دقيق العيد : « السلام يطلق على معان ، منها السلامة ، ومنها التحية ، ومنها أنه اسم من أسماء الله تعالى ، قال : وقد يأتى بمعنى التحية محضاً ، وقد يأتى بمعنى السلامة محضاً ، وقد يأتى متردداً بين المعنيين ، كقوله تعالى : (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السَّلَم) [٤]

فإنه يحتمل التحية ، والسلامة وقوله تعالى : (ولهم مايدعون ... سلام قولاً من رب رحيم) ا . هـ [٥]

---

(١) معالم السنن على هامش السنن / جـ ١ / صـ ٢٣ .
(٢) الآية ٩١ من سورة الواقعة .
(٣) الفتح جـ ١١ ص ١٣ .
(٤) الآية ٩٤ من سورة النساء ، فى الآية قراءتان فى إحداهما السلم بمعنى الاستسلام والانقياد أى استسلم وانقاد لطاعة الله وتوحيده ، والأخرى السلام ، وفسرت بالتحية بأن يقول : السلام عليكم .
(٥) الفتح جـ ١١ / صـ ١٣ والآيتان من سورة يس رقم ٥٧ - ٥٨ .

قلت : يمكن إرجاع هذه الإطلاقات إلى معنى واحد ، إذ كلها فى الحقيقة تدور على طلب السلامة ، والخلاص من الشر والأذى ، وهذا ما تضمنته التحية المشروعة بين المسلمين .

فالصواب : أن السلام اسم من أسماء الله تعالى كما تقدم . وقد أمر المسلمون أن يفشوه فيما بينهم ، فعندما يُلقى المسلم على أخيه ذلك ، فإنه يذكر الله تعالى طالباً منه السلامة متوسِّلًا إليه بذكر اسمه تعالى المناسب لطلبه ، فكأنه يقول : أنا مسالم لك أيها الأخ محب وداع لك وطالب حصول البركة والخير ، والسلامة من كل مؤذٍ ، ممن يملك ذلك متوسلاً إليه فى حصول ذلك باسمه السلام .

فتضمن ذلك ثلاثة أشياء : أحدها ذكر اسم الله تعالى .

الثانى : إعلام المسلَّم عليه : أنه مسالم له لا يناله منه أذى .

الثالث : طلب السلامة والخير له ، وبهذا يظهر أن قول من قال : إنه يطلق على التحية بين المخلوقين ، أنه لا يخالف كونه اسماً من أسماء الله ، أي أنه ليس قسيماً له ، بل التحية الواقعة بين المؤمنين هى ذكر اسم الله تعالى ، المطلوب به حصول السلامة ، وذلك أن السائل يسأل فى كل مطلوب من بالاسم المناسب لمطلوبه ، كما يعلم ذلك عند تأمل الأدعية الواردة فى كتاب الله تعالى ، وفى أحاديث رسوله ﷺ . والله أعلم .

والصواب : أن مراد البخارى – رحمه الله تعالى – بهذه الترجمة : تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوق ، وأن اشتراكه تعالى مع المخلوق فى الاسم ، أو فى معنى من المعانى لا يكون فيه تشبيه ، نحو اليد ، والرجل ، والاستواء ، والمجىء ، والضحك ، والسخط ، والعلم ، والسمع ، والبصر ، وغير ذلك مما أثبته تعالى لنفسه ، وأثبته له رسوله ، لأنه تعالى السلام ، أي السالم من كل عيب ونقص يلحق المخلوق .

« قال ابن قتيبة : سمى نفسه سلاماً لسلامته مما يلحق المخلوق من العيب والنقص والفناء ، وقال الخطابي : (معناه ذو السلام ، والسلام فى صفة الله تعالى هو الذى سلم من كل عيب ، وبرأ من كل آفة ونقص يلحق المخلوقين ، وقد قيل : هو الذى سلم الخلق من ظلمه » ا . هـ [١]

قلت : هذا القول الأخير لا ينافى الذى قبله ، بل كلاهما يدخل فى اسمه تعالى : السلام .

قال ابن كثير : « السلام من جميع العيوب والنقائص بكماله فى ذاته وصفاته وفى أفعاله » [٢]

فالسلام من الكلمات الجامعة . وحقيقته البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب ، وعلى هذا المعنى تدور تصاريف هذا اللفظ ، فمن ذلك (سلمك الله) وسلم فلان من الشر ، ومنه دعاء الرسل على الصراط « اللهم سلِّم سلِّم » وسلم الشئ لفلان أي خلص له وحده من ضرر الشركة فيه ، قال تعالى : (ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشا كسون ورجلاً سلماً لرجل) [٣] أي خالصاً له وحده لايملكه معه غيره . والسلم ضد الحرب قال تعالى : (وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها) [٤] لأن كل واحد من المتحاربين يسلم من أذى الآخر ويخلص منه ، والقلب السليم هو النقى من الغل والدغل ، الذى قد سلم لله وحده ، فخلص من دغل الشرك وغله ، ودغل الذنوب والمخالفات ، فاستقام على حب الله وحسن معاملته . ولذلك ضمن له النجاة من عذابه ، والفوز بكرامته .

---

(١) زاد المسير جـ ٨ / صـ ٢٢٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٨ / صـ ١٠٥ .

(٣) آية ٢٩ سورة الزمر .

(٤) آية ٦١ سورة الأنفال .

والإسلام أخذ من هذا المعنى ، فإنه الاستسلام لله والانقياد له والتخلص من شوائب الشرك ، والبدع المضلة .

والجنة دار السلام ، أي دار السلامة من كل آفة ونقص وشر فإطلاق السلام على الله تعالى اسماً من أسمائه أولى من هذا كله ، وهو أحق بهذا الاسم من كل مسمى به لسلامته تعالى من كل عيب ونقص من كل وجه ، فهو تعالى السلام الحق بكل اعتبار سلام فى ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم .

وسلام فى صفاته من كل عيب ونقص ، وسلام فى أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة ، فهو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار ، وهذا هو حقيقة التنزيه الذى نزه به نفسه ، ونزهه به رسوله ، فهو السلام من الصاحبة والولد ، والسلام من النظير والكفء والسمي والمماثل ، والسلام من الشريك .

ولهذا إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلاماً مما يضاد كمالها .

فحياته تعالى سلام من الموت ، والسنة والنوم ، وقيومتيه وقدرته سلام من الحاجة والتعب واللغوب ، وعلمه سلام من عزوب شئ عنه أو عروض نسيان أو حاجة إلى تذكر أو تفكر ، وإرادته تعالى ، سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة ، وكلماته تعالى سلام من الكذب ، والخلف ، والظلم ، بل تمت كلماته صدقاً وعدلاً وغناه تعالى سلام من الحاجة إلى غيره فى وجه من الوجوه ، بل كل ماسواه ، فقير إليه محتاج ، وملكه تعالى سلام من منازع فيه أو مشارك ، أو معاون مظاهر ، أو شافع عنده بدون إذنه . وإلٰهيته تعالى سلام من مشارك له فيها ، بل هو الله الذى لا إلٰه إلا هو وحلمه ، وعفوه ، وصفحه ، ومغفرته ، وتجاوزه ، سلام من أن تكون عن حاجة ، أو ذل ، أو مصانعة ، كما يكون من غيره ، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه .

وكذلك عذابه ، وانتقامه ، وشدة بطشه ، وسرعة عقابه ، سلام من أن يكون ظلماً ، أو تشفيا ، أو غلظة أو قسوة ، بل هو محض حكمته وعدله ووضعه الأشياء مواضعها ، فهو يستحق عليه الحمد والثناء ، كما يستحق على إحسانه ونعمه .

وقدره وقضاؤه سلام من العبث والجور ، والظلم .

وشرعه ودينه ، سلام من التناقض والاختلاف ، والاضطراب وعدم مصلحة العباد ورحمتهم » (١)

وهكذا جميع صفاته وأفعاله سلام من كل مايتوهمه معطل أو تخيله مشبه – تعالى ربنا السلام – عما يضاد كماله .

وأما ذكره (المؤمن) مع السلام فلبيان أن ما تسمى الله به ، وأطلق على غيره من خلقه ، فإنه لايكون بينه وبين من أطلق عليهمشابهة ، فالله تعالى سمى نفسه المؤمن ، ومن اتصف بالإيمان من عباده يسمى مؤمنا ، ولكن الله تعالى سالم من النقائص والعيوب التى تلزم الخلق لأنه تعالى هو السلام .

وهكذا كل مايطلق على غيره تعالى مما سمى به نفسه أو اتصف به نحو العزيز ، والكريم ، والرؤوف ، والرحيم ، والسميع ، والبصير ، والعليم . وهو كثير .

فلله تعالى ما يليق به من المعانى الكاملة السالمة من النقائص والعيوب وللمخلوق ما يناسبه ويليق بضعفه ، فهو محل كل عيب ونقص . والله أعلم .

المؤمن من أسمائه تعالى وهو على أحد التفسيرين المصدق الذى يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم ، فهو الذي صدق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه ، وشهد لهم بأنهم صادقون للدلائل التى دل بها على صدقهم – قضاءً وخلقاً – فإنه سبحانه أخبر – وخبره الصدق وقوله الحق – أنه لابد أن يرى

---

(١) بدائع الفوائد ملخصاً جـ ٢ / صـ ١٣٢ – ١٣٦ .

عباده من الآيات الأفقية والنفسية ما بين لهم أن الوحى الذى بلغته رسله حق كما قال تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد) [١] فشهد لرسوله أن ما جاء به حق ، ووعده أن يرى العباد من آياته الفعلية والخلقية : ما يشهد بذلك أيضاً ، ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل ، وهو شهادته تعالى على كل شئ ، فإن من أسمائه « الشهيد » الذى لايغيب عنه شئ ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . بل هو مطلع على كل شئ وشاهد له ، عليم بتفاصيله ، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته ، الأول استدلال بقوله وكلماته ، والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته » [٢]

وقال ابن الجوزي : « فأما المؤمن ففيه ستة أقوال :

أحدها : أنه الذى أمن الناس ظلمه ، وأمن من آمن به عذابه .

الثانى : أنه المجيب .

الثالث : أنه الذى يصدق المؤمنين إذا وحّدوه .

الرابع : أنه الذى وحّد نفسه ، لقوله تعالى : (شهد الله أنه لا إله إلا هو) [٣]

الخامس : أنه الذى يصدق عباده وعده .

السادس : أنه الذى يصدق ظنون عباده المؤمنين ، ولا يخيب آمالهم » ا.هـ [٤]

---

(١) الآية ٥٣ من سورة فصلت .
(٢) مدارج السالكين جـ ٣ / صـ ٤٦٦ .
(٣) الآية ١٨ سورة آل عمران .
(٤) زاد المسير / جـ ٨ / صـ ٢٢٥ .

قلت : هذه الأقوال كلها حق ، ويدل عليها اسمه تعالى « المؤمن » فهو المصدق الذى يصدق رسله بما يقيمه من الدلائل التى تدل على صدقهم ، فيما جاؤا به وبلغوه عنه تعالى ، ويصدقهم وعده بنصره إياهم على عدوهم ، ويصدق عباده ما أخبرهم به من توفيتهم مايستحقونه جزاء أعمالهم ، ولايضيع أجر أحد منهم ويؤمنهم من الظلم ، فلا يخافون ظلما ولا هضماً ، فهو الذى يجير عباده وينجيهم من المهالك والمخاوف ، وهو الذى شهد لنفسه بأنه لا إلٰه إلّا هو العزيز الحكيم .

* * *

١١ ــ قال : « حدثنا أحمد بن يونس ؛ حدثنا زهير ، حدثنا مغيرة ، حدثنا شفيق بن سلمة قال : قال عبد الله : كنا نصلى خلف النبى – ﷺ – فنقول : السلام على الله ، فقال النبى – ﷺ – : « إن الله هو السلام ، ولكن قولوا : التحيات لله ، والصلوات ، والطيبات ، السلام عليك أيها النبى ، ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا ، وعلى عباد الله الصالحين ؛ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » .

* * *

عبد الله ، هو عبد الله بن مسعود بن غافل ، الهذلى ، من أهل السوابق ، هاجر قديما إلى الحبشة ، وقد شهد مع رسول الله – ﷺ – جميع غزواته ، ولازمه ، وخدمه فكان يقال له : صاحب السواك ، والنعل ، لأنه كان يحمل سواك رسول الله – ﷺ – ونعله .

وفى الصحيحين أن أبا موسى قال : « قدمت أنا وأخى من اليمن ، فمكثنا حينا وما نرى ابن مسعود ، وأمه إلا من أهل بيت رسول الله – ﷺ – لما نرى من كثرة دخولهم على رسول الله – ﷺ – ولزومهم له »

وقال حذيفة : « ما نعلم أحداً أقرب سمتاً ، ودلا ، وهديا برسول الله – ﷺ – من عبد الله بن مسعود ، ولقد علم المحظوظون من أصحاب رسول الله – ﷺ – أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة » .

وهو من علماء الصحابة ، وفقهاءهم ، توفى فى الكوفة ، وقيل : فى المدينة سنة اثنتين أو ثلاث وثلاثين ، وله بضع وستون سنة ا هـ [1]

---

(١) الرياض المستطابة ملخصا ، وانظر الإصابة جـ ٤ ص ٢٣٣ ، وتهذيب التهذيب جـ ٦ ص ٢٧ ، وسير أعلام النبلاء جـ ١ ص ٤٦١ .

قوله : « فنقول : السلام على الله » . كأنهم رأوا السلام من قبيل الحمد ، والشكر ، فجوزوا ثبوته لله تعالى – وهو تعالى السلام ، والسلام منه بدأ وإليه يعود ، إذ هو تعالى واهب السلام لعباده ، الذى به يسلمون من شرور أنفسهم ، وشرور أعدائهم من الجن والإنس ، وهو تعالى السالم من كل ما فيه نقص أو شين ، فلا يطلب له السلام ، ولهذا قال لهم معلم الهدى ﷺ : « إن الله هو السلام » أى السالم من أن يلحقه حاجة ، أو يناله تغير أو آفة ، بل هو الكامل فى أوصافه العليا ، وأسمائه الحسنى ، وهو الغنى بذاته عن كل ما سواه .

وهذا الجزء من الحديث هو محل الشاهد الذى سيق من أجله ، لأنه يدل على أن الله – تعالى – سالم من جميع العيوب ، والنواقص التى تلحق الخلق ، فإذا سمى نفسه باسم قد يتسمى به بعض خلقه ، أو وصف نفسه بصفة قد يتصف بها بعض خلقه ، فالمعانى التى يدل عليها اسمه أو صفته تخصه تعالى لا يشاركه فيها المخلوق .

وكل نقص فى المخلوق فهو – تعالى – سالم منه ، ومتنزه عنه كما تقدم ، فهو السلام المؤمن .

قوله : « التحيات لله » قال فى اللسان : « التحيات لله » معناه : البقاء لله ، والسلامة من الآفات كلها التى تلحق العباد من العناء ، وأسباب الفناء » [1] .

وكذا قال غيره من أهل اللغة .

وجئ بلفظ الجمع ليدل على أن الله تعالى يستحق جميع الكمالات ، من العظمة ، والبقاء ، والملك ، والسلامة من الآفات والنقص ، وغير ذلك .

قال الخطابى : « لم يكن فى تحياتهم شئ يصلح به الثناء على الله تعالى ،

---

(١) لسان العرب جـ ١ ص ٧٧٥ – المرتب .

فلهذا أبهمت ألفاظها ، واستعمل منها معنى التعظيم ، فقال : « قولوا التحيات لله » أى أنواع التعظيم له » ا.هـ [١] .

وقوله : « لله » يفيد وجوب الإخلاص فى العبادة ، أى أن ذلك لايجوز أن يكون لغير الله منه شئ .

« والصلوات » أى جميع العبادات له استحقاقا بمقتضى العقل ، وبالشرع ، وذلك مثل الركوع ، والسجود ، والقيام ، والدعاء ، وأنواع العبادة له وحده لاشريك له فى ذلك .

« والطيبات » أى الأعمال الطيبات له تعالى يتوسل بها إليه ، وهو تعالى لايقبل إلا طيبا ، « وما طاب من الكلام وحسن أن يثنى به على الله ، دون ما لا يليق بصفاته » [٢] ، والوصف بالطيب يفيد خلوصها من الشرك ، وشوائبه ، وسلامتها من البدع .

« السلام » اسم الله – تعالى – الدال على سلامته من كل نقص وعيب ، فيدعى الله – تعالى – به ليسلم من ذكر عليه هذا الاسم الشريف ، من المكاره ، والمخاوف .

« عليك أيها النبى » أمرهم أن يفردوه بالسلام ، ويقدموه على أنفسهم لوجوب حقه عليهم ، ووجوب محبته التى يجب أن تكون مقدمة على النفس ، وما دونها .

والأحاديث متفقة على لفظ الخطاب ، وذكر حرف النداء « عليك أيها النبى » وقد عدل بعض الصحابة بعد وفاته – ﷺ – إلى لفظ خطاب الغائب فقالوا : « السلام على النبى » كما ذكره البخارى فى الاستئذان [٣] وأبو عوانة فى

---

(١) فتح البارى جـ ٢ ص ٣١٣ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) انظر الفتح جـ ١١ ص ٥٦ .

مسنده [١] ، وغيرهما .

وقال عبد الرزاق : « عن ابن جريج ، عن عطاء : أن أصحاب النبى – ﷺ – كانوا يسلمون – والنبى – ﷺ – حي – السلام عليك أيا النبى ورحمة الله ، وبركاته ، فلما مات قالوا : السلام على النبى ورحمة الله وبركاته » [٢]

وبهذا السند أيضا ، سمعت ابن عباس ، وابن الزبير ، يقولان فى التشهد فى الصلاة : التحيات ، المباركات لله ، الصلوات ، الطيبات لله ، السلام على النبى ورحمة الله وبركاته » [٣] .

والأولى : اتباع لفظ الحديث كما عليه الجمهور من الصحابة . ومن بعدهم من أهل العلم ، وكما أنه لا فرق بين الحاضر معه فى وقت حياته ، وبين من كان غائبا فكذلك بعد وفاته .

والنداء لطلب استحضار المنادى فى القلب ، فيخاطبه كأنه شاهد فى قلبه ، ومثل هذا معروف فى كلام العرب ، وأشعارهم ، يخاطب أحدهم من يتصوره فى نفسه ، وإن لم يكن فى الخارج من يسمع خطابه ، قال حسان بن ثابت رضى الله عنه – فى رثائه لرسول الله – ﷺ – :

ما بال عينك لا تنام كأنها ... كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعا على المهدى ، أصبح ثاويا ... ياخير من وطئ الحصى لاتبعد
وجهى يقيك ، لهفى ، ليتنى ... غيبت قبلك ، فى بقيع الغرقد
أأقيم بعدك بالمدينة بينهم ... ياليتنى صبحت سم الأسود [٤]

---

(١) انظر مسند أبى عوانة ص ٢٢٩ .
(٢) انظر المصنف جـ ٢ ص ٢٠٤ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٣ .
(٤) انظر ديوان حسان ص ٩٧ .

وقال امرؤ القيس :

يأيها الساعى ليدرك مجدنا ثكلتك أمك هل ترد قتيلا [١]

وقالت الخنساء فى أخيها صخر :

ألا ياصخر إن أبكيت عينى لقد أضحكتنى دهراً طويلا
بكيتك فى نساء معولات وكنت أحق من أبدا العويلا
دفعت بك الجليل وأنت حى فمن ذا يدفع الخطب الجليلا
إذا قبح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلا [٢]

وهذا كثير جدا ، ولا يحتاج إلى ذكر الشواهد عليه ، لشهرته .

وبهذا وأمثاله يتبين ضلال المغرورين الذين يستغيثون بالأنبياء ، والأولياء ويتعلقون بشبه واهية ، مثل استدلالهم بلفظ النداء ، والخطاب المذكور فى هذا الحديث ، على حضور النبى – ﷺ – عند كل من يناديه ، ويخاطبه ولذلك جوَّزوا التوجه إليه ، ومناداته ، فى كل ملمة فضلُّوا بذلك وأضلُّوا كثيرا .

مع أن هذه الصيغة هى التى كان النبى ﷺ – يقولها فى تشهده والأمة تبع له ، تقول مثل ما كان يقول ، كما فى شرح الآثار للطحاوى بسنده إلى عبد الله بن الزبير ، قال : « إن تشهد رسول الله – ﷺ – الذى كان يتشهد به .

بسم الله ، وبالله خير الأسماء ، التحيات ، الطيبات ، الصلوات لله ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالحق بشيرا ، ونذيرا ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، السلام عليك أيها النبى ، ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، اللهم اغفر لى

---

(١) انظر ديوان امرؤ القيس ص ١٧٨ .

(٢) انظر ديوان الخنساء ص ١٢٠ .

واهدنى » ا هـ [١] .

وهو أيضا عند البزار [٢] .

قال الحافظ : « فإن قيل : لم عدل عن الوصف بالرسالة إلى الوصف بالنبوة ، مع أن الوصف بالرسالة أعم فى حق البشر ؟

أجاب بعضهم : بأن الحكمة فيه أن يجمع له الوصفين ، لأنه وصفه بالرسالة فى آخر التشهد ، وإن كانت الرسالة تستلزم النبوة ، لكن الجمع بينهما أبلغ » [٣] ولأنها وجدت فى الخارج مقدمة على الرسالة فى الوحى كما فى قوله تعالى : (اقرأ باسم ربك) .

★ ★ ★

---

(١) شرح معانى الآثار جـ ١ ص ٢٦٥ .

(٢) انظر كشف الأستار جـ ١ ص ٢٧٢ .

(٣) انظر الفتح جـ ٢ ص ٣١٤ .



قال : « باب قول الله تعالى : « ملك الناس » .

* * *

الملك هو المتصرف بالأشياء حسب إرادته ، ومشيئته ، لا رادَّ لأمره ، ولا معقِّب لحكمه .

وخص الناس لأنهم الذين يملكون بعض الأشياء ، وفيهم ملوك . فهو تعالى ملك من يملك ، وملك الملوك ، فدخل غيرهم فى المعنى وملكه تعالى دائم لا يزول .

قال الطبرى : أخبر أنه ملك الناس « وهو ملك جميع الخلق ، إنسهم وجنهم وغير ذلك ، إعلاما منه بذلك من كان يعظم الناس ، تعظيم المؤمنين ربهم – أنه ملك من يعظمه ، وأن ذلك فى ملكه وسلطانه ، تجرى عليه قدرته ، وأنه أولى بالتعظيم ، وأحق بالتعبد له ممن يعظمه ، وتعبد له من الناس » ا هـ [١]

قال الراغب : « الملك هو المتصرف بالأمر والنهى » [٢] .

وقال الزجاج : « قال أصحاب المعانى : الملك : النافذ الأمر فى ملكه ، إذ ليس كل مالك ينفذ أمره وتصرفه فيما يملكه ، فالملك أعم من المالك ، والله تعالى مالك المالكين كلهم ، والمُلَّاك إنما استفادوا التصرف فى أملاكهم من جهته تعالى » [٣] .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٣٠ ص ٣٥٤ .

(٢) المفردات ص ٤٧٢ .

(٣) تفسير الأسماء الحسنى ص ٣٠ .

وقال الطبرى : « ولا خلاف بين جميع أهل المعرفة بلغات العرب أن الملك من المُلك مشتق ؛ وأن المالك من المِلك [١] مأخوذ ، فتأويل قراءة من قرأ « ملك يوم الدين » أن لله الملك يوم الدين خالصا ؛ دون جميع خلقه الذين كانوا قبل ذلك فى الدنيا ملوكا جبابرة ، ينازعونه الملك ، ويدافعونه الانفراد بالكبراء ، والعظمة والسلطان والجبرية ، فأيقنوا بلقاء الله يوم الدين أنهم الصغرة . الأذلة ، وأن له - دونهم ودون غيرهم - الملك والكبرياء ، والعزة والبهاء ، كما قال جل ذكره وتقدست أسماؤه : (يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شئ لمن الملك اليوم . لله الواحد القهار) [٢] ، فأخبر تعالى ذكره أنه المنفرد يومئذ بالملك ، دون ملوك الدنيا ، الذين صاروا يوم الدين من ملكهم إلى ذلة وصغار ، ومن دنياهم فى معادهم إلى خسار » [٣]

قوله : « فيه ابن عمر » أى يدخل فى هذا الباب حديث ابن عمر ، وهو كحديث أبى هريرة المذكور فى هذا الباب سواء ، وسيأتى إن شاء الله تعالى .

* * *

---

(١) الأول بضم الميم والثانى بكسرها .

(٢) الآية ١٦ من سورة غافر .

(٣) تفسير الطبرى جـ ١ ص ١٤٨ - ١٤٩ .

١٢ ــ قال : « حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى يونس ، عن ابن شهاب ، عن سعيد – هو ابن المسيب – عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟

* * *

أبو هريرة عرف بكنيته ، واختلف فى اسمه واسم أبيه اختلافا كثيرا ، وصحح البخارى والنووى وغيرهما من الحفاظ أن اسمه عبد الرحمن بن صخر .

قدم على النبى – ﷺ – مسلماً – وهو يقسم غنائم خيبر ، ثم لازم رسول الله ﷺ – حضرا وسفرا ، فلم يشغله عن ملازمته أهل ولا مال .

وهو أحفظ الصحابة ، بل أحفظ الأمة ، ولهذا صار هدفا لأهل الإلحاد بسبب كثرة ما يغضبهم من مروياته .

قال الشافعى : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث دهرا [١] .

جاء فى صحيح مسلم فى قصة إسلام أمه ، أنه قال : قلت : يارسول الله ادع الله أن يحببنى الله أنا وأمى إلى عباده المؤمنين ، ويحببهم إلينا ؟ فقال النبى ﷺ : « اللهم حبب عبدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين ، وحبب إليهما المؤمنين .

قال أبو هريرة : فما خلق الله مؤمنا يسمع بى ، ولا يرانى إلا أحبنى » [٢] .

ولهذا صار حبه علامة الإيمان ، وبغضه علامة النفاق والكفر .

---

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات ص ١ ص ٢٧٠ .

(٢) صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٩٣٩ .

توفى – رضى الله عنه – فى المدينة ، وقيل بالعقيق ، سنة سبع أو تسع وخمسين عن ثمان وسبعين سنة . [١] .

قوله : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوى السماء بيمينه » . القبض هو أخذ الشئ باليد وجمعه ، والطى هو ملاقاة الشئ بعضه على بعض ، وجمعه وهو قريب من القبض . وهذا من صفات الله تعالى الاختيارية ، التى تتعلق بمشيئته وإرادته ، وهى ثابتة بآيات كثيرة وأحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ ، وهى مما يجب الإيمان به . لأن ذلك داخل فى الإيمان بالله تعالى ، ويحرم تأويلها المخرج لمعانيها عن ظاهرها ، وقد دل على ثبوتها لله تعالى العقل أيضاً ، فإنه لا يمكن لمن نفاها إثبات أن الله هو الخالق لهذا الكون المشاهد ، لأن الفعل لا بد له من فاعل ، والفاعل لابد له من فعل ، وليس هناك فعل معقول إلا ما قام بالفاعل ، سواءاً كان لازماً كالنزول والمجئ ، أو متعدياً كالقبض والطى . فحدوث ما يحدثه تعالى من المخلوقات تابع لما يفعله من أفعاله الاختيارية القائمة به تعالى .

وهو تعالى حى قيوم ، فعال لما يريد ، فمن أنكر قيام الأفعال الاختيارية به تعالى [٢] فإن معنى ذلك أنه ينكر خلقه لهذا العالم المشاهد ، وغير المشاهد وينكر قوله إنه على كل شئ قدير ، فالعقل دل على ما جاء به الشرع [٣] .

وما صرح به فى هذا الحديث من القبض والطى ، قد جاء صريحاً أيضاً فى كتاب الله تعالى ، كما قال تعالى (وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) . [٤] .

---

(١) انظر الإصابة جـ ٧ ص ٤٢٥ ، سير أعلام النبلا جـ ٢ ص ٥٧٨ ، الاستيعاب جـ ٤ ص ١٧٦٨ ، أسد الغابة جـ ٦ ص ٣١٨ وغيرها .

(٢) قلنا الاختياريه لأنها تقع باختيارية تعالى وإرادته ومشيئته .

(٣) أنصح القارئ إلى الرجوع في هذه المسألة العظيمة : إلى كتب شيخ الإسلام ابن تيمية كدرء تعارض العقل والنقل والرسالة الكمالية وغيرهما من كتبه .

(٤) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

والأحاديث والآثار عن السلف فى صريح الآية ، والحديث المذكور في الباب كثيرة وظاهرة جلية ، لا تحتمل تأويلاً ولا تحتاج إلى تفسير ، ولهذا صار تأويلها تحريفاً وإلحاداً فيها ، وسيأتى إن شاء الله تعالى ذكر ما تيسر من ذلك في باب قوله تعالى : (لما خلقت بيدى) .

وقوله : « ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض » أى أنه تعالى ينفرد بالملك ، فهو الملك حقاً الذى لامنازع له ، ولا معاون ، ولا ظهير ولا شريك ، وفي ذلك اليوم ، عندما يقبض الأرض بيده ، ويطوى السموات بيمينه ، ويصبح كل شئ في قبضته ، ينادى الذين كانوا ينازعونه فى الدنيا ملكه ، ويتعدون على سلطانه ، من المتكبرين ، والمتجبرين ، من ملوك الدنيا ، وقد انفرد مالك الملك الواحد القهار ، ذى السلطان – وهو متفرد به فى كل آن – غير أنه في ذلك اليوم ينكشف جلياً – فيناديهم بما يتضمن توبيخهم وتهديدهم – أين ملوك الدنيا ؟ فهل يستطيعون منعاً أو رداً ؟ وهل لديهم قوة أو حيلة أو فدى ؟ لقد ذهب منهم كل شئ ، وبقيت التبعات والذل والحسرات .

قال بعض شراح البخارى : « قوله ملك الناس داخل في معنى التحيات لله أى الملك لله ، وكأنه ﷺ أمرهم بأن يقولوا التحيات ، امتثالاً لأمر ربه (قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس)

ثم قال : « وفي الحديث إثبات اليمين صفة لله تعالى ، من صفات الذات ، وليست جارحة ، خلافاً للمجسمة » [1] .

قلت : قوله : « وليست جارحة » من كلام أهل البدع ، الذين عدلوا عما جاء في الكتاب والسنة من الألفاظ إلى ما ابتدعوه من الألفاظ الموهمة للنقص – تعالى الله – توهماً منهم أن تلك الألفاظ الواردة في كتاب الله ، وسنة رسوله ،

---

(١) فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٦٨ .

يتضمن ظاهرها التشبيه لصفات الخلق ، وهذا من ظن السوء بالله وبكتابه وبرسوله الذى أرداهم فضلوا سواء السبيل ، وأضلوا كثيراً من عباد الله .

وقوله : « خلافاً للمجسمة » يقال له : من هم المجسمة الذين تقصدهم ؟ وهل تستطيع أن تعين طائفة تؤمن بكتاب الله وسنة رسوله تقول : إن يمين الله جارحة ؟ أو أن الله جسم ؟ [١] فهؤلاء لا وجود لهم ، ولكن مراده الذين آمنوا بمثل هذا النص على ظاهره ، وقالوا : إن لله يدين حقيقيتين بدون تأويل ، كما هو الواجب على المسلم ، لأنه صريح النصوص ، وأيقنوا أن تأويل اليد واليمين ، ونحوها من صفات الله ، بالقوة أو القدرة ، أو النعمة ، أو ما أشبه ذلك ، تحريف كتحريف اليهود الذين حرفوا الكلم عن مواضعه .

فهذا الشارح ومن على نهجه إلى اليوم يسمون هؤلاء مجسمة ، ظناً منهم أن من أثبت هذه الصفات على ظاهرها ، لزمه أن يكون مجسماً ، لربه ومشبها له بأجسام الخلق تعالى الله أن يكون له مثل أو شبيه .

قال شيخ الاسلام : (وليس هناك من أطلق لفظ الجسم ، لكن نفات الصفات يسمون كل من أثبتها مجسماً ، بطريق اللزوم ، إذ كانوا يقولون : إن الصفات لاتقوم إلا بالجسم ، وذلك أنهم اصطلحوا في معنى الجسم على غير المعنى المعروف في اللغة ، فإن الجسم في اللغة هو البدن ، وهم يسمون كل ما يشار إليه جسماً ، فيلزم على قولهم أن كل ما جاء به الكتاب والسنة وما فطر الله عليه عباده ، وما [عليه] سلف الأمة ، وأئمتها تجسيماً ، فهم يطلقون لفظ المجسمة والمشبهة ، على اتباع السلف » . [٢]

---

(١) الذين نسبوا إلى التجسيم وذكرهم أصحاب المقالات بأسماءهم هشام ابن الحكم ، وهشام بن سالم الجواليقى ومقاتل بن سليمان ، وداود الجواربى ، وكلهم رافضة .

(٢) بيان تلبيس الجهمية جـ ١ صـ ٦٢٦ .

وقال : « لفظ الجسم لم يتكلم به أحد من الأئمة والسلف ، فى حق الله تعالى – لا نفياً ولا إثباتاً ، ولاذموا أحداً ولا مدحوه بهذا الاسم ، ولاذموا مذهباً ولا مدحوه بهذا الاسم ، وإنما تواتر عنهم ذم الجهمية ، الذين ينفون الصفات وذموا طوائف منهم ، مثل المشبهة وبينوا مرادهم بالمشبهة » [١] .

قال الحافظ : « الذى يظهر لى أنه أشار [بهذه الترجمة] إلى ما قاله شيخه نعيم بن حماد : « يقال للجهمية أخبرونا عن قول الله تعالى بعد فناء خلقه ، (لمن الملك اليوم) فلا يجبه أحد ، فيرد على نفسه ، (لله الواحد القهار) ، وذلك بعد انقطاع ألفاظ خلقه بموتهم ، أفهذا مخلوق ؟ » [٢] .

قلت : يظهر لى أن مراده بهذا الباب كالباب الذى قبله أن هذا الاسم الكريم (الملك) من أسماء الله الحسنى ، وقد أطلق على بعض خلقه ولم يكن في ذلك تشبيه ، إذا المعنى الذى يختص به الله تعالى لا يشاركه فيه أحد من خلقه ، فهو مالك الملك ، وله الملك التام المطلق ، وهو الذى يهب للمخلوق الملك ، مع أن ملك المخلوق ناقص يناسب نقصه ، قال تعالى : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شئ قدير) [٣] .

وأما التوفيق بين الحديث ، والترجمة فظاهر ، وهو أن الناس الذين يوجد

---

(١) نفس المصدر حـ ١ صـ ٤٧ ، ومراد السلف بالمشبهة : الذين يمثلون صفاته تعالى بصفات خلقه ، نحو اليد والوجه فيجعلون يده تعالى كيد المخلوق ووجهه كوجه المخلوق – تعالى الله عن ذلك .

(٢) الفتح حـ ١٣ صـ ٣٦٨ .

(٣) الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

منهم الملوك والجبابرة ، والذين يذل لهم ويخضع بعض العباد ، وقد يصرفون لهم ما هو خالص حق الله من العبادة ، هؤلاء ملك له ، تحت قهره ، آخذ بنواصيهم ، يتصرف فيهم كيف يشاء ، ويظهر ذلك جلياً لكل أحد ، يوم يقبض الله الأرض ويطوى السموات بيمينه ، ويقول أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ فيعرف قدرهم وقدر ملكهم الذى أورثهم الذل والصغار . والله أعلم .

★ ★ ★

قال : « باب قول الله تعالى : « وهو العزيز الحكيم [١] – سبحان ربك رب العزة عما يصفون [٢] ولله العزة ، ولرسوله – [٣] ومن حلف بعزة الله ، وصفاته »

* * *

« العزيز » هو الذى له العزة التامة ، والقوة الكاملة ، فلا يعجزه شئ ، القاهر لكل شئ ، فلا يمتنع من قوته شئ ، المنيع الذى لا ينال ولا يغالب .

« فالعزة تتضمن القوة ، ولله القوة جميعا ، يقال : عز يَعَزُ بفتح العين إذا اشتد وقوى ، ومنه الأرض العزاز – الصلبة الشديدة – ويعز يعِز بكسر العين إذا امتنع ممن يرومه ، ويعز يعُز بضم العين إذا غلب وقهر .

فأعطوا أقوى الحركات – وهى الضمة – لأقوى المعانى – وهو الغلبة ، والقهر للغير ، وأضعفها – وهى الفتحة لأضعف هذه المعانى – وهو كون الشئ فى نفسه صلبا ، والحركة المتوسطة – وهى الكسرة للمعنى المتوسط – وهو القوى الممتنع عن غيره ، ولا يلزم منه أن يقهر غيره ، ويغلبه .

---

(١) الآية ٤ من سورة إبراهيم و ٦٠ من سورة النحل و ٢٦ من سورة العنكبوت ، و ٤٢ منها أيضا و ٢٧ من سورة الروم و ٩ من سورة لقمان و ٢ من سورة فاطر و ١ من سورة الحديد و ١ من سورة الحشر والأخيرة منها ، والأولى من سورة الصف ، و ٣ من سورة الجمعة .

(٢) الآية ١٨٠ من سورة الصافات .

(٣) الآية ٨ من سورة المنافقون .

والعز ضد الذل ، والذل أصله الضعف والعجز ، فالعز يقتضى كمال القدرة ، ولهذا يوصف به المؤمن ، ولا يكون ذما له ، بخلاف الكبر .

قال رجل للحسن البصرى : « إنك متكبر ، فقال : لست بمتكبر ، ولكنى عزيز » .

وقال تعالى : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) (١) .

وقال ابن مسعود : « ما زلنا أعزة ، منذ أسلم عمر » (٢) .

وقال النبى - ﷺ - « اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين ، عمر ابن الخطاب ، أو أبى جهل بن هشام » (٣) .

وفى بعض الآثار : « إن الناس يطلبون العزة فى أبواب الملوك ، ولا يجدونها إلا فى طاعة الله - عز وجل » .

وفى الحديث : « اللهم أعزنا بطاعتك ، ولا تذلنا بمعصيتك » .

وقال بعضهم : « من أراد عزاً بلا سلطان ، وكثرة بلا عشيرة ، وغنى بلامال ، فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة » .

فالعزة من جنس القوة » ا هـ (٤) .

قال الحافظ : « العزيز الذى يقهر ولا يقهر ، فأن العزة التى لله - تعالى - هى الدائمة الباقية ، وهى العزة الحقيقية الممدوحة ، وقد تستعار العزة للحمية والأنفة ، فيوصف بها الكافر والفاسق ، وهى صفة مذمومة ، ومنه قوله تعالى (أخذته العزة بالإثم) (٥) ، وأما قوله : (من كان يريد العزة فلله

---

(١) الآية ٨ من سورة المنافقون .
(٢) رواه البخارى وغيره ، انظر الفتح جـ ٧ ص ٤١ .
(٣) قال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الكبير ، والأوسط ، انظر مجمع الزوائد جـ ٩ ص ٦١ .
(٤) طريق الهجرتين ص ١٠٩ .
(٥) الآية ٢٠٦ من سورة البقرة .

العزة جميعا) [١] فمعناه : من كان يريد أن يعز ، فليكتسب العزة من الله ، فإنها لا تنال إلا بطاعته ، ومن ثم أثبتها لرسوله وللمؤمنين ، فقال تعالى : (ولله العزة ، ولرسوله وللمؤمنين) [٢] . وقد ترد العزة بمعنى الصعوبة ، كقوله تعالى : (عزيز عليه ما عنتم) [٣] ، وبمعنى الغلبة ومنه (وعزنى فى الخطاب) [٤] ، وبمعنى القلة : كقولهم : شاة عزوز إذا قلَّ لبنها وبمعنى الامتناع ، ومنه قولهم : أرض عزاز ، بفتح أوله مخففا » ا هـ [٥]

« الحكيم » هو الذى يضع الأشياء مواضعها التى يحسن أن توضع فيها ، ولا يدخل تدبيره خلل ولا زلل ، وهذا من أسماءه تعالى الحسنى التى كثر ذكرها ، فى القرآن ، وما جاء عن رسول الله – ﷺ – وهو تعالى موصوف بالحكمة ، وقد دل على ذلك شرعه – تعالى – وخلقه ، فمن الضلال إنكار ذلك ، وكفى بالمرء ضلالا أن ينفى عن الله تعالى ما وصف به نفسه ، ووصفه به رسله .

« سبحان ربك » « أصل التسبيح عند العرب ، التنزيه لله عن إضافة ما ليس من صفاته إليه ، والتبرى من ذلك ، كما قال أعشى بن ثعلبة :

أقول لما جاءنى فخره سبحان من علقمة الفاخر

أى سبحان الله من فخر علقمة ، أى تنزيها لله مما أتى علقمة من الافتخار على وجه التكبر منه لذلك » [٦] .

---

(١) الآية ١٠ من سورة فاطر .

(٢) الآية ٨ من سورة المنافقين .

(٣) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

(٤) جزء من الآية ٢٣ من سورة ص .

(٥) الفتح جـ ١٣ ص ٣٦٩ وذكر أن هذا كلام الراغب ، ولكن الحافظ تصرف فيه وغيَّر وزاد ونقص ولهذا أضفته إليه .

(٦) ابن جرير الطبرى فى تفسيره جـ ١ صـ ٢١١ .

وقال أيضا : « وسبحان : مصدر ، لا تصرف له ، ومعناه : نسبحك » (١)

وفى تاج العروس : « وسبحانه تنزيها لله عن كل ما لا ينبغى أن يوصف به ، قال الزجاج : سبحان فى اللغة تنزيها لله – عز وجل عن السوء » (٢) .

فالتسبيح : تنزيه الله تعالى عمالا يليق بعظمته ، مأخوذ من السبح ، وهو الأبعاد والسرعة فى السير ، يقال فرس سبوح إذا كانت تسرع فى السبح الذى هو السير والجرى ، ومنه قوله تعالى : (والسابحات سبحا) فسرت بالخيل ، وبالسفن ، وبالنجوم ، وكلها تسبح وتبعد فى سبحها .

وقوله : « رب العزة » أى ذى العزة وصاحبها ، فرب هنا بمعنى ذى وصاحب ، والعزة صفته فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة ، وأخذ اسمه تعالى « العزيز » منها .

وقوله : « عما يصفون » أى تنزيها وتقديساً لذى العزة التى لا ترام ، عن الذى يصفه به المشركون ، من أن له صاحبة أو ولدا ، أو شريكا ، أو وليا من الذل ، أو أن أحدا يشفع عنده بدون إذنه ، أو أن أحدا يتصرف فى ملكه بدون إرادته ومشيئته .

وتنزيها لذى العزة التى غلب بها كل شئ عما يقوله المعطلون لصفاته ، حيث أنكروها أو أولوها تأويلا يؤول إلى إنكارها ، وتنزيها له تعالى عما يقوله المحرفون الملحدون فى صفاته الظانون بالله ظن السوء ، حيث توهموا أن اتصافه – تعالى – بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله – ﷺ – يقتضى التشبيه ، فحرفوا صفاته عما أراده بناء على أوهامهم الباطلة .

---

(١) المصدر نفسه جـ ١ صـ ٢٢١ .

(٢) تاج العروس جـ ٢ ص ١٥٦ .

وقوله : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » أى لله القوة والغلبة والقهر .

والعزة من صفات ذاته تعالى التى لا تنفك عنه ، فغلب بعزته وقهر بها كل شئ وكل عزة حصلت لخلقه فهى منه ، وكل من كان إليه أقرب وله أطوع كانت عزته أتم وأكمل من غيره ، ولهذا قال تعالى : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) وسبب نزول هذه الآية الكريمة قول رأس المنافقين : عبد الله بن أُبى بن سلول الذى ذكره الله عنه : (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) [١] ، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما [٢] ، يقصد بالأعز نفسه وذويه ، وبالأذل رسول الله - ﷺ - وأصحابه .

وقوله : « ومن حلف بعزة الله وصفاته » . وصفاته من عطف العام على الخاص . ومراده : أنه قد ثبتت النصوص بالحلف بعزة الله وبصفاته نحو كلماته ، وقد تقرر فى دين الإسلام أنه لا يحلف بغير الله - تعالى - وأن الحلف بغيره شرك كما صح عن الرسول ﷺ أنه قال : « من حلف بغير الله ، فقد كفر أو أشرك » [٣] وعند أبى داود ، « من حلف بغير الله فقد أشرك » [٤] .

وعنده أيضا عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ : « لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ، ولا بالأنداد ، ولا تحلفوا إلا بالله ، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون » [٥]

---

(١) الآية ٨ من سورة المنافقون .

(٢) انظر البخارى مع الفتح جـ ٨ ص ٦٤٤ ، ومسلم جـ ٤ ص ١٩٩٩٨ .

(٣) رواه الترمذى وقال : حسن ، انظر الترمذى مع تحفة الأحوذى جـ ٢ ص ٣٧١ .

(٤) السنن جـ ٣ صـ ٥٧٠ ، ورواه أحمد فى مسنده جـ ٢ ص ٣٤ .

(٥) السنن جـ ٣ ص ٥٦٩ .

وفى الصحيحين ، عن عبد الله بن عمر ، أن رسول الله - ﷺ - أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير فى ركب ، يحلف بأبيه ، فقال : « ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » [١] .

وبهذا يتبين أن الحلف بقدرة الله ، وعزته وسائر صفاته ، أنه كالحلف به تعالى ، وأن صفاته ليست مخلوقة ، لأنه لا يجوز الحلف بالمخلوق ، ولا منفصلة عنه تعالى .

وبهذا يظهر مراد البخارى - رحمه الله - بهذا الباب وهو إثبات الصفات لله تعالى ، والرد على من أنكرها كالمعتزلة ، ومن تابعهم ، وقد تقدم الكلام فى ذلك .

قال الحافظ : « والذى يظهر أن مراد البخارى بالترجمة إثبات العزة لله راداً على من قال : إنه عزيز بلا عزة ، كما قالوا : العليم بلا علم » [٢] .

قلت : لا يقصد إثبات العزة بخصوصها ، بل مع سائر الصفات كما هو ظاهر .

قوله : « وقال أنس : عن النبى - ﷺ - تقول جهنم قط قط وعزتك »

وقال أبو هريرة : عن النبى - ﷺ - يبقى رجل بين الجنة ، وهو آخر أهل النار دخولا الجنة ، فيقول : رب اصرف وجهى عن النار ، لا أسألك غيرها .

قال أبو سعيد : أن رسول الله - ﷺ - قال : « قال الله : عز وجل - : لك ذلك وعشرة أمثاله » .

وقال أيوب : « وعزتك لا غنى بى عن بركتك » .

هذه المعلقات قد رواها موصلة ، فحديث أنس سيذكره فى هذا الباب

---

(١) انظر البخارى مع الفتح جـ ١١ ص ٥٣٠ ، ومسلم جـ ٤ ص ١٢٣٩ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٣٧٠ .

موصولا ، وحديث أبى هريرة يأتى كذلك ، وقد تقدم أيضا فى الرقاق ، وقول أيوب عليه السلام قد رواه فى الوضوء ، وفى أحاديث الأنبياء .

والمراد من هذه الأحاديث هنا ظاهر ، إذ فيها الحلف بعزة الله تعالى ولايحلف الا بالله أو بصفاته . ولكن حديث أبى هريرة لم يذكر محل الشاهد منه ، وإنما أشار إليه وهو قول الرجل يخاطب رب العالمين « وعزتك لا أسألك غيرها » .

★ ★ ★

١٣ ـــ قال : « حدثنا أبو معمر ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا حسين المعلم ، حدثنى عبد الله بن بريدة ، عن يحى بن يعمر ، عن ابن عباس ، أن النبى ﷺ – كان يقول : « أعوذ بعزتك ، الذى لا إله إلا أنت ، الذى لا يموت ، والجن والإنس يموتون » .

* * *

قوله : « كان يقول » يدل على أنه سمع ذلك من النبى ﷺ مراراً ، لما يفهم من لفظة « كان » .

وقوله : « أعوذ بعزتك » العوذ : هو الالتجاء والاعتصام ، وحقيقته الهرب من المخوف إلى المجير العاصم ، فالعائذ بالله – تعالى – قد هرب مما يخافه ، ويؤذيه أو يهلكه إلى ربه ومالكه العزيز الذى لا يغالب ، يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويجير من احتمى به .

فالاستعاذه هى : الالتجاء إلى الله ، والاحتماء بجنابه من شر كل ذى شر ، والعوذ يكون لدفع الشر ، واللوذ يكون لطلب الخير ، كما قال بعض الشعراء :

يا من ألوذ به فيما أمله ۝ ويا من أعوذ به فيما أحاذره

وعزة الله تعالى صفته كما تقدم ، فالنبى – ﷺ – وهو أعلم الخلق بالله وأتقاهم له – يتعوذ بصفاته تعالى ، لأن ذلك من عبادة الله بل هو من أفضلها امتثالا لقوله – تعالى – : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) . ومثل الاستعاذة بصفات الله – تعالى – الحلف بها كما مر قريباً .

وقوله : « الذى لا إلٰه إلا أنت » أى أنت الإلٰه الحق ، الذى تجب عبادته على عباده وكل تأله لغيره فهو ضلال ، يوجب الشقاء الأبدى ، والخلود فى النار ، فلذلك لا أتوجه بتألهى إلا إليك يارب . فلا إله لى غيرك ، فبك أعوذ ، وإليك ألوذ .

« الذى لا يموت » أى فأنت ياإلهى الحي القيوم ، الذى لا تأخذه سنة ولانوم ، لا مبدأ لوجودك ولا منتهى لبقائك ، وأنت الغنى بذاتك عن كل ما سواك ، والخلق كلهم فقراء إليك ، وكانوا عدما قبل إيجادك إياهم ، وهم عرضة للأمراض ، والآفات والتغيرات والفناء ، وأنت يارب الباقى وحدك ، والخلق كلهم يموتون ، فلارب سواك يتصرف بالخلق كيف يشاء ، ويغير ولا يتغير جل وعلا .

قوله : « والجن والإنس يموتون » . المقصود بذكر الجن والإنس جنس الخلق ، والمعنى أن الخلق كلهم يموتون ، ولا يبقى إلا الحي القيوم كما قال تعالى : (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) (١) وسمى الجن جنا لاستتارهم عن أعين الناس . من الاجتنان ، كما قال تعالى : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) (٢) وأما الإنس فسموا بذلك لأن بعضهم يأنس ببعض غالبا ، أو لأنهم يرون ويؤنسون أى يحس بهم ويشاهدون ، وذكر الجن والإنس لا ينفى عن الملائكة الموت ، لأن هذا خاص قصد به الجن والإنس ، أو على ما تقدم ذكر الجنس ، والمقصود عموم الخلق . وقد جاء ما يدل على هلاك عموم الخلق كقوله تعالى : (كل شئ هالك إلا وجهه) (٣)

وقد قيل : إن الملائكة يدخلون فى الجن ، لاجتنانهم واستنتارهم عن أعين الناس فالله اعلم .

* * *

---

(١) الآية ٢٦ و ٢٧ من سورة الرحمن .

(٢) الآية ٢٧ من سورة الأعراف .

(٣) آخر آية من سورة القصص .

١٤ ــ قال : « حدثنا ابن أبى الأسود ، حدثنا حرمى ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أنس ، عن النبى – ﷺ – قال : « يلقى فى النار . ح .

وقال لى خليفة : حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أنس ح .

وعن المعتمر ، سمعت أبى ، عن قتادة ، عن أنس ، عن النبى – ﷺ – قال : « لا يزال يلقى فيها ، وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع فيها رب العالمين قدمه فينزوى بعضها إلى بعض ، ثم تقول : قد قد ، بعزتك ، ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ الله خلقا ، فيسكنهم فضل الجنة » .

* * *

أنس هو ابن مالك بن النضر ، بن ضمضم ، الأنصارى ، الخزرجى ، خادم رسول الله – ﷺ – وأحد المكثرين من الرواية عنه ؛ قدم النبى – ﷺ – المدينة وهو ابن عشر سنين ، فأتت به أمه إلى رسول الله – ﷺ – وعرضت عليه أن يخدمه ، فقبل ذلك النبى – ﷺ – فلازم النبى فى السفر ، والحضر عشر سنوات ، ودعا له رسول الله – ﷺ – بأن يكثر ماله وولده ، وأن يدخله الجنة ، قال أنس « قد رأيت اثنتين ، وأنا أرجو الثالثة » توفى فى البصرة سنة ثلاث وتسعين ، وله مائة وثلاث سنوات ، وهو آخر من مات فى البصرة من الصحابة » [١]

---

(١) الإصابة جـ ١ ص ١٢٧ .

قوله : « لا يزال يلقى فيها » الضمير « فيها » يعود إلى جهنم ، والمعنى أنه يستمر إلقاء من يستحق النار فيها ، وهى تطلب الزيادة منهم ، قال الله تعالى : (يوم نقول لجهنم : هل امتلأتِ ؟ وتقول : هل من مزيد ؟) (١)

قال ابن كثير : يخبر تعالى : أنه يقول لجهنم : هل امتلأتِ ؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين . فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها ، ويلقى [فيها] وهى تقول : هل من مزيد ؟ أى هل بقى شئ تزيدنى ، هذا هو الظاهر من سياق الآية ، وعليه تدل الأحاديث » (٢) يقصد بالأحاديث مثل هذا الحديث ، فإن ظاهره أن الاستفهام لطلب الزيادة ، وهو الصحيح الذى يدل عليه ظاهر القرآن ، والأحاديث الصحيحة .

قوله : « حتى يضع فيها رب العالمين قدمه » فى رواية « حتى يضع رب العزة فيها قدمه » وهذه الرواية هى المناسبة لهذا الباب ، ولكن البخارى اكتفى بالإشارة إليها على عادته ، وفى رواية أبى هريرة : « يقال لجهنم : هل امتلأتِ ؟ وتقول : هل من مزيد ؟ فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها » ، وفى رواية « حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ » وفى أخرى « حتى يضع رجله ، فتقول قط قط » وهذه الروايات كلها فى البخارى واتفق معه مسلم عليها (٣)

وعند الدارقطنى فى الصفات : « فأما النار فليقى فيها ، وتقول : هل من مزيد – ثلاث مرات – حتى يأتيها تبارك وتعالى فيضع قدمه عليها ، فتنزوى ، وتقول فدنى فدنى » (٤) .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة ق .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٨١ .

(٣) انظر مسلم جـ ٤ ص ٢١٨٧ و ٢١٨٨ .

(٤) الصفات ص ١٤ و ١٧ .

وفى رواية « لا تزال جهنم يلقى فيها ، وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع الجبار تبارك وتعالى – فيها قدمه ، فهناك تنزوى » [١]

وأخرج حديث أنس هذا أبو نعيم فى المستخرج بلفظ « حتى يضع الله فيها قدمه » [٢] ففى مجموع هذه الروايات البيان الواضح بأن القدم والرجل – وكلاهما عبارة عن شئ واحد – صفة لله تعالى حقيقة على ما يليق بعظمته .

كما فيها إبطال تأويل المؤولة نحو قولهم : « إن القدم : عبارة عن إذلال جهنم إذا بلغت فى الطغيان ، وقولهم : إن المراد بالقدم ، الفرط السابق من المعذبين – أى يضع الله فيها ما قدمه لها من أهل العذاب ، وقولهم : المراد بالقدم : قدم بعض المخلوقين ، وقولهم : يجوز أن يكون مخلوقا اسمه القدم ، وقولهم المراد بالقدم الأخير من أهل النار ، وقولهم : إنه اسم مكان عصى الله فيه ، فيلقى فى النار .

وقول الداودى : إن المراد بالقدم ، قدم صدق ، وهو محمد – ﷺ – والإشارة بذلك إلى شفاعته ، وقال بعضهم : إن المراد بالقدم : قدم إبليس إلى غير ذلك من السخافات المضحكة ، الدالة على ضلال قائليها .

وزعم ابن الجوزى ، وابن فورك : أن لفظ الرجل محرف من بعض الرواة عن القدم وذهب مرة إلى التحريف المسمى بالتأويل ، فقال : يحتمل أن يراد بالرجل الجماعة » [٣] فهذه التأويلات الباردة يكفى العاقل المنصف مجرد ذكرها عن تكلف ردها بالدليل لظهور بطلانها ، فهى فى الحقيقة تحريف للكلام الواضح البين ، كتحريف اليهود حينما قيل لهم : « ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطَّة » فدخلوا يزحفون على أعجازهم وقالوا : حبة حنطة .

---

(١) الصفات للدارقطنى ص ١٥ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٣٧٠ .
(٣) انظر الفتح فقد ذكر جميع هذه التأويلات وسكت عليها جـ ٨ ص ٥٩٦ .

فبطلان قول هؤلاء المعطلة ، الذين جعلوا صفات الله تعالى نوعا من المخلوقات ، وحاولوا إبطالها بالتأويلات البعيدة السخيفة – واضح وظاهر وذلك من وجوه :

« الأول : أن النبى – ﷺ – قال : حتى يضع ، ولم يقل حتى يلقى [فيها] كما فى قوله : « لا يزال يلقى فى النار » .

الثانى : أن قوله : « قدمه » لايفهم منه هذا [الذى قالوه » لا حقيقة ، ولا مجازا كما تدل عليه الإضافة .

الثالث : أن أولئك المؤخرين ، إن كانوا من الأصاغر المعذبين ، فلا وجه لانزوائها واكتفائها بهم ، فإن ذلك ، إنما يكون بأمر عظيم ، وإن كانوا من الأكابر المجرمين ، فهم فى الدرك الأسفل من النار ، وفى أول المعذبين ، لا فى أواخرهم .

الرابع : أن قوله : « فينزوى بعضها إلى بعض » دليل على أنها تنضم على من فيها فتضيق بهم ، من دون أن يلقى فيها شئ .

الخامس : أن قوله : « لا يزال يلقى فيها وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع فيها قدمه » جعل وضع القدم الغاية التى إليها ينتهى الإلقاء ، ويكون عند ذلك الانزواء ، فيقتضى أن تكون الغاية أعظم مما قبلها ، وليس فى قول [هؤلاء] المعطلة معنى للفظ [قدمه] إلا وقد اشترك فيه الأول والآخر ، والأول أحق به من الآخر » (١)

يضاف إلى ذلك : أن هذا الكلام الواضح البين الذى إذا سمعه السامع لم يتبادر إلى ذهنه إلا ظاهره اللائق بجلال الله تعالى ؛ فلو كان ظاهره غير مراد للمتكلم ، وأن المراد منه ما ذكره هؤلاء المحرفون ، لصار إلى الألغاز والتعمية أقرب ، ولا يكون المتكلم بذلك قد أدى ما وجب عليه من البلاغ والبيان ؛ وهذا

---

(١) مختصر الفتاوى المصرية ص ٦٤٧ .

من أبطل الباطل . وقد علم أن المتكلم بهذا الكلام أفصح الناس وأقدرهم على الإيضاح والبيان لما يريد ، وهو أيضا أنصحهم لأمته ، وأعلمهم بالله وبما يجب له ، وما يمتنع عليه ، وهو أيضا أحرصهم على إيصال الخير والنفع إلى الخلق ، ودفع الشر عنهم ، فيستحيل مع هذه الأمور أن يكون ظاهر كلامه باطلا يدل على الكفر والتشبيه – كما زعم المعطلة المؤولة (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) [١] فظهر بذلك بطلان قول المعطلة والحمد لله رب العالمين

قال أبو سعيد الدارمى : « وأما دعوى المعطل بأن القدم ، أهل الشقوة الذين تقدم فى علم الله أنهم يلقون فى جهنم ، واستدلاله بما روى عن ابن عباس ، فى قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم » [٢] قال : ماقدموا من أعمالهم .

فيقال : من المشهور عن ابن عباس ، أنه قال : « الكرسى موضع القدمين والعرش لايقدر قدره إلا الله » . وهذا صحيح مشهور عن ابن عباس . [٣] ودعوى المعطل أنها لاتمتلىء حتى يلقى الله فيها الأشقياء ، الذين هم قدم الجبار – عند أهل التأويل – دعوى باطلة ، وهل استزادت إلا بعد مصير الأشقياء إليها ؟ أفيلقيهم فيها ثانية ؟ أو أنه تعالى حبس عنها الأشقياء ، وألقى فيها السعداء ؟ فلما استزادت ألقى فيها أهل الشقوة ؟ .

وأما ردهم الحديث بقوله – تعالى : « لأملأنَّ جهنم من الجنة والناس

---

(١) الآية ٥ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٢ من سورة يونس عليه السلام .

(٣) رواه أبو سعيد الدارمى فى الرد المرسى ص ٤٢٥ مجموع عقائد السلف ، والحاكم فى المستدرك ، وقال : صحيح على شرط الشيخين . ووافقه الذهبى جـ ٢ ص ٢٨٢ وابن جرير فى التفسير جـ ٥ ص ٣٩٨ .

أجمعين » (١) قالوا : إن جهنم لاتمتلىء بغير الجن والإنس ، ومن زعم غير ذلك فقد كفر . فيقال : إن هذه الآية لاتخالف قوله : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » (٢) ؟ . ويصح فى الكلام أن يقال للمتلىء : استزاد ، كما يمتلىء الرجل من الطعام ، والشراب ، وهو يقدر أن يستزيد ، ويقال : امتلأ المسجد من الناس وفيه فضل وسعة ، وامتلأ الوادى ماءً ، وهو يحتمل أكثر مما فيه ، وكما فى الحديث « يخرج المهدى ، فيملأ الأرض قسطا وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلما » وفى الأرض سعة لأكثر من ذلك ، فكذلك جهنم تمتلىء بما يلقى الله فيها من الجن والإنس ، وتقول : هل من مزيد ؟ لفضل فيها ، غضباً لله - تعالى على الكفار ، حتى يفعل الجبار بها ماأخبر به رسوله ، من وضعه قدمه فيها كما يشاء ، وكما عنى رسول الله ، فحينئذ تقول : حسبى حسبى ، ولها خزنة يدخلونها غير معذبين بها ، وفيها حيات ، وعقارب .

وقال - تعالى : « عليها تسعة عشر ، وماجعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا » (٣) .

فقوله تعالى : « لأملأنَّ جهنم من الجنة والناس أجمعين » لايخالف هذه الآية ، كما أنه لايخالف قول الرسول - ﷺ : « يضع الجبار فيها قدمه ، وإذا كانت جهنم لاتضر الخزنة الذين يدخلونها ، ويقومون عليها فكيف يستنكر وضع رب العالمين عليها قدمه » (٤) .

وقد جاءت الأحاديث عن رسول الله - ﷺ - تدل على أن كلامها حقيقة ، فلا وجه للعدول عن ذلك ، كقوله ﷺ - : « تحاجت الجنة والنار ، فقالت الجنة : مالى لا يدخلنى إلا الضعفاء ، وقالت النار : مالى يدخلنى

---

(١) الآية ١١٩ من سورة هود عليه السلام .
(٢) الآية ٣٠ من سورة ق .
(٣) الآيتان ٣٠ ، ٣١ من سورة المدثر .
(٤) رد عثمان ابن سعيد على بشر المريسى ملخصا بتصرف .

الجبارون ، والمتكبرون » [١] أخرجاه فى الصحيحين .

وفى مسند الإمام أحمد بسند فيه عطية العوفى – وهو ضعيف – عن أبى سعيد عن النبى – ﷺ – « أنه قال : يخرج عنق من النار يتكلم يقول : وكلت اليوم بثلاثة ، بكل جبار ، وبمن جعل مع الله إلها آخر ، وبمن قتل نفسا بغير نفس ، فينطوى عليهم ، فيقذفهم فى غمرات جهنم » [٢]

وفيه أيضا من طريق ابن لهيعة – وفيه كلام معروف – عن عائشة رضى الله عنها عن النبى – ﷺ – أنه قال : « يخرج عنق من النار ، فينطوى عليهم ، ويتغيظ عليهم ، ويقول ذلك العنق : وكلت بثلاثة ، وكلت بمن دعا مع الله إلهاً آخر ، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووكلت بكل جبار عنيد ، فتنطوى عليهم وتطرحهم فى غمرات جهنم » [٣] وقد ذكر ابن رجب أحاديث بهذا المعنى [٤] وقد صح عن النبى – ﷺ – أن حجرا كان يسلم عليه [٥] ، كما صح أن الصحابة كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلونه ، ومن المشهور حنين الجذع الذى كان النبى ﷺ يخطب عليه حين تركه ، فكيف يستنكر كلام جهنم ؟ .

قوله : « فينزوى بعضها إلى بعض » أى يلتئم بعضها على بعض ، وتتضايق على من فيها ، فلا يبقى فيها متسع لغير من فيها .

---

(١) انظر البخارى مع الفتح ١٣ ص ٤٣٤ وجـ ٨ ص ٥٩٥ ، ومسلم جـ ٤ ص ٢١٨٦ .

(٢) المسند جـ ٣ ص ٤٠ .

(٣) المسند جـ ٦ ص ١١٠ .

(٤) انظر التخويف من النار ص ١٣٠ .

(٥) انظر فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٧١ .

قوله : « وتقول : قَدْ قَدْ » بفتح القاف ، وسكون الدال ، وفى رواية « قط قط » وهو اسم فعل ، ومعناه حسبى ، وكفانى ما ألقى فىّ ، فلا متسع لغيرهم أى قد امتلئت .

قوله : « بعزتك وكرمك » هذا محل الشاهد من الحديث لما ترجم به ، وهو قسم من النار بعزة الله وكرمه ، أنها قد امتلئت ، وأصبحت ليس فيها متسع . وقد تقرر عند المسلمين أن القسم بغير الله لا يجوز .

قوله : « لا يزال يلقى فيها ، وتقول » هذا القول من جهنم حقيقة ، فالله تعالى ينطقها بكلام مسموع منها ، كما ينطق جل وعلا الجوارح وغيرها . والله على كل شئ قدير ، وأمور الآخرة أعظمها على خلاف ما يعرفه الناس فى الدنيا ، والقسم بأسماء الله وصفاته قسم به - تعالى - والمقصود أن الله تعالى متصف بالصفات ، فأراد أن يبين ذلك بما ثبت منها فى كتاب الله تعالى ومنها العزة ، وبالأحاديث التى تبين ذلك وتوضحه ، وقد تقدم البحث فيها فى الباب الأول .

قال الحافظ : « يؤخذ منه مشروعية الحلف بكرم الله ، كما شرع الحلف بعزة الله » (١)

قوله : « ولا تزال الجنة تفضل ، حتى ينشئ الله لها خلقا ، فيسكنهم فضل الجنة »

أى أن أهل الجنة الذين يدخلونها ينتهون ، وفيها فضل مساكن لم يصبها أحد لعظم سعتها ، قال الله تعالى : (سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض) (٢) وقال تعالى : (سابقوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) (٣)

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٧١ .
(٢) الآية ١٣٣ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ٢١ من سورة الحديد .

وقد وعد الله تعالى : « الجنة والنار أن يملأهما من الجِنة والناس ، ومما يشاء فأما النار . فإن الله تعالى لايدخل فيها إلا من يستحقها ، ولا يظلم أحداً ، ولسعتها أيضا ينتهى أهلها دخولا فيها مع كثرتهم ، وهى تطلب الزيادة ، وتسأل الله وعده ، فعند ذلك يضع عليها تعالى قدمه . فتتضايق على أهلها . وينزوى بعضها إلى بعض – أى تجتمع – فتصبح ليس فيها موضع لأحد فيحصل بذلك ملئها .

وأما الجنة فإن الله تعالى يخلق لها خلقا جديدا فيسكنهم فضلها ، أى المساكن التى فضلت عمن دخلها ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، لا راد لفضله ، ولا مانع لعطائه .

* * *

قال : « باب قول الله تعالى : « وهو الذى خلق السماوات والأرض بالحق » [١]

* * *

قال القرطبى : « بالحق – أى بكلمة الحق – يعنى قوله كن » [٢]

ومثله قال القسطلانى ثم قال : « وقال ابن عادل فى لبابه ، قيل الباء بمعنى اللام أى إظهاراً للحق ، لأنه جعل صنعه دليلا على وحدانيته ، فهو نظير قوله تعالى :

(ما خلقنا هذا باطلا) [٣] .

وقال الخازن : « يعنى إظهاراً للحق ، فعلى هذا تكون الباء ، بمعنى اللام ، لأنه جعل صنعه دليلا على وحدانيته ، وقيل خلقها بكمال قدرته ، وشمول علمه ، وإتقان صنعه ، وكل ذلك حق .

وقيل خلقها بكلامه الحق ، وهو قول « كن » وفيه دليل على أن كلام الله تعالى ليس بمخلوق ، لأنه لا يخلق مخلوق بمخلوق » [٤]

---

(١) الآية ٧٣ من سورة الأنعام .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٦ ص ١٩ .

(٣) هدى السارى جـ ١٠ ص ٣٦٩ .

(٤) تفسير الخازن جـ ٢ ص ١٤٧ .

وقال ابن الجوزى : « فيه أربعة أقوال :

أحدها : خلقهما للحق .

والثانى : خلقهما حقا .

والثالث : خلقهما بكلامه ، وهو الحق .

والرابع : خلقهما بالحكمة » [١] .

قلت هذه الأقوال ليس فيها اختلاف ، وهى داخلة فى معنى الآية ، إلا أن الطبرى جعل القول الثانى والرابع قولا واحدا كما سيأتى . وهو الأظهر .

وقال ابن جرير : « واختلف أهل التأويل فى قوله : « بالحق » .

فقال بعضهم : معنى ذلك : وهو الذى خلق السماوات والأرض حقا وصواباً ، لا باطلا وخطأ كما قال تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) [٢] وأدخلت الباء والألف ، كما فى قولك : فلان يقول بالحق – يعنى – أنه يقول الحق ، أى يصيب فى قوله ، فالحق صفة للقول ، فخلق السماوات والأرض حكمة من حكم الله تعالى ، والله موصوف بالحكمة فى خلقهما ، وخلق ما سواهما من سائر الخلق .

وقال آخرون : معنى ذلك : خلق السماوات والأرض بكلامه ، وقوله لهما : (ائتيا طوعا أو كرها) [٣] فالحق فى هذا الموضع معنى به كلامه .

---

(١) زاد المسير جـ ٣ ص ٦٧ .

(٢) الآية ٢٧ من سورة ص .

(٣) جزء من الآية ١١ من سورة فصلت .

واستشهد لذلك بقوله : (ويوم يقول كن فيكون قوله الحق) [١] . فالحق هو قوله وكلامه ، فالله تعالى خلق الأشياء بكلامه وقوله ، فما خلق به الأشياء فهو غيرها ، فكلام الله – تعالى – الذى خلق به الخلق غير مخلوق » [٢] .

قلت : وبهذا يظهر مراد البخارى – رحمه الله تعالى – فقول الله تعالى حق ، وهو صفة له ، وما وجد بقوله فهو غير القول ، بل هو المفعول المخلوق ، فقوله تعالى الذى خلق به الأشياء ، لا يجوز أن يكون مماثلا لها ، فلا بد من التفريق بين قوله الذى هو صفته وبين مفعولاته التى وجدت بقوله ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى فى باب ما جاء فى تخليق السماوات والأرض .

وهو تعالى خلق السماوات والأرض وغيرهما بقوله لها : كونى كما قال تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين) [٣] .

قال الحافظ : « كأنه أشار بهذه الترجمة إلى ما ورد فى تفسير هذه الآية ، أن معنى قوله : « بالحق » أى بكلمة الحق ، وهو قوله : « كن » ويدل عليه ما فى أول الحديث – « وقولك الحق » فكأنه أشار إلى أن القول [فى الحديث] الكلمة ، وهى « كن » والله أعلم » [٤] .

وقال ابن المرتضى : « هذا إشارة من البخارى إلى مذهب أهل السنة فى إثبات الحكمة » [٥]

---

(١) جزء من الآية ٧٣ من سورة الأنعام .

(٢) تفسير الطبرى جـ ١١ ص ٤٥٨ – ٤٥٩ تحقيق محمود شاكر ملخصا .

(٣) الآية ١١ من سورة فصلت .

(٤) الفتح جـ ١٣ ص ٣٧١ .

(٥) إيثار الحق على الخلق ص ٢٠٥ .

قلت : هذا لاينافى ما ذكرنا ، فيجوز أن يقصد المعنيين ولكنه فى الأول أظهر وأليق بمراد البخارى ، لأن القول بنفى الحكمة فى خلق الله وفعله ظاهر البطلان .

قال البخارى : « الفعل إنما هو إحداث الشئ ، والمفعول ، هو الحدث . لقوله تعالى (خلق السماوات والأرض) [١]

قلت : يريد بذلك التفريق بين ما هو صفة لله تعالى ، وبين ما هو مفعول له مخلوق .

وقال الراغب : « أصل الحق : المطابقة والموافقة ، كمطابقة رجل الباب فى حقه لدورانه على استقامة ، والحق يقال على أوجه :

الأول : يقال لموجد الشئ بسبب ما تقتضيه الحكمة ، ولهذا قيل فى الله تعالى – هو الحق – قال تعالى – : (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) [٢] ، (فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون) [٣] .

الثانى : يقال لما وجد بمقتضى الحكمة ، ولهذا يقال : فعل الله تعالى – كله حق ، قال تعالى : (هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً ، وقدَّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق) [٤] .

الثالث : الاعتقاد المطابق لما عليه الشئ فى نفسه ، كما فى الحديث « ووعدك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق » قال الله تعالى : (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق) [٥] .

---

(١) خلق أفعال العباد ص ٢١٠ ضمن العقائد السلفية .

(٢) الآية ٦٢ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٣٢ من سورة يونس .

(٤) الآية ٥ من سورة يونس .

(٥) الآية ٢١٣ من سورة البقرة .

الرابع : الفعل والقول الواقع بحسب ما يجب ، وبقدر ما يجب ، وفى الوقت الذى يجب ، قال الله تعالى : (كذلك حقت كلمة ربك) (١) (حق القول منى لأملأن جهنم (٢)) (٣) .

قلت : يأتى أيضا موصوفا به دين الله وشرعه ، وأمره . كما فى قوله تعالى (ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إى وربى إنه لحق ، وما أنتم بمعجزين) (٤) أى وعده أن يبعثكم ويجازيكم . وقال : – تعالى – (وتكتمون الحق) (٥) (الحق من ربك) (٦) (وإنه للحق من ربك) (٧)

قال الحليمى : « الحق » ما لايسع إنكاره ، ويلزم إثباته والاعتراف به .

ووجود البارى – تعالى – أولى مايجب الاعتراف به ، ولا يسع جحده ، إذ لامثبت تظاهرت عليه الدلائل البينة مثل ما تظاهرت على وجود البارى جل جلاله » (٨)

وقال أيضا : « الحق فى الأسماء الحسنى معناه : كما قال ابن برجان : الواجب الوجود بالبقاء الدائم ، الجامع للخير والمجد ، والمحامد كلها ، والثناء الحسن ، والأسماء الحسنى والصفات العلى »

---

(١) الآية ٦ من سورة غافر .

(٢) الآية ١٣ من سورة السجدة .

(٣) المفردات ص ١٢٥ بتصرف .

(٤) الآية ٥٣ من سورة يونس .

(٥) الآية ٧١ من آل عمران .

(٦) الآية ١٤٧ من سورة البقرة و ٦٠ من آل عمران .

(٧) الآية ١٤٩ من سورة البقرة .

(٨) المنهاج جـ ١ ص ١٨٨ .

ومعنى واجب الوجود : أنه اضطر جميع الموجودات إلى معرفة وجوده ، وهو الذى أوجدها ، قال تعالى : (ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحي الموتى وأنه على كل شئ قدير) [١] . ولما أظهر جملة المخلوقات التى خلقها بالحق وللحق قال تعالى : (خلق الله السماوات والأرض بالحق) [٢] .

فالله تعالى هو الحق المبين ، ووجوده الحق ، وقوله الحق ، وصفاته الحق ، وأسماؤه الحق » ا هـ [٣] .

★ ★ ★

---

(١) الآية ٦ من سورة الحج .
(٢) الآية ٣ من سورة النحل .
(٣) المنهاج جـ ١ ص ٣٦٩ .

١٥ ــ قال : « حدثنا قبيصة ؛ حدثنا سفيان ، عن ابن جريج ، عن سليمان ، عن طاوس ، عن ابن عباس ، قال : كان النبى ﷺ يدعو من الليل : اللهم لك الحمد أنت رب السماوات والأرض ، لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن ، لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، قولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وأسررت ، وأعلنت ، أنت إلٰهى لا إلٰه لى غيرك».

* * *

حدثنا ثابت بن محمد ، حدثنا سفيان بهذا وقال : « أنت الحق ، وقولك الحق » .

كان النبى ﷺ – يقول هذا الدعاء بعد أن يكبر تكبيرة الإحرام فى تهجده كما بينه ابن خزيمة حيث قال :

« باب ذكر الدليل على أن النبى – ﷺ – كان يحمد بهذا التحميد بعد أن يكبر . ثم ساق بالسند إلى ابن عباس ، قال : كان رسول الله – ﷺ – إذا قام للتهجد قال بعد ما يكبر : اللهم لك الحمد الخ » [1] .

قوله : « اللهم لك الحمد » . الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية و« ال » فيه للاستغراق ، والاستقصاء ، أى جميع الحمد واجب ، ومستحق لله تعالى . فهو المحمود على صفاته ، وأسمائه ، وعلى نعمه ، وأياديه ، وعلى خلقه وأفعاله ، وعلى أمره وحكمه ، وهو المحمود أولا وآخرا وظاهرا وباطنا .

---

(١) صحيح ابن خزيمة جـ ٢ ص ١٨٤ .

وأما الشكر : فلا يكون إلا على الصفات المتعدية ، ويكون بالقلب ، واللسان والجوارح ، قال تعالى : (اعملوا آل داود شكرا) [١] .

وقال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى ، والضمير المحجبا

قوله : « أنت رب السماوات والأرض » أى أنت مالكهما ومن فيهما ، والمتصرف بهما بمشيئتك ، وأنت موجدهما من العدم ، فالملك لك ، وليس لأحد معك اشتراك أو تدبير ، تباركت وتعاليت .

قوله : « لك الحمد أنت قيم السماوات ، والأرض ومن فيهن » أى أنت الذى أقمتهما من العدم ، والقائم عليهما بما يصلحهما ويقيمهما ، فأنت الخالق الرازق ، المالك المدبر ، المحي المميت ، الغنى عن كل شئ ، وكل من سواك فقير إليك ، ومصيره إليك ، كما أنك أنت الذى أوجدته ، فلك الحمد .

وفى رواية « قيام » ، وفى أخرى « قيوم » ، وكلها من أبنية المبالغة .

« والقيم معناه : القائم بأمور الخلق ، ومدبرهم ، ومدبر العالم فى جميع أحواله .

والقيوم : هو القائم بنفسه مطلقا ، لا بغيره ، ويقوم به كل موجود ، حتى لا يتصور وجود الشئ ولا دوام وجوده إلا به .

وقال النوربشتى : معناه : أنت الذى تقوم بحفظهما ، وحفظ من أحاطتا به واشتملتا عليه ، وقال « من » تغليبا للعقلاء على غيرهم » اهـ [٢]

قوله : « لك الحمد أنت نور السماوات والأرض » قال الحافظ : أى

---

(١) الآية ١٣ من سورة سبأ .

(٢) من القسطلانى جـ ١٠ ص ٣٦٩ .

منورهما ، وبك يهتدى من فيها » [١] .

وقال القاضى عياض : « معناه ذو النور أى خالقه »

وقيل : منور الدنيا بالشمس والقمر والنجوم .

وقيل : منور قلوب عباده المؤمنين بالهداية والمعرفة » [٢] .

قلت : هذا تأويل باطل كما سيأتى بيان بطلانه .

قال شيخ الإسلام : فى جواب من قال : إنه يجب تأويل قوله : « الله نور السماوات والأرض » قطعا . قال : « لانسلم أنه يجب تأويله ، ولا نسلم أن ذلك لو وجب قطعى ، بل جماهير المسلمين لايتأولون هذا الاسم ، وهذا مذهب السلفية وجمهور الصفاتية ، من أهل الكلام والفقهاء والصوفية وغيرهم ، وهو قول أبى سعيد بن كلاب ، ورد على الجهمية تأويلهم « اسم النور » وكذا الأشعرى » اهـ [٣]

وقد نص الله تعالى فى كتابه أنه نور السماوات والأرض ، وزاد ذلك رسول الله ﷺ إيضاحا وبيانا كما فى هذا الحديث وغيره .

وقد أخبر تعالى : أن الأرض يوم القيامة تشرق بنوره ، وصحت النصوص عن رسول الله ﷺ بأنه يحتجب بالنور ، فاذا كانت الأرض تشرق من نوره ، فهو جل وعلى نور كما قاله رسوله « أنت نور السماوات والأرض »

وقال تعالى : (الله نور السموات والأرض) [٤] وقال تعالى : (وأشرقت

---

(١) الفتح جـ ٣ ص ٤ .

(٢) المشارق جـ ٢ ص ٣١ .

(٣) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٣٧٩ .

(٤) الآية ٣٥ من سورة النور .

الأرض بنور ربها) [١] .

وفى الحديث الذى رواه ابن إسحاق فى السيرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : فى دعائه « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة » [٢] .

وقال ابن مسعود : « إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه » [٣]

وفى حديث أبى ذر فى صحيح مسلم ، قال : سألت رسول الله ﷺ - هل رأيت ربك ؟ قال : « نورٌ أنَّى أراه » وفى رواية « رأيت نورا » [٤] .

وفى حديث أبى موسى فى صحيح مسلم قال : قام فينا رسول الله بخمس كلمات ، فقال : « إن الله لا ينام ، ولاينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سُبُحَات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » [٥] .

السبحات هى : نوره ، وبهاؤه وجلاله .

---

(١) الآية ٦٩ من سورة الزمر .

(٢) انظر مختصر السيرة لإبن هشام جـ ١ ص ٤٢٠ وقال شيخ الإسلام : رواه الطبرانى وغيره . انظر مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٣٨٧ .

(٣) رواه الدارمى فى الرد على بشر ص ٤٤٩ . وابن منده فى الرد على الجهمية ص ٩٩ ، قال ابن القيم رواه الطبرانى فى المعجم وفى السنة انظر اجتماع الجيوش ص ٦ .

(٤) انظر مسلم جـ ١ ص ١٦١ .

(٥) مسلم جـ ١ ص ١٦٢ .

فأخبر ﷺ أنه تعالى احتجب عن المخلوقات بحجابه النور ، وأنه لو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه ، ومعلوم أن بصره لا يفوته شئ ، ولا يستره ساتر ، ولايحول دونه حائل .

وفى الترمذى عن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، وألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل » [(١)] .

فقد جاءت النصوص « بتسمية الرب نورا ، وبأن له نورا مضافا إليه ، وبأنه نور السماوات والأرض ، وبأن حجابه النور ، فهذه أربعة أنواع :

فالأول : يطلق عليه تعالى اسما له ، فإنه النور الهادى .

والثانى يضاف إليه كما تضاف إليه حياته ، وسمعه وبصره ، وعزته وقدرته وعلمه ، ومرة يضاف إلى وجهه الكريم ، وأخرى يضاف إلى ذاته المقدسة . فإضافته إلى وجهه تعالى - كقوله ﷺ - : « أعوذ بنور وجهك » وقوله : « نور السماوات والأرض من نور وجهه » .

وإضافته إلى ذاته المقدسة كقوله تعالى : (وأشرقت الأرض بنور ربها) [(٢)] .

---

(١) انظر تحفة الأحوذى جـ ٧ ص ٤٠١ وقال : حسن ور واه أحمد بسند صحيح انظر المسند جـ ٢ ص ١٧٦ ، وانظر تحقيق أحمد شاكر جـ ١٠ ص ١٢٧ ، وأخرجه الحاكم وصححه الذهبى انظر المستدرك جـ ١ ص ١٠ ، وأخرجه ابن أبى عاصم فى السنة جـ ١ ص ١٠٧ .

(٢) الآية ٦٩ من سورة الزمر .

وكما فى حديث عبد الله بن عمرو : « أن الله خلق خلقه فى ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره » الحديث .

ويضاف نوره تعالى إلى السماوات والأرض ، كقوله : (الله نور السماوات والأرض) [١]

وقوله فى هذا الحديث : « أنت نور السماوات والأرض » .

وكذا حجابه النور كقوله : « حجابه النور – أو النار » كما فى حديث أبى موسى » ا هـ [٢]

قلت : المضاف إلى السماوات والأرض ، ليس هو صفته تعالى ، وكذلك قوله تعالى : (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) على القول بأن الضمير يعود إلى الله تعالى .

قال ابن القيم : « إضافة النور الى الله تعالى على أحد وجهين :

إضافة صفة إلى موصوفها ، وإضافة مفعول إلى فاعله .

فالأول : كقوله – عز وجل : « وأشرقت الأرض بنور ربها » ، فهذا يكون يوم القيامة ، تشرق بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء بين عباده .

ومنه قوله فى الدعاء المشهور : « أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلنى لا إله إلا انت » . [٣]

وفى الأثر الآخر : « أعوذ بنور وجهك ، الذى أشرقت له الظلمات » [٤] .

---

(١) الآية ٣٥ من سورة النور .

(٢) من الصواعق ملخصا من ٣٥٩ .

(٣) هو الحديث المتقدم ذكره ص ١٧٢ قال فى الفتح الكبير : خرجه الطبرانى . انظر لفظه فيه جـ ١ ص ٢٣٥ .

(٤) تقدم تخريجه قبل قليل .

فأخبر - ﷺ - أن الظلمات أشرقت لنور وجهه ، كما أخبر الله تعالى أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره .

الوجه الثانى : ماذكر فى قوله تعالى : (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) ، وقد اختلف على من يعود الضمير فى « نوره » ، فقيل : على محمد - ﷺ - وقيل : على المؤمن ، والصحيح عوده على الله تعالى .

والمعنى : مثل نور الله فى قلب عبده المؤمن ، وأعظم عباده نصيبا من هذا النور رسوله - ﷺ - .

فهذا النور يضاف إلى الله تعالى على أنه معطيه لعبده ، وواهبه ، كما يضاف إلى العبد لأنه محله وقابله » ا هـ [١] .

فالله تعالى سمى نفسه نورا ، وجعل كتابه نورا ، ورسوله نورا ، ودينه نورا ، واحتجب عن خلقه بالنور ، وجعل دار أوليائه فى الآخرة نورا يتلألأ . قال تعالى : (الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دُرِّىٌّ ، يوقد من شجرة مباركة ، زيتونة لا شرقية ، ولاغربية ، يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم) [٢] ، قال أُبى ابن كعب : بدأ الله بنور نفسه ، ثم ذكر نور المؤمن » [٣]

وفسر بكونه منور السماوات والأرض ، وبأنه هادى أهل السماوات والأرض ، وهذا لايمنع أنه - تعالى - فى نفسه نور ، فإن من عادة السلف فى تفسيرهم أن يذكروا بعض صفات المفسر - بضم الميم - من الأسماء ، أو بعض أنواع ذلك المفسر ، ولا ينافى ذلك ثبوت بقية الصفات له .

---

(١) اجتماع الجيوش بتلخيص وتصرف ص ٦ .

(٢) الآية ٣٥ من سورة النور .

(٣) رواه ابن جرير فى تفسيره جـ ١٨ ص ١٣٥ .

فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض ، وهذا إنما هو فعله ، وأما النور الذى هو وصفه فهو قائم به ، ومنه اشتق له اسم النور ، الذى هو أحد الأسماء الحسنى ، كما دلت على ذلك النصوص ، فلا يجوز تحريف ذلك بالتأويلات الباطلة .

وأما الأنوار القائمة بأعيان مشاهدة قائمة بأنفسها ، فلم تأت إضافتها إلى الله تعالى أبدا ، فلا يقال لأنوار المصابيح ، أو نور الشمس أو القمر أو الكواكب ، أنها نور الله .

والحديث تضمن ثلاثة أمور شاملة عامة للسماوات والأرض .

وهى : ربوبيتهما ، وقيوميتهما ، ونورهما .

فكونه سبحانه - رباً لهما ، وقيوما لهما ، ونوراً لهما أوصاف له تعالى ، وآثار هذه الأمور الثلاثة قائمة بهما .

فأثر الربوبية : الخلق والإيجاد ، وأثر القيومية : صلاحهما ، وانتظامهما .
وأثر نوره - تعالى - استنارة السماوات ، وإشراق الأرض بنوره يوم القيامة .

وأما صفة الربوبية ، والقيومية ، والنور فهى قائمة به تعالى - كما أن صفة الرحمة ، والقدرة ، والإرادة ، والرضى ، والغضب قائمة به - تعالى - والرحمة الموجودة فى العالم ، والإحسان ، والخير ، والنعمة ، والعقوبة آثار تلك الصفات .

وهكذا علمه - تعالى - القائم به هو صفته ، وأما علوم عباده فمن آثار علمه ، وقدرتهم من آثار قدرته .

وبذلك يعلم أن قول المعطلة : « كل عاقل يعلم بالبديهة أن الله - سبحانه ليس هو هذا النور الفائض من جرم الشمس والقمر ، والمصابيح ، فلابد من حمل قوله : « أنت نور السماوات والأرض » على معنى أنه منور السماوات والأرض أو هادى أهل السماوات والأرض » يعلم أنه باطل من جنس تحريفاتهم لسائر صفات الله كما هو نهجهم .

ونحن نقول لهم أيضا : أسأتم الظن بكلام الله ، وكلام رسوله – ﷺ – حيث فهمتم أن حقيقته ومدلوله أنه سبحانه هو هذا النور الواقع على الحيطان ، وغيرها ، وهذا الفهم الفاسد هو الذى أوجب لكم إنكار حقيقة نوره – تعالى – وجحده .

فجمعتم بين الفهم الفاسد ، وإنكار المعنى الحق .

وليس ما ذكرتم هو نور الرب – تعالى – القائم به ، الذى هو صفته ، وإنما هو مخلوق له منفصل عنه ، فإن هذه الأنوار المخلوقة ، تكون فى محل دون محل ، فنور الشمس والقمر ينوِّر بعض الأرض لاجملتها ، ولا ينور السماوات .

فمن ادعى أن نور الشمس والقمر ونحوهما ، هو المراد بقوله – تعالى –: (الله نور السماوات والأرض) وقول الرسول – ﷺ – « أنت نور السماوات والأرض » فقد كذب على الله ورسوله . (١)

قوله : « وقولك الحق » أى أنت قلته حقا ، فهو صفتك . وما قاله الله تعالى – فهو صدق وحق ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، لا فى خبره ، ولا فى حكمه وتشريعه ، ولا فى وعده ووعيده .

وهذه الجملة هى محل الشاهد من الحديث ، حيث وصف قوله – تعالى – بأنه الحق ، فلا يجوز أن يكون مخلوقا كما تزعم الفرق الضالة من المعتزلة وغيرهم .

قال سفيان فى تفسيره : « إن كل شئ مخلوق ، والقرآن ليس بمخلوق ، وكلامه أعظم من خلقه ، لأنه يقول للشئ كن فيكون ، فلا يكون شئ أعظم مما يكون به الخلق ، والقرآن كلام الله » (٢)

وقال أبو ذر – رضى الله عنه :– قال رسول الله – ﷺ – : « قال الله تعالى

---

(١) هذا مقتبس من كلام شيخ الإسلام . انظر مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٣٧٤ .
(٢) خلق أفعال العباد للبخارى ص ١٢٤ مجموع عقائد السلف .

عطائى كلام ، وعذابى كلام ، وإذا أردت شيئا فإنما أقول له : كن فيكون » [١] .

والذين أراد البخارى - رحمه الله - الرد عليهم من الجهمية والمعتزلة ونحوهم ينكرون أن يكون لله - تعالى - كلام تكلم به يكون صفة له ، لأن هذا - يزعمهم يقتضى أن يكون جسما حادثا ، لأن الكلام - زعموا - من الصفات الدالة على حدوث من قام به ، لما فيه من الترتيب ، والتقديم والتأخير ، والتعاقب . ولما رأوا اتفاق الرسل على إثبات الكلام لله تعالى ، وأن القرآن مملوء بذلك ، قالوا : إن الله متكلم ، بمعنى أنه خالق الكلام .

ثم جاءت الأشعرية ، فقالوا : إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه . وليس لله كلام منطوق به ، مسموع منه ، كما سيأتى إن شاء الله تفصيل ذلك فى أبواب الكلام .

وهم بذلك يتفقون مع المعتزلة على إنكار ثبوت الكلام لله حقيقة ، كما أنهم يوافقونهم فى المعنى على أنه مخلوق ، وعلى هؤلاء جميعا اتجه الرد فيما قصده البخارى وغيره من أهل السنة .

ومعلوم « أن : الإيمان الذى جاءت به الرسل عن الله - تعالى - وجاء به خاتمهم مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، هو أن كلام الله صفة له غير مخلوق . وأن القرآن والتوراة ، والإنجيل ، وغيرهما من كتب الله هى كلامه .

وكلام الله لا يكون مخلوقا منفصلا عنه ، كما لا يكون كلام المتكلم منفصلا عنه ، فإن من أنكر ذلك فقد جحد كلام الله الذى هو رسالته ، وأنكر حقيقة ما أخبرت به الرسل ، وعلمته أممها ، والحد فى أسماء الله وآياته ، ومثله بالمعدوم ، والميت ، فإن الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والكلام ، ونحو ذلك صفات

---

(١) نفس المصدر ص ١٣١ .

كمال ، والله تعالى أحق بكل كمال ، فيمتنع أن يثبت للمخلوق كمال إلا والخالق أحق به ، كما يمتنع أن يتنزه المخلوق عن نقص إلا والخالق أحق بتنزهه منه ، لأنه هو الذى أعطى الكمال للكاملين .

ومن لم يتصف بصفات الكمال ، من الحياة ، والعلم ، والسمع ، والبصر ، والقدرة ، والكلام ، وغير ذلك .

فإما أن يكون قابلا للاتصاف بذلك ولم يتصف به .

أو غير قابل للاتصاف به .

فإن قبله ولم يتصف به ، كان موصوفا بصفات النقص ، كالموت والجهل ، والعمى والصمم ، والعجز ، والبكم .

فإن لم يقبل الإتصاف بهذه الصفات ، كان أنقص من القابل الذى لم يتصف بها .

فالحيوان الذى يكون تارة سميعا ، وتارة أصم ، وتارة بصيرا ، وتارة أعمى وتارة متكلما ، وتارة أخرس ، أكمل من الجماد الذى لا يقبل لا هذا ، ولاهذا . فمن لم يصف الله تعالى بصفات الكمال ، لزمه إما أن يصفه بهذه النقائض ، أو يكون أنقص ممن وصف بهذه النقائص » [1] .

قوله : « ووعدك الحق » أى لابد من وقوعه ، على ماوعدت ، فلا خلف فيه ولا تبديل .

« ولقاؤك حق » أى لابد للعباد من ملاقاتك، فتجازيهم على أعمالهم ، واللقاء يتضمن الرؤية ، والمعاينة ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

« والجنة حق ، والنار حق » أى ثابتتان ، موجودتان ، كما أخبرت بذلك أنهما معدتان لأهلهما ، فهما دار البقاء ، وإليهما مصير العباد .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٢ ص ٣٥٥ .

« والساعة حق » أى مجىء يوم القيامة حق لا مرية فيه ، فهو ثابت لابد منه ، وهى نهاية الدنيا ، ومبدأ الآخرة ، وفى ضمن هذه الأخبار – الأخبار عن إيمانه بما ذكر ، إيمانا لايتزعزع ، والساعة يعبر بها عن البعث ، أى الساعة التى يبعث الله فيها الموتى من قبورهم أحياء ، فيجمعهم بعد تفرق أجزائهم وتشتتها ، بل واستحالتها ترابا ، وهباء ، وغير ذلك .

فيجمعهم ، ويحييهم ، كما كانوا فى الدنيا ، ويجازيهم بعد حسابهم ، وحشرهم . وأدخلت الألف واللام فى الساعة ، لأنها معروفة المعنى عند المخاطبين بها ، وأنها مقصود بها قصد الساعة التى وصفت ، قاله الطبرى (١) .

« اللهم لك أسلمت » أى أذعنت لأمرك ، وانقدت له ، وخضعت لحكمك .

« وبك آمنت » أى صدقت ، وعملت بمقتضى ذلك ، بعد تحققى بالإيمان بك .

« وعليك توكلت » أى اعتمدت عليك ، ووكلت أمورى إليك ، راضيا بما قضيته لى ، بعد أن فعلت الأسباب التى جعلتها إلىّ ، دينية كانت ، أو دنيوية . فالتوكل : هو الاعتماد على الله تعالى ، والثقة به ، وفعل الأسباب التى رتبت عليها الأشياء ، والتى يستطيع العبد فعلها ، وهو من أفضل العبادة ، بل جاء مايدل على أنه شرط فى حصول الإيمان كما فى قوله تعالى : (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) (٢) .

---

(١) انظر تفسيره جـ ١١ ص ٣٢٤ ، ولكثرة ما أخبروا بها ووصفت لها ، وخوفوا بقربها صارت معلومة لهم ، فأدخلت عليها الألف واللام لذلك .

(٢) الآية ٢٣ من سورة المائدة .

« وإليك أنبت » أى رجعت إليك طائعا منقادا ، مذعنا ، خاضعا لك فى جميع أمورى .

« وإليك حاكمت » أى كل من أبى قبول الحق ، أو جحده ، حاكمته إليك وجعلتك الحكم بينى وبينه ، مجانبا بذلك حكم كل طاغوت ، من قانون وضعى ، أو كاهن أو غيره ، مما يتحاكم إليه البشر ، من الأوضاع الباطلة شرعا .

وقدم صلات هذه الأفعال كلها لإرادة التخصيص والحصر ، أى أخصك يارب وحدك فيما ذكر ، ولا أعدو ذلك بحال من الأحوال .

فى هذا الحديث قدم الثناء على الله – تعالى – بأن له الحمد ، وبما ذكر من صفاته ثم توسل إليه – تعالى – بإيمانه بأن قوله حق ، ووعده حق إلى آخر ماذكر ، وأنه مذعن لأمره ، منقاد لطاعته ، وأنه معتمد عليه ، وبه يخاصم وإليه يحاكم ، ثم بعد ذلك سأل حاجته ، وهى أن يغفر له ماقدم من خطأ ، أو تقصير ، وما أخر ، وما أسر ، وما أعلن .

ثم ختم ذلك بأنه لامفزع ، ولا ملجأ له غير ربه تعالى ، فهو إلهه الذى يعبده بما ذكر ، ويخاف عقابه ، ويؤمل فضله ونواله ، فقال : « أنت إلٰهى لا إلٰه لى غيرك » فلا أتوجه إلى سواك ، إذ كل مألوه غيرك باطل ودعوته ضلال ، وبال ، وهذا هو التوحيد الذى جاءت به رسل الله وفرضه تعالى على عباده .

قوله : « فاغفر لى ما قدمت ، وما أخرت ، وأسررت ، وأعلنت » .

أصل الغفر : الستر مع الوقاية ، ومنه المغفر ، لأنه يستر الرأس ويقيه من السلاح .

« ما قدمت » أى قبل وقتى هذا .

« وما أخرت » أى بعد وقتى هذا ، أى اغفر لى ماعملت من الذنوب ،

وماسأعمله وماظهر منها لأحد من خلقك ، وماخفى عنهم ، ولم يعلمه غيرك .

وقوله فى الرواية الأخرى : « أنت الحق ، وقولك الحق » فيها البيان بأن اسم الحق يقع على ذات الله – تعالى – اسما كما سبق بيانه ، ويقع على صفاته كما فى قوله « وقولك الحق » .

وفى هذا الحديث وأمثاله دليل على وقوع الذنوب من الأنبياء ، إذ لو لم يكن له ذنب كيف يسأل المغفرة ، وقد قص الله تعالى ما وقع لبعض الرسل من المخالفات ، وهذه مسألة مشهورة عند العلماء . وقد ألف فيها مؤلفات خاصة ، وقد اتفق أهل السنة على أن مايبلغونه من أمر الله وشرعه أنهم معصومون فيه من الخطأ ، وأما وقوع الذنوب منهم ففيه الخلاف . وقد بالغ بعض الناس ، وكفر من قال بوقوع الذنب منهم . وهذا جهل من قائله .



قال : « باب وكان الله سميعا بصيراً »

* * *

يريد بهذه الترجمة بيان أن هاتين الصفتين - السمع والبصر - ثابتتان لله بالكتاب والسنة ، وإجماع أتباع الرسل ، وبالعقل ، والفطر ، وبيان أن الله - تعالى - لم يزل بصفاته ، وبيان أن المنكر لهاتين الصفتين قد ضلَّ عن كتاب الله ، وسنة رسوله ، واتبع غير سبيل المؤمنين أتباع الرسل .

قال القسطلانى : « وقد علم بالضرورة من الدين ، وثبت فى الكتاب والسنة بحيث لايمكن إنكاره ، ولا تأويله أن البارى - تعالى - حى سميع بصير ، وانعقد إجماع أهل الأديان ، بل جميع العقلاء على ذلك » (١) .

« فالسمع والبصر ، والحياة ، والعلم ، والقدرة ، والكلام ، ونحوها صفات كمال لانقص فيها ، فمن اتصف بها أكمل ممن لا يتصف بها ، والنقص فى انتفائها لافى ثبوتها بإجماع العقلاء ، والقابل للاتصاف بها كالحيوان أكمل ، ممن لا يقبل الاتصاف بها كالجماد » (٢) .

قلت : الحامل على إنكار ذلك هو الجهل بالله - تعالى - والقياس الفاسد حيث قاسوا ذلك على مايعرفون من أنفسهم بأن السمع ينشأ عن وصول الهواء إلى عصب الصماخ ، والبصر عبارة عن وقوع أشعة الإبصار على جسم مقابل .

قالوا : هذا لا يكون إلا من جوارح وأجسام .

---

(١) إرشاد السارى جـ ١٠ ص ٣٧٠ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٨٨ .

فيقال لهم : هذه صفة أسماعكم وأبصاركم ، أمارب العالمين فصفاته تابعة لذاته ، وذاته ليس لها نظير أو شبيه ، فكذلك صفاته تعالى .

وكيفية صفاته تعالى مجهولة للخلق ، ويكفينا أن نعلم أنه تعالى متصف بما وصف به نفسه ووصفته به رسله حقيقة ، وأنه فى ذلك ليس له مثل ، كما قال تعالى : (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير)

قال الحافظ : « قال ابن بطال : غرض البخارى فى هذا الباب الرد على من قال : إن معنى « سميع بصير » عليم ، قال : ويلزم من قال ذلك أن يسويه بالأعمى الذى يعلم أن السماء خضراء ، ولايراها ، والأصم الذى يعلم أن فى الناس أصواتا ، ولا يسمعها ، ولاشك أن من سمع ، وأبصر أدخل فى صفة الكمال ، ممن انفرد بأحدهما دون الآخر .

فصح أن كونه سميعا بصيرا يفيد قدراً زائداً على كونه عليما .

وكونه سميعا بصيراً يتضمن أنه يسمع بسمع ، ويبصر ببصر ، كما تضمن كونه عليما أنه يعلم بعلم ، ولا فرق بين إثبات كونه سميعا بصيرا ، وبين كونه ذا سمع وبصر ، وهذا قول أهل السنة قاطبة » (١)

وقال البيهقى : « السميع من له سمع يدرك به المسموعات ، والبصير من له بصر يدرك به المرئيات ، وكل منهما فى حق البارى صفة قائمة بذاته » (٢)

وقد تكاثرت الأدلة من كتاب الله – تعالى ومن سنة رسوله – ﷺ – على إثبات السمع والبصر صفتين لله – تعالى – حقيقيتن على مايليق بعظمته تعالى – قال الله تعالى : (إن الله كان سميعا بصيرا) (٣) ، (وكان الله

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٧٣ .

(٢) الاعتقاد ص ٥٨ .

(٣) الآية ٥٨ من سورة النساء .

سميعا بصيراً) [١] (ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، وأن الله سميع بصير) [٢] (إنه هو السميع البصير) [٣] ، (إن الله سميع بصير) [٤] ، (إن الله هو السميع البصير) [٥] ، (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) [٦] ، (فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير) [٧] ، (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) [٨] .

فى آيات كثيرة ، قد ذكر الله تعالى فى القرآن السمع والبصر واصفاً بهما نفسه فيما يقرب من مائة آية ، مرة يجمع بين السمع والبصر ، ومرة بين السمع والعلم ، ومرة يذكر البصر وحده متعلقا بعمل العباد كقوله : (بما تعملون بصير) ، (والله بصير بالعباد) .

وقد تقرر فى الفطر والعقول ، أن عدم السمع والبصر ، والأرجل والأيدى نقص وعيب يمتنع معه دعوة الفاقد لذلك ، لامتناع كونه إلهاً ، إذ الإله يجب أن يكون سميعاً بصيراً حياً قادراً ، كاملاً ، لا نقص فيه ، ولا عيب ، قال تعالى : (إن الذين تدعون من دون الله ، عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا

---

(١) الآية ١٣٤ من سورة النساء .

(٢) الآية ٦١ من سورة الحج .

(٣) الآية ١ من سورة الإسراء .

(٤) الآية ٧٥ من سورة الحج .

(٥) الآية ٢٠ من سورة غافر .

(٦) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٧) الآية ٥٦ من سورة غافر .

(٨) الآية ١ من سورة المجادلة .

لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها) (١)

وقال تعالى عن خليله إبراهيم فى دعوته أبيه إلى الله تعالى : (يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا) (٢) .

وأما سنة رسول الله - ﷺ - فقد جاءت موافقة لما فى كتاب الله ومبينة له ، وهى كثيرة جداً ، نكتفى بذكر يسير منها بالإضافة إلى ماذكره البخارى فى الباب .

فمن ذلك مارواه أبو داود بسند على شرط مسلم ، عن أبى هريرة أنه قرأ قول الله تعالى : (وكان الله سميعا بصيراً) فوضع إبهامه على أذنه ، والتى تليها على عينه ، وقال : رأيت رسول الله ﷺ يقرأ ويضع إصبعيه » (٣)

قال البيهقى عقب روايته لهذا الحديث : « والمراد بالإشارة فى هذا الخبر تحقيق الوصف لله - عز وجل - بالسمع والبصر ، فأشار إلى محل السمع والبصر منا لإثبات صفة السمع والبصر لله - تعالى - ، وأفاد هذا الخبر أنه سميع بصير ، له سمع وبصر ، لا على معنى أنه عليم ، إذ لو كان بمعنى العلم لأشار فى تحقيقه إلى القلب ، لأنه محل العلوم منا » (٤) .

ثم ذكر البيهقى لحديث أبى هريرة هذا شاهدا ، من حديث عقبة بن عامر ، سمعت رسول الله - ﷺ - يقول على المنبر : « إن ربنا سميع بصير ،

---

(١) الآيتان من ١٩٤ - ١٩٥ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٤٢ من سورة مريم .

(٣) انظر سنن أبى داود جـ ٥ ص ٩٧ .

(٤) الأسماء والصفات من ١٧٩ ملخصا .

وأشار بيده إلى عينيه » [١] قال الحافظ : سنده حسن [٢] ، وروى اللالكائى عن ابن عباس أنه قرأ قوله تعالى (تجرى بأعيننا » فأشار بيده إلى عينيه » [٣]

قال ابن خزيمة : « نحن نقول : لربنا عينان يبصر بهما ما تحت الثرى ، وتحت الأرض السابعة السفلى ، وما فى السماوات ، وما بينهما من صغير وكبير ، لايخفى عليه خافية فهو تعالى يرى ما فى جوف البحار ، ولججها كما يرى عرشه الذى هو مستو عليه » [٤]

فالسمع والبصر من الصفات الثابتة لله – تعالى – بقوله عن نفسه ، وبقول رسوله – ﷺ – وبالعقل ، والفطرة ، وإجماع أهل العلم والإيمان ، ولم ينكر ذلك إلا شواذ الطوائف المارقة من الحق ، كالجهمية ، وإخوانهم من بعض المعتزلة ، وليس معهم على ذلك إلا التحذلق ، والكلام الفارغ ، من الحق والمعنى الصحيح أو التوهم بأن إثبات الصفات يقتضى التشبيه ، حيث توهموا أن صفات الله كصفات خلقه تعالى الله .

قوله تعالى : (وكان الله سميعا بصيرا) ، كان هنا تدل على الدوام ، والاستمرار الذى يعم جميع الأوقات ، كما قال علماء النحو : « إن كان تستعمل بمعنى : بقى على حاله ، واستمر شأنه ، وسيستمر من غير انقطاع ، ولا تقيد بزمن ، نحو : كان الله غفورا رحيما » [٥]

قال ابن جرير : « إن الله لم يزل سميعا بما تقولون ، وتنطقون ، وهو سميع لذلك منكم إذا حكمتم بين الناس ، ولما تحاورونهم به .

---

(١) هذا الحديث لم أجده فى الصفات المطبوع فيكون فى النسخة التى نقل منها الحافظ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٣٧٣ .

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة جـ ٢ ص ٤١١ .

(٤) كتاب التوحيد ص ٥٠ .

(٥) النحو الواضح جـ ١ ص ٥٤٩ ، وانظر المقتضب للمبرد جـ ٤ ص ١١٩ .

« بصيرا » بما تفعلون فيما ائتمنتم عليه من حقوق رعيتكم وأموالهم ، وماتقضون به بينهم من أحكامكم ، بعدل تحكمون أو جور ، لايخفى عليه شئ من ذلك حافظ ذلك كله ، حتى يجازى محسنكم بإحسانه ، ومسيئكم بإساءته ، أو يعفو بفضله » (١)

قوله : « قال الأعمش ، عن تميم ، عن عروة ، عن عائشة ، قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، فأنزل الله – تعالى – على النبى – ﷺ –: (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) .

هذا الحديث رواه أحمد فى المسند موصولا (٢) وابن ماجه فى السنن (٣) والنسائى (٤) . وكلهم يأتم مما ذكر البخارى .

ولفظهم : « أنها قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة – وللنسائى – خولة – إلى النبى – ﷺ – وأنا فى ناحية البيت ، وما أسمع ماتقول ، فأنزل الله : (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) إلى آخر الآية .

ورواه ابن ماجه فى كتاب الظهار من السنن بأتم مما هنا (٥) .

قال ابن عبد البر : « روينا من وجوه عن عمر بن الخطاب ، أنه خرج ومعه الناس فمرَّ بعجوز ، فاستوقفته ، فجعل يحدثها وتحدثه ، فقال له رجل : ياأمير المؤمنين حبست الناس على هذه العجوز ، فقال : ويلك ، أتدرى من هذه ؟

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٨ ص ٤٩٤ بتحقيق محمود شاكر .

(٢) انظر المسند جـ ٦ ص ٤٦ ، وانظر الفتح الربانى جـ ١٨ ص ٢٩٨ .

(٣) انظر سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٦٧ .

(٤) المجتبى جـ ٦ ص ١٦٨ .

(٥) انظر سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٦٦٦ .

هذه امرأة سمه الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه خولة بنت ثعلبة التى أنزل الله فيها : (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله) والله لو أنها وقفت إلى الليل ما فارقتها إلا الصلاة ، ثم أرجع إليها » (١)

قال ابن كثير : ورواه ابن أبى حاتم ، وساقه بسنده (٢) .

قوله : « وسع سمعه الأصوات » أى استوعبها وأدركها فلا يفوته منها شيء وإن خفى ، فحينما ذكرت المرأة قصتها لرسول الله - ﷺ - وقال لها : « قد حرمت عليه ، جعلت تقول : بصوت منخفض - يخفى على عائشة مع قربها منها - بعد ماكبرت سنى ظاهر منى ؟ إلى الله أشكو حال صبية إن ضممتهم إلىَّ جاعوا ، وإن تركتهم عنده ضاعوا ، فهذه مجادلتها لرسول الله - ﷺ - التى ذكرها الله تعالى - بقوله : (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) وهذا من أبلغ الأدلة على اتصاف الله تعالى بالسمع ، وهو أمر معلوم بالضرورة من الدين ، لاينكره إلا من ضلَّ عن الهدى .

وقول عائشة هذا يدل على أن الصحابة - رضى الله عنهم - آمنوا بالنصوص على ظاهرها الذى يتبادر إلى الفهم ، وأن هذا هو الذى أراده الله منهم ومن غيرهم من المكلفين ورسوله ، إذ لو كان هذا الذى آمنوا به واعتقدوه خطأً لم يقروا عليه ولبين لهم الصواب ، ولم يأت عن أحد منهم تأويل هذه النصوص عن ظواهرها ، لا من طريق صحيح ولا ضعيف ، مع توافر الدواعى على نقل ذلك مما يبين قطعا أن الذى أريد منهم ، ومن كل مؤمن هو ظاهر الخطاب ، وهذا واضح لمن تأمل النصوص ، وعرف حال الصحابة .

وبهذا يتبين بطلان التأويل ، وأنه سلوك غير سبيل الرسول - ﷺ - وصحابته ، والتابعين لهم إلى نهاية الدنيا .

---

(١) الاستيعاب جـ ٤ ص ١٨٣١ بتحقيق البجاوى .

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٦٠ مطبعة الشعب .

١٦ ــ قال : « حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن أبى عثمان ، عن أبى موسى ، قال : كنا مع النبى – ﷺ – فى سفر ، فكنا إذا علونا كبرنا فقال : « اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لاتدعون أصم ولا غائبا ، تدعون سميعا بصيرا ، قريبا ، ثم أتى علىَّ ، وأنا أقول فى نفسى : لا حول ، ولا قوة إلا بالله . فقال : ياعبد الله بن قيس ، قل لا حول ، ولا قوة إلا بالله ، فإنها كنز من كنوز الجنة ، أو قال : ألا أدلك . به »

* * *

قوله : « كنا مع النبى – ﷺ – فى سفر ، فكنا إذا علونا كبرنا » هذا مما كان النبى ﷺ يفعله ، فكان يكبر إذا علا نشزا ، ويسبح إذا هبط فى منخفض من الأرض ، وقد بوب البخارى – رحمه الله – على الأمرين فى الجهاد والدعوات من صحيحه فقال : باب التسبيح إذا هبط وادياً وبعده باب التكبير إذ علا شرفا .

قال المهلب : « تكبيره ﷺ عند الارتفاع ، استشعار لكبرياء الله عز وجل ، وعندما يقع عليه العين من عظيم خلق الله أنه تعالى أكبر من كل شئ .

والتسبيح فى الأماكن المنخفضة استشعار بتنزيهه تعالى عن صفة السفل والانخفاض » (١) .

وفيه دليل على علو الله تعالى فوق كل شئ ، وأنه لا يجوز أن يكون شئ من خلقه فوقه تعالى وتقدس . وسيأتى البحث فيه إن شاء الله تعالى .

قوله : « فقال : « اربعوا على أنفسكم » أى ارفقوا بأنفسكم ، فلا تكلفوها

---

(١) فتح البارى جـ ٦ ص ١٣٦ .

برفع أصواتكم ، فإنه لاحاجة إلى ذلك ، فإن من تكبرونه ، وتسبحونه سميع بصير ، يسمع الأصوات الخفية كما يسمع الجهرية ، ويرى الأشياء وإن دقت ، فلا يخفى عليه شئ .

قوله : « فإنكم لا تدعون أصم ، ولا غائبا » قال صاحب القاموس : « الصمم انسداد الأذن ، وثقل السمع بحيث لا يسمع الأصوات إلا إذا كانت مرتفعة عالية » [(١)] .

وقيل : هو انسداد الأذن ، وذهاب سمعها .

قوله : « ولا غائبا » أى ليس بعيداً ومستور الرؤية والسمع عنكم ، فيحتاج إلى المناداة ورفع الأصوات ، كما قال تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى ، فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) [(٢)]

ولهذا قال : « تدعون سميعا بصيرا قريبا » وهذه صيغ مبالغة ، لأن له تعالى تمام الكمال من هذه الصفات ، فلا يفوت سمعه أى حركة وإن خفية ، فيسمع دبيب النملة على الصفاة الصماء فى ظلمة الليل ، وأخفى من ذلك كما أنه - تعالى - لايحجب بصره شئ من الحوائل ، فهو يسمع نغماتكم وأصوات أنفاسكم وجميع ما تتلفظون به من كلمات ، ويبصر حركاتكم ، وهو معكم قريب من داعيه ، وهو أيضا مع جميع خلقه باطلاعه ، وإحاطته ، وهم فى قبضته ، ومع ذلك هو على عرشه عال فوق جميع مخلوقاته ، ولايخفى عليه خافية فى جميع مخلوقاته مهما كانت ، وسيأتى بيان ذلك إن شاء الله فى مكانه .

قوله : « قل لاحول ، ولاقوة إلا بالله ، فإنها كنز ، من كنوز الجنة » الكنز هو المال النفيس المحفوظ ، والجمع والادخار يسمى كنزاً .

---

(١) انظر القاموس جـ ٤ ص ١٤٠ .

(٢) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

وكنز الجنة : الأعمال الصالحة ، الفضيلة ، التى يقبلها الله ويرضاها فيحفظها ويدخرها لصاحبها ، فيكون سببا فى دخوله الجنة ورفع منزلته فيها ، وهو دليل على تفاضل الأعمال ، والأدلة على ذلك كثيرة جداً .

ومعنى هذه الكلمة : لاتحول من حالة إلى أخرى ، ولا انتقال من أمر إلى آخر ولا قوة على ذلك ، ولا قدرة إلا بالله ، فهو المعين عليه والمهيىء لأسبابه والموجد لها ، فهى استسلام لله ، وإذعان لقدرته وإرادته ، وإقرار بأنه لا يقع حركة أو سكون إلا بمشيئته جل وعلا .

* * *

١٧ ــ قال : « حدثنا يحيي بن سليمان ، حدثنى ابن وهب ، أخبرنى عمرو ، عن يزيد ، عن أبى الخير ، سمع عبد الله بن عمرو ، أن أبا بكر الصديق – رضى الله عنه – قال للنبى – ﷺ – : يارسول الله علّمنى دعاء أدعو به فى صلاتى ؟ قال : قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى من عندك مغفرة ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

* * *

عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل القرشى ، السهمى ، أبو محمد أسلم قديما ، وكان من أفاضل الصحابة وعبادهم ، ومن العلماء المكثرين عن رسول الله ﷺ ، فقد ثبت عن حافظ الأمة أبى هريرة رضى الله عنه قوله : « ما كان أحد أكثر منى حديثا عن رسول الله ﷺ إلا عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب ولا أكتب » (١) .

ومع ذلك فالمروى عنه أقل بكثير من المروى عن أبى هريرة ، وقد قيل : إن السبب فى ذلك أن عبد الله سكن مصر والوارد إليها من الناس قليل ، وأبو هريرة سكن المدينة وهى مجمع الناس .

قيل : إنه توفى فى مصر ، وقيل فى الطائف ، وقيل فى مكة ، وقيل فى فلسطين سنة ثلاث وستين ، أو خمس وستين ، عن اثنتين وسبعين سنة ، رضى الله عنه ، وعن صحابة رسول الله ﷺ أجمعين .

وأما أبو بكر فهو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة ، القرشى ، كان أبيض نحيفا خفيف العارضين ، وهو أفضل من صحب رسول الله ﷺ ، وهو أعلم الصحابة بالله ورسوله ، وهو أول من أسلم من الرجال ، ولسرعته إلى تصديق الرسول ﷺ وشدة قبوله لقوله سمى الصديق ، وهو رفيق رسول الله ﷺ فى الهجرة ، وصاحبه فى الغار ، كما قال الله

---

(١) رواه البخارى انظر الفتح جـ ١ ص ٢٠٦ .

تعالى : (إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا) (١) ، وقد أخبر النبى ﷺ أنه أمنَّ الناس عليه ، وأنه لو اتخذ من الناس خليلا لاتخذ أبا بكر خليلا ، كما ثبت فى الصحيحين ، وأخبر أنه أحب الناس إليه من الرجال ، وأن ابنته عائشة زوج رسول الله ﷺ أحب الناس إليه من النساء .

أمره رسول الله ﷺ أن يؤم الناس فى مرض موته ، ولما روجع فى ذلك غضب ، وقال : مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس .

وفضائله كثيرة ، وقد كتب فيه مؤلفات ، توفى رضى الله عنه سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، ودفن جوار رسول الله ﷺ (٢)

قوله : « إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا » الظلم هو : وضع الشىء فى غير موضعه .

« وهذا يدل على أن الإنسان لا ينفك عن الذنوب ، والتقصير فى حقوق الله كما فى الحديث : « كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » (٣) لأنه أطلق هذا الظلم ولم يقيده ، أو يخصصه بزمن دون آخر ، أو بحالة دون حالة ، فلو كان هناك حالة أو زمن من عمر الإنسان لا يكون فيه ظلم ماصح هذا الإطلاق ، ولاصار مطابقا للواقع » (٤) .

قوله : « ولا يغفر الذنوب إلا أنت » تقدم معنى الغفر فى اللغة ، والمقصود محو الذنوب ووقاية تبعاتها ، وهذا لجوء إلى التوحيد ، وأنه لا مفر ولا ملجأ يفزع

---

(١) جزء من الآية ٤٠ من سورة التوبة .

(٢) أسد الغابة جـ ٣ ص ٣٠٩ .

(٣) رواه ابن ماجه فى السنن الزهد جـ ٢ ص ١٤٢٠ الحديث رقم ٤٢٥١ ، والترمذى جـ ٤ ص ٧٠ ، وأحمد فى المسند جـ ٣ ص ٩٨ .

(٤) شرح العمدة لابن دقيق العيد جـ ٢ ص ٧٨ .

إليه فى غفران الذنوب ، ووقاية شرها إلا الله وحده ، ولاطريق يسلك لذلك إلا الانطراح بين يدى رب العالمين ، والافتقار إليه ، والتوجه بكلية العبد إليه ، وإخلاص الدعاء له وحده ، رغبة ورهبة . كما قال تعالى : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون) [١].

فعلم العبد بأنه لا يغفر الذنوب إلا الله يضطره إلى اللجوء إليه تعالى والإخلاص له ، وليس هناك طريق للنجاة إلا هذا الطريق ، ولهذا قيل : « إن التوحيد مفزع أولياء الله ، وأعداءه » أما أولياء الله فأمرهم ظاهر وأما أعداؤه ، فكانوا إذا وقعوا فى الشدائد أخلصوا الدعاء لله وحده ، كما ذكر الله عنهم فى القرآن ، ونظر العقل يؤدى إلى هذا دائما .

قوله : « فاغفر لى من عندك مغفرة » أى أنه لا حيلة لى ولا خلاص إلا بأن تمنَّ على أنت وحدك بالمغفرة ، فتستر ذنوبى ، وتعفو عنى ، وتقينى ما يترتب عليها من تبعات وشرور .

وقال : « من عندك » ليبين الاختصاص ، أى أن المغفرة منك وحدك تفضل بها علىَّ ، بدون استحقاق ، بل هى محض جودك وكرمك .

وقوله : « إنك أنت الغفور الرحيم » ختم هذا الدعاء ، بهذين الاسمين الكريمين ، لمناسبتهما للمطلوب ، فالغفور يناسب طلب المغفرة .

والرحيم يناسب طلب التفضل والجود ، وهو قريب من الأول . وهذا من معانى دعاء الله بأسمائه الحسنى .

« وقد جمع فى هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحاله والتوسل إلى ربه – عز وجل – بفضله وجوده ، وأنه المنفرد بغفران الذنوب ، ثم

---

(١) الآية ١٣٥ من سورة آل عمران .

سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معا ، وهكذا أدب الدعاء ، وأدب العبودية » (١)

والمقصود من الحديث فى هذا الباب أن المدعو لابد أن يكون سميعا يسمع دعوة الداعى إذا دعاه ، بصيراً بحاله فيوصل إليه ماطلب بقدرته ، وإلا تكون دعوته ضلال وسدى ، ففى الدعاء واستجابة الله تعالى لعبده الداعى برهان على أنه سميع ، بصير ، قادر ، حى ، عليم ، وقد قال الله تعالى فيمن يدعو من لايسمع ، ولايبصر : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعاءهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين » (٢) .

وقال تعالى عن خليله إبراهيم فى دعوته لأبيه : (ياأبت لم تعبد مالايسمع ولا يبصر ولايغنى عنك شيئا » (٣)

« قد قال ابن عقيل : قدندب الله تعالى إلى الدعاء ، وفى ذلك معان .

أحدها : الوجود ، فإن من ليس بموجود لا يدعى .

الثانى : الغنى ، فإن الفقير لا يدعى .

الثالث : السمع ، فإن الأصم لا يدعى .

الرابع : الكرم ، فإن البخيل لا يدعى .

الخامس : الرحمة ، فإن القاسى لا يدعى .

السادس : القدرة ، فإن العاجز لا يدعى .

---

(١) الوابل الصيب ص ١١٨ .

(٢) الآيتان ٥ و ٦ من سورة الأحقاف .

(٣) الآية ٤٢ من سورة مريم .

ومن يقول بالطبائع ، يعلم أن النار ، لايقال لها كفى ، ولا النجم يقال له : أصلح مزاجى . لأن هذه عندهم مؤثرة طبعا لا اختيارا ، فشرع الدعاء ، وصلاة الاستسقاء ليبين كذب أهل الطبائع » [١]

و « فعل السمع يراد به أربعة معان :

أحدها : سمع إدراك ، ومتعلقه الأصوات .

الثانى : سمع فهم ، وعقل ، ومتعلقه المعانى .

الثالث : سمع إجابة وإعطاء ماسئل .

الرابع : سمع قبول ، وانقياد ، فمن الأول ، (سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) ، و (لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ، ونحن أغنياء) [٢] ، ومن الثانى : قوله : (لاتقولوا : راعنا ، وقولوا انظرنا واسمعوا) [٣] أى سمع فهم وعقل ، ومن الثالث : سمع الله لمن حمده ، ومن الرابع : قوله : سماعون للكذب ، أى قابلون له ، ومنقادون ، فسمع الإدراك يتعدى بنفسه ، وسمع القبول بتعدى باللام ، وبمن ، ولإجابته بمن » [٤] .

* * *

---

(١) شرح الطحاوية ص ٤٥٧ الطبعة الثالثة .

(٢) الآية ١٨١ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ١٠٤ من سورة البقرة .

(٤) بدائع الفوائد جـ ٢ ص ٧٥ .

١٨ ــ قال : « حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى يونس ، عن ابن شهاب ، حدثنى عروة ، أن عائشة – رضى الله عنها – حدثته ، قال النبى – ﷺ : « إن جبريل – عليه السلام – نادانى . قال : إن الله قد سمع قول قومك ، وما ردوا عليك » .

* * *

اختصر البخارى هذا الحديث هنا – فذكر الشاهد منه ، وقد ذكره بتمامه فى بدء الخلق ، ولفظه : « قالت للنبى – ﷺ – هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ .

قال : لقد لقيت من قومك مالقيت ، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت – وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت ، فإذا فيها جبريل فنادانى ، فقال – : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلّم على ، ثم قال : يامحمد – فقال : ذلك فيما شئت ، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين ، فقال : النبى – ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، ولا يشرك به شيئا » (١)

ففى هذا الحديث البيان الواضح فى أن الله – تعالى – يسمع أقوال عباده ، وأنه لايخفى عليه – تعالى – من ذلك شئ .

---

(١) انظر البخارى مع الفتح جـ ٦ ص ٣١٢ .

وصفة السمع والبصر من الصفات اللازمة لله – تعالى – وقد تقدم بيان ثبوت ذلك له – تعالى – عقلا ، وشرعا ، وفطرة ، وأن من أنكر ذلك عرف به وأعلم إن كان جاهلا ، وإلا حكم عليه بالكفر لإنكاره الحق الواضح ، الواجب اعتقاده والإيمان به ، لأنه أنكر ماثبت ، وتواترت عليه كتب الله ، وجاءت به جميع رسله ، فهو أمر ضرورى .

★ ★ ★



قال : « باب قول الله - تعالى - « قل هو القادر »

* * *

هذا الخطاب الكريم ، وأمثاله كثير فى كتاب الله - تعالى - عام شامل ، يجب أن يفهم على عمومه ، كما يجب أن يفهم مراد الله - تعالى - فيه ، وفى غيره من خطاباته - تعالى - .

« وقد اتفق المسلمون ، وسائر أهل الملل على أن الله - تعالى - على كل شئ قدير كما فى نصوص القرآن الكريم ، وغيره من كتب الله - تعالى - ، وما وجد من أفراد مسائل وقع الخلاف فيها ، فهو بسبب عدم فهم النصوص ، كقول من يدخل فى هذا العموم ، الممتنع لذاته ، مثل الجمع بين الضدين ، ككون الشخص ميتا ، حياً فى آن واحد ، والجمع بين الحركة ، والسكون ، والسواد والبياض وما أشبه ذلك .

وكذا من لا يدخل ذلك فى هذا العموم ، فلا يكون ذلك داخلا عندهم فى عموم القدرة .

والحق أن الممتنع لذاته ليس شيئا ، ولا وجود له فى الخارج ، بل لا يتصوره الفكر ثابتا فى خارج الذهن ، ويمتنع تحققه فى الأعيان وتصوره فى الأذهان ، إلا على وجه التمثيل ، فهو ليس بشئ ، لا فى الأعيان ، ولا فى الأذهان ، فلا يصلح أن يقال : إنه خارج من هذا العموم ، أو داخل فيه ، لأن هذا يجعل له وجودا ولو فى الفرض ، فيوقع فى الشبه والشكوك ، بل يقال : (إن الله على كل شئ قدير) وهذا ليس بشئ .

وأما المعدوم ، فليس بشئ أيضا فى الوجود الخارجى ، ولكنه شئ فى

التصور ، والذهن ، وما علم الله – تعالى – أنه سيكون ، فهو شئ فى التقدير ، والعلم والكتاب ، وإن لم يكن شيئا فى الخارج ، كما قال الله تعالى : (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون) [(١)] .

فلفظ الشيء فى الآية يتناول ماوجد ، وما يتصوره الذهن موجودا ولايستثنى من ذلك شيء ، لا أفعال العباد ، ولا أفعاله – تعالى – سواء المتعدية ، أو اللازمة ، كما قال تعالى : – (وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) » [(٢)] . فجمع فى الآية بين النوعين من الأفعال ، المتعدية واللازمة .

والقدرة تتعلق بكل ما تتعلق به المشيئة ، فإن ماشاء الله كان ، ولا يكون شئ إلا بقدرته – تعالى – : ولهذا قال – تعالى : (وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) [(٣)] (وهو على كل شئ قدير) [(٤)] .

والشئ فى الأصل ، مصدر شاء ، يشاء ، شيئا ، كنال ، ينال ، نيلا ، ثم وضعوا المصدر موضع المفعول ، فسموا « المشاء » شيئا ، كما سموا المنال نيلا ، فقالوا : نيل المعدن ، كما يسمى المقدور ، قدرة ، والمخلوق خلقا فقوله تعالى : (على كل شئ قدير) أى على كل مايشاء ، فمنه ماقد شاءه فوجد ، ومنه مالم يشأه [فلم يوجد] وهو شئ فى العلم ، بمعنى أنه قابل لأن يشاءه .

---

(١) الآية ٨٢ من سورة يس .

(٢) انتهى من مجموع الفتاوى ملخصا جـ ٨ ص ٧ – ١١ .

(٣) الآية ٢٩ من سورة الشورى .

(٤) المصدر السابق ص ٣٨٣ .

فهذا العموم يتناول ماكان شيئا فى الخارج ، والعلم ، وما كان فى العلم فقط ، بخلاف مالايجوز أن تتناوله المشيئة ، وهو الحق – تعالى – وصفاته ، أو الممتنع لنفسه ، فإنه غير داخل فى العموم ، ولهذا اتفق الناس على أن الممتنع لنفسه ليس بشىء » اهـ [١]

★ ★ ★

(١) المصدر السابق ص ٣٨٣ .

١٩ ــ قال – « حدثنى إبراهيم بن المنذر ، حدثنا معن بن عيسى ، حدثنى عبد الرحمن بن أبى الموالى ، قال : سمعت محمد بن المنكدر يحدث عبد الله بن الحسن ، يقول : – أخبرنى جابر بن عبد الله ، السلمى ، قال : كان رسول الله – ﷺ – يعلم أصحابه الاستخارة فى الأمور كلها ، كما يعلم السورة من القرآن ، يقول : إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم فإن كنت تعلم هذا الأمر – ثم يسميه بعينه – خيرا لى ، فى عاجل أمرى وآجله – قال : أو فى دينى ومعاشى ، وعاقَبة أمرى – فاقدره لى ويسِّره لى ، ثم بارك لى فيه ، اللهم إن كنت تعلم أنه شر لى فى دينى ومعاشى وعاقَبة أمرى – أو قال : فى عاجل أمرى وآجله – فاصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم رضنى به » .

* * *

جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرامِ الأنصارى الخزرجى ، من أكابر علماء الصحابة ، والحريصين على تحصيل العلم ، فقد ذكر له عدة رحلات فى طلب الحديث . منها أنه رحل من المدينة إلى مصر من أجل حديث واحد ، كما ذكره البخارى فى صحيحه معلقا ، وكان حافظا مكثرا عن رسول الله ﷺ . وهو مفتى المدينة فى زمانه . له مناقب كثيرة .

قال الواقدى : توفى سنة ثمان وسبعين ، وقال صاحب الحلية : سنة سبع وسبعين . قيل إنه عاش أربعا وتسعين سنة رضى الله عنه وعن سائر صحابة رسول

الله ﷺ (١)

قوله : « يعلمنا الاستخارة » أى صلاتها ودعاءها ، وهذا من تمام شفقته على أمته ، وحرصه على حصول الخير لهم ، ودفع كل شر عنهم ، وبمثل هذا يعلم أنه ﷺ . ما كان ليترك باب مايعتقدونه فى ربهم ، من الإيمان بأسماءه وصفاته ، ومايجب له ، ومايمتنع عليه ماكان ليترك ذلك بدون إيضاح وبيان لايحصل معه أى التباس أو اشتباه ، وهذا واضح جلى من دعوة الرسول ﷺ ، ومن حاله ، وهو موجب الرسالة ، ومن حالة أصحابه أيضا .

الاستخارة : طلب الخير من أحد الأمرين ، الفعل لما همَّ به ، أو الترك ، وهى مشروعة فى عامة الأمور ، كما يدل عليه هذا الحديث ، لايخرج من عموم ذلك إلا الواجب ، والمحرم ، أما المستحب والمكروه ، ففيهما تفصيل ، يذكر فى كتب الآداب الشرعية ، وكتب الفروع .

وقوله : « كما يعلمنا السورة من القرآن » بيان لشدة الاهتمام بها والاعتناء . وهذا من محاسن الإسلام الظاهرة لكل عاقل ، وقد كان العرب قبل ذلك إذا همَّ أحدهم بالأمر ذهب يستقسم بالأزلام ، أو ذهب يزجر الطير ليستدل بطيرانه أو نعابه على ماسيحصل له فى المستقبل ، أو ذهب إلى الكهنة وإخوان الشياطين ، وهذا كله رجم بالغيب ، وشرك بالله . فعوضه الإسلام عن ذلك بالفزع إلى من بيده أزمة الأمور كلها ، ومن يملك الخير ، والشر ، فيقدمون بين يدى ذلك ركعتين ، لتكونا وسيلة بين يدى الطلب ، ثم يتوجهون إلى ربهم بهذا الدعاء ، الذى فيه التوسل إليه تعالى بأسماءه وصفاته ، وتوحيد الطلب ، والنية والقصد .

وقوله : « ليركع » أمر بالركوع ، ويحمل على الندب للأدلة الدالة على عدم الوجوب .

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ١٨٩ ، والإصابة جـ ١ ص ٢١٣ ، وأسد الغابة جـ ١ ص ٢٥٦ ، والاستيعاب جـ ١ ص ٢١٩ .

قوله : « من غير الفريضة » يدل على عدم حصول سنة الاستخارة بالدعاء عقب صلاة الفرض ، بل لابد أن تكون بركعتين غير الفريضة ، ثم يدعو بهذا الدعاء .

قوله : « اللهم إنى أستخيرك » أى أطلب منك بيان ماهو خير لى .

قوله : « بعلمك » أى أسألك ، وأتوسل إليك بصفتك ، صفة العلم أن ترشدنى إلى الخير فيما أريد ، فإنك عالم به لا يخفى عليك شئ .

وهذا صريح فى إثبات صفة العلم لله – تعالى – ودعاءه به ، والأدلة عليه لا حصر لها كما سبقت الإشارة إليه .

وقوله : « وأستقدرك » أى أسألك أن تجعلنى قادراً على فعل ما أريد ، وتهيئ أسباب ذلك لى .

وقوله : « بقدرتك » وهذا سؤال لله تعالى بصفته التى هى القدرة – أى أنت القادر الذى لا يعجزه شئ ، فأسألك بهذه القدرة العظيمة أن تنيلنى ماأريد ، وهذا هو محل الشاهد من الحديث للباب كما هو ظاهر .

ثم عاد إلى التوسل بهاتين الصفتين ، بقوله : « فإنك تقدر ، ولا أقدر » الخ . يعنى – لك القدرة الكاملة الشاملة ، فأسألك بها ، كما أنى أسألك بفقرى إليك وعجزى ، فليس لى قدرة على شئ حتى تجعلنى قادراً عليه ، وتيسر لى أسبابه ، وأنت تعلم عواقب الأمور ، وما تؤول إليه ، بل لايخفى عليك شئ فى الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، فعلمك شامل لكل شئ ولا علم لى بشئ من ذلك إلا ماعلَّمتنى .

وقوله : « وأنت علام الغيوب » أى ذلك خاص بك لا يعلمه سواك .

قوله : « ثم يسميه بعينه » ظاهر فى أنه يتلفظ به معينا له باسمه ، ليكون بذلك أقوى على اجتماع العزم على طلبه .

« فى عاجل أمرى وآجله » أى فى دنياى ، وآخرتى .

« أو فى دينى ، ومعاشى ، وعاقبة أمرى » شك من الراوى هل قال الأول أو الثانى ، والمعنى واحد .

وقوله : « فاقدره لى ، ويسِّره لى » أى اقض به لى ، واجعلنى قادراً على الحصول عليه ، وسهل لى أسبابه بحيث أناله بلا مشقة وكلفة . وفى هذا ، أنه لايحصل شئ إلا بسبب .

« ثم بارك لى فيه » أجعل فيه بركة تنميه وتزيده ، وفيما يترتب عليه .

« اللهم إن كنت تعلم أنه شرٌّلى ، فى دينى ، ومعاشى ، وعاقبة أمرى – أو قال : عاجل أمرى ، وآجله فاصرفنى عنه » أى هيىء الأسباب التى تصرف قلبى وتثنى عزمى عن فعله .

« وقدر لى الخير حيث كان » أى قدر لى فعل ما فيه خير لدينى ودنياى فى أى مكان ، وفى أى وقت .

« ثم رضنى به » أى اجعلنى رضيا به ، قانعاً . ناعم البال ، مستغنيا عن خلقك مستعينا به على طاعتك ، وشاكرا لك منقادا لأمرك .

ومراد البخارى إثبات صفة القدرة لله تعالى ، وأن قدرته تعالى عامة لكل مقدور ، والرد على القدرية نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم الذين يقيدون قدرة الله تعالى بما اخترعوه من عند أنفسهم ، ولهذا اقتصر على هذا القدر من الآية أى القادر على كل شئ .

فالله تعالى يفعل مايشاء ، ويحكم مايريد ، لا مانع له ، ولايقدر غيره أن يمنعه مراده « فهو قادر على كل مقدور » .

وكل ممكن يكون مقدورا له ، فما من ممكن فى نفسه إلا والله قادر عليه . وأما الممتنع لنفسه ، فإنه ليس بشئ عند جميع العقلاء وإن تنازعوا فى المعدوم

الممكن مثل إيمان الكافر هل هو شئ أولا ؟

فأما الممتنع لنفسه فلم يقل أحد أنه شئ فى الخارج ، والممتنع هو ما لايمكن وجوده فى خارج الذهن ، مثل كون الشئ موجودا معدوما [١] فإنه لايعقل ثبوت ذلك ، وكذا كون الشئ أسود كله وأبيض كله وكون الجسم الواحد بعينه فى الوقت الواحد فى مكانين ، والممتنع يراد به الممتنع لنفسه مثل هذه الأمور ، ويراد به الممتنع لغيره مثل ماعلم الله أنه لا يكون ، وأخبر أنه لا يكون ، وكتب ذلك فهذا ممتنع لأنه لو كان للزم أن يكون علم الله متخلف عن معلومه ، وخبره بخلاف الواقع تعالى عن ذلك ، ولكن هو ممكن بنفسه والله قادر عليه ، كما قال تعالى : (بلى قادرين على أن نسوى بنانه) [٢] وقال تعالى : (وإنا على ذهاب به لقادرون) [٣] ، وقال تعالى : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) [٤] (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) [٥] .

وأمثال ذلك مما يخبر تعالى أنه لو شاء لفعله ، فإن هذه الأمور التى أخبر أنه لو شاء لفعلها يلزم أنها ممكنة مقدورة له ، فإيمان من علم الله أنه لا يؤمن مقدور له ممكن ، لكنه لا يقع ، وقد علم الله أنه لا يؤمن ، مع كونه مستطيع الإيمان ، كمن علم أنه لا يحج مع استطاعته الحج .

---

(١) ومن ذلك قول بعض الملاحدة : هل يقدر الله أن يخلق مثل نفسه ، فهذا ممتنع لنفسه ، وإنما يورده جاهل لايتصور مايقول ، أو ملبس معاند يريد إفساد عقائد عوام المؤمنين أو التشكيك فى قدرة الله تعالى .

(٢) الآية ٤ من سورة القيامة .

(٣) الآية ١٨ من سورة المؤمنون .

(٤) الآية ١٣ من سورة السجدة .

(٥) الآية ١١٨ من سورة هود عليه السلام .

قال الله تعالى : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) [١] .

وحقيقة الأمر هو ما أخبر الله به فى غير موضع من كتابه أنه على كل شيء قدير ، وهذا هو ما يعتقده أهل السنة المثبتون للقدر » [٢]

★ ★ ★

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الأنعام .

(٢) منهاج السنة جـ ٢ ص ١١٨ – ١٢٢ ملخصا ببعض التصرف .



قال : « باب مقلب القلوب »

وقول الله – تعالى – : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) (١)

* * *

قال الراغب : « تقليب الشيء : تغييره من حال إلى حال ، والتقليب التصرف – وتقليب الله القلوب والبصائر : صرفها من رأى إلى رأى » (٢) .

قال ابن عباس : « لما جحد المشركون ما أنزل الله ، لم تثبت قلوبهم على شيء ، وردت عن كل أمر » (٣) .

وقال مجاهد : « وتحول بينهم وبين الإيمان ، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون ، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة » (٤) .

قال الحافظ : « المراد بتقليب القلوب : تقليب أعراضها ، وأحوالها ، لاتقليب ذات القلب » (٥) .

أخبر – تعالى – أنه يعاقب من لايقبل الحق ، أو يرده أول مايبلغه بتقليب القلب ، وتركه يعمه فى ضلاله وغيه ، كما فى هذه الآية المذكورة فى الباب وكما فى قوله تعالى – : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) (٦) وفى هذا بيان أن الله تعالى إذا منع فضله الإنسان ، بالهداية ، أنه يكون منحرفا ضالا .

---

(١) الآية ١١٠ من سورة الأنعام .

(٢) المفردات ص ٤١١ .

(٣) رواه الطبرى انظر التفسير جـ ١٢ ص ٤١ ، ٤٣ .

(٤) المصدر نفسه جـ ١٢ ص ٤٤ .

(٥) الفتح جـ ١١ ص ٥٢٧ .

ومراد البخارى – رحمه الله – وصف الله – تعالى – بأنه المنفرد بالتصرف فى خلقه حتى قلوب العباد التى تنطوى على آراءهم ، ونياتهم ، وما يخططون لمستقبلهم حيث يرى كثير منهم أو أكثرهم فى الظاهر أنهم أحرار فى أفكارهم ، وما يريدونه ، والواقع أن الله تعالى هو الذى يصرفهم فى ذلك ، فلا قدرة لهم إلا بعد مشيئتة ، وبهذا يشير البخارى رحمه الله إلى تمام قدرة الله التى سبق ذكرها فى الباب قبل هذا ، حيث بين بهذا أن الله هو المتصرف بالقلوب ، فإن شاء جعلها مريدة للخير ، وإن شاء جعلها مريدة للشر . وبذلك يعلم أنه لاقدرة لأحد على شئ إلا بعد أن يجعله الله قادرا عليه ، خلافا لما يقوله الضالون عن الحق ، من أهل البدع ، والانحراف .

٢٠ ــ قال : « حدثنا سعيد بن سليمان ، عن ابن المبارك ، عن موسى ابن عقبة ، عن سالم ، عن عبد الله ، قال : « أكثر ما كان النبى - ﷺ - يحلف : لا ، ومقلب القلوب »

* * *

ذكر البخارى رحمه الله - هذا الحديث فى كتاب القدر ، بلفظ : « كثيرا ماكان النبى ﷺ - يحلف ، لا ، ومقلب القلوب » [١] .

وذكر عن ابن عمر - أيضا - « كانت يمين النبى ﷺ : لا ومقلب القلوب » [٢]

وفى رواية ابن ماجه : « كان أكثر أيمان رسول الله - ﷺ : لا ومصرف القلوب » [٣] .

قال الحافظ : « فى هذا الحديث ، دليل على أن أعمال القلب ، من الإرادات ، والدواعى وسائر الأعراض ، بخلق الله - تعالى - وفيه جواز تسمية الله تعالى بما ثبت من صفاته على الوجه الذى يليق به » [٤] .

ففى هذا الحديث ، وماهو نحوه من الدلائل أن الله تعالى هو الذى يتولى قلوب العباد يصرفها كيف يشاء ، وهذا من تمام ملكه ، فلا ينازعه أحد فى التدبير والتصرف ، ولا يقع فى الوجود إلا ما أراده ، وبهذا يعلم مدى حاجة العبد إلى ربه ، وأنه لاغنى له عنه طرفة عين ، فلا بد له من هدايته ، وتوفيقه وإلا ضل

---

(١) انظر البخارى مع الفتح جـ ١١ ص ٥١٣ .

(٢) انظر المرجع المذكور ص ٥٢٣ .

(٣) انظر سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٦٧٧ رقم ٢٠٩٢ .

(٤) فتح البارى جـ ١١ ص ٥٢٧ .

وتاه فى مهامه نهايتها الهلاك ، والعذاب المؤبد ، وهذا لا ينافى تكليف العباد ، بالأعمال التى يترتب عليها الجزاء ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى فى موضعه .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ، أنه سمع رسول الله – ﷺ – يقول : « إن قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين ، من أصابع الرحمن ، كقلب واحد ، يصرفه كيف يشاء ، ثم قال رسول الله – ﷺ – : اللهم مصرف القلوب ، صرِّف قلوبنا على طاعتك » [1] .

(١) انظر مسلم كتاب القدر جـ ٤ ص ٢٠٤٥ رقم الحديث ٢٦٥٤ .

قال : « باب إن لله مائة اسم إلا واحدة »

* * *

مراده بهذا الباب وجوب إثبات أسماء الله – تعالى – على ماورد فى كتاب الله ، وعن رسوله ، وأن ذلك من التوحيد الذى بينه الرسول – ﷺ – ودعا أمته إلى الإيمان به ، ووجوب اعتقاده ، قال الله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ماكانوا يعملون) (١) وقال جل وعلا : (قل ادعوا الله أو ادعو الرحمن أياًّما تدعوا فله الأسماء الحسنى) (٢) . وقال تبارك وتعالى : (هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى) (٣) .

فهذه الآيات وغيرها مما فى معناها ، تدل على وجوب الإيمان بما لله تعالى من الأسماء الحسنى ، الدالة على عظيم جلاله ، وسعة أوصافه . فكل اسم من أسمائه دال على كمال عظمته ، وبذلك كانت حسنى ، أما الأسماء التى لاتدل على صفات الكمال ، فليست بحسنى ، وكذلك إذا اشتركت دلالتها بين الكمال والنقص ، أو دلت على مجرد عَلَمٍ محض ، مثل إبراهيم ، وزيد . فلا تكون حسنى حتى تدل على كمال الصفة التى اشتقت منها الاسم ، مثل « العليم » فإنه يدل على أن له علماً عاماً محيطاً بجميع الأشياء ، لايخرج عنه مثقال ذرة فى السماوات والأرض ، ومثل « القدير » الدال على قدرته التى لايعجزها شىء ، و « الرحيم » الدال على رحمته العظيمة التى وسعت كل شىء .

---

(١) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٢٤ من سورة الحشر .

وهكذا كل أسمائه جل وعلا ، وهذا تفصيل ، وبيان للباب الثانى من الكتاب ولكونها حسنى أوجب على عباده ، دعاءه بها ، كما يأتى فى الباب بعد هذا ، ونوعد الملحدين بها .

فيدعى بكل مطلوب بما يناسبه منها ، فيقال : اللهم اغفر لى وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم ، وتب عليّ إنك عفو كريم ، والطف بى يالطيف ، وارزقنى يارزاق ، وهكذا .

« قوله : « إن لله مائة اسم إلا واحدة » التأنيث فى لفظة « واحد » نظراً إلى التسمية أو الكلمة ، كما يقول النحاة : « الكلمة اسم أو فعل أو حرف » .

وقال ابن مالك : أنث باعتبار معنى التسمية ، أو الصفة ، أو الكلمة » [1]

وفى بعض رواياته « إلا واحداً » .

قال ابن عباس : « ذو الجلال ، العظمة ، البر اللطيف » .

فى رواية : « ذو الجلال ، العظيم » ، فيكون « العظيم » تفسيراً « لذو » ، وعلى الأولى تفسيراً « للجلال » .

فذو الجلال ، صاحب العظمة ، الذى لاتقاس عظمته بشئ من خلقه جل وعلا .

وأما « البر » فهو المحسن غاية الإحسان إلى خلقه ، من غير استحقاق ولا مقابل ، فهو بليغ الإحسان إلى خلقه ، وإحسانه شامل لهم .

وأما اللطيف . فهو العالم بالخفيات ، ودقائق الأمور ، وغوامضها ، والله أعلم .

---

(١) فتح البارى جـ ١١ ص ٢١٩ .

وقال الزجاج : « اللطيف » المحسن إلى عباده فى خفاء ، وستر من حيث يعلمون » [١] .

★ ★ ★

---

(١) تفسير الأسماء الحسنى ص ٤٤ .

٢١ ــ قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله – ﷺ – قال : « إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة » .
« أحصيناه » حفظناه .

* * *

« قال جماعة من العلماء : الحكمة فى قوله : « مائة إلا واحدا » بعد قوله : « تسعة وتسعين » أن يقرر ذلك فى نفس السامع ، جمعا بين جهتى الإجمال والتفصيل ، أو دفعا للتصحيف الخطى ، أو اللفظى » [١]

قوله : « إن لله تسعة وتسعين اسما » هذا لايقصد به حصر أسماء الله تعالى فى هذا العدد المذكور ، وإنما قصد الإخبار عن ما يترتب على إحصائها وجزائه كما تقول : عندى مائة كتاب أعددتها للإعارة . فلا ينفى أن يكون عندك كتب غيرها ، فالتقييد بهذا العدد عائد إلى الأسماء الموصوفة بهذه الصفة وهى قوله : « من أحصاها دخل الجنة » فهذه الجملة محلها النصب صفة « لتسعة وتسعين » ، ويجوز أن تكون فى محل رفع على الابتداء ، والمعنى « إن لله أسماء بقدر هذا العدد ، من أحصاها دخل الجنة » .

فأسماء الله تعالى ، لاتدخل تحت حصر ، ولا تحد بعدد ، بدليل ما رواه الإمام أحمد فى المسند ، حدثنا يزيد ، أنبأنا ابن مرزوق ، حدثنا أبو سلمة الجهنى [٢] ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عبد الله ، قال : قال

---

(١) الفتح جـ ١١ ص ٢١٩ .

(٢) يزيد ، هو ابن هارون إمام حافظ مشهور ، وابن مرزوق ، هو فضيل بن مرزوق الأغر الرقاشى الكوفى من رجال مسلم ، وأبو سلمة هو موسى بن عبد الله أو ابن عبد الرحمن .

رسول الله ﷺ - : « ما أصاب أحداً قط همٌّ ، ولاحزن ، فقال : اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماضٍ في حكمك ، عدل فى قضاءك ، أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو علَّمته أحداً من خلقك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى ، إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحا » (١) سنده صحيح .

قال ابن كثير : « وأخرجه الإمام أبو حاتم ابن حبان فى صحيحه بمثله » (٢)

فهذا يدل على أن لله أسماء غير التسع والتسعين .

وقوله فى هذا الحديث : « أو استأثرت به فى علم الغيب عندك » ، معناه انفردت بعلمه فلم تطلع عليه أحداً ، لا ملكا مقربا ، ولا نبياً مرسلا .

وقسم أسماء الله تعالى فى هذا الحديث ثلاثة أقسام :

أحدها : ماسمى به نفسه ، فأظهره لمن شاء ، من ملائكته أو غيرهم ولم ينزله فى كتبه .

والثانى : أنزله فى كتبه ، أو فى بعضها ، فتعرف به إلى عباده .

والثالث : استأثر به فى علم الغيب عنده ، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه ، ولهذا قال : « أو استأثرت به فى علم الغيب عندك » أى جعلته من الغيب الذى لا يعلمه غيرك ، وليس المراد أنه - تعالى - انفرد بالتسمى به لأن هذا الانفراد ثابت فى الأسماء التى أنزلها فى كتبه .

---

(١) المسند جـ ١ ص ٣٩١ ، ٤٥٢ ، وانظر الفتح الربانى جـ ١٤ ص ٢٦٢ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥١٧ ط الشعب .

ومن الأدلة على عدم حصرها فيما ذكر ، قوله : – ﷺ – فى حديث الشفاعة « فيفتح عليَّ من محامده مالا أحسنه الآن » وتلك المحامد ، هى الثناء عليه – تعالى – بماله من أسماء حسنى وصفات عليا .

ومن الأدلة أيضا قوله – ﷺ – : « لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » (١) وأحسن الثناء ما كان بأسماءه الحسنى وصفاته العلية .

وبهذا يتبين أن الأسماء الحسنى غير محصورة فى العدد المذكور ، وإنما خص ذكر هذا العدد لما رتب عليه من الحكم ، وهو من أحصاها دخل الجنة ، فليس فى الحديث حصر أسماء الله تعالى ، ولا يدل على أنه ليس لله اسم غير هذه التسع والتسعين ، وإنما أريد به الإخبار بدخول الجنة لمن أحصاها ، لا الإخبار بحصرها ، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء ، كما ذكره الحافظ ، ونقل النووى الاتفاق على ذلك . (٢)

قال شيخ الإسلام : « والصواب الذى عليه جمهور العلماء ، أن قول النبى – ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسما ، من أحصاها دخل الجنة » معناه أن من أحصى التسعة والتسعين ، من أسمائه دخل الجنة ، ليس مراده أنه ليس له إلا تسعة وتسعون اسما ، فإن فى الحديث الآخر الذى رواه أحمد وأبو حاتم فى صحيحه « أسألك بكل اسم هو لك » الحديث . وفى الصحيحين : « لا أحصى ثناء عليك » ولو أحصى جميع أسمائه ، لأحصى صفاته فكان يحصى الثناء عليه ، لأن صفاته يعبر عنها بأسمائه » (٣)

قوله : « من أحصاها دخل الجنة » اختلف فى المقصود من الإحصاء ، وربما فهم من صنيع البخارى أنه يرى أن إحصاءها هو حفظ ألفاظها ، كما فهم

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الصلاة جـ ١ ص ٣٥٢ ، وأبو داود فى الوتر جـ ٢ ص ١٣٤ وغيرهما .

(٢) انظر فتح البارى جـ ١١ ص ٢٢٠ .

(٣) درء تعارض العقل والنقل جـ ٣ ص ٣٣٢ .

ذلك الحافظ ابن حجر ، وعندى فيه نظر ، وذلك أن عادة البخارى التى سار عليها فى كتابه هذا ، أنه إذا جاء لفظ فى الحديث ، وفى القرآن لفظ يوافقه فى اللفظ والاشتقاق ، أنه يذكره وإن كان لايوافقه فى المعنى ، وأمثلة ذلك كثيرة . فهو فى قوله : « أحصيناه حفظناه » يشير إلى قوله تعالى : (وكل شئ أحصيناه فى إمام مبين) قال الأصيلي : « إحصاءها العمل بها ، لاعدّها وحفظها ، لأن ذلك قد يقع للكافر والمنافق ، كما فى حديث الخوارج : « يقرؤن القرآن لايجاوز حناجرهم » (١)

وذكر العلامة ابن القيم – رحمه الله تعالى – لإحصاءها ثلاث مراتب :

الأولى : إحصاء ألفاظها ، وعددها .

الثانية : فهم معانيها ومدلولها .

الثالثة : دعاؤه – تعالى – بها كما قال : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها)

والدعاء نوعان : دعاء ثناء وعبادة .

ودعاء مسألة وطلب ، وكلا النوعين ورد بهما القرآن بكثرة .

فلا يثنى عليه تعالى إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، كما لا يسأل إلا بها ، ويسأل بها فى كل مطلوب بما يناسبه ، ويقتضيه من الأسماء الحسنى ، والصفات العلية الكريمة ، كما تقدمت الإشارة إليه .

وهذا من أعظم الوسائل إلى الله تعالى ، وأنفعها ، ولهذا جاءت أدعية الرسل مطابقة لذلك » (٢)

---

(١) فتح البارى جـ ١١ ص ٢٢٦ .

(٢) انظر بدائع الفوائد جـ ١ ص ١٦٤ .

وبهذا يتبين أن إحصاءها الموعود عليه دخول الجنة ، يتضمن حفظها وفهمها ، ودعاء الله بها ، والله أعلم .

قال أبو عمر الطلمنكى : « من تمام المعرفة بأسماء الله – تعالى – وصفاته التى يستحق بها الداعى والحافظ ما قال رسول الله – ﷺ – المعرفة بالأسماء والصفات ، وما تتضمنه من الفوائد ، وتدل عليه من الحقائق ، ومن لم يعلم ذلك لم يكن عالما لمعانى الأسماء ولا مستفيداً بذكرها ماتدل عليه من المعانى » (١)

★ ★ ★

(١) فتح البارى جـ ١١ ص ٢٢٦ .

قال : « باب السؤال بأسماء الله تعالى ، والاستعاذة بها »

* * *

السؤال : هو الطلب بذل وخضوع وافتقار ، والاستعاذه هى : العوذ والاحتماء بمن يدفع المكروه ، ويرفع البلاء بعد نزوله . وهما من أفضل أنواع العبادة ، فالبخارى رحمه الله – أراد بهذا الباب أن يبين معنى دعاء الله تعالى بأسماءه الذى أمر الله به ، وأن الرسول – ﷺ – قد بينه .

قال ابن بطال : « مقصوده بهذه الترجمة ، تصحيح القول بأن الاسم هو المسمى ، فلذلك صحت الاستعاذة بالاسم ، كما تصح بالذات » [١]

قلت : هذا بعيد عن مقصود البخارى ، وإنما مقصوده بيان كيفية دعاء الله وعبادته بأسماءه التى أمر أن يدعى بها ، ويعبد بقوله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) ، وبين ذلك الرسول ﷺ بفعله ، وأمره ، كما فى الأحاديث التى ذكرت فى هذا الباب وغيرها .

وأما مسألة : هل الاسم هو المسمى ، أو غيره ؟ فهى من بدع الكلام ، التى حدثت بعد القرون المفضلة ، والتى اختلط فيها الحق بالباطل .

والبخارى – رحمه الله – من أبعد الناس عن مثل ذلك .

قال ابن جرير الطبرى – رحمه الله : « وأما القول . فى الاسم أهو المسمى أم هو غيره ؟ فإنه من الحماقات الحادثة ، التى لا أثر فيها فيتبع ، ولا قول من إمام فيستمع ، فالخوض فيه شين ، والصمت عنه زين . وحسب امرىء من العلم به والقول أن ينتهى إلى قوله جل ثناؤه الصادق وهو قوله : – تعالى – (قل ادعوا

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٧٩ .

الله ، أو ادعوا الرحمن ، أيًّا مَّا تدعوا فله الأسماء الحسنى) [١] وقوله : « ولله الأسماء الحسنى » [٢] .

« وكان سبب حدوث هذه المسألة ، أن الجهمية قالوا : إن الاسم غير المسمى وأسماء الله غيره ، وما كان غيره فهو مخلوق ، لأن الله – تعالى – وحده هو الخالق ، وماسواه مخلوق ، فإذا كانت أسماءه غيره ، فهى مخلوقة . فرد عليهم السلف ، واشتد نكيرهم عليهم ، لأن أسماء الله من كلامه ، وكلام الله غير مخلوق ، فهو الذى سمى نفسه بهذه الأسماء .

فكان مراد الذين يقولون الاسم غير المسمى [من أهل السنة] هو هذا .

ولهذا روى عن الشافعى ، والأصمعى ، وغيرهما أنهم قالوا : إذا سمعت الرجل يقول : الاسم غير المسمى ، فاشهد عليه بالزندقة » [٣]

وللناس فى هذه المسألة ثلاثة أقوال :

أحدها : ماذكره ابن بطال ، وإليه ذهب كثير من المنتسبين إلى السنة كأبى القاسم الطبرى اللالكائى ، والبغوى ، وغيرهما .

قال البغوى : « والاسم هو المسمى ، وعينه ، وذاته ، قال الله تعالى : (إنا نبشرك بغلام اسمه يحي) [٤]

فأخبر أن اسمه يحيى ، ثم نادى الاسم ، فقال : (يايحيى خذ الكتاب بقوة) [٥] .

---

(١) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

(٢) عقيدة الطبرى ص ١٢ .

(٣) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ١٨٧ .

(٤) الآية ٧ من سورة مريم .

(٥) الآية ١٢ من سورة مريم .

وقال تعالى : (ماتعبدون من دونه ، إلا أسماء سميتموها) [١] وأراد الأشخاص المعبودة ، لأنهم كانوا يعبدون المسميات .

وقال تعالى : (سبح اسم ربك الأعلى) ، وقال : (تبارك اسم ربك) .

والقول الثانى : أن الاسم غير المسمى .

والثالث : أن الاسم للمسمى ، وهذا القول دل عليه الكتاب ، والسنة قال تعالى - (ولله الأسماء الحسنى) [٢] وقال : (أيًّا مَّا تدعوا فله الأسماء الحسنى) [٣] وقال تعالى : (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) [٤] وقال تعالى : (هو الله الخالق البارئ المصور ، له الأسماء الحسنى) [٥] .

ومن السنة هذا الحديث : « إن لله تسعة وتسعين اسماً » .

وقوله - ﷺ - : « إن لى خمسة أسماء ، أنا محمد ، وأحمد ، والماحى ، والحاشر ، والعاقب » [٦] .

هذا مذهب أكثر أهل السنة .

فلا يطلقون بأنه المسمى ، ولاغيره ، بل يفصلون ، حتى يزول اللبس . فإذا قيل لهم : أهو المسمى أم غيره ؟ قالوا : ليس هو نفس المسمى ، ولكن يراد به المسمى .

---

(١) الآية ٤٠ من سورة يوسف .

(٢) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ١١٠ من سورة الإسراء ،

(٤) الآية ٨ من سورة طه .

(٥) الآية ٢٤ من سورة الحشر .

(٦) رواه البخارى ، انظره مع الفتح فى التفسير جـ ٨ ص ٦٤٠ ، وفى المناقب جـ ٦ ص ٥٥٤ ، ومسلم فى الفضائل جـ ٤ ص ١٨٢٨ رقم ٢٣٥٤ ورقم ٢٣٥٥ .

وإن أريد بأنه غيره ، كونه بائناً عنه ، فهو باطل ، لأن أسماء الله من كلامه وكلامه صفة له ، قائمة به ، لاتكون غيره .

واسم الله – تعالى – فى مثل إذا قيل : « الحمد لله » أو « بسم الله » يتناول ذاته وصفاته ، لا ذاتاً مجردة عن الصفات ، ولا صفات مجردة عن الذات . وقد نص الأئمة على أن صفاته ، داخلة فى مسمى أسمائه ، فلا يقال : إن علمه وقدرته ، زائدة عليه .

ومن قال من أهل السنة : إن الصفات ، زائدة على الذات .

فمراده : أنها زائدة على ما أثبته أهل التعطيل ، الذين أثبتوا ذاتاً مجردة عن الصفات ، لأنه ليس فى الوجود ، ذات مجردة عن الصفات ، كما لايمكن وجود صفات بلا ذات ، تقوم بها ، فتخيل وجود أحدهما دون الآخر من الهوس .

ثم إن الذين قالوا : إن الاسم هو المسمى ، ليس مرادهم ، أن مجرد اللفظ هو الذات ، التى وضع لها هذا الاسم ، فإن هذا لايقوله عاقل .

كما أن الذين قالوا : إن الاسم غير المسمى ، لم يريدوا أن مجرد اللفظ غير الذات ، فإن هذا لاجدال فيه .

وما ذكره البغوى – رحمه الله – محتجاً به على أن الاسم هو المسمى ، فهو لايدل على ما قاله .

فقوله – تعالى – : (وإنا نبشرك بغلام اسمه يحي) ثم قال : (يايحي خذ الكتاب) فاللفظ الذى هو « الياء والحاء والياء » ليس هو ذات المسمى به ، فمن زعم ذلك فقد كابر .

فالمقصود نداء المسمى لانداء اللفظ ، والمتكلم لايمكنه نداء من يريد مناداته إلا ذكر اسمه ، إلا أن يكون ذلك بالإشارة .

وأما قوله – تعالى : (ماتعبدون من دونه ، إلا أسماء سميتموها ، أنتم وآباؤكم [١]

فليس المراد : أنكم تعبدون الأوثان المسماة ، فهم معترفون بذلك .

بل المراد : نفى ماكانوا يعتقدونه فيها من الإلهية ، والواقع أنه ليس فيها شئ من ذلك .

فإذا عبدوها ، معتقدين ثبوت إلاهيتها، مسمينها آلهة ، لم يكونوا فى حقيقة الأمر عبدوا إلا أسماء ابتدعوها ، ما أنزل الله بها من سلطان ، وليس فيها من معنى الإلهية شىء ، فعبادتهم لما تصوروه فى أنفسهم من معنى الإلهية وعبروا عنه بألسنتهم .

وهذا التصور خيالى ، لاحقيقة له ، فهم لم يعبدوا فى الحقيقة إلا ذلك الخيال الفاسد ، الذى تصوروه ، وسموه إلهاً ، فكان مجرد تسمية فقط ، ليس له من معنى الإلهية شىء .

وأما قوله تعالى : (سبح اسم ربك الأعلى) . فالمراد به ، تسبيحه تعالى وتنزيهه عما لا يليق به ، معتقداً ذلك بقلبه ، متلفظاً باسمه بلسانه ، قائلا : « سبحان ربى الأعلى » ، والمراد المسمى بهذا الاسم ، فتسبيح الاسم هو تسبيح المسمى .

ومن قال : المراد بتسبيح الاسم ، أنك لاتسمى به غير الله ، ولا تلحد فى أسمائه . فهذا المعنى مما يستحقه اسم الله تعالى ، وهو داخل فى المراد بالآية ، ولكن المقصود المعنى الأول . والله أعلم .

وأما قوله – تعالى : (تبارك اسم ربك) فالمعنى : أن البركة تكتسب ، وتنال بذكر اسمه .

---

(١) الآية ٤٠ من سورة يوسف .

ولو كان لفظ الاسم يراد به المسمى ، لكفى قوله : تبارك ربك ، لأن نفس الاسم عندهم هو الرب ، فيكون بذكر الاسم تكرار .

وبهذا يتبين أن الشبهة التى دعت كثيراً من العلماء إلى القول بأن الاسم هو المسمى أنها باطلة ، وهى : أن الله – تعالى – وحده هو الخالق ، وما سواه مخلوق ، فإذا قيل : إن أسماء الله غيره ، لزم أن تكون مخلوقة [١] .

* * *

---

(١) هذا البحث من أول صفحة ١٦١ كله مقتبس من رسالة شيخ الإسلام فى الموضوع المثبتة فى المجلد السادس من الفتاوى ، انظر ص ١٨٥ .

٢٢ ــ قال : « حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنى مالك ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ – قال : « إذا جاء أحدكم فراشه ، فلينفضه بصنفة ثوبه ثلاث مرات ، وليقل : باسمك ربى وضعت جنبى ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فاغفر لها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

* * *

العبد الصادق العبودية ، لاينفك عن عبادة ربه ، فى أمور حياته كلها ، فى خروجه من بيته ، وفى دخوله ، وفى أكله وشربه ، وفى نومه ويقظته ، وفى مقارنته لأهله ، ومعاملته للناس ، ولذلك أرشد الرسول ﷺ إلى هذا النوع من العبادة ، فى هذا الحديث وغيره عند النوم ، والاستيقاظ منه ، وهو من عبادة الله ودعاءه بأسماءه .

قوله : « فلينفضه بصنفة ثوبه ثلاث مرات » صنفة الثوب طرفه من الداخل ، لما فى الرواية الأخرى : « داخلة إزاره » . ولو فعل ذلك بغير طرف ثوبه حصل المقصود ، والحكمة فى ذلك إزالة مالعله يكون فيه مما يؤذيه ، وأمر بأن يكون ذلك ثلاث مرات ، للمبالغة ، وليكون ذلك وترا إذ الوتر معتبر فى الشرع .

« وليقل : باسمك ربى وضعت جنبى ، وبك أرفعه » لما كان النوم نوعاً من الموت ، وقد يموت فيه حقيقة ، لجأ إلى ربه ، بذكر اسمه داعيا ، ومتبركا به ، وسائلا به المغفرة ، وهى ستر الذنوب ، والعفو عنها إن أمسك نفسه – أى قبضها فى النوم – فلم يردها إلى بدنها .

قال تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى ، إلى أجل مسمى ، إن فى ذلك

لآيات لقوم يتفكرون » [١] .

« وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » أى إن رددتها إلى بدنها ، فاحفظها من الشياطين ، والضلال ، والمؤذيات ، بحفظك وحمايتك ، التى تحمى بها أولياءك الذين تتولى حفظهم من كل مضر ومؤذى .

ففى هذا الحديث مشروعية ذكر الله تعالى عند النوم ، ليكون موته الأصغر على اسمه ، فيدخل بذلك فى العمل بقوله تعالى : (قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) [٢] .

وفيه الاستسلام لله ، والافتقار إليه ، وسؤاله ما لا غنى له عنه ، وهذا كله من عبادة الله تعالى ودعاءه بأسمائه ، فهو تفسير لقوله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) [٣] . وهذا هو وجه ذكر البخارى له ولما يأتى من الأحاديث .

★ ★ ★

---

(١) الآية ٤٢ من سورة الزمر .

(٢) الآية ١٦٢ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

٢٣ ــ قال : « حدثنا مسلم ، حدثنا شعبة ، عن عبد الملك ، عن ربعى ، عن حذيفة رضى الله عنه : « كان النبى ﷺ – إذا آوى إلى فراشه ، قال : « اللهم باسمك أحيا وأموت ، وإذا أصبح قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا ، وإليه النشور »

* * *

حذيفة هو ابن اليمان ، واسم اليمان حسل أو حسيل ، وهو عبسى .

كان من كبار أصحاب رسول الله ﷺ ، ومن الفقهاء النجباء أهل الفتوى ، وصح عنه أنه قال : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر – مخافة أن أقع فيه – ولهذا اختص بمعرفة الفتن ، كما أنه عرف بصاحب السر ، حيث أسرَّ إليه رسول الله ﷺ أسماء المنافقين ، وأمره أن يكتم ذلك وسأله رجل عن أشد الفتن فقال : أن يعرض عليك الخير والشر فلا تدرى أيهما تختار ، توفى رضى الله عنه سنة ست وثلاثين [(١)]

« إذا آوى إلى فراشه » أى رجع إليه بعد عمل النهار .

« اللهم باسمك أحيا ، وأموت » أى ذاكرا اسمك فى حياتى ، مطمئنا به قلبى إذ لا راحة لى ، ولا اطمئنان إلا بذكر اسمك ، ولاحياة نافعة إلا بذلك . وعلى ذكر اسمك يارب أموت ، متوسلا به إليك أن تتولانى ، وتحفظنى فى جميع أحوالى .

« وإذا أصبح قال : « الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا ، وإليه النشور »

النوم نوع من الموت ، واليقظة حياة ، وهو نعمة من الله على عباده حتى

---

(١) انظر الاستيعاب جـ ١ ص ٣٣٤ ، الرياض المستطابة ص ٤٩ .

ترتاح أبدانهم ، وأفكارهم ، وقد ينام الإنسان فلا ترجع إليه روحه ، فإذا استيقظ سالماً ، قد رجع إليه نشاطه وقوته ، استوجب ذلك شكر الله – تعالى – والثناء عليه ، فناسب قوله بعد يقظته « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا » أى أرجع إلينا أرواحنا بفضله ومنته .

والنشور : هو البعث بعد الموتة الكبرى ، فمصيرنا إلى ربنا ، حتى يجازينا على أعمالنا كما وعدنا .

ففى هذا الحديث كالذى قبله ، ذكر اسم الله – تعالى – عند النوم ، والتوسل به ، والثناء عليه بأن له الحمد ، وهذا من الدعاء بأسماء الله الحسنى .

* * *

٢٤ ــ قال : « حدثنا سعد بن حفص ، حدثنا شيبان ، عن منصور ، عن ربعى بن خراش ، عن خرشة بن الحر ، عن أبى ذر – رضى الله عنه – قال : كان النبى – ﷺ – إذا أخذ مضجعه من الليل قال : باسمك نموت ونحيا ، فإذا استيقظ قال : الحمد لله ، الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور »

* * *

أبو ذر الغفارى اختلف فى اسمه ، واسم أبيه ، وصحح الحفاظ أنه جندب ابن جنادة ، كان من السابقين الأولين إلى الإسلام ، غير أنه ذهب إلى قومه فتأخرت هجرته ، ففاتته غزوات الرسول – ﷺ – الأولى ، وكان عازفاً عن الدنيا ، راغباً بما عند الله ، وقصة إسلامه فى الصحيحين وكان من الحنفاء قبل أن يسلم ، له أخبار كثيرة ، ومناقب شهيرة . توفى فى الربذة سنة اثنتين وثلاثين رضى الله عنه [١]

هذا الحديث ليس فيه زيادة على الذى قبله ، إلا قوله : « من الليل » والأول يدخل فيه نوم الليل ، والنهار .

★ ★ ★

---

(١) انظر الاستيعاب جـ ١ ص ٢٥٢ ، والرياض المستطابة ص ٢٧٢ .

٢٥ ــ قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن سالم ، عن كريب ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله – ﷺ – : « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله . فقال : بسم الله ، واللهم جنِّبنا الشيطان ، وجنِّب الشيطان مارزقتنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره شيطان أبداً »

* * *

هذا نوع آخر من الدعاء بأسماء الله – تعالى – .

« بسم الله » أى أفعل ذلك ، ذاكراً اسم الله ، عابداً ربى بهذا الذكر ، ومتبركا به .

« اللهم جنِّبنا الشيطان » أى أبعدنا عنه ، فلا يشاركنا ، ولايحضرنا .

« وجنب الشيطان مارزقتنا » أى أبعد الشيطان عن الرزق الذى تقدره لنا من الولد ، فى هذا الاتصال .

ولابد من الصدق فى ذلك من القلب ، والرغبة ، والإيمان ، والثقة بما قاله الرسول – ﷺ – حتى يحصل الموعود ، وهو عدم مضرة الشيطان للمولود .

والمقصود ، ذكر الله – تعالى – عند مقاربة الزوجة ، والاستعاذة به من الشيطان ، أن يشاركه ، أو يحضره ، أو يضر المولود بحال من الأحوال.

وهذا كما تقدم من بيان معنى قوله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) .

★ ★ ★

٢٦ ــ قال : « حدثنا عبد الله بن مسلمة ، حدثنا فضيل ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن همام ، عن عدى بن حاتم – رضى الله عنه – سألت النبى ﷺ – قلت : أرسل كلابى المعلمة ؟ قال : « إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله ، فأمسكن فكل ، وإذا رميت بالمعراض فخزق فكل »

* * *

عدى بن حاتم : هو أبو طريف ، الجواد بن الجواد ، قدم على رسول الله ﷺ فى شعبان سنة تسع ، بسبب كتابة أخته ، فأسلم ، وقد فرح رسول الله ﷺ بإسلامه ، وهو ممن ثبت الله قومه على الإسلام ، حين ارتد الناس بسببه ، شهد فتوح العراق ، وساهم فيها .

وكان شريفا فاضلا ، جواداً عابدا ، روى عنه أنه يقول : مادخل علىَّ وقت صلاة إلا وأنا مشتاق إليها ، ومن أقواله : « كثرة الكلام أوضع شىء لمقادير الرجال ، وأمضى الأشياء عندى رد السؤال بغير نوال » له أخبار كثيرة وفضائل ، توفى فى الكوفة سنة ثمان وستين ، وقيل غير ذلك ، وكان عمَّر طويلا ، قيل : كان عمره لما مات مائة وعشرون سنة رضى الله عنه (١)

وأما الحديث . فيدل على نوع آخر من أنواع عبادة الله تعالى بذكر اسمه على الصيد . والكلاب المعلمة . هى التى تقبل التعليم ، فإذا أمرت فعلت ، وإذا نهيت انتهت ، فإذا أرسلها صاحبها أمسكت الصيد له ، وليس لنفسها فلا تأكل منه .

ومفهوم الحديث أنه إذا لم يذكر اسم الله – تعالى – عند الإرسال أنه

---

(١) الاستيعاب جـ ٣ ص ١٠٥٧ ، وأسد الغابة جـ ٣ ص ٣٩٢ ، الإصابة جـ ٢ ص ٤٦٨ .

لايأكل مما أمسكت الكلاب المعلمة ، وكذا إذا لم يخزق المعراض – وهو السهم – أى لم يجرح ، ولم يصب الصيد بحده ، بأن أصابه بعرضه فإنه لايأكل . لأن الصيد حينئذ يكون وقيذة .

* * *

٢٧ ــ قال : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، قال : سمعت هشام بن عروة يحدث ، عن أبيه ، عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : قالوا : يارسول الله إن هنا أقواما حديثا عهدهم بشرك ، يأتونا بلحمان ، لاندرى يذكرون اسم الله عليها أم لا ؟ قال : « اذكروا أنتم اسم الله وكلوا » .

* * *

فى هذا الحديث أن ذكر اسم الله على الذبيحة شرط فى حل الأكل منها . وأنه إذا كان ظاهر الذابح الإسلام ، لايلتفت إلى الاحتمال بأنه ذبحها على غير اسم الله ، أو أنه لايعرف الحكم ، وما أشبه ذلك .

وقوله ﷺ : « اذكروا أنتم اسم الله وكلوا » ليس معناه أن ذكر اسم الله – تعالى – عند الأكل يجعلها حلالا إذا كانت قد ذبحت على غير اسم الله تعالى ، ولكن أمرهم بذكر اسم الله عند الأكل لأنه الذى يلزمهم ، ومطيبا بذلك قلوبهم ، ومشيراً بذلك إلى اطراح الشك ، إذ الأصل خلافه ، وهو أن ظاهر الذابح الإسلام .

وهذا الحديث يدل على نوع آخر من عبادة الله – تعالى – بذكر اسمه على الذبيحة ، وعلى الأكل فهو من جنس ما تقدم .

★ ★ ★

٢٨ ــ قال : « حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن أنس رضى الله عنه قال : « ضحى النبى ﷺ بكبشين ، يسمّى ويكبّر »

* * *

الأضحية هى : النسك الذى يذبح تقرباً إلى الله تعالى ، فى الوقت المحدد له .

والكبش : هو الذكر من الضأن .

و « قوله : « يسمى ويكبر » يعنى عند الذبح ، يقول : بسم الله ، والله أكبر أى أذبح بسم الله متقرباً إليه عبادة له .

فهذا أيضا من عبادة الله تعالى ودعاءه بذكر اسمه تعالى . فى النسك الذى هو من أفضل القرب إلى الله تعالى .

★ ★ ★

٢٩ ـــ قال : « حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن الأسود بن قيس ، عن جندب ، أنه شهد النبى – ﷺ – يوم النحر ، صلى ثم خطب ، فقال : « من ذبح قبل أن يصلى ، فليذبح مكانها أخرى ، ومن لم يذبح فليذبح باسم الله »

* * *

جندب ، هو : جندب بن عبد الله بن سفيان البجلى العلقى ، نسبة إلى علقة بن عبقر بن أنمار ، سكن الكوفة ، ثم البصرة ، وتوفى بعد الستين رضى الله عنه [(١)]

المراد من الحديث قوله : « فليذبح باسم الله » أى ذاكراً اسم الله على الذبيحة ، عبادة له بذكر اسمه وبالذبح له ، متقربا إليه بذلك ، كما أمر الله تعالى عباده ، بأن يخلصوا ذلك له وحده (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له ، وبذلك أمرت) [(٢)]

وقال تعالى (فصل لربك وانحر) [(٣)] .

★ ★ ★

---

(١) انظر الاستيعاب جـ ١ ص ٢٥٦ ، والرياض المستطابة ص ٤٦ .

(٢) الآيتان ١٦٢ و ١٦٣ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٢ من سورة الكوثر .

٣٠ ــ قال : « حدثنا أبو نعيم ، حدثنا ورقاء ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : قال النبى – ﷺ – : « لاتحلفوا بآبائكم ، ومن كان حالفاً فليحلف بالله »

* * *

المقصود بالحلف ، تأكيد الخبر بذكر اسم العظيم ، الذى يوقع بالكاذب العقوبة ، ففى ضمن ذلك ، أن المحلوف به مطلع على حقيقة الأمر ، ولذلك صار الحلف بغير الله شركا ، لما فى الحديث الذى رواه الترمذى ، « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » (١)

ومراد البخارى من هذا الحديث أن ذكر اسم الله – تعالى – أو صفته لتأكيد الخبر مشروع فى الجملة ، وأنه لا يجوز ذلك لغير الله ، فيكون ذلك من العبادة بأسماء الله تعالى .

★ ★ ★

---

(١) انظر سنن الترمذى جـ ٣ ص ٤٥ ، وقال بعد ذكره : هذا حديث حسن ، وفيه أن ابن عمر سمع رجلا يحلف بالكعبة ، فقال : لايحلف بغير الله . ثم ذكره .

ورواه أحمد فى المسند جـ ٢ ص ١٢٥ وهو صحيح .

ورواه الحاكم فى المستدرك جـ ٤ ص ٢٩٧ . وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

ورمز له فى حاشية الذهبى خ م يعنى عند البخارى ومسلم ، وليس كذلك .

ورواه البيهقى فى السنن الكبرى جـ ١٠ ص ٢٩ .

قال : « باب مايذكر فى الذات ، والنعوت ، وأسامى الله عز وجل »

* * *

قال الحافظ : « أى مايذكر فى ذات الله ونعوته ، من تجويز إطلاق ذلك عليه ، كإطلاق أسمائه عليه ، أو منعه ، لعدم ورود النص » (١)

وقال عياض : « ذات الشيء وحقيقته ، وقد استعمل أهل الكلام الذات ، بالألف واللام ، وغلطهم أكثر النحاة ، وجوزه بعضهم ، لأنها ترد بمعنى النفس وحقيقة الشيء ، واستعمال البخارى لها على أنها حقيقة الشيء على ما استعملها المتكلمون فى حق الله - تعالى - ولهذا قال : ماجاء فى الذات والنعوت ، ففرق بينهما على طريقة المتكلمين » (٢)

وقال الراغب : « ذات تأنيث « ذو » ، وهى كلمة يتوصل بها إلى الوصف بأسماء الأجناس ، والأنواع ، ولا يستعمل شيء منها إلا مضافا ، وقد استعاروا الذات ، فجعلوها عبارة عن عين الشيء ، جوهراً كان أو عرضاً واستعملوها مفردة ، ومضافة ، [وأدخلوا عليها] الألف واللام . وأجروها مجرى النفس ، والخاصة ، وليس ذلك من كلام العرب » (٣)

وقال ابن برهان : « إطلاق المتكلمين الذات فى حق الله تعالى من جهلهم ، لأن ذات تأنيث ذو ، وهو جلت عظمته لايصح له إلحاق تاء

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٨١ .

(٢) مشارق الأنوار جـ ١ ص ٢٧٣ ملخصا .

(٣) المفردات ص ١٨٢ بتصرف .

التأنيث . وقولهم : الصفات الذاتية ، جهل منهم أيضا لأن النسب إلى ذات ، ذوى » (١)

وقال الكندى : « ذات بمعنى صاحبة ، تأنيث ذو ، وليس لها فى اللغة مدلول غير ذلك ، وإطلاق المتكلمين وغيرهم الذات بمعنى النفس خطأ عند المحققين » (٢) .

قال الحافظ : « وتعقب بأن الممتنع استعمالها بمعنى صاحبة ، أما إذا قطعت عن هذا المعنى ، واستعملت بمعنى الاسمية ، فلا محذور ، لقوله تعالى : (إنه عليم بذات الصدور) (٣) أى بنفس الصدور .

وقد حكى المطريزى كل ذات ، شىء ، وليس كل شىء ، ذات ، وأنشد ابن فارس :

فنعم ابن عم القوم فى ذات ماله إذا كان بعض القوم فى ماله وفر (٤)

وقال النووى : « مرادهم بالذات الحقيقة ، وهذا اصطلاح للمتكلمين ، وقد أنكره بعض الأدباء عليهم ، وقال : لا يعرف ذات ، فى لغة العرب بمعنى حقيقة ، وإنما ذات ، بمعنى صاحبة ، وهذا الإنكار ، منكر ، بل الذى قاله الفقهاء ، والمتكلمون صحيح ، وقد قال الإمام أبو الحسن الواحدى ، فى أول سورة الأنفال فى قوله تعالى : (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) : (٥)

قال أبو العباس أحمد بن يحي ، ثعلب : معنى ذات بينكم – أى الحالة التى بينكم ، فالتأنيث عنده للحالة ، وهو قول الكوفيين .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٨٢ .
(٢) نفس المرجع .
(٣) المرجع المذكور .
(٤) الفتح جـ ١٣ ص ٣٨٢ .
(٥) الآية الأولى من سورة الأنفال .

قال : وقال الزجاج : معنى ذات بينكم ، حقيقة وصلكم ، والبين الوصل .

قال الواحدى : فذات عنده بمعنى النفس ، كما يقال : ذات الشيء ونفسه » [١]

قلت : وهذا الذى ذكره النووى هو مايقصده البخارى رحمه الله – ولهذا قال : « فذكر الذات باسمه تعالى » أى أقام الذات ، مقام اسمه تعالى .

قال الحافظ : « واستعمال – البخارى – لها ، دال على أن المراد بها نفس الشيء على طريقة المتكلمين – فى حق الله تعالى – ، ففرق بين النعوت ، والذات » [٢]

وقال شيخ الإسلام : « لفظ ذات تأنيث ذو ، وذلك لايستعمل إلا فيما كان مضافا إلى غيره ، فهم يقولون : فلان ذو علم ، وذو قدرة ، ونفسٌ ذات علم وقدرة ، وحيث جاء فى القرآن أو لغة العرب ، لفظ « ذو » ولفظ « ذات » لم يجيء إلا مقرونا بالإضافة ، كقوله تعالى : (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم »

وقوله : (عليم بذات الصدور) ، وقول خبيب : وذلك فى ذات الإلٰه » ونحو ذلك .

لكن لما صار النظار ، يتكلمون فى هذا الباب ، قالوا : إنه يقال : إنها ذات علم وقدرة ، ثم إنهم قطعوا هذا اللفظ عن الإضافة ، وعرفوه ، فقالوا : « الذات » وهو لفظ مولد ، ليس من لفظ العرب العرباء ، ولهذا أنكره طائفة من أهل العلم ، كأبى الفتح ابن برهان ، وابن الدهان ، وغيرهما ، وقالوا : ليست هذه اللفظة عربية .

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات جـ ٢ ص ١١٣ القسم الثانى .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٣٨٢ .

ورد عليهم آخرون ، كالقاضى ، وابن عقيل ، وغيرهما .

وفصل الخطاب : أنها ليست من العربية العرباء ، بل من المولد ، كلفظ الموجود ، والماهية ، والكيفية ونحو ذلك .

فهذا اللفظ ، يقتضى وجود صفات ، تضاف الذات إليها ، فيقال : ذات علم ، وذات قدرة ، وذات كلام ، فإنه لايمكن وجود شيء قائم بنفسه فى الخارج ، لايتصف بصفة ثبوتية أصلا » [١] .

وقال ابن القيم : « وأصل هذه اللفظة ، هو تأنيث « ذو » ، بمعنى صاحب فذات كذا ، صاحبة كذا ، فى الأصل .

ولهذا لا يقال : ذات الشيء ، إلا لماله صفات ، ونعوت تضاف إليه ، فكأنه يقول : صاحبة هذه الصفات ، والنعوت .

ولهذا أنكر جماعة من النحاة ، على الأصوليين قولهم : « الذات » ، وقالوا : لامدخل للألف واللام هنا ، كما لايقال : « الذو » فى ذو ، وهذا إنكار صحيح .

والاعتذار عنهم : أن لفظة الذات فى اصطلاحهم ، قد صارت عبارة عن نفس الشيء ، وحقيقته ، وعينه .

فلما استعملوها استعمال النفس ، والحقيقة ، عرفوها باللام ، وجردوها من الإضافة ، وهذا أمر اصطلاحى ، لا لغوى .

فإن هذا اللفظ يقال لما هو منسوب إليه ، أو من جهته ، كجنب الشيء

فإذا قالوا : هذا فى جنب الله ، لا يريدون إلا ما ينسب إليه ، وفى سبيله ، ومرضاته وطاعته ، لا يريدون غير هذا .

فلما اصطلح المتكلمون على إطلاق الذات ، على النفس ، والحقيقة ، ظن من ظن أن هذا هو المراد بمثل قوله : « ثلاث كذبات فى ذات الله » ،

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٩٨ - ٩٩ .

وقوله : « وذلك فى ذات الإله » ، وهذا غلط ، بل الذات هنا كالجنب ، فى قوله : « ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله » ، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقال : فرطت فى نفس الله ، وحقيقته ويحسن أن يقال : فرط فى ذات الله ، كما يقال : قتل فى ذات الله ، وصبر فى ذات الله » (١)

وبهذا يتبين أن هذا الاستعمال صحيح لا ينكر ، لأنه أمر اصطلاحى على معنى مفهوم معين .

وبعض الناس يظن أن إطلاق الذات على الله – تعالى – كإطلاق الصفات ، أى أنه وصف له ، فينكر ذلك بناء على هذا الظن ، ويقول : هذا ماورد . وليس الأمر كذلك ، وإنما المراد التفرقة بين الصفة ، والموصوف .

وقد تبين مراد الذين يطلقون هذا اللفظ ، أنهم يريدون ، نفس الموصوف وحقيقته ، فلا إنكار عليهم فى ذلك ، كما وضحه كلام شيخ الإسلام ، وتلميذه ابن القيم .

قال القسطلانى : « والظاهر جواز إطلاق لفظ ذات ، لابالمعنى الذى أحدثه المتكلمون ، ولكنه غير مردود ، إذا عرف أن المراد النفس ، لثبوت لفظ النفس فى القرآن » (٢)

وأما « النعوت » فهو جمع نعت ، وهو الوصف ، يقال : نعت فلانا نعتا ، أى وصفه وصفاً ، وزنه ومعناه واحد ، ومنه الحديث « لاتباشر المرأة المرأة ، فتنعتها لزوجها ، كأنه يراها » (٣) .

---

(١) بدائع الفوائد جـ ٢ ص ٧ ببعض التصرف .

(٢) رشاد السارى جـ ١٠ ص ٣٧٩ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب النكاح ، انظر البخارى مع الفتح جـ ٩ ص ٣٣٨ .

وأما الأسامى ، فهى جمع اسم ، وتجمع أيضا على أسماء .

قوله : « فذكر الذات باسمه تعالى » أى ذكر الله بلفظ الذات ، وسمعه النبى ﷺ فلم ينكره ، فصار دليلا على جواز ذلك .

واعترض على استدلال البخارى بذلك ، لأن خبيباً لم يرد الحقيقة ، والنفس . وإنما يعنى بقوله : « وذلك فى ذات الإله » أى فى سبيله ، وطاعته .

والجواب : أن إطلاق لفظ الذات على الله تعالى جائز فى الجملة ، لورود الآثار ، فيكون ذلك أصلا للجواز ، ففى الحديث الصحيح المتفق عليه ، « أن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات ، اثنتين فى ذات الله » (١)

وفى حديث ابن عباس : « تفكروا فى كل شئ ، ولاتفكروا فى ذات الله » (٢)

قال الحافظ سنده جيد .

وقال ابن الدرداء : « لاتفقه كل الفقه ، حتى تمقت الناس فى ذات الله »

قال الحافظ إسناده ثقات ، إلا أنه منقطع (٣)

وقد تقدمت الإشارة إلى الفرق بين الأسماء والصفات فى الباب الأول .

وقد ذكر البخارى – رحمه الله – قصة خبيب وأصحابه فى كتاب المغازى ، وهى مشهورة ، فنكتفى بنص ماذكره البخارى هنا .

★ ★ ★

---

(١) رواه البخارى ، انظره مع الفتح جـ ٤ ص ٤١٠ و جـ ٥ ص ٢٤٦ ، ومواضع أخر عدة ، ومسلم فى الفضائل .

(٢) قال فى كشف الخفا : رواه أبو نعيم فى الحلة ، وابن أبى شية فى العرش ص ٣١١ جـ ٤ ص ١٨٤٠ .

(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٣٨٣ .

٣١ – قال « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى ، أخبرنى عمرو بن أبى سفيان بن أسيد بن جارية ، الثقفى – حليف لبنى زهرة – وكان من أصحاب أبى هريرة أن أبا هريرة قال : بعث رسول الله – ﷺ – عشرة منهم خبيب الأنصارى ، فأخبرنى عبيد الله بن عياض ، أن ابنة الحارث أخبرته ، أنهم حين اجتمعوا ، استعار منها موسى يستحد بها ، فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه قال خبيب الأنصارى :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً ... على أى شق كان لله مصرعى

وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

فقتله ابن الحارث ، فأخبر النبى ﷺ أصحابه خبرهم يوم أصيبوا »

★ ★ ★



قال : « باب قول الله تعالى : « ويحذركم الله نفسه » وقوله – جل ذكره : « تعلم مافى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك »

* * *

المراد بالنفس فى هذا الله تعالى ، المتصف بصفاته ، ولايقصد بذلك ذاتا منفكة عن الصفات ، كما لايراد به صفة الذات كما قاله بعض الناس ، وسيأتى بيان ذلك من كلام السلف .

قال ابن جرير – رحمه الله تعالى –: « ويحذركم الله نفسه » أن تسخطوها عليكم بركوبكم مايسخطه عليكم ، فتوافونه يوم (تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا) وهو عليكم ساخط فينالكم من أليم عقابه مالا قبل لكم به » [١] .

وقال : « ويخوفكم الله من نفسه ، أن تركبوا معاصيه ، أو توالوا أعداءه ، فإن إلى الله مرجعكم ، فاتقوه واحذروا أن ينالكم عقابه ، فإنه شديد العقاب » [٢]

وقال ابن خزيمة : « أول ما نبدأ به من ذكر صفات خالقنا ذكر نفسه جل ربنا عن أن تكون نفسه ، كنفس خلقه ، وعز عن أن يكون عدماً لانفس له » [٣]

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٦ ص ٣٢١ بتحقيق محمود شاكر .

(٢) المرجع المذكور جـ ٦ ص ٣١٧ .

(٣) كتاب التوحيد ص ٥ .

ثم ذكر بعض النصوص فى ذلك كقوله تعالى : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وقوله تعالى : (واصطنعتك لنفسى) ثم ذكر ما رواه البخارى فى هذا الباب . وحديث ابن عباس : « أن النبى – ﷺ – حين خرج إلى صلاة الصبح وجويرية جالسة فى المسجد رجع حين تعالى النهار ، قال : لم تزالى جالسة بعدى ؟ قالت : نعم . قال : قد قلت بعدك : أربع كلمات ، لو وزنت بهن لوزنتهن [١] : سبحان الله العظيم وبحمده ، عدد خلقه ، ومداد كلماته ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه » [٢]

وذكر أيضا حديث محاجة موسى لآدم ، وفيه : « قال آدم لموسى : أنت الذى اصطفاك الله برسالاته ، واصطنعك لنفسه » [٣] . ثم قال : « فالله جل وعلا أثبت فى آى من كتابه أن له نفساً ، وكذلك قد بين على لسان نبيه – ﷺ – أن له نفساً » [٤]

وفى صحيح مسلم فى حديث أبى ذر ، الطويل : « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرَّماً ، فلا تظالموا » [٥] .

وفى السنن عن علي – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – كان يقول فى آخر وتره : « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من

---

(١) يعنى لو وزنت هذه الأربع بماقلتيه منذ فارقتك لوزنتهن ، رواه مسلم فى كتاب الذكر .

(٢) كتاب التوحيد ص ٧ ، رواه مسلم كتاب الذكر رقم ٢٧٢٦ جـ ٤ ص ٢٠٩٠ .

(٣) كتاب التوحيد ص ٩ وهو فى الصحيحين ، انظر الفتح جـ ٦ ص ٤٤١ و ٨ ص ٤٣٤ . وجـ ١١ ص ٥٠٥ ، ومسلم جـ ٤ ص ٢٠٤٣ و ٢٠٤٤ .

(٤) كتاب التوحيد ص ٨ .

(٥) صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٩٩٤ .

عقوبتك ، وأعوذ بك ، منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » [١] .

وتقدم ذكر حديث ابن مسعود فى المسند مرفوعا : « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك » [٢]

فهذه النصوص واضحة فى أن المراد بالنفس هو الله تعالى كما قلنا .

ولا يخالف ذلك ما قاله ابن خزيمة والأئمة ، لأن مقصودهم إثبات ما أثبته الله من غير تعرض له بتأويل أو تمثيل ، تعالى الله عن الأمثال والأنداد ، والتمسك بالنصوص التى قالها الله ، ورسوله ، مع الإعراض عما يقوله أهل التأويل ، وأصحاب الوساوس الشيطانية ، التى تعود على النصوص بالإبطال ، وحسب المسلم أن يسعه ما وسع السلف الصالح من الصحابة ، ومن سلك طريقهم .

وليس معنى ذلك الإعراض عن معانى النصوص ، كما يتوهمه بعض الناس من مذهب السلف ، ويعبرون عنه بالتفويض .

بل المقصود إثبات ما أثبته الله لنفسه ، أو أثبته له رسوله مع فقه المعنى اللائق بعظمة الله تعالى ، وفهمه ، على مادل عليه قوله تعالى : (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) . ونحوها من الآيات المحكمات ، والأمر فى هذا واضح لمن تمسك بالكتاب والسنة .

روى ابن جرير ، عن مجاهد ، فى قوله تعالى : (إن الساعة آتية أكاد أخفيها) [٣]

---

(١) سنن أبى داود جـ ٢ ص ١٣٤ ، والترمذى جـ ٥ ص ١٨٧ رقم ٣٥٦٢ ، والنسائى جـ ٣ ص ٢٤٩ ، وابن ماجه جـ ١ ص ٣٧٣ رقم ١١٧٩ ، ورواه مسلم فى صحيحه جـ ١ ص ٣٥٢ رقم ٢٢٢ .

(٢) المسند جـ ٥ ص ٢٦٧ و جـ ٦ ص ١٥٣ تحقيق أحمد شاكر .

(٣) الآية ١٥ من سورة طه .

قال : من نفسى . وأصله عن ابن عباس .

وروى عن أبى صالح : « أكاد أخفيها » ، قال : يخفيها من نفسه .

وعن قتادة ، « أكاد أخفيها » . وهى فى بعض القراءات « أخفيها من نفسى » [١] لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ، ومن الأنبياء المرسلين » [٢]

وقال ابن كثير : « أكاد أخفيها » قال الضحاك : عن ابن عباس أنه كان يقرؤها : « أكاد أخفيها من نفسى » ، يقول : لأنها لاتخفى من نفس الله أبداً ، وقال سعيد بن جبير : عن ابن عباس ، « من نفسه » ، وكذا قال مجاهد وأبو صالح ، ويحى بن رافع .

وقال السدى : ليس أحد من أهل السماوات والأرض ، إلا وقد أخفى الله عنه علم الساعة ، وهى فى قراءة ابن مسعود : « إنى أكاد أخفيها من نفسى » . [٣]

وقال ابن جرير فى قوله تعالى : (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) . يقول : أنك يارب لا يخفى عليك ما أضمرته نفسى مما لم أنطق به ولم أظهره بجوارحى ، فكيف بما نطقت به وأظهرته بجوارحى ، لو كنت قد قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » كنت قد علمته ، لأنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به ، فكيف بما نطقت به « ولا أعلم ما فى نفسك » يقول : ولا أعلم أناما أخفيته عنى فلم تطلعنى عليه ، لأنى إنما أعلم من الأشياء ما علمتنيه » [٤] .

---

(١) هى قراءة ابن مسعود كما سيأتى عن ابن كثير وابن عباس .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٦ ص ١٤٩ طبعة الحلبى .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٧٢ طبعة الشعب .

(٤) تفسير ابن الطبرى جـ ١١ ص ٢٣٨ تحقيق محمود شاكر .

وقال فى قوله تعالى : (واصطنعتك لنفسى) أنعمت عليك ياموسى هذه النعم ، ومننت عليك ، هذه المنن اجتباءً منى لك ، واختبارا لرسالاتى ، والبلاغ عنى ، والقيام بأمرى ونهيى » (١) .

وقال ابن كثير : « أى اصطفيتك واجتبيتك رسولا لنفسى ، أى كما أريد وأشاء » (٢) .

وقال أبو سعيد الدارمى : « وادعى المعارض : أن الله لا يوصف بالضمير ، والضمير منفى عن الله ، وهى كلمة خبيثة قديمة ، من كلام جهم ، عارض بها جهم قول الله تعالى : (تعلم مافى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) ، يدفع بذلك أن يكون الله تعالى سبق له علم فى نفسه ، من الخلق وأعمالهم قبل أن يخلقهم .

فرد عليه بعض العلماء ، وقالوا : كفرت بها من ثلاثة أوجه :

الأول : أنك نفيت عن الله العلم السابق فى نفسه قبل حدوث الخلق .

الثانى : أنك استجهلت المسيح ابن مريم – عليه السلام – بأنه وصف ربه بأن له خفايا علم فى نفسه ، إذ يقول : « ولا أعلم ما فى نفسك » .

الثالث : أنك طعنت به على محمد – ﷺ – إذا جاء به مصدقاً لعيسى .

قال أبو سعيد : وقول جهم هذا أصل كبير فى تعطيل النفس والعلم السابق ويرد عليه بقوله : « تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك » ، فذكر المسيح أن لله علماً سابقاً فى نفسه ، يعلمه الله ، ولا يعلمه هو .

ثم روى عن أبى البحترى أنه قال : « لايقولن أحدكم : اللهم أدخلنى مستقر رحمتك ، فإن مستقر رحمته نفسه » (٣) .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٦ ص ١٦٨ مطبعة الحلبى .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٨٧ طبعة الشعب .

(٣) نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسى ص ٥٥٠ عقائد السلف ملخصا بتصرف .

وقال الراغب : « نفسه ، ذاته ، وهذا وإن كان قد حصل من حيث اللفظ مضاف ، ومضاف إليه ، يقتضى المغايرة ، وإثبات شيئين من حيث العبارة ، فلا شيء ، من حيث المعنى سواه – سبحانه – عن الاثنوية من كل وجه » (١)

قال الحافظ : قال البيهقى : والنفس فى كلام العرب على أوجه .

منها الحقيقة ، كما يقولون فى نفس الأمر ، وليس للأمر نفس منفوسة .

ومنها الذات ، قال : وقد قيل فى قوله تعالى : (تعلم مافى نفسى ، ولا أعلم مافى نفسك) أن معناه : تعلم ماأكنه ، وما أسره ، ولا أعلم ماتسره عنى » (٢) « وقال أبو إسحاق الزجاج فى قوله تعالى : (ويحذركم الله نفسه) أى إياه .

وحكى صاحب المطالع فى قوله تعالى : (ولا أعلم مافى نفسك) ثلاثة أقوال :

أحدها : لا أعلم ذاتك .

ثانيها : لا أعلم مافى غيبك .

ثالثها : لا أعلم ماعندك ، وهو بمعنى قول غيره : لا أعلم معلومك أو إرادتك ، أو سرك ، أو مايكون منك » (٣)

قال ابن بطال : فى هذه الآيات والأحاديث ، إثبات النفس لله تعالى . وللنفس معانٍ ، والمراد بنفس الله تعالى ذاته ، وليس بأمر مزيد عليه فوجب أن يكون هو » (٤) .

---

(١) المفردات ص ٥١١ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٣٨٤ ، ذكر الحافظ كلام البيهقى بالمعنى ، فصار أحسن من كلام البيهقى ولهذا آثرته وهو فى الأسماء . والصفات ص ٢٨٦

(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٣٨٤ .

(٤) المرجع نفسه .

وقال شيخ الإسلام : « ونفسه هى ذاته المقدسة » (١)

وقال أيضا : « ويراد بنفس الشيء ذاته ، وعينه ، كما يقال : رأيت زيدا نفسه ، وعينه ، وقد قال تعالى : (تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك)

وقال : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وقال : (ويحذِّركم الله نفسه) وفى الحديث : « سبحان الله رضا نفسه » ، وفى الآخر : « إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى » .

فهذه المواضع المراد فيها بلفظ النفس عند جمهور العلماء ، الله نفسه التى هى ذاته ، المتصفة بصفاته ، ليس المراد بها ذاتاً منفكة عن الصفات ولا المراد بها صفة للذات .

وطائفة من الناس يجعلونها من باب الصفات .

كما يظن طائفة ، أنها الذات المجردة عن الصفات ، وكلا القولين خطأ » (٢)

★ ★ ★

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٤ ص ١٩٦ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٩ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ باختصار قليل .

٣٢ – قال : « حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله ، عن النبى ﷺ قال : مامن أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرَّم الفواحش ، ومامن أحد أحبّ إليه المدح من الله »

* * *

هذا الحديث ذكره البخارى فى مواضع متعددة ، فتقدم فى تفسير سورة الأنعام . وفيه : « ولا شىء أحب إليه المدح ، من الله ، ولذلك مدح نفسه » [١] « فذكر النفس ثابت فى هذا الحديث ، وإن كان لم يقع فى هذه الطريق ، لكنه أشار إليه ، كعادته ، فإنه – رحمه الله – كثيراً مايترجم ببعض ماورد فى طرق الحديث الذى يورده » [٢] .

قلت : وهذه الجملة من الحديث المذكورة فى التفسير هى محل الشاهد ، فهو يشير إليها .

وسيأتى الكلام إن شاء الله فى الغيرة بعد أربعة أبواب غير هذا ، وتقدم الكلام فى النفس ، مافيه كفاية .

قوله : « من أجل ذلك حرَّم الفواحش » . الحرام هو الممنوع ، وتحريم الله تعالى – للشىء ، هو منعه منه شرعا ، أو قدراً ، فالشرع نحو مافى هذا الحديث وهو كثير جدا – أى أمثلته .

وأما القدر فكقوله – تعالى : (وحرام على قرية أهلكناها أنهم

---

(١) انظر الفتح جـ ٨ ص ٢٩٥ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٣٨٥ .

لايرجعون) [١] وقوله : (وحرمنا عليه المراضع من قبل) [٢]

والفواحش : جمع فاحشة ، وهى : ماعظم قبحه من الأفعال ، والأقوال فى الشرع ، أو فى العقل أو فى العرف .

قوله : « وما أحد أحبّ إليه المدح من الله » كلمة « أحد » لا يوصف بها فى الإثبات شيء من الأعيان إلا الله تعالى ، ولكنها تستعمل فى غير الله ، فى النفى وما فى معناه ، كالشرط ، والاستفهام ، وتستعمل فى أول العدد ، كأحد اثنين وأحد عشر ، ولهذا لم يجيء فى القرآن استعمالها لغير الله ، إلا فى غير الموجب ، أو فى الإضافة ، كقوله تعالى : (فابعثوا أحدكم) .

قال أهل اللغة : تقول : لا أحد فى الدار ، ولاتقل : فيها أحد » [٣]

والمدح : هو الثناء الحسن ، قال الجوهرى : « المدح : الثناء الحسن ، وقد مدحه وامتدحه ، بمعنى ، وكذلك المدحة ، والمديح ، والأمدوحة » [٤]

وفى كليات أبى البقاء ، بعد ماذكر قول الجوهرى قال : « وقيل المدح الثناء باللسان على الجميل مطلقًا ، سواء كان من الفواضل ، أو من الفضائل ، وسواء كان اختياريا ، أو غير اختيارى ، ولايكون إلا قبل النعمة » [٥] .

فالمدح ذكر محاسن الممدوح ، والإخبار عنها على سبيل الثناء ، والتعظيم بذلك ، فإن اقترن بالحب ، والإرادة ، فهو حمد ، لأن الحمد هو ذكر محاسن المحمود ، والإخبار عنها مع حبه ، وإجلاله ، وتعظيمه ، فهو خبر يتضمن الإنشاء » [٦] .

---

(١) الآية ٩٥ من سورة الأنبياء .
(٢) الآية ١٢ من سورة القصص .
(٣) مجموع الفتاوى جـ ١٧ ص ١٣٧ .
(٤) انظر الصحاح جـ ١ ص ٤٠٣ .
(٥) الكليات جـ ٤ ص ٢٧٧ .
(٦) بدائع الفوائد جـ ٢ ص ٩٣ .

ومدح الإنسان نفسه نقص يلام عليه ، وكذلك طلبه من الناس ، وتكلفه لذلك ، يدل على نقصه ، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بالنهى عن المدح ولاسيما فى الوجه ، لأن ذلك مظنة الفتنة والاغترار ، وقد يكون المدح بالكذب ، وربما حمله المدح على ظلم من لم يمدحه .

وفى صحيح مسلم عن همام بن الحارث أن رجلا جعل يمدح عثمان ، فعمد المقداد فجثا على ركبتيه ، وكان رجلا ضخما - فجعل يحثو فى وجهه الحصباء ، فقال له عثمان : ما شأنك ؟ فقال : إن رسول الله - ﷺ - قال : « إذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب » (١)

وروى ابن ماجه ، عن معاوية قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إياكم والتمادح فإنه الذبح » (٢) وسنده حسن ، وفى ذلك أحاديث كثيرة .

قال النووى : « قال العلماء : الجمع بين هذه الأحاديث وماجاء دالا على الجواز أن النهى محمول على المجازفة فى المدح ، والزيادة فى الأوصاف أو على من يخاف عليه الفتنة ، من إعجاب ونحوه إذا سمع المدح ، وأما من لايخاف عليه ذلك لكمال تقواه ، ورسوخ عقله ، ومعرفته ، فلا نهى فى مدحه فى وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة » (٣) .

أما الله - تعالى - فلكماله المطلق مدح نفسه ، لأنه أهل المدح والثناء ولأن الخلق لايقدرون على مدحه بما يستحق ، كما قال الرسول - ﷺ - : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (٤) .

---

(١) مسلم جـ ٤ ص ١٢٩٧ ، وابن ماجه جـ ٢ ص ١٢٣٢ رقم ٣٧٤٢ .

(٢) السنن جـ ٢ ص ١٢٣٢ رقم ٣٧٤٣ .

(٣) شرح مسلم جـ ١٨ ص ١٢٦ .

(٤) سبق تخرجه قريبا .

قال النووى : « حقيقة مدح العباد لله تعالى : هو مصلحة للعباد ، لأنهم يثنون عليه سبحانه فيثيبهم ، فينتفعون ، وهو سبحانه غنى عن العالمين ، لا ينفعه مدحهم ، ولا يضره تركهم ذلك ، وفيه تنبيه على فضل الثناء عليه سبحانه وتسبيحه ، وتهليله ، وتحميده ، وتكبيره ، وسائر الأذكار » [١]

★ ★ ★

---

(١) شرح مسلم جـ ١٥ ص ٧٧ .

٣٣ – قال : « حدثنا عبدان ، عن أبى جمرة ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : قال : « لما خلق الله الخلق ، كنت فى كتابه – وهو يكتب على نفسه ، وهو وضع عنده على العرش – إن رحمتى تغلب غضبى »

* * *

قوله : « لما قضى الله الخلق » قضى : يأتى بمعنى حكم ، وأمر ، وقدر ، وفرغ وأمضى ، وأتقن ، ومعناه هنا : فرغ من خلق الخلق ، فهو نحو قوله تعالى : (فقضاهن سبع سماوات) أو فرغ من تقدير الخلق ، ويدل لذلك الرواية الآتية فى آخر الكتاب « قبل أن يخلق الخلق » .

قوله : « كتب فى كتابه » يجوز أن يكون المعنى : أمر القلم أن يكتب ، كما قال الحافظ . ويجوز أن يكون على ظاهره بأن كتب تعالى بدون واسطة ، ويجوز أن يكون قال : « كن » فكانت الكتابة ، ولا محذور فى ذلك كله ، وقد ثبت فى سنن الترمذى ، وابن ماجه فى هذا الحديث : « أن الله عز وجل لماخلق الخلق كتب بيده على نفسه أن رحمتى تغلب غضبى » (١)

ولايصح أن يراد بالكتابة : الحكم الذى قضاه ، نظير قوله تعالى : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) لقوله : (فهو عنده فوق العرش) .

وكتابته تعالى ذلك . لتأكيد هذا الحكم ، وإخبار عباده به حتى يؤمنوا به ويعملوا على مقتضاه ، أو لحكمة الله أعلم بها ، وليس خوفا من النسيان – تعالى الله .

قوله : « وهو يكتب على نفسه » جملة حالية يقصد بها بيان أن كتابته

---

(١) انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٢١٠ ، وابن ماجه جـ ٢ ص ١٤٣٥ الحديث رقم ٤٢٩٥ .

تعالى لم يحمله عليها أحد ، وإنما وقعت بمحض إرادته ، تفضلا منه ، وجوداً على خلقه كتبه على نفسه ، كما قال – تعالى – (كتب ربكم على نفسه الرحمة)

وقوله : « وهو وضع عنده على العرش » وضع : بفتح الواو ، وسكون الضاد ، أى موضوع ، وكذا جاء فى الجمع بين الصحيحين للحميدى [١] ، وضبط أيضا بفتح الضاد ، على أنه فعل ماضى ، وبضم الضاد أيضا ، والأول أظهر وأشهر .

وقوله : « عنده على العرش » أى أنه تعالى وضع الكتاب عنده فوق عرشه وسيأتى فى باب « وكان عرشه على الماء » بهذا اللفظ « عنده فوق عرشه » . وذلك للإهتمام به ، حيث وضعه معه على عرشه الذى استوى عليه .

كما يدل على أن الله على العرش ، مستوٍ عليه كما قال – تعالى – عن نفسه فى مواضع كثيرة من كتابه ، وأخبرت به رسله ، ويدل على علوه تعالى . وسيأتى ذكر ذلك مستوفًى إن شاء الله فى موضعه .

وما نقله الحافظ – عفا الله عنا وعنه – عن شراح كتاب البخارى من تأويل هاتين اللفظتين بالتأويلات الباطلة ، المبنية على فساد العقيدة سيأتى ردها إن شاء الله هناك بالبراهين .

قوله : « إن رحمتى تغلب غضبى » . الرحمة ، والغضب كلاهما من أوصاف الله تعالى ، ولكن الرحمة أوسع وأشمل ، فرحمته تعالى وسعت كل شىء ، كما قال عن حملة العرش ، ومن حوله من الملائكة فى دعوتهم للمؤمنين . أنهم يقولون (ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما) [٢] ، وقال تعالى : (ورحمتى وسعت كل شئ) [٣] وهذا هو معنى غلبها للغضب .

---

(١) قاله الحافظ ابن حجر فى الفتح جـ ١٣ ص ٣٨٥ .

(٢) الآية ٧ من سورة غافر .

(٣) الآية ١٥٦ من سورة الأعراف .

وفى هذه النصوص ونحوها كثير أبلغ دليل على ثبوت صفة الرحمة لله تعالى ، وكذا صفة الغضب ، وبذلك يتبين بطلان قول أهل التأويل فى هذه الصفة الكريمة ، من صفات ربنا تبارك وتعالى – وقولهم : « إن الرحمة رقة القلب وهى تدل على الضعف والخور فى طبيعة الراحم ، وتألمه على المرحوم » وهذا قول باطل بالنسبة إلى صفة الله تعالى ، وبيان ذلك من وجوه :

الأول : أن هذا وصف رحمة بعض المخلوقين . من النساء ونحوهن .

وقد علم التفاوت العظيم بين الخالق – تعالى – والمخلوق بالشرع ، والعقل والإجماع وقد تقرر أن الصفة تتبع الموصوف فى الكمال ، وضده – كما تقدم .

الثانى : أن الضعف ، والخور مذموم ، وهو نقص ، وأما الرحمة فممدوحة كما قال تعالى : (وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة) [١] . مع نهيه – تعالى – عباده عن الوهن ، والحزن ، قال تعالى : (ولا تهنوا ، ولا تحزنوا) [٢] وحثهم على الرحمة ، وقد تقدم ذكر بعض الأحاديث فى ذلك ، كقوله ﷺ : « من لايَرْحم لايُرْحم » ، وقوله : « لاتنزع الرحمة إلا من شقى » ، وقوله : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من الأرض يرحمكم من فى السماء » .

ومستحيل أن يقول : لاينزع الضعف ، والخور ، إلا من شقى .

ولما كانت الرحمة فى حق كثير من الناس ، تقارن الضعف ، والخور ، ظن من غلط فى ذلك أنها كذلك مطلقا .

الثالث : أن أسماء الله تعالى حسنى ، لايلحقها نقص بوجه من الوجوه ، وصفاته عليا عن النقص أيضا ، والله تعالى قد تمدح بهذه الأسماء ، والصفات ، لأنها تدل على الكمال ، فمن المحال أن يلحقها مايلحق رحمة المخلوق .

* * *

---

(١) الآية ١٧ من سورة البلد .

(٢) الآية ١٣٩ من سورة آل عمران .

٣٤ – قال : « حدثنا عمر بن حفص ، حدثنا أبى ، حدثنا الأعمش ، سمعت أبا صالح ، عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال النبى ﷺ –: يقول الله – تعالى –: أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبرا ، تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى ، أتيته هرولة » .

* * *

هذا الحديث من الأحاديث القدسية : وهى مايذكره الرسول – ﷺ – مضافا إلى الله – تعالى – أنه قاله ، ولكنه غير متعبد بتلاوته ، ولا هو معجز متحدى به كالقرآن .

والظن يأتى بمعنى العلم ، واليقين ، كقوله تعالى : (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) (١)

ويأتى واسطة بين الشك والعلم ، أو بمعنى الشك كقوله تعالى عن الكفار (وظنوا أنهم إلينا لايرجعون) (٢) . والقرائن تبين ذلك وتحدده .

قوله : « أنا عند ظن عبدى بى » ، قال صاحب المرعاة : « يجوز أن يكون على ظاهره . والمعنى : أنا أعامله على حسب ظنه بى ، وأفعل به مايتوقعه منى ، من خير أو شر ، والمراد الحث على تغليب الرجاء على الخوف ، وحسن الظن بالله تعالى على مادل عليه قوله – ﷺ : « لايموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله »

---

(١) الآية ٤٦ من سورة البقرة .

(٢) المرعاة جـ ٢ ص ٤١٤ الطبعة الحجرية .

ويجوز أن يكون المراد بالظن : العلم الموقن ، ويكون المعنى : أنا عند علمه بى ويقينه بأن مصيره إلي ، وحسابه علي ، وأن ماقضيت به له ، أو عليه من خير أو شر ، لا مرد له ، لا معطى لما منعت ولا مانع لما أعطيت » [١] .

وقال الحافظ : « أنا عند ظن عبدى بى » أى قادر على أن أعمل به ما ظن أن أعامله به ، وقال الكرمانى : وفى السياق إشارة إلى ترجيح جانب الرجاء على الخوف ، وكأنه أخذه من أن العاقل يختار لنفسه وقوع الخير ، وهو مقيد بالمحتضر ، لما فى الحديث « لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » [٢] .

قلت : قول الحافظ هذا خلاف ظاهر الحديث ، إذ هو خبر عن الله تعالى أنه عند ظن عبده به ، يعنى أنه - تعالى - يفعل بعبده ماظنه العبد أنه يفعله به ، وقد جاءت أحاديث مصرحة بذلك كما فى المسند من حديث واثلة بن الأسقع ، سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « قال الله : أنا عند ظن عبدى بى ، إن ظن خيراً فله ، وإن ظن شراً فله » [٣] ورواه ابن حبان ، وهذا لفظه ، وفى هذا أحاديث كثيرة .

وقال فى المفهم : « معنى : « أنا عند ظن عبدى بى » . ظن الإجابة عند الدعاء ، والقبول عند التوبة ، والمغفرة عند الاستغفار ، والإثابة على العمل ، إيمانا بوعده - تعالى - لما فى الحديث « ادعوا الله ، وأنتم موقنون بالإجابة » [٤]

ولذلك ينبغى للمرأ أن يجتهد فى العمل ، موقنا بأن الله يقبله ، ويغفر له لأنه وعد بذلك ، وهو لايخلف وعده .

---

(١) المرعاةجـ ٢ ص ٤١٤ الطبعة الحجرية .

(٢) فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٣) انظر المسند جـ ٣ ص ٤٩١ و جـ ٤ ص ١٠٦ ، وانظر موارد الظمآن ص ١٨٤ .

(٤) رواه الترمذى ، وقال : هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه ، انظر السنن جـ ٥ ص ١٨٠ .

قلت : هو ضعيف لأن فى سنده صالح المرى .

هذا إذا أتى بالعبادة بشروطها ، فإن اعتقد أن الله لا يقبلها ، وأنها لاتنفعه فهذا هو اليأس ، وهو من الكبائر ، وأما ظن المغفرة مع الإصرار على الذنوب ، فهو محض الجهل ، والغرور [١] .

والحديث معناه واضح كما تقدم ، وما ذكره صاحب المفهم من معناه ووراء ذلك معنى أدق وهو قرب الله من عبده المنيب إليه ، وخير مايفسر به كلام الرسول ﷺ كلامه ، ولكن لايعارض النصوص الكثيرة ، المحذرة من عذاب الله تعالى ، وعقابه فالأمر كما قال تعالى : (نبأ عبادي أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم) [٢] ، وحسن الظن يكون مع حسن العمل . وقد تشعر الإضافة فى قوله : « عبدى » بحسن العمل ، أى أنه عبد الله ، وليس للشيطان أو للدنيا أو غيرها . والله أعلم .

قوله : « وأنا معه إذا ذكرنى » أى معه بالإجابة ، والتوفيق ، وبسماع كلامه واثابته عليه أو بحسب ماقصد فى ذكره ، مالم يكن إثماً أو قطيعة رحم ، فهذه المعية هى المعية الخاصة المذكورة فى مثل قوله تعالى : (إننى معكما أسمع وأرى) [٣]

ومعية الله تعالى بالنسبة لعباده نوعان : معية عامة للخلق كلهم ، كما قال تعالى : (مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولاخمسة إلا هو سادسهم ولاأدنى من ذلك ولاأكثر إلا هو معهم أينما كانوا) [٤]

وقال تعالى : (يعلم مايلج فى الأرض ، ومايخرج منها وماينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم) [٥] ومن مقتضى هذه المعية اطلاعه تعالى

---

(١) من الفتح جـ ١٣ ص ٣٨٥ – ٣٨٦ .
(٢) الآيتان ٤٩ و ٥٠ من سورة الحجر .
(٣) الآية ٤٦ من سورة طه .
(٤) الآية ٧ من سورة المجادلة .
(٥) الآية ٤ من سورة الحديد .

وعلمه بكل شىء ، ومراقبته ، وشهوده أفعال عباده ، فتفيد الخوف منه تعالى .

والنوع الثانى : المعية الخاصة ، وهى المذكورة فى هذا الحديث ، ونحوه كقوله تعالى : (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) [(١)] وقوله : (إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا) [(٢)] ومن مقتضى هذه المعية النصر والتأييد والهداية ، والحماية .

« ومعيته تعالى لخلقه ، لاتخالف علوه ، واستوائه على عرشه ، فكل ذلك حق على ظاهره ، وذلك أن الله معنا حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة كما جمع بينهما فى قوله تعالى : (هو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم مايلج فى الأرض ، ومايخرج منها ، وماينزل من السماء ، ومايعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) [(٣)] . فأخبر تعالى أنه فوق العرش يعلم كل شىء ، وهو معنا أينما كنا ، كما قال النبى ﷺ فى حديث الأوعال (والله فوق العرش ، وهو يعلم ما أنتم عليه) [(٤)]

وذلك أن كلمة مع فى اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها فى اللغة إلا المقارنة المطلقة ، من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال .

فإذا قيدت بمعنى من المعانى دلت على المقارنة فى ذلك المعنى ، فإنه يقال : مازلنا نسير والقمر معنا ، ويقال : هذا المتاع معى لمجامعته لك ، وإن كان فوق رأسك .

فالله مع خلقه حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة .

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة النحل .

(٢) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٤) رواه أبو داود فى باب فى الجهمية جـ ٥ ص ٥٣ ، والترمذى جـ ٥ ص ٩٧ ، وابن ماجه جـ ١ ص ٦٩ الحديث رقم ١٩٣ ، وقد صححه ابن القيم ، وأبطل حجج المضعفين له ، انظر تهذيب السنن جـ ٧ ص ٩١ .

ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد ، فقوله : (وهو معكم أينما كنتم) [١] دل ظاهر الخطاب أن حكم هذه المعية ومقتضاها ، أنه مطلع عليكم شهيد عليكم ومهيمن عالم بكم ، وهذا معنى قول السلف أنه معهم بعلمه ، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته .

وقوله : (لاتحزن إن الله معنا) [٢] حق على ظاهره ، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية الاطلاع والنصر والتأييد ، ومثل ذلك قوله : (إننى معكما أسمع وأرى) [٣] وقوله : (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) [٤] » [٥] وسيأتى لذلك بقية .

قوله : « فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى » أى إن ذكر ربه سراً فى نفسه ، فإن الله تعالى يذكره سراً فى نفسه ، من غير اطلاع أحد من خلقه على ذلك .

وهذا هو محل الشاهد من الحديث ، حيث أثبت النفس لله – تعالى – على ماسبق توضيحه .

قوله « وإن ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ ، خير منهم » الملأ ، الجماعة ، والمعنى أن العبد إذا ذكر ربه ظاهرا فى جماعة يسمعون ذكره لربه ، فإن الله تعالى يذكره ويثنى عليه فى جماعة أفضل من الجماعة الذين ذكر العبد ربه فيهم ، لأن الذين يذكر الله عبده فيهم فى الملأ الأعلى عباد مكرمون ، لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون .

---

(١) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٢) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٤٦ من سورة طه .

(٤) الآية ١٢٨ من سورة النحل .

(٥) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ١٠٢ – ١٠٤ ملخصا .

وهذا من أقوى أدلة القائلين بتفضيل الملائكة على صالحى بنى آدم . وهى مسألة مشهورة ، والراجح فيها أن الأنبياء ، والصديقين والشهداء ، والصالحين أفضل من الملائكة ، وتفضيل فرد من النوع لايلزم منه تفضيل النوع كله على الآخر . والله أعلم .

قوله : « وإن تقرب إلي شبرا ، تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » .

قرب الله – تعالى – من عابده ، وداعيه ثبت فى نصوص كثيرة ، كقوله تعالى : (وإذا سألكَ عبادى عَنِّى ، فإنى قَريبٌ أجيبُ دعوة الداعِ إذا دعانِ) (١) .

وقوله ﷺ : « أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد » (٢)

فالعبد إذا قرب إلى الله تعالى بالتوجه والمحبة ، وإخلاص العمل ، والصدق فى ذلك ، فإن الله – تعالى – يقرب إليه أكثر من قربه ، فكلما زاد قرب العبد إلى ربه بالطاعة والإنابة والحب والإخلاص . زاد قرب الله إليه حتى يكون قلب العبد بين يدى ربه ، كأنه يشاهده بعينيه ، وهو جل وعلا على عرشه .

قال شيخ الإسلام : « فكلما تقرب العبد باختياره قدر شبر ، زاده الرب قربا إليه ، حتى يكون كالمتقرب إليه بذراع ، فكذلك قرب الرب من قلب العابد ، وهو مايحصل فى قلب العبد من معرفة الرب ، والإيمان به ، وهو المثل الأعلى » (٣)

وبهذا يتبين أن معنى قوله « إذا تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا » أن العبد إذا تقرب إلى ربه بطاعته والإقبال عليه ، أن الرب تعالى يزيده قربا إليه ، جزاءً من جنس عمله ، وأكثر من قرب العبد الذى حصل باختياره .

---

(١) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

(٢) رواه مسلم انظر جـ ١ ص ٣٥٠ ، وأبو داود جـ ١ ص ٥٤٥ ، والنسائى جـ ٢ ص ٢٢٦ .

(٣) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٥١٠ .

وقال : « فإذا قرب العبد من ربه بالإنابة إليه ، قرب الرب إليه ، فيدنو قلبه من ربه ، وإن كان بدنه على الأرض ، ومتى قرب أحد الشيئين من الآخر ، صار الآخر إليه قريبا بالضرورة ، وإن قدر أنه لم يصدر من الآخر تحرك بذاته ، كما أن من قرب من مكة ، قربت مكة إليه » [١]

وقال أيضا : « ومن الناس من غلط فظن أن قربه – تعالى – من جنس حركة بدن الإنسان إذا مال الى جهة انصرف عن الأخرى .

والإنسان يجد عمل روحه يخالف عمل بدنه ، فيجد نفسه تقرب من نفوس كثير من الناس ، من غير أن ينصرف عمن هى قريبة منه ، وكذلك يجد نفسه تبعد بعيدا عن بعض النفوس بعداً غير مايقوم بالبدن » [٢] .

وقال أيضا : « وليس بين الرب والعبد إلا محض العبودية ، فكلما كمل العبد عبودية ربه قرب إليه – تعالى – لأنه سبحانه – بَرٌّ ، جواد ، محسن ، يعطى العبد مايناسبه فكلما عظم فقره إليه ، كان أغنى له ، وكلما عظم ذله له ، كان أعز له ، فإن النفس – لما فيها من أهوائها المتنوعة – وتسويل الشيطان لها – تبعد عن الله – تعالى – حتى تصير ملعونة بعيدة من الرحمة ، واللعنة هى البعد عن الله ورحمته .

ومن أعظم ذنوب العبد علوه فى الأرض ، ونسيانه ربه ، ولهذا لما كان السجود هو غاية سفول النفس – صار أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد وكذلك الذكر المتضمن للإقبال على الله ، والخضوع له » [٣] .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٥٠٩ .

(٢) المرجع ببعض التصرف ص ٢٤٧ .

(٣) المرجع المذكور بتصرف ص ٢٣٨ .

« وقوله : من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا الخ » هذا قربه تعالى من عابده . وأما قربه من داعيه فكما فى الآية : (وإذا سألك عبادى عنى ، فإنى قريبٌ أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ) [1] ، وقربه تعالى من عابد ، وداعيه قرب خاص ، أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة ، الذى لم يثبت أكثر المتكلمين سواه » [2]

« فالداعى ، والساجد تتوجه روحه إلى الله تعالى » والروح لها عروج يناسبها فتقرب من الله – تعالى – بلا ريب بحسب تخلصها من الشوائب ، فيكون الله – عز وجل – منها قريبا ، قرباً يلزم منه قربها .

ويكون منه قرب آخر ، كقربه عشية عرفة ، وفى جوف الليل ، وإلى من تقرب منه شبرا ، تقرب منه ذراعا » [3] .

قلت : وبهذا يتبين أن قربه – تعالى – من عباده نوعان :

أولهما : قربه – تعالى – من قلوب المؤمنين ، وقرب قلوبهم منه ، وهذا أمر معروف لايجهل ، فإن القلوب تصعد إليه على قدر ما فيها من الإيمان والمعرفة به تعالى ، وذكره ، وخشيته ، والتوكل عليه ، وهذا متفق عليه بين الناس لم ينكره منهم أحد .

والثانى : مادل عليه هذا الحديث – الذى نحن بصدد شرحه – ونحوه ، مثل قربه عشية عرفة ، وقربه آخر الليل ، كما ثبتت بذلك النصوص ، وهذا القرب ينكره أكثر المتكلمين ، من الجهمية ، والمعتزلة ، والأشعرية ، وإنكاره منكر .

---

(١) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

(٢) بدائع الفوائد جـ ٣ ص ٨ ملخصا .

(٣) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٢٤١ .

قال شيخ الإسلام : « وقربه – سبحانه – ودنوِّه من بعض مخلوقاته ، لايستَلزم أن تخلو ذاته من فوق العرش ، بل هو فوق العرش ويقرب من خلقه كيف شاء ، كما قال ذلك من قاله من السلف . وهذا كقربه إلى موسى لما كلمه من الشجرة ، قال – تعالى –: (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً) [(١)] .

والذين يثبتون تقريبه العباد إلى ذاته ، وهو القول المعروف للسلف ، والأئمة وهو قول الأشعرى ، وغيره من الكلابية ، فإنهم يثبتون قرب العباد إلى ذاته . وأما دنوه نفسه ، وتقربه من بعض عباده ، فهذا يثبته من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه ، وهو مذهب أئمة السلف ، وأئمة الإسلام المشهورين ، وأهل الحديث ، والنقل عنهم بذلك متواتر » [(٢)]

وقوله : « وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » . الهرولة السرعة فى المشى ، بين المشى والعدو . وهو تمثيل لكرم الله وجوده على عبده ، وأنه أقبل إليه ، فهو – سبحانه – أسرع إقبالا وتفضلا على عبده ، من غير مقابل يناله من العبد ، بل هو الغنى بذاته عن كل ماسواه ، وكل ماسواه فقير إليه . ويؤخذ من الحديث : عظم فضل الله وكرمه ، وعظم فضل الذكر .

* * *

---

(١) الآية ٥٢ من سورة مريم .

(٢) مجموع الفتاوى باختصار جـ ٥ ص ٤٦٠ – ٤٦٦ .

قال : « باب قول الله تعالى : (كل شئ هالك إلا وجهه)

* * *

أراد البخارى بهذا الباب إثبات صفة الوجه لله – تعالى – وهو ثابت لله تعالى فى آيات وأحاديث كثيرة . سيأتى ذكر شيء منها .

قال ابن كثير : (كل شيء هالك إلا وجهه) إخبار بأنه الدائم الباقى ، الحى القيوم الذى تموت الخلائق ولايموت ، كما قال : (كل من عليها فانٍ ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) (١) ، فعبرَّ بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله هاهنا : (كل شيء هالك إلا وجهه) ، أى إلا إياه » (٢) .

قلت : قوله : « فعبر بالوجه عن الذات ، لايقصد نفى صفة الوجه عن الله تعالى ، وإنما مراده : أن الذات تابعة للوجه ، فاكتفى تعالى بذلك .

وقد ذكر البخارى – رحمه الله – هذه الآية فى التفسير ، وأعقبها بقوله : « إلا ملكه ويقال : إلا ماأريد به وجهه » (٣) . ولم يذكر غير هذا ، فقد يقال : إن هذا تأويل سلك البخارى فيه طريق أهل التأويل ، وليس الأمر كذلك .

قال الحافظ : « فى رواية النسفى (٤) ، وقال معمر : فذكره ، ومعمر هذا هو أبو عبيدة [معمر] بن المثنى ، وهذا كلامه فى مجاز القرآن ، لكنه بلفظ :

---

(١) الآيتان ٢٦ و ٢٧ من سورة الرحمن .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٧٢ .

(٣) انظر الفتح جـ ٨ ص ٥٠٥ .

(٤) النسفى من رواة الصحيح عن البخارى .

إلا هو ، وكذا نقله الطبرى عن بعض أهل العربية ، وكذا ذكره الفراء » [١]

قلت : الذى فى كتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة يخالف ما ذكره البخارى ، وزعم الحافظ أنه كلامه . فإنه قال على الآية : (كل شيء هالك إلا وجهه) مجازه : إلا هو ، وما استثنوه من جميع فهو منصوب » [٢] ، وكذا ماذكره الفراء فى معانى القرآن فإنه قال : (كل شيء هالك إلا وجهه) إلا هو قال الشاعر :

أستغفر الله ذنباً لست محصيه ... رب العباد إليه الوجه والعمل

أى « إليه أوجه عملى » [٣]

وبهذا يتبين أن الأمر ليس كما قال الحافظ ، لأن ماذكره البخارى يختلف عما ذكره الفراء ، وأبو عبيدة لفظاً ومعنى .

قال الحافظ : « قال ابن التين : قال أبو عبيدة : إلا وجهه إلا جلاله ، وقيل إلا إياه . تقول : أكرم الله وجهك ، أى أكرمك الله .

وقوله : ويقال « إلا ما أريد به وجهه » نقله الطبرى - أيضا - عن بعض أهل العربية ، ووصله ابن أبى حاتم من طريق خصيف ، عن مجاهد - مثله . ومن طريق سفيان الثورى قال : إلا ما ابتغى به وجه الله من الأعمال الصالحة » ا هـ [٤]

وفى الدر المنثور : « وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن عباس : (كل شيء هالك إلا وجهه) إلا ما أريد به وجهه

---

(١) الفتح جـ ٨ ص ٥٠٥ .

(٢) مجاز القرآن جـ ٢ ص ١١٢ .

(٣) معانى القرآن جـ ٢ ص ٣١٤ .

(٤) الفتح جـ ٨ ص ٥٠٥ .

وأخرج ابن أبى حاتم ، عن مجاهد (كل شىء هالك إلا وجهه) . قال : إلا ما أريد به وجهه .

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان ، عن سفيان : (كل شىء هالك إلا وجهه) قال : « إلا ما أريد به وجهه من الأعمال الصالحة » (١)

« قوله : (كل شىء هالك إلا وجهه) بعد قوله : (فلا تكونن ظهيرا للكافرين ، ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أُنزلت إليك ، وادع إلى ربك ، ولاتكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون » (٢)

فإن ذكر ذلك بعد نهيه عن الإشراك ، وأن يدعو معه إلها آخر ، وقوله : لا إله إلا هو . يقتضى فى أظهر الوجهين ، وهو أن كل شىء هالك إلا ما كان لوجهه من الأعيان ، والأعمال .

روى عن أبى العالية قال : إلا ما أريد به وجهه .

وعن جعفر الصادق : « إلا دينه - ومعناهما واحد » (٣)

قال ابن كثير : « وقال مجاهد ، والثورى فى قوله : « كل شىء هالك إلا وجهه » أى : إلا ماأريد به وجهه ، وحكاه البخارى فى صحيحه كالمقرر له .

وهذا القول لاينافى القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ماأريد به وجه الله - عز وجل - من الأعمال الصالحة ، المطابقة .

والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وهالكة ، وزائلة إلا ذاته تعالى - فإنه الأول ، والآخر الذى هو قبل كل شىء وبعد كل شىء » (٤)

---

(١) الدر المنثور جـ ٦ ص ٤٤٧ .
(٢) الآيات ٨٦ إلى ٨٨ من سورة القصص .
(٣) مجموع الفتاوى جـ ٢ ص ٤٢٧ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٧٢ .

والقول الأول هو ماذكرناه عنه فى أول الباب .

فعلى هذا لا يكون قوله « ماأريد به وجهه » تأويلا للوجه الذى هو صفة لله – تعالى – بل هو من المعانى المستنبطة من الآية ، كما يشير إليه سياق الآية ، فإنه تعالى – يقول : (ولايصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ، ولاتكونن من المشركين ، ولاتدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون) [1]

وأما قوله « إلا ملكه » فهذا تأويل بعيد ، وهو مخالف . لصنعه هنا حيث ذكر الآية ، ثم أتبعها بحديث جابر ، وفيه قوله – ﷺ – : « أعوذ بوجهك » . فهذا ظاهر جدا فى أنه أراد إثبات الوجه صفة لله تعالى .

ومما يدل على بطلان ذلك أن الأشياء كلها ملك الله تعالى ، فهل يجوز أن يقال : كل شيء هالك إلا كل شيء ؟ بخلاف قوله : إلا ما أريد به وجهه ، فإن هذا مما تدل عليه الآية عن طريق المفهوم مع بقاءها نصا فى إثبات الوجه لله – تعالى – والله أعلم .

* * *

---

(١) الآتيان ٨٧ و ٨٨ من سورة القصص .

٣٥ – قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عمرو ، عن جابر بن عبد الله ، قال : لما نزلت هذه الآية : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) [١] قال النبى – ﷺ –: أعوذ بوجهك ، فقال : « أو من تحت أرجلكم » فقال النبى ﷺ : أعوذ بوجهك ، قال : « أو يلبسكم شيعا » فقال النبى – ﷺ – هذا أيسر »

* * *

يخوف الله – تعالى – عباده إن لم يطيعوه ، ويعبدوه وحده لاشريك له ، ويتبعوا رسوله . بأنه قادر على أن يرسل عليهم عذاباً من السماء ، كما أرسل على قوم لوط وقوم شعيب ، وغيرهم ، أو نوعا آخر مما يشاء .

وهو كذلك قادر بأن يبعث العذاب من تحتهم ، إما بخسف أو زلازل، وبراكين أو غير ذلك مما يشاء ، كما قال تعالى : (ءَأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ، أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير » [٢] وعندما سمع الرسول – ﷺ وهذا التهديد من الله تعالى – عاذ بوجه ربه الكريم أن يكون ذلك .

قال الحافظ : « وقد روى ابن مردويه ، من حديث ابن عباس ، مايفسر به حديث جابر ، ولفظه : « عن النبى – ﷺ – قال : « دعوت الله أن يرفع عن أمتى أربعا ، فرفع عنهم اثنين ، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين :– دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء ، والخسف من الأرض ، وأن لايلبسهم شيعا ، ولايذيق بعضهم بأس بعض . فرفع عنهم الخسف ، والرجم ، وأبى أن يرفع عنهم الأخريين » .

---

(١) الآية ٦٥ من سورة الأنعام .

(٢) الآيتان ١٦ و ١٧ من سورة تبارك الذى بيده الملك .

فيستفاد من هذه الرواية ، المراد بقوله : « من فوقكم ، أو من تحت أرجلكم » . ويستأنس له بقوله تعالى : (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ، أو يرسل عليكم حاصبا) (١) . وقد وقع أصرح من ذلك ، عند ابن مردويه ، من حديث أُبى بن كعب ، قال : فى قوله – تعالى –: (عذابا من فوقكم) قال : الرجم ، (أو من تحت أرجلكم) قال : الخسف .

وروى ابن أبى حاتم ، من طريق السدى ، عن شيوخه . أن المراد بالعذاب من فوق : الرجم ، ومن تحت : الخسف .

وأخرج عن ابن عباس : « أن المراد بالفوق . أئمة السوء ، وبالتحت ، خدام السوء » انتهى (٢) .

وذكر ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية أحاديث ، وآثاراً كثيرة .

قلت : فى هذه الآية الكريمة التى ترجم بها البخارى ، والحديث الذى ذكره – دليل واضح على وجوب الإيمان بوجه الله الكريم ، وقد جاءت نصوص كثيرة من كتاب الله وسنة رسوله تثبت ذلك ، ولم يزل أهل العلم والإيمان يسألون ربهم بوجهه الكريم ، ويدعونه بأن يرزقهم النظر إليه فى الجنة .

ولم ينكر ذلك إلا الجهمية ، ومن شايعهم على مذهبهم الفاسد .

قال الله تعالى –: (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) (٣)

و « ذو » فى الآية . وصف للوجه ، فوصف – تعالى – وجهه الكريم بأنه ذو الجلال والإكرام . وهذا يبطل دعوى أن المراد بالوجه الذات ، كما يبطل دعوى كونه زائدا فى الكلام .

---

(١) الآية ٦٨ من سورة الإسراء .
(٢) الفتح جـ ٨ ص ٢٩٢ .
(٣) الآيتان ٢٦ و ٢٧ من سورة الرحمن .

وفى صحيح مسلم ، عن أبى موسى الأشعرى . قال : قام فينا رسول الله - ﷺ - بخمس كلمات ، فقال : « إن الله لا ينام ، ولاينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » (١) سبحات وجهه هى نوره ، وبهاؤه ، وجلاله .

وقال أبو سعيد الدارمى - رحمه الله -: « حدثنا سليمان بن حرب ، عن حماد بن زيد ، عن عطاء بن السائب ، عن أبيه ، عن عمار بن ياسر ، أن رسول الله - ﷺ كان يدعو : « اللهم إنى أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم » .

حدثنا موسى بن إسماعيل ، وغيره ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت البنانى ، عن عبد الرحمن ابن أبى ليلى ، عن صهيب ، عن النبى - ﷺ - « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » قال : النظر إلى وجه الله تعالى (٢) .

حدثنا أحمد بن يونس ، عن أبى شهاب الحناط ، عن خالد بن دينار ، عن حماد بن جعفر ، عن ابن عمر ، رفعه الى النبى - ﷺ - « أن أهل الجنة إذا بلغ النعيم منهم كل مبلغ ، وظنوا أن لانعيم أفضل منه ، تجلى لهم الرب ، فنظروا إلى وجه الرحمن ، فنسوا كل نعيم عاينوه ، حين نظروا إلى وجه الرحمن » .

وذكر بن إسحاق فى السيرة حديثا طويلا - فيه - « أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السماوات والأرض ، وكشفت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين » (٣) .

---

(١) انظر مسلم جـ ١ ص ١٦٢ رقم ٢٩٣ .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه بلفظ : « النظر الى الله تعالى » ، انظر جـ ١ ص ١٦٣ الحديث رقم ١٨٠ .

(٣) ذكره ابن كثير فى تاريخه جـ ٣ ص ١٩٦ .

قال أبو سعيد : وعلى تصديق هذه الآثار ، والإيمان بها ، أدركنا أهل الفقه والعلم » [١] وذكر أحاديث فى ذلك .

وقد تكاثرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بالاستعاذة بوجه الله تعالى كما فى هذا الحديث الذى ذكره البخارى ، وكما فى الموطأ ، ومسند أحمد أنه – ﷺ – كان يقول : « أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات » [٢] وفى هذا أحاديث كثيرة .

وكذلك صح عنه – ﷺ – سؤاله لذة النظر إلى وجه الله الكريم كما فى الحديث السابق وغيره .

وبهذا يتبين أن إثبات الوجه والإيمان به متعين ، وأنه داخل فى الإيمان بالله تعالى – وهو كسائر صفات الله الثابتة ، يجب معرفتها والإيمان بها بدون تأويل ، أو تشبيه ، بل على مايجب لله من الإجلال والتعظيم ليس كمثله شىء لافى ذاته ولافى أسمائه وصفاته ، ولافى أفعاله تعالى وتقدس . عن ظنون أهل الانحراف والزيغ من المؤولين والمعطلين الذين جعلوا أنفسهم هى الأصل فقاسوا عليها ماأخبر الله به عن نفسه ، وأخبر عنه رسوله فحرفوا وعطلوا .

★ ★ ★

---

(١) الرد على بشر المريسى ص ٥١٨ عقائد السلف .

(٢) الموطأ جـ ٢ ص ٩٥٠ – ٩٥١ مرسل ، والمسند موصولا جـ ٢ ص ٤١٩ وهو حسن .

قال : « باب قول الله تعالى : (ولتصنع على عينى) [١] – تغذى – وقوله – جل ذكره : (تجرى بأعيننا) [٢]

* * *

قد دل كتاب الله – تعالى – ، وسنة رسوله – ﷺ – صراحة ، وإجماع أهل العلم بالله والإيمان به ، على أن الله – تعالى – موصوف بأن له عينين ، حقيقة على مايليق بجلاله ، وعظمته .

وقد جاء ذكر العين وصفا لله – تعالى – فى القرآن مفردة ، مضافة إلى الضمير المفرد ، كما جاءت مجموعة ، مضافة إلى ضمير الجمع ، كما فى هاتين الآيتين اللتين ذكرهما البخارى .

ولم يأت ذكر العين وصفاً لله – تعالى – فى القرآن مثناة ، ولكن جاء ذلك فى الحديث عن رسول الله ﷺ ، والحديث إذا صح عن الرسول – ﷺ – وجب الإيمان بما دل عليه ، والعمل به .

قال ابن القيم : « ذكر العين مفردة ، لايدل على أنها عين واحدة ، ليس إلا كقولك : افعل هذا على عينى ، لايريد أن له عيناً واحدة .

ولما أضيفت العين إلى اسم الجمع ظاهرا ، أو مضمرا حسن جمعها مشاكلة للفظ كقوله تعالى –: (تجرى بأعيننا) [٢] وقوله تعالى : (واصنع الفلك بأعيننا) [٣] .

---

(١) جزء من الآية ٣٩ من سورة طه .

(٢) جزء من الآية ١٤ من سورة اقتربت الساعة .

(٣) جزء من الآية ٣٧ من سورة هود .

وهذا نظير لفظ اليد المضافة إلى المفرد ، كقوله : (بيده الملك) [١] و (بيدك الخير) [٢] ولما أضيفت إلى ضمير الجمع جمعت ، كقوله : تعالى - (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما) [٣] .

وقد جاء فى كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - ﷺ - ذكر العين مضافة إلى الله - تعالى - مفردة ، ومجموعة .

وجاءت السنة بإضافتها إليه تعالى مثناة ، كما قال عطاء : عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ - : « إن العبد إذا قام فى الصلاة ، قام بين عينى الرحمن ، فإذا التفت قال له ربه : إلى من تلتفت ؟ إلى خير لك منى » .

وقوله - ﷺ : « إن ربكم ليس بأعور » صريح بأنه ليس المراد إثبات عين واحدة ، فإن ذلك عور ظاهر ، تعالى الله عنه .

وهل يفهم من قول الداعى : اللهم احرسنا بعينك التى لاتنام ، أنها عين واحدة ليس إلا ، إلا ذهن أقلف ، وقلب أغلف ؟

وقد استدل السلف على إثبات العينين لله - تعالى - بقوله جل وعلا : (تجرى بأعيننا) ، وممن صرح بذلك أبو الحسن الأشعرى فى الإبانة ، والموجز ، والمقالات » [٤]

قوله : تعالى : (ولتصنع على عينى) فسر البخارى « تصنع » بتغذى ، من التغذية يقال صنعت الفرس إذا أحسنت القيام عليه » [٥] .

---

(١) جزء من الآية مفتتح سورة تبارك الذى بيده الملك .

(٢) جزء من الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٧١ من سورة يس .

(٤) مختصر الصواعق ص ٢٤ ط الإمام .

(٥) الفتح جـ ١٣ ص ٣٨٩ .

قال ابن كثير : (ولتصنع على عينى) قال أبو عمران الجونى : تربى بعين الله تعالى .

وقال قتادة : تغذى على عينى .

وقال معمر بن المثنى : (ولتصنع على عينى) بحيث أرى .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : « يعنى أجعله فى بيت الملك ، ينعم ويترف غذاؤه عندهم غذاء الملك ، فتلك الصنعة » (١)

وأسند ابن جرير هذه الأقوال ، وروى عن ابن جريج : أنت بعينى إذ جعلتك أمك فى التابوت ، ثم فى البحر . واختار قول قتادة .

وقال : « وعنى بقوله : « على عينى » بمرأى منى ، ومحبة ، وإرادة » (٢) .

قوله « تجرى بأعيننا » قال ابن جرير : « يقول - جل ثناؤه : تجرى السفينة التى حملنا نوحا فيها ، بمرأى منا ، ومنظر » (٣)

قلت : وكذا قال غيره من المفسرين ، ومن لازم الرؤية والنظر وجود العين ففى هاتين الآيتين ، وغيرهما من نصوص كتاب الله وحديث رسوله كثير . إثبات العينين لله تعالى اللتين ينظر بهما إلى مايريد ، ولايحجب نظره حاجب . وقد تقدم وجه الجمع والإفراد فى ذلك .

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٧٨ ط الشعب .

(٢) تفسير الطبرى جـ ١٦ ص ١٦٢ - ١٦٣ ط الحلبى .

(٣) المرجع جـ ٢٧ ص ٦٤ .

٣٦ – قال : « حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا جويرة ، عن نافع ، عن عبد الله ، قال : ذكر الدجال عند النبى ﷺ – فقال : « إن الله لايخفى عليكم ، إن الله ليس بأعور ، وأشار بيده إلى عينه ، وأن المسيح الدجال أعور عين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية »

* * *

الدجال : الكذاب ، ودجله ، سحره وكذبه ، لأنه يدجل الحق بالباطل – أى يغطيه ، وهو رجل من اليهود ، يخرج فى آخر هذه الأمة كما جاءت الأحاديث بذلك عن النبى ﷺ .

قال أبو على القالى : عن ابن دريد : « كل شيء غطيته فقد دجلته ، ومنه اشتقاق دجلة ، كأنها غطت الأرض إذ فاضت عليها .

والدجال من هذا الاشتقاق ، لأنه يغطى الحق بالباطل .

وقال قوم : سمى بذلك لأنه يغطى الأرض بكثرة جموعه .

وقال آخرون : « يغطى على الناس بكفره » (١) .

وقال الحافظ : الدجال : فعال بفتح أوله ، والتشديد ، من الدجل ، وهو التغطية وسمى الكذاب دجالا لأنه يغطى الحق بباطله .

وقال ثعلب : « الدجال : المموه » (٢) .

قوله : (إن الله لايخفى عليكم) المؤمن بالله وبأوصافه التى تعرف بها إلى عباده لايخفى عليه رب العالمين ، فهو تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ليس له كفؤ ولانِدّ ، فلا يمكن أن يشابه المخلوق الضعيف ، المحتاج

---

(١) البارع ص ٣٥ .

(٢) الفتح ١٣ ص ٩١ .

الناقص ، وكل مخلوق له صفة الضعف والحاجة والنقصان ، ولا بد ، تعالى عن مشابهة خلقه علوا كبيرا .

قوله : « إن الله ليس بأعور » هذه الجملة هى المقصودة من الحديث فى هذا الباب . فهذا يدل على أن لله عينين حقيقة ، لأن العور فقد أحد العينين ، أو ذهاب نورها .

قال فى القاموس : « العور ذهاب حسن إحدى العينين ، والردىء من كل شىء . والضعيف الجبان البليد الذى لايدل ، ولايندل ، ولاخير فيه » [(١)]

وعلى كل العور نقص وعيب فى الاتفاق ، والمقصود أنه فى اللغة هو ذهاب ضوء إحدى العينين .

ولهذا صار هذا الحديث من الأدلة الواضحة على إثبات تثنية العين لله تعالى ويزيد ذلك وضوحا ، إشارته ﷺ إلى عينه لتحقيق الوصف . يعنى أن لله عينين سالمتين من كل عيب كاملتين ، بخلاف الدجال الفاقد لإحدى عينيه ، وذلك من أعظم الأدلة على كذبه .

قال ابن المنير : « وجه دلالة الحديث على إثبات العين لله ، من حديث الدجال من قوله : « إن الله ليس بأعور » من جهة أن العور عرفا عدم العين ، وضد العور ثبوت العين ، فلما نزعت هذه النقيصة لزم ثبوت الكمال بضدها وهو وجود العين » [(٢)] .

قلت : الحديث فيه إثبات العينين لله تعالى ، لا عين واحدة كما قد يوهمه كلامه .

وقوله : « عرفا » بل هو لغة قبل العرف .

---

(١) القاموس جـ ٢ ص ٩٧ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٣٩٠ .

« وقال شهاب الدين السهروردى فى كتاب العقيدة له : أخبر الله فى كتابه وثبت عن رسوله ، الاستواء ، والنزول ، والنفس ، واليد ، والعين ، فلا يتصرف فيها بتشبيه ، ولاتعطيل ، إذ لولا إخبار الله ورسوله ، ماتجاسر عقل أن يحوم حول ذلك الحمى » .

« قال الطيبى : هذا هو المذهب المعتمد ، وبه يقول السلف الصالح » .

وقال غيره : لم ينقل عن النبى ﷺ . ولا عن أحد من أصحابه من طريق صحيح التصريح بوجوب تأويل شىء من ذلك ، ولا المنع من ذكره .

ومن المحال أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أنزل إليه من ربه ، وينزل عليه (اليوم أكملت لكم دينكم) ثم يترك هذا الباب ، فلا يميز مايجوز نسبته إليه مما لا يجوز ، مع حضه على التبليغ عنه بقوله : « ليبلغ الشاهد الغائب » حتى نقلوا أقواله ، وأفعاله ، وأحواله ، وصفاته ، ومافعل بحضرته .

فدل على أنهم اتفقوا على الإيمان بها ، على الوجه الذى أراده الله منها .

ووجب تنزيهه عن مشابهة المخلوقات ، بقوله : تعالى – (ليس كمثله شىء) فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم ، فقد خالف سبيلهم ، وبالله التوفيق » انتهى (١)

قال الإمام ابن خزيمة : « بيَّن النبى – ﷺ – أن لله عينين ، فكان بيانه موافقا لبيان محكم التنزيل » .

ثم ذكر بسنده حديث أبى هريرة ، وقرأ قوله تعالى –: (إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا) . رأيت رسول الله – ﷺ – يضع إبهامه على أذنه ، وإصبعه التى تليها على عينه » (٢) .

---

(١) المرجع المذكور .

(٢) كتاب التوحيد\ص ٤٢ ، ٤٣ .

قوله : « كأن عينه ، عينة طافية » أى قد ذهب ماءها ، فهى ضامرة ، ملتوية ولهذا جاءت الأحاديث بوصفه ، بأنه ممسوح العين ، كما فى سنن أبى داود ، عن عبادة بن الصامت ، أن رسول الله – ﷺ – قال : « إنى قد حدثتكم عن الدجال ، حتى خشيت أن لاتعقلوا إن مسيح الدجال رجل قصير ، أفحج ، جعد ، أعور ، مطموس العين ، ليست بناتئة ، وجحراء ، فإن لبس عليكم فاعلموا أن ربكم ليس بأعور » (١)

فى هذا بيان أن عينه – قبحه الله – قد ذهب ماءها ، فضمرت ، وبقيت سادة مكانها ، لم تكن غائرة ، ولاناتئة ، مرتفعة ، وهذا هو وصف العنبة إذا ذهب ماؤها .

★ ★ ★

---

(١) سنن أبى داود جـ ٤ ص ٤٩٦ .

٣٧ – قال : « حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا شعبة ، أخبرنا قتادة ، قال : سمعت أنسا – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال : « مامن نبى إلا أنذر قومه ، الأعور الكذاب أنه أعور ، وأن ربكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينه كافر » .

* * *

الإنذار : هو الإخبار مع التخويف ، وفى قوله : « مامن نبى » عموم يشمل جميع النبيين ، وهو يدل على عظم فتنته ، وخطره .

وقوله : « الأعور الكذاب » تقدم أن الأعور ، من عميت إحدى عينيه بآفة ، فأصبح لا يرى إلا بعين واحدة .

ووصف بأنه الكذاب لعظم كذبه ، حيث زعم أنه رب الناس ، مع ظهور كذبه وهو يتدرج فى كذبه ، فأولا : يدعى أنه مصلح ، ثم يدعى أنه نبى ، ثم يدعى أنه إله ، وهذا أعظم الكذب ، وأبينه .

وقد عين رسول الله – ﷺ – عينه العوراء ، أنها اليمنى ، كما فى حديث عبد الله بن عمر ، الذى قبل هذا وغيره .

واعلم أن المتكلمين من المعتزلة ، والأشعرية ، ونحوهم ، يزعمون أن من أثبت لله عينين ، ويدين ، ووجه ، ونحو ذلك مما جاءت به النصوص ، من أثبت ذلك على ظاهر اللفظ . أنه يثبت جوارح ، تشبه جوارح الخلق على حد زعمهم ، تعالى الله وتقدس عن زعمهم ، وظنهم السيء فى الله ورسوله ، حيث ظنوا أن ظاهر وصف الله نفسه ، وظاهر وصف رسوله إياه يقتضى التشبيه ، ولهذا تجد الذين تلقوا هذا الفكر ، وتأثروا به ، من الذين يشتغلون بالحديث إذا جاء ذكر ذلك قالوا : مثلا إثبات صفة اليد لامن حيث الجارحة ، إثبات صفة الوجه ، لا من حيث الجارحة ونحو ذلك كما يقوله البيهقى فى كتابه الأسماء

والصفات ، وسائر شراح الحديث الذين لايجرؤون على رد النصوص ، فهم عند مايتكلمون على مثل هذه النصوص يبادرون إلى نفى الجارحة ، كما قال بعض زعماءهم مايلى :

« زعم قوم ، أن لله عينا ، يريدون كجارحة العين ، من الإنسان ، وأرادوا التركيب ، واحتجوا بقوله تعالى -: (ولتصنع على عينى) [١] ، (واصنع الفلك بأعيننا) [٢] (واصبر لحكم ربك ، فإنك بأعيننا) [٣] .

قال أبو سعيد الدارمى - رحمه الله - تعالى - فى الرد عليه : « أما ما ادعيت أن قوما يزعمون أن لله عينا ، فإنا نقوله ، لأن الله - تعالى قاله ، ورسوله .

وأما زعمك أنهم يثبتون جارحة كجارحة العين ، من الإنسان ، على التركيب . فهذا كذب ، ادعيته علينا عمداً ، وأنت تعلم أن أحداً لم يقله ، ولكنك تريد التشنيع ، ليكون هنالك مقبولا لدى الجهال ، والكذب لايصلح منه جد ولاهزل ، فمن الذى قال : إنها جارح مركب ؟ اذكره ، فإن قائله كافر .

وكم تشنع بما تقرر ، من قولك : جسم مركب ، وجوارح ، وأجزاء ، وأبعاض تريد أن يكف المؤمنون ، عن وصف الله - تعالى - بما وصف به نفسه ، فى كتابه وما وصفه به رسوله .

ونحن لم نصف الله بجسم كأجسام المخلوقين ، ولا بعضو ، ولا بجارحة . لكنا نصفه بما يغيضك من هذه الصفات ، التى أنت ودعاتك لها منكرون فنقول : إنه الواحد الأحد ، الفرد ، الصمد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، ذو الوجه الكريم ، والسمع السميع ، والبصير البصير » [٤] .

---

(١) جزء من الآية ٣٩ من سورة طه .

(٢) جزء من الآية ٣٧ من سورة هود .

(٣) الآية ٤٨ من سورة الطور .

(٤) نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسى بتصرف ص ٥٤٥ - ٥٤٦ عقائد السلف .

وقوله : « إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور » اشتملت هذه الجملة على تأكيد وصف الدجال ، الكذاب ، بأنه أعور العين ، أى أنه ناقص ، معيب ، قد لحقه الضر لفقد إحدى عينيه ، فمثله محال أن يكون إلهاً ، لأنه فقير محتاج إلى غيره ، بالإضافة إلى النقص والعيب الذى فيه ، وقد جاء بأعظم الكذب والبهتان ، حيث ادعى أنه إله ، يتوجه إليه ، بطلب الإسعاد ، وصرف الشقاء .

كما اشتملت هذه الجملة من الحديث ، على وصف الله تعالى بكمال العينين . ولهذا قال – ﷺ –: « وإن ربكم ليس بأعور » .

فهذا بيان واضح بوصف الله – تعالى – بأن له عينين كاملتين ، على ما يليق بعظمته .

قال النووى : « هذه علامة بينة تدل على كذب الدجال ، دلالة قطعية ، بديهية ، يدركها كل أحد » [1]

قوله : « مكتوب بين عينيه كافر » وفى رواية « يقرأه كل مؤمن ، كاتب ، وغيره كاتب »

قال النووى : « والصحيح الذى عليه المحققون أن هذه الكتابة على ظاهرها ، وأنها كتابة حقيقية ، جعلها الله آية ، وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره ، وكذبه وإبطاله ، يظهرها الله – تعالى – لكل مسلم كاتب ، وغير كاتب ، ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته ولا امتناع فى ذلك » [1] .

وهذا من رحمة الله بعباده ، حيث أظهر علامات كذبه ، إظهاراً لايخفى إلا على من أريد فتنته ، وعمى قلبه ، واشرب بحب الباطل ، نسأل العافية فى الدنيا والآخرة .

* * *

---

(١) شرح مسلم جـ ١٨ ص ٦٠ .

قال : « باب قول الله تعالى : « هو الله الخالق البارىء المصور »

* * *

قال ابن جرير : يقول – تعالى ذكره – : هو المعبود الخالق ، الذى لا معبود تصلح له العباده غيره ، ولاخالق سواه ، البارىء الذى برأ الخلق فأوجدهم بقدرته ، المصور خلقه كيف شاء ، وكيف يشاء » [1]

ومراد البخارى بهذا بيان أن الله – تعالى – متصف بأنه الخالق ، البارىء ، المصور فى الأزل ، والأبد ، فهو الخالق قبل وجود المخلوق ، وهو البارىء قبل وجود المبرى ، وهو المصور قبل وجود المصور ، فهو تعالى لم يزل بصفاته ولا يزال ، كما يريد أيضا بيان أن الخلق الذى هو وصفه تعالى غير المخلوق ، خلافا لأهل البدع الذين يشير بهذا إلى الرد عليهم .

قال الزجاج : « أصل الخلق فى الكلام : التقدير ، يقال : خلقت الشىء خلقا ، إذا قدرته ، كما قال زهير :

لأنت تفرى ماخلقت وبعـــ ـض القوم يخلق ثم لايفرى

يعنى : أنك إذا قدرت الأمر مضيت فى عزمك وفعلته ، ولست ممن يقدر الأمر ثم لايعزم على فعله ، بل ينثنى عن ذلك .

فالخلق فى اسم الله – تعالى – هو ابتداء تقدير النشء .

فالله تعالى خالقها ، ومنشئها ، وهو متممها ، ومدبرها ، فتبارك الله أحسن الخالقين

« البارىء » يقال : برأ الله الخلق إذا فطرهم .

والبرء خلق على صفة ، فكل مبروء . مخلوق ، وليس كل مخلوق مبروء ، لأن البرء من تبرئة الشىء من الشىء ، كما يقال برأت من المرض ، ومن الدين .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٨ ص ٥٦ .

فإذا فصل بعض الخلق من بعض ، سمى فاعله بارئاً .

فهو المعنى الذى به انفصلت الصورة بعضها من بعض ، فصورة زيد مفارقة لصورة عمرو ، وصورة حمار مفارقة لصورة فرس ، فتبارك الله خالقاً بارئاً .

« المصور » أى مصور كل صورة ، لا على مثال احتذاه ، ولارسم ارتسمه « تعالى عن ذلك علوا كبيرا » (١) أى أنه لم يتقدمه أحد فعل ذلك ، لاتقديرا ، ولا إظهاراً ، وإيجادا .

وقال الحافظ : « قال الطيبى : قيل : الألفاظ الثلاثة مترادفة ، وهو وهم .

فإن الخالق : من الخلق ، وأصله التقدير المستقيم ، ويطلق على الإبداع ، وهو إيجاد الشىء على غير مثال ، كقوله تعالى : (خلق السماوات والأرض) .

وعلى التكوين ، كقوله – تعالى :– (خلق الإنسان من نطفة) .

و « البارىء » من البرء ، وأصله خلوص الشىء عن غيره ، إما على سبيل الخلوص منه ، كبرء الرجل من مرضه ، والمديون من دينه .

أو على سبيل الإنشاء كبرء الله النسمة .

و « المصور » مبدع صور المخترعات ، ومرتبها على حسب مقتضى الحكمة ، فالله – تعالى – خالق كل شىء بمعنى أنه موجده من أصل ، ومن غير أصل ، وبارئه ، بحسب ماتقتضيه الحكمة ، من غير تفاوت ، ولا اختلال ، ومصوره فى صورة يترتب عليها خواصه ويتم بها كماله .

فالتقدير يقع أولا ، ثم الأحداث على الوجه المقدر يقع ثانيا ، ثم التصوير بالتسوية يقع ثالثا » (٢) .

---

(١) تفسير أسماء الله الحسنى ببعض التصرف ص ٢٦ – ٢٧ .

(٢) فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٩١ ملخصا .

وبهذا يتبين الفرق بين هذه الأسماء الثلاثة : فالخالق : مبدع الأشياء على غير مثال سابق ، والبارىء ، موجد الأشياء ، ومظهرها إلى الوجود ، من أصل ومن غير أصل ، والمصور : الذى خص كل مخلوق بما يميزه عن الآخر ، وما تحصل به مصلحته ، كما قال تعالى : (الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) [١] ويظهر أن « البارىء » أخص من « الخالق » كما تقدم فى كلام الزجاج ما يشير إلى ذلك ، وإذا أضيف الخلق إلى الإنسان ، فمعناه التقدير ، ويأتى بمعنى الكذب .

★ ★ ★

(١) الآية ٥٠ من سورة طه .

٣٨ – قال « حدثنا إسحاق ، حدثنا عفان ، حدثنا وهيب ، حدثنا موسى – هو ابن عقبة – حدثنى محمد بن يحي بن حبان ، عن ابن محيريز ، عن أبى سعيد الخدرى ، فى غروة بنى المصطلق ، أنهم أصابوا سبايا ، فأرادوا أن يستمتعوا بهن ، ولايحملن ، فسألوا النبى ﷺ – عن العزل ، فقال : ماعليكم أن لاتفعلوا ، فإن الله قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة ، وقال مجاهد : عن فزعة ، سمعت أباسعيد ، فقال : قال النبى ﷺ : « ليست نفس مخلوقة ، إلا الله خالقها » .

* * *

« العزل » : هو إنزال الماء خارج فرج المرأة ، خوفا أن تحمل .

قال الحافظ : « هو النزع بعد الإيلاج لينزل خارج الفرج » [١] .

« قوله : ماعليكم أن لاتفعلوا » أى لايضركم عدم العزل ، لأن ماقدره الله – تعالى – من الخلق ، فلابد من وجوده ، عزل الإنسان أو لم يعزل ، يوضحه مافى رؤية مسلم فقال : « لاعليكم أن لاتفعلوا ، ماكتب خلق نسمة هى كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون » [٢] .

وفى قصة الرجل الذى سأل عن العزل ، عن جاريته ، فقال رسول الله – ﷺ : « إن ذلك لن يمنع شيئا أراده الله » [٢]

قال الحافظ : وفى رواية « لا عليكم أن لاتفعلوا » أى لاحرج عليكم أن لاتفعلوا العزل . ففيه نفى الحرج عن عدم الفعل ، فأفهم ثبوت الحرج فى فعل العزل .

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٣٠٥ .

(٢) مسلم مع النووى جـ ١٠ ص ١٠ .

ولو أراد نفى الحرج عن العزل لقال : « لا عليكم أن تفعلوا » [١] .

وفى مسلم لما ذكر هذا الحديث « قال محمد : وقوله : « لاعليكم » أقرب إلى النهى . ومحمد هذا هو ابن حاتم . وفيه أيضا وقال ابن عون : فحدثت به الحسن . فقال : والله لكأن هذا زجر » [٢] .

وقوله : « فإن الله قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة » . هذا يبين عدم فائدة العزل ، لأن كل نفس قدر الله – تعالى – خلقها ، لا بد أن يخلقها ، عزلتم أم لا ، ومالم يشأ خلقها ، لا يقع ولو لم يعزلوا ، فإن كان الله أراد أن يخلق فى تلك المقارنة وذلك الوقت ، فلابد من وجود ذلك ولو حرصتم كل الحرص على عدم الإنزال فى الرحم ، فلا غالب على أمره ، وهو الخالق وحده .

وهذا هو وجه استدلال البخارى فى الحديث ، فإن الله تعالى هو الخالق البارىء المصور وحده ، وأن كلا من الأب والأم ، لادخل لهما فى ذلك ، بل الله تعالى ، هو الذى يقدّر خلق هذا المخلوق شاء الناس ذلك أو لم يشاؤوا وأنه تعالى – هو بارىء النسمة من الذكر والأنثى ، أو مما يشاء ، والخلق كلهم لا يستطيعون فعل شىء من ذلك .

وهو تعالى ، المصور لهذا الإنسان ، السوى ، من نطفة متساوية الأجزاء لو اجتمع عليها أمهر الأطباء ، بكل ماأوتوا من علوم ، وآلات ، وإمكانيات لم يستطيعوا أن يصوروا منها شيئا حياً ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

فإن قيل : قد يتحكم الإنسان بالحمل إما بالعقاقير أو بوسائل أخرى . فجوابه أن ذلك من تقدير الله تعالى ، ولا يمكن أن يكون شىء خارجا عن مشيئته وتقديره ، وإذا أراد أن يخلق مخلوقاً فلا بد من وجوده ، وإن استعملت الوسائل المانعة لذلك .

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٣٠٧ .

(٢) مسلم مع النووى جـ ١٠ ص ١١ .

« قال ابن بطال : الخالق فى هذا الباب ، يراد به المبدع المنشىء لأعيان المخلوقين ، وهو معنى ، لايشارك الله فيه أحد » .

« وقال الكرمانى : « معنى قوله : إلا وهى مخلوقة ، أى مقدرة الخلق ، أو معلومة الخلق عند الله – تعالى – لابد من إبرازها إلى الوجود » (١) .

قال شيخ الإسلام : « والذى عليه جماهير المسلمين من السلف ، والخلق : أن الخلق غير المخلوق ، فالخلق فعل الخالق ، والمخلوق مفعوله ، ولهذا كان النبى ﷺ يستعيذ بأفعال الرب وصفاته ، كما فى قوله ﷺ :– « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك ، لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (٢) فاستعاذ بمعافاته كما استعاذ برضاه .

وقد استدل أئمة السنة كأحمد وغيره ، على أن كلام الله غير مخلوق ، بأنه استعاذ به ، فكذلك معافاته ورضاه غير مخلوقة ، لأنه استعاذ بهما ، والعافية القائمة ببدن الإنسان مخلوقة ، فإنها نتيجة معافاته » (٣) .

وسيأتى إن شاء الله تعالى بسط ذلك وإيضاحه فى محله .

★ ★ ★

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٩٢ .
(٢) تقدم تخريجه .
(٣) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٢٢٩ – ٢٣٠ .

قال : باب قول الله - تعالى -: « لماخلقت بيدى »

* * *

أراد رحمه الله - بهذه الترجمة بيان ما أثبته الله - تعالى - لنفسه ، من صفة اليدين ، وأثبته له رسوله - ﷺ - على ظاهر مانطقت به النصوص ، المتنوعة الدلالة فى ذلك ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

قال الله تعالى : (وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غُلَّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » (١) .

وقال - تعالى : (وماقدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) (٢) .

وقال تعالى : (يد الله فوق أيديهم) (٣) (بيدك الملك) (٤) (بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) (٥) فى آيات كثيرة ، وقد ذكر البخارى فى ذلك عدة أحاديث .

★ ★ ★

---

(١) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

(٣) جزء من الآية ١٠ من سورة الفتح .

(٤) فاتحة سورة الملك .

(٥) جزء من الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

٣٩ – قال : « حدثنى معاذ بن فضالة ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن أنس ، أن النبى ﷺ – قال : « يجمع الله المؤمنين يوم القيامة ، كذلك ، فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ، حتى يريحنا من مكاننا هذا .

فيأتون آدم ، فيقولون : ياآدم ، أما ترى الناس ؟ خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلَّمك أسماء كل شيء ، اشفع لنا إلى ربنا ، حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول : لست هناك ، ويذكر خطيئته التى أصاب ، ولكن ائتوا نوحا ، فإنه أول رسول بعثه الله ، إلى أهل الأرض ، فيأتون نوحا ، فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته التى أصاب ، ولكن ائتوا إبراهيم – خليل الرحمن – ، فيأتون إبراهيم فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطاياه التى أصاب ، ولكن ائتوا موسى ، عبدا آتاه التوراة وكلمه تكليما ، فيأتون موسى ، فيقول : لست هناكم ، ويذكر لهم خطيئته التى أصاب ولكن أئتوا عيسى – عبد الله ورسوله – وكلمته ، وروحه .

فيأتون عيسى ، فيقول : لست هناكم ، ولكن ائتوا محمداً ، عبداً غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ، فيأتونى ، فأنطلق ، فأستأذن على ربى ، فيؤذن لى ، فإذا رأيت ربى وقعت له ساجداً ، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى .

ثم يقال لى : ارفع محمد ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع .

فأحمد ربى بمحامد علمنيها ، ثم أشفع ، فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة ، ثم أرجع فإذا رأيت ربى وقعت ساجدا ، فيدعنى ماشاء الله أن

يدعنى ، ثم يقال : ارفع محمد ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأحمد ربى بمحامد علمنيها ربى ، ثم أشفع ، فيحد لى حداً ، فأدخلهم الجنة .

ثم أرجع فإذا رأيت ربى وقعت ساجداً ، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ثم يقال : ارفع محمد ، قل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأحمد ربى بمحامد علمنيها ، ثم أشفع ، فيحد لى حداً ، فأدخلهم الجنة .

ثم أرجع فأقول : ياربى مابقى فى النار إلا من حبسه القرآن ، ووجب عليه الخلود .

قال النبى – ﷺ –: يخرج من النار من قال : لاإله إلا الله ، وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة .

ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان فى قلبه من الخير مايزن برة .

ثم يخرج من النار ، من قال : لا إله إلا الله ، وكان فى قلبه ، مايزن من الخير ذرة »

* * *

هذا حديث الشفاعة المشهور ، وقد ذكره البخارى فى أماكن متعددة من جامعه . والمقصود منه هنا ، قوله : « خلقك الله بيده » حيث جعل ذلك ميزة لآدم من بين الخلق ، فدل على أن اليد هنا على ظاهرها ، يد ، حقيقة ، ولو كانت كما يقول أهل التأويل : أنها القدرة ، لم يكن لآدم اختصاص بذلك ، إذ الخلق كلهم مخلوقون بقدرة الله تعالى .

قوله : « يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك » قال الحافظ : « هكذا للجميع ، وأظن أول هذه الكلمة لام – أى لذلك – والإشارة ليوم القيامة ، أو لما يذكر بعد .

وعند مسلم : « يجمع الله المؤمنين ، يوم القيامة ، فيهتمون لذلك – وفى رواية « يلهمون لذلك » [١]

ومعنى : يهتمون ، ويلهمون متقارب – أى أنهم يعنون بسؤال الشفاعة وإزالة الكرب ، الذى هم فيه ، أو أن الله تعالى يلهمهم سؤال ذلك ، والإلهام : أن يلقى الله – تعالى – فى النفس أمراً يحمل على فعل الشىء أو تركه » [٢] .

قوله : « فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ، حتى يريحنا من مكاننا هذا » هذا هو الذى يهتمون له – أو يلهمونه – أى لو طلبنا ممن هو موجود معنا من الرسل الذين لهم مقام عند الله من يشفع لنا عند ربنا ، ليريحنا من عناء هذا الموقف وكرباته ، فيحاسبنا ربنا ، ويجزينا بأعمالنا ، ومانستحق ، ثم نصير إلى منازلنا .

قوله : فيأتون آدم » إلى عيسى ، وكلهم يعتذر ، ويذكر لهم ذنبه .

فآدم عليه السلام يقول : نهانى عن الأكل من الشجرة فعصيته ، ونوح – عليه السلام يقول : دعوت على قومى ، فأغرقوا ، وسألت ما ليس لى به علم ، وإبراهيم عليه السلام يقول : كذبت ثلاث كذبات ، مع أنهن فى سبيل الله ، وهن : قوله : (بل فعله كبيرهم هذا) وقوله : (إنى سقيم) وقوله : للظالم العنيد لما سأله عن زوجته ، قال إنها أختى ، لأنها أخته فى الإسلام ، ولو قال : إنها زوجته لأخذها منه ذلك الظالم .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٩٤ .

(٢) النووى على مسلم جـ ٣ ص ٥٣ .

وموسى – عليه السلام – يقول : قتلت نفسا بغير حق ، ولم يذكر لعيسى عليه السلام ذنباً ، وهذا كله مع قوله عيسى عليه السلام « ولكن ائتوا محمداً عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه ، وما تأخر » يدل على وقوع الذنوب من الأنبياء ، وهؤلاء المذكورون هم أفضل الأنبياء ، وهى مسألة مشهورة ، ولا خلاف أن الكفر بعد النبوة غير واقع منهم ، كما أنه لا خلاف فى عصمتهم فيما يبلغونه عن طريق القول . وأما الفعل ، فقد يقع منهم السهو أو النسيان ، أو الخطأ الذى لايقرون عليه كما أنهم محفوظون من الذنوب ، التى تزرى بفاعلها ، وتسقط مروءته .

وأما الصغائر فجائز وقوعها منهم ، كما دل عليه هذا الحديث فى الجملة ، وغيره من النصوص الكثيرة . والله أعلم . وقد تطرف بعض شراح الكتاب وزعم أن من قال بهذا أنه كافر .

ويدل على عظم الأمر ، كيف اعتذر من هم أفضل البشر عن الشفاعة معتلين بذنوب ، أكثر الخلق لايعدها ذنوبا ، وهم قد تابوا منها ، واستغفروا ربهم فغفر لهم . وهذا يدل على عظم الله وعظيم قدره فى قلوبهم ، وعلى صعوبة الموقوف بين يدى الله وشدته ، فهل يفهم هذا من يهرع إلى قبور الموتى يطلبون منهم مالايطلبه أولوا العزم من الرسل .

وقول كل واحد منهم : « لست هناكم » أى لست كما تظنون أنى أستطيع أن أشفع لكم ، فليس ذلك عندى .

قوله : « فأنطلق ، فاستأذن على ربى ، فيؤذن لى عليه » يدل على أنه – ﷺ – يقصد مكانا معينا ، يرى فيه ربه ، وسيأتى فى باب الرؤية فى هذا الحديث « فأستأذن على ربى فى داره » وقد قيل : إن المراد بداره هنا الجنة . فالله أعلم .

قوله : « فإذا رأيت ربى وقعت له ساجداً » صريح فى أن الرسول – ﷺ – يرى ربه عيانا فى ذلك الموقف ، وسيأتى ذلك إن شاء الله تعالى .

قوله : « فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ، ثم يقال لى : ارفع محمد ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع » أى أن الله تعالى يمهل له فى السجود ، فيبقى ساجدا وقتا طويلا ، يسبح ربه ، ويمجده ، ويثنى عليه ، ويحمده ، فلا يرفع رأسه من سجوده حتى يأمره الله تعالى برفعه ، ثم يأذن له – تعالى – بأن يطلب من ربه مراده وقد علم الله مقصده ، ولهذا قال له : واشفع تشفع ، وهذا كله من رحمته تعالى . فهو الذى ألهم عباده طلب الشفاعة من الأنبياء ، وهو الذى أذن فى الشفاعة وقبلها ، وحقيقة الأمر هو إرادة الله تعالى رحمة الخلق وإراحتهم من عناء الموقف ، وإظهار كرامة محمد ﷺ للخلق فى ذلك الموقف العظيم ، وإلا فالشفاعة كلها لله .

قوله : « فأحمد ربى بمحامد علَّمنيها » قد تقدم أن هذا يدل على عدم حصر أسماء الله الحسنى ، فى تسع وتسعين ، لأن هذه المحامد بأسمائه الحسنى وصفاته العليا . وقد جاء فى الرواية الأخرى : « فيفتح الله عليّ من المحامد والثناء مالا أحسنه الآن » .

قوله : « ثم أشفع ، فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة » أى أن الله تعالى يعين له من يشفع فيهم ، وهذا من الأدلة الواضحة على أن الرسول – ﷺ – لا يشفع فيمن يريد ، بل لمن يأذن الله له فى الشفاعة فيهم ، وبذلك يتبين أن الشفاعة لله جميعا ، كما صرحت بذلك آيات من كتاب الله تعالى : قال تعالى : (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لايملكون شيئا ولا يعقلون . قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون) [1] .

وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ، ولا فى الأرض ، ومالهم فيهما من شرك ، وماله منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا من أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا

---

(١) الآيتان ٤٣ و ٤٤ من سورة الزمر .

الحق وهو العلى الكبير) [١] .

بهذه الآية يتبين أن المدعو يجب أن يكون مالكا لما يدعى من أجله ، وإلا كانت دعوته ضلالاً مبينا ، فإن لم يكن مالكا يكون مشاركا للمالك ، فإن انتفى الأمران ، يكون معاونا ، وظهيرا مساعدا للمالك فإن لم يكن ذلك ، فلا أقل من أن يكون شافعا مقبول الشفاعة عند من يملك المطلوب ، فنفى الله – تعالى – عن المدعوين من دونه هذه الأمور الأربعة ، وبين أن الشفاعة لا تنفع إلا بعد إذنه ، وهو جل وعلا ، لا يأذن فى الشفاعة إلا لمن رضى عمله ، وهم أهل الإخلاص ، ومتابعة الرسول . وهو تعالى لا يرضى عن المشرك ، الذى يدعو غير الله تعالى .

فيجب على العاقل الذى تعز عليه نفسه أن لايغتر بما اغتر به كثير من الناس الذين يعتمدون على الشفاعة ، مع ماهم فيهم من المعاصى ، فأفضل الشفعاء يحد الله له حدا ، يقول : هؤلاء اشفع فيهم .

قوله : « فأقول : يارب مابقى إلا من حبسه القرآن ، ووجب عليه الخلود » – أى أن أهل التوحيد الذين استحقوا دخول النار بذنوبهم قد خرجوا منها بالشفاعة التى حقيقتها رحمة الله إياهم ، بواسطة الشفاعة ليظهر كرامة الشافع كما تقدم ، وبقى من نص القرآن على أنه من أهل النار ، الذين لا تنالهم شفاعة الشافعين .

قوله : « يخرج من النار من قال : لاإله إلا الله ، وكان فى قلبه من الخير مايزن شعيرة إلى قوله – مايزن برة » يدل على أن مجرد قول لا إله إلا الله ، من دون أن يقوم فى القلب شيء من الإيمان ، لا ينفع ، ولا يخرج من النار ، فالمقصود بالخير ، الإيمان الذى يقوم فى القلب ، وإن قلّ .

كما أنه يدل دلالة واضحة على تفاوت الإيمان وتفاضله ، وأن أهل الكبائر من المؤمنين يدخل من يدخل منهم النار ثم يخرجون منها . والله أعلم .

★ ★ ★

---

(١) الآيتان ٢٢ و ٢٣ من سورة سبأ .

٤٠ – قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « يد الله ملآى ، لايغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، وقال : أرأيتم ماأنفق منذ خلق السماوات والأرض ، فإنه لم يغض مافى يده .

وقال : عرشه على الماء ، وبيده الأخرى الميزان ، يخفض ، ويرفع » .

* * *

جاء فى أول هذا الحديث فى تفسير سورة هود (أنفق أنفق عليك) (١)

وسيأتى كذلك ، فى باب قوله تعالى : (يريدون أن يبدلوا كلام الله) .

وهو عند مسلم بلفظ « أن الله قال لى : أنفق أنفق عليك – وقال رسول الله ﷺ –: « يمين الله ملآى » إلى آخره (٢) .

وسيأتى فى باب « وكان عرشه على الماء » . بلفظ : « إن يمين الله ملآى ، لايغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ماأنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم ينقص مافى يمينه ، وعرشه على الماء ، وبيده الأخرى الفيض – أو القبض يرفع ويخفض » وهو أبلغ فى الدلالة على إثبات اليدين لله تعالى من ماهاهنا .

وقد اضطرب أهل التأويل فى تأويلهم اليد اضطرابا يدل على أنهم على باطل .

والعاقل المنصف يعجب إذا رأى ماكتبه ابن حجر فى شرحه لهذا الباب ،

---

(١) انظره مع الفتح جـ ٨ ص ٣٥٢ .

(٢) انظر مسلم جـ ٢ ص ٦٩١ الحديث رقم ٣٧ ، وص ٦٩٠ الحديث رقم ٣٦ .

فإنه ذكر بعض أقوال أئمة الأشعرية ، ثم قال : « واليد فى اللغة تطلق لمعان كثيرة ، اجتمع لنا منها خمسة وعشرون معنى » [١] . والنصوص فى هذا الباب جاءت معينة معنى واحدا لاغير هو يدا الله الكريمتين ، وماعدا ذلك فهو بهتان عظيم .

قوله : « يد الله ملآى » ذكرنا أنها عند مسلم ، وعند البخارى فى مواضع غير هذا بلفظ « يمين الله » بدل : يد الله ، قال الحافظ : « يتعقب بهذه الرواية على من فسر اليد بالنعمة ، وأبعد منه من فسرها بالخزائن » [٢]

قلت : هذا التفسير باطل ، ولا يصح أن يسمى تفسيرا ، وإنما هو تحريف للكلام عن مواضعه ، كفعل اليهود ، كما سيأتى بيان ذلك إن شاء الله تعالى .

و « ملآى » بفتح الميم ، وسكون اللام ، وهمزة ، مع القصر ، أى أنها شديدة الامتلاء بالخير .

قوله : « لايغيضها » أى لا ينقصها ، يقال غاض الماء ، يغيض إذا نقص .

قوله : « سحاء » بفتح السين والحاء المشددة ، ممدودا ، أى دائمة الصب .

« الليل والنهار » منصوبان على الظرفية – أى يد الله دائمة السح فى الليل والنهار .

قوله : « أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض » ؟ استدلال ، وإيضاح لكثرة نفقته تعالى . وتنبيه لمن له بصيرة إلى ذلك .

قوله : « فإنه لم يغض مافى يده » . أى هذا الإنفاق الهائل ، المستمر الدائم بدون توقف ، لم ينقص مافى يده – تعالى – لأن بيده الخير كله ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لمن منعه ، وإذا أراد شيئا قال له : كن ، فيكون .

قوله : « وعرشه على الماء » . قال الحافظ : « مناسبة ذكر العرش هنا ، أن

---

(١) انظر فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٩٤ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٣٩٥ .

السامع يتطلع من قوله « منذ خلق السماوات والأرض » ماذا كان قبل ذلك ؟ فذكر أن عرشه قبل خلق السماوات والأرض ، كان على الماء » [(١)]

قوله : « وبيده الأخرى ، الميزان ، يخفض ، ويرفع » . الميزان : العدل ، الذى به يرفع من يكون أهلا لأن يرفع ، ومن هو موضع له . فيتفضل عليه برفعه بالإيمان وقبول الحق ، بأن يحبب إليه الإيمان ، ويزينه فى قلبه ، ويكره إليه الكفر والفسوق ، والعصيان ، ويجعله من الراشدين ، وهذا أعظم الرفع . ويخفض من ليس أهلا لذلك ، بأن يمنع فضله عنه ، ويكله إلى نفسه ، فيضل ويتولاه عدوه ، فيصبح خاسرا ، وهذا أعظم الخفض ، لأنه يصير إلى أسفل سافلين ، فى جهنم . نعوذ بوجه الله منها ، وأمور الدنيا تبع لذلك .

« قال الطيبى : يجوز أن يكون « ملآى » و « لايغيضها » و « سحاء » و « أرأيتم » أخبار مترادفة ليد الله ، ويجوز أن تكون الثلاثة أوصافا « لملآى » ويجوز أن يكون « أرأيتم » استئنافا ، فيه معنى الترق ، كأنه لما قيل : « ملآى » [خشى] إيهام جواز النقصان ، فأزيل بقوله : « لايغيضها » ، وقد يمتلىء الشيء ولايغيض ، فقيل : « سحاء » إشارة إلى الفيض ، وهو كثرة العطاء — وقرنه بما يدل على الاستمرار ، من ذكر الليل والنهار ، ثم أتبعه بما يدل على أن ذلك ظاهر غير خافٍ على ذى بصرٍ وبصيرة ، بقوله : « أرأيتم ماأنفق منذ خلق السماوات والأرض » وهذا الكلام إذا أخذته بجملته أبان عن زيادة الغنى ، وكمال السعة والجود ، والبسط فى العطاء » [(٢)] .

قلت : الاستدلال بهذا الحديث على ثبوت اليدين لله تعالى ، حقيقة ظاهر جدا . وسيأتى تقرير ذلك إن شاء الله فى آخر الباب .

★ ★ ★

---

(١) المصدر المذكور .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٣٩٥ .

٤١ – قال : « حدثنا مقدم بن محمد ، قال : حدثنى عمى ، القاسم ابن يحي ، عن عبيد الله ، عن نافع ، عن ابن عمر – رضى الله عنهما – عن رسول الله – ﷺ – أنه قال : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرض ، وتكون السماوات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك » . رواه سعيد عن مالك .

* * *

القبض : « إمساك الشيء بجميع كف اليد ، فقبض اليد على الشيء جمعها بعد تناوله » (١) فقبض الشيء هو جمعه فى الكف .

فقوله : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرض » أى يجمعها بيده ، فتكون فى قبضته كما قال تعالى : (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) .

وقوله : « وتكون السماوات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك » أى أنه تعالى يطوى السماوات بيده اليمنى ، والأرض مقبوضة بيده الأخرى ، وأنه يهزهن ثم يقول :– يعظم نفسه – أنا الملك – أى الذى يتصرف فى كل شيء كيف يشاء ، لايشاركه فى ذلك أحد ، ولهذا جاء فيه : أنه – تعالى – إذا قبضهن ، يهزهن ، ويقول : أنا الملك أنا الملك ، أين ملوك الدنيا » ؟

وهذا الحديث مطابق لقوله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) (٢)

وفيه الدليل الواضح على ثبوت اليدين لله – تعالى – وهو نص لا يقبل تأويلا . ولهذا صارت تأويلات المعطلين ليدى رب العالمين ، شبه اللعب فى كلام الله وكلام رسوله ، الذى يترفع عنه العقلاء ، فضلا عن أهل التقى .

★ ★ ★

---

(١) انظر المفردات للراغب ص ٣٩١ .

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

٤٢ – قال : « وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب ، عن الزهرى ، أخبرنى أبو سلمة ، أن أبا هريرة قال : قال رسول الله – ﷺ : « يقبض الله الأرض »

* * *

تقدم تفسير القبض . وهذا الحديث مر فى باب قوله تعالى : (ملك الناس) .

★ ★ ★

٤٣ – قال : « حدثنا مسدد ، سمع يحي بن سعيد ، عن سفيان ، حدثنى منصور ، وسليمان عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن عبد الله ، أن يهوديا جاء إلى النبى – ﷺ – فقال : يامحمد ، إن الله يمسك السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر على إصبع ، والخلائق على إصبع ، ثم يقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله – ﷺ – حتى بدت نواجذه ، ثم قرأ (وماقدروا الله حق قدره) [1] » .

وقال يحي بن سعيد : وزاد فيه فضيل بن عياض ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن عبد الله : « فضحك رسول الله – ﷺ – تعجبا وتصديقا له »

* * *

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

٤٤ – قال : « حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبى ، حدثنا الأعمش ، سمعت إبراهيم قال : سمعت علقمة يقول : قال عبد الله : جاء رجل إلى النبى – ﷺ – من أهل الكتاب ، فقال : ياأبا القاسم ، إن الله يمسك السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر والثرى على إصبع ، والخلائق على إصبع ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الملك ، فرأيت النبى – ﷺ – ضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قرأ : (وما قدروا الله حق قدره) [١] .

* * *

هذا الحديث يدل على عظمة الله – تعالى – حيث يضع السموات كلها على إصبع من أصابع يده ، الكريمة العظيمة ، وعدَّد المخلوقات المعروفة للخلق بالكبر والعظمة ، وأخبر أن كل نوع منها يضعه – تعالى – على إصبع ، تعالى – لوضع السموات والأرضين ومن فيهن على إصبع واحدة من أصابع يده – جل وعلا – .

وهذا من العلم الموروث عن الأنبياء المتلقى عن الوحى من الله – تعالى – ، ولهذا صدقه رسول الله – ﷺ – بل وأعجبه ذلك وسُرَّ به ، ولهذا ضحك حتى بدت نواجذه ، تصديقاً له ، كما قال عبد الله بن مسعود ، ولا التفات إلى قول من تبنى التعطيل ، وصار نصيبه من معرفة هذه الأوصاف الكريمة العظيمة ، التى تعرف الله بها إلى عباده – هو مايعرفونه من أنفسهم . فحملهم ذلك على تعطيل الله – تعالى – من هذه الأوصاف ، مرة برد هذه النصوص ، والطعن فى رواتها بلا حجة سوى روايتهم لها ، ومرة بتأويلها التأويل الباطل ، الذى يخرجها عن مراد المتكلم بها . « قل أأنتم أعلم أم الله » .

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

هذا وقد تنوعت النصوص من كتاب الله – تعالى – وسنة رسوله – ﷺ – على إثبات اليدين لله – تعالى – وإثبات الأصابع لهما ، وإثبات القبض بهما وتثنيتهما ، وأن إحداهما يمين كما مر ، وفى نصوص كثيرة – والأخرى شمال كما فى صحيح مسلم (١) ، وأنه – تعالى – يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، وبالنهار ليتوب مسىء الليل (٢) ، وأنه – تعالى – يتقبل الصدقة من الكسب الطيب بيمينه فيربيها لصاحبها (٣) وأن المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين (٤) ، وغير ذلك مما هو ثابت عن الله ورسوله . وسأذكر شيئاً يسيراً من ذلك إن شاء الله . وبعضه يكفى المؤمن المريد للحق .

وهذا الذى أشرت إليه كله يمنع تأويل اليدين بالنعمة أو القوة ، أو الخزائن ، أو القدرة ، أو غير ذلك ، ويجعل التأويل فى حكم التحريف ، بل هو تحريف .

وقد آمن المسلمون بهذه النصوص ، على ظاهرها ، وقبلوها ، ولم يتعرضوا لها بتأويل تبعاً لرسول الله – ﷺ – وصحابته ، وأئمة الهدى ، بل وكل من قبل ماجاءت به الرسل ، وآمن به .

قال الإمام ابن خزيمة معلقاً على هذا الحديث : « معناه أن الله – جل وعلا – يمسك ماذكر فى الخبر على أصابعه ، على مافى الخبر سواء ، قبل تبديل الله الأرض غير الأرض ، لأن الإمساك على الأصابع غير القبض على الشىء ، وهو مفهوم فى اللغة التى خوطبنابها ، لأن الإمساك على الشىء بالأصابع ، غير القبض

---

(١) سيأتى ذكره بعد قليل .

(٢) سيأتى تخرجه .

(٣) سيأتى ذكره بعد قليل .

(٤) سيأتى ذكره فى هذا الباب .

على الشيء » (١) قال الحافظ فى شرحه لهذا الحديث : « زاد ابن خزيمة ، عن محمد ابن خلاد ، عن يحيى بن سعيد القطان ، عن الأعمش ، فذكر الحديث ، قال محمد : عدها علينا يحيى بأصابعه وكذا أخرجه أحمد فى السنة ، عن يحيى بن سعيد ، وقال : وجعل يحيى يشير بأصبعه يضع إصبعا على أصبع ، حتى أتى على آخرها ، قال :

ورواه الخلال فى كتاب السنة ، عن أبى بكر المروزى ، عن أحمد . وقال : ورأيت أبا عبد الله يشير بإصبعٍ إصبع » (٢)

قلت : تبعوا فى ذلك ماوقع من الحبر الذى حدث رسول الله - ﷺ - حيث كان يشير بأصابعه ولم ينكر عليه رسول الله - ﷺ - بل أقره ، وصدقه .

فهذه النقول عن هؤلاء المذكورين من السلف ، تدل على أنهم فهموها على ظاهرها ، وأنها أصابع حقيقة .

قال عبد الله بن الإمام أحمد : « قال أبى : قال يحيى : قال فضيل بن عياض ... فضحك رسول الله تعجباً وتصديقاً ، سمعت أبى يقول : حدثنى يحيى ابن سعيد ، بحديث سفيان ، عن الأعمش ، ومنصور ، عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن عبد الله ، عن النبى - ﷺ - : « إن الله يمسك السموات على إصبع » .

قال أبى : وجعل يحيى يشير بأصابعه ، وأرانى أبى كيف جعل يحيى يشير بأصابعه . يضع إصبعا إصبعا حتى أتى على آخرها » (٣) .

وفى الترمذى عن ابن عباس ، قال : مرَّ يهودى بالنبى - ﷺ - فقال له - النبى - ﷺ -: يايهودى حدثنا ، فقال : كيف تقول ياأبا القاسم : إذا

---

(١) كتاب التوحيد ص ٧٩ .

(٢) فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٩٧ .

(٣) كتاب السنة ص ٥٤ .

وضع الله السموات على ذه والأراضين ، على ذه ، والماء على ذه ، والجبال على ذه ، وسائر الخلق على ذه ؟

وأشار محمد بن الصلت – أبو جعفر – بخنصره أولاً ، ثم تابع حتى بلغ الإبهام فأنزل الله : (وماقدروا الله حق قدره) وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح » (١)

ورواه ابن جرير فى تفسيره . وسنده حسن (٢) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : « حدثنى أبى ، حدثنا حسين بن حسن ، حدثنا أبو كريبة ، عن عطاء ، عن أبى الضحى ، عن ابن عباس ، قال : مَرَّ يهودى برسول الله – ﷺ – وهو جالس ، قال : كيف تقول ياأبا القاسم : يوم يجعل الله السماء على ذه – وأشار بالسبابة – والأرضين على ذه ، والماء على ذه ، والجبال على ذه ، وسائر الخلائق على ذه – وجعل يشير بأصابعه – فأنزل الله : (وماقدروا الله حق قدره) .

حدثنى عبد الله بن عمر ، حدثنا عمران بن عيينة ، عن عطاء بن السائب ، عن أبى الضحى ، عن ابن عباس ، قال : مَرَّ يهودى على النبى – ﷺ – فقال له النبى – ﷺ –: يايهودى خوِّفنا ، فقال : ياأبا القاسم كيف بيوم تكون الأرضون على هذه ، والسموات على هذه ، والماء على هذه ، والخلق على هذه – يعنى أصابعه ، ثم قرأ رسول الله – ﷺ – (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه) (٣) .

فمثل هذه الأحاديث هى مسند السلف فى الإشارة بالأصابع ، تحقيقاً لإثبات أصابع الرحمن – جل وعلا – ، وقدوتهم رسول الله – ﷺ – .

---

(١) سنن الترمذى جـ ٥ ص ٤٩ .

(٢) انظر تفسير الطبرى جـ ٢٤ ص ٢٦ .

(٣) كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد ص ٥٥ .

وهذه النصوص التى فيها ذكر الأصابع تدل دلالة قاطعة – عند المؤمنين الذين يحكمون الشرع – على ثبوت اليدين لله – تعالى – ، وقد تنوعت الدلائل على ذلك – كما أشرنا إليه آنفا – من ذكر الأصابع ، والقبض ، والبسط ، والتثنية ، وذكر اليمين والشمال .

ففى الموطأ ، والترمذى ، وسنن أبى داود : أن رسول الله – ﷺ – قال : « إن الله – تبارك وتعالى – خلق آدم ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذريته » (١) ورواه أحمد

وفى الترمذى وسنن أبى داود مرفوعا « أن الله – تبارك وتعالى – خلق آدم من قبضة ، قبضها من جميع الأرض » (٢) .

وفيه أيضا من حديث أبى هريرة مرفوعا ، فى حديث طويل فى خلق آدم ، وفيه : « فقال الله له : ويداه مقبوضتان ، اختر أيهما شئت ، قال : اخترت يمين ربى ، وكلتا يدى ربى يمين ، مباركة ، ثم بسطها ، فإذا فيها ذريته » (٣)

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر ، قال : قال رسول الله – ﷺ – : « يطوى الله – عز وجل – السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » (٤) .

وفيه أيضا عنه مرفوعا ، « قال : يأخذ الله – عز وجل – سماواته ، وأرضيه

---

(١) الموطأ جـ ٢ ص ٨٩٨ – ٨٩٩ ، والترمذى فى التفسير رقم ٣٠٧٧ ، وسنن أبى داود فى السنة رقم ٤٧٠٣ ، والمسند جـ ١ ص ٣٢٤ .

(٢) الترمذى رقم ٢٩٤٨ فى التفسير ، وأبو داود فى السنة فى القدر رقم ٤٦٩٣ .

(٣) سنن الترمذى فى التفسير فى باب من سورة المعوذتين رقم ٣٣٦٥ . وابن خزيمة فى التوحيد ص ٦٧ .

(٤) مسلم جـ ٤ ص ٢١٤٨ رقم ٢٧٨٨ .

بيديه فيقول : أنا الله ، ويقبض أصابعه ، ويبسطها – أنا الملك ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه ، حتى إنى لأقول أساقط هو برسول الله – ﷺ – » (١) ورواه أحمد .

وفيه أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله – ﷺ –: « إن المقسطين عند الله ، على منابر من نور ، عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهم ، وأهليهم ، وما ولوا » (٢) .

وفيه أيضاً من حديث أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ –: « وماتصدق أحد بصدقة ، من طيب ، ولايقبل الله إلا الطيب ، إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة ، فتربو فى كف الرحمن ، حتى تكون أعظم من الجبل ، كما يربى أحدكم فلوه ، أو فصيله » (٣) .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة ، قال : قال رسول الله – – ﷺ : « من تصدق بعدل تمرة ، من كسب طيب ، ولايقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبها ، كما يربى أحدكم فلوه ، حتى تكون مثل الجبل » (٤) .

وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة ، قال رسول الله – ﷺ – : « ينزل الله فى السماء الدنيا ، لشطر الليل ، أو لثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ أو يسألنى فأعطيه ؟ ثم يبسط يديه – تبارك وتعالى – يقول : من يقرض غير عدوم ، ولاظلوم » (٥) .

---

(١) صحيح مسلم الموضع المذكور وانظر المسند جـ ٢ ص ٧٢ ، ٨٧ ، ٨٨ .
(٢) مسلم جـ ٣ ص ١٤٥٨ رقم ١٨٢٧ .
(٣) مسلم جـ ٢ ص ٧٠٢ رقم ١٠١٤ .
(٤) انظر البخارى مع الفتح جـ ٣ ص ٢٧٨ و جـ ١٣ ص ٤١٥ ، ومسلم جـ ٢ ص ٧٠٢ ، وابن خزيمة فى التوحيد ص ٦١ – ٦٣ .
(٥) مسلم جـ ١ ص ١٧٦ ، وابن خزيمة فى التوحيد عن عبد الله بن مسعود ص ٥٨ .

وفيه من حديث المغيرة بن شعبة فى سؤال موسى ربه ، عن أدنى أهل الجنة منزلة . قال : « رب فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدى ، وختمت عليها ، فلم ترعين ، ولم تسمع أذن » (١)

وفى الصحيحين مرفوعا من حديث أبى سعيد الخدرى . قال النبى - ﷺ - : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة ، يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته فى السفر ، نزلا لأهل الجنة » (٢) .

وفيهما من حديث أبى هريرة ، قال رسول الله - ﷺ -: « واحتج آدم وموسى فقال موسى : ياآدم أنت أبونا ، خيبتنا ، وأخرجتنا من الجنة . فقال آدم : أنت موسى ، اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك بيده ، أتلومنى على أمر قدره الله على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة » (٣) .

وفى رواية لمسلم « احتج آدم وموسى عند ربهما ، فحج آدم موسى ، قال موسى : أنت آدم الذى خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته » (٤)

وروى البيهقى فى الأسماء والصفات بسنده « أن النبى - ﷺ - قال : « لماخلق الله - تعالى - آدم وذريته ، قالت الملائكة : يارب خلقتهم يأكلون ويشربون ، وينكحون ، ويركبون ، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة ، فقال الله - تعالى - : لاأجعل من خلقته بيدى ، ونفخت فيه من روحى كمن قلت له : كن فيكون » (٥) .

---

(١) مسلم جـ ١ ص ١٧٦ ، وابن خزيمة فى التوحيد ص ٦٩ - ٧٠ .

(٢) البخارى مع الفتح جـ ١١ ص ٣٧٢ ، ومسلم جـ ٤ ص ٢١٥١ رقم ٢٧٩٢ .

(٣) البخارى مع الفتح جـ ١١ ص ٥٠٥ ، ومسلم جـ ٤ ص ٢٠٤٢ .

(٤) مسلم جـ ٤ ص ٢٠٤٣ .

(٥) الأسماء والصفات ص ٣١٧ .

وروى بسند حسن ، عن أنس ، قال : قال رسول الله – ﷺ –: « خلق الله – تعالى – جنة عدن ، وغرس أشجارها بيده ، فقال لها : تكلمى ، فقالت : قد أفلح المؤمنون » [١] .

ورواه ابن جرير موقوفا [٢] ، وذكره الحافظ ابن كثير ، عن ابن أبى الدنيا مرفوعا [٣]

وقال ابن جرير فى قوله – تعالى – : (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) يقول – تعالى ذكره – والأرض كلها قبضته فى يوم القيامة ، والسموات كلها « مطويات بيمينه » ثم روى عن ابن عباس ، قال : « ماالسموات السبع ، والأرضون السبع فى يد الله إلا كخردلة فى يد أحدكم » .

وروى عن ربيعة الجرشى قال : « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » قال : ويده الأخرى خلو ليس فيها شىء .

وعن ابن عباس ، قوله : (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) يقول : قد قبض الأرضين ، والسموات جميعا بيمينه ، ألم تسمع أنه قال : « مطويات بيمينه » يعنى الأرض والسموات جميعا ، قال ابن عباس : وإنما يستعين بشماله المشغولة يمينه » .

وعن الحسن : « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة » قال : كأنها جوزة بقضها وقضيضها »

حدثنا الربيع ، قال حدثنا ابن وهب ، قال : أخبرنى أسامة بن زيد ، عن أبى حازم ، عن عبد الله بن عمر ، أنه رأى رسول الله – ﷺ – على المنبر ، يخطب الناس فمر بهذه الآية : (وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم

---

(١) المصدر المذكور ص ٣١٨ .

(٢) تفسير الطبرى مفتتح الجزء ١٨ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٤٥٥ ط الشعب .

القيامة) فقال رسول الله – ﷺ –: « يأخذ السموات ، والأرضين السبع فيجعلها فى كفه ، ثم يقول بهما ، كما يقول الغلام بالكرة ، أنا الله الواحد ، أنا الله العزيز ، حتى لقد رأينا المنبر ، وإنه ليكاد أن يسقط به » [(١)]

وذكر أحاديث ، وآثاراً فى هذا .

والأحاديث ، والآثار عن السلف فى ذلك كثيرة .

وروى ابن ماجه ، قال فى الزوائد وسنده صحيح ، والإمام أحمد ، عن النواس بن سمعان ، قال : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : مامن قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه » [(٢)] .

وبهذا وغيره كثير لم نذكره ، يعلم خطأ الخطابى ، وفريق أهل التأويل قطعا حيث يقول : « لم يقع ذكر الإصبع فى القرآن ، ولا فى حديث مقطوع به .

وقد تقرر أن اليد ليست بجارحة ، حتى يتوهم من ثبوتها ثبوت الأصابع ، بل هو توقيف ، أطلقه الشارع ، فلا يكيف ، ولا يشبه ، ولعل ذكر الأصابع من تخليط اليهودى ، وأما ضحكه – ﷺ – من قول الحبر ، فيحتمل الرضا والإنكار ، وأما قول الراوى : « تصديقا له » فظن منه وحسبان » [(٢)] .

ونحن نجيبه بما أجاب به عبد الله بن مسعود ، لما قيل له : إن المنع من تعليق التميمة ليس فى كتاب الله .

فنقول : بلى إن ذكر الأصابع قد وقع فى القرآن ، لأن الله – تعالى – : يقول فيه : (وما آتاكم الرسول فخذوه) . وقد أتانا – ﷺ – بذكر الأصابع ،

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢٤ ص ٢٧ – ٢٨ .

(٢) سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٧٢ رقم ١٩٩ ، والمسند جـ ٤ ص ١٨٢ ، والآجرى فى الشريعة ص ٣١٧ ، والحاكم جـ ٤ ص ٣٢١ ، وابن أبى عاصم فى السنة جـ ١ ص ٩٨ ، وذكر عدداً من الأحاديث بهذا اللفظ .

(٣) من الفتح جـ ١٣ ص ٣٩٨ .

وذكر الكف ، وذكر اليمين ، والشمال ، واليدين مرة مثناة ، ومرة منصوص على واحدة أنه يفعل بها كذا وكذا ، وأن الأخرى فيها كذا ، كما تقدمت النصوص بذلك . وهو تبع لأهل الكلام – المذموم – ينكر وصف الله – تعالى – باليدين حقيقة ، مع أن القرآن قد جاء بذلك صراحة ، كما قال– تعالى – : (ياإبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) [١] (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه) [٢] (بل يداه مبسوطتان) [٣] . وهو مع ذلك لايقبله ، لأنه على خلاف ما تلقاه عن أهل البدع ، ولهذا نراه – عفاالله عنا وعنه – يحاول رد النصوص بدون حجة ، وكل مايمكن أن يعتمد عليه هو – وكل من سلك مسلكه – من أهل التأويل ادعاؤهم أن العقل بخلاف ذلك وأنه محال فى العقل – وهو أمر غير منضبط ، كما سنشير إليه – إن شاء الله – ودعوى بدون برهان .

قوله : « ولا حديث مقطوع به » . هذا عجيب من الخطابى – الذى كثر اشتغاله بالحديث تأليفا ، ورواية ، وشرحا لمتونه ، وأسانيده ، ثم يقول هذا القول ، الذى هو عنوان لأهل البدع ، فهم كلما ألجأتهم الحجج إلى المضائق رموها بهذه الدعوى – « أنها أدلة غير مقطوع بها » – .

فإذا كانت أحاديث الرسول – ﷺ – مع ثبوت أسانيدها غير مقطوع بها ، فماهى الحجج المقطوع بها فى نظر هؤلاء ؟ هل هى أقوال أقوام متهمين على الدين الإسلامى ؟ – وتحوم حولهم شكوك كثيرة ؟ كالجعد بن درهم ، وجهم ابن صفوان ، وبشر المريسى ، وأحمد بن أبى دؤاد ، وابن الثلجى ونحوهم ، فإن هؤلاء هم سلف متأخرى الأشعرية فى تأويلاتهم .

وإننا نربأ بالخطابى أن يسلك هذا المسلك المنحرف عن الهدى .

---

(١) الآية ٧٥ من سورة ص .

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

(٣) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

وهذا دليل على ضعف مسلك التأويل فى هذه النصوص ، وأنه غير مقنع .
ثم هو يقصد بقوله : غير مقطوع به . عدم التواتر ، لأنه لايقبل من الحديث فى باب الصفات إلا ماكان فى القرآن ، أو تواتر عن الرسول - ﷺ - كما ذكر ذلك عنه شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد علم أن القرآن جاء بصفة اليدين لله صراحة .

ومعلوم أن الصحابة ومن سلك نهجهم لم يفرقوا بين أصول الدين وفروعه فى الثبوت ، ومعظم الدين الإسلامى ثبت بأخبار الآحاد .

وهذه الصفات التى ينكرها هؤلاء ، قد ثبتت فى أحاديث مقطوع بصحتها عند أهل العلم ، وإذا صح الحديث وجب قبوله ، والعمل به ، والإيمان بما دل عليه وحرمت مخالفته .

ولا فرق بين كونها فى العمليات ، أو الاعتقادات ، خلافا لأهل البدع الذين يفرقون بين ذلك .

ومعلوم أن الذى جاء بهذه النصوص - فى الصفات - هو الذى جاء بالأمر بعبادة الله ، وتحريم الشرك ، وبيان عدد ركعات الصلوات الخمس ، وأنصباء الزكاة ، وبيان واجبات كثيرة ، ومحرمات كثيرة لم يأت تفصيلها فى القرآن ، ولا فى أخبار متواترة ، فلماذا يقبل هذا ، ويرد ذاك ؟ إن هذا التفريق فعل الذين جعلوا دينهم شيعا ، وآمنوا ببعض ، وكفروا ببعض .

وقد تقدم ما فيه كفاية لمن قصده الحق من ذكر النصوص فى هذه المسألة وغيرها من مسائل الصفات نظيرها ، وقد يكون أوضح منها دليلا كما سيأتى بعض ذلك .

وقوله : « وقد تقرر أن اليد ليست بجارحة ، حتى يتوهم من ثبوتها ثبوت الأصابع » حقيقة هذا الكلام : أن اليد ليست يدا ، حتى يلزم ثبوت الأصابع .
ومعلوم أن الله - تعالى - خاطبنا باللغة العربية ، وبألفاظ معلومة المعانى للمخاطبين فالمخاطبون بهذه النصوص ، علموا أن المراد بها مادلت عليه بظاهرها .

وكذلك المخاطب أراد منهم ذلك ، ولهذا لم يأت عنه - ﷺ - ولا من طريق ضعيف أنه قال : لاتعتقدوا ظاهرها ، ولاسيما وظاهرها عند الخطابى وفريقه كفر وتشبيه .

فهل يعقل أن الله ورسوله يخاطبان العباد بما ظاهره الكفر ، ثم لايبين ذلك لهم ، ويحذرهم من اعتقاده ؟ ولو كان لهذه النصوص معنى عند رسول الله غير ظاهرها لبينه ، لأنه واجب عليه بمقتضى الرسالة .

والصحابة سمعوا هذه النصوص ، ورووها ، ولم يسألوا عن معان لها غير ظاهرها ، فلما سكتوا دل ذلك على أنهم علموا أن المراد بها هو الظاهر ، فوجب علينا أن نسكت حيث سكتوا ، وأن نقبل ونسلم كما قبلوا وسلموا لها بدون تأويل . ونحن نسأل هؤلاء من ، من المسلمين الذين يعتد بقولهم ، قال : إن يد الله جارحة ؟ وهل جاء ذلك . ولو بحديث ضعيف ؟ إن هذا لاوجود له ، ولكنها الأوهام . والاتجاهات الفاسدة ، وإرادة التشنيع على اتباع الرسل .

ونحن بحمد الله وله المنة ، وكل من تلقى عن رسول الله - ﷺ - بالقبول والتسليم ، وفهم المراد - نعتقد مطمئنين أن لله يدين حقيقيتين لهما أصابع يضع عليها السموات والأرض ، وماشاء يوم القيامة ، وإن رغمت أنوف الأشعرية وإمامنا فى ذلك رسولنا محمد بن عبد الله - صلوات الله وسلامه عليه - . وأصحابه ، وأتباعه إلى يوم القيامة ، وهو معلم الخير والهدى .

قال الإمام أحمد : « الحديث عندنا على ظاهره ، كما جاء عن النبى - ﷺ - والكلام فيه بدعة ، ولكن نؤمن به كما جاء على ظاهره » [(١)] .

---

(١) طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٤٢ .

ويقصد بالكلام فيه : التأويل الذى يخرجه عن ظاهره .

وقال البربهارى [١] : « إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار ، ولايقبلها ، أو ينكر شيئاً من أخبار رسول الله – ﷺ – فاتهمه على الإسلام ، لأنا إنما عرفنا الله ورسوله ، وعرفنا القرآن ، والخير ، والشر بالآثار » [٢] .

وقال : « واعلم أنها لم تكن زندقة ، ولاكفر ، ولاشكوك ، ولابدعة ، ولاضلالة ، ولاحيرة فى الدين إلا من الكلام وأهل الكلام ، والجدل ، والمراء ، والخصومة . وكيف يجترىء الرجل على المراء ، والخصومة ، والجدال ، والله يقول : (مايجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا) [٣] .

وقال أيضا : « واعلم أنما جاء هلاك الجهمية . من أنهم فكروا فى الرب – عز وجل – فأدخلوا ، لم ، وكيف ، وتركوا الأثر ، ووضعوا القياس ، وقاسوا الدين على رأيهم ، فجاؤوا بالكفر عيانا ، لايخفى أنهم كفروا ، وكفروا الخلق ، واضطرهم الأمر إلى أن قالوا بالتعطيل » [٤] .

وقال : « إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار ، أو يردها ، ويريد غيرها ، فاتهمه على الإسلام ، ولاتشك أنه صاحب هوى مبتدع » [٥]

وقال القاضى ، أبو الحسين محمد بن أبى يعلى : « قرأت على المبارك ، عن على بن عمر البرمكى ، قال أخبرنا أحمد بن عبد الله المالكى ، حدثنا أبى ،

---

(١) هو شيخ الحنابلة فى وقته الحسن بن على بن خلف ، كان شديد الإنكار على أهل البدع ، وكان حافظا ثقة ، وأصوليا متقنا له تصانيف كثيرة مفقودة توفى سنة ٣٢٩ شذرات الذهب جـ ٢ ص ٣١٩ .

(٢) طبقات الحنابلة جـ ٢ ص ٢٥ .

(٣) المرجع المذكور ص ٢٧ .

(٤) المرجع المذكور ص ٣٠ .

(٥) المرجع المذكور ص ٣٦ .

حدثنا محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن يعقوب بن زوران – لفظا – حدثنا أبو العباس أحمد بن جعفر بن يعقوب بن عبد الله الفارسى ، الاصطخرى ، قال : قال أبو عبد الله ، أحمد بن محمد بن حنبل ، وذكر العقيدة – إلى أن قال : « وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن ، يقلبها كيف يشاء ، ويوعيها ماأراد ، وخلق آدم بيده ، على صورته ، والسموات ، والأرض يوم القيامة فى كفه ، ويضع قدمه فى النار ، فتنزوى » وذكر عقيدة طويلة جامعة (١)

وقال الحسن بن على بن خلف البربهارى : « وكل ماسمعت من الآثار شيئا لم يبلغه عقلك ، نحو قول رسول الله – ﷺ – قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن – وقوله : « إن الله ينزل إلى سماء الدنيا ، وينزل يوم عرفة وينزل يوم القيامة ، وأن جهنم لايزال يطرح فيها ، حتى يضع عليها قدمه – وقوله للعبد : إن مشيت إلىَّ ، هرولت إليك » وقوله : خلق الله آدم على صورته ، وقول الرسول – ﷺ –: رأيت ربى فى أحسن صورة » (٢) – وأشباه هذه الأحاديث ، فعليك بالتسليم ، والتصديق ، والتفويض (٣) والرضا ، ولاتفسر شيئا من هذه بهواك (٤) ، فإن الإيمان بهذا واجب . فمن فسر شيئا من هذا بهواه ، أو رده ، فهو جهمى » (٥) .

وهذا الذى ذكره الإمام أحمد ، والبربهارى هو مذهب السلف ، الذين تلقوا عن الرسول – ﷺ – ولم يزل السلف يوصى بعضهم بعضا بالتمسك به ، والتحذير ممن يخالفه ، لأنه الذى دلت عليه نصوص الكتاب والسنة .

---

(١) طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٤ – ٢٩ .

(٢) هذه رؤية منام كما هو مصرح به فى الرواية .

(٣) المقصود بالتفويض : تفويض الحقيقة ، والكيف ، فهو يوكل إلى الله – تعالى – فإن الخلق لاعلم لهم بذلك .

(٤) مراده بالتفسير : التأويل ، وتعيين معنى لايدل عليه اللفظ إلا بتكلف أو بغرابة .

(٥) طبقات الحنابلة جـ ٢ ص ٢٣ .

وقوله : « بل هو توقيف أطلقه الشارع ، فلا يكيف ، ولايشبه » – يعنى أن لفظ اليد الثابت بكتاب الله ، وبالسنة توقيف أطلقه الشارع ، فلا يوقف له على معنى فهو عنده – لايدل على ماوضعت له كلمة « يد » فى اللغة ، ومضمون ذلك أن آيات الصفات ، وأحاديثها لايعلم لها معانى تطابق ألفاظها ، وتؤخذ منها ويلزم على هذا أن الشارع خاطب الناس بما ظاهره غير مقصود ، ولا مطلوب منهم الإيمان بظاهره ، بل قد يكون ظاهره باطلا وكفراً ، فمعنى قوله : « لايكيف ، ولايشبه » أى لايثبت لها معنى مطابقا للفظها فى وضع اللغة ، فلا يوصف الله – تعالى – باليد الحقيقية التى أثبتها لنفسه ، وأثبتها له رسوله – ﷺ – لأن هذا تشبيه ، فهذه النصوص فى هذا الباب ونحوه فيها تشبيه –لله تعالى – عند هؤلاء ، ولهذا صار تأويلها متعينا .

فضاعت النصوص التى تعرف الله بها إلى عباده بين مردود [١] ومؤول .

وقوله : « ولعل ذكر الأصابع من تخليط اليهودى » . وجواب ذلك أنه قد تقدم من ذكر بعض النصوص التى تبطل هذا الهرى ، والقول الجائر . إن الخطابى – عفا الله عنا وعنه – بهذا القول إنما يشنع فى الحقيقة على رسول الله – ﷺ – . والله المستعان .

وقوله : « فإن اليهود مشبهة ، وفيما يدعونه من التوراة ألفاظ . تدخل فى باب التشبيه ، ولاتدخل فى مذاهب المسلمين » . ونحن لانبرىء اليهود من الباطل ، ولكن نقول : إن الحق يجب أن يقبل ممن قاله ، سواء كان من اليهود أو من غيرهم .

وهو لم يبين هذه الألفاظ التى تدخل فى باب التشبيه على حد قوله .

---

(١) القاعدة عند الخطابى : أن الأحاديث الموافقة للقرآن ، أو المتواترة هى التى تقبل فى الصفات ، أما ماعدا ذلك ، فإنه لايثبت به صفة لله – تعالى – وهذه القاعدة أخذت من كلامه كما سبق قوله فى الأصابع أنه لم يثبت فيه حديث .

ولكن نعلم من طريقته ، أن كل من أثبت لله من الصفاتماينكره هو ومن سلك نهجه ، أنهم يسمونه مشبها ، ولو كان متمسكا بالكتاب والسنة فعنده من أثبت لله يداً حقيقة فهو مشبه ، وكذلك الوجه ، والرجل ، والأصابع والعينين ، ونحو ذلك .

وقوله : « وأما ضحكه – ﷺ – من قول الحبر ، فيحتمل الرضا ، والإنكار »

فجوابه : أن الحق الذى لانشك فيه أنه لايحتمل إلا الرضا ، والموافقة ، لأن الرسول – ﷺ – لايضحك من الباطل ، والكفر الذى هو تشبيه رب العالمين بالخلق ، كما هو مقتضى مذهب الخطابى .

ومقتضى الإيمان بالرسول – ﷺ – يمنع من أن يكون ضحكه من أجل التشبيه الذى يقوله اليهودى – كما زعم الخطابى – عفا الله عنا وعنه .

إن مايقوله هؤلاء فى الحقيقة قلب للحقائق ، حتى تسلم عقيدة الأشعرية من معاول النصوص ، التى تأتى على أسسها بالاقتلاع ، [1] ولو استطاع كثير منهم الرد على الله ، ورسوله لفعلوا ، ولكن كما يقول الله – تعالى – : (بل نقذف بالحق على الباطل ، فيدمغه ، فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون) [2].

وأما قوله : « وأما قول الراوى : « تصدقا له ، فظن وحسبان » يعنى أن عبد الله بن مسعود ظن ظناً أخطأ الحق ، وأبعد عن الصواب حيث خالق عقيدة أهل الكلام ، فيرد قوله .

---

(١) قال ابن خزيمة : « وقد أجل الله قدر نبيه ، عن أن يوصف البارى بحضرته بماليس من صفاته ، فيسمعه فيضحك عنده ، ويجعل بدل وجوب النكير والغضب على المتكلم به ضحكا حتى تبدو نواجذه . تصديقا وتعجبا لقائله ، لايصف النبى – ﷺ – بهذه الصفة مؤمن مصدق برسالته » كتاب التوحيد ص ٧٦ .

(٢) الآية ١٨ من سورة الأنبياء .

ونحن نقول : أيهما أولى عند الله ، وعند المؤمنين بالفهم عن رسول الله – ﷺ – صحابته الذين عايشوه ، وتربوا بين يديه ، ونقلوا لنا ديننا عنه ، أم الخطابى وذويه ؟ ولو سلم ذلك لأمكن كل مبطل أن يقول فى أى نص جاء عن الرسول – ﷺ – وصحابته كقولك هذا : أنه ظن وحسبان ، وأن الصواب خلافه فتبطل الشريعة كلها . تقدم ذكر بعض الآيات الدالة صراحة على وصف الله – تعالى – باليدين .

« وقد تواتر فى السنة مجىء اليد – وصفاً – لله تعالى – فعلم من ذلك أن لله – تعالى – يدين مختصتان به ، ذاتيتان له ، كما يليق بجلاله ، وأنه – تعالى – خلق آدم بيده دون الملائكة ، وإبليس ، وأنه سبحانه يقبض الأرض ، ويطوى السموات بيده اليمنى ، وأن « يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » .[(١)]

ومعنى بسطهما : بذل الجود ، وسعة العطاء ، لأن العطاء ، والجود فى الغالب يكون ببسط اليد ومدها .

فإذا قيل : هو مبسوط اليد فهم منه يد حقيقة ، وكان ظاهره الجود والبذل . وقد اعتمد أهل التأويل ، فى تأويلهم اليد ، أنها النعمة والعطية ، تسمية للشىء باسم سببه ، كما يسمى المطر والنبات سماء ، ومن ذلك قولهم : لفلان عندى أياد ، وقول أبى طالب لما فقد النبى – ﷺ –:

يارب رد راكبى محمداً ردہ علي ، واصطنع عندى يدا

وقول عروة بن مسعود ، لأبى بكر يوم الحديبية : لولا يدٌلك عندى ، لم أجزك بها لأجبتك .

وقد تكون اليد بمعنى القدرة ، تسمية للشىء باسم مسببه ، لأن القدرة هى تحرك اليد ، يقال : فلان له يد فى كذا وكذا ، أى له قدرة ، ومنه قول زياد

---

(١) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

لمعاوية : إنى قد أمسكت العراق بإحدى يدى ، والأخرى فارغة ، يريد نصف قدرته . وقد يضاف الفعل إلى اليد إضافته إلى الشخص نفسه ، لأن غالب الأفعال تكون بها . فصار ذكر اليد إشارة إلى أنه فعل بنفسه ، كما قال – تعالى – : (ذلك بما قدمت أيديكم) (١) .

وتقول العرب : « يداك أوكتا ، وفوك نفخ » توبيخاً لكل من جرَّ إلى نفسه شرا ، لأن أول من قيل له ذلك ، فعل بيديه وفمه .

ولذلك قالوا فى مثل قوله – تعالى –: (بل يداه مبسوطتان) أى نعمته فى الدنيا والآخرة . واللفظ كناية عن نفس الجود ، من غير أن يكون هناك يد حقيقة ، بل هذه اللفظة صارت حقيقة فى العطاء والجود .

وقالوا فى قوله – تعالى –: (لما خلقت بيدى) (٢) أى خلقته أنا ، وليس هناك يد حقيقية – ونحو هذه التأويلات .

والجواب : أننا لاننكر لغة العرب التى نزل بها القرآن ، وأن ماذكر معروف فى اللغة ، ولكن ننكر تحريف الكلم عن مواضعه ، والإلحاد فى أسماء الله وصفاته .

فإن لفظ « اليدين » بصيغة التثنية ، لم يستعمل فى النعمة ، ولا فى القدرة . لأن من لغة العرب استعمال الواحد فى الجمع ، كقوله – تعالى –: (إن الإنسان لفى خسر)

ولفظ الجمع فى الواحد كقوله – تعالى – : (الذين قال لهم الناس إن الناس) (٣) والقائل واحد .

ولفظ الجمع فى الاثنين كقوله – تعالى – (فقد صغت قلوبكما) (٤).

---

(١) الآية ١٨٢ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٧٥ من سورة ص .
(٣) الآية ١٧٣ من سورة آل عمران .
(٤) الآية ٤ من سورة التحريم .

أما استعمال لفظ الواحد فى الاثنين ، والاثنين فى الواحد ، فلا أصل له فى اللغة . لأن هذه الألفاظ عدد ، وهى نصوص فى معناها ، لايتجوز بها ، فلا يجوز أن تقول : عندى رجل ، وأنت تريد اثنين ، ولاعندى رجلان وأنت تريد واحدا ، ولاعندى رجلان وأنت تريد الجنس ، لأن اسم الواحد يدل على الجنس ، والجنس فيه شياع وكذلك اسم الجمع فيه معنى الجنس ، والجنس يحصل بحصول الواحد .

فقوله – تعالى – : (لما خلقت بيدى) لايجوز أن يراد به القدرة ، لأن القدرة صفة واحدة ، ولايجوز أن يعبر بالاثنين عن الواحد .

ولا يجوز أن يراد به النعمة ، لأن نعم الله لاتحصى ، فلا يجوز أن يعبر عن النعم التى لاتحصى بصيغة التثنية .

ولايجوز أن يكون كما قالوا : لما خلقت أنا ، لأن العرب إذا أرادوا ذلك أضافوا الفعل إلى اليد ، فتكون إضافته إلى اليد إضافة له إلى الفاعل .

كقوله : (بما قدمت يداك) [١] (ذلك بما قدمت أيديكم) [٢] ، ومن هذا قوله – تعالى – : (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما) [٣] .

أما إذا أضيف الفعل إلى الفاعل ، وعدى الفعل إلى اليد بحرف الجر كقوله – تعالى – : (لما خلقت بيدى) فإنه يكون نصا فى أنه فعل ذلك بيديه .

ولهذا لايجوز لمن تكلم ، أو مشى أن يقول : فعلت ذلك بيدى ، ولكن يقال : فعلته يداك ، لأن مجرد قوله : « فعلت » كافٍ فى الإضافة إلى الفاعل . فلو لم يرد أنه فعله باليد حقيقة كان قوله : « بيدى » زيادة لافائدة فيها . ولاتجد فى كلام العرب أن فصيحا يقول : فعلت هذا بيدى ، إلا وأنه فعله بيديه حقيقة ، ولايجوز أن يقول ذلك وهو ليس له يد » [٤]

---

(١) الآية ١٠ سورة الحج .

(٢) الآية ١٨٢ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٧١ من سورة يس .

(٤) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٣٦٣ – ٣٦٦ .

وأما تعليله لإنكاره إثبات اليد لله – تعالى – والأصابع . بأن اليد المتعارف عليها هى الجارحة ، وذلك ممتنع على الله – تعالى – .

فالجواب أن هذا ممتنع لو كانت اليد التى أثبتها الله لنفسه من جنس أيدى المخلوقين ، أما إذا كانت يدا تناسب ذاته وتليق بعظمته ، فما هو المانع من ذلك فى العقل والشرع ، وماهو الموجب لتلك التمحلات .

وكل مايذكر أهل التأويل إنما يدل على امتناع وصفه – تعالى – بما يستحقه المخلوق ، وخصائص المخلوقين منفية عنه – تعالى – . وكل ما أثبت لله – تعالى – من الصفات فهى كمال ، وفقدها نقص – تعالى – عنه .

ثم هل يجوز مع كثرة مافى كتاب الله ، وسنة رسوله من ذكر اليد دالاً على الحقيقة ، مثل ذكر خلق آدم بيديه ، وأنهما مبسوطتان ، وأن الأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، وأن السموات مطويات بيمينه ، وأن بيده الملك .

وفى السنة مالا يحصى إلا بمشقة مثل ذكر الأصابع ، والقبض ، والبسط ، واليمين ، والشمال ، وأن يديه كلتاهما يمين ، ثم لايبين الرسول – ﷺ – أن هذا غير مراد منه الظاهر والحقيقة ، مع حضه لنا على الفهم . وهل يجوز أن يفهم صحابته ، والتابعون لهم من هذه النصوص غير الحق المراد منها ، ولا يعرف الحق فيها إلا جهم بن صفوان – بعد انقراض عهد الصحابة – وبشر بن غياث ، وأشباههما ممن هو مغموص عليه فى النفاق ، مع أن الرسول – ﷺ – قد علم أمته كيف يقضون الحاجة ، وكيف يأكلون ويشربون ، وينامون ، ويدخلون بيوتهم ويخرجون . حتى أنزل الله – تعالى – عليه فى آخر ماأنزل : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى) (١) والرسول – ﷺ – يقول : « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا هالك » (٢) .

---

(١) الآية ٣ من سورة المائدة .

(٢) تقدم تخرجه .

هل يجوز مع هذا كله وغيره أن يترك الكتاب المنزل عليه ، وسنته الغراء ، مملوءان بما يزعم أهل التأويل أن ظاهره تشبيه وتجسيم ومن اعتقد ظاهره – بزعمهم – فهو ضال مشبه لله ومجسم ، ثم لايبين ذلك ولا يوضحه ، بل يكثر من ذكر مايؤيد الظاهر بكل صراحة . إنه لايعتقد ذلك ويقوله ، إلا ضال فى دينه لم يعرف ماأنزل الله على رسوله ، ولم يعرف الرسول حق المعرفة .

قال ابن القيم : « واطراد لفظ اليد فى موارد استعمالها ، وتنوع ذلك يوجب أن تكون اليد حقيقة كقوله – تعالى – : (لما خلقت بيدى) [1] (بل يداه مبسوطتان) [2] (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه) [3] .

فلو كان المراد القدرة ، أو النعمة لم يستعمل منه لفظ يمين ، كما فى الحديث « المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين » [4] ، فلا يصح أن تكون يد القدرة ، والنعمة ، وقوله : « يقبض الله سماواته بيده ، والأرض باليد الأخرى ، ثم يهزهن ، ثم يقول : أنا الملك » [5] فالهز والقبض ، وذكر اليدين يمنع ذلك .

ولما ذكر ذلك رسول الله – ﷺ – جعل يقبض يديه ويبسطهما ، تحقيقاً للصفة لاتشبيها لها ، كما أنه – ﷺ – لما قرأ قوله – تعالى – : (وكان الله سميعا بصيرا) [6] وضع إصبعه على عينه والأخرى على أذنه تحقيقا لصفة السمع والبصر .

---

(١) الآية ٧٥ من سورة ص .

(٢) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

(٤) تقدم تخريجه .

(٥) تقدم تخريجه ص ٢٢١ .

(٦) الآية ١٣٤ من سورة النساء والآية ٥٨ منها .

وقوله – ﷺ – : « لما خلق الله آدم قبض بيديه ، وقال : اختر ، فقال : اخترت يمين ربى ، وكلتا يديه يمين ، ففتحها ، فإذا فيها أهل اليمين من ذريته » (١)

وقوله – ﷺ – : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل » (٢) ا هـ .

وقد تقدمت الإشارة إلى بعض النصوص فى ذلك .

فاقتران الطى والقبض ، والإمساك باليد جعل تأويلها بالقدرة ، والنعمة تحريفا باطلا .

قال الإمام ابن خزيمة : « نحن نقول : الله – جل وعلا – له يدان ، كما أعلمنا البارى فى محكم تنزيله ، وعلى لسان نبيه المصطفى – ﷺ – ونقول : كلتا يدى ربنا يمين ، على ما أخبر النبى – ﷺ – ونقول : إن الله – عز وجل – يقبض الأرض بإحدى يديه ويطوى السماء بيده الأخرى » (٣) .

فمن أثبت لله – تعالى – يدين ، وأثبت لهما أصابع على ماجاء فى النصوص الصحيحة لايكون مشبها ، بل يكون متبعا لكتاب الله وسنة رسوله ، مطيعا لله ورسوله فى ذلك ، لأنه أثبت لله ما أثبته لنفسه ، وأثبته له رسوله – ﷺ – .

والله – تعالى – ليس كمثله شيء لافى ذاته ولا فى أوصافه ، لأن الوصف تابع للموصوف .

وقال البغوى : « الإصبع المذكورة فى الحديث صفة ، من صفات الله – عز وجل – وكذلك كل ماجاء به الكتاب ، أو السنة من هذا القبيل ، فى صفات الله – تعالى – ، كالنفس ، والوجه والعين ، واليد ، والرجل ، والإتيان ، والمجىء ،

---

(١) مضى تخريجه ص ٢٢١ .

(٢) مختصر الصواعق ص ٣٣٧ .

(٣) كتاب التوحيد ص ٨٣ .

والنزول إلى السماء الدنيا ، والاستواء على العرش ، والضحك ، والفرح .

قال الله – تعالى – لموسى : (واصطنعتك لنفسى) [١] ، وقال – عز وجل –: (ولتصنع على عينى) [٢] وقال – سبحانه وتعالى – : (كل شيء هالك إلا وجهه) [٣] ، وقال – عز وجل – (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) [٤] وقال – تعالى – : « بل يداه مبسوطتان » [٥] ، وقال – جل وعلا – : (ياإبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) [٦] وقال – تعالى – : (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه) [٧] ، وقال – تعالى – : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام) [٨] ، وقال – سبحانه وتعالى – : (وجاء ربك والملك صفا صفا) [٩] وقال – تعالى – : (الرحمن على العرش استوى) [١٠] ، وقال – تعالى – : (ثم استوى على العرش الرحمن) [١١] وقال رسول الله – ﷺ –: « ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر » [١٢] وروى أنس ، عن النبى – ﷺ – قال : « لاتزال جهنم يلقى فيها ، وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع

---

(١) الآية ٤١ من سورة طه .
(٢) الآية ٣٩ من سورة طه .
(٣) الآية ٨٨ من سورة القصص .
(٤) الآية ٢٧ من سورة الرحمن .
(٥) الآية ٦٤ من سورة المائدة .
(٦) الآية ٧٥ من سورة ص .
(٧) الآية ٦٧ من سورة الزمر .
(٨) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .
(٩) الآية ٢٢ من سورة الفجر .
(١٠) الآية ٥ من سورة طه .
(١١) الآية ٥٩ من سورة الفرقان .
(١٢) سيأتى شرحه إن شاء الله .

رب العزة فيها قدمه » ، وفى رواية أبى هريرة : « حتى يضع الله رجله » [١] . وفى حديث أبى هريرة فى آخر من يخرج من النار : « فيضحك الله منه ، ثم يأذن له فى دخول الجنة » [٢] وفى حديث جابر : « فيتجلى لهم يضحك » [٣] ، وفى حديث أنس وغيره : « الله أفرح بتوبة عبده ، من أحدكم يسقط على بعيره ، وقد أضله فى أرض فلاة » [٤] .

فهذه ونظائرها صفات لله – تعالى – ، ورد بها السمع ، يجب الإيمان بها ، وإمرارها على ظاهرها ، معرضا فيها عن التأويل ، مجتنبا عن التشبيه ، معتقدا أن البارى – سبحانه وتعالى – لايشبه شىء من صفاته صفات خلقه ، كما لاتشبه ذاته ذوات خلقه ، قال – تعالى – : (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) [٥] .

وعلى هذا مضى سلف الأمة ، وعلماء السنة ، تلقوها جميعا بالإيمان والقبول ، وتجنبوا فيها عن التمثيل والتأويل ، ووكلوا العلم فيها إلى الله – عز وجل – .

قال سفيان بن عيينة : كل ماوصف الله – تعالى – به نفسه فى كتابه ، فتفسيره قراءته ، والسكوت عليه ، ليس لأحد أن يفسره إلا الله – تعالى – ورسوله .

وقال الزهرى : على الله البيان ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم .

وقال بعض السلف : « قدم الإسلام لاتثبت إلا على قنطرة التسليم » [٦]

ومراده بقوله : « ووكلوا العلم فيها إلى الله » علم الكيفية ، وأما مايفهم منها فى الوضع اللغوى فهو ظاهر ، ومعلوم ، وكذا ماذكره عن سفيان أنها لاتفسر أى تؤول ، وتطلب معرفة كيفيتها .

---

(١) تقدم وهو فى مسلم رقم ٢٨٤٨ .
(٢) متفق عليه وسيأتى إن شاء الله .
(٣) رواه مسلم فى الإيمان رقم ١٩١ .
(٤) انظره فى مسلم جـ ٤ ص ٢١٠٤ رقم ٢٧٤٧ .
(٥) الآية ١١ من سورة الشورى .
(٦) شرح السنة جـ ١ ص ١٦٨ – ١٧١ .

وهذا كثير فى أقوال العلماء والسلف من أهل السنة .

وقال ابن القيم : « ورد لفظ اليد فى القرآن ، والسنة ، وكلام الصحابة ، والتابعين ، فى أكثر من مائة موضع ، وروداً متنوعا ، متصرفا فيه ، مقرونا بما يدل على أنها يد حقيقية ، من الإمساك ، والطى ، والقبض ، والبسط ، والمصافحة ، والحثيات ، والنضح باليد ، والخلق باليدين ، والمباشرة بهما ، وكتب التوراة بيده ، وغرس جنة عدن بيده ، وتخمير طينة آدم بيده ، ووقوف العبد بين يديه ، وكون المقسطين عن يمينه ، وقيام رسول الله – ﷺ – يوم القيامة عن يمينه ، وتخيير آدم بين مافى يديه ، فقال : أخترت يمين ربى ، وأخذ الصدقة بيمينه ، يربيها لصاحبها ، وكتابته بيده على نفسه ، أن رحمته تغلب غضبه ، وأنه مسح ظهر آدم بيده ، ثم قال له : ويداه مقبوضتان : اختر ، فقال : اخترت يمين ربى ، وكلتا يديه يمين مباركة ، وأن يمينه ملآى لا يغيضها نفقة سحاء الليل ، والنهار ، وبيده الأخرى القسط ، يرفع ويخفض وأنه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، وأنه يطوى السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يطوى الأرض باليد الأخرى ، وأنه خط الألواح التى كتبها لموسى بيده » [١] .

* * *

---

(١) مختصر الصواعق ص ٣٤٨ .

قال : « باب قول النبى - ﷺ - : « لاشخص أغير من الله »

* * *

الغيرة بفتح الغين ، وإسكان الياء ، وهى فى اللغة مأخوذة من التغير الحاصل من الأنفة ، والحمية .

والشخص : هو ماشخص وبان عن غيره .

ومقصد البخارى أن هذين الاسمين يطلقان على الله - تعالى - وصفا له ، لأن الرسول - ﷺ - أثبتها لله ، وهو أعلم الخلق بالله - تعالى - .

قال النووى : « قال العلماء : الغيرة بفتح العين ، وأصلها المنع ، والرجل غيور على أهله ، أى يمنعهم من التعلق بأجنبى بنظر ، أو حديث ، أو غيره . والغيرة صفة كمال » (١) .

قال الحافظ : « وقد فسر الرسول - ﷺ - غيرة الله فى قوله : « إن الله يغار ، وغيرة الله أن يأتى المؤمن ماحرم الله » (٢) .

ومعناه أن الله يغار إذا انتهكت محارمه ، وليس انتهاك المحارم هو غيرة الله لأن انتهاك المحارم فعل العبد ، ووقوع ذلك من المؤمن أعظم من وقوعه من غيره .

وغيرة الله - تعالى - من جنس صفاته التي يختص بها ، فهى ليست مماثلة لغيرة المخلوق ، بل هى صفة تليق بعظمته ، مثل الغضب ، والرضا ونحو ذلك من خصائصه التى لايشاركه الخلق فيها .

---

(١) شرح مسلم جـ ١٠ ص ١٣٢ .

(٢) الفتح جـ ٩ ص ٣١٩ .

وقد تقرر أنه - تعالى - ليس كمثله شيء فى ذاته ، فكذلك فى صفاته ، وأفعاله ، ولكن لابد من الاشتراك فى ألفاظ الأسماء التى تضاف إلى الله صفات له ، وبين ألفاظ الأسماء التى يوصف بها العباد ، لأنه لايمكن معرفة ماغاب عنا إلا بمعرفة ما شهدناه ، فنعتبر بعقولنا الغائب بالشاهد .

فلولا أنا نجد من أنفسنا جوعا ، وعطشا ، وشبعاً ، وريًّا ، وحباً ، وبغضا ، ولذة ، وألماً ، ورضى ، وسخطا ، لم نعرف حقيقة مانخاطب به إذا وصف لنا ذلك وأخبرنا به عن غيرنا .

ولو لم نعلم مافى المشاهد من الحياة ، والقدرة ، والعلم ، والكلام ، لم نفهم مانخاطب به من ذلك فى الغائب .

فلابد فيما شهدناه ، وما غاب عنا من قدر مشترك ، هو مسمى اللفظ .

وقد أخبرنا عن نعيم الآخرة ، وعذابها مما يؤكل ، ويشرب ، ويفرح ، ويحزن ، وينعم ، ويؤلم ، فلولا معرفتنا بما يشبه ذلك فى الدنيا ، لم نفهم ما وعدنا به من ذلك ، مع علمنا أن حقائق ما فى الآخرة ليست كحقائق ما فى الدنيا ، كما قال ابن عباس فى تفسير قوله - تعالى - : (وأُتوا به متشابها) ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء » [١] ولكن بين ما فى الدنيا ، وما فى الآخرة مشابهة واشتراك من بعض الوجوه . وبذلك نفهم المراد ، فنحب النعيم ، ونرغب فيه ، ونكره المؤلم ، وننفر عنه ، فنعرف معنى العسل ، واللبن ، والحرير ، والذهب ، ونفرق بينهما ، لما عرفناه من نظيرها فى الشاهد ، وإن كانت حقائقها فيما هى عليه لايعلمها إلا الله - تعالى - كما قال - جل وعلا - : (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين) [٢] .

---

(١) رواه ابن جرير فى تفسيره انظر جـ ١ ص ٣٩٣ - ٣٩٤ بتحقيق محمود شاكر .

(٢) الآية ١٧ من سورة السجدة .

فإذا كان هذا فى صفات المخلوق ، فكيف فى صفات الخالق - جل وعز - فإنها أشد مباينة مثال ذلك : إذا قال نفاة الصفات : النزول ، والاستواء ، من صفات الأجسام ، فإنه لايعقل إلا لجسم مركب ، والله منزه عن ذلك .

فيقال لهم : وكذلك الحياة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والعلم ، والقدرة ، والكلام هى من صفات الأجسام ، فإنه لايعقل من يسمع ، ويبصر ، ويريد ، ويعلم ويقدر ، ويتكلم ، ويكون حياً ، إلا الجسم .

فإن قالوا : سمعه ليس كسمعنا ، وعلمه ليس كعلمنا ، وبصره ليس كبصرنا ، وكذا البقية .

قيل : فكذلك نزوله ، واستواؤه ، وغضبه ، وفرحه ، وحبه ، وغيرته ، وسائر صفاته ، والذين يؤولون النصوص فى ذلك ، مخالفون لها ، ومتناقضون .

قوله : « وقال عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الملك : « لاشخص أغير من الله » قال الحافظ : « يعنى أن عبيد الله بن عمرو ، روى الحديث المذكور ، عن عبد الملك ، بالسند المذكور فقال : « لاشخص » بدل كلمة « لا أحد » وقد وصله الدارمى ، ثم ذكر سنده ، وساقه أبو عوانة - يعقوب الإسفرائينى - فى صحيحه ، عن محمد بن عيسى العطار ، عن زكريا بتمامه ، وقال فى المواضع الثلاثة : « لاشخص » .

قال الإسماعيلى - بعد أن أخرجه - من طريق عبيد الله بن عمرو القواريرى ، وأبى كامل - فضيل بن حسين الجحدرى - ومحمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب ، ثلاثتهم عن أبى عوانة - الوضاح البصرى - بالسند الذى أخرجه [به] البخارى ، ولكن قال فى المواضع الثلاثة : « لاشخص » بدل « لاأحد » .

ثم ساقه من طريق زائدة بن قدامة عن عبد الملك كذلك .

فكأن هذه اللفظة لم تقع فى رواية البخارى فى حديث أبى عوانة ، عن

عبد الملك ، فلذلك علقها عن عبيد الله بن عمرو ، قلت : وقد أخرجه مسلم ، عن القواريرى ، وأبى كامل ، كذلك » ا هـ [١] .

ولفظ مسلم ، بعد ذكر السند : « قال سعد بن عبادة : لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح عنه ، فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فقال : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ فوالله لأنا أغير منه ، والله أغير منى ، من أجل غيرة الله حَرَّم الفواحش ماظهر منها ومابطن ، ولا شخص أغير من الله . ولا شخص أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين ، ولا شخص أحب إليه المدحة من الله ، من أجل ذلك وعد الله الجنة » [٢] .

ورواه الإمام أحمد فى المسند بهذا اللفظ [٣] قال عبد الله بن الإمام أحمد بعد ذكره ، قال عبيد الله القواريرى : ليس حديث أشد على الجهمية من هذا الحديث .

وبهذا يتبين خطأ ابن بطال فى قوله : « أجمعت الأمة على أن الله - تعالى - لايجوز أن يوصف بأنه شخص ، لأن التوقيف لم يرد به » ا هـ ذكره الحافظ [٤] .

وهذه مجازفة ، ودعوى عارية من الدليل ، فأين هذا الإجماع المزعوم ومن قاله ؟ سوى المتأثرين ببدع أهل الكلام ، كالخطاب ، وابن فورك ، وابن بطال - عفا الله عنا وعنهم - .

وقوله : لأن التوقيف لم يرد به » يبطله ماتقدم من ذكر ثبوت هذا اللفظ عن رسول الله - ﷺ - بطرق صحيحة لامطعن فيها .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٠ .

(٢) صحيح مسلم جـ ٢ ص ١١٣٦ رقم ١٤٩٩ .

(٣) المسند جـ ٤ ص ٢٤٨ ورواه الدارمى فى سننه جـ ٢ ص ٧٣ .

(٤) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٤٠ .

وإذا صح الحديث عن رسول الله - ﷺ - وجب العمل به ، والقول بموجبه سواء كان فى مسائل الاعتقاد ، أو فى العمليات ، وقد صح عنه -ﷺ - إطلاق هذا الاسم - أعنى الشخص - على الله تعالى - فيجب اتباعه فى ذلك على من يؤمن بأنه رسول الله . وهو - ﷺ - أعلم بربه وبما يجب له ومايمتنع عليه - تعالى - من غيره من سائر البشر .

وتقدم أن الشخص فى اللغة : ماشخص ، وارتفع ، وظهر .

قال فى اللسان : « الشخص كل جسم له ارتفاع وظهور »[1] .

والله - تعالى - أظهر من كل شيء ، وأعظم ، وأكبر ، وليس فى إطلاق الشخص عليه محذور على أصل أهل السنة الذين يتقيدون بما قاله الله ورسوله .

* * *

---

(١) انظر لسان العرب جـ ٢ ص ٢٨١ المرتب .

٤٥ – قال : « حدثنا موسى بن إسماعيل التبوذكى ، حدثنا أبو عوانة ، حدثنا عبد الملك عن وراد ، كاتب المغيرة ، عن المغيرة ، قال : قال سعد بن عبادة : لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح ، فبلغ ذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : « تعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه ، والله أغير منى ، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين ، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة » .

* * *

نكتفى بما تقدم من الكلام على معنى الحديث ، ونذكر موجزا من الكلام مما فيه فائدة ، وتقدم معنى الغيرة ، وأنها صفة كمال ، كما تقدم أنا لايمكن أن نفهم ماخوطبنا به إلا بواسطة المعلوم كذا فى الشاهد ، المشارك له فى المعنى فى الجملة ، وإن كان البون شاسعاً .

قال النووى : « أخبر – صلى الله عليه وسلم – أن سعدا غيور ، وأنه أغير منه ، وأن الله أغير منه ، وأنه من أجل ذلك حَرَّم الفواحش ، فهذا تفسير لمعنى غيرة الله – تعالى – ، أى أنها منعه – سبحانه وتعالى – الناس من الفواحش » [1] .

قلت : ليس هذا هو غيرة الله – تعالى – ولكنه مقتضى الغيرة ، كما يوضحه قوله : « ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش » فبين أن تحريم الفواحش ، والمنع منها ليس هو الغيرة وإنما هو من آثارها .

قوله : « لورأيت رجلا مع امرأتى ، لضربته بالسيف غير مصفح » أى

---

(١) شرح مسلم جـ ١٠ ص ١٣٢ .

لضربته بحد السيف لابصفحه ، يعنى لقتله بدون توقف ، وقد أقره رسول الله – ﷺ – على ذلك ، وأخبر أنه أغير من سعد ، وأن الله أغير منه ، وأما قول القرطبى وغيره : أن قوله : « ولا أحد أحب إليه العذر من الله » إشارة إلى الإنكار على سعد فغير صحيح ، بل مدلول الحديث خلافه ، ولابد من الغيرة ، والذى لاغيرة له ديوث ، والديوث لايدخل الجنة كما فى سنن النسائى [1] وغيرها .

ولهذا قال – ﷺ – : « تعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه ، والله أغير منى » الخ .

قوله : « ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ، ماظهر منها ، ومابطن » أى من أثر غيرة الله منع عباده من قربان الفواحش ، – وهى ماعظم وفحش فى النفوس الزاكية والعقول السليمة مثل الزنا . والظاهر يشمل مافعل علناً ، وماباشرته الجوارح وإن كان سرا .

والباطن يشمل مافى السر ، وما انطويت عليه القلوب .

قوله « ولأحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين »

العذر : هو طلب العفو عن فعل سابق مع الاعتراف بالذنب والندم على وقوعه منه ، ويراد به الأعذار . وهو إقامة البينات ، والحجج ، وإيضاح طريق الخير والشر ، وكلاهما يدخل فيما ذكر ، والمبشرون ، والمنذرون هم الرسل ، وفى رواية مسلم « بعث المرسلين مبشرين ومنذرين » وفى رواية له أيضا « ولذلك أنزل الكتب ، والرسل »

قال عياض : « المعنى بعث المرسلين للأعذار ، والإنذار لخلقه . قبل

---

(١) المجتبى جـ ٥ ص ٨٠ رواه أحمد فى المسند جـ ٢ ص ١٣٤ وفى سنده عبد الله ابن يسار ، روى له النسائى ، وذكره ابن حبان فى الثقاة ، وبقية رجاله ثقاة مشهورون .

أخذهم بالعقوبة وهو كقوله – تعالى – : (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (١)

قوله : « ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة » هذا لكماله المطلق ، فهو – تعالى – يحب من عباده أن يثنوا عليه ويمدحوه على فضله وجوده ، ومن أجل ذلك جاد عليهم بكل نعمة يتمتعون بها ، ويرضى عنهم إذا حمدوه عليها .

ومهما أثنوا عليه ومدحوه لايمكن أن يصلوا إلى مايستحقه من المدح والثناء . ولهذا مدح نفسه كما تقدم ، فوعد الجنة ليكثر سؤاله ، والثناء عليه من عباده ، ومدحه ويجهدوا فى ذلك غاية مايستطيعون لأن الجنة هى منتهى الإنعام .

* * *

---

(١) من الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٠ .

قال : باب « قل أى شىء أكبر شهادة ؟ قل الله »

* * *

« فسمى الله – تعالى – نفسه شيئا ، وسمى النبى – ﷺ –: القرآن شيئا ، وهو صفة من صفات الله ، وقال : « كل شىء هالك إلا وجهه »

يريد بهذا أنه يطلق على الله – تعالى – أنه شىء ، وكذلك صفاته ، وليس معنى ذلك أن « الشىء » من أسماء الله الحسنى . ولكن يخبر عنه – تعالى – بانه شىء ، وكذا يخبر عن صفاته بأنها شىء ، لأن كل موجود يصح أن يقال : إنه شىء .

قال الحافظ : « الشىء يساوى الموجود ، لغة ، وعرفا . وأما قولهم : فلان ليس بشىء ، فهو على طريق المبالغة فى الذم ، فلذلك وصف بصفة العدم » (١)

وقال : « أى إذا جاءت استفهامية ، اقتضى الظاهر أن تسمى باسم ماتضاف إليه ، فعلى هذا صح الاستدلال بها على تسمية الله – تعالى – شيئا .

واسم الجلالة خبر مبتدأ محذوف ، أى ذلك الشىء هو الله .

ويصح أن يكون مبتدأ ، محذوف الخبر ، والتقدير : الله أكبر شهادة . والله أعلم » (٢) وقوله – تعالى – : « كل شىء هالك إلا وجهه » قال الحافظ : الاستدلال بهذه الآية للمطلوب ، ينبنى على أن الاستثناء متصل ، فإنه يقتضى اندراج المستثنى فى المستثنى منه ، وهو الراجح . على أن لفظ شىء يطلق على الله – تعالى – وهو الراجح أيضا » (٣)

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

قال الإمام عبد العزيز الكنانى ، فى محاجته لبشر المريسى ، لما سأله بشر عن القرآن ، أهو شيء أم ليس بشيء ؟ قال : « فقلت : لبشر : سألت عن القرآن ، هو شيء أم غير شيء فإن كنت تريد أنه شيء ، إثباتا للوجود ، ونفيا للعدم ، فنعم هو شيء .

وإن كنت تريد أن الشيء اسم له ، وأنه كالأشياء ، فلا .

فإن الله أجرى كلامه على ماأجراه على نفسه ، إذ كان كلامه من ذاته ، ومن صفاته ، فلم يتسم بالشيء ، ولم يحمل الشيء اسماً من أسمائه ، ولكنه دل على نفسه أنه شيء ، وأنه أكبر الأشياء ، إثباتا للوجود ، ونفيا للعدم ، وتكذيبا للزنادقة ، ومن تقدمهم ممن جحد معرفته ، وأنكر ربوبيته ، من سائر الأمم ، فقال لنبيه – ﷺ –: (قل أى شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بينى وبينكم) (١) فدل على نفسه أنه شيء ، لا كالأشياء ، وأنزل فى ذلك خبرا خاصا مفردا لعلمه السابق أن جهما وبشراً ، ومن قال بقولهما سيلحدون فى أسمائه وصفاته ، ويشبهون على خلقه ، ويدخلونه وكلامه فى الأشياء المخلوقة ، فقال – عز وجل – : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (٢) فأخرج نفسه ، وكلامه وصفاته من الأشياء المخلوقة بهذا الخبر ، تكذيبا لمن ألحد فى كتابه ، وافترى عليه ، وشبهه بخلقه . وعدد أسمائه فى كتابه ، ولم يتسم بالشيء ، ولم يجعل الشيء اسما من أسمائه » (٣)

ونقل الحافظ عن ابن بطال : « أن الآيات والآثار المذكورة فى هذا الباب ترد على من زعم أنه لايجوز أن يطلق على الله – تعالى – أنه شيء ، كما صرح به

---

(١) الآية ١٩ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ١١ من سورة الشورى .
(٣) الحيدة ص ٢٤ – ٢٥ مطابع القصيم .

عبد الله الناشيء المتكلم [١] وغيره .

كما ترد على من زعم أن المعدوم شيء ، وقد أطبق العقلاء على أن لفظ شيء يقتضي إثبات موجود ، وعلى أن لفظ « لاشيء » يقتضى نفى موجود إلا ماتقدم من إطلاقهم « ليس بشيء فى الذم » [٢] .

وهذا الذى ذكره الحافظ عن ابن بطال واضح ، وقد تقدم مايدل عليه .

★ ★ ★

---

(١) هو أبو العباس عبد الله بن محمد الناشى الشاعر المتكلم يعرف بابن شرشير ، أصله من الأنبار وأقام ببغداد مدة طويلة ، ثم خرج إلى مصر وتوفى بها سنة ثلاث وتسعين ومائتين . الشذرات جـ ٢ ص ٢١٤ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٢ – ٤٠٣ .

٤٦ – قال : « حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا مالك عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد ، قال : قال النبى – ﷺ –: لرجل « أمعك شىء من القرآن ؟ قال : نعم سورة كذا ، وسورة كذا ، لسور سماها » .

* * *

سهل بن سعيد بن مالك بن خالد بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن ساعدة الأنصارى ، من مشاهير الصحابة ، ذكر ابن حبان أن اسمه حزن ، فغيَّر رسول الله – ﷺ – اسمه ، توفى رسول الله – ﷺ – وهو ابن خمس عشرة سنة وعمَّر طويلا ، فكان آخر من مات فى المدينة من الصحابة على أحد الأقوال ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وله أحاديث كثيرة فى كتب الحديث ، مات سنة إحدى وتسعين من الهجرة [١] .

هذا الحديث مختصر من قصة الواهبة نفسها للنبى – ﷺ – لما قال له رجل من أصحابه : إن لم يكن لك بها حاجة ، فزوجنيها يارسول الله ، قال له – ﷺ – : « أمعك شىء تعطيها إياه ؟ قال : لا ، قال : التمس ولو خاتما من حديد ، فلما لم يجد ، قال له : هل معك شىء من القرآن ؟ أى هل تحفظ شيئا منه ؟ قال : نعم سورة كذا ، وسورة كذا ، لسور سماها . فقال النبى – ﷺ – : زوجتكها على مامعك من القرآن » أى يكون تعليمه لها مامعه من سور القرآن صداقا لها .

والمقصود هنا أنه أطلق الشىء على القرآن ، بقوله : « أمعك شىء من القرآن » وهو صفة من صفات الله – تعالى – والصفة لها حكم الموصوف ، فيصح إطلاق ذلك على الله – تعالى – .

وقد تقدم فى كلام عبد العزيز الكنانى « أن لفظ الشىء يطلق على القرآن

---

(١) الإصابة جـ ٢ ص ٨٧ ، الاستيعاب جـ ٢ ص ٩٤ .

إثباتا لوجوده ، وحقيقته ، ونفيا لعدمه ، وليس لفظ الشيء اسما له . كما أنه يطلق على الله - تعالى - كذلك .

وأن الله أجرى كلامه على ما أجراه على نفسه ، إذ كان كلامه من ذاته ، ومن صفاته ، فلم يتسم بالشيء ، ولم يجعل الشيء اسما من أسمائه ، ولكنه دل على نفسه أنه شيء ، وأنه أكبر الأشياء إثباتا للوجود ، ونفياً للعدم ، وتكذيبا للزنادقة ومن تقدمهم ، ممن جحد معرفته ، وأنكر ربوبيته من سائر الأمم » [1]

★ ★ ★

---

(١) انظر الحيدة ص ٢٤ .

قال : « باب : « وكان عرشه على الماء ، وهو رب العرش العظيم »

* * *

قال الأزهرى : « العرش فى كلام العرب : سرير الملك ، يدلك على ذلك سرير ملكة سبأ ، سماه الله – جل وعز – عرشا ، فقال : (إنى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم) » [١] .

قلت : والعرش فى كلام العرب – أيضا – سقف البيت ، وجمعه عروش ، ومنه قول الله – جل وعز – : (أو كالذى مَرَّ على قرية ، وهى خاوية على عروشها) [٢]

قال الكسائى « على عروشها » على أركانها ، وقال غيره من أهل اللغة : على سقوفها أراد أن حيطانها قائمة ، وقد تهدمت سقوفها ، فصارت فى قرارها ، وانقعرت الحيطان من قواعدها ، فتساقطت على السقوف المتهدمة قبلها » [٣] .

« وقال الليث : العرش : السرير للملك ، والعرش ، والعريش : مايستظل به .

قال : وعرش الرجل : قوام أمره ، فإذا زال قوام أمره ، قيل : « ثل عرشه » [٤] .

وقال الجوهرى : « العرش سرير الملك ، وعرش البيت سقفه ، والعرش ،

---

(١) الآية ٢٣ من سورة النمل .
(٢) الآية ٢٥٨ من سورة البقرة .
(٣) تهذيب اللغة جـ ١ ص ٤١٣ .
(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٤١٥ .

والعريش مايستظل به ، وعرش القدم : مانتأ فى ظهرها . وفيه الأصابع ، وعرش البئر : طيها بالخشب ، بعد أن يطوى أسفلها بالحجارة قدر قامة ، فذلك الخشب هو العرش والجمع عروش .

وعرش ، يعْرُش ويَعْرِش عرشاً ، أى بنى بناء من خشب » [١] .

ويظهر مما ذكره أهل اللغة : أن العرش اسم للسرير المرتفع العظيم ، الذى يجلس عليه الملك ، ويطلق على السقف ، وعرش الرب جل وعلا له المعنيان فهو محل استوائه تعالى ، وهو سقف المخلوقات .

قوله : (وكان عرشه على الماء) [٢] قال ابن جرير : « يقول – تعالى – وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض ، ومافيهن « .

ثم روى عن مجاهد : وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق شيئا .

وروى بسنده عن قتادة « وكان عرشه على الماء » ينبئكم ربكم – تبارك وتعالى – كيف كان بدء خلقه ، قبل أن يخلق السموات والأرض .

ثم روى حديث أبى رزين العقيلى : « قلت : يارسول الله أين كان ربنا ، قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : « كان فى عماء ، مافوقه هواء ، وماتحته هواء ، ثم خلق عرشه على الماء » .

وفى رواية : « قلت : يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض » الخ [٣]

---

(١) الصحاح جـ ٣ ص ١٠١٠ .

(٢) الآية ٧ من سورة هود .

(٣) رواه الإمام أحمد فى المسند جـ ٤ ص ١١ و ١٢ ، والترمذى فى التفسير من سننه جـ ٤ ص ٣٥١ وقال : هذا حديث حسن ، وابن ماجه فى السنن جـ ١ ص ٦٤ رقم ١٨٢ ، والطبرى أيضا فى التاريخ جـ ١ ص ١٩ .

ثم روى عن ابن عباس ، أنه سئل : « وكان عرشه على الماء ، على أى شيء كان الماء ؟ قال : على متن الريح » [١] .

وقال الترمذى : « حدثنا أحمد بن منيع ، أخبرنا يزيد بن هارون ، أخبرنا حماد بن سلمة ، عن يعلى بن عطاء ، عن وكيع بن حدس [٢] ، عن عمه أبى رزين ، قال : قلت : يارسول الله أين كان ربنا ، قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان فى عماء ، ماتحته هواء ،وما فوقه هواء ، وخلق عرشه على الماء » ، قال أحمد : « قال يزيد : العماء ، أى ليس معه شيء » [٣] .

قال أبو عبيد : « العماء فى كلام العرب ، السحاب الأبيض »، قال الأصمعى ، وغيره : هو ممدود

وقال الحارث بن حلزة اليشكرى :

وكأن المنون تردى بنا أعـ ـــصم ينجاب عنه العماء

يقول : هو فى ارتفاعه ، قد بلغ السحاب ينشف عنه ، يقول : نحن فى عزنا مثل الأعصم ، فالمنون إذا أرادتنا ، فكأنما تريد أعصم .

وإنما تأولنا هذا الحديث . على كلام العرب المعقول عنهم ، ولاندرى كيف كان ذلك العماء ، ومامبلغه ، والله أعلم .

وأما العمى فى البصر ، فإنه مقصور ، وليس هو من معنى الحديث فى شيء » ا هـ [٤] نقل هذا الكلام الأزهرى ، ثم قال : « قلت : وقد بلغنى ، عن أبى الهيثم ، ولم يعزه لى ، إلى ثقة – أنه قال فى تفسير هذا الحديث ، ولفظه : أنه كان فى عمى مقصور ، قال : وكل أمر لاتدركه القلوب بالعقول ، فهو عمى ، والمعنى : أنه كان حيث لاتدركه عقول بنى آدم ، ولايبلغ كنهه وصف .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٥ ص ٢٤٥ – ٢٤٩ بتحقيق محمود شاكر .

(٢) قال الترمذى : هكذا يقول حماد بن سلمة : وكيع بن حدس .

(٣) سنن الترمذى جـ ٤ ص ٣٥١ .

(٤) الغريب جـ ٢ ص ٨ – ٩ .

قلت أنا [١] : والقول عندى ، ماقاله أبو عبيد ، أنه العماء ، ممدود ، وهو السحاب ولايدرى كيف ذلك العماء ، بصفة تحصره ، ولانعت يحده ، ويقوى هذا القول قول الله – جل وعز – (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل [٢] من الغمام) [٣] فالغمام معروف فى كلام العرب .

إلا أنا لاندرى ، كيف الغمام الذى يأتى الله – عز وجل – يوم القيامة فى ظلل منه فنحن نؤمن به ، ولانكيف صفته ، وكذلك سائر صفات الله عز وجل » ا هـ [٤] .

فعلى ماذكره يزيد بن هارون ، وأقره الترمذى ، يكون المعنى : ليس مع الله شىء ، فيدل على أن الله – تعالى – كان ، ولم يكن معه شىء ، كما سيأتى فى حديث عمران إن شاء الله تعالى .

وعلى قول من فسر العماء بالسحاب الرقيق ، ورجحه الأزهرى ، لا يدل على قول الفلاسفة الدهرية ، القائلين بقدم العالم ، وتبنى مذهبهم الماديون اليوم وذلك أن الله – تعالى – أخبرنا فى كتابه ، بابتداء الخلق ، وإعادته كما قال تعالى : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) [٥] ، كما أخبر بخلق السماوات ، والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، فى مواضع كثيرة من كتابه – تعالى [٦] .

---

(١) القائل هو الأزهرى .

(٢) فيه « ظل » وهو خطأ مطبعى .

(٣) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .

(٤) تهذيب اللغة جـ ٣ ص ٢٤٦ .

(٥) الآية ٢٧ من سورة الروم .

(٦) انظر نقض تأسيس الجهمية جـ ١ ص ١٥٤ .

وقوله : (وهو رب العرش العظيم) [١] أى هو تعالى المالك للعرش ، الذى هو أكبر المخلوقات ، وأعظمها ، وهو المتصرف فيه ، وهو عرشه الذى استوى عليه ، فاختاره لذلك .

فالإضافة تقتضى اختصاصا للعرش من بين المخلوقات ، فهو تعالى رب كل مخلوق . فإضافة العرش إليه – تعالى – ووصفه بأنه عظيم ، يدل على خصوصية للعرش ، ليست لغيره من سائر المخلوقات ، كما يدل على أنه – تعالى – مالك لكل مادون العرش بطريق الأولى ، والمتصرف فيه كيف يشاء .

قال ابن جرير : « وإنما عنى بوصفه – جل ثناؤه – نفسه بأنه « رب العرش العظيم » الخبر عن جميع مادونه ، أنهم عبيده ، وفى ملكه وسلطانه ، لأن العرش إنما يكون للملوك ، فوصف نفسه بأنه ذو العرش ، دون سائر خلقه ، وأنه الملك العظيم ، دون غيره ، وأن من دونه ، فى سلطانه وملكه، جارٍ عليه حكمه وقضاؤه » [٢] .

وقال ابن كثير : « وهو رب العرش العظيم » أى هو مالك كل شىء ، وخالقه ، لأنه رب العرش العظيم ، الذى هو سق المخلوقات ، وجميع المخلوقات ، من السموات والأرضين ، ومافيهما ، ومابينهما تحت العرش ، مقهورون بقدرة الله – تعالى – وعلمه محيط بكل شىء ، وقدره نافذ فى كل شىء ، وهو على كل شىء وكيل » [٣] . « قال – جل وعلا –: (ذو العرش المجيد) [٤] ، وقال – جلت عظمته –: (وترى الملائكة حافين من حول العرش) [٥] ، وقال – تعالى –: (الذين يحملون العرش ، ومن حوله ، يسبحون بحمد ربهم) [٦] ، وقال

---

(١) آخر آية من سورة التوبة .
(٢) تفسير الطبرى جـ ١٤ ص ٥٨٧ بتحقيق محمود شاكر .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٧٩ – ١٨٠ ط الشعب .
(٤) الآية ١٥ من سورة البروج .
(٥) الآية ٧٥ من سورة الزمر .
(٦) الآية ٧ من سورة غافر .

تعالى : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) [(١)] .

وأقوال أهل التفسير [متفقة] على أن العرش هو السرير ، وأنه جسم مجسم خلقه الله وأمر ملائكته بحمله ، وتعبدهم بتعظيمه ، والطواف به ، كما خلق فى الأرض بيتا ، وأمر بنى آدم بالطواف به ، واستقباله فى الصلاة .

وفى الآيات المتقدمة دلالة على صحة ماذهبوا إليه» ا هـ [(٢)] .

والأخبار عن رسول الله - ﷺ - والصحابة ، والتابعين لهم فى ذكر العرش ووصفه ، وأن الله تعالى مستوٍ عليه كثيرة جدا ، وسيأتى طرف يسير منها إن شاء الله تعالى .

ففى الصحيحين عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله - ﷺ - :« لقد اهتز عرش الرحمن لموت سعد » [(٣)]

« وقال ابن مسعود فى قوله : « ثم استوى على العرش » قال العرش على الماء ، والله فوق العرش ، وهو يعلم ما أنتم عليه » [(٤)]

وقال سليمان التيمى : لو سئلت ، أين الله ؟ لقلت فى السماء ، فإن قال : أين كان عرشه قبل السماء ؟ لقلت : على الماء ، فإن قال : فأين كان عرشه قبل خلق الماء ؟ لقلت : لا أعلم .

قال البخارى : وذلك لقوله - تعالى - : (ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء) « يعنى إلا بما بين » [(٥)]

---

(١) الآية ١٧ من سورة الحاقة .

(٢) الأسماء والصفات للبيهقى ص ٣٩٢ . والمفروض أن يقول : خلقه الله واستوى عليه وأمر ملائكته الخ . ولكن أبى عليه المذهب ذلك .

(٣) البخارى مع الفتح .ج ٧ ص ١٢٣ ، ومسلم جـ ٤ ص ١٩١٥ .

(٤) خلق أفعال العباد ص ٤٣ .

(٥) المصدر نفسه ص ٣٧ .

وقال أبو نصر السجزى فى الإبانة : « وأئمتنا كسفيان ، ومالك ، والحمادين ، وابن عيينة ، والفضيل ، وابن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق ، متفقون على أن الله – سبحانه – فوق العرش ، وعلمه بكل مكان ، وأنه ينزل إلى سماء الدنيا ، وأنه يغضب ، ويرضى ويتكلم بما يشاء » [١]

والنصوص فى ذكر العرش ، وأن الله – تعالى مستوٍ عليه ، كثيرة جدا .

وآمن الصحابة وأتباعهم بذلك ، على مادلت النصوص عليه ظاهرا ، دون تأويل أو تحريف ، وبلا تشبيه ، ولا تمثيل ، كما سيأتى بعض ذلك إن شاء الله تعالى .

قوله : « قال أبو العالية : « استوى إلى السماء » أى ارتفع ، « فسواهن » خلقهن . وقال مجاهد : « استوى : علا على العرش » .

هذا الذى ذكره البخارى عن أبى العالية ، ومجاهد ، هو الذى يقوله ، ويعتقده عامة السلف من الصحابة وأتباعهم إلى اليوم .

وهو الحق الذى دلت عليه النصوص ، وجاءت تعبيراتهم فى ذلك فى أربعة ألفاظ ماذكره البخارى هنا ، وثالثها « صعد » ، ورابعها « استقر » . وسوف أذكرها مع أسانيدها إليهم .

قال ابن جرير : « حدثت ، عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : « ثم استوى إلى السماء » يقول : ارتفع إلى السماء » [٢] .

وروى اللالكائى بسنده ، عن بشر بن عمر ، قال : سمعت غير واحد من المفسرين يقولون : « الرحمٰن على العرش استوى : ارتفع » [٣] .

---

(١) نقلا عن سير أعلام النبلاء جـ ١٧ ص ٦٥٠ .
(٢) تفسير الطبرى جـ ١ ص ٤٢٩ بتحقيق محمود شاكر .
(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة جـ .

قال ابن عبد البر : « الاستواء : الاستقرار فى العلو ، وبهذا خاطبنا الله عز وجل – فقال : (لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه) [١] ، وقال : (واستوت على الجودى) [٢] وقال : (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك) [٣] . وقال الشاعر :

فأوردتهم ماء بفيفاء قفرة وقد حلق النجم اليمانى فاستوى

وهذا لايجوز أن يتأول فيه أحد ، استولى ، لأن النجم لا يستولى .

وقد ذكر النضر بن شميل [٤] . وكان ثقة مأمونا ، جليلا فى علم الديانة ، واللغة .

قال : حدثنى الخليل – وحسبك بالخليل – قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابى ، وكان من أعلم من رأيت ، فإذا هو على سطح ، فسلمنا ، فرد علينا السلام ، وقال لنا : استووا فبقينا متحيرين ، ولم ندر ماقال ؟ قال : فقال لنا أعرابى إلى جنبه : إنه أمركم أن ترتفعوا . قال الخليل : هو من قول الله – عز وجل –: (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) [٥] فصعدنا إليه ، فقال : هل لكم فى خبز فطير ، ولبن هجير ، وماء نمير ؟ فقلنا : الساعة فارقناه ، فقال : سلاما ، فلم ندر ماقال ، فقال الأعرابى : إنه سألكم متاركة لا خير فيها ، ولا شر ، قال الخليل :

---

(١) الآية ١٣ من سورة الزخرف .

(٢) جزء من الآية ٤٤ من سورة هود .

(٣) الآية ٢٨ من سورة (قد أفلح المؤمنون) .

(٤) النضر بن شميل بن خرشة المازنى ، كان إماما حافظا جليل الشأن ، صاحب سنة . كان رأسا فى الحديث ، وفى اللغة والنحو ضاقت به معيشته فى البصرة ، فخرج منها إلى مرو ، ونشر بها السنة ، توفى سنة ٢٠٣ هـ ، انظر الشذرات جـ ٢ ص ٧ .

(٥) الآية ١١ من سورة فصلت .

هو من قول الله – عز وجل –: (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) [(١)] اهـ [(٢)] .

قال البغوى : « ثم استوى على العرش » قال الكلبى ، ومقاتل : استقر .

وقال أبو عبيدة : صعد .

ثم قال : « وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء ، وأما أهل السنة ، فيقولون الاستواء على العرش ، صفة لله تعالى بلا كيف ، يجب على العبد الإيمان به ، ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل » [(٣)] .

وقال البخارى : « حدثت عن يزيد بن هارون ، قال : من زعم أن الرحمن على العرش استوى ، على خلاف مايقر فى قلوب العامة ، فهو جهمى » [(٤)]

ومراده أن الاستواء من الأمور الواضحة ، التى يفهمها عامة المسلمين إذا كانوا من أهل اللغة العربية .

كما أن مراد البغوى فى قوله : « ويكل العلم فيه إلى الله – عز وجل – » علم الكيفية . وأما معناه فى اللغة ، فهو معلوم ظاهر ، كما يأتى فى كلام الإمام مالك ، وشيخه ربيعة ، وأم سلمة .

قال ابن جرير : الاستواء فى كلام العرب يأتى على وجوه :

منها انتهاء شباب الرجل ، وقوته ، فيقال إذا صار كذلك : قد استوى الرجل . ومنها استقامة ماكان فيه أود ، من الأمور ، والأسباب ، يقال منه : استوى لفلان أمره ، إذا استقام بعد أود ، ومنه قول الطرماح بن حكيم :

طال على رسم مهدد أبده   وعفا ، واستوى به بلده

---

(١) الآية ٦٣ من سورة الفرقان .

(٢) التمهيد جـ ٧ ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٣) تفسير البغوى جـ ٢ ص ٢٣٧ .

(٤) خلق أفعال العباد ص ١٢٧ مجموعة عقائد السلف .

يعنى استقام به .

ومنها : الإقبال على الشيء ، يقال : استوى فلان ، على فلان بما يكرهه ، ويسوءه بعد الإحسان إليه .

ومنها الاحتياز ، والاستيلاء ، كقولهم : استوى على المملكة ، بمعنى احتوى عليها ، وحازها

ومنها العلو ، والارتفاع ، كقول القائل : « استوى فلان على سريره ، يعنى به علوه عليه » [١]

قلت : قد أنكر أهل اللغة المعنى الثالث ، والرابع مما ذكره ابن جرير فى الاستواء المعدى بعلى .

قال ابن القيم : ولفظ الاستواء فى كلام العرب الذى خاطبنا الله به ، وأنزل به كلامه نوعان ، مطلق ، ومقيد .

فالمطلق ، مالم يوصل معناه بحرف ، مثل قوله : (ولما بلغ أشده واستوى) . وهذا معناه : كمل ، وتم ، يقال : استوى الزرع ، واستوى الطعام .

وأما المقيد فثلاثة أضرب :

أحدها مقيد بإلى ، كقوله : (ثم استوى إلى السماء) [٢] ، واستوى فلان إلى السطح وقد ذكر تبارك – وتعالى – هذا المعدى بإلى فى موضعين من كتابه فى البقرة فى قوله – تعالى – : (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء) [٢] .

والثانى فى سورة حم السجدة ، قوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) [٢] ، وهذا بمعنى العلو ، والارتفاع بإجماع السلف .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١ ص ٤٢٩ بتحقيق محمود شاكر .
(٢) الآية ٢٩ من سورة البقرة ، والآية ١١ من سورة فصلت .

الثانى مقيد بعلى ، كقوله تعالى : (لتستووا على ظهوره) [١] ، وقوله : (واستوت على الجودى) [٢] وقوله : (فاستوى على سوقه) [٣] وهذا معناه أيضا العلو ، والارتفاع والاعتدال ، بإجماع أهل اللغة .

الثالث : المقرون بواو المعية ، التى تعدى الفعل إلى المفعول معه ، نحو : استوى الماء والخشبة . بمعنى ساواها .

فهذه معانى الاستواء المعقولة فى كلامهم ، ليس فيها استولى ألبتة ، ولانقله أحد من أئمة اللغة ، الذين يعتمد قولهم ، وإنما قاله متأخرو النحاة ، ممن سلك طريق المعتزلة ، والجهمية .

والذين قالوه ، لم يقولوه نقلا ، فإن ذلك مجاهرة بالكذب ، ولكن قالوه استنباطا وحملا منهم للفظة استوى ، على استولى ، ولذلك لما سمع أهل اللغة ذلك أنكروه ، غاية الإنكار .

قال ابن الأعرابى – وقد سئل هل يصح أن يكون استوى بمعنى استولى ؟ .

فقال : « لاتعرف العرب ذلك ، وهو من أكابر أئمة اللغة » ا هـ [٤] .

قال ابن جرير : « وأولى المعان بقول الله – جل ثناؤه – : (ثم استوى إلى السماء فسواهن) . علا عليهن ، وارتفع ، فدبرهن بقدرته ، وخلقهن سبع سماوات .

والعجب ممن أنكر المعنى المفهوم ، من كلام العرب ، فى تأويل قول الله تعالى : (ثم استوى إلى السماء) . الذى هو بمعنى العلو ، والارتفاع ، هربا عند نفسه من أن يلزمه بزعمه – إذا تأوله بمعناه المفهوم كذلك – أن يكون إنما علا ،

---

(١) الآية ١٣ من سورة الزخرف .
(٢) الآية ٤٤ من سورة هود .
(٣) الآية ٢٩ من سورة الفتح .
(٤) مختصر الصواعق ص ٣٢٠ ببعض التصرف .

وارتفع بعد أن كان تحتها – إلى تأويله بالمجهول ، المستكره ، ثم لم ينج مما هرب منه . فيقال له : زعمت أن تأويل قوله : « استوى » . أقبل ، أفكان مدبرا عن السماء فأقبل إليها ؟ فإن زعم أن ذلك ليس بإقبال فعل ، ولكنه إقبال تدبير . قيل له : فكذلك فقل : علا عليها ، علو ملك ، وسلطان ، لا علو انتقال وزوال ، ثم لن يقول : فى شىء من ذلك ، قولا ، إلا لزم فى الآخر مثله » (١)

قوله : « فقل : علا عليها علو ملك وسلطان ، لاعلو انتقال وزوال » هو من جنس كلام أهل البدع ، فلا ينبغى ، وهو خلاف الظاهر من النصوص ، بل هو من التأويل الباطل .

قال ابن القيم : « نقل معنى الاستواء ، كنقل لفظه ، بل أبلغ ، فإن الأمة كلها تعلم بالضرورة أن الرسول – ﷺ – أخبر عن ربه بأنه استوى على عرشه ، من يحفظ القرآن منهم ، ومن لا يحفظه ، كما قال مالك ، وأئمة السنة : الاستواء معلوم ، غير مجهول ، كما أن معنى السمع ، والبصر ، والقدرة ، والحياة ، والإرادة ، وسائر ماأخبر به – تعالى – عن نفسه معلوم ، وإن كانت كيفيته غير معلومة للبشر ، فإنهم لم يخاطبوا بالكيفية ، ولم يرد منهم العلم بها .

فإخراج الاستواء عن حقيقته المعلومة ، كإنكار لفظه ، بل أبلغ ، وهذا مما يعلم أنه مناقض لما أخبر الله به ورسوله ، فإن فهم معنى اللفظ هو المراد منه ، وهو المقصود بالذات ، لا اللفظ ، فإن اللفظ مقصود قصد الوسائل للتعريف بالمراد ، فإذا التقى المعنى ، وكانت إرادته محال – كما زعموا – لم يبق لذكر اللفظ فائدة ، بل كان تركه أنفع من الإتيان به ، فإن الإتيان به يحصل منه إيهام التشبيه ، ويوقع الأمة فى اعتقاد الباطل – على حد زعمهم – ولا ريب أن هذا إذا نسب إلى آحاد الناس كان ذمه أولى من مدحه ، فكيف يجوز أن ينسب إلى من فى كلامه الهدى ، والشفاء . ومن المتفق عليه أنه لا يجوز أن يتكلم الله ورسوله

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١ ص ٤٣٠ بتحقيق محمود شاكر .

بالشيء ويريد خلاف ظاهره » [١] .

وقال أيضا – « وظاهر الاستواء العلو ، والارتفاع ، كما نص عليه جميع أهل اللغة ، وأهل التفسير المقبول ، فلا يحتمل استواء الرب تبارك وتعالى على عرشه ، المعدى بعلى ، المعلق بالعرش ، المعرف بالألف واللام ، المعطوف على خلق السماوات والأرض بثم مطرداً فى مواره ، بهذا الأسلوب – لا يحتمل إلا معنى واحدا ، لامعنيين ، ولا كما يقول صاحب القواصم والعواصم : [٢]

إذا قال لك المجسم : (الرحمٰن على العرش استوى) [٣] ، فقل : استوى على العرش يستعمل على خمسة عشر وجها ، فأيها تريد ؟ .

فيقال له : كلا والذى استوى على العرش ، لايحتمل هذا اللفظ معنيين ألبتة . والمدعى للاحتمال عليه الدليل ، والأصل عدم الاشتراك والمجاز ، ولم تذكر على دعواك دليلا ، ولم تبين الوجوه المحتملة ، مع ذكر الدليل عليه .

والمقصود أن استواء الرب – تعالى – على عرشه ، المختص به الموصول بأداة على نص فى معناه ، لايحتمل سواه » ا هـ [٤] .

وقال الحافظ : « نقل أبو إسماعيل الهروى ، فى كتابه الفاروق ، بسنده إلى داود بن على بن خلف ، قال : كنا عند أبى عبد الله بن الأعرابى – يعنى يحي بن زياد اللغوى فقال له رجل : (الرحمٰن على العرش استوى) [٥] ، فقال : هو على العرش كما أخبر قال : ياأبا عبد الله ، إنما معناه : استولى ، فقال : أسكت ، لا يقال : استولى على شيء إلا أن يكون له مضاد .

---

(١) مختصر الصواعق ص ٣٣١ – ٣٣٢ .
(٢) هو ابن العربى المالكى .
(٣) الآية ٥ من سورة طه .
(٤) مختصر الصواعق ملخصا ص ٣٣٢ – ٣٣٤ .
(٥) الآية ٥ من سورة طه .

ومن طريق محمد بن أحمد بن النضر ، الأزدى ، سمعت ابن الأعرابى يقول : أرادنى أحمد بن أبى دؤاد ، أن أجد له فى لغة العرب ، (الرحمٰن على العرش استوى) [١] بمعنى استولى ، فقلت : والله ماأصبت هذا [٢] .

وقال غيره : لو كان بمعنى استولى لم يختص بالعرش ، لأنه غالب على جميع المخلوقات » ا هـ [٣] .

وروى اللالكائى بسنده من طريق الحسن ، عن أمه ، عن أم سلمة ، فى قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) [١] ، قالت : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإقرار به إيمان ، والجحود به كفر .

وروى عن مالك ، جاء إليه رجل ، فقال : ياأبا عبد الله ، (الرحمٰن على العرش استوى) [١] كيف استوى ؟ قال : فما رأيت مالكا وجد من شىء ، كموجدته من مقالته ، وعلاه الرحضا – يعنى العرق – قال : وأطرق القوم ، وجعلوا ينظرون مايأتى منه فيه ، فسرى عن مالك ، فقال : الكيف غير معقول ، والاستوى منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فإنى أخاف أن تكون ضالا ، وأمر به فأخرج [٤]

وذكر بسنده ابن عينية ، قال : سئل ربيعة ، عن قوله « الرحمن على العرش استوى » [١] كيف استوى ؟ قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق » [٥]

---

(١) الآية ٥ من سورة طه .

(٢) ورواه اللالكائى فى شرح أصول السنة جـ ٢ ص ٣٩٩ .

(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٦ وذكر آثارا كثيرة بهذا المعنى فليراجع .

(٤) شرح أصول السنة اللالكائى ص ٣٩٨ .

(٥) شرح أصول السنة جـ ٢ ص ٣٩٨ .

وذكر البيهقى بسنده ، عن الأوزاعى ، قال : كنا والتابعون متوافرون ، نقول : إن الله فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة ، من صفاته [١] .

قال الحافظ : سنده جيد [٢] .

وقال : « وأخرج الثعلبى ، من وجه آخر ، عن الأوزاعى ، أنه سئل عن قوله تعالى : (الرحمٰن على العرش استوى) [٣] . فقال : هو كما وصف نفسه » [٤]

« قال أبو بكر الأثرم ، فى كتاب السنة : حدثنا إبراهيم بن الحارث – يعنى العبادى – حدثنى الليث بن يحي ، سمعت إبراهيم بن الأشعث ، قال أبو بكر – هو صاحب الفضيل – سمعت الفضيل بن عياض ، يقول : ليس لنا أن نتوهم فى الله كيف وكيف ، لأن الله وصف نفسه فأبلغ ، فقال : « قل هو الله أحد الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » فلا صفة أبلغ مما وصف الله – عز وجل – نفسه وكل هذا النزول ، والضحك ، وهذه المباهاة ، وهذا الاطلاع ، كما شاء أن ينزل وكما شاء أن يباهى ، وكما شاء أن يطلع ، وكما شاء أن يضحك ، فليس لنا أن نتوهم فيه كيف ، وكيف ، وإذا قال لك الجهمى : أنا أكفر برب يزول عن مكانه ، فقل أنت : أنا أؤمن برب يفعل مايشاء .

وقال الخلال : وأنبأنا محمد بن على الورَّاق ، حدثنا أبو بكر الأثرم ، حدثنى محمد بن إبراهيم القيسى ، قال : قلت لأحمد بن حنبل : يحكى عن ابن المبارك ، قيل له : كيف نعرف ربنا ؟ قال : فى السماء السابعة على عرشه بحد ، فقال أحمد : هكذا هو عندنا .

---

(١) الأسماء والصفات ص ٤٠٨ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٦ .

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

(٤) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٦ .

وأخبرنى حرب بن إسماعيل ، قال : قلت لإسحاق – يعنى ابن إبراهيم – هو على العرش بحد ؟ قال : نعم بحد .

وذكر عن ابن المبارك ، قال : هو على عرشه ، بائن من خلقه ، بحد .

وأخبرنا المروزى ، قال : قال إسحاق بن إبراهيم بن راهويه : قال الله – تعالى (الرحمٰن على العرش استوى) [١] ، إجماع أهل العلم أنه فوق العرش ، استوى ويعلم كل شىء ، فى أسفل الأرض السابعة ، وفى قعور البحار ، ورؤوسالآكام وبطون الأودية ، وفى كل موضع ، كما يعلم علم مافوق السماوات السبع ، وما فوق العرش ، أحاط بكل شىء علما ، فلا تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات البر ، والبحر ، ولا رطب ، ولا يابس إلا قد عرف ذلك كله وأحصاه ، فلا تعجزه معرفة شىء عن معرفة غيره » [١]

ومعنى قولهم : « بحد » أنه – تعالى – بائن من خلقه ، غير حال فيهم ، ولا مخالط لهم – تعالى وتقدس – وقد قيدوا الحد ، بأنه لا يعلمه إلا هو – تعالى – وهو قريب من قول الإمام مالك وغيره : « الاستوى معلوم ، والكيف مجهول » ، فبين أن كيفية استوائه – تعالى – على العرش مجهولة للعباد ، ولكنه لم ينف ثبوت ذلك فى نفس الأمر فكذلك قولهم : له حد لا يعلمه إلا هو ، والله أعلم .

قال الإمام عثمان ابن سعيد الدارمى – رحمه الله تعالى – فى رده على بشر المريسى : « والله – تعالى – له حد ، لا يعلمه غيره ، ولا يجوز أن يتوهم لحده غاية فى نفسه ، ولكن نؤمن بالحد ، ونكل علم ذلك إلى الله – تعالى – .

ولمكانه حد ، وهو على عرشه ، فوق سماواته ، فهذان حدان » [٢] .

وقال عبد العزيز بن يحي المكى الكنانى ، صاحب الحيدة فى الرد على الزنادقة ، والجهمية : « زعمت الجهمية فى قوله تعالى : (الرحمٰن على العرش

---

(١) درء تعارض العقل والنقل جـ ٢ ص ٢٤ و ٣٤ – ٣٥ .

(٢) رد عثمان بن سعيد على بشر المريسى ص ٣٨٢ مجموع عقائد السلف .

استوى) [١] إنما المعنى استولى كقول العرب : استولى فلان على مصر ، استولى فلان على الشام ، يريد استولى عليها .

فيقال له : هل يكون خلق من خلق الله أتت عليه مدة ليس الله بمستول عليه ؟ فإذا قال : لا .

قيل له : فمن زعم ذلك ؟ فمن قوله : من زعم ذلك ، فهو كافر .

يقال له : يلزمك أن تقول : إن العرش قد أتت عليه مدة ليس الله بمستول عليه ، وذلك أن الله – تبارك وتعالى – أخبر أنه خلق العرش قبل خلق السموات والأرض ، ثم استوى عليه بعد خلق السماوات والأرض .

قال – تعالى – : (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء) [٢] فأخبر أن العرش كان على الماء قبل خلق السموات والأرض وقال – تعالى – : (خلق السماوات والأرض ، وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) [٣] وقال : (ثم استوى إلى السماء فسواهن) [٤] .

فأخبر أنه استوى على العرش ، فيلزمك أن تقول : المدة التى كان على العرش فيها ، قبل خلق السموات ، والأرض ، ليس الله بمستول عليه ، إذ كان استوى على العرش معناه عندك : استولى .

فإنما استولى بزعمك فى ذلك الوقت لاقبله » – ثم ذكر حديث عمران الآتى وحديث أبى رزين المتقدم ، ثم قال :

« فقال الجهمى : أخبرنى كيف استوى على العرش ؟ أهو كما يقال : استوى فلان على السرير ، فيكون السرير قد حوى فلانا وحده إذا كان عليه ، لأنا لا نعقل الشىء على الشىء إلا هكذا .

---

(١) الآية ٥ من سورة طه .
(٢) الآية ٧ من سورة هود .
(٣) الآية ٤ من سورة الٓم السجدة .
(٤) الآية ٢٩ من سورة البقرة .

فيقال له : أما قولك : كيف استوى ؟ فإن الله لايجرى عليه كيف ، وقد أخبرنا أنه استوى على العرش ، ولم يخبرنا كيف استوى ، فوجب على المؤمنين أن يصدقوا ربهم ، باستوائه على العرش ، وحرم عليهم أن يصفوا كيف استوى ، لأنه لم يخبرهم كيف ذلك ، ولم تره العيون فى الدنيا فتصفه بما رأت ، وحرم عليهم أن يقولوا عليه من حيث لا يعلمون .

فآمنوا بخبره عن الاستواء ، ثم ردوا علم كيف استوى إلى الله .

ولكن يلزمك أيها الجهمى أن تقول : إن الله محدود ، وقد حوته الأماكن ، إذا زعمت فى دعواك ، أنه فى الأماكن ، لأنه لا يعقل شىء فى مكان ، إلا والمكان قد حواه ، كما تقول العرب : فلان فى البيت ، والماء فى الجب ، فالبيت قد حوى فلانا ، والجب قد حوى الماء .

ويلزمك أشنع من ذلك ، لأنك قلت : أفظع مما قالت به النصارى ، وذلك أنهم قالوا : إن الله – عز وجل – فى عيسى ، وعيسى بدن إنسان واحد ، وكفروا بذلك وأنتم تقولون : إنه فى كل مكان ، وفى بطون النساء كلهن ، و[فى] بدن عيسى ، وأبدان الناس كلهم .

ويلزمك أيضا أن تقول : إنه فى أجواف الكلاب ، والخنازير ، لأنها أماكن وعندك ، أن الله فى كل مكان – تعالى الله – عن ذلك علوا كبيرا » [1] .

وقال أبو الحسن الأشعرى فى الإبانة : « إن قال قائل : ما تقولون فى الاستواء ؟ قيل : نقول : إن الله عز وجل – مستوٍ على عرشه ، كما قال : (الرحمٰن على العرش استوى) [2] وقال – تعالى –: (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض) [3] ، فالسموات فوقها العرش ، فلما كان

---

(١) درء تعارض العقل والنقل جـ ٦ ص ١١٥ – ١١٨ .
(٢) الآية ٥ من سورة طه .
(٣) الآية ١٦ من سورة الملك .

العرش فوق السموات قال : « أأمنتم من فى السماء » لأنه مستوٍ على العرش ، الذى فوق السموات ، وكل ماعلا فهو سماء ، فالعرش أعلى السموات وليس إذا قال : « أأمنتم من فى السماء » يعنى جميع السموات ، وإنما أراد العرش ، الذى هو أعلى السموات ، ألا ترى أن الله – عز وجل – ذكر السموات ، فقال : (وجعل القمر فيهن نورا) [١] ، ولم يرد أن القمر يملأهن جميعا ، وأنه فيهن جميعا .

ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم إذا دعوا ، نحو السماء ، لأن الله – عز وجل – مستو على العرش ، الذى هو فوق السماوات ، كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض .

ولو كان كما تقوله المعتزلة ، والجهمية ، أن معناه : استولى ، وملك ، وقهر ، لم يكن هناك فرق بين العرش ، والأرض السابعة ، ولكان مستويا على العرش ، وعلى الأرض ، وعلى السماء ، وعلى الحشوش ، والأقذار » [٢] تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وقال الباقلانى – وهو من أئمة الأشاعرة –: « فإن قال قائل : أتقولون : إنه فى كل مكان ؟ قيل : معاذ الله ، بل هو مستوٍ على عرشه ، كما أخبر فى كتابه ، فقال : (الرحمٰن على العرش استوى) [٣] وقال : (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) [٤] وقال : (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض) [٥] .

---

(١) الآية ١٦ من سورة نوح عليه السلام .

(٢) الإبانة ص ٨٥ – ٨٧ ملخصا.

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

(٤) الآية ١٠ من سورة فاطر .

(٥) الآية ١٦ من سورة الملك .

ولو كان فى كل مكان ، لكان فى بطن الإنسان ، وفمه ، وفى الحشوش ، والمواضع التى نرغب عن ذكرها ، ولوجب أن يزيد بزيادة الأمكنة ، إذا خلق منها مالم يكن خلقه وينقص بنقصانها إذا بطل منها ماكان ، ولصح أن يرغب إليه إلى نحو الأرض ، وإلى خلفنا ، وإلى يميننا ، وشمائلنا ، وهذا قد أجمع المسلمون على خلافه ، وتخطئة قائله » [١] .

وقال شيخ الإسلام : « وإذا كان المسلمون يكفرون من يقول : إن السموات تقله ، أو تظله ، لما فى ذلك من احتياجه إلى مخلوقاته ، فمن قال : إنه فى استوائه على العرش محتاج إليه ، كاحتياج المحمول ، إلى حامله ، فإنه كافر ، لأن الله غنى ، عن العالمين حي ، قيوم ، الغنى المطلق ، وماسواه فقير إليه .

مع أن أصل الاستواء على العرش ، ثابت بالكتاب ، والسنة ، واتفاق سلف الأمة ، وأئمة السنة ، بل ثابت فى كل كتاب ، أنزل على كل نبى أرسل » [٢] .

وذكر عن أبى عمر الطلمنكى : أنه قال : « قال أهل السنة ، فى قوله - تعالى - : (الرحمٰن على العرش استوى) [٣] : أن الاستواء من الله على عرشه المجيد ، على الحقيقة لا على المجاز » [٤] .

وقال ابن عبد البر فى شرح حديث النزول : « وفيه دليل على أن الله فى السماء ، على العرش من فوق سبع سموات ، كما قالت الجماعة ، وهو من حجتهم على المعتزلة ، فى قولهم : إن الله فى كل مكان ، وليس على العرش .

---

(١) التمهيد ص ٢٦٠ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٢ ص ١٨٨ .

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

(٤) مجموع الفتاوى جـ ٣ ص ٢٦١ .

ومن الدليل على صحة ماقاله أهل الحق ، قول الله – تعالى – : (الرحمن على العرش استوى) [١]

قال شيخ الإسلام : « وفى الفقه الأكبر ، المروى عن الإمام أبى حنيفة – رحمه الله – قال : « من قال : لا أعرف ربى فى السماء ، أم فى الأرض ، فقد كفر ، لأن الله – تعالى – يقول : (الرحمٰن على العرش استوى) [٢] وعرشه فوق سبع سماواته »

قلت : فإن قال : إنه على العرش استوى ، ولكنه يقول : لا أدرى ، العرش فى السماء ، أم فى الأرض ؟ قال : هو كافر ، لأنه أنكر أن يكون فى السماء ، لأنه – تعالى – فى أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى ، لا من أسفل .

وفى لفظ : سألت : أبا حنيفة : عمن يقول : لاأعرف ربى ، فى السماء ، أم فى الأرض ؟ قال : قد كفر ، لأن الله – تعالى – يقول : (الرحمٰن على العرش استوى) [٣] وعرشه فوق سبع سموات .

قال : فإنه يقول : على العرش استوى ، ولكن لا يدرى العرش فى الأرض ، أو فى السماء ؟ قال : إذا أنكر أنه فى السماء فقد كفر » . ثم قال :

« ففى هذا الكلام المشهور عن أبى حنيفة ، عند أصحابه ؛ أنه كفر الواقف ، الذى يقول : لا أعرف ربى ، فى السماء ، أم فى الأرض .

فكيف يكون الجاحد ، النافى ، الذى يقول : ليس فى السماء ، أو ليس فى السماء ولا فى الأرض ؟ .

واحتج على كفره بقوله تعالى : (الرحمٰن على العرش استوى) [٣] قال : وعرشه فوق سبع سموات ، وبين بهذا أن قوله – تعالى – : (الرحمٰن على

---

(١) التمهيد جـ ٧ ص ١٢٩ .
(٢) الآية ٥ من سورة طه .
(٣) الآية ٥ من سورة طه .

العرش استوى) [١] يبين أن الله ، فوق السماوات ، فوق العرش ، وأن الاستواء على العرش ، دل على أن الله بنفسه فوق العرش .

ثم إنه أردف ذلك بتكفير من قال : إنه على العرش استوى ، ولكن توقف فى كون العرش فى السماء ، أم فى الأرض ؛ قال : لأنه أنكر أنه فى السماء ، لأن الله فى أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى ، لا من أسفل .

وهذا تصريح من أبى حنيفة – رحمه الله – بتكفير من أنكر أن يكون الله فى السماء .

واحتج على ذلك بأن الله فى أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى ، لا من أسفل ، وكل من هاتين الحجتين فطرية عقلية ، فإن القلوب مفطورة على الإقرار بأن الله فى العلو ، وعلى أنه يدعى من أعلى ، لا من أسفل .

وقد جاء اللفظ الآخر صريحاً عنه بذلك ، فقال : « إذا أنكر أنه فى السماء فقد كفر » [٢] وكلام العلماء من أهل السنة ، من السلف وأتباعهم فى هذا الموضوع كثير جدا . فنكتفى بهذا الطرف اليسير ، لأن العاقل المنصف ، الذى يريد الحق ، ويطلبه إذا بان له الدليل ، كفاه اليسير ، وأما من ضل ، وعاند ، فلا يفيده البيان والإكثار ، من الكلام ، والله الهادى ، وهو المستعان .

قوله : « وقال ابن عباس : المجيد ، الكريم ، والودود : الحبيب ، يقال : حميد مجيد ، كأنه فعيل ، من ماجد ، محمود من حمد »

قول ابن عباس انتهى عند قوله : يقال . قال الحافظ : « وصله ابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، فى قوله تعالى : « ذو العرش المجيد » . قال : المجيد الكريم وبه أى بالسند – عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وهو الغفور الودود » . قال : الودود الحبيب » [٣] .

---

(١) الآية ٥ من سورة طه .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٨ ص ٤٧ – ٤٩ .

(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٨ .

وذكر السيوطى أنه خرجه ابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقى فى الصفات ، فى الموضعين » [(١)] .

قلت : يقصد البخارى – رحمه الله – أن العرش أضيف إلى الله – تعالى – الإضافة الدالة على المصاحبة ، والاختصاص ، حيث قال : « ذو العرش » أى صاحب العرش . فدل ذلك على اختصاص العرش المذكور بالله دون سائر المخلوقات . والمجيد قرأ بالرفع صفة لذو ، الذى هو الله – تعالى – ، وقرأ بالجر صفة للعرش .

قال ابن جرير : « قرأ عامة قراء المدينة ومكة ، وبعض الكوفيين بالرفع ، ردا على قوله : « ذو العرش » ، على أنه صفة الله – تعالى ذكره – وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة خفضا ، على أنه من صفة العرش .

والصواب من القول : أنهما قراءتان ، معروفتان ، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب » [(٢)] .

قال أبو حيان : « ذو العرش » خص العرش بإضافة نفسه ، تشريفا للعرش ، وتنبيها على أنه أعظم المخلوقات » [(٣)] .

و « المجيد » فسره ابن عباس ، بالكريم – وقد جاء فى القرآن وصف العرش بأنه كريم ، قال – تعالى – : (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) [(٤)] فوصف العرش بأنه كريم لسعته وحسنه ، وهو فى وصف الله ، الجواد ، واسع العطاء كثير الخير ، حميد الصفات .

---

(١) الدر المنثور جـ ٨ ص ٤٧١ ، وانظر الطبرى جـ ٣٠ ص ١٣٨ و ١٣٩ .

(٢) تفسير الطبرى جـ ٣٠ ص ١٣٩ .

(٣) البحر المحيط جـ ٨ ص ٤٥٢ .

(٤) الآية ١١٦ من سورة المؤمنون .

قال فى القاموس : « المجيد » الرفيع العالى ، والكريم ، والشريف الفعال » (١) .

قوله : « الودود » الحبيب ، تقدم أن هذا التفسير مروى عن ابن عباس بسند متصل ، والود خالص الحب وصافيه .

وفى القاموس : « الودود » كثير الحب . وقد تقدم الكلام فى صفة المحبة .

« الودود » فعول ، من الود ، قال شعيب عليه السلام : « إن ربى رحيم ودود » (٢) ، وقال – تعالى – : (وهو الغفور الودود) (٣) فقرنه بالرحيم فى موضع ، وبالغفور فى موضع .

قال أبو بكر بن الأنبارى : « الودود » معناه المحب لعباده ، من قولهم : وددت الرجل أوده ، وداً ، وودا ، وودا .

ويقال : وددت الرجل ، وداداً ، ووداداً ، ووداده .

وقال الخطابى : هو اسم مأخوذ من الود ، وفيه وجهان : أحدهما أن يكون فعولا فى محل مفعول ، كما قيل : رجل هيوب ، بمعنى مهيب ، وفرس ركوب ، بمعنى مركوب . والله – سبحانه وتعالى – مودود فى قلوب أوليائه ، لما يعرفونه من إحسانه إليهم . والوجه الآخر أن يكون بمعنى الود ، أى أنه تعالى يود عباده الصالحين .

قال تعالى : (سيجعل لهم الرحمٰن وداً) (٤) فسرت بأنه يحبهم ، ويحببهم إلى عباده .

---

(١) جـ ١ ص ٣٣٦ .

(٢) الآية ٩٠ من سورة هود .

(٣) الآية ١٤ ن سورة البروج .

(٤) الآية ٩٦ من سورة مريم .

ويؤيده الحديث الصحيح « إذا أحب الله عبداً نادى ياجبريل ، إنى أحب فلانا ، فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض » وسيأتى إن شاء الله تعالى .

والأكثرون على ماذكره ابن الأنبارى ، أنه فعول بمعنى فاعل ، أى هو الواد ، كما قرنه بالغفور ، الذى يغفر ، وبالرحيم وهو الذى يرحم » [1]

وقوله : « يقال حميد مجيد ، كأنه فعيل ، من ماجد ، محمود ، من حمد » قال الحافظ : « أصل هذا قول أبى عبيدة ، فى مجاز القرآن ، فى قوله : « عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد » أى محمود ماجد » [2] .

قال الكرمانى : « غرضه منه ، أن مجيدا بمعنى فاعل ، كقدير بمعنى قادر ، حميدا بمعنى مفعول ، فلذلك قال : « مجيد من ماجد ، حميد من ماجد ، حميد من محمود ، قال : وفى بعض النسخ : محمود من حميد ، وفى أخرى : من حمد ، مبنى للفاعل ، والمفعول أيضا ، وذلك لاحتمال أن يكون حميد بمعنى حامد ، ومجيد بمعنى ممجد ، ثم قال : وفى عبارته تعقيد » [3] .

قال الحافظ : « قلت : وهو فى قوله : « محمود من حمد » . وقد اختلفت الرواة فيه ، والأولى فيه ماوجد فى أصله ، وهو كلام أبى عبيدة » [4]

« فالحميد الذى له من الصفات ، وأسباب الحمد مايقتضى أن يكون محمودا ، وإن لم يحمده غيره ، فهو حميد فى نفسه .

---

(١) النبوات ص ٧١ – ٧٢ ملخصا .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٨ .

(٣) شرح الكرمانى على البخارى جـ ٢٥ ص ١٢٩ .

(٤) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٨ .

والمحمود من تعلق به حمد الحامدين ، والحمد ، والمجد إليهما يرجع الكمال كله ، فإن الحمد يستلزم الثناء والمحبة للمحمود ، فمن أحببته ولم تثن عليه لم تكن حامداً له .

وهذا الثناء والحب ، يتبع الأسباب المقتضية له ، وهو ماعليه المحمود من صفات الكمال ، ونعوت الجلال ، والإحسان إلى الغير ، فإن هذه ، هى أسباب المحبة وكلما كانت هذه الصفات أجمع ، وأكمل كان الحمد والحب أتم وأعظم .

والله سبحانه له الكمال المطلق ، الذى لانقص فيه بوجه ، والإحسان كله له ومنه ، فهو أحق بكل حمد ، وبكل حب ، فهو أهل أن يحب لذاته ، ولصفاته ولأفعاله ولأسمائه ، ولإحسانه ، ولكل ماصدر منه .

والمجد مستلزم للعظمة ، والسعة ، والجلال ، كما يدل عليه موضوعه فى اللغة » [1] يقال : استمجد المرخ والعفار ، لكثرة النار فيهما .

قال ابن القيم : ومن أسمائه – تعالى – ماهو دال على جملة أوصاف عديدة ، لايختص بصفة معينة ، بل هو دال على معناه ، لا على معنى مفرد ، نحو المجيد ، العظيم ، الصمد . فإن المجيد ، من اتصف بصفات متعددة ، من صفات الكمال ، ولفظه يدل على هذا فإنه موضوع فى اللغة للسعة ، والكثرة ، والزيادة ، فمنه استمجد المرخ والعفار ، وأمجد الناقة علفا ، ومنه « ذو العرش المجيد » صفة للعرش ، لسعته ، وعظمته وشرفه » [2] .

* * *

(١) جلاء الأفهام ص ١٨٧ .

(٢) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١٦٠ .

٤٧ – قال : « حدثنا عبدان ، عن أبى حمزة ، عن الأعمش ، عن جامع ابن شداد ، عن صفوان بن محرز ، عن عمران بن حصين ، قال : « إنى عند النبى – ﷺ – إذ جاءه قوم من بنى تميم ، فقال : اقبلوا البشرى يابنى تميم ، قالوا : بشرتنا فأعطنا ، فدخل ناس من أهل اليمن ، فقال : اقبلوا البشرى ياأهل اليمن ، إذ لم يقبلها بنو تميم ، قالوا : قبلنا ، جئناك لنتفقه فى الدين ، ولنسألك عن أول هذا الأمر ماكان ؟ قال : كان الله ، ولم يكن شىء قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض ، وكتب فى الذكر كل شىء ، ثم أتانى رجل ، فقال : ياعمران أدرك ناقتك ، فقد ذهبت ، فانطلقت أطلبها ، فإذا السراب ينقطع دونها ، وأيم الله لوددت أنها ذهبت ولم أقم » .

* * *

عمران ، هو أبو نجيد بضم النون ، وفتح الجيم ابن حصين ، الخزاعى ، البصرى ، أسلم عام خيبر ، سنة سبع ، وشهد مابعدها من غزوات رسول الله – ﷺ – . وكان من فضلاء الصحابة ، وكانت الملائكة تسلِّم عليه مواجهة ، وكان مجاب الدعوة ، بعثه عمر إلى أهل البصرة يفقههم ، وكان الحسن البصرى يحلف بالله ماقدمها مثله ، اعتزل الناس فى الفتنة ، فلم يشهد شيئا من حروبها . مات فى البصرة سنة اثنين وخمسين رضى الله عنه [١] .

قوله : إنى عند النبى – ﷺ – فى الرواية التى ذكرها فى بدء الخلق : « دخلت على النبى – ﷺ – وعقلت ناقتى بالباب » [٢] .

---

(١) الرياض المستطابة ص ٢١٩ .

(٢) انظر البخارى مع الفتح جـ ٦ ص ٢٨٦ .

ويظهر أن هذه الواقعة فى المدينة ، فى آخر حياة النبى ﷺ ، ولهذا ذكرها البخارى فى آخر المغازى ، فى ذكر الوفود ، على النبى ﷺ .

قوله : « اقبلوا البشرى يابنى تميم » وفى رواية : « أبشروا يابنى تميم » ، والمراد بهذه البشرى الخير العظيم ، الذى يترتب على الإسلام ، والنجاة من العذاب العظيم ، الذى يترتب على عدم الدخول فى الإسلام ، وذلك فى الدنيا والآخرة .

قال الحافظ : « المراد بهذه البشارة ، أن من أسلم نجا من الخلود فى النار ، ثم بعد ذلك يترتب جزاؤه على وفق عمله ، إلا أن يعفو الله » (١) .

« وتميم اسم رجل ، وهو تميم بن مر بن إد بن طابخة – واسم طابخة – عمرو ابن إلياس ابن مضر ، والتميم فى اللغة الشريد » (٢) .

« قالوا : بشرتنا فأعطنا » يظهر أنهم مافهموا مقصد الرسول – ﷺ – بما أراده بالبشرى ، أو أن رغبتهم فى العاجلة ، فعلقوا بها آمالهم ، فقدموا ذلك على التفقه فى الدين ، والإقبال على تفهم ماقاله الرسول – ﷺ – ولهذا كره رسول الله – ﷺ – قولهم كما فى الرواية الأخرى ، وتغير لون وجهه حيث استشعر قلة فقههم فى الدين ، ورغبتهم فى الآخرة . والله أعلم .

« فدخل ناس من أهل اليمن » تقدم ذكر اليمن ، وسبب تسميته فى شرح حديث معاذ . « فقال : اقبلوا البشرى ياأهل اليمن ، إذ لم يقبلها بنو تميم » . البشرى اسم من البشير ، وهى الإخبار بما يسر ، ويفرح غالبا ، وسميت بذلك لأنه يظهر أثرها على بشرة الوجه .

قال الحافظ : « أى اقبلوا منى مايقتضى أن تبشروا بالجنة إذا أخذتم به » (٣) ويؤخذ من هذا أنه ينبغى ، بل يتعين قبول ماجاء عن الله ، ورسوله ،

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٩ .
(٢) انظر نهاية الأرب ص ١٨٨ و ٣٢٢ .
(٣) الفتح جـ ٦ ص ٢٨٨ .

بدون توقف أو استفسار ، أو طلب للعلة ، والسبب ، لأن قول بنى تميم : بشرتنا فأعطنا . لا يدل بظاهره على أنهم لم يقبلوها ، ومع ذلك جعل عدم فهمهم للمقصود وطلبهم لأمر عاجل ، عدم قبول للبشرى .

قوله : « جئناك لنتفقه فى الدين » الفقه هو الفهم ، أى فهم المراد ، أى أننا قد آمنا بك ، وبما جئت به ، وأتينا إليك لتفهمنا ديننا الذى جئت به وتعلمنا مانعتقده ، ونعمل به ، وهذا من توفيق الله لعبده ، أن يهتم بالتفقه فى دينه ، حتى يعبد ربه على علم وبصيرة .

قوله : « ولنسألك عن أول هذا الأمر ماكان » ؟ الإشارة فى قوله : هذا تعود إلى شىء مشاهد ، حاضر ، موجود ، وهو هذا الخلق المرئى ، من السموات والأرض ، ومابينهما ، ومافيهما ، والمعنى : جئنا نسأل ، عن مبدأ خلق هذه المخلوقات المشاهدة ، وهذا هو الظاهر .

قال الحافظ : « كأنهم سألوا عن أحوال هذا العالم ، وهو الظاهر ، ويحتمل أن يكونوا سألوا عن أول جنس المخلوقات » [1] .

قلت : الاحتمال الثانى بعيد ، بل باطل كما يأتى بيانه فى كلام شيخ الإسلام وقوله فى الحديث « عن أول هذا الأمر » يرده ، لأن الإشارة إلى المخلوقات المشاهدة كما تقدم ، وجواب السؤال يدل على أنهم سألوا عن مبدأ هذا العالم المشاهد . والأمر يطلق ويراد به المأمور ، ويراد به المصدر ، الذى هو حكم الآمر والأول هو المراد هنا قطعا .

وقد رد شيخ الإسلام احتمال كونهم سألوا عن أول جنس المخلوقات من وجوه كثيرة ، وبين أن ذلك باطل ، وذكر أن الحديث روى بثلاثة ألفاظ :

أحدها المذكور هنا : « كان الله ولم يكن شىء قبله » .

والثانى : « كان الله ، ولم يكن شىء معه » .

---

(١) الفتح جـ ٦ ص ٢٨٨ .

والثالث : « كان الله ، ولم يكن شيء غيره » . ثم قال : « لا بد أن يكون الرسول - ﷺ - قال أحدها ، لأن المجلس كان واحدا ، وسؤالهم ، وجوابهم فى ذلك المجلس ، وعمران الذى روى الحديث لم يبق فى المجلس إلى انقضائه بل ذهب لما أخبر بذهاب راحلته ، وهو أخبر بلفظ الرسول - ﷺ - ولم يرو هذا الحديث غيره - فدل ذلك على أن الرسول - ﷺ - قال واحدا من هذه الألفاظ ، والآخران رويا بالمعنى ، فيكون ماقاله : هو لفظ « القبل » لما فى صحيح مسلم ، من قوله - ﷺ -: « أنت الأول فليس قبلك شيء » (١) .

وأكثر أهل الحديث يرويه بهذا اللفظ ، وهو ذكر الجمل الثلاث بالواو ، وهى

١ - « قوله كان الله ، ولم يكن شيء قبله » .

٢ - « وكان عرشه على الماء » .

٣ - « وكتب فى الذكر كل شيء » .

ولم يذكر شيئا منها بثم ، وإنما جاء ذلك فى خلق السموات والأرض .

والواو ، لاتفيد الترتيب ، على الصحيح ، فلا يكون فى ذلك ذكر أول المخلوقات ، بل ولا فيه الإخبار بخلق العرش ، والماء ، وإن كان ذلك كله مخلوقا ، ولكن المقصود أن جوابه لأهل اليمن ، عن بدء خلق السموات والأرض ، وما بينهما وهى المخلوقات التى خلقت فى ستة أيام ، لا ابتداء ماخلقه الله قبل ذلك .

ويدل على ذلك ، أنه أخبر عن تلك الأشياء بما يدل على وجودها ، ولم يتعرض لابتداء خلقها ، وذكر السموات والأرض بما يدل على خلقها ، سواء قال : « وخلق السموات والأرض » أو قال : « وثم خلق السموات والأرض » فعلى التقديرين ، أخبر بخلق ذلك ، وكل مخلوق ، محدث كائن بعد أن لم يكن .

فتبين أنه لم يكن مقصوده الإخبار عن أول جنس المخلوقات ، بل ولا الإخبار عن خلق العرش والماء ، وإنما مقصوده الإخبار عن بدء خلق السموات

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٨٤ الحديث رقم ٢٧١٣ .

والأرض ، وما بينهما ، حين كان عرشه على الماء » [١] .

وقد ثبت فى حديث عبد الله بن عمرو ، قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال : وعرشه على الماء » [٢] .

ولما كان شيخ الإسلام يقرر هذا ، وهو أن الله لم يزل فعال لما يريد ، ويرد على من يقول : المعنى : كان الله ، ولا شيء معه أى لا مخلوق ، ولا فعل ، ولا مفعول ، ثم صار يخلق ويفعل بعد أن لم يكن يفعل ، ويخلق ، وهذا هو قول الجهمية ، والمعتزلة .

لما كان يقرر ذلك ، ويرد قول الجهمية والمعتزلة ، ظن كثير ممن لم يفهم مراده ولم يعرف مذهب أهل السنة فى هذه المسألة ، ظن أنه يقول بقدم العالم لأنه يقول بحوادث لا أول لها ، لأنهم يسمون أفعال الله الاختيارية ، التى يفعلها بإرادته حوادث .

وماعلم هؤلاء أن لازم قولهم ، أشنع ، وأفظع ، وهو أن الرب تعالى كان معطلا عن الفعل ، ثم صار فعالا لأفعاله بعد أن لم يكن كذلك .

مع أن ما قاله شيخ الإسلام هو مذهب السلف مثل الإمام أحمد ، والدارمى والبخارى وغيرهم .

قال الإمام أحمد فى رده على الجهمية : « فلما ظهرت عليه الحجة ، قال : إن الله يتكلم ، ولكن كلامه مخلوق » .

قلنا : وكذا بنو آدم كلامهم مخلوق ، فقد شبهتم الله بخلقه ، حين زعمتم أن كلامه مخلوق .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٨ ص ٢١٦ - ٢٢٢ بتصرف .
(٢) صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٤٤ رقم ٢٦٥٣ .

ففى مذهبكم ، قد كان فى وقت من الأوقات لا يتكلم ، حتى خلق التكلم . وكذلك بنو آدم كانوا لا يتكلمون حتى خلق الله لهم كلاما .

وقد جمعتم بين كفر ، وتشبيه ، وتعالى الله عن هذه الصفة .

بل نقول : إن الله لم يزل متكلما إذا شاء ، ولا نقول : إنه كان ، ولا يتكلم حتى خلق الكلام ، ولا نقول : إنه قد كان لايعلم ، حتى خلق علما فعلم ، ولانقول : إنه قد كان ولا قدرة له ، حتى خلق لنفسه القدرة ، ولانقول : إنه كان ولا نور له ، حتى خلق لنفسه نورا ، ولانقول : إنه كان ولا عظمة له ، حتى خلق لنفسه عظمة . فقالت الجهمية ، لما وصفنا الله بهذه الصفات : إن زعمتم ، أن الله ونوره ، والله وقدرته ، والله وعظمته ، فقد قلتم بقول النصارى ، حين زعموا أن الله لم يزل ونوره ، ولم يزل وقدرته .

قلنا : لا نقول : إن الله لم يزل ، وقدرته ، ولم يزل ، ونوره ، ولكن نقول : لم يزل بقدرته ، ونوره ، لا متى قدر ، ولا كيف .

فقالوا : لا تكونوا موحدين أبداً ، حتى تقولوا : قد كان الله ولا شىء .

فقلنا : نحن نقول : قد كان الله ، ولاشىء ، ولكن إذا قلنا : إن الله لم يزل بصفاته كلها أليس إنما نصف إلها واحدا بجميع صفاته ؟ .

وضربنا لهم مثلا فى ذلك ، فقلنا : أخبرونا ، عن هذه النخلة ، أليس لها جذع ، وكرب ، وليف ، وسعف ، وخوص ، وجمار ، واسمها اسم شىء واحد ، وسميت نخلة ، بجميع صفاتها ، فكذلك الله – وله المثل الأعلى بجميع صفاته ، إله واحد .

ولانقول : إنه كان فى وقت من الأوقات ، ولا قدرة له ، حتى خلق له . والذى ليس له قدرة ، هو عاجز .

ولانقول : قد كان فى وقت من الأوقات ، لا يعلم حتى خلق له علما ، والذى لا يعلم هو جاهل » [(١)]

بيّن الإمام – رحمه الله – تعالى – أنه – تعالى – لم يزل متكلما ، قادرا ، فعالا لما يريد . فلم يكن قبل وجود الخلق معطلا عن الفعل ، كما هو مقتضى قول الذين أنكروا وجود حوادث لا أول لها ، وزعموا أن هذا قول الفلاسفة الدهرية . وفى الواقع هو قول السلف ، وهو الذى دلت عليه نصوص الشرع ، وأيده العقل .

قال الإمام أبو سعيد الدارمى – رحمه الله – : « والله – تعالى – وتقدس اسمه – كل أسمائه سواء ، لم يزل كذلك ، ولا يزال ، لم تحدث له صفة ، ولا اسم ، لم يكن كذلك كان خالقا قبل المخلوقين ، ورازقا قبل المرزوقين ، وعالما قبل المعلومين ، وسميعا قبل أن يسمع أصوات المخلوقين ، بصيرا قبل أن يرى أعيانهم مخلوقة » [(٢)] .

والمقصود أن الله – سبحانه وتعالى – لم يزل فعالاً لما يريد ، وأنه لم يكن معطلا عن الفعل حتى خلق هذا الكون ، المشهود الذى سئل عن مبدأه أهل اليمن ، قال شيخ الإسلام : .

« لا نزاع بين أهل الملل أن الله – سبحانه – كان قبل أن يخلق هذه الأمكنة والأزمنة ، وأن وجوده لايجب أن يقارن هذه الأزمنة ، والأمكنة » [(٣)]

قوله : « كان الله ، ولم يكن شىء قبله » تقدم فى كلام شيخ الإسلام أن هذا اللفظ هو الذى قاله الرسول – ﷺ – وأن اللفظين ، الآخرين رويا بالمعنى وهما « لم يكن شىء غيره » و « لم يكن شىء معه » ، وأيد ذلك بأنه من معنى قوله – تعالى – : (هو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، وهو بكل شىء عليم) [(٤)] .

---

(١) الرد على الجهمية ص ٩٠ – ٩٢ عقائد السلف .
(٢) نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسى .
(٣) نقض التأسيس جـ ١ ص ٥٦٢ .
(٤) الآية ٣ من سورة الحديد .

فقوله تعالى : « هو الأول » هو الذى ليس قبله شيء ، كما فى صحيح مسلم ، من حديث أبى هريرة ، عن النبى – ﷺ – أنه كان يقول : « اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر ، فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر ، فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء » (١) .

وأما قول الحافظ : « قضية الجمع بين الروايتين ، تقتضى حمل هذه على رواية « ولاشيء غيره » ، لا العكس ، والجمع يقدم على الترجيح بالاتفاق » (٢)

فيقال له : هذا لو احتمل أن يكون الحديث صدر منه – ﷺ – فى مقامين ، أما إذا كان فى مجلس واحد ، والراوى واحد ، وقد أخبر أنه لم يبق إلى نهاية المجلس بل قام لما سمع هذا القول من النبى – ﷺ – ولحق براحلته ، فلا بد أن اللفظ الذى سمعه أحد هذه الألفاظ الثلاثة ، والآخران روى بالمعنى ، فأصبح الجمع لا وجه له .

وحمل هذه الرواية على رواية « ولا شيء غيره » تحكم بلا دليل ، حمل عليه التعصب للمذهب ، وإلا فالواجب حملها على المعروف من كلام النبى – ﷺ – الموافق لكلام الله – تعالى – كما تقدمت الإشارة إليه .

وأما قوله : إن هذه المسألة من مستشنع ماينسب لابن تيمية ، فقد تقدم أن هذا هو مذهب السلف ، وأن ما يريد ترجيحه الحافظ هو مذهب الجهمية والمعتزلة ، والأشعرية من أهل البدع ، والله أعلم .

وكلمة « كان » هنا تفيد الأزلية ، والأزلية . هى ما لابداية له .

قال الطيبى : « لفظة كان فى الموضعين – يعنى « كان الله » و « كان

---

(١) تقدم تخريجه فى ص ٣٧٨ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤١٠ .

عرشه على الماء » بحسب حال مدخولها ، فالمراد بالأول الأزلية والقدم ، وبالثانى الحدوث بعد العدم » [١] .

« وقال ابن عباس : « كان ولا يزال » . ولم يقيد كونه بوقت دون وقت ، ويمتنع أن يحدث له غيره صفة ، بل يمتنع توقف شيء من لوازمه على غيره سبحانه فهو المستحق لغاية الكمال ، وذاته هى المستوجبة لذلك الكمال المطلق وهو المحمود على ذلك ، أزلا وأبداً ، لا يحصى الخلق ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه » [٢] .

وقال الراغب : « كان : عبارة عما مضى من الزمان ، وفى كثير من وصف الله -تعالى - تنبيء عن معنى الأزلية ، قال : (وكان الله بكل شيء عليما) [٣] (وكان الله على كل شيء قديرا) [٤] ، وما استعمل منه فى جنس الشيء متعلقا بوصف له هو موجود فيه . فتنبيه على أن ذلك الوصف لازم له ، قليل الانفكاك منه نحو قوله فى الإنسان (وكان الإنسان كفورا) [٥] وإذا استعمل فى الزمان الماضى ، فقد يجوز أن يكون المستعمل فيه على حالته ، ويجوز أن يكون قد تغير ، نحو كان فلان كذا ثم صار كذا » [٦] .

ومعنى قوله : « كان الله ، ولم يكن شيء قبله » أنه - تعالى - هو الأول قبل كل شيء ، الذى لايتصور لأوليته مبدأ ، حتى يمكن أن يتصور قبله شيء ، بل هو الأول بلا بداية ، كما أنه الآخر بلا نهاية فما من غاية يقدرها العقل إلا وأزليته - تعالى - قبلها ، بلا غاية محدودة والأزل معناه عدم الأولية ، فليس الأزل

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤١٠ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ١٨ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٣) الآية ٢٦ من سورة الفتح والآية ٤٠ من سورة الأحزاب .

(٤) الآية ٢٧ من سورة الأحزاب ، والآية ٢١ من سورة الفتح .

(٥) الآية ٦٧ من سورة الإسراء .

(٦) المفردات فى غريب القرآن ص ٤٤٤ .

شيئا محدودا فلو قدر أن الأرض كلها وعاء مملوء ذرات ، وبعد مليون سنة تفنى ذرة واحدة فقط ، لفنية الذرات كلها ، والأزل باقٍ ، بل لو فرض أضعاف أضعاف ذلك بالملايين ، والمقصود بذلك التقريب إلى الفهم فقط ، وإلا فالأزل ليس له بداية أبدا .

قوله : « وكان عرشه على الماء » أى وقت خلق السموات والأرض ، كان عرشه على الماء . والمراد هنا الإخبار بكون العرش على الماء ، عند ابتداء خلق السموات والأرض .

قال ابن خزيمة : « معنى قوله : وكان عرشه على الماء ، كقوله : « وكان الله عليما حكيما » (١) يعنى أن كان هنا لا تدل على أن ذلك أمر قد مضى ، وانقضى ، بل تدل على ثبوته فهو كان ، ولا يزال على ما كان ، و « ليس معنى ذلك أن شيئا من مفعولاته قديم معه ، بل هو خالق كل شيء ، وكل شيء سواه مخلوق له ، وكل مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن ، مع أنه – تعالى – لم يزل بصفاته خالقا فعالا لما يريد » .

ومن المعلوم أن الخلق صفة كمال ، كما قال – تعالى – : (أفمن يخلق ، كمن لايخلق) (٢) فلايجوز أن ينفك عن هذه الصفة ، ولكن كل مخلوق محدث ، مسبوق بالعدم وليس مع الله شيء قديم ، ولاشك أن هذا أبلغ فى الكمال ، من أن يكون معطلا غير قادر على الفعل .

وأما جعل المفعول المعين مقارنا له – تعالى – أزلا وأبدا ، فهو باطل عقلا وشرعا ولا يقوله إلا جاهل أو معطل .

« والأدلة على بدء خلق الأفلاك ، وخلق الزمان الذى هو مقدار حركة الفلك كثيرة ، أخبرت بها الرسل ، كما أخبرت أنها خلقت من مادة موجودة قبلها ، وفى زمان قبل هذا الزمان ، فإن الله – تعالى – أخبر أنه خلق السموات

---

(١) كتاب التوحيد ص ١٠٣ .

(٢) الآية ١٧ من سورة النحل .

والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، وسواءً قيل : إن تلك الأيام بمقدار هذه الأيام المعروفة بطلوع الشمس وغروبها ، أو أنها أكبر منها ، وأن كل يوم قدره ألف سنة .

والحق أن تلك الأيام ، التى خلقت فيها السماوات والأرض غير هذه الأيام وغير الزمان الذى هو مقدار حركة هذه الأفلاك ، وأن تلك الأيام مقدرة بحركة أجسام موجودة قبل خلق السماوات والأرض .

وقد أخبر – سبحانه وتعالى – أنه (استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أوكرها ، قالتا أتينا طائعين) (١) فخلقت من الدخان

وقد جاءت الآثار عن السلف ، أنها خلقت من بخار الماء ، وهو الماء الذى كان العرش عليه ، قبل وجود هذا الخلق ، كما قال تعالى : (وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء) (٢) فأخبر – تعالى – أنه خلق السماوات والأرض فى مدة ، ومن مادة ، ولم يذكر القرآن أنه خلق شيئا من لا شىء ولا يعارض هذا بقوله تعالى : (وقد خلقتك من قبل ، ولم تك شيئا) (٣) . لأنه تعالى قد أخبر أنه خلقه من نطفة » (٤) وخلق أباه من تراب ، وقد أخبر الرسول – ﷺ – أن الملائكة خلقت من نور ، والجن من النار .

وهذه الجملة من الحديث هى محل الشاهد ، وهو دليل على عظم العرش ، وأن له شأنا غير شأن السماوات والأرض ، وأن وجوده قبل وجودهما .

وقوله : « ثم خلق السماوات ، والأرض » نص فى ذلك لأن ثم تفيد الترتيب مع التراخى ، أى ترتيب خلق السماوات والأرض على وجود العرش والماء .

ولا شك أن العرش ، والماء مخلوقان ، ولم يذكر الله جل وعلا لنا وقت خلق العرش والماء ، كما لم يذكر لنا أن له مخلوقات قبلهما ، ولكن النصوص من الوحى ، والفطر ، والعقل السليم تدل على أن الله – تعالى – لم يزل يفعل مايشاء ، ويتكلم

---

(١) الآية ١١ من سورة فصلت .

(٢) الآية ٧ من سورة هود .

(٣) الآية ٩ من سورة مريم .

(٤) مجموع الفتاوى جـ ١٨ ص ٢٣٥ بتصرف .

بما يشاء ، وهذا من الكمال الواجب له ، والذى يليق به تعالى .

ومايقوله المتكلمون من المعتزلة ، والأشاعرة ، ومن تبعهم ، من أن هذا الكون المشاهد لنا ، ومايتصل به – من السموات والأرض ، وكذلك العرش والماء ، هو مبدأ فعله وخلقه ، وليس قبله شيء من مفعولاته – يخالف كماله الواجب له تعالى .

فإن وصفه – تعالى – بأنه لم يكن قادرا على الفعل ، والكلام ونحوهما من صفات الكمال – ثم صار قادرا على ذلك – فيه نقص يجب أن ينزه عنه ، وقدرته التامة الكاملة التى هى من لوازم ذاته – تعالى – تفيد خلاف هذا القول وهى من أظهر صفات الكمال ، ولا يجوز أن تقيد صفاته – تعالى – ، وأفعاله بوقت دون وقت .

وباليقين العقلى يمتنع أن يكون قادرا بعد أن لم يكن كذلك ، إلا بأمر جعله قادرا ، ومن المحال أن يؤثر فيه شيء غيره ، فإذا لم يكن هناك إلا العدم المحض استحال كونه قادرا ، بعد أن لم يكن كذلك .

كما يمتنع أن يكون عالما بعد أن لم يكن كذلك ، وأن يكون سميعا بصيرا إن لم يكن . أما المخلوق المفعول ، مثل الإنسان ، فإنه كان غير عالم ، ولا قادر ، فجعله الله عالما قادرا .

وقوله : « وكتب فى الذكر كل شيء » الكتابة هنا أضيفت إلى الله تعالى ، ولايتعين منه أنه تعالى مباشرة الكتابة بنفسه ، بل يجوز أن يأمر بذلك مايشاء .

وقد جاء الحديث عن رسول الله – ﷺ – موضحا ذلك ، كما فى حديث عبادة بن الصامت : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : « إن أول ماخلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، قال : رب وما أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » (١) .

والمقصود بالذكر هنا محل الكتابة – وهو اللوح المحفوظ .

---

(١) رواه أبو داود فى السنن جـ ٥ ص ٧٦ رقم ٧٤٠٠ .

« والمراد أنه تعالى كتب كل ما أراد إيجاده من تلك الساعة التى جرت فيها الكتابة إلى قيام الساعة .

ولفظة « كل شىء » يعم فى كل موضع بحسب ماسيقت له ، كما فى قوله – تعالى – : (بكل شىء عليم) (وعلى كل شى قدير) (الله خالق كل شىء) .

و « تدمر كل شىء » « وأوتيت من كل شىء » [1] .

وقوله : « فإذا السراب ينقطع دونها » أى يشاهدها من خلف السراب ، فهو ينقطع بينه وبينها لبعدها ، فيراها مرة ، وأخرى يكاد يخفيها السراب .

وقوله : « وأيم الله » قيل معناه : يمين الله ، فهو قسم مشهور عند العرب وفيه لغات عدة .

وقوله : « لوددت أنها ذهبت ، ولم أقم » يقول : إن رغبتى والأحب إلىَّ أنى بقيت فى مجلسى عند رسول الله – ﷺ – أتعلم منه الإيمان والعلم ولم أقم فى طلب راحلتى ، بل أتركها مؤثراً ماأسمعه من رسول الله – ﷺ – من غذاء القلب والروح ، على راحلتى ، وهذا شأن صحابة رسول الله – ﷺ – ورضى الله عنهم – فى حرصهم على التعلم منه ، والبحث عن الهدى والخير ، ولهذا حفظوا كل ماقاله الرسول – ﷺ – وما فعله ، حتى نقلوا لنا تحرك شعر لحيته وهو يصلى ، وغير ذلك فجزاهم الله خيرا ، وقاتل من يبغضهم ويتنقصهم .

* * *

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٨ ص ٢٣٣ .

٤٨ – قال : « حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن همام ، حدثنا أبو هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال : « إن يمين الله ملآى ، لايغيضها نفقة – سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ماأنفق منذ خلق السماوات والأرض ، فإنه لم ينقص مافى يمينه ، وعرشه على الماء ، وبيده الأخرى الغيض – أو القبض – يرفع ، ويخفض » .

* * *

قد تقدم هذا الحديث فى باب قول الله – تعالى – « لماخلقت بيدى » وتقدم الكلام عليه وماهنا يختلف عن الماضى فى سنده ، وفى بعض ألفاظه ، على عادة المؤلف رحمه إذا كرر الحديث ، فلابد أن يأتى بما يغاير السابق ، إما فى السند والمتن ، أو فى أحدهما – إلا إذا لم يتيسر له ذلك ، وهو نادر .

والذى تقدم فيه « يد الله ملآى » وما هنا « إن يمين الله ملآى » .

وما تقدم فيه « وقال : أرأيتم » . وهنا كلمة « قال » ليست موجودة .

وماتقدم فيه « فإنه لم يغض مافى يده » وماهنا « فإنه لم ينقص مافى يمينه »

وماتقدم فيه « وقال : عرشه على الماء » وهنا لفظة « قال » غير موجودة .

وماتقدم « وبيده الأخرى الميزان » وهنا « وبيده الأخرى الغيض –: أو القبض » هذا فى المتن ، وأما السند فهو غير المتقدم .

والمقصود قوله : « وعرشه على الماء » أى أنه – تعالى – لما خلق السماوات والأرض ، كان عرشه على الماء ، فوجود العرش ، والماء سابق وجود السماوات والأرض بزمن طويل جدا ، الله أعلم بمقداره .

★ ★ ★

٤٩ – قال « حدثنا أحمد ، حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى ، حدثنا حماد بن زيد ، عن ثابت ، عن أنس ، قال : جاء زيد بن حارثة ، يشكو ، فجعل النبى – ﷺ – يقول : « اتق الله وأمسك عليك زوجك » قال [1] أنس : لو كان رسول الله – ﷺ – كاتماً شيئاً لكتم هذه ، قال : فكانت زينب تفخر على أزواج النبى – ﷺ – تقول : زوَّجكن أهاليكن ، وزوَّجنى الله – تعالى – من فوق سبع سماوات .

وعن ثابت (وتخفى فى نفسك ماالله مبديه ، وتخشى الناس) نزلت فى شأن زينب وزيد بن حارثة » .

* * *

زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى ، مولى رسول الله – ﷺ – .

ذكر الحافظ فى الإصابة ، نقلا عن الكلبى بسنده ، قال : « زارت سعدى أم زيد قومها وزيد معها ، فأغارت خيل لبنى القين بن جسر ، على أبيات بنى معن ، فاحتملوا زيدا وهو غلام يفعة ، فأتوا به سوق عكاظ ، فعرضوه للبيع ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد ، بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها رسول الله – ﷺ – وهبته له ، ثم جاء والده حارثة ، وعمه كعب ، يريدان فدائه ، فطلبا ذلك من رسول الله – ﷺ – فقال لهما رسول الله : ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ماأنا بالذى أختار على من اختارنى فاختار زيد رسول الله – ﷺ – فقال له والده وعمه : ويحك يازيد أتختار العبودية على الحرية ؟ فقال : إنى رأيت من هذا الرجل شيئاً ماأنا بالذى أختار عليه أحدا .

---

(١) فى بعض نسخ البخارى : قالت عائشة .

فلما رأى رسول الله - ﷺ - ذلك خرج به إلى الحجر ، وقال : اشهدوا أن زيداً ابنى ، عند ذلك طابت نفس والده وعمه .

وزوجه رسول الله - ﷺ - زينب بنت جحش ، وهى ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب ، ثم لم يتلاءما ، فطلقها زيد ، فزوجها الله - تعالى - نبيه لحكمة ذكر الله - تعالى - فى القرآن .

قال ابن عمر : « إن زيد بن حارثة مولى رسول الله - ﷺ - ماكنا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) (١)

كان زيد هو الأمير فى غزوة مؤتة ، واستشهد فيها رضى الله عنه » (٢)

قوله : « جاء زيد بن حارثة يشكو » أى جاء إلى رسول الله - ﷺ - يشكو زوجه زينب ويستشيره فى طلاقها ، لأنها كانت تترفع عليه ، وتقابله ببعض الكلام غير المناسب لحدة كانت فيها ، كما (روى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، قال جاء زيد بن حارثة فقال : يارسول الله إن زينب اشتد على لسانها ، وأنا أريد أن أطلقها ؟ فقال له : « اتق الله ، وأمسك عليك زوجك » (٣) . وهذا منقطع ، وقد ذكر كثير من المفسرين والمؤرخين أثاراً موضوعة ، مكذوبة على رسول الله - ﷺ - فى قصة زواجه - ﷺ - بزينب ، وبعضها ضعيف ، لايثبت به حكم .

ثم استغل تلك الأخبار بعض أعداء الرسل ، من زنادقة ، وكفار ملاحدة متقدمون ، ومتأخرون ، واغتر بذلك كثير من الجهلة .

---

(١) الآية ٥ من سورة الأحزاب ، ورواه البخارى ، انظره مع الفتح جـ ٨ ص ٥١٧ .

(٢) الإصابة جـ ٢ ص ٥٩٩ - ٦٠١ .

(٣) الفتح جـ ٨ ص ٥٢٤ .

وقد بين الله -تعالى - المقصود من زواج رسوله - ﷺ - بزينب بقوله : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولا) [(١)] .

المعنى : لما فرغ زيد منها وطابت نفسه عنها ، وطلقها ، أمرناك بتزوجها لئلا يبقى فى قلوب المؤمنين حرج فى تزوج زوجات أدعياءهم ، الذين تبنوهم ، فصاروا يدعون إليهم ، فيقال : ابن فلان ، وليس ابناً له إذا فارقوهن .

وهذا إمعان فى إبطال هذا التبنى ، الذى كان معروفا فى الجاهلية الأولى كما عرف فى الجاهلية الحاضرة ، حيث أمر الله - تعالى - إمام المسلمين وقدوتهم بذلك . وكان زيد بن حارثة ، قد تبناه رسول الله - ﷺ - كما تقدمت الإشارة إليه ، فكان يدعى بزيد بن محمد ، فأبطل الله - تعالى - ذلك بقوله : (وماجعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ادعوهم لآبائهم ، هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ، وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ماتعمدت قلوبكم ، وكان الله غفورا رحيما) [(٢)] .

فهو - تعالى - يعلم عباده أن أدعياءهم الذين هم مواليهم ، ودعوهم أبناء لهم ، إنهم ليسوا لهم بأبناء ، لأنهم أبناء رجال آخرين .

وقد أوحى الله - تعالى - إلى رسوله بأنه سوف يتزوج زينب ، أوحى الله بذلك إليه قبل أن يطلقها زيد ، فلما جاء يشكوها إليه ، ويستشيره فى طلاقها ، قال له : « اتق الله يازيد وأمسك عليك زوجك ، فعاتبه الله - تعالى - على ذلك ، وعلى ماكان يخشاه من أقوال الناس فى ذلك فقال - تعالى - : (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى

---

(١) الآية ٣٧ من سورة الأحزاب .
(٢) الآيتان ٤ و ٥ من سورة الأحزاب .

فى نفسك ماالله مبديه ، وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) الآية [١]

والذى كان – ﷺ – يخفيه ، هو كراهيته لزواجها خوفاً من قالة الناس أنه تزوج زوجة ابنه .

قال ابن حجر : « والحاصل أن الذى كان يخفيه هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته ، والذى كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس : تزوج امرأة ابنه ، وأراد الله إبطال ماكان الجاهلية عليه ، من أحكام التبنى بأمر لاأبلغ فى الإبطال منه ، وهو تزوج امرأة الذى يدعى ابنا [له] ، ووقوع ذلك من إمام المسلمين ، ليكون أدعى لقبولهم .

وإنما وقع الخبط فى تأويل متعلق الخشية ، والله أعلم » [٢] . يشير إلى ماذكره بعض المفسرين من أقوال باطلة ، وقصص موضوعة مكذوبة .

قوله : « قال أنس : لو كان رسول الله – ﷺ – كاتماً شيئا لكتم هذه » أى لو قدر على سبيل الفرض الممتنع شرعا كتم شىء من الوحى ، لكان فى هذه الآية ، ولكنه غير واقع ، بل ممتنع شرعا .

وهذه الآية من أعظم الأدلة لمن تأملها على صدق الرسول – ﷺ – فالله – تعالى – يخبر عما وقع فى نفسه من خشية الناس ، فبلغه كما قال الله – تعالى – مع ماتضمنه من لومه ، بخلاف حال الكذاب ، فإنه يتجنب كل مايمكن أن يكون فيه عليه غضاضة ، ومثل ذلك قوله – تعالى – : (عبس وتولى) إلى آخر الآيات ونظائرها فى القرآن .

وقوله : « فكانت زينب تفخر على أزواج النبى – ﷺ – » .

---

(١) الآية ٣٧ من سورة الأحزاب .

(٢) الفتح جـ ٨ ص ٥٢٤ .

الفخر : هو ذكر المحاسن ، وعدّها ، مباهاة بها غيره .

قال الجوهرى : « الفخر : الافتخار ، وعد القديم » [١]

فزينب رضى الله عنها – تعتد بأن زواجها برسول الله – ﷺ – كان بأمر الله له بذلك ، وأنه من أعظم فضائلها ، وأنه لايساويها فى ذلك من أزواجه أحد .

قوله « تقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله – تعالى – من فوق سبع سماوات » هذا القدر من الحديث هو محل الشاهد ، وهو ثبوت علو الله – تعالى – وتقرره لدى المؤمنين ، فهو أمر مسلم به بين عموم المسلمين ، بل بين عموم الخلق إلا من غيرت فطرته ، فهو من الصفات المعلومة بالسمع ، والعقل ، والفطرة عند كل من لم تنحرف فطرته .

وأما الاستواء على العرش فهو من الصفات المعلومة بالسمع ، لا بالعقل كما نبه على ذلك شيخ الإسلام [٢] ، وغيره من الأئمة .

ومعنى قولها : « وزوجنى الله » أى أمر رسوله بأن يتزوجها بقوله – تعالى – : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها)

وقوله فى الرواية الأخرى : « نزلت آية الحجاب ، فى زينب بنت جحش » . آية الحجاب هى قوله – تعالى – : (يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى ، إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ولامستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذى النبى ، فيستحى منكم ، والله لايستحى من الحق ، وإذا سألتموهن متاعا ، فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) إلى آخر الآية [٣] .

قوله : « وأطعم عليها يومئذ خبزاً ولحماً » أى صنع وليمة لزواجه بها ، من

---

(١) الصحاح جـ ٢ ص ٧٧٩ .

(٢) انظر مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٢٢٧ .

(٣) الآية ٥٣ من سورة الأحزاب .

الخبز ، واللحم ، وهذا النوع من الطعام هو أعلى مايملكون فى زمنه – ﷺ – .

قوله : « تقول : إن الله أنكحنى فى السماء » هو كقولها السابق « وزوجنى الله من فوق سبع سماوات » . وكثير ماتأتى « فى » بمعنى على أى إن زواجى صدر من الله – تعالى – حيث أمر رسوله به ، والله فى السماء .

فإما أن تكون « فى » بمعنى على ، أو يراد بالسماء العلو ، وكلاهما صحيح مستقيم جاءت به النصوص ، قال – تعالى – : (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) [١] وقال – تعالى – : (فليمدد بسبب إلى السماء) [٢] .

« ولما كان مستقراً فى نفوس المخاطبين أن الله – تعالى – هو العلى الأعلى ، وأنه فوق كل شى ، كان المفهوم من قوله : « أنه فى السماء » أنه فى العلو ، وأنه فوق كل شيء ولهذا قالت : « من فوق سبع سماوات » .

وكذلك الجارية ، لما قال لها النبى – ﷺ –: « أين الله ؟ قالت : فى السماء » [٣] إنما أرادت ، العلو ، وإذا قيل : العلو ، فإنه يتناول مافوق المخلوقات كلها ، فما فوقها كلها هو فى السماء ، ولا يقتضى هذا أن يكون هناك ظرف وجودى يحيط به ، إذ ليس فوق العالم شيء موجود إلا الله – تعالى – .

وكذلك إذا قيل : العرش فى السماء ، فإنه لايقتضى أن يكون العرش فى شيء آخر موجود مخلوق ، وإن قدر أن السماء المراد بها الأفلاك ، كان المراد أنه عليها كما قال : (فسيحوا فى الأرض) [٤] وقال : (لأصلبنكم فى جذوع النخل) [٥] وقال : (فسيروا فى الأرض) [٦] ويقال : فلان فى الجبل ، وفى

---

(١) الآية ٤٨ من سورة الفرقان .
(٢) جزء من الآية ١٥ من سورة الحج .
(٣) رواه مسلم وغيره .
(٤) الآية ٢ من سورة براءة .
(٥) جزء من الآية ٧١ من سورة طه .
(٦) الآية ١٣٧ من سورة آل عمران .

السطح ، وإن كان على أعلى شيء منه . فإن حرف « فى » يتعلق بما قبله ، وبما بعده ، فيكون بحسب المضاف إليه .

ولهذا يفرق بين كون الشيء فى المكان ، وكون الماء فى الإناء ، وكون الوجه فى المرآة ، وكون الكلام فى الكتاب ، وكون العرش ، والجنة فى السماء ، فإن لكل نوع من هذه خاصة يتميز بها عن غيره .

★ ★ ★

٥٠ – قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة عن النبى – ﷺ – قال : « إن الله لما قضى الخلق ، كتب عنده فوق عرشه ، إن رحمتى سبقت غضبى » .

* * *

تقدم هذا الحديث فى باب قول الله – تعالى – : (ويحذركم الله نفسه) وقد غاير بين سنده هنا وهناك ، وفى متنه بعض الاختلاف ، ففى الرواية المتقدمة « لما خلق الله الخلق » وهنا « إن الله لماقضى الخلق » ، وهناك « كتب فى كتابه وهو يكتب على نفسه ، وهو وضع عنده على العرش » وهنا « كتب عنده ، فوق عرشه » وهناك ، « إن رحمتى تغلب غضبى » ، وهنا ، « سبقت غضبى » .

وقد مضى شرحه ، والمقصود هنا ، قوله : « عنده ، فوق عرشه » هذان ظرفان مختصان بالمكان ، وقد أضيفا إلى الله – تعالى – ، فلابد أن هذه الإضافة تقتضى تخصيصا للعرش على غيره من السموات والأرض .

« فإضافة العرش إلى الله إضافة مخصوصة ، وقد قال – تعالى – : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) [١] فإذا كان العرش مضافا إلى الله فى هذه الآية ونحوها إضافة اختصاص ، فذلك بوجب أن يكون بينه وبين الله – تعالى – من النسبة ماليس لغيره ، فما يذكره الجهمية من الاستيلاء ، والقدرة ، وغير ذلك أمر مشترك بين العرش ، وسائر المخلوقات » [٢]

ومافى هذا من قوله : « عنده فوق عرشه » . والآيات نحو « ذو العرش » « عرش ربك » ينفى أن يكون الثابت من الإضافة هو القدر المشترك بين سائر

---

(١) الآية ١٧ من سورة الحاقة .

(٢) نقض التأسيس جـ ١ ص ٥٧٠ – ٥٧٧ .

المخلوقات كما تقوله الجهمية وأتباعهم ، ويوجب اختصاصا للعرش بالله ليس لغيره من سائر المخلوقات وقد علم المسلمون أنه استوى على عرشه استواء يليق بجلاله وعظمته ، كما أخبرهم ربهم بذلك ، ونبيهم ﷺ .

ومانقله الحافظ عن الخطابى أن معنى « فوق العرش » أى عنده علم ذلك فهو لاينساه ، ولا يبدله » هو من تخبطات أهل التأويل ، ويقال له : وهل علم الله يختص بهذا الكتاب ، فهو الذى لاينساه ، ولايبدله ، وأما سائر الكون فليس عنده علمه أو ينساه ويبدله ؟ إن الأجدى بالخطابى ومن يشتغل بالحديث أن يتبع كلام رسول الله – ﷺ – ولايحمله على المذاهب الباطلة ، بل يجب أن يصونه عن مثل هذه التحريفات الباردة ، والحق أن قوله : « عنده فوق عرشه » على ظاهره ، وأن كل تأويل له عن ظاهره ، تبديل للمعنى الذى أراده رسول الله – ﷺ – ، ونحن نؤمن ايماناً يقيناً قاطعا وكل المؤمنين أن الرسول – ﷺ – أحرص على عقيدة المسلمين ، وعلى تنزيه الله – تعالى – من هؤلاء المحرفين لكلامه . وهو كذلك أقدر على البيان والإيضاح منهم ، وهو كذلك أعلم بالله ، ومايجب له ومايمتنع عليه من هؤلاء المتخبطين .

فهذا كتاب خاص ، وضعه عنده فوق عرشه ، مثبتاً فيه ماذكر ، لزيادة الاهتمام به ولاينافى ذلك أن يكون مكتوبا أيضاً فى اللوح المحفوظ .

وهو كتاب حقيقة ، كتبه – تعالى – كما ذكر لنا رسولنا – ﷺ – حقيقة ، وهو عند الله حقيقة ، فوق عرشه حقيقة ، والمقصود أن الله – تعالى – مستو على عرشه على الحقيقة ، وعرشه فوق مخلوقاته كلها عالٍ عليها .

★ ★ ★

٥١ – قال : حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنى محمد بن فليح ، قال : حدثنى أبى ، حدثنى هلال ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى هريرة – رضى الله – عنه . عن النبى – ﷺ – . قال : « من آمن بالله ورسوله ، وأقام الصلاة ، وصام رمضان ، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة هاجر فى سبيل الله ، أو جلس فى أرضه التى ولد فيها ، قالوا : يارسول الله أفلا ننبىء الناس بذلك ؟ قال : إن فى الجنة مائة درجة ، أعدها الله للمجاهدين فى سبيله ، كل درجتين مابينهما كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله ، فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمٰن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » .

* * *

قوله : « من آمن بالله ورسوله » هذا هو الأساس الذى يبنى عليه العمل ، فلابد من الإيمان بالله ورسوله أولا قبل العمل ، فكل عمل مشروط لصحته أن يكون العامل مؤمناً قال الله – تعالى – : (ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة) [١].

وقال – تعالى – : (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا كفران لسعيه) [٢] .

وقد ذكر الله – تعالى – عن رسله الذى أرسلهم إلى الناس أنهم دعوهم إلى الإيمان بالله ، وعبادته وحده ، وهو معنى قوله – ﷺ – : « أمرت أن أقاتل

---

(١) الآية ٤٠ من سورة غافر الذنب .

(٢) الآية ٩٤ من سورة الأنبياء .

الناس حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله ، وأنى رسول الله » كما سبق ، وتقدم حديث معاذ ، حين بعثه النبى - ﷺ - إلى اليمن ، وقال له : « فليكن أول ماتدعوهم إليه شهادة أن لا إلٰه إلا الله » الخ

والإيمان بالله - تعالى - يدخل فيه الإيمان بأنه المالك لكل شىء ، المتصرف كيف يشاء ، وأنه الإلٰه الحق ، الذى يجب أن يعبد وحده ، لا شريك له فى ذلك ، لا ملك ولا نبى ، ولا أحد من الخلق مهما علت منزلته ، وحسنت عبادته .

ويدخل فيه الإيمان بأسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا ، وأن يثبت له ماأثبته لنفسه ، وأثبتته له رسله ، من غير تحريف ولا تمثيل ، ولا تكييف ولا تعطيل ، بل ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

قوله : « وأقام الصلاة » إقامة الصلاة الإتيان بها على وفق أمر الله - تعالى - وأمر رسوله كاملة فى أفضل أوقاتها .

قوله : « وصام رمضان » الصيام فى اللغة : هو الإمساك ، وفى الشرع إمساك مخصوص ، عن أشياء مخصوصة من طلوع الفجر ، إلى غروب الشمس .

قال الحافظ : وسقط ذكر الحج . على أحد الرواة ، لأنه قد جاء ذكره فى الترمذى والحديث لم يذكر لبيان الأركان ، فيجوز أنه اقتصر على ذكر البعض ، لأنه هو المتكرر غالبا ، وأما الزكاة فلا تجب إلا على من له مال ، بشرطه ، والحج لايجب إلا مرة على التراخى » [1]

والمقصود من الحديث : أن من حصل له الإيمان بالله ، وما يلزم له ، من إيمان برسله ، وملائكته ، وكتبه ، واليوم الآخر ، وبقضاء الله وقدره ، مع التزام ماشرعه الله لعباده من الأمر ، والنهى ، وجاهد فى سبيل الله مع ماذكر استحق دخول الجنة على الله ، ولابد أن يوفى الله - تعالى - بذلك .

---

(١) الفتح جـ ٦ ص ١٢ .

قوله : « كان حقا على الله أن يدخله الجنة » قد تقدم الكلام على حق العباد على الله فى حديث معاذ ، فى الباب الأول ، وهو حق أحقه الله – تعالى – على نفسه كما قال – تعالى – : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) (١) .

قال الحافظ : « ليس معنى ذلك ، أنه لازم له لأنه لا آمر له ، ولا ناهى يوجب عليه ، ويلزمه المطالبة به ، وإنما معناه إنجاز ماوعد به من الثواب ، وهو لا يخلف الميعاد » (٢) .

قلت : لايلزم من كونه حقا واجبا ، أن يكون له آمر وناهى يوجب عليه ذلك بل هو – تعالى – الذى أوجبه على نفسه ، فلابد من وقوعه ، كما أخب – تعالى – .

قوله : « هاجر فى سبيل الله ، أو جلس فى أرضه التى ولد فيها » الهجرة فى اللغة هى : الترك ، والمفارقة . والمقصود بها هنا : الانتقال ، من بلد الشرك والكفر إلى بلد الإسلام ، وهى واجبة على المسلم إذا خاف الفتنة فى دينه ، أو منع من ممارسة شعائر دينه ، وإعلانه ظاهرا .

وتكون الهجرة بالنية والقصد ، وتكون باللسان ، وبالبدن .

قال الراغب : « الهجر ، والهجران : مفارقة الإنسان غيره ، إما بالبدن ، أو باللسان ، أو بالقلب . قال – تعالى – : (واهجروهن فى المضاجع) (٣) كناية عن عدم قربهن .

وقال – تعالى – : (إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا) (٤) فهذا هجر بالقلب واللسان .

وقوله : (واهجرهم هجراً جميلا) (٥) يحتمل الثلاثة ، وقوله : (والرجز

---

(١) الآية ٥٤ من سورة الأنعام .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤١٣ .
(٣) الآية ٣٤ من سورة النساء .
(٤) الآية ٣٠ من سورة الفرقان .
(٥) الآية ١٠ من سورة المزمل .

فاهجر) [١] حث على المفارقة بالوجوه كلها .

والمهاجرة فى الأصل ، مصارمة الغير ، ومتاركته ، من قوله عز وجل : (والذين هاجروا وجاهدوا) [٢] وقوله : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم) [٣] وقوله : (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله) [٤] وقوله (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله) [٥] فالظاهر منه الخروج من دار الكفر ، إلى دار الإيمان ، كمن هاجر من مكة إلى المدينة » [٦]

ويدخل فى ذلك هجران المعاصى ، والشهوات ، والأخلاق الذميمة ، وجميع المعاصى ورفضها واجتنابها .

قال ابن القيم : « وللعبد فى كل وقت ، هجرتان إلى الله بالطلب والمحبة ، والعبودية والتوكل ، والإنابة ، والتسليم والتفويض ، والخوف والرجا ، وصدق اللجاء . وهجرة إلى رسوله – ﷺ – فى حركاته وسكناته ، الظاهرة ، والباطنة بحيث تكون موافقة لشرعه الذى هو تفصيل محاب الله ، ومرضاته ، ولا يقبل الله من أحد دنيا سواه » [٧] .

وسبيل الله طاعته ، واتباع أمره ، واجتناب نهيه ، واتباع رسوله – ﷺ –

---

(١) الآية ٤ من سورة المدثر .
(٢) الآية ٢١٨ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٨ من سورة الحشر .
(٤) الآية ١٠٠ من سورة النساء .
(٥) الآية ٨٩ من سورة النساء .
(٦) المفردات ص ٥٣٦ – ٥٣٧ .
(٧) طريق الهجرتين ص ٧ .

قوله : « أو جلس فى أرضه التى ولد فيها » وفى رواية « فى بيته » ، والمعنى : أنه بقى فى بلده يعبد ربه ، ولا يشرك به شيئا ، ولم يهاجر إلى المدينة النبوية ، وذلك أن الهجرة كانت فرضا على كل قادر ، فلما فتحت مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وأصبحت جزيرة العرب كلها دار إسلام ، إلا القليل ، نسخت الهجرة لأجل ذلك ، ولكن حكمها باق إلى يوم القيامة .

قال الحافظ : « فيه تأنيس لمن حرم الجهاد ، وأنه ليس محروما من الأجر ، بل له من الإيمان ، والتزام الفرائض مايوصله إلى الجنة ، وإن قصر ، عن درجة المجاهدين » [١] .

قوله : « فقالوا : يارسول الله أفلا تنبىء الناس بذلك ؟ » رأوا أن هذا فيه بشارة للمسلمين ، وتسهيل عظيم عليهم ، فى عدم لزوم الهجرة ، فإن ترك الوطن ، والأهل والأقارب ، والمألوفات ، كل ذلك يشق على النفس ، ولا يقوى عليه كل أحد .

قال الحافظ « الذى خاطبه بذلك هو معاذ بن جبل ، كما فى رواية الترمذى ، أو أبو الدرداء ، كما وقع عند الطبرانى ، وأصله فى النساء ، لكن فيه ، فقلنا » [٢] .

قوله : « إن فى الجنة مائة درجة » جاء فى رواية الترمذى ، عن معاذ ، « قلت يارسول الله ألا أخبر الناس ؟ قال : « ذر الناس يعملون ، فإن فى الجنة مائة درجة » [٣]

فظهر أن المراد : لاتبشر الناس ، بما ذكر ، من دخول الجنة ، لمن آمن ، وعمل الأعمال المفروضة عليه ، فيقفوا عند ذلك ، ولا يتجاوزوه إلى ماهو أفضل منه من الدرجات التى تحصل بالجهاد ، وهذه هى النكتة فى قوله : « أعدها الله

---

(١) الفتح جـ ٦ ص ١٢ .

(٢) الفتح جـ ٦ ص ١٢ .

(٣) انظر السنن للترمذى جـ ٤ ص ٨٢ .

للمجاهدين » ، وفى هذا تعقب على بعض شراح المصابيح ، فى قوله : « سَوَّى النبى – ﷺ – . بين الجهاد فى سبيل الله ، وبين عدمه ، وهو الجلوس فى الأرض التى ولد فيها ، لأن التسوية ليست على عمومها ، وإنما هى فى أصل دخول الجنة ، لا فى تفاوت الدرجات » (١)

وهذه الدرجات للمجاهدين فى سبيل الله خاصة ، ولا ينفى هذا وجود ، درجات أخر لغير المجاهدين فى الجنة ، كما جاء فى سنن أبى داود ، والترمذى ، وصححه : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارتق ، ورتل ، كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها » (٢) وعدد آيات القرآن ست وثلاثون ، ومائتان ، وستة آلاف على اختلاف فى ذلك .

ولهذا قال : « أعدها الله للمجاهدين فى سبيله » . قال ابن القيم : « يجوز أن تكون هذه المائة من جملة الدرج . ويجوز أن تكون نهايتها هذه المائة » (٣) ورجح الأول .

« الجهاد : استفراغ الوسع فى مدافعة العدو . وهو ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ، ومجاهدة النفس » (٤) ، وتدخل كلها فى الجهاد فى سبيل الله ، ويشملها قوله – تعالى – : (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) (٥) ونحوها من الآيات .

---

(١) الفتح جـ ٦ ص ١٢ .

(٢) انظر سنن أبى داود جـ ٢ ص ١٥٣ ، والترمذى جـ ٤ ص ٢٤٨ ، فضائل القرآن رقم ٢٩١٥ .

(٣) حادى الأرواح ص ٦ .

(٤) المفردات ص ١٠١ .

(٥) الآية ٢١٨ من سورة البقرة .

وقال الحافظ : « الجهاد بكسر الجيم : أصله لغة المشقة ، يقال : جهدت جهادا ، بلغت المشقة ، وشرعا : بذل الجهد فى قتال الكفار ، ويطلق أيضا على مجاهدة النفس والشيطان والفساق .

فأما مجاهدة النفس ، فعلى تعلم أمور الدين ، ثم على العمل بها ، ثم تعليمها .

وأما مجاهدة الشيطان ، فعلى دفع مايأتى به من الشبهات ، وما يزينه من الشهوات .

وأما مجاهدة الكفار ، فتقع باليد ، والمال ، واللسان ، والقلب .

وأما مجاهدة الفساق : فباليد ، ثم اللسان ، ثم القلب » [(١)]

قوله : « كل درجتين مابينهما كما بين السماء والأرض » المقصود بالدرجة المنزلة المعدة لمن يستحقها من أهل الإيمان ، والعمل ، ودرجات الجنة كثيرة ، كما تقدمت الإشارة إليه ، ولا شك أن كل درجة تختلف عن التى دونها بما فيها من أنواع النعيم ، والحسن .

وهذا التفاوت العظيم فى الدرجات لتفاوت أعمال العاملين فى الإيمان ، والمقاصد ، والخشية والإخلاص ، والمحبة والإنابة ، والجد ، وكثرة العمل وغير ذلك

قال الحافظ : « عند الترمذى : مابين كل درجتين مائة عام ، وللطبرانى خمسمائة عام ، فإن كانتا محفوظتين ، كان اختلاف العدد بالنسبة إلى اختلاف السير ، وفى رواية للترمذى : لو أن العالمين اجتمعوا فى إحداهن لوسعتهم » [(٢)].

وقال ابن القيم : لاتناقض ، بين تقدير مابين الدرجتين ، لاختلاف السير فى السرعة ، والبطء ، والنبى - ﷺ - . ذكر هذا تقريبا للإفهام » [(٣)] .

---

(١) الفتح جـ ٦ فاتحته .
(٢) المصدر نفسه ص ١٢ - ١٣ .
(٣) حادى الأرواح ص ٦١ .

قوله : « فإذا سألتم الله ، فسلوه الفردوس » . الفردوس : اسم يطلق على جميع الجنة ويطلق على أفضلها ، وأعلاها كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات .

قال – تعالى – : (أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) (١)

وقال – تعالى – : (إن الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) (٢) .

وأصل الفردوس : البستان ، والفراديس : البساتين ، قال الليث : الفردوس : الجنة ذات الكروم ، يقال : كرم مفردس ، أى معرش .

وقال الضحاك : هى الجنة الملتفة بالأشجار ، واختاره المبرد ، وقال : الفردوس فيما سمعت من كلام العرب : الشجر الملتف ، والأغلب عليه العنب .

وقال مجاهد : هو البستان بالرومية ، واختاره الزجاج ، وقال : حقيقته البستان الذى يجمع كل مايكون فى البساتين » (٣) .

وفى اللسان : « الفردوس : البستان ؛ قال الفراء هى عربى ، قال ابن سيدة : الفردوس الوادى الخصيب عند العرب ، وهو بلسان الروم ، البستان » (٤) وذكر نحو ماتقدم

قوله : « فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة » قال الحافظ : « المراد بالأوسط

---

(١) الآيتان ١٠ و ١١ من سورة المؤمنون .

(٢) الآية ١٠٧ من سورة الكهف .

(٣) حادى الأرواح ص ٧٤ – ٧٥ .

(٤) لسان العرب جـ ٢ ص ١٠٦٩ .

هنا : الأعدل والأفضل : كقوله – تعالى – : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) [(١)] فعلى هذا فعطف الأعلى عليه للتأكيد .

وقال الطيبى : المراد بأحدهما العلو الحسى ، وبالآخذ العلو المعنوى .

وقال ابن حبان : المراد بالأوسط : السعة ، وبالأعلى الفوقية » [(٢)] .

قلت : الظاهر أن المراد أن الفردوس ، هو وسط الجنة ، وهو أعلاها على ظاهر النص ، يعنى أن الجنان الأخرى عن جوانبه ، ومن تحته ، وهو أعلاها ، ويدل على ذلك قوله : « وفوقه عرش الرحمٰن » فليس فوق الفردوس إلا عرش الرحمٰن – جل وعلا ، كما يدل عليه أيضا قوله : « ومنه تفجر أنهار الجنة » لأن الأنهار عادة تنبع من الأعلى ، والله أعلم .

قوله : « وفوقه عرش الرحمٰن » هذه الجملة هى المقصود ، من سياق الحديث لأنه يدل على أن أعلى مخلوق هو العرش ، وليس فوق العرش مخلوق ولكن الرحمٰن – جل وعلا – فوقه .

قال ابن خزيمة : « فالخبر يصرح أن عرش ربنا – جل وعلا – فوق جنته ، وقد أعلمنا – عز وجل – أنه مستوٍ على عرشه ، فخالقنا عال فوق عرشه ، الذى هو فوق جنته » [(٣)] .

وذكر بسنده ، عن عبد الله بن مسعود : « قال : مابين كل سماء إلى الأخرى ، مسيرة خمسمائة عام ، ومابين السماء والأرض ، مسيرة خمسمائة عام ، ومابين السماء السابعة إلى الكرسى مسيرة خمسمائة عام ، ومابين الكرسى ، إلى الماء ، مسيرة خمسمائة عام ، والعرش على الماء ، والله على العرش ، ويعلم أعمالكم » [(٤)] .

---

(١) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

(٢) الفتح جـ ٦ ص ١٣ .

(٣) كتاب التوحيد ص ١٠٤ .

(٤) كتاب التوحيد ص ١٠٥ .

وذكر له طرقا عدة ، وهو صحيح ، ورواه البيهقى ، عن أبى ذر ، مرفوعا قريبا من لفظه [١] .

وعلو الله – تعالى – واستواؤه على عرشه ، مجمع عليه بين الصحابة ، والتابعين وأئمة المسلمين ومن تبعهم ، ولم يخالف فيه إلا من هو متهم على الإسلام أو مغرور بالتقليد لمن يحسن به الظن .

« وأول من ابتدع القول بأن الله – تعالى – ليس فوق العرش فى الإسلام هو الجعد بن درهم ، والجهم بن صفوان ، وشيعتهما ، وهم عند أئمة المسلمين من شرار أهل الأهواء ، وقد أطلق السلف من القول بتكفيرهم ، مالم يطلقوه على أحد وقالوا : نحكى كلام اليهود ، والنصارى ولا نستطيع أن نحكى كلام الجهمية ، كما قال عبد الله بن المبارك ، وقالوا : اتفق المسلمون ، واليهود ، والنصارى ، على أن الله – تعالى – فوق العرش ، وقالت الجهمية : ليس الله فوق العرش » [٢] .

★ ★ ★

---

(١) انظر الأسماء والصفات ص ٤٠١ .

(٢) نقض التأسيس جـ ١ ص ١٢٧ .

٥٢ – قال : « حدثنا يحيى بن جعفر ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، هو التيمى – عن أبيه ، عن أبى ذر ، قال : « دخلت المسجد ، ورسول الله – ﷺ – جالس ؛ فلما غربت الشمس قال : ياأباذر ، هل تدرى أين تذهب هذه ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب تستأذن فى السجود ، فيؤْذن لها ، وكأنها قد قيل لها : ارجعى من حيث جئت ، فتطلع من مغربها ، ثم قرأ : (ذلك مستقر لها) فى قراءة عبد الله » .

* * *

قوله : « أتدرى أين تذهب هذه » هذا الأسلوب من التعليم كان النبى – ﷺ – يستعمله مع أصحابه ، وهو من الأساليب التى ترسخ المعلومات فى الذهن لأن المسئول يبقى بعده يتطلع إلى الجواب ، بإقبال ولهف ، فإذا ورد عليه الجواب وهو بهذه الحال ، ثبت فى قلبه ، ورسخ لديه ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

قوله : « ذلك مستقرها » هذا تفسير لقوله – تعالى – : (والشمس تجرى لمستقر لها) [1] قال ابن كثير : « فيه قولان : أحدهما أن المراد ، مستقرها المكانى ، وهو تحت العرش مما يلى الأرض ، من ذلك الجانب ، وهى أينما كانت فهى تحت العرش ، هى وجميع المخلوقات ، لأنه سقفها ، وليس بكرة ، كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة ، وإنما هو قبة ذات قوائم ، تحمله الملائكة ، وهو فوق العالم ، مما يلى رؤوس الناس . فالشمس إذا كانت فى قبة الفلك ، وقت الظهيرة ، تكون أقرب ماتكون إلى العرش ، فإذا استدارت فى فلكها الرابع ، إلى مقابلة هذا

---

(١) الآية ٣٨ من سورة يس .

المقام ، وهو وقت نصف الليل صارت أبعد ماتكون من العرش ، فحينئذ تسجد ، وتستأذن فى الطلوع ، كما جاءت بذلك الأحاديث » ثم ذكر هذا الحديث بطرقه ، ثم قال : والقول الثانى : أن المراد بمستقرها هو منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة يبطل سيرها ، وتسكن حركتها ، وتكوَّر ، وينتهى هذا العالم إلى غايته ، وهذا مستقرها الزمانى » (١) .

قوله : « تستأذن فى السجود ، فيؤذن لها » أى تطلب من الله الإذن ، فى مواصلة سيرها فى حالة سجودها ، فيأذن الله – تعالى – لها ، إلى الوقت الذى تستأذن ثم لايؤذن لها ، فتبقى فى مكانها ، ثم يقال لها : ارجعى من حيث جئت ، فينعكس سيرها ، حيث تطلع على الناس من المغرب ، ولابد أن تطلع على كل الناس من مغربها ، وعند ذلك يؤمنون ، ولكن لاينفعهم إيمانهم كما أخبر الله – تعالى – بذلك ، وهذا إيذان بانقضاء هذه الدار .

قال الكرمانى : « القراءة المشهورة المتواترة هى : (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) ، وقراءة عبد الله بن مسعود : ذلك مستقرها » (٢) هكذا قال ، والذى فى البخارى ، مستقر لها ، ولم يقرأ بها أحد من القراء .

قال ابن كثير : « قرأ ابن مسعود ، وابن عباس : (والشمس تجرى لامستقر لها) أى لا قرار لها ، ولا سكون ، بل هى سائرة ليلا ونهاراً ، لاتفتر ، ولاتقف » (٣) .

فعلى هذا يكون لابن مسعود فيها قراءتان ، وافقه ابن عباس على إحداهما وهما شاذتان .

وقد ذكر البخارى – رحمه الله – هذا الحديث فى بدء الخلق ، وفيه « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش » .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٦٢ – ٥٦٣ .
(٢) الكرمانى جـ ٢٥ ص ٦٣٣ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٦٣ .

وسيأتى فى آخر الباب بعد هذا ، وفيه ، « قال مستقرها تحت العرش » ، وذكر أيضا هذين اللفظين فى تفسير سورة يس ، وبذلك تظهر مناسبة الحديث للباب فذكره لأجل مافيه من قوله : « تذهب حتى تسجد تحت العرش » ، وقوله : « مستقرها تحت العرش » فى غير هذه الرواية هنا .

قال الحافظ : « وأخرجه النسائى بلفظ : « تذهب حتى تنتهى تحت العرش ، عند ربها » [١] وهو واضح فى أن سجودها فى أرفع ماتكون ، وأقرب ماتكون إلى العرش . ومعلوم أنها دائم تحت العرش ، ولكن سجودها فى مكان معين من مسيرها وهو دليل واضح على علو العرش ، وارتفاعه العظيم ، وهذا هو مراد البخارى رحمه الله من الحديث ، ومعلوم أن الله – تعالى – فوق العرش كما سبق .

قال الحافظ : « قوله : تحت العرش » قيل : معناه هى حين محاذاتها ، ولايخالف هذا قوله تعالى : (وجدها تغرب فى عين حمئة) [٢] فإن المراد بها نهاية مدرك البصر إليها حال الغروب ، وسجودها تحت العرش إنما هو بعد الغروب .

قال – وفى الحديث رد على من زعم أن المراد بمستقرها غاية ماتنتهى إليه فى الارتفاع وذلك أطول يوم فى السنة .

وقيل : مستقرها : منتهى أمرها ، عند انتهاء الدنيا .

وقال الخطابى : يحتمل أن يكون المراد باستقرارها تحت العرش ، أنها تستقر تحته ، استقرارا لانحيط به نحن ، وليس فى سجودها كل ليلة تحت العرش مايعيق سيرها ودورانها فيه .

قلت : وظاهر الحديث أن المراد بالاستقرار وقوعه فى كل ليلة ويوم عند سجودها ، ومقابل الاستقرار ، المسير المعبر عنه بالجرى » انتهى [٣] .

---

(١) الفتح جـ ٨ ص ٥٤١ .
(٢) الآية ٨٦ من سورة الكهف .
(٣) الفتح ملخصا جـ ٨ ص ٥٤٢ .

وقال أيضا : « وظاهر الحديث أن الشمس هى التى تسير ، وتجرى .

وقال ابن العربى : أنكر قوم سجودها ، وهو صحيح ممكن ، وتأوله قوم على ماهى عليه من التسخير الدائم ، ولامانع من أن تخرج عن مجراها ، فتسجد ثم ترجع .

قلت : إن أراد بالخروج ، الوقوف فواضح ، وإلا فلا دليل على الخروج » اهـ (١)

قلت : وكونها تسجد تحت العرش ، لا يقتضى ، مفارقتها لفلكها وانتظامها فى مسيرها بالنسبة للأرض ، فهى دائمة الطلوع على جزء من الأرض ، والأوقات بالنسبة إلى أهل الأرض تختلف بمقدار سيرها .

ومعلوم أن تعاقب الليل والنهار ، واختلافهما يترتب على مسيرها ، فربما يقول قائل أين سجودها تحت العرش ؟ ومتى يكون ؟ وسيرها مستمر ، وبعدها عن الأرض لايختلف فى وقت من الأوقات ، كما أن سيرها لا يتغير كما هو مشاهد .

والجواب : أنها تسجد كل ليلة تحت العرش ، كما أخبر به الصادق المصدوق ، وهى طالعة على جانب من الأرض ، مع سيرها فى فلكها ، وهى دائما تحت العرش ، فى الليل والنهار ، بل وكل شىء من المخلوقات تحت العرش ، ولكنها فى وقت من سيرها ، وفى مكان معين ، يحصل سجودها ، الذى لا يدركه الخلق ، ولكن علم بالوحى ، وهو سجود حقيقى ، يناسبها على ظاهر النص .

أما التسخير : فهى لاتنفك عنه أبدا . والله أعلم .

قال شيخ الإسلام : « فإذا كان النبى - ﷺ - قد أخبر أنها تسجد كل ليلة تحت العرش ، فقد علم اختلاف حالها بالليل والنهار ، مع كون سيرها فى

---

(١) الفتح جـ ٦ ص ٢٩٩ .

فلكها من جنس واحد ، وأن كونها تحت العرش لايختلف فى نفسه ، وإنما ذلك اختلاف بالنسبة والإضافة ، علم أن تنوع النسب ، والإضافة لا يقدح فيما هو ثابت فى نفسه لامختلف » [١] .

يعنى أن اختلاف السير يكون بالنسبة لمن فى الأرض ، فهى تطلع على جانب منها وتغرب عن جانب آخر ، مع أن سيرها فى فلكها ليس فيه هذا الاختلاف ، فلا يختلف سجودها باختلاف الليل والنهار ، لأن هذا الاختلاف يكون بالنسبة إلى من فى الأرض ، وبالإضافة إليهم ، أماهى فسجودها فى مكان معين من سيرها ، وفى وقت معين لا يختلف .

ثم قال رحمه الله – : « ومن هنا يظهر الجواب عما ذكره ابن حزم ، وغيره فى حديث النزول [٢] ، حيث قالوا : قد ثبت أن الليل يختلف بالنسبة إلى الناس ، فيكون أوله ونصفه ، وثلثه بالمشرق قبل أوله ، ونصفه ، وثلثه بالمغرب ، قالوا : فلو كان النزول هو النزول المعروف ، للزم أن ينزل فى جميع أجزاء الليل ، إذ لا يزال فى الأرض ليل ، قالوا : أو لا يزال نازلا ، وصاعدا ، وهو جمع بين الضدين .

وهذا إنما قالوه لتخيلهم من نزوله – تعالى – مايتخيلونه من نزول أحدهم ، وهذا عين التمثيل ، ثم إنهم بعد ذلك جعلوه كالواحد العاجز منهم ، الذى لايمكنه أن يجمع من الأفعال مايعجز غيره عن جمعه .

وقد جاءت الأحاديث بأنه يحاسب خلقه يوم القيامة ، كل منهم يراه مخليا به ، ويناجيه ، لايرى أنه متخليا لغيره ، ولامخاطبا لغيره » [٣]

وسيأتى إن شاء الله – تعالى – إيضاح الرد على شبههم هذه وغيرها فى

---

(١) بيان تلبيس الجهمية جـ ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) سيأتى شرحه إن شاء الله تعالى ، وهذا الكلام محله شرح حديث النزول ، ولكن لشدة ارتباطه بما ذكر فى سير الشمس أحببت إثباته هنا .

(٣) بيان تلبيس الجهمية جـ ٢ ص ٢٢٨ .

شرح الحديث . وفى صحيح مسلم ، عن أبى ذر – رضى الله عنه – « قال : سألت رسول الله – ﷺ – عن قول الله – تعالى – : « والشمس تجرى لمستقر لها » ؟ قال : « مستقرها تحت العرش » [١]

وهذا يعين المقصود بالمستقر ، وأنه الموضع الذى تسجد فيه لربها ، وتستأذن بمواصلة سيرها ، وأن هذا يكون كل ليلة بالنسبة إلينا ، ويجوز أن يكون بالنهار بالنسبة لغيرنا كأمريكا مثلا .

وقد روى مسلم هذا الحديث مبسوطا مبينا حيث قال : بعد ذكر السند « عن أبى ذر – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال يوما : « أتدرون أين تذهب هذه الشمس ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : إن هذه تجرى حتى تنتهى إلى مستقرها تحت العرش ، فتخر ساجدة ، فلا تزال كذلك ، حتى يقال لها : ارتفعى . ارجعى من حيث جئت ، فترجع ، فتصبح طالعة ، من مطلعها ، ثم تجرى حتى تنتهى إلى مستقرها تحت العرش ، فتخر ساجدة ، ولا تزال كذلك ، حتى يقال لها : ارتفعى ارجعى من حيث جئت ، فترجع ، فتصبح طالعة من مطلعها ، ثم تجرى لا يستنكر الناس منها شيئا حتى تنتهى إلى مستقرها ، تحت العرش ، فيقال لها : ارتفعى ، أصبحى طالعة من مغربك ، فتصبح طالعة من مغربها . فقال رسول الله ﷺ -: « أتدرون متى ذاكم ؟ ذاك حين لاينفع نفسا إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيراً » [٢] .

وقد ذكر الله تعالى فى كتابه أن الشمس والقمر يسجدان له تعالى فقال : « ألم تر أن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض والشمس والقمر » [٣]

* * *

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٩ .

(٢) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٣٨ ، وانظر شرح النووى جـ ٢ ص ١٩٥ .

(٣) الآية ١٨ من سورة الحج .

٥٣ – قال : « حدثنا موسى ، عن إبراهيم ، حدثنا ابن شهاب ، عن عبيد الله بن السباق ، أن زيد بن ثابت .

وقال الليث : حدثنى عبد الرحمن بن خالد ، عن ابن شهاب ، عن ابن السباق ، أن زيد بن ثابت حدثه ، قال : أرسل إلى أبو بكر ، فتتبعت القرآن ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى ، لم أجدها مع أحد غيره . (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) [١] حتى خاتمة براءة » .

* * *

زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوذان ، النجارى ، الأنصارى ، أبو سعيد ، ويقال أبو خارجة ، قدم النبى – ﷺ – المدينة وهو ابن إحدى عشرة سنة .

وكان يكتب الوحى ، قال الشعبى : غلب زيد الناس على اثنتين ، الفرائض ، والقرآن . وكان أحد أصحاب الفتوى من الصحابة .

وقال مسروق : قدمت المدينة ، فوجدت زيد بن ثابت من الراسخين فى العلم . وفضائله كثيرة ، توفى سنة ٤٨ وقيل ٥١ ، وقيل ٥٥ وقيل غير ذلك » [٢]

ومقصود البخارى – رحمه الله – من هذا الحديث . هو ذكر العرش فى الآية الكريمة حيث قال تعالى : (فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم) [٣] .

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة براءة .

(٢) تهذيب التهذيب جـ ٣ ص ٣٩٩ .

(٣) آخر آية من سورة براءة .

قال الإمام ابن جرير – رحمه الله تعالى – : « يقول – تعالى ذكره – : فإن تولى ، يامحمد ، هؤلاء الذين جئتهم بالحق ، من عند ربك ، من قومك ، فأدبروا عنك ، ولم يقبلوا ماأتيتهم به من النصيحة فى الله ، ومادعوتهم إليه ، من النور والهدى ، فقل حسبى الله ، يكفينى ربى ، لا إله إلا هو » لامعبود ، سواه « عليه توكلت » وبه وثقت ، وعلى عونه اتكلت وإليه وإلى نصره استندت ، فإنه ناصرى ، ومعينى ، على من خالفنى ، وتولى عنى منكم ومن غيركم من الناس ، « وهو رب العرش العظيم » الذى يملك ما دونه ، والملوك كلهم مماليكه ، وعبيده » .

وإنما عنى بوصفه – جل ثناؤه نفسه بأنه رب العرش العظيم – الخبر عن جميع مادونه أنهم عبيده ، وفى ملكه ، وسلطانه ، لأن العرش العظيم إنما يكون للملوك ، فوصف نفسه بأنه ذو العرش ، دون سائر خلقه ، وأنه المالك العظيم ، دون غيره ، وأن من دونه فى سلطانه ، وملكه ، جار عليه حكمه وقضاؤه » [١] .

وقال ابن كثير : « وهو رب العرش العظيم » أى هو مالك كل شىء ، وخالقه ، لأن العرش العظيم ، الذى هو سقف المخلوقات ، وجميع الخلائق من السماوات والأرضين ، ومافيهما ومابينهما ، تحت العرش ، مقهورون بقدرة الله تعالى ، وعلمه محيط بكل شىء ، وقدره نافذ فى كل شىء ، وهو على كل شىء وكيل » [٢] .

وثبت عن أُبى بن كعب – رضى الله عنه – أن هذه الآية آخر مانزل من القرآن [٣]

وقد تقدم أن تخصيصه – تعالى – العرش بأنه ربه ، وإضافته إليه – تعالى – يدل على أمر زائد على ما فى المخلوقات غيره ، من السماوات والأرض بأنه ربها .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١١ ص ٧٧ – ٧٨ بتحقيق محمود شاكر .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٧٩ – ١٨٠ ط الشعب .
(٣) انظر المصدرين المذكورين هنا .

وكذلك وصفه إياه بأنه عظيم وكريم ، ومجيد ، وهذه الأوصاف ، والإضافة لم تأت فى غير العرش من المخلوقات ، وهذا لأنه تعالى اختاره لقربه ، واستوائه عليه .

قوله : « حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى ، لم أجدها مع أحد غيره » يعنى أنه ماوجدها مكتوبة ، مثبتة بالكتابة ، إلا عند أبى خزيمة .

وليس معنى ذلك أنه لم يحفظها إلا أبى خزيمة ، فإن زيداً وأُبياً ، وأبا بكر ، وغيرهم من الصحابة كانوا يحفظون القرآن كله ، وهو يريد من كتبها عن الرسول ﷺ بدون واسطة .

قال الحافظ : « قوله : لم أجدها مع أحد غيره » أى مكتوبة ، لما تقدم من أنه كان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة .

ولا يلزم من عدم وجدانه إياها حينئذ أن لاتكون تواترت عند من لم يتلقها من النبى - ﷺ - وإنما زيد كان يطلب التثبت عمن تلقاها بغير واسطة .

ولعلهم لما وجدها زيد عند أبى خزيمة تذكروها ، كما تذكرها زيد ، وفائدة التتبع المبالغة فى الاستظهار ، والوقوف عند ماكتب بين يدى النبى ﷺ .

قال الخطابى : هذا مما يخفى معناه ، ويوهم أنه كان يكتفى فى إثبات الآية بخبر الشخص الواحد ، وليس كذلك ، فقد اجتمع فى هذه الآية زيد بن ثابت ، وأبو خزيمة ، وعمر .

ثم علق الحافظ على كلام الخطابى بقوله :

« وكأنه ظن أن قولهم : لا يثبت القرآن بخبر الواحد ، أى الشخص الواحد ، وليس كما ظن ، بل المراد بخبر الواحد ، خلاف التواتر ، فلو بلغت رواة

الخبر عددا كثيرا وفقد شيئا من شروط المتواتر [١] ، لم يخرج عن كونه خبرا لواحد .

والحق أن المراد بالنفى ، نفى وجودها مكتوبة ، لانفى كونها محفوظة » [٢]

ثم ذكر أحاديث تؤيد ماقال .

وقال فى موضع آخر : « والذى يظهر أن الذى أشار إليه أنه فقده ، فقد وجودها مكتوبة ، لافقد وجودها محفوظة ، بل كانت محفوظة عنده ، وعند غيره ، ويدل على هذا قوله : فى حديث جمع القرآن « فأخذت أتتبعه ، من الرقاع والعسب » [٣]

وقال أيضا : « والأرجح أن الذى وجد معه آخر سورة التوبة أبو خزيمة بالكنية والذى وجد معه الآية من سورة الأحزاب خزيمة ، وأبو خزيمة ، قيل : هو ابن أوس بن يزيد بن أحرم ، مشهور بكنيته ، دون اسمه ، وقيل : هو الحارث بن خزيمة ، وأما خزيمة ، فهو ابن ثابت ذو الشهادتين » [٤] .



(١) من كون الناقلين عدادا كثيرا ، يمتنع تواطئهم على الكذب ، من أول السند إلى نهايته .

(٢) فتح البارى جـ ٩ ص ١٥ .

(٣) الفتح ٨ ص ٥١٨ .

(٤) الفتح جـ ٩ ص ١٥ .

٥٤ – قال : « حدثنا معلى بن أسد ، حدثنا وهيب ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن أبى العالية ، عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : كان النبى – ﷺ – يقول عند الكرب : « لا إله إلا الله العليم الحليم ، لاإله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ، ورب الأرض ، ورب العرش الكريم » .

* * *

قوله : « يقول عند الكرب » الكرب بفتح الكاف ، وسكون الراء ، قال الأزهرى : « هو الغم الذى يأخذ بالنفس ، يقال كربه الغم ، وإنه لمكروب النفس ، والكربة الاسم ، والكريب : المكروب » (١) .

وقال الجوهرى : « الكربة بالضم : الغم الذى يأخذ بالنفس ، وكذلك الكرب ، على مثال الضرب ، تقول منه : كربه الغم ، إذا اشتد عليه ، والكرائب ، الشدائد الواحدة كريبة » (٢) .

قوله : « كان يقول عند الكرب » كان ، تدل على كثرة وقوع ذلك منه ﷺ – لأن لفظة « كان » تدل على الاستمرار غالبا .

وقوله : « لا إله إلا الله » الإله هو المعبود الذى تأله القلوب ، وتذل له وتحبه ، وتعظمه وتخافه ، وترجوه ، فالإله هو الذى يقصد بالخوف ، والرجاء ، مع الذل والتعظيم ، وكلما زاد الخوف والرجاء ، والذل ، والتعظيم ، صارت العبادة أكمل .

---

(١) تهذيب اللغة جـ ١٠ ص ٢٠٥ .

(٢) الصحاح جـ ١ ص ٢١١ .

قال شيخ الإسلام : « الإله هو الذى يؤله ، فيعبد ، محبة وإنابة ، وإجلالا ، وإكراما » (١)

فقوله : « لا إله إلا الله » أى لا أتوجه بقلبى عابدا وخاضعا ، متذللا ، خائفا راجيا إلا إلى الله وحده ، فهو إلهى ، ومعبودى ، الذى يملك نفعى ، وضرى ، وبإخلاص التأله له كمال حياتى ، وسعادتى ، وفى عدم ذلك الشقاء والهلاك .

« فالعبد كلما كان أذل لله ، وأعظم افتقاراً إليه ، وخضوعا له ، كان أقرب إليه وأعز له ، وأعظم لقدره عنده ، فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله تعالى . فأما المخلوق فكما قيل : احتج لمن شئت تكن أسيره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، وأحسن لمن شئت تكن أميره .

فأعظم ما يكون العبد قدرا وحرمة عند الخلق إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه ، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم كنت أعظم ما يكون عندهم ، ومتى احتجت إليهم ولو بشربة ماء ، نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم ، وهذا من حكمة الله ، ورحمته ، ليكون الدين كله لله ، لا يشرك به شىء .

والرب تعالى أكرم ماتكون عليه أحوج ماتكون إليه ، وأفقر ماتكون إليه وهو – تعالى – يعلم مايصلح عبده ، ويقدر على ذلك ، ويريده ، رحمة منه وفضلا ، وذلك صفته من جهة نفسه ، لاشىء آخر جعله مريدا ، راحما ، بل رحمته من لوازم نفسه ، فإنه كتب على نفسه الرحمة ، ورحمته وسعت كل شىء » (٢)

قوله : « العليم الحليم » أى هو تعالى العليم بكل شىء ، فيعلم حالى ومانزل به ، ويعلم أسبابه ، ومايترتب عليه ، لايخفى عليه خافية ، فعلمه محيط بكل شىء .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١ ص ٢٢ .
(٢) مجموع الفتاوى جـ ١ ص ٣٩ – ٤٠ .

وهو تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة ، لمن يستحقها ، بل يعفو ، ويتجاوز ، وحلمه عن علم وحكمة ، فله تعالى الكمال المطلق ، قال تعالى : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، تسبح له السموات السبع ، والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا) [(١)] وكثيراً مايأتى وصفه – تعالى – بالحلم مقرونا بالمغفرة ، مما يدل على أن الحلم هو عدم المعاجلة لمن استحق العقوبة ، وأنه تعالى يحلم على عباده ، ويغفر لهم جرائمهم ، ولهذا أخبر – تعالى – أنه لو يؤاخذ الناس بظلمهم ، وماكسبت أيديهم ماترك على ظهر الأرض من دابة ، قال تعالى : (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابة) [(٢)] .

قوله : « لا إله إلا الله رب العرش العظيم » كرر التوسل بإلهيته تعالى ، والتبرىء من كل ماسواه من مألوه ، وهذا أعظم الوسائل إلى الله – تعالى – ، وهو إخلاص العبادة والتوجه إلى الله بصدق ، ورغبة ، ورهبة .

ولهذا صار إخلاص التأله والدعاء لله وحده ، مفزع جميع العقلاء من المؤمنين والكفار ، فى كل كرب وشدة ، كما ذكر الله تعالى هذا المعنى عن السابقين من الكفار ، وغيرهم من أهل الإيمان .

قال تعالى : (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية ، لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل

الآيات من ٤٢ – ٤٤ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٦١ من سورة النحل .

كرب ثم أنتم تشركون) [١] وقال تعالى عن الطاغية الجبار : (حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) [٢]

وقال تعالى : (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه) [٣] ، وقال تعالى عن نبيه يونس عليه السلام : (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) [٤] وهذا كثير فى القرآن ، وقد تقدمت الإشارة إلى شيء من ذلك .

قوله : « لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ، ورب العرش الكريم » هذا تكرير للتوسل إلى الله تعالى بألوهيته وربوبيته ، فبدأ بما يدل على إخلاص التأله له تعالى ، ثم توسل باسميه الكريمين العليم والحليم ، ثم بأنه رب العرش العظيم ، ثم بأنه رب السماوات والأرض ، ورب العرش الكريم .

فاشتمل هذا الدعاء العظيم على التوجه إلى الله تعالى بأنواع التوحيد الثلاثة ، توحيد الإلهية ، وتوحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات .

والربوبية نوعان : عامة ، وخاصة ، فهو تعالى رب كل شيء ومليكه ، المتصرف فيه كيف يشاء ، وهو القائم على كل مخلوق بما يصلحه ، ويربيه ، « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . وقد جمع النوعين فى هذا الحديث ، فتوسل بأنه رب العرش العظيم ، الكريم وبأنه رب السماوات والأرض ، والرب هو المالك المتصرف ، القائم على كل مربوب بما يحتاجه من تربية فى شئون حياته كلها .

والمقصود من الحديث قوله : « رب العرش العظيم » وقوله : « رب العرش

---

(١) الآيتان ٦٣ و ٦٤ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٩٠ من سورة يونس .
(٣) الآية ٨ من سورة الزمر .
(٤) الآية ٨٧ من سورة الأنبياء .

الكريم » وكلاهما وصف للعرش ، وصفه بأنه عظيم ، وبأنه كريم ، والعظمة تدل على الكبر . والسعة ، والكرم يدل على الحسن ، والجمال ، والسعة أيضا .

قال الكرمانى : « وصف العرش بالعظمة ، هو من جهة الكمية ، وبالكرم أى الحسن من جهة الكيفية ، فهو ممدوح ذاتاً وصفة ، وخص بالذكر لأنه أعظم أجسام العالم ، فيدخل الجميع تحته ، دخول الأدنى ، تحت الأعلى ، وذكر لفظ الرب من بين سائر الأسماء الحسنى ليناسب كشف الكروب ، الذى هو مقتضى التربية ، ولفظ « الحليم » لأن كرب المؤمن غالبا إنما هو على نوع تقصير أو غفلة فى الطاعات » (١)

وربوبيته تعالى للعرش ، مع وصفه بأنه عظيم ، وكريم تفيد تخصيصا له عن غيره من السماوات والأرض ، وذلك لأنه قد خصه بقربه ، واستوائه تعالى عليه ذكر شيخ الإسلام ، عن أبى عمرو الطلمنكى – وهو من أئمة أهل السنة – أنه قال : « وأجمعوا – يعنى أهل السنة والجماعة – على أن لله عرشاً ، وعلى أنه مستوٍ على عرشه ، وعلمه ، وقدرته ، وتدبيره بكل ماخلقه .

قال : فأجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى : (وهو معكم أينما كنتم) (٢) ونحو ذلك فى القرآن أن ذلك علمه ، وأن الله فوق السماوات بذاته مستوٍ على عرشه ، كيف شاء .

قال : وقال أهل السنة فى قوله : (الرحمٰن على العرش استوى) (٣) : الاستواء من الله تعالى على عرشه المجيد ، على الحقيقة ، لا على المجاز .

واستدلوا بقول الله – تعالى – (فإذا استويت أنت ومن معك على

---

(١) شرح الكرمانى على البخارى جـ ٢١ ص ١٤٩ .

(٢) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

الفلك) [١] وبقوله (لتستووا على ظهوره) [٢] ، وبقوله : (واستوت على الجودى) [٣] إلا أن المتكلمين من أهل الإثبات فى هذا على أقوال .

فقال مالك – رحمه الله تعالى –: إن الاستواء معقول ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقال عبد الله بن المبارك ، ومن تابعه من أهل العلم ، وهم كثير : إن معنى استوى على العرش : استقر ، وهو قول القتيبى .

وقال غير هؤلاء : استوى : أى ظهر .

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى : استوى بمعنى علا .

وتقول العرب : استويت على ظهر الفرس ، بمعنى علوت عليه ، واستويت على سقف البيت ، بمعنى علوت عليه .

ويقال : استويت على السطح بمعناه .

فقوله تعالى : (استوى على العرش) بمعنى علا على العرش .

وقول الحسن [٤] وقول مالك من أنبل جواب وقع ، فى هذه المسألة ، وأشده استيعاباً لأن فيه نبذ التكييف ، وإثبات الاستواء المعقول ، وقد ائتم أهل العلم بقوله واستجودوه ، واستحسنوه » [٥] .

ثم تكلم على فساد قول من تأول استوى بمعنى استولى ، وقد مضى ما يغنى عن ذكره .

---

(١) الآية ٢٨ من سورة المؤمنون .
(٢) الآية ١٣ من سورة الزخرف .
(٣) الآية ٤٤ من سورة هود .
(٤) الحسن يقول معنى استوى : ارتفع .
(٥) إلى هنا ينتهى كلام الطلمنكى .

ثم قال : « وقال الثعلبى : قال الكلبى ، ومقاتل : « ثم استوى على العرش » يعنى استقر ، قال : وقال أبو عبيدة : صعد .

وقيل استولى ، وقيل ملك ، واختار هو [١] ماحكاه عن الفراء ، وجماعة أن معناه أقبل ، على خلق العرش ، وعمد إلى خلقه ، قال : ويدل عليه قوله : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) [٢] أى عمد إلى خلق السماء .

وهذا من أضعف الوجوه [٣] فإنه قد أخبر أن العرش كان على الماء قبل خلق السماوات ، والأرض ، وكما مر فى حديث عمران : « كان الله ، ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيء ، ثم خلق السماوات ، والأرض » .

فإذا كان العرش مخلوقا ، قبل خلق السماوات والأرض ، فكيف يكون معنى استوائه عليه ، بعد خلق السماوات والأرض ، هو عمده إلى خلقه ، مع أنه لايعرف فى اللغة « استوى » بمعنى عمد إلى فعل كذا ، لاحقيقة ، ولامجازا ، لا فى النثر ، ولا فى النظم .

ومن قال : استوى ، بمعنى عمد ، ذكره فى قوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) [٢] لأنه عدى بحرف الغاية ، كما يقال : عمدت إلى كذا ، وقصدت إلى كذا ، ولا يقال : عمدت على كذا ، ولا قصدت عليه ، مع أن هذا أيضا غير معروف فى اللغة ، ولا هو قول أحد من مفسرى السلف ، بل المفسرون من السلف ، بخلاف ذلك .

---

(١) يعنى الثعلبى وهذه الأقوال منقولة من تفسيره ، وهو يجمع فيه بين المتناقضات وليس لديه تميز لمذهب السلف .

(٢) الآية ١١ من سورة حم فصلت .

(٣) بل هو باطل مخالف للنصوص الواضحة ، وقد تقدم بيان بطلانه . وهذا الذى اختاره الثعلبى هو قول الجهمية والمعتزلة ، ومن تبعهم من الأشعرية وغيرهم من أهل البدع .

وإنما هذا القول ، وأمثاله ابتدع فى الإسلام ، لما ظهر إنكار أفعال الرب تعالى - التى تقوم به ، ويفعلها بقدرته ، ومشيئته ، واختياره ، فصار كل يفسر القرآن على ما يوافق قوله ، واعتقاده .

وأما السلف فأقوالهم فى هذا الباب متفقة ، وإن اختلفت عباراتهم ، فمقصودهم واحد ، وهو إثبات علو الله واستواؤه على عرشه .

فإن قيل : إذا كان الله لا يزال عاليا على المخلوقات ، فكيف يقال : ثم ارتفع إلى السماء وهى دخان ؟ أو يقال : ثم علا على العرش ؟ .

فالجواب : أن هذا كما أخبر أنه ينزل إلى السماء الدنيا ثم يصعد ، وروى : ثم يعرج وكما أخبر أنه يجىء لفصل القضاء بين عباده ، وهو سبحانه لم يزل فوق ، فإن صعوده من جنس نزوله ، ومجيئه ، وهو تعالى فى نزوله ومجيئه ، لايصير شىء من المخلوقات فوقه ، فهو سبحانه يصعد ، وإن لم يكن منها شىء فوقه .

فإن قيل : فإذا كان إنما استوى على العرش بعد أن خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، فقبل ذلك هل كان على العرش ، أو لم يكن ؟

قيل : الاستواء علو خاص ، فكل مستو على شىء عال عليه ، وليس كل عال على شىء مستو عليه ، ولهذا لايقال لكل ماكان عاليا على غيره أنه مستو عليه . ولكن كل ماقيل : إنه استوى على كذا فهو عال عليه .

والذى أخبر الله - تعالى - أنه كان بعد خلق السماوات والأرض ، الاستواء ، لامطلق العلو ، مع أنه يجوز أنه كان مستويا عليه قبل خلق السماوات والأرض ، لما كان عرشه على الماء ، ثم لما خلق هذا العالم كان عاليا على العرش ، ولم يكن مستويا عليه ، ثم استوى عليه بعد ذلك [١] .

والأصل أن علوه على المخلوقات ، وصف لازم له كما أن عظمته ، وكبرياءه

---

(١) أو يقال إن الاستواء بعد خلق السماوات والأرض ، استواء خاص غير الذى قبل ذلك .

وقدرته كذلك ، وأما الاستواء فهو فعل يفعله سبحانه بمشيئته ، وقدرته ولهذا قال فيه : ثم استوى » [١] .

وقال ابن عبد البر : « وأما ادعاؤهم المجاز فى الاستواء ، وقولهم فى تأويل استوى : استولى .

فلا معنى له ، لأنه غير ظاهر فى اللغة ، ومعنى الاستيلاء فى اللغة : المغالبة ، والله لايغالبه ، ولا يعلوه أحد ، وهو الواحد الصمد .

ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته ، حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز ، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا ، إلا على ذلك ، وإنما يوجه كلام الله – عز وجل – إلى الأشهر ، والأظهر من وجوهه ، مالم يمنع من ذلك مايجب له التسليم .

ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ، ماثبت شيء من العبارات ، وجل الله عن أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب فى معهود مخاطباتها ، وهو العلو ، والارتفاع ، على الشيء ، والاستقرار والتمكن فيه » [٢] .

وقد تقدم ذكر بعض ماقاله السلف والأئمة فى ذلك ، فى أول الباب ، والجواب عما اعتمده أهل التأويل .

★ ★ ★

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٥١٩ – ٥٢٣ ببعض التصرف .

(٢) التمهيد جـ ٧ ص ١٣١ .

٥٥ – قال : « حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن عمرو بن يحي ، عن أبيه ، عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال النبى : « يصعقون يوم القيامة فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة ، من قوائم العرش » .

★ ★ ★

٥٦ – « وقال الماجشون : عن عبد الله بن الفضل ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، عن النبى – ﷺ – قال : « فأكون أول من بعث ، فإذا موسى آخذ بالعرش »

* * *

« الصعق : غشى يلحق من يسمع صوتا شديدا أو يرى شيئا هائلا مفزعا » [١] وفى الأبى : « الصعق ، والصعقة ، والصاعقة ، والهلاك ، والموت ، وقيل : كل عذاب مهلك ، وهو أيضا : الغشية تعترى من فزع لسماع صوت [مفزع أو رأى مهولا] » [٢] وقد اختلف فى هذا الصعق المذكور فى هذا الحديث ، أهو نفخة الصور للبعث ، أو غيرها .

فقيل : إنها نفخة البعث ، لأن النفخة الأولى ، لايحس بها الأموات ، وإنما هى لموت من كان حياً ، وإنهاء الدنيا ، وابتداء الآخرة .

ولكن يشكل على هذا قوله – ﷺ – « فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أفاق قبلى ، أم جوزى بصعقة الطور » ومعلوم أن موسى عليه السلام قد مات ، فلا يجوز أن يكون المعنى : « فلا أدرى هل موسى مات ، أم جوزى عن الموت بصعقة الطور » .

وقد اختلف فى النفخ فى الصور هل هو مرتان أو ثلاث .

---

(١) الفتح جـ ٦ ص ٤٤٤ .
(٢) شرح الأبى على مسلم جـ ٦ ص ١٦٧ .

قال الإمام ابن جرير رحمه الله فى قوله تعالى : (وله الملك يزم ينفخ فى الصور) [١] :

اختلف فى الصور فى هذا الموضع .

فقال بعضهم : هو قرن ينفخ فيه نفختان ، إحداهما لفناء من كان حياً على الأرض ، والثانية لنشر كل ميت ، واعتلوا لقولهم ذلك ، بقوله : (ونفخ فى الصور ، فصعق من فى السماوات ، ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى ، فإذا هم قيام ينظرون) [٢] [٣]

وقال على قوله تعالى : (فإذا نفخ فى الصور ، فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون) [٤]

اختلف أهل التأويل فى المعنى بقوله : (فإذا نفخ فى الصور) من النفختين ، أيهما عنى بها ؟ فقال بعضهم : « عنى بها النفخة الأولى » .

ثم ذكر عن ابن عباس : قال : فذلك فى النفخة الأولى ، فلا يبقى على الأرض شىء وروى ذلك أيضا عن السدى .

ثم ذكر القول الثانى : أن المراد بذلك النفخة الثانية ، وروى ذلك عن ابن مسعود وغيره » [٥]

وهذا الذى ذكره الطبرى - رحمه الله - يدل على أن النفخ فى الصور مرتين . الأولى لموت من كان حياً على وجه الأرض ، والثانية ، لبعث الموتى . وعليه يكون الإشكال فى الحديث ظاهرا ، وسيأتى ذكر ألفاظ الحديث فى البخارى ومسلم .

---

(١) الآية ٧٣ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٦٨ من سورة الزمر .
(٣) تفسير الطبرى جـ ١١ ص ٤٦٢ بتحقيق محمود شاكر .
(٤) الآية ١٠١ من سورة المؤمنون .
(٥) تفسير الطبرى جـ ١٨ ص ٥٤ ط الحلبى .

وقد أجاب القرطبى عن الإشكال بقوله : « المعنى فلا أدرى أبعثه الله قبلى ؟ تفضيلا له ، من هذا الوجه ، كما فضل بالدنيا بالتكليم أو كان جزاء له بصعقة الطور قدم بعثه على بعث الأنبياء ، الآخرين ، بقدر صعقته عندما تجلى ربه للجبل » (١)

فعلى هذا يكون المعنى فى قوله : « أو جوزى بصعقة الطور » أى قدم بعثه علىَّ جزاء له بما حصل من صعقته فى الطور ، وهذا غير صحيح لأمور عدة .

منها أن الحديث على هذا يصبح فيه تكرار لا معنى له ، إذ يكون المعنى على قول القرطبى « فلا أدرى أبعث قبل ؟ أم جوزى ببعثه قبلى بصعقة الطور » .

ومنها أن ظاهر الحديث يرد هذا ، لأن قوله : « فلا أدرى أبعث قبلى ؟ أم جوزى بصعقة الطور ؟ » ظاهره ، فلا أدرى أصعق فبعث قبلى أم أنه لم يصعق ، وإنما جوزى عن الصعق بصعقة الطور ، ولهذا لم يقتنع القرطبى بهذا الجواب فذكر جوابا آخر سيأتى ثم قال :

« وقال شيخنا أحمد بن عمر : وظاهر حديث النبى - ﷺ - يدل على أن ذلك إنما هو بعد النفخة الثانية ، نفخة البعث ، ونص القرآن يقتضى أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق ، ولهذا قال بعض العلماء : يحتمل أن يكون موسى - عليه السلام - ممن لم يمت من الأنبياء ، وهذا باطل بما صح من النصوص بذكر موته .

قال : وقال القاضى عياض : يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع ، بعد النشر حين تنشق السماوات والأرض ، قال : فتستقل الأحاديث والآيات ، والله أعلم .

ثم قال : قال شيخنا أبو العباس : وهذا يرده ماجاء فى الحديث أنه عليه

---

(١) التذكرة جـ ١ ص ٢٠٨ ، وهو أخذ هذا عن الحليمى كما فى المنهاج ، انظر الورقة ٢١٤ من المخطوطة وانظر المطبوع جـ ١ ص ٤٣٢ .

السلام حين يخرج من قبره يلقى موسى ، وهو متعلق بالعرش ، وهذا عند نفخة البعث .

قلت : وسيأتى مايوضح ذلك فى روايات الحديث التى أذكرها إن شاء الله .

ثم قال : « قال شيخنا أحمد بن عمر : والذى يزيح هذا الإشكال ، إن شاء الله – تعالى – أن الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال ، إلى حال ، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم ، أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين ، مستبشرين . وهذه صفة الأحياء فى الدنيا .

وإذا كان هذا فى الشهداء ، كان الأنبياء بذلك أحق ، وأولى ، فإذا نفخ فى الصور نفخة الصعق ، صعق كل من فى السماوات ، والأرض ، إلا من شاء الله فأما صعق غير الأنبياء ، فموت ، وأما صعق الأنبياء ، فالأظهر أنه غشية فإذا نفخ فى الصور ، نفخة البعث ، فمن مات ، حيى ، ومن غشى عليه أفاق » (١)

قلت : وحاصل هذا الجواب ، أن الصعقة المذكورة فى الحديث هى الأولى ، وأن الصعق يكون للأرواح ، وكل ذلك باطل ، لأنه سيأتى أن الحديث ينص على أنها نفخة البعث ، ومعلوم أن الأرواح لاتموت ، فكيف يكون صعق غير الأنبياء موت مع أنه زعم أن الصعق للأرواح ، وكل ذلك يفتقر إلى دليل ، والأدلة خلافه .

ولهذا قال ابن القيم : « وحمل الحديث على هذا ، لايصح ، لأنه ﷺ تردد هل أفاق موسى قبله ، أو لم يصعق ، بل جوزى بصعقة الطور .

فالمعنى : لا أدرى أصعق أم لم يصعق .

وقد قال فى الحديث : « فأكون أول من يفيق » . وهذا يدل على أنه – ﷺ – يصعق فيمن يصعق ، وأن التردد حصل فى موسى ، هل صعق وأفاق قبله من صعقته ، أو لم يصعق .

---

(١) التذكرة جـ ١ ص ٢٠٨ – ٢٠٩ .

ولو كان المراد به ، الصعقة الأولى ، وهى صعقة الموت ، لكان ﷺ قد جزم بموته ، وتردده هل مات موسى ، أو لم يمت ، وهذا باطل ، لوجوه كثيرة . فعلم أنها صعقة فزع ، لاصعقة موت ، والآية لاتدل على أن الأرواح كلها تموت ، عند النفخة الأولى ، وإنما تدل على أن من لم يذق الموت قبلها يموت ، وأما من مات ، أو من لم يكتب عليه الموت ، فلا يموت » [١]

وقال السفارينى : « وصعق الأرواح عند النفخ فى الصور ، لا يلزم منه موتها . ففى الصحيحين : « أن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة العرش ، فلا أدرى أفاق قبلى ، أم جوزى بصعقة يوم الطور » ؟

فهذا صعق فى موقف القيامة ، إذ جاء الله لفصل القضاء ، وأشرقت الأرض بنوره ، فحينئذ ، يصعق الخلائق كلهم ، قال تعالى : (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) [٢] .

ولو كان هذا الصعق موتا ، لكانت موتة أخرى » [٣] ثم ذكر كلام ابن القيم السابق . وقال ابن القيم بعد ماقرر أن هذا الصعق المذكور ، إنما هو فى الموقف ، إذا جاء رب العالمين - جل وعلا - لفصل القضاء بين عباده .

قال : « فإن قيل : فكيف تصنعون بقوله فى الحديث : « إن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من تنشق عنه الأرض ، فأجد موسى باطشا بقائمة العرش » ؟ قيل : لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ، ومنه نشأ الإشكال ، ولكنه دخل فيه على الراوى ، حديث فى حديث ، فركب بين اللفظين ، فجاء هكذا والحديثان هكذا أحدهما :

---

(١) الروح ص ٣٦ .
(٢) الآية ٤٥ من سورة الطور .
(٣) لوامع الأنوار البهية جـ ٢ ص ٣٨ .

« أن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق »

والثانى : « أنا أول من تنشق عنه الأرض ، يوم القيامة » . فدخل على الراوى هذا الحديث ، فى الحديث الآخر ، وكان شيخنا أبو الحجاج المزى يقول : ذلك » (١)

قلت : وهذا احتمال بعيد جداً . ويحتاج إلى دليل ، ولا وجود له إذ لايجوز تخطئة الراوى بمجرد إشكال يعرض للإنسان فى لفظ الحديث ، فما قال ابن القيم رحمه الله هنا غير صحيح ، وسيتبين ذلك عند ذكر روايات الحديث .

فلفظ حديث أبى سعيد فى البخارى : « لا تخيروا بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من تنشق عنه الأرض ، فإذا أنا بموسى ، آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى ، أكان فيمن صعق ؟ أم حوسب بصعقة الأولى » (٢) ثم رواه فى أماكن متعددة من صحيحه بألفاظ متقاربة ، ليس فيها فأكون أول من تنشق عنه الأرض ، إلا فى هذا الموضع .

ولكن فى رواية أبى هريرة : أنه – ﷺ – قال : « لاتفضلوا بين أولياء الله ، فإنه ينفخ فى الصور ، فيصعق من فى السماوات ، ومن فى الأرض ، إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى ، فأكون أول من بعث ، فإذا موسى آخذ بالعرش ، فلا أدرى أحوسب بصعقته يوم الطور ، أم بعث قبلى » (٣)

قال الحافظ : « وقع فى رواية إنى أول من يرفع رأسه بعد النفخة الثانية » وفى أخرى « إنى أول من يرفع رأسه بعد النفخة الأخيرة » (٤)

ورواه فى التفسير بسند آخر ، مختصرا ، ولفظه : « إنى أول من يرفع

---

(١) الروح ص ٣٧ .
(٢) انظر البخارى مع الفتح جـ ٥ ص ٧٠ .
(٣) انظر الفتح جـ ٦ ص ٤٥١ .
(٤) الفتح جـ ٦ ص ٤٤٤ .

رأسه ، بعد النفخة الآخرة ، فإذا أنا بموسى ، متعلق بالعرش ، فلا أدرى ، أكذلك كان ، أم بعد النفخة » [١] ثم ذكره معلقا ، فى الموضع نفسه بلفظ : « فأكون أول من بعث ، فإذا موسى آخذ بالعرش » ورواه مسلم ، ولفظه : « لاتفضلوا بين أنبياء الله ، فإنه ينفخ فى الصور ، فيصعق من فى السماوات ، ومن فى الأرض ، إلا من شاء الله ، قال ثم ينفخ فيه أخرى ، فأكون أول من بعث ، أو فى أول من بعث ، فإذا موسى آخذ بالعرش ، فلا أدرى أحوسب بصعقة يوم الطور ، أو بعث قبلى ؟ » .

ثم رواه بسند آخر – وفيه « فإن الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق » [٢] .

وأما حديث أبى سعيد المتقدم ، فى ذكر الانشقاق ، فقد رواه أيضا الإمام أحمد : فقال : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن عمرو بن يحي ، عن أبيه ، عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله – ﷺ –: « لاتخيروا بين الأنبياء ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، فأفيق ، فأجد موسى متعلقا بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أجزى بصعقة الطور ، أو أفاق قبلى » [٣]

وذكر الحافظ أن فى رواية محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة – عند ابن مردويه – « أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، فأنفض التراب عن رأسى ، فآتى قائمة العرش فأجد موسى قائما عندها ، فلا أدرى أنفض التراب عن رأسه قبلى ، أو كان ممن استثنى الله » [٤]

فهذه الرواية تدل على أن الصعق المذكور هو النفخة الثانية فى الصور ، فإن قوله فى رواية أبى هريرة : « فإنه ينفخ فى الصور ، فيصعق من فى السماوات

---

(١) الفتح جـ ٨ ص ٥٥١ .
(٢) مسلم جـ ٤ ص ١٨٤٤ – رقم ٢٣٧٣ .
(٣) المسند جـ ٣ ص ٣٣ .
(٤) الفتح جـ ٦ ص ٤٤٥ .

ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى ، فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى آخذ بالعرش » وفى الرواية الأخرى : « إنى أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة ، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش » ، وفى أخرى « إنى أول من يرفع رأسه بعد النفخة الثانية »

وفى رواية مسلم « ثم ينفخ فيه أخرى ، فأكون أول من بعث » .

فهذا واضح وصريح ، فى أن المقصود البعث من الموت الحاصل بنفخ الصور النفخة الثانية ، وبه يتبين أن ماقاله القرطبى وغيره مما سبق ذكره ، وكذا ماذهب إليه ابن القيم كله غير صحيح كما سبق ، وكذا قول الحليمى فى المنهاج : « أن ظاهر الحديث أن هذه صعقة غشى يوم القيامة ، لاصعقة الموت ، الحادث عن نفخ الصور » [1] مردود بما صرحت به الروايات المذكورة .

فالصواب مانصت عليه هذه الروايات من أن موسى عليه السلام يبعث قبل نبينا – ﷺ – وأما تردده أأصابه الصعق فبعث قبله ، أو كان ممن استثنى الله تعالى ، أو جوزى عن الصعق بصعقة الطور ، كل ذلك يقتضى أنه بعث قبله .

ولكن يبقى الإشكال فى أن النفخة التى استثنى الله تعالى منها هى الأولى . ومعلوم أن موسى عليه السلام قد مات قبلها ، فكيف يصح استثناؤه منها ؟

فيقال ، وكذا نبينا ﷺ وسائر الأنبياء لا ينالهم ذلك ، وإنما ينال من كان حياً فى ذلك الوقت ، ويكون الأقرب ماقاله الحليمى : « أن المعنى إذا نفخ فى الصور مرة أخرى ، كنت أول من بعث ، فأجد موسى مبعوثا قبلى ، فلا أدرى أفضل بذلك على سائر الخلق ، أو أن ذلك جزاء له بصعقة الطور » [2]

---

(١) انظر المنهاج المخطوط ورقة ٢١٤ . وانظر المطبوع جـ ١ ص ٤٣٢ وهو كثير التحريف .

(٢) انظر المنهاج ورقة ٢١٤ أو المطبوع جـ ١ ص ٤٣٢ وهذا معنى كلامه وليس لفظه .

وهذا بناء على أن النفخ فى الصور مرتان ، وهو الذى تؤيده الأدلة الصحيحة ، كما مر فى هذه الروايات السابقة .

قال الحافظ : « ثبت فى صحيح مسلم أنهما نفختان ، ولفظه فى أثناء حديث مرفوع : « ثم ينفخ فى الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ، ورفع ليتا ، ثم يرسل الله مطرا كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون »

وفى حديث أبى هريرة المتفق عليه « بين النفختين أربعون » ، وفى ذلك دلالة على أنهما نفختان فقط ، والتغاير فى كل منهما باعتبار من يسمعهما ، فالأولى يموت بها كل من كان حياً ، ويغشى على من لم يمت ممن استثنى الله تعالى .

والثانية يعيش بها من مات ، ويفيق بها من غشى عليه » (١)

وقد ذهب إلى أنها ثلاث نفخات بعض العلماء ، كالحافظ ابن كثير وحمل قوله تعالى : (ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض) على أنها نفخة الفزع ، وممن ذهب إلى ذلك القرطبى وابن العربى وغيرهم ، وعمدتهم فى ذلك حديث الصور ، حيث صرح فيه أن النفخات ثلاث ، ولكنه حديث ضعيف مضطرب ، كما بينه الحافظ ابن حجر رحمه الله فلا يعتمد عليه لذلك ، وآية الزمر واضحة الدلالة فى أن النفخ فى الصور مرتين .

قوله : « فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش » وفى رواية أبى هريرة : « آخذ بالعرش » أى أنه - ﷺ - يجد موسى عليه السلام بعد مابعث ، ممسكا بأحد قوائم العرش ، والمراد بالعرش : عرش رب العالمين .

---

(١) انظر فتح البارى جـ ١١ ص ٣٦٩ - ٣٧٠ و جـ ٦ ص ٤٤٦ ، وانظر الحديث الذى يشير إليه فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢٥٨ و ٢٢٥٩ رقم ٢٩٤٠ ، وانظر حديث أبى هريرة فى البخارى مع الفتح جـ ٨ ص ٥٥١ و ٦٨٩ ، وفى مسلم جـ ٤ ص ٢٢٧٠ رقم ٢٩٥٥ .

ففى هذا فضل لموسى عليه السلام ، حيث بعث قبل نبينا – ﷺ – وهذه القبلية إما مجرد فضيلة خصه الله بها كما خص بالتكليم ، وإما جزاء بالصعقة التى أصابته ، يوم سأل ربه الرؤية عندما تجلى الله تعالى للجبل . والله أعلم .

ومما تقدم من النصوص التى ذكرها البخارى – رحمه الله – هنا وغيرها ، يعلم أن الله تعالى خص العرش من بين مخلوقاته ، بأنه استوى عليه ، وأنه فوق جميع المخلوقات ، وأن له حملة ، اليوم ، ويوم القيامة ، وأنه تعالى تعبد من شاء من ملائكته بأن يحفوا به ، ويطوفوا به ، وأن حملته ومن حوله من الملائكة يسبحون الله تعالى – ويستغفرون للمؤمنين ، وأنه أول المخلوقات المعلومة لنا ، فقد أخبر تعالى أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السماوات والأرض كما قال – تعالى – : (وهو الذى خلق السماوات والأرض ، فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء) [1] .

وأنه – تعالى – كان ولم يكن شىء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ثم خلق السماوات والأرض .

وقد تقدم ذكر حديث عبد الله بن عمرو : « إن الله قدر مقادير الخلائق ، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » وهو فى صحيح مسلم كما فى هذه النصوص ، وصف العرش بأنه عظيم ، وأنه كريم ، وأنه مجيد .

وكثيرا مايمدح الله – تعالى – نفسه بأنه ذو العرش ، كما قال – تعالى – : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا) [2]

---

(١) الآية ٧ من سورة هود .

(٢) الآيات ٤٢ و ٤٣ و ٤٤ من سورة الإسراء .

وقال – تعالى – : (رفيع الدرجات ذو العرش) [١] . وقال – جل وعلا – : (وهو الغفور الودود . ذو العرش المجيد) [٢] وقال – تعالى – : (فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) [٣] إلى غير ذلك .

كما جاء فى الحديث الصحيح مايدل على أنه أثقل الأوزان ، كما فى قوله – ﷺ – لجويرية : « لقد قلت بعدك أربع كلمات ، ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت ، منذ اليوم لوزنتهن : « سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته » [٤] .

كما فى النصوص المتقدمة أنه سقف أعلى الجنان ، وهى الفردوس ، وأن له قوائم ، وغير ذلك مما بينته النصوص التى جاءت بها الرسل ، وكل ذلك يدل على أن الله فوق العرش مستوٍ عليه ، وقد اتفق على هذا الأنبياء كلهم ، وذكر فى كل كتاب أنزل على كل نبى ، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها من جميع الطوائف ، إلا من ضل الحق واتبع غير سبيل المؤمنين من الجهمية ، والمعتزلة والأشعرية وغيرهم .

* * *

---

(١) الآية ١٥ من سورة غافر الذنب .

(٢) الآيتان ١٤ و ١٥ من سورة البروج .

(٣) الآية الأخيرة من سورة براءة .

(٤) صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٩٠ .



قال : « باب قول الله - تعالى - : (تعرج الملائكة والروح إليه) [١]

وقوله - جل ذكره - : (إليه يصعد الكلم الطيب) [٢]

* * *

قال الأزهرى : فى عرج : « قال الله - جل وعز -: (تعرج الملائكة ، والروح إليه) [١] أى تصعد ، يقال : عرج ، يعرج ، عروجا .

وقوله - جل وعز -: (من الله ذى المعارج) [٣] قال قتادة : ذى المعارج : ذى الفواضل ، والنعم ، وقيل : معارج الملائكة ، وهى مصاعدها ، التى تصعد ، وتعرج فيها ، ذكر ذلك أبو إسحاق .

وقال الفراء : ذى المعارج ، من نعت الله ، لأن الملائكة ، تعرج إلى الله ، فوصف نفسه بذلك [٤] .

وقال الليث : عرج يعرج ، عروجا ، ومعروجا ، قال : والمعرج المصعد ، والمعرج الطريق الذى تصعد فيه الملائكة .

---

(١) الآية ٤ من سورة المعارج .

(٢) الآية ١٠ من سورة فاطر .

(٣) الآية ٣ من سورة المعارج .

(٤) انظر معانى القرآن للفراء جـ ٣ ص ١٨٤ .

قال : والمعراج : يقال : شبه السلم ، أو درجة ، تعرج فيه الأرواح ، إذا قبضت » [١]

وقال الجوهرى : « عرج فى الدرجة ، والسلم ، يعرج ، عروجا ، إذا ارتقى .

والمعراج : السلم ، ومنه : ليلة المعراج ، والجمع معارج ، ومعاريج » [٢] .

وقال الراغب : « العروج : ذهاب فى صعود . قال : (تعرج الملائكة والروح) [٣] (فظلوا فيه يعرجون) [٤] ، والمعارج : المصاعد ، قال : (ذى المعارج) [٥] وليلة المعراج ، سميت لصعود الدعاء فيها ، إشارة إلى قوله : (إليه يصعد الكلم الطيب) [٦]

قوله : سميت ، لصعود الدعاء فيها يعنى : المعارج سميت لذلك ، ولا يعنى ليلة المعراج

وقال الطبرى ، فى قوله – تعالى – : (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون) [٤] « وأما قوله : « يعرجون » ، فإن معناه : يرقون فيه ، ويصعدون ، يقال : منه عرج يعرج ، عروجا ، إذا رقى ، وصعد » [٧] .

---

(١) تهذيب اللغة جـ ١ ص ٣٥٥ .

(٢) الصحاح جـ ١ ص ٣٢٨ .

(٣) الآية ٤ من سورة المعارج .

(٤) الآية ١٤ من سورة الحجر .

(٥) الآية ٣ من سورة المعارج .

(٦) المفردات ص ٣٢٩ .

(٧) تفسير الطبرى جـ ١٤ ص ١١ ط الحلبى .

وقال فى قوله - تعالى -: (ذى المعارج) [(١)] يعنى ذا العلو ، والدرجات ، والفواضل والنعم » - ثم روى ذلك عن ابن عباس ، وقتادة . وروى عن مجاهد ، قال : معارج السماء .

ثم قال : « وقوله - تعالى - : (تعرج الملائكة ، والروح إليه) : يقول - تعالى ذكره - : تصعد الملائكة ، والروح - وهو جبريل - عليه السلام « إليه » يعنى : إلى الله - جل وعز - والهاء فى قوله : « إليه » عائدة على اسم الله » [(٢)]

قوله : والروح - هو جبريل - هذا هو الظاهر من سياق الآية ، فيكون من عطف الخاص على العام .

وقوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب » وقال مجاهد : « العمل الصالح يرفع الكلم الطيب »

قال الحافظ : « وصله الفريابى من رواية ابن نجيح ، وأخرج البيهقى من طريق على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : « الكلم الطيب ، ذكر الله ، والعمل الصالح ، أداء فرائض الله ، فمن ذكر الله ، ولم يؤد فرائضه ، رد كلامه » [(٣)] ورواه ابن جرير [(٤)]

قلت : أثر مجاهد ، رواه ابن جرير فى تفسيره ، ولفظه : « الكلام الطيب ذكر الله ، والعمل الصالح أداء فرائضه ، فمن ذكر الله فى أداء فرائضه ، حمل عليه ذكر الله ، فصعد به إلى الله . ومن ذكر الله ، ولم يؤد فرائضه ، رد كلامه على عمله ، فكان أولى به » [(٤)]

---

(١) الآية ٣ من سورة المعارج .
(٢) تفسير الطبرى جـ ٢٩ ص ٧٠ .
(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٤١٦ .
(٤) تفسير الطبرى جـ ٢٢ ص ١٢١ ط الحلبى ، وانظر الأسماء والصفات ص ٤٢٦ .

وقال ابن جرير : « إليه يصعد الكلم الطيب » يقول – تعالى ذكره – : إلى الله يصعد ذكر العبد إياه وثناؤه ، وأداء فرائضه ، والانتهاء إلى ماأمر به » [١]

ثم روى عن ابن مسعود أنه قال : « إذا حدثناكم بحديث ، أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله – تعالى – إن العبد المسلم ، إذا قال : سبحان الله ، وبحمده ، الحمد لله ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ، تبارك الله ، أخذهن ملك ، فجعلهن تحت جناحيه ، ثم صعد بهن إلى السماء ، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة ، إلا استغفروا لقائلهن ، حتى يجيء بهن وجه الرحمن ، ثم قرأ عبد الله : « إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه » [٢] .

ثم روى قول مجاهد الذى ذكره البخارى ، وروى عن الحسن ، وقتادة : « لايقبل الله قولا إلا بعمل ، من قال ، وأحسن العمل ، قبل الله منه » [٣]

ومقصود البخارى بهذا الباب ، ذكر بعض الأدلة على علو الله – تعالى – وبيان أن ذلك ثابت بكتاب الله – تعالى – وسنة رسوله ﷺ ، وبالعقل ، والفطرة . فقد فطر الله تعالى العباد على الإيمان بذلك ، وآمن الصحابة به ، واتبعهم عليه كل من سلك طريق الرسل .

فالإيمان بعلو الله تعالى وفوقيته ، فطرى عقلى شرعى ، ومن خالف ذلك فقد انحرف عن طريق الرسل ، وسلك فى ذلك غير سبيل المؤمنين .

ولبيان أن الإيمان بذلك . فطرى ، عقلى ، ذكر قول أبى ذر ، قبل أن يسلم أنه قال لأخيه : « اعلم لى ، علم هذا الرجل ، الذى يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء » كما يأتى بيانه .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢٢ ص ١٢٠ .

(٢) المرجع المذكور .

(٣) الطبرى جـ ٢٢ ص ١٢١ .

ومعلوم أن الخبر ، لايأتى إلا من مخبر ، والمخبر الذى يرسل الرسل بأوامره ، ونواهيه ، هو الله – جل وعلا – وهو فى السماء ، أى فى العلو بائن من خلقه .

وهذه المسألة من كبار مسائل العقيدة الإسلامية ، ومع ظهورها ، وكثرة الأدلة عليها وتنوعها ، واتفاق الرسل ، والكتب وأتباع الرسل عليها ، ضل فيها طوائف كثيرة كالجهمية ، والمعتزلة ، وأكثر الأشعرية ، ولا يزال على الضلال فيها خلق كثير ممن يتبنى مذهب الأشعرية ، والماتريدية ، معتقدين ، أن ذلك الضلال هو الحق وانه مذهب أهل السنة ، وأن أدلة كتب الله ، ووحيه إلى رسله ، ظواهر تدل على التشبيه بظاهرها ، فلهذا يجب صرفها عن ذلك الظاهر .

ويرى هؤلاء أن من اعتقد مادل عليه القرآن ، والسنة بظاهرهما ، أنه مشبه ومجسم ، مع أن العقل ، والفطر السالمة من الانحراف ، يتفقان على مادل عليه وحى الله تعالى ، ولهذا ترمى الأشعرية كل من اعتقد علو الله ، واستواءه على عرشه على الحقيقة ، بالتشبيه ، والتجسيم ، وأحيانا يصرحون بكفرهم كما هو عقيدتهم فى قرار نفوسهم ، ومع هذا ترى كثيرا منهم رافعاً عقيرته داعياً إلى الاتفاق والوئام ، وهذا لن يكون أبداً مادام فى الأرض معتقد للحق ، لأنه لاتفاق بين الهدى ، والضلال ، والحق ، والباطل ، وكيف يكون اتفاق مع من يرى أن من اعتقد مادلت عليه النصوص الصريحة ، الواضحة الكثيرة ، أنه ضال ، ومشبه ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله : « وقال أبو جمرة : عن ابن عباس ، لما بلغ أبا ذر مبعث النبى – ﷺ – فقال لأخيه : اعلم لى علم هذا الرجل ، الذى يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء » هذا التعليق قد تقدم تاما موصولا ، فى المناقب ، وفى الفضائل (١) .

ومقصوده من ذلك ، بيان أن علو الله تعالى على خلقه ، أمر مفطور عليه الخلق ، ومعلوم بالعقل ، والوحى جاء مؤيداً لذلك ، وموضحا له .

★ ★ ★

---

(١) انظر الفتح جـ ٦ ص ٥٤٩ و جـ ٧ ص ١٧٣ .

٥٧ – قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثنى مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « يتعاقبون ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة العصر ، وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ، وهو أعلم بهم ، كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون »

* * *

« يتعاقبون » . التعاقب : إتيان فريق ، عقب فريق ، ثم يعود الأول ، بعد إتيان الثانى .

وإنما يكون التعاقب بين طائفتين ، أو رجلين ، ومنه . تعقيب الجيوش ، بأن يرسل طائفة من الجيش إلى مدة ، ثم يرسل مكانهم طائفة أخرى ، ويرجع الأولون .

والضمير فى قوله « فيكم » يعود إلى المخاطبين ، وهم الأمة المستجيبة للرسول – ﷺ – .

والأظهر أن هؤلاء الملائكة غير الحفظة ، كما قاله القرطبى ، وأيده الحافظ ، بأنه لم ينقل أن الحفظة يفارقون العبد ، ولا أن حفظة الليل ، غير حفظة النهار ، وبغير ذلك (١)

« ويجتمعون فى صلاة العصر ، وصلاة الفجر » أى يجتمع فى صلاة العصر ، الهابطون ليبيتوا مع العباد ، والذين كانوا معهم فى النهار ، فالفريقان يحضران صلاة العصر ، وصلاة الفجر ، فيصعد الذين صحبوا العباد بالنهار ،

---

(١) انظر الفتح جـ ٢ ص ٣٤ – ٣٥ .

عقب صلاة العصر ويبقى الذين يبيتون معهم ليلا ، ثم بعد اجتماع الفريقين أيضا ، فى صلاة الفجر يصعد الذين باتوا مع العباد ، ويبقى الذين نزلوا فى صلاة الفجر من السماء . والله تعالى يسأل كل فريق ، عن العباد ، يقول : كيف تركتم عبادى ، أى على أى حال تركتموهم – وهو – جل وعلا – أعلم من الملائكة المصاحبين لهم ، بهم . ولكن يسأل تعالى الملائكة عنهم ، لإظهار كرامتهم ، فضلا منه ، وإحسانا إليهم ، وبهذا يعلم أهمية المحافظة على هاتين الصلاتين فى الجماعة .

قوله : « ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم – وهو أعلم – كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم يصلون ، وأتيناهم ، وهم يصلون »

تقدم معنى العروج ، وأنه الصعود ، والارتفاع ، والذهاب إلى العلو ، وهذا هو محل الشاهد ، من الحديث ، لأن السؤال حصل بعد صعودهم ، حيث يصلون إلى المكان المحدد لهم ، والله تعالى فوقهم ، وهو تعالى يخاطبهم بذلك ، بدون واسطة ، كما هو ظاهر النص ، ولو كان ذلك بوحى لم يكن هناك فرق بين كونهم فى السماء ، أو فى الأرض .

وهذا الحديث يتفق فى المعنى مع قوله تعالى : « تعرج الملائكة والروح إليه » وكأن البخارى يشير بذلك إلى تفسيرها ، وأن عروج الملائكة المذكور فى هذا الحديث ، داخل فى مدلولها .

ودل قوله : « وهو أعلم بهم » أن المقصود من السؤال ، إظهار كرامة المؤمنين من بنى آدم ، بطاعتهم لربهم ، وعبادتهم إياه ، والتنويه بفضلهم ، عند الملائكة الذين فى السماء ، والملائكة المسؤلون ، فهموا من الله تعالى ماأراده . ولهذا قالوا فى الجواب : « تركناهم ، وهم يصلون ، وأتيناهم ، وهو يصلون »

وفى هذا دليل على أن من جلس فى مصلاه ، يذكر الله ويدعوه أنه فى صلاة لأن الملائكة يحضرون الصلاة معهم ، وبعد الفراغ منها يصعدون .

قال الحافظ : « ويستفاد منه أن الصلاة أعلى العبادات ، لأنه عنها وقع السؤال والجواب ، وفيه الإشارة إلى عظم هاتين الصلاتين ، لكونهما تجتمع فيهما الطائفتان ، وفى غيرهما طائفة واحدة .

والإشارة إلى شرف الوقتين المذكورين ، وقد ورد أن الرزق يقسم بعد صلاة الصبح ، وأن الأعمال ترفع آخر النهار ، فمن كان حينئذ فى طاعة ، بورك فى رزقه ، وفى عمله .

ويترتب عليه حكمة الأمر بالمحافظة عليهما ، والاهتمام بهما .

وفيه تشريف هذه الأمة ، على غيرها ، ويستلزم تشريف نبيها على غيره .

وفيه الإخبار بالغيوب ، ويترتب عليه زيادة الإيمان .

وفيه الإخبار بما نحن فيه ، من ضبط أحوالنا حتى نتيقظ ، ونتحفظ فى الأوامر والنواهى ، ونفرح فى هذه الأوقات بقدوم رسل ربنا ، وسؤال ربنا عنا .

وفيه إعلامنا بحب ملائكة الله لنا ، لنزداد فيهم حباً ، ونتقرب إلى الله - تعالى - بذلك .

وفيه كلام الله تعالى مع الملائكة ، وغير ذلك من الفوائد » [١] .

وفيه كثرة الملائكة ، وأن لكل منهم وظائف مكلفون بها ، وبيان نصحهم لبنى آدم ، وحبهم الخير لهم ، وأن استقرارهم فى السماء ، وإنما ينزلون إلى الأرض حسب أوامر الله لهم .

* * *

---

(١) الفتح جـ ٢ ص ٣٧ .

٥٨ – قال : « وقال خالد بن مخلد : حدثنا سليمان ، حدثني عبد الله ابن دينار ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : « قال رسول الله – ﷺ – من تصدق بعدل تمرة ، من كسب طيب ، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها ؛ بيمينه ، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه ، حتى تكون مثل الجبل »

* * *

« الصدقة : مايخرجه الإنسان من ماله ، على وجه القربة ، كالزكاة ، لكن الصدقة في الأصل ، تقال : للمتطوع به ، والزكاة ، للواجب ، وقد يسمى الواجب صدقة إذا تحرى صاحبها ، الصدق في فعلها » (١) .

وسميت صدقة ، من الصدق ، لأنها تدل على صدق إيمان المتصدق غالبا .

قوله : « بعدل تمرة » بفتح العين ، قال القاضي عياض : « العدل بالفتح المثل وماعادل الشيء ، وكافأه ، من غير جنسه ، وبالكسر ، ماعادله ، من جنسه وكان نظيره ، وقيل : الفتح ، والكسر لغتان فيها ، وهو قول البصريين » (٢) .

والمعنى : من تصدق بقدر تمرة ، أو بقيمتها .

قوله : « من كسب طيب » أي تصدق بمال حلال ، جيد ، وإن كان قليلا .

« ولا يصعد إلى الله إلا الطيب » . تقدم هذا الحديث في الزكاة بسند

---

(١) المفردات للراغب ص ٢٧٨ .

(٢) المشارق جـ ٢ ص ٦٩ .

متصل غير هذا وفيه « ولا يقبل الله إلا الطيب » [١] .

فالذى يقبله الله – تعالى – يصعد إليه ، فيبارك به لصاحبه ، وينميّه .

وهذه الجملة من الحديث هى المقصود منه هنا ، حيث دل على علو الله – تعالى – وأنه فوق ، وماقبله الله من الأعمال ، فإنه يصعد إليه ، وقد تقدم أن الملائكة تصعد إلى الله – تعالى – وتعرج إليه ، والصعود ، والعروج سواء فى المعنى ، كما تقدم فى كلام ابن جرير .

وقد اختار البخارى بعض النصوص فى هذا الباب ، التى فيها ذكر الصعود والعروج ونحوهما لوضوح الدلالة فى ذلك على علو الله – تعالى – كما أنه نوع الأدلة فى ذلك كما تقدم للإيضاح ، وأدلة علو الله تعالى كثيرة جداً ، ومتنوعة كما ستأتى الإشارة إلى ذلك .

« قوله : « فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبها ، كما يربى أحدكم فلوه » أى أن الله – تعالى – يقبلها من صاحبها ، فيأخذها بيده اليمنى ، وكلتا يديه يمين ، فينميها لصاحبها ، ويبارك فيها ، ويعتنى بها عناية بالغة ، كما يعتنى أحدنا بأغلى ماليه من المال ، وأنفسه ، وهو ولد الفرس ، الذى يعد لمدافعة الأعداء وقتالهم ، وحماية الأعراض ، والنفوس ، والأموال ، حتى يصير ماهو بقدر التمرة – لشدة عناية الله – تعالى – به مثل الجبل .

وقد تخبط شراح الحديث ممن سلك طريق الأشاعرة ، فى شرح هذه الجملة ، وجاؤا بماليس له وجه ، مع أن المتكلم به قد أعطى من الفصاحة والبيان والنصح للسامع ، والحرص على وصول الخير إليه ما ليس عليه مزيد ، فيجب أخذ كلامه على ظاهره ، والإيمان به ، وإحسان الظن به ، فهو صلوات الله وسلامه عليه أقدر على إيضاح مايريد من هؤلاء ، كما أنه ﷺ أعلم بالله منهم ، فليس

---

(١) انظر الفتح جـ ٣ ص ٢٧٨ .

كلامه بحاجة إلى تلك التأويلات الباردة [١] ، والتمحلات المتكلفة ، كالتى ذكر ابن حجر ، – عفا الله عنا وعنه –.

★ ★ ★

---

(١) انظر بعض ماقاله هؤلاء المؤولة فى فتح البارى جـ ٣ ص ٢٨٠ .

٥٩ – ثم ذكر حديث ابن عباس : فى دعاء الكرب ، وقد تقدم فى الباب قبل هذا ، وفيه اختلاف فى سنده ومتنه ، كما هى عادته .

* * *

والمقصود منه هنا قول : « رب العرش العظيم » وقوله : « رب العرش الكريم » وقد تقدم أن العرش هو سقف المخلوقات كلها ، وليس فوقه مخلوق . وقد وصفه – تعالى – بأنه عظيم ، وبأنه كريم ، وأضافه – تعالى – إليه مما يدل على أن له خصوصية دون غيره ، من السماوات والأرض كما تقدم .

وقد أخبرنا – تعالى – بأنه استوى عليه ، فهو من دلائل علوه تعالى فوق خلقه .

★ ★ ★

٦٠ – قال : « حدثنا قبيصة ، حدثنا سفيان ، عن أبيه ، عن ابن أبى نعم ، أو أبى نعم – شك قبيصة – ، عن أبى سعيد ، قال بعث إلى النبى ﷺ بذهيبة ، فقسمها بين أربعة » .

وحدثنى إسحاق بن نصر ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا سفيان ، عن أبيه ، عن ابن أبى نعم ، عن أبى سعيد الخدرى ، قال : « بعث علي ، وهو فى اليمن إلى النبى – ﷺ – بذهيبة فى تربتها ، فقسمها بين الأقرع بن حابس الحنظلى ثم أحد بنى مجاشع ، وبين عيينة بن بدر ، الفزارى ، وبين علقمة بن علاقة العامرى ، ثم أحد بنى كلاب ، وبين زيد الخيل ، الطائى ، ثم أحد بنى نبهان . فتغيظت قريش ، والأنصار ، فقالوا : يعطيه صناديد أهل نجد ، ويدعنا – ؟ قال : إنما أتألفهم ، فأقبل رجل ، غائر العينين ، ناتىء الجبين ، كث اللحية ، مشرق الوجنتين ، محلوق الرأس ، فقال : يامحمد : اتق الله ، فقال النبى – ﷺ –: فمن يطيع الله إذا عصيته ؟ ، فيأمننى على أهل الأرض ، ولاتأمنونى . فسأل رجل ، من القوم قتله – أراه خالد بن الوليد – فمنعه النبى – ﷺ – فلما ولى ، قال النبى – ﷺ –: إن من ضئضىء هذا قوما يقرؤون القرآن ، لايجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام ، مروق السهم من الرمية ، يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان ، لئن أدركتهم لأقتلنهم ، قتل عاد » .

* * *

أرسل النبى – ﷺ – على بن أبى طالب إلى اليمن ، يدعو إلى الله تعالى – ويقبض الزكاة من أصحابها ، ويقضى فى المنازعات ، وكان ذلك قبل حجة الوداع ، كما ذكره البخارى فى آخر المغازى ، ثم إن علياً وافى رسول الله – ﷺ – بمكة ، فى حجة الوداع راجعا من اليمن ، وكان قد أرسل إليه ، بذهيبة ، تصغير

ذهبة ، أى قطعة من الذهب ، فقسمها رسول الله - ﷺ - بين هؤلاء الأربعة المذكورين ، رجاء إسلامهم ، وكانوا رؤساء قبائلهم ، فإذا أسلموا ، أسلم تبعا لهم خلق كثير ، ولهذا أعطاهم النبى - ﷺ - المال ترغيبا لهم فى الإسلام ، وتأليفا لقلوبهم عليه ، كما بينه - ﷺ - فى جوابه للصحابة ، الذين قالوا : « يعطيه صناديد أهل نجد ، ويدعنا » .

وقوله : « فى تربتها » أى أنها لم تخلص من ترابها ، فليست ذهبا خالصا ، لأنها مختلطة بالتراب .

قيل : إنها من الخمس ، واستبعد ابن حجر أن تكون من أصل الغنيمة ، ويمكن أن تكون زكاة .

قوله : « فتغيظت قريش ، والأنصار » من الغيظ ، أى غاظها ذلك ، حيث لم يعطهم منها ، وفى رواية « فغضبت » من الغضب .

« فقالوا : يعطيه صناديد أهل نجد ، ويدعنا » الصناديد ، جمع صنديد ، وهو الرئيس ، وفى القاموس : الصندد [بفتح الصاد ، وإسكان النون ، وكسر الدال الأولى] [1] السيد ، الشجاع ، أو الحليم ، أو الجواد ، أو الكريم » اهـ .

قوله : « إنما أتألفهم » أى أعطيهم ليألفوا الدين ، ويجتمعوا على حبه ، والرغبة فيه ، فأرغبهم فيه على طريق الإحسان إليهم ، بالدنيا حتى يصل إلى قلوبهم ، فيحبوه ويرغبوا فيه ، أو لأجل مايتحصلون عليه من الدنيا ثم بعد ذلك لمايرجونه من جزاء الله وثوابه فى الآخرة .

والتأليف من الألف ، وهو الاجتماع ، والالتئام مع الحب .

والمعنى : أنى أعطيهم ليكون ذلك داعيا لهم إلى حب الإسلام ، والرغبة فيه والاجتماع عليه ، حتى يكونوا من أنصاره ، ويتبعهم على ذلك أقوامهم وعشائرهم ،

---

(١) ما بين المعقوفين من حاشية القاموس جـ ١ ص ٣٠٩ .

فيحصل بذلك عز الإسلام ، ونصره ، فهذا العطاء مما يحبه الله ويثيب عليه ، وهو من الإنفاق فى سبيل الله – تعالى – ، بل من أفضله .

ووصفه الرجل المعترض على رسول الله – ﷺ – هى أمور اتفقت فيه ، وليست هذه الأوصاف الظاهرة فى هذا الهالك مذمومة لذاتها .

وقوله : « فمن يطيع الله ، إذا عصيته » يعنى أنه – ﷺ – هو أحق الناس وأولاهم بطاعة الله – تعالى – وتقواه .

وهذا هو الضلال أن يتصور الإنسان الطاعة ، معصية ، فهذا الرجل المعترض تصور أن فعل رسول الله – ﷺ – معصية ، وأنه من الجور ، فنصب نفسه آمرا بتقوى الله ، فقال للرسول – ﷺ –: اتق الله ، مع أن فعل رسول الله – ﷺ – هو تقوى ، ومن أعظم الطاعات له ، فهو يعطى لله ، ولنصر دينه ، وهداية عباده .

قوله : « فيأمننى على أهل الأرض ، ولا تأمنونى » أى يأمننى الله – تعالى – على الرسالة التى أرسلنى بها إلى أهل الأرض ، ولاتأمننى أنت أيها المعترض ، ومن على شاكلتك ممن ضل طريق الرشد ، لاتأمنونى على حطام الدنيا أن أضعه حيث يجب أن يوضع ، على وفق أمر الله تعالى .

والرواية التى ذكرها فى المغازى : « فقال : ألا تأمنونى ، وأنا أمين من فى السماء يأتينى خبر السماء صباحا ومساء » (١)

وهذا اللفظ أظهر ، وأوضح فى المقصود ، من الرواية المذكورة هنا .

قال الحافظ : « وبهذا تظهر مناسبة هذا الحديث للترجمة ، لكنه جرى على عادته فى إدخال الحديث فى الباب ، للفظة تكون فى بعض طرقه هى المناسبة

---

(١) انظر الفتح جـ ٨ ص ٦٧ .

لذلك الباب ، يشير إليها ، ويريد بذلك شحذ الأذهان ، والبعث على كثرة الاستحضار » [(١)]

قلت : ولايخلو اللفظ المذكور من الدليل على المقصود الذى هو علو الله – تعالى – لأن قوله : « فيأمننى على أهل الأرض » يدل على أن الآمن الذى هو الله – تعالى – فى السماء .

ومعنى قوله : « من فى السماء » أى الله الذى فى السماء ، و « فى » هنا بمعنى « على » كما ذكر البيهقى ، عن أبى بكر ، أحمد بن إسحاق الضبعى : « أن العرب قد تضع « فى » بموضع « على » ، قال الله – تعالى –: (فسيحوا فى الأرض) [(٢)] ، وقال : (لأصلبنكم فى جذوع النخل) [(٣)] ومعناه : على الأرض ، وعلى جذوع النخل .

فكذلك قوله : (فى السماء) أى على العرش ، فوق السماء ، كما صحت الأخبار عن النبى – ﷺ – » [(٤)] .

وهذا الحديث مثل قول الله تعالى –: (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ، أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا) [(٥)] .

فإما أن تكون « فى » بمعنى « على » كما تقدم ؛ أو يقصد بالسماء العلو أى أأمنتم من فى العلو ، وكلاهما صحيح سائغ فى اللغة والمعنى .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤١٨ .
(٢) الآية ٢ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٧١ من سورة طه .
(٤) الأسماء والصفات ص ٤٢١ .
(٥) الآيتان ١٦ و ١٧ فى سورة الملك .

قوله : « فسأله رجل من القوم قتله ، أراه خالد بن الوليد ، فمنعه النبى ﷺ » أى استأذن الرسول فى ذلك ، وقد تقدم فى المناقب أن السائل هو عمر ابن الخطاب (١) .

قال الحافظ : « لاتنافى بين الروايتين ، إذ يجوز أن يكون كل واحد منهما طلب ذلك » (٢) .

وقد جاء أن سبب منعه من قتله ، خوف أن يقال : إن محمداً يقتل أصحابه ، فيصير بذلك تنفيرا عن الدخول فى الإسلام .

قوله : « إن من ضئضىء هذا ، قوم يقرؤون القرآن ، لايجاوز حناجرهم » قال فى النهاية : « الضئضىء : الأصل ، يقال : ضئضىء صِدْق ، وضوضؤ صدق ، يريد أنه يخرج من نسله ، وعقبه » (٣) .

وفى اللسان : « الضئضىء ، والضؤضؤ : الأصل ، والمعدن » (٤) .

والمقصود ، الإخبار بأنه يأتى من جنس هذا الرجل ، الضال ، قوم يسلكون مسلكه يقرأون القرآن ، ولكن لا يصل إلى قلوبهم ، فهم لايفهمونه ، على ما أريد ، بل يضعونه فى غير موضعه ، لأنهم ضالون ، وجاهلون ، ولهذا يمرقون من الإسلام ، مروق السهم من الرمية ، أى يخرجون من الإسلام ، بسرعة ، وسهولة ، غير متأثرين به ، كأنهم لم يدخلوه ، وهذا يدل على أنهم دخلوا فى الإسلام ، ولكن لم يتمكن الإيمان فى قلوبهم ، ولم يفهموه على وجهه ، ولهذا صار من أوصافهم ، أنهم يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون الكفار عباد الأوثان ، ومن أجل ذلك قال – ﷺ – لئن أدركتهم ، لأقتلنهم ، قتل عاد – أى لا أبقى منهم

---

(١) انظر الفتح جـ ٦ ص ٦١٨ .
(٢) المرجع المذكور جـ ٦ ص ٦١٨ .
(٣) النهاية جـ ٣ ص ٦٩ .
(٤) لسان العرب جـ ٢ ص ٥٠٣ المرتب .

أحدا يشير بذلك إلى قوله : فى وصف هلاك عاد (فهل ترى لهم من باقيه) [١] ولم يرد أنه يقتلهم بالشىء الذى قتلت به عاد بعينه .

ويحتمل أن يكون من الإضافة إلى الفاعل ، ويراد به القتل الشديد القوى ، ويكون فى ذلك إشارة إلى وصفهم بالشدة ، والقوة ، ويؤيده أنه وقع فى طريق أخرى « قتل ثمود » [٢] .

★ ★ ★

---

(١) الآية ٨ من سورة الحاقة .

(٢) قاله الحافظ فى الفتح جـ ٦ ص ٣٧٧ .

٦١ – ثم ذكر حديث أبى ذر الذى تقدم فى الباب قبل هذا فقال :

« حدثنا عياش بن الوليد ، حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن إبراهيم التيمى ، عن أبيه ، عن أبى ذر ، قال : سألت النبى – ﷺ – عن قوله : (والشمس تجرى لمستقر لها) ؟ قال : « مستقرها تحت العرش » . قد تقدم شرحه ، والشاهد منه هنا . أن الشمس فى ارتفاعها ، وأبعد ماتكون عن الأرض التى عليها المخاطبين آن ذاك تكون تحت العرش ، فالمخلوقات كلها تحته ، والله – تعالى – فوق العرش ، فهو عال على خلقه كلهم وفوقهم .

* * *

فى هذا الباب ، والذى قبله قصد البخارى – رحمه تعالى – إثبات علو الله ، واستواءه على العرش ، كما هو ثابت فى نفس الأمر ، وتظافرت عليه أدلة الوحى ، والعقول والفطر ، وكما هو مذهب السلف من الصحابة ، وأتباعهم إلى اليوم .

والنصوص التى ذكرها البخارى ظاهرة الدلالة على ذلك ، وهى نزر يسير جدا من النصوص الكثيرة ، المتنوعة فى ذلك .

قال ابن أبى العز : « ومن سمع أحاديث الرسول – ﷺ – ، وكلام السلف وجد منه فى إثبات الفوقية مالاينحصر .

ولاريب أن الله – سبحانه – لماخلق الخلق ، لم يخلقهم فى ذاته المقدسة ، فإنه الأحد ، الصمد ، فتعين أنه خلقهم خارجا عن ذاته .

ولو لم يتصف – سبحانه – بفوقية الذات ، مع أنه قائم بنفسه ، غير مخالط للخلق لكان متصفا بضد ذلك ، لأن القابل للشيء لايخلو منه أو من ضده ، وضد الفوقية ، السفول ، وهو مذموم على الإطلاق .

فإن قيل : لانسلم أنه قابل للفوقية ، حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها .

قيل : لو لم يكن قابلا للعلو ، والفوقية ، لم يكن له حقيقة ، قائمة بنفسها فمتى أقررتم ، أنه موجود ، قائم بنفسه ، ليس وجوده ذهنياً ، بل وجوده خارج الأذهان قطعا .

تعين أن يكون متميزا عن خلقه ، عالياً عليهم .

وقد علم العقلاء كلهم ، بالضرورة ، أن ماكان وجوده ، خارج الأذهان ، فهو إما أن يكون داخلا فى الخلق ، أو بائناً منهم ، خارجاً عنهم .

وإنكار ذلك إنكار لما هو أجلى وأظهر من الأمور البديهيات ، الضرورية ، بلا ريب ، فلا يستدل بدليل على وجوده ، إلا كان العلم بالمباينة أظهر منه ، وأوضح وأبين .

وإذا كانت صفة العلو ، والفوقية صفة كمال ، لانقص ،ولاتستلزم نقصاً ولامحذور فيها ، ولاتخالف كتاباً ، ولا سنة ، ولاإجماعا ، فنفى حقيقتها يكون عين الباطل ، والمحال ، الذى لاتأتى به شريعة أصلا ، فكيف إذا كان لايمكن الإقرار بوجوده – تعالى – ، وتصديق رسله ، والإيمان بكتابه ، وما جاء به رسوله إلا بذلك ؟ .

فكيف إذا انضم إلى ذلك شهادة العقول السليمة ، والفطر المستقيمة . والنصوص الواردة ، المتنوعة فى الدلالة ، على علو الله – تعالى – على خلقه وكونه فوق عباده ، التى تقرب من عشرين نوعا .

أحدها : التصريح بالفوقية ، مقرونا بأداة « من » المعينة للفوقية بالذات كقوله – تعالى – : (يخافون ربهم من فوقهم) [1] .

---

(١) الآية ٥٠ من سورة النحل .

الثانى : ذكر الفوقية ، مجردة عن الأداة ، كقوله – تعالى – : (وهو القاهر فوق عباده) [١]

الثالث : التصريح بالعروج إليه ، كقوله – تعالى – : (تعرج الملائكة والروح إليه) [٢] وقوله – ﷺ – « فيعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ، وهو أعلم » كما تقدم .

الرابع : التصريح بالصعود إليه ، كقوله –تعالى – : (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) [٣]

الخامس : التصريح برفعه – تعالى – بعض خلقه إليه ، كقوله : – تعالى – : (بل رفعه الله إليه) [٤] وقوله : (إنى متوفيك ، ورافعك إليَّ) [٥] .

السادس : التصريح بالعلو المطلق ، الدال على جميع مراتب العلو ، ذاتا وقدرا وشرفا ، كقوله – تعالى – : (وهو العلى ، العظيم) [٦] وقوله – تعالى – : (وهو العلى الكبير) [٧] وقوله – تعالى – : (إنه عليٌّ حكيم) [٨] .

---

(١) الآية ١٨ و ٦١ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٤ من سورة المعارج .

(٣) الآية ١٠ من سورة فاطر .

(٤) الآية ١٥٨ من سورة النساء .

(٥) الآية ٥٥ من سورة آل عمران .

(٦) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

(٧) الآية ٢٣ من سورة سبأ .

(٨) الآية ٥١ من سورة الشورى .

السابع : التصريح بتنزيل الكتاب منه ، كقوله – تعالى – : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) [١] وقوله : (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) [٢] وهو كثير .

الثامن : التصريح باختصاص بعض المخلوقات ، بأنها عنده ، وأن بعضها أقرب إليه من بعض ، كقوله – تعالى – : (إن الذين عند ربك) [٣] وقوله – تعالى – : (وله من فى السموات والأرض . ومن عنده) [٤] ففرق تعالى بين من له عموما وبين من عنده من الملائكة . وقد تقدم قوله – ﷺ – : « إن الله لماخلق الخلق كتب كتاباً فهو عنده فوق عرشه » .

التاسع : التصريح بأنه – تعالى – فى السماء ، كقوله . – تعالى – : (أأمنتم من فى السماء ، أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور) [٥] ، وتقدم أن ذلك ، على وجهين ، إما أن تكون « فى » بمعنى « على » ، أو يراد بالسماء العلو ، لايجوز غير ذلك .

العاشر : التصريح : برفع الأيدى إلى الله – تعالى – : كقوله – ﷺ – : (إن الله يستحى من عبده ، إذا رفع إليه يديه ، أن يردهما صفراً » [٦]

الحادى عشر : التصريح بالاستواء ، مقروناً بأداة « على » مخصوصاً بالعرش الذى هو أعلى المخلوقات .

---

(١) الآية الأولى من سورة الزمر .
(٢) الآية ٢ من سورة غافر الذنب .
(٣) آخر آية من سورة الأعراف .
(٤) الآية ١٩ من سورة الأنبياء .
(٥) الآية ١٦ من سورة الملك .
(٦) أخرجه أبو داود فى السنن جـ ٢ ص ١٦٥ رقم ١٤٨٨ ، والترمذى فى الدعوات جـ ٥ ص ٢١٧ ، وابن ماجه فى السنن جـ ٢ ص ١٢٧١ الحديث رقم ٣٨٦٥ .

الثانى عشر : التصريح بنزوله – تعالى – كل ليلة إلى سماء الدنيا ، والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى أسفل .

الثالث عشر : الإشارة الحسية إليه فى العلو ، كما فعل ذلك رسول الله – ﷺ – فى خطبته فى حجة الوداع ، حيث قال : « إنكم مسئولون عنى ، فماذا أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت ، وأديت ، ونصحت ، فرفع إصبعه إلى السماء ، وقال : اللهم اشهد » (١)

الرابع عشر : سؤال الرسول – ﷺ – بلفظ « أين الله » وإخباره عمن قال : « الله فى السماء » بأنه مؤمن (٢)

الخامس عشر : اتفاق الكتب المنزلة من الله والرسل على أن الله فوق عباده عال عليهم ، كما قال – تعالى – عن فرعون : (وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحاً ، لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه كاذبا » (٣) لأن موسى عليه السلام أخبر فرعون أن الله فى السماء ، فقال هذا القول ليموّه على السذج أتباع كل ناعق بدون بصيرة .

السادس عشر : عروج النبى – ﷺ – إليه – تعالى – ، وإخباره ، أنه تردد نبيه – تعالى – وبين موسى ، يطلب التخفيف من عدد الصلوات » (٤)

وقد غلط أكثر المتكلمين فى مسمى السماء ، حيث ظنوا أن السماء يقصد به مكان معين محاط ، فتوهموا أن من قال : إن الله فى السماء أن مكاناً يحيط به أو يحويه ــ تعالى – وتقدس .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه وغيره ، انظر مسلم جـ ٢ ص ٨٩٠ الحديث رقم ١٢١٨ ، وهو حديث جابر الطويل فى صفة الحج .

(٢) انظر صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٨٢ الحديث رقم ٥٣٧ .

(٣) الآيتان ٣٦ و ٣٧ من سورة غافر الذنب .

(٤) شرح الطحاوية بتصرف ص ٢٥٦ – ٢٦٠ الطبعة الثالثة .

قال شيخ الإسلام : « من توهم أن كون الله فى السماء أن السماء تحيط به ، أو تحويه فهو كاذب إن نقله عن غيره ، وضال إن اعتقده فى ربه .

ومافهم هذا أحد من النصوص ، ولم ينقل عن أحد ، ولو سئل سائر المسلمين ، هل تفهمون من قول الله ، ورسوله : أن الله فى السماء ، أن السماء تحويه ؟ لبادروا إلى القول : بأن هذا شيء ماخطر بالبال .

فمن الضلال أن يجعل ظاهر نصوص الكتاب والسنة فى ذلك دالة على الباطل والتشبيه .

بل عند الناس قولك : إن الله فى السماء ، وقولك : الله فوق العرش ، سواء إذ السماء إنما يراد به العلو ، فالمعنى : أن الله فى العلو . لافى السفل .

وقد علم المسلمون أن كرسيه ، سبحانه – وتعالى – وسع السموات ، والأرض ، وأن الكرسى فى العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وأن العرش ، خلق من مخلوقات الله ، لانسبة له إلى عظمة الله تعالى .

فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقا يحصره أو يحويه ؟ وقد قال – تعالى – : (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) (١) وقال – تعالى – : (فسيروا فى الأرض) (٢) . بمعنى على الأرض ، وهو كلام عربى حقيقة لامجازا ، وهذا يعلمه من عرف حقائق الحروف » (٣)

وعلو الله – تعالى – ظاهر جداً ، وقد تقدم أن البخارى – رحمه الله – أشار بما ذكره فى هذا الباب ، إلى أن علو الله – تعالى – وفوقيته ثابت بالكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والعقل ، والفطر ، أما ثبوته بالكتاب والسنة فواضح .

---

(١) الآية ٧١ من سورة طه .

(٢) الآية ١٣٧ من سورة آل عمران ، والآية ٣٦ من سورة النحل .

(٣) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ١٠٦ .

وأما الإجماع فأشار إليه بقصة زينب ، أنها كانت تفتخر ، على أزواج النبى - ﷺ - تقول : زوَّجكن أهاليكن ، وزوَّجنى الله ، من فوق سبع سماوات . فهذا يدل على الإجماع ، لأن ذلك متقرر عندهم ، ولم ينكر ذلك أحد ، بل يذكر فى كل مناسبة ، ومن ذلك هذا الذى قالته زينب ، فالإجماع عليه ظاهر ، والإجماع لايكون على خلاف المعقول .

وأما الفطرة ، فأشار إليها بماذكره ، عن أبى ذر أنه قال لأخيه . قبل أن يسلم : « اعلم لى علم هذا الرجل ، الذى يأتيه الخبر من السماء » أى يأتيه الخبر من الله الذى فى السماء ، لأنه يقول . للناس : أنا رسول الله إليكم .

قال شيخ الإسلام : « تبين وجوب إثبات العلو لله - تعالى - من وجوه .

أحدها : أن القرآن ، والسنن المستفيضة ، المتواترة ، وغير المتواترة ، وكلام السابقين والتابعين ، وأهل القرون الثلاثة ، مملوء بما فيه إثبات العلو لله ، وأنه مستوٍ على عرشه ، بأنواع من الدلالات .

فالله - تعالى - يخبرنا تارة ، أنه خلق السموات والأرض ، فى ستة أيام ثم استوى على العرش .

وتارة يخبر بعروج الأشياء ، وصعودها ، وارتفاعها إليه ، كقوله - تعالى - : (بل رفعه الله إليه) [١] (إنى متوفيك ورافعك إلىّ) [٢] (تعرج الملائكة والروح إليه) [٣] (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) [٤] .

---

(١) الآية ١٥٨ من سورة النساء .

(٢) الآية ٥٥ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٤ من سورة المعارج .

(٤) الآية ١٠ من سورة فاطر .

وتارة يخبر بنزولها منه ، أو من عنده ، كقوله – تعالى – : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) [١] (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) [٢] (حمٓ تنزيل من الرحمن الرحيم) [٣] (حمٓ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) [٤] .

وتارة يخبر بأنه العلى الأعلى ، كقوله – تعالى – : (سبح اسم ربك الأعلى) [٥] وقوله – تعالى – : (وهو العلى العظيم) [٦] .

وتارة يخبر بأنه فى السماء ، كقوله – تعالى – : (أأمنتم من فى السماء ، أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور . أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً) [٧] فذكر السماء دون الأرض ، وكقوله – ﷺ – : « ألا تأمنونى ، وأنا أمين من فى السماء » وقوله للجارية : أين الله ؟ قالت : فى السماء ، قال : اعتقها ، فإنها مؤمنة » ولم يعلق ألوهية أوغيرها كما فى قوله – تعالى – : (وهو الذى فى السماء إله ، وفى الأرض إله) [٨] وقوله : (وهو الله فى السموات والأرض) [٩] أى هو المألوه المعبود فى السموات والأرض .

وتارة يجعل بعض الخلق عنده ، دون بعض ، كقوله : (وله من فى

---

(١) الآية ١١٤ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة النحل .

(٣) فاتحة سورة فصلت .

(٤) فاتحة سورة الجاثية والأحقاف .

(٥) فاتحة سورة الأعلى .

(٦) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة والآية ٤ من سورة الشورى .

(٧) الآيتان ١٦ و ١٧ من سورة الملك .

(٨) الآية ٨٤ من سورة الزخرف .

(٩) الآية ٣ من سورة الأنعام .

السموات ، والأرض ومن عنده ، لايستكبرون عن عبادته) [١]

فلو كان موجب العندية ، معنى عاما كدخولهم تحت قدرته ، ومشيئته ، ونحو ذلك لكان كل مخلوق عنده ، ولم يكن أحد مستكبرا ، عن عبادته .

وأما الأحاديث ، والآثار عن الصحابة ، والتابعين ، فلا يحصيها إلا الله – تعالى – .

فلا يخلو أن يكون ما اتفقت عليه هذه النصوص ، من إثبات علو الله تعالى . على خلقه هو الحق ، أو الحق ، نقيضه ، إذ الحق لايخلو عن النقيضين .

فإن كان نفى العلو هو الحق ، فمعلوم أن القرآن لم يبين هذا ، لانصاً ، ولامفهوماً . وكذلك الرسول – ﷺ – ولا أحد من الصحابة ، وأتباعهم ، ولا أحد من أئمة المسلمين ، ولايمكن أحد أن ينقل عن واحد منهم شيئا من ذلك ، بل نقيضه هو المستفيض عنهم ، كما هو الموافق للكتاب ، والسنة .

ويلزم على ذلك أن يكون الله ورسوله ، والمؤمنون ، لم ينطقوا بالحق فى هذا الباب ، بل تكلموا بما يدل على الضلال ، إما نصاً ، أو ظاهراً .

فإن قيل : هذه النصوص ماأريد بها إثبات علو الله على خلقه ، وإنما أريد بها علو المكانة ، والقدر .

قيل : فكان يجب على المتكلم بها أن يبين للناس الحق ، الذى يجب أن يؤمن به ويعتقد ، ظاهراً وباطناً ، وأنه لم يرد بهذا الكلام مفهومه ، ومقتضاه .

فإن قيل : إنه تكلم بالمجاز ، المخالف للحقيقة .

قيل : من المعلوم باتفاق العقلاء أن المخاطب المبين إذا تكلم بمجاز ، فلا بد أن يقرن بخطابه مايدل على إرادة المعنى المجازى ، فإذا كان الرسول – ﷺ –

---

(١) الآية ١٩ من سورة الأنبياء .

الذى بين للناس مانُزِّل إليهم ، يعلم أن المراد بالكلام خلاف مقتضاه وظاهره ، وجب عليه أن يقرن بخطابه مايصرف القلوب عن فهم المعنى الذى لم يرده ، ولاسيما إذا كان ذلك المعنى باطلا ، ولايجوز اعتقاده فى الله – تعالى – . وهذا يجب ولو لم يخاطبهم بما يفهم منه خلاف الحق ، الذى يجب اعتقاده ، إذا كان مخوفا عليهم ، فكيف إذا كان فى كلامه مايفهم منه خلاف الحق » (١)

فلا عذر لمن أنكر علو الله ، ونفاة العلو ، والصفات ، يقولون : إن هذه النصوص لم يرد بها الحقيقة . والظاهر المفهوم منها ، والقرينة الصارفة عن ذلك هى دلالة العقل ، فاكتفى المتكلم بهذه القرينة ، لأنها عقلية ، عند كل عاقل .

فيقال لهم : إذا كان ماتكلم به الله ورسوله ، إنما يفيد مجرد الضلال ، الهدى إنما يستفاد من العقول ، فلماذا ينزل الله الكتاب ، ويرسل الرسول ؟ للعناء والشقاء ؟ فإن تركهم على جاهليتهم خير لهم من أن ينزل عليهم الكتاب ، ويرسل إليهم الرسول ، هذا هو لازم هذا القول الباطل .

ويقال أيضاً : الرسول جاء بإثبات العلو ، والصفات ، وذلك أظهر فى العقل من قولكم .

ثم الرسول – ﷺ – إما أن يتكلم بالهدى ، أو بالضلال ، أو يسكت عنهما .

ومعلوم أن السكوت عنهما خير من التكلم بالضلال .

وبذلك يعلم بالعقل ، أنه لم يسكت عن بيان الحق ، والهدى ، والتحذير من اعتقاد الباطل ، وبذلك يتفق ماجاء به الرسول – ﷺ – مع العقل الصحيح ، الذى لم تفسده الشياطين ، والهوى المضل .

فالعقل يوافق ماجاء به الرسول – ﷺ – لا ما يقوله نفاة الصفات ،

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ١٦٤ – ١٦٨ ملخصا .

وليس بين العقل الصريح ، والنقل الصحيح تناقض أصلا ، كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه درء تعارض العقل والنقل وغيره .

فقولهم : إن القرينة الصارفة عن الظاهر ، هى العقل ، خطأ محض ، إذ العقل يوافقها لايخالفها كما توهموه ، كما أن إثبات الصفات ليس فيه تشبيه كما زعموا ولكن الأوهام ، وسوء الظن بالله ، ورسوله أرادهم .

ومن حججهم الباطلة التى حملتهم على صرف النصوص ، عن ظاهرها ، ورأوا وجوب تأويلها لذلك ، هى قاعدتهم ، فى أن جميع الأجسام حادثة لملازمتها للأعراض التى هى الصفات ، فوجب تنزيه الرب – تعالى – عن كل صفة تستلزم التركيب ، أو الجسمية . لأن الأعراض لاتكون إلا فى جسم ، والجسم لابد أن يكون مركباً من الجواهر – كما زعموا – ولهذا قالوا : إن الاستواء ، والعلو يلزم منهما النقلة ، والمكان والحركة ، وهذه من صفات الأجسام .

فيقال لهم : الحياة ، والعلم ، والسمع ، والبصر ، مما جوزتم لأنفسكم أن تصفوه به ، لايعقل أن تقوم إلا بجسم مع أنكم تسمون ، الصفات أعراضاً ، ولافرق بين ماأثبتموه ، ومانفيتموه فى المعنى ألا يجوز لغيركم أن يصف الله تعالى بما وصف به نفسه ، ووصفته به رسله بأنه – تعالى – مستوٍ على عرشه ، وعالٍ على خلقه ، وبأن له وجها ويدين حقيقة . ونحو ذلك مما تسمونه أبعاضاً ، تستلزم التركيب ، والجسمية ، كما افتريتموه ، على رب العالمين ، ورميتم من وصف الله – تعالى – بما وصف به نفسه بالتشبيه ، والتجسيم ، مع أنهم أقرب إلى المعقول منكم ، وقد سلم لهم المنقول بدون تحريف .

قال شيخ الإسلام : « ولاريب أن الله موجود ، قائم بنفسه ، وترفع إليه الأيدى عند الدعاء ، كما فطر على ذلك جميع عباده ، ولاريب أنه تجوز رؤيته فى الآخرة كما أخبر بذلك فى كتابه ، فإذا سموا هذه المعانى تجسيماً ، فلا ينبغى لنا أن نترك ما أخبر الله به عن نفسه ، فى كتابه ، ونذهب إلى تأويلها ، لمجرد هذه

التسميات الحادثة المبتدعة » [١] .

وقال أيضا : « ولفظ الظاهر فيه إجمال ، واشتراك ، فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين ، أو ما هو من خصائصهم ، فلا ريب أن هذا غير مراد .

والسلف والأئمة لم يكونوا يسمون هذا ظاهرها ، ولايرتضون أن يكون ظاهر القرآن والحديث كفراً ، وباطلا .

والله سبحانه – وتعالى – أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذى وصف به نفسه ، لايظهر منه الا ماهو كفر ، أو ضلال .

والذين يجعلون ظاهرها ذلك ، يغلطون من وجين :

أحدهما : أنهم جعلوا المعنى الفاسد ، هو ظاهر نص كلام الله وكلام رسوله ، ولذلك أوجبوا تأويله ، ليخالف الظاهر الذى زعموا ، وليس الأمر كذلك .

الثانى أنهم ردوا المعنى الصحيح الذى هو ظاهر اللفظ ، لاعتقادهم أنه باطل كقولهم فى الحديث : « قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن » . قالوا : لايجوز أن يراد به الظاهر ، فليس فى قلوبنا أصابع .

ومعلوم أنه ليس ظاهره أن القلوب متصلة بالأصابع ، ولامماسة لها ، ولا أن أصابع الرحمن فى جوف العبد ، ولايفهم من قول القائل : هذا بين يدى ، ما يقتضى مباشرته ليديه .

وإذا قيل : إن السحاب بين السماء والأرض ، لم يقتضى أن يكون مماساً للسماء ، أو الأرض ونظائر ذلك كثيرة » [٢]

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٣ ص ٤٣ – ٤٥ ملخصا .

(٢) المصدر المشار اليه .

وقال أبو نصر السجزى فى الإبانة : وأئمتنا كسفيان ، ومالك ، والحمادين ، وابن عينية ، والفضيل ، وابن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق ، متفقون على أن الله فوق العرش ، وعلمه فى كل مكان ، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا ، وأنه يغضب ، ويرضى ، ويتكلم بما يشاء » [١]

وقال ابن عبد البر فى شرحه لحديث النزول : « وفيه دليل على أن الله - عز وجل - فى السماء على العرش ، من فوق سبع سماوات ، كما قالت الجماعة ، وهو من حجتهم على المعتزلة والجهمية ، فى قولهم : إن الله - عز وجل - فى كل مكان ، وليس على العرش . والدليل على صحة ماقال أهل الحق : قوله - تعالى - : (الرحمن على العرش استوى) [٢] وقوله - تعالى - : (ثم استوى على العرش ، مالكم من دونه من ولى ، ولاشفيع) [٣] وقوله - تعالى - : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) [٤] وقوله - تعالى - : (إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا) [٥] وقوله - تعالى - : (إليه يصعد الكلم الطيب) [٦] وقوله - تعالى - : (فلما تجلى ربه للجبل) [٧] وقوله - تعالى - : (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض) [٨] وقوله - تعالى - : (سبح اسم ربك الأعلى) ، وهذا من العلو ، وكذلك قوله - تعالى - : (العلى العظيم) [٩]

---

(١) ذكره الذهبى فى سير أعلام النبلاء جـ ١٧ ص ٦٥٦ .
(٢) الآية ٥ من سورة طه .
(٣) الآية ٤ من سورة الٓمٓ السجدة .
(٤) الآية ١١ من سورة حمٓ فصلت .
(٥) الآية ٤٢ من سورة الإسراء .
(٦) الآية ١٠ من سورة فاطر .
(٧) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .
(٨) الآية ١٦ من سورة الملك .
(٩) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة والآية ٤ من سورة الشورى .

وقوله – تعالى – : (الكبير المتعال) [١] ، وقوله – تعالى – : (رفيع الدرجات ذو العرش) [٢] وقوله – تعالى – : (يخافون ربكم من فوقهم) [٣] ، والجهمى يزعم أنه أسفل .

وقال جل ذكره : (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) [٤] وقال – تعالى – : (تعرج الملائكة والروح إليه) [٥] وقال – تعالى – لعيسى : (إنى متوفيك ورافعك إليَّ) [٦] وقال – تعالى – : (بل رفعه الله إليه) [٧] وقال – تعالى – : (فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار) [٨] وقال – تعالى – (ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ولايستحسرون) [٩] وقال – تعالى – : (ليس له دافع . من الله ذى المعارج) [١٠] والعروج الصعود . وأما قوله – تعالى – : (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم) فمعناه : من على السماء ، يعنى على العرش ، وقد يكون « فى » بمعنى « على » ، ألا ترى إلى قوله – تعالى – : (لأصلبنكم فى جذوع النخل) [١١] وقوله – تعالى – : (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) [١٢] أى على الأرض وهذا كله يعضده قوله – تعالى – : (تعرج الملائكة والروح إليه) [٥] وماكان مثله مما تلونا من الآيات فى هذا الباب » [١٣] ا هـ

---

(١) الآية ٩ من سورة الرعد .
(٢) الآية ١٥ من سورة غافر الذنب .
(٣) الآية ٥٠ من سورة النحل .
(٤) الآية ٥ من سورة الٓمٓ السجدة .
(٥) الآية ٤ من سورة المعارج .
(٦) الآية ٥٥ من سورة آل عمران .
(٧) الآية ١٥٨ من سورة النساء .
(٨) الآية ٣٨ من سورة فصلت .
(٩) الآية ١٩ من سورة الأنبياء .
(١٠) الآيتان ٢ و ٣ من سورة المعارج .
(١١) الآية ٧١ من سورة طه .
(١٢) الآية ٢ من سورة التوبة .
(١٣) التمهيد جـ ٧ ص ١٢٩ – ١٣٠ .

وقال أيضا : « وما روى عن ابن عباس فى قوله – تعالى – : (الرحمن على العرش استوى) [(١)] أنه قال : على جميع بريته ، فلا يخلو منه مكان » .

فالجواب : أنه منكر ، ونقلته مجهولون ، وضعفاء . وهم لايقبلون أخبار الآحاد العدول ، فكيف يحتجون بمثل هذا الأثر الساقط . وأما تعلقهم بقوله – تعالى – : (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) [(٢)] وقوله تعالى : (مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) الآية [(٣)] وزعمهم أن الله – تبارك وتعالى – فى كل مكان بنفسه وذاته .

فيقال لهم : أنتم لاتخالفون بأنه ليس فى الأرض دون السماء ، بذاته ، فيجب حمل هذه النصوص على المعنى الصحيح المجمع عليه ، وهو أنه فى السماء إله معبود ، من أهل السماء ، وفى الأرض ، إله معبود ، من أهل الأرض ، وهو الذى قاله أهل العلم بالتفسير .

وقوله تعالى : (مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) [(٣)] الآية ليس فيها حجة لهم ، لأن علماء الصحابة ، والتابعين ، الذين روى عنهم التفسير ، قالوا فى هذه الآية : هو على العرش ، وعلمه فى كل مكان ، ولم يخالفهم فى ذلك من يعتد به .

ثم ذكر عن ابن مسعود : قال : « الله فوق العرش ، لايخفى عليه شىء من أعمالكم . وذكر عن الضحاك ، وسفيان الثورى مثله » [(٤)] .

---

(١) الآية ٥ من سورة طه .

(٢) الآية ٨٤ من سورة الزخرف .

(٣) الآية ٧ من سورة المجادلة .

(٤) التمهيد جـ ٧ ص ١٣٣ – ١٣٩ ملخصا .

فتبين بما ذكره أن هذه الآيات التى تعلق بها نفاة العلو ، تدل على عكس قولهم ، فهى متفقة مع النصوص الصريحة فى الدلالة على علو الله تعالى .

ومن الحجج القاطعة أن الله تعالى فوق السماوات على عرشه ، أن كل داع يدع الله – تعالى – يجد فى نفسه دافعا يدفعه إلى الاتجاه إلى الله فوقه ، وهو أمر ضرورى وقطعى ، فلا يمكن لأى سائل يسأل الله ويطلب منه إلا رفع يديه ، واتجه بقلبه ، ونظره إلى من يستغيث به الذى هو عال فوق جميع مخلوقاته مستوٍ على عرشه ، فالعلم بذلك فطرى ضرورى عقلى ، ونصوص الشرع جاءت مؤيدة ذلك مقررة له .

قال شيخ الإسلام : « ذكر محمد بن طاهر المقدسى ، عن الشيخ الجليل أبى جعفر الهمدانى ، أنه حضر مجلس أبى المعالى الجوينى ، وهو يقول : كان الله ، ولاعرش [ولامكان] وهو على ما [كان] عليه [قبل خلق المكان] أو كلام من هذا المعنى ، فقال : ياشيخ ، دعنا من ذكر العرش أخبرنا عن هذه الضرورة التى نجدها فى قلوبنا ، فإنه ماقال عارف قط : ياالله إلا وجد من قلبه ضرورة ، بطلب العلو ، ولا يلتفت يمنة ، ولايسرة ، فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا ؟ .

فصرخ أبو المعالى ، ولطم رأسه ، وقال : « حيرنى الهمدانى ، حيرنى الهمدانى » (١)

وقد تعلق نفاة العلو أيضا : بأن الله – تعالى – لوكان فى مكان ، لأشبه المخلوقات لأن ماأحاطت به الأمكنة ، فهو مخلوق .

فيقال : هذا نشأ عن القياس الفاسد ، والتشبيه المستكن فى نفوس هؤلاء إذ لو آمنوا بأن الله على كل شىء قدير ، وأنه ليس كمثله شىء ، ماانطلت هذه الشبه وهذا الهراء على نفوسهم .

ويقال أيضا : ألستم تقرون بأن الله – تعالى – موجود قبل خلق الكون ،

---

(١) الاستقامة جـ ١ ص ١٦٧ .

فهو تعالى كما قال رسول الله - ﷺ -: « كان الله ، ولم يكن شيء معه » [(١)]

ونحن وأنتم وكل العقلاء ، لا نعقل وجود أحد منا ، إلا فى مكان ، وماليس فى مكان ، فهو عدم ، والله بخلاف ذلك ، فلا يجوز أن يقاس بخلقه كما فعلتم قلتم : لوكان فى مكان ، لأشبه خلقه .

فإن زعموا أنه يلزم من كونه تعالى فى العلو ، التغير ، والانتقال ، لأنه تعالى كان ، ولا مكان ، فلما خلق المكان ، صار فى العلو ، فزال عن صفته فى الأزل وصار فى مكان .

قيل : وأنتم يلزمكم أقبح من ذلك ، وهو زعمكم أنه - تعالى - كان ، لافى مكان ، ثم صار فى كل مكان ، فقد تغير عندكم معبودكم ، وانتقل من لامكان ، إلى كل مكان . وهذا لازم لكم ، لانفكاك لكم منه .

وقولهم : كان الله ، ولا مكان ، وهو الآن على ماكان عليه قبل خلق المكان . كلام فاسد ، متناقض ، وذلك أن النفاة للاستواء والعلو ، وغيرهما ، على قسمين :

قسم يقول : إن الله لا فوق ، ولا تحت ، ولا يمين ، ولا شمال ، ولا أمام ، ولا خلف ولا داخل العالم ، ولا خارجه ، وهذا لا يفهم منه إلا العدم المحض ، فليس له وجود فعلى على هذا الوصف ، فهو إذاً ليس له مكان أصلا ، إذ لا وجود له .

وقسم يقول : إنه فى كل مكان ، فيلزم أنه كان فى كل مكان ، قبل خلق المكان ، فهو إذا فى هذا الكون كله ، قبل خلقه له ، وهذا قول ظاهر الفساد ، إذ معناه : كان فى الأمكنة ، قبل خلقها .

فالحق « أن الله تعالى ليس كمثله شيء لا فى نفسه ، ولا فى فعله ، وفى

---

(١) تقدم هذا الحديث مشروحا ، وبين أن هذا اللفظ مروى بالمعنى ، وأن الصواب « ولم يكن شيء قبله » .

صفاته ، ولافى مفعولاته فإذا رام الإنسان أن ينفى شيئا مما يستحقه ، لعدم نظيره فى الشاهد المحسوس ، صار مايثبته بدل نفيه أبعد عن المعقول ، والمشهود » [١] .

ومن الحجج المشهورة على وجوب علو الله تعالى : ماتقدم فى كلام ابن أبى العز : وهو أن يقال : لماخلق الله الخلق ، لابد أن يكون خلقه بائنا منه ، فلا يجوز أن يكون الخالق – جل وعلا – فى المخلوق ، وأن يكون المخلوق حاوياً له ، تعالى عن ذلك ، فلا بد أن يكون بائنا عنه ، ولا يجوز أن يكون المخلوق فوق الخالق – تعالى – وتقدس ، فلا بد أن يكون عاليا فوق خلقه .

قال شيخ الإسلام : « معرفة القلوب ، وإقرارها بفطرة الله التى فطرها عليها ، أن ربها فوق العالم ، ودلالة الكتاب والسنة على ذلك ، وظهور ذلك فى خاصة الأمة وعامتها ، وكلام السلف فى ذلك ، أعظم من كونه – تعالى – يرى بالأبصار يوم القيامة ، أو أن رؤيته بالأبصار جائزة .

ويشهد لهذا أن الجهمية ، أول ماظهروا فى الإسلام ، فى أوائل المائة الثانية . وكان حقيقة قولهم فى الباطن ، تعطيل الرب – تعالى – من الصفات كلها ، ولا يصفونه – تعالى – إلا بالسلوب المحضة ، التى لاتنطبق إلا على المعدوم ، وكانوا فى الباطن ينكرون أن يرى ، أو يتكلم ، أو أنه فوق العرش ، أو أن يكون موصوفا بالصفات التى جاءت بها كتب الله ، أو دلت عليها مع ذلك الدلائل العقلية ، لكن ماكانوا يظهرون من قولهم للناس ، ماهو ظاهر البطلان ، وماليس فيه شبهة مثل نفى العلو المعروف ، المتيقن من الدين بالضرورة عند العامة ، والخاصة ، وإنما يظهرون مافيه شبهة ، ولهم عليه حجة ، ويكونون فيه أقل مخالفة لما يعلمه الناس من الحجج الفطرية ، الشرعية . وهذا شأن كل من أراد أن يظهر خلاف ماعليه أمة من الأمم من الحق ، فإنهم لاينقضون الأصول العظيمة ، الظاهرة ابتداء » [٢] .

ومن المؤسف أن بعض ضلالات الذين ذكرهم الشيخ ، قد ورثها كثير من علماء المسلمين كالأشعرية ، الذين يزعمون أنهم أعداء لهم وخصوم ، مع أنهم

---

(١) بيان تلبيس الجهمية جـ ١ ص ١٤٧ .

(٢) بيان تلبيس الجهمية جـ ٢ ص ٧٨ – ٧٩ بتصرف .

يتفقون معهم على إنكار علو الله تعالى ، واستوائه على عرشه ، ومجيئه لفصل القضاء بين عباده ، ونزوله إلى سماء الدنيا كل ليلة ، كما أخبر به رسول الله – ﷺ .

كما أنهم يؤولون الصفات إلا قليلا ، تأويلا يؤول إلى الإنكار ، مثل اليدين ، والرجلين ، والوجه ، والرحمة ، والمحبة ، والضحك ، والرضا ، والغضب ، والسخط ، والمقت . وغير ذلك .

ويوافقون الجهمية فى كون القرآن مخلوقا ، فإنهم يجعلون الكلام قسمين : نفسى ، وهو المعنى القائم بالنفس ، وهذا هو الذى يصفون الله به ، ولفظى حرفى وهو المكتوب فى المصاحف ، وهو ليس كلاما لله عندهم ، بل هو عبارة عن كلام الله وهو مخلوق ، وهذا قول الجهمية ، الذين كفَّرهم السلف من أجله .

والمقصود أن علو الله – تعالى – واستواءه على عرشه ثابت بنصوص الكتب المنزلة على رسل الله ، وبالفطر ، التى عليها عباده ، وبالعقول التى لم تنتكس بفعل الشياطين ، وبإجماع أهل العلم والإيمان ، من جميع الأمم ، كما تقدمت الإشارة إليه . ولم يعرف خلاف فى هذه المسألة ، ونحوها إلا بعد مادخل كثير من الزنادقة فى الإسلام نفاقا ، وقصداً لإفساد الدين ، بعد المائة الأولى للهجرة ، وإن كان قد وجد قبل ذلك بعض المفسدين ، المتطرفين ، الذين كان لهم الأثر السيء فى الأمة .

قال شيخ الإسلام : « افترق الناس ، فى علوِ الله ، واستوائه ، أربع فرق :

الأولى : الجهمية ، النفاة ، يقولون : ليس داخل العالم ، ولا خارجه ، ولا فوق ، ولا تحت ، وجميع الطوائف من أهل البدع يتمسكون بنصوص ، إلا الجهمية .

وقسم ثان منهم يقولون : إنه بذاته فى كل مكان ، ويدخل فيهم الأشاعرة ، وهؤلاء هم الفرقة الثانية .

الثالثة : من يقول : إنه فوق العرش ، وهو فى كل مكان ، ويزعم أنه بذلك يجمع بين النصوص .

الرابعة : المتبعون للكتاب ، والسنة ، الذين أثبتوا ماأثبته الله ، ورسوله ، من غير تحريف ، فآمنوا بأن الله فوق سماواته ، مستوٍ على عرشه » (١)

وقد تقدم ذكر بعض الآيات الدالة على علو الله تعالى صراحة ، وبعض الأحاديث مما ذكره البخارى ، وغيره .

ومما لم يذكره ، قصة معراج الرسول - ﷺ - إلى ربه فوق السماوات كلها ، وهى ثابتة ثبوتا قطعياً بدون ريب .

وفى حديث الرقية : « ربنا الله الذى فى السماء ، تقدس اسمك » (٢)

وفى حديث الأوعال : « والعرش فوق ذلك ، والله فوق عرشه ، وهو يعلم ماأنتم عليه » (٣)

وفى سنن أبى داود ، عن جبير بن مطعم قال : أتى رسول الله - ﷺ - أعرابى فقال : يارسول الله ، جهدت الأنفس ، وجاع العيال ، وهلك المال ، فادع الله لنا ، فإنا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ، فسبح رسول الله ﷺ . حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه ، وقال : ويحك أتدرى ماالله ؟ إن الله لايستشفع به على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، إن الله على عرشه ، وإن عرشه على سماواته وأرضه هكذا ، وقال بأصابعه ، مثل القبة » (٤)

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٢٢٩ - ٢٣١ ملخصا .

(٢) رواه أبو داود فى السنن جـ ٤ ص ٢١٨ رقم ٣٨٩٢ ، وأحمد فى المسند جـ ٦ ص ٢١ .

(٣) رواه أبو داود جـ ٥ ص ٩٣ والترمذى وقال : حسن غريب جـ ٥ ص ٤٢٤ رقم ٣٣٢٠ وبن ماجه جـ ١ ص ٦٩ وأحمد فى المسند جـ ١ ص ٢٠٦ و ٢٠٧ وغيرهم .

(٤) أخرجه أبو داود فى السنن جـ ٥ ص ٩٤ ، وأبو سعيد الدارمى فى الرد على الجهمية ص ٢٧٢ ، وفى الرد على المريسى ص ٤٤٧ .

وفى خطبته ﷺ – فى عرفة ، فى أعظم جمع اجتمع له ﷺ بعدما أمر ، ونهى ، جعل يقول : « ألا هل بلغت » ؟ فيقولون : نعم . عند ذلك يرفع إصبعه إلى السماء ، وينكبها إليهم ، ويقول : اللهم أشهد غير مرة (١) .

والنصوص فى ذلك كثيرة جدا ، والحق فى هذه المسألة واضح جلى ، بل وفى كل مايجب لله تعالى ، وما يمتنع عليه ، ومعلوم أن الله – تعالى – قد أكمل لهذه الأمة دينها على لسان رسولها ، وأتم عليها النعمة بذلك ، وأنزل كتابه فيه تبيان كل شيء ، ومعرفته تعالى بما له من الأوصاف ، ومعرفة مايمتنع عليه هى أجل أمور الدين وأعظم أصوله ، فلابد أن يكون هذا قد بيَّن غاية البيان .

ثم إنه ليس بين علو الله تعالى على جميع خلقه ، ومعيته لخلقه ، وقربه من عباده ، منافاة فعلوه – تعالى – واستواؤه على عرشه ، ثابت ثبوتا قطعياً ، كما وضح ذلك تعالى فى كتابه ، وبينه رسوله – ﷺ – وكذلك معيته تعالى لخلقه ، قد وضحها وبينها رسوله ، فوجب الإيمان بذلك ، فكما أنه تعالى مستوٍ على عرشه ، وعالٍ على خلقه ، حقيقة ، فهو كذلك موصوف بالقرب ، والمعية على الحقيقة .

قال شيخ الإسلام : « لايخالف ماثبت من علو الله ، وأنه فوق العرش ، معيته لخلقه ، الثابتة بمثل قوله : (وهو معكم أينما كنتم) (٢) .

وقوله – ﷺ –: « إذا قام أحدكم إلى الصلاة ، فإن الله قِبَلَ وجهه » (٣) ونحو ذلك .

وذلك أن الله معنا حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة ، كما جمع الله بينهما فى

---

(١) تقدم أنه أخرجه مسلم .

(٢) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٣) رواه البخارى فى الصلاة باب ٣٣ ص ٧٥ وفى أماكن متعددة ، ومسلم جـ ١ ص ٣٨٨ رقم ٥٤٧ .

قوله – تعالى –: (هو الذى خلق السموات والأرض ، فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يعلم مايلج فى الأرض ، ومايخرج منها ، وماينزل من السماء ، ومايعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعلمون بصير) (١) فأخبر – تعالى – أنه فوق العرش ، يعلم كل شيء ، وهو معنا أينما كنا ، كما قال النبى – ﷺ – فى حديث الأوعال « والله فوق العرش ، وهو يعلم ماأنتم عليه » (٢) .

وذلك أن كلمة مع فى اللغة ، إذا أطلقت ، لم يكن ظاهرها فى اللغة إلا المقارنة المطلقة ، من غير وجوب مماسة ، أو محاذاة ، عن يمين أو شمال ، فإذا قيدت بمعنى من المعانى ، دلت على المقارنة فى ذلك المعنى ، فإنه يقال : مازلنا نسير والقمر معنا ، ويقال : هذا المتاع معى ، لمجامعته لك ، وإن كان فوق رأسك فالله مع خلقه حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة .

ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد ، فقوله – تعالى – : (وهو معكم أينما كنتم) (٣) دل ظاهر الخطاب أن حكم هذه المعية ، ومقتضاها : أنه مطلع عليكم شهيد عليكم ، ومهين ، عالم بكم ، وهذا معنى قول السلف : إنه معهم بعلمه ، وهذا ظاهر الخطاب ، وحقيقته .

وقوله : (لاتحزن ، إن الله معنا) (٤) حق على ظاهره ، ودلت الحال ، على أن حكم هذه المعية : الاطلاع ، والنصر ، والتأييد ، ومثلها قوله : (إننى معكما أسمع وأرى) (٥) وقوله – تعالى – : (إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم

---

(١) الآية ٤ من سورة الحديد .
(٢) تقدم ذكر من خرجه ص ٤٧٦ .
(٣) الآية ٤ من سورة الحديد .
(٤) الآية ٤٠ من سورة التوبة .
(٥) الآية ٤٦ من سورة طه .

محسنون) [١] حق ، وحكمها النصر ، والتأييد » [٢] .

والمعية نوعان : عامة ، وخاصة .

فالأولى ، هى المذكورة فى مثل قوله تعالى : (وهو معكم أينما كنتم) [٣]

والثانية هى المذكورة فى مثل قوله تعالى : (إننى معكما أسمع وأرى) [٤] ، فهذه خاصة بأنبيائه وأولياءه ، وعباده المؤمنين ، فهو – تعالى – معهم دون أعدائهم ، معهم بسمعه ، ورؤيته ونصره ، وتأييده ، كما أنه – تعالى – معهم بإحاطته وقبضته .

والمعية لاتدل على المخالطة ، والممازجة ، وإنما تدل على المصاحبة ، كما قال رسول الله – ﷺ –: « اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل » [٥] .

فهو – سبحانه – مع المسافر فى سفره ، ومع أهله فى وطنه ، وهو فوق عرشه ، وكل ذلك على ظاهره ، غير محتاج إلى تأويل ، ولا يلزم منه أن تكون ذاته مختلطة بذوات خلقه تعالى الله وتقدس عن ذلك ، وذلك لأن المفهوم من المعية فى اللغة العربية المصاحبة والمقارنة ، حكمها حسب مورد الخطاب ، فقوله – تعالى – (محمد رسول الله والذين معه) [٦] أى على الإيمان ، لا أن ذواتهم حالة فى ذاته ، بل هم مصاحبون له ، ومتبعون له على الإيمان ، وقوله : « فأولئك مع المؤمنين » يدل على موافقتهم ، فى الإيمان ، وموالاتهم .

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة النحل .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ١٠٢ – ١٠٤ .

(٣) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٤) الآية ٤٦ من سورة طه .

(٥) رواه مسلم فى الصحيح جـ ٢ ص ٩٧٨ الحديث رقم ١٣٤٢ ورواه غيره .

(٦) الآية ٢٩ من سورة الفتح .

فالله – تعالى – مع عباده ، يراهم ، ويسمع كلامهم ، وهو محيط بهم ، وعلمه بهم من لوازم معيته لهم ، وليست المعية هى العلم كما يتوهمه بعض الناس ، فعلمه تعالى محيط بكل شيء ولايختلف أو يتغير ، ولذلك صارت المعية إلى خاصة ، وعامة ، وكل واحدة لها مقتضاها وحكمها ، فمن مقتضى العامة : المراقبة ، والتخويف ، والاطلاع على جميع التصرفات ، وماتكنه الصدور .

ومن مقتضى الخاصة : النصر ، والتأييد ، والحفظ .

وتفسير من فسرها بالعلم من السلف ، يقصد بيان أن الله ليس مختلطا بخلقه أو حالا فيهم ، أو أن شيئا من مخلوقاته تحويه ، أو تظله ، أو تقله – تعالى – وتقدس .

وأما القرب ، فقد جاء على صيغتين : الإفراد نحو قوله تعالى – : (وإذا سألك عبادى عنى ، فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) (١) وكما فى حديث أبى موسى المتقدم : « إن الذى تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

وهو تعالى فوق عرشه ، ويقرب ممن يشاء من خلقه ، كيف يشاء ، كما قرب من موسى – عليه السلام – حين كلمه ، وهو فوق عرشه ، فوق السماوات كلها فلا تنافى بين علوه ، وقربه ومعيته ، لأنه تعالى أكبر من كل شيء ، وأعظم من كل شيء ، وهو محيط بكل شيء ، وهو بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير . – تعالى – الله عن ظنون السوء الكاذبة .

فعلو الله العلى العظيم ، واستوائه على عرشه ، ومعيته وقربه كل ذلك ثابت له حق على ظاهره ، كما أخبر به تعالى عن نفسه ، وأخبرت به رسله فالكل ثابت لله تعالى فى الكتب الإلهية ، وفى نصوص الأنبياء .

وأهل الفطرة العقلية السليمة ، من الأولين والآخرين ، يقولون : إنه تعالى فوق عرشه ، عالٍ على خلقه ، وهو معهم ، بعلمه ورؤيته ، وسمعه وإحاطته ، وقبضته وهيمنته عليهم .

---

(١) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

ومع أنبياءه ، وأولياءه بذلك وبنصره ، وتأييده ، وحفظه .

ومعيته تعالى من صفاته الخاصة به .

وأما الصيغة الأخرى للقرب : صيغة الجمع كقوله تعالى : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) (١) وهذا يقصد به فى لغة العرب ، الواحد العظيم ، الذى له عبيد يطيعونه ، ويسارعون فى أمره وإذا وقع الفعل منهم عن أمره قال : نحن فعلنا ، كما يقول الرئيس نحن أمرنا بكذا . والله تعالى رب الملائكة ، وخالقهم ، وخالق أفعالهم ، وهم ممتثلون لأمره ، (لايعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون مايؤمرون) (٢) ، (لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) (٣) مع أنه تعالى غنى بذاته عن ملائكته ، وجميع خلقه ، وهو الذى أقدر خلقه على مايفعلون ، وأعطاهم القدرة على ذلك ، وإذا شاء سلبهم ذلك ، فإذا قال تعالى -: (ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون) (٤) إذا كان المراد الملائكة كان من هذا الباب .

والمقصود أن علو الله - تعالى - ثابت له بالعقل ، وأدلة الكتاب ، ومابلغه الرسول - ﷺ - أمته ، وثابت بالضرورة الفطرية ، والأدلة عليه لاتحصى ومنكره ، منكر للمعلوم بالضرورة من الدين ، والمعلوم بالضرورة العقلية الفطرية وليس بين علو الله واستواءه على عرشه ، وبين معيته لخلقه ، وللأولياءه وأنبياءه ، وقربه منهم تعارض .

★ ★ ★

تم الجزء الأول من الشرح ويليه الجزء الثانى وأوله :
باب قول الله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة » .

---

(١) الآية ١٦ من سورة ق .
(٢) الآية ٦ من سورة التحريم .
(٣) الآية ٢٧ من سورة الأنبياء .
(٤) الآية ٨٥ من سورة الواقعة .

١ – فهرس الآيات التى استدل بها البخارى

* * *

٢ – الأحاديث المشروحة ، التى استدل بها البخارى على ترتيب الكتاب

★ ★ ★

٣ - فهرس الأبواب : حسب ترتيب البخارى رحمه الله

★ ★ ★

٤ - فهرس بأهم المراجع للشرح

١ - اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهميه ، للإمام ابن قيم الجوزية ، المطبعة المنيرية بتصحيح الشيخ عبد الله بن حسن وإبراهيم الشورى عام ١٣٥١ هـ .

٢ - إرشاد السارى ، المجلد العاشر منه - وهو شرح القسطلانى على البخارى ، صورته دار الفكر فى بيروت عن الطبعة السادسة مطبعة بولاق عام ١٣٠٦ هـ

٣ - الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود عام ١٤٠٤ هـ .

٤ - إيثار الحق على الخلق ، لأبى عبد الله محمد بن المرتضى اليمانى ، صورته دار الكتب العلمية فى بيروت عن الطبعة الأولى .

٥ - الاستيعاب لأبى عمر ابن عبد البر ، تحقيق البجاوى .

٦ - الإصابة للحافظ ابن حجر ، تحقيق البجاوى .

٧ - بدائع الفوائد لابن القيم ، الطبعة المنيرية .

٨ - بيان تلبيس الجهمية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق محمد بن عبد الرحمن بن قاسم ، مطبعة الحكومة السعودية فى مكة المكرمة عام ١٣٩١ هـ

٩ - التمهيد شرح الموطأ - لابن عبد البر ، المجلد السابع طبعة المغرب

١٠ - التمهيد فى علم الكلام ، للباقلانى .

١١ - تفسير البغوى « معالم التنزيل » على هامش تفسير الخازن ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى عام ١٣٧٥ هـ

١٢ - تفسير ابن كثير ، تحقيق عبد العزيز غنيم ، ومحمد أحمد عاشور ، ومحمد إبراهيم البنا ، مطبعة الشعب بمصر .

١٣ - تفسير الطبرى ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المعارف بمصر .

١٤ - تفسير الطبرى ، مطبعة الحلبى ، الطبعة الثالثة عام ١٣٨٨ هـ

١٥ - تفسير أسماء الله الحسنى ، للزجاج .

١٦ - تهذيب الأسماء واللغات للنووى ، تصوير دار الكتب العلمية فى بيروت عن الطبعة المنيرية .

١٧ - تهذيب اللغة ، للأزهرى ، تحقيق عبد السلام محمد هارون .

١٨ - جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ، نشرته المكتبه العلمية بالمدينة عن المطبعة المنيرية .

١٩ – جلاء الأفهام لابن القيم ، المطبعة المنيرية عام ١٣٥٧ هـ .
٢٠ – حادى الأرواح لابن القيم .
٢١ – الحيدة فى الرد على المعتزلة ، لعبد العزيز الكنانى ، مطابع القصيم فى الرياض .
٢٢ – خلق أفعال العباد ، للبخارى ضمن مجموعة عقائد السلف ، نشره على سامى النشار ، وعمار جمعى الطالبى .
٢٣ – درء تعارض العقل والنقل ، تحقيق محمد رشاد سالم ، طبعته جامعة الإمام محمد بن سعود عام ١٤٠٤ هـ .
٢٤ – الأذكار للنووى ، تحقيق محمد رضا خورشيد .
٢٥ – الروح لابن القيم ، مطبعة محمد صبيح ، الطبعة الثانية عام ١٣٧٦ هـ .
٢٦ – رد الإمام أحمد على الزنادقة والجهمية . ضمن مجموعة عقائد السلف ، نشر على سامى النشار وزميله .
٢٧ – زاد المسير لابن الجوزى ، طبعة المكتب الإسلامى .
٢٨ – الأسماء والصفات للبيهقى .
٢٩ – السنة لعبد الله بن الإمام أحمد ، مطبعة الحكومة السعودية فى مكة .
٣٠ – السنة لابن أبى عاصم . تحقيق وتخريج الألبانى .
٣١ – سنن أبى داود ، إعداد عزت عبيد الدعاس .
٣٢ – سنن الترمذى ، نشر المكتبه السلفية فى المدينة .
٣٣ – سنن النسائى « المجتبى » الطبعة الأولى ، المطبعة المصرية فى الأزهر .
٣٤ – سنن ابن ماجه ، رقم أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقى .
٣٥ – شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، للالكائى ، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان .
٣٦ – شرح الطحاوية ، لابن أبى العز ، الطبعة الثالثة .
٣٧ – شرح الكرمانى على البخارى ، صورة عن الطبعة الأولى ، دار إحياء التراث ببيروت .
٣٨ – شرح مسلم للنووى ، المطبعة المصرية سنة ١٣٤٩ هـ
٣٩ – شرح العمدة [أحكام الأحكام] لابن دقيق العبد ، تحقيق محمد حامد الفقى ، مطبعة أنصار السنة .
٤٠ – شرح كتاب الإيمان من صحيح البخارى للنووى .
٤١ – الصحاح للجوهرى ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الثانية .
٤٢ – صحيح مسلم ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقى .

٤٣ – طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ، مطبعة أنصار السنة .

٤٤ – عدة الصابرين لابن قيم الجوزية .

٤٥ – غريب الحديث ، لأبى عبيد ، طبعة حيدر آباد .

٤٦ – غريب الحديث للخطابى ، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغزناوى ، من منشورات مركز البحث العلمى فى جامعة أم القرى سنة ١٤٠٢ هـ .

٤٧ – فتح البارى ، للحافظ ابن حجر العسقلانى . المطبعة السلفية .

٤٨ – القاموس المحيط ، لمجد الدين الفيروزابادى . مطبعة السعادة بمصر .

٤٩ – كتاب التوحيد للإمام ابن خزيمة . تحقيق الهراس .

٥٠ – مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم ، طبعة الرياض .

٥١ – مسند الإمام أحمد ، صورة المكتب الاسلامى عن الطبعة الأولى فى مصر .

٥٢ – مسند الإمام أحمد ، تحقيق وشرح أحمد شاكر ١٦ جزءًا ولم يكمل ، مطبعة المعارف بمصر .

٥٣ – مشارق الأنوار ، للقاضى عياض ، صورته دار الجيل عن الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٣٣ هـ .

٥٤ – المفردات فى غريب القرآن ، للراغب الأصفهانى ، تحقيق محمد سيد كيلانى مطبعة مصطفى البابى .

٥٥ – منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية ، طبعة بولاق .

٥٦ – منهاج السنة ، الجزء الأول والثانى ، تحقيق محمد رشاد سالم .

٥٧ – المنهاج فى شعب الإيمان للحلبى ، مصور عن ثلاث نسخ مخطوطة ومطبوع فى بيروت .

٥٨ – موطأ الإمام مالك ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقى .

٥٩ – نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسى ، ضمن مجموعة عقائد السلف سابقة الذكر .

٦٠ – النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية ، الطبعة المنيرية عام ١٣٤٦ .

* * *

٥ - فهرس الموضوعات

* * *

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى بمكتبة الخانجى

مطبعة المدنى – القاهرة

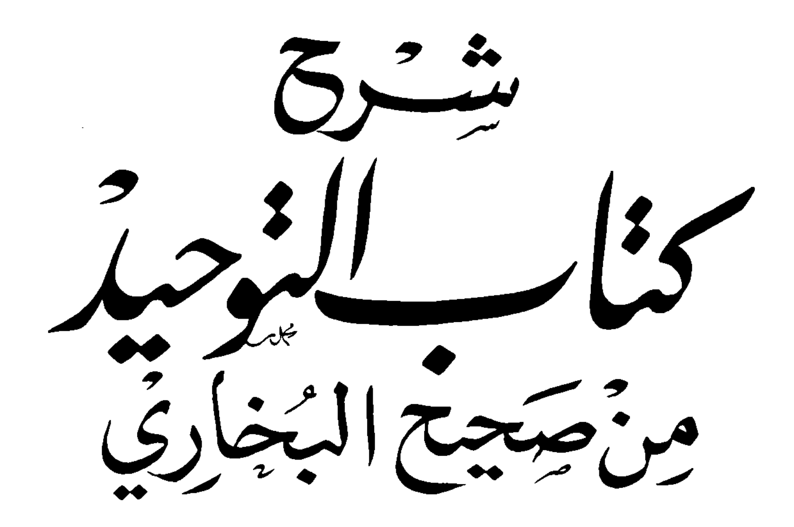
دار المــدنى للنشـــر والتوزيــع

جدة : ص ب ١٨٤٨٥ – ت : ٦٤٣٢٣٦٢

تصويبات « شرح كتاب التوحيد »

ص	س	الخطأ	صوابه	ص	س	الخطأ	صوابه
٣	٦	الأسله	أرسله	١١٦	١٠	غير	غر
،،	١٥	وتمام على النعمة	وتمام النعمة	١٢٤	١٥	مطلوب من	مطلوب
١١	١٩	أنا خلقت	أنا خلقته	١٢٥	٩	الجامعه وحقيقته	الجامعة وحقيقته
١٧	١٦	ثم برميهم	ثم يرميهم	١٢٨	١	ما بين	ما يبين
٢٩	٢	فى ذكر الخبر	فى ذكر الحبر	،،	٨	وصفاته الأول	وصفاته والأول
،،		سأله	ساءله	١٣٠	١٧	وفقهاءهم	وفقهائهم
،،	١٣	أمله	آمله	١٣٣	٣	أيا النبى	أيها النبى
٣٠	١١	الإيجار	الإيجاز	١٤٠	٣	المقبض	القبض
٣٣	٦	حنيفيا	حنيفا	،،	٢١	باختيارية	باختياره
٣٨	٢٠	الفتح البخارى	الفتح	١٤٧	٥	أرض غزاز	أرض عزاز
،،	١٧	إبلاغه العباد	إبلاغ العباد	،،	١٣	بن ثعلبة	بنى ثعلبة
٤٢	٢٢	يثير العزيز	تيسير العزيز	١٥٣	١٥	واستنتارهم	واستتارهم
٥٣	٩	وكذا ومن	وكذا من	١٦١	٣	املئت	امتلأت
٦٣	٣	واللهم	اللهم	،،	٥	امتلئت	امتلأت
٦٦	٩	المازنى	المازرى	١٦٢	٦	ملتها	ملؤها
٨٠	١٠	سراحيل	شراحيل	١٦٣	٧	ما خلقنا	ما خلقت
٨٤	١٠	النهى	المنهى	١٧١	١	فيها	فيهما
٨٥	١٦	بالتواب	بالثواب	،،	١٦	وعلى	وعلا
٨٦	١٦	زعموا مع	هذا مع	١٧٥	١٩	بضم الميم	بفتح السين
٨٨	١٣	ويسكنون	ويسكتون	١٧٧	٨	ينوّر	ينور
٩٧	١٢	فوجب	فوجه	١٨٠	٢	هذه الأخبار	هذه الأخبار
١٠٢	١	القوت	الفوت			الأخبار	الإخبار
١٠٤	٤	وأعلامهم	إعلامهم	١٨١	١٦	وبال	ووبال
١٠٦	١٥	وما يكره	وما يكرهه	١٨٨	٩	يأتم	بأتم
،،	١٨	يشاء	شاء	١٨٩	١	سمه	سمع
١٠٧	١٩	حقيقة	حقيقية	،،	٣	إلا الصلاة	إلا لصلاة
١٠٨	٤	لا يكون الاضافة	لا يكون إلا إضافة	١٩١	١٣	خفيه	خفيت
،،	٦	إرادة	إيراده	١٩٦	١٢	قد قال	وقد قال
،،	١٤	بأنه متدينا	بأنه كان متدينا	١٩٧	١٢	وسمع القبول	وسمع القبول
١١٠	٢٠	النظرة	النضرة			بنعدى	يتعدى
١١١	١	السميقع	السميفع	٢١١	٧	وتحول	ونحول
،،	١٤	الأخبار	الإخبار	٢١٢	٥	مشيئة	مشيئته

ص	س	الخطأ	صوابه
٢١٥	١٣	اشتقت	اشتق
٢١٦	٣	ونوعد	وتوعد
٢١٧	١	من حيث	من حيث لا
٢٢٦	٢١	إلا ذكر	إلا بذكر
٢٢٨	٦	صفحة ١٦١	صفحة ٢٢٤
٢٣٤	٣٤	واللهم	اللهم
٢٤٦	١٩	شبة	شيبة
"	١٢	ابن	أبو
٢٥٣	٢	واختبارا	واختيارا
٢٦٤	١٧	المرأ	المرء
"	٢٤	صالح	صالحا
٢٦٥	٧	بنأ	نبئ
٢٦٦	٦	واستولاه	واستواءه
٢٧٠	٣	عابد	عابده
٢٧١	١١	وأنه أقبل	وأنه إذا أقبل
٢٧٣	٩	فاكتفى تعالى بذلك	فاكتفى بذلك
٢٧٦	١٢	مع بقاءها	بقائها
٢٧٧	١٢	وهذا	هذا
٢٧٧	١٦	اثنين	اثنتين
٢٩٠	١٣	وغيره	غيره
"	١٩	نسأله العافية	نسأل الله العافية
٢٩٤	٦	فزعة	قزعة
"	١٢	رؤية	رواية
٢٩٦	٦	الخلق	الخلف
٣٠١	١٣	الموقوف	الوقوف
٣١٠	١٠	تعالى – لوضع	ولو شاء تعالى لوضع
٣١٣	١٩	مسندالسلف	مستند السلف
٣١٦	٤	الحذرى	الخدرى
٣٣٠	٢	مملوءان	هما مملوءان
٣٣٥	٧	العين	الغين
٣٤٣	٥	ولكن بخير	ولكن بخبر
٣٤٦	٤	سعيد	سعد
٣٥١	١٢	ينشف	ينشق
٣٥٣	١٤	سألكم	سالمكم
٣٥٦	١٥	إذا التقى	فإذا انتفى
٣٦٠	١٨	مواره	موارده
٣٦١	٥	بسنده أبى	بسند عن أبى
٣٦٥	١	استولى فلان على مصر استولى	استولى فلان على مصر استوى
٣٧٦	١٧	من البشير	من التبشير
٣٧٩	٥	لم يزل فعال	لم يزل فعالا
٣٨٦	١٤	بعيران	بعيران بعد أن
٣٨٨	٩	رحمه	رحمه الله
٣٩٦	١٤	بوجب	يوجب
٤٠٠	٩	أحب	أخبر
٤٠١	١٣	دنيا	دينا
٤٠٢	٩	تنبئ	ننبئ
٤٠٦	٣	وبالأخذ	وبالآخر
٤١٠	٧	أنها دائم	أنها دائما يبحث فيها
٤٢٥	٥	واستواؤه	واستوائه
٤٣٠	١٧	موت	موتا
٤٤٤		اتيان	االتيان
"	٨	"	"
٤٦١	١٥	نيه	بينه
٤٦٦	١٠	الهدى	والهدى
"	١١	للعناء	أاللعناء
٤٦٨	٩	وجين	وجهين
٤٧٠	٢	ربكم	ربهم
٤٨٠	١٩	واستوائه	واستواؤه
٤٨٤	٥	بردها	يرددها
"	١٧	بعزة الذى	بعزتك الذى
٤٩٥	٨	فلا إنكاره	فى إنكار



تأليف

الدكتور عبد الله بن محمد الغنيمان

رئيس قسم الدراسات العليا

بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

الجزء الثاني



دمنهور ت ٣٢٨١٩٩ / ٠٤٥

الطبعه الأولى

١٤٠٩هـ = ١٩٨٨م

شرح
كتاب التوحيد
من صحيح البخاري



بسم الله الرحمن الرحيم

قال : باب قول الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

قال ابن جرير : « يقول — تعالى — ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ يعنى يوم القيامة ، ﴿ ناضِرَةٌ ﴾ . حسنة جميلة من النعيم ، يقال : نَضُر وجه فلان ، إذا حسن من النعمة ، ونضَّر الله وجهه ، إذا حسنه كذلك »(١) .

ثم روى ذلك بأسانيده عن المفسرين من السلف .

﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أى : تلك الوجوه النضرة ، تنظر بأبصارها إلى ربها ، وذلك أعلى نعيم الآخرة .

روى ابن جرير ، عن عكرمة ، والحسن ، وعطية العوفى : ينظرون إلى ربهم .

وروى عن مجاهد ، وأبى صالح : تنتظر ثواب ربها .

ثم قال : والصواب القول الأول ، أنها تنظر إلى خالقها ، وبذلك جاء الأثر عن رسول الله ﷺ .

حدثنى على بن الحسين بن أبجر ، قال : حدثنا مصعب بن المقدام ، قال : حدثنا إسرائيل بن يونس ، عن ثوير ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزِلة ، لَمَن ينظر فى مُلْكه ألفى سنة ، قال :

---

(١) انظر تفسير ابن جرير جـ ٢٩ ص ١٩١ .

وإن أفضلهم منزلة ، لمن ينظر فى وجه الله كل يوم مرتين ، ثم تلا : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّها نَاظِرَةٌ ﴾ . قال : البياض ، والصفاء ، ﴿ إلى رَبِّها ناظِرَةٌ ﴾ تنظر كل يوم فى وجه الله ـــ عز وجل » .

حدثنا محمد بن منصور الطوسى ، وإبراهيم بن سعيد الجوهرى ، قالا : حدثنا على بن الحسن بن شقيق ، قال : حدثنا الحسين بن واقد ، عن يزيد النحوى[1] عن عكرمة : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّها نَاظِرَةٌ ﴾ ، قال : تنظر إلى ربها نظرًا .

حدثنا محمد بن على بن الحسن بن شقيق ، قال : سمعت أبى يقول : أخبرنى الحسين بن واقد ، فى قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾ من النعيم ﴿ إِلَىٰ رَبِّها نَاظِرَةٌ ﴾ .

أخبرنى يزيد النحوى ، عن عكرمة ، وإسماعيل بن أبى خالد ، وأشياخ من أهل الكوفة . قال : تنظر إلى ربها نظرًا .

حدثنا محمد بن إسماعيل البخارى ، قال حدثنا آدم ، قال : حدثنا المبارك ، عن الحسن فى قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾ قال : حسنة ﴿ إِلَىٰ رَبِّها نَاظِرَةٌ ﴾ قال : تنظر إلى الخالق ، وحق لها أن تنضَّر ، وهى تنظر إلى الخالق[2] .

وقال ابن كثير : « ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾ من النضارة ، أى حسنة بهية ، مشرقة مسرورة : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أى تراه عيانا ، كما رواه البخارى فى صحيحه ، إنكم ستَرَوْن ربكم عَيانا » [أى معاينة ينظرون إليه] .

---

(١) هو يزيد بن أبى سعيد ، أبو الحسن القرشى بالولاء ، المروزى ، ثقة عابد . قتل ظلما سنة إحدى وثلاثين ومائة انظر التقريب جـ ٢ ص ٣٦٥ وتهذيب التهذيب جـ ١١ ص ٣٣٢ .

(٢) تفسير الطبرى جـ ٢٩ ص ١٩٢ ـــ ١٩٣ .

وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل فى الدار الآخرة ، فى الأحاديث الصحاح ، من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ، ولا منعها »[1] . ثم ذكر طرفا منها .

وقال البغوى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة ﴿ نَّاضِرَةٌ ﴾ قال ابن عباس : حسنة وقال مجاهد : مسرورة ، وقال ابن زيد : ناعمة ، وقال مقاتل : بيض يعلوها النور . وقال السدى : مضيئة .

وقال يمانٌ : مسفرة ، وقال الفراء : مشرقة بالنعيم ، يقال : نضر الله وجهه ، ينضر نضرا ، ونضره الله ، وأنضره ، ونَضُر وجهه ، ينضر نضرة ، ونضارة قال تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾[2] .

﴿ إِلَىٰ رَبِّها نَاظِرَةٌ ﴾ قال ابن عباس ، وأكثر الناس : تنظر إلى ربها عيانا بلا حجاب .

قال الحسن : تنظر إلى الخالق ، وحق لها أن تنضَّر وهى تنظر إلى الخالق .

ثم روى بسنده عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه ، وأزواجه ، ونعيمه ، وخدمه ، وسرره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[3] .

وهذا الحديث هو الذى نقلته عن تفسير الطبرى قريبا ، وفيه نوير بن أبى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٣٠٤ .

(٢) الآية رقم ٢٤ من سورة المطففين .

(٣) تفسير البغوى على هامش الخازن جـ ٧ ص ١٨٥ — ١٨٧ .

فاختة . سعيد بن جهمان ، ضعيف ، قال الحافظ : « أطبقوا على تضعيفه »[1] .

وقال ابن عدى : « أثر الضعف بين على رواياته ، وهو إلى الضعف أقرب منه إلى غيره »[2] .

وهذا لا يمنع من الاستشهاد بحديثه كما هى طريقة العلماء فيما لا يخالف الثابت الصحيح ، بل يوافقه .

وفى الدر المنثور : « أخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس ، فى قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ قال : تنظر إلى وجه ربها »[3] .

وذكر أحاديث فى ذلك ، وآثارا كثيرة .

والأحاديث فى رؤية المؤمنين لربهم فى الآخرة كثيرة جدا ، وقد تواترت عن رسول الله ﷺ وتلقاها أتباعه بكل قبول ، وارتياح وانشراح لها ، وكلهم يرجو ربه ويسأله أن يكون ممن يراه فى جنات عدن ، يوم يلقاه .

ولم يرد هذه الأحاديث إلا أهل البدع والضلال ، الذين اعتاضوا بهداية كتاب الله وسنة رسوله ﷺ آراءً فاسدة ، زعموا أنها معقولات وهى ضلالات وجهالات و شبهات ، كما سيأتى بيان ذلك إن شاء الله تعالى .

وقد أفرد كثير من أهل السنة هذه المسألة بمؤلفات خاصة .

قال البيهقى : « لا يخلو النظر أن يكون الله تعالى عنى به نظر الاعتبار ،

---

(١) الفتح جـ١٣ ص ٤٢٤ .

(٢) انظر الكامل جـ ٢ ص ٥٣٤ .

(٣) جـ ٨ ص ٣٥٠ .

كقوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى ٱلإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾[1] .

أو عنى به نظرَ التعطف والرحمة ، كقوله تعالى : ﴿ ولا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾[2] .

أو عنى به نظر الانتظار ، كقوله تعالى : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾[3] .

أو عنى به الرؤية ، كقوله تعالى : ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾[4] .

ولا يجوز أن يكون عنى بقوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ نظر التفكر والاعتبار ، لأن الآخرة ليست بدار استدلال واعتبار ، وإنما هى دار اضطرار .

ولا يجوز أن يكون عنى نظر الانتظار ، لأنه ليست فى شيء من أمر الجنة انتظار ، لأن الأنتظار معه تنغيص وتكدير ، والآية خرجت مخرج البشارة ، وأهل الجنة فيما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، من العيش ، فهم ممكنُون مما أرادوا ، وإذا خطر ببالهم شيء ، أُتوا به ، مع خطوره ، فلم يجز أن يكون الله أراد بقوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ نظر الانتظار .

ولأن النظر إذا ذكر مع ذكر الوجه فمعناه نظر العينين اللتين فى الوجه ، كما قال تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَاءِ ﴾[5] ، أراد بذلك تقلب عينيه نحو السماء ، ولأنه قال : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

---

(١) الآية ١٧ من سورة الغاشية .

(٢) الآية ٧٧ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٤٩ من سورة يس .

(٤) الآية ٢٠ من سورة محمد .

(٥) الآية ١٤٤ من سورة البقرة .

ونظر الانتظار لا يكون مقرونا بإلى ، لأنه لا يجوز عند العرب أن يقولوا فى نظر الانتظار « إلى » إذا كان معناه الانتظار ، قالت بلقيس فيما أخبر الله تعالى عنها : ﴿ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[1] .

ولا يجوز أن الله تعالى أراد نظر التعطف والرحمة ، لأن الخلق لا يجوز أن يتعطفوا على خالقهم ، فإذا فسدت هذه الأقسام الثلاثة ، صح القسم الرابع من أقسام النظر ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ، أنها رائية ترى الله عز وجل .

ولا يجوز أن يكون معناه إلى ثواب ربها ناظرة ؛ لأن ثواب الله غير الله والله تعالى قال : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا ﴾ ، ولم يقل إلى غير ربها ناظرة .

والقرآن على ظاهره ، وليس لنا أن نزيله عن ظاهره ، إلا بحجة .

ألا ترى أنه لما قال : « اعبدونى ، واشكروا لى » لم يجز أن يقال : أراد ملائكتى أو رسلى .

ثم نقول : إنْ جاز لكم أن تدعوا هذا ، فى قوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ جاز لغيركم أن يدعيه فى قوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[2] ، فيقول : أراد بها لا تدرك غيره ، ولم يرد أنها لا تدركه هو ، وإذا لم يجز ذلك لم يجز هذا »[3] .

٦٢ ــ قال : « حدثنا عمرو بن عون ، حدثنا خالد وهشيم ، عن إسماعيل ، عن قيس ، عن جرير ، قال : كنا جلوسا عند النبى ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر ، قال : « إنكم سترون ربكم ،

---

(١) الآية ٣٥ من سورة النمل .
(٢) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .
(٣) الاعتقاد للبيهقى ص ٧٤ ــ ٧٥ .

كما ترون هذا القمر ، لا تُضَامُّون فى رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا » .

٦٣ ــ حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا عاصم بن يوسف اليربوعى ، حدثنا أبو شهاب ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن قيس ابن أبى حازم ، عن جرير بن عبد الله ، قال : قال النبى ﷺ : « إنكم سترون ربكم عيانا » .

٦٤ ــ حدثنا عبدة بن عبد الله ، حدثنا حسين الجعفى ، عن زائدة ، حدثنا بيان بن بشر ، عن قيس بن أبى حازم ، حدثنا جرير ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ليلة البدر ، فقال : « إنكم سَتَرَوْن ربكم يوم القيامة كما تَرَوْن هذا لا تُضَامُونَ فى رؤيته » .

هذا حديث واحد ذكر هنا من ثلاثة طرق إلى قيس بن أبى حازم ، اقتصر على المقصود فى الطريقين الأخيرين ، وقد رواه فى الصلاة ، وفى التفسير .

قوله : كنا جلوسا عند النبى ﷺ ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر ، هذا يدل على أنه ﷺ بدأهم بذلك ، وسيأتى فى حديث أبى هريرة ، وأبى سعيد ، أن الناس سألوه عن ذلك ، فهى قضية أخرى .

فهو ﷺ أخبرهم ابتداء بأنهم يرون ربهم يوم القيامة ، ووقع من بعضهم السؤال ، فأجابهم بأنهم يرونه .

وليلة البدر : هى ليلة أربعة عشر ، سميت ليلة البدر لأن القمر يكمل فيها ويبدر ، وإبداره : كماله وتمامه .

قوله : « وإنكم سترون ربكم ، كما ترون هذا القمر » ، هذا بيان بليغ ، وتأكيد عجيب ، فأكده بأن ، وبالفعل المضارع المسبوق بالسين ، وبقوله :

« كما ترون هذا القمر » مع إشارته إليه ، فليس بعد هذا البيان بيان ، ولا مزيد على هذه التأكيدات ، فمن حاول تأويل رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة بعد ما سمع هذا البيان من رسول الله ﷺ ، فهو يجادل بالباطل ليدحض به الحق ، قد اختار الباطل على الحق ، وسوف يوله الله ما تولى .

وإذا دخلت السين على الفعل ، صار وقوعه فى المستقبل .

ورؤية العباد لربهم تعالى لا تقع إلا فى الآخرة . كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ قوله : « أما إنكم سَتُعْرَضون على ربكم فَتَرَوْنه »[1] .

ففى كلا اللفظين تأكيد بليغ منه ﷺ بأن المؤمنين يرون ربهم رؤية حقيقية بأبصارهم ، مؤكدة كما سيأتى بيان ذلك إن أراد الله تعالى .

قوله : « لا تضامون فى رؤيته » يروى بضم التاء وتخفيف الميم ، والمعنى : لا ينالكم فى رؤية ربكم ضيم ، أى ظلم وهضم .

ويروى بفتح التاء ، وتشديد الميم ، والمعنى : أنكم ترون ربكم رؤية واضحة لا تحتاجون فى رؤيته أن ينضم بعضكم إلى بعض لتتساعدوا على الرؤية كما يقع عند رؤية الأمور الخفية .

ويروى أيضا « تضارون » بفتح التاء ، وضمها ، والمعنى : لا يضر بعضهم بعضا فى رؤية الله تعالى ، فيراه بعضهم ، ويحجب عن رؤيته آخرون منهم ، بل يراه المؤمنون رؤية واضحة ، كوضوح الشمس والقمر .

قال الحافظ : « تضارون » بضم أوله ، وبالضاد ، وتشديد الراء ، بصيغة

---

(١) انظر مسلم بشرح النووى جـ ٥ ص ١٣٤ .

المفاعلة من الضرر ، وأصله : تضاررون ، بكسر الراء وفتحها ، أى لا تضرون أحدا ، ولا يضركم ، بمنازعة ولا مضايقة .

وجاء ــ أيضا ــ بتخفيف الراء ، من الضير ، وهى لغة فى الضر ، أى لا يخالف بعض بعضا ، فيكذبه وينازعه ، فيضيره بذلك ، يقال : ضاره ، يضيره .

وقيل المعنى : لا يحجب بعضكم بعضا عن الرؤية ، فيضر به »[1] .

والمقصود من هذا كله أنهم يرون ربهم ، رؤية واضحة ، لا يلحقها نقص وليس فيها خفاء ، ولا يحتاجون معاونة عليها .

قوله : « فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروبها فافعلوا » تعقيب الخبر عن رؤيتهم لربهم بالفاء المقترنة بالحث على فعل الصلاة المذكورة ، يدل على أن المحافظة على هاتين الصلاتين من أسباب حصول الرؤية .

وعلق ذلك بالاستطاعة ، لأنها مناط التكليف ، فالله تعالى لا يكلف إلا بالمستطاع ، كما تدل لذلك النصوص من الكتاب والسنة .

ولهذا قال : « فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا » .

والمقصود بالصلاة قبل طلوع الشمس ، صلاة الفجر ، والصلاة قبل غروبها ، صلاة العصر .

وقد جاءت أحاديث عن رسول الله ﷺ بالحض على زيادة الاعتناء بهاتين الصلاتين .

---

(١) الفتح جـ ١١ ص ٤٤٦ ، وانظر النووى على مسلم جـ ٣ ص ١٨ و جـ ٥ ص ١٣٤ والفتح جـ ١٣ ص ٤٢٧ .

ففى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى ، أن رسول الله ﷺ قال : « من صلى البردين دخل الجنة » .

وفى صحيح مسلم ، عن عمارة بن رؤيبة ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها — يعنى صلاة الفجر والعصر »[1] .

وفى ذلك أحاديث كثيرة .

وقد قال الله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجرِ إِنَّ قُرءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾[4] .

قوله : « إنكم سترون ربكم عيانا » هذا اللفظ من أبلغ النصوص فى إثبات الرؤية فقد أكد رؤية المؤمنين لربهم عدة تأكيدات كما سبق فى الطريق الأولى غير أنه هنا قال : « عيانا » وهو لا يحتمل أى تأويل .

ومعنى عيانا : معاينة مقابلين له تعالى ينظرون إليه بأعينهم ، وفى هذا أبلغ الرد على منكرى الرؤية الحقيقية ، كما فيه الرد على المتطرفين من الصوفية الذين يزعمون بأنهم يرون الله فى الدنيا ، لأنه قال : « سترون ربكم » وهذا

---

(١) مسلم جـ ١ ص ٤٤٠ رقم ٦٣٤ .
(٢) سورة ق الآية ٣٩ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٣٨ .
(٤) الآية ٧٨ من سورة الإسراء .

يكون فى المستقبل ، وفى الرواية الأخرى قيد الرؤية بيوم القيامة ، وفى صحيح مسلم : « وتعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه حتى يموت »[1] .

والواقع أن هؤلاء الأدعياء ، يرون آلهتهم من الشياطين الذين أضلوهم .

قال الأزهرى : « رأيت فلانا عيانا ، أى مواجهة »[2] .

وهذا التفسير لقوله : « سترون ربكم عيانا » متفق عليه عند أهل الأثر ، وأهل اللغة ، وهو من الأمور الواضحة ، ولكن لما جاء أهل البدع والتحريف احتيج فى ذلك إلى ذكر أقوال العلماء ، وسيأتى لذلك مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

قوله : « إنكم سترون ربكم يوم القيامة ، كما ترون هذا ، لا تضامون فى رؤيته » قيد الرؤية بيوم القيامة لئلا يتوهم أحد أنه يرى ربه قبل يوم القيامة .

وقوله : « كما ترون هذا » الإشارة إلى القمر تلك الليلة التى هى ليلة البدر والقمر فيها أتم ما يكون ، وأوضح ما يكون ، فشبه الرسول ﷺ رؤية المؤمنين لربهم تعالى برؤيتهم القمر تلك الليلة فى تمامه واستوائه ، ووضوحه ، والمعنى : أنكم ترون ربكم يوم القيامة رؤية واضحة جلية ، لا لبس فيها ، ولا خفاء ، كما ترون القمر وقت تمامه وكماله ليلة أربع عشرة من الشهر ، ليس بينكم وبينه حائل ولا قتر .

وهذا غاية البيان والإيضاح فى أن المؤمنين يرون الله — تعالى — يوم القيامة ، ومع هذا يأبى من غلبت عليه شقوته ، وضلاله الإيمان بذلك ، ويحاول تحريف النصوص الواضحة ، لتتفق مع مذهبه الفاسد .

٦٥ — قال : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا إبراهيم بن

---

(١) مسلم جـ ٤ ص ٢٢٤٥ رقم ٢٩٣١ .

(٢) تهذيب اللغة جـ ٣ ص ٢٠٦ .

سعيد ، عن ابن شهاب ، عن عطاء بن يزيد الليثى ، عن أبى هريرة ، أن الناس قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟

فقال رسـول الله ﷺ : « هل تضارون فى القمر ليلة البدر ؟ » .

قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « فهل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب ؟ » .

قالوا : لا يارسول الله ، قال : « فإنكم ترونه كذلك » .

يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيقول : من كان يعبد شيئا فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة ، فيها شافعوها ــ أو منافقوها ــ شك إبراهيم ، فيأتيهم الله فيقول : أنا ربكم ؟

فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ؟ فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه ، ويضرب الصراط بين ظهرى جهنم ، فأكون أنا وأمتى أول من يجيزها .

ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم .

وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان ، هل رأيتم السعدان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله ، تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم الموبق ، بقى بعمله ، أو الموثق بعمله ، ومنهم المخردل ، أو المجازى ــ أو نحوه ــ .

ثم يتجلى حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد ، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار ، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ، ممن أراد الله أن يرحمه ، ممن يشهد أن لا إله إلا الله ، فيعرفونهم فى النار بأثر السجود ، تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود ، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار قد امتحشوا ، فيصب عليهم ماء الحياة ، فينبتون تحته ، كما تنبت الحبة فى حميل السيل ، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار ، هو آخر أهل النار دخولا الجنة .

فيقول : أى رب ، اصرف وجهى عن النار ، فإنه قد قشبنى ريحها ، وأحرقنى ذكاؤها ، فيدعو الله بما شاء أن يدعوه ، ثم يقول الله : هل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسألنى غيره ؟

فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره ، ويعطى ربه من عهود ومواثيق ما شاء ، فيصرف وجهه عن النار ، فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم يقول : أى رب قدمنى إلى باب الجنة ، فيقول الله : ألست قد أعطيت عهودك ، ومواثيقك أن لا تسألنى غير الذى أعطيت أبدًا ؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك .

فيقول : أى رب ، ويدعو الله ، حتى يقول : هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره ؟

فيقول : لا وعزتك ، لا أسألك غيره ، ويعطى ما شاء من عهود ، ومواثيق ، فيقدمه إلى باب الجنة .

فإذا قام إلى باب الجنة انفهقت له الجنة ، فرأى ما فيها من الحَبْرة ،

والسرور ، فيسكت ما شاء الله أن يسكت .

ثم يقول :أى رب أدخلنى الجنة ،فيقول الله : ألست قد أُعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطيت ؟

فيقول : ويلك يابن آدم ما أغدرك .

فيقول : أى رب لا أكونن أشقى خلقك ، فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه ، فإذا ضحك منه ، قال له : ادخل الجنة ، فإذا دخلها قال الله له : تمنه .

فسأل ربه وتمنى ، حتى إن الله ليذكره ، يقول : كذا وكذا ، حتى انقطعت به الأمانى ، قال الله : ذلك لك ، ومثله معه .

قال عطاء بن يزيد : وأبو سعيد الخدرى مع أبى هريرة ، لا يرد عليه من حديثه شيئا ، حتى إذا حدث أبو هريرة أن الله ـــ تبارك وتعالى ـــ قال : ذلك لك ، ومثله معه ، قال أبو سعيد الخدرى : وعشرة أمثاله معه ، يا أبا هريرة .

قال أبو هريرة : ما حفظت إلا قوله : ذلك لك ، ومثله معه .

قال أبو سعيد الخدرى : أشهد أنى حفظت من رسول الله ﷺ قوله : ذلك لك ، وعشرة أمثاله .

قال أبو هريرة : فذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا الجنة .

قوله : « إن الناس قالوا : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ » .

هذا السؤال تكرر من الصحابة فى مجالس متعددة ، كما تدل على ذلك الأحاديث ، وسبب ذلك الدافع الإيمانى ، والاشتياق من المؤمنين صادق

الإيمان ، إلى رؤية ربهم تبارك وتعالى .

وقد أجابهم رسول الله ﷺ جوابا شافيا ، وواضحا غاية الوضوح حتى لو تكلف أحد أن يوضحه أكثر من إيضاح الرسول ﷺ له ما استطاع .

فلذلك صار من لم يقبل ذلك تاركا للحق عنادا وقصدا ، والله يوليه ما تولى .

ولذلك قال : « هل تضارون فى القمر ليلة البدر » أى هل يضر بعضكم بعضا فى مشاهدة القمر ، فى أتم ما يكون ، وأكمل ما يكون ، وهذا أمر واضح جدا .

ولهذا قالوا : لا .

ثم قال ﷺ : « فهل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب ؟ » أى لم يحجب دونها حجاب ، مع صحة أبصاركم ، قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « فإنكم ترونه كذلك » أى أنكم ترون ربكم ، رؤية واضحة كرؤيتكم للقمر ليلة أربع عشرة ، وكوضوح الشمس طالعة ليس دونها ما يحول بينكم وبينها .

فأى وضوح أوضح وأجلى من ذلك .

قوله : « يجمع الله الناس يوم القيامة » أى أنه تعالى يبعثهم من قبورهم أحياء ، ثم يجمعهم جميعا فى مكان واحد ، من أولهم الذى هو أبوهم آدم عليه السلام ـــ إلى آخر مولود منهم ، ثم يقفون فى ذلك المكان ، وقوفا طويلا جدا ، ينتظرون ربهم يأتيهم فيقضى بينهم ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[1] فيأتيهم تعالى . « فيقول : من كان يعبد شيئا فليتبعه » يعنى من كان فى الدنيا يعبد شيئاً غير الله فإنه يمثل له ، أو يأتى بذلك المعبود

(١) الآية ٦ من سورة المطففين .

نفسه إن لم يكن ممن يطيع الله كهيئته فى الدنيا ، سواء كان ذلك المعبود رجلا ، أو صنما ، أو مالا ، أو شهوة ، أو غير ذلك ، ثم يؤمر بتلك المعبودات إلى النار .

« فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت » الطواغيت هى : كل معبود من دون الله ، وتطلق على الأصنام ، والأوثان ، والقبور التى يتجه إليها بالعبادة ، قال الأزهرى : « قال أبو إسحاق : كل معبود من دون الله ، جبت وطاغوت .

وقيل : الجبت ، والطاغوت الكهنة والشياطين .

وفى بعض التفسير : الجبت ، والطاغوت حيى بن أخطب ، وكعب بن الأشرف اليهوديان ، وهذا غير خارج مما قال أهل اللغة ، لأنهم إذا اتبعوا أمرهما فقد أطاعوهما من دون الله »[1] .

وقال ابن القيم : « الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود ، أو متبوع ، أو مطاع ، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله تعالى . ورسوله ﷺ أو يعبدونه ، من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله ، فهذه طواغيت العالم ، إذا تأملتها ، وتأملت أحوال الناس رأيت أكثرهم عدلوا عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت ، وعن التحاكم إلى الله ، وإلى الرسول ، إلى التحاكم إلى الطاغوت ، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته »[2] .

قلت : أكثر الخلق اليوم واقعون فيما ذكره ابن القيم ، فهم يعبدون

---

(١) تهذيب اللغة جـ ٨ ص ١٦٨ .
(٢) إعلام الموقعين جـ ١ ص ٥٠ .

الطواغيت من الأحياء والأموات ويتحاكمون إليها ، ويدينون لها بالولاء والطاعة ، ويجعلون السيادة للقانون الذى هو طاغوت يحكمونه من دون الله ، ويستخفون بشرع الله وحكمه ، مع تيسر الوصول إليه ، ولكنهم لا يريدون حكم الله ، وإنما يريدون حكم الجاهلية وقد قال الله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[1] .

قوله : « تبقى هذه الأمة فيها شافعوها — أو منافقوها — شك إبراهيم » قال ابن أبى جمرة : « يحتمل أن يكون المراد بالأمة ، أمة محمد ﷺ ويحتمل أن يدخل فيه جميع أهل التوحيد ، حتى من الجن ، ويدل عليه ما فى بقية الحديث : « ممن كان يعبد الله من بر وفاجر »[2] .

قال الحافظ : « ويدل له أيضا قوله : « فأكون أول من يجيز » فإن فيه إشارة إلى أن الأنبياء يجيزون أممهم بعده »[3] .

وفى رواية أبى سعيد : « حتى يبقى من يعبد الله من بر وفاجر » كما سيأتى .

قوله : « فيها شافعوها أو منافقوها » هذه رواية إبراهيم بن سعد .

قال الحافظ : « والمعتمد ، رواية « منافقوها » كما هى رواية الأكثر »[4] .

ويأتى فى رواية أبى سعيد : « حتى يبقى من كان يعبد الله ، من بر وفاجر ، وغبرات من أهل الكتاب » وفى رواية مسلم : « وغبر » وكلاهما جمع غابر ، والغبرات جمع غبر ، وغبر جمع غابر ، ويجمع أيضا على أغبار ، والمراد البقية

---

(١) الآية ٦٥ من سورة النساء .
(٢) بهجة النفوس جـ ٢ ص ٢٤ وما نقل هنا بالمعنى .
(٣) الفتح جـ ١١ ص ٤٤٩ .
(٤) المرجع المذكور .

ـــ أى بقايا قليلة من اليهود والنصارى ، الذين كانوا يعبدون الله تعالى وحده ـــ ، أما معظمهم ، فقد ذهب بهم إلى جهنم ، عندما قال الله : « ليتبع كل عابد ما كان يعبده » .

وفى قصة لوط ﷺ قول الله تعالى : ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾[1] .

والمراد أن كل من يعبد ـــ غير الله تعالى ـــ يحضر له معبوده الذى كان يعبده فى الدنيا أو يمثل له ، فيقال اتبعه ، ويذهب به إلى النار ، ويبقى الذين لا يعبدون إلا الله من المؤمنين الصادقين ، والمنافقين .

قوله : « فيأتيهم الله » هذا من أوصاف الله وأفعاله التى يفعلها إذا شاء ، وهى مما يجب الإيمان به على ظاهر النص ، كما هى طريقة سلف هذه الأمة الذين تلقوا ذلك عن الله ورسوله بالقبول ، والتسليم ، ومعلوم أن رسول الله ﷺ أغير على الله ، وأعظم تعظيما له ، وأعلم به وبما يجب له ، وما يمتنع عليه ، من أهل التأويل الذين يزعمون أنهم ينزهون الله عن أوصاف المحدثين ، كما يقولون ، ولهذا تجدهم يجهدون أنفسهم فى تحريف كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ زاعمين أنه لو أجرى على ظاهره لأفاد التشبيه ، والتجسيم ، فلذلك جعلوا تأويله واجبا .

والواقع أن ما يسمونه من ذلك تأويلا هو تحريف ، وإلحاد . كما أشرنا إليه فيما سبق .

وفى هذه الجملة من الحديث ، وهى قوله : « فيأتيهم الله ، فيقول : أنا ربكم ؟ فيقولون : « هذا مكاننا حتى يتأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه » شاهد للباب ، لأن ظاهره أنهم يرونه ، غير أنهم فى هذه المرة لم يعرفوه ،

---

(١) الآية ١٧١ من سورة الشعراء .

لأنه تعالى لم يظهر لهم بأوصافه التى يعرفونه بها ، وقد جاء فى رواية أبى سعيد الآتية : « فيأتيهم الجبار فى صورة غير صورته التى رأوه فيها أول مرة » . ولهذا قالوا : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه » .

قوله : « فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ؟ فيقولون : أنت ربنا فيتبعونه » وهذه الجملة أيضا هى المرادة من سياق الحديث فى الباب ، لأن فيها دلالة واضحة على رؤية المؤمنين ربهم فى ذلك الموقف ، وسيأتى بحث ذلك والرد على شبه النفاة إن شاء الله تعالى .

وفى هذه الجملة من الحديث ، والتى قبلها كثر اضطراب شراح الحديث ، وتخبطوا كثيرا ، لأنهم على عقيدة الأشاعرة ، وسأذكر بعض أقوالهم فى ذلك ، للعبرة ، ثم أذكر ما يبين بطلانها مستعينا بالله تعالى .

ثم إنه يجب على كل مسلم أن يعلم بأن الله تعالى قد أكمل لهذه الأمة دينها ، وبينه بيانا لا يحتاج معه إلى استدراك أحد من الناس ، وسيأتى دليل ذلك . ورسول الله ﷺ قد أقام الحجة وأوضح المحجة ، فيجب على المسلم أن يؤمن بأنه أكمل الخلق هداية ، وأنه بلغ عن الله ما أمره الله بتبليغه ، وأنه أفصح الناس ، وأقدرهم على بيان مراده ، وأنه أنصح الخلق لأمته وأحرصهم على هدايتهم ، وهو أعظم الناس خوفا من الله ، وتعظيما له ، وهو أعلم الناس بالله ، وبما يجب له تعالى ــ وما يمتنع عليه .

فلا بد أن يبين لأمته ما يجب عليهم أن يعتقدوه فى ربهم ، بيانا لا لبس فيه ، ولا غموض ، فلا يحتاجون معه إلى بيان غيره ، وإلا لا يكون بلغ البلاغ المبين ، قال الله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾[1] ، وقد سأل الناس ﷺ هل بلغ رسالة

(١) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

ربه ، فشهدوا له بأنه بلغ البلاغ المبين .

وأخبر صلوات الله وسلامه عليه أنه ترك أمته على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك[1] .

ولا يعقل أنه يبين لأمته آداب الأكل والشرب والنوم ، ودخول المنزل والخروج منه ، وركوب الدابة ، ولبس النعل والثوب ، وقضاء الحاجة وغير ذلك ، مما لو تركه المسلم لم يأثم على تركه .

ثم يترك معرفة الله ، وما يجب أن يعتقد ويثبت له تعالى ، وما يجب أن ينفى عنه مجهولا ، أو ملتبسا حقه بباطله .

إن من يترك التعصب ، ويتخلص من التقليد الأعمى ، وينظر بعقل وإنصاف فلا بد أن يقتنع بأن الذى قاله الرسول ﷺ وبلغه هو الحق .

ثم صحابة الرسول ﷺ الذين تلقوا العلم والإيمان منه لابد أن تكون هدايتهم أتم وأكمل ممن جاء بعدهم ، لا يخالف فى هذا إلا ضال أو مضلل تائه ، لا يعرف الإسلام .

ولم يأت عنهم ـــ رضوان الله عليهم ـــ كما لم يأت عن الرسول ﷺ ما يشير ، ولو إشارة إلى أن ظاهر النصوص التى فيها أوصاف الله ـــ تعالى ـــ أنه لا يجوز اعتقاد ما دلت عليه ظاهرا ، أو أنه ينبغى تأويلها .

قال الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلَام دِينًا ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ

---

(١) انظر سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٤ .

(٢) الآية ٣ من سورة المائدة .

يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] ، وقال : ﴿ ونَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِين ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[4] ، ولا يشك مسلم بأن الرسول ﷺ قد امتثل أمر ربه ، فبلغ البلاغ المبين ، حتى ترك أمته على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا لبس فيها ، ولا غموض .

وأعظم ذلك باب معرفة الله تعالى بأسمائه ، وصفاته .

وبهذا يتبين أن قول أهل التأويل باطل قطعا ، وأن الحق فيما قاله الله تعالى عن نفسه ، وما قاله رسوله ﷺ وأن ظاهر قول الله تعالى وقول رسوله حق وهدى .

ولكن يجب أن يفهم مراد الله تعالى فى خطابه لعباده ، ومراد رسوله ﷺ من غير تقصير ، ولا غلو .

وأن من الخذلان أن ينصرف العبد عما تعرف الله به إلى عباده ، من أسمائه وأوصافه ، ويعتقد أنها تدل على خلاف الحق ، وأن الحق والهدى فى كلام أهل الجدل ، والفلسفة ، الذين يعتمدون على آرائهم ، وعقولهم ، فيما يجب لله ، وما يمتنع عليه ، مع أنهم لم يجنوا من ذلك إلا الحيرة ، والشك ، فإذا حضرهم الموت ، أقروا على أنفسهم بأنهم لم يعلموا شيئا .

قال شيخ الإسلام : « بلغني بإسناد متصل ، عن بعض رؤوسهم ، وهو الخونجى .

---

(١) الآية ٤٤ من سورة النحل .
(٢) الآية ٨٩ من سورة النحل .
(٣) الآية ٦٤ من سورة النحل .
(٤) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

وهو عند كثير منهم ، غاية فى هذا الفن[1] ، أنه قال عند الموت : « أموت ، وما علمت شيئا إلا أن الممكن يفتقر إلى الواجب ، ثم قال : الافتقار ، وصف عدمى ، أموت وما علمت شيئا » .

قال : وذكر الثقة ، عن الآمدى أنه قال : « أمعنت النظر فى الكلام ، وما استفدت منه شيئا إلا ما عليه العوام » .

وقال الأصبهانى : للشيخ إبراهيم الجعبرى : بت البارحة أفكر إلى الصباح ، فى دليل على التوحيد سالم عن المعارض ، فما وجدته »[2] .

وحدثنى من قرأ على ابن واصل الحموى ، أنه قال : « أبيت بالليل ، وأستلقى على ظهرى ، وأضع الملحفة على وجهى ، وأبيت أقابل أدلة هؤلاء ، بأدلة هؤلاء ، وبالعكس ، وأصبح وما ترجح عندى شىء » كأنه يعنى أدلة المتكلمين والفلاسفة »[3] .

ولهذا وأمثاله قال الشافعى : « لئن يبتلى العبد بكل ذنب نهى الله عنه ما خلا الشرك بالله خير له من أن يبتلى بالكلام » .

بعض أقوال شراح الحديث :

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : « نسبة الإتيان إلى الله ، عبارة عن رؤيتهم إياه . وقيل : الإتيان فعل ، من أفعال الله[4] يجب الإيمان به مع تنزيه الله عن سمات الحدوث .

---

(١) يعنى فن الكلام الذى يسمونه التوحيد .

(٢) يعنى ما يسمونه بالأدلة العقلية ، وهى جهالات توصل إلى ظلمات الشك .

(٣) درء تعارض العقل والنقل جـ ٣ ص ٢٦٢ـــ٢٦٤ .

(٤) تقدم أن الفعل عند الأشاعرة المراد به المفعول المخلوق المنفصل عن الله تعالى .

وقيل : فيه حذف ، تقديره : يأتيهم بعض ملائكته ، ورجحه عياض ، ولعل هذا الملك ، جاءهم فى صورة أنكروها ، لما رأوا فيها من سمة الحدوث .

ويحتمل وجها رابعا : وهو أن المعنى : يأتيهم الله بصورة ــ أى بصفة ــ تظهر لهم ، من الصور المخلوقة ، التى لا تشبه صفة الإله ، ليختبرهم بذلك فإذا قال لهم هذا الملك : أنا ربكم ، رأوا عليه من علامة المخلوقين ما يعلمون به أنه ليس ربهم »[1] .

وقال الرازى : « الكلام على هذا الحديث من وجوه :

الأول : أن تكون فى بمعنى الباء ، والتقدير : فيأتيهم الله بصورة ، غير الصورة التى عرفوها فى الدنيا ، وذلك بأن يريهم ملكا من الملائكة ، ونظيره قول ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام ﴾ أى : بظلل من الغمام .

ثم إن تلك الصورة تقول أنا ربكم ، وكأن ذلك آخر محنة تقع للمكلفين فى دار الآخرة .

أما قولهم : « إذا جاء ربنا عرفناه » فيحمل على أن يكون المراد : فإذا جاء إحسان ربنا عرفناه .

وقوله : « فيأتيهم الله فى الصورة التى يعرفونها » فمعناه : فيأتيهم بالصورة التى يعرفون أنها من أمارات الإحسان .

الثانى : أن يكون المراد من الصورة ، الصفة ، والمعنى : أن يظهر لهم من بطش الله ، وشدة بأسه ما لم يألفوه ، ولم يعتادوه ، من معاملة الله تعالى معهم ، ثم يأتيهم بعد ذلك بأنواع الرحمة ، والكرامة على الوجه الذى اعتادوه

---

(١) الفتح جـ ١١ ص ٤٥٠ وانظر كلام النووى فى شرح مسلم جـ ٣ ص ١٩ فإنه متفق مع ما هنا .

وألفوه »[1] .

وقال الخطابى : « الذى يجب على كل مسلم أن يعلم أن ربنا ليس بذى صورة ، ولا هيئة ، فإن الصورة تقتضى الكيفية ، وهى عن الله ، وعن صفاته منفية ، وقد يتأول معناها على وجهين :

أحدهما : أن تكون الصورة بمعنى الصفة ، كقول القائل : صورة هذا الأمر كذا وكذا ، يريد صفته ، فوضع الصورة موضع الصفة .

والثانى : أن المذكور من المعبودات فى أول الحديث إنما هو صور وأجسام ، كالشمس والقمر ، والطواغيت ، ونحوها ، ثم لما عطف عليها ذكر الله ـــ سبحانه ـــ خرج الكلام فيه على نوع من المطابقة ، فقيل : يأتيهم الله فى صورة كذا »[2] .

وهذا كثير فى كلام أهل التأويل ممن يتصدى لشرح الحديث ، وغيرهم ممن يتكلم فى العقائد ، حتى لا تكاد تجد من تكلم على هذا الحديث بالصواب .

لهذا سأجعل الكلام على هذه الجملة من الحديث فى أربعة فصول :

الأول : فى ذكر ما تيسر من روايات الحديث .

الثانى : فى تعيين المراد من الحديث .

الثالث : فى تعيين المراد من الحديث .

الرابع : فى رد التأويل الباطل الذى يُؤول به الحديث ، كما ذكرت أمثلة منها .

---

(١) تأسيس التقديس ، ص ٨٨ ـــ ٨٩ .

(٢) نقلا من الأسماء والصفات للبيهقى ص ٢٩٦ .

فأما الفصل الأول : فحديث أبى هريرة هذا رواه البخارى فى الصلاة ، فى باب فضل السجود ، ولفظه : « وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا » إلخ[1] ورواه فى الرقاق ، ولفظه : « وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله فى غير الصورة التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا أتانا ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله فى الصورة التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا فيتبعونه » ورواه فى التوحيد : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب » إلخ وقد مضى ذكر لفظه .

وأخرجه مسلم ، ولفظه : « وتبقى هذه الأمة ، فيها منافقوها ، فيأتيهم الله ــ تبارك وتعالى ــ فى صورة غير صورته التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله ــ تعالى ــ فى صورته التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه » . إلخ[2] .

وذكر الدارقطنى له عدة ألفاظ بطرق عدة ، فى إحداها : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء الرب ــ عز وجل إلى المؤمنين ، فوقف عليهم والمؤمنون على كوم ــ قالوا لعقبة : وما الكوم ؟ قال : المكان المرتفع ، فيقول : هل تعرفون ربكم ؟ فيقولون : إن عرفنا نفسه عرفناه ، فيقول لهم الثانية : هل تعرفون ربكم ؟ فيقولون : إن عرفنا نفسه عرفناه ، قال : فيتجلى

---

(١) البخارى جـ ١ ص ١٣٣ من طريق الزهرى عن سعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد الليثى عن أبى هريرة .

(٢) صحيح مسلم جـ ١ ص ١١٣ .

لهم — عز وجل — فيضحك فى وجوههم فيخرون له سجدا »[1] . وذكر روايات كثيرة كلها تتفق مع لفظ البخارى ومسلم . وفى بعض رواياته : « فيأتيهم الله — عز وجل — فى غير صورته ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله — عز وجل — فى صورته التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون أنت ربنا » إلخ[2] .

ورواه البخارى ومسلم من حديث أبى سعيد الخدرى وسيأتى إن شاء الله تعالى ، ولفظ الشاهد منه : « فيأتيهم الجبار فى صورة غير صورته التى رأوه فيها أول مرة ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فلا يكلمه إلا الأنبياء » .

ورواه فى التفسير ، ولفظه : « حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله ، من بر وفاجر ، أتاهم رب العالمين فى أدنى صورة ، من التى رأوه فيها ، فيقول : ماذا تنتظرون » ولم يذكر بقيته[3] .

ورواه فى الرقاق ، وفى الإيمان مختصرا جدا .

ورواه مسلم مطولا ، « حدثنى سويد بن سعيد ، قال : حدثنى حفص ابن ميسرة عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ،عن أبى سعيد الخدرى : أن ناسا فى زمن رسول الله ﷺ قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : « نعم ، قال : هل تضارون فى رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحاب ؟ وهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحاب ؟ » قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « ما تضارون

---

(١) كتاب الرؤية ص ٦٤ رسالة دكتوراه من الجامعة الإسلامية .

(٢) المرجع المذكور ص ٩٩ .

(٣) البخارى مع الفتح جـ ٨ ص ٢٤٩ ، ٦٦٣ و جـ ١ ص ٧٢ و جـ ١١ ص ٤١٦ و ٤٤٦ .

فى رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما . إذا كان يوم القيامة ، أذن مؤذن ، ليتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه ، من الأصنام والأنصاب ، إلا يتساقطون فى النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله ، من بر وفاجر ، وغُبَّرٌ أهل الكتاب ،فيدعى اليهود ، فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟

قالوا : كنا نعبد عزيرا بن الله ، فيقال : كذبتم ، ما اتخذ اللهُ من صاحبة ولا ولد ، فماذا تبغون ؟ قالوا : عطشنا يا ربنا فاسقنا ، فيشار إليهم ألا تردون ؟ فيحشرون إلى النار ، كأنها سراب ، يحطم بعضها بعضا فيتساقطون فى النار .

ثم يدعى النصارى ، فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال لهم : كذبتم ، ما اتخذ الله من صاحبة ، ولا ولد ، فيقال لهم : ماذا تبغون ؟ فيقولون : عطشنا يا ربنا فاسقنا ، قال : فيشار إليهم ، ألا تردون ؟ فيحشرون إلى جهنم ، كأنها سراب يحطم بعضها بعضا ، فيتساقطون فى النار .

حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله ، من بر وفاجر ، أتاهم رب العالمين — سبحانه وتعالى — فى أدنى صورة من التى رأوه فيها ، قال : فماذا تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد .

قالوا : يا ربنا فارقنا الناس فى الدنيا أفقر ما كنا إليهم ، ولم نصاحبهم .

فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئا مرتين ، أو ثلاثا ، حتى إن بعضهم ليكاد ينقلب .

فيقول : هل بينكم وبينه آية ، فتعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ، ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة

واحدة ، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه .

ثم يرفعون رؤوسهم ، وقد تحول فى صورته التى رأوه فيها أول مرة ، فقال : أنا ربكم ، فيقولون أنت ربنا »[١] وذكر بقية الحديث .

ورواه ابن أبى عاصم فى السنة ، وفيه « فيبقى من كان يعبد الله من بر وفاجر ثم يتبدى الله لنا فى صورة غير صورته التى رأيناه فيها أول مرة ، فيقول : أيها الناس لحقت كل أمة ما كانت تعبد ، وبقيتم ، فلا يكلمه يومئذ إلا الأنبياء ، فارقنا الناس ونحن إلى صحبتهم أحوج ، لحقت كل أمة ما كانت تعبد ، ننتظر ربنا الذى كنا نعبد .

فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، فيقول : هل بينكم وبين الله آية تعرفونها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق ، فيخرون سجدا أجمعين ولا يبقى أحد كان يسجد فى الدنيا سمعة ، ولا رياء ، ولا نفاقا إلا على ظهره[٢] طبق كلما أراد أن يسجد خر على قفاه .

ثم يرفع برنا ومسيئنا ، وقد عاد لنا فى صورته التى رأيناه فيها أول مرة ، فيقول : أنا ربكم ، فنقول : نعم »[٣] .

وفيه مع رواية مسلم التصريح بأنهم قد سبق أن رأوه مرة قبل هذه .

وفى هذه المرة تنكر لهم فى غير صورته التى تبدى لهم بها قبلها ، وذلك للامتحان ولهذا قالوا : نعوذ بالله منك ، لا نشرك بالله شيئا ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيقول : هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، الساق ، فيكشف عن ساقه ، عند ذلك يعرفونه ، فيخرون

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٦٧ .

(٢) هكذا فى المطبوعة بتحقيق الألبانى ويظهر أنها محرفة من « إلا عاد ظهره طبقا » والمطبوعة كثيرة التحريف .

(٣) السنة لابن أبى عاصم جـ ١ ص ٢٨٥ .

له سجدا فإذا رفعوا رءوسهم من السجود إذا هو قد عاد فى صورته التى رأوه فيها أول مرة .

وهذا الحديث كما يقول ابن فورك : « يدخل فى باب المستفيض الذى تلقاه أهل العلم بالقبول ، ولم ينكره منهم منكر »[1] .

وقد جاء ذكر الصورة فى أحاديث أخرى ، ثابتة لا مطعن فيها ، كما فى الصحيحين من حديث أبى هريرة ، عن النبى ﷺ . قال : « خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعا ، فلما خلقه قال : اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة جلوس ، فاستمع ما يحيونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن »[2] .

وفيهما أيضا من حديث أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته »[3] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ : « إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته »[4] .

وقال أيضا : « حدثنا يحيى ، عن ابن عجلان ، عن سعيد ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه ، ولا تقل : قبح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك ، فإن الله تعالى

---

(١) مشكل الحديث ص ٤ .

(٢) البخارى جـ ٨ ص ٤٣ ومسلم جـ ٤ ص ٢١٨٣ وأحمد فى المسند جـ ٢ ص ٣١٥ .

(٣) البخارى كتاب العتق جـ ٣ ص ١٣١ وليس فيه ذكر الصورة ، ولفظه لمسلم جـ ٤ ص ٢٠١٧ .

(٤) المسند جـ ٢ ص ٢٤٤ وإسناده فى أعلى درجات الصحة .

خلق آدم على صورته »[1] وفى رواية الدارقطنى « فإن الله خلقه على صورته » .

حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، قال حدثنا المثنى بن سعيد ، وبهز ، قالا : حدثنا همام ، عن قتادة ، عن أبى أيوب ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « إذا قاتل أحدكم ، فليجتنب الوجه ، قال ابن مهدى : فإن الله تعالى خلق آدم على صورته »[2] .

قال : حدثنا سليمان بن سليمان بن داود ، أخبرنا المثنى ، عن قتادة ، عن أبى أيوب عن أبى هريرة ، أن النبى ﷺ قال : « إذا قاتل أحدكم فليتق الوجه فإن الله — عز وجل — خلق آدم على صورته »[3] .

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد : حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا يحيى بن سعيد عن ابن عجلان ، حدثنا سعيد ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه ، ولا يقول : قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك »[4] .

وقال أيضا : « كتب إلى قتيبة بن سعيد ، يذكر أن الليث حدثهم ، عن ابن عجلان ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، أن النبى ﷺ قال : « لا يقولن أحدكم : قبح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك ، فإن الله خلق آدم على صورته »[5] .

---

(١) المسند جـ ٢ ص ٢٥١ ، ٤٣٤ وسنده حسن ، ورواه ابن أبى عاصم فى السنة جـ ١ ص ٢٢٩ .

(٢) المسند جـ ٢ ص ٤٦٣ .

(٣) المسند جـ ٢ ص ٥١٩ .

(٤) السنة لعبد الله ابن الإمام أحمد ص ١٦١ .

(٥) السنة ص ١٦٩ .

وقال أيضا : حدثنى أبو معمر ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن حبيب ابن أبى ثابت ، عن عطاء ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقبحوا الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن »[1] .

وقال : حدثنى أبو بكر الصاغانى ، حدثنا أبو الأسود ، وهو النضر بن عبد الجبار ، حدثنا ابن لهيعة ، عن أبى يونس ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه ، فإن صورة الإنسان على وجه الرحمن »[2] .

وقال ابن أبى عاصم : « حدثنا محمد بن ثعلبة بن سواء ، حدثنى عمى محمد بن سواء عن سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، عن أبى رافع ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه ، فإن الله ـ تعالى ـ خلق آدم على صورة وجهه »[3] هذا إسناد صحيح ، وهو ظاهر فى إبطال قول من جعل الضمير فى قوله « على صورته » عائدا إلى آدم .

وقال : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن حبيب ابن أبى ثابت ، عن عطاء ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقبحوا الوجوه فإن ابن آدم خلق على صورة الرحمن »[4] .

هذا حديث صحيح صححه الأئمة ، الإمام أحمد ، وإسحاق بن راهويه ، وليس لمن ضعفه دليل إلا قول ابن خزيمة ، وقد خالفه من هو أجل منه .

---

(١) كتاب السنة ص ١٧٠ ورواه ابن خزيمة فى التوحيد وقد اشترط أنه لا يدخل فيه إلا حديثا صحيحا ورواه ابن أبى عاصم فى السنة وسيأتى والبيهقى فى الصفات ص ٢٩١ .

(٢) المرجع السابق ص ٢١٥ .

(٣) السنة جـ ١ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ وقول الألبانى : لكنى فى شك من ثبوت قوله « على صورة وجهه » لا وجه له ، وإن كان هو فى شك من ذلك فالحفاظ من أهل الحديث لم يشكوا فيه .

(٤) المرجع السابق ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

« قال شيخ الإسلام ـــ رحمه الله ـــ : « وأما تضعيف ابن خزيمة لحديث ابن عمر بأن الثورى أرسله ، فخالف فيه الأعمش ، وأن الأعمش وحبيبا مدلسان .

فيقال : قد صححه إسحاق بن راهويه ، وأحمد بن حنبل ، وهما أجل من ابن خزيمة باتفاق الناس .

وأيضا فمن المعلوم أن عطاء بن أبى رباح إذا أرسل هذا الحديث عن النبى ﷺ فلا بد أن يكون قد سمعه من أحد ، فإذا كان فى إحدى الطريقين قد بين أنه أخذه عن ابن عمر ، كان هذا بيانا وتفسيرا لما تركه وحذفه فى الطريق الأخرى ، ولم يكن هذا اختلافا أصلا »[1] ويأتى بقيته إن شاء الله .

وقال ابن أبى عاصم أيضا : « حدثنا عمر بن الخطاب ، حدثنا ابن أبى مريم ، حدثنا ابن لهيعة ، عن أبى يونس ـــ سليم بن جبير ـــ ، عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : « من قاتل فليجتنب الوجه ، فإن صورة وجه الإنسان على صورة وجه الرحمن »[2] وسنده أقل درجاته الحسن ، فابن لهيعة ، رمى بسوء الحفظ ، وهو فى هذا لم يخالف غيره من الثقات كما فى الذى قبله .

وقال الخلال : أخبرنا على بن حرب الطائى ، حدثنا زيد بن أبى الزرقاء ، عن ابن لهيعة ، عن أبى يونس ، والأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوحه ، فإن صورة الإنسان على صورة الرحمن عز وجل »[3] .

---

(١) نقض التأسيس جـ ٢ ص ٢٣٦ والجزء مكتوب عليه أنه الثالث وهو خطأ .
(٢) السنة لابن أبى عاصم جـ ١ ص ٢٣٠ .
(٣) نقض التأسيس جـ ٢ ص ٢٢٣ ورواه ابن أبى عاصم فى السنة جـ ١ ص ٢٣٠ والدارقطنى فى الصفات ص ٣٧ .

وروى الإمام أحمد ، والترمذى ، وابن خزيمة ، من حديث معاذ بن جبل قال : احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة ، عن صلاة الصبح ، حتى كدنا نترائى قرن الشمس ، فخرج رسول الله ﷺ سريعا ، فثوب بالصلاة ، فصلى ، وتجوز فيها ، فقال : « إنما حبسنى أنى رأيت ربى — عز وجل — فى أحسن صورة »[1] .

وأخرج الدارمى ، عن عبد الرحمن بن عائش ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رأيت ربى عز وجل فى أحسن صورة ، فقال : فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد ؟ قلت : أنت أعلم أى رب ، فوضع كفه بين كتفى فوجدت بردها بين ثدى ، فعلمت ما فى السماوات والأرض » وذكر بقيته مطولا[2] .

وأخرج الترمذى عن ابن عباس ، أن النبى ﷺ قال أتانى ربى فى أحسن صورة .

فقال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟

قلت : لا أدرى يارب . أعادها ثلاثا .

فرأيته وضع كفه بين كتفى ، حتى وجدت برد أنامله بين صدرى ، فتجلى لى كل شىء ، وعرفت .

---

(١) المسند جـ ٥ ص ٢٤٣ والترمذى فى تفسير سورة ص جـ ٥ ص ٣٦٩ رقم ٣٢٨٨ وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وسألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث ؟ فقال : هذا صحيح وقال : هذا أصح من حديث الوليد بن مسلم . ورواه الدارقطنى فى كتاب الرؤية وذكر له طرقا عدة ص ٣٨٥ — ٣٩٤ رسالة دكتوراه فى الجامعة الإسلامية .

(٢) ورواه الحاكم فى المستدرك جـ ١ ص ٥٢٠ وابن جرير فى التفسير وابن منده فى الرد على الجهمية ص ٩٠ ، والآجرى فى الشريعة ص ٤٩٧ والدارقطنى فى الرؤية ص ٣٩٥ — ٤١١ وذكر له طرقا متعددة .

فقال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : فى الكفارات »[1] إلى آخره وروى هذا الحديث عن جماعة من الصحابة ، منهم أنس ، وأبو أمامة ، وعمران بن حصين ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وثوبان مولى رسول الله ﷺ وغيرهم ، ذكر أحاديثهم الدارقطنى فى الرؤية وغيره .

---

(١) الترمذى وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . جـ ٥ ص ٤٥ رقم ٣٢٨٧ ، ورواه ابن أبى عاصم فى السنة جـ ١ ص ٢٠٤ ، والآجرى فى الشريعة ص ٤٩٦ ، والدارقطنى فى الرؤية وذكر له عدة طرق رقم ٢٤٤ ص ٤١١ رسالة دكتوراه فى الجامعة الإسلامية .

الفصل الثانى
فى معنى الصورة فى اللغة

« وهو شكل الشىء ، وحقيقته ، وهيئته » . وفى متن اللغة : « الصورة : الشكل ، والهيئة ، والحقيقة »[1] .

قال فى القاموس : « الصورة ، بالضم الشكل ، جمعها صور » .

وقال فى شرحه : « الصورة بالضم : الشكل ، والهيئة ، والحقيقة ، والصفة »[2] .

وقال الراغب : « الصورة ما ينتقش به الأعيان ، ويتميز بها عن غيرها ،

وذلك ضربان : أحدهما محسوس ، يدركه الخاصة والعامة ، بل يدركه الإنسان ، وكثير من الحيوان ، كصورة الإنسان ، والفرس والحمار بالمعاينة والرؤية .

والثانى معقول ، يدركه الخاصة دون العامة ، كالصورة التى اختص الإنسان بها ، من العقل والروية ، والمعانى التى خص بها ،

وإلى الصورتين أشار بقوله تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ ﴿ يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ فالصورة المراد بها ما خص الإنسان بها من الهيئة المدركة بالبصر ، والبصيرة ، وبها فضله على كثير من خلقه »[3] .

---

(١) متن اللغة جـ ٤ ص ٥١٤ .
(٢) تاج العروس جـ ٣ ص ٣٤٢ .
(٣) المفردات ص ٢٨٩ .

وقال ابن الأثير : « الصورة ترد فى كلام العرب على ظاهرها ، وعلى معنى حقيقة الشيء ، وهيئته ، وعلى معنى صفته »[1] .

وقال ابن فارس : « الصورة جمعها صور ، وهى هيئة خلقته »[2] وبهذا يتبين أن الصورة فى اللغة هيئة الشيء القائم بنفسه ، وشكله ، وكل موجود غير مفتقر لغيره يكون قائما بنفسه ، تصح رؤيته ومشاهدته يكون له صورة وحقيقة ، والله جل وعز أعظم موجود وأكبره ، وهو مستغن بنفسه عن غيره ، وهو القائم بنفسه والقائم على كل شيء بما يصلحه ، فهو تعالى حى قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ورؤيته تعالى جائزة فى العقل فى الدنيا ، لأن كليم الله موسى سألها ولا يسأل نبى الله إلا ما هو جائز ، وواقعة فى الآخرة للمؤمنين والمنافقين أيضا فى الموقف كما نطقت بذلك الأحاديث .

وأما فى الجنة فلا يراه إلا المؤمنون ، والمنافقون لا يدخلون الجنة .

قال شيخ الإسلام : « الصورة : هى الصورة الموجودة فى الخارج ، ولفظ « صَ وَ رَ » يدل على ذلك ، وما من موجود من الموجودات إلا له صورة فى الخارج ، وما يكون من الوقائع يشتمل على أمور كثيرة لها صورة موجودة فى الخارج ، ثم تلك الصورة الموجودة ترتسم فى النفس صورة ذهنية ، فمثلا صورة الواقعة ، أو صورة المسألة ، إما أن يراد بها الصورة الخارجية ، أو الصورة الذهنية »[3] .

وقد يقصد بالصورة الوجه ، كما فى المسند من حديث ابن عمر مرفوعا : « ونهى أن تضرب الصور . يعنى الوجه »[4] .

---

(١) النهاية جـ ٣ ص ٥٩ .
(٢) مقاييس اللغة جـ ٣ ص ٣٢٠ .
(٣) نقض التأسيس جـ ٣ ص ٢٤٥ .
(٤) المسند جـ ٢ ص ١١٨ .

وفيه أيضا عن ابن عمر أنه كان يكره العلم فى الصورة ، أو قال : « نهى رسول الله ﷺ عن ضرب الوجه »[1] .

وقال شيخ الإسلام أيضا : « لفظ الصورة فى الحديث كسائر ما ورد من الأسماء والصفات ، التى قد يسمى المخلوق بها ، على وجه التقييد ، وإذا أطلقت على الله اختصت به ، مثل العليم ، والقدير ، والرحيم ، والسميع ، والبصير ، ومثل خلقه بيديه ، واستواءه على العرش ، ونحو ذلك »[2] .

وقال أيضا : « وكما أنه لابد لكل موجود من صفات تقوم به ، فلا بد لكل قائم بنفسه من صورة يكون عليها ، ويمتنع أن يكون فى الوجود قائم بنفسه ليس له صورة يكون عليها »[3] .

وبهذا يتبين أن الصورة كالصفات الأخرى ، فأى صفة ثبتت لله تعالى بالوحى وجب إثباتها والإيمان بها .

---

(١) المسند جـ ٨ ص ١٨٩ رقم ٥٩٩١ تحقيق أحمد شاكر .
(٢) نقض التأسيس جـ ٣ ص ٣٩٦ .
(٣) نقض التأسيس جـ ٣ ص ٢٧٥ .

الفصل الثالث
فى المعنى المراد من حديث الصورة

إن من يتتبع روايات هذه الأحاديث يتبين له بوضوح المعنى المراد بها وقد تقدم ما فيه الكفاية من ذكر الروايات ، لمن كان قصده الحق .

قال ابن قتيبة : « الصورة ليست بأعجب من اليدين ، والأصابع ، والعين ، وإنما وقع الألف لتلك لمجيئها فى القرآن ، ووقعت الوحشة من هذه لأنها لم تأت فى القرآن ، ونحن نؤمن بالجميع ، ولا نقول فى شيء منه بكيفية ، ولا حد »[1] .

قال شيخ الإسلام : « وقد ذكر الخلال فى السنة ما ذكره إسحاق بن منصور الكوسج ، عن أحمد ، وإسحاق ، أنه قال لأحمد : لا تقبحوا الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته ، أليس تقول : بهذه الأحاديث ؟ قال أحمد : صحيح ، وقال إسحاق : صحيح .

وذكر عن يعقوب بن بختان ، أن أبا عبد الله ، أحمد بن حنبل ، سئل عن حديث النبى ﷺ : « خلق الله آدم على صورته ؟ قال : الأعمش يقول : عن حبيب بن أبى ثابت ، عن عطاء ، عن ابن عمر »[2] .

وقد رواه أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ « على صورته » . فنقول كما جاء الحديث .

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٢٢١ .

(٢) يعنى حديثه : « فإن آدم خلق على صورة الرحمن » . فأحمد يشير بذلك إلى أن الواجب القول بظاهر الحديث ، لأنه ظاهر مراد المتكلم به ، وقوله : صحيح يعنى أن الحديث صحيح فيجب اعتقاد مادل عليه ، والقول بموجبه ، وفى ذلك رد لقول ابن خزيمة ومن قلده ، وسيأتى ذلك .

قال : وسمعت أبا عبد الله ، يقول : لقد سمعت الحميدى بحضرة سفيان ابن عيينة ، وذكر هذا الحديث : « خلق الله آدم على صورته » ، فقال : من لا يقول بهذا الحديث ، فهو كذا وكذا ــ يعنى من الشتم ، وسفيان ساكت ، لا يرد عليه شيئا .

قال المروزى : أظن أنى ذكرت لأبى عبد الله ، عن بعض المحدثين بالبصرة أنه قال : قول النبى ﷺ : « خلق الله آدم على صورته » . قال : صورة الطين ، قال : هذا جهمى ، وقال نسلم للخبر كما جاء .

وروى الخلال ، عن أبى طالب ، من وجهين ، قال : سمعت أبا عبد الله ــ يعنى أحمد بن حنبل يقول : من قال : إن الله خلق آدم على صورة آدم فهو جهمى . وأى صورة كانت لآدم قبل أن يخلقه .

قال الخلال : أخبرنى حرب بن إسماعيل الكرمانى ، قال : سمعت إسحاق ــ يعنى أحمد بن حنبل ــ يقول : من قال : إن الله خلق آدم على صورة آدم

قال إسحاق : حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن عطاء عن ابن عمر ، عن رسول الله ﷺ قال : « لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن » .

فقد صحح إسحاق حديث ابن عمر مسندًا ، خلاف ما قاله ابن خزيمة .

وقال الخلال : أخبرنا على بن حرب الطائى ، حدثنا يزيد بن أبى الزرقاء ، عن ابن لهيعة ، عن أبى يونس ، والأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه ، فإن صورة الإنسان على صورة الرحمن عز وجل »[1] .

---

(١) نقض التأسيس المخطوط جـ ٣ ص ٢٢٣ .

وقال الحافظ : « الأكثر على أن الضمير يعود على المضروب ، لما تقدم من الأمر بإكرام وجهه ، ولولا أن المراد التعليل بذلك لم يكن لهذه الجملة ارتباط بما قبلها » .

وقال القرطبى : أعاد بعضهم الضمير على الله متمسكا بما ورد فى بعض طرقه « إن الله خلق آدم على صورة الرحمن » ، قال : وكأن من رواه أورده بالمعنى ، متمسكا بما توهمه ، فغلط .

وقد أنكر المازرى ، ومن تبعه صحة هذه الزيادة .

ثم قال : وعلى تقدير صحتها فيحمل على ما يليق بالبارى سبحانه وتعالى .

قلت : الزيادة أخرجها ابن أبى عاصم فى السنة ، والطبرانى من حديث ابن عمر بإسناد رجاله ثقات ، وأخرجها ابن أبى عاصم أيضا من طريق أبى يونس ، عن أبى هريرة ، بلفظ يرد التأويل الأول[١] ولفظه : « من قاتل فليجتنب الوجه ، فإن صورة وجه الإنسان ، على صورة وجه الرحمن » .

فتعين إجراء ما فى ذلك على ما تقرر بين أهل السنة ، من إمراره كما جاء من غير اعتقاد تشبيه[٢] أو من تأويله على ما يليق بالرحمن[٣] جل جلاله . وزعم بعضهم أن الضمير يعود على آدم[٤] أى على صفته أى خلقه موصوفا بالعلم الذى فضل به على الحيوان ، وهذا محتمل .

وقال حرب فى كتاب السنة : « سمعت إسحاق بن راهويه يقول : صح أن الله خلق آدم على صورة الرحمن » .

---

(١) وهو كون الضمير يعود إلى المضروب .

(٢) مذهب السلف اعتقاد ما دلت عليه النصوص بلا تفويض ولا تشبيه ولا تأويل .

(٣) التأويل باطل وهو مذهب المتأخرين من الأشاعرة والماتريدية ونحوهم .

(٤) سيأتى إبطال ذلك إن شاء الله .

وقال إسحاق الكوسج : سمعت أحمد يقول : هو حديث صحيح .

وقال الطبرانى : فى كتاب السنة : حدثنا عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل قال : قال رجل لأبى : إن رجلا قال : خلق الله آدم على صورته أى صورة الرجل ، فقال : كذب هو قول الجهمية »[1] .

---

(١) الفتح جـ ٥ ص ١٨٣ .

الفصل الرابع
فى بيان بطلان قول أهل التأويل الفاسد

فمن ذلك ما ذكره الحافظ ابن حجر ــ رحمه الله ــ فى تأويل إتيان الله ــ تعالى ــ بأنه رؤيتهم إياه ، أو أنه مجاز حذف ، تقديره : « يأتيهم بعض ملائكة الله ، أو أن يأتيهم بصورة من الصور المخلوقة » إلى آخر ما ذكر .

والجواب أن هذه التأويلات مخالفة لكتاب الله تعالى ، ولأحاديث رسول الله ﷺ مخالفة صريحة ، بحيث يجوز أن نقول : إنها تكذيب لكلام الله وكلام رسوله ، ورد له ، وفتح لباب الزندقة والكفر .

لأن النصوص فى ذلك جلية واضحة ، فإذا صح تأويلها بما ذكر ، أمكن كل مبطل أن يؤول ما شاء من التأويل .

قال الله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ ﴾[2] .

فبين تعالى أن إتيانه غير إتيان الملائكة ، وغير إتيان الآيات .

وقال جل وعلا : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[3] .

---

(١) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١٥٨ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٢٢ من سورة الفجر .

وغير ذلك من الآيات ، وأما الأحاديث ، فكثيرة جدا ، وسيأتى ذكر بعضها إن شاء الله تعالى .

فالحق الذى دلت عليه نصوص الوحى أن لله ــ تعالى ــ أفعالا اختيارية يفعلها بمشيئته ، كالاستواء ، والنزول ، والمجىء ، والخلق ، والرزق ، ونحو ذلك .

قال ابن كثير : قوله تعالى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَائِكَةُ ﴾ . يعنى يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين ، فيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾[1] .

وقال ابن جرير : « والأولى بالصواب من وجه قوله : ﴿ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ أنه من صلة فعل الله ــ تعالى ــ وأن معناه : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام ، وتأتيهم الملائكة » لما حدثنا به محمد بن حميد ، قال حدثنا إبراهيم بن المختار ، عن ابن جريج ، عن زمعة بن صالح ، عن سلمة بن وهرام ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن النبى ﷺ قال : « إن من الغمام طاقات يأتى الله فيها محفوفا » ، وذلك قوله : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَائِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾[2] .

ثم ذكر حديث الصور الطويل ، المشهور ، وفيه : « فيقول الله لى : يا محمد . فأقول : نعم ، وهو أعلم ، فيقول : ما شأنك ؟ فأقول : يا رب وعدتنى الشفاعة ، فشفعنى فى خلقك ، فاقض بينهم ، فيقول : قد شفعتك ، أنا آتيكم فأقضى بينكم ..... فبينا نحن وقوف سمعنا حسا من السماء شديدا ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٤٨ .
(٢) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .

فهالنا فنزل أهل السماء الدنيا ، بمثلى من فى الأرض من الجن والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض ، أشرقت الأرض بنورهم ، وأخذوا مصافهم ، فقلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ قالوا : لا وهو آت .

ثم ذكر مثل ذلك فى كل سماء ، ثم قال : « حتى نزل الجبار فى ظلل من الغمام ، والملائكة ، ولهم زجل من تسبيحهم ، يقولون : سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان رب العرش ذى الجبروت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت ، سبوح قدوس ، رب الملائكة والروح ، قدوس ، قدوس ، سبحان ربنا الأعلى ، سبحان ذى السلطان والعظمة ، سبحانه أبدا أبدا ، فينزل تبارك وتعالى ، يحمل عرشه يومئذ ثمانية »[1] .

وهذا صريح فى أن إتيان الله تعالى على ظاهره ، يأتى إلى الأرض ، يفصل بين عباده ، ويتولى حسابهم بنفسه ــ تعالى ــ ، وكل واحد منهم سوف يخاطبه ، كما سيأتى فى حديث عدى بن حاتم .

وهذا الحديث الذى استشهد به الإمام الطبرى وإن كان سنده ضعيفا إلا أن هذا القدر منه قد دلت عليه النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة ، فوجب قبوله ، والإيمان به .

والله عز وجل ليس كمثله شىء لا فى ذاته ، ولا فى أوصافه ، ولا فى أفعاله فمجىء الله ــ تعالى ــ ونزوله ، وعلوه ، واستواؤه خاص به ، على ما يليق بعظمته .

« والمجىء والإتيان ، والصعود والنزول توصف به روح الإنسان التى تفارقه بالموت ، وتوصف به الملائكة ، وليس نزول الروح وصعودها من جنس نزول

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١ ص ١٩١ طبعة بولاق الأولى .

البدن وصعوده ، فإن روح المؤمن تصعد إلى فوق السماوات ، ثم تهبط إلى الأرض فيما بين قبضها ووضع الميت فى قبره .

وهذا زمن يسير لا يمكن صعود البدن ، ثم نزوله فى مثله .

وكذلك صعودها فى النوم ، وذهابها إلى أماكن نائية ، ثم عودها إلى البدن فى اليقظة ، لا يمكن للبدن مثل ذلك .

فإذا كانت الروح تعرج إلى السماء فى هذا الوقت القصير ، فهذا يدل على أن عروجها ،ومجيئها ليس من جنس عروج البدن ومجيئه ، ومثل ذلك يقال فى الملائكة .

فمجىء الرب تعالى ، وصعوده ، واستواؤه . فوق ذلك كله وأجل منه وأعظم ، فإنه تعالى أبعد عن مماثلة كل مخلوق ، من مماثلة مخلوق لمخلوق كالروح والبدن مثلا »(١) .

وقوله : « نسبة الإتيان إلى الله عبارة عن رؤيتهم إياه » .

فنقول : هذا من التحريف الجلى ، فالناس كلهم يفرقون بين الإتيان والرؤية ، فإن الإتيان المذكور فى الحديث فعل لله تعالى يفعله إذا شاء ، وأما الرؤية فهى تقع من الخلق .

وقد ذكرت فى أول الحديث فى قوله : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » وذلك بعد مجيئه تعالى إليهم فى الموقف ، وقوله لأهل ذلك الموقف : « ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون ، فتمثل لهم معبوداتهم ، ثم يتبعونها إلى النار » .

فهذا التأويل بطلانه ظاهر ، وهو أشبه باللعب فى كلام رسول الله ﷺ ،

---

(١) شرح حديث النزول ص ٧٥ ، ٩٢ ، ٩٣ بتلخيص وتصرف .

بل هو تحريف كتحريف الباطنية والفلاسفة وأهل الزندقة .

وأما قوله : « وقيل الإتيان فعل من أفعال الله يجب الإيمان به مع تنزيه الله عن سمات الحدوث » . فيقال : لو أن الحافظ رحمه الله اقتصر على هذا القول الذى ذكره بصيغة التمريض ، لكان أولى له وأعذر عند الله — تعالى — وعند عباده المؤمنين ، لأنه لا يخالف لفظ الحديث ، وإن كان الفعل عند الأشعرية يقصد به المفعول ، كما تقدم .

وأما قوله : « وقيل فيه حذف ، تقديره : يأتيهم بعض ملائكة الله ، ورجحه عياض » فيقال : بطلان هذا أظهر مما تقدم .

وكل من قبل ما جاء به الرسول ﷺ وسلم له منقادا فإنه يعلم يقينا بطلان هذا القول ، بل هذا يعلمه كل عاقل يتصور ما يقول .

ونحن نسأل أصحاب هذا القول الذى رجحه عياض : هل يجوز للمَلَك الذى يأتيهم — كما زعموا — أن يقول لأهل ذلك الموقف : أنا ربكم وقد قال الله — تعالى — عن الملائكة أجمعين : ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَـٰهٌ مِن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّـٰلِمِينَ ﴾[1] .

والله — تعالى — لا يأمره بذلك ، لأن الله لا يأمر بالفحشاء والمنكر ، فإن هذا شرك وكفر ، والله — تعالى — لا يأمر به .

ومثل هذا ، التأويل الرابع ، الذى جعله محتملا له ، وهو قولهم : إن الله — تعالى — يأتيهم بصورة مخلوقة ، تقول لهم : أنا ربكم » فهذا كلام سخيف مضحك ، وشر البلية ما أضحك .

فلولا أنه مسطور فى الكتب المتداولة بين طلبة العلم لنزهت كتابى عن ذكره

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الأنبياء .

فإن مثله يجب أن تنزه عنه كتب العلم ، لأنه منكر من القول وزور ، وهو أقرب إلى السخرية والتهكم بكلام رسول الله ﷺ من كونه يحتمله ، ولا يشك من يعرف معانى الكلام أن هذا تحريف لكلام رسول الله ﷺ ، وتعطيل لله تعالى عن الإتيان ، والصعود والاستواء ، أو فعل ما يريد من ذلك .

ولكن هؤلاء المحرفون يجهدون أنفسهم ويبذلون وسعهم فى تحريف كلام الله وكلام رسوله ، وصد الناس عن قبوله على ظاهره ، ثم يغلبون وتكون جهودهم عليهم حسرة ، وسوف يندمون عند ظهور الحقائق .

قال شيخ الإسلام ـــ رحمه الله تعالى ـــ :

« وأما أهل التحريف والتأويل ، فهم الذين يقولون : إن الأنبياء لم يقصدوا بهذه الأقوال ما هو الحق فى نفس الأمر ، وأن الحق فى نفس الأمر هو ما علمناه بعقولنا .

ثم يجتهدون فى تأويل هذه الأقوال إلى ما يوافق رأيهم بأنواع التأويلات ، التى يحتاج فيها إلى إخراج اللغات عن طريقتها المعروفة وإلى الاستعانة بغرائب المجازات ، والاستعارات .

وهم فى أكثر ما يتأولونه قد يعلم عقلاؤهم علما يقينا أن الأنبياء لم يريدوا بقولهم ما حملوه عليه .

وهؤلاء كثيرا ما يجعلون التأويل من باب دفع المعارض ، فيقصدون حمل اللفظ على ما يمكن أن يريده متكلم ، لا يقصدون طلب مراد المتكلم به ، وحمله على ما يناسب حاله .

وكل تأويل لا يقصد به صاحبه بيان مراد المتكلم ، وتفسير كلامه بما يعرف به مراده ، وعلى الوجه الذى يعرف مراده ، فصاحبه كاذب على من تأول كلامه .

ولهذا كان أكثرهم لا يجزمون بالتأويل ، بل يقولون : يجوز أن يراد كذا ، وغاية ما معهم إمكان احتمال اللفظ .

فهذه طريق خلق كثير من المتكلمين ، وغيرهم »[1] .

ومن تأمل هذه الأحاديث التى تقدم ذكر بعضها ، وتفهم سياقها ، وما دلت عليه من المعانى ، وما اتفقت عليه من الأخبار بأن الله يأمر كل من عبد غيره أن يتبعه ، بعدما يمثل له ذلك المعبود ، وأنه لا يبقى فى الموقف إلا من يعبد الله وحده ، من بر وفاجر ، فيأتيهم الله فى صورة لا يعرفونه فيها ، امتحانا ، فيثبتهم ، ثم يتجلى لهم فى الصورة التى رأوه فيها أول مرة ، وذلك بعد أن كشف لهم عن ساقه فسجدوا له ، هل يصح عند عاقل أنهم يسجدون لصورة مخلوقة ؟ .

فمن تأمل ذلك علم قطعا أن الذى يأتيهم هو رب العالمين ، وليس ملك ، ولا شىء آخر مما ذكره المحرفون ، وعلم قطعا بطلان تأويلهم .

وأما قوله : « يحتمل أن المعنى : يأتيهم الله بصورة ، تظهر لهم من الصور المخلوقة » ، فهذا الاحتمال هو ما ذكره الرازى فى تأسيسه ، وقد تكفل شيخ الإسلام بدحض باطله . قال ــ رحمه الله ــ :

« الوجه الثانى : أن قوله تكون « فى » بمعنى الباء ، والتقدير : فيأتيهم الله بصورة ، غير الصورة التى عرفوها فى الدنيا » إلى آخره .

يقال : أولا هذا تبديل للغة ، وقلب [لها] ، فإن الباء فى مثل قولك جئت بكذا تكون لتعدية الفعل ، فالمجرور بالباء فى مثل هذا اللفظ يدل دلالة صريحة على أنه أوقع الفعل من غيره ، فهو جعل غيره آتيا ، كقوله تعالى : ﴿ عَسَى

---

(١) درء تعارض العقل والنقل جـ ١ ص ١٢ .

ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾[1] .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ ﴾[2] .

وقوله :﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ ﴾[3] فليس فى هذا النظم إشعار بأن المأتى به ظرف للفاعل ، ولا أنه فوقه ، أو فى جوفه ، أو غير ذلك من المعانى التى يدل عليها لفظ « فى » ، ولذلك لا تصلح أن توضع « فى » موضع الباء فى هذا الاستعمال ، فلا تقول : « عسى الله أن يأتينى فيهم » « إنما يأتيكم فيه الله » .

وأما قوله : ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ ﴾ ، فإذا كان هو الذاهب بالجنود ، فإنه يصح أن يقول « فلنأتينهم فى جنود » ، وإلا لم يصح ، وهذا من المشهور فى اللغة يعرفه عامة علماء اللغة .

فلذلك صار هذا التأويل تحريفا لكلام الله ، وكلام رسوله ، فإن قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾[4] ، لا يصلح أن يراد به أنه يرسل ذلك ، ولا يأتى هو .

ثم قال : « الوجه الثالث : أن قوله : « فيأتى الله فى صورته التى يعرفون » وقوله : « فيأتيهم الله فى صورة غير صورته »

وقوله : « أتاهم رب العالمين فى أدنى صورة من التى رأوه فيها أول مرة » .

وقوله : « فى صورة ، غير صورته التى رأوه فيها أول مرة » ، ونحو ذلك

---

(١) الآية ٨٣ من سورة يوسف عليه السلام .

(٢) الآية ٣٣ من سورة هود عليه السلام .

(٣) الآية ٣٧ من سورة النمل .

(٤) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .

لو احتمل أن يكون بمعنى : فيأتيهم بصورة ، فإن لفظ الصورة المضاف إلى شيء هو من باب الإضافة النفسية ، لا الخلقية ، فإن الإضافة تكون فيما هو قائم بنفسه ، كما فى قوله « ناقة الله » و « بيت الله » و « أرض الله » ونحو ذلك مما فيه دلالة على أنه منفصل عن المضاف إليه ، وأما الصفات ، مثل العلم ، والقدرة ، ونحو ذلك ، فإذا أضيف كانت إضافته إضافة نفسية ، إذا لم يتبين خلاف ذلك .

والصورة صفة قائمة بذى الصورة ، فليست من الأعيان المنفصلة عن المضاف إليه ، حتى تجعل بمعنى الملك ، فلا يمكن أن تكون صورة الله التى يأتى فيها مخلوقا منفصلا عنه .

الوجه الرابع : أنه قال : « فيأتيهم الله فى صورة غير صورته ، التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا » ، وفى لفظ : « أتاهم الله فى أدنى صورة من التى رأوه فيها أول مرة ، فيقول : أنا ربكم » .

ومعلوم أن أحدا من الملائكة لا يقول للخلق أنا ربكم ، بل لا يدعى هذه الدعوى إلا كافر بالله كفرعون ، والدجال ، والشيطان .

بل الملائكة عباد مطيعون لله تعالى ، لا يدعون الربوبية ، ولا الإلهيَّة كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾(١) .

ولا يأمر الله أحدا من الخلق أن يقول لجميع العباد : أنا ربكم ، فإنه تعالى لا يأمر بالشرك .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الأنبياء .

ومن زعم أن الله يأمر بهذا ، فهو مفتر على الله .

وإن كان الملك يقوله امتحانا ، فهذا لا يصلح ، كما لا يصلح أن يقول أحد من الأنبياء ، والمرسلين للناس : أنا ربكم ، على سبيل الامتحان .

ولسنا ننكر الامتحان فى القيامة ، فإن المحنة لا تنقطع إلا بدخول دار الجزاء ، الجنة أو النار ، ولكن المحنة من الملائكة أن يقول للعبد من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ .

الوجه الخامس : أنه لو كان الممتحن لهم فى ذلك الموقف ، ملكا من الملائكة لقال لهم : من ربكم ؟ ومن تعبدون ؟ ويقال لهم : هلا تذهبون مع ربكم إذ من الممكن أن يظهر لهم صورة ، ويقول لهم الملك : هلا تذهبون مع هذه الصورة ، كما أنه فى أول الحديث قال : وأذن مؤذن : لتتبع كل أمة ما كانت تعبد .

فلو كان المخاطب لهم عن الله تعالى ــ لقال ما يصلح له ، كما فى نظائر ذلك ، ولكن من شأن الجهمية أنهم يجعلون المخاطب للعباد ــ بدعوى الربوبية غير الله ، كما قالوا : إن الخطاب الذى سمعه موسى ، بقوله : ﴿ إِنِّى أَنَاْ رَبُّكَ ﴾[1] كان قائما بمخلوق ، كالشجرة ، وكما قالوا : فى قوله : « من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى ؟ فأغفر له »[2] . إنه يقول : هذا : ملك من الملائكة .

وهذا كله من الكفر والإلحاد ، وكما يزعم الرازى فى قوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[3] أن ربه ملك من الملائكة .

---

(١) الآية ١٢ من سورة طه .

(٢) الحديث سيأتى .

(٣) الآية من سورة الفجر رقم ٢٢ .

الوجه السادس : أنه قال : « فيأتيهم الله فى صورة ، غير صورته التى رأوه فيها أول مرة »[1] ، وهذا نص فى أنهم رأوا الله قبل هذا الخطاب فى صورة غير الصورة [التى ظهر لهم فيها ، حال الخطاب] ، فلو كان المخاطب لهم ملكا لكان المرئ قبل ذلك هو الملك ، لا الله ، والحديث نص فى أنهم رأوا الله قبل هذه المرة .

الوجه السابع : أنه قال : « فيأتيهم الله فى صورة غير صورته ، التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه »[2] .

وفى الحديث الآخر : « إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله ، من بر وفاجر ، أتاهم الله ، فى أدنى صورة ، من التى رأوه فيها »[3] .

وفى رواية : « إنا سمعنا مناديا ينادى : ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون ، وإنما ننتظر ربنا ، فيأتيهم الجبار ، فى صورة ، غير صورته ، التى رأوه فيها أول مرة »[4] .

وفى رواية : « أتاهم رب العالمين ، فى أدنى صورة ، من التى رأوه فيها » فيقال : ماذا تنتظرون ؟ فيقولون : فارقنا الناس أفقر ما كنا إليهم ، ولم نصاحبهم ، ونحن ننتظر ربنا ، الذى كنا نعبد ، فيقول : أنا ربكم ؟ فيقولون : لا نشرك بالله شيئا ، مرتين ، أو ثلاثا ، فيقول : هل بينكم وبينه آية ، فتعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساقه ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه ، إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد

---

(١) سيأتى ذلك فى حديث أبى سعيد .

(٢) سيأتى ذلك فى حديث أبى سعيد .

(٣) تقدم ذلك فى حديث أبى هريرة وهى متفق عليها .

(٤) فى حديث أبى سعيد وهو متفق عليه .

اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ، ثم يرفعون رؤسهم وقد تحول فى الصورة التى رأوه فيها أول مرة ، فقال : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا »[1] .

وهذا صريح بأن الذى أتاهم ، وقال : أنا ربكم ، هو الذى أراهم العلامة حتى عرفوه فسجدوا له ، بعد ذلك ، وعرفوا أنه رب العالمين ، ولو كان القائل : أنا ربكم ملكا ، لكان الملك هو الذى اعترفوا آخرا أنه رب العالمين وهو الذى سجدوا له ، وهذا من أعظم الكفر والضلال .

الوجه الثامن : أن قوله : « فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم فى الصورة التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا » وأنه يبدى العلامة التى ذكرها ، فيسجدون له ، صريح بأن الذى يسجدون له ، قد جاء فى الصورة التى يعرفون ، ويتجلى لهم فى الصورة التى رأوه فيها أول مرة ، وذلك صريح بأن الله هو الآتى ، فى الصورة التى عرفوه فيها ويسجدون له لما عرفوه[1] .

وقولهم : « يحتمل أن يكون المراد ، إذا جاء إحسان ربنا عرفناه » ، وقوله : « فيأتيهم الله فى الصورة التى يعرفون » ، معناه : بالصورة التى يعرفون أنها من أمارات الإحسان .

فيقال : هذا باطل ، فإن معرفة آياته تكون فى الإحسان ، والعقاب ، فى الدنيا ، والآخرة ، والله تعالى هو الخالق لكل شيء كما قال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[2] .

وقال : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[3] .

---

(١) نقض التأسيس جـ ٣ ص ٢٢٣ ـــ وكل هذه الروايات التى ذكرها فى الصحيحين .
(٢) الآية ٩٣ من سورة النمل .
(٣) الآية ٥٣ من سورة فصلت .

فمعرفة الله بآياته ليست موقوفة على الإحسان ، فبطلان هذه الدعوى واضح ، كما أن الأوجه التى ذكرها شيخ الإسلام كلها تبطل هذا الزعم .

ومما يبطله أيضا ما ذكر فى الأحاديث ، أنه إذا قال لهم أولا : أنا ربكم يقولون : لا نشرك بالله شيئا ، أو نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء عرفناه ، فيقول : هل بينكم وبينه آية ، فتعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق ، فلا يبقى ممن كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود » إلى آخره .

وقد قال أهل التأويل الباطل : إن المراد بقوله : « فيكشف عن ساق » الشدة ، كما يقال كشفت الحرب عن ساق .

كما قالوا فى قوله : « فيأتيهم فى الصورة التى يعرفون » إنها أمارات الإحسان » وهذا تناقض ، حيث جعلوا ما تتوقف معرفته عليه — مرة — الإحسان ، ومرة أخرى هو الشدة والعذاب .

ومما يبطل قولهم أيضا ما فى حديث جابر : « ثم يأتينا ربنا ، فيقول : أنا ربكم فيقولـون : حتى ننظر إليك ، فيتجلى لهم يضحك ، قال : فينطلق بهم ويتبعونه »[1] ، وهذا صريح أن الذى أتاهم ، والذى تجلى لهم هو ربهم تعالى وأنهم عرفوه لما تجلى لهم يضحك .

ثم إن جميع ألفاظ الحديث صريحة فى أن الذى يأتى ، وجاء إليهم ، وقال : أنا ربكم ، ورأوه ، هو الذى سجدوا له ، فاقتضى ذلك أن يكون المتجلى لهم ، المسجود له هو الذى جاءهم فى الصورة ، وتكرر ذلك ، فلا يجوز أن يكون ذلك ملكا ، أو بعض النعم المخلوقة ، أو شدة أو غير ذلك مما زعمه المبطلون .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه جـ ١ ص ١٧٧ رقم ٣١٦ ورواه الإمام أحمد انظر المسند جـ ٣ ص ٣٤٥ .

ولهذا كان الإمام أحمد يحتج على إثبات الرؤية بالمجيء والإتيان ، كما ذكر الخلال في السنة ، عن أبي طالب ، قال : وقول الله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَائِكَةُ ﴾ ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ فمن قال : إن الله لا يرى فقد كفر » .

فبين أن هذه الآيات تدل على أنه يأتي ، ويجيء ، وذلك يقتضي الرؤية كما صرحت به الأحاديث المفسرة لكتاب الله تعالى .

ومما يبين فساد قول المؤولين : أن في حديث ابن مسعود فرقا بين إتيان الرب نفسه ، وإتيان سائر المعبودات ، وذلك يفسر ما ورد في بقية الأحاديث فإنه قال :

(ثم ينادي مناد يا أيها الناس ألا ترضون من ربكم الذي خلقكم ورزقكم ، وأمركم أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئًا أن يولي كل إنسان منكم ما كان يتولاه ، ويعبده في الدنيا ، أليس ذلك عدلًا من ربكم ؟ قالوا : بلى . قال : فينطلق كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ، ويتولون في الدنيا قال : فينطلقون ويمثل لهم أشباه ما كانوا يعبدون .

فمنهم من ينطلق إلى الشمس ، ومنهم من ينطلق إلى القمر ، وإلى الأوثان من الحجارة ، وأشباه ما كانوا يعبدون قال : ويتمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى ، ويتمثل لمن كان يعبد عزيرًا شيطان عزير .

قال : فيتمثل لهم الرب فيأتيهم فيقول : ما لكم لا تنطلقون كما انطلق الناس ؟ فيقولون : إن لنا إلهًا ما رأيناه بعد ، فيقول : وهل تعرفونه إن رأيتموه ؟ فيقولون : نعم ، بيننا وبينه علامة إذا رأيناها عرفناه ، فيقول ما هي ؟ قال : فيقولون : يكشف عن ساقه ، قال : فعند ذلك يكشف عن ساقه

قال : فيخر من كان يسجد له طوعًا ويبقى قوم ظهورهم كأنها صياصى البقر)[1] .

فلما ذكر تلك المعبودات ، ذكر أنه يمثل أشباهها ، وأن المعبود من الأنبياء تأتى شياطينهم لأنهم قد اتبعوها فى الدنيا وعبدوها ، وذكر أن الرب تعالى لما امتحن العباد هو الذى يتمثل لهم وهو الذى أظهر لهم العلامة التى عرفوه بها حتى سجدوا .

فلو كان الآتى هو ملك من ملائكة الله ، أو شىء من مخلوقاته ، لكان بيان هذا أولى من بيان أن أولئك إنما جاءت أشباههم ، إذْ فى هذا من المحذور ما ليس فى ذلك ، بل هذا التفريق بين هذا وهذا دليل واضح على أن الذى أتاهم هو رب العالمين ، الذى تمثل لهم فى الصورة والذى اتبعه المشركون هو أشباه المعبودات ، وشياطين الأنبياء .

ومما يبين ذلك ما أخبر به أنه بعد إتيانه إياهم فى الصورة التى يعرفون ، وإظهار الآية التى عرفوه بها ، وسجود المؤمنين له دون المنافقين أنهم اتبعوه حتى مروا على الصراط كما بين ذلك فى حديث أبى هريرة وأبى سعيد وجابر وابن مسعود ، فلو كان الذى جاء فى هذه المرة الثانية هو بعض النعم كما زعم المحرفون لكانوا قد اتبعوا تلك النعمة المخلوقة وليس الرب الذى عبدوه ، وهو خلاف نصوص الأحاديث وخلاف العدل الذى أخبر به الحديث ، وذلك أن العبادة مستلزمة كمال المحبة للمعبود ، وكمال التعظيم له ، فإن المعبود هو الذى يقصد ويحب لذاته ، والمرء مع من أحب ، وهذا حقيقة العدل أن يكون الإنسان مع المحبوب الذى يحبه محبة كاملة بحيث يحبه لذاته .

---

(١) رواه عبد الله بن الإمام أحمد فى السنة جـ ٢ ص ٥٢١ فقرة ١٢٠٣ ، ورواه الدارقطنى فى كتاب الرؤية انظر ص ٢٩٧ رسالة دكتوراه من الجامعة الإسلامية .

وإذا كان كذلك فيمتنع أن يكون المؤمنون متبعين لغير الله ، والذى جاءهم هو الذى اتبعوه ، وهو الله ، وهو الذى جاءهم فى الصورة التى عرفوه فيها .

ولا ريب أن عند الجهمية ممتنعا أن يكونوا متبعين لله ، كما يمتنع أن يكون هو الآتى ، وكما يمتنع أن يكون قد أتاهم فى صورة ، وكما يمتنع أن يتجلى لهم ضاحكًا ، وكما يمتنع أن يكشف عن ساقه ، بل أن يكون له ساق .

فأحد الأمرين لازم إما أن يكون ما أخبر به الرسول ﷺ هو الحق ، أو ما يقوله هؤلاء الجهمية ـــ المحرفون ـــ .

وهما متناقضان غاية التناقض ، ومن عرف ما جاء به الرسول ﷺ ثم وافقهم فلا ريب أنه منافق »[1] .

وأما قولهم : يحتمل أن يراد بالصورة الصفة[2] ، والمعنى أنه يظهر لهم من بطش الله وشدة بأسه ما لم يألفوه ، ولم يعتادوه ، ثم يأتيهم بعد ذلك بأنواع الرحمة والكرامة ، على الوجه الذى اعتادوه وألفوه[3] .

قال شيخ الإسلام : (هذا التأويل أفسد من الذى قبله ، وأكثر الوجوه التى أبطل بها التأويل السابق تبطل هذا ، ولهذا خصائص تظهر بوجوه :

أحدها : أن تفسير الصورة بمجرد الصفة فاسد[4] ، فحيث دل لفظ الصورة على صفة قائمة بالموصوف ، أو على صفة قائمة بالذهن واللسان فلا بد مع ذلك أن يدل على الصورة الخارجية .

الثانى : أن إظهار الشدة فى تسمية ذلك صفة ، كإظهار النعمة ، وكإظهار

---

(١) نقض التأسيس جـ ٣ ص ٣٦٥ ـــ ٣٧٥ المخطوط ببعض التصرف .

(٢) هذا التأويل عين التأويل المشهور ، الذى يظن كثير من الناس أنه قول أهل السنة ، وهو أن المراد بالصورة أن خلق فيه السمع والبصر والعلم والإرادة ونحو ذلك . وسيأتى بطلانه .

(٣) هذا من كلام الرازى فى تأسيسه .

(٤) سيأتى بيان فساده .

الملك ، إذ جميع ذلك عبارة عن خلق شيء من الأجسام وإظهاره .

فتسمية هذا صفة دون الملك والإحسان تحكم باطل .

الثالث : أن الناس ما زالوا يألفون أن الله يبتليهم بالسراء والضراء ، فدعوى أن أحدهما مألوف دون الآخر باطل .

الرابع : أن الله إذا أظهر عذابه وشدته ، لم يجز الامتناع من السجود له فى هذه الحال ، ولا يجوز إنكار ربوبيته ، حتى يقول الأنبياء والمؤمنون نعوذ بالله منك ، وينكرون أن يكون هو ربهم ، ومعلوم أن السجود فى حال إظهار الشدة أولى منه فى حال إظهار النعمة ، كما فى الكسوف والخسوف ونحوهما .

الخامس : أن هذا يكون قبل مرورهم على الصراط ،وقبل تميز المنافقين من المؤمنين ، والنعيم والعذاب والشدة بعد ذلك ، إذا مروا على الصراط وتميز السعداء من الأشقياء .

السادس : أنه أخبر فى الأحاديث أن المشركين الذين عبدوا مع الله إلهًا آخر قد صاروا إلى العذاب ، وبعد ذلك يأتى المسلمين ربهم فى غير صورته ، التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفونها .

فلم يظهر الشدة والبطش والعذاب إلا للكفار من المشركين وأهل الكتاب .

السابع : أن فى الأحاديث : « إذا سجد المسلمون ، لم يتمكن من السجود المنافقون » ، وفى أحاديث أخرى[1] أنهم يعطون بعد هذا الأنوار ، على قدر أعمالهم ، ثم يمرون على الصراط ، فناج مسلم ، وهو الذى ينجو بلا أذى ـــ وناج مخدوش ـــ وهو الذى يصيبه من لفح النار ، ومكدوس ، فى نار

(١) كحديث جابر ، وحديث ابن مسعود وقدم ذكر من خرجهما .

جهنم وهم المعذبون .

فلم يكن العذاب والشدة إلا بعد هذا كله ، حيث المرور على الصراط ، فكيف يقال : إن إتيانه أولا ، فى غير صورته التى يعرفون ، هو إتيان عذابه وبأسه ، وهو لم يأت منه شىء بعد .

الثامن : أنهم تأولوا كشفه عن ساقه بأنه إظهار الشدة ،

وفى نفس هذه الأحاديث أنه إذا أتاهم فى الصورة التى [لا] يعرفونها يكشف لهم عن ساقه فيسجدون له ، فإذا تأولوا مجيئه فى الصورة التى يعرفون على إظهار رحمته وكرامته ، كان هذا من التحريف والتناقض فى تفسير الكتاب والسنة .

التاسع : أنه ليس فيما ذكروه إلا أنه يجىء بعض مخلوقاته إما التى تسر وإما التى تضر ، ومن المعلوم أن الله تعالى لا يوصف بنفس مخلوقاته ، بل كونها ليست صفات له أظهر من كونها ليست صورة له فقول القائل : يأتيهم الله فى صورته التى يعرفون ، أو التى لا يعرفون أى فى صفته التى يعرفون ، أو التى لا يعرفون ثم يؤول ذلك بمجىء بعض ما يخلقه من الضراء أو السراء ، من أفسد الكلام ، فإن النعم والنقم ليست من صفات الله التى يوصف بها ، وإنما يوصف بأنه يخلقها ويحدثها ويفعلها ، فلا يصح أن يكون مجيئها مجىء الله فى صفته .

العاشر : أن أكثر هؤلاء المؤولة أشاعرة وعندهم أن الخلق هو المخلوق ، كما سيأتى إن شاء الله بيانه ، فليس الخلق صفة لله تعالى عندهم ، كالمعتزلة ، فإذا كان كذلك كيف يكون المخلوق المكون من صفات الله تعالى .

الحادى عشر : أنه لو كان اللفظ فيأتيهم الله فى صورة عظيمة أو فى صفة عظيمة كما يقال : وجاء الملك فى صورة عظيمة ودخل المدينة على صفة عظيمة ، ونحو ذلك لأمكن صحة دعواهم ، أن الصورة أو الصفة من

المخلوقات ، لأن قوله فى صورة أو صفة نكرة مثبتة لم يعين صاحبها .

فإذا قيل فى صورته التى يعرفون ، أو صورته التى لا يعرفون ، أو فى صورة غير صورته التى رأوه فيها أول مرة ، وقيل : إن الصورة بمعنى الصفة ، كان ذلك صفة له ، فيمتنع أن يكون عائدًا إلى غيره .

الثانى عشر : أن ألفاظ الحديث فى هذا كلها مصرحة بأن الله تعالى هو الآتى ، وهى بذلك موافقة لدلالة القرآن مفسرة له ، حيث أخبر النبى ﷺ فى أول الأحاديث بأنهم يرون ربهم ، كما يرون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب ، وكما يرون القمر ليلة البدر صحوًا ليس دونه سحاب ، جوابًا لهم لما سألوه : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟

وأخبرهم أيضا ابتداءً بدون سؤال ، فإنه ﷺ كان يحدثهم بهذا الحديث مرات متعددة .

ثم وصف هذه الرؤية ، فأخبر أنه إذا كان يوم القيامة نادى مناد لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، وأخبر باتباع المشركين لما كانوا يعبدونه ، ثم قال وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله فى صورة غير صورته التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون نعم أنت ربنا فيتبعونه .

وفى الحديث الآخر يقال لهم هل بينكم وبينه علامة فتعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ، ويبقى من كان يسجد لله رِياءً وسمعة ، فيذهب كيما يسجد ، فيعود ظهره طبقًا واحدًا ، ثم يرفعون رؤوسهم ، وقد تحول فى الصورة التى رأوه فيها أول مرة .

وفى الحديث الآخر : ثم يأتينا ربنا ، بعد ذلك ، فيقول : من تنتظرون ؟ فيقولون : ننتظر ربنا ، فيقول : أنا ربكم فيقولون : حتى ننظر إليك ، فيتجـ

لهم يضحك ، قال فينطلق بهم فيتبعونه .

وفى الحديث الآخر : قال « يجمع الله الأولين والآخرين لميقات[1] يوم معلوم ، قيامًا ، أربعين سنة ، شاخصة أبصارهم ، إلى السماء ، ينتظرون فصل القضاء ، قال وينزل الله فى ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسى ، ثم ينادى مناد ... إلخ وإذا كانت الأحاديث مصرحة بمجىء الرب نفسه تصريحًا يعلمه الخاص والعام ، ويزيل كل شبهة ، علم أن هذه التحريفات ، تكذيبًا للرسول ﷺ ، لا تصدر إلا من جاهل بما أخبر به أو منافق ، ليس بمؤمن به .

فأما من آمن به ، وعلم ما جاء به ، فلا يكون إلا مصدقًا بمضمونها .

ومضمون ما يقوله هؤلاء المحرفون : أن العبادة تكون لغير الله ، وهذا من جملة شركهم فإنهم دخلوا فى الشرك من وجوه : منها إثباتهم خصائص الربوبية لغير الله ، حتى جعلوه يدعى الربوبية ، ويحاسب العباد ، ويسجدون له »[2].

واعلم أن لهم تأويلات غير ما ذكر هنا ، من ذلك ما ذكره الإمام ابن خزيمة فى كتاب التوحيد ، وما ذكره الفخر الرازى فى تأسيسه ، وتبعه على ذلك كل من جاء بعده ، من شراح الحديث ، إلا من شاء الله تعالى ، فلذلك ننقل ما فيه شبهة قد تشكل على من قرأ كلامهم ، وننقل رد شيخ الإسلام عليهم ، أما ما هو ظاهر البطلان ، فلا حاجة إلى ذكره .

قال الرازى : اعلم أن الصورة ما وردت فى القرآن ولكنها واردة فى الأخبار ، عن النبى ﷺ كقوله : « إن الله خلق آدم على صورته » وقوله : « لا يقولن أحدكم لعبده قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك فإن الله خلق آدم على صورته » ، ثم قال والجواب : اعلم أن الهاء فى قوله على صورته ،

---

(١) وكل هذه الروايات ثابتة فى الصحاح وغيرها وسبقت الإشارة إلى ذكر من رواها .
(٢) نقض التأسيس جـ ٣ ص ٣٧٧ إلى ٣٨٣ مخطوط .

يحتمل أن تكون عائدة على شيء غير صورة آدم ، وغير الله ، ويحتمل أن تكون عائدة إلى آدم ويحتمل أن تكون عائدة إلى الله ، فهذه طرق ثلاث .

ثم ذكر الطريقين الأولين والتأويل فيهما ولظهور بطلان ما ذكره نعرض عنهما ، لأننا قد ذكرنا فيما تقدم ما يبين بطلان كون الضمير عائدًا إلى غير الله تعالى .

ثم قال الطريق الثالث أن يكون ذلك الضمير عائدًا إلى الله تعالى وفيه وجوه :

الأول : المراد من الصورة الصفة ، فيكون المعنى أن آدم عليه السلام امتاز عن سائر الأشخاص والأجسام بكونه عالمًا بالمعقولات ، قادرًا على استنباط الحرف ، والصناعات ، وهذه صفات شريفة ، مناسبة لصفات الله من بعض الوجوه ، فصح قوله ﷺ : إن الله خلق آدم على صورته بناءً على هذا التأويل .

فإن قيل : المشاركة فى صفات كمال تقتضى المشاركة فى الإلٓهية .

قلنا : المشاركة فى بعض اللوازم البعيدة مع حصول المخالفة فى الأمور الكثيرة لا تقتضى المساواة فى الإلٓهية ، ولهذا المعنى قال الله تعالى : ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[1] ، وقال ﷺ : « تخلقوا بأخلاق الله »[2] .

الثانى : أنه كما يصح إضافة الصفة إلى الموصوف ، فقد يصح إضافتها إلى الخالق ، والموجد ، فيكون الغرض من هذه الإضافة الدلالة على أن هذه الصورة ممتازة عن سائر الصور ، بمزيد الكرامة والجلالة .

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الروم .

(٢) سيأتى أنه حديث باطل لا أصل له .

قال : والخبر الثانى : ما رواه ابن خزيمة فى كتابه الذى سماه التوحيد بإسناده عن ابن عمر ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تقبحوا الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن » ، قال : واعلم أن ابن خزيمة ضعف هذه الرواية ، ويقول : إن صحت هذه الرواية فلها تأويلان :

الأول : أن يكون المراد بالصورة : الصفة ، على ما بيناه .

الثانى : أن يكون المراد من هذه الإضافة ، بيان شرف هذه الصورة ، كما فى قوله : « بيت الله » ، و « ناقة الله »[1] .

وقد تولى شيخ الإسلام رحمه الله رد هذه التأويلات ، ردا مقنعا ، عن علم ، وبإنصاف ، ولخطورة هذه المسألة ، ومكانة شيخ الإسلام فإنى أكتفى بنقل كلامه هنا ، وهو كاف واف .

قال رحمه الله بعدما نقل الكلام المتقدم عن الرازى :

فيقال : هذا الحديث مخرج فى الصحيحين من وجوه ؛

ففى الصحيحين عن همام بن منبه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعا ، ثم قال له : اذهب فسلم على أولئك الملائكة فاستمع ما يجيبونك به فإنها تحيتك ، وتحية ذريتك ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه ، ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم »[2] .

قال فى رواية جعفر بن محمد بن رافع على صورته .

وروى البخارى من حديث أبى سعيد المقبرى ، ويحيى بن همام عن

---

(١) تأسيس التقديس للرازى ص ٨٣ ـــ ٩١ .
(٢) انظر البخارى مع الفتح جـ ٦ ص ٣٦٢ و جـ ١١ ص ٢ ومسلم جـ ٤ ص ٢١٨٣ رقم ٢٨٤١ .

أبى هريرة عن النبى ﷺ ، قال : « إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه »[١] .

وذكر بعض ما تقدم من روايات الحديث . ثم قال : لم يكن بين السلف ، من القرون الثلاثة نزاع ، فى أن الضمير فى هذا الحديث عائد إلى الله تعالى ، فإنه مستفيض من طرق متعددة ، عن عدد من الصحابة ، وسياق الأحاديث كلها تدل على ذلك ، وهو أيضًا مذكور فيما عند أهل الكتابين ، من الكتب ، كالتوراة ، وغيرها ، وما كان من العلم الموروث عن نبينا محمد ﷺ ، فلنا إن نستشهد عليه بما عند أهل الكتاب ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ ﴾[٢] .

ولكن كان من العلماء ، فى القرن الثالث ، من يكره روايته ، ويروى بعضه ، كما يكره رواية بعض الأحاديث ، لمن يخاف أن يلم نفسه ويفسد عقله ، أو دينه ، كما قال عبد الله بن مسعود : ما من رجل يحدث قومًا حديثًا ، لا تبلغه عقولهم ، إلا كان فتنة لبعضهم[٣] .

وفى البخارى ، عن على بن أبى طالب ، أنه قال : حدثوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله[٤] .

وإن كانوا مع ذلك ، لا يرون كتمان ما جاء به الرسول ﷺ مطلقًا ، بل لا بد أن يبلغوه ، حيث يصلح ذلك ، ولذلك اتفقت الأمة على تبليغه ، وتصديقه ، وإنما دخلت الشبهة فى الحديث لتفريق ألفاظه ، فإن من ألفاظه

---

(١) انظر الفتح جـ ٥ ص ١٨٢ ورواه مسلم من حديث المغيرة بن عبد الرحمن ، عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة وفيه إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته جـ ٤ ص ٢٠١٧ .

(٢) آخر آية من سورة الرعد .

(٣) رواه مسلم فى مقدمة الصحيح جـ ١ ص ١١ .

(٤) رواه فى كتاب العلم باب من خص بالعلم فقوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا انظر الفتح جـ ١ ص ٢٢٥ .

المشهورة : « إذا قاتل أحدكم فليتق الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته ، ولا يقل أحدكم قبح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك ، فإن الله خلق آدم على صورته »[1] .

وهذا فيه حكم عملى ، يحتاج إليه الفقهاء ، وفيه الجملة الثانية الخبرية المتعلقة بالإخبار ، عن خلق آدم ، فكثير من الفقهاء روى الجملة الأولى فقط ، وهى قوله : « فإذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه » ولم يذكر الثانية .

وعامة أهل الأصول والكلام ، إنما يروون الجملة الثانية وهى قوله : « خلق الله آدم على صورته » ، ولا يذكرون الجملة الطلبية فصار الحديث متواترًا بين الطائفتين ، وصاروا متفقين على تصديقه ، لكن مع تفريق بعضه عن بعض ، وإن كان هو محفوظًا عند آخرين من علماء الحديث وغيرهم .

وقد ذكره النبى ﷺ ابتداءً فى إخباره بخلق آدم ، فى ضمن حديث طويل ، إذا ذكر على وجهه زال كثير من الأمور المحتملة .

ولكن لما انتشرت الجهمية فى المائة الثالثة ، جعل طائفة الضمير فيه عائدًا إلى غير الله تعالى ، حتى نقل ذلك عن طائفة من العلماء المعروفين بالعلم والسنة ، فى عامة أمورهم ، كأبى ثور ، وابن خزيمة ، وأبى الشيخ الأصبهانى وغيرهم ، ولذلك أنكر عليهم أئمة الدين وغيرهم ، من علماء السنة .

قال الشيخ أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرجى الشافعى فى كتاب الفصول فى الأصول « فأما تأويل من لم يتابعه عليه الأئمة ، فغير مقبول ، وإن صدر ذلك التأويل عن إمام معروف ، غير مجهول ، نحو ما ينسب إلى أبى بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة ، فى تأويل الحديث : « خلق الله آدم

---

(١) رواه عبد الرزاق فى المصنف جـ ٩ ص ٤٤٥ والدارقطنى فى الصفات ص ٣٥ ، ٣٦ ، وابن أبى عاصم فى السنة جـ ١ ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ وابن خزيمة فى التوحيد جـ ١ ص ٨١ ــ ٨٦ .

على صورته » ، فإنه يفسر ذلك ، بذلك التأويل ، ولم يتابعه عليه من قبله ، من أئمة الحديث ، كما روينا عن أحمد رحمه الله ، ولم يتابعه أيضًا من بعده ، حتى رأيت فى كتاب الفقهاء للعبادى الفقيه : أنه ذكر الفقهاء ، وذكر عن كل واحد منهم مسألة ، انفرد بها ، فذكر الإمام ابن خزيمة ، وأنه انفرد بتأويل هذا الحديث ، « خلق الله آدم على صورته » على أنى سمعت عدة من المشايخ رووا أن ذلك التأويل مزور مربوط على ابن خزيمة ، وإفك مفترى عليه ، فهذا وأمثال ذلك من التأويل لا نقبله ولا يلتفت إليه » .

قلت ذكر الحافظ أبو موسى المدينى فيما جمعه من مناقب إسماعيل بن محمد التيمى ، قال سمعته يقول : أخطأ محمد بن إسحاق بن خزيمة ، فى حديث الصورة ، ولا يطعن عليه ذلك ، بل لا يؤخذ عنه هذا فحسب ، قال أبو موسى : أشار بذلك إلى أنه قَلَّ من إمام إلا وله زلة ، فإذا ترك ذلك الإمام لأجل زلته ، ترك كثير من الأئمة .

إذا عرف ذلك فيقال : أما عود الضمير إلى غير الله تعالى ، فباطل من وجوه :

أحدها : ما فى الصحيحين ابتداءً « أن الله خلق آدم على صورته طوله ستون ذراعا » .

وفى أحاديث أخر : « أن الله خلق آدم على صورته » ولم يقدم ذكر أحد يعود الضمير إليه .

وما ذكر بعضهم : من أن النبى ﷺ رأى رجلًا يضرب رجلًا ، ويقول قبح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك ، فقال : « خلق الله آدم على صورته » ، أى صورة هذا المضروب .

فهذا شىء لا أصل له ، ولا يعرف فى شىء من كتب الحديث .

الثانى : أن الحديث الآخر لفظه : « إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه ، فإن

الله خلق آدم على صورته »[1] وليس فى هذا ذكر أحد يعود الضمير إليه .

الثالث : أن اللفظ الذى ذكره ابن خزيمة ، وتأوله ، وهو قوله : « لا يقولن أحدكم ، قبح الله وجهه ، ووجهًا أشبه وجهك ، فإن الله خلق آدم على صورته »[2] ليس فيه ذكر أحد يصلح عود الضمير إليه ، وقوله فى التأويل أراد ﷺ أن الله خلق آدم على صورة هذا المضروب الذى أمر الضارب باجتناب وجهه بالضرب ، والذى قبح وجهه ، فزجر ﷺ أن يقول ووجه من أشبه وجهك .

فيقال له : لم يتقدم ذكر مضروب ، فيما رويته عن النبى ﷺ ، ولا فى لفظه ذكر ذلك ، بل قال : « إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته » ، ولم يقل إذا قاتل أحدكم أحدًا ، أو إذا ضرب أحدًا ، والحديث الآخر ذكرته[3] من رواية الليث بن سعد ، ولفظه : « ولا يقل أحدكم قبح الله وجهك ووجهًا أشبه وجهك ، فإن الله خلق آدم على صورته »[4] .

وليس فى هذا ذكر مضروب ، حتى يصلح عود الضمير إليه ، فإن قيل : قد يعود الضمير إلى مادل عليه الكلام ، وإن لم يكن مذكورا كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾[5] أى البخل ، لأن لفظ البخل ، يدل على المصدر الذى هو البخل ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) تقدم تخريجه قريبا .
(٢) تقدم تخريجه .
(٣) الخطاب لابن خزيمة فإنه رواه من هذا الطريق .
(٤) انظر كتاب التوحيد لابن خزيمة ج ١ ص ٨١ — ٨٦ .
(٥) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران .

إذا نهي السفيه جرى إليه وخالف ، والسفيه إلى خلاف

أى إلى السفه .

قيل : إنما يكون ذلك فيما لا لبس فيه ، حيث لم يتقدم ما يصلح لعود الضمير إلا ما دل عليه الخطاب ، فيكون العلم بأنه لا بد للظاهر من مضمر يدل على ذلك ، أما إذا تقدم اسم صريح قريب إلى الضمير ، فلا يصلح أن يترك عوده إليه ، ويعود إلى شيء متقدم ، لا ذكر له فى الخطاب ، وهذا مما يعلم بالضرورة فساده فى اللغات .

الرابع : أنه فى مثل هذا لا يصلح إفراد الضمير ، فإن الله خلق آدم على صورة بنيه كلهم ، فتخصيص واحد لم يتقدم له ذكر ، بأن الله خلق آدم على صورته فى غاية البعد .

لاسيما وقوله : « إذا قاتل أحدكم » ، و « إذا ضرب أحدكم » عام فى كل مضروب .

والله خلق آدم على صورهم جميعهم ، فلا معنى لإفراد الضمير .

وكذلك قوله : « لا يقولن أحدكم قبح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك » ، عام فى كل مخاطب ، والله قد خلقهم كلهم على صورة آدم .

الخامس : أن ذرية آدم خلقوا على صورة آدم ، لم يخلق آدم على صورهم .

فإن مثل هذا الخطاب إنما يقال فيه ، خلق الثانى المتأخر فى الوجود على صورة الأول ، المتقدم فى الوجود ، لا يقال : إنه خلق الأول على صورة الثانى ، المتأخر فى الوجود ، كما يقال : خلق الخلق على غير مثال ، أو نسج هذا على منوال هذا ، ونحو ذلك ، فإنه فى جميع هذا إنما يكون المصنوع المقيس متأخرا فى الذكر ، عن المقيس عليه .

وإذا قيل خلق الوالد على صورة ابنه ، أو على خلق ابنه ، كان كلاما

فاسدا ، بخلاف ما إذا ذكر التشبيه بغير لفظ الخلق ، وما يقوم مقامه ، مثل أن يقال : الوالد يشبه ولده ، فإن هذا سائغ ؛

لأن قوله : « خلق » إخبار عن تكوينه ، وإبداعه ، على مثال غيره ، ومن الممتنع أن الأول كون على مثال ما لم يكن بعد ، وإنما يكون على مثال ما قد كان .

السادس : أنه إذا كان المقصود أن هذا المضروب ، والمشتوم يشبه آدم ، فمن المعلوم أن هذا من الأمور الظاهرة ، المعلومة للخاص والعام فلو أريد التعليل بذلك لقيل : « فإن هذا يدخل فيه الأنبياء ، إذ هذا يدخل فيه آدم ، أو نحو ذلك من العبارات ، التى تبين قبح كلامه ، وهو اشتمال لفظه على ما يعلم هو وجوده » .

أما مجرد إخباره بما يعلم وجوده كل أحد ، فلا يستعمل فى مثل هذا الخطاب .

السابع : أنه إذا أريد مجرد المشابهة لآدم وذريته لم يحتج إلى لفظ « خلق » على كذا ، فإن هذه العبارة إنما تستعمل فيما فعل على مثال غيره ، بل يقال : « فإن وجهه يشبه وجه آدم » ، أو « فإن صورته تشبه صورة آدم » .

الثامن : أن يقال : مثل هذه تصلح لقوله : « لا يقولن أحدكم قبح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك » فكيف يصلح لقوله : « إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه » .

ومعلوم أن كون صورته تشبه صورة آدم ، لا توجب سقوط العقوبة عنه ، فإن الإنسان لو كان يشبه نبيا من الأنبياء ، أعظم من مشابهة الذرية لأبيهم فى مطلق الصورة والوجه ، ثم وجبت على ذلك الشبيه بالنبى عقوبة ، لم تسقط عقوبته بهذا الشبه باتفاق المسلمين ، فكيف يجوز تعليل تحريم العقوبة بمجرد المشابهة المطلقة لآدم .

التاسع : أن فى ذرية آدم من هو أفضل منه ، وتناول اللفظ لجميعهم واحد ، فلو كان المقصود بالخطاب ليس ما يختص به آدم ، من ابتداء خلقه على صورته بل المقصود مجرد مشابهة المضروب المشتوم له ، لكان ذكر سائر الأنبياء أولى ، كإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وإن كان آدم أباهم ، فليس هذا المقام مقاما له به اختصاص — على زعم هؤلاء .

العاشر : وهو قاطع أيضا — أن يقال : كون الوجه ، يشبه وجه آدم ، هو مثل كون سائر الأعضاء تشبه أعضاء آدم ، فإن رأس الإنسان ، يشبه رأس آدم ، ويده تشبه يده ، ورجله تشبه رجله ، وبطنه ، وظهره ، وفخذه ، وساقه ، يشبه ظهره ، وفخذه وساقه ، فليس للوجه بمشابهة آدم اختصاص .

بل جميع أعضاء البدن بمنزلته فى ذلك ، فلو صح أن يكون هذا علة لمنع الضرب ، لوجب أن لا يجوز ضرب شيء من أعضاء بنى آدم ، لأن ذلك جميعه على صورة أبيهم آدم .

وفى إجماع المسلمين على وجوب ضرب هذه الأعضاء ، فى الجهاد للكفار والمنافقين ، وإقامة الحدود — مع كونها مشابهة لأعضاء آدم ، وسائر النبيين — دليل على أنه لا يجوز المنع من ضرب الوجه ، ولا غيره لأجل هذه المشابهة .

الحادى عشر : أنه لو كان علة النهى عن شتم الوجه ، وتقبيحه أنه يشبه وجه آدم ، لنهى أيضا عن الشتم والتقبيح لسائر الأعضاء [فيقال] : « لا يقولن أحدكم : قطع الله يدك ، ويد من أشبه يدك » .

الثانى عشر : أن ما ذكروه من أنه إبطال لقول من يقول : إن آدم كان على صورة أخرى ، مثل ما يقال : عظيم الجثة ، طويل القامة ، وإن النبى ﷺ أشار إلى إنسان معين ، وقال : إن الله خلق آدم على صورته أى كان شكل آدم مثل شكل هذا الإنسان ، من غير تفاوت البتة .

فيقال لهم : الحديث المتفق عليه فى الصحيحين ، مناقض لهذا التأويل ،

مصرح فيه بأن خلق آدم أعظم من صور بنيه بشيء كثير ، وأنه لم يكن على شكل أحد من أبناء الزمان .

فعن همام بن منبه ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « خلق الله آدم على صورته ، وطوله ستون ذراعا ، ثم قال له : اذهب فسلم على أولئك الملائكة ، فاسمع ما يحيونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم .

قال : فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن »[1] .

قال : في رواية يحيى بن جعفر ، ومحمد بن رافع : « على صورته » ، وذكر فيه ، طوله ستون ذراعا ، وأن الخلق لم يزل ينقص حتى الآن ، وأن أهل الجنة يدخلون على صورة آدم .

ولم يقل : إن آدم على صورتهم ، بل قال : على صورة آدم .

وقد روى أن عرض أحدهم سبعة أذرع ، فهل في تبديل كلام الله ورسوله أبلغ من هذا ، أن يجعل ما أثبته النبي ﷺ وأخبر به ، وأوجب التصديق به ، قد نفاه ، وأبطله ، وأوجب تكذيبه ، وإبطاله ؟

الثالث عشر : أنه قد روى من غير وجه « على صورة الرحمن »[2] .

وأما عود الضمير على آدم ففاسد ، وبيان ذلك من وجوه :

أحدها : أنه إذا قيل : « إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه ، فإن الله خلق

---

(١) تقدم الحديث ص ٦٧ .

(٢) تقدم تخريجه وانظر كتاب التوحيد لابن خزيمة جـ ٢ ص ٨٥ وذكر من خرجه هناك غيره ورواه الدارقطني في الصفات ص ٣٦ ـــ ٣٧ وهو حديث ثابت

آدم على صورة آدم » أو « لا يقل أحدكم قبح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك ، فإن الله خلق آدم على صورة آدم » .

كان هذا من أفسد الكلام ، فإنه لا يكون بين العلة والحكم مناسبة أصلا ؛

فإن كون آدم مخلوقا على صورة آدم ، فأى تفسير فسر ، فليس فى ذلك مناسبة للنهى عن ضرب وجوه بنيه ، ولا عن تقبيحها ، وتقبيح ما يشبهها .

وإنما دخل التلبيس بهذا التأويل حيث فرق الحديث .

فروى قوله : « إذا قاتل أحدكم ، فليتق الوجه » وحده مفردا .

وروى قوله : « إن الله خلق آدم على صورته » مفردا .

أما مع أداء الحديث على وجهه ، فإن عود الضمير إلى آدم ، يمتنع فيه ؛ وذلك أن خلق آدم على صورة آدم ، سواء كان فيه تشريف لآدم ، أو كان مجرد إخبار بالواقع ، لا يناسب الحكم .

الوجه الثانى : أن الله خلق سائر أعضاء آدم على صورة آدم ، فلو كان ذلك مانعا من ضرب الوجه ، وتقبيحه لوجب أن يكون مانعا من ضرب سائر الأعضاء ، وتقبيح سائر الصور ، وهذا معلوم الفساد ، فى العقل والدين ، وتعليل الحكم الخاص بالعلة المشتركة ، من أقبح الكلام .

وإضافة ذلك إلى النبى ﷺ لا يصدر إلا عن جهل عظيم ، أو نفاق شديد ، إذ لا خلاف فى علمه ، وحكمته ، وحسن كلامه .

فإن هذا مثل أن يقال : لا تضربوا وجوه بنى آدم ، فإن أباهم له صفات يختص هو بها ، دونهم ، مثل كونه خلق من غير أبوين .

أو يقال : لا تضربوا وجوه بنى آدم ، فإن أباهم خلق من تراب .

الوجه الثالث : أن هذا تعليل للحكم بما يوجب نفيه ، وهذا من أعظم

التناقض ، وذلك أنهم تأولوا الحديث على أن آدم لم يخلق من نطفة ، وعلقة ، ومضغة ، وعلى أنه لم يتكون فى مدة طويلة ، بواسطة العناصر ، وبنوه قد خلقوا من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، وخلقوا فى مدة من عناصر الأرض .

فإن كانت العلة المانعة من الضرب للوجه ، وتقبيحه كونه خلق على هذا الوجه ، وهذه العلة منتفية فى بنيه ، فينبغى أن يجوز ضرب وجوه بنيه ، وتقبيحها ، لانتفاء العلة فيها ، فإن آدم هو الذى خلق على صورته دونهم إذ هم لم يخلقوا على صورهم التى هم عليها ، كما خلق آدم ، بل نقلوا من نطفة إلى علقة ، ثم إلى مضغة .

الوجه الرابع : ما أبطل به الإمام أحمد هذا التأويل ، حيث قال : من قال : إن الله خلق آدم على صورة آدم ، فهو جهمى ، وأى صورة كانت لآدم قبل أن يخلق ؟

وهذا الوجه الذى ذكره الإمام أحمد يعم الأحاديث كلها . قوله ابتداء : « إن الله خلق آدم على صورته ، طوله ستون ذراعا » .

وقوله : « لا تقبحوا الوجه » إلى آخره ، « وإذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته » .

وذلك أن قوله : « خلق آدم على صورته » يقتضى أنه كان له صورة قبل الخلق [خلقه] عليها .

فإن هذه العبارة لا تستعمل إلا فى مثل ذلك ، وبمثل هذا أبطلنا قول من يقول : إن الضمير عائد إلى المضروب ، فإن المضروب متأخر عن آدم فجميع ما يذكر من التأويلات ، مضمونها أن صورته تأخرت عنه ، فتكون باطلة .

وأيضا . فمن المعلوم بالضرورة أنه لم تكن لآدم صورة خلق عليها قبل صورته التى خلقها الله تعالى .

الوجه الخامس : أن جميع ما يذكر من التأويلات ، كقولهم : خلق آدم على صورة آدم ، موجود نظيره فى جميع المخلوقات ، سواء أريد بذلك الصورة الثابتة قدرا فى علم الله ، وكتابه ، أو غير ذلك .

وأما كونه خلق على صورته ابتداء ، أو فى غير مدة ، فإنه ليس كذلك ، بل خلقه تنقل من حال إلى حال ، من التراب إلى الطين ، ثم إلى الصلصال ، كبنيه فإنهم من نطف ، إلى علق ثم إلى مضغ .

فإذا جاز أن يقال فى أحدهما خلق على صورته ، مع تنقله إلى هذه الأطوار جاز ذلك فى الآخر .

ولا شك أن هذه الأحاديث وردت فى تخصيص آدم ، بأنه خلق على صورته دون غيره من الخلق ، وإن كان بنوه تبعًا له فى ذلك .

ولكن هذا كخلقه بيده ، وإسجاد ملائكته له ، وبهذا علم بطلان ما يوجب الاشتراك ، ويزيل الاختصاص .

الوجه السادس : أن المعنى الذى تدل عليه هذه العبارة التى ذكروها هى من الأمور المعلومة ببديهة العقل ، التى لا يحسن بيانها ، والخطاب بها لتعريفها ، فإن قول القائل : إن الشىء الفلانى خلق على صورة نفسه . لا يدل لفظه على غير ما هو معلوم بالعقل ، إن كان مخلوقا على الصورة التى خلق عليها .

وهذا مثل أن يقال : أوجد الله الشىء ، كما أوجده ، وخلق الله الأشياء ، على ما هى عليه ، وعلى الصورة التى هى عليها ، ونحو ذلك ، مما هو معلوم ببديهة العقل ، ومعلوم أن بيان هذا ، وإيضاحه قبيح جدا .

الوجه السابع : أن ما ذكروه من كون آدم خلق على صورة آدم ، أو أنه خلق من غير نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، أو أنه لم يخلق من مادة ، أو بواسطة القوى ، والعناصر — كما يدعون — لا دليل عليه ، وليس فى هذه

الأحاديث ما يدل عليه بحال من الأحوال .

الوجه الثامن : أن الحديث ، روى من وجوه ، بألفاظ تبطل عود الضمير إلى آدم ، مثل قوله : « لا تقبحوا الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن »[1] .

وقوله فى الطريق الآخر ، من حديث أبى هريرة : « إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه فإن صورة الإنسان على صورة الرحمن »[2] .

وقول ابن عباس فيما ذكره عن الله تعالى : « تعمد إلى خلق من خلقى ، خلقتهم على صورتى ، فتقول لهم : اشربوا يا حمير »[3] .

وأما تضعيف ابن خزيمة لحديث ابن عمر ، بأن الثورى أرسله ، فخالف فيه الأعمش ، وأن الأعمش وحبيبا مدلسان .

فيقال : قد صححه إسحاق بن راهويه ، وأحمد بن حنبل ، وهما أجل من ابن خزيمة باتفاق الناس .

وأيضا فمن المعلوم أن عطاء بن أبى رباح ، إذا أرسل هذا الحديث ، عن النبى ﷺ فلا بد أن يكون قد سمعه من أحد .

فإذا كان فى إحدى الطريقين ، قد بين أنه أخذه عن ابن عمر ، كان بيانا ، وتفسيرا لما تركه ، وحذفه فى الطريق الأخرى ، ولم يكن هذا اختلافا أصلا .

ولو قدر أن عطاء لم يذكره إلا مرسلا ، عن النبى ﷺ فمن المعلوم أن عطاء من أجل التابعين قدرا ، فإنه هو ، وسعيد بن المسيب ، وإبراهيم النخعى ، والحسن البصرى من أئمة التابعين فى زمانهم .

---

(١) تقدم تخريجه ص ٣٦ ، ٧٥ .

(٢) تقدم أيضا ذكر من رواه

(٣) روى أن هذا الخطاب موجه إلى موسى ﷺ لما ضرب الحجر وانفجر منه اثنتا عشرة عينا .

ومن المعلوم أن مثل عطاء ، لو أفتى فى مسألة فقه ، بموجب خبر أرسله ، لكان ذلك يقتضى ثبوته عنده .

ولهذا يجعل الفقهاء احتجاج المرسل بالخبر دليلا على ثبوته عنده .

والأخبار التى توجب العلم ، أعظم من التى توجب العمل .

فإذا كان عطاء ، قد جزم بهذا الخبر العلمى ، عن النبى ﷺ فى هذا الباب العظيم ، فلا يمكن أن يستجيز ذلك من غير أن يكون ثابتا عنده .

واتفاق السلف على رواية هذا الخبر ، ونحوه ، مثل عطاء ، وحبيب بن أبى ثابت ، والأعمش ، والثورى ، وأصحابهم من غير نكير سمع من أحد لمثل ذلك ، فى ذلك العصر ، مع أن هذه الروايات المتنوعة فى مظنة الاشتهار ، دليل على أن علماء الأمة [لا] تنكر إطلاق القول بأن الله خلق آدم على صورة الرحمن ، بل كانوا متفقين على إطلاق مثل هذا .

وكراهة بعضهم لرواية ذلك ، فى بعض الأوقات ، له نظائر ، فإن الشىء قد يمنع سماعه لبعض الجهال ، وإن كان متفقا عليه بين علماء المسلمين .

والله تعالى قد وصف هذه الأمة ، بأنها خير أمة أخرجت للناس ، وأنها تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، فمن الممتنع أن يكون فى عصر التابعين ، يتكلم أئمة ذلك العصر بما هو كفر ، وضلال ، ولا ينكر عليهم أحد .

فلو كان قوله : « خلق آدم على صورة الرحمن » ، باطلا ، لكانوا مقرين للباطل ، غير منكرين له .

وقد روى بهذا اللفظ من طريقين مختلفين ، كما روى عن أبى هريرة ، فيؤيد أحدهما الآخر ، ويشهد له ، ويعتبر به ، بل قد يفيد ذلك العلم ، إذا خيف فى الرواية من تعمد الكذب ، أو من سوء الحفظ .

فإذا كان الرواة ممن لا يتواطئون فى العادة على الكذب ، لم يبق إلا سوء

الحفظ ، فإذا تبين أن كل واحد منهم حفظ مثل ما حفظ الآخر ، كان ذلك دليلا على أن الحديث محفوظ ، ولهذا منع من منع بالاحتجاج بالمرسل ، إذا روى من وجه آخر احتج به .

ولهذا الترمذى وغيره ، يجعل الحسن ما روى من وجهين مختلفين ، وليس فى طريقه متهم بالكذب ، ولم يكن مخالفا للأخبار المشهورة ، وأدنى أحوال هذا الحديث ذلك .

ويؤيده أن الصحابة تكلموا بمعناه كما تقدم عن ابن عباس .

وليس ذلك مأخوذًا عن أهل الكتاب ، لأنه كان ينهى عن الأخذ عنهم ، كما فى البخارى ، وغيره ، ولا يجوز أن يكون ذلك من قبيل الرأى .

وهذه الوجوه كلها مبطلة لقول من يعيد الضمير إلى آدم ،

فهى أدلة مستقلة فى الأخبار بأن الله خلق آدم على صورة نفسه تعالى .

وبهذا يحصل الجواب عما يذكر من كون الأعمش ، وحبيب مدلسين ، فقد أخذه عنهما الأئمة ، ووافقهما الثورى ، وتلقاه العلماء ، مثل أحمد وإسحاق ، وسفيان ، وغيرهم بالقبول .

وقد قدمنا أنه يجوز الاستشهاد بما عند أهل الكتاب ، مما هو موافق لما أثر عن نبينا ﷺ ففى السفر الأول من التوراة : « سنخلق بشرًا على صورتنا ، يشبهنا »[1] .

وأما قول المؤولة : إن الله لم يغير صورة آدم ، ولم يمسخها كما مسخ غيره كالحية ، والطاوس ، ولهذا قيل : خلق آدم على صورته ، أى على صورة آدم .

---

(١) هذا النص يوجد فى التوراة السامرية هكذا : « وقال الله نصنع إنسانا يشبهنا وصورتنا ، ليستولى على سمك البحر » ص ٣٦ طبعة السقا .

فيقال : العبارة المعروفة عن هذا المعنى أن يقال : أبقى آدم على صورته ، أو تركه على صورته ، أو لم يغير صورة آدم ، لا يقال : خلقه على صورة نفسه ، فإن هذا اللفظ لا يستعمل فى مثل هذا المعنى .

ولهذا قال الله تعالى عن الذين مسخ منهم قردة ، وخنازير : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ ﴾[1] ، ولم يقل وخلق منهم .

كما أن من المعروف ، الظاهر لكل أحد أن صورة آدم كانت كهذه الصور لبنيه لم تمسخ ، وما ذكروه من مسخ غير آدم غير معلوم ، ولا مذكور .

وأما قولهم : إنه أراد به بيان بطلان قول الدهرية ، فى أن الإنسان لا يتولد إلا من نطفة ، ودم الطمث .

فيقال لهم : قد أخبر الله تعالى أنه خلق آدم من الماء والتراب ، ومن الطين ، ومن الحمأ المسنون ، فهذه نصوص ظاهرة ، متواترة ، يسمعها العام والخاص ، تبين أنه لم يخلق من نطفة ، ودم الطمث ، وتبطل هذا القول إبطالا بينا معلوما بالاضطرار .

وأما قوله : إن آدم خلق على صورة آدم ، فليس فيه دلالة على إبطال قول الدهرية ولا غيرهم .

وقولهم : خلق آدم ، ابتداء من غير تقدم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة .

يقال لهم : بعد تقدم ، تراب ، وطين ، وصلصال .

وأما قولهم : إن الصورة تذكر ويراد بها الصفة ، يقال : شرحت له صورة هذه الواقعة ، وذكرت له صورة هذه المسألة .

والمراد : أن الله ــ تعالى ــ خلق آدم من أول الأمر كاملا ، تاما ، فى علمه ، وقدرته ، وكونه سعيدا ، عارفا ، تائبا .

---

(١) الآية رقم ٦٠ من سورة المائدة .

فيقال : الصورة : هى الصورة الموجودة فى الخارج ، ولفظ « صَ وَ رَ » يدل على ذلك ، وما من موجود من الموجودات إلا [له] صورة فى الخارج .

وما يكون من الوقائع ، يشتمل على أمور كثيرة ، لها صور موجودة .

وكذلك المسئول عنه من الحوادث ، وغيرها ، له صور موجودة فى الخارج ، ثم تلك الصـور الموجودة ، ترتسم فى النفس صورة ذهنية .

فقوله : شرحت له صورة الواقعة ، وأخبرنى بصورة المسألة .

إما أن يكون المراد به الصورة الخارجية ، أو الصورة الذهنية .

وأما الصفة : فهى فى الأصل ، مصدر وصفت الشىء ، أصفه ، وصفا ، ثم يسمون المفعول ، باسم المصدر [صفة] .

وإذا كان ما فى النفس من العلم بالشىء ، يسمى مثلًا له ، وصفة .

فالصورة الذهنية : هى المثل الذى يسمى أيضا صفة ، ومثلا .

ولهذا يقال تصورت الشىء ، وتمثلت الشىء ، وتخيلته ، إذا صار فى نفسك صورته ومثاله ، وخياله .

كما يسمى مثاله الخارجى ، صورة ، كما قال النبى ﷺ : « لعن الله المصورين »[1] .

كما يسمى ذلك تمثالا ، فى مثل قول على : « بعثنى رسول الله ﷺ فأمرنى أن لا أدع تمثالا ، إلا طمسته ، ولا قبرا مشرفا ، إلا سويته »[2] .

وقوله : لفظ الصورة يذكر ويراد به الصفة .

---

(١) سيأتى الحديث مشروحا إن شاء الله وهو متفق عليه .

(٢) رواه مسلم انظر رقم ٩٦٩ جـ ٢ ص ٦٦٦ .

إن أراد به أن الصورة توصف بالقول ، وأن لفظ الصورة ، يراد به ما يوصف بالقول من الصورة الخارجية ، أو ما يطابقه من الصورة الذهنية ، فهذا قريب .

ولكن هذا يوجب أن يكون له صورة خارجية ، وإن طابقتها الصورة الذهنية .

وإن أراد به أن لفظ الصفة قد لا يراد به إلا ما يقوم بالأعيان ، كالعلم ، والقدرة ، فهذا باطل ، لا يوجد فى الكلام أن قول القائل ــ مثلا ــ : صورة فلان يراد بها مجرد الصفات القائمة [به] ، من العلم ، والقدرة ، ونحو ذلك .

بل هذا من البهتان على اللغة وأهلها .

وأيضا فقول القائل : خلق آدم ، على صورة آدم ، بمعنى على صفة آدم ، لا يدل على أنه خلق على صفات الكمال ابتداء ، ولو أريد بالصورة ما يتأخر عن وجوده ، فإن المخلوق على صفة من الصفات ، يخلق عليها فى وقت خلقه وبعده ، يبين ذلك أنه جعل أحد المحملين كونه خلق عارفا ، تائبا ، مقبولا عند الله ــ تعالى ــ ومعلوم أن هذه الصفة تأخر وجودها عن ابتداء خلقه ، فإن التوبة كانت بعد الذنب .

فإذا كان لا ينافى كونه مخلوقا عليها تأخرها ، فكذلك صفة العلم ، والقدرة لا ينافى كونه مخلوقا عليهما تأخرهما عن ابتداء خلقه ، وإذا كان كذلك ، فلا فرق بينه وبين غيره .

وعلى كل فما ذكره من أن معنى الحديث : أنه خلق كاملا ، باطل ، فإن آدم لم يجعل ابتداء على صفة الكمال ، بل بعد أن خلقه الله تعالى علمه الأسماء التى لم يكن بها عالما ، كما علم بنيه البيان ، بعد أن خلقهم .

فهذه التأويلات تارة يكون المعنى المحمول عليه النص فيها باطلا ، وتارة يكون غير دال عليه ، وتارة يكون النص دالا على نقيض ما يقوله المؤول ، ومضادا له .

وتارة يجمع من ذلك ما يجمع ، وهذا شأن أهل التحريف ، والإلحاد ، ومن ذلك ما ذكر لأحمد ، فقال : إن قائل ذلك جهمى ، وهو قوله : « خلق على صورة الطين » ، وهذا وإن كان أجود من هذه التأويلات المذكورة ، فإنه فاسد ، فإن هذا يقتضى أن تكون له صورة أخرى ، خلقت على تلك الصورة ، وآدم بعينه هو تلك الصورة ، التى خلق فيها الروح .

بل تصويره هو خلقه من تراب ، ثم من طين ، كما قال ــ تعالى ــ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ﴾(1) فقدم الخلق على التصوير ، فكيف تكون الصورة لآدم سابقة على الخلق ، حتى يقال : خلق آدم على تلك الصورة .

ولو أريد أنه خلق من صورة الطين ، لا من أبوين ، لقيل كما قال الله تعالى ﴿ مِن تُرَابٍ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾(2) وقال تعالى : ﴿ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾(3) .

وكذلك لو تأوله متأول على الصورة المقدرة له ، وهى ما سبق له فى علم الله ــ تعالى ــ وكلامه ، وكتابه ــ أى خلق آدم على الصورة التى قدرها له ، فهذا لا يصح وإن كان الله ــ تعالى ــ خلق كل شىء على ما سبق من تقديره ، فتأويل الحديث بذلك باطل ، لأن جميع الأشياء خلقها الله تعالى على ما قدره ، فلا اختصاص لآدم بذلك كما أنه لا يصح أن يقول : لا تقبحوا الوجه ، ولا يقول أحدكم قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك ، فإن الله خلق آدم على ما قدره ؛ فإن الوجه وسائر المخلوقات خلقها الله على ذلك ، فينبغى أن لا يصلح تقبيح شىء من الأشياء البتة لعموم العلة .

---

(1) الآية ١١ من سورة الأعراف .
(2) الآية ٧١ من سورة ص .
(3) الآية ٢٨ من سورة الحجر .

وقوله فى الحديث : « فكل من يدخل الجنة يدخلها على صورة آدم » صريح فى أنه أراد صورة آدم المخلوقة ، لا المقدرة .

وتسمية ما قدر « صورة » ليس له أصل فى كلام الله وكلام رسوله ﷺ .

وإن كان بعض المتأخرين يقول : لفلان عند فلان صورة عظيمة ، وهذا الأمر مصور فى نفسى ، لكن مثل هذا لا يجوز أن يحمل عليه كلام رسول الله ﷺ ولا خطابه لأمته ، لأنه ليس من لغته »[1] .

وأما قوله : المراد من الصورة الصفة ، كما بيناه ، فيكون المعنى : أن آدم امتاز عن سائر الأشخاص والأجسام بكونه عالما بالمعقولات ، قادرا على استنباط الحرف والصناعات ، وهذه صفات شريفة مناسبة لصفات الله من بعض الوجوه فصح قوله : إن الله خلق آدم على صورته على هذا التأويل .

فالكلام عليه من وجوه : أحدها : أنه تقدم أن لفظ الصفة سواء عنى به القول الذى يوصف به الشىء ، وما يدخل فى ذلك من المثال العلمى الذهنى ، أو أريد به المعانى القائمة بالموصوف .

فإن لفظ الصورة لا يجوز أن يقتصر به على ذلك ، بل لا يكون لفظ الصورة إلا لصورة موجودة فى الخارج ، أو لما يطابقها من العلم والقول ، وذلك المطابق يسمى صفة ، ويسمى صورة .

وأما الحقيقة الخارجية ، فلا تسمى صفة ، كما أن المعانى القائمة بالموصوف لا تسمى وحدها صورة .

وإذا كان كذلك ، فقوله « على صورته » لابد أن يدل على الصورة الموجودة فى الخارج ، القائمة بنفسها ، التى ليست مجرد المعانى القائمة بها ، من العلم والقدرة ، وإن كان لتلك [المعانى] صورة ، وصفة ذهنية ؛ إذ

---

(١) نقض التأسيس جـ ٣ ص ٢٠٢ ــ ٢٥٠ .

وجود هذه الصورة الذهنية مستلزم لوجود [الصورة الخارجية] وإلا [كانت الصورة الذهنية] جهلا لا علما .

فسواء عنى بالصورة ، الصورة الخارجية ، أو العلمية ، لا يجوز أن يراد به مجرد المعنى القائم بالذات ، والمثال العلمى المطابق لذلك .

الوجه الثانى : أن قوله : إن آدم امتاز عن سائر الأشخاص ، والأجسام بالعلم والقدرة ، إن أراد به امتيازه عن بنيه ، فليس كذلك ، وإن أراد امتيازه عن الملائكة والجن ، فهو لم يتميز بنفس العلم ، والقدرة ، فإن الملائكة قد تعلم ما لا يعلمه آدم ، كما أنها تقدر على ما لا يقدر عليه ؛ وإن كان علمه الله ما لم تكن الملائكة تعلمه .

فقد ثبت باتفاق الطوائف ، أن آدم لم يخلق على صفة من العلم ، والقدرة امتاز بها عن سائر الأشخاص ، والأجسام ، بل فيها من كان امتيازه عن آدم بالعلم ، والقدرة أكثر .

الوجه الثالث : أن يقال : المشاركة فى بعض الصفات ، واللوازم البعيدة ، إما أن يصحح قول القائل : إن الله خلق آدم على صورة الله ، أو لا يصحح ذلك ، فإن لم يصحح ذلك ، بطل قولك .

وإن كانت تلك المشاركة تصحح هذا الإطلاق ، جاز أن يقال : إن الله خلق كل ملك من الملائكة على صورته ، بل خلق كل حى على صورته ؛ إذ ما من شيء من الأشياء ، إلا وهو يشاركه فى بعض اللوازم البعيدة ، كالوجود ، والقيام بالنفس ، وحمل الصفات .

فعلى هذا يصح أن يقال فى كل جسم ، وجوهر ، إن الله خلقه على صورته .

[فبطل هذا التأويل على التقديرين] .

الوجه الرابع : أن لفظ الحديث : « إذا قاتل أحدكم ، أو ضرب أحدكم فليجتنب الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته » فنهى عن ضرب الوجه ؛ لأن الله خلق آدم على صورته ، فلو كان المراد مجرد خلقه عالما قادرا ، ونحو ذلك لم يكن للوجه بذلك اختصاص ، بل لابد أن يريد الصورة التى يدخل فيها الوجه ، ومثل ذلك يقال فى اللفظ الآخر : « لا يقولن أحدكم قبح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك ، فإن الله خلق آدم على صورته » ، فهو يقتضى النهى عن ذلك ، لتناوله لله تعالى ، وأن وجه ابن آدم داخل فيما خلقه الله على صورته .

فإن قيل : هذا تصريح بأن وجه الله يشبه وجه الإنسان ، كما ورد « صورة الإنسان على صورة الرحمن »[1] .

فالجواب : أن هذا أيضا لازم للمنازع ، ولهذا أورده الرازى ، وأجاب عنه ، بقوله : فإن قيل المشاركة فى صفات الكمال ، تقتضى المشاركة فى الإلهية ، قلنا : المشاركة فى بعض اللوازم البعيدة ، مع حصول المخالفة فى الأمور الكثيرة ، لا تقتضى المساواة فى الإلهية ، ولهذا المعنى قال تعالى : ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[2] ، وقال ﷺ : « تخلقوا بأخلاق الله »[3] .

فيقال : لا ريب أن كل موجودين ، لابد أن يتفقا فى شىء يشتركان فيه ، وأن أحدهما أكمل فيه وأولى من الآخر ، وإلا إذا قدر أنهما لا يتفقان فى شىء أصلا ، ولا يشتركان فيه ، لم يكونا موجودين ، وهذا معلوم بالفطرة البديهية ، التى لا يتنازع فيها العقلاء ، الذين يفهمونها .

وهذا الذى جاءت به السنة من ثبوت هذا الشبه من بعض الوجوه ، وقد أخبر به الرسول ﷺ فوجب قبوله ، والإيمان به ، والله — تعالى — هو الذى

---

(١) تقدم ذكر من رواه .

(٢) الآية ٢٧ من سورة الروم .

(٣) أساس التقديس ص ٨٦ — ٨٧ والحديث غير معروف بل هو موضوع كما قاله شيخ الإسلام انظر نقض التأسيس جـ ٣ ص ٢٧٢ .

خلق آدم على صورته ، وهذا لا يناقض قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ لأن المماثلة منفية عن الله تعالى على كل حال ، فهو جل وعلا ، لا يماثله شيء ، وليس له سمى ، ولا ند ، ولا كفء ، وكل ذلك لا يمنع المشابهة من بعض الوجوه البعيدة ، كالوجود مثلا ، والعلم ، والحياة ونحو ذلك .

الوجه الخامس : أن يقال : المحذور الذى فروا منه إلى تأويل الحديث ، على أن الصورة بمعنى الصفة ، أو الصفة المعنوية ؛ أو الروحانية ، ونحو ذلك ، يلزمهم فيما أثبتوه نظير ما فروا [منه] .

فإذا كان مثل هذا لازما على التقديرين ، لم يجز ترك مقتضى الحديث ، ومفهومه ، مع أنه لا محذور فيه .

وذلك أن كون الإنسان على صورة الله ــ تعالى ــ التى هى صفته ، أو صورته المعنوية ، أو الروحانية ، فيه نوع من المشابهة .

كما أنه إذا أقر الحديث كما جاء فيه نوع من المشابهة ، غايته أن يقال : المشابهة هنا أكثر ، ولكن مسمى نوع من المشابهة لازم على التقديرين .

والتشبيه المنفى بالنص ، والإجماع ، والأدلة العقلية الصحيحة ، منتف على التقديرين .

وإذا ادعى المنازع أن هذا فيه نوع من التجسيم المقتضى للتركيب ، فقد تقدم أن ما يسمونه تركيبا لازم على القول بثبوت الصفات ، بل على القول بنفس الوجود الواجب ، بل هو لازم لمطلق الوجود .

وتقدم بيان ذلك ، وبيان أن جميع ما يدعى من الأدلة العقلية المانعة من ذلك أنها فاسدة ، ومتناقضة .

ومعنى فسادها ظاهر . ومعنى تناقضها : أن ما يدعيه يلزمه من الإثبات نظير ما نفاه ، فيكون جامعا بين النفى ، وإثباته ، وإثبات نظيره .

الوجه السادس : أن يقال : إذا كان مخلوقا[1] على صورة الله ــ تعالى ــ

---

(١) التقدير : إذا كان آدم مخلوقا .. إلخ .

المعنوية فلا يخلو إما أن يكون ذلك مقتضيا لكون صفات العبد المعنوية ، من جنس صفات الله ، بحيث تكون حقيقتها من جنس حقيقتها ، أو لا يقتضى ذلك ، بل يقتضى المشابهة فيها مع تباين الحقيقتين .

فإن كان مقتضى الحديث الأول ، فهو تصريح بأن الله له مثل ، وهذا باطل ، وهو أيضا ممتنع فى العقل .

فإن المتماثلين فى الحقيقة ، يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ، ويجب له ما يجب له ، ويمتنع عليه ما يمتنع عليه .

والمخلوق يجب أن يكون معدوما ، محدثا ، مفتقرا ، ممكنا .

والخالق يجب أن يكون قديما ، واجب الوجود ، غنيا .

[فيلزم] أن يكون الشيء الواحد واجبا ، ممكنا ، غنيا فقيرا ، موجودا معدوما ، وهذا جمع بين النقيضين .

فثبت أن الحديث لا يجوز حمله على هذا [المعنى] .

وأيضا فإنه على هذا التقدير لا يكون فى حمله على الصورة الظاهرة محذور .

و لم يكن ذلك مقتضيا لكون صفات العبد من [جنس] صفات الرب تعالى .

بحيث تكون الحقيقة من جنس الحقيقة ، مع كون هذا عالما ، وهذا عالما ، وهذا حيا ، وهذا حيا ، وهذا قادرا ، وهذا قادرا ، وهذا سميعًا بصيرًا ، وهذا سميعا بصيرا ، بل هذا موجود ، وهذا موجود ، مع كون الحقيقتين ، والعلم ، والقدرة متشابهات .

وكذلك لا يجب إذا كان لهذا وجه ، وصورة ، ولهذا وجه ، وصورة أن تكون الحقيقة من جنس الحقيقة ، مع تشابه الحقيقتين .

يوضح ذلك أنه على التقديرين ، لابد أن يكون بين الذات والذات مشابهة

إذا كان على الصفة المعنوية ، فإن كون هذا عالما قادرا ، وهذا عالما قادرا ، وهذا موجودا ، وهذا موجودا ، وهذا ذاتا لها صفات ، وهذا ذاتا لها صفات ، لابد أن يثبت التشابه كما تقدم .

الوجه السابع : أن الأدلة الشرعية ، والعقلية ، التى يثبت بها تلك الصفات يثبت بنظيرها هذه الصورة .

فإن وجود ذات ليس لها صفات ممتنع فى العقل ، وثبوت الصفات الكمالية معلوم بالشرع ، والعقل .

كذلك ثبوت ذات ، لا تشبه الموجودات بوجه من الوجوه ممتنع فى العقل .

وثبوت المشابهة من بعض الوجوه ، فى الأمور الكمالية ، معلوم بالشرع والعقل .

وكما أنه لابد لكل موجود من صفات تقوم به ، فلابد لكل قائم بنفسه من صورة يكون عليها ، ويمتنع أن يكون فى الوجود قائم بنفسه ليس له صورة يكون عليها .

الوجه الثامن : أن هذا المعنى الذى ذكروه ، وإن كان ثابتا بنفسه[1] ويمكن أن يكون الحديث دالا عليه باللزوم ، والتضمن ، لكن قصر الحديث عليه باطل قطعا ، كما تقدم .

الوجه التاسع : أن ثبوت الوجه ، والصورة لله ــ تعالى ــ قد جاء فى نصوص كثيرة من الكتاب ، والسنة المتواترة ، واتفق على ذلك سلف الأمة .

[وقد تقدم بعض النصوص التى فيها إثبات الوجه والصورة لله تعالى] مع أن النصوص فى الوجه لا يمكن استقصاؤها .

---

(١) يعنى أن آدم متصف بالعلم ، والقدرة ، والحياة وغير ذلك من الصفات .

فإن قيل : قوله ﷺ : « خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعا ، فلما خلقه قال له : اذهب إلى أولئك النفر من الملائكة ، فسلم عليهم واستمع ما يحيونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، قال : فذهب ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه ، ورحمة الله .

قال : فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، طوله ستون ذراعا ، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن »(١) .

وهذا الحديث إذا حمل على صورة الله تعالى ، كان ظاهره أن الله طوله ستون ذراعا ، والله ـــ تعالى ـــ كما قال ابن خزيمة : جل أن يوصف بالذرعان ، والأشبار .

ومعلوم أن هذا التقدير فى حق الله تعالى باطل على قول من يثبت له حدا ، ومقدارا من أهل الإثبات ، وعلى قول النفاة كذلك .

أما النفاة فظاهر ، وأما المثبتة ، فعندهم قدر الله ـــ تعالى ـــ أعظم ، وحده لا يعلمه إلا هو ، وكرسيه قد وسع السماوات والأرض ، والكرسى فى العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، والعرش لا يعرف قدره إلا الله تعالى .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَٱلسَّمَـٰوَاتُ مَطْوِيَّـٰتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَـٰنَهُ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٢) .

وقد تواترت النصوص عن النبى ﷺ ، من حديث أبى هريرة ، وابن عمر ، وابن مسعود ، وابن عباس ، أن الله يقبض السماوات والأرض بيديه .

قال ابن عباس : « ما السماوات السبع ، وما بينهما ، وما فيهما فى يد

---

(١) تقدم ذكر من رواه .
(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

الرحمن إلا كخردلة فى يد أحدكم »[1] .

وإذا كان الأمر كذلك ، كان ــ جل وعلا ــ أكبر وأعظم من أن يقدر بهذا المقدار .

وهذا من المعلوم بالضرورة ، من العقل والدين .

[وليس ما ذكر هو ظاهر الحديث] ، ومن زعم أن الله طوله ستون ذراعا ، فهو مفتر كذاب ، ملحد ، وفساد هذا معلوم بالضرورة ، ومعلوم عدم ظهور ذلك من الحديث ، فإن الضمير فى قوله : « طوله » عائد إلى آدم ، الذى قيل فيه « خلق آدم على صورته » ثم قال : « طوله ستون ذراعا » ، أى طول آدم ، ولفظ الطول وقدره ، ليس داخلا فى مسمى الصورة ، حتى يقال : إذا قيل : خلق الله آدم على صورته ، وجب أن يكون على قدره .

ومن المعلوم أن الشيئين المخلوقين يكون أحدهما على صورة الآخر ، مع التفاوت العظيم فى جنس ذواتهما ، وقدر ذواتهما .

والإضافة تتنوع دلالتها بحسب المضاف إليه ، فلما قال فى آخر الحديث :

« فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، طوله ستون ذراعا » ، اقتضى ذلك مشابهة الجنس فى القدر ، لأن صورة المضاف ، من جنس صورة المضاف إليه ، وحقيقتهما واحدة .

وأما قوله : « خلق الله آدم على صورته » . فإنها تقتضى نوعا من المشابهة فقط ، لا تقتضى تماثلا فى حقيقة ، ولا قدر .

وأما قول ابن خزيمة : فإن الإضافة [فيه] إضافة خلق ، كما فى « ناقة الله » و « بيت الله » و « أرض الله » ، و « فطرة الله » .

---

(١) رواه ابن جرير فى تفسيره جـ ٢٤ ص ٢٥ .

فالكلام عليه من وجوه : أحدها : أنه لم يكن قبل آدم صورة مخلوقة ، خلق عليها ، فقول القائل : خلق على صورة مخلوقة لله ــ وليس هناك إلا صورة آدم ــ بمنزلة قوله : على صورة آدم ، وقد تقدم إبطال هذا من وجوه كثيرة .

الثانى : أن إضافة المخلوق جاءت فى الأعيان القائمة بنفسها ، كالناقة والبيت ، والأرض ، والفطرة ، التى هى [السنة] المطردة .

فأما الصفات القائمة بغيرها ، مثل العلم ، والقدرة ، والكلام ، والمشيئة ، إذا أضيفت كانت إضافة صفة إلى موصوف .

وهذا هو الفرق بين [الإضافتين] ، وإلا التبست الإضافة التى هى إضافة صفة إلى موصوف ، والتى هى إضافة مملوك ومخلوق إلى المالك والخالق ، وذلك هو ظاهر الخطاب فى الموضعين .

لأن الأعيان القائمة بنفسها قد علم المخاطبون ، أنها لا تكون قائمة بذات الله ــ تعالى ــ فيعلمون أنها ليست إضافة صفة .

وأما الصفات القائمة بغيرها ، فيعلمون ، أنه لابد لها من موصوف تقوم به ، وتضاف إليه .

وعلى هذا ، فالصورة قائمة بالموصوف بها ، المضافة إليه .

فصوره الله ، كوجه الله ، ويد الله ، وعلم الله ، وقدرة الله ، ومشيئة الله ، وكلام الله ، ويمتنع أن تقوم بغيره .

الوجه الثالث : أن الأعيان المضافة إلى الله ، لا تضاف إليه لعموم كونها مخلوقة مملوكة له ؛ إذ ذلك يوجب إضافة جميع الأعيان إلى الله ــ تعالى ــ لأنها كلها مخلوقة له ، مملوكة .

فلو كان قوله : فى ناقة صالح : « ناقة الله » بمعنى : الله خلقها ، وهى

ملكه ، لوجب أن تضاف سائر النوق إلى الله بهذا المعنى ، فلا يكون حينئذ لها اختصاص بالإضافة ، وكذلك قوله : « وطهر بيتى » لو كان المراد به ، خلقى ، وملكى لوجب إضافة سائر البيوت إلى الله ـــ تعالى ـــ لمشاركتها فى هذا المعنى .

فلا بد أن يكون فى العين المضافة معنى يختص بها ، تستحق به الإضافة ، فبيت الله هو الذى اتخذ لذكر الله ـــ تعالى ـــ وعبادته ، وهذه إضافة من جهة كونه معبودا فيه ، فهو إضافة إلى إلّهيته ، لا إلى عموم ربوبيته ، وخلقه ، كما فى لفظ العبد ، فإن قوله : ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾[1] ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾[2] هو إضافة إليه لأنهم عبدوه ، لا لعموم كونه عَبَّدهم بخلقه لهم ، فإن هذا يشركهم فيه جميع الناس .

وهو تعالى قد خص بقوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾[3] وقوله : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾[4] ونحو ذلك [خصهم من بين الناس بالإضافة إليه] .

كذلك الناقة فيها اختصاص بكون الله ـــ تعالى ـــ جعلها آية ، ففيها معنى الإضافة إلى إلّهيته .

وأما قوله تعالى : ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾[5] .

---

(١) الآية ١٩ من سورة الجن .
(٢) الآية ٦٣ من سورة الفرقان .
(٣) الآية ٤٢ من سورة الحجر .
(٤) الآية ٦ من سورة الإنسان .
(٥) الآية ٥٦ من سورة العنكبوت .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾[1] ففى الإضافة تخصيص للأرض التى هى باقية على ما خلقها الله ـــ تعالى ـــ فلم يستول عليها الكفار ، والفجار من عباده ، ويمنعوا باستيلائهم عليها من عبادة الله عليها .

ولهذا لم تدخل أرض الحرب فى هذا العموم .

وقد يقال : الإضافة لعموم الخلق ، لأن الأرض واحدة لم تتعدد ، كما تعددت النوق ، والبيوت ، والعبيد .

وقوله : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[2] تضاف إلى الله ـــ تعالى ـــ من الوجهين ، من جهة أن الله خلقها ، فتكون إضافة إلى جهة ربوبيته .

ومن جهة أنه ـــ تعالى ـــ فطرها على الإسلام ، الذى هو عبادة الله ، فتكون الإضافة إلى ألوهيته .

وأما الصورة المخلوقة ، فهى مشاركة لجميع الصور فى كون الله خلقها من جميع الوجوه ، فما الموجب لتخصيصها بالإضافة إلى الله تعالى ؟

وأيضا فسائر الأعضاء مشاركة للصورة التى هى الوجه فى كون الله ـــ تعالى ـــ خلق ذلك جميعه ، فينبغى أن يضاف سائر الأعضاء إلى الله ـــ تعالى ـــ بهذا الاعتبار ، حتى يقال [ليد الإنسان] يد الله ، ولوجهه ، وجه الله ، ولقدمه ، قدم الله ، ونحو ذلك ، لأن الله خلقه .

الوجه الرابع : أن قوله : « إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته » . لو كانت الإضافة ، إضافة خلق ، وملك ، لوجب أن

---

(١) الآية ٩٧ من سورة النساء .

(٢) الآية ٣٠ من سورة الروم .

لا يضرب شيء من الأعضاء ، لأن إضافته إلى خلق الله ــ تعالى ــ وملكه كإضافة الوجه سواء .

الوجه الخامس : أن قوله « لا يقولن أحدكم قبح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك ، فإن الله خلق آدم على صورته » ، يدل على أن المانع هو مشابهة وجهه لصورة الله تعالى .

فلو أريد صورة يخلقها الله ــ تعالى ــ لكان كونه هو مخلوقا لله أبلغ من كونه مشبها لما خلقه الله ، فيكون عدولا عن التعليل بالعلة الكاملة ، إلى ما يشبهها .

الوجه السادس : أن العلم بأن الله خلق آدم ، من أظهر العلوم ، عند العامة والخاصة ، فلو لم يكن فى قوله : « على صورته » معنى إلا أن الله ــ تعالى ــ خلقها ، وهى ملكه ، لكان قوله : « خلق آدم » كافيا .

إذ على هذا التقدير ، خلق آدم ، « وخلق آدم على صورته » سواء ولا فرق بين قول القائل : « هذا مخلوق الله ، وقوله : هذا خلقه الله على الصورة التى خلقها الله » ، ومثل هذا الكلام لا يجوز أن يضاف إلى أدنى الناس ، ممن يعرف اللغة ، فكيف يضاف إلى النبى ﷺ .

الوجه السابع : أن قوله : « خلق آدم على صورته » أو « على صورة الرحمن » يقتضى أنه برأه ، وصوره على تلك الصورة .

فلو أريد الصورة المخلوقة ، المملوكة ، التى هى صورة آدم المضافة إليه تشريفا ، لقيل : « صورة آدم صورة الله » ، أو « صورة الإنسان صورة الله » ، ونحو ذلك من الألفاظ ، الدالة على الإضافة المجردة ، وإن كان فى ذلك ما فيه .

أما إذا قيل : « خلقه على صورته » ، ولم يرد إلا أن صورته المخلوقة هى

المضافة إلى الله ، لكونها مخلوقة له ، فهذا تناقض ظاهر ، لا يحتمله اللفظ »[1]

وأكتفى بهذا النقل المطول عن شيخ الإسلام رحمه الله ، وقد اختصرته كثيرا وتصرفت فيه قليلا جدا ، لأجل الإيضاح ، ومن أراد الاستيعاب فليرجع إليه ، فإن فيه علما غزيرا ، وإبطالا لتأويل المتكلمين ، بحجج وبراهين مقنعة لمن يريد الحق .

قوله : « وضرب الصراط بين ظهرى جهنم » معنى ضرب : نصب ووضع فوق النار . والصراط : هو الجسر الذى يعبر عليه ، كما هو معلوم فى حياة الناس اليوم .

ومعنى قوله : « بين ظهرى جهنم » يعنى فوقها ، ويمتد من طرفها إلى طرفها الآخر .

يقال : أقام الرجل بين ظهرانى القوم ، إذا أقام معهم فى أرضهم ، كما فى الحديث : « أنا برىء من مسلم أقام بين ظهرانى المشركين »[2] .

ومعنى ذلك أن الصراط الذى يعبر عليه المؤمنون إلى الجنة يؤتى به ، فى ذلك اليوم فيوضع فوق النار ، فيعبرون عليه ، فليس لهم طريق إلى الجنة ، إلا من فوق جهنم ، ومع ذلك ، فقد جاء وصف الصراط بأنه دقيق جدا ، وغير ثابت ، بل هو متحرك ، ومضطرب ، وهو فى منتهى الحرارة ، لأنه فوق جهنم فالعبور عليه شديد جدا ، والحقيقة أن العبور بالأعمال ، فمن كان مستقيما على صراط الله فى الدنيا الذى هو دينه ، استقام على ذلك الصراط .

وأما تثنية الظهر فى قوله : « بين ظهرى جهنم » فإنه يدل على أن الصراط مستوعب جهنم ، يعنى يمر عليها كلها ، والله أعلم .

---

(١) نقض التأسيس جـ ٣ ص ٢٧٣ ــ٢٨٥ مخلصا .

(٢) رواه أبو داود فى الجهاد باب : النهى عن قتل من اعتصم بالسجود جـ ٣ ص ١٠٥ والترمذى فى السير باب : كراهة المقام بين أظهر المشركين رقم ١٦٠٤ جـ ٤ ص ١٥٥ .

قوله : « فأكون أنا ، وأمتي أول من يجيز » يعني رسولنا محمدا ﷺ ، وأمته الذين هم أتباعه على دينه هم أول من يعبر الصراط ، إلى الجنة ، وفيه دليل على فضله ﷺ على سائر الأنبياء ، وفضل أمته على الأمم .

ثم تعبر الأمم الأخرى من أتباع الرسل مع رسلهم ، فكل أمة معها رسولها .

قوله : « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل » وذلك لهول الموقف ، وعظم ذلك المنظر ، وشدة الأمر ، فالطريق الذى يمكن أن ينجو من سلكه من فوق جهنم ، وهو كما مر دقيق ، وغير ثابت ، وفى منتهى الحرارة ، وعليه كلاليب تخطف بعض الناس ، فإذًا لابد من النار ، ومن أجل ذلك خرست الألسن ، فلا أحد يستطيع أن يتكلم ، وإنما ينفرد بالتكلم رسل الله ، حيث أمنوا بأمان الله لهم ، وكلامهم هو تضرع إلى الله — تعالى — بقولهم : « اللهم سلم سلم » .

قوله : « وفى جهنم كلاليب » جمع كلوب ، وهو حديدة معقوف رأسها ومحدد بحيث تدخل فى الشيء الذى يراد إمساكه بها ، وقد يقسم رأسها إلى عدة كلاليب يستخرج بها ما يسقط فى البئر ، أو غيرها ، وقد يعلق بها اللحم .

ولكن هذه الكلاليب على خلاف المعهود للناس من كلاليب الدنيا ، ولهذا قال : « مثل شوك السعدان » ، السعدان عشب تحبه الإبل ، وتسمن عليه له شوك مفلطح ، يشبه القرص ، وعلى دائرته شويكات كثيرة معقفة ، وفى أحد جانبيه شويكات كذلك معقفة ، إذا أمسكت شيئا يصعب استخراجها ، ولما كان شوك السعدان ليس كبيرا قال : « غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله » . يعنى لا أحد يستطيع وصف كبرها ، وقدرتها على خطف من أمرت بخطفه ، وإنما يعلم ذلك خالقها وحده .

قوله : « تخطف الناس بأعمالهم » أى بسبب أعمالهم ، التى عصوا الله بها

وخالفوا أمره ، ولهذا قال : « فمنهم الموبق » أى الهالك الذى أهلكته ذنوبه ، وهو من سقط فى النار .

« والمخردل » وهو من يلقى فى النار ، ويرمى به فيها ، والمعنى : أن الكلاليب تمسكه فتلقيه فى النار صريعا ، إلقاء بقوة وشدة .

قوله : « أو المجازى ، ونحوه » هو شك من الراوى هل قال : « المخردل ، أو المجازى » والمجازى هو الذى يجزى بعمله ، فإذا لم يعف الله تعالى عن عبده فإنه يهلك .

قوله : « ثم ينجلى » أى ينجلى ذلك الأمر الهائل ، وينكشف ، وهو العبور على النار ، والمحاسبة ، وغير ذلك من عظائم يوم القيامة .

قوله : « حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد » كل عمل له بداية ونهاية ، ونهايته الفراغ منه ، والمعنى : أن الله تعالى يتولى محاسبة عباده بنفسه وينتهى من ذلك ، وهو تعالى أسرع الحاسبين ، وجاء وصف الله تعالى بذلك فى كثير من النصوص ، وهو من أوصاف الفعل ، وهى كثيرة .

قوله : « وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار » المقصود بأهل النار هنا : أهل التوحيد ، الذين دخلوا النار بذنوبهم ، وموبقات أعمالهم وهم كثيرون .

أما المشركون ، والكافرون ، فإنهم لا يخرجون من النار ، بل هم خالدون فيها ، وأوضح ذلك بقوله :

« أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ، ممن يشهد أن لا إله إلا الله » فهذا صريح فى أنه يدخل النار خلق كثير ممن لا يشرك بالله شيئا ، ولكنهم عصوا الله بفعل المحرمات ، غير الشرك ، وبترك الأوامر ، ولهذا قال : « ممن يشهد أن لا إله إلا الله » يعنى

يعبد الله وحده ، ولا يشرك معه غيره فى العبادة .

قوله : « فيعرفونهم فى النار ، بأثر السجود ، تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود ؟ حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود » وهذا أيضا صريح وواضح فى أنهم كانوا يصلون ، ويسجدون لله ــ تعالى ــ ويعبدونه وحده .

وأثر السجود هى الأعضاء التى يسجد عليها ، وهى : الجبهة والأنف ، وبطون الكفين ، والركبتان ، وأطراف القدمين .

وفى هذا دليل على فضل السجود لله ــ تعالى ــ وهو من آيات الله تعالى الدالة على قدرته الباهرة ، حيث تأكل النار جسم ابن آدم إلا هذه المواضع المختلفة فى البدن ، فإنها لا تضرها ، ولا تغيرها ، لأن الله حرمها عليها والنار لا تأكل إلا ما أمرها الله بأكله .

قوله : « فيخرجون من النار قد امتحشوا » امتحشوا : يعنى احترقوا ، وقد استدل بهذه الجملة من يقول : إنهم يموتون فى النار ، وقيل : إنهم لا يموتون فالله أعلم ، أما قوله : « فيصب عليهم ماء الحياة ، فينبتون تحته ، كما تنبت الحبة فى حميل السيل » فالمراد نبات لحومهم ، وغيرها التى أحرقتها النار ، ولا يلزم من ذلك أنهم ماتوا ، وفارقتهم الحياة ، بل الظاهر أنهم بقوا أحياء يذوقون العذاب ، جزاء لإجرامهم ، وسيأتى أنهم يموتون موتا حقيقيا . فالله أعلم .

وماء الحياة ، جاء تفسيره ، بأنه نهر من أنهار الجنة ، وسيأتى فى حديث أبى سعيد : أنهم يلقون فى ذلك النهر ، ثم ينبتون على حافتيه .

« والحبة » هى : البذرة التى ينبت منها الزرع وغيره .

وحميل السيل هو ما يحمله من الغثاء ، ويلقيه على جوانب الوادى ، والنبات يكون فيه أسرع ، وأقوى لما فيه من الأسمدة .

قوله : « ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار » يعنى أنه أخرج من النار

وأوقف قريبا منها ، وجعل وجهه إليها ، لا يستطيع أن يصرف وجهه عنها ، وذلك من بقية عذابه ، ولهذا يدعو ربه بأن يصرف وجهه عن النار ، ويكون ذلك هو أعظم ما يتمناه ويريده ، بل هو مراده .

قوله : « هو آخر أهل النار دخولا الجنة » أهل النار قسمان ؛ قسم خلق للنار ، وهم المشركون ، والكفار باختلاف أنواعهم ، فهؤلاء لا يخرجون من النار أبدا .

وقسم يكون من أهل النار مؤقتا ، وهؤلاء هم عصاة المؤمنين من الذين لا يعبدون إلا الله وحده ، إلا أنهم ارتكبوا ذنوبا عظاما استوجبوا بها النار ، وهم خلائق لا يحصيهم إلا الله تعالى ، ويتفاوتون فى لبثهم فى النار تفاوتا عظيما ، ولكن لا يبقى فى النار منهم أحد وإن طال لبثه وهذا الرجل المذكور فى الحديث هو آخر من يخرج من النار من الموحدين الذين أدخلوا النار ، وهو أدنى أهل الجنة منزلة ، كما سيأتى التصريح بذلك، فى هذا الحديث .

قوله : « قشبنى ريحها » قال النووى : معنى قشبنى : سمنى ، وآذانى ، وأهلكنى قاله جماهير أهل اللغة .

وقال الخطابى : قشبه الدخان ، ملأ خياشيمه وأخذ يكظمه ، وأصل القشب خلط السم بالطعام ، يقال قشبه إذا سمه »[1] .

والمعنى أن ريح النار الكريه عذبه ، وبلغ منه مبلغ الهلاك .

قوله : « وأحرقنى ذكاؤها » ذكاؤها : حرها ووهجها .

« ثم يقول الله : هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسألنى غيره ؟ فيقول : لا وعزتك ، لا أسألك غيره ، ويعطى ربه من عهود ومواثيق ما شاء » .

---

(١) فتح البارى جـ ١١ ص ٤٥٩ .

هذا الرجل الذى هو آخر من يخرج من النار ، من أهل الإيمان ، يخاطبه الله ــ تعالى ــ بعد أن يدعوه ، ويسأله بأن يصرف وجهه عن النار ، فهو قد قصر مسألته لله ، على صرف وجهه عن النار فقط .

ولهذا : يقول الله له : لعلك إذا أعطيتك ما سألتنى ، أن تسأل غيره وليس ذلك لأن الله ــ تعالى ــ يكبر عليه شيء ، بل لتحصل هذه المحاورة بين رب العالمين وبين هذا الرجل الذى هو أدنى أهل الجنة منزلة ، وليظهر ضعف العبد ، وقصر نظره ، وغنى الرب تعالى ، وكمال حلمه وعلمه ، وحكمته ، ورحمته . وسيعيد البخارى هذا الحديث مستدلا به على وقوع الكلام من الله تعالى لمن يشاء من عباده يوم القيامة .

قوله : « فإذا أقبل على باب الجنة ، ورآها ، سكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم يقول : أى رب : قدمنى إلى باب الجنة » أى أنه يرى الجنة ، ظاهرا ، فيحاول أن يفى بعهوده ، ومواثيقه التى أعطاها ربه ، فيسكت وقتا ، ولكن لضعفه وفقره ، وحاجته إلى فضل ربه ، لا يستطيع الصبر ، فيعود مرة أخرى ناكثا لعهوده ، ومواثيقه بأنه لا يسأل غير ما سأل أول مرة ، ولكن الله تعالى يعفو عنه ويعذره ، لأنه لا يستطيع الصبر على ما يرى .

وقول الله تعالى له : « ويلك يا ابن آدم ما أغدرك » يعنى أنك كثير الغدر والخيانة ، فقد نكثت بالعهود والمواثيق التى أعطيتها بأنك لا تسأل غير ما سألت مرات متعددة .

قوله : « انفهقت له الجنة » أى : انفتحت ، وانزاحت الستائر التى تحجب الرؤية قوله : « الحبرة والسرور » أى : يرى أنواع النعيم ، من المأكولات ، وغيرها ، فالخير كله بحذافيره فى الجنة .

قوله : « لا أكون أشقى خلقك » يقول ذلك لأنه يشاهد أهل الجنة يتنعمون بأنواع النعيم ، وما هم فيه من الفرح والسرور ، وهو ممنوع عن دخولها ،

فتصور عند ذلك أنه أشقى خلق الله ، وليس كذلك .

قوله : « حتى يضحك الله منه » . صفة الضحك تكاثرت عليها الأدلة ، وهى صفة من صفات الفعل ، يجب الإيمان بها على ظاهر ما دلت عليه النصوص ، ولا يجوز تأويل الضحك بلازمه ــ كما يقوله أهل الباطل ، من الجهمية ومن سار على نهجهم ، من أن الضحك هو الرضى أو العطا ، ونحو ذلك مما هو من مخلوقات الله تعالى .

قال أبو سعيد الدارمى ــ رحمه الله ــ [« وادعى المعارض أن ضحك الرب ، رضاه ورحمته ، وصفحه ، عن الذنوب ، كقولك : رأيت زرعا يضحك .

فيقال له : كذبت بأحاديث رسول الله ﷺ إذ شبهت ضحكه بضحك الزرع ، لأن ضحك الزرع ليس بضحك ، وإنما هو خضرته ونضارته ، و لم تسبق إلى هذا التفسير ، فأنت محرف لقول رسول الله ﷺ فكيف تجعل ضحك الرب ، إلى أوليائه ، كضحك الزرع ، الذى هو عبارة عن نضارته ، وخضرته ، فهو ما دام كذلك فهو يضحك لكل من رآه ، لمن يسقيه ، ومن يحصده .

وقولك : إن ضحكه رضاه ورحمته ، تصديق لبعض الحديث ، وتكذيب للبعض الآخر ، حيث رددت الضحك وقبلت الرضا ، والله تعالى لا يضحك لأحد إلا عن رضا ، فيجتمع منه الضحك والرضا .

و لم نسمع عن أحد من أهل السنة أنه يشبه ضحك الله ــ تعالى ــ أو شيئا من أفعاله بشيء من فعل المخلوقين ، كما ادعيت أيها المعارض .

بل نقول : إن الله ــ تعالى ــ يضحك كما يشاء ، وكما يليق به .

ثم ادعيت تفسيرا أوحش من هذا ، فقلت يحتمل أن يكون ضحكه أن يظهر من خلقه ضاحكا ، يأتيهم يبشرهم .

مع أن الحديث الذى ذكره المؤول يرد عليه ، وفيه قول أبى رزين : « قلت يا رسول الله : أويضحك ربنا ؟ قال : نعم » ، ولم يقل يخلق ربنا من يضحك .

ثم قال أبو رزين : « لن نعدم من رب يضحك خيرا » فجعل الضحك من الرب ـــ تعالى ـــ دليلا على حصول الخير .

ثم ادعى المعارض ما هو أبعد من هذا كله ، فزعم أن معنى : يضحك الله من كذا ، أى يجعله ضاحكا .

فيقال : إذا تحولت اللغة العربية إلى لغتك ، ولغة أصحابك جاز فيها أنكر من هذا التأويل ، وأفحش .

ولو كان كما ذكر ، لكان سؤال أبى رزين ، لرسول الله ﷺ يدل على الجهل ، حيث سأل ، « أويضحك ربنا الخلق ؟ » وهو يعلم أن كل الخلق الذى يضحكهم هو الله تعالى . وقد قرأ قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾[1] .

ثم ذكر بسنده حديث ابن مسعود ، أن رسول الله ﷺ قال : « آخر رجل يدخل الجنة رجل يمشى ، يكبو على الصراط مرة ، وتسفعه النار مرة ، فإذا جاوزها التفت إليها ، فقال : تبارك الذى أنجانى منك ، فترفع له الجنة ، فيقول : يا رب أدننى إليها ـــ وفيه « ألا تسألونى مم أضحك ؟ فقالوا : مم تضحك ؟ فقال : من ضحك رب العالمين »[2] .

وذكر الحديث : « ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيره »[3] .

---

(١) الآية ٤٣ من سورة النجم .
(٢) رواه مسلم فى الصحيح جـ ١ ص ١٧٤ ـــ ١٧٥ فى الإيمان .
(٣) رواه الإمام أحمد فى المسند جـ ٤ ص ١١ ، ١٢ .

وحديث أبى سعيد ، عن النبى ﷺ قال : « ثلاثة يضحك الله تعالى إليهم يوم القيامة ، رجل قام من الليل ، والقوم إذا صفوا للقتال ، والقوم إذا صفوا للصلاة »[1] .

وحديث نعيم بن عمار « جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : أى الشهداء أفضل ؟ قال : « الذين يلقون فى الصف ، ولا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا ، أولئك الذين يتلبطون[2] فى الغرف العلى من الجنة ، يضحك إليهم ربك ، وإذا ضحك ربك إلى عبد فى موطن فلا حساب عليه »[3] .

وحديث عبد الله بن عمرو : « يضحك الله إلى صاحب البحر ثلاث مرات ، حين يركبه ، ويخلى من أهله ، وحين يميد متشطحا ، وحين يرى البر .... » .

وحديث ابن مسعود : « إن الله يضحك إلى اثنين ، رجل قام من جوف الليل ، فتوضأ وصلى ، ورجل كان مع قوم ، فلقوا العدو فانهزموا وحمل عليهم ، فالله يضحك إليه »[4] .

وحديث أبى هريرة : « يضحك الله من رجلين قتل أحدهما صاحبه ، وكلاهما دخل الجنة »[5] .

وحديث أسماء بنت يزيد بن السكن : لما توفى سعد بن معاذ ، صاحت أمه ، فقال لها رسول الله ﷺ : « ألا يرقأ دمعك ، ويذهب حزنك ؟ فإن

---

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند جـ ٣ ص ٨٠ وابن ماجة جـ ١ ص ٧٣ والبغوى فى شرح السنة جـ ٤ ص ٢ .

(٢) قاله فى القاموس : تلبط ، تحير ، وعدا ، واضطجع ، وتمرغ ، فمعناه تبوأ المكان واستقر فيها .

(٣) قال المنذرى : رواه الطبرانى بإسناد حسن انظر الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٣١٩ .

(٤) رواه ابن ماجه فى سننه من حديث أبى سعيد الخدرى جـ ١ ص ٧٣ .

(٥) متفق عليه انظر الفتح جـ ٦ ص ٣٩ ومسلم جـ ٣ ص ١٥٠٤ و ١٥٠٥ .

ابنك أول من يضحك الله إليه »[1]][2] .

« والضحك فى موضعه المناسب له ، صفة مدح وكمال ، وإذا قدر حيان ، أحدهما يَضْحَكُ مما يُضْحَكُ منه ، والآخر لا يضحك ، فان الأول أكمل من الثانى .

ولهذا قال النبى ﷺ : « ينظر إليكم الرب قنطين ، فيظل يضحك . يعلم أن فرجكم قريب » .

فقال له أبو رزين العقيلى : يا رسول الله ، أويضحك الرب ؟ قال : نعم قال : لن نعدم من رب يضحك خيرا » .

فجعل الأعرابى العاقل ــ بصحة فطرته ــ ضحكه دليلا على إحسانه وإنعامه ، فدل على أن هذا الوصف مقرون بالإحسان المحمود ، وأنه من صفات الكمال ، والشخص العبوس ، الذى لا يضحك ، مذموم بذلك .

وإذا كان الضحك فينا مستلزما لشىء من النقص ، فالله ــ تعالى ــ منزه عن ذلك ، فضحكه ــ تعالى ــ يليق به ، لا يلزم عليه شىء من النقص »[3] .

ولأصحاب التأويل ، تأويلات مضحكة ، وحجج متهافتة ، سخيفة ، يحاولون أن ينفوا عن الله ــ تعالى ــ ما أثبته له رسوله ﷺ كقولهم : لو كان يضحك ، لكان هذا القول ــ مثلا ــ مضحكا له ، وقولهم : لو جاز عليه الضحك لجاز عليه البكاء .

وهكذا تكون حجج أهل الضلال والهوى ، وطرد قولهم أن يقال : لو جاز عليه العلم ، لجاز عليه الجهل ، ولو جاز أن يكون حيا ، لجاز أن يموت .

---

(١) قال فى مجمع الزوائد رواه الطبرانى جـ ٩ ص ٣٠٩ .

(٢) الرد على بشر المريسى لعثمان بن سعيد الدارمى ص ٥٣٠ ــ ٥٣٦ ملخصا فى عقائد السلف .

(٣) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ١٢١ ــ ١٢٢ بشىء من التصرف .

فكيف تجعل صفات الكمال مستلزمة لثبوت صفات النقص ؟ أليس هذا هو قلب الحقائق ، وعين المحال ؟ سبحانك ربنا هذا بهتان عظيم .

ومن لا يكتفى بما جاء به الرسول ﷺ ويتخذه إماما هاديا ، اجتالته الشياطين ، وتقاذفته الأهواء ، ومن حكم عقله على الوحى فسوف يلقيه فى مكان سحيق .

قوله : « فإذا ضحك منه ، قال له : ادخل الجنة » الضحك دليل على الرضا ، ولهذا لما ضحك الله تعالى من هذا الرجل ، رضى عنه فأمره بدخول الجنة ، وهذا مما يبطل قول أهل التأويل الذين يفسرون الضحك من الله ـــ تعالى ـــ بالثواب .

قوله : « فإذا دخلها قال الله له : تمنه » أى اسأل ما تريد ، واطلب ما يخطر على بالك .

قوله : « فسأل ربه ، وتمنى » السؤال لما يتوقع حصوله ، والتمنى لما لا يتوقع حصوله ، بل هو بعيد المنال .

قوله : « حتى إن الله ليذكره ، يقول : كذا وكذا » أى يقول له : اسأل كذا وكذا من الأشياء التى لم تخطر على فكره .

قوله : « حتى إذا انقطعت به الأمانى ، قال الله : ذلك لك ومثله معه » كان أبو سعيد الخدرى يستمع لأبى هريرة ، فلما قال : « ذلك لك ومثله معه » قال له : « وعشرة أمثاله معه يا أبا هريرة » يعنى : أن الله ـــ تعالى ـــ يعطى هذا الرجل كل ما سأل وتمنى ، ومعه عشرة أمثاله ، قال أبو هريرة : « ما حفظت إلا قوله : « ذلك لك ، ومثله معه » ، قال أبو سعيد : « أشهد أنى حفظت من رسول الله ﷺ قوله : « ذلك لك ، وعشرة أمثاله » .

وهذا يدل على أن الرسول ﷺ حدث أصحابه بهذا الحديث مرات

متعددة ، فى بعضها ذكر ما حفظه أبو هريرة ، حيث حضر ذلك المجلس الذى قال فيه : « ذلك لك وعشرة أمثاله » ، وغاب عنه أبو هريرة ، ولا منافاة ، ومثل ذلك يحصل كثيرًا .

قوله : « قال أبو هريرة : فذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا الجنة » . وهو أدنى أهل الجنة منزلة ، ومع ذلك يعطى ما ذكر ، وقد جاء فى بعض الروايات أنه يعطى عشر مرات .

٦٦ ــ قال : حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث بن سعد ، عن خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن زيد ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قلنا يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟

قال : « هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحوًا ؟ » قلنا : لا ، قال : « فإنكم لا تضارون فى رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارون فى رؤيتهما » .

ثم قال : « ينادى منادٍ ، ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم ، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم ، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم ، حتى يبقى من كان يعبد الله من بر وفاجر ، وغبرات من أهل الكتاب .

ثم يؤتى بجهنم ، تعرض كأنها سراب ، فيقال لليهود : ما كنتم تعبدون ؟

قالوا : كنا نعبد عزير ابن الله ، فيقال : كذبتم ، لم يكن لله صاحبة ، ولا ولد ، فما تريدون ؟

قالوا : نريد أن تسقينا ، فيقال : اشربوا ، فيتساقطون فى جهنم .

ثم يقال للنصارى : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنانعبد المسيح ابن الله ، فيقال : كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد ، فما تريدون ؟

فيقولون : نريد أن تسقينا ، فيقال : اشربوا ، فيتساقطون [فى جهنم] .

حتى يبقى من كان يعبد الله من بر وفاجر ، فيقال لهم : ما يحبسكم وقد ذهب الناس ؟

فيقولون : فارقناهم ونحن أحوج منا إليه اليوم ، وإنا سمعنا مناديا ينادى ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون ، وإنما ننتظر ربنا .

قال : فيأتيهم الجبار فى صورة غير صورته التى رأوه فيها أول مرة ، فيقول : أنا ربكم .

فيقولون : أنت ربنا ، فلا يكلمه إلا الأنبياء ، فيقول : هل بينكم وبينه آية تعرفونه ؟

فيقولون : الساق .

فيكشف عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ، ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمعة فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقا واحدا .

ثم يؤتى بالجسر ، فيجعل بين ظهرى جهنم ، قلنا : يا رسول الله وما الجسر ؟ قال : مدحضة ، مزلة ، عليه خطاطيف ، وكلاليب ، وحسكة مفلطحة ، لها شوكة عقيفاء ، تكون بنجد ، يقال لها السعدان .

المؤمن عليها كالطرف ، وكالبرق ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل ، والركاب ، فناج مسلم ، وناج مخدوش ، ومكدوس فى نار جهنم ، حتى يمر آخرهم يسحب سحبا فما أنتم بأشد لى مناشدة فى الحق تبين لكم من المؤمن يومئذ للجبار .

وإذا رأوا أنهم قد نجوا فى إخوانهم ، يقولون : ربنا إخواننا الذين كانوا يصلون معنا ، ويصومون معنا ، ويعملون معنا .

فيقول الله — تعالى — : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه ويحرم الله صورهم على النار ، فيأتونهم ، وبعضهم قد غاب فى النار إلى قدمه ، وإلى أنصاف ساقيه ، فيخرجون من عرفوا .

ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا .

ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا .

قال أبو سعيد : فإن لم تصدقونى ، فاقرأوا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا ﴾[1] .

فيشفع النبيون ، والملائكة ، والمؤمنون .

فيقول الجبار جل جلاله . بقيت شفاعتى ، فيقبض قبضة من النار

---

(١) الآية ٤٠ من سورة النساء .

فيخرج أقواما قد امتحشوا ، فيلقون فى نهر بأفواه الجنة ، يقال له ماء الحياة ، فينبتون فى حافتيه ، كما تنبت الحبة فى حميل السيل ، قد رأيتموها إلى جانب الصخرة ، وإلى جانب الشجرة ، فما كان إلى الشمس منها كان أخضر ، وما كان منها إلى الظل كان أبيض .

فيخرجون كأنهم اللؤلؤ ، فى رقابهم الخواتيم ، فيدخلون الجنة .

فيقول أهل الجنة : هؤلاء عتقاء الرحمن ، أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه . ولا خير قدموه .

فيقال لهم : لكم ما رأيتم ومثله معه » .

قوله : « قلنا يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ » فى رواية مسلم : « أن ناسا فى زمن رسول الله ﷺ قالوا .... إلخ » . فما هنا تفسير لها .

قوله : « قال : هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحوًا ؟ » فى رواية مسلم : « فى رؤية الشمس بالظهيرة صحوًا ليس معها سحاب » يعنى فى وقت خلو السماء من السحاب والقتر ، فقوله : « ليس معها سحاب » زيادة إيضاح لقوله : « صحوا » .

قوله : « ثم ينادى مناد ، ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون » تقدم فى حديث أبى هريرة قوله : « يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيقول : من كان يعبد شيئا فليتبعه » . فيكون المنادى هو الله تعالى ، ومعلوم أن النداء هو رفع الصوت بالكلام ، فما أبلغ هذا فى إثبات تكلم الله تعالى حقيقة .

قوله : « فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم » يعنى عباد الصليب ، وهم النصارى كما هو معلوم .

« والأوثان هى الأصنام ، وقد تطلق على كل معبود من دون الله تعالى .

قال ابن الأثير : « الفرق بين الوثن ، والصنم ، أن الوثن كل ماله جثة معمولة ، من جواهر الأرض ، أو من الخشب ، أو الحجارة ، كصورة الآدمى تعمل وتنصب ، فتعبد .

والصنم الصورة بلا جثة ، ومنهم من لم يفرق بينهما ، وأطلقهما على المعنيين ، وقد يطلق الوثن على غير الصورة »[1] .

وقد جاء فى قصة عدى بن حاتم أنه قال : « قدمت على النبى ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب ، فقال لى : « ألق هذا الوثن عنك »[2] وهذا يدل على أن الوثن يطلق على كل ما عبد من دون الله ، وقد قال الأعشى :

تطوف العفاة بأبوابه كطوف النصارى ببيت الوثن[3]

يريد بالوثن : الصليب .

قوله : « وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم » قال الله تعالى : ﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَاكَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ * مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾[4] والمقصود بأزواجهم نظراءهم وإخوانهم فى العمل .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[5] .

فالله تعالى يحشر كل عابد مع معبوده ؛ لأنهم كانوا فى الدنيا يزعمون أن معبوداتهم من دون الله سوف تتولاهم ، وتشفع لهم وتنفعهم ، فجمعهم الله مع معبوداتهم ليظهر كذبهم وغرورهم ، وفقر كل من العباد والمعبود .

---

(١) النهاية جـ ٥ ص ١٥١ .
(٢) أخرج قصته أحمد جـ ٤ ص ٣٧٨ والترمذى رقم ٢٩٥٦ وابن هشام فى السيرة جـ ٢ ص ٥٧٨ .
(٣) انظر ديوان الأعشى ص ٢٠٩ .
(٤) الآيات من ٢٢ ـــ ٢٥ من سورة الصافات .
(٥) الآية ١٧ من سورة الفرقان .

وفى رواية عبد الله بن مسعود ، « يقول الله ــ تعالى ــ للناس فى ذلك الموقف أليس عدل منى أن أولى كل عابد ما كان يعبد » .

قوله : « حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر ، وغبرات من أهل الكتاب » .

البر : هو المطيع لله ، المتبع لرسله ، والفاجر هو : الخارج عن الطاعة ، ولو فى بعض الأمور .

والغبرات جمع غبر ، بضم الغين وفتح الباء ، والمقصود ، بقايا من اليهود ، والنصارى قليلة ، وأما معظمهم وجلهم فقد ذهب بهم مع أوثانهم إلى جهنم .

قوله : « ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب » فى ذلك الموقف أمور عظام ومهولة وله أحوال متعددة ، وحقائقها لا تعلم إلا بالمعاينة ، ولكن الرسل ، ولا سيما خاتمهم جاؤا بما يكفى المؤمن فى الإيقان من أوصاف ذلك اليوم .

وفى هذا : « أن جهنم يؤتى بها كأنها سراب » وفى صحيح مسلم ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها »[1] .

فيؤتى بجهنم بهذه الصفة تعرض على الناس فى ذلك الموقف ، وهناك ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَاهُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[2] .

والسراب : هو ما يرى فى الأرض الخالية المستوية وقت ما تشتد حرارة الشمس من أثر انعكاس أشعتها على الأرض ، فيرى فى القيعان كأنه ماء ، فإذا قرب إليه الرائى أبعد عنه ، فهو كما قال الله تعالى :

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ٨ ص ١٤٩ .
(٢) الآية ٢ من سورة الحج .

﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾[1] .

قوله : « فيقال لليهود ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد عزيرًا ابن الله ، فيقال : كذبتم لم يكن لله صاحبه ولا ولد » السؤال لتبكيتهم ، وتقريرهم بما يستحقون به العذاب ، وهو عبادتهم لغير الله .

وفيه دليل على أن الناس فى ذلك اليوم يكونون على عقائدهم فى الدنيا لأن هؤلاء اليهود والنصارى لما سئلوا عما كانوا يعبدون قالوا عزيرا ابن الله والمسيح ابن الله ، فهم لا يزالون يعتقدون أن عزيرًا ابن الله ، وكذلك النصارى يظنون ذلك فى المسيح .

والكذب الذى أضيف إليهم هو قولهم : عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله ولهذا قال : لم يكن لله صاحبة ولا ولد .

قوله : « فما تريدون ؟ قالوا : نريد أن تسقينا ، فيقال : اشربوا ، فيتساقطون فى جهنم » فى ذلك الموقف يشتد الظمأ لتوالى الكربات ، وترادف الشدائد المهولات ، ولهذا صار أول مطلبهم الماء ، وقد مثلت لهم جهنم كأنها ماء كما سبق فى قوله : « كأنها سراب » فيقال لهم : اذهبوا إلى ما ترون ، وتظنونه ماء ، فاشربوا ، فيذهبون فيجدون جهنم يحطم بعضها بعضا ، فيتساقطون فيها ، ومثل ذلك يقال للنصارى بعدهم .

قوله : « حتى يبقى من كان يعبد الله من بر وفاجر » تقدم فى الحديث قبله : « وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها » ، وما هنا أعم ، وتقدم الكلام عليه .

قوله : « فيقال لهم : ما يحبسكم ، وقد ذهب الناس ؟ فيقولون : فارقناهم ، ونحن أحوج منا إليه اليوم » الذى يخاطبهم بذلك هو رب العالمين ، كما هو واضح فى السياق .

والرواية التى ذكرها البخارى فى التفسير : « حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر أو فاجر ، أتاهم رب العالمين »[2] ، وهذا من الامتحان

---

(١) الآية ٣٩ من سورة النور .

(٢) انظر البخارى جـ ٦ ص ٥٦ .

والابتلاء ، ليتبين ثباتهم وصدقهم ، ولذلك قالوا : فارقنا الناس فى الدنيا ونحن أحوج إليهم منا اليوم ، وذلك لأنهم عصوا الله وخالفوا أمره وناصبوا من أطاعه العداوة ، فعاديناهم لذلك ، وزايلناهم بغضا لهم فى الله ، وإيثارا لطاعة ربنا ، كما قال إبراهيم عليه السلام ، والذين آمنوا معه : ﴿ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾[1] .

قوله : « إليه » قال مصححو الطبعة البولاقية : « هكذا فى جميع النسخ متنا وشرحا بضمير الإفراد ، وهو مخالف لما ذكره الشارح [يعنى القسطلانى] نقلا عن البرماوى والكرمانى والعينى ، حيث قال : « وكنا فى ذلك الوقت أحوج إليهم » وتقدم فى تفسير سورة النساء بضمير الجمع »[2] .

وقد أشار الحافظ إلى صحة الإفراد ، وأن عياضا رجحه ، وجعل الضمير عائدا إلى الله تعالى ، والمعنى : « فارقنا الناس فى معبوداتهم ، ولم نصاحبهم ، ونحن اليوم أحوج إلى ربنا من أى يوم كان ، أى إنا محتاجون إليه »[3] .

قوله : « وإنا سمعنا مناديا ينادى ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون ، وإنما ننتظر ربنا » يعنى أنهم امتثلوا قول المنادى ، وليسوا ممن يعبد تلك المعبودات التى أحضرت إلى عابديها ، ثم سيقوا معها إلى النار ، وقد علموا أن ربهم تعالى سيأتيهم .

قوله : « فيأتيهم الجبار فى صورة غير صورته التى رأوه فيها أول مرة » قد تقدم الكلام فى الصورة بما يكفى ، وفى الرواية التى ذكرها فى التفسير : « أتاهم رب العالمين فى أدنى صورة من التى رأوه فيها أول مرة » وهو لفظ

---

(١) الآية ٤ من سورة الممتحنة .
(٢) حاشية البخارى طبعة بولاق جـ ٩ ص ١٥٩ .
(٣) انظر فتح البارى جـ ١١ ص ٤٥٠ .

رواية مسلم[1] ، وفى السنة لابن أبى عاصم : « ثم يتبدى الله لنا فى صورة غير صورته التى رأيناه فيها أول مرة » وفى رواية عنده أيضا « ثم يرفع برنا ومسيئنا ، وقد عاد لنا فى صورته التى رأيناه فيها أول مرة »[2] وقد تقدم .

وفى صحيح مسلم فى هذا الحديث : « ثم يرفعون رءُوسهم وقد تحول فى صورته التى رأوه فيها أول مرة ، فقال : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا »[3] .

ففى هذه الألفاظ بيان صريح بأنهم قد رأوه فى صورة عرفوه فيها ، قبل أن يأتيهم هذه المرة ، وفى ذلك رد لما قاله الإمام أبو سعيد الدارمى رحمه الله حيث جعل معرفتهم إياه بصفاته التى تعرف بها إليهم فى الدنيا .

وكذلك قوله : « إن هذا التحول من صورة إلى صورة ، هو تمثيل يمثله الله فى أعينهم .

أما هو ــ تعالى ــ فلا يتحول من صورة إلى صورة ، وهذا خلاف ما صرحت به الأحاديث كما ذكرنا[4] .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قول أبى سعيد هذا ، ورده من وجوه عدة ، فقال بعد ما ذكر أقوال أهل التأويل ، من الجهمية ، والحلولية لحديث الصورة وإتيان الرب ــ تعالى ــ إلى أهل الموقف بصورته ، قال :

« وأقرب ما يكون عليه إتيان الله ــ تعالى ــ فى صورة بعد صورة ــ وإن كان تأويلًا باطلًا ــ أيضا ما ذكره بعض أهل الحديث ، مثل أبى عاصم

---

(١) انظر صحيح مسلم مع النووى جـ ٣ ص ٢٧ .
(٢) انظر السنة جـ ١ ص ٢٨٥ .
(٣) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٦٩ رقم ٣٠٢ .
(٤) انظر الرد على المريسى ص ٤٢١ مجموعة عقائد السلف .

النبيل ، أنه كان يقول : ذلك تغيير يقع فى عيون الرائين ، كنحو ما يخيل إلى الإنسان الشيء بخلاف ما هو به ، فيتوهم الشيء على الحقيقة .

وقال عثمان بن سعيد فى نقضه على بشر المريسى : « وأما إنكارك على رسول الله ﷺ أنه قال : إن الله يترائى لعباده المؤمنين يوم القيامة ، فى غير صورته ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، ثم يترائى فى صورته التى يعرفونها ، فيتبعونه ، فزعمت أن من أقر بهذا فهو مشرك .

فيقال لهم : أليس قد عرفتم ربكم فى الدنيا ، فكيف جهلتموه عند العيان ، وشككتم فيه ؟

وقد صح بهذا الخبر عن رسول الله ﷺ كأنك تسمعه يقوله من جودة إسناده .

ولو أن الله تجلى لهم أول مرة فى صورته التى عرفهم صفاتها فى الدنيا ، لاعترفوا بما عرفوا ، ولكنه يُرى نفسه فى أعينهم ، لقدرته ، ولطف ربوبيته فى صورة غير ما عرفهم الله صفاتها فى الدنيا ؛ ليمتحن الله بذلك إيمانهم ، ثانية فى الآخرة ، أنهم لايعترفون بالعبودية فى الدنيا والآخرة إلا للمعبود الذى عرفوه فى الدنيا بصفاته التى أخبرهم بها فى كتابه ، واستشعرتها قلوبهم حتى ماتوا على ذلك .

فإذا مثل فى أعينهم غير ما عرفوا من الصفة نفروا ، وأنكروا ، إيمانا منهم بصفة ربوبيته التى امتحن قلوبهم فى الدنيا بها ، من غير أن يتحول الله من صورة إلى صورة .

ولكن يمثل ذلك فى أعينهم ، كما مثل جبريل مع عظم صورته ، فى صورة دحية الكلبى ، وكما مثل لمريم بشرًا ، وكما شبه عيسى فى أعين اليهود »[1]

---

(١) نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسى ص ٤٢١ ـــ ٤٢٣ وانظر نقض التأسيس جـ ٣ ص ٣٩٧ ـــ ٤٠١ المخطوط .

وهذا باطل من وجوه :

أحدها : أن فى حديث أبى سعيد المتفق عليه « فيأتيهم فى صورة غير صورته التى رأوه فيها أول مرة » .

وفى لفظ : « فى أدنى صورة من التي رأوه فيها » ، وهذا يفسر قوله فى حديث أبى هريرة : « فيأتيهم الله فى صورة غير صورته التى يعرفون » ، ويبين أن تلك المعرفة كانت لرؤية منهم متقدمة ، فى صورة غير الصورة التى أنكروه فيها .

وفى هذا التفسير قد جعل صورته التى يعرفون ، هى التى عرفهم صفاتها فى الدنيا ، وليس الأمر كذلك ؛ لأنه أخبر أنها الصورة التى رأوه فيها أول مرة ، لا أنهم عرفوها بالنعت فى الدنيا .

ولفظ الرواية صريح فى ذلك ، وقد بينا أنه فى غير حديث ما يبين أنهم رأوه قبل هذه المرة .

الثانى : أنهم لا يعرفون فى الدنيا لله صورة ، ولم يروه فى الدنيا فى صورة ، فإن ما وصف الله — تعالى — به نفسه ، ووصفه به رسوله لا يوجب لهم معرفة صورة يعرفونه فيها ، ولهذا قال — تعالى — : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾[1] فلو أرادوا الصفات المخبر بها فى الدنيا لذكروا ذلك .

فعلم أنهم لم يطبقوا الصورة التى رأوه فيها أول مرة [على ما علموه فى الدنيا][2] .

وقد قال النبى ﷺ فى سدرة المنتهى : « فغشيها من أمر الله ما غشيها ، حتى لا يستطيع أحد أن ينعتها من حسنها »[3] ، فالله أعظم من أن يستطيع

---

(١) الآية ١١ من سورة الشورى .
(٢) ليست من كلام الشيخ وإنما زدتها للإيضاح .
(٣) انظر صحيح مسلم جـ ١ ص ١٤٦ الحديث رقم ٢٥٩ .

أحد أن ينعت صورته ، وهو سبحانه وصف نفسه لعباده بقدر ما تحتمله أفهامهم .

ومعلوم أن قدرتهم على معرفة الجنة بالصفات أيسر ، ومع هذا فقد قال : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[1] فالخالق أن لا يكونوا يطيقون معرفة صفاته كلها أولى .

الوجه الثالث : أن فى حديث أبى سعيد : « فيرفعون رءُوسهم وقد تحول فى الصورة التى رأوه فيها أول مرة » فقوله : « لا يتحول من صورة إلى صورة ولكن يمثل ذلك فى أعينهم » مخالف لهذا النص .

الوجه الرابع : أن فى حديث ابن مسعود ، وأبى هريرة ، من طريق العلاء :

« أنه يمثل لكل قوم ما كانوا يعبدون » وفى لفظ « أشباه ما كانوا يعبدون » .

ثم قال : « ويبقى محمد وأمته ، فيتمثل لهم الرب - تبارك وتعالى - فيأتيهم فيقول : « ما لكم لا تنطلقون كما انطلق الناس ؟ فيقولون : إن لنا إلها ما رأيناه بعد » ، فقد أخبر أن الله ـ تعالى ـ هو الذى يتمثل لهم ، ولم يقل لهم كما قال فى معبودات المشركين ، وأهل الكتاب .

الوجه الخامس : أن فى عدة أحاديث ، كحديث أبى سعيد ، وابن مسعود : « قال هل بينكم وبينه علامة ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساقه ، فيسجدون له » . وهذا بين أنهم لم يعرفوه بالصفة التى وصف لهم فى الدنيا ، بل بآية وعلامة عرفوها فى الموقف .

وكذلك فى حديث جابر : « قال : فيتجلى لنا يضحك » ، ومعلوم أنه وإن

---

(١) رواه البخارى فى عدة مواضع من صحيحه وسيأتى ومسلم انظر جـ ٤ ص ٢١٧٤ رقم ٢٨٢٤ .

وصف بالدنيا بالضحك فصورته لا تعرف بغير المعاينة .

الوجه السادس : أنه مثل ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ ﴾[١] وبقوله : ﴿ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾[٢] ، وهذا غير مناسب لأن اليهود غلطوا فى الذى رأوه ، حيث ظنوه المسيح ، ولم يكن هو ، ولكن ألقى شبهه عليه ، وكذا الذى رأته مريم ، ومحمد ﷺ هو جبريل نفسه فى صورة آدمى ، فكيف يقاس ما رؤى هو نفسه فى صورة على ما لم ير ؟

وأما التقليل والتكثير فى أعينهم فهو فى المقدار ، ليس فى نفس المرئى ، ولكن فى صفته .

الوجه السابع : أن هذا المعنى كان مقيدا بالرائى ، لا بالمرئى ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾[٣] فقيد ذلك بأعين الرائين ، يقال : كان هذا فى عين فلان رجلا ، فظهر امرأة ، وكان كبيرا ، فظهر صغيرا ونحو ذلك .

لا يقال جاء فلان فى صورة كذا ، ثم تحول فى صورة كذا ، ويكون التصوير فى عين الرائى فقط »[٤] .

قوله : « فيقولون : الساق ، فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن » : الضمير فى قوله : « فيكشف عن ساقه » يعود إلى الله تعالى ، ففى ذلك إثبات الساق صفة لله تعالى ، ويكون هذا الحديث ونحوه تفسيرا لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الأنفال .

(٢) جزء من الآية ١٥٧ من سورة النساء .

(٣) الآية ٤٤ من سورة الأنفال .

(٤) نقض التأسيس جـ ٣ ص ٣٩٧ ــ ٤٠٤ المخطوطة .

يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[1] .

قال البخارى فى التفسير من صحيحه : « باب : « يوم يكشف عن ساق » :

حدثنا آدم ، حدثنا الليث ، عن خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد ـــ رضى الله عنه ـــ قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ، ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد ، فيعود ظهره طبقا واحدا » وهذا حديث متفق على صحته ، وفيه التصريح فى أن الله تعالى يكشف عن ساقه ، وعند ذلك يسجد له المؤمنون .

ومن تأوله التأويلات المستكرهة ، فقد استدرك على رسول الله ﷺ ولم يرض بما جاء به عن ربه تبارك وتعالى .

ومعلوم أن قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾[1] ليس نصًّا فى أن الساق صفة لله تعالى لأنه جاء نكرة غير معرف بالإضافة إلى الله ـــ تعالى ـــ ، فيكون قابلا كونه صفة ، وكونه غير صفة ، وتعينه لواحد من ذلك يتوقف على الدليل وقد دل الدليل الصحيح على أنه صفة لله ـــ تعالى ـــ فلا يجوز تأويله بعد ذلك .

أما ما جاء عن ابن عباس ، وغيره أن ذلك : الشدة والكرب يوم القيامة ، فهذا بالنظر إلى لفظ الآية ، لأنها كما قلنا لم تدل على الصفة بلفظها ، وإنما الدليل هو الحديث المذكور ، مع أنه جاء عن أبى سعيد ، راوى الحديث وجاء عن غيره أيضا أنهم جعلوها دالة على الصفة .

قال شيخ الإسلام : « وقد طالعت التفاسير المنقولة ، عن الصحابة ،

---

(١) الآية ٤٢ من سورة ن .

وما رووه من الحديث ، ووقفت على أكثر من مائة تفسير ، فلم أجد عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئا من آيات الصفات ، أو أحاديثها بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف ، إلا فى مثل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ فروى عن ابن عباس ، وطائفة ، أن المراد به : الشدة ، أن الله يكشف عن الشدة فى الآخرة ، وعن أبى سعيد ، وطائفة ، أنهم عدوها فى الصفات ، للحديث الذى رواه أبو سعيد فى الصحيحين .

ولا ريب أن ظاهر القرآن لا يدل على أن هذه من الصفات ، فإنه قال : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ نكرة فى الإثبات لم يضفها إلى الله ، ولم يقل عن ساقه ، فمع عدم التعريف بالإضافة ، لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر »[1] .

وقال أيضا : « الصحابة قد تنازعوا فى تفسير هذه الآية ، هل المراد به الكشف عن الشدة ، أو المراد أنه يكشف الرب عن ساقه .

ولم يتنازع الصحابة ، والتابعون فيما يذكر من آيات الصفات ، إلا فى هذه الآية بخلاف[قوله : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ ونحو ذلك فإنه لم يتنازع فيها الصحابة والتابعون] ، وذلك أنه ليس فى ظاهر القرآن أن ذلك صفة لله ــ تعالى ــ [يعنى قوله ــ تعالى ــ : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾] لأنه قال : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ ، ولم يقل عن ساق الله ولا قال : يكشف الرب عن ساقه ، وإنما ذكر ساقا نكرة غير معرفة ، ولا مضافة .

وهذا اللفظ بمجرده ، لا يدل على أنها ساق الله ، والذين جعلوا ذلك من صفات الله ــ تعالى ــ أثبتوه بالحديث الصحيح ، المفسر للقرآن ، وهو

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٣٩٤ ــ ٣٩٥ .

حديث أبى سعيد الخدرى ، المخرج فى الصحيحين ، الذى قال فيه : « فيكشف الرب عن ساقه » .

وقد يقال : إن ظاهر القرآن يدل على ذلك ، من جهة أنه أخبر أنه يكشف عن ساق ، ويدعون إلى السجود ، والسجود لا يصلح إلا الله ، فعلم أنه هو الكاشف عن ساقه .

وأيضا فحمل ذلك على الشدة ، لا يصلح ؛ لأن المستعمل فى الشدة أن يقال : كشف الله الشدة — أى أزالها — كما قال : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾[1] وقال : ﴿ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[2] .

وإذا كان المعروف من ذلك فى اللغة أنه يقال : كشف الشدة — أى أزالها — فلفظ الآية ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ ، وهذا يراد به الإظهار ، والإبانة وأيضا هناك ، تحدث الشدة ، لا إزالتها ، فلا تكشف الشدة يوم القيامة .

لكن هذا الظاهر [من كون القرآن دالا على الصفة] ليس ظاهرًا من مجرد لفظة « ساق » ، بل بالتركيب ، والسياق ، وتدبر المعنى المقصود »[3] وبهذا يتبين بطلان قول من يقول : المراد بالساق : الأمر الشديد المهول ، أو أنه ملك يجعله الله علامة يعرفونها ، ونحو ذلك من التأويلات الباردة السخيفة التى يجب أن ينزه عنها كلام العقلاء فضلا عن كلام رسول الله ﷺ .

وكل من جرد نفسه لله ، وطرح عنه التعصب ، والتقليد ، فإنه يعلم بطلان هذه التأويلات ، وسخافتها .

قوله : « فيسجد له كل مؤمن ، ويبقى من يسجد لله رياء وسمعة ، فيذهب

---

(١) الآية ٥٠ من سورة الزخرف .

(٢) الآية ٧٥ من سورة المؤمنون .

(٣) نقض التأسيس جـ ٣ ص ١٥ — ١٦ .

كيما يسجد ، فيعود ظهره طبقا واحدا » ، وهذا مما يدل على أن الساق صفة لله ــ تعالى ــ حيث عرفه المؤمنون بذلك فسجدوا له ، ومعلوم أن الشدائد فى ذلك اليوم متوالية ، من النفخ فى الصور ، وجمع الناس فى صعيد واحد من أولهم إلى آخرهم ، فيطول وقوفهم ، شاخصة أبصارهم ، حفاة ، عراة ، غرلا ، جياعا عطاشا ، ثم يؤتى إليهم بجهنم ، تُجر بسبعين ألف زمام فى كل زمام سبعون ألف ملك ، ثم تتوالى الأهوال من نصب الموازين ، والصراط والعبور على النار ، حتى ينجو المؤمنون إلى الجنة ، وأما من عداهم فلا يخرجون من شدة إلا إلى ما هو أشد منها ، وكل هذه الأمور وغيرها لم توجب للمؤمنين السجود .

فلما مثل لكل قوم ما يعبدون ، وأمروا باتباع معبوداتهم إلى النار ، وبقى المؤمنون ينتظرون معبودهم ، حتى إذا جاءهم فى صورة لا يعرفونه فيها ، وقال أنا ربكم ، فيتعوذون بالله منه ، خوفا أن يكون غير ربهم لأنهم لم يكونوا يشركون به شيئا ، ثم يقول لهم : هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، الساق ، عند ذلك يكشف عن ساقه جل وعلا ، فيخرون له سجدا .

وأما المنافقون الذين يراءون الناس بعبادتهم ، فمنعوا من السجود ، وجعلت ظهورهم طبقا واحدا ، لا يستطيعون الانحناء ، ولا السجود ؛ لأنهم ما كانوا فى الحقيقة يسجدون لله فى الدنيا ، وإنما كانوا يسجدون لأغراضهم الدنيوية .

قوله : « ثم يؤتى بالجسر ، فيجعل بين ظهرى جهنم ، قلنا : يا رسول الله وما الجسر ؟ قال : مدحضة ، مزلة » المدحضة : الذى لا تستمسك فيه الأقدام ، ومزلة صفة لمدحضة ، يعنى أن القدم إذا وطئ عليه لا يثبت ، بل يزل ، والدحض : هو الموضع الذى فيه طين وأصابه الماء ، فأصبح يدحض ، من وطئ عليه ــ أى يزله ولا يثبت عليه قدم .

قوله : « عليه خطاطيف » هو الحديدة المعقوفة ، المحددة ، لأجل أن تمسك

من أريد خطفه بها ، فهى قريبة من الكلوب ، وتقدم شرحها وتفسير السعدان .

قوله : « المؤمن عليها كالطرف ، وكالبرق ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل ، والركاب » يعنى مرورهم على النار ، يختلف باختلاف إيمانهم وأعمالهم ، فمن كان إيمانه كاملا ، وعمله صالحا خالصا لله ، فإنه يمر من فوق جهنم كلمح البصر ، ومن كان دون ذلك يكون مروره بحسب إيمانه وعمله ، كما فصل ذلك فى الحديث ، ومثل بالبرق ، والريح إلى آخره . قوله : « فناج مسلم ، وناج مخدوش ، ومكدوس فى نار جهنم ، حتى يمر آخرهم يسحب سحبا » جعل المارين على الصراط أربعة أصناف :

الأول : الناجى المسلَّم من الأذى ، وهؤلاء يتفاوتون فى سرعة المرور عليه كما سبق .

والثانى : الناجى المخدوش ، والخدش هو الجرح الخفيف ، يعنى أنه أصابه من لفح جهنم ، أو أصابته الكلاليب ، والخطاطيف ، التى على الصراط بخدوش .

والثالث : المكدوس فى النار ، الملقى فيها بقوة ، قال ابن الأثير : « كأن الإنسان تجمع يداه ، ورجلاه ، ويشد ، ويلقى فى النار ، وهو بمعنى المكردس وجاء فى بعض نسخ مسلم « مكدوش »[1] .

والرابع : الذى يسحب على الصراط سحبا قد عجزت أعماله عن حمله .

قوله : « فما أنتم بأشد لى مناشدة فى الحق قد تبين لكم ، من المؤمن يومئذ للجبار » هذا من كرم الله ، ورحمته حيث أذن لعباده المؤمنين فى مناشدته وطلب عفوه عن إخوانهم الذين ألقوا فى النار ، بسبب جرائمهم التى كانوا

---

(١) جامع الأصول جـ ١١ ص ٣١٤ مطبعة أنصار السنة .

يبارزون بها ربهم ، ومع ذلك ألهم المؤمنين الذين نجوا من عذاب النار وهول الصراط ، ألهمهم مناشدته ، والشفاعة فيهم ، وأذن لهم فى ذلك رحمة منه لهم تبارك وتعالى .

« يقولون : ربنا إخواننا الذين كانوا يصلون معنا ، ويصومون معنا ، ويعملون معنا » مفهوم هذا أن الذين لا يصلون مع المسلمين ، ولا يصومون معهم ، لا يشفعون فيهم ، ولا يناشدون ربهم فيهم .

وهو يدل على أن هؤلاء الذين وقعت مناشدة المؤمنين لربهم فيهم كانوا مؤمنين ، موحدين ، لقولهم : « إخواننا كانوا يصلون معنا ، ويصومون معنا »، ولكن ارتكبوا بعض المآثم ، التى أوجبت لهم دخول النار .

وفى هذا رد على طائفتين ، ضالتين ، الخوارج ، والمعتزلة ، فى قولهم إن من دخل النار ، لا يخرج منها ، وإن صاحب الكبيرة فى النار .

« فيقول الله تعالى : اذهبوا ، فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه ، ويحرم الله صورهم على النار ، فيأتونهم ، وبعضهم قد غاب فى النار إلى قدمه ، وإلى أنصاف ساقيه ، فيخرجون من عرفوا ، ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا ، فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا ، ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا ، قال أبو سعيد : فإن لم تصدقونى فاقرأوا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾[1] أما كون المؤمنين يذهبون إلى النار ، وكيف يستطيعون الوصول إليها ؟ وكيف يعرفون من فى قلبه مثقال دينار ، أو نصف دينار ، أو مثقال ذرة من إيمان ؟ هذه كلها من أمور الآخرة ، التى لا تقاس بما تعارف

---

(١) الآية ٤٠ من سورة النساء .

عليه الناس فى الدنيا ، ولا يستطيع عقل البشر الحكم عليها ، وإنما تعرف حقائقها يوم القيامة ، فهناك يأتى تأويلها ، وإنما يجب علينا تصديقها ، والتيقن منها .

وليس بمستنكر فى قدرة الله ــ تعالى ــ أن يجعل النار غير مؤذية لهؤلاء المؤمنين الذاهبين إلى إخوانهم فى النار ، كالملائكة الذين فيها .

والمقصود بالصور فى قوله : « ويحرم صورهم على النار » وجوههم ، وقد تقدم أن الله يحرم على النار مواضع السجود ، وذلك من آيات الله وعظيم قدرته .

واستشهاد أبى سعيد بالآية ظاهر فى أن العبد إذا كان معه مثقال ذرة من إيمان ، فإن الله يضاعفه له ، فينجيه بسببه .

قوله : « فيشفع النبيون ، والملائكة ، والمؤمنون » صريح فى أن هؤلاء الأقسام الثلاثة يشفعون ، ولكن يجب أن يعلم أن شفاعة أى شافع ، لا تقع إلا بعد أن يأذن الله فيها ، كما تقدم فى مناشدتهم ربهم وسؤالهم إياه ، ثم يأذن لهم فيقول : اذهبوا فمن وجدتم إلى آخره .

قال تعالى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾[1] .

ولا تقع أيضا إلا لمن يرضى الله ــ تعالى ــ عنه ، وهو تعالى لا يرضى إلا عن أهل التوحيد والإخلاص ، أما المشركون ، ومنهم عباد الأولياء والقبور فحرام عليهم الشفاعة ، كحرمة الجنة عليهم ، كما هو معلوم من نصوص الشرع .

قوله : « فيقول الجبار : بقيت شفاعتى ، فيقبض قبضة من النار ، فيخرج

---

(١) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

أقواما قد امتحشوا » الله تعالى هو مالك الشفاعة ، والأمر له فى كل شيء ، والملائكة ، والرسل ، والمؤمنون ، يطلبون منه أن يشفعهم فى من دخل النار من المؤمنين بأن يخرجهم ، وهو ـــ تعالى ـــ الذى يلقى هذا الطلب فى نفوسهم كما سبق ، والمراد بشفاعته ـــ تعالى ـــ رحمته لهؤلاء المعذبين ، فيخرجهم من النار .

قال تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾[2] .

والعهد : هو شهادة ألّا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، صادقا مخلصا ، وعمل بما دلت عليه هذه الشهادة .

وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[3] .

ففى هذه الآيات ـــ ونحوه كثير ـــ البيان الواضح فى أن الشفاعة لله وحده ، وأنها لا يمكن أن تقع من أحد عند الله إلا بعد أن يأذن لمن يشفع ، ويرضى عن المشفوع له ، وحقيقة الشفاعة أن الله يكرم الشافع بإذنه له فى ذلك ، ويرحم المشفوع فيه .

---

(١) الآيتان ٤٣ و ٤٤ من سورة الزمر .
(٢) الآية ٨٧ من سورة مريم .
(٣) الآية ٤ من سور آلم السجدة .

قوله : « فيقبض قبضة » فيه إثبات القبض لله تعالى ، ومن لازمه إثبات اليد التى يقبض بها ، وكم فى كتاب الله ــ تعالى ــ وسنة رسوله ﷺ من نص يثبت ذلك ، ولكن أهل التأويل الفاسد المحرفون يأبون قبول ذلك ، والإيمان به ، وسوف يعلمون أن الحق ما قاله الله وقاله رسوله ، وأنهم قد ضلوا السبيل فى هذا الباب .

قوله : « قد امتحشوا » يعنى احترقوا ، وفى رواية مسلم : « قد عادوا حمما » أى صاروا حمما ، والحمم بضم الحاء وفتح الميم الأولى المخففة هو الفحم .

والامتحاش : احتراق الجلد ، وظهور العظم ، وليس المقصود هنا أن عظامهم ظهرت ، وإنما المقصود احتراقهم ظاهرا .

وبهذا استدل على أن من يدخل النار من الموحدين يموتون فيها ؛ لأنهم احترقوا ، وصاروا حمما ، وفى صحيح مسلم من حديث أبى سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ، ولا يحيون ، ولكنْ ناس أصابتهم النار بذنوبهم ــ أو قال بخطاياهم فأماتهم إماتة ، حتى إذا كانوا فحما ، أذن فى الشفاعة ، فجىء بهم ضبائر ضبائر ، فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم ، فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل »[1] .

قال ابن رجب : « وظاهر الحديث يدل على أن هؤلاء يموتون حقيقة ، وتفارق أرواحهم أجسادهم ، ويدل على ذلك ، ما أخرجه البزار ، من حديث عبد الله بن رجاء ، حدثنا سعيد بن مسلمة ، أخبرنى موسى بن جبير ، عن أبى أمامة بن سهل ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « إن أدنى أهل

---

(١) صحيح مسلم جـ ٣ ص ٣٧ مع شرح النووى .

الجنة حظا — أو نصيبا — قوم يخرجهم الله من النار ، فيرتاح لهم الرب — تعالى — أنهم كانوا لا يشركون بالله شيئا ، فينبذون بالعراء ، فينبتون كما تنبت البقلة ، حتى إذا دخلت الأرواح إلى أجسادها ، قالوا : ربنا كما أخرجتنا من النار ، وأرجعت الأرواح إلى أجسادها ، فاصرف وجوهنا عن النار ، فيصرف وجوههم عن النار »[1] .

قال النووى : قوله ﷺ : « لكنْ ناس أصابتهم النار » إلى آخره ، معناه أن المذنبين من المؤمنين يميتهم الله — تعالى — إماتة بعد أن يعذبوا المدة التى أرادها الله — تعالى — ، وهذه الإماتة ، إماتة حقيقية ، يذهب معها الإحساس ، ويكون عذابهم على قدر ذنوبهم ، ثم يميتهم ، ثم يكونون فحما ، فيُحملون ضبائر ، كما تحمل الأمتعة ، ويلقون على أنهار الجنة ، فيصب عليهم ماء الحياة ، فيحيون ، وينبتون نبات الحبة فى حميل السيل ، فى سرعة نباتها ، وضعفها ، فتخرج لضعفها صفراء ، ملتوية ، ثم تشتد قوتهم ، ويصيرون إلى منازلهم ، وتكمل أحوالهم ، هذا هو ظاهر الحديث .

وحكى القاضى عياض فيه وجهين ، أحدهما : أنها إماتة حقيقية ، والثانى ليس بموت حقيقى ، ولكن يغيب عنهم إحساسهم بالألم ، والمختار ما قدمناه »[2] .

قوله : « فينبتون فى حافتيه ، كما تنبت الحبة فى حميل السيل » المقصود نبات لحومهم وأبصارهم ، وعظامهم التى احترقت فى النار ، ولا يلزم عند من يقول أنهم لا يموتون موتا حقيقيا — أنهم ماتوا فى النار بحيث تفارق أرواحهم أجسامهم . والله أعلم .

---

(١) التخويف من النار ص ١٥٢ .

(٢) شرح النووى على مسلم جـ ٣ ص ٣٨ ..

و « الحبة » بكسر الحاء ، قال الحافظ : « هى بزور الصحراء ، وجمعها حبب بكسر الحاء ، وأما الحبة بفتح الحاء ، وهو ما يزرعه الناس فجمعها حبوب »[1] .

« فى حميل السيل ، قد رأيتموها إلى جانب الصخرة ، وإلى جانب الشجرة ، فما كان إلى الشمس منها كان أخضر ، وما كان إلى الظل كان أبيض » يعنى بذلك سرعة خروج لحومهم ؛ لأن النبت فى حميل السيل — كما ذكر — يخرج بسرعة ، ولهذا يكون من جانب الظل أبيض ، ومن جانب الشمس أخضر ، وذلك لضعفه ورقته ، ولا يلزم أن يكون نبتهم كذلك ، كما قاله بعضهم : بأن الذى من جانب الجنة يكون أبيض ، والذى من جانب النار يكون أخضر ، بل المراد تشبيههم بالنبت المذكور فى سرعة خروجه ، ورقته ، ولذلك قال : « فيخرجون كأنهم اللؤلؤ » يعنى فى صفاء بشرتهم ، وحسنها .

قوله : « فيجعل فى رقابهم الخواتيم » خواتيم ، جمع خاتم ، وهذه الخواتيم يكتب فيها « عتقاء الرحمن من النار » ، كما ذكر فى الرواية الأخرى .

قوله : « فيدخلون الجنة ، فيقول أهل الجنة : هؤلاء عتقاء الرحمن ، أدخلهم الجنة ، بغير عمل عملوه ، ولا خير قدموه » يعنى : أنهم لم يعملوا صالحا فى الدنيا وإنما معهم أصل الإيمان ، الذى هو شهادة أن لا إله إلا الله ، والإيمان برسولهم .

قال الكرمانى : « ليس معهم إلا مجرد الإيمان ، دون أمر زائد عليهم ، من الأعمال والخيرات ، وعلم منه أن شفاعة الملائكة ، والنبيين ، والمؤمنين ، فيمن كان له طاعة غير الإيمان الذى لا يطلع عليه إلا الله »[2] وتقدم فى الحديث

---

(١) انظر الفتح جـ ١١ ص ٤٥٨ .

(٢) شرح الكرمانى جـ ٢٥ ص ١٥٠ .

أنهم يخرجون من كان فى قلبه مثقال دينار من الإيمان ، ومن كان فى قلبه مثقال نصف دينار ، ومن كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، والله أعلم .

قوله : فيقال لهم : « لكم ما رأيتم ، ومثله معه » يظهر أنهم يدخلون أماكن من الجنة خالية ، ولهذا قيل لهم ذلك .

ومحل الشاهد من الحديث قوله : « فيأتيهم الجبار فى صورة غير صورته ، التى رأوه فيها أول مرة » ، وقوله : « فيكشف عن ساق ، فيسجد له كل مؤمن » مع قوله : « فإنكم لا تضارون فى رؤية ربكم يومئذ ، إلا كما تضارون فى رؤيتهما » جوابا لسؤالهم : « هل نرى ربنا يوم القيامة » وهى كما ترى أدلة واضحة صريحة وهذا من أوضح الأدلة على أن عموم أهل الموقف من الرجال ، والنساء ، والمنافقين ، والكفار ، يرونه ، فإن الناس يعمهم ، والحشر مشترك بينهم .

فقد ظهر مراد النبى ﷺ لكل عاقل عارف باللغة بقوله :

« إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر ليس دونهما سحاب » أن مراده رؤيتهم إياه بأبصارهم ، لا يستريب فى ذلك من عرف دلالة الألفاظ على المعانى ، وليس فى الممكن عبارة أوضح من هذا .

٦٧ ــ وقال حجاج بن منهال : حدثنا همام بن يحيى ، حدثنا قتادة ، عن أنس ــ رضى الله عنه ــ أن النبى ﷺ قال : « يحبس المؤمنون يوم القيامة ، حتى يهموا بذلك .

فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ، فيريحنا من مكاننا ، فيأتون آدم .

فيقولون : أنت آدم أبو الناس ، خلقك الله بيده ، وأسكنك جنته ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شىء ، لتشفع لنا عند ربك ، حتى يريحنا من مكاننا هذا » .

قال : فيقول : لست هناكم ، قال : ويذكر خطيئته التى أصاب ، أكله من الشجرة وقد نهى عنها ، ولكن ائتوا نوحا ، أول نبى بعثه الله — تعالى — إلى أهل الأرض ، فيأتون نوحا ، فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته التى أصاب سؤاله ربه بغير علم .

ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن ، قال : فيأتون إبراهيم ، فيقول : إنى لست هناكم ، ويذكر ثلاث كذبات كذبهن ، ولكن ائتوا موسى ، عبدا آتاه الله التوراة ، وكلمه وقربه نجيا .

قال : فيأتون موسى ، فيقول : إنى لست هناكم ، ويذكر خطيئته التى أصاب قتله النفس ، ولكن ائتوا عيسى ، عبد الله ورسوله ، وروح الله وكلمته .

قال فيأتون عيسى ، فيقول : لست هناكم ، ولكن ائتوا محمدا ﷺ ، عبدا غفر الله له ما تقدم من ذنبه ، وما تأخر ، فيأتونى فأستأذن على ربى فى داره ، فيؤذن لى عليه ، فإذا رأيته وقعت ساجدا ، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، فيقول : ارفع محمد ، وقل يسمع ، واشفع تشفع ، وسل تعط .

قال : فأرفع رأسى ، فأثنى على ربى بثناء ، وتحميد يعلمنيه ، فيحد لى حدا ، فأخرج ، فأدخلهم الجنة .

قال قتادة : وسمعته أيضا يقول : « فأخرج ، فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأستأذن على ربى فى داره ، فيؤذن لى عليه ، فإذا رأيته وقعت ساجدا ، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ثم يقول : ارفع محمد ، وقل يسمع ، واشفع تشفع ، وسل تعطه .

قال : فأرفع رأسى ، فأثنى على ربى بثناء وتحميد يعلمنيه ، قال : ثم أشفع ، فيحد لى حدا ، فأخرج ، فأدخلهم الجنة ، قال قتادة : وسمعته يقول : فأخرج ، فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة .

ثم أعود الثالثة ، فأستأذن على ربى فى داره ، فيؤذن لى عليه ، فإذا رأيته وقعت ساجدا ، فيدعنى ، ما شاء الله أن يدعنى ، ثم يقول : ارفع محمد ، وقل يسمع ، واشفع تشفع ، وسل تعطه .

قال : فأرفع رأسى ، فأثنى على ربى بثناء وتحميد يعلمنيه .

قال : ثم أشفع فيحد لى حدا ، فأخرج ، فأدخلهم الجنة ، قال قتادة : وقد سمعته يقول : فأخرج ، فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة ، حتى ما يبقى فى النار ، إلا من حبسه القرآن ـــ أى وجب عليه الخلود ـــ ، ثم تلى الآية : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ .

قال : وهذا المقام المحمود ، الذى وعده نبيكم ﷺ » .

هذا حديث الشفاعة المشهور ، وقد تقدم فى باب قوله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ .

وقد جاء من رواية عدد من الصحابة ، « وأول حديث أبى هريرة : « أنا سيد الناس يوم القيامة ، يجمع الله الناس ، الأولين ، والآخرين ، فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ، ولا يحتملون » .

وزاد فى رواية إسحاق بن راهويه ، فتدنو الشمس من رُءُوسهم ، فيشتد

عليهم حرها ، ويشق عليهم دنوها ، فينطلقون من الضجر والجوع مما هم فيه .

وأول حديث أبى بكر : « عُرض على ما هو كائن من أمر الدنيا ، والآخرة ، يجمع الله الأولين والآخرين ، فى صعيد واحد ، فيفظع الناس لذلك ، والعرق كاد يلجمهم » .

وفى حديث عبادة بن الصامت : « إنى لسيد الناس يوم القيامة ـــ بغير فخر ـــ ، وما من الناس إلا من هو تحت لوائى ، ينتظر الفرج ، وإن معى لواء الحمد »[1] .

وبهذا يتبين أن قوله فى رواية أنس : « يحبس المؤمنون يوم القيامة » أن قبله كلامًا محذوفًا ، وأن المقصود الخلق عامة ، ولهذا جاءت أكثر الروايات بالتعبير « بالناس » .

وفى هذه الرواية ـــ زائدا على ما تقدم ـــ، ذكر الذنوب التى يعتذر بها الأنبياء وتقدم أن هذا من الأدلة على وقوع الذنوب فى الجملة من الأنبياء ، وتقدم الكلام فى هذه المسألة .

ومن ذلك قوله : « فأستأذن على ربى فى داره » ، وتكرر ذلك ثلاثا ، قيل : المراد الجنة ، والظاهر أن المراد مكان معين ، كما فى حديث الشفاعة الطويل « فآتى تحت العرش » ، وفى حديث الصور ، « فآتى مكانا تحت العرش ، يقال له الفحص » ، فيكون المعنى ، المكان الذى تحت عرشه .

وما ذكره الحافظ نقلا ، عن الخطابى أن قوله : « فأستأذن على ربى فى داره » يوهم المكان ، والله منزه عن ذلك ، وإنما معناه فى داره التى اتخذها لأوليائه ، وهى الجنة ، أضيفت إليه إضافة تشريف ، مثل بيت الله وحرم

---

(١) انظر الفتح جـ ١١ ص ٤٣٢ .

الله »[1] فيقال له : ماذا تقصد بالمكان ؟ إن كنت تريد مكانا يحويه ويحيط به ، فالله تعالى منزه عن ذلك .

وإن كنت تريد أنه ليس فوق عرشه ، عال على خلقه ، كما هو مذهب أهل الباطل من أشعرية ، ومعتزلة ، وغيرهم ، فقد أثبت الله تعالى ذلك لنفسه وأثبتته له رسله ، واتفقت عليه كتبه ، وأجمعت عليه أتباع الرسل ، وفطر الله — تعالى — عليه خلقه ، فإنكار ذلك عناد ، ومكابرة للعقول السليمة من الانحراف ، ومخالفة للشرع ، وقد تقدم من الأدلة على ذلك ما يكفى بعضه لمن يريد الحق .

ومما لم يتقدم فى الرواية السابقة قوله : « فأخرج ، فأخرجهم من النار » يعنى يخرج من المكان الذى استأذن فى الدخول فيه .

وفيه ألفاظ أخر تختلف عما سبق ، ولكن المعنى متقارب .

والمقصود منه هنا قوله : « فأستأذن على ربى فى داره ، فإذا رأيته وقعت ساجدا » كرر ذلك ثلاث مرات ، وهو صريح فى أن الرسول ﷺ يرى ربه عيانا فى ذلك المكان ، فيسجد له ، وإذا رآه جاز أن يراه غيره .

وأما تلاوة الآية إلى آخر قول أنس ، فهو تفسير للمقام المحمود وسيأتى . وفى هذا الحديث إشكال ظاهر ، حتى قال الداودى : « أول هذا الحديث ليس متصلا بآخره ، بل بقى بين طلبهم الشفاعة ، وبين قوله : « فأستشفع » ، أمور كثيرة من أمور القيامة »[2] ، وقال : « وكأن راوى الحديث ركب شيئا على غير أصله ، وذلك أن أول الحديث فى ذكر الشفاعة ، فى الإراحة من كرب الموقف ، وآخره فى الشفاعة لإخراج بعض العصاة من النار ، وهذا إنما يكون

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٢٩ .
(٢) ذكره الحافظ فى الفتح جـ ١٣ ص ٤٢٦ .

بعد انتهاء الوقوف ، والقضاء بين الخلق ، وذهاب أهل الجنة إليها ، وأهل النار إليها » ، قال الحافظ : « وهذا إشكال قوى »[1] .

ثم ذكر جوابه ، عن القاضى عياض ، قال : وتبعه عليه النووى .

وحاصله : أن الحديث فيه اختصار ، وحذف ، وذكر بعض الروايات التى تبين ذلك .

منها ما فى حديث أبى بن كعب ، عند أبى يعلى : « ثم أمتدحه بمدحة يرضى بها عنى ، ثم يؤذن لى فى الكلام ، ثم تمر أمتى على الصراط ، وهو منصوب بين ظهرانى جهنم ، فيمرون » .

ومنها ما فى رواية ابن عباس عند الإمام أحمد : « فيقول — عز وجل — يا محمد ما تريد أن أصنع فى أمتك ؟ فأقول : يا رب عجل حسابهم » .

وذكر جواب القرطبى ، « بأن قوله فى حديث أبى هريرة : « أدْخل من أمتك من الباب الأيمن من أبواب الجنة من لا حساب عليه ولا عذاب » ، فهذا يدل على الشفاعة فى تعجيل الحساب »[2] .

وذكر غير ذلك مما هو مخالف لظواهر الأحاديث ، فلا يعول عليه .

وقال ابن أبى العز : « والعجب كل العجب من إيراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه ، ولا يذكرون أمر الشفاعة الأولى ، فى إتيان الرب — تعالى — لفصل القضاء ، مع أنه المقصود من سياق الحديث .

فإن الناس يطلبون الشفاعة ليقضى بينهم ، فيستريحوا من عناء الموقف .

وقد جاء التصريح بذلك فى حديث الصور المشهور ، فإن فيه :

---

(١) الفتح جـ ١١ ص ٤٣٧ — ٤٣٨ ببعض التصرف .
(٢) انظر الفتح جـ ١١ ص ٤٣٨ .

« فأذهب فأسجد تحت العرش ، فى مكان يقال له : الفحص ، فيقول الله : ما شأنك ؟ وهو أعلم — فأقول : يا رب وعدتنى الشفاعة ، فشفعنى فى خلقك ، فاقض بينهم ، فيقول سبحانه ، شفعتك ، أنا آتيكُم فأقضى بينهم ، قال : فأرجع فأقف مع الناس » ، ثم ذكر « انشقاق السماوات ، وتنزل الملائكة ، ثم يجىء الرب — تعالى — لفصل القضاء » إلى آخره . وكأن السلف اقتصروا على هذا القدر من الحديث ، للرد على الخوارج ، ومن تابعهم من المعتزلة ، الذين أنكروا خروج أحد من النار ، بعد دخولها ، فذكروا القدر الذى فيه التصريح بذلك »[1] .

وبذلك يزول الإشكال ، فإن حديث الصور مشهور ، وإن كان سنده ضعيفًا ، ولكن له شواهد كثيرة صحيحة ، فيصلح أن يكون جوابا لهذا الإشكال ، والله أعلم .

وأما قوله تعالى : « عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » فقال ابن جرير : « يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : أقم الصلاة المفروضة ، فى أوقاتها التى أمرتك بإقامتها فيها ، ومن الليل فتهجد فرضا فرضته عليك ، لعل ربك أن يبعثك يوم القيامة مقاما تقوم فيه محمودا ، تحمده ، وتغبط فيه .

قال أكثر أهل العلم : إنه الشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه ، من شدة ذلك اليوم — ثم ذكر الآثار فى ذلك .

وذكر بسنده ، عن مجاهد ، أن المقام المحمود أن يجلسه معه على عرشه .

ثم قال : الصواب ، ما صح به الخبر ، أنه الشفاعة ، وذكر بعض أحاديث الشفاعة ، ثم قال : « وما قاله مجاهد ، غير مدفوع صحته سندا ، ولا نظرا ،

---

(١) شرح الطحاوية ص ١٩٣ .

إذ لا خبر عن رسول الله ﷺ ، ولا عن صحابته ، ولا التابعين بإحالة ذلك »[1] .

قال الحافظ : « الجمهور على أن المراد بالمقام المحمود ، الشفاعة ، وبالغ الواحدى ونقل فيه الإجماع .

ثم قال : والراجح أن المراد به الشفاعة ، لكن الشفاعة التى وردت فى الأحاديث المذكورة فى المقام المحمود نوعان : الأول : العامة فى فصل القضاء .

والثانى : الشفاعة فى إخراج المذنبين من النار »[2] .

٦٨ ــ قال : حدثنا عبيد الله بن سعد بن إبراهيم ، حدثنى عمى ، حدثنا أبى ، عن صالح ، عن ابن شهاب ، قال : حدثنى أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ « أن رسول الله ﷺ أرسل إلى الأنصار ، فجمعهم فى قبة ، وقال لهم : اصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ، فإنى على الحوض » .

ذكر البخارى ــ رحمه الله ــ هذا الحديث من رواية أنس ــ رضى الله عنه ــ فى سبعة مواضع غير هذا الموضوع ، منها فى غزوة الطائف ، ولفظه : « قال ناس من الأنصار ــ حين أفاء الله على رسوله ﷺ ــ ما أفاء ، من أموال هوازن ، فطفق النبى ﷺ يعطى رجالا المائة من الإبل ، فقالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطى قريشا ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم .

قال أنس : فحدث رسول الله ﷺ بمقالتهم ، فأرسل إلى الأنصار ، فجمعهم فى قبة من أدم ، ولم يدعُ معهم غيرهم .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٥ ص ١٤٣ ــ ١٤٧ ملخصا .

(٢) الفتح جـ ١١ ص ٤٢٦ ــ ٤٢٧ ملخصا .

فلما اجتمعوا قام النبى ﷺ فقال : « ما حديث بلغنى عنكم ؟ » .

فقال فقهاء الأنصار : أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئا ، وأما أناس منا ، حديثة أسنانهم فقالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطى قريشا ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم ، فقال النبى ﷺ : « فإنى أعطى رجالا حديثى عهد بكفر ، أتألفهم .

أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال ، وتذهبون بالنبى ﷺ إلى رحالكم ؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به » ، قالوا : يا رسول الله قد رضينا ، فقال لهم النبى ﷺ : « ستجدون أَثَرَةً شديدة ، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ، فإنى على الحوض »[1] .

وله ألفاظ وروايات متعددة ، من رواية أنس وغيره .

والأثرة : اختصاص غيرهم واستبدادهم بما يستحقونه هم ، والمعنى : أن الناس يختصون بالدنيا ، ويستأثرون بها ، دون الأنصار ، مع استحقاق الأنصار لها ، وهم الذين اجتمعوا على نصرة رسول الله ﷺ وآووه إلى بلادهم ، وعاقدوه على أن ينصروه ، ويمنعوه مما يمنعون أنفسهم وأولادهم منه ، فلنصرهم لله ورسوله سموا الأنصار ، وهو أشرف أسمائهم ، وقد وقع لهم ما أخبرهم به رسول الله ﷺ وذلك تقدير الحكيم العليم ، حيث استأثر الناس عليهم بالدنيا ، مع أنهم الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم ، وهذا من فضل الله عليهم ، حتى يجازيهم ، على أعمالهم الدرجات العالية فى جنات عدن ، فتظهر هناك فضيلتهم ، ويغبطهم الناس الذين استأثروا عليهم بالدنيا أعظم غبطة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

قوله : « جمعهم فى قبة من أدم » القبة : كل ما كان مقببا ، وفى الأصل

---

(١) انظر الفتح جـ ٨ ص ٥٢ .

أن يكون عال الوسط متدانى الأطراف ، والأدم : الجلود .

وتقدم تفسير الصبر .

وقوله : « حتى تلقوا الله ورسوله » هذا هو محل الشاهد من الحديث لأن اللقاء يتضمن الرؤية والمعاينة كما قال أهل اللغة .

قال الأزهرى : « كل شيء استقبل شيئا ، أو صادفه ، فقد لقيه من الأشياء كلها »(١) .

وقال ابن فارس : « اللقاء : الملاقاة ، وتوافى الاثنين متقابلين ، ولقيته لقيا ، ولقيانا ، واللقية : فُعْلَةٌ من اللقاء ، والجمع : لقىء ، قال :

وإنى لأهوى النوم من غير نعسة   لعل لقاكم فى المنام تكون »(٢)

وقال الراغب : « اللقاء : مقابلة الشيء ومصادفته معا ، وقد يعبر به على كل واحد منهما ، يقال : لقيه يلقاه لقاء ، ولقيا ، ولقية .

ويقال ذلك : فى الإدراك بالحس ، وبالبصر ، وبالبصيرة ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ [فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ] ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴾(٤) .

وملاقاة الله عبارة ، عن القيامة ، وعن المصير إليه ، قال تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ ﴾(٥) ، وقال تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ ﴾(٦)

---

(١) تهذيب اللغة جـ ٩ ص ٢٩٩ .
(٢) مقاييس اللغة جـ ٥ ص ٢٦١ .
(٣) الآية ١٤٣ من سورة آل عمران .
(٤) الآية ٦٢ من سورة الكهف .
(٥) الآية ٢٢٣ من سورة البقرة .
(٦) جزء من الآية ٢٤٩ من سورة البقرة .

واللقاء : الملاقاة قال تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾[2] وقال : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾[3] أى نسيتم القيامة ، والبعث والنشور »[4] .

وقد ذكر لقاء الله فى القرآن فى أكثر من عشرين موضعا ، كقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾[5] ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾[6] وقوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاءِ ٱللَّهِ ﴾[7] ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾[8] وقوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾[9] وقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ ﴾[10] وقوله تعالى : ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[11] وقوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[12] وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ

---

(١) جزء من الآية ١٥ من سورة يونس .
(٢) الآية ٦ من سورة الانشقاق .
(٣) الآية ١٤ من سورة السجدة .
(٤) المفردات ص ٤٥٣ .
(٥) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب .
(٦) الآية ٧٧ من سورة التوبة .
(٧) الآية ٣١ من سورة الأنعام .
(٨) الآية ١٥٤ من سورة الأنعام .
(٩) الآية ٤٥ من سورة يونس .
(١٠) الآية ٥ من سورة العنكبوت .
(١١) الآية ٢ من سورة الرعد .
(١٢) الآية الأخيرة من سورة الكهف .

ٱلنَّاسِ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ إِلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى ﴾[4] .

فمن قرأ هذه الآيات ونحوها مما لم نذكره مؤمنا بها علم يقينا أن مضمونها إخبار الله تعالى بأن العبد سيلقى ربه ، لقاء يتضمن المحاسبة والكلام والمقابلة ، والمعاينة ، والجزاء بالعمل الذى كان العبد يعمله فى الدنيا .

ولم يزل أهل السنة من السلف ، وأتباعهم ، يستدلون بمثل هذه الآيات على رؤية الله تعالى .

وسيأتى حديث عدى بن حاتم ، وفيه : « واعلموا أن كل واحد منكم سيلقى ربه ليس بينه وبينه ترجمان »[5] .

فمن أنكر ذلك فقد خالف كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ وسلك غير سبيل المؤمنين .

والله تعالى جعل التكذيب بلقائه كفرا ، لا ينفع معه عمل كما فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[4] .

قال ابن بطة : « سمعت أبا عمر الزاهد اللغوى يقول : سمعت أبا العباس ، أحمد بن يحيى يقول : فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا * تَحِيَّتُهُمْ

---

(١) الآية ٨ من سورة الروم .
(٢) الآية ٥٤ من سورة فصلت .
(٣) الآية ١٠٥ من سورة الكهف .
(٤) الآية ٢٣ من سورة العنكبوت .
(٥) انظر ص ١٥٠ .

يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَٰمٌ ﴾[1] : أجمع أهل اللغة أن اللقاء هاهنا لا يكون إلا معاينة ونظرة بالأبصار »[2] .

وقال شيخ الإسلام ، رحمه الله تعالى : « اللقاء » فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة ، والمشاهدة ، بعد السلوك والسير ، وقالوا : إن لقاء الله يتضمن رؤيته ـــ سبحانه وتعالى ـــ واحتجوا بآيات اللقاء على من أنكر رؤية الله فى الآخرة ، من الجهمية ، والمعتزلة وغيرهم .

وجعلوا اللقاء يتضمن معنيين ، أحدهما : السير إلى الملك .

والثانى : معاينته ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾[3] .

فذكر أنه يكدح إلى الله ، فيلاقيه ، والكدح يتضمن السلوك والسير إليه ، واللقاء يعقبهما .

وأما المعاينة من غير سير إلى المعاين ـــ كمعاينة الشمس ، والقمر ـــ فلا يسمى لقاء .

وقول الذين يجعلون المراد من اللقاء ، هو الجزاء ، دون لقاء الله ، معلوم الفساد بالاضطرار ، بعد تدبر الكتاب والسنة .

ويظهر فساده من وجوه .

أحدهما : أنه خلاف التفاسير المأثورة عن الصحابة والتابعين .

الثانى : أن حذف المضاف إليه لابد أن يقارنه قرائن تبين ذلك ، كما فى

---

(١) الآيتان ٤٣ و ٤٤ من سورة الأحزاب .

(٢) انظر مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٤٨٨ .

(٣) الآية ٦ من سورة الانشقاق .

قوله تعالى : ﴿ وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾[1] ، ولو قال قائل : رأيت زيدا أو لقيته ، وأراد بذلك أنه رأى غلامه ، أو أباه ، أو لقيهما ، لم يجز ذلك فى لغة العرب بلا نزاع .

ولقاء الله ــ تعالى ــ قد ذكر فى كتاب الله وسنة رسوله فى مواضع كثيرة مطلقا غير مقترن بما يدل على أنه أريد بلقاء الله بعض مخلوقاته من ثواب وغيره .

الثالث : أن اللفظ إذا تكرر ذكره فى الكتاب ، ودار مرة بعد مرة على وجه واحد ، وكان المراد به غير مفهومه ومقتضاه عند الإطلاق ولم يبين ذلك كان تدليسا وتلبيسا يجب أن يصان كلام الله عنه . الذى أخبر أنه شفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين ، وأنه بيان للناس .

وقد علم أن الرسول ﷺ بلغ البلاغ المبين ، وأنه بين للناس ما نزل إليهم .

وأما قول أهل البدع : إن القرينة الدالة على أن لقاء الله غير مراد من هذه النصوص : هو ما فى العقل من امتناع ذلك وإحالته .

فهو مردود من وجهين : أحدهما : أنه ليس فى العقل ما يمنع ذلك بل البراهين العقلية تتفق مع القرآن ، كما قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾[2] .

وما يدعيه نفاة لقاء الله ورؤيته من الحجج العقلية التى تخالف مادل عليه كتاب الله وسنة رسوله ، ليست حججا ، وإنما هى شبهات فاسدة ، عند من له خبرة جيدة بالمعقولات ، وإنما تنطلى على المقلدين .

---

(١) الآية ٨٢ من سورة يوسف .
(٢) الآية ٦ من سورة سبأ .

الثانى : أنه لو فرض أن هناك دليلا عقليا ينافى مدلول القرآن لكان خفيا ، له مقدمات طويلة ، متنازع فيها ، ليس فيها واحدة متفق عليها ، والواقع أنها شبهات فاسدة ، أورثها صدودهم عن كتاب الله .

ومن الضرورى أن الذى أخبر أنه بيان للناس ، وأن كلامه هدى ورحمة ، وشفاء ، وبلاغ مبين ، إذا أراد بكلامه الموصوف بما ذكر ما يقوله هؤلاء المتكلمون ، فإنه بعكس تلك الأوصاف ، فيكون فيه الضلال ، واللبس ، لأنه لا يدل على قولهم .

واتفاق المسلمين على وجوب تنزيه كلام الله ورسوله من ذلك أمر ضرورى .

الوجه الرابع : أنه سيأتى فى حديث ابن عباس ، قول الرسول ﷺ : « أنت الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق » . ففرق بين لقائه ، وبين الجنة والنار .

ومعلوم أن الجنة والنار ، تتضمن جزاء المطيعين ، والعصاة ، فعلم أن لقاء الله غير لقاء الثواب ، والعقاب .

الوجه الخامس : ما بينه رسول الله ﷺ فى أحاديث كثيرة أن العباد سوف يلقون ربهم ، وقد ذكر البخارى فى هذا الباب قليلا منها مثل حديث عدى ابن حاتم « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه حاجب يحجبه ، ولا ترجمان » .

الوجه السادس : أنه لو أريد بلقاء الله ما يخلقه من ثواب أو عقاب أو غير ذلك ، لكان ذلك واقعا فى الدنيا والآخرة ، كما فى عقاب الأمم المكذبة ، ونصر المؤمنين ، وإسعادهم .

وقد علم أتباع رسول الله ﷺ أن لقاء الله ــ تعالى ــ لا يكون إلا بعد الموت .

كما علموا بطلان قول أهل البدع : أن لقاء الله هو لقاء بعض مخلوقاته .

وعلى قولهم ، فليس فى اللفظ ما يدل على تعيين مخلوق دون مخلوق ، فإذا قالوا : إن لقاء الله هو الجنة ، أو النار ، جاز أن يقال : بل هو بعض ملائكته أو بعض الشياطين ، أو غير ذلك إذ ليس دلالة اللفظ على تعين هذا بأولى من دلالته على تعيين هذا ، فبطل قولهم .

الوجه السابع : أن لقاء الله لم يستعمل فى لقاء غيره ، لا حقيقة ولا مجازا ، بل وفى المخلوق كذلك ، فلا يقال : لقيت زيدا ، وأنت تريد عمرا .

الوجه الثامن : النصوص الكثيرة التى تفرق بين لقاء الله وثوابه ، وجزائه كقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَـٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾[1] فلو كان لقاؤه هو لقاء جزائه ، لكان هو الأجر الكريم ، ولا يحسن أن يخبر بأنه أعده لهم بعد ما حصل لهم ، لأنهم لقوه ، فلقاؤه وسيلة ، وإعداد الأجر الكريم مقصود ، فكيف يخبر بالوسيلة بعد حصول المقصود .

ومثل هذا يصان عنه كلام أوسط الناس ، فضلا عن كلام رب العالمين ، ولا سيما وقد قرن اللقاء بالتحية ، التى لا تكون إلا فى اللقاء .

الوجه التاسع : ما فى الحديث من قوله ﷺ : « من أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه »[2] ، فلو كان لقاء الله هو جزاءه ، لامتنع أن يحب جزاء عبده ، ويكره جزاء آخر .

والله تعالى لا يكره جزاء عباده بما يستحقون ، بل يحب ذلك ، ولا يجزيهم إلا بما يستحقون ، والجزاء لا يلقاه الله ـــ تعالى ـــ ، ودلائل بطلان هذا القول

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب .

(٢) رواه البخارى انظر الفتح جـ ١١ ص ٣٥٧ فى الرقاق ورواه مسلم فى الذكر والدعاء جـ ٤ ص ٢٠٦٥ و ٢٠٦٦ و ٢٠٦٧ .

لا حصر لها »[1] فيكتفى بما ذكر ، وبذلك يتضح أن معنى قوله ﷺ للأنصار : « اصبروا حتى تلقوا الله ورسوله » يتضمن معاينتهم لربهم ، وتكليمه لهم ومجازاتهم ، وتكريمه لهم بمخاطبتهم قبل أن يدخلهم دار النعيم الأبدى .

فهو ﷺ يقول لهم : تسلوا عما فاتكم من الدنيا ، مما تستحقونه بما يكون لكم بعد البعث من الموت ، عندما تلقون ربكم ، فيكرمكم بتحيته لكم ومخاطبتكم ، ورؤيتكم إياه ، فذلكم اليوم الذى تسعدون فيه حقا .

وكذلك تلاقون نبيكم على حوضه ، الذى منّ الله به عليه ، فأكرمه به فى الموقف الذى يشتد فيه الظمأ ، فأنتم أحق من يرد ذلك الحوض ، فتشربون منه دون معوق ، أو مكدر ، فلا ينالكم بعد ذلك نصب ، ولا وصب ، ولا ظمأ ، ولا أذى .

٦٩ ــ قال : « حدثنى ثابت بن محمد ، حدثنا سفيان ، عن ابن جريج ، عن سليمان الأحول ، عن طاوس ، عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : كان النبى ﷺ إذا تهجد من الليل قال : اللهم ربنا لك الحمد ، أنت قيِّم السموات والأرض ، ولك الحمد ، أنت رب السماوات والأرض ، ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك خاصمت ، وبك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت ، وما أخرت ، وأسررت ، وأعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، لا إله إلا أنت » .

---

(١) مجموع الفتاوى بتصرف وتلخيص جـ ٦ ص ٤٦٢ ــ ٤٧٥ .

قال أبو عبد الله : قال قيس بن سعد ، وأبو الزبير ، عن طاوس : قيام .

وقال مجاهد : القيوم : القائم على كل شيء ، وقرأ عمر : القيام ، وكلاهما مدح » .

تقدم شرح هذا الحديث ، والمقصود منه هنا قوله : « أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق » ففرق بين لقائه وجزائه ، بقوله : « ووعدك حق ، ولقاؤك حق ، والنار حق » .

فلقاؤه غير وعده ، وغير جزاءه ، الذى هو الجنة والنار .

فدل على أن تفسير لقائه بثوابه أو نحو ذلك تفسير باطل ، لم يدل عليه لا كتاب ولا سنة ، بل الأدلة من الكتاب والسنة تبين بطلانه .

وبذلك يتبين أن لقاءه ـ تعالى ـ يتضمن رؤيته ، ومعاينته ، وهو ما أراده البخارى من هذا الحديث ، وذلك ما قاله السلف ، وهو واضح .

٧٠ ـ قال : « حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنى الأعمش ، عن خيثمة ، عن عدى بن حاتم ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه ترجمان ، ولا حجاب يحجبه » .

قوله : « ما منكم من أحد » الخطاب للصحابة ، ويتناول جميع المؤمنين ، سابقهم ولا حقهم ، برهم وفاجرهم إلى قيام الساعة .

والترجمان : هو الواسطة بين اثنين أو أكثر الذى ينقل الكلام من لغة إلى أخرى ، أو يبلغ عن المتكلم كلامه .

والمقصود هنا أنه ليس بين العبد وربه أحد يبلغه عنه ، لا من الملائكة ولا من البشر .

بل الله ــ تعالى ــ هو الذى يتولى كلام عباده فى ذلك الموقف بنفسه ، فيحاسبهم على أعمالهم ، وقد بين ذلك فى لفظ الحديث ، لكن الإمام البخارى ــ رحمه الله ــ اختصره ، واقتصر على محل الشاهد منه .

ولفظه : « بينا أنا عند النبى ﷺ إذ أتاه رجل ، فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل .

فقال : يا عدى هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم أرها ، وقد نبئت عنها .

قال : فإن طالت بك حياة لَتَرَيَنَّ الظعينة[1] ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحدا إلا الله .

قلت فيما بينى وبين نفسى : فأين دعار طيء[2] الذين سعروا البلاد ؟

ولئن طالت بك حياة ، لتفتحن كنوز كسرى ، قلت : كسرى بن هرمز ؟

قال : كسرى بن هرمز .

ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من الذهب أو الفضة ، يطلب من يقبله منه ، فلا يجد أحدا يقبله منه .

وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه ، وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له ، فيقولن : ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك ؟ فيقول : بلى .

فيقول : ألم أعطك مالا ، وأفضل عليك ؟ فيقول : بلى .

---

(١) الظعينة : الهودج فيه المرأة ، وهو شبه الغرفة الصغيرة يوضع فوق البعير ، فتركب فى وسطه المرأة ليسترها ، والظعن هو : الخروج مّن المكان والسير .

(٢) الدعار : بضم الدال مأخوذ من الدعارة ، وهى الخبث ، والتلصص وقطع الطريق .

فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم ، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم .

قال عدى : سمعت النبى ﷺ يقول : اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة .

قال عدى : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبى ﷺ يخرج ملء كفه »[1] .

وفى رواية : « كنت عند رسول الله ﷺ فجاء رجلان ، أحدهما يشكو العيلة ، والآخر يشكو قطع السبيل . فقال رسول الله ﷺ : « أما قطع السبيل فإنه لا يأتى عليك إلا قليل حتى تخرج العير إلى مكة بغير خفير[2] .

وأما العيلة ، فإن الساعة لا تقوم حتى يطوف أحدكم بصدقته لا يجد من يقبلها منه .

ثم ليقفن أحدكم بين يدى الله ، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له ، ثم ليقولن له : ألم أوتك مالا ؟ فليقولن : بلى ، ثم ليقولن : ألم أرسل إليك رسولا ؟ فليقولن : بلى ، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار ، فليتقين أحدكم النار ولو بشق تمرة ، فإن لم يجد فبكلمة طيبة »[3] .

ففى هاتين الروايتين بيان جلى بأن الله ـــ تعالى ـــ يتولى كلام عباده ومحاسبتهم بنفسه بدون واسطة بينه وبينهم ، وفى ضمن ذلك رؤيته ـــ تعالى ـــ وسماع كلامه .

قوله : « ولا حجاب يحجبه » أى ليس بين العبد وبين ربه ما يمنع رؤيته ومشاهدته . وهذا ظاهر الدلالة على رؤية المؤمن ربه يوم يحاسبه ، وعلى سماعه كلامه .

---

(١) انظر البخارى جـ ٦ ص ١١٠ وانظر فتح البارى جـ ٦ ص ٦١٠ .
(٢) الخفير : هو من يحمى سالك الطريق ويجيره ممن يريده بسوء .
(٣) انظر فتح البارى جـ ٣ ص ٢٨١ .

وفيه دليل على أن لله تعالى حجابا يحتجب به عن خلقه ، والأدلة على ذلك كثيرة ، وأهل البدع ينكرون حجاب الله تعالى ، فهو عندهم كما يقول الفخر الرازى : « هو عبارة عن الجسم المتوسط بين جسمين آخرين ــ وهذا محال على الله »[1] .

ونقل الحافظ عن ابن بطال ، أن الحجاب هو الآفة المانعة من النظر التى تكون على أبصار المؤمنين ، ومعنى رفع الحجاب : إزالة الآفة من أبصار المؤمنين المانعة لهم من الرؤية ، فيرونه لارتفاعها عنهم ، بخلق ضدها فيهم »[2] ومقتضى هذا الكلام أن الذى يمنع المؤمنين فى الدنيا من رؤية الله تعالى هو الآفة التى على أبصارهم ، ولو زالت تلك الآفة لرأوه .

فالحجاب عند هؤلاء : هو عدم الإدراك فى أبصار الخلق ، وما وصف به الله ــ تعالى ــ من الحجاب راجع إلى الخلق . وشبهتهم : أن ما ستر بالحجاب ، فالحجاب أكبر منه ، ويكون متناهيا ، ومحاذيا للحجاب ، وهذا لا يكون إلا للأجسام .

نقل ابن حجر ، عن العلائى قوله : « المراد بالحاجب ، والحجاب : نفى المانع من الرؤية » ثم قال : « وقد ورد ذكر الحجاب فى عدة أحاديث صحيحة .

والله ــ سبحانه ــ منزه عما يحجبه ، إذ الحجاب إنما يحيط بمقدر محسوس ، ولكن المراد بحجابه : منعه أبصار خلقه ، وبصائرهم ، بما شاء متى شاء كيف شاء ، وإذا شاء كشف ذلك عنهم »[3] .

وهكذا شراح الحديث وغيرهم ــ الأشاعرة ــ ساروا على هذا المنوال .

---

(١) تأسيس التقديس ص ٩٩ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٣٠ .

(٣) المرجع المذكور ص ٤٣١ .

ويلزم من ذلك أن الله ـــ تعالى ـــ وصف نفسه وكذلك رسوله وصفه بما يجب أن ينزه عنه ، فهؤلاء المبتدعة أعلم من الله ، ومن رسوله بالله ، وأحرص على تنزيه الله من الله ورسوله ، ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾[1] .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[3] وعدم الإدراك الذى زعموا ليس شيئا موجودا فيكون حائلا دون رؤيتهم ربهم ، بل هو عدم ، والعدم لا وجود له .

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4] .

فتجليه للجبل يدل على أنه محتجب بحجاب كشف للجبل منه ما جعله دكا

وفى صحيح مسلم ، عن أبى موسى الأشعرى ، قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[5] .

---

(١) الآية ٥ من سورة الكهف .
(٢) الآية ٥٢ من سورة الشورى .
(٣) الآية ١٥ من سورة المطففين .
(٤) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .
(٥) انظر صحيح مسلم جـ ١ ص ١٦٢ الحديث رقم ١٧٩ .

ومعلوم أن بصر الله تعالى لا ينتهى دون شيء ، ولا يحول دونه شيء ، فهو بكل شيء بصير ، فلولا الحجاب الذى احتجب به لما بقى شيء من المخلوقات إلا ذاب واحترق ، فكيف جاز لهؤلاء الذين جعلوا أقيستهم وعقولهم هى الحكم على ما يوصف الله ــ تعالى ــ به ، وما يمتنع عليه .

وسيأتى حديث أبى موسى ، وفيه : « وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » .

وفى صحيح مسلم ، عن صهيب ، عن النبى ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال : يقول الله ــ تبارك وتعالى ــ : « تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتُنَجِّنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ــ عز وجل »[1] .

والنصوص فى إثبات الحجب لله تعالى كثيرة ، يؤمن بها أتباع رسول الله ﷺ ويعلمون بما ورثوه من نور النبوة بأن الله تعالى احتجب بالنور ، وبالنار وبما شاء من الحجب ، وأنه لو كشف عن وجهه الكريم الحجاب لما قام لنوره شيء من الخلق ــ بل يحترق ولكنه تعالى فى الدار الآخرة يكمل خلق المؤمنين ويقويهم على النظر إليه ــ تعالى ــ فينعمون بذلك ، بل هو أعلى نعيمهم يوم القيامة .

وقد تولى شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ إبطال شبه هؤلاء المنكرين لحجب الله تعالى ، فى كتابه « نقض تأسيس الجهمية ، وإبطال بدعهم الكلامية » بوجوه كثيرة ، أكثر من أربعين وجها ، كل وجه منها كاف فى إبطال قولهم .

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٦٣ الحديث رقم ١٨١ .

قال ــ رحمه الله ــ : « أحدها : أنهم يقولون : إن الحجاب هو ما يخلقه الله فى العين من الرؤية المتعلقة به تعالى » .

وهذا باطل بالضرورة ، لأنهم فسروا الحجاب بعدم الإدراك فى أبصارهم ، والعدم لا يخلق ولا وجود له ، فهو ليس شيئا .

الثانى : أنه ثبت فى الحديث قوله : « فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه » .

وكشف الشىء إزالته ورفعه ، وهذا لا يوصف به المعدوم ، فإنه لا يزال ، ولا يرفع ، وإنما الذى يزال ويرفع الموجود .

الثالث : أنه قال : « فيكشف الحجاب فينظرون إليه » فجعل النظر متعقبا لكشف الحجاب ، وعند هؤلاء المبتدعة : الحجاب هو عدم خلق الرؤية ، وضده خلق الرؤية ، فيكون زوال ذلك العدم هو عين الرؤية ، لا يكون شيئا يتعقب [كشف] الحجاب ، وتقدم أن العدم ليس شيئا .

الرابع : أن فى الحديث : « حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه » .

ولو كان كما زعموا هو خلق الرؤية لم يكن كشف ذلك يحرق شيئا .

فالمؤمنون يرون ربهم فى عرصات القيامة ، وفى الجنة ولا تحرق رؤيتهم شيئا .

الخامس : [أنه] ثبت فى الصحيحين : « وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه ، فى جنة عدن » .

وعلى قول هؤلاء : ما بينهم وبين أن ينظروا إليه إلا زوال ذلك العدم بخلق الرؤية فى أعينهم .

ومعلوم أن عدم خلق الرؤية فيهم ليس هو رداء الكبرياء ، ولا هو على وجه الله الكريم ، ولا هو فى جنة عدن ، ولا هو شىء أصلا حتى يوصف بصفات الموجود .

السادس : أن من تأمل نصوص الكتاب والسنة ، وما ورد فى ذلك من الآثار عن الصحابة والتابعين ، علم بالضرورة علما يقينيا لا يستريب فيه أن لله حجابا ، وحجبا منفصلة عن العباد ، يكشفها إذا شاء ، فيتجلى ، وإذا شاء لم يكشفها .

وإذا كان الحجاب كما يقول الرازى وذووه : « هو الجسم المتوسط بين جسمين » فلازم الحق حق ، لا يمكن أن يدفع حيث علم بالاضطرار من دين المرسلين فلا يدفع بما أحدثه سلف الرازى ، وأئمته ، ولا بما يشنعون به على أهل السنة من اصطلاحات ، وألفاظ ابتدعوها ، ما أنزل الله بها من سلطان .

فإن من أعظم بدعهم : قولهم : إن الله ليس بجوهر ولا جسم ، وهذا هو الصنم الأكبر الذى صدوا به عباد الله عن معرفته ، والإيمان به .

وهو الذى عُطل الله به من أسمائه وصفاته .

بل هو أساس الشرك والردة ، والنفاق ، وإن كان قد اغتر به طوائف من أهل الإيمان ، لم يعلموا ما قصده واضعوه الذين أفسدوا به فطرة العباد التى فطرهم الله عليها ، وأفسدوا به معانى كتاب الله ، وصدوا به عن سبيل الله .

وهو لهؤلاء المبتدعة كاللات ، والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى للمشركين القدماء .

فإن الله ــ تعالى ــ لم ينزل فى شىء من كتبه ، ولا قال أحد من رسله ، ولا أحد من ورثتهم : إن الله ليس بجوهر ولا جسم ، وإن كان إثبات ذلك أيضا بدعة وضلالة ، إلا أن نفيه أعظم وأضل .

السابع : أن الله ــ تعالى ــ قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ ومعلوم أن هذا التكليم مثل ما حصل لموسى ، وهو أرفع درجة من التكليم بالوحى ، وإرسال الرسول باتفاق المسلمين ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة .

فإذا كان الحجاب كما يقول هؤلاء : هو عدم خلق الرؤية ، فذلك مشترك بين الأقسام الثلاثة ، فلا يكون لمن كلم من وراء حجاب ميزة .

وبطلان ذلك ظاهر .

وقوله تعالى : ﴿ مَن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ معناه من خلف حجاب ، وعدم خلق الرؤية عدم محض ، ليس له خلف ، ولا أمام ، فعلم أن الحق إثبات الحجاب لله حقيقة ، لأنه موجود .

والتقدير على قولهم : أن يقال : « أو من وراء عدم خلق الرؤية » وهذا يشبه كلام المجانين ، ولا يجعل هذا معنى كلام الله إلا زنديق متلاعب بالقرآن .

الثامن : أنه تعالى قال فى الكفار : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾[1] فجعل حجابهم يوم القيامة ، ولو كان الحجاب هو عدم خلق الرؤية لكانوا محجوبين فى الدنيا والآخرة ، ولكان المؤمنون أيضا داخلين فى ذلك ، معذبين بهذا الحجاب الذى عذب به الكفار فى الآخرة .

ولكنه حجاب خاص يحجب الله به الكفار حين يتجلى للأبرار .

ثم هذا الذى قالوه فى الحجاب حمل للفظ على ما لا تحتمله اللغة بوجه من الوجوه فهو تبديل للغة ، كما هو تحريف للقرآن وتبديل لمعانيه »[2] .

قوله : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يحجبه » .

وفى رواية « حاجب » وهذا يدل على وجود الحاجب كما تقدم ، ويدل على جواز أن يكون له ترجمان يبلغ عنه .

---

(١) الآية ١٥ من سورة المطففين .

(٢) نقض التأسيس بتصرف وتلخيص وانظر بقية الوجوه فيه جـ ٣ ص ١٤٥ ـــ ١٥٤ مخطوط .

وقد جاء نص القرآن بأن التكليم يكون من وراء حجاب ، وعلى قول المنكرين للحجاب لا يمكن أن يكون بينه وبين عباده حجاب حقيقى ، ولا ترجمان ، وهذا يلزم منه إما إنكار وجود الله ، أو أنه حال مع خلقه ، تعالى الله عن ذلك .

ومذهبهم فى المسألتين من أعظم الباطل ــ أعنى الرؤية والكلام ــ لأنهم يقولون : التكليم : هو خلق إدراك الكلام ، لأن كلام الله معنى قائم بنفسه .

كما أنهم يقولون : الرؤية هى رفع الموانع ، وخلق الرؤية فى العين ، فعلى هذا يكون الذى يراه المؤمنون فى الجنة شيئا مخلوقا ، والنصوص تبطل ذلك ، وكذلك العقل والفطر إذا سلمت من الانتكاس ، والتغيير .

٧١ ــ قال : « حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد ، عن أبى عمران ، عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ قال : « جنتان من فضة ، آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب ، آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » .

قال الحافظ : فى رواية الحارث بن عبيد ، عن أبى عمران الجونى ، فى أول هذا الحديث : « جنان الفردوس أربع ، ثنتان من ذهب » ... إلخ .

وهذا يبين أن الحديث قد حذف شيء من أوله .

وهو يدل على تفاوت منازل الجنة ودرجاتها ، فبعضها أعلى من بعض حسا ومعنى ، حيث يكون بناؤها من الذهب ، وأوانيها من الذهب ومعلوم أن الذهب هو أغلى المعادن وأنفسها لدى المخاطبين بالقرآن عند نزوله ، ويجوز أن يكون فيها ما هو أعلى من الذهب وأرفع ، لأن الله تعالى أخبر أن فيها ما لا عين رأته ، ولا أذن سمعته ، ولا خطر على قلب بشر ، وتقدم البحث فى درجات الجنة .

قوله : « وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » .

هذا الشاهد من الحديث للباب ، إذ فيه التصريح بقرب نظرهم إلى ربهم فإذا أراد تعالى أن ينعمهم ويزيد فى كرامتهم رفع رداء الكبرياء عن وجهه فنظروا إليه ، وفى الرواية التى ذكرها فى التفسير ، « رداء الكبر على وجهه »[1] .

لقد تخبط شراح الحديث هنا من الأشاعرة ــ تخبطهم فى كثير من صفات الله ــ تعالى ــ فأخرجوا كلام رسول الله ﷺ عن ظاهره إلى المجازات البعيدة ، وطلبوا له التأويلات المستكرهة ، تحريفا له وتعطيلا لله من أوصافه ، ظانين أن ما وصفه به رسوله فى مثل هذا الحديث فيه تجسيم وتشبيه ، كما هى طريقتهم .

نقل الحافظ كثيرا من كلامهم على هذا الحديث ، فنقل عن القاضى عياض قوله : « من أجرى هذا الكلام على ظاهره أفضى به إلى التجسيم » .

وقال الكرمانى : « هذا من المتشابهات ، فإما مفوض ، وإما متأول بأن المراد من الوجه الذات ، والرداء صفة من صفات الذات اللازمة ، المنزه عما يشبه المخلوقات » ، وقال المازرى : « عبر عن زوال الموانع ، ورفعها عن أبصارهم برداء الكبرياء »[2] .

ونحن نجيبهم عما قالوا بجوابين ، أحدهما مجمل ، والآخر مفصل .

أما المجمل ، فنقول : نحن لا نشك ، ولا يشك مسلم عرف رسول الله ﷺ وعرف قدره ، أنه أفصح منكم ، وأقدر على بيان الحق وإيضاح ما يريد

---

(١) انظر البخارى جـ ٦ ص ١٢١ تفسير سورة الرحمن .

(٢) انظر بقية كلامهم فى الفتح جـ ١٣ ص ٤٣٣ فإنى اختصرته .

بلاغه منكم ومن أئمتكم ، وأنه أنصح للأمة وأشفق عليها وأحرص على هدايتها ، وسد طرق الكفر والضلال عنها منكم ومن غيركم ، وأنه أعلم بالله وما يجب له وما يمتنع عليه ، وأنه أخشى لله وأتقى له ، فمع ذلك يمتنع أن يتكلم بما ظاهره الكفر والضلال ، أو بما يؤدى إلى الباطل ، بل كلامه فيه الهدى والنور والعصمة من الضلال والانحراف لمن آمن به واتبعه .

بخلاف كلام غيره من الناس فإنه لابد من عرضه على قول الله وقول رسوله ، فإن وافقه قبل ، وإلا رد على قائله .

فالحق قطعا فيما قاله رسول الله ﷺ وليس فى قول من خالفه ممن يتلقى عقيدته عن أهل الكلام والفلسفة المبنية على آراء الرجال وتخرصاتهم .

وأما الجواب المفصل : فمن وجوه :

أحدها : أن ما قالوه خلاف ظاهر النصوص ، كما صرحوا بذلك ، وليس فى اللفظ المذكور ولا فى غيره مما جاء عن الرسول ﷺ ما يدل على ما قالوه .

ومعلوم أن صرف اللفظ عن ظاهره يحتاج إلى دليل يدل على ذلك ، وإلا صار التأويل تحريفا وتلاعبا .

أما ما يدعون من قرينة دلالة العقل ، فمجرد دعوى تفتقر إلى برهان ، والحق أن العقل يدل على مادل عليه نص الشرع .

الوجه الثانى : أنه قال : « وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » ، ومن المعلوم أن الكبرياء من صفات الله ــ تعالى ــ ولا يجوز للعباد أن يتصفوا بها ، فقد توعد الله المتكبر بجهنم ، كما قال تعالى : ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[1] .

---

(١) الآية ٧٢ من سورة الزمر .

وفى الحديث : « لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر »[1] .

فلا يجوز أن يكون رداء الكبرياء إلا وصفا لله ـــ تعالى ـــ فبطل قولهم : « إن المقصود من رداء الكبرياء ، زوال الموانع » .

الوجه الثالث : أنه أضاف رداء الكبرياء إلى وجه الله الكريم حجابا له .

فقال : « إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » ، فلا يجوز أن يكون رداء الكبرياء ما فى أعين العباد من المانع الذى منعهم من رؤية الله كما يقوله هؤلاء ، وقيد ذلك فى جنة عدن .

وعلى مقتضى قولهم أنه لو زال المانع عن أعين العباد لرأوه فى الدنيا .

الوجه الرابع : أنه ثبت فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : قال الله تعالى : « الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منها قذفته فى النار »[2] .

ورواه مسلم ، ولفظه : « العز إزاره ، والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعنى عذبته »[3] .

ورواه ابن ماجه ، ولفظه : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله سبحانه : الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، من نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم »[4] .

ووصف الله تعالى بأن العظمة إزاره ، والكبرياء ردائه كسائر صفاته تثبت على ما يليق به ، ويجب أن يؤمن بها على ما أفاده النص دون تحريف ولا تعطيل .

---

(١) رواه مسلم جـ ١ ص ٩٣ .
(٢) رواه أبو داود فى السنن جـ ٤ ص ٣٥٠ .
(٣) صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٢٣ رقم ٢٦٢٠ .
(٤) انظر ابن ماجه جـ ٢ ص ١٣٩٧ رقم ٤١٧٤ .

قوله : « فى جنة عدن » قيد لكونهم ليس بينهم وبين أن ينظروا إلى وجه ربهم — جل وعلا — إلا رداء الكبرياء .

وهذا دليل على فضل جنة عدن ، وعلوها ، ومن لازم ذلك علو الله تعالى لأنهم ينظرون إليه تعالى من فوقهم ، وتقدم بحث ذلك بما فيه كفاية .

وأما قول ابن بطال : « لا تعلق به للمجسمة فى إثبات المكان ، لما ثبت من استحالة أن يكون جسما ، أو حالا فى مكان .

فيكون تأويل الرداء : الآفة الموجودة فى أبصارهم ، المانعة لهم من رؤيته ، وسماه رداء لتنزله فى المنع منزلة الرداء الذى يحجب الوجه عن رؤيته ، فأطلق عليه الرداء مجازا ، وقوله : « فى جنة عدن » راجع إلى القوم »[1] .

فيقال له : أولا من هم المجسمة ؟ ومعلوم أنه يقصد من أثبت أن الله فوق عرشه ، وأنه يراه أهل الجنة من فوقهم ، ولا شك أن نصوص الكتاب والسنة فى إثبات ذلك أكثر من أن يحاط بها .

وعلى اصطلاح ابن بطال وذويه ، كل من أثبت ذلك فهو مجسم .

والله تعالى قد أثبت ذلك لنفسه ، وأثبته رسوله له ، ونحن نتبع ذلك ، سواء سماه أهل البدع تجسيما وشنعوا على من اعتقده ، أو قاله ، أو لم يسموه ، فإنه هو الحق الذى لا مرية فيه عند أهله .

وأما قوله : « لما ثبت من استحالة أن يكون — سبحانه جسما ، أو حالا فى مكان » فكما سبق أن هذه البدعة هى التى عُطل رب العالمين من أسمائه وصفاته بها ، وأنها الصنم الذى عبده المتكلمون ، وصدوا به عباد الله عن معرفته وعبادته بأسمائه وصفاته .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٣٣ .

ثم هذا القول من ابن بطال ومن قال به مجرد دعوى ، لا برهان عليها ، فمن أين لهم استحالة أن يكون الله فى مكان ، وكتب الله وسنة رسوله ظاهرة فى ذلك جلية تنادى بأن الله فوق عرشه مستو عليه ، عال على خلقه .

أما يستحيون من الدعاوى الكاذبة ، التى يريدون بها التشنيع على أتباع الرسل .

وقد علم أن مقصودهم بالجسم : ما شغل مكانا ، أو ما يصح أن يقال أنه هنا أو هناك ، أو ما صحت الإشارة إليه ، أو ما كان له مقدار .

وتقدم من الأدلة على استواء الله تعالى على عرشه ، وعلوه على خلقه ، وأنه يشار إليه ، ويقال إنه فى السماء ما فيه مقنع لمن يريد الحق .

وأما قوله : « فى جنة عدن راجع إلى القوم » فمراد : أن القوم فى جنة عدن ، وأنه لا يجوز أن يقال : إن الله يرى فى جنة عدن ، وإنما معناه الإخبار بأن القوم فى جنة عدن .

فيقال : أولا هذا رد صريح لقول رسول الله ﷺ وكفى بذلك ضلالا ، وبعدا عن سبيل المؤمنين .

ويقال ثانيا : إن هذا من جنس تأويلات أهل البدع الباردة ، التى لا تصدر عن عربى يعرف معنى ما يقول ، فضلا عن رسول الله ﷺ الذى هو أفصح العرب ، وكونهم فى جنة عدن قد علم من أول الحديث ، لأنه قال : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما » .. إلخ ، ثم أخبر أن رؤيتهم لربهم قريبة ، ليس دونها إلا رفع الحجاب ، فهم يرونه فى جنة عدن من فوقهم ، يوضحه الحديث المتقدم : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة ، وأعلى الجنة وسقفه عرش الرحمن » ، ومن أجل ذلك أورده البخارى رحمه الله فى هذا الباب مستدلا به على رؤية الله تعالى كما هو واضح وصريح فى ذلك .

٧٢ ــ قال : « حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عبد الملك بن أعين ، وجامع بن شداد ، عن أبى وائل ، عن عبد الله ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « من اقتطع مال امرئ مسلم بيمين كاذبة لقى الله وهو عليه غضبان » .

قال عبد الله : ثم قرأ رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله جل ذكره : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] .

قوله : « من اقتطع مال امرئ مسلم بيمين كاذبة » « مَن » مِن أدوات العموم ، والأغلب أن تكون لخطاب من يعقل .

و « مال » نكرة ، أضيفت إلى نكرة موصوفة بالإسلام ، فشملت كل مسلم ، وكل ما يسمى مالا ، قليلا كان أو كثيرا .

روى الطبرانى من حديث جابر بن عتيك ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من اقتطع مال امرئ مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة ، وأوجب له النار » ، قالوا يا رسول الله : وإن شىء يسير ؟ قال : « وإن كان سواكا »[2] .

ورواه الحاكم ، ولفظه : « من اقتطع مال امرئ مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة وأدخله النار ، قالوا : يا رسول الله وإن كان شيئا يسيرا ؟

قال : « وإن كان سواكا ، وإن كان سواكا » قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة[3] وقال الذهبى : صحيح .

---

(١) الآية ٧٧ من سورة آل عمران .

(٢) معجم الطبرانى الكبير جـ ٢ ص ٢١٠ .

(٣) المستدرك جـ ٤ ص ٢٩٥ .

« اقتطع » من القطع لأنه قطعه عن صاحبه ، أو أخذ قطعة من ماله بالحلف الكاذب .

قوله : « لقى الله وهو عليه غضبان » هذا محل الشاهد من الحديث الذى أورده من أجله ، وتقدم أن اللقاء يتضمن النظر والمعاينة ، وأن السلف استدلوا بلفظ اللقاء على الرؤية .

قال الحافظ : « فى حديث وائل بن حجر عند مسلم : « لقى الله وهو عنه معرض » .

وفى روايه كردوس ، عن الأشعث ، عند أبى داود : « لقى الله ، وهو أجذم » قال : وفى حديث أبى أمامة عند مسلم ، والنسائى نحو ما فى هذا الحديث : « فقد أوجب الله له النار ، وحرم عليه الجنة » ، وفى حديث عمران ، عند أبى داود « فليتبوأ مقعده من النار »[1] .

وهذا وعيد شديد جدا لمن يفعل ذلك ، فعلى المسلم أن يحذر كل الحذر من أموال المسلمين بأى وسيلة كانت ، فإن ذلك من أسباب سخط الله تعالى .

قوله : « مصداقه من كتاب الله جل ذكره » إلى آخره ، أى الذى يصدق هذا الحديث ويوافقه .

قال ابن كثير : « يقول تعالى : إن الذين يعتاضون عما عاهدهم عليه من اتباع محمد ﷺ ، وذكر صفته للناس وبيان أمره ، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة ، بالأثمان القليلة الزهيدة — وهى عروض الدنيا الزائلة : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ ﴾ أى لا نصيب لهم فيها ، ولا حظ لهم منها ، ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ برحمة منه لهم —

(١) الفتح جـ ١١ ص ٥٥٩ .

بمعنى : لا يكلمهم كلام لطف بهم ، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ أى من الذنوب ، والأدناس ، بل يأمر بهم إلى النار . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] مؤلم شديد الألم .

قال الحافظ : « يؤخذ من الآية تفسير قوله : « لقى الله وهو عليه غضبان » ، ومقتضاه : أن الغضب سبب لمنع الكلام ، والرؤية ، والرضا سبب لوجودهما »[2] .

وفيه وصف الله ــ تعالى ــ بالغضب ، وأنه يغضب على بعض عباده بسبب ذنوبهم ، وفيه أن الغضب غير العقاب ، وإذا كان يغضب فهو تعالى يرضى ، والأدلة على ذلك كثيرة .

٧٣ ــ قال : « حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : رجل حلف على سلعة لقد أُعْطَى بها أكثر مما أُعْطِىَ وهو كاذب ، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ، ليقتطع بها مال امرئ مسلم ، ورجل منع فضل ماء ، فيقول الله ــ تعالى ــ يوم القيامة : اليوم أمنعك فضلى ، كما منعت فضل ما لم تعمل يداك » .

قوله : « ثلاثة لا يكلمهم الله » أى ثلاثة من أجناس الناس ، يعم الذكور والإناث ، والأحرار والعبيد .

وعدم تكليم الله لهم يوم القيامة دليل على غضبه عليهم ، ومقتضاه : أنهم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥١ ط الشعب .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٣٣ .

يذهب بهم إلى النار بدون سؤال ومحاسبة ، لأنهم قد تناهى جرمهم فى القبح ، فاستحقوا أليم العذاب ، مع الإعراض عنهم ، وإهانتهم من أول الأمر ، فيكون هذا الحديث مخصصا لحديث عدى السابق ، وهو قوله : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان » .

وقوله : « ولا ينظر إليهم » نظر الله ــ تعالى ــ إلى العبد يقتضى الرحمة ، وهؤلاء فعلوا أفعالا مقتهم الله عليها ، فأعرض عنهم ، ومن أعرض الله عنه فهو هالك ، الهلاك الأكبر .

والمقصود بالنظر المنفى هنا ، نظر خاص يتضمن الإحسان والرحمة ، ويفهم منه نظر العبد إلى الله ــ تعالى ــ لأن الله ــ تعالى ــ لا يحجب بصره شيء أبدا ، فى أى وقت كان .

وهذا القدر من الحديث : أعنى قوله : « لا يكلمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة » هو محل الشاهد لما مر ، ولأن الكلام والنظر المقيد بيوم القيامة يدل على اللقاء ، واللقاء يتضمن المعاينة .

ثم ذكر أفعالهم التى استحقوا عليها هذا الوعيد الشديد ، وهى ثلاثة أنواع :

أحدها : الحلف على السلعة التى يريد بيعها ، أنه أعطى بها أكثر مما يريد المشترى أن يأخذها به ، وهو كاذب فى حلفه ، وذلك لأنه اشترى بيمينه ثمنا قليلا بخسا ، مما يدل على رغبته فى الدنيا وزهده فى الآخرة ، واليمين دين يتعبد الله به ، فمن خاف الله فى يمينه ، فلم يكذب فهو من المتقين فى ذلك .

ومن بذل يمينه بعرض من الدنيا ، فهو فاجر يستحق العقوبة ، مستخف بحرمات الله .

والسلعة هى كل بضاعة عرضت للبيع .

والنوع الثانى ــ وهو أخص من الذى قبله ــ وهو الحلف على يمين كاذبة

بعد العصر ، ليقتطع بها مال امرئ مسلم ، وهذا يكون عند من يحكم بين الحالف والمحلوف له ، وهو الحاكم ، لأن المحلوف له يلزم بأن هذا المال للحالف بمقتضى يمينه ، وهذا هو معنى الاقتطاع .

وخص المسلم لأن ماله أشد حرمة ، وحقه على أخيه المسلم أعظم ، وإلا فمال الكافر غير المحارب لا يجوز أخذه إلا بحق .

وخص وقت بعد العصر لفضله ، ولأنه آخر النهار الذى أثنى الله على المسبحين فيه لقرب نهاية النهار وختم عمله ، وقرب الليل الذى فيه النوم المذكر بالمصير إلى الله تعالى وهو وقت أصوات الداعين لله والمسبحين .

وهذه اليمين هى الغموس سميت بذلك لأنها تغمس صاحبها فى الإثم فلا يخرج منه إلا أن يشاء الله — تعالى — فإنه يخرج الحى من الميت .

النوع الثالث : منع فضل الماء الذى زاد عن حاجته ، ويحتاج إليه سالك الطريق وذلك لأن الماء يتجدد بدله كلما أخذ منه ، ولا يضر بذله ، فمانعه لا يكون إلا لئيما خبيث النفس ، يقصد الأذية ، وليس لديه رحمة للخلق ، ولا رغبة فى الخير .

وفهم من قوله : « فضل ماء » أن ما يحتاجه لشربه هو ومن يلزمه إعاشته لا يلزمه بذله .

ولكون الماء يتجدد بما أخذ منه ، ولا صنع للإنسان فيه كالطعام مثلا واللباس الذى يحتاج معالجة وعملا ، لأجل ذلك يقول الله — تعالى — يوم القيامة :

« اليوم أمنعك فضلى ، كما منعت فضل ما لم تعمل يداك » .

ومن منع فضل الله فهو الخاسر الخسران الأبدى .

وقوله : « يقول الله » إلى آخره لا يعارض أول الحديث أن هؤلاء

لا يكلمهم الله ، لأنه لا يلزم أن يكون هذا القول مواجها به صاحب هذا العمل فقد يكون للملائكة الذين يتولون عذابه ، أو غير ذلك والله أعلم .

٧٤ ــ قال : « حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا عبد الوهاب ، حدثنا أيوب ، عن محمد ، عن ابن أبى بكرة ، عن أبى بكرة ، عن النبى ﷺ قال : « الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات ، ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورَجَب مُضَر ، الذى بين جُمَادى وشعبان . أى شهر هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليس ذا الحجة ؟ » قلنا : بلى .

قال : « أى بلد هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليس البلدة ؟ » قلنا : بلى ، قال : « فأى يوم هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : « أليس يوم النحر ؟ » قلنا : بلى .

قال : فإن دماءكم وأموالكم » ــ قال محمد : وأحسبه قال : « وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا ، فى شهركم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم .

ألا فلا ترجعوا بعدى ضلالا ، يضرب بعضكم رقاب بعض .

ألا ليبلغ الشاهد الغائب ، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى من بعض من سمعه » .

فكان محمد إذا ذكره ، قال : صدق النبى ﷺ ثم قال : « ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت » .

هذا الحديث قاله ﷺ فى خطبته العظيمة يوم النحر ، فى حجة الوداع وفى هذا الحديث بين وجوب الاجتماع على الحق ، والاعتصام بكتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ وعظم حرمة دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ، ووجوب سلوك طريقه ﷺ وبيان أن الله ـــ تعالى ـــ أتم عليهم نعمته بنبيه وأخذهم بما جاء به .

وحذرهم من ترك هذا الهدى والرجوع إلى الضلال وكفر النعمة والفرقة الداعية إلى التصادم والقتال ، فإن ذلك من الكفر .

وبين أن الزمان قد عاد كما خلقه الله ، بعد تبديل المشركين الشهور المحرمة بالتقديم والتأخير حسب أهوائهم ، حتى يستحلوا القتال فى الأشهر الحرم .

وفيه بيان تأكد حرمة الأشهر الحرم التى حرمها الله يوم خلق السماوات والأرض ، وحرمة مكة ، وأن هذا التحريم مستمر إلى يوم القيامة لا يستحله إلا من جانب طريق الرسل . وأحل شعائر الله والشهر الحرام والبلد الحرام وذلك من العظائم .

قوله : « الزمان قد استدار ، كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض » كان المشركون لا يستحلون القتال فى الأشهر الحرم ، ولما كان منها ثلاثة متواليات ، طالت عليهم فتحيلوا على تأخير المحرم وتقديم صفر مكانه ، فيحلون المحرم عاما ويحرمون صفر بدله ويحرمونه عاما فيجعلون المحرم هو صفر فى هذا العام مثلا ، وفى العام الآخر يبقون المحرم وصفر على ما هما عليه ، يفعلون ذلك تحيلا على استحلال القتال ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ .

فيستحلون القتال فى الشهر الحرام ، ويسمونه بغير اسمه ، ويحرمونه فى

الشهر الحلال ويسمونه محرما ، ليتفق ذلك مع عدة ما حرم الله ـــ تعالى ـــ من الأشهر ، لأن توالى ثلاثة شهور محرمة يطول عليهم ، ففعلوا ذلك لأجل قتال أعدائهم ، ولغير ذلك من أغراضهم .

وفى السنة التى حج فيها النبى ﷺ اتفق أن الأشهر الثلاثة كلها محرمة ، لأنها السنة التى كانوا يحرمون القتال فى محرم على ما هو عليه ، ولهذا قال ﷺ : « الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض » أى رجع تحريم الأشهر الحرم فى حساب المشركين وعملهم متفقا مع حكم الله وشرعه ، فقد جعل الله السنة اثنى عشر شهرا منها أربعة حرم ، يحرم القتال فيها ، والظلم فيها أعظم منه فى غيرها .

قال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس ، « كان جنادة بن عوف بن أمية الكنانى ، يوافى الموسم فى كل عام ، وكان يُكْنَى أبا ثمامة ، فينادى : ألا إن أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب ، ألا إن محرم العام الأول هذا العام حلال ، فيحله الناس ، فيحرم صفر عاما ويحرم المحرم عاما .

قال شاعرهم . وهو عمير بن قيس الذى يقال له : جذل الطعان : يفتخر بذلك :

لقد علمت معدٌّ بأن قومى كرام الناس إن لهم كراما
ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما
فأى الناس لم ندرك بوتر وأى الناس لم نعلك لجاما

وقوله : « ورجب مضر » إضافة إليهم لأنهم كانوا متمسكين بتعظيمه وحرمة القتال فيه ، أكثر من غيرهم ، وكان بعض العرب يعمل فيه ما يعملون فى محرم حسب حاجتهم إلى القتال .

وقوله : « الذى بين جُمَادَى وشعبان » تأكيد لتعريفه ونص عليه .

والمراد بالزمان فى قوله : « إن الزمان قد استدار » السنة .

قال الخطابى : « كانوا يخالفون بين أشهر السنة بالتحليل والتحريم والتقديم والتأخير ، لأسباب تعرض لهم .

منها استعجال الحرب ، فيستحلون الشهر الحرام ، ثم يحرمون بدله شهرا غيره ، فتتحول بذلك شهور السنة وتتبدل ، فإذا أتى على ذلك عدة من السنين استدار الزمان ، وعاد الأمر إلى أصله ، فاتفق وقوع حجة النبى ﷺ عند ذلك »[1] .

فعلى هذا يكون المراد بالزمان مطلقه .

قوله : « أى شهر هذا ؟ » إلى قوله : « أليس يوم النحر ؟ » لما كان متقررا عندهم حرمة ذى الحجة وحرمة البلد الحرام ، وحرمة يوم النحر ، أراد ﷺ أن يؤكد تحريم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم بالتمثيل البالغ فى الحرمة منتهاها .

وفيه تعظيم شأن الدماء والأموال والأعراض وشدة حرمتها ، حيث قال : « فإن دماءكم ، وأموالكم ، وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » ، فهذا غاية ما يمثل به شدة حرمة الشىء وتعظيمه .

وقد صح أن أول ما يبدأ به فى المُقَاصَّة بين الناس يوم القيامة الدماءُ .

قوله : « وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم » هذا هو المقصود من الحديث ، لأنه ظاهر فِى مواجهتهم لله ــ تعالى ــ ومخاطبته لهم ، فيدل على أنهم يرونه كما تقدم أن اللقى يتضمن المعاينة والرؤية .

وهذه الجملة تأكيد لما سبق من ذكر حرمة الدماء ، وما عطف عليها ، إذ المعنى : إذا تأكد لديكم شدة حرمة ذلك ، فاحذروا أن تقعوا فيه فإنكم

---

(١) انظر فتح البارى جـ ٨ ص ٣٢٥ .

سوف تلاقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم ، وهو أعلم بها منكم .

والسؤال يتضمن الجزاء .

وقوله : « فلا ترجعوا بعدى ضلالا ، يضرب بعضكم رقاب بعض » أى إياكم أن تعرضوا عما تركتكم عليه ، وحضضتكم عليه ، وهو التمسك بكتاب ربكم وسنة نبيكم ، فإنه الصراط المستقيم ، الذى يوصلكم إلى الجنة والسعادة فى الدنيا والآخرة ، فإنكم إن ملتم عن ذلكم ضللتم الطريق السوى وارتكبتم أعظم ما حذرتكم منه ، وهو الوقوع فى الدماء فيصبح بعضكم يضرب رقاب بعض ، وهذا هو الضلال .

قوله : « ألا ليبلغ الشاهد الغائب » هذا من الواجب الذى لا يجوز الإخلال به أو التساهل ، لأن الأمة لا تصلح إلا بمعرفة ما جاء به ﷺ والعمل به ، كما قال الإمام مالك : « إنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها » .

ولما جهلت الأمة طريق الرسول كثر الضلال فيها ، والتخبط فى ظلمات الجهل والخرافة ، فظهرت فيها الرافضة والصوفية ، والباطنية ، والملاحدة والزنادقة وكل منهم يدعى أن الحق معه لا يعدوه ، ومن خالفه فهو ضال أو كافر حلال الدم والمال ، وغالب ذلك بسبب الجهل بما جاء به الرسول ﷺ وإن كان رؤساء هذه الطرق بالغالب ملاحدة يتسترون بالإسلام ، هدفهم هدمه من أساسه ، ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ .

قوله : « فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى من بعض من سمعه » . الوعى : هو الفهم والمعرفة ثم الامتثال ، والمراد تبليغ أقواله ﷺ المتضمنة لأحكام الدين الذى جاء به .

وقوله : « فلعل » مشعر بقلة ذلك ، ولهذا جاء فى رواية بدل « فلعل » « رُبَّ » المفيدة للتقليل .

قال الحافظ : « فيه الحث على تبليغ العلم ، وجواز التحمل قبل كمال الأهلية ، وأن الفهم ليس شرطا فى الأداء ، وأنه يأتى فى الآخر من يكون أفهم من بعض من تقدم ولكن بقلة »[1] .

هذه النصوص التى ذكرها المؤلف – رحمه الله ـــ كلها دلت على أن الله ـــ تعالى ـــ يُرَى فى الآخرة ، دلالة متنوعة .

منها ما هو نص جلى لا يحتمل أى تأويل مثل قوله ﷺ : « إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر » .

وقوله : « إنكم سترون ربكم عيانا » .

وقوله جوابا لسؤالهم : « هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ » فقال : « هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحوا ؟ قالوا : لا . قال : « فإنكم لا تضارون فى رؤية ربكم يومئذ ، إلا كما تضارون فى رؤيتهما » .

وقوله : « فيأتيهم الله فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون .

فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه » .

وقوله فى حديث الشفاعة : « فأستأذن على ربى فى داره ، فيؤذن لى ، فإذا رأيته وقعت ساجدا » ، كرر ذلك مرارا ، كل هذه الألفاظ صريحة فى الرؤية ، غير قابلة لتأويل وصرف عن ظاهرها .

فلا عذر لمن خالفها ، ولا حجة له ، إلا اتباع الهوى ، والتقليد الأعمى أو التعصب ، أو الضلال البعيد ، أو الكفر والجحود .

فقد وضح مراد النبى ﷺ من هذه الأحاديث لكل عاقل ، عارف باللغة ،

---

(١) الفتح جـ ١ ص ١٥٩ .

لا يستريب فى ذلك من عرف دلالة الألفاظ على المعانى ؛ أن مراده بهذه الألفـاظ المذكورة رؤيتهم إياه بأبصارهم ، وليس فى الممكن أوضح من هذه العبارات .

وهناك نصوص كثيرة غير ما ذكره هنا دالة على رؤية الله ــ تعالى ــ فى الآخرة دلالة ظاهرة ، استقصاها كثير ممن ألف فى هذا الموضوع .

قال ابن القيم : « اتفق [على أن الله يُرَى فى الآخرة] الأنبياءُ ، والمرسلون وجميع الصحابة ، والتابعون ، وأئمة الإسلام ، على تتابع القرون .

وأنكرها أهل البدع المارقون ، والجهمية المتهوكون ، والفرعونيـة المعطلون ، والباطنية الذين هم من جميع الأديان منسلخون ، والرافضة الذين هم بحبائل الشيطان متمسكون ، ومن حبل الله منقطعون ، وعلى مَسَبَّةِ أصحاب رسول الله عاكفون ، وللسنة وأهلها محاربون ، ولكل عدو لله ورسوله ودينه مسالمون .

وكل هؤلاء عن ربهم محجوبون ، وعن بابه مطرودن ، أولئك أحزاب الضلال ، وشيعة اللعين ، وأعداء الرسول وحزبه »[1] .

وقال شيخ الإسلام : « والذى يجب على كل مسلم اعتقاده : هو أن المؤمنين يرون ربهم فى الدار الآخرة ، فى عرصة القيامة[2] وبعد ما يدخلون الجنة ، على ما تواترت به الأحاديث ، عن النبى ﷺ عند العلماء بالحديث ، فإنه أخبر أنا نرى ربنا كما نرى القمر ليلة البدر ، والشمس عند الظهيرة ، لا نُضَام فى رؤيته »[3] .

---

(١) حادى الأرواح ص ٢١٢ .

(٢) عرصة القيامة ، أو عرصاتها : هى مواقفها التى يقف الناس فيها مجتمعين .

(٣) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٤٨٥ .

واعلم أن الذين أنكروا رؤية الله ــ تعالى ــ اعتمدوا على شبه سموها براهين عقلية ، وتعلقوا ببعض الآيات والأخبار ، وهى فى الحقيقة مبطلة لقولهم .

ومن أعظم الفرق إنكارا لرؤية الله ــ تعالى ــ بالأبصار المعتزلة ، وبنوا إنكارهم لها على التشبيه المستكن فى نفوسهم ، لأنهم بنوا علمهم على الجدل . الذى أصله القياس المبنى على تشبيه الغائب بالمشاهد .

فإذا نظرت فيما ذكروه وجدت ذلك واضحا فى استدلالاتهم وتعليلاتهم إلى جانب التعصب للآراء .

قال عبد الجبار : « قال أهل العدل بأسرهم ، والزيدية ، والخوارج وأكثر المرجئة : لا يجوز أن يرى الله ــ تعالى ــ بالبصر ، ولا يدرك به على وجه ، لا لحجاب ومانع ، لكن لأن ذلك يستحيل »(1) .

١ ــ ثم استدل « بأن الرؤية لا تصح إلا بحاسة البصر ، والله لا يجوز أن يوصف بأن له حواس »(2) فالله عنده لا يَرَى ولا يُرَى ــ تعالى الله عن ذلك ــ .

٢ ــ « ولأن البصر لا يصح أن يرى إلا ما كان مقابلا ، أو فى حكم المقابل ، وهذا لا يكون إلا للجسم ذى الألوان ، وهو محال على الله »(3) .

٣ ــ « ما يصح أن يرى ، لا يجوز أن يختص بصحة رؤيته بعض الرائين دون بعض ، كما أن ما يصح أن يعلم لا يجوز أن يختص بالعلم به بعض الأحياء دون بعض »(4) .

---

(١) المغنى للقاضى عبد الجبار المعتزلى جـ ٤ ص ١٣٩ .
(٢) المصدر المذكور ص ٣٦ .
(٣) المصدر المذكور ص ١٤٠ .
(٤) المصدر نفسه ص ٨٩ .

٤ ــ « ولأن الموانع من الرؤية لا تختص بشيء تصح رؤيته دون شيء وهى القرب المفرط ، والبعد المفرط ، والحجاب ، واللطافة ، والرقة ، وأن يكون المرئى فى غير جهة محاذاة الرائى ، أو يكون حالا فيما هذا سبيله ، فإذا زالت هذه الموانع ، وجب أن يرى ما صحت رؤيته »[1] والحجاب عندهم مستحيل على الله كما تقدم .

فهذه جملة من أدلة هذه الفرقة ، التى يسمونها براهين ، إذا تأملها العاقل وجدها مبنية على قياس رب العالمين على المخلوق ، وتحكيم الآراء ، ولهذا ذهبت هيبة الله وعظمته من قلوبهم ، واستخفوا بكتابه فاجتهدوا فى تحريف معانيه وصرفه عما قصد به .

والمقصود ذكر بعض أدلتهم العقلية ــ كما يقولون ــ وهى فى الحقيقة شبه داحضة ، وضلالات بينة لمن عرف الحق .

وهم لا يقبلون أحاديث رسول الله ﷺ وإن كانت أسانيدها فى غاية الصحة والجودة ، ويقبلون قول فلان وفلان ، لأنهم يزعمون أن ذلك براهين عقلية .

فقوله : « إن الله لا يرى بالبصر ، لا لحجاب يحجبه ، أو مانع يمنع رؤيته لكن لأن رؤيته مستحيلة » فيقال له : هذا مجرد دعوى غير مقبولة وهو فى مقابلة قول الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

وقوله فى المعذبين : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ وفسر رسول الله ﷺ الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم كما فى صحيح مسلم وهو أيضا مصادم لقول

---

(١) المصدر المذكور ص ١١٦ .

رسول الله ﷺ : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، لا تضامون فى رؤيته » كما سبق .

فأيهما أحق بالاتباع ، قول طائفة الاعتزال ، عباد الآراء والأهواء أم قول الله ورسوله ، إن المقارنة بين هذا وهذا غير سائغة ولا مقبولة ، لولا أن المسلمين قد بلوا بمن يعظم آراء المعتزلة ويرى لها وزنا .

وكل ما أشرنا إليه عن المعتزلة هو فى مقابلة النصوص الصحيحة الصريحة ، فلا يسوغ لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر الاعتداد بها ، أو جعلها أدلة على أمر قد بان ووضح غاية الوضوح من كتاب الله وسنة رسوله .

« وقد ثبت اتفاق سلف الأمة وأئمتها على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة ، وثبت فى النصوص المتواترة عن النبى ﷺ أنه قال : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر لا تضامون فى رؤيته » .

وقال : « إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب ، وكما ترون القمر صحوًا ليس دونه سحاب »[1] .

وقولهم : « إن ما يرى يجب أن يكون مقابلا للرائى ، وأن يكون متحيزًا فى جهة ، ولا يكون ذلك إلا لجسم ، والله يتعالى عن ذلك ــ لأن هذا صفة المحدث .

وهذا شيء لازم للرؤية ، ولهذا سخر المعتزلة وغيرهم ، من الأشعرية لما قالوا : إن الله يرى لا من جهة ، لأن هذه رؤية غير معقولة ؛ لإثباتهم الرؤية ونفيهم الجهة .

وأهل السنة يقولون : لا مانع من كون المرئى الذى هو رب العالمين ــ

---

(١) نقض التأسيس جـ ٢ ص ٤٠٦ .

جل وعلا ـــ فى مقابلة الرائين من عباده المؤمنين ، فهم يرونه من فوقهم ، كما صرحت به النصوص ، ولا محذور فيه .

وأما اللوازم الباطلة ، التى يدعيها المعتزلة وغيرهم ، فهى منتفية عن الله ـــ تعالى ـــ .

ونحن نستفسر منهم : ما هو مرادكم بكونه مقابلا للرائى ؟ هل تريدون أنه لا بد له من مكان يحويه ويحيط به ؟ فإن كان هذا ما أردتم فالله ـــ تعالى ـــ له مكان هو فوق عرشه ، ولا يحيط به شيء ، ولا يحويه شيء ـــ جل وعلا ـــ وهو أكبر من كل شيء وأعظم ، فهو ـــ تعالى ـــ يطوى السماوات كلها بيمينه ، ويقبض الأرض كلها بيده الأخرى ، وتكون كالخردلة فى يد أحدنا – ولله المثل الأعلى .

قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(١) .

وأما التحيز ، فإن أردتم أن الله مختلط بخلقه لئلا يلزم أن يكون متحيزًا ، فنحن نكفر بقولكم هذا ، ونتيقن أنه باطل ، والنصوص من الشرع ترده ، وكذلك العقل يرده .

وإن أردتم أن الله لا حقيقة له تميزه عن خلقه فكذلك هذا كفر وضلال .

وإن أردتم أن الله ـــ تعالى ـــ متميز من خلقه ، وأنه بائن منه فهذا حق والنصوص فيه أكثر من أن تحصى ، وهو ما يعتقده المسلمون ويؤمنون به ، واتفق عليه سلف هذه الأمة ، وأئمتها قبل ظهور المعتزلة والفرق الضالة ، ومثل ذلك يقال فى الجهة .

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

وتقدم من أدلة الكتاب والسنة ، والعقل ، وإجماع أهل الحق وأدلة الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، على أن الله فى السماء مستوٍ على عرشه ، عالٍ على خلقه ما يكفى عن ذكر شيء من ذلك هنا .

قال شيخ الإسلام ــ رحمه الله تعالى ــ : « كون الرؤية مستلزمة لأن يكون الله فى جهة من الرائى أمر ثبت بالنصوص المتواترة ، كما فى قوله : « هل تضامون فى رؤية الشمس ليس دونها سحاب ولا قتر ؟ »

قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « فإنكم ترونه كذلك » . وذكر الحديث بطوله .

قال أبو سعيد : أشهد لحفظته من رسول الله ﷺ .

فهذا فيه مع إخباره أنهم يرونه ، إخبارهم أنه يرونه فى جهة منهم من وجوه :

أحدها : أن الرؤية فى لغتهم لا تعرف إلا لرؤية ما يكون فى جهة منهم ، فأما رؤية ما ليس فى جهة فلم يكونوا يتصورونه ــ فضلا عن أن يكون اللفظ دالا عليه ، بل لا يتصور أحد من الناس وجودَ موجود فى غير جهة .

الثانى : أنه قال : « فإنكم ترون ربكم كما ترون الشمس صحوًا ، وكما ترون القمر صحوًا » فشبه لهم رؤيته برؤية الشمس والقمر ، وهما يريان من جهة .

الثالث : أنه قال : « هل تضارون فى رؤية الشمس ليس دونها سحاب وهل تضارون فى رؤية القمر ليس دونه سحاب » .

فشبه رؤيته برؤية أظهر المرئيات إذا لم يكن ثم حجاب منفصل عن الرائى ، يحول بينه وبين المرئى .

وفى لفظ فى الصحيح : « إنكم ترون ربكم عيانا »[1] .

---

(١) نقض التأسيس جـ ٢ ص ٤٠٩ ــ ٤١٥ ملخصا .

« فقد أخبرنا أنا نراه ، وأخبرنا أيضا أنه قد استوى على العرش ، فهذه النصوص يصدق بعضها بعضا ، والعقل أيضا يوافقها ، ويدل على أنه سبحانه مباين لمخلوقاته ، وأنه فوق سماواته ، وأن وجود موجود لا مباين للعالم ، ولا مداخل له ، محال فى بديهة العقل .

فإذا كانت رؤيته تعالى مستلزمة هذه المعانى التى شنعتم بها — فهى حق ، وإذا سميتم أنتم هذا قولا بالجهة والتجسيم ، لم تكن هذه التسمية نافية لما علم بالشرع والعقل .

ثم يقال : ما تعنون بقولكم : إن هذا إثبات للجهة ، والجهة ممتنعة على الله ؟ أتعنون بالجهة أمرا وجوديا ، أو أمرا عدميا ؟

فإن أردتم الأول ، فقد علم أنه ليس هناك موجود إلا الخالق والمخلوق ، والله تعالى فوق مخلوقاته ، بائن منها .

وعليه فليس الله تعالى فى جهة موجودة .

وقولكم : إن المرئى لابد أن يكون فى جهة موجودة ، باطل ، فإن سطح العالم مرئى ، وليس هو فى عالم آخر .

وإن فسرتم الجهة بأمر عدمى — كما تقولون — : « إن الجسم فى حيز ، والحيز تقدير مكان ، وتجعلون ما وراء العالم حيزا » .

فيقال : الجهة والحيز إذا كانا أمرا عدميا فهو ليس شيئا ، وما كان فى جهة عدمية ، أو فى حيز عدمى فليس هو فى شىء .

ولا فرق بين قول القائل : هذا ليس فى شىء ، وبين قوله : هو فى العدم ، أو أمر عدمى .

فإذا كان الخالق — تعالى — مباينا للمخلوقات عاليا عليها ، وما ثم موجود إلا الخالق ، أو المخلوق ، لم يكن معه غيره من الموجودات — فضلا عن أن

يكون هو سبحانه فى شىء موجود يحصره ويحيط به »[1] .

« وقوله ﷺ « هل تضارون فى رؤية الشمس ليس دونها سحاب وهل تضارون فى رؤية القمر ليس دونه سحاب » تشبيه لرؤيتهم لربهم برؤية أظهر المرئيات إذا لم يكن بينهم وبينها حجاب منفصل عنهم يحول بينهم وبين المرئى .

ومن يقول : إنه يرى فى غير جهة يمتنع عنده أن يكون بينه وبين العباد حجاب منفصل ، إذ الحجاب لا يكون إلا للجسم ، ولما يكون فى جهة .

والحجاب عندهم عدم خلق الإدراك فى العين كما تقدم .

الرابع : أنه أخبر أنهم لا يضارون فى رؤيته ، وفى رواية « لا يضامون » ، ونفى الضير ، والضيم إنما يكون لما يمكن لحوقه للرائى ومعلوم أن رؤية ما ليس بجهة من الرائى ، لا فوقه ، ولا فى شىء من جهاته ــ لا يتصور فيها ضير ، ولا ضيم حتى ينفى ذلك .

وقد روى ابن ماجه ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤسهم فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم ــ فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، قال : وذلك قول الله ــ تعالى ــ ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ .

قال فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه ، حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته فى ديارهم »[2] وهذا الحديث وإن كان ضعيف السند ، فإن الأدلة الصحيحة تؤيده .

الخامس : أن كون الله ــ تعالى ــ يرى بجهة من الرائى ثبت بإجماع السلف . ونصوصهم فى ذلك مشهورة .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل جـ ١ ص ١٥٣ ــ ٢٥٤ ببعض التصرف .

(٢) سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٦٥ ــ ٦٦ رقم ١٨٤ .

« فسلف الأمة وأئمتها متفقون على أن الله يرى فى الآخرة عيانا كما نرى الشمس والقمر ، وأنه لا يلزم من تعذر رؤية الشيء فى حالٍ تعذرُها فى حال أخرى ، بل قد يرى الشيء فى حال دون حال ، كما أن الأنبياء يرون ما لا يراه غيرهم »[1] .

السادس : « أن كل موجود قائم بنفسه فلابد أن يكون فى جهة ، والله تعالى هو الحق ، وهو فوق خلقه ، عال عليهم »[2] .

وأما ما تعلقوا به من مثل قوله : ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ وقوله : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ ونحو ذلك ، فكله يدل على عكس ما قالوا .

والإدراك المنفى هو الإحاطة ، وليست الرؤية ، كما بين ذلك حبر الأمة ابن عباس ، ومثل ذلك بالسماء ، والشمس حيث قال للسائل : « ألستَ ترى السماء ؟ قال : بلى . فقال : أكلها ترى ؟ قال : لا . قال : فالله أعظم .

وما يذكر عنه أنه فسر الآية بنفى الرؤية كذب عليه .

وقد قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾[3] .

فأثبت الرؤية ونفى الإدراك ، فدل ذلك على أن الإدراك غير الرؤية . وبهذا أجاب العلماء عن استدلالهم بهذه الآية .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل جـ ٥ ص ١٣٢ .
(٢) نقض التأسيس جـ ٢ ص ٤٠٩ ــ ٤١٥ ملخصا .
(٣) الآيتان ٦١ ، ٦٢ من سورة الشعراء .

قال : « باب ما جاء فى قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

الرحمة المضافة إلى الله ــ تعالى ــ تكون صفة له ذاتية كقوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾[2] . وقوله تعالى : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4] . ونحو ذلك وهو كثير .

وتكون مفعولا له مخلوقا ، وهى من أثر صفة الرحمة الذاتية ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِى ءَايَاتِنَا ﴾[5] وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾[6] .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾[7] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾[8] وهو أيضا كثير .

---

(١) الآية ١٥٦ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ١٣٢ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ١٤٧ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٢١٨ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٢١ من سورة يونس .
(٦) الآية ٩ من سورة هود .
(٧) الآية ٤٨ من سورة الفرقان .
(٨) الآية ٦٣ من سورة النمل .

ومن ذلك قول رسول الله ﷺ : « خلق الله مائة رحمة ، فوضع واحدة بين خلقه ، وخبأ عنده مائة إلا واحدة »[1] .

ومثله ما يأتى من قوله : « فقال الله للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء » .

ومراده « بيان أن الرحمة تطلق على المخلوق ، فتكون مخلوقة لله مفعولا له ، وذلك من آثار رحمته التى هى صفته تعالى كما فى قوله ﷺ جوابا لسعد بن عبادة ، لما قال له : ما هذا ؟ قال : « هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » .

ولكن أشار إلى هذا اللفظ كعادته بذكره غير الصريح ، والاكتفاء بالتلويح .

وفى الآية التى ترجم بها إشارة إلى مراده ، فكأنه لحظ أن الرحمة فيها الجنة ، وهى قريب من المحسنين ، كما فى الحديث الجنة أقرب إلى أحدكم من شِرَاك نعله ، والنار مثل ذلك — يعنى من المسيئين .

وبذلك تظهر المناسبة بين الآية المترجم بها وأحاديث الباب والله أعلم » .

وقال الحافظ : « المراد أنه يدخل من أحسن الجنة التى وعد المتقين برحمته وقد قال للجنة أنت رحمتى ، وقال : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وبهذا تظهر مناسبة الحديث للترجمة والعلم عند الله »[2] .

وليس هذا من التأويل المذموم ، لأنه من المعنى الذى دلت عليه الآية ضمنا ، وإلا فمنطوقها دال على صفة الرحمة الموصوف بها رب العالمين جل وعلا .

ومما يبين ذلك أن هذه الآية جاءت عقب الأمر بالدعاء تضرعا وخفية

---

(١) رواه مسلم انظر جـ ١٧ ص ٦٩ بشرح النووى .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٣٧ .

والنهى عن الاعتداء والإفساد فى الأرض بالمعاصى ، ثم أمر تعالى بدعائه خوفا وطمعا ، وهذه حال المتقين ، الذين أحسنوا فى أعمالهم ، وأحسنوا إلى عباد الله بالنصح لهم ، وإصلاح الأرض بالطاعة والبعد عن مساخط الله التى هى الإفساد فى البلاد والعباد ، وهؤلاء هم المحسنون الذين قريبة منهم رحمة الله تعالى ومنها الجنة .

قال ابن جرير : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ يقول جل ذكره : إن ثواب الله الذى وعد المحسنين على إحسانهم فى الدنيا قريب منهم ، وذلك هو رحمته لأنه ليس بينهم وبين أن يصيروا إلى ذلك من رحمته وما أعد لهم من كرامته إلا أن تفارق أرواحهم أجسادهم .

ولذلك ذكَّر قوله : « قَرِيبٌ » وهو خبر عن الرحمة ، والرحمة مؤنثة ، لأنه أريد به القرب فى الوقت »[1] .

وقال ابن كثير : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ . أى إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ، ويتركون زواجره ، كما قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾[2] .

وقال : « قريب » ولم يقل قريبة لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب ، أو لأنها مضافة إلى الله .

وقال مطر الوراق : « استنجزوا موعود الله بطاعته ، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين » رواه ابن أبى حاتم[3] .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٢ ص ٤٨٨ ط المعارف .
(٢) الآية ١٥٦ من سورة الأعراف .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٢٢ .

٧٥ ــ قال : « حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا عبد الواحد ، حدثنا عاصم ، عن أبي عثمان ، عن أسامة ، قال : كان ابن لبعض بنات النبى ﷺ يقضى ، فأرسلت إليه أن يأتيها ، فأرسل : « إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل إلى أجل مسمى ، فلتصبر ، ولتحتسب » ، فأرسلت إليه فأقسمت عليه ، فقام رسول الله ﷺ وقمت معه ، ومعاذ بن جبل ، وأبى بن كعب ، وعبادة بن الصامت ، فلما دخلنا ناولوا رسول الله ﷺ الصبى ، ونفسه تقلقل فى صدره حسبته قال : كأنها شنة ، فبكى رسول الله ﷺ فقال سعد بن عبادة : أتبكى ؟

فقال : إنما يرحم الله من عباده الرحماء » .

تقدم هذا الحديث فى باب قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ ﴾ .

وتقدم شرحه هناك ، والشاهد منه قوله : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » أى الذين جعل الله فى قلوبهم الرحمة ، التى يرحمون بها عباد الله فرحمة الله منهم قريب .

وسبق أن اللفظ الذى تقدم فى الباب المشار إليه أوضح وأظهر فى الدلالة على مقصوده هنا ، ولكنه عدل عنه كعادته إيثارًا للإشارة على التصريح فى العبارة ، حتى يروض ذهن القارئ على التفطن والاستنباط ، ولأن عادته أيضا إذا أعاد الحديث فلا بد أن يختاره بألفاظ غير لفظه المتقدم ما وجد إلى ذلك سبيلا فى المتن وفى رجال السند ، أو على الأقل فى أحدهما .

هنا السند أكثرهم غير من تقدم ، والمتن فيه تغاير عما سبق .

٧٦ ــ قال : « حدثنا عبيد الله بن سعد بن إبراهيم ، حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، عن صالح بن كيسان ، عن الأعرج ، عن أبى

هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ عن النبى ﷺ قال : « اختصمت الجنة والنار إلى ربهما ، فقالت الجنة : يا رب . ما لها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟ وقالت النار : يعنى أوثرت بالمتكبرين ؟

فقال الله ـــ تعالى ـــ للجنة : أنت رحمتى ، وقال للنار ، أنت عذابى أصيب بك من أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها .

قال : فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحدا ، وأنه ينشىء للنار من يشاء فيلقون فيها ، فتقول : هل من مزيد ثلاثا حتى يضع فيها قدمه ، فتمتلىء ، ويرُدُّ بعضها إلى بعض ، وتقول : قَطْ قَطْ قَطْ » .

الاختصام : هو التنازع بين فريقين ، يذكر كل واحد منهما حجته أمام من يحكم بينهما .

وتقدم هذا الحديث فى التفسير بلفظ تحاجت الجنة والنار .

وفى صحيح مسلم : « احتجت » ، والمعنى واحد .

قال المهلب : « يجوز أن يكون هذا الخصام حقيقة ، بأن يخلق الله فيهما فهما ، وكلاما ، والله قادر على كل شىء ، ويجوز أن يكون هذا مجازا ، كقولهم : « امتلأ الحوض ، وقالَ قَطْنِى » ، والحوض لا يَتكلم وإنما ذلك عبارة عن امتلائه »[1] .

قلت : الأول هو المعتمد ، وتقدم الكلام فيه والاستدلال له فى شرح حديث أنس : « لا يزال يلقى فى النار ، وتقول : هل من مزيد » .

---

(١) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٤٣٦ .

وقال النووى : « هذا الحديث على ظاهره ، وأن الله ــ تعالى ــ يجعل فى النار والجنة تمييزا تدركان له ، فتحاجتا ، ولا يلزم من هذا أن يكون ذلك التمييز دائما »[1] .

قال الحافظ : « وحاصل اختصامهما : افتخار أحدهما على الأخرى بمن يسكنها ، فتظن النار أنها بمن ألقى فيها من عظماء الدنيا أبر عند الله من الجنة .

وتظن الجنة أنها بمن أسكنها من أولياء الله ــ تعالى ــ أبر عند الله .

فأجيبتا : بأنه لا فضل لإحداهما على الأخرى من طريق من يسكنها ، وفى كلامهما شائبة شكاية إلى ربهما إذ لم تذكر كل واحدة منهما إلا ما اختصت به ، وقد رد الله الأمر فى ذلك إلى مشيئته »[2] .

قلت : الظاهر أن افتخار النار على الجنة بأنها محل انتقام الله ــ تعالى ــ من الطغاة والمجرمين الذين عصوا الله وكذبوا رسله ، وسخروا منهم وبارزوا الله بالجرائم والآثام .

وغالب هذا النوع من قادة الناس ورؤسائهم وأغنيائهم ، وأهل السيادة والقيادة فيهم ، وأهل التجبر والتكبر .

وأما الجنة فإنها اشتكت لكون من يدخلها الضعفاء والفقراء وأهل المسكنة غالبا ، ولهذا قالت : « مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم قوله : « قالت الجنة » إلى آخره .

تقدم أن الصحيح أن هذا بلسان المقال أى أنه قول قالته الجنة حقيقة وأن الله جعل لها شعورا وتمييزا ، وعقلا ونطقا ، والله لا يعجزه شىء .

---

(١) شرح مسلم جـ ١٧ ص ١٨١ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٣٦ .

وليس هذا خاصا بالجنة والنار ، فقد ذكر الله ـــ تعالى ـــ أن الجبال كانت تسبح مع نبى الله داود عليه السلام .

وقال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[1] .

وقوله : « فقالت : يا رب مالها » . عدول بالخطاب من المتكلم إلى الغائب كأن الراوى كره أن يأتى به على أصله خشية أن يظن ظان أنه مضاف إليه ، وهذا كثير فى روايات الحديث .

والمقصود بضعفاء الناس فقراؤهم ، وأهل المسكنة والتواضع ، الذين لا يبغون فى الأرض علوا ولا فسادًا ، ولا يترفعون على عباد الله ، بل هم متواضعون لله خاضعون له ، أذلة على المؤمنين ، وإن كانوا عند ذوى السلطان حقيرين ساقطين فى أعينهم ، لا يؤبه لهم لديهم ، فهم عند الله عظماء رفعاء .

قوله : « قالت النار : يعنى أوثرت بالمتكبرين » أى خصصت بأهل التكبر على عباد الله والتجبر والظلـم للناس باحتقارهم ، وغمط حقوقهم .

قوله : « فقال الله للجنة : أنت رحمتى ، وقال للنار : أنت عذابى أصيب بك من أشاء » .

هذا هو حكم الله بينهما ، يعنى أن الله تعالى خلق الجنة ليرحم بدخولها من شاء من عباده ، من يتفضل عليه ويجعله مؤهلا لذلك .

وأما النار فخلقها لمن عصاه وكفر به ، وبرسله ، يعذبهم بها .

وذلك كله ملكه يتصرف فيه كيف يشاء ، لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون ، ولكن لا يدخل النار إلا من استوجبها بعمله .

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

وهذه الجملة وهى قوله : « فقال الله للجنة : أنت رحمتى » هى الشاهد للباب ، فالجنة قريب من المحسنين ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك .

ثم قال : « ولكل واحدة منكما ملؤها » وهذا وعد من الله ــ تعالى ــ لهما بأن يملؤهما بمن يسكنهما ، وفى هذا إشعار بأنهما يرغبان ذلك وقد جاء الطلب من النار صريحا كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾[1] ، وأقسم الله تعالى ليملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

فهما يمتلآن من بنى آدم ومن الجن .

فمن آمن وعبد الله وحده ، واتبع رسله فمصيره إلى الجنة ، ومن عصى وبغى ، وطغى ، وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى .

قوله : « فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحدا ، وأنه ينشىء للنار من يشاء فيلقيهم فيها » ، تقدم حديث أنس فى باب قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، عن النبى ﷺ قال : « لا يزال يلقى فيها وتقول : هل من مزيد ، حتى يضع فيها رب العالمين قدمه ، فينزوى بعضها إلى بعض ، ثم تقول : قد قد بعزتك وكرمك .

ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشىء الله لها خلقا ، فيسكنهم فضل الجنة »[2] .

وفى صحيح مسلم فى هذا الحديث قال : « فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله تقول قط قط قط فهناك تمتلىء ، ويزوى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم ربك من خلقه أحدا .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة ق .

(٢) انظر الجزء الأول من هذا الشرح ص ١٥٤ .

وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقا »[1] ، ورواه البخارى بهذا اللفظ فى التفسير[2] وبهذا يتبين أن قوله : « وأنه ينشئ للنار من يشاء فيلقيهم فيها » أنه خطأ ، وإنما انقلب على الراوى فصار ما للجنة للنار فإن إنشاء الخلق يكون للجنة ، وأما النار فإن الله تعالى يضع عليها قدمه فينزوى بعضها إلى بعض وتتضايق على من فيها وبذلك تمتلئ ولا يظلم ربك أحدا ، ويؤيد ذلك أن هذا الحديث جاء فى التفسير من صحيح البخارى وجاء كذلك فى مسلم على الوجه الصحيح كما ذكرناه آنفا ، وبأنه خطأ قد انقلب على الراوى جزم به شيخ الإسلام ، وتلميذه ابن القيم ، ويؤيده أيضا قوله تعالى : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى من ذريتك وممن تبعك من بنى آدم .

فلو دخلها أحد من غير أتباع الشيطان من ذريته وذرية آدم لم تمتلئ منهم .

قال الحافظ : قال أبو الحسن القابسى : « المعروف فى هذا الموضع أن الله ينشئ للجنة خلقا ، وأما النار فيضع فيها قدمه .

قال : ولا أعلم فى شىء من الأحاديث أنه ينشئ للنار خلقا إلا هذا » انتهى وقد مضى فى تفسير سورة ق . من طريق محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة : « ويقال لجهنم : هل امتلأت ؟ وتقول : هل من مزيد ، فيضع الرب عليها قدمه ، فتقول : قط قط .

ومن طريق همام بلفظ : « فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله ، فتقول : قط قط ، فهناك تمتلئ ، ويزوى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحدًا »[3] .

---

(١) صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٨٧ رقم ٢٨٤٦ .
(٢) انظر الفتح جـ ٨ ص ٥٩٥ .
(٣) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٤٣٦ ــ ٤٣٧ .

وقال : « وقد قال جماعة من الأئمة إن هذا الموضع من الحديث مقلوب ، وجزم ابن القيم بأنه غلط ، واحتج بأن الله ـــ تعالى ـــ أخبر بأن جهنم تمتلىء من إبليس وأتباعه من بنى آدم ، وكذا أنكر الرواية شيخنا البلقينى واحتج بقوله : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ . ثم ذكر تأويلات بعيدة جدا ، بل باطلة ، ثم قال : « وفى الحديث دلالة على اتساع الجنة والنار ، بحيث تسع كل من كان ، ومن يكون إلى يوم القيامة ، وتحتاج إلى زيادة ، وقد تقدم أن آخر من يدخل الجنة يعطى مثل الدنيا عشر مرات .

وقال الداودى : يؤخذ من الحديث أن الأشياء توصف بغالبها لأن الجنة يدخلها غير الضعفاء ، والنار قد يدخلها غير المتكبرين ، وفيه رد على من حمل قول النار : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ على أنه استفهام إنكار ، وأنها لا تحتاج إلى زيادة »[1] .

وقال شيخ الإسلام قوله : « وأما الجنة ، فيبقى فيها فضل ، فينشىء الله لها خلقا فيسكنهم » : « ووقع فى بعض طرق البخارى غلط ، قال فيه : « وأما النار فيبقى فيها فضل ، والبخارى رواه فى سائر المواضع على الصواب ليبين غلط هذا الراوى ، كما جرت عادته بمثل ذلك ، إذا وقع من بعض الرواة غلط فى لفظ ، ذكر ألفاظ سائر الرواة التى يعلم بها الصواب ، وما علمت وقع فيه غلط إلا وقد بين فيه الصواب »[2] .

وقال ابن القيم : « وأما اللفظ الذى وقع فى صحيح البخارى فى حديث أبى هريرة : « وأنه ينشىء للنار من يشاء ، فيلقى فيها فتقول : هل من مزيد » فغلط من بعض الرواة ، انقلب عليه لفظه ، والروايات الصحيحة ، ونص القرآن يرده ، فإن الله سبحانه أخبر أنه يملأ جهنم من إبليس وأتباعه ،

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٣٧ .

(٢) منهاج السنة جـ ٣ ص ٢٥ .

فإنه لا يعذب إلا من قامت عليه الحجة ، وكذب رسله قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾[1] ولا يظلم الله أحدا من خلقه »[2] .

٧٧ ـــ قال : « حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن أنس ـــ رضى الله عنه ـــ عن النبى ﷺ قال : « ليصيبن أقواما سفع من النار بذنوب أصابوها ، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته ، يقال لهم : الجهنميون » .

« سفع » بفتح السين ، وسكون الفاء ، هو أثر تغير البشرة من حر النار أى يصيبهم من لهبها ما يغير ألوانهم ، وتقدم أنهم يحترقون حتى يكونوا فحما .

قوله : « بذنوب أصابوها » أى أن إصابتهم بسفع النار جزاء على ما اقترفوه من الذنوب عقوبة لهم .

« ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته » أى يرحمهم الله تفضلا منه وجودا عليهم من غير استحقاق للجنة ، وهذا محل الشاهد من الحديث ، ووجهه أن هؤلاء لما كان معهم شيء من الإيمان صارت رحمة الله قريبة إليهم بالنسبة لمن هو فى النار ، وبقدر ما معهم من إيمان وإحسان .

والجهنميون نسبة إلى جهنم ، لأن أثر إحراقهم ظاهر عليهم .

قوله : « وقال همام : حدثنا قتادة ، حدثنا أنس » إلى آخره : يريد بيان أن عنعنة قتادة محمولة على السماع لأنه صرح بالتحديث من هذه الطريق . والله أعلم .

---

(١) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة تبارك الذى بيده الملك .
(٢) حادى الأرواح ص ٢٩٥ .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ .

قال ابن كثير : « أخبر تعالى عن قدرته العظيمة ، التى بها تقوم السماء والأرض عن أمره ، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما ، فلا تضطربا عن أماكنهما كما قال تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾ أى لا يقدر على إبقائهما بلا زوال ، واضطراب إلا هو — تعالى — ومع موجب زوالهما واضطرابهما من جرائم بنى آدم أمسكهما ، فحلم الله الواسع ، ومغفرته العظيمة تدعوه تعالى إلى إمساكهما ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ فيحلم ويغفر ، ويستر ، ويصفح عن العظيم مما يبارزه به عباده من الجرائم ، كما ذكر تعالى عن بعض المجرمين ما يقتضى تفطر السماوات ، وتشقق الأرض ، وانهداد الجبال الراسيات منه ، ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾(٣) .

---

(١) الآية ٦٥ من سورة الحج .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٤٣ ط الشعب .

(٣) الآيات ٨٨ — ٩٢ من سورة مريم .

ومراد البخارى ــ رحمه الله ــ من هذا الباب إثبات جنس الفعل لله تعالى لقوله فى الآية « يمسك » وقوله فى الحديث « يضع السماوات على إصبع » إلى آخره وإن كان تقدم ذكر الأستوى المتضمن للعلو فهو من صفات الذات والفعل ، وأما هذا فهو نوع آخر من صفات الله تعالى الدالة على أنه تعالى فعَّال لما يريد ، وهذا ما أنكره أهل الباطل من معتزلة وغيرهم ، فأراد البخارى أن ينبه على بطلان قولهم .

يعنى أن الله تعالى هو الممسك للسماوات والأرض بقدرته ، وإذا أراد أن يطوى السماوات ويضعها على إصبع من أصابع يده الكريمة فعل ، ولو أراد زوال السماوات والأرض لترك إمساكهما فزالتا ، فهو ــ تعالى ــ يفعل باختياره ما شاء ، وفعله غير خلقه ، وهذا يرد مذهب المعتزلة ومن قال بقولهم حيث قالوا إن أفعال الله تعالى مخلوقة .

قال المؤلف رحمه الله فى كتابه خلق أفعال العباد : « ادعت المعتزلة : أن فعل الله مخلوق ، وأن أفعال العباد غير مخلوقة ، وهذا خلاف علم المسلمين ، إلا من تعلق من البصريين بكلام سنسويه ، كان مجوسيا فادعى الإسلام »[1] ، يعنى أن المسلمين مجمعون على خلاف ما يقوله المعتزلة من أن فعل الله تعالى مخلوق ، ومراده بذلك أنه لا فرق عندهم بين الفعل والخلق ، فليس لله فعل يفعله باختياره وإرادته ، وإنما يخلق ، والخلق هو المخلوق المفعول .

وقوله : « إلا من تعلق بكلام سنسويه من البصريين » ، يقصد القدرية الذين أنكروا علم الله بالأشياء قبل وجودها ، وتقديره لها ، وخلقه إياها فهؤلاء شذوا عن المسلمين .

وقد اتفق سلف هذه الأمة ، وأئمتها على أن الله تعالى متصف بصفات

---

(١) خلق أفعال العباد ص ٧٥ تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة .

الأفعال كما أنه متصف بصفات الذات ، ولم يخالف فى ذلك إلا الجهمية والمعتزلة .

ولا ينبغى أن يعد خلاف هؤلاء خلافا ، لأنهم تركوا صريح الأدلة فى ذلك من كتاب الله تعالى ، ومن سنة رسوله ، ومن العقل أيضا .

وقد علم أن الأفعال نوعان : متعد ، ولازم ، والله تعالى متصف بالنوعين .

فالمتعدى مثل الرزق ، والإحياء والإماتة ، والخلق ونحو ذلك .

واللازم مثل المجىء ، والنزول ، والإتيان ، والاستوَى ونحوه .

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[1] فجمع النوعين فى هذه الآية ، وكل ذلك واقع بمشيئته تعالى .

وهذا معنى قول أهل السنة : إن الله موصوف بالأفعال الاختيارية ، أى التى يفعلها باختياره تعالى ، وأدلة ذلك فى كتاب الله ، وسنة رسوله كثيرة جدا وسوف يذكر فيما يأتى طرفا من ذلك .

ومراده بيان أن أفعال الله من صفاته ، وهى ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع من أهل العلم والإيمان ، وبالعقل السليم ، وسيأتى فى الباب بعد هذا التفرقة بين الفعل والمفعول ، وما يأتى بعده إلى آخر الكتاب تفريع عليه .

٧٨ ــ قال : « حدثنا موسى ، حدثنا أبو عوانة ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله ، قال : جاء حبر إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إن الله يضع السماء على إصبع ،

---

(١) الآية ٤ من سورة السجدة .

والأرض على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر والأنهار على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، ثم يقول بيده : أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ وقال : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ .

سبق هذا الحديث فى باب قول الله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ وذكره هناك من طريقين ، غير الطريق التى هنا ، وتقدم شرحه هناك ، وجريا على عادته ، إذا أعاد ذكر الحديث فلا بد أن يغاير بين لفظه اللاحق وبين السابق ، وبين سنديه ، فإن لم يمكن ذلك فعل ما أمكنه منه .

وهنا قد غاير بين لفظه هنا وهناك ، وكذلك فى الإسناد .

ففى الباب السابق « أن يهوديا جاء إلى النبى ﷺ » .

وفى الطريق الأخرى : « جاء رجل إلى النبى ﷺ من أهل الكتاب » .

وهنا : « جاء حبر إلى رسول الله ﷺ » . قال الراغب : « الأثر المستحسن ومنه ما روى (يخرج من النار رجل قد ذهب حبره ، وسبره) أى جماله ، وبهاؤه ومنه سمى الحبر بالكسر ، والحبر العالم ، وجمعه أحبار — سموا بذلك — لما يبقى من أثر علومهم فى قلوب الناس ، ومن آثار أفعالهم الحسنة المقتدى بها »[1] وفى القاموس : الحبر : « العام أو الصالح » .

قوله : « ثم يقول بيده : أنا الملك أى أنه تعالى يهزهن ، استخفافا لهذه المخلوقات واستصغارا لها أمام عظمة الله وقوته — جل وعلا — ، وقد جاء مصرحا بذلك فى الروايات الأخرى .

قال ابن جرير : « وحدثنا محمد بن الحسين ، قال حدثنا أحمد بن المفضل ، قال حدثنا أسباط ، عن السدى ، عن منصور ، عن خيثمة بن عبد الرحمن ،

---

(١) المفردات ص ١٠٦ .

عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : كنا عند رسول الله ﷺ حين جاءه حبر من أحبار اليهود ، فجلس إليه ، فقال له النبى ﷺ : « حدثنا ؟ » قال : إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة جعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والماء والشجر على إصبع ، وجميع الخلائق على إصبع ، ثم يهزهن ، ثم يقول : أنا الملك ، قال : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لما قال ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَاتُ مَطْوِيَّـٰتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَـٰنَهُ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] .

ثم رواه من طريق أخرى ، وهو صحيح لا مطعن فيه ، وقد رواه أحمد ، والبخارى ومسلم من حديث عبد الله بن عمر ولفظه : « قال : قال رسول الله ﷺ : « يطوى الله ــ عز وجل ــ السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » وهذا لفظ رواية مسلم[2] .

وقال ابن جرير : « حدثنا الربيع ، قال حدثنا ابن وهب ، قال أخبرنى أسامة بن زيد ، عن أبى حازم ، عن عبد الله بن عمر ، أنه رأى رسول الله ﷺ على المنبر ، يخطب الناس ، فمر بهذه الآية ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « يأخذ السماوات والأرضين السبع فيجعلها فى كفه ، ثم يقول بهما ، كما يقول الغلام بالكرة : أنا الله الواحد ، أنا الله العزيز » حتى لقد رأينا

(١) تفسير الطبرى جـ ٢٤ ص ٢٦ .

(٢) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٤٨ رقم ٢٧٨٨ وقد تقدم .

المنبر وإنه ليكاد يسقط به »[1] .

وقال أيضا : « حدثنا على بن داود ، قال : حدثنا ابن أبى مريم ، قال : أخبرنا ابن أبى حازم ، قال حدثنى أبو حازم ، عن عبيد الله بن مقسم ، أنه سمع عبد الله بن عمر ، يقول : رأيت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : « يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيديه ، وقبض رسول الله ﷺ يديه ، وجعل يقبضهما ، ويبسطهما ، قال : ثم يقول : أنا الرحمن ، أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » وتمايل رسول الله ﷺ عن يمينه ، وعن شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شىء منه ، حتى إنى لأقول : أساقط هو برسول الله ﷺ »[2] .

وقد تقدم ذكر بعض الأحاديث فى هذا ، ففى هذه ونحوها أن الرسول ﷺ كان يذكر صفات الله تعالى فى المجامع العامة ، ويخطب ببيانها على المنبر ، ويبالغ فى إيضاحها ، وتفهيم السامعين لها ، حتى إنه يقبض يديه ويبسطهما عند ذكره لقبض الله تعالى السماوات والأرض ، خلافا لمن زعم أنه لاينبغى ذكر صفات الله عند عامة الناس ، وهو زعم باطل مخالف للحق ، وطريق الرسول ﷺ حيث كان يعرف الناس بربهم ، ويذكر لهم صفاته ، وأفعاله وأقواله فى كل موطن ، ويكرر ذلك فى مجالسه ، وخطبه ، يعرف ذلك من سبر حاله ، وتتبع سنته صلوات الله وسلامه عليه .

وهذا الذى فعله رسول الله ﷺ لا يدع مجالا للشك فى أن المراد من هذه النصوص هو ما دلت عليه ظاهرا ، وأن تأويلها وصرفها عن ظاهرها باطل قطعا ، وتحريف للكلم عن مواضعه .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢٤ ص ٢٦ ورواه البخارى جـ ٦ ص ١٠٤ ومسلم جـ ٤ ص ٢١٤٧ رقم ٢٧٨٦ .

(٢) المرجع السابق .

ويزيد ذلك تأكيدا وبيانا أن أحدا من الصحابة لم يسأل رسول الله ﷺ ولم يستفسر عن شيء منها ، لأنهم فهموا المراد من ظاهر الخطاب ونصه .

ومما يزيد ذلك تأكيدا أيضا ، أن الرسول ﷺ لم يذكر ولا حرفا واحدا يدل على وجوب التأويل كما يقوله الموجبون للتأويل .

ومعلوم أن بيان ما أنزل الله إلى عباده واجب على رسول الله ﷺ وقد فعل بقوله ، وفعله ، كما كان يقبض يديه ويبسطهما عندما ذكر قبض الله ـ تعالى ـ لسماواته وأرضه بيديه ، تقريرا منه ﷺ لظاهر النص ، وتأكيدا لما يفهمه كل مخاطب عربى يسمع هذا الكلام ، ولو كان من أبلد الناس .

وهذا الذى فعله رسول الله ﷺ لو فعله أحد أمام من يدعون التحقيق ، وأنهم أهل السنة ، لصاحوا به ، وعدوه مشبها مجسما .

وكان ﷺ يفعل مثل ذلك كثيرًا عند ذكر صفات الله تعالى كما سبق أنه ﷺ لما قرأ قول الله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ وضع إصبعه على عينه ، والأخرى على أذنه ، زيادة إيضاح وتبيين أنه أراد ظاهر الخطاب ، وكما سبق أيضا أنه قال : « إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر ليس دونهما سحاب ولا قتر » ، وغير ذلك .

وفى هذا الحديث ثبوت صفة الكف لله تعالى لقوله : « فيجعلهما فى كفه » .

وتقدم أن ضحك الرسول ﷺ لفرحه بما قاله الحبر حيث ذكر ما يصدق ما جاء به ﷺ مما أوحاه الله إليه ، ولهذا قرأ قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِ سُبْحَـٰنَهُ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] لأن هذه الآية مطابقة لما قاله الحبر ،

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

وهو من العلم الموروث عن الأنبياء الذى أوحاه الله إليهم ، ولا يمكن أن يكون إلا كذلك ، لأنه إخبار عن شيء لم يقع ، وإنما سيقع كما هو ظاهر .

وقد تقدم ذكر الأدلة فى إثبات يدى الله ـــ تعالى ـــ وأصابعه ، وتفنيد تأويلات المنكرين لها ، وبيان أن تأويلها من تحريف الكلم عن مواضعه .

قال : « باب ما جاء فى تخليق السماوات والأرض ، وغيرهما من الخلائق » .

« وهو فعل الرب تبارك وتعالى وأمره ، فالرب بصفاته ، وفعله وأمره [وكلامه] ، وهو الخالق ، هو المكوِّن غير مخلوق ، وما كان بفعله وأمره وتخليقه ، وتكوينه فهو مفعول مخلوق مكون » .

التخليق : مصدر ، والمصدر هو الحدث الذى لم يقترن بزمن ، والحدث لابد له من محدث ، فتخليق السماوات والأرض هو فعل الله الذى وجدت به ، فالله ـــ تعالى ـــ هو الخالق ، والخلق ، والتخليق فعله الواقع منه على المخلوق فالمخلوقات وجدت بفعل الله .

والمخلوق ليس هو فعل الله ، وإنما هو مفعوله ـــ أى مخلوقه الذى صدر عن تخليقه .

وأفعال الله نوعان ، لازم ، ومتعدى ، فاللازم نحو نزوله ، ومجيئه ، والمتعدى نحو خلقه ورزقه ، ولابد لهذا النوع من مفعول يتعدى إليه ، وهو المخلوق ، والمرزوق ، بخلاف الأول .

قوله : « وهو فعل الرب ـــ تبارك وتعالى ـــ وأمره » يعنى أن التخليق فعل الرب ـــ تعالى ـــ والمقصود بالأمر هنا قوله للمخلوق : « كن » .

قوله : « فالرب بصفاته وفعله وأمره ، [وكلامه] » يعنى أن صفاته وأمره وفعله ، وكلامه ، داخل فى مسمى اسم الرب ـــ تعالى ـــ لايكون شيء

منها غيره ، لأن صفة الشيء تقوم به ، وفعله يقوم به ـــ لا بغيره ـــ وكذا أمره وكلامه .

ولفظة « وكلامه » ثبتت فى بعض نسخ الصحيح ، وهى رواية أبى ذر ، أحد رواة الصحيح عن البخارى ، وهو من عطف الخاص على العام .

قوله : « وهو الخالق ، المكوِّن غير مخلوق » المكون بكسر الواو المشددة ، وهو بمعنى المصوِّر .

قوله : « وما كان بفعله وأمره ، وتخليقه ، وتكوينه ، فهو مفعول مخلوق مكوَّن » يعنى أن الفعل غير المفعول ، فالفعل من صفات الفاعل يقوم به . والمفعول هو ما وجد بالفعل ، فهو مفعول له محدث بعد أن لم يكن ، بخلاف الفعل ، فإنه قائم بالفاعل ، فهو صفته ، فالمفعول مخلوق ، مكون ـــ بفتح الواو المشددة ـــ بعد أن لم يكن .

ومراد البخارى ـــ رحمه الله ـــ الرد على من لم يفرق بين الفعل والمفعول ، كما بين ذلك فى كتابه « خلق أفعال العباد » فإنه قال فيه :

« اختلف الناس فى الفاعل ، والمفعول ، فقالت القدرية : الأفاعيل كلها من البشر ، ليست من الله .

وقالت الجبرية : الأفاعيل كلها من الله .

وقالت : الفعل والمفعول واحد ، لذلك قالوا : لـ « كن » مخلوق ، وقال أهل العلم : التخليق فعل الله ، وأفاعيلنا مخلوقة ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾[1] يعنى السر ، والجهر من القول ، ففعل الله صفة الله ، والمفعول غيره من الخلق »[2] .

---

(١) الآيتان ١٣ و ١٤ من سورة الملك .

(٢) خلق أفعال العباد ص ١١٤ تحقيق عبد الرحمن عميرة .

وقال أيضا : « وأما الفعل من المفعول ، فالفعل إنما هو إحداث الشيء ، والمفعول هو الحدث ، لقوله : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[1] ، فالسماوات والأرض مفعولة وكل شيء سوى الله بصفاته ـ فهو مفعول ـ فتخليق السماوات فعله ، لأنه لا يمكن أن تقوم سماء بنفسها من غير فعل الفاعل ، وإنما تنسب السماء إليه لحال فعله ، ففعله من ربوبيته ، حيث يقول : « كن فيكون » ، و « كن » من صفته ، وهو الموصوف به ، كذلك قال : رب السماوات ، ورب الأشياء ، وقال النبى ﷺ : « رب كل شيء ومليكه »[2] .

وهذا شرح لما ترجم به هنا ، وبيان لمراده ، وهو واضح .

وبه يتبين خطأ ابن بطال فى قوله : « غرضه بيان أن جميع السماوات والأرض وما بينهما مخلوق ، لقيام دلائل الحدوث عليها » إلى آخره كما ذكره الحافظ عنه فى الفتح[3] لأن هذا أمر ظاهر ، لا ينكره أحد .

٧٩ ـ قال : « حدثنا سعيد بن أبى مريم ، أخبرنا محمد بن جعفر ، أخبرنى شريك بن عبد الله بن أبى غمرة ، عن كريب ، عن ابن عباس ، قال : بت فى بيت ميمونة ليلة ، والنبى ﷺ عندها ، لأنظر كيف صلاة رسول الله ﷺ بالليل ، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ، ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الأخير ، أو بعضه قعد ، فنظر إلى السماء ، فقرأ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله ﴿ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ ، ثم قام فتوضأ ، واستن ،

---

(١) الآية ٧٦ من سورة الأنعام .

(٢) خلق أفعال العباد ص ١١٣ تحقيق الدكتور عميرة .

(٣) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٤٤٠ .

ثم صلى إحدى عشرة ركعة ، ثم أذن بلال بالصلاة ، فصلى ركعتين ، ثم خرج فصلى للناس الصبح » .

هذا الحديث أكثر البخارى ــ رحمه الله ــ من تكرراه ، فقد ذكره فيما يقرب من عشرين موضعا ، كما بينته فى دليل القارئ .

وميمونة : أم المؤمنين بنت الحارث الهلالية ، وهى خالة ابن عباس أخت أمه لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب .

وأمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث بن حماطة بن حمير .

تزوجها رسول الله ﷺ فى عمرة القضاء ، سنة سبع بسرف ، وهو حلال غير محرم ، وتوفيت ــ رضى الله عنها ــ بسرف سنة إحدى وخمسين ، وقيل غير ذلك وصلى عليها ابن عباس ، ودفنت هناك(1) .

قوله : « بت فى بيت ميمونة » فى رواية مسلم « فرقبت رسول الله ﷺ كيف يصلى » ، وفى أخرى له ، قال : « بعثنى العباس إلى النبى ﷺ » .

وكان العباس بعثه فى حاجة ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا بنى بت عندنا الليلة » ذكره الحافظ ، عن قيام الليل ، لمحمد بن نصر(2) ، فانتهز ابن عباس هذه الفرصة لينظر إلى عمل رسول الله ﷺ فى الليل ، فيتخذه قدوة .

قوله : « فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة » كان ﷺ خير الناس لأهله ، فكان يفعل ما يأنسون به من المحادثة ، والتعليم لكل خير ، من أمور الدنيا والآخرة .

---

(1) انظر الإصابة جـ ٨ ص ١٢٦ والاستيعاب جـ ٤ ص ١٩١٤ وأسد الغابة جـ ٧ ص ٢٧٢ وغيرها كثير .

(2) انظر فتح البارى جـ ٢ ص ٤٨٢ وانظر مختصر قيام الليل ص ١٠٥ وفيه : « بعثنى أبى العباسُ إلى رسول الله ﷺ بعد العشاء الآخرة فى حاجة له ، فلما بلغته إياها قال لى رسول الله ﷺ : « أى بنى بت عندنا هذه الليلة » .. إلخ .

قوله : « فلما كان ثلث الليل الأخير » يجوز أن يكون التقدير : فلما كان النبى ﷺ فى ثلث الليل الأخير ، ويجوز أن تكون كان تامة ، والتقدير فلما جاء ثلث الليل ، وهذا هو الأظهر .

قوله : « أو بعضه » أى بعض الليل ، والبعض يصدق على كل فترة منه .

وقد جاء فى غير هذا الموضوع : « حتى انتصف الليل ، أو قريبا منه » .

قوله : « قعد ، فنظر إلى السماء ، فقرأ ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ » إلى آخره ، المعنى : أنه ﷺ حين استيقظ نظر إلى السماء معتبرا بخلقها ، ولهذا قرأ الآيات المذكورات ، وجاء فى روايات أنه قرأ العشر آيات من آخر سورة آل عمران ، وهذا هو محل الشاهد من الحديث للباب ، لأن فيها قوله : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، مع قوله : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا ﴾ ، فالمنظور إليه ، المشاهد ، المشار إليه بقوله : ﴿ مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا ﴾ مفعول مخلوق وهو غير الفعل الذى هو صفة الفاعل ، والفعل نتج عنه المفعول المحدث ، هذا هو وجه الاستدلال الذى أراده البخارى ـــ رحمه الله ـــ .

قوله : « ثم قام فتوضأ واستن » أى استاك بالسواك دالكًا به أسنانه .

وكان ﷺ يفعل ذلك ، ويحث عليه ، وأخبر أنه مطهرة للفم ، ومرضاة للرب تعالى .

قوله : « ثم صلى إحدى عشرة ركعة » هذه سنته ﷺ التى استمر عليها كما أخبرت بذلك زوجه عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ أنه ما كان يزيد على إحدى عشرة ركعة فى رمضان وغيره .

قوله : « ثم أذن بلال بالصلاة ، فصلى ركعتين » هاتان الركعتان ، غير ما سبق ذكره من أنه صلى إحدى عشرة ركعة ، بل هما سنة الفجر ، لأنه صلاهما بعد الأذان ، وكان ﷺ يصليهما فى بيته ، ويحافظ عليهما حضرا وسفرا .

قوله : « وصلى للناس الصبح » أى صلى بهم إماما كما هو ظاهر ، وقد تقدم شرح بعض هذا الحديث فى باب قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ .

قال : « باب قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ .

قال ابن جرير : « يقول جل ذكره : ولقد سبق منا القول لرسلنا أنهم لهم المنصورون ، أى مضى بهذا منا القضاء ، والحكم فى أم الكتاب ، وهو أنهم لهم النصرة والغلبة ، بالحجج » ثم روى عن قتادة : قال : سبق هذا من الله لهم أن ينصرهم .

ثم ذكر أن بعضهم فسر السبق : بالسعادة ، أى سبق القضاء ، والحكم لهم بالسعادة ، وذكر أنه روى فى قراءة عبد الله ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا عَلَىٰ عِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فجعلت « على » مكان اللام ، فكأن المعنى : حقت عليهم ولهم ، كما قيل : ﴿ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ﴾ ، وفى ملك سليمان ، إذ كان المعنى فى ذلك واحدا »[1] .

والسبق هو التقدم على الشىء ، والكلمة المضافة إلى الله — تعالى — هى كلمته الكونية القدرية .

والقدر يتضمن علم الله بالشىء وكتابته لذلك ، ومشيئته له ، ثم إيجاده له وفق تقديره ، وهذا لا بد أن يكون بكلامه .

وقد علم أن كلام الله — تعالى — ينقسم إلى كونى قدرى ، وإلى شرعى أمرى ، وهذا الذى يخالفه أكثر العباد ، ويعصونه .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢٣ ص ١١٤ .

أما القسم الأول فلا يخالفه أحد ، بل لابد من وقوعه وحصوله ، وهو قد يكون متفقا مع الكلام الشرعي الأمرى ، وقد يكون مخالفا له ، وسيأتى تفصيل ذلك إن شاء الله ــ تعالى ــ فى موضعه .

ومراد البخارى ــ رحمه الله ــ أن كلمة الله ــ تعالى ــ سبقت وجود الرسل والمرسل إليهم فهى قبل الخلق الذى هو المخلوق ، وهى غيره ، لأنها صفة الله ــ تعالى ــ وأما نصر الرسل وإسعادهم فهو جزاء عملهم وطاعتهم ، فهو من إثابته لهم وفضله عليهم ، فهو مخلوق بكلمته ــ تعالى ــ .

وأما قول الحافظ : « أشار به إلى ترجيح القول بأن الرحمة من صفات الذات ، لكون الكلمة من صفات الذات ، فمهما استشكل فى إطلاق السبق فى صفة الرحمة ، جاء مثله فى صفة الكلمة ، ومهما أجيب عن قوله ﴿ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا ﴾ حصل به الجواب عن قوله : « سَبقت رحمتى » ، وقد غفل عن مراده من قال : دل وصف الرحمة بالسيف على أنها من صفات الفعل »[1] .

فهذا بعيد كل البعد عن مراد البخارى وهو مبنى على مذهب الأشعرية القائلين بأن الكلام من صفات الذات ، وهو المعنى القائم بذات الله تعالى ، وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ، واعتقاد أهل السنة ، وإنما مراده ما ذكرت والله أعلم .

وأما صفة الرحمة فتكون صفة ذات وصفة فعل ، كما سبق الكلام فى ذلك .

وفى كتاب « خلق أفعال العباد للبخارى ــ رحمه الله ــ نقلا عن أبى عبيدة ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَـٰهُ أَنْ نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، فأخبر أن أول خلقه بقوله وأول خلق هو من الشىء الذى قال ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فأخبر

---

(١) فتح البارى جـ ١٣ ص ٤٤١ .

أن كلامه قبل الخلق »[1] ، وهذا قريب مما ذكره هنا ، وهو يعين على فهم مراده .

قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثنى مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ قال : « لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه ، إن رحمتى سبقت غضبى » .

تقدم هذا الحديث فى باب قول الله تعالى : « ويحذركم الله نفسه » لكن بلفظ يختلف عما هنا ، فلفظه هناك : « لما خلق الله الخلق كتب فى كتابه ـــ وهو يكتب على نفسه ـــ وهو وضع عنده على العرش ، إن رحمتى تغلب غضبى » والمعنى لا يختلف ، والمقصود بالقضاء : التقدير ، ويأتى القضاء ، بمعنى الأمر والحكم ، قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[2] ، ويأتى بمعنى : قدر وأمضى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾[3] ويأتى بمعنى : فرغ من الشىء وأتقنه نحو قوله تعالى : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾[4] والمعنى هنا : لما فرغ من تقدير الخلق ، كما فى الرواية الآتية فى باب قول الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾ ؛ أن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق » .

ومراد البخارى من هذا الحديث ، أن الكتاب الذى كتبه قبل خلق الخلق فيه سبق رحمته لعباده المرسلين ، أى أن كلمته التى سبقت بنصرة عباده المرسلين قبل وجودهم .

---

(١) خلق افعال العباد ص ٤٤ تحقيق عبد الرحمن عميرة .
(٢) الآية ٢٣ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٤ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ١٢ من سورة فصلت .

وبهذا يتبين أن قوله غير خلقه ، ونصرته لعباده المرسلين من رحمته التى سبقت غضبه ، وتقدم الكلام على قوله « عنده فوق عرشه » ، وأنه يدل على استوائه على عرشه ، وعلوه على خلقه ، كما تقدم الكلام فى صفة الرحمة والغضب .

٨٠ ـــ قال : « حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، حدثنا الأعمش ، سمعت زيد بن وهب ، سمعت عبد الله بن مسعود ـــ رضى الله عنه ـــ حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما وأربعين ليلة ، ثم يكون علقة مثله ، ثم يكون مضغة مثله ، ثم يبعث إليه المَلَك ، فيؤذن بأربع كلمات ، فيكتب رزقه ،وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها » .

علماء الأمة يعدون هذا الحديث أصلا كبيرا من أصول الإسلام ، لأن فيه بيان وجوب الإيمان بالقدر ، وهو أحد أركان الإيمان بالله ورسوله .

قوله : « الصادق المصدوق » وصف للنبى ﷺ مستمر ، أى أنه صادق فيما يخبر به ، وما يفعله ، فلا يخبر إلا بالحق المطابق للواقع .

والصدق يطلق أيضا على الفعل ، يقال : صدق القتال ، وهو صادق فيه .
والرسول ﷺ صادق فى أقواله وأفعاله .

« المصدوق » فيما يأتيه من الأخبار ؛ لأنه وحى من الله تعالى .

قوله : « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما وأربعين ليلة » يعنى

أنه فى هذه المدة يكون نطفة داخل بويضة المرأة ، فيستمر هذه المدة ، وتغلب عليه هذه الصفة فى الأربعين الأولى — يعنى وصف النطفة — وفى الثانية وصف العلقة ، وفى الثالثة وصف المضغة ، وإن كانت خلقته قد تمت وتم تصويره .

قوله : « ثم يكون علقة مثله » يعنى بعد مضى أربعين على النطفة فى الرحم ، تصير علقة وهى قطعة دم جامد ، فتنقلب النطفة بعد دخولها بويضة المرأة ، ومرور أربعين يوما إلى علقة ، بدون تخطيط ولا روح .

« ثم يكون مضغة مثله » يعنى بعد تمام الأربعين الثانية تصير العلقة مضغة .

والمضغة : قطعة لحم على قدر ما يمضغ الإنسان فى فمه ، وفى هذا الدور يبدأ تخطيط خلقه .

فالحديث يدل على أن خلق الإنسان يتقلب فى مائة وعشرين يوما فى ثلاثة أطوار ، فى كل أربعين يوما منها يكون فى طور ، فهو فى الأربعين الأولى نطفة وفى الثانية علقة ، وفى الثالثة مضغة ، وبعد ذلك يأتيه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بكتابة رزقه وأجله ، وشقاوته أو سعادته .

« ثم يبعث إليه الملك » جاء فى الحديث الذى رواه مسلم ، عن حذيفة ابن أسيد يبلغ به النبى ﷺ وقال : يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين ، أو خمسة وأربعين ليلة ، فيقول : يا رب أشقى أو سعيد ؟ فيكتبان ، فيقول : أى رب أذكر أو أنثى ؟ فيكتبان ، ويكتب عمله ، وأثره ، وأجله ، ورزقه ، ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص »[1] .

وفيه أيضا عنه قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا مر بالنطفة اثنتان

---

(١) مسلم جـ ٤ ص ٢٠٣٧ رقم ٢٦٤٤ .

وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا ، فصورها ، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال : يا رب أذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء ، ويكتب الملك ، ثم يخرج الملك بالصحيفة فى يده ، فلا يزيد على ما أمر ، ولا ينقص »[1] .

وقد يبدو أن هذا يخالف حديث عبد الله بن مسعود ، لأن ظاهر حديث عبد الله كما تقدم أنه يبقى أربعين يوما نطفة ، ثم أربعين أخرى علقة ، ثم أربعين مضغة ، ثم يبعث إليه الملك بعد الأربعين الثالثة .

قال ابن رجب : « ظاهر حديث حذيفة يدل على أن تصوير الجنين ، وخلق سمعه وبصره وجلده ولحمه وعظامه يكون فى الأربعين الثانية ، فيلزم أن يكون فى الأربعين الثانية لحما وعظاما ، وهذا خلاف ظاهر حديث عبد الله .

وظاهره أنه يصورها ، ويخلق هذه الأجزاء كلها ، وقد يكون خلق ذلك بتصويره وتقسيمه قبل وجود اللحم والعظام ، فلا يكون بين الحديثين اختلاف .

وتأول بعضهم على أن الملك يقسم النطفة إذا صارت علقة إلى أجزاء ، فيجعل بعضها للجلد ، وبعضها للحم ، وبعضها للعظام ، فيقدر ذلك كله قبل وجوده ، وهذا خلاف ظاهر الحديث »[2] .

قال ابن رجب : « وقد ذكر علماء الطب ما يوافق الحديث ، قالوا : إن المنى إذا وقع فى الرحم حصل له زبدة ورغوة ستة أيام ، أو سبعة أيام ، وفى هذه الأيام تصور النطفة من غير استمداد من الرحم[3] ثم بعد ذلك تستمد منه .

---

(١) المرجع المذكور .

(٢) شرح الأربعين جـ ١ ص ١١٧ ــ ١١٨ الطبعة السعدية .

(٣) تبين فى الطب الحديث أن نطفة الرجل تحمل حيوانات منوية كثيرة جدا وإذا صادف واحد من هذه الحيوانات بويضة المرأة يكون انعقاد التلقيح .

وابتداء الخطوط والنقط بعد هذا بثلاثة أيام ، وقد يتقدم ويتأخر يوما ، ثم بعد ستة أيام ، وهو الخامس عشر من وقت العلوق ينفذ الدم إلى الجميع ، فيصير علقة ، ثم تتميز الأعضاء تميزا ظاهرا ، ويتنحى بعضها عن مماسة بعض وتمتد رطوبة النخاع ، ثم بعد تسعة أيام ينفصل الرأس عن المنكبين ، والأطراف عن الأصابع [ويتميز] تميزا يستبين فى بعض ، ويخفى فى بعض .

قالوا : وأقل مدة يتصور فيها الذكر ثلاثون يوما ، والزمان المعتدل فى تصوير الجنين خمسة وثلاثون يوما ، وقد يتصور فى خمسة وأربعين يوما ، ولم يوجد فى الإسقاط ذكر تم قبل ثلاثين يوما ، ولا أنثى قبل أربعين يوما .

فهذا يوافق ما دل عليه حديث حذيفة فى التخليق فى الأربعين الثانية ، ومصيره لحما فيها أيضا »[1] .

وقال ابن القيم : « إذا اشتمل الرحم على المنى ، ولم يقذف به إلى خارج ، استدار على نفسه وصار كالكرة ، وأخذ بالشدة إلى تمام ستة أيام ، فإذا اشتد نقط فيه نقطة فى الوسط ، وهو موضع القلب ، ونقطة فى أعلاه ، وهى نقطة الدماغ ، وفى اليمين ، وهى نقطة الكبد ، ثم تتباعد تلك النقط ، ويظهر بينها خطوط حمر ، إلى تمام ثلاثة أيام أخر ، ثم تنفذ الدموية فى الجميع بعد ستة أيام أخر ، فيصير المجموع سبعة وعشرين يوما ، ثم ينفصل الرأس عن المنكبين ، والأطراف عن الضلوع ، والبطن عن الجنبين ، وذلك فى تسعة أيام ، فتصير ستة وثلاثين يوما ، ثم يتم هذا التمييز بحيث يظهر للحس ظهورا بينا فى تمام أربعة أيام فيصير المجموع أربعين يوما تجمع خلقه .

وهذا مطابق لقوله ﷺ : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما » واكتفى ﷺ بهذا الإجمال عن التفصيل ، وهذا يقتضى أن الله قد جمع

---

(١) شرح الأربعين جـ ١ ص ١١٨ ــ ١١٩ الطبعة السعدية .

خلقه فيها جمعا خفيا »[1] .

وهذا الذى ذكره ابن رجب وشيخه ابن القيم ــ رحمهما الله تعالى ــ يكاد يكون متفقا مع ما يقرره الأطباء حديثا ، وقد أصبحت الأجنة مشاهدة بواسطة آلات التصوير والمناظير فصارت عند علماء الأجنة من الأطباء من الأمور الظاهرة ، وعندهم التخليق يبدأ مبكرا من أيام الأربعين الأولى ، وأحاديث رسول الله ﷺ لا تخالف الواقع ، وإنما يأتى الغلط من عدم فهم مراده ﷺ .

وقد ذكر خلق الإنسان فى مواضع عديدة من القرآن كما قال تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾[3] وحديث عبد الله يتفق مع هذه الآية الكريمة .

ولدلالة خلق الإنسان على خالقه ، وعظيم قدرته ، وعلى إعادته بعد موته ، وعلى وجوب عبادة الله وحده أكثر الله تعالى من ذكره فى كتابه ، وأمر عباده بالاعتبار به .

والملك الذى يرسل إلى النطفة فى الرحم خلقه الله لذلك وجعل ذلك وظيفته ، وقد جعل الله تعالى لملائكته أعمالا يختص بها كل فريق منهم .

قوله : « فيؤذن بأربع كلمات ، فيكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد » .

---

(١) التبيان ص ٣٣٧ .

(٢) الآية ١٤ من سور نوح .

(٣) الآيتان ١٢ ــ ١٤ من سورة المؤمنون .

قال الحافظ : « المراد بالكلمات : القضايا المقدرة ، وكل قضية تسمى كلمة »[1] .

وهذا هو الذى عناه العلماء بقولهم فى هذا الحديث : وجوب الإيمان بالقدر ، فكل ما سيجرى على هذه النطفة التى ذكر تكوينها فى أول بدايتها ، مكتوب مفروغ منه ، قبل وجودها ، فما تأكله مكتوب مسجل ، لا يزيد ولا ينقص ، وما تعمله كذلك ، وبقاؤها حية فى هذه الدنيا كذلك ، ونهايتها ومصيرها مسجل معلوم لله تعالى : فالسعادة ، والشقاوة قد سبق بهما الكتاب ، غير أن ذلك مقدر بحسب الأعمال التى يعملها هذا المخلوق ، ومرتب عليها ، بمعنى أن الله علم ذلك فكتبه ، وكل ميسر لما خلق له .

وهذا أصل عظيم من أصول الإسلام ، لا يمكن أن يستقيم لأحد دينه إلا بالإيمان به ، وهو محل الشاهد الذى ساقه البخارى من أجله ، فقد سبقت كلمة الله لعباده السعداء بالسعادة قبل وجودهم ، وذلك فضل من الله ورحمة تفضل عليهم بذلك .

وظاهر حديث عبد الله بن مسعود هذا أن الكتابة تكون بعد الأربعين الأخيرة وحديث حذيفة بن أسيد ظاهر فى أن الكتابة تكون بعد الأربعين الأولى .

قال ابن رجب : « جمع بعضهم بينهما بأن الكتابة تكون مرتين ، ثم قال : وقد يقال : إن إحداهما فى السماء ، والأخرى فى بطن أمه .

والأظهر أنها مرة واحدة .

ولعل ذلك يختلف باختلاف الأجنة ، فبعضهم يكتب له ذلك بعد الأربعين

---

(١) الفتح جـ ١١ ص ٤٨٢ .

الأولى ، وبعضهم بعد الأربعين الثالثة »[1] .

وقال ابن القيم : « ما فى حديث ابن مسعود تقدير ثان بعد التقدير الذى ذكره فى حديث حذيفة ، فأول تقدير عند انتقال النطفة إلى أول أطوار التخليق التى هى أول مراتب الإنسان .

والتقدير الثانى : تقدير عند كمال خلقه ، ونفخ الروح ، فذلك تقدير عند أول خلقه وتصويره ، وهذا تقدير عند تمام خلقه وتصويره »[2] .

قوله : « ثم ينفخ فيه الروح » فى رواية لمسلم : « ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات » . قال الحافظ : « ويجمع بأن هذه الرواية صريحة فى تأخير النفخ ، للتعبير بقوله « ثم » ، والأخرى محتملة ، فترد إلى الصريحة ، ولأن قوله فى رواية مسلم : « ويؤمر بأربع كلمات » معطوفة بالواو ، وهى لا تقتضى الترتيب فيكون عطف جملة على جملة ، والتقدير : « يجمع خلقه فى هذه الأطوار ، ويؤمر الملك بالكتابة » ، وجاء قوله : « ينفخ فيه الروح » متوسطا بين الجمل »[3] .

وقال ابن رجب : « إما أن يكون هذا من تصرف الرواة برواياتهم بالمعنى الذى يفهمونه ، وإما أن يكون المراد ترتيب الأخبار فقط ، لا ترتيب ما أخبر به » .

وعلى كل فحديث ابن مسعود يدل على تأخير نفخ الروح فى الجنين وكتابة الملك [ما أمر به] إلى ما بعد أربعة أشهر ، حتى تتم الأربعون الثالثة .

فأما نفخ الروح فقد روى صريحا عن الصحابة ـــ رضى الله عنهم ـــ أنه

---

(١) شرح الأربعين جـ ١ ص ١٢٩ .

(٢) التبيان ص ٣٤٥ .

(٣) الفتح جـ ١١ ص ٤٨٥ بمعناه ملخصا .

إنما ينفخ فيه الروح بعد أربعة أشهر ، كما دل عليه ظاهر حديث ابن مسعود »[1] .

وقال عياض : « اختلفت ألفاظ هذا الحديث فى مواضع ، و لم تختلف أن نفخ الروح فيه بعد مائة وعشرين يوما ، وذلك تمام أربعة أشهر ودخوله فى الخامس ، وهذا موجود فى الشاهد ، وعليه يقول فيما يحتاج إليه من الأحكام ، وقيل إنه الحكمة فى عدة الوفاة »[2] .

والحديث يدل صراحة أن الملك هو الذى ينفخ فى الجنين الروح ، التى تحصل بها الحياة ، وتسرى فى الجسد ، وهى سر من الله ، لا يعلم حقيقتها إلا هو تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[3] .

قوله : « فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها » .

هذا مما يدل على ما أراده البخارى – رحمه الله ـــ لأن سبق الكتاب لما سيكون صريح فى هذا النص ، وهو دليل على كمال علم الله ـــ تعالى ـــ وكمال قدرته ، وإحاطته بكل شىء ، فهو تعالى ، يعلم الأشياء قبل وجودها ، وكتب كل ما هو كائن ، فكل الحوادث تقع وفق علمه وكتابته .

فإذا وضعت النطفة التى يتكون منها الإنسان فى رحم المرأة ، وأراد تعالى تكوينها مخلوقا أمر بكتابة ما يعمله هذا المخلوق ، وما يكون له من رزق ، وما سيلاقيه فى حياته ، وما يؤول إليه وينتهى ، من سعادة أو شقاوة .

---

(١) شرح الأربعين جـ ١ ص ١٢٣ ــ ١٢٤ .
(٢) من الفتح جـ ١١ ص ٤٨٥ .
(٣) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

وهذه الكتابة غير كتابة المقادير السابقة لخلق الخلائق ، المذكورة فى مثل قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾[1] .

وقوله ﷺ فيما رواه مسلم ، عن عبد الله بن عمرو ، قال : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة » ونحو ذلك من النصوص .

وليس فى كتابة الله تعالى وتقديره كل شىء قبل وجوده منافاة لمشيئة الإنسان واختياره ، كما يتوهمه بعض الناس .

لأن الله تعالى كتب علمه بما يعمله هذا المخلوق ، وما يترتب على عمله ، ولم يجبره على فعل المعاصى ، بل نهاه عنها وزجره وحذره من فعلها وتوعده على ذلك وخلى بينه وبين نفسه ليختار ما يريد من غير إكراه وإلزام .

والمقصود أن هذا يدل على سبق الرحمة من الله لأهل السعادة قبل وجودهم حيث قدر ذلك وكتبه تفضلا منه وإحسانا ثم هيأهم للعمل لذلك ويسره لهم ، فيدخل ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ .

ثم هذا يدل على أن الجزاء مرتب على العمل ، فلا يدخل أحد الجنة إلا إذا عمل بعمل أهل الجنة ، ولا يدخل أحد النار إلا إذا عمل بعمل أهل النار .

قال ابن رجب : « فيه أن السعادة والشقاوة قد سبق الكتاب بهما ، وأن ذلك مقدر بحسب الأعمال ، وأن كلا ميسر لما خلق له من الأعمال التى هى سبب السعادة أو الشقاوة »[2] .

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الحديد .
(٢) شرح الأربعين جـ ١ ص ١٣٢ .

وفيه أن الإنسان قد يعمل بعمل أهل الجنة ، وهو فى الحقيقة من أهل النار ، فلابـد أن يعمل بعمل أهل النار قبيل موته ، فيختم له بذلك وبالعكس لأن الكتاب سبق بذلك ، والحقيقة أن الذى سبق هو علم الله بأنه سوف يكون كذلك ، وقد كتب الله ذلك .

وهذا هو الذى أزعج كثيرا من السلف ، وأقلقهم .

قال ابن رجب : « بكى أحد الصحابة عند موته ، فسئل عن ذلك ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى قبض خلقه قبضتين ، فقال : هؤلاء فى الجنة ، وهؤلاء فى النار ، ولا أدرى فى أى القبضتين كنت » .

وقال بعض السلف : الذى أبكى العيون أشد البكاء هو الكتاب السابق » .

وقال عبد العزيز بن أبى رواد : حضرت رجلا عند الموت يلقن الشهادة لا إله إلا الله ، فقال فى آخر ما قال : هو كافر بما تقول ، ومات على ذلك فسألت عنه ، فإذا هو مدمن خمر .

فكان عبد العزيز يقول : اتقوا الذنوب فإنها هى التى أوقعته .

وقال سفيان لبعض الصالحين : هل أبكاك قط علم الله فيك ؟ فقال ذلك الرجل : تركتنى لا أفرح أبدا .

وكان سفيان يشتد قلقه من السوابق ، والخواتيم ، فكان يبكى ، ويقول : أخاف أن أكون فى أم الكتاب شقيا ، ويبكى ويقول : أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت .

وكان مالك بن دينار يقوم طول ليله قابضا على لحيته ويقول : يا رب قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار ، ففى أى الدارين منزل مالك ؟

وقال حاتم الأصم : من خلا قلبه من ذكر أربعة أخطار ، فهو مغتر ، فلا يأمن الشقاء :

الأول : خطر يوم الميثاق حين قال : هؤلاء فى الجنة ، ولا أبالى ، وهؤلاء فى النار ، ولا أبالى ، فلا يعلم فى أى الفريقين كان .

والثانى : لما خلق فى الظلمات الثلاث ، حين نادى الملك بالشقاوة أو السعادة ولا يدرى ، أمن الأشقياء هو أم من السعداء .

والثالث : ذكر هول المطلع بعد الموت ، فلا يدرى أيبشر برضاء الله ، أم بسخطه .

والرابع : يوم يصدر الناس أشتاتا ، فلا يدرى مع أى الفريقين يسلك به .

وقال سهل التسترى : المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصى ، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر .

وكان الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق ، ويشتد قلقهم وجزعهم منه .

فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر ،ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر .

وقد كان النبى ﷺ يكثر أن يقول فى دعائه : « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » فقيل له : يا نبى الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟

فقال : « نعم ، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن ــ عز وجل ــ يقلبها كيف يشاء »[(١)] .

وفى الجملة فالخواتم ميراث السوابق ، فكل شىء سبق فى الكتاب السابق .

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند جـ ٣ ص ١١٢ ، ٢٥٦ وجـ ٦ ص ٩١ ، ٣١٥ والترمذى من حديث أنس وأم سلمة وعائشة انظر الترمذى جـ ٥ ص ٥٣٨ .

وقد قيل : إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتم ، وقلوب المقربين معلقة بالسوابق ، يقولون : ماذا سبق لنا »[1] .

قال : « حدثنا خلاد بن يحيى ، حدثنا عمر بن ذر ، سمعت أبى يحدث ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — عن النبى ﷺ قال : « يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ » فنزلت : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ قال كان هذا الجواب لمحمد ﷺ » .

المقصود أن كل شيء بتصريف الله وتدبيره ، فلا أحد يملك معه شيئا حتى يملكه هو ما يريد ، فله الأمر من قبل وجود الخلق ، ومن بعد وجودهم ، وما بين ذلك فلا يخرج من قبضته شيء ، فإذا وقع فى خلقه خير وفضل فبرحمته التى سبقت منه لهم ، وإن وقع غير ذلك ، فبعد له وسبب ذنوب خلقه ، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ، وأمره تعالى غير خلقه وأفعاله ، فلهذا قال ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ فالتنزل فعل جبريل ، ولا يقع إلا بأمر الله تعالى فأمره تعالى سابق خلقه وما يفعلونه .

ذكر ابن جرير عن الضحاك فى قوله : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ قال :

احتبس جبريل عن النبى ﷺ حتى تكلم المشركون فى ذلك ، واشتد ذلك على نبى الله ، فأتاه جبريل ، فقال : اشتد عليك احتباسنا عنك ، وتكلم فى ذلك المشركون ، وإنما أنا عبد الله ورسوله ، إذا أمرنى بأمر أطعته ، ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ أى بقول ربك ، ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ معناه : له ما بين أيدينا من أمر الآخرة لأن ذلك لم يجئ [وهو

---

(١) شرح الأربعين جـ ١ ص ١٣٧ — ١٣٩ .

آت] ، فهو بين أيديهم ، وما خلفنا من أمر الدنيا ، وذلك ما قد خلفوه فمضى ، فصار خلفهم بتخليفهم إياه ، وما بين ذلك ما لم يمض من أمر الدنيا إلى الآخرة »(١) .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ أى أنه تعالى علم كل شىء فلا يخفى عليه شىء ولا يغيب عنه صغير أو كبير ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ولا أكبر من ذلك ولا أصغر إلا فى كتاب مبين ، قد كتبه قبل وجود خلقه لا من خشية نسيان أو فوات .

ووجه الاستشهاد بهذا الحديث : أن الأمر الذى قال جبريل عنه ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ يدخل فيه الأمر الكونى القدرى الذى سبق كل ما هو كائن ، والأمر الشرعى التكليفى ، ونزول جبريل إلى النبى ﷺ لا يكون إلا بالخير والبركة والنصر والتأييد للمؤمنين فهو مما سبقت به كلمته تعالى لرسوله ومن معه والله أعلم .

وقال البخارى فى كتابه خلق أفعال العباد : « قال الله ــ عز وجل ــ عن جبريل : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ فبين أن التنزل غير الأمر »(٢) وتقدم أن أمر الله سابق لخلقه .

٨١ ــ قال : « حدثنا يحيى ، حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : كنت أمشى مع رسول الله ﷺ فى حرث بالمدينة ، وهو متكىء على عسيب ، فمر بقوم من اليهود ، فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه ، فسألوه ، فقام متوكئا على العسيب ، وأنا خلفه ، فظننت

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٦ ص ٤٠١ ــ ٤٠٥ ببعض التصرف .

(٢) ص ١٨٣ تحقيق بدر البدر .

أنه يوحى إليه ، فقال : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، فقال بعضهم لبعض ، قد قلنا لكم لا تسألوه » .

قال ابن جرير : ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ يعنى أنه من الأمر الذى يعلمه الله دونكم ، فلا تعلمونه ، ويعلم ما هو .

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ . خرج الكلام خطابا لمن خوطب به ، والمراد جميع الخلق ، لأن علم كل أحد سوى الله ـــ تعالى ـــ وإن كثر فهو فى علم الله تعالى قليل ، والمعنى : وما أوتيتم أيها الناس من العلم إلا قليلا من كثير مما يعلم الله »[1] .

قوله : « فى حرث بالمدينة » فى رواية لابن أبى مردويه : « فى حرث للأنصار » ، وعند مسلم « كان فى نخل » وكل هذه الألفاظ تؤكد أن هذه الواقعة كانت فى المدينة ، ومعلوم أن سورة الإسراء مكية ، فإما أن يقال : إن هذه الآية مدنية ، وهو الأوجه ، فكثير من السور المكية يكون فيها آيات مدنية ، أو يقال : إنها نزلت مرتين للتأكيد ، كما قيل فى الفاتحة ، وغيرها .

وأما كونه ﷺ لم يجبهم بها من أول وهلة ، فلعله كان ينتظر الأمر يأتيه من الله ، إما بزيادة بيان أو بغير ذلك والله أعلم .

قوله : « وهو متكىء على عسيب » أى معتمد عليه وهو يمشى ، والعسيب بوزن عظيم هو جريد النخل ، بمنزلة الغصن من الشجرة ، ويسمى عسيبا إذا كان فيه خوصه ، فإذا أزيل الخوص فهو جريدة .

قوله : « فظننت أنه يوحى إليه » فى الرواية الأخرى « فعلمت أنه يوحى

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٥ ص ١٥٧ .

إليه » وقد يستعمل الظن بمعنى العلم .

قال ابن كثير : « قوله ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ أى من شأنه ، ومما استأثر بعلمه دونكم ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى وما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، فإنه لا يحيط أحد بشىء من علمه إلا بما شاء ـــ تبارك وتعالى ـــ .

والمعنى : أن علمكم فى علم الله قليل ، وهذا الذى تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى ، ولم يطلعكم عليه ، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه ـــ تعالى ـــ .

وقد اختلف فى الروح المسئول عنها هنا ، فقيل : المراد أرواح بنى آدم ، قال العوفى : عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ الآية ، وذلك أن اليهود قالوا للنبى ﷺ : أخبرنا عن الروح ، وكيف تعذب الروح التى فى الجسد ، وإنما الروح من الله ؟ ولم يكن نزل فيه شىء فلم يحر إليهم جوابا ، فأتاه جبريل ، فقال له : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، فأخبرهم النبى ﷺ بذلك ، فقالوا : من جاءك بهذا ؟ فقال : « جاءنى به جبريل من عند الله » .

وقيل : المراد بالروح هنا جبريل ـــ عليه السلام ـــ قاله قتادة .

وقيل : المراد : ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها ، قال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس ، قوله : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ يقول : الروح ملك عظيم .

وقيل : المراد طائفة من الملائكة »[١] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١١٢ ـــ ١١٣ طبعة الشعب .

وقال الحافظ : « قال الأكثر : سألوه عن الروح التى تكون بها الحياة فى الجسد ، وقال أهل النظر : سألوه عن كيفية مسلك الروح فى البدن ، وامتزاجه به وهذا هو الذى استأثر الله بعلمه .

وقال القرطبى : الراجح أنهم سألوه عن روح الإنسان ، لأن اليهود لا تعترف بأن عيسى روح الله ، ولا تجهل أن جبريل ملك ، وأن الملائكة أرواح .

وقال الرازى : المختار أنهم سألوه عن الروح الذى هو سبب الحياة ، وأن الجواب وقع على أحسن الوجوه .

وبيانه : أن السؤال عن الروح يحتمل أن يكون عن ماهيته ، أو عن صفته ، أو عن كيفية تعلقه بالبدن ، أو غير ذلك ، وقد سكت السلف عن البحث فى هذه الأشياء »[1] .

وقال ابن القيم : « فى المراد بالروح فى هذه الآية خلاف بين السلف والخلف .

وأكثر السلف ، بل كلهم على أن الروح المسئول عنها فى الآية ليست أرواح بنى آدم ، بل هو الروح الذى أخبر الله عنه فى كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة ، وهو ملك عظيم »[2] .

قال الحافظ : « الراجح أنها روح الإنسان » . وهذا هو الظاهر أن المراد : الروح الذى تحصل به الحياة ، وهو ما ذهب إليه أكثر المفسرين من المتأخرين وشراح الحديث .

وأما قول ابن القيم رحمه الله : « ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف

---

(١) الفتح جـ ٨ ص ٤٠٢ بتصرف .
(٢) الروح ص ٢٣٧ .

إلا بالوحى وذلك هو الروح الذى عند الله ، لا يعلمها الناس ، وأما أرواح بنى آدم فليست من الغيب ، وقد تكلم فيها طوائف من الناس ، من أهل الملل ، وغيرهم فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة »[1] .

فيقال : بل الروح من الغيب الذى لا يعلمه الناس ، فإن هذه الروح التى فى بنى آدم وإن تكلم فيها طوائف من الناس فهى مجهولة الحقيقة ، لا يعلمها إلا الله ، والذين تكلموا فيها تكلموا بالظنون ، ولم يصلوا إلى معرفة شىء من حقيقتها .

« قال بعض السلف فى تفسيرها : جرى بأمر الله فى أجساد الخلق ، وبقدرته استقر ، وهذا بناء على أن المراد بالروح فى الآية روح الإنسان »[2] .

« قوله : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ من المعلوم قطعا أنه ليس المراد بالأمر ها هنا الطلب الذى هو أحد أنواع الكلام ، فيكون المعنى : إن الروح كلامه الذى يأمر به ، بل المراد بالأمر هنا : المأمور ، وهو عرف مستعمل فى لغة العرب ، وفى القرآن منه كثير ، كقوله تعالى : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ أى مأموره الذى قدره ، وقضاه وقال له : كن فيكون ، وقوله : ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾[3] أى مأموره ، الذى أمر به ، من إهلاكهم »[4] .

ومقصود البخارى من الحديث ، قوله : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ يعنى أنها كانت ووجدت بأمر الله ، فأمر الله ليس هو الروح ، وإنما وجدت الروح

---

(١) كتاب الروح ص ٢٣٧ .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) الآية ١٠١ من سورة هود .
(٤) المرجع المذكور .

بأمره ، وهو سابق لما وجد به .

٨٢ ــ قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثنى مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « تكفل الله لمن جاهد فى سبيله ، لا يخرجه إلا الجهاد فى سبيله ، وتصديق كلماته ، بأن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه ، مع ما نال من أجر أو غنيمة » .

« تكفل » معناه ضمن له حصول ما ذكر ، فلا يمكن فواته ، لأن الله ــ تعالى ــ إذا ضمن شيئا فلابد من حصوله لمن ضمنه له .

وفى رواية بدل « تكفل » « انتدب الله لمن خرج » ، ومعناه سارع بثوابه وحسن جزائه ، وقيل : أجاب إلى المراد ، ففى الصحاح : ندبت فلانا فانتدب أى أجاب إليه ، وقيل : معناه تكفل بالمطلوب ، ويدل عليه رواية « تكفل »[1] .

قلت : المعنى الأخير هو الصواب ، والمعنيان الأولان يدخلان فيه ، وقد جاء فى رواية مسلم « تضمن الله لمن خرج فى سبيله » ، والمعنى واحد .

وهذا من باب التأكيد ، وإلا فوعد الله لابد من وقوعه ، فإن الله لا يخلف وعده ، والتكفل : وعد وزيادة تأكيد لوقوعه بالضمان .

قوله : « لمن جاهد فى سبيله » الجهاد ، والمجاهدة : استفراغ الوسع فى مدافعة العدو ، فهو بذل للجهد بالنفس والمال .

قال الراغب : « الجهاد ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ، ومجاهدة النفس ، وتدخل ثلاثتها فى قوله ــ تعالى ــ : ﴿ وَجَـٰهِدُواْ

---

(١) الفتح جـ ١ ص ٩٣ .

فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾[1] ﴿ وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[2] و ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[3] .

والمجاهدة تكون باليد ، واللسان »[4] .

وقال الحافظ : « الجهاد بكسر الجيم : أصله لغة : المشقة ، يقال : جهدت جهادا بلغت المشقة . وشرعا بذل الجهد فى قتال الكفار ، ويطلق أيضا على مجاهدة النفس ، والشيطان ، والفساق .

فأما مجاهدة النفس ؛ فعلى تعلم أمور الدين ، ثم على العمل بها ، ثم على تعليمها .

وأما مجاهدة الشيطان ؛ فعلى دفع ما يأتى به من الشبهات ، وما يزينه من الشهوات .

وأما مجاهدة الكفار ؛ فيقع باليد ، والمال ، واللسان ، والقلب .

وأما مجاهدة الفساق ؛ فباليد ، ثم اللسان ، ثم القلب »[5] .

« سبيل الله » طريقه الذى شرعه لعباده المؤمنين ، وهو دينه وشرعه .

قوله : « لا يخرجه إلا الجهاد فى سبيله ، وتصديق كلماته » أى ليس له أى دافع غير ذلك ، بل الجهاد فى سبيل الله ، والإيمان بوعده للمجاهدين فى سبيله هو الحامل له على الخروج ، وهذا هو الإخلاص لله تعالى فى الجهاد ،

---

(١) الآية ٧٨ من سورة الحج .
(٢) الآية ٤١ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٧٢ من سورة الأنفال .
(٤) المفردات ص ١٠١ .
(٥) الفتح جـ ٦ ص ٣ .

والإخلاص هو الذى يجعل العمل القليل كثيرا عظيما ، مع أنه شرط فى قبول العمل .

والتصديق بكلمات الله ــ تعالى ــ يشمل الإيمان بكلماته الأمرية الشرعية والعمل بها ، والإيمان بكلماته الكونية القدرية ، وهى التى سبقت بتقدير الأشياء كلها قبل وجودها .

وهذه الجملة هى المقصودة من الحديث هنا ، لهذا المعنى المذكور .

قوله : « بأن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة » هذا هو الذى كفله الله لمن يخرج مجاهدا فى سبيله .

وسبيل الله تعالى هو الجهاد لإعلاء كلمته التى هى : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله أى عبادة الله وحده ، ومتابعة رسوله ﷺ وأن لا يحكم إلا بشرعه ، ولا يتعبد إلا بما جاء به رسوله .

فهذا هو غاية المجاهد فى سبيل الله ، فمن خرج مجاهدا لهذا الغرض ، فإن قتل ، أو مات فى مخرجه ذلك فهو فى الجنة ، وإن فاته ذلك فلا بد أن يصل إلى مسكنه الذى خرج منه بما نال من الأجر ، والغنيمة ، فهو متحصل على إحدى الحسنيين على كل تقدير ، وهذا هو الربح .

٨٣ ــ « حدثنا محمد بن كثير ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى وائل ، عن أبى موسى ، قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : الرجل يقاتل حمية ، ويقاتل شجاعة ، ويقاتل رياء ، فأى ذلك فى سبيل الله ؟

قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

الحمية : مأخوذة من الحم : وهو الحرارة المتولدة من الجواهر المتوقدة ، كالنار والشمس .

وعبر عن القوة الغضبية إذا ثارت وكثرت بالحمية .

وإذا كانت من أجل الباطل ، ومدافعة الحق ، فهى حمية الجاهلية .

والمقصود بالحمية : هنا القتال لأجل القومية ، أو الدنيا من أرض أو ملك أو غير ذلك لا لأجل إعلاء دين الله تعالى .

وأما الشجاعة : فهى الجرأة والإقدام على العدو بقوة ، ودون تهيب ، وهى من الصفات المحمودة ، إذا كانت فى الحق ، وهى من المفاخر التى يفتخر بها الناس فقد يقدم المرء على القتال لأجل إظهار شجاعته ، وحبه للقتال فقط .

وأما الرياء ، فهو : مراءاة الناس للأعمال الحسنة ، حتى يثنى عليه أو يحبوه ونحو ذلك ، وهذا كله من الشرك ، فقد يكون شركا أكبر ، وقد يكون أصغر على حسب الدافع وما يقوم بالنفس .

وقوله : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » جواب جامع شامل لما ذكر فى السؤال وغيره ، من الأغراض ، والدوافع التى قد تدفع الإنسان إلى القتال ، فمن كان قصده فى قتاله ، رفع دين الله وإعزازه ، وأن لا يعبد معه غيره ، ولا يحكم إلا بشرعه ، فهو فى سبيل الله ، وإلا فليس فى سبيل الله .

والمقصود من الحديث قوله : « لتكون كلمة الله هى العليا » والذى يقاتل لذلك هو الذى سبقت له كلمة الله الكونية أنه من المنصورين ، لأنه من أتباع المرسلين فهو منهم فى هذا الحكم ، وهذا وجه الشاهد ، والله أعلم .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَـٰهُ ﴾ .

قال ابن كثير : « أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء ، وأنه لا يعجزه شىء ، وإنما إذا أمر به مرة واحدة كان من غير تأكيد فيما يأمر به ، فإنه تعالى

لا يمانع ولا يخالف »[1] .

قال ابن بطال : « غرضه الرد على المعتزلة ، فى زعمهم أن أمر الله مخلوق ، فبين أن الأمر هو قوله للشىء « كن » ، فيكون بأمره له ، وأن أمره ، وقوله بمعنى واحد ، وأنه يقول : « كن » حقيقة ، وأن الأمر غير الخلق ، لعطفه عليه بالواو »[2] .

وقال الحافظ : « قال ابن أبى حاتم فى كتاب الرد على الجهمية :

حدثنا أبى قال : قال أحمد بن حنبل : دل على أن القرآن غير مخلوق حديث عبادة « أول ما خلق الله القلم ، فقال : اكتب » الحديث ، وإنما نطق القلم بكلامه لقوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، فكلام الله سابق على أول خلقه ، فهو غير مخلوق .

وعن الربيع بن سليمان ، سمعت البويطى يقول : خلق الله الخلق بقوله : « كن » فلو كان « كن » مخلوقا ، لكان قد خلق الخلق بمخلوق ، وليس كذلك »[3] .

وقال البخارى : « قال سفيان إن كل شىء مخلوق ، والقرآن ليس بمخلوق ، وكلامه أعظم من خلقه لأنه يقول للشىء « كن » فيكون ، فلا يكون شىء أعظم مما يكون به الخلق ، والقرآن كلام الله »[4] .

وقال : « وقيل لأبى عبيد : إن المريسى سئل عن ابتداء خلق الأشياء ، وعن قول الله — عز وجل — ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن

---

(١) تفسير ابن كثير ملخصا جـ ٤ ص ٤٩٠ — ٤٩١ .
(٢) من الفتح جـ ١٣ ص ٤٤٣ .
(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٤٤٤ .
(٤) خلق أفعال العباد ص ٣٤ .

فَيَكُونُ ﴾ ؟ فقال : كله صلة[1] فمعنى قوله : ﴿ أَن نَّقُولَ ﴾ صلة ، كقوله : قالت السماء فأمطرت ، وكقوله : قال الجدار فمال ، قال الله ـــ تعالى ـــ : ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾[2] والجدار لا إرادة له ، فمعنى قوله : إذا أردناه كوناه ، فكان .

لم يكن عند المريسى جواب أكثر من هذا ، يعنى أن الله ـــ تعالى ـــ لا يتكلم .

قال أبو عبيد ، القاسم بن سلام : أما تشبيه قول الله ـــ تعالى ـــ : ﴿ إِذَا أَرَدْنَـٰهُ ﴾ ، بقوله : قالت السماء فأمطرت ، أو : قال الجدار فمال .

فإنه لا يشبهه ، وهذه أغلوطة أدخلها ، لأنك إذا قلت : قالت السماء ، ثم سكت ، لم يدر ما معنى « قالت » ، حتى تقول : فأمطرت .

وكذلك إذا قلت : أراد الجدار ، ثم لم تبين ما معنى : أراد ، لم يدر ما معناه ، وإذا قلت : « قال الله » اكتفيت بقوله « قال » . فقال : كاف ، لا يحتاج إلى شيء يستدل به على « قال » ، كما احتجت ، « إذا قال الجدار فمال » ، وإلا لم يكن لقال الجدار معنى .

ومن قال هذا فليس شيء من الكفر إلا وهو دونه .

ومن قال هذا ، فقد قال على الله ما لم يقله اليهود ، والنصارى ، ومذهبه التعطيل للخالق »[3] .

يعنى أن القول إذا أسند إلى ما لا يعقل فلا بد أن يقيد بالفعل الذى يصدر من ذلك المسند إليه ، لأن القول عبارة عن ذلك الفعل .

---

(١) يعنى زائدا ليس له معنى .
(٢) الآية ٧٧ من سورة الكهف .
(٣) خلق أفعال العباد ص ٣٥ .

فالمراد بقوله : قال الجدار ، فمال : الإخبار عن ميل الجدار ، وقوله حسب ما يليق به ، أما إذا أسند القول إلى من يتكلم حقيقة فلا يحتاج إلى أى قيد ، بل إذا قلت : قال أبو بكر ، فهم السامع أنه نطق بكلام ينتظر أن نذكره له .

وأراد البخارى أن يبين أن القول غير الشىء الذى أراد الله إيجاده ، فالقول صفة لله ــ تعالى ــ وبه يوجد الأشياء التى يريد وجودها ، فإذا قال لها : « كونى » كانت بلا مهلة ولا امتناع ، والقول والأمر سواء .

٨٤ ــ قال : « حدثنا شهاب بن عباد ، حدثنا إبراهيم بن حميد ، عن إسماعيل ، عن قيس ، عن المغيرة بن شعبة ، قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « لا يزال من أمتى قوم ظاهرين على الناس ، حتى يأتيهم أمر الله » .

فى رواية مسلم عن المغيرة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لن يزال قوم من أمتى ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون »[1] .

وفيه عن ثوبان ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك »[2] .

وفيه أيضا من حديث جابر بن عبد الله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ، ظاهرين إلى يوم القيامة »[3] .

قوله : « لا يزال من أمتى قوم ظاهرين » أى يستمرون فى الظهور على

---

(١) صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٥٢٣ رقم ١٩٢١ .

(٢) المرجع المذكور رقم ١٩٢٠ .

(٣) صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٥٢٤ رقم ١٩٢٣ .

الناس يعنى أنهم يكونون على الحق منصورين ظاهرين على عدوهم .

قوله : « حتى يأتيهم أمر الله » أى حكمه وقضاؤه ، إما بقيام الساعة كما فى حديث جابر : « إلى يوم القيامة » أو بالريح التى يموتون منها ، كما جاء فى الحديث .

قال الحافظ : « أى غالبون من خالفهم ، أو المراد بالظهور أنهم غير مستترين ، بل مشهورون ، والأول أولى ، لما فى مسلم « لن يبرح هذا الدين قائما تقاتل عليه عصابة من المسلمين ، حتى تقوم الساعة » ، وفيه أيضا من حديث عقبة بن عامر ، « لا تزال عصابة من أمتى يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم ، لا يضرهم من خالفهم ، حتى تأتيهم الساعة »[1] . والمراد بالساعة الريح التى تقبض روح كل مؤمن ، وذلك قبيل الساعة ، فلا يبقى إلا شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة ، وهذا معنى الذى فى مسلم : « لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس » .

وهذه الطائفة هم أتباع سنة رسول الله ﷺ .

قال البخارى ــ رحمه الله ــ : « هؤلاء هم أهل العلم »[2] أى العلم الشرعى الذين علموا ما جاء به الرسول ﷺ وعملوا به .

وقال الترمذى بعد روايته لهذا الحديث : « سمعت محمد بن إسماعيل يقول : سمعت على بن المدينى يقول : هم أصحاب الحديث »[3] .

وقال الحاكم : سمعت أبا عبد الله ، محمد بن على بن عبد الحميد الأدمى بمكة يقول :

---

(١) صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٥٢٤ ــ ١٥٢٥ رقم ١٩٢٢ و ١٩٢٤ .
(٢) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٣٩٣ .
(٣) انظر سنن الترمذى جـ ٤ ص ٥٠٤ ــ ٥٠٥ رقم ٢٢٢٩ .

سمعت موسى بن هارون ، يقول : سمعت أحمد بن حنبل ، وسئل عن معنى هذا الحديث ، فقال : « إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث فلا أدرى من هم » ، وهذا إسناد صحيح ، قال الحاكم : « فلقد أحسن أحمد ابن حنبل فى تفسير هذا الخبر ، أن الطائفة المنصورة ، التى يرفع الخذلان عنهم إلى قيام الساعة ، هم أصحاب الحديث »[1] .

والمقصود من هذا الحديث قوله : « حتى يأتيهم أمر الله » وهو أمره الكونى القدرى الذى قضاه ، وكتبه قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، فأوحاه الله إلى رسوله ليعلم أمته به فيؤمنوا به ، ويصدقوه ، فإذا وصل وقته قال الله تعالى : كن ، فيكون كما أراد .

ومراد البخارى أن أمر الله من صفاته ، فهو غير المخلوق ، وغير المأمور ، وهو مرادف للقول .

٨٥ ــ قال : « حدثنا الحميدى ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا ابن جابر ، حدثنى عمير بن هانئ ، أنه سمع معاوية ، قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من كذبهم ، ولا من خذلهم ، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » .

فقال مالك بن يخامر : سمعت معاذا يقول : وهم بالشام ، فقال معاوية : « هذا مالك يزعم أنه سمع معاذا يقول : وهم بالشام » .

« الأمة » تطلق على الجماعة من الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا

---

(١) علوم الحديث ص ٣ .
(٢) الآية ٢٣ من سورة القصص .

فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ﴾[1] .

فالأمة كل جماعة يجمعهم أمر من الأمور ؛ إما دين ، أو زمان ، أو مكان .

ويراد بها الملة والدين كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾[2] .

ويراد بها الطائفة من الزمان ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾[3] أى بعد حين .

ويراد بها الإمام القدوة المتبع كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ﴾[4] . والمقصود أن جماعة من هذه الأمة تبقى ظاهرة على دين الله ، منصورة إلى قيام الساعة وهذا من فضل الله تعالى أن جعل الحق باقيا ، لا يذهب ولا يضمحل وإن كثر محاربوه وأعداؤه ، كما هو الواقع والحمد لله على ذلك .

قوله : « لا يضرهم من كذبهم ، ولا من خذلهم » هذا من نصر الله تعالى ، وتأييده لهذا الدين ، ومن آياته بقاء هذه الأمة ظاهرة ، منصورة على عدوها ، مع كثرة الأعداء ، ومحاربتهم لها بأنواع الأسلحة المادية والمعنوية ، ومع خذلان من هم على دينها من المسلمين .

فقوله : « من كذبهم » يقصد بهم الكفار من جميع الأجناس ، من ملاحدة ، ويهود ، ونصارى ، ومشركين ، ومرتدين وغيرهم .

وقوله : « ولا من خذلهم » يقصد بهم من قعد عن نصرتهم ممن هو على

---

(١) الآية ٣٦ من سورة النحل .
(٢) الآية ٢٣ من سورة الزخرف .
(٣) الآية ٤٥ من سورة يوسف .
(٤) الآية ١٢٠ من سورة النحل .

دينهم ممن آثر الحياة الدنيا ، وركن إلى الدعة والراحة .

قال النووى : « المراد بقوله : « حتى يأتى أمر الله » الريح التى تأخذ كل مؤمن ومؤمنة ، ورواية « حتى تقوم الساعة » أو « إلى يوم القيامة » ، يعنى قربها وهو خروج تلك الريح .

وأما هذه الطائفة فقال البخارى : هم أهل العلم .

وقال أحمد بن حنبل : إن لم يكونوا أهل الحديث ، فلا أدرى من هم .

وقال القاضى عياض : إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ، ومن يعتقد مذهب أهل الحديث .

قلت : ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين ، منهم شجعان مقاتلون ، ومنهم فقهاء ، ومنهم محدثون ، ومنهم زهاد ، وآمرون بالمعروف ، وناهون عن المنكر ، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين ، بل قد يكونون متفرقين فى أقطار الأرض .

وفى هذا الحديث معجزة ظاهرة ، فإن هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالى من زمن النبى ﷺ إلى الآن ، ولا يزال حتى يأتى أمر الله المذكور . وفيه دليل لكون الإجماع حجة »[١] .

روى مسلم فى الصحيح من حديث سعد بن أبى وقاص ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق ، حتى تقوم الساعة »[٢] .

قال النووى : « قال على بن المدينى : هم العرب ، والمراد بالغرب الدلو

---

(١) شرح مسلم جـ ١٣ ص ٦٦ ــ ٦٧ .
(٢) مسلم جـ ٣ ص ١٥٢٥ رقم ١٩٢٥ .

الكبيرة وهى خاصة بهم .

وقال آخرون : المراد الغرب من الأرض . وقال القاضى عياض : المراد بأهل الغرب : أهل الشدة والجلد »[١] .

قال الحافظ : « ذكر يعقوب بن شيبة ، عن على بن المدينى ، قال : المراد بالغرب الدلو ، أى العرب ، لأنهم أصحابها ، لا يستقى بها أحد غيرهم .

لكن فى حديث معاذ : « وهم أهل الشام » ، فالظاهر أن المراد بالغرب البلد لأن الشام غرب الحجاز ، كذا قال ، وليس بواضح[٢] .

ووقع فى بعض طرق الحديث « المغرب » وهو يرد التأويل ، ولكن يحتمل أن يكون بعض الرواة نقله بالمعنى الذى فهمه .

وقيل هم أهل القوة ، والاجتهاد .

ووقع فى حديث أبى أمامة ، عند أحمد أنهم ببيت المقدس[٣] ، وعند الطبرانى نحوه ، وله أيضا فى الأوسط ، عن أبى هريرة : « يقاتلون على أبواب دمشق وما حولها ، وعلى أبواب بيت المقدس ، وما حوله ، لا يضرهم من خذلهم ظاهرين إلى يوم القيامة » .

قلت : « ويمكن الجمع بأن المراد ، قوم يكونون ببيت المقدس ، وهى من الشام ويسقون بالغرب ، وتكون لهم قوة فى جهاد العدو » ، ثم ذكر كلام النووى المتقدم ، ثم قال : « ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين فى بلد واحد ، بل

---

(١) شرح مسلم جـ ١٣ ص ٦٨ ملخصا .

(٢) يعنى أن الشام ليست غرب الحجاز ، وإنما هى شماله كما هو معلوم .

(٣) فى المسند عن أبى أمامة ، قال : لا تقوم الساعة حتى يتحول خيار أهل العراق إلى الشام ، ويتحول شرار أهل الشام إلى العراق ، وقال رسول الله ﷺ : « عليكم بالشام » المسند جـ ٥ ص ٢٤٩ ، فلعل الحافظ لديه نسخة فيها ما ليس فى المطبوعة فإن فيها سقطا .

يجوز اجتماعهم فى قطر واحد ، وافتراقهم فى أقطار الأرض ، ويجوز أن يجتمعوا فى البلد الواحد ، وأن يكونوا فى بعض منه دون بعض ، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم ، أولًا ، فأولًا ، إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد ، فإذا انقرضوا جاء أمر الله »[1] .

وقوله : « فإذا انقرضوا جاء أمر الله » هذا خلاف ظاهر الحديث ، فإن أمر الله يأتى عليهم .

والمقصود من الحديث قوله : « حتى يأتى أمر الله » أى الأمر الذى يكون بقوله « كن » فأمره هنا مأموره ، الصادر عن قوله ، فقوله الذى هو « كن » يصدر عنه ذلك الأمر الآتى والفرق بينهما واضح فإن قوله صفة له لا يدخل فى المخلوقات ، وأما مأموره كالريح التى تقبض كل مؤمن ومؤمنة ، والساعة التى هى النفخ فى الصور فإن ذلك مأموره ، والله أعلم .

٨٦ ــ قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن عبد الله بن أبى حسين ، حدثنا نافع بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : وقف النبى ﷺ على مسيلمة فى أصحابه ، فقال : « لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله » .

ذكر هذا الحديث فى علامات النبوة ، وفى المغازى بأبسط مما هاهنا ، ولفظه « عن ابن عباس ، قال قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول : إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته ، وقدمها فى بشر كثير من قومه ، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفى يد النبى ﷺ قطعة جريد ، حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه فقال : لو

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٢٩٥ ملخصا .

سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، وإنى لأراك الذى أريت فيه ما أريت وهذا ثابت يجيبك عنى ، ثم انصرف عنه .

قال ابن عباس : فسألت عن قول رسول الله ﷺ : « إنك أرى الذى أريت فيه ما أريت » فأخبرنى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب ، فأهمنى شأنهما فأوحى إلى فى المنام أن أنفخهما ، فنفختهما فطارا ، فأولتهما كذابين يخرجان بعدى أحدهما العنسى ، والآخر مسيلمة »[1] .

وهذا كان فى آخر حياة رسول الله ﷺ كان فى سنة عشر من الهجرة وكان مسيلمة مع وفد قومه بنى حنيفة .

قال الواقدى : كانوا بضعة عشر رجلا ، وكان معهم الرحال بن عنفوة ومسيلمة بن حبيب الكذاب ، وكان فى رحالهم ، فلما أسلموا ، وأعطاهم جائزتهم ، ذكروا له أن مسيلمة فى رحالهم ، فقال : « أما إنه ليس بشركم مكانا » يعنى لكونه بقى يرصد رحالهم ، ويخدمهم فى ذلك .

فأخبروه بما قاله رسول الله ﷺ فتعلق بهذه الكلمة ، وقال : إنما قال ذلك لأنه عرف أن الأمر لى من بعده ، واشتدت فتنته لما شهد له الرحال ، بأنه شريك فى النبوة ، وقد كان تعلم شيئا من القرآن ، فكان يلقى على مسيلمة مما يحفظه من القرآن ، فيدعى مسيلمة أنه أوحى إليه ، فعظمت بذلك فتنته »[2] .

هذا خلاصة ما ذكره المؤرخون ، عن ابن إسحاق وغيره .

قال الحافظ : « وسياق ما ذكره البخارى يخالف ما ذكره ابن إسحاق :

---

(١) البخارى جـ ٥ ص ١٤٠ .

(٢) البداية والنهاية جـ ٥ ص ٥٩ .

أنه قدم مع وفد قومه ، وأنهم تركوه فى رحالهم يحفظها لهم ، وذكروه له إلى آخر ما ذكره ، وهذا مع شذوذه ، ضعيف السند لانقطاعه .

وأمر مسيلمة كان عند قومه أكبر من ذلك ، فقد كان يقال له : رحمن اليمامة لعظم قدره عندهم .

وكيف يلتئم هذا الخبر الضعيف مع قوله فى هذا الحديث الصحيح أن النبى ﷺ اجتمع به ، وخاطبه ، وصرح له بحضرة قومه أنه لو سأله قطعة الجريد التى كانت بيده ما أعطاه إياها .

ويحتمل أن مسيلمة قدم مرتين ، الأولى كان تابعا ، والرئيس غيره ، ولهذا أقام فى رحالهم يحفظها ، ومرة متبوعا ، وفيها خاطبه النبى ﷺ ، أو القصة واحدة ، وكان تخلفه فى رحلهم أنفة منه واستكبارا »[1] والظاهر أنها مرة واحدة ، والمعتمد ما ثبت فى الصحيحين ، كما ذكر فى هذا الحديث .

ولما علم النبى ﷺ أن قصده الرئاسة والعلو ، وأنه ليس أهلا لما يطمع فيه ، وأن ذلك يخالف ما جاء به ﷺ ، فلم يأت لتأسيس حكم يورث من بعده ، وإنما جاء بالنبوة ، كما أخبر أن خلافة النبوة بعده تكون ثلاثون سنة ثم يكون ملكا »[2] .

ولهذا قال له : « لو سألتنى هذه القطعة من الجريد التى لا تساوى شيئا لم أعطكها ، لأنها خير منك ، ولأنك ليس لك من الأمر شيء ولا تستحق ، وما أنت بأهل لذلك .

قوله : « ولن تعدو أمر الله فيك » يعنى حكمه وقضاءه ، من شقاوتك التى حكم بها عليك قبل وجودك ، وأمر الله هنا هو أمره الكونى القدرى

---

(١) الفتح جـ ٨ ص ٨٩ ــ ٩٠ .
(٢) انظر المسند جـ ٥ ص ٤٤ وسنن أبى داوود رقم ٤٦٣٥ .

وهذه الجملة هى المقصود من الحديث كما مر التنبيه على ذلك .

قوله : « ولئن أدبرت ليعقرنك الله » أى أعرضت عن الحق الذى جاء به رسول الله ﷺ فإنك لا تعجز الله فسوف يأخذك أخذ عزيز مقتدر ، وقد فعل ، فقتل شر قتلة ، فقطع دابر القوم الذين لا يؤمنون والحمد لله رب العالمين .

٨٧ ــ قال : « حدثنا موسى بن إسماعيل ، عن عبد الواحد ، عن الأعمش ، عن إبراهيم عن علقمة ، عن ابن مسعود ، قال : بينا أنا أمشى مع النبى ﷺ فى بعض حرث المدينة ، وهو يتوكأ على عسيب معه ، فمررنا على نفر من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، فقال بعضهم : لا تسألوه أن يجىء فيه بشىء تكرهونه .

فقال بعضهم : لنسألنه ، فقام إليه رجل منهم ، فقال : يا أبا القاسم ما الروح ؟ فسكت عنه النبى ﷺ فعلمت أنه يوحى إليه .

فقال : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أوتـوا مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . قال الأعمش : « هكذا فى قراءتنا » .

تقدم أن هذه الواقعة كانت فى المدينة ، وفى هذه الرواية نص على ذلك وفى هذا دليل على أن اليهود يعلمون أنه نبى ، لعلمهم أن الروح لا يعلم حقيقتها إلا الله ، ولأنهم قالوا : لا تسألوه أن يجىء فيه بشىء تكرهونه وهذا لا يأتى إلا بالوحى ، والذى منعهم من متابعته الحسد ، والبغى والكبر والعناد ، وقد تقدم شرح هذا الحديث .

والمقصود هنا قوله : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ أى مأموره الذى قال له كن فيكون ، فهو تعالى أوجد الأرواح بقوله ، فقوله غير الذى أوجده به كما تقدم إيضاح ذلك .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾[1] .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنۢ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ﴾[2] .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[3] سخر ذلك » .

هذه ثلاث آيات ، أما الأولى والثانية فمعناهما واحد .

قال الحافظ : « جاء فى سبب نزولها ما أخرجه ابن أبى حاتم بسند صحيح ، عن ابن عباس ، فى قصة سؤال اليهود عن الروح ، ونزول قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، قالوا : كيف وقد أوتينا التوراة .

فنزلت : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى ﴾ الآية .

وأخرج عبد الرزاق فى تفسيره من طريق أبى الجوزاء ، قال : لو كان كل شجرة فى الأرض أقلاما ، والبحر مداد ، لنفد الماء ، وتكسرت الأقلام قبل أن تنفد كلمات الله .

---

(١) الآية ١٠٩ من سورة الكهف .
(٢) الآية ٢٧ من سورة لقمان .
(٣) الآية ٥٤ من سورة الأعراف .

وعن معمر ، عن قتادة ، أن المشركين قالوا : فى القرآن : « يوشك أن ينفد فنزلت »[1] .

وقال ابن جرير : « يقول عز ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا ﴾ للقلم الذى يكتب به « كلمات ربى لنفد » ماء البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » يقول : ولو مددنا البحر بمثل ما فيه من الماء مددا من قولك : جئتك مددا لك »[2] .

وقال فى تفسير آية لقمان : « يقول تعالى ذكره : لو أن شجر الأرض كلها ، بريت أقلاما « والبحر يمده » يقول : والبحر له مداد ، والهاء فى قوله « يمده » عائدة على البحر ، وقوله : « من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » فى هذا الكلام محذوف استغنى بدلالة الظاهر عليه عنه ، وهو « يكتب كلامه بتلك الأقلام ، وبذلك المداد ، لتكسرت تلك الأقلام ، ولنفد ذلك المداد ولم تنفد كلمات الله »[3] .

وقال ابن كثير : يقول تعالى مخبرا عن عظمته ، وكبريائه ، وكلماته التامة التى لا يحيط بها أحد ، ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » أى ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت وجعل البحر مدادا ، ومده سبعة أبحر معه ، فكتب بها كلمات الله لتكسرت الأقلام ، ونفد ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مدد ، وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر ، ولا أن هناك سبعة أبحر تحيط بالأرض .

فليس المراد بقوله : « بمثله » آخر فقط بل بمثله ، ثم بمثله ، ثم بمثله ، ثم

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٤٥ .

(٢) تفسير الطبرى جـ ١٦ ص ٣٩ .

(٣) المصدر المذكور جـ ٢١ ص ٨٠ ــ ٨١ .

هلم جرا ، لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته »[1] .

ففى هاتين الآيتين أكبر دليل على أن كلام الله غير مخلوق ، وأنه من صفاته ، إذ المخلوق لا بد أن يكون له نهاية ونفاد ، فإنه مسبوق بالعدم فلا بد أن يلحقه العدم .

أما كلام الله تعالى فلا نهاية له ، ولا نفاد ، وقد قرب تعالى إلى أفهام المخاطبين بما ضرب من المثل بما ذكر من كون البحار كلها ويزاد معها مثلها مرات كثيرة وكون جميع ما وجد على وجه الأرض من عود أقلاما يكتب بها كلامه تعالى لنفد البحر ، وأمسحت الأقلام ، وكلمات الله كما هى لم تنقص .

وليس معنى قوله : ﴿ لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى ﴾ أن كلمات الله لها نهاية ، وأنها يمكن أن تنفد ، بل المعنى أنها لا نهاية لها أبدا ، لأنها من صفاته تعالى .

وليس هذا وصف المخلوق ، وهذا وجه استدلال البخارى بهاتين الآيتين ومراده الرد على القائلين بخلق كلام الله تعالى .

وأما قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ الآية .

ففيها يُعْلِمُ تعالى عباده بأنه ربهم ومالكم ، المتصرف فيهم كيف يشاء ، وهو الذى يصلح لهم حياتهم ، ويربيهم بنعمه الظاهرة والباطنة .

وأنه خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، وقد جاء بيانها فى السنة أن أولها الأحد ، وآخرها يوم الجمعة ، وأنه بعد خلقه السماوات والأرض استوى على عرشه ، وهو السرير العظيم ، وهو سقف المخلوقات ، وقد تقدم الكلام فيه .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٥١ ملخصا .

ويعلمهم تعالى أنه يدخل الليل فى النهار ، والنهار فى الليل ، أى يجعل أول هذا متصلا بآخر هذا ، كما قال تعالى : ﴿ يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِى ٱلنَّهارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱللَّيْلِ ﴾(١) فكل واحد يطلب الثانى أى يتبعه حثيثا أى سريعا .

ويعلمهم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره » أى منقادة طائعة لأمره فجميع الكون بما فيه يسير حسب مشيئته ، فالخلق والأمر له وحده .

وفسر البخارى كلمة « مسخر » بأنه مذلل أى هى خاضعة له منقادة لأمره وهو تعالى لا يمتنع عليه شىء فكل شىء من حس وجامد فى الأرض والسماوات وما بينهما مسخر لأمره الكونى القدرى .

﴿ تَبَارَكَ ٱللهُ ربُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أى تعاظم وتقدس عن قول الظالمين الذين لم يقدروه حق قدره ، و « العالمين » جميع الخلق ، فكل ما سواه تعالى عالم ، وهو ربهم الذى يتصرف فيهم كيف يشاء .

والمقصود من الآية قوله : « ألا له الخلق والأمر » فهو دليل على أن الخلق غير الأمر ، لعطف الأمر على الخلق ، لأن العطف كما هو معلوم يقتضى المغايرة وبهذه الآية استدل الأئمة على أن الكلام غير الخلق ، وبها وأمثالها ردوا على المعتزلة الذين قالوا بخلق الكلام .

قال البخارى : « والقرآن كلام الله غير مخلوق ، لقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ فبين أن الخلائق ، والطلب الحثيث ، والمسخرات ، بأمره ، ثم شرح فقال : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .

---

(١) الآية ٦ من سورة الحديد .

قال ابن عيينة : قد بين الله الخلق من الأمر بقوله : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ فالخلق بأمره ، كقوله : ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾[1] وكقوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[2] وكقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾[3] ولم يقل بخلقه .

حدثنا أصبغ ، أخبرنى عبد الله بن وهب ، أخبرنى يحيى بن أيوب ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، قال : قلت لعبد الله بن عباس : ما القدر ؟ قال : يا مجاهد ، أين قوله : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[4] .

٨٨ ــ قال : « حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « تكفل الله لمن جاهد فى سبيله ، لا يخرجه من بيته إلا الجهاد فى سبيله ، وتصديق كلمته ، أن يدخله الجنة ، أو يرده إلى مسكنه ، بما نال من أجر أو غنيمة » .

تقدم هذا الحديث فى باب قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وتقدم شرحه هناك .

والمقصود منه هنا ، قوله : « وتصديق كلمته » إذ هى غير الجهاد فى سبيله ، وغير التصديق سواء قيل : هى كلمته الدينية الشرعية ، أو الكونية القدرية ، فكلمته من صفاته كما تقدم ، وهى غير خلقه ، هذا ما أراده البخارى رحمه الله من الحديث ، والله أعلم .

---

(١) الآية ٤ من سورة الروم .
(٢) الآية ٨٢ من سورة يس .
(٣) الآية ٢٥ من سورة الروم .
(٤) خلق أفعال العباد ص ٤٥ .

قال البخارى : قال سفيان فى تفسيره : « إن كل شىء مخلوق ، والقرآن ليس بمخلوق ، وكلامه أعظم من خلقه لأنه إنما يقول للشىء كن ، فيكون ، فلا يكون شىء أعظم مما يكون به الخلق ، والقرآن كلام الله »(1) .

قال : « باب فى المشيئة والإرادة » .

أى مشيئة الله وإرادته ، وهذا مما يتعلق بربوبيته ــ تعالى ــ وهو رب كل شىء وخالقه ومالكه ، يدخل فى ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها ، وصفاتها القائمة بها مثل أفعال العباد ، فإنه ــ تعالى ــ خالق العبد وفعله ، كما سيأتى ــ إن شاء الله تعالى ــ بيان ذلك .

وهو سبحانه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فلا يكون فى الوجود شىء إلا بمشيئته وقدرته ، ولا يمتنع عليه شىء يريده ، بل هو القادر على كل شىء .

كما أنه سبحانه يعلم ما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وقد ذكر الله ــ تعالى ــ مشيئته عامة فى القرآن ، فى ما يقرب من أربعمائة موضع .

كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ ﴾(2) وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾(3) وقوله : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ فَلَو شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(4) ، وقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾(5) .

وقوله : ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ

---

(1) خلق أفعال العباد ص ٣٤ تحقيق عميرة .

(2) الآية ٣٥ من سورة الأنعام .

(3) الآية ٤٨ من سورة المائدة .

(4) الآية ١٤٩ من سورة الأنعام .

(5) الآية ٩٩ من سورة يونس .

وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾[1] وقوله : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[2] وقوله : ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3] وقوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾[4] وقوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾[5] ففى هذه الآيات ونحوها الرد على طائفتى الضلال ، نفاة المشيئة بالكلية ، ونفاة مشيئة الله لأفعال العباد وحركاتهم ، وهداهم ، وضلالهم ، وهذا هو مراد البخارى من هذا الباب وسيذكر تفصيلا لهذا الباب فى الأبواب الآتية .

والله سبحانه وتعالى علق وجود كل شيء وعدمه بمشيئته ، فمرة يخبر أن كل ما فى الكون بمشيئته ، وأخرى يخبر أن ما لم يشأه لم يكن ، ومرة يخبر أنه لو شاء لكان خلاف الواقع ، وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذى قدره وكتبه ، وأنه لو شاء ما عصى ، ولو شاء لجمع خلقه على الهدى وجعلهم أمة واحدة .

فكل ما وجد من عين أو حركة ، أو موت أو حياة ، أو مصيبة أو عز أو ذل أو غير ذلك فهو بمشيئته ، وكل ما لم يوجد ، ولم يقع فهو لعدم مشيئته لوجوده ، وهذا معنى كونه على كل شيء قدير ، وهو حقيقة ربوبيته لكل شيء ، ومعنى كونه القيوم بتدبير عباده ، فلا خلق ، ولا رزق ، ولا عطاء ولا منع ، ولا قبض ، ولا بسط ، ولا ضلال ، ولا هدى ، ولا سعادة ، ولا شقاء إلا بمشيئته وتكوينه ، إذ لا مالك غيره ولا رب سواه[6] .

---

(١) الآية ٢٦ من سورة آل عمران .
(٢) الآية الأخيرة من سورة التكوير .
(٣) الآية ٣٩ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ١٣ من سورة السجدة .
(٥) الآية ١٣٣ من سورة النساء .
(٦) انظر شفاء العليل ص ٤٤ .

فمشيئته تعالى تتعلق بخلقه ، وأمره الكونى والشرعى ، بما يحب وما يكره ، كل شيء داخل تحت مشيئته ، فقد شاء وجود إبليس والشياطين ، والكفار والفساق ، وهو يكره ذلك ويبغضه .

وكذلك ما يحبه ويرضاه كوجود الرسل والصديقين ، والشهداء والصالحين والطاعات ، وأمثال ذلك من امتثال أمره الدينى الشرعى فهو أيضا بمشيئته .

وأما الإرادة فقد بين الله تعالى أنها نوعان :

أحدهما الإرادة الكونية القدرية ، وهى مرادفة للمشيئة ، وهذه الإرادة تستلزم وقوع المراد ولابد ، ولا يلزم أن يكون مرادها محبوبا لله مرضيا له .

بل قد يكون مكروها مسخوطا له ، ككفر الكافرين ، ومعاصى العاصين ، ووجود المفسدين .

وقد يكون مرادها محبوبا مرضيا لله تعالى كوجود إيمان المؤمنين ، وطاعات الطائعين ووجود رسل الله وعباده المخلصين ، والصديقين والشهداء والصالحين .

وهذه الإرادة هى المذكورة فى مثل قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٢٥٣ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٣٤ من سورة هود .

مِن ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾[1] ونحو ذلك من الآيات الدالة على عموم إرادته لما يشاء ، وأنه لاراد لمراده تعالى ، ولهذا صارت هذه الإرادة مرادفة للمشيئة ، فالإرادة الكونية القدرية هي المشيئة ، ولهذا لابد أن يقع مرادها .

والنوع الثانى : الإرادة الدينية الأمرية الشرعية ، وهى المذكورة فى مثل قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾[4] وأمثال ذلك من الآيات فهذه الإرادة يحب الله مرادها ، ويأمر به ويرضاه ، ولا يلزم أن يقع المراد بها إلا أن يتعلق به الإرادة الكونية .

وقد أشار البخارى ــ رحمه الله ــ إلى نوعى الإرادة بالمثال ، فأشار إلى الإرادة الكونية بقوله تعالى : ﴿ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ ، لأن الإرادة الكونية هى المشيئة العامة التى لا يخرج عنها شيء .

وأشار إلى النوع الثانى من الإرادة بقوله : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ

---

(١) الآية ٤١ من سورة المائدة .
(٢) الآية ١٨٥ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٦ من سورة المائدة .
(٤) الآيات ٢٦ ــ ٢٨ من سورة النساء .

بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ فهذه الإرادة الدينية الأمرية ، التى تتضمن الأمر والمحبة والرضى ، فهذا ما دلت عليه نصوص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومذهب أهل السنة وبه تتفق الدلائل ، وتنحل الإشكالات ، وتفصيل ذلك أن يقال :

الأشياء كلها لا تخرج عن أربعة أقسام :

« أحدها : ما تعلقت به الإرادتان ، الكونية ، والدينية ، وهو ما يقع فى الوجود من الأعمال الصالحة الموافقة لأمر الله وشرعه ، فإن الله أرادها دينا وشرعا ، فأمر بها ، وأرادها كونا ، وقدرا ، فوجدت ، ولولا إرادته إياها كونا لم توجد ، لأنه لا يوجد ما لا يريد وجوده ، ولا يمتنع عليه ما يريد وجوده كما تقدم .

والثانى : ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط ، وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة ، فعصى أمره فيها الكفار ، والفساق ، فلم يفعلوها ، فتلك الأعمال تعلقت بها الإرادة الدينية فقط ، لأنه أمر بها ، وطلب فعلها ، ولم يردها كونا وقدرا ، ولهذا تخلف وجودها ، وإن كان يحب وجودها ، ويرضاه ، ولكن لا يلزم وجود ما يحب ، ويرضى .

ولا يقال : هذا يخالف كونه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لأنه تعالى يريد قدرا وكونا ما لا يحب ويرضى ، كوجود إبليس ، وجنوده المفسدين فى الأرض بالمعاصى والكفر والفسوق ، وذلك لحكم عظيمة يعلمها تعالى ، ويطلع على ما يشاء منها من يشاء من عباده .

الثالث : ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط ، وهو ما قدره وشاءه من الحوادث التى لم يأمر بها ، كالمباحات والمعاصى ، فإنه لم يأمر بها ، ولم يرضها ولم يحبها ، إذ هو ــ تعالى ــ لا يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولولا إرادته الكونية ، وقدرته ، وخلقه لذلك لما كان شىء منها ، فإنه ــ تعالى ــ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

الرابع : ما لم تتعلق به الإرادتان ، فهذا ما لم يكن ، ولن يكون من الأفعال والأعيان[1] .

وبهذا البيان والتفصيل تزول الإشكالات التى يوردها أصحاب الشكوك والأهواء ، الذين لم يستنيروا بنور كتاب الله تعالى .

قوله : ﴿ تُؤْتِى ٱلْمُلْكِ مَن تَشَاءُ ﴾ يخبر تعالى أن الملك بيده ، فيعطى ملك الدنيا من يشاء من عباده ، وينزعه ممن يشاء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] فبين أن جميع التصرف فى الكون ، ومن فيه بيده ، وأنه على كل شيء قدير .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ ﴾[3] فى هذه الآية الكريمة الرد على طائفتى الضلال ، القدرية ، والجبرية ، حيث أثبت — تعالى — للعباد مشيئة تتعلق بأفعالهم ، وأخبر أن مشيئتهم ، وفعلهم موقوفان على مشيئته لهم ، فلا تحصل لهم المشيئة ، ولا الفعل حتى يشاء تعالى ذلك وسيأتى تفصيل ذلك ، وبيان بطلان قول القدرية الذين يقولون : إن العباد يخلقون أفعالهم ويوجدونها استقلالا دون مشيئة الله وقول الجبرية ، الذين يجعلون العبد بمنزلة الآلة التى لا تصرف لها ولا خيار .

قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾[4] هذه الآية نزلت فى عم النبى ﷺ أبى طالب ، ففى الصحيحين

---

(١) انظر مجموع الفتاوى جـ ٨ ص ١٨٨ — ١٨٩ .
(٢) الآية ٢٦ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ٣٠ من سورة هل أتى على الإنسان و ٢٩ من سورة التكوير .
(٤) الآية ٥٦ من سورة القصص .

عن سعيد بن المسيب ، عن أبيه ، قال : لما حضرت الوفاة أبا طالب ، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ، فقال : « أى عم قل : لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعيدانه بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب — آخر ما كلمهم : على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » ، فأنزل الله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾(1) الآية ، وأنزل الله فى أبى طالب : وقال لرسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾(2) .

قال ابن كثير : « يقول تعالى لرسوله ﷺ : إنك يا محمد « لا تهدى من أحببت » أى ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ ، والله يهدى من يشاء ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، كما قال تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾(3) .

وقال : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾(4) .

وهذه الآية أخص من ذلك كله ، فإنه قال : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ ، أى هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية ، وقد ثبت فى الصحيحين أنها نزلت فى أبى طالب »(4) .

---

(1) الآية ١١٣ من سورة التوبة .

(2) انظر البخارى جـ ٦ ص ٦٥ ومسلم فى الإيمان جـ ١ ص ٢٤ .

(3) الآية ٢٧٢ من سورة البقرة .

(4) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٥٧ .

٨٩ ــ قال : « حدثنا مسدد ، حدثنا عبد الوارث ، عن عبد العزيز ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعوتم فاعزموا فى الدعاء ، ولا يقولن أحدكم : إن شئت فأعطنى ، فإن الله لا مستكره له » .

الدعاء عبادة للمدعو بالرغبة والرهبة ، والذل والاستكانة والافتقار ، ولهذا صار صرفه لغير الله شركا أكبر ، لا يغفره الله إلا بالتوبة منه .

والله جل وعلا هو رب الخلق وإلههم ، خلقهم وتعبدهم ، وجعل مصيرهم إليه وهو يملك كل شيء ، حتى أفعالهم الاختيارية لا يمكن أن تقع إلا بمشيئته .

ويملك هداية قلوبهم وإزاغتها ، وهو الذى يحبب الإيمان إلى من يشاء ، ويكرهه إلى من يشاء ، ويكره الكفر والفسوق والعصيان إلى من يشاء ، ويحببه إلى من يشاء ، وبهذا يعلم شدة حاجة الإنسان إلى دعاء الله ــ تعالى ــ بصدق وإلحاح ، وعزم قوى ، ورغبة شديدة ، لأنه فقير فقرا ذاتيا لا ينفك عنه لحظة واحدة إلى ربه ، ولاخلاص له من العذاب السرمدى إلا إذا منّ الله عليه وتفضل بهدايته ، لذلك وجب أن لا يعلق الدعاء على مشيئته ــ تعالى ــ فهذه علة النهى ، والعلة الثانية ما ذكره ﷺ بقوله : « فإنه لا مستكره له » فإن تعليق الدعاء بالمشيئة يشعر بأن الله تعالى يعطى ما لا يريد ، كما يحصل لابن آدم ، وهذا لا يجوز اعتقاده فى الله .

والمقصود أنه يحرم تعليق الدعاء بالمشيئة لعلتين : إحداهما ، إشعار ذلك باستغناء الداعى عما يدعو ، وهو خلاف الواقع ، وخلاف العبودية الواجبة على العبد .

والثانية ، إشعار ذلك بأن الله قد يعطى ما يكره عطاءه ، فيجب على العبد أن يدعو ربه بعزم لا تردد فيه ، وبرغبة وإلحاح وإظهار الافتقار والفاقة .

وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة : « لا يقولن أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت اللهم ارحمنى إن شئت ، ليعزم فى الدعاء ، فإن الله صانع ما يشاء ، لا مكره له » .

وفى رواية : « ولكن ليعزم المسألة ، وليعظم الرغبة ، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه » .

قال النووى : « قال العلماء : عزم المسألة : الشدة فى طلبها ، والجزم من غير ضعف فى الطلب ، ولا تعليق على مشيئته ونحوها .

وقيل : هو حسن الظن بالله ــ تعالى ــ فى الإجابة .

قال العلماء : سبب كراهته : أنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا فى حق من يتوجه عليه الإكراه ، والله ــ تعالى ــ منزه عن ذلك ، وقيل : لأن فى هذا صورة الاستغناء عن المطلوب والمطلوب منه »[1] .

وكلا المعنيين مشعر به الحديث ، والظاهر منه تحريم ذلك ، فالحديث ظاهر فيه ، ولا صارف له عنه ، والله أعلم .

٩٠ ــ قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى ، ح .

وحدثنا إسماعيل ، حدثنى أخى عبد الحميد ، عن سليمان ، عن محمد بن أبى عتيق ، عن ابن شهاب ، عن على بن حسين بن على ، أخبره أن على بن أبى طالب أخبره ، أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة ، فقال لهم : « ألا تصلون ؟ » قال على :

---

(١) شرح النووى لمسلم جـ ١٧ ص ١٧ .

فقلت : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلى شيئا ، ثم سمعته وهو مدبر يضرب فخذه ، ويقول : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ .

على بن أبى طالب بن هاشم بن عبد مناف ابن عم رسول الله ﷺ رابع الخلفاء الراشدين ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، كان من السابقين إلى الإسلام ، وعمره لم يجاوز العشر ، وكان فى بيت رسول الله ﷺ شهد مع رسول الله ﷺ سائر مشاهده مع الكفار ما عدا تبوك ، خلفه ليقوم بمصالح أهله ، ولما قال المنافقون : إنه استثقله لحق به فقال له : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » .

هلك فيه طوائف من الرافضة ، غلوًّا فيه بين قائل بألوهيته ، وقائل بأنه وصى معصوم ، قتل سنة أربعين فى رمضان رضى الله عنه وعن سائر صحابة النبى ﷺ[1] .

« طرقه » أتاه ليلا ، وكل آت ليلا فهو طارق ، وقد يطلق على من يأتى نهارا كما فى قوله ﷺ : « وأعوذ بك من طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير »[2] ولهذا قال : « طرقه وفاطمة بنت رسول الله » ، وهى زوجه لأنهما كانا نائمين .

« فقال لهم ألا تصلون » الخطاب لعلى وفاطمة ، وقد جمع الضمير العائد إليهما فى قوله لهم : « ألا تصلون » ، وهو سائغ فى اللغة .

---

(١) انظر الرياض المستطابة ص ١٦٣ ، أسد الغابة جـ ٤ ص ٩١ ، الإصابة جـ ٢ ص ١٠٥ ، تاريخ بغداد جـ ١ ص ١٣٣ ، تاريخ الخلفاء ١٦٦ ، تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٠ ، طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ١١ .
(٢) مجموع الفتاوى جـ ٨ ص ٢٤٤ .

« ألا تصلون » عرض عليهما يدل على أن الأمر غير واجب ، وإنما هو التماس يدل على الاستحباب .

« فقلت : يا رسول الله إنما نفوسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا » إلى آخره .

هذا هو محل الشاهد من الحديث ، وأراد بيان أنه لا يجوز معارضة الأمر الشرعى بالقدر كما صنع سلف القدرية المشركون فى قوله : ﴿ لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا ﴾[1] .

ففى هذا الحديث بيان أنه لا ينبغى معارضة الأمر بالقدر ، فإن قوله : « إنما نفوسنا بيد الله » إلى آخره استناد إلى القدر فى ترك امتثال الأمر ، وهذا القول فى نفسه حق ، ولكن لا يصلح لمعارضة الأمر ، بل معارضة الأمر بهذا من باب الجدل المذموم الذى قال الله فيه : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾[2] .

ولهذا انصرف عنه النبى ﷺ كارها لمقالته ، وتلا قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ ، وضربه فخذه يدل على كراهته لذلك أيضا ، وتعجبه من على كيف يعارض قوله له : « ألا تصلون » بتلك المقالة .

ومعلوم أن كل شيء بمشيئة الله ، فلو أن كل من أمر بأمر قال : إذا شاء الله فعلته ، وإذا شاء لم أفعله ، لتعطلت الأوامر كلها ، وساد هوى النفوس قال الحافظ : « فيه أن الإنسان طبع على الدفاع عن نفسه بالقول والفعل ، وأنه ينبغى له أن يجاهد نفسه لقبول النصيحة ولو كان فى غير واجب »[3]

---

(١) الآية ١٤٨ من سورة الأنعام .

(٢) انظر مجموع الفتاوى جـ ٨ ص ٢٤٤ .

(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٣١٤ .

قال : « حدثنا محمد بن سنان ، حدثنا فليح ، حدثنا هلال بن على ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ قال : « مثل المؤمن كمثل خامة الزرع يفىء ورقه من حيث أتتها الريح تكفئها ، فإذا سكنت اعتدلت ، وكذلك المؤمن يكفأ بالبلاء ، ومثل الكافر ، كمثل الأرزة ، صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء » .

قال فى المصباح : « الخامة الغضة من النبات ، والجمع خام ، وخامات ، والخام من الثياب الذى لم يقصر ، وثوب خام أى غير مقصور »[1] .

وقال الحافظ : « هى الطاقة الطرية اللينة ، أو الغضة ، أو القضبة ، قال الخليل : « خامة الزرع : أول ما ينبت على ساق واحد »[2] .

قلت : قول الخليل هو الصواب فالزرع فى أول أمره يكون على ساق واحد ، ويكون لينا طيعا للريح ينثنى معها حيث أتت ، ولا تؤثر على صحته واعتداله ، فإذا سكنت رجع على ساقه قائما كأن لم يصبه شىء ، بل ربما ازداد قوة ونضارة ، وهذا هو المقصود من المثل ، فإن المؤمن تأتيه المصائب من نواح شتى ، ففى كل مرة يقال : هذه تهلكه ، ثم تنجلى ويعود إلى صحة إيمانه قويا سليما ، كأن لم يصب بأذى .

قال البكرى : الخامة الغضة من الزرع ، أول ما تستقل على ساق ، وألفه منقلبة عن ياء ، قال أبو عبيد : هى الغضة الرطبة وأنشد :

إنما نحن مثل خامــة زرع   فمتـى يــأن يــأت محتصده[3]

---

(١) المصباح جـ ١ ص ٢٥١ .
(٢) الفتح جـ ١٠ ص ١٠٦ .
(٣) فصل المقال ص ٧ ، ٨ .

ومعنى « يفىء » يميل مع الريح ثم يرجع إلى اعتداله .

ومعنى « تكفئها » تميل بشدة .

قوله : « ومثل الكافر ، كمثل الأرزة صماء معتدلة » إلى آخره ، فى رواية « ومثل المنافق » ، وفى أخرى : « الفاجر » والمثل يصدق على الكافر والمنافق ، والفاجر هو الكافر ، وكلهم أريد بالمثل .

والأرزة هى شجرة الصنوبر ، وهو شجر قوى معتدل ، ولا بد له من نهاية ، فإذا شاء الله قصمه ، وأهلكه ، فإذا انثنى انكسر فلا يعود إلى اعتداله كخامة الزرع .

وكذلك الكافر والمنافق غالب حاله أنه معافى من المصائب ، كالمرض وغيره من مصائب المال والولد ، لأنه يعطى نصيبه من السعادة فى الدنيا ، ثم يوافى الآخرة مفلسا صفر اليدين ، فتكون حسرته أشد ، وهلاكه أنكى وأعظم ، وقد يصاب أيضا فى الدنيا .

أما المؤمن فمن رحمة الله — تعالى — به أن قدر عليه المصائب فى الدنيا ، حتى يكتسب بذلك الثواب ، أو يكفر عنه به من ذنوبه ، ليسلم له جزاء عمله فى الآخرة .

قال البكرى : « الأرزة ، شجرة معروفة ، وهى من أصلب الخشب ، قال أبو عبيد : وأهل العراق يسمونها الصنوبر ، وإنما الصنوبر ثمر الأرز .

ومعنى الحديث والله أعلم : أنه شبه المؤمن بالخامة التى تميلها الريح ، لأنه مرزًّ فى نفسه ، وأهله ، وماله ، وولده ، وأما الكافر ، فمثل الأرزة التى لا تميلها الريح ، والكافر لا يرزًّ شيئا حتى يموت ، وإن رزىء لم يؤجر عليه ، فشبه موته بانجعاف تلك [الشجرة] حتى يلقى الله بذنوبه كملا ، والانجعاف السقوط والانقلاب »[1] .

---

(١) فصل المقال ص ٨ .

والشاهد قوله : « حتى يقصمها الله إذا شاء » فكل شيء ينتهى إلى مشيئة الله تعالى ، فلا يحدث حدث صغير أو كبير إلا إذا شاء الله ، كما تقدم أن مشيئة الله عامة لكل شيء ، وهو معنى أنه على كل شيء قدير .

٩١ ــ قال : « حدثنا الحكم بن نافع ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى ، أخبرنى سالم بن عبد الله ، أن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو قائم على المنبر ، يقول : « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، أعطى أهل التوراة التوراة ، فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا ، فأعطوا قيراطا قيراطا ، ثم أعطى أهل الإنجيل الإنجيل ، فعملوا حتى صلاة العصر ، ثم عجزوا ، فأعطوا قيراطا قيراطا ، ثم أعطيتم القرآن ، فعملتم به حتى غروب الشمس ، فأعطيتم قيراطين قيراطين ، قال أهل التوراة : ربنا هؤلاء أقل عملا وأكثر أجرا ؟ قال : هل ظلمتكم من أجركم من شيء ؟ قالوا : لا فقال : فذلك فضلى أوتيه من أشاء » .

قوله : « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم ، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس » أى أن نسبة مدة هذه الأمة إلى مدة من تقدم من الأمم ، كنسبة ما بعد العصر إلى غروب الشمس ، إلى بقية النهار ، و « فى » فى قوله « فيما قبلكم » بمعنى إلى .

قوله : « أعطى أهل التوراة ، التوراة » إلى آخره ، شرح وبيان لما تقدم من تقدير مدة بقاء هذه الأمة بالنسبة لبقاء الأمم قبلها .

قوله : « قيراطا قيراطا » كرره ليدل على تقسيم القراريط على العمال ، لأن العرب إذا أرادت تقسيم الشيء على متعدد كررته ، فيقولون : أقسم هذا المال

على بنى فلان درهما درهما ، أى لكل واحد درهم[1] .

قوله : « ثم عجزوا » لا يلزم ما نقله الحافظ ، عن الداودى من الإشكال ، فى أنه إذا كان المراد من مات مسلما فلا يوصف بالعجز ، وإن أريد من مات بعد التبديل والتغيير ، فهو كافر لا يعطى أجرا . وهذا غير لازم ولا مراد ، ولا داعى لتكلف الجواب عليه ، لأن المقصود ضرب المثل لهذه الأمة مع أهل الكتاب مجموع هؤلاء مع أولئك ، ولا يقصد كل فرد بعينه ، وهذا واضح .

قال ابن العربى : « المثل بفتح الميم والثاء : عبارة عن تشابه المعانى المعقولة .

والمثل بكسر الميم وإسكان الثاء : عبارة عن تشابه الأشخاص المحسوسة ويدخل أحدهما على الآخر »[2] .

والقيراط النصيب المقدر ، وهو فى الأصل نصف دانق ، والدانق سدس درهم ، وقد يقصد بالقيراط الشىء الكثير ، كما فى الحديث « من شهد الجنازة ، حتى يصلى عليها ، فله قيراط ، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان ، قيل وما القيراط ؟ قال مثل الجبلين العظيمين »[3] .

قوله : « ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى غروب الشمس » مثل انتهاء الدنيا باليوم الكامل ، فجعل لليهود من أول النهار إلى صلاة الظهر ، وللنصارى من صلاة الظهر إلى العصر ، ولهذه الأمة من صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وهو نهاية الدنيا ، فكان نصيب هذه الأمة من الزمن أقل ونصيبهم من الأجر أكثر وأوفر ، وعندما اعترض أصحاب العمل الأكثر على ذلك قال لهم : هل ظلمتكم من عملكم شيئا ؟ قالوا : لا قال : فذلك فضلى أوتيه من أشاء » .

---

(١) الفتح جـ ٢ ص ٣٩ .
(٢) طرح التثريب جـ ٨ ص ٢٢١ .
(٣) رواه مسلم جـ ٢ ص ٦٥٢ رقم ٩٤٥ والترمذى جـ ٢ ص ٣٥٨ رقم ١٠٤٠ .

وهذا هو المقصود من الحديث ، أن مشيئة الله نافذة ، لا يحكمها عرف أو نظر أو غير ذلك ، بل ما شاء فعله فعله ، وما لم يشأ لا يقع .

وبهذا وأمثاله كثير يتبين ضلال المعتزلة ، ومن سلك طريقهم ، الذين يحكمون على الله بعقولهم القاصرة ، بأنه يجب أن يفعل كذا ، ويمتنع أن يفعل كذا ، كقولهم : يجب أن يعذب العاصى ، ويثيب المطيع بحكم العقل قياسا منهم على المخلوق ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

٩٢ ــ قال : « حدثنا عبد الله المسندى ، حدثنا هشام ، أخبرنى معمر ، عن الزهرى ، عن أبى إدريس ، عن عبادة بن الصامت ، قال : بايعت رسول الله ﷺ فى رهط ، فقال : « أبايعكم على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا ، فأخذ به فى الدنيا فهو كفارة وطهور ، ومن ستره الله فذلك إلى الله إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له » .

عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم ، الأنصارى ، الخزرجى ، أحد النقباء من أعيان البدريين ، وسادة الصحابة وكبارهم ، شهد مع رسول الله ﷺ غزواته كلها ، وكان من حفظة كتاب الله ــ تعالى ــ مات بالرملة سنة أربع وثلاثين ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة رضى الله عنه وعن جميع صحابة رسول الله ﷺ[1] .

المبايعة عبارة عن المعاهدة على فعل شىء أو تركه ، سميت بذلك تشبيها

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء جـ ٢ ص ٥ ، الاستيعاب جـ ٢ ص ٨٠٧ ، أسد الغابة جـ ٣ ص ١٦ ، تهذيب التهذيب جـ ٥ ص ١١١ ، الإصابة جـ ٥ ص ٣٢٢ .

بالمعاوضة المالية ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾[1] .

بدأ بما هو أعظم المحرمات ، وهو الشرك بالله بأن يجعل ما هو لله من العبادة لغيره ، أو شيئا منها ، ولكونه أعظم المحرمات حرمت الجنة على المشرك كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَٰهُ ٱلنَّارُ ﴾[2] ومنع صاحبه المغفرة إلا إذا تاب منه ، لهذا وجب على العبد أن يهتم بمعرفته حتى لا يقع فيه وهو لا يشعر ، كما هو حال كثير من الناس .

وقوله : « شيئا » نكرة فى سياق النهى فيعم جميع أنواع الشرك ، كبيره وصغيرة فعلا كان أو قولا .

والسرقة : هى أخذ مال غيره المحرز ، على وجه الخفية ، والخيانة فيه ، وهى من الجرائم الكبيرة ، فقد نفى الإيمان عن السارق .

وأما الزنا فهو أيضا جريمة شنيعة موجبة لسخط الله تعالى ومقته ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[3] .

وقوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ ﴾ خص قتل الأولاد لأنه أشنع قتل وأعظمه ذنبا ، ولأن بعض العرب كان يستسيغه ، خوفا من العار ، أو الفقر ، ولأن الأولاد ليس لهم من يدافع عنهم إذا كان والدهم هو الذى يقتلهم .

والمقصود جميع أنواع القتل بغير حق ، فإنه من أكبر الكبائر ، وفاعله متوعد بالخلود فى النار ، ولعنة الله وغضبه ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا

---

(١) الفتح جـ ١ ص ١٦ .
(٢) الآية ٧٢ من سورة المائدة .
(٣) الآية ٣٢ من سورة الإسراء .

عَظِيمًا ﴾[1] .

وقوله : « ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم » البهتان : الكذب الذى يبهت سامعه ، لأنه خلاف الواقع .

قال الحافظ : « وخص الأيدى ، والأرجل بالافتراء ، لأن معظم الأفعال تقع بهما ، إذ هى العوامل ، والحوامل للمباشرة والسعى ، ولذلك يسمون الصنائع ، الأيادى .

وقد يعاقب الرجل بجناية قولية ، فيقال : هذا بما كسبت يداك ، ويحتمل أن يكون المراد : لا تبهتوا الناس كفاحا ، وبعضكم يشاهد بعضا »[2] والأول أولى .

قوله : « ولا تعصونى فى معروف » المعروف : ما عرف حسنه . وما جاء به الرسول وأمر به فهو معروف ، وحسن ، والشرع لا يأتى مخالفا للعقل والفطرة .

والرسول ﷺ لا يأمر إلا بالمعروف .

قال النووى : « يحتمل أن يكون المعنى : ولا تعصونى ، ولا أحد ولَى الأمر عليكم فى المعروف ، فيكون التقيد بالمعروف متعلقا بشىء بعده .

وقال غيره : نبه بذلك على أن طاعة المخلوق إنما تجب فيما كان غير معصية لله »[3] ودخل فى قوله : « ولا تعصونى فى معروف » فعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه ﷺ .

---

(١) الآية ٩٣ من سورة النساء .

(٢) الفتح جـ ١ ص ٦٥ .

(٣) الفتح جـ ١ ص ٦٥ .

قوله : « فمن وفى منكم » أى ثبت على العهد الذى أخذ عليه ، ووفى به ، دون وقوع فى مخالفة « وفى » بالتخفيف ، وفى رواية بالتشديد ، وكلاهما بمعنى واحد .

وقوله : « فأجره على الله » أطلق الأجر ، ولم يعينه لتفخيمه ، وجاء فى رواية تعيينه بالجنة ، وهى الغاية التى يتسابق إليها العاملون .

قوله : « ومن أصاب من ذلك شيئا فأخذ به فى الدنيا ، فهو كفارة له وطهور » يعنى إذا وقع فى معصية مما ذكر أنه لا يفعله ، ثم أقيم عليه الحد فى الدنيا ، فإن إقامة الحد عليه تكون كفارة له ، وطهورا يطهره ، وهذا كما قال النووى مخصوص بالشرك ، فإنه لا كفارة له إلا بالتوبة منه .

قال النووى : « فيه تحريم هذه المذكورات ، وما فى معناها ، وفيه الدلالة لمذهب أهل الحق أن المعاصى غير الكفر ، ولا يقطع لصاحبها بالنار ، إذا مات ولم يتب منها ، بل هو بمشيئة الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عذبه ، خلافا للخوارج والمعتزلة ، فإن الخوارج يكفرون بالمعاصى ، والمعتزلة يقولون : لا يكفر ، ولكن يخلد فى النار ، وفيه أن إقامة الحد تكفر »[1] .

قوله : « ومن ستره الله ، فذلك إلى الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له » .

هذا هو محل الشاهد من الحديث ، وهو أن الله يفعل ما يشاء ، لا يحكمه شىء ولا يمنعه عما يريد شىء ، وهو حكيم عليم ، فمن أصاب معصية مما ذكر أو غيره فاستتر ، ولم يؤخذ بها فى الدنيا ثم مات بدون توبة ، فإن أمره إلى الله إن شاء أن يعذبه عذبه ، وإن شاء أن يعفو عنه عفا عنه .

وقد تقدم التنبيه أن هذا فيه رد لمذهب المعتزلة ، مشبهة الأفعال ، نفاة

---

(١) شرح مسلم جـ ١١ ص ٢٢٣ ــ ٢٢٤ .

الصفات ، الذين يحكمون على الله بمثل ما يحكمون به على الناس تعالى الله عن قولهم ، وفيه الرد على إخوانهم فى الضلالة ، الخوارج الذين يكفرون المؤمنين بالمعاصى .

٩٣ ـــ قال : « حدثنا معلى بن أسد ، حدثنا وهيب ، عن أبى أيوب ، عن محمد ، عن أبى هريرة أن نبى الله سليمان ـــ عليه السلام ـــ كان له ستون امرأة ، فقال : لأطوفن الليلة على نسائى فلتحملن كل امرأة ، ولتلدن فارسا يقاتل فى سبيل الله ، فطاف على نسائه ، فما ولدت منهن إلا امرأة ، ولدت شق غلام ـــ قال نبى الله ﷺ : لو كان سليمان استثنى لحملت كل امرأة منهن ، فولدت فارسا يقاتل فى سبيل الله » .

قال فى كتاب الجهاد : « باب من طلب الولد للجهاد » ، ثم ذكر هذا الحديث يعنى أن الذى ينوى عند جماع زوجته حصول الولد لأجل أن يجاهد فى سبيل الله يحصل له بذلك أجر نيته ، وإن لم يولد له ، أو ولد له و لم يجاهد .

قوله : « كان له ستون امرأة » ، جاء فى رواية سبعون ، وفى أخرى : تسعون ، وفى أخرى : تسع وتسعون ، وفى أخرى مائة ، وكلها صحيحة .

قال الحافظ : « يجمع بينها بأن له ستين حرائر ، والزائد سرارى ، أو بالعكس وأما السبعون فللمبالغة ، وأما التسعون ، والمائة فما كان دون المائة وفوق التسعون ، فمن قال : تسعون ألغى الكسر ، ومن قال : مائة جبره »[1] .

قوله : « لأطوفن الليلة على نسائى » يقصد وطأهن ، وقد استدل المصنف

---

(١) الفتح جـ ٦ ص ٤٦٠ .

به على جواز مثل هذا الكلام أمام الناس .

وفيه : ما أعطى سليمان عليه السلام من القوة .

قوله : « فلتحملن كل امرأة ، ولتلدن فارسا يقاتل فى سبيل الله » قال هذا على سبيل التمنى للخير ، وإنما جزم به لأنه غلب عليه الرجاء ، لكونه قصد الخير وأمر الآخرة ، لا عرض الدنيا .

قال بعض السلف : نبه ﷺ فى هذا الحديث على آفة التمنى والإعراض عن التفويض ، ولذلك نُسِّىَ الاستثناء ليمضى فيه القدر »[1] قلت : جاء فى رواية ذكرها البخارى فى الجهاد والأنبياء ، أن سليمان عليه السلام لما قال ذلك قال له صاحبه : قل : إن شاء الله ، وفى أخرى قال له : الملك ، فلم يقل إن شاء الله ، وهذا يدل على أنه لم ينس ، وأنه جزم بذلك لحسن قصده ، وقيام السبب ، فجوزى بعدم حصول المراد ، وهذه الرواية أظهر فى المقصود بهذا الباب ، وجاء فى رواية أخرى : ونسى أن يقول : إن شاء الله فيحمل على أن معنى النسيان : تركه مع علمه ، غير قاصد خروج ذلك عن مشيئة الله تعالى .

قوله : « فما ولدت منهن إلا امرأة ولدت شق غلام » الشق : النصف ، أى أنها جاءت بغلام ناقص ، لا يستطيع أن يعمل شيئا . وهذا يدل على أنه ليس لأحد مهما ملك من الأسباب أن يخرج عن مشيئة الله ـــ تعالى ـــ ، سواء كان نبيا ، أو ملكا ، أو غير ذلك ، فمشيئة الله هى النافذة فى كل شىء ، ومشيئة الخلق مقيدة بها ، لا يعملون شيئا ، ولا يتم لهم إلا بعد أن يشاءه الله تعالى .

قوله : « لو كان سليمان استثنى لحملت كل امرأة منهن ، فولدت فارسا ، يقاتل فى سبيل الله » .

---

(١) المصدر المذكور ص ٤٦١ .

فى رواية : لو قال : « إن شاء الله » فهذا هو الاستثناء المراد هنا .

وفى هذا قدرة الله ــ تعالى ــ على تغيير الواقع إلى ضده ، وما علم تعالى أنه لا يكون ، وما يمتنع صدوره عنه فلعدم إرادته ، لا لعدم قدرته عليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾[1] وقال عز وجل : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[2] ونحو ذلك مما يبين فيه أنه ــ تعالى ــ لو شاء أن يفعل أمورًا لم تكن ، بل كان خلافها لفعل ، فدل ذلك على أنه قادر على ما علم أنه لا يكون .

وإذا قيل : هذا ممتنع ، قيل : امتناعه لعدم مشيئة الرب تعالى له ، لا لكونه ممتنعا فى نفسه ، ولا لكون الله تعالى غير قادر عليه . ووجه الاستدلال بالحديث ظاهر .

٩٤ ــ قال : « حدثنا محمد ، حدثنا عبد الوهاب الثقفى ، حدثنا خالد الحذاء ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ دخل على أعرابى يعوده ، فقال : لا بأس عليك ، طهور إن شاء الله ، قال : قال الأعرابى : طهور ؟ بل هى حمى تَفُورُ ، على شيخ كبير ، تُزِيرُه القبور ، قال النبى ﷺ : نعم إذًا » .

كان رسول الله ﷺ يعود المريض ، ويتفقد أحوال المؤمنين ، وهذا الأعرابى يجوز أنه مهاجر إلى المدينة فمرض ، أو أنه جاء لحاجة .

والأعرابى : ساكن البرارى ، وأما العربى فهو أعم منه لأنه من ينتسب إلى العرب أو من يتكلم العربية .

---

(١) الآية ١٣ من سورة السجدة .

(٢) الآية ١١٨ من سورة هود .

قوله : « لا بأس عليك ، طهور إن شاء الله » أى أن المرض يزول ، ويكون ذلك مكفرا لخطاياك ، أو أنه لا بأس عليك فى مستقبلك ، لأن المرض يطهرك من ذنوبك ، فإن حصلت العافية اكتسب فائدتين ، وإلا حصل له التكفير ، وهذا دعاء خرج مخرج الخبر ، ولهذا علقه بالمشيئة لأنه أمر مستقبل ، وكل ما يأتى يقيد بمشيئة الله ــ تعالى ــ أما ما وقع فقد علم أن الله شاءه .

وقول الأعرابى : طهور ؟! ، كأنه رد لقول رسول الله ﷺ واستبعاد له ، ولهذا قال : « بل هى حمى تفور » أى تغلى فى جسمه « على شيخ كبير » والشيخ الكبير يكون ضعيفا لا يتحمل ما يتحمله الشاب القوى « تزيره القبور » أى يموت منها ويذهب به إلى المقبرة .

فلما رد ما قاله رسول الله ﷺ ولم يقبله ، واختار ما ذكره هو ، قال النبى ﷺ « فنعم إذًا » أى إذا لم تقبل ما قلت لك ، فالأمر كما تقول أنت .

قال الحافظ : « روى الطبرانى أن الأعرابى أصبح ميتا ، وأن النبى ﷺ قال : « أما إذا أبيت فهى كما تقول ، قضاء الله كائن ، فما أمسى من الغد إلا ميتا »[1] .

والمقصود من الحديث قوله : « لا بأس عليك ، طهور إن شاء الله » وقد جاءت النصوص بأن المصائب كفارات للذنوب ، كما جاء ترتيب الجزاء على أعمال معينة ، فكل ذلك يكون مقيدا بمشيئة الله تعالى ، فعلى العبد أن يضرع إلى الله تعالى بذل وافتقار ، ويسأله من فضله أن يهديه لما يرضيه .

والأمور كلها بيده ــ تعالى ــ يتصرف فيها كيف يشاء ، والخلق عبيده ، وفقراء إليه ، ولا يظلم ربك أحدًا .

---

(١) الفتح جـ ٦ ص ٦٢٥ .

٩٥ ــ قال : « حدثنا ابن سلام ، أخبرنا هشيم ، عن حصين ، عن عبد الله بن أبي قتادة ، عن أبيه ، حين ناموا عن الصلاة ، قال النبي ﷺ : « إن الله قبض أرواحكم حين شاء ، وردها حين شاء ، فقضوا حوائجهم ، وتوضأوا إلى أن طلعت الشمس وابيضت ، فقام فصلى » .

هذا الحديث مختصر ، وقد ذكره في مواقيت الصلاة : باب الأذان بعد ذهاب الوقت ، وقد اختلف في أي مسير كان ذلك .

قال الحافظ : « جزم بعض الشراح بأنه في رجوعه من خيبر ، معتمدًا على ما وقع عند مسلم ، وفيه نظر لما بينه في باب الصعيد الطيب »[1] .

وقال « في باب الصعيد الطيب » اختلف في تعيين هذا السفر ، ففي مسلم أنه وقع في رجوعهم من خيبر قريب من هذه القصة .

وفي أبي داود : « أقبل النبي ﷺ من الحديبية ليلا ، فنزل ، فقال : « من يكلؤنا ؟ فقال بلال : أنا » الحديث[2] .

وفي الموطأ عن زيد بن أسلم مرسلا : « عَرَّسَ رسول الله ﷺ ليلة بطريق مكة ، ووكل بلالا » الحديث[3] .

وفي مصنف عبد الرزاق مرسلا أن ذلك بطريق تبوك ، وفي الدلائل للبيهقي نحوه[4] ، وذكر أشياء غير ذلك ومال إلى تعدد القصة كعادته في مثل هذا .

---

(١) الفتح جـ ٢ ص ٦٧ .
(٢) السنن جـ ١ ص ٣١٠ .
(٣) الموطأ جـ ١ ص ١٤ .
(٤) الفتح جـ ١ ص ٤٨٨ .

ولم أجد فى مصنف عبد الرزاق تعيين السفر ، فإنه قال : « أخبرنى عطاء أن النبى ﷺ بينا هو فى بعض أسفاره » فذكره[1] .

وكذلك ما فى الدلائل ليس فيه ذكر تبوك ، وإنما ذكر ما فى الموطأ ، وسنن أبى داود ، ومسلم . والصحيح أن ذلك فى مرجعه من خيبر ، كما قال عبد الرزاق : عن معمر ، عن الزهرى ، عن ابن المسيب ، قال : « لما قفل رسول الله ﷺ من خيبر ، أسرى ليلة ، حتى إذا كان آخر الليل عدل عن الطريق ، ثم عَرَّسَ ، وقال : من يحفظ علينا الصلاة ؟ فقال بلال : أنا » وذكر الحديث[2] وهذا مرسل .

ورواه أبو داود موصولا ، عن سعيد ، عن أبى هريرة[3] .

ورواه مسلم فى صحيحه مطولا[4] .

قوله : « وإن الله قبض أرواحكم حين شاء ، وردها حين شاء » أى إن الله تعالى له ملك كل شيء ، فروح الإنسان التى بها حياته وتصرفه ، هى بيد الله إذا شاء قبضها قبضها من بدنها ، وأصبح الإنسان ميتا لايستطيع أى عمل ، وإذا شاء ردها إلى بدنها فاستطاع العمل والتصرف ، وكذلك الإنسان لا يستطيع أن ينام متى شاء ، ويستيقظ متى شاء إلا بمشيئة الله تعالى ، قال عز وجل : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[5] .

---

(١) انظر المصنف جـ ١ ص ٥٨٨ .
(٢) المصنف جـ ١ ص ٥٨٧ .
(٣) انظر السنن جـ ١ ص ٣٠٢ .
(٤) انظر مسلم جـ ١ ص ٤٧١ رقم ٦٨٠ .
(٥) الآية ٤٢ من سورة الزمر .

قوله : « فقضوا حوائجهم ، وتوضأوا إلى أن طلعت الشمس وابيضت فقام فصلى » يعنى أنهم حين استيقظوا مع طلوع الشمس لم يستعجلوا بأداء الصلاة ، بل قضوا حوائجهم مما يحتاجه عادة من يقوم من النوم من بول ونحوه ، وتوضأوا ثم انتظروا حتى ابيضت الشمس ، ومعنى ابيضاضها ارتفاعها عن الأفق ، ثم قام وصلى بهم ، فهذا وقت صلاتهم ، لأن النائم وقت صلاته إذا استيقظ ، وكذلك الناسى والله أعلم .

٩٦ ــ قال : « حدثنا يحيى بن قزعة ، حدثنا إبراهيم ، عن ابن شهاب ، عن أبى سلمة والأعرج .

وحدثنا إسماعيل ، حدثنى أخى ، عن سليمان ، عن محمد بن أبى عتيق ، عن ابن شهاب ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، وسعيد بن المسيب ، أن أبا هريرة قال : « استب رجل من المسلمين ، ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذى اصطفى محمدا على العالمين ، فى قسم يقسم به ، فقال اليهودى : والذى اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم اليهودى ، فذهب اليهودى إلى رسول الله ﷺ فأخبره بالذى كان من أمره ، وأمر المسلم ، فقال النبى ﷺ : « لا تخيرونى على موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلى ، أو كان ممن استثنى الله » .

قال الحافظ : « المسلم هو أبو بكر الصديق ، جاء مصرحا به فيما أخرجه سفيان بن عيينة فى جامعه ، وابن أبى الدنيا فى كتاب البعث من طريقه ، عن عمرو ابن دينار ، قال : هو أبو بكر الصديق »[1] .

---

(١) انظر الفتح جـ ٦ ص ٤٥٠ .

ولكن يعارض ذلك ما فى الأنبياء فى هذا الحديث : « قال اليهودى لا والذى اصطفى موسى على البشر ، فسمعه رجل من الأنصار فقام فلطم وجهه »[1] .

قوله : « استب » استب : افتعل ، من السب أى كل واحد منهما سب الآخر وهو الشتم وذكر العيوب والمثالب ، أو الدعاء عليه .

وسبب ذلك قول اليهودى حينما كان يعرض سلعته ، فأعطى فيها ما لا يرضى فقال : لا والذى اصطفى موسى على البشر ، فغضب المسلم ولطمه ، لأنه فهم من كلامه تفضيل موسى على نبينا محمد ﷺ لأنه متقرر عند المسلمين أن محمدا أفضل البشر على الإطلاق .

وجاء فى رواية أبى سعيد أن المسلم لما دعاه النبى ﷺ وقال له : « أضربته ؟ » قال : سمعته بالسوق يحلف : والذى اصطفى موسى على البشر ، قلت : أى خبيث على محمد ﷺ فأخذتنى غضبة ضربت وجهه »[2] .

وفهم المسلم أن اليهودى بحلفه ذلك يتنقص محمدا ﷺ فلهذا غضب ، ولطمه ، ولما ذكر قول اليهودى للنبى ﷺ لم يعاقبه ، بل نهى عن تفضيل بعض النبيين على بعض ، فى مثل هذا المقام الذى يكون فيه الغضب والسب ، لأن ذلك مدعاة إلى هضم حق بعضهم ، أو التنقص لهم ، أو الافتخار وذلك من الكفر .

وأما ذكر الواقع للعلم به ، واعتقاده فلا يدخل فى النهى ، وقد قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ

---

(١) انظر المصدر نفسه .

(٢) الفتح جـ ٥ ص ٧٠ .

(٣) الآية ٢٥٣ من سورة البقرة .

فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[1] .

وصح عن النبى ﷺ أنه قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة »[2] .

قال البيهقى عن الخطابى : معنى النهى عن التخيير بين الأنبياء ترك التخيير بينهم على وجه الإزراء ببعضهم ، فإنه ربما أدى ذلك إلى فساد الاعتقاد فيهم والإخلال بالواجب من حقوقهم والإيمان بهم .

وليس معناه أن يعتقد التسوية بينهم فى درجاتهم ، فإن الله — عز وجل — قد أخبر أنه فاضل بينهم فقال : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ .

وقوله : « أنا سيد ولد آدم » إنما هو إخبار عما أكرمه الله به من الفضل ، والسؤدد ، وتحدث بنعمة الله تعالى عليه ، وإعلام لأمته بعلو مكانه عند ربه ، ليكون إيمانهم بنبوته واعتقادهم لطاعته على حسب ذلك ، وبيان هذا لأمته من اللازم له ، والمفروض عليه »[3] .

قوله : « لا تخيرونى على موسى » أى لا تقولوا أنا خير من موسى ، وجاء النهى عن التخيير بين الأنبياء عامة ، وهذا خاص بموسى ، لأن المقام يقتضى ذلك لأجل ما وقع بين اليهودى والمسلم ، وسبق وجه النهى ثم ذكر ما يقتضى تفضيل موسى فى كونه يجده باطشا بجانب العرش ، فيكون قد أفاق قبله أو لم يصبه الصعق كما سبق بيانه والمقصود هنا قوله : « أو كان ممن استثنى الله ، أى فى قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[4] ففى هذه الآية أن الخلق لا ينجو أحد منهم

---

(١) الآية ٥٥ من سورة الإسراء .

(٢) رواه مسلم جـ ٤ ص ١٧٨٢ رقم ٢٢٧٨ .

(٣) دلائل النبوة جـ ٥ ص ٤٩٥ — ٤٩٦ .

(٤) الآية ٦٨ من سورة الزمر .

من صعق نفخة الصور ، إلا من يشاء الله ، فدل على أن مشيئة الله عامة شاملة لكل شيء ، فلا يخرج عنها ما يعم الخلق كنفخ الصور ، ولا ما يخص بعضهم ، ومن أجل ذلك ـــ والله أعلم ـــ جاء قوله فى أهل الجنة وأهل النار : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾[1] فما شاء الله كان كما يشاء ، وما لم يشأ لم يكن .

واختلف فى الذين استثناهم الله تعالى من صعقة الصور .

قال ابن جرير : « قال بعضهم : عنى به جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت ، ثم روى ذلك عن السدى ، وروى فيه حديثا مرفوعا بسند فيه يزيد الرقاشى ، وهو ضعيف ، عن أنس أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ الآية فقيل له : من هؤلاء الذين استثنى الله يا رسول الله ؟ قال : جبريل وميكائيل وملك الموت » وذكره بطوله ، ثم قال :

« وقال آخرون : عنى بذلك، الشهداء ، وروى ذلك عن سعيد بن جبير .

واختار أن المستثنى من الفزع الشهداء ، ومن الصعق جبريل وملك الموت ، وحملة العرش ، واستدل لذلك بحديث الصور ،وهو ضعيف .وبأن الصعق فى هذا الموضع ، الموت ، والشهداء قد ماتوا فلا يذوقون الموت مرة أخرى ، وذكر أن بعض السلف توقف فيه »[2] .

وقال ابن كثير : « قال أبو يعلى : حدثنا يحيى بن معين ، حدثنا أبو اليمان ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن عمر بن محمد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : سألت جبريل عن هذه الآية ﴿ وَنُفِخَ

(١) الآية ١٠٧ من سورة هود .
(٢) انظر تفسير ابن جرير جـ ٢٤ ص ٢٩ ـــ ٣٠ .

فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ ٱللَّهُ ﴾ من الذين لم يشأ الله أن يصعقوا ؟ قال : هم الشهداء ، مقلدون أسيافهم حول عرشه ، تتلقاهم الملائكة يوم القيامة إلى المحشر بنجائب من ياقوت ، نمارها ألين من الحرير ، مد خطاها مد أبصار الرجال ، يسيرون فى الجنة ، يقولون عند طول النزهة : انطلقوا بنا إلى ربنا — عز وجل — لننظر كيف يقضى بين خلقه ، يضحك إليهم إلهى ، وإذا ضحك إلى عبد فى موطن ، فلا حساب عليه » قال ابن كثير : رجاله كلهم ثقات إلا شيخ إسماعيل بن عياش فهو غير معروف »[1] .

٩٧ — قال : « حدثنا إسحاق بن أبى عيسى ، أخبرنا يزيد بن هارون ، أخبرنا شعبة ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « المدينة يأتيها الدجال فيجد الملائكة يحرسونها ، فلا يقربها الدجال ، ولا الطاعون إن شاء الله » .

تقدم وجه تسمية الدجال .

قال الحافظ : « ومما يحتاج إليه فى أمر الدجال ، أصله ، وهل هو ابن صياد ، أو غيره ؟ وإذا كان غيره فهل كان موجودا فى عهد النبى ﷺ أو لا ؟ وما الذى يدعيه ؟ وما الذى يظهر عند خروجه ؟ ومتى يخرج ؟ وما سبب خروجه ؟ ومن أين يخرج ؟ وما صفته ؟ وما هى الخوارق التى تظهر على يديه ، حتى يكثر أتباعه ؟ ومتى يهلك ؟ ومن يقتله ؟ »[2] .

وقد تبين أنه ليس ابن صياد ، لأن ابن صياد قد مات فى المدينة ، وقد دخل مكة وولد له ، والدجال لا يولد له ، ولا يدخل مكة ولا المدينة ، ويقتله

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٠٨ .
(٢) انظر فتح البارى جـ ١٣ ص ٩١ .

عيسى بن مريم عليه السلام ، ويكون رئيسا لليهود ، وله خوارق عظيمة ، وفتنة هائلة ، ولم يحصل لابن صياد من ذلك شيء .

وحديث الجساسة في صحيح مسلم يدل على ذلك ، وليس الأمر فيه مشكلا كما قاله النووي ـــ رحمه الله ـــ لأن ابن صياد أول الدجاجلة الذين يتقدمون الدجال الأكبر وأما كونه موجودا في زمن النبي ﷺ فخبر تميم الداري في قصة الجساسة يدل على وجوده .

وأما سبب خروجه ، فجاء في صحيح مسلم ما يدل على أن سبب خروجه غضبة يغضبها ، وسأذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

وخروجه في آخر الزمان إذ خروجه من علامات الساعة الكبار .

وهو خارج من المشرق ، كما سيأتي .

وأما صفته فقد أوضحها رسول الله ﷺ ، وقد تقدم أنه أعور العين اليمنى ، وأنه مكتوب بين عينيه كافر .

وإذا خرج ادعى أنه مصلح ، ويريد القضاء على الفساد ، كما هي عادة كل دجال وطاغوت من طواغيت العالم ودجاجلته الموجودين اليوم وقبله ، ثم يدعي الولاية ، ثم يدعي النبوة ، ثم يدعي أنه رب الخلق المتصرف فيهم .

قال الحافظ : « وأخرج الطبراني من طريق سليمان بن شهاب ، قال : نزل عليَّ عبدُ الله بن المعتمر وكان صحابيا ، فحدثني عن النبي ﷺ أنه قال : « الدجال ليس به خفاء ، يجيء من قبل المشرق ، فيدعو إلى الدين ، فيتبع ، ويظهر فلا يزال حتى يقدم الكوفة ، فيظهر الدين ويعمل به ، فيتبع ويحث على ذلك ، ثم يدعي أنه نبي ، فيفزع من ذلك كل ذي لب ويفارقه ، فيمكث بعد ذلك ، فيقول : أنا الله ، فتغشى عينه ، وتقطع أذنه ، ويكتب بين عينيه كافر ، فلا يخفى على كل مسلم ، فيفارقه كل أحد من الخلق في قلبه مثقال حبة من خردل

من إيمان » قال : « وسنده ضعيف »[1] .

وأما ما ثبت فى الصحيحين ، عن محمد بن المنكدر قال : رأيت جابر بن عبد الله يحلف بالله أن ابن صياد الدجال ، قلت : تحلف بالله ؟ قال : إنى سمعت عمر يحلف على ذلك عند النبى ﷺ فلم ينكره النبى ﷺ[2] .

وفى صحيح مسلم عن ابن عمر قال : لقيته مرتين ، قال : فلقيته فقلت لبعضهم : هل تحدثون أنه هو ؟ قال : لا والله ، قال : قلت : كذبتنى ، والله لقد أخبرنى بعضكم أنه لن يموت حتى يكون أكثركم مالا وولدا ، فكذلك هو ـــ زعموا ـــ اليوم ، قال فتحدثنا ، ثم فارقته ، قال : فلقيته لقية أخرى ، وقد نفرت عينه ، قال : فقلت : متى فعلت عينك ما أرى ؟ قال : لا أدرى ، قال : قلت : لا تدرى وهى فى رأسك ؟ قال : إن شاء الله خلقها فى عصاك هذه ، فنخر كأشد نخير حمار سمعت . قال : فزعم بعض أصحابى أنى ضربته بعصا كانت معى حتى تكسرت ، وأما أنا فوالله ما شعرت .

قال : وجاء حتى دخل على أم المؤمنين ، فحدثها ، فقالت : ما تريد إليه ؟ ألم تعلم أنه قد قال : إن أول ما يبعثه على الناس غضب يغضبه »[3] .

قال النووى : « قال العلماء : قصته مشكلة ، وأمره مشتبه فى أنه هو الدجال المشهور ، أو غيره ، ولا شك فى أنه دجال من الدجاجلة .

وظاهر الأحاديث أن النبى ﷺ لم يُوحَ إليه بأنه الدجال ، ولا غيره وإنما أوحى إليه بصفات الدجال ، وكان فى ابن صياد قرائن محتملة ، فلذلك كان النبى ﷺ لا يقطع بأنه الدجال ، ولا غيره »[4] .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٩١ .
(٢) البخارى جـ ٩ ص ٨٨ ومسلم جـ ٤ ص ٢٢٤٣ رقم ٢٩٢٩ .
(٣) مسلم جـ ٤ ص ٢٢٤٦ .
(٤) شرح النووى جـ ١٨ ص ٤٦

قلت : ابن صياد فيه كلام كثير للعلماء ، وفيه أحاديث بعضها فى مسلم .

وليس هو الدجال المشهور ، وإنما هو من جملة الدجالين كما سبق ، والله أعلم .

قوله : « المدينة يأتيها الدجال فيجد الملائكة يحرسونها ، فلا يقربها الدجال » .

قد أثبت إتيانه إليها ، ولكن لا يستطيع دخولها ، لأن الملائكة تصده عنها وذلك لأن سلطان المسلمين قد ضعف عن مقاومة الكفر وأهله ، فلهذا جعل الله تعالى الملائكة هى التى تصد الدجال عن مدينة رسوله وعن مكة .

وفى مسند الإمام أحمد عن محجن بن الأدرع أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال : « يوم الخلاص ، وما يوم الخلاص ، يوم الخلاص وما يوم الخلاص ثلاثا » ، فقيل له : وما يوم الخلاص ؟ قال : « يجىء الدجال ، فيصعد أحدا ، فينظر المدينة فيقول لأصحابه : أترون هذا القصر الأبيض ؟ هذا مسجد أحمد ، ثم يأتى المدينة فيجد بكل نقب منها ملكا مصلتا ، فيأتى سبخة الجرف ، فيضرب رواقه ، ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات ، فلا يبقى منافق ، ولا منافقة ، ولا فاسق ولا فاسقة إلا خرج إليه ، فذلك يوم الخلاص »[1] .

قوله : « ولا الطاعون إن شاء الله » الطاعون من الطعن والوخز ، وهو الوباء ، وهذا من تكريم الله تعالى لرسوله حيث منع الوباء من مدينته ، وجاء فى بعض الرويات أن مكة كذلك لا يدخلها الطاعون .

والشاهد قوله : « إن شاء الله » يعنى أن ذلك معلق بمشيئة الله ، فلو شاء لم يحصل المنع .

---

(١) انظر المسند جـ ٤ ص ٣٣٨ وجـ ٥ ص ٣١ .

وذكر البخارى هذا الحديث فى فضائل المدينة بأبسط مما هاهنا ، ولفظه :

« ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها ، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج الله كل كافر ومنافق »[1] .

قال الحافظ : « هذا الخبر على ظاهره وعمومه عند الجمهور ، وشذ ابن حزم فقال : لا يدخل وجنوده ، وكأنه استبعد إمكان دخول الدجال جميع البلاد لقصر مدته ، وغفل عما فى صحيح مسلم أن بعض أيامه كسنة »[2] .

وقوله : ثم ترجف المدينة ، أى يحصل لها زلزلة بعد أخرى حتى يخرج منها من ليس مؤمنا ويبقى المؤمنون الصادقون ، فلا يسلط عليهم ولا ينالهم شره وفتنته .

ولا يعارض هذا ما فى حديث أبى بكرة : « لا يدخل المدينة رعب الدجال » لأن المراد برعبه ما يحدث من الفزع من فعله وعتوه ، لا الرجفة التى تقع لإخراج المنافقين والكافرين ، وحمل بعض العلماء حديث « إنها تنفى الخبث » على هذا ، والصحيح أنه خاص بناس ، وبزمان ، فلا مانع أن يكون هذا الزمان هو المراد ، ولا يلزم من كونه مرادًا ، نفى غيره »[3] .

٩٨ ــ قال : « حدثنا أبواليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى ، حدثنى أبو سلمة بن عبد الرحمن ، أن أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل نبى دعوة ، فأريد ــ إن شاء الله ــ أن أختبىء دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة » .

---

(١) انظر الفتح جـ ٤ ص ٩٥ .
(٢) المصدر المذكور ص ٩٦ .
(٣) المصدر المذكور ص ٩٦ .

أى لكل نبى من أنبياء الله دعوة مستجابة ، كدعوة نوح ــ عليه السلام ــ على قومه بقوله : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[1] فاستجاب الله دعوته فأغرق أهل الأرض عموما ، وكدعوة صالح ، وشعيب ولوط ، وغيرهم مما ذكره الله ــ تعالى ــ فى كتابه .

والصحيح أن لكل نبى دعوة عامة مستجابة فى أمته ، وأما الدعوات غير العامة فكثيرة ، منها ما يستجاب ، ومنها ما لا يستجاب .

قال النووى : « معناه أن لكل نبى دعوة متيقنة الإجابة ، وهو على يقين من إجابتها ، وأما باقى دعواتهم ، فهم على طمع من إجابتها ، وبعضها يجاب وبعضها لا يجاب »[2] .

قوله : « فأريد إن شاء الله أن أختبىء دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة » .

هذا من رحمة الله ــ تعالى ــ بهذه الأمة حيث ألهم رسوله ﷺ أن يجعل دعوته العامة المستجابة فى أمته ، شفاعة له فيهم .

وقد بين أنها للموحدين ، فلا نصيب لمشرك فى هذه الدعوة العامة ، كما فى رواية مسلم « فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئا »[3] .

قال النووى : « فى هذا الحديث كمال شفقة النبى ﷺ على أمته ورأفته بهم ، واعتناؤه بالنظر فى مصالحهم المهمة ، فأخر ﷺ دعوته لأمته إلى أهم أوقات حاجاتهم »[4] .

---

(١) الآية ٢٦ من سورة نوح عليه السلام .
(٢) شرح مسلم جـ ٣ ص ٧٥ .
(٣) انظر مسلم جـ ١ ص ١٨٩ رقم ١٩٩ .
(٤) المصدر المذكور جـ ٣ ص ٧٦ .

وقال فى قوله : « إن شاء الله ــ تعالى ــ هو على جهة التبرك والامتثال لقوله : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ ﴾[1] .

قلت : ليس كما قال ــ رحمه الله ــ إن التعليق للتبرك وامتثال الأمر ، ولكنه تعليق حقيقة إذ لو شاء الله لم يقع ذلك ، غير أنه تعالى شاء وقوعه فأخبر به على لسان رسوله ﷺ وخبره حق ، والمقصود أن كل شىء بمشيئة الله .

٩٩ ــ قال : « حدثنا بسرة بن صفوان بن جميل اللخمى ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا أنا نائم رأيتنى على قليب فنزعت ما شاء الله أن أنزع ، ثم أخذها ابن أبى قحافة ، فنزع ذنوبا أو ذنوبين ، وفى نزعه ضعف والله يغفر له ، ثم أخذها عمر ، فاستحالت غربا ، فلم أر عبقريا من الناس يَفْرِى فَرِيَّه ، حتى ضرب الناس حوله بعطن » .

هذه رؤيا منام ، ورؤيا الأنبياء نوع من أنواع الوحى ، كما فى حديث عائشة : « إن أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة » .

والرؤيا : هى ما يراه الإنسان فى نومه .

قوله : « بينا » هى بين الظرفية الزمانية ، والألف للإشباع .

« رأيتنى على قليب » أى رأيت نفسى على قليب ، وهى البئر المحفورة لاستخراج الماء منها ، وقال النووى : « هى البئر غير المطوية »[2] .

---

(١) المصدر السابق . والآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الكهف .

(٢) شرح مسلم جـ ١٥ ص ١٥٩ .

قوله : « فنزعت ما شاء الله أن أنزع » النزع هو استخراج الماء من البئر بالدلو ، وهذا محل الشاهد من الحديث حيث أسند كمية النزع إلى مشيئة الله تعالى ، وقد سبق أن مشيئة الله عامة لا يخرج عنها شيء ، والإنسان وإن كان له مشيئة ، فهى داخلة تحت مشيئة الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ ﴾[1] .

قوله : « ثم أخذها ابن أبى قحافة » أبو قحافة هو عثمان بن عامر بن عمرو ابن كعب بن سعد بن تيم ، والد أبى بكر الصديق رضى الله عنهما .

« فنزع ذنوبا أو ذنوبين » الذنوب الدلو المملوء ماء .

« وفى نزعه ضعف والله يغفر له » فى رواية مسلم « وفى نزعه والله يغفر له ضعف »[2] .

وفى رواية له : « بينا أنا نائم أريت أن أنزع على حوضى أسقى الناس ، فجاء أبو بكر ، فأخذ الدلو من يدى ليريحنى ، فنزع دلوين ، وفى نزعه ضعف ، والله يغفر له ، فجاء ابن الخطاب ، فأخذ منه ، فلم أر نزع رجل قط أقوى منه حتى تولى الناس والحوض ملآن ينفجر » وهذا يفسر الرواية المذكورة هنا .

والضعف المذكور إشارة إلى قلة المال من المغانم ونحوها فى وقته بالنسبة إلى زمن النبى ﷺ وزمن عمر ، وذلك لما حصل من انتكاسة الناس وارتداد أكثر العرب عن الإسلام ، فانشغل فى قتالهم ، وإدخالهم فى الإسلام مرة أخرى ، وهذا العمل أفضل مما حصل فى وقت عمر ومن بعده من الخلفاء ، من الفتوح .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الإنسان و ٢٩ من سورة التكوير .
(٢) انظر مسلم جـ ٤ ص ١٨٦٠ .

وقوله : « والله يغفر له » إشارة إلى أن ما يقع فى الأمة من صدود عن الله أو انحراف فإن الإمام قد يكون مسئولا عن ذلك ، إذ هو القائد الذى يجب أن يقودهم إلى الصلاح والخير ، ويحملهم على طاعة الله وطاعة رسوله ، ولذلك أخبر أن هذه المسئولية مغفورة لأبى بكر ، لأنه بذل جهده فى ردهم إلى الإسلام حتى استقاموا على الحق ، والعلم عند الله .

قوله : « ثم أخذها عمر ، فاستحالت غربا » أى الدلو تحولت إلى غرب ، والغرب بفتح الغين المنقوطة وإسكان الراء هى الدلو العظيمة المتخذة من جلود الإبل أو البقر ، والمعنى أن الدلو التى كنت أنزع بها وأخذها منى أبو بكر ، لما أخذها عمر بعد أبى بكر صارت غربا كبيرا يتسع لماء كثير .

« فلم أر عبقريا من الناس يفرى فريَّه » العبقرى : الكامل من كل شيء .

قال فى القاموس : العبقرى : الكامل من كل شيء ، والسيد من الرجال ، قال الأصمعى : سألت أبا عمرو ابن العلاء ، عن العبقرى ؟ فقال : يقال هذا عبقرى قوم ، كقولك هذا سيد قوم ، وكبيرهم ، وشديدهم ، وقويهم ونحو ذلك .

وقيل العبقرى : الذى ليس فوقه شيء ـــ يعنى من جنسه .

قال أبو عبيد : وأصل هذا فيما يقال أنه نسب إلى « عبقر » وهى أرض يسكنها الجن ، فصارت مثلا لكل منسوب إلى شيء رفيع »[1] .

وقال الراغب : « عبقر : قيل : هو موضع للجن ، ينسب إليه كل نادر من إنسان ، وحيوان ، وثوب ، ولهذا قيل فى عمر : لم أر عبقريا مثله ، ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ هو ضرب من الفرش فيما قيل جعله الله تعالى مثلا

---

(١) تاج العروس جـ ١٢ ص ٥١٤ .

لفرش الجنة »[1] .

« يفرى فريه » بفتح الياء وإسكان الفاء وكسر الراء وفتح الفاء الثانية وكسر الراء وفتح الياء المشددة ، قال ابن الأثير : « أى يعمل عمله ، ويقطع قطعه ، ويروى « يفرى فَرْيَهُ » بسكون الراء الثانية والتخفيف ، وحكى عن الخليل أنه أنكر التثقيل ، وغلط قائله .

وأصل الفرى : القطع ، يقال : فريت الشيء أفريه فريا ، إذا شققته وقطعته للإصلاح ، فهو مفرى »[2] .

وقال النووى : « أما يفرى ، فبفتح الياء ، وإسكان الفاء ، وكسر الراء ، وأما فريه فروى بوجهين ، أحدهما : فريه بإسكان الراء وتخفيف الياء ، والثانية بكسر الراء وتشديد الياء ، وهما لغتان صحيحتان ، وأنكر الخليل التشديد ، وقال : هو غلط واتفقوا على أن معناه : لم أر سيدا يعمل عمله ، ويقطع قطعه ، ثم ذكر ما ذكره ابن الأثير »[3] .

والمعنى : فلم أر رجلا كاملا ، قويا يستخرج الدلاء من البئر مثله ، حتى كثر الماء وشرب الناس ، وجلسوا حول الحوض الذى يصب فيه الماء لا حاجة لهم فيه ، وهذا معنى قوله : « حتى ضرب الناس حوله بعطن » كما فى رواية مسلم .

« فلم أر نزع رجل قط أقوى منه ، حتى تولى الناس ، والحوض ملآن ينفجر »[4] .

---

(١) المفردات ص ٣٢٠ .
(٢) النهاية جـ ٣ ص ٤٤٢ وانظر الفتح جـ ٧ ص ٤٦ ومشارق الأنوار جـ ٢ ص ٦٤ .
(٣) شرح مسلم جـ ١٥ ص ١٦٢ .
(٤) تقدم تخريجه .

قال النووى : « قال القاضى عياض : ظاهره أنه عائد إلى خلافة عمر خاصة ، وقيل : يعود إلى خلافة أبى بكر وعمر جميعا ، لأن ذلك تم بنظرهما ، وتدبيرهما ، وقيامهما بمصالح المسلمين ، وضرب الناس بعطن ، لأن أبا بكر قمع أهل الردة وجمع شمل المسلمين ، وألف بينهم ، وابتدأ الفتوح ، ومهد الأمور ، وتمت ثمرات ذلك وتكاملت فى زمن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنهما »[1] .

وقال أيضا : « قال العلماء : هذا المنام مثال واضح لما جرى لأبى بكر وعمر ــ رضى الله عنهما ــ فى خلافتهما ، وحسن سيرتهما ، وظهور آثارهما ، وانتفاع الناس بهما ، وكل ذلك مأخوذ من النبى ﷺ ، ومن بركته ، وآثار صحبته ، فكان النبى ﷺ هو صاحب الأمر فقام به أكمل قيام ، وقرر قواعد الإسلام ، ومهد أموره وأوضح أصوله وفروعه ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وأنزل الله تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ ، ثم توفى ﷺ فخلفه أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ سنتين وأشهرًا ، وهو المراد بقوله : « ذنوبا أو ذنوبين » وهذا شك من الراوى ، بل هما ذنوبان ، كما صرح به فى الرواية الأخرى .

وحصل فى خلافته قتال أهل الردة ، وقطع دابرهم ، واتساع الإسلام وعودة قوة المسلمين وهيبتهم .

ثم توفى فخلفه عمر ــ رضى الله عنه ــ فاتسع الإسلام فى زمنه ، وتقرر لهم من أحكامه ما لم يقع مثله ، فعبر بالقليب عن أمر المسلمين لما فيها من الماء ، الذى به حياتهم وصلاحهم ، وشبه أميرهم بالمستقى لهم ، وسقيه هو قيامه بمصالحهم وتدبير أمورهم .

وأما قوله ﷺ فى أبى بكر ــ رضى الله عنه ــ : « وفى نزعه ضعف » .

---

(١) شرح مسلم جـ ١٥ ص ١٦٢ .

فليس فيه حط من فضيلته ، ولا إثبات لفضل عمر عليه ، وإنما هو إخبار عن مدة ولايتهما ، وكثرة انتفاع الناس فى ولاية عمر لطولها ، ولاتساع الإسلام وبلاده وكثرة الأموال ، وغيرها من الغنائم والفتوح ، وتمصير الأمصار ، وتدوين الدواوين .

وأما قوله : « والله يغفر له » فليس فيه تنقيص له ، ولا إشارة إلى ذنب ، وإنما هى كلمة كان المسلمون يقولونها — افعل كذا والله يغفر لك .

قال العلماء : وفى كل هذا إعلام بخلافة أبى بكر وعمر ، وصحة ولايتهما ، وبيان صفتها ، وانتفاع المسلمين بها »[1] .

أما ما ذكره من أنه إعلام بصحة ولايتهما ، فهو أمر متفق عليه عند أتباع رسول الله ﷺ الذين آمنوا به ، ولم يخالف فيه إلا الذين دخلوا الإسلام تسترا لأجل هدمه ومحاربته أمثال الرافضة والإسماعيلية والنصيرية وهم ليسوا من المسلمين فى شىء ، ومن نظر فى كتبهم تيقن أنهم من أبعد الناس عن الإسلام .

وأما ما ذكر من أن قوة نزع عمر لطول مدته ، وضعف نزع أبى بكر لقصر مدته فهو خلاف ظاهر الحديث ، وإنما قوة نزع عمر كناية عن قوته فى الحق وصلابته وقوة عزيمته ، وضعف نزع أبى بكر كناية عن لينه ورقته ، ولا يلزم من ذلك أن عمر أفضل من أبى بكر إذا فضله فى خصلة من الخصال .

وأما المدة ، فعبر عنها بالدلاء ، فأبو بكر لم ينزع إلا ذنوبين ، بينما عمر نزع حتى روى الناس ، وتركوا الحوض ملآن .

١٠٠ — قال : « حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا أبو أسامة ، عن بريد ، عن أبى بردة ، عن أبى موسى ، قال : كان النبى ﷺ إذا أتاه

---

(١) شرح النووى على مسلم جـ ١٥ ص ١٦١ .

السائل ، وربما قال : جاءه السائل أو صاحب الحاجة قال : « اشفعوا فلتؤجروا ويقضى الله على لسان رسوله ما شاء » .

الرسول ﷺ معلم الخير والداعى إليه ، فلم يترك طريقا يوصل الخلق إلى اكتساب الخير إلا دلهم عليهم ، وحضهم على سلوكه ، حتى الأمور التى قد يظن بعض الناس أنها أمور عادية ، لا تدخل فى العبادة مثل ما فى هذا الحديث ، وخصوصا عند رسول الله ﷺ فلا يتصور مسلم أن النبى ﷺ يمنع أحدا ما يستحقه ، أو يبخسه شيئا من ذلك ومع ذلك أمر بالشفاعة عنده ، وأخبر أن شفاعتهم لا تأثير لها فى مشيئة الله تعالى ، بل المقصود حصول الثواب للشافع .

وأما ما يقع للمشفوع له فهو ما يقضيه الله تعالى ويشاؤه ، ولهذا قال : « اشفعوا فلتؤجروا ، ويقضى الله على لسان رسوله ما يشاء » .

والشاهد فيه أن مشيئة الله تعالى لا تؤثر فيها شفاعة ولا غيرها ، بل ما شاء فعله ، فعله ، وما شاء تركه ، تركه ، لاراد لما أراد ، ولا يمنع ذلك فعل الأسباب ، ولا كون المسببات مرتبة على أسبابها ، فكلها بمشيئة الله .

١٠١ ـــ قال : « حدثنا يحيى ، حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام ، سمع أبا هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « لا يقل أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت ، ارحمنى إن شئت ، ارزقنى إن شئت ، وليعزم مسألته ، إنه يفعل ما يشاء ، لا مكره له » .

تقدم هذا الحديث من رواية أنس وبينا الحكمة فى النهى عن ذلك .

قال النووى : « قال العلماء : عزم المسألة ؛ الشدة فى طلبها ، والجزم من غير ضعف فى الطلب ، ولا تعليق على المشيئة ونحوها .

وقيل : هو حسن الظن بالله تعالى فى الإجابة . ومعنى الحديث : استحباب

الجزم فى الطلب وكراهة التعليق على المشيئة .

قال العلماء : كراهة ذلك أنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا فى حق من يتوجه عليه الإكراه ، والله تعالى منزه عن ذلك ، وهو معنى قوله ﷺ فى آخر الحديث فإنه لا مكره له .

وقيل : سبب الكراهة أن فى هذا اللفظ صورة الاستغناء عن المطلوب والمطلوب منه »[1] .

وقال الحافظ : « النهى لأن التعليق بالمشيئة إنما يحتاج إليه إذا كان المطلوب منه يتأتى إكراهه على الشىء ، فيخفف الأمر عليه ، ويعلمه بأنه لا يطلب منه الشىء إلا برضاه ، والله تعالى منزه عن ذلك ، فلا فائدة للتعليق . وقيل : لأن فيه صورة الاستغناء عن المطلوب ، والمطلوب منه ، والأول أولى »[2] .

قلت : كلا الأمرين دل عليهما النهى ، ويدخلان فيه كما تقدم .

وكلام النووى رحمه الله ظاهره أن النهى للكراهة ، وليس للتحريم ومثله كلامه فى الأذكار ، فإنه قال : « ويكره أن يقول فى الدعاء : اللهم اغفر لى إن شئت ، أو إن أردت ، بل يجزم بالمسألة »[3] .

وهذا خلاف ظاهر الحديث ، ولا أدرى ما دليله على ذلك ، وقد جاء فى رواية فى الصحيحين ، قال النبى ﷺ : « لا يقولن أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمنى إن شئت ، ليعزم فى الدعاء فإن الله صانع ما شاء »[4] ، وهذا ظاهر فى التحريم ، والقاعدة أن النهى يحمل على التحريم ما لم يدل دليل على أنه لكراهة التنزيه .

---

(١) شرح مسلم جـ ١٧ ص ٧ .
(٢) الفتح جـ ١ ص ١٤٠ .
(٣) ص ٤٩٦ .
(٤) انظر الفتح جـ ١١ ص ١٣٩ ومسلم جـ ٤ ص ٢٠٦٣ رقم ٢٦٧٩ .

قال ابن عبد البر : « لا يجوز لأحد أن يقول : اللهم أعطنى إن شئت [سواء] من أمور الدين أو الدنيا ، لأنه كلام مستحيل لا وجه له ، إذ لا يفعل إلا ما يشاء » .

قال الحافظ : « وظاهره أنه حمل النهى على التحريم ، وهو الظاهر ، وحمله النووى على كراهة التنزيه ، وهو أولى »[1] .

قلت : بل الأولى مادل ظاهر النص عليه ، وهو التحريم .

والمقصود من الحديث هنا قوله : « إنه يفعل ما يشاء لا مكره له » أى أنه تعالى لا يحمله دعاء ولا غيره على فعل ما لا يريد ، فلا يمكن أن يقع فى الوجود إلا ما شاء ، أما المخلوق فإنه قد يكره على فعل ما لا يريد .

١٠٢ ــ قال : « حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا أبو حفص عمرو ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنا ابن شهاب ، عن عبيد بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود ، عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزارى ، فى صاحب موسى ، أهو خضر ، فمر بهما أبى بن كعب الأنصارى ، فدعاه ابن عباس ، فقال : إنى تماريت أنا وصاحبى هذا ، فى صاحب موسى ، الذى سأل السبيل إلى لقيه ، هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه ؟ قال : نعم : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : بينا موسى فى ملأ بنى إسرائيل ، إذ جاءه رجل فقال : هل تعلم أحدًا أعلم منك ؟ فقال موسى : لا ، فأوحى إلى موسى : بلى ، عبدنا خضر ، فسأل موسى السبيل إلى لقيه ، فجعل الله له الحوت آية ، وقيل : إذا فقدت الحوت

---

(١) انظر الفتح جـ ١ ص ١٤٤ .

فارجع ، فإنك ستلقاه ، فكان موسى يتبع أثر الحوت فى البحر ، فقال فتى موسى : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ، فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، قال موسى : ذلك ما كنا نبغى ، فارتدا على آثارهما قصصا ، فوجدا خضرا ، وكان من شأنهما ما قص الله » .

المراء : المجادلة ، يقال : ماريتـه ، أماريه مماراة ، ومراء ، ولا يكون المراء إلا اعتراضا بخلاف الجدال ، فإنه يكون ابتداء ، واعتراضا ، فهو أعم »[1] .

فقوله : « تماريت » أى جادلت معترضا عليه ، وهو كذلك ، فى أن صاحب موسى هو الخضر ، وكان الحر بن قيس يرى أنه غيره .

قال الحافظ : « لم يذكر ما قال الحر بن قيس ، ولا وقفت على ذلك فى شيء من طرق الحديث ، والخضر : بفتح أوله ، وكسر ثانيه ، أو بكسر أوله ، وإسكان ثانيه »[2] .

وفى ذلك جواز المجادلة فى العلم ، إذا كان بغير تعنت وازدراء لغيره .

وفيه إنصاف الصحابة وأدبهم فى طلب العلم .

وقد جاء فى بعض طرق الحديث فى الصحيح ، أن ابن عباس لما رأى أبيا قام إليه وسأله .

وفيه الرجوع إلى العلماء عند التنازع ، وقبول الحق ممن قاله ، وقبول خبر الواحد الصدوق ، وفضل العلم وأهله .

قوله : « بينا موسى فى ملأ بنى إسرائيل » أى فى أشرافهم ، ورؤسائهم

---

(١) المصباح جـ ٢ ص ٧٨٢ .
(٢) الفتح جـ ١ ص ١٦٩ .

قال فى المصباح : « الملأ مهموز : أشراف القوم ، سموا بذلك لملاءتهم بما يلتمس عندهم من المعروف ، وجودة الرأى ، لأنهم يملؤون العيون أبهة ، والصدور هيبة »[1] .

وقال الراغب : « الملأ : جماعة يجتمعون على رأى ، يملؤون العيون ، رواءً ومنظرا ، والنفوس بهاء وجلالا »[2] .

وجاء هذا اللفظ فى كتاب الله تعالى كثيرا .

« إذ جاءه رجل ، فقال : هل تعلم أحدًا أعلم منك » كأن هذا الرجل أعجبه ما سمعه من موسى ـــ عليه السلام ـــ من العلم ، فدعاه ذلك إلى هذا السؤال ، ويدل لذلك ما ذكره فى التفسير .

« أن موسى ذكر الناس يوما ، حتى إذا فاضت العيون ، ورقت القلوب ولَّى ، فأدركه رجل فقال : أى رسول الله ، هل فى الأرض أحد أعلم منك »[3] .

وفى صحيح مسلم : « بينما موسى عليه السلام فى قومه ، يذكرهم بأيام الله ـــ وأيام الله نعماؤه ـــ إذ قال : ما أعلم فى الأرض رجلا خيرا ، أو أعلم منى »[4] .

« فأوحى إلى موسى : بلى عبدنا خضر » قال الحافظ : « ظاهر هذا أن الخضر نبى ، بل نبى مرسل ، إذ لو لم يكن كذلك للزم تفضيل العالى على الأعلى ، وهو باطل » .

---

(١) جـ ٢ ص ٧٩٧ ـــ ٧٩٨ .
(٢) المفردات ص ٤٧٣ .
(٣) انظر الفتح جـ ٨ ص ٤١١ .
(٤) مسلم جـ ٤ ص ١٨٥٠ .

ثم قال : « والحق أن المراد بهذا الإطلاق تقييد الأعلمية بأمر مخصوص ، لقوله بعد ذلك : « إنى على علم من علم الله ، علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم علمكه الله ، لا أعلمه » ، والمراد بكون النبى أعلم أهل زمانه — أى ممن أرسل إليهم ، ولم يكن موسى مرسل إلى الخضر ، فلا نقص على موسى ، إذا كان الخضر أعلم منه .

ومن أوضح ما يستدل به على نبوة الخضر قوله تعالى : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ﴾ وينبغى اعتقاد كونه نبيا لئلا يتذرع بذلك أهل الباطل فى دعواهم أن الولى أفضل من النبى »[1] ، وهذا لا يكفى لاعتقاد كونه نبيا ، بل يجب الاعتماد على الأدلة الشرعية ، وقوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ﴾ دليل على أنه فعله عن أمر الله بالوحى إليه ، ومن يوحى إليه فهو نبى .

« فسأل موسى السبيل إلى لقيه » أى سأل ربه أن يدله على الطريق إليه ، ويهيىء له أسباب ذلك .

« فجعل له الحوت آية ، وقيل له : إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه » .

جاء بيان ذلك فى الرواية الأخرى ، أنه حمل حوتا بمكتل ، ووكل موسى — عليه السلام — ذلك إلى غلامه ، وقال له : إذا فقدته فأخبرنى ، فنزلا مكانا فيه صخرة على سيف البحر ، فاضطرب الحوت ودخل البحرَ ، ونسى الغلام أن يخبر موسى ، حتى تعبا ، وقبل ذلك لم ينلهما تعب ، عند ذلك « قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر سربا » يعنى الحوت كان طريقه يقف الماء عنه فيبقى لا ماء فيه .

---

(١) الفتح جـ ١ ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

« قال موسى : ذلك ما كنا نبغى » أى هو الذى نريد حيث جعل فقد الحوت علامة لنا على وجود الخضر .

« فارتدا على آثارهما قصصا » أى رجعا يتبعان آثارهما ويقصانها فلما وصلا الموضع الذى فقدا فيه الحوت وجدا خضرا ، وكان من شأنهما ما قص الله » .
يعنى من خرق السفينة ، وإقامة الجدار بدون أجر ، وقتل الغلام .

وقد اختصر البخارى الحديث ولم يذكر محل الشاهد منه وهو قوله : « ستجدنى إن شاءَ الله صابرا » فوعد بأنه يصبر على ما يراه منه ، وأن يطيع أمره وعلق ذلك بمشيئة الله ــ تعالى ــ وهو عازم على ذلك ، ولكن اللهَ ــ تعالى ــ لم يشأ لموسى الصبر على ما يراه من الخضر ، فلم يصبر .

فمهما كان عند المخلوق من القوة والعزم فإنه لا يستطيع فعل شيء إلا أن يشاء الله تعالى .

١٠٣ ــ قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى .

وقال أحمد بن صالح : حدثنا ابن وهب ، أخبرنى يونس ، عن ابن شهاب ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « ننزل غدا إن شاء الله بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر يريد المحصَّب » .

ذكر هذا الحديث فى كتاب الحج بلفظ يوضح ما هنا ، حيث قال : « قال النبى ﷺ من الغد يوم النحر ــ وهو بمنى ــ نحن نازلون غدا بخيف بنى كنانة ، حيث تقاسموا على الكفر ــ يعنى بذلك المحصب ، وذلك أن قريشا ، وكنانة تحالفت على بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبى ﷺ » .

فهذا هو تقاسمهم على الكفر ، وفى هذا أن هذا القول وهو بمنى فى اليوم

الثانى عشر ، وذلك فى حجة الوداع . ويخالفه ما فى الفضائل : « قال رسول الله ﷺ حين أراد حنينا : « منزلنا غدا ـــ إن شاء الله ـــ بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر »[1] .

وفى أخرى : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله ، الخيف حيث تقاسموا على الكفر » فهذه والتى قبلها صريحتان فى أن ذلك فى فتح مكة ، ولهذا قال بعض العلماء بتعدد هذا القول منه ﷺ فى غزوة الفتح ، وفى حجة الوداع ، فإنه ﷺ نزل هناك بعد ما خرج من منى »[2] .

« وكان تقاسمهم على الكفر فى أول يوم من محرم السنة السابعة من البعثة كما ذكر ذلك أصحاب المغازى والسيرة ، وذلك لما رأت قريش أن الصحابة الذين هاجروا قد وجدوا أرضا أمنوا فيها الافتتان والأذية ، وأن أمر الرسول ﷺ يقوى ويزداد ظهورا ، فقد دخل فى الإسلام عمر بن الخطاب ، وفشا الإسلام فى القبائل ، لذلك اجتمع رأيهم على أن يقتلوا رسول الله ﷺ .

فبلغ ذلك أبا طالب ، فجمع بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب ، فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ، ومنعوه ممن أراد قتله .

لذلك كتبت قريش عهدا بينهم بمقاطعة بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب بأن لا يبايعوهم ، ولا يناكحوهم ، ولا يتعاملوا معهم ، وكتبوا ذلك فى صحيفة ، وعلقوها بالكعبة .

قال ابن اسحاق : فأقاموا على ذلك ثلاث سنين ، حتى اشتد الأمر عليهم ، فسعى فى نقض هذا العهد بعض رجالات قريش ، فهذا هو تقاسمهم على

---

(١) انظر الفتح جـ ٧ ص ١٩٢ .
(٢) انظر الفتح جـ ٨ ص ١٤ .

الكفر »[1] .

قال الحافظ : « ويختلج فى خاطرى أن ما بعد قوله : « يعنى المحصب » مدرج من كلام الزهرى » .

والخَيْف بسكون الياء : ما ارتفع من الوادى قليلا من مسيل الماء ، ولا يكون إلا بين جبلين ، ومنه مسجد الخَيْف بمنى ، لأنه فى خيف الجبل ، والأصل : مسجد خيف منى ، فخفف[2] .

وكنانة : هو ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان ، وهو الجد الرابع عشر للنبى ﷺ ، وأولاد كنانة أربعة ، النضر ، ومالك ، وعبد مناة ، وملكان .

والنضر : هو قريش ، فما كان من ولده فهو قرشى ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشى ، ولذلك قال فى الحديث : « إن قريشا وكنانة تحالفت على بنى هاشم وبنى عبد المطلب » .

وقيل : قريش هو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، فمن كان من ولد فهر فهو قرشى ، وإلا فليس بقرشى ، فالله أعلم[3] .

والمقصود من الحديث قوله : « ننزل غدا إن شاء الله » حيث علق ما هو عازم على فعله ، وقد توافرت أسباب ذلك لديه على مشيئة الله ــ تعالى ــ فإنه لو شاء لجعل الممكن الميسور عسيرا ممتنعا ، وليس قول ذلك لمجرد التبرك ، بل لأن حصول ذلك مشروط بمشيئة الله ــ تعالى ــ .

---

(١) المصدر المذكور جـ ٧ ص ١٩٢ .

(٢) انظر المصباح جـ ١ ص ٢٥٤ .

(٣) انظر مختصر السيرة لابن هشام جـ ١ ص ٩٦ .

١٠٤ ــ « حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا ابن عيينة ، عن عمرو ، عن أبى العباس ، عن عبد الله بن عمر قال : حاصر النبى ﷺ أهل الطائف فلم يفتحها ، فقال : إنا قافلون غدا إن شاء ، فقال المسلمون : نقفل و لم نفتح قال : فاغدوا على القتال ، فغدوا ، فأصابتهم جراحات ، قال النبى ﷺ : « إنا قافلون غدا إن شاء الله » ، فكأن ذلك أعجبهم ، فتبسم رسول الله ﷺ » .

الحصار : هو المنع أن يخرج أحد منهم ، أو يدخل إليهم شىء ، والتضييق عليهم . وكان ذلك بعد فراغه ﷺ من غزوة حنين ، وتحصن الكفار بالطائف ، فرأى ﷺ أنهم يحتاجون إلى مطاولة ، وهم أهل رماية ، فقد ينالون من المسلمين ما لا يناله المسلمون منهم ، ورجا أن تفتح عليه بأقل من ذلك العنى ، وأشفق على أصحابه ، فقال : « إنا قافلون غدا إن شاء الله » وهذا عرض عليهم من باب المشاورة وإشراكهم فى الرأى كما هى عادته ﷺ . ولهذا لم يلزمهم ، ولما قالوا : نقفل ولما نفتح ؟ قال : اغدوا على القتال » ثم أعاد هذا القول من الغد بعد ما أمضوا يومهم ذلك فى القتال ، و لم يتحصلوا على طائل ، وقد أصابتهم جراحات ، فرحوا بما قال رسولهم ﷺ وعلموا أن الخير والبركة فى رأيه ، عند ذلك تبسم رسول الله ﷺ لما رأى فرحهم ، وقد كانوا بالأمس قد كرهوا ذلك ، تعجبا من سرعة تغير رأيهم ، ولإجماعهم على تصويب ما رآه ﷺ أولا .

والمقصود منه قوله : « إن شاء الله » فقد أخبر أولًا بأنهم قافلون معلقا ذلك بمشيئة الله ، فلم يحصل لأن الله لم يشأ ذلك .

وفى المرة الثانية شاءه فحصل بإيجاد الله له الأسباب التى جعلتهم يفرحون بذلك ، وهكذا كل ما لا يريد الله ــ تعالى ــ حصوله لابد أن يوجد له من الأسباب ما يمنع وجوده ، وبالعكس .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾[1] ولم يقل ماذا خلق ربكم » .

أخبر تعالى أنه المالك لكل شيء ، وأنه لا يقع لأى فرد من خلقه ضر أو نفع إلا بإرادته وتدبيره ، فهو المالك للشفاعة وغيرها ، فلا تقع الشفاعة لديه إلا بإذنه ، ولا تنفع إلا لمن رضى عمله وقوله ، فهو تعالى لا يأذن فى الشفاعة إلا فيمن رضى عمله ، وهو لا يرضى إلا بعبادته الخالصة .

قال النووى : « أهل السنة متفقون على وقوع الشفاعة ، ودل عليه العقل والسمع ، فقد ثبت ذلك فى كتاب الله وسنة رسوله ، كما فى هذه وغيرها ، والأحاديث فيها بلغت حد التواتر ، وأجمعوا على وقوعها للمذنبين من أهل التوحيد ، وإنما خالف فيها أهل البدع ، الذين سلكوا غير سبيل المؤمنين »[2] .

قال فى اللسان : « فزع عنه » أى كشف عنه الخوف[3] .

وقال الأزهرى : « اتفق أهل التفسير ، وأهل اللغة أن معنى قوله : « فزع عن قلوبهم » : كشف الفزع عن قلوبهم ، وتأويل الآية : أن ملائكة سماء الدنيا كان عهدهم قد طال بنزول الوحى من السماوات فلما نزل جبريل بالوحى على النبى ﷺ أول ما بعث نبيا ، ظنت الملائكة الذين فى السماء الدنيا أن جبريل نزل لقيام الساعة ، ففزعوا له ، فلما تقرر عندهم أنه نزل لغير ذلك ، كشف الفزع عن قلوبهم ، فأقبلوا على جبريل ومن معه من

---

(١) الآية ٢٣ من سورة سبأ .
(٢) انظر شرح مسلم للنووى جـ ٣ ص ٣٥ .
(٣) جـ ٨ ص ٢٥٣ .

الملائكة ، وقالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : ﴿ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ والذين فزع عن قلوبهم هاهنا ملائكة السماء الدنيا .

وقيل : إن ملائكة كل سماء ، فزعوا لنزول جبريل ، ومن معه من الملائكة ، فقال كل فريق منهم لهم : « ماذا أنزل ربكم ؟ »[1] .

وهذه الآية لها تعلق بما قبلها وهى قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ[2] وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ ﴾ الآية .

قال ابن كثير : « بين تعالى أنه الإله الواحد الأحد الذى لا نظير له ، ولا شريك له ، بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ، ولا منازع ، ولا معارض ، فقال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أى من الآلهة التى عبدت من دونه ، ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ كما فى الآية الأخرى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾[3] .

وقوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ أى لا يملكون شيئا استقلالا ، ولا على سبيل الشركة : ﴿ وَمَالَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ أى ليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به فى الأمور ، بل الخلق كلهم فقراء إليه »[4] .

والمقصود أن الملائكة الذين سمعوا كلام الله يفزعون له خوفا ، ولم يفهموا كلامه من شدة فزعهم ، فإذا ذهب فزعهم ، أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ماذا قال ربكم ؟ فيجيب المسئولون ، بأنه تعالى : قال الحق ، فيقولون كلهم : قال الحق ، وهو العلى الكبير ، كما وضح ذلك فى الأحاديث التى ذكر هنا بعضها .

---

(١) تهذيب اللغة جـ ٢ ص ١٤٥ ـــ ١٤٦ .

(٢) الآية ٢٢ من سورة سبأ .

(٣) الآية ١٣ من سورة فاطر .

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٠١ طبعة الشعب .

ومراد البخارى ـــ رحمه الله ـــ من الآية أنها تدل على أن لله كلاما يتكلم به ويقوله بصوته ، وأنه يسمع منه كما هو ظاهر الآية ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ﴾ ، وأن قوله صفة له تعالى ، لا يكون مخلوقا ، كما زعم الضالون ، ولهذا ذكر الأحاديث التى فيها التصريح بأن الله ينادى بصوت كما يأتى وفى ذلك أبلغ دليل على بطلان قول المعتزلة ، ومن تابعهم على أن الله لا يتكلم بكلام يسمع منه ، وإنما كلامه ما يخلقه فى غيره ، أو هو المعنى القائم فى نفسه ـــ تعالى الله عن قولهم ـــ وأنه لا يكون بحرف وصوت يسمع ، « وكل ذى لب صحيح يعرف بالحس ، والمشاهدة قبل الاستدلال أن القرآن العربى ، حروف ، ولا فرق بين منكر ذلك ومنكر الحواس ، وأنها من مبادئ العلم وأسباب المدارك »[1] .

وما نقله الحافظ عن ابن بطال : من أن مراد البخارى أن قول الله قديم لذاته قائم بصفاته ، لم يزل موجودا به[2] ، ولا يزال كلامه لا يشبه [كلام] المخلوقين »[3] إلى آخره .

فهو بعيد كل البعد عن مراد البخارى ، بل هذا القول يدخل فى قول من قصد البخارى الرد عليهم ، ولكن ابن بطال يريد من البخارى أن يكون متفقا معه فى العقيدة ، وبينهما مثل ما بين المشرق والمغرب .

قوله : « ولم يقل ماذا خلق ربكم » يشير بذلك إلى الرد على القائلين بخلق القرآن وغيره من كلام الله ـــ تعالى ـــ فالآية صريحة فى إبطال قولهم .

قال الحافظ : « هذا أول باب تكلم فيه البخارى على مسألة الكلام ، وهى

---

(١) درء تعارض العقل جـ ٢ ص ٩٢ نقله عن أبى نصر السجزى .
(٢) هكذا فى النسخة التى عندى وأظن الصواب « موصوفا به » .
(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٤٥٣ .

طويلة الذيول »[1] .

قال : « وقال جل ذكره : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ .

وهذا استفهام إنكار ، ينكر تعالى على من يزعم أن أحدا يشفع عنده بدون إذنه ، كما هو المعهود فى الدنيا لدى العظماء ، فإن الشفاعة عندهم تحصل بدون إذنهم .

أما رب العالمين فلعظمته وتمام ملكه ، لا يستطيع أحد أن يقدم على الشفاعة عنده مهما كان مقامه حتى يأذن له كما تقدم فى حديث الشفاعة قوله ﷺ : « فأستأذن على ربى ، فإذا رأيته خررت له ساجدا ، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ويفتح على من المحامد والثناء ، ثم يقول : ارفع رأسك وقل يسمع ، واشفع تشفع » وفيه : « فيحد لى حدا ، فيقول : هؤلاء اشفع فيهم » ، فعاد الأمر كله لله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ﴾[2] .

والشاهد من الآية للباب قوله : ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ فإن الإذن يكون بالقول المسموع ، الذى يسمعه المأذون له على الأقل .

وأما قول الحافظ فيما ظنه : « أن البخارى أشار بهذه الآية إلى ترجيح أن الضمير فى قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ « للملائكة »[3] إلى آخره وأن فاعل الشفاعة فى قوله : « ولا تنفع الشفاعة عنده » هم الملائكة » فهو بعيد عن مراد البخارى ، وإن كان هذا الذى ذكره هو الصواب فى كون الضمير للملائكة ، وفاعل الشفاعة هم .

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٥٤ .
(٢) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الزمر .
(٣) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٤٥٦ .

« قال مسروق : عن ابن مسعود ، إذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السماوات شيئا ، فإذا فزع عن قلوبهم ، وسكن الصوت ، عرفوا أنه الحق ، ونادوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق » .

قال الحافظ : رواه أحمد موصولا ، ولفظه : « إن الله — عز وجل — إذا تكلم بالوحى ، سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفاء ، فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل ، فإذا جاءهم جبريل ، فزع عن قلوبهم ، قال : ويقولون : يا جبريل ماذا قال ربكم ؟ قال : فيقول : الحق ، قال : فينادون : الحق ، الحق »[1] .

ورواه البخارى موصولا فى خلق أفعال العباد[2] .

وقال أبو داود : « حدثنا أحمد بن أبى سريج الرازى وعلى بن الحسين بن إبراهيم ، وعلى بن مسلم ، قالوا : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق ، عن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تكلم الله بالوحى ، سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفاء فيصعقون ، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل ، حتى إذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم ، قال : فيقولون : يا جبريل ماذا قال ربك ؟ فيقول : الحق ، فيقولون : الحق ، الحق »[3] .

وقال ابن جرير : « حدثنى زكريا بن أبان المصرى ، قال : حدثنا نعيم ، قال : حدثنا الوليد بن مسلم ، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن أبى زكريا ، عن جابر بن حيوة ، عن النواس بن سمعان قال : قال رسول الله

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٥٦ .

(٢) انظر ص ١٩٣ مجموع عقائد السلف .

(٣) سنن أبى داود جـ ٥ ص ١٠٦ كتاب السنة .

ﷺ : « إذا أراد الله أن يوحى بالأمر ، تكلم بالوحى ، أخذت السماوات منه رجفة ، أو قال : رعدة شديدة ، خوف أمر الله ، فإذا سمع بذلك أهل السماوات صعقوا ، وخروا لله سجداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها ، ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول : قال : الحق وهو العلى الكبير ، قال : فيقولون كلهم : مثل ما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحى حيث أمره الله »[1] .

وبهذه الأحاديث يتبين معنى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أن هذا الفزع الذى يصيبهم من شدة خوفهم من الله تعالى عندما يسمعون صوت السماء ، ويعلمون أن ذلك الصوت الذى هو كجر السلسلة على الصفاء هو رعدة السماوات ، وخوفها من الله لما سمعت كلامه بالوحى ، فعند ذلك تصعق الملائكة خوفا أن يكون الله تعالى أمر بقيام الساعة التى يجازى عز وجل فيها كل عامل بعمله هذا مع قيامهم بأمر الله وطاعته ، وعظيم عبادتهم له ، يخافون هذا الخوف الشديد ، فكيف بمن يبارز الله تعالى بالمعاصى .

وفى هذه الأحاديث ونحوها الدلالة الواضحة بأن الله يتكلم بكلام تسمعه السماوات ومن فيهن ، من الملائكة ، وأن كلامه لا يشبه كلام خلقه وأن من أنكر كلام الله ، فليس معه إلا مجرد الوهم وشبه الشيطان الباطلة .

وفيها إثبات الصوت لله تعالى . وأن صوته لا يشبه صوت العباد كما سيأتى .

١٠٥ ـــ قال : « ويذكر عن جابر ، عن عبد الله بن أنيس ، قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « يحشر الله العباد ، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : « أنا الملك ، أنا الديان » .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٢ ص ٩١ . وقال ابن كثير : رواه ابن أبى حاتم وابن خزيمة انظر تفسير جـ ٦ ص ٥٠٤ .

هذا الحديث ذكره فى مواضع من صحيحه ، مرة بصيغة الجزم ، ومرة بصيغة التمريض ، وقد رواه فى الأدب المفرد مسندا مرفوعا حيث قال : « حدثنا موسى ، قال : حدثنا همام ، عن القاسم بن عبد الواحد ، عن ابن عقيل ، أن جابر بن عبد الله حدثه ، أنه بلغه حديث عن رجل من أصحاب النبى ﷺ فابتعت بعيرا ، فشددت إليه رحلى شهرا ، حتى قدمت الشام ، فإذا عبد الله بن أنيس ، فبعثت إليه ، أن جابرا بالباب ، فرجع الرسول فقال : جابر بن عبد الله ؟ فقلت : نعم ، فخرج فاعتنقنى . قلت حديث بلغنى لم أسمعه خشيت أن أموت أو تموت .

قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « يحشر الله العباد ــ أو الناس ــ عراة ، غرلا ، بهما قلنا : ما بهما ؟ قال : ليس معهم شىء ، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد ــ أحسبه ــ قال : كما يسمعه من قرب : أنا الملك ، لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ، وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة ، ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار ، وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة ، قلت : وكيف وإنما نأتى الله عراة بهما ؟ قال : بالحسنات والسيئات »[1] .

قوله : « يحشر الله العباد » الحشر : الإخراج والجمع . قال الراغب : « الحشر : إخراج الجماعة عن مقرهم ، وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها ، وروى « النساء لا يحشرن » أى لا يخرجن إلى الغزو ، ويقال ذلك فى الإنسان وغيره ، ولا يقال : الحشر إلا فى الجماعة ، قال تعالى : ﴿ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴾ .

---

(١) انظر الأدب المفرد ص ٣٣٧ ، ورواه الحاكم فى المستدرك جـ ٣ ص ٤٣٨ و جـ ٤ ص ٥٧٤ و ٥٧٥ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وصححه الذهبى ورواه أحمد فى المسند جـ ٣ ص ٤٩٥ والخطيب فى الرحلة ص ١٠٩ ــ ١١٧ قال الحافظ وأخرجه الطبرانى وأبو يعلى انظر الفتح جـ ١٣ ص ٤٥٧ وأخرجه غيرهم وهو حديث صحيح بمجموع طرقه .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ ، ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ ، ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ ﴾ ، ﴿ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ وسمى يوم القيامة يوم الحشر ، كما سمى يوم البعث ، ويوم النشر »[1] .

لأن الله تعالى يحيى كل من مات من خلقه فيجمعهم فى مكان واحد ليحاسبهم فيجزيهم بعملهم .

قوله : « فيناديهم بصوت » النداء لا يكون إلا بصوت ، ولا يعرف الناس نداء بدون صوت ، فذكر الصوت هنا لتأكيد النداء ، وهذا فى غاية الصراحة والوضوح فى أن الله يتكلم بكلام يسمع منه تعالى ، وأن له صوتا ، ولكن صوته لا يشبه أصوات خلقه ، ولهذا قال :

« يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب » فهذه الصفة تختص بصوته تعالى وأما أصوات خلقه فيسمعها القريب منها فقط حسب قوة الصوت وضعفه وقد كثرت النصوص المثبتة لذلك ، منها ما ذكره البخارى ـــ رحمه الله ـــ فى هذا الباب ، ومنها ما ذكره الله تعالى فى كتابه فى أكثر من عشرة مواضع بلفظ النداء الذى لا يكون إلا بصوت .

منها قوله تعالى : ﴿ وَنَادَٰهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴾[3] .

وقوله : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[4] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ

---

(١) المفردات ص ١١٩ ـــ ١٢٠ .
(٢) الآية ٢٢ من سورة الأعراف .
(٣) الآية ٥٢ من سورة مريم .
(٤) الآية ١٠ من سورة الشعراء .

حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * يَـٰمُوسَىٰ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1] يعنى أن المنادى هو الله العزيز الحكيم .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَـٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[2] أى ناداه تعالى بهذا القول : « يا موسى إنى أنا الله رب العالمين » .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[3] .

وقوله فى السورة أيضا : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[4] .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[5] .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾[6] .

وقوله : ﴿ هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾[7] فهذه عشرة مواضع كلها صريحة فى أن الله ينادى منها ما وقع فى الدنيا ومنها ما سيقع يوم القيامة .

وليس مع من ينكر نداء الله ، وأنه تعالى يسمع من يشاء من خلقه نداءه

---

(١) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة النمل .
(٢) الآية ٣٠ من سورة القصص .
(٣) الآية ٦٢ من سورة القصص .
(٤) الآية ٧٤ من سورة القصص .
(٥) الآية ٦٥ من سورة القصص .
(٦) الآية ٤٧ من سورة فصلت .
(٧) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة النازعات .

إلا مجرد الوهم والقياس الفاسد ، الناتج عن الأفكار المضللة .

قال البخارى رحمه الله : « ويذكر عن النبى ﷺ أنه كان يحب أن يكون الرجل خفيض الصوت ، ويكره أن يكون رفيع الصوت ، وأن الله — عز وجل — ينادى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب .

فليس هذا لغير الله — جل ذكره — وفى هذا دليل أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق ، لأن صوت الله — جل ذكره — يسمع من بعد كما يسمع من قرب وأن الملائكة يصعقون من صوته ، فإذا تنادى الملائكة لم يصعقوا . وقال — عز وجل — : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾[1] فليس لصفة الله ند ، ولا مثل ، ولا يوجد شىء من صفاته فى المخلوقين »[2] .

« قال الخلال : وأخبرنا المرُّوذى : سمعت أبا عبد الله ، وقيل له : إن عبد الوهاب قد تكلم ، وقال : من زعم أن الله كلم موسى بلا صوت فهو جهمى عدو لله ، وعدو للإسلام ، فتبسم أبو عبد الله ، وقال : ما أحسن هذا عافاه الله »[3] .

و « قال الخلال فى السنة : أخبرنا على بن عيسى أن حنبلا حدثهم ، قال : إن أبا عبد الله يقول : من زعم أن الله لم يكلم موسى ، فقد كفر بالله ، وكذب القرآن ورد على رسول الله ﷺ أمره ، يستتاب من هذه المقالة ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه .

قال : وسمعت أبا عبد الله قال : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ ﴾ فأثبت الكلام لموسى كرامة منه لموسى ، ثم قال يؤكد كلامه ﴿ تَكْلِيمًا ﴾ .

---

(١) الآية ٢٢ من سورة البقرة .

(٢) خلق أفعال الخلق ص ١٩٢ مجموع عقائد السلف .

(٣) شرح الأصفهانية رسالة دكتوراة ص ١٩٣ .

قلت لأبي عبد الله : « الله عز وجل يكلم عبده يوم القيامة ؟ قال : نعم ، فمن يقضي بين الخلائق إلا الله ــ عز وجل ــ ؟ يكلم عبده ، ويسأله .

الله متكلم لم يزل يأمر بما يشاء ، ويحكم ، وليس له عدل ولا مثيل كيف شاء ، وأنى شاء .

أخبرنا محمد بن علي بن بحر ، أن يعقوب بن بختان حدثهم ، أن أبا عبد الله سئل عمن زعم أن الله لم يتكلم بصوت فقال : بلى تكلم بصوت ، وهذه الأحاديث كما جاءت نرويها ، لكل حديث وجه ، يريدون أن يموهوا على الناس ، من زعم أن الله لم يكلم موسى فهو كافر .

قال شيخ الإسلام : قلت : وهذا الصوت الذى تكلم الله به ليس هو الصوت المسموع من العبد ، بل ذلك صوت العبد كما هو معلوم لعامة الناس .

وقد نص على ذلك الأئمة أحمد ، وغيره ، فالكلام المسموع من العبد حال تلاوته القرآن هو كلام الله ، لا كلام غيره كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾[1] .

وقال النبي ﷺ : « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ، فإن قريشا منعوني أن أبلغ كلام ربي » رواه أبو داود وغيره[2] .

وقال : « زينوا القرآن بأصواتكم »[3] ، وقال : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن »[4] .

---

(١) الآية ٦ من سورة التوبة .
(٢) انظر السنن جـ ٤ ص ٣٢٤ .
(٣) انظر سنن أبي داود جـ ٢ ص ٩٩ والنسائي جـ ٢ ص ١٣٩ وابن ماجه جـ ٢ ص ٢٤٦ والدارمي جـ ٢ ص ٤٧٤ وأحمد في المسند جـ ٤ ص ٢٨٣ و ٢٨٥ .
(٤) درء تعارض العقل جـ ٢ ص ٣٨ ــ ٤٠ .

« وقال أبو نصر السجزى : « فأما الله ــ تعالى ــ فإنه متكلم فيما لم يزل ، ولا يزال إذا شاء ذلك ، ويكلم من يشاء تكليمه بما يعرفه [المخاطب] ولا يجهله ، وكلامه أحسن الكلام ، وفيه سور ، وآى ، وكلمات ، وكل ذلك حروف ، وهو المسموع منه على الحقيقة سماعا يعقله الخلق ، وجائز وجود أعداد من المكلمين يكلمهم فى حال واحدة ، بما يريده من كل واحد منهم ، من غير أن يشغله تكليم هذا عن تكليم هذا »[1] .

وقال أيضا : « لما وجدنا أحكام الشريعة المتعلقة بالكلام منوطة بالنطق الذى هو حرف وصوت ، دون ما فى النفس ، علمنا أن حقيقة الكلام هو الحرف والصوت .

فلو حلف امرؤ أنه لا يتكلم ساعة من النهار ، فأقام فى تلك الساعة يحدث نفسه بأشياء ، ولا ينطق بها ، كان بارا ، غير حانث .

ولو كان الكلام هو ما فى النفس حنث فى أول ما يحدث به نفسه[2] .

وقال أيضا : « فالله تعالى قد بين فى كتابه ما كلامه ، وبين ذلك رسوله ﷺ واعترف به الصدر الأول والسلف الصالح ، فقال الله تعالى : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾[3] وقال : ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾[4] والمستجير لا يسمع إلا كلاما ذا حروف ، والقارىء لا يقرأ إلا كلاما ذا حروف .

ولما سمى تعالى هذا القرآن كلامه ، علم أن كلامه حروف ، وقد أكد ذلك بذكر الحروف المقطعة فى أوائل السور ، ﴿ كهيعص ﴾ ونحوها .

---

(١) المصدر المذكور ص ٨٨ ملخصا .
(٢) الرد على من أنكر الحرف والصوت لأبى نصر ، رسالة ما جستير ص ١٧٦ .
(٣) الآية ٦ من سورة التوبة .
(٤) الآية ٢٠ من سورةالمزمل .

فمن زعم أن هذه الحروف ليست من القرآن فهو كافر ، ومن قال : إنها من القرآن ، والقرآن ليس كلام الله ، فهو كافر ، ومن زعم أنها عبارة عن الكلام الذى لا حروف فيه ، فهو جهل وغباء ، لأن ذلك لا يعرف والنبى ﷺ قال : « من قرأ القرآن ، فله بكل حرف عشر حسنات ، لا أقول : « الم » حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف ، وبهذا يتبين أن القرآن سور ، وآيات ، وحروف ، وهكذا كلام الله »[1] .

وقال أيضا : « الأصل الذى يجب أن يعلم ، أن اتفاق التسميات لا يوجب اتفاق المسمين بها ، فنحن إذا قلنا : إن الله موجود ، رؤف ، واحد ، حى ، عليم ، سميع ، بصير ، متكلم ، وقلنا : إن النبى ﷺ كان موجودا حيا عالما ، سميعا بصيرا ، متكلما ، لم يكن ذلك تشبيها ، ولا خالفنا به أحدا من السلف ، والأئمة .

بل الله موجود لم يزل ، واحد ، حى ، قديم ، قيوم ، عالم ، سميع ، بصير ، متكلم فيما لم يزل ، ولا يجوز أن يوصف بأضداد هذه الصفات .

والموجود منا إنما وجد عن عدم ، وحين ينقضى أجله ثم يصير ميتا يزول ذلك المعنى ، وعلم بعد أن لم يعلم ، وقد ينسى ما علم ، وسمع وأبصر وتكلم بجوارح تلحقها الآفات .

فلم يكن فيما أطلق للخلق تشبيه بما أطلق للخالق — سبحانه وتعالى — وإن اتفقت مسميات هذه الصفات »[2] .

« وقد بين الله فى كتابه أن الكلام لا يكون إلا بصوت وحروف ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾ ، والعرب لا تعرف نداء إلا صوتا .

---

(١) الرد على من انكر الحرف والصوت ص ١٨٦ رسالة ما جستير .

(٢) درء تعارض العقل والنقل جـ ٢ ص ٨٩ — ٩٠ .

وقد جاء عن موسى تحقيق ذلك ، فإن أنكروا الظاهر كفروا ، وإن قالوا إن النداء غير صوت خالفوا لغات العرب .

وإن قالوا : نادى الأمير إذا أمر بالنداء ، دفعوا فضيلة موسى ﷺ المختصة به من تكليم الله إياه بذاته ، من غير واسطة ، ولا ترجمان .

وليس فى وجود الصوت من الله تعالى تشبيه بمن يوجد الصوت منه من الخلق ، كما لم يكن فى إثبات الكلام له تشبيه بمن له كلام من خلقه ، وكلام الله حروف ، وأصوات بحكم النص »[1] .

« والله تعالى لم يزل متكلما إذا شاء ، وإذا شاء تكلم بصوت يسمع ، وبحروف ، وكل ما قام بذات الله ــ تعالى ــ فليس بمخلوق ، سواء كان قديما أو حادثا ، وكلامه ــ تعالى ــ وفعله متعلق بمشيئته وإرادته ، هذا قول أهل السنة والجماعة .

قال عبد الله ابن الإمام أحمد : « سألت أبى عن قوم يقولون : لما كلم الله موسى ، لم يتكلم بصوت ؟ فقال أبى : بلى تكلم بصوت ، هذه الأحاديث نرويها كما جاءت .

وقال أبى : حديث ابن مسعود : « إذا تكلم الله سمع له صوت كجر السلسلة على الصفوان » .

قال أبى : وهذا الجهمية تنكره ، قال أبى : وهؤلاء كفار ، يريدون أن يموهوا على الناس ، من زعم أن الله لم يتكلم فهو كافر »[2] .

وقال أيضا : « حدثنى أبى ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، عن

---

(١) درء تعارض العقل والنقل جـ ٢ ص ٩٣ .
(٢) كتاب السنة ص ٧٠ .

الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق ، عن عبد الله : « إذا تكلم الله بالوحى سمع صوته أهل السماء فيخرون سجدا ، حتى إذا فزع عن قلوبهم ، قال : سكن عن قلوبهم ، نادى أهل السماء : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ، قال : كذا وكذا »[1] .

وقال أبو يعلى بعد أن ذكر هذا الحديث وغيره : « اعلم أن هذه الأخبار تدل على أن كلام الله ــ تعالى ــ بحرف وصوت ، لا كحروف الآدميين وأصواتهم ، كما أن له علما وقدرة لا تشبه صفات الآدميين ، وقد نص أحمد فى رواية الجماعة على إثبات الصوت »[2] ، وكلام أهل العلم من السلف وأتباعهم فى هذا كثير .

قوله : « أنا الملك أنا الديان » يعنى أن النداء الذى يسمعه أهل الموقف كلهم يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب هو بهاتين الكلمتين : « أنا الملك أنا الديان » فهو تعالى الملك الذى بيده ملك السماوات والأرض ، ومن فيهن ، وهو الديان الذى يجازى عباده بعملهم ، من عمل خيرا جازاه بأفضل مما عمل ، ومن عمل شرا جازاه بما يستحق .

وفى هذا الحديث دليل على أن بعض أهل الموقف أقرب إلى الله من بعض .

ودل على هذا المفهوم آيات من كتاب الله ، وأحاديث ثابتة عن رسوله ﷺ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ ونحو ذلك ، وعند الذين ضلوا فى هذا الباب ، الخلق بالنسبة إلى الله سواء بالقرب والبعد . وكفى بذلك ضلال أنه مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ، وللفطر والعقول .

---

(١) المصدر المذكور ٧١ ورواه البخارى فى خلق أفعال العباد ص ١٩٤ مجموع عقائد السلف .
(٢) إبطال التأويل مخطوط ص ٣٠٤ .

١٠٦ ــ قال : « حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عكرمة ، عن أبى هريرة يبلغ به النبى ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان » .

قال على : وقال غيره : صفوان ، ينفذهم ذلك ، فإذا فزع عن قلوبهم ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ، وهو العلى الكبير » .

قوله : « إذا قضى » المراد بالقضاء هنا ، الأمر بالشىء والحكم ، بأن يتكلم آمرا ملائكته ، كما فى حديث ابن مسعود المتقدم ، وحديث النواس بن سمعان : إذا تكلم الله بالوحى .

قوله : « ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله » صريح بأن الملائكة تسمع قوله ، ولا يعقل شىء يدركه السمع إلا ما كان بصوت وحروف .

هذا هو مراد البخارى ــ رحمه الله ــ أن كلام الله يسمع منه ، لأنه يتكلم حقيقة والكلام الحقيقى الذى يسمع لابد أن يكون بصوت وحروف ، وهذا الذى فهمه صحابة رسول الله ﷺ منه ، وهو الذى أراد منهم فهمه ، وكذا فهمه أتباعه إلى اليوم .

« خضعانا » مصدر لخضع ، كغفران مصدر لغفر ، والمعنى أن الملائكة تخضع لله عند سماع كلامه ، وتستكين ، فتضرب بأجنحتها من الخضوع .

والصفوان هى الحجارة الكبيرة الصلبة .

قوله : « ينفذهم ذلك » يعنى أن الصوت المذكور يبلغهم كلهم ويسمعونه .

قوله : « قال سفيان ، قال عمرو :سمعت عكرمة ، حدثنا أبو هريرة بهذا ، قلت لسفيان : قال سمعت عكرمة » إلى آخره يقصد بيان أن عكرمة قد صرح بالتحديث فينتفى احتمال التدليس .

قوله : « فرغ » قال سفيان هكذا قرأ عمرو ، فلا أدرى سمعه هكذا أم لا .

قال سفيان : وهى قراءتنا » هذه القراءة بضم الفاء وبالراء المهملة المشددة ، وبالغين المعجمة ، قال فى إتحاف فضلاء البشر : « هى قراءة الحسن »[1] .

وعمرو المذكور هو ابن دينار .

قوله : « فلا أدرى سمعه هكذا أم لا » أى سمعه من عكرمة ، أو قرأها كذلك من قبل نفسه بناء على أنها قراءته .

وقول سفيان : هى قراءتنا ، يريد نفسه ، ومن تابعه[2] .

قال الحافظ بعد أن ذكر عدة روايات تتعلق بهذا الحديث ، سجود الملائكة عند سماعهم صوت الوحى من الله ، قال : « فهذه الأحاديث ظاهرة جدا فى أن ذلك وقع فى الدنيا ، بخلاف قول بعض المفسرين الذين أقدموا على الجزم بأن الضمير فى قوله : « عن قلوبهم » للكفار ، وأن ذلك يقع يوم القيامة ، مخالفين لما صح من الحديث النبوى ، من أجل خفاء معنى الغاية فى قوله : « حتى إذا فزع عن قلوبهم » .

وما قاله هو الذى يجب أن يعتمد ، ولا يلتفت إلى غيره ، لأن الأحاديث أوضحته غاية الإيضاح .

١٠٧ — قال : « حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة ، أنه كان يقول : قال رسول الله ﷺ : « ما أذن الله لشىء ما أذن للنبى يتغنى بالقرآن » وقال صاحب له : يريد يجهر به » .

---

(١) انظر ص ٣٦٠ والحسن هو البصرى .

(٢) انظر الفتح جـ ٣ ص ٤٥٩ .

قال ابن كثير : « معناه : أن الله ـــ تعالى ـــ ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبى يجهر بقراءته ويحسنها ، وذلك أنه يجمع فى قراءة الأنبياء طيب الصوت لكمال خلقهم ، وتمام الخشية ، وذلك هو الغاية فى ذلك ، وهو سبحانه وتعالى يسمع أصوات العباد كلهم ، برهم وفاجرهم كما قالت عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ : سبحان الذى وسع سمعه الأصوات » .

ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم ، كما قال : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾[1] ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ كما دل عليه هذا الحديث العظيم .

ومنهم من فسر الإذن هاهنا بالأمر ، والأول أولى ، لقوله : « ما أذن الله لشيء ما أذن لنبى يتغنى بالقرآن » أى يجهر به ، فالإذن : الاستماع لدلالة السياق عليه ، وكما قال تعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ فالإذن هنا الاستماع ، ولهذا جاء فى حديث رواه ابن ماجه بسند جيد ، عن فضالة بن عبيد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لله أشد إذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن ، من صاحب القينة إلى قينته » .

وقول سفيان بن عيينة إن المراد بالتغنى : يستغنى به ، فإن أراد أنه يستغنى به عن الدنيا ـــ وهو الظاهر من كلامه ـــ فخلاف الظاهر من مراد الحديث ، لأنه فسره بعض رواته بالجهر ، وهو تحسين القراءة ، والتحزين بها »[2] .

ثم قال : « والمراد من تحسين الصوت بالقرآن ، تطريبه ، وتحزينه ، والتخشع به ، كما رواه بقى بن مخلد ، عن أبى موسى ، قال : قال لى رسول الله

---

(١) الآية ٦١ من سورة يونس .

(٢) فضائل القرآن لابن كثير ص ١١٦ .

ﷺ ذات يوم : « يا أبا موسى لو رأيتنى وأنا أستمع قراءتك البارحة » قلت : أما والله لو علمت أنك تسمع قراءتى لحبرتها لك تحبيرا »[1] .

ومن تأمل الأحاديث الواردة فى ذلك تبين له أن معنى قوله : « يتغنى بالقرآن » تحسين الصوت وتزيينه بما يستطيع القارىء ، والتغنى لا يكون إلا بالكلام ذى الحروف ، كما أن الاستماع لا يكون إلا للكلام المصوت به ، وهذا هو وجه استدلال البخارى بهذا الحديث .

فالقرآن الذى يحب الله من عبده أن يتغنى به ، ويحب استماعه إليه فى ذلك ينطق به بالحروف ويصوت به .

والله تعالى قد تكلم به بصوت نفسه ، وبهذه الحروف المكتوب بها .

« وذكر الطبرى » عن الشافعى ، أنه سئل عن تأويل ابن عيينة : التغنى بالاستغناء » فلم يرتضه ، وقال : لو أراد الاستغناء ، لقال : يستغنى » ، وإنما أراد تحسين الصوت » ، ويؤيده ما فى رواية الطبرى « ما أذن لنبى فى الترنم فى القرآن » .

وفى رواية عبد الرزاق : « ما أذن لنبى حسن الصوت » ، وهو عند مسلم .

وفى رواية للطحاوى : « حسن الترنم بالقرآن » .

قال الطبرى : الترنم لا يكون إلا بالصوت ، إذا أحسنه القارىء ، وطرب به ، ولو كان معناه : الاستغناء لما كان لذكر الصوت والجهر معنى » .

ولا نعلم فى كلام العرب « تغنى بمعنى استغنى ، ولا فى أشعارهم » .

---

(١) المصدر المذكور ص ١٢٢ .

ومثل ذلك قال الإسماعيلى ، وقال : الاستغناء لا يحتاج إلى استماع لأن الاستماع أمر خاص ، زائد على الاكتفاء به ، والاكتفاء به عن غيره أمر واجب على الجميع ، ومن لم يفعل ذلك خرج عن الطاعة .

وقال عمر بن شبة : ذكرت لأبى عاصم النبيل : تفسير ابن عيينة ـــ يعنى يستغنى به ـــ فقال : لم يصنع شيئا ، حدثنى ابن جريج ، عن عطاء ، عن عبيد ابن عمير ، قال : كان داود ـــ عليه السلام ـــ يتغنى ـــ يعنى حين يقرأ ـــ ويبكى ويبكى .

وظواهر الأخبار ترجح أن المراد تحسين الصوت بالقراءة ، ويؤيده قوله « يجهر به » فإن كان ذلك مرفوعا قامت الحجة ، وإن كان غير مرفوع ، فالراوى أعرف بمعنى الخبر من غيره ، ولا سيما إذا كان فقيها .

وقد جزم الحليمى بأن ذلك من قول أبى هريرة ، والعرب تقول : سمعت فلانا يتغنى بكذا ، أى يجهر به ، قال ذو الرمة :

أحب المكان القفر من أجل أننى ... به أتغنى باسمها غير معجم

يعنى أجهر بذكر اسم حبيبتى من غير تورية .

والحاصل : أنه يمكن الجمع بين أكثر التأويلات المذكورة .

وهو أنه يحسن به صوته ، جاهرا به ، مترنما ، على طريق التحزن ، مستغنيا به عن غيره من الأخبار ، طالبا به غنى النفس ، راجيا به غنى اليد »[1] .

قلت : فى هذا الجمع نظر ، فإن الرسول ﷺ أراد بذلك معنى معينا وظواهر أقواله فى ذلك أنه أراد تحسين الصوت به والترنم يكون بتحسين الصوت ، وكذا التحزن الذى يستجلب به الخشوع ومحبة القرآن والإقبال إلى استماعه .

---

(١) فتح البارى جـ ٩ ص ٧٢ .

ولا يلزم الجمع بين التأويلات ، بل كل تأويل خالف النص يجب رده على من قاله .

قال الحافظ : « ولا شك أن النفوس تميل إلى سماع القراءة بالترنم أكثر من ميلها لمن لا يترنم ، لأن للتطريب تأثيرا فى رقة القلب ، وإجراء الدمع . ولا خلاف بين السلف فى استحباب تحسين الصوت بالقراءة ، وتقديم حسن الصوت على غيره .

وإنما اختلفوا فى التلحين ، بين مانع ومجيز .

والذى يتحصل من الأدلة أن حسن الصوت بالقراءة مطلوب ، فإن لم يكن حسنا فليحسنه ما استطاع ، كما قال ابن أبى مليكة ، أحد رواة الحديث ، أخرج ذلك عنه أبو داود بإسناد صحيح .

ومن جملة تحسينه أن يراعى فيه قوانين النغم ، فإن الحسن الصوت يزداد بذلك حسنا ، وإن خرج عنها أثر ذلك فى حسنه .

وغير الحسن ربما انجبر بمراعاتها ، ما لم يخرج عن شرط الأداء المعتبر عند أهل القراءات ، فإن خرج عنها لم يف تحسين الصوت بقبح الأداء .

ولعل هذا مستند من كره القراءة بالأنغام ، لأن الغالب على من راعى الأنغام أن لا يراعى الأداء ، فإن وجد من يراعيهما معا ، فلا شك أنه أرجح من غيره ، لأنه يأتى بالمطلوب من تحسين الصوت ، ويتجنب الممنوع من حرمة الأداء والله أعلم »(١) .

١٠٨ ــ قال : « حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبى ، حدثنا الأعمش ، حدثنا أبو صالح ، عن أبى سعيد الخدرى ، قال ،

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٧٢ .

قال النبى ﷺ : « يقول الله تعالى : يا آدم ، فيقول : لبيك ، وسعديك ، فينادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار » .

قال محب الدين الطبرى : « لبيك : مصدر مثنى للتكثير والمبالغة ، ومعناه : إجابة بعد إجابة ، ولزوما لطاعتك .

وتثنيته للتوكيد ، لا تثنية حقيقة ، قال ابن الأنبارى : ثنوا لبيك ، كما ثنوا حنانيك ، أى تحننا بعد تحنن »[1] .

وقال ابن الأنبارى : « سمعت أبا العباس يقول : معنى قولهم : لبيك : أنا مقيم على طاعتك ، وإجابتك ، من قولهم : قد لبَّ الرجل فى المكان وألبَّ ، إذا أقام فيه ، قال الشاعر :

محل الجهر أنت به مقيم ملب ما يزول ولا يريم

وقال الفراء : معنى لبيك : إجابتى لك يا رب ، ونصب على المصدر ، وثنى لأنه أراد إجابة بعد إجابة .

وقال آخرون : معناه : اتجاهى إليك ، مأخوذ من قولهم : دارى تلبُّ دارك ، أى تواجهها .

وقال آخرون : معناه : محبتى لك ، من قولهم : امرأة لبَّة ، إذا كانت محبة لولدها عاطفة عليه »[2] ، وذكر مثل ذلك الجوهرى[3] .

---

(١) الفرى ص ١٤٥ .

(٢) الزاهر جـ ١ ص ١٩٧ ــ ١٩٨ ملخصا .

(٣) انظر الصحاح جـ ١٥ ص ٣٣٦ .

وقال الزمخشرى : « معنى لبيك : دواما على طاعتك ، وإقامة عليها مرة بعد أخرى ، من ألب بالمكان إذا أقام به ، وألب على كذا إذا لم يفارقه ، ولم يستعمل إلا على لفظ التثنية فى معنى التكرير ، ولا يكون عامله إلا مضمرا ، كأنه قال : ألب إلبابا بعد إلباب .

والتلبية من لبيك ، بمنزلة التهليل من لا إله إلا الله »[1] .

« وقال الخليل : هى من قولهم : دار فلان تلب دارى ، أى تواجهها .

فيكون معناه : اتجاهى وقصدى إليك يا رب ، مرة بعد أخرى .

وقيل : هى من قولهم حب لباب ، إذا كان خالصا محضا ، ومنه لب الطعام ولبابه ، فعلى هذا معناه : إخلاصى لك يا رب مرة بعد أخرى .

وقيل : هو من الإلباب ، أى القرب : أى قربى منك ، وقيل : من قولهم : أنا ملب بين يديك أى خاضع »[2] .

قوله : « فينادى بصوت » قال الحافظ : « أكثر الرواة ، رووه بكسر الدال ــ يعنى رواة صحيح البخارى ــ قال : وفى رواية أبى ذر بفتحها على البناء للمجهول ، ولا محذور فى رواية الجمهور ، فإن قرينة قوله : إن الله يأمرك تدل ظاهرا على أن المنادى ملك يأمره الله بأن ينادى بذلك »[3] .

قلت : هذا مجانب للإنصاف ، وبعيد عن ظاهر قول رسول الله ﷺ ، بل الظاهر أن المنادى هو الله تعالى .

والنداء صفة كمال ، لا محذور فيه كما توهمه أهل التأويل الباطل .

---

(١) الفائق جـ ٣ ص ٢٩٥ .

(٢) الفرى ص ١٤٥ .

(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٤٦٠ .

وقد ثبت بالنصوص الكثيرة اتصاف الله تعالى بالكلام ، والنداء منه .

وأى محذور يخشاه هؤلاء الذين ينصبون أنفسهم لتحريف كلام الله وكلام رسوله ، وصرفه عن الظاهر المراد منه ، حتى عطلوه ـــ تعالى ـــ عما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله من الكلام ، والنداء ، وما ذاك إلا لسوء ظنهم بالله تعالى حتى جعلوا المخلوق أكمل منه ، ولذلك قالوا : المنادى ملك يأمره الله أن ينادى آدم ، هذا مع وضوح الكلام وكونه يأبى هذا التحريف ، فإنه قال : « يقول الله يا آدم فينادى بصوت » فقوله : فينادى بصوت تفسير لقوله : يقول الله يا آدم » ، وبيان له ، ولكن الذين تأثروا بأصول الجهمية ظنوا أن اتصاف الله تعالى بالكلام والنداء حقيقة من التشبيه ، فنفوا ذلك عن الله ـــ تعالى ـــ ظانين أن هذا هو قول أهل السنة ، فصار الأخذ بظاهر هذا النص ونحوه لا يجوز ، لأنه عندهم على خلاف أصولهم التى منها نفى حقيقة الكلام عن الله ـــ تعالى ـــ ، فوجب تأويله ـــ كما زعموا ـــ ، والحق خلاف ظنهم .

ثم نقول : إذا كان الله تعالى ليس هو المنادى ، وإنما يأمر ملكا ينادى ، نقول بأى شىء يأمر الملك ، وأنتم تقولون : لا يتكلم بكلام يسمع منه أيكون أمره بالإشارة ؟ وبذلك يكون الملك أكمل من رب العالمين .

أم يكون الأمر بأن يخلقه بقلبه ، فإن قالوا ذلك فيلزم أن يكون الأمر صفة للملك لأن ما كان مخلوقا فيه فهو صفة له .

فالحق أن الله يتكلم بصوت مسموع يسمعه من شاء من عباده ، وليس الصوت الذى يتكلم الله به قديما كما يقوله بعض أهل البدع ، بل لم يزل يتكلم متى شاء ، وسيكلم عباده يوم القيامة ويحاسبهم ، كما فى حديث عدى بن حاتم : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان » .

ولما علم أئمة الأشعرية القدماء أن الحروف والأصوات لا تكون قديمة العين ، لم يمكنهم أن يقولوا : القديم هو الحروف ، والأصوات ، لأنها لا تكون إلا متعاقبة .

والصوت عرض ، لا يبقى زمانين إلا بواسطة ما يمسكه كشريط التسجيل ونحوه ، فلذلك قالوا : القديم معنى واحد ، لامتناع معانٍ لا نهاية لها عندهم ، وهذا هو أصلهم الذى بنوا عليه مذهبهم الباطل .

« والاختلاف فى القرآن ، والكلام ، هل هو حرف وصوت أو غير ذلك ؟ محدث حدث فى حدود المائة الثالثة ، وانتشر فى المائة الرابعة .

فإن ابن كلاب والأشعرى ونحوهما لما ناظروا المعتزلة فى إثبات الصفات ، وأن القرآن ليس مخلوقا ، وأنه لا يمكن أن يكون قديما إلا أن يكون معنى قائما بنفس الله ، كعلمه .

وزادوا : إن الله لا يتكلم بصوت ، ولا لغة ، لا قديم ولا غير قديم ، لما رأوا امتناع قيام أمر حادث به ، وخالفوا فى ذلك جمهور المسلمين .

والآثار شاهدة بأن الله يتكلم بصوت ، ولهذا جعل الإمام أحمد من أنكر ذلك جهميا .

قال عبد الله : قلت : لأبى : إن قوما يقولون : إن الله لا يتكلم بصوت ؟ فقال : هؤلاء جهمية ، إنما يدورون على التعطيل »(١) .

قال شيخ الإسلام : « السلف والأئمة يقولون : إن لله يتكلم بمشيئته وقدرته ، وكلامه تعالى قديم النوع ، بمعنى أنه لم يزل متكلما إذا شاء فإن الكلام صفة كمال ، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن لا يتكلم بمشيئته ، ومن لا يزال متكلما بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام ممكنا له بعد أن يكون ممتنعا »(٢) .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٢ ص ٥٧٩ .
(٢) المصدر السابق جـ ١٢ ص ٣٧٢ .

وقال أيضا : « والصواب أن الله تعالى لم يزل متكلما إذا شاء ، وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وأن كلماته لا نهاية لها ، وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى ، وإنما ناداه حتى أتى ، لم يناده قبل ذلك ، وأن صوت الرب لا يماثل أصوات العباد ، كما أن علمه لا يماثل علمهم »[1] .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : « حدثنا أبى ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن المعتمر ، عن هلال بن يسار ، عن فروة بن نوفل الأشجعى ، قال : كنت جارا لخباب ، فخرجنا يوما من المسجد ، وهو آخذ بيدى فقال : يا هناه : تقرب إلى الله ما استطعت ، فإنك لن تقرب إليه بشىء أحب إليه من كلامه يعنى القرآن » .

وروى بسند حسن ، عن جبير بن نفير ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم لن ترجعوا إلى الله بشىء أفضل مما خرج منه » يعنى القرآن .

وقال : « حدثنى أبو معمر ، حدثنا وكيع ، عن موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب القرظى ، قال : « كأن الناس إذا سمعوا القرآن من فى الرحمن يوم القيامة فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك » .

وحدثنى أبى ، سمعت عبد الرحمن بن مهدى ، يقول : من زعم أن الله لم يكلم موسى يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه .

سألت أبى عن قوم يقولون : لما كلم الله موسى لم يتكلم بصوت ؟ فقال أبى : بلى تكلم بصوت ، هذه الأحاديث نرويها كما جاءت »[2] .

يعنى أنها لا تؤول بل يجب الإيمان بها على ما يدل عليه ظاهرها ، من أن الله يتكلم ، وأن كلامه بصوت .

---

(١) المصدر جـ ١٢ ص ٥٩٨ .

(٢) كتاب السنة من ص ٢٦ ـــ ٧١ .

ولو كان ما يفهم من ظاهرها باطل لبينه رسول الله ﷺ لأن الله تعالى كلفه ببيان ما نزل إليه .

ثم قال : « سمعت أبا معمر الهذلى يقول : من زعم أن الله لا يتكلم ، ولا يسمع ولا يبصر ، ولا يغضب ، ولا يرضى ، وذكر أشياء من هذه الصفات ، فهو كافر بالله » .

حدثنى أبى ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، عن الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق ، عن عبد الله : إذا تكلم الله بالوحى سمع صوته أهل السماء ، فيخرون سجدا ، حتى إذا فزع عن قلوبهم ، قال : سكن عن قلوبهم ، نادى أهل السماء ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق ، قال كذا وكذا ورواه مرفوعا »[1] .

وفى الترمذى ، عن عمران بن حصين ، قال كنا مع النبى ﷺ فى سفر فتفاوت بين أصحابه فى السير ، فرفع رسول الله ﷺ صوته بهاتين الآيتين : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ ، فلما سمع ذلك أصحابه حثوا المطى ، وعرفوا أنه عنده قول يقوله ، فقال : هل تدرون أى يوم ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذاك يوم ينادى الله فيه آدم ، فيناديه ربه ، فيقول : يا آدم ابعث بعث النار » إلى آخر الحديث ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح »[2] .

فهذا ظاهر جدا فى أن المنادى هو الله تعالى ، والنداء لا يكون إلا بصوت يسمع من بعدٍ عن المنادى ، فلله تعالى صوت يليق به ، فصوته لا يشبه أصوات خلقه ، كصفاته .

---

(١) كتاب السنة ص ٧٠ — ٧١ .

(٢) جامع الترمذى جـ ٥ ص ٣٢٤ .

ولثبوت ذلك بالأدلة التى ذكر شيء منها فى هذا يتعين على المؤمن الإيمان بأن الله تعالى يتكلم بكلام يُسْمِعُه من يشاء من خلقه ، وأنه بصوت ، إذا شاء صوت به .

فتبين أن قول الحافظ : « إن المنادى ملك يأمره الله بأن ينادى بذلك » باطل إذ هو خلاف الحق ، وأن المنادى هو الله .

وإذا كان الله ــ تعالى ــ لا يتكلم بكلام مسموع منه ، فكيف يأمر الملك ؟ وكيف يرسل الرسل ، أوليس الكلام صفة كمال ، ومن يتكلم وينادى أكمل ممن لا يقدر على ذلك ، فما هو المسوغ لتحريف كلام الله وكلام رسوله مع أن السلف وأهل السنة مجمعون على وصف الله بالكلام ، وأن من نفى ذلك ضال سالك غير سبيل المؤمنين .

قال الألوسى : « الذى انتهى إليه كلام أئمة الدين كالما تريدى ، والأشعرى وغيرهما من المحققين أن موسى عليه السلام سمع كلام الله تعالى بحرف وصوت ، كما تدل عليه النصوص التى بلغت فى الكثرة مبلغا لا ينبغى معه تأويل ، ولا يناسب فى مقابلته قال ، وقيل ، بل قدورد فى إثبات الصوت لله تعالى أحاديث لا تحصى »[1] .

١٠٩ ــ قال : « حدثنا عبيد بن إسماعيل ، حدثنا أبو أسامة ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ، ولقد أمره ربه أن يبشرها ببيت فى الجنة » .

تقدم هذا الحديث فى الفضائل ، والنكاح ، والأدب ، وفى ألفاظ متنه وفى

---

(١) روح المعانى جـ ١ .

إسناده اختلاف عما هنا ، وقد بينت عائشة رضى الله عنها سبب غيرتها أنه كثرة ذكر النبى ﷺ لها ، وثنائه عليها ، وجاء فى رواية « لما كنت أسمعه يذكرها ، وأمره ربه أن يبشرها ببيت من قصب ، وإن كان ليذبح الشاة فيهدى فى حلائلها منها ما يسعهن »[1] .

والغيرة عند النساء جبلة لا يستطعن التخلى عنها ، ولهذا لم ينكر النبى ﷺ على عائشة ، وفى هذا الحديث فضل خديجة رضى الله عنها .

والمقصود من الحديث هنا قوله : « ولقد أمره ربه أن يبشرها » لأن الأمر عند الإطلاق لا يكون إلا بالكلام ، فلذلك قال العلماء : إن من نفى الكلام عن الله تعالى فقد نفى الرسالة ، والشرائع كلها ، لأنها أمر ونهى .

« قال الخلال فى السنة : أخبرنى على بن عيسى ، أن حنبلا حدثهم ، قال : سمعت أبا عبد الله يقول : من زعم أن الله لم يكلم موسى ، فقد كفر بالله ، وكذب بالقرآن ، ورد على رسول الله ﷺ أمره ، يستتاب من هذه المقالة فإن تاب وإلا ضربت عنقه » .

قال : وسمعت أبا عبد الله ، قال : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ ﴾ فأثبت الكلام لموسى كرامة منه لموسى ، ثم قال ـــ تعالى ـــ يؤكد كلامه : ﴿ تَكْلِيمًا ﴾ .

قلت لأبى عبد الله : الله تعالى يكلم عبده يوم القيامة ؟ قال : نعم ، فمن يقضى بين الخلائق إلا الله عز وجل ، يكلم الله عبده ويسأله ، لم يزل الله يأمر بما يشاء ويحكم ، وليس له عدل ، ومثل ، كيف شاء ، وأنى شاء »[2] .

---

(١) انظر الفتح جـ ٩ ص ٣٣٦ و جـ ٧ ص ١١٣ و جـ ١٠ ص ٤٣٥ .
(٢) درء تعارض العقل والنقل جـ ٢ ص ٣٧ ـــ ٣٨ .

قال : « باب كلام الرب مع جبريل ، ونداء الله الملائكة » .

يريد بهذا تنويع الأدلة ، وأن الله يتكلم متى شاء ، ويكلم من يشاء من ملائكته فى أى وقت أراد ، وسبق الكلام فى النداء .

« وقال معمر : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أى يلقى عليك ، وتلقاه أنت — أى وتأخذه عنهم — ومثله ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ ﴾ .

قال الحافظ : « معمر ، هذا يتبادر أنه ابن راشد ، شيخ عبد الرزاق ، وليس كذلك ، بل هو أبو عبيدة ، معمر بن المثنى اللغوى .

قال أبو ذر الهروى : وجدت ذلك فى كتاب المجاز له ، فقال فى تفسير سورة النمل فى قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أى تأخذه عنه ، ويلقى عليك .

وقال فى سورة البقرة : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ ﴾ أى قبلها ، وأخذها عنه ، قال أبو عبيدة : وتلا علينا أبو مهدى آية ، فقال : تلقيتها من عمى ، تلقاها عن أبى هريرة ، تلقاها عن النبى ﷺ .

وقال فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾ أى لا يوفق لها ، ولا يرزقها ولا يلقنها .

وحاصله : أنها تأتى بالمعانى الثلاثة ، وأنها هنا صالحة لكل منها .

وأصله : اللقاء ، وهو استقبال الشىء ومصادفته »[2] .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل جـ ٢ ص ٣٧ — ٣٨ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٦١ ، وانظر مجاز القرآن جـ ١ ص ٣٨ و جـ ٢ ص ٩٢ ، ١١١ .

ومقصوده بالمعانى الثلاثة ، تأخذها ، وتقبلها ، وتوفق لها وترزقها ، وبعضها قريب من بعض .

وقال ابن جرير : « وإنك يا محمد لتحفظ القرآن ، وتعلمه »[1] .

وقال : ﴿ فَتَلَقَّى ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَـٰتٍ ﴾ قيل : إنه أخذ وقبل ، وأصله : التفعل من اللقاء ، كما يتلقى الرجل مستقبله عند قدومه من غيبته ، أو سفره . فكأنه استقبله ، فتلقاه بالقبول حين أوحى إليه ، أو أخبره ، ومعناه فلقَّى اللهُ آدمَ كلمات توبة ، فتلقاها آدم من ربه ، وأخذها عنه تائبا »[2] .

١١٠ ــ قال : « حدثنى إسحاق ، حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عبد الرحمن ــ هو ابن عبد الله بن دينار ، عن أبيه ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل : إن الله قد أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماء : إن الله قد أحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول فى أهل الأرض » .

قال الحافظ : « وقع فى بعض طرقه بيان سبب هذه المحبة والمراد بها ، ففى حديث ثوبان : « أن العبد ليلتمس مرضاة الله ــ تعالى ــ فلا يزال كذلك حتى يقول يا جبريل : إن عبدى فلانا يلتمس أن يرضينى ، ألا وإن رحمتى غلبت عليه »[3] .

يعنى أن المراد بالمحبة هى الرحمة ، كما يقوله الأشاعرة ، وليس كذلك ،

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٩ ص ١٣٢ .

(٢) تفسير الطبرى جـ ١ ص ٥٤١ تحقيق محمود شاكر .

(٣) الفتح جـ ١٠ ص ٤٦٢ وقال : أخرجه أحمد والطبرانى فى الأوسط .

بل المحبة صفة لله تعالى غير صفة الرحمة ، ورحمة الله تعالى لعبده من لوازم محبته له ، وقد تقدم تقرير ذلك ، والرد على المحرفين من الأشاعرة وغيرهم[1] .

وأسباب محبة الله تعالى لعبده متعددة ، حسب ما دلت عليه النصوص فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ منها : التوبة فالله تعالى يحب التوابين ومنها : التطهر من الأنجاس الحسية والمعنوية : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ومنها : الثبات أمام العدو صفوفا كالبنيان المرصوص .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ .

وفى الحديث الصحيح « لا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به » الحديث .

قوله : « إن الله تبارك وتعالى » قال ابن عباس : تبارك تفاعل من البركة ، وهو كقول القائل : تقدس ربنا »[2] .

وقال الأزهرى : « أخبرنى المنذرى عن أبى العباس ، أنه سئل عن تفسير « تبارك الله » فقال : ارتفع ، والمتبارك المرتفع ، ومعنى البركة الكثرة فى كل خير وتبارك تعالى وتعاظم ، وقال ابن الأنبارى : تبارك الله : أى يتبرك باسمه فى كل أمر ، وقال الليث : « تبارك الله تمجيد وتعظيم » .

وقال أبو بكر تبارك : تقدس — أى تطهر ، والمقدس المطهر »[3] .

وقال : « عن الليث « تعالى » هو العلى المتعالى » العالى الأعلى ، ذو العلاء والعُلا والمعالى ، تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، وهو الأعلى — سبحانه —

---

(١) انظر ص ٦٤ من الجزء الأول من هذا الشرح .
(٢) انظر تفسير الطبرى جـ ١٨ ص ١٧٩ .
(٣) تهذيب اللغة جـ ١٠ ص ٢٣٠ ملخصا .

بمعنى العالى ، وتفسيره « تعالى » : جل عن كل ثناء ، فهو أعظم وأجل وأعلى مما يثنى عليه ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له »[1] .

يعنى أن ثناء الخلق عليه ــ تعالى ــ لا يبلغ ما يستحقه من الثناء ، ولا قريبا من ذلك ، بل هو كما أثنى على نفسه ، ولهذا قال النبى ﷺ : « لا أحصى ثناء عليك ، بل أنت كما أثنيت على نفسك »[2] .

قال الأزهرى : « وتفسير هذه الصفات لله تعالى يقرب بعضها من بعض فالعلى : الشريف ، فعيل من علا يعلو ، وهو بمعنى العالى ، وهو الذى ليس فوقه شىء ، ويقال هو الذى علا الخلق فقهرهم بقدرته .

وأما المتعالى : فهو الذى جل عن إفك المفترين ، وتنزه عن وساوس المتحيرين ، وقد يكون المتعالى بمعنى العالى .

والأعلى هو الله الذى هو أعلى من كل عال ، واسمه الأعلى أى صفته أعلى الصفات »[3] .

وقال ابن القيم : « الرب تعالى يقال فى حقه تبارك ، ولا يقال : مبارك .

ثم قالت طائفة منهم الجوهرى : إن تبارك بمعنى بارك ، مثل قاتل وتقاتل إلا أن فاعل يتعدى ، وتفاعل لا يتعدى . وهذا غلط عند المحققين ، وإنما تبارك تفاعل من البركة ، وهذا الثنى فى حقه ــ تعالى ــ إنما هو لوصف رجع إليه ، كتعالى ، فإنه تفاعل من العلو ، ولهذا يقرن بين هذين اللفظين فيقال : تبارك وتعالى ، وهو سبحانه أحق بذلك وأولى من كل أحد ، فإن الخير كله بيده ،

---

(١) المرجع المذكور جـ ٣ ص ١٨٦ .

(٢) رواه أبو داود فى السنن جـ ٢ ص ١٣٤ والترمذى رقم ٣٥٦١ والنسائى ١٧٤٨ وابن ماجه رقم ١١٧٩ .

(٣) تهذيب اللغة جـ ٣ ص ١٨٦ .

وصفاته كلها صفات كمال ، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة ، وخيرات لا شرور فيها .

وهذا ثناء يشعر بالعظمة والرفعة والسعة ، كما يقال : تعاظم ، وتعالى ونحوه ، فهو دليل على عظمته ، وكثرة خيره ، ودوامه ، واجتماع صفات الكمال فيه ، وأن كل نفع في العالم كان ويكون فمن نفعه ــ سبحانه ــ وإحسانه .

ويدل هذا الفعل أيضا فى حقه على العظمة ، والجلال وعلو الشأن »[1] .

قوله : « إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إن الله يحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل » .

صريح فى أن الله ــ تعالى ــ يحب من يشاء من عباده من أهل الطاعة له والتقوى ، كما هو صريح أيضا فى أنه ــ تعالى ــ يتكلم وينادى متى شاء لمن يشاء ، وفى هذا الحديث النداء لجبريل خاصة ، وتقدم أن النداء لا يكون إلا بصوت مرتفع ، وأن مثل هذه النصوص من أبلغ الأدلة على إثبات صفة الكلام لله ــ تعالى ــ وهذا القدر من الحديث هو المقصود إذ هو محل الشاهد وفيه أن جبريل عليه السلام بمجرد إخبار الله له بأنه تعالى يحب العبد يحبه ، وأنه هو سفير الله تعالى إلى الملائكة ، كما أنه سفيره إلى الرسل من البشر ، ولهذا قال : « ثم ينادى جبريل فى السماء » مما يعجب له العاقل أن جميع شراح الحديث الذين اطلعت على أقوالهم يقولون إن هذا الندى من جبريل نداء حقيقى يسمع منه بصوته ، تسمعه ملائكة السماء ، وأكثرهم يقول : إن النداء المسند إلى الله تعالى ليس حقيقيا ، وإنما معناه : أمره لمن ينادى ، أو إعلام جبريل بما يفهم منه أن الله يحب ذلك العبد .

---

(١) جلاء الافهام ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧ وانظر بقية الكلام فيه .

وهكذا يتلاعبون بكلام الله وكلام رسوله مما سبب ضلال كثير من الخلق .

والله جل وعلا سوف يسألهم عن ذلك ، وسوف يعلمون حين يقفون بين يديه أى جناية جنوها عليه وعلى أنبيائه ، وعلى شرعه ، وعلى عباده .

والمراد بالسماء هنا الجنس ، أى السماوات ، ونداؤه فيهم يقول : « إن الله قد أحب فلانا ، فأحبوه » .

« فيحبه أهل السماء » أى أن ملائكة السماوات بمجرد إخبار جبريل وأمره يحبونه ، لأنهم يحبون الله ويحبون ما يحبه ، ومن ثمرات ذلك استغفارهم لهذا العبد ، وموالاتهم له ، وهذا فى الحقيقة هو الشرف والرفعة ، وبه تحصل السعادة بمشيئة الله تعالى .

« فيوضع له القبول فى أهل الأرض » أى تقبله قلوبهم وتحبه ، لأن الله تعالى يحبه ، ومن أحبه الله — تعالى — حببه إلى عباده فى السماوات والأرض .

فشهدوا له بالخير ورجوا له الفلاح لما وقع فى قلوبهم له .

١١١ — قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، عن مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة العصر ، وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ، وهو أعلم بهم ، كيف تركتم عبادى ؟

فيقولون : تركناهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون » .

تقدم هذا الحديث وشرح فى باب قوله — تعالى — ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ والمقصود منه فى هذا الباب قوله : « فيسألهم — وهو أعلم

بهم – كيف تركتم عبادى ؟ » لأن الظاهر من السؤال أنه بالكلام وسماع صوت السائل .

وملائكة الله لكل منهم مقام معلوم لا يتجاوزه ، وأعلاهم مقاما جبريل عليه السلام وقد سبق أنه تعالى يناديه ، فهؤلاء أولى بالمناداة ، لأنهم أنزل مقاما منه .

وفى الأنبياء « الملائكة يتعاقبون ، ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار » فعلى هذه لا يكون فيه شاهد لما يسمى بلغة « أكلونى البراغيث » .

وفى سؤال الله تعالى عن عباده ، مباهاة بهم ، وإظهارا لفضلهم عند الملائكة ، وبيانا لشىء من عظيم كرم الله تعالى ، وإحسانه .

١١٢ – قال : « حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة ، عن واصل ، عن المعرور ، قال : سمعت أبا ذر ، عن النبى ﷺ قال : « أتانى جبريل فبشرنى أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ، قلت : وإن سرق وإن زنى ؟ قال : وإن سرق ، وإن زنى » .

قوله : « أتانى جبريل » يعنى بالوحى من الله ، فهو لا يأتى إلا بأمر الله – تعالى – له .

« فبشرنى » . البشرى : هى الإخبار بما يسر ، لأن ذلك يغير بشرة الوجه ، لأن النفس إذا سرت انتشر الدم فى الجسم كانتشار الماء فى عروق الشجرة فيظهر ذلك على وجه المبشر .

وقد تستعمل البشارة فيما يسوء من باب النكاية والتهكم والإياس من الخير[1]

---

(١) انظر المفردات للراغب ص ٤٨ .

« من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » يعنى وإن حصل منه تقصير بالواجبات ، وفعل لبعض المحرمات غير الشرك ، فإن من مات على ذلك دخل الجنة ، ولا ينافى هذا حصول العذاب له ، بل قد يعذب فى قبره ، وبعد ما يبعث ، وقد يدخل النار ، ثم يخرج منها بعدما يطهر من الخطايا التى تلطخ بها فى الدنيا ، وقد يعفو الله عنه فيدخله الجنة بلا عذاب ، والنصوص الدالة على ذلك كثيرة جدا .

فكل عاص لله تعالى من الموحدين لابد من دخوله الجنة وإن أصابه ما أصابه ، وإنما الشأن فى اجتناب الشرك ، فهو أمر صعب إلا على من هدى الله قلبه ، وهو أنواع منها الجلى والخفى .

فقوله : « لا يشرك بالله شيئا » يعم أنواع الشرك كلها ، لأنه نكرة بعد النفى ، فيدخل فيه الأصغر ، والقليل ، والله المستعان .

« قلت : وإن سرق ، وإن زنى » كأنه فهم من هذا الإطلاق أن ما عدا الشرك من الذنوب يحصل دخول الجنة مع وجوده ، فأراد أن يتثبت عن هذا المفهوم ، فأخبره أن ذلك صحيح . وأن من اجتنب الشرك دخل الجنة ، وإن تفاوت دخول العصاة غير المشركين الجنة فى الوقت والمكان أعنى تقدم الدخول والمنزلة .

والشاهد منه قوله : « فبشرنى أنه من مات » إلى آخره ، لأن هذه البشارة لابد أن تكون من الله أرسل جبريل بها إلى محمد ﷺ ، والرسالة لا تكون إلا بالكلام ، والنداء داخل فيه ، فالله تعالى قد نادى جبريل أن يذهب بهذا الأمر إلى محمد ﷺ ، والله أعلم .

قال : باب قول الله ــ تعالى ــ ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ .

الضمير فى « أنزله » يعود إلى القرآن ، كما هو واضح من الآية وهى قوله تعالى : ﴿ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ . ﴿ لَّـٰكِنِ ﴾ للاستدراك مما سأله اليهود فيما ذكره الله عنهم بقوله : ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، فهم يرون أن مجىء الوحى إليه بواسطة جبريل غير كاف فى الدلالة على نبوته ، وأنه إذا كان صادقا فليأت بكتاب من السماء ، كما جاء موسى ــ عليه السلام ــ بالتوراة مكتوبة ، ثم ذكر تعالى أنهم سألوا موسى ما هو أكبر من ذلك ، سألوه أن يوريهم الله جهرة ، وعدد تعالى ما فعلوه من الظلم ، والتعنت ، والبهتان العظيم ، والكفر ، ورميهم مريم بالزنا ، ومحاولتهم. قتل رسول الله عيسى ، وأكلهم الربا ، وذكر ما أصابهم بسبب ذلك ، ثم ذكر تعالى أن منهم راسخين فى العلم ، ومؤمنين بما أنزل الله من كتاب ، ثم أخبر تعالى أنه أوحى إلى محمد كما أوحى إلى النبيين من قبله ، وعدد بعضهم ، وبعضا منهم لم يذكره ، وأنه تعالى خص موسى بتكليمه ، ثم ذكر الحكمة من إرسال الرسل ، لئلا يكون للناس على الله حجة ثم قال تعالى : ﴿ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ﴾ الآية .

قال ابن جرير : « يعنى بذلك ــ جل ثناؤه ــ إن يكفر بالذى أوحينا إليك يا محمد اليهود الذين سألوك أن تنزل عليهم كتابا من السماء ، وقالوا لك : ما أنزل الله على بشر من شىء ، فكذبوك » وليس الأمر كما قالوا ، « لكن الله يشهد بتنزيله إليك من الكتاب ، والوحى ، أنزل ذلك إليك ، بعلم منه بأنك خيرته من خلقه ، وصفيه من عباده ، ويشهد لك بذلك الملائكة ، فلا يحزنك تكذيب من كذبك ، وخلاف من خالفك ، وحسبك بالله شاهدا على

صدقك ، فإنه لا يضرك مع ذلك تكذيب من كذبك »[1] .

ومراد البخارى بهذه الترجمة أن يبين أن القرآن من علم الله تعالى وصفة له فليس مخلوقا ، فكأنه يقول : أنزله فيه علمه أى هو من علمه ، وقد احتج الإمام أحمد على كفر من قال : القرآن مخلوق ، بأن القرآن من علم الله ، فمن زعم أن علم الله مخلوق فهو كافر ، واستدل على ذلك بنحو قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾[2] .

وتقدم الكلام على هذه الآية وذكر أقوال المفسرين فيها[3] .

قوله : « قال مجاهد : ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ بين السماء السابعة ، والأرض السابعة » .

مقصوده أن الله تعالى أخبر بأنه خلق السماوات السبع ومن الأرض مثلهن ثم ذكر أن الأمر يتنزل بينهن أى بين السماوات وبين الأرضين فالأمر غير الخلق ، ثم قال تعالى : ﴿ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ فأمره تعالى الذى يتنزل بين السماوات والأرض بعلمه ، وأمره ، وعلمه من صفاته .

فأمر الله تعالى ، وعلمه ، وحكمه ، وتصرفه ينفذ فى السماوات السبع والأرضين السبع ، لا يمتنع عليه شىء ، ولا يخفى عليه فيهن شىء ، فالكل فى قبضته وتحت تصرفه ، وفى علمه واطلاعه جل وعز .

وما يذكره كثير من المفسرين عند هذه الآية من أن الأرضين سبع طبقات

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٩ ص ٤٠٩ تحقيق محمود شاكر .

(٢) انظر السنة لعبد الله بن الإمام أحمد ص ٩ ــ ١٠ .

(٣) انظر الجزء الأول من هذا الشرح من ١٠٥ ــ ١٠٦ .

منفصل بعضها عن بعض ، وبين كل أرض والتى تليها مسيرة خمسمائة عام ، وبعضهم يذكر أن فى كل أرض أنبياء مثل الذين ذكروا فى القرآن وعلى أسمائهم إلى آخر ما ذكروه مما يشبه هذيان المجانين . كل ذلك خرافات مصدرها زنادقة اليهود وإخوانهم من كل شيطان رجيم .

قال القرطبى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ أى سبعًا ، واختلفوا فيهن على قولين أحدهما قول الجمهور ، أنها سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض ، بين كل أرض ، وأرض مسافة كما بين السماء والسماء ، وفى كل أرض سكان من خلق الله .

وقال الضحاك : « ومن الأرض مثلهن » أى سبعا من الأرضين ولكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السماوات .

والأول أصح ، لأن الأخبار دالة عليه »[1] .

قلت : بل قول الضحاك هو الصواب ، والأول باطل قطعا بدون شك وما زعمه من أنه قول الجمهور ، وأن الأخبار دالة عليه ليس كما زعم .

نعم قد روى عن ابن عباس ، فإن صح فهو مما تلقاه من أهل الكتاب ممن هو متهم بالكذب منهم ، وأما دلالة الأخبار عليه فليس فيه أخبار صحيحة صريحة فى الدلالة عليه ، بل نقطع أن الأخبار عن الله ورسوله لم تدل عليه ، لأن كلام الله وكلام رسوله حق ، لا يؤيد الباطل ولا يدل عليه ، بل الأخبار دلت على أن الأرضين سبع فقط ، بدون فتوق ، كما فى الصحيحين « من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين » ونحوه من الأحاديث .

فيتعين حملها على أنها طبقات غير مفتوقة ، كما قاله الضحاك .

---

(١) تفسيرالقرطبى جـ ١٨ ص ١٧٤ ــ ١٧٥ .

وفى هذا الوقت أمكن الدوران على الأرض فى وقت وجيز جدا مما يبين بالحس والمشاهدة بطلان ما رجحه القرطبى .

١١٣ ــ قال : « حدثنا مسدد ، حدثنا أبو الأحوص ، حدثنا أبو إسحاق الهمدانى ، عن البراء بن عازب ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يا فلان إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم أسلمت نفسى إليك ، ووجهت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبنبيك الذى أرسلت ، فإنك إن مت فى ليلتك مت على الفطرة ، وإن أصبحت أصبت خيرا » .

البراء بن عازب بن الحارث بن عدى الأنصارى ، الأوسى ، استصغره رسول الله ﷺ يوم بدر هو وابن عمر فردهما ، وشهد أحدا وما بعدها من الغزوات ، وروى عنه أنه غزا مع النبى ﷺ أربع عشرة غزوة ، وفى رواية خمس عشرة ، قال الحافظ : إسناده صحيح .

وقال : سافرت مع رسول الله ﷺ ثمانية عشر سفرا ، أخرجه أبو ذر الهروى[1] .

وكان يقول : أنا الذى أرسل معه النبى ﷺ السهم إلى قليب الحديبية فجاش بالرى .

قال الذهبى فيه : « الفقيه الكبير ، من أعيان الصحابة ، نزل الكوفة ، توفى سنة اثنتين وسبعين أو إحدى وسبعين ، عن بضع وثمانين سنة[2] .

---

(١) الإصابة جـ ١ ص ٢٧٨ وانظر أسد الغابة جـ ١ ص ٢٠٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ١٩٤ .

قوله : « يا فلان » جاء فى الروايات الأخرى أن المخاطب هو البراء بن عازب ففى الدعوات عند المؤلف : « عن عبيدة قال : حدثنى البراء بن عازب ، قال : قال لى رسول الله ﷺ وذكر الحديث[1] ، وفيه : « إذا أتيت إلى مضجعك فتوضأ وضوؤك للصلاة » . قال الحافظ : ظاهره استحباب تجديد الوضوء لكل من أراد النوم ، ولو كان على طهارة .

ويحتمل أن يكون مخصوصا بمن كان محدثا »[2] .

« إذا أويت إلى فراشك » أوى إلى المكان إذا أقام فيه ، ورجع إليه والمعنى : إذا جئت إلى فراشك تريد النوم .

« فقل : اللهم أسلمت نفسى إليك » قال الحافظ : على رواية فتوضأ « الأمر فيه للندب ، وله فوائد : منها أن يبيت على طهارة ، لئلا يبغته الموت فيكون على هيئة كاملة ، ويؤخذ منه الندب إلى الاستعداد للموت بطهارة القلب ، لأنه أولى من طهارة البدن .

وقد أخرج عبد الرزاق ، عن مجاهد قال : قال لى ابن عباس : « لا تنامن إلا على وضوء ، فإن الأرواح تبعث على ما قبضت عليه » .

وروى عن أبى مرثد العجلى ، قال : من أوى إلى فراشه طاهرا ونام ذاكرا كان فراشه مسجدا ، وكان فى صلاة ، وذكر حتى يستيقظ ، ومن أوى إلى فراشه غير طاهر ، ونام غير ذاكر كان فراشه قبرا ، وكان جيفة حتى يستيقظ »[3] .

ويتأكد ذلك فى حق الجنب ، وإن اغتسل قبل نومه فهو أفضل .

---

(١) انظر الفتح جـ ١١ ص .

(٢) الفتح جـ ١ ص ٣٥٨ .

(٣) المصنف جـ ١١ ص ٣٧ و ٧٩ .

« ومنها أن يكون ذلك أبعد عن تلاعب الشيطان ، وأصدق للرؤيا »[1] .

وقوله : « اللهم أسلمت نفسى إليك » أى استسلمت لك ، نفسى منقادة مذعنة لك ، راضية بك ربا ، وبدينك شرعا ، وبنبيك رسولا ، ومنقادة لحكمك وقضائك . لا إله إلا أنت .

« ووجهت وجهى إليك » أى جعلت قصدى ومرادى إليك ، راجيا ثوابك خائفا من عقابك .

« وفوضت أمرى إليك » أى توكلت عليك مستكفيا بك ، فأمرى كله إليك تتصرف فىَّ كيف تشاء ، ورغبتى فى جودك وفضلك .

« وألجأت ظهرى إليك » أى أنت عمادى ، وعليك استنادى ، فأعتمد عليك بأن تكفينى كل ما أهمنى ، وتحمينى من كل ما يؤذينى .

« رغبة ورهبة إليك » أى أفعل ذلك راغبا فى فضلك وإحسانك وراهبا من عقابك ، وعذابك بسبب ذنوبى .

« لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك » أى لا مهرب ينجى من هرب منك ولا نجاة لمن أردته بعذابك إلا بالرجوع إليك ، والاستسلام لك ، والإنابة إليك .

« آمنت بكتابك الذى أنزلت » أى أتوسل إليك بأنى أصدق وأوقن بأن الكتب التى أنزلتها على رسلك هى قولك حقا ، وفيها الهدى والنور ، الذى هو شرعك ، ولمن اتبعها السعادة ، ومن أعظمها القرآن الذى أنزلته على عبدك ورسولك محمد خاتم الرسل ﷺ فأنا أؤمن بذلك ، وأرغب إليك بأن تستجيب دعائى لذلك .

---

(١) الفتح جـ ١١ ص ١١٠ .

وهذا القدر من الحديث هو محل الشاهد ، فإن كتاب الله هو كلامه وفيه علمه ، كما قال الزجاج : ﴿ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ أى أنزل القرآن الذى فيه علمه »[1] .

فمن زعم أن القرآن مخلوق ، لزمه أن يكون علم الله مخلوقًا ، وهذا كفر كما قاله الأئمة أحمد وغيره .

« ونبيك الذى أرسلت » أى أتوسل إليك بإيمانى واتباعى لنبيك محمد ﷺ الذى أرسلته إلينا ليبلغنا كلامك ، وأمرك ونهيك كما أؤمن بكل نبى لك أوحيت إليه وأرسلته إلى عبادك .

« فإنك إن مت فى ليلتك مت على الفطرة » يعنى إن كانت نومتك تلك فيها قبض روحك ، وفراقها لبدنك ، فإنك تموت على السنة التى جاء بها نبيك ، ومن مات عليها فهو السعيد .

« وإن أصبحت أصبت خيرا » أى إن ردت روحك بعد النوم إلى جسمك وأصبحت حيا ، نلت بهذا الدعاء أجرا عند الله .

١١٤ ـــ قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا سفيان ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن عبد الله بن أبى أوفى ، قال : قال رسول الله يوم الأحزاب : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، وزلزلهم .

زاد الحميدى : حدثنا ابن أبى خالد ، سمعت عبد الله ، سمعت النبى ﷺ » .

---

(١) انظر معانى القرآن وإعرابه جـ ٢ ص ١٤٧ .

عبد الله بن أبى أوفى ، واسم أبى أوفى علقمة بن خالد الأسلمى ، هو وأبوه صحابيان ، شهد الحديبية ، وبايع بيعة الرضوان ، وقال غزوت مع رسول الله ﷺ : ست غزوات نأكل الجراد[1] .

لما قبض النبى ﷺ ذهب عبد الله إلى الكوفة وهو آخر من توفى فيها من الصحابة ، ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم صلِ على آل أبى أوفى » توفى رضى الله عنه سنة ست وثمانين ، أو ثمان وثمانين[2] .

قوله : « يوم الأحزاب » يدل على أن هذا الدعاء كان فى غزوة الأحزاب ، وجاء فى روايات : « أن رسول الله ﷺ فى بعض أيامه التى لقى العدو ، انتظر حتى مالت الشمس ، ثم قام فى الناس فقال : « لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ، ثم قال : اللهم منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » .

وهو يدل على أنه يدعو بذلك عند لقاء العدو .

« اللهم منزل الكتاب » هذا توسل إلى الله تعالى بفضله على عباده من إنزاله الكتاب الذى فيه حياة القلوب ، والاعتصام من الضلال ، وفيه وعده الكريم لعباده بالنصر والتأييد ، كقوله تعالى : ﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾[3] .

« سريع الحساب » قال ابن جرير : « إنما وصف جل ثناؤه نفسه بسرعة الحساب لأنه جل ذكره يحصى ما يحصى من أعمال عباده بغير عقد أصابع ،

---

(١) انظر تحفة الأحوذى جـ ٥ ص ٥٤٧ ، ٥٤٨ .

(٢) انظر الإصابة جـ ٤ ص ١٨ وأسد الغابة جـ ٣ ص ١٨٢ سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ٤٢٨ .

(٣) الآية ١٤ من سورة التوبة .

ولا فكر ، ولا روية ـــ فعل العجزة الضعفة من الخلق ، ولكنه لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما .

ثم هو ـــ تعالى ـــ مجازٍ عباده على كل ذلك ، فلذلك امتدح نفسه ـــ جل ذكره ـــ بسرعة الحساب ، وأخبر خلقه أنه ليس لهم بمثيل ، فيحتاج فى حسابه إلى عقد كف أو وعى صدر »[1] .

وقال على قوله : ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴾ أى أسرع من حسب عددكم ، وأعمالكم وآجالكم ، وغير ذلك من أموركم ـــ أيها الناس ـــ وأحصاها ، وعرف مقاديرها ومبالغها ، لأنه لا يحسب بعقد يد ، ولكنه يعلم ذلك ولا يخفى عليه منه خافية ، ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ »[2] .

وهو جل ذكره سريع محاسبة عباده يوم القيامة حيث لا يشغله محاسبة واحد عن الآخر .

« اهزم الأحزاب وزلزلهم » الهزيمة هى القهر والإذلال ، والزلزلة : الاضطراب ، وعدم الثبات ، فهو يدعو عليهم بأن يقهرهم ، ويذلهم بأيدى المسلمين ، وأن ينزل عليهم الرعب والخوف الذى يزلزل قلوبهم وأجسامهم قوله : « زاد الحميدى » إلى آخره : مراده به التصريح بالسماع ، بخلاف قتيبة ابن سعيد فإنه عنعن السند .

والمقصود من الحديث قوله : « اللهم منزل الكتاب » فإنه تعالى أنزله منه فهو قوله ووصفه ، ولو كان مخلوقا كما يقوله الضالون ، ما احتاج إلى إنزال بل يخلقه فى أى مكان ، فهو تعالى أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٤ ص ٢٠٧ ـــ ٢٠٨ بتحقيق محمود شاكر .

(٢) المصدر المذكور جـ ١١ ص ٤١٣ .

شهيدا ، ونحن نشهد بذلك ، ونرجو من منزل الكتاب ، وسريع الحساب وهازم الأحزاب ومزلزلهم أن يثبتنا على هذه الشهادة ويثيبنا عليها خير ثواب .

١١٥ ــ قال : « حدثنا مسدد ، عن هشيم ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ . قال : أنزلت ورسول الله ﷺ متوار بمكة ، فكان إذا رفع صوته سمع المشركون فسبوا القرآن ، ومن أنزله ، ومن جاء به ، وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ لا تجهر بصلاتك حتى يسمع المشركون ، ولا تخافت بها عن أصحابك فلا تسمعهم ﴿ وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ أسمعهم ولا تجهر حتى يأخذوا عنك القرآن » .

المراد بالصلاة فى الآية القراءة ، وقد قال ابن جرير ــ رحمه الله ــ « لولا أننا لا نستجيز، مخالفة أهل التفسير فيما جاء عنهم ، لاحتمل أن يكون المراد : ﴿ ولَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ أى بقراءتك نهارا ، ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ أى ليلا ، وكان ذلك وجها لا يبعد فى الصحة »[١] .

وقد جاء ذلك مفسرا كما فى هذا الحديث أن المراد القراءة وهو يصلى ، فكان صلوات الله وسلامه عليه يرفع صوته فى القراءة رجاء أن يؤثر فيمن يسمعه من كفار قومه فيسلموا ، ويسمعه من معه من المسلمين فيحفظوا وكان للقرآن وقع عظيم فى قلوبهم وأثر بالغ فى نفوسهم ، ولذلك منعه الملأ من الكفار خوفا أن يتأثر به بعضهم فيسلموا كما جربوا ذلك وقالوا : إن رفعت صوتك به هجوناك ، وهجونا من قاله ، ومن جاء به ، فأمره الله تعالى أن لا يرفع

---

(١) انظر تفسير الطبرى جـ ١٥ ص ١٨٨ .

صوته ، وألا يخافت به بحيث لا يسمعه من عنده من المسلمين ، بل يبتغى بين الجهر والإخفات سبيلا ، فيكون وسطا بين الجهر والإخفات .

والمقصود قوله : « أنزلت ورسول الله ﷺ متوار بمكة » والإنزال غير الخلق ، بل هو كلامه نزل بعلمه ــ تعالى ــ فهو صفته .

فلا يجوز أن يعطى حكم المخلوق المفعول ، كما أن المخلوق لا يجهر به ولا يخافت وكون الرسول ﷺ وغيره ممن يقرؤه ، يرفع صوته به أو يخفضه لا يخرجه من كونه كلام ، بل هو دليل على أنه كلام الله تعالى قرأه عبده .

فرفع به صوته أو خفضه ، لأن الكلام لمن قاله مبتدئًا ، لا لمن قاله مبلغا مؤديا كما سيأتى بيان ذلك .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ ، ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ حق . ﴿ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ باللعب .

قال الله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1] .

قال ابن جرير : « يقول ــ تعالى ذكره ــ لنبيه محمد ﷺ سيقول لك المخلفون فى أهليهم ، عن صحبتك إذ سرت معتمرا ، تريد بيت الله الحرام ، إذا انطلقت ، أنت ومن صحبك فى سفرك ذلك إلى ما أفاء الله عليك ، وعليهم من الغنيمة ﴿ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ ، وذلك ما كان الله وعد أهل الحديبية من مغانم خيبر . ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ إلى خيبر ، فنشهد معكم قتال أهلها : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ ، يقول : أن يغيروا وعد الله الذى وعد أهل الحديبية ،

---

(١) الآية ١٥ من سورة الفتح .

وذلك أن الله ـــ تعالى ـــ جعل مغانم خيبر لهم ، ووعدهم ذلك ، عوضا من غنائم أهل مكة ، إذ انصرفوا عنهم على صلح و لم يصيبوا منهم شيئا »[1] . ثم روى ذلك عن مجاهد ، وقتادة ، ومقسم .

قال الحافظ : « قال ابن بطال : أراد بهذه الترجمة ، وأحاديثها ، ما أراد فى الأبواب قبلها ـــ أن كلام الله تعالى ـــ صفة قائمة به ، وأنه لم يزل متكلما ولا يزال .

والذى يظهر أن غرضه أن كلام الله ، لا يختص بالقرآن ، فإنه ليس نوعا واحدا وأنه وإن كان غير مخلوق ، وهو صفة قائمة به ، فإنه يلقيه على من يشاء من عباده بحسب حاجتهم فى الأحكام الشرعية وغيرها من مصالحهم ، وأحاديث الباب كالمصرحة بهذا المراد »[2] .

قال فى : خلق أفعال العباد : « باب ما كان النبى ﷺ يذكر ويروى عن ربه ـــ عز وجل ـــ » ثم ذكر نحو ما ذكره هنا من الأحاديث .

ويمكن أنه أراد بيان أن كلام الله يكون بأمره وشرعه ، ووعده وجزائه بخلاف خلقه ، فإنه الصادر عن قوله « كن » ، وخلق الله لا يبدل ، كما قال ـــ تعالى ـــ ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ ، أما قوله فيمكن أن يبدل ، أو يحرف .

وقد تبين بما ذكره ابن جرير ـــ رحمه الله ـــ أن معنى قوله : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ هو خروج المتخلفين عن الحديبية إلى خيبر ، لأن الله تعالى وعدهم مغانم خيبر خاصة بهم .

والقول الثانى : فى الآية أن المراد تبديله هو قوله تعالى : ﴿ قُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا ﴾ . غير أن ابن جرير رد هذا القول .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢٦ ص ٧٩ ـــ ٨٠ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٦٧ .

وسياق الآية يؤيد هذا القول ، فإنه تعالى قال : ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ . والله أعلم .

قال البغوى :﴿ إِنَّهُ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ حق ، وجد ، يفصل بين الحق والباطل .

﴿ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ باللعب ، والباطل »[1] .

١١٦ ــ قال : « حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة ، قال : قال النبى ﷺ : « قال الله ــ تعالى ــ يؤذينى ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب الليل ، والنهار » .

قال ابن كثير : « معناه أنهم يقولون : ياخيبة الدهر ، فعل كذا وكذا فيسندون أفعال الله ــ تعالى ــ إلى الدهر ، ويسبونه ، وإنما الفاعل هو الله ــ عز وجل ــ فنهى عن ذلك هكذا قرره الشافعى ، وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء »[2] .

وقال شيخ الإسلام : « للناس فى هذا الحديث قولان ، أحدهما . قول أبى عبيد وأكثر العلماء : أنه خرج الكلام فيه لرد ما يقوله أهل الجاهلية ، ومن أشبههم : فإنهم إذا أصابتهم مصيبة ، أو منعوا أغراضهم ، أخذوا يسبون الدهر ، والزمان ، يقول أحدهم : قبح الله الدهر الذى شتت شملنا ، ولعن الله الزمان الذى جرى فيه كذا وكذا ، وما يقع كثيرا من الشعراء ، وأمثالهم ، كقولهم يا دهر فعلت كذا ، وهم يقصدون سب من فعل تلك الأمور ويضيفونها إلى الدهر ، فيقع السب على الله ــ تعالى وتقدس ــ لأنه هو الذى

---

(١) تفسير البغوى على هامش الخازن جـ ٧ ص ٢٣٤ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥١٧ .

فعل تلك الأمور ، وأحدثها ، والدهر مخلوق له ، هو الذى يصرفه ، ويقلبه .

والتقدير : أن ابن آدم يسب من فعل هذه الأمور ، وأنا فعلتها فإذا سب الدهر فمقصوده سب الفاعل ، وإن أضاف الفعل إلى الدهر ، فالدهر لا فعل له ، وإنما الفاعل هو الله وحده .

وهذا كرجل قضى عليه قاض بحق ، أو أفتاه مفت بحق ، فجعل يقول : لعن الله من قضى بهذا ، أو أفتى بهذا ، ويكون ذلك من قضاء النبى ﷺ وفتياه ، فيقع السب عليه ، وإن كان الساب لجهله أضاف الأمر إلى المبلغ ، وهو ليس له إلا فعل التبليغ .

وأما الزمان ، فلا فعل له ، وإنما الله هو الذى يقلبه ويصرفه .

والقول الثانى : قول نعيم بن حماد ، وطائفة معه : أن الدهر من أسماء الله ، ومعناه : القديم الأزلى .

وهذا المعنى صحيح لأن الله ـــ تعالى ـــ هو الأول الذى ليس قبله شىء ، وهو الآخر الذى ليس بعده شىء ، ولكن لا يسمى بالدهر ، الذى هو الزمان ، أو ما يجرى مجرى الزمان »[1] .

وقال ابن قتيبة : « معناه : أن العرب فى الجاهلية يقولون : أصابنى الدهر فى مالى ، ونالتنى قوارع الدهر ، وبوائقه ، ويقول الهرم : حنانى الدهر . فينسبون كل شىء تجرى به أقدار الله ـــ عز وجل ـــ عليهم من موت ، أو سقم ، أو ثكل ، أو هرم إلى الدهر ، ويلعنونه ، ويسمونه : المنون ، كما ذكر الله عنهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ والمنون : المنية ، قال أبو ذؤيب :

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٢ ص ٤٩٣ ـــ ٤٩٤ .

أمن المنون وريبه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

فقال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا الدهر ، إذا أصابتكم المصائب ولا تنسبوها إليه ، فإن الله — عز وجل — هو الذى أصابكم بذلك ، لا الدهر »[1] .

وهذا هو ما ذكره شيخ الإسلام عن جمهور العلماء .

وكثير من الناس واقعون فى هذا المنكر . وتقدم الكلام فيه .

والمقصود هنا : قوله : « قال الله : يؤذينى ابن آدم » . وهذا خبر يتضمن النهى ، والله — تعالى — يتأذى من فعل بنى آدم ، ولكن لا يضره شيء تعالى وتقدس ، ووجه الشاهد منه أن هذا القول صدر من الله فيه إخباره — تعالى — عما يقع له من بنى آدم ، وهو بمعنى النهى والزجر ، ومعلوم أنه لا يقع شيء إلا بإذنه وإرادته ، ومن يسب الدهر كأنه يريد تبديل حكم الله وأمره الذى وجدت به الكائنات .

وقوله : « وأنا الدهر » لا يدل على أنه تعالى اسمه الدهر ، لأنه فسره بقوله : « بيدى الأمر أقلب الليل والنهار » فكونه تعالى بيده الأمر يقلب الليل والنهار هو معنى قوله : « أنا الدهر » .

١١٧ — قال : « حدثنا أبو نعيم ، حدثنا الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « يقول الله — عز وجل — الصوم لى ، وأنا أجزى به ، يدع شهوته ، وأكله وشربه من أجلى ، الصوم جنة ، وللصائم فرحتان ، فرحة حين يفطر ، وفرحة حين يلقى ربه ، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ١٥١ .

« الصوم لى » يعنى أن الصوم غالبا يكون خالصا لله ــ تعالى ــ سالما من شوائب الشرك ، من إرادة غير الله ــ تعالى ــ لأنه أمانة بين العبد وربه لا يطلع عليه إلا الله تعالى ، فإنه يجوز أن يظهر للناس أنه صائم ، وهو فى حقيقة الأمر غير صائم .

فإذا امتنع من شهوته وأكله وشربه دل ذلك على أنه أراد ما عند الله تعالى . وقد فسره بقوله : « يدع شهوته ، وأكله وشربه من أجلى » .

قوله : « وأنا أجزى به » يعنى أن جزاء الأعمال قد أخبر الله تعالى عباده بها ، أن الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، أما الصوم فالله يجزى به بدون تقدير لعظيم جزائه ، وهذا يدل على فضل الصوم إذا كان خالصا لله تعالى .

« يدع شهوته ، وأكله وشربه من أجلى » هذا هو السبب فى كونه لله ، وأنه يتولى جزاءه بغير تقدير ، وفسرت الشهوة بالجماع ، والأولى أن تكون عامة فى كل ما يشتهى ، ويكون عطف الأكل والشرب من عطف الخاص على العام .

« الصوم جنة » فى رواية سعيد بن منصور : « جنة من النار » ، ومثله عند النسائى .

وفى رواية له من حديث عثمان بن أبى العاص : « الصيام جنة كجنة أحدكم من القتال » .

والجنة : بضم الجيم : الوقاية ، والستر ، وهذا أولى ما فسر به متعلق الجنة .

واختار النووى : أنه جنة من جميع الشرور .

وفى رواية لأحمد : « الصيام جنة ما لم يخرقها » ، زاد الدارمى : « بالغيبة »[1] .

---

(١) انظر الفتح جـ ٤ ص ١٠٤ .

« وللصائم فرحتان فرحة حين يفطر ، وفرحة حين يلقى ربه » يعنى أنه يفرح إذا كمل يومه صائما فيؤمل ثواب ذلك عند الله ، ويتناول طعامه وشرابه الذى أحله الله له بعد ما منعه منه لأجل صومه .

ويفرح إذا لقى ربه عندما يجزيه أعظم جزاء ، وهذه أعظم فرحة وأحلى .

« ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » الخلوف هو تغير الفم من أثر خلو المعدة من الطعام ، فيتصاعد منها أبخرة تغير رائحة الفم .

ولما كان ذلك بسبب الطاعة ، كان عند الله طيبا ، كدم الشهيد ، فإنه يأتى يوم القيامة لونه لون الدم ، ورائحته رائحة المسك » .

والمقصود من الحديث قوله : « يقول الله — تعالى — الصوم لى » إلى آخره كالذى قبله . ووجه الشاهد منه : أن الله يقول هذا القول الذى فيه حث العباد وترغيبهم فى الصوم ، فهو مما شرعه الله تعالى لعباده ، ورضيه لهم بقوله وأمره .

١١٨ — قال : « حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن همام ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « بينما أيوب يغتسل عريانا ، خر عليه رجل جراد من ذهب ، فجعل يحثى فى ثوبه ، فناداه ربه : يا أيوب ، ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يارب ، ولكن لا غنى بى عن بركتك » .

« بينما أيوب يغتسل عريانا » يعنى وهو خالٍ . استدل به البخارى على جواز الغسل عريانا فى الخلوة فقال : باب من اغتسل عريانا وحده فى الخلوة ومن تستر ، فالستر أفضل »[1] .

---

(١) انظر الصحيح جـ ١ ص ٥٣ الباب رقم ٢٠ .

« خر عليه رجل جراد من ذهب » رجل الجراد ، القطعة من الجراد ، كما قال الأزهرى : « الرجل : القطعة من الجراد »[1] .

وهذا جراد على خلاف المعهود ، وإنما هو ذهب أنـزله الله على نبيه أيوب ، على صور الجراد ، وذلك من جزاء صبره على البلاء ، ورضاه بما قدره الله .

« فجعل يحثى فى ثوبه » أى يجمع من ذلك الذهب بيديه جميعا ، ويضعه فى ثوبه .

« فناداه ربه : يا أيوب ، ألم أكن أغنيتك » هذا النداء يجوز أن يكون بواسطة ، ويجوز أن يكون بدون واسطة على ظاهره ، لأنه تجرد عن قرينة تعين ذلك . وقوله : « ألم أكن أغنيتك » يدل على أن الله — تعالى — قد أعطاه من المال قبل هذا ما فيه غناه ، ولهذا قال : « بلى يا رب ، ولكن لا غنى بى عن بركتك » سمى هذا الذهب بركة لأنه أرسل عليه بدون صنع آدمى أو كده ، بل هو من عند الله تعالى ، ففى ذلك طلب الزيادة من الخير . وفيه ما جبل عليه الإنسان من حب المال .

والمقصود منه قوله : « فناداه ربه : ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ » إذ هو من كلام الله تعالى لنبيه أيوب ، المتضمن إفضاله عليه ، وتكريمه له بما أعطاه بدون حساب .

١١٩ — قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثنى مالك ، عن ابن شهاب ، عن أبى عبد الله الأغر ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعونى ، فأستجيب له ، من يسألنى ،

---

(١) تهذيب اللغة جـ ١١ ص ٣٠ .

فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له » .

هذا الحديث له طرق متعددة ومستفيضة ، قال ابن عبد البر : « هذا الحديث منقول من طرق متواترة ، ووجوه كثيرة ، من أخبار العدول ، عن النبى ﷺ »[1] .

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها ، فى كل زمان ، على الإيمان بهذا الحديث وتلقيه بالقبول ، كما أراد رسول الله ﷺ فإنه قاله علانية .

وبلغه الأمة تبليغا عاما ، لم يخص به واحدا دون الآخرين .

وكان الصحابة وأتباعهم يذكرونه ، ويروونه ، ويبلغونه تبليغا عاما .

ولهذا ثبت فى عامة كتب الإسلام ، فمن أنكره ، أو زعم أنه لا يجوز ذكره عند عامة الناس ، أو تأوله على غير ظاهره ، فهو ضال ، سالك غير سبيل المؤمنين ، فى ذلك .

ومن زعم أنه يدل على ما يجب أن ينزه الله عنه ، من النقص المنافى لكماله ، فقد أتى من فهمه الخاطىء ، وسوء ظنه بالله العظيم .

فإن وصف الله ــ تعالى ــ بالنزول كوصفه بغيره من الصفات ، مثل الاستواء والفوقية ، والمجىء ، والرضا والغضب ، وغير ذلك مما وصف تعالى به نفسه وصفته به رسله ، يجب أن يؤمن به كله على وتيرة واحدة ، إيمانا بلا تمثيل ، ولا تعطيل ، ولا تحريف ولا تأويل .

ولا يجوز للإنسان مهما كان من العلم أن ينصب نفسه مستدركا على الله ورسوله : ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ .

---

(١) انظر التمهيد جـ ٧ ص ١٢٨ .

قال ابن عبد البر : « إن من نظر إلى إسلام أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، وسعد ، وعبد الرحمن ، وسائر المهاجرين والأنصار ، وجميع الوفود الذين دخلوا فى دين الله أفواجا ، علم أن الله عز وجل لم يعرفه واحد منهم إلا بتصديق النبيين بأعلام النبوة ، ودلائل الرسالة ، لا من قبل حركة ، ولا من باب الكل والبعض ولا من باب كان ويكون .

ولو كان النظر فى الحركة والسكون عليهم واجبا [أو النظر] فى الجسم ونفيه ، والتشبيه ونفيه لازما ما أضاعوه ، ولو أضاعوا الواجب ما نطق القرآن بتزكيتهم وتقديمهم ، ولا أطنب فى مدحهم وتعظيمهم .

ولو كان ذلك من عملهم مشهورا ، أو من أخلاقهم معروفا لاستفاض عنهم ، ولشهروا به ، كما شهروا بالقرآن .

وقول رسول الله ﷺ : « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا » عندهم مثل قول الله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ ، ومثل قوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ كلهم يقول : ينزل ، ويتجلى ، ويجىء بلا كيف ، ولا يقولون كيفى يجىء ؟ وكيف يتجلى ؟ وكيف ينزل ؟ ولا من أين جاء ، ولا من أين يتجلى ؟ ولا من أين ينزل ؟ ، لأنه ليس كشىء من خلقه ــ تعالى ــ عن الأشياء ، لا شريك له .

وفى قول الله ــ عز وجل ــ ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ دلالة واضحة أنه لم يكن قبل ذلك متجليا للجبل ، وفى ذلك ما يفسر معنى حديث النزول ومن أراد أن يقف على أقاويل العلماء فى قوله ــ عز وجل ــ ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ فلينظر فى تفسير بقى بن مخلد ، ومحمد بن جرير ، وليقف على ما ذكرا ، ففى ما ذكرا منه كفاية ، وبالله العصمة والتوفيق »[1] .

---

(١) التمهيد جـ ٧ ص ١٥٢ ــ ١٥٣ .

وما ذكره الحافظ فى شرح هذا الحديث من كلام أهل التأويل ، فإن كل من آمن بأن رسول الله ﷺ بلغ ما أرسل به البلاغ المبين وآمن بأنه ﷺ أفصح الناس ، وأقدرهم على البيان ، وأنصحهم للخلق ، من آمن بهذا علم أن ما ذكره كله باطل ، وتغبير فى وجه الحق وزبد يذهب جفاء أمام نور النبوة .

فقوله : إن الذين حملوه على ظاهره وحقيقته هم المشبهة .

يقال له : بل الذين حملوه على ظاهره وحقيقته هم الصحابة عموما وأتباعهم إلى يوم الدين ، ولا تستطيع أن تأتى بكلمة واحدة عن الرسول ، أو عن أصحابه تؤيد قول أهل التحريف الذين يسمون أنفسهم أهل السنة .

قال شيخ الإسلام : « والصواب أن جميع هذه التأويلات مبتدعة ، لم يقل أحد من الصحابة شيئا منها ، ولا أحد من التابعين لهم بإحسان ، وهى خلاف المعروف المتواتر عن أئمة السنة والحديث أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة ، ولكن بعض الخائضين بالتأويلات الفاسدة ، يتشبث بألفاظ تنقل عن بعض الأئمة ، وتكون إما غلطا ، أو محرفة ، كقول الأوزاعى فى النزول : « يفعل الله ما يشاء » فسره بعضهم بأن النزول مفعول مخلوق ، وليس الأمر كذلك »[1] .

وقال أبو عثمان الأنصارى : « ويثبت أصحاب الحديث نزول الرب سبحانه وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ، من غير تشبيه له بنزول المخلوقين ، ولا تمثيل ولا تكييف ، بل يثبتون ما أثبته رسول الله ﷺ وينتهون فيه إليه ، ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره ، ويكلون علمه إلى الله ، وكذلك يثبتون ما أنزله الله ـــ عز اسمه ـــ فى كتابه من ذكر المجىء والإتيان المذكورين

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٤٠٩ .

فى قوله — عز وجل — ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[1] .

وقوله — تعالى — : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ نؤمن بذلك كله على ما جاء بلا كيف ، فلو شاء أن يبين لنا كيفية ذلك لفعل ، فانتهينا إلى ما أحكمه ، وكففنا عن الذى يتشابه .

ثم روى بسنده عن إسحاق بن إبراهيم الحنظلى ، قال : قال لى الأمير عبد الله بن طاهر : يا أبا يعقوب ، هذا الحديث الذى تروونه عن رسول الله ﷺ « ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا » ، كيف ينزل ؟ قال : قلت : أعز الله الأمير : لا يقال لأمر الرب : كيف ، إنما ينزل بلا كيف .

ثم روى عن أحمد بن سعيد الرياطى ، قال : حضرت مجلس الأمير عبد الله ابن طاهر ، ذات يوم ، وحضر إسحاق بن راهويه ، فسئل عن حديث النزول أصحيح هو ؟ قال : نعم . فقال له بعض قواد عبد الله : يا أبا يعقوب أتزعم أن الله ينزل كل ليلة ؟ قال : نعم . قال : كيف ينزل ؟ فقال له إسحاق : أثبته فوق ، حتى أصف لك النزول ، فقال الرجل : أثبته فوق؟! .

فقال إسحاق : قال الله — عز وجل — : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ ، فقال الأمير عبد الله : يا أبا يعقوب ، هذا يوم القيامة ، فقال إسحاق : أعز الله الأمير ، ومن يجىء يوم القيامة من يمنعه اليوم ؟[2]

وقوله : « ويكلون علمه إلى الله » يعنى علم الكيفية ، لا يبحث فيها ، لأن الكيفية تتوقف على المشاهدة ، والله تعالى لا يرى فى الدنيا ، وكذا قول إسحاق ابن راهويه : « إنما ينزل بلا كيف » ، يعنى بلا كيف يعلمه العباد وإلا ففى

---

(١) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .

(٢) عقيدة أصحاب الحديث مجموعة الرسائل المنيرية جـ ١ ص ١١٢ ملخصا .

حقيقة الأمر له كيفٌ يعلمه الله تعالى .

قال أبو سعيد الدارمى ــ رحمه الله : « فمن ما يعتبر به من كتاب الله عز وجل فى النزول ، ويحتج به على من أنكره قوله ــ تعالى ــ : ﴿ هَل يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ ، وهذا يوم القيامة ، فالذى يقدر على النزول يوم القيامة من السماوات كلها ، للفصل بين عباده ، قادر أن ينزل كل ليلة من سماء إلى سماء .

فإن ردوا قول رسول الله ﷺ فى النزول ، فماذا يصنعون بقول الله عز وجل[2] .

ثم ذكر بعض أحاديث النزول ، ثم قال : « فهذه الأحاديث قد جاءت كلها وأكثر منها فى نزول الرب ــ تبارك وتعالى ــ وعلى تصديقها والإيمان بها أدركنا أهل الفقه والبصر من مشايخنا ، لا ينكرها منهم أحد ، ولا يمتنع من روايتها ، حتى ظهرت هذه العصابة ، فعارضت آثار رسول الله ﷺ بردها وتشمروا لدفعها بجد ، فقالوا : كيف نزوله ؟ قلنا : لم نكلف كيفية نزوله فى ديننا ، ولا تعقله قلوبنا ، وليس كمثله شىء من خلقه فنشبه منه فعلا أو صفة بفعالهم ، وصفتهم ، ولكن ينزل بقدرته ، ولطف ربوبيته كيف يشاء .

فالكيف منه غير معقول ، والإيمان بقول رسول الله ﷺ فى نزوله واجب ، ولا يسأل الرب عما يفعل ، كيف يفعل ، وهم يسألون ، لأنه القادر على ما يشاء ، وإنما يقال لفعل المخلوق الضعيف ، الذى لا قدرة له إلا ما أقدره الله ــ تعالى ــ عليه كيف يصنع ، وكيف قدر .

---

(١) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .

(٢) رد عثمان بن سعيد على الجهمية ص ٦٣ .

ولو قد آمنتم باستواء الرب على عرشه ، وارتفاعه فوق السماء السابعة بدءًا إذ خلقها كإيمان المؤمنين به ، لقلنا لكم : ليس نزوله من سماء إلى سماء بأشد عليه ولا أعجب من استوائه عليها إذ خلقها بدءًا ، فكما قدر على الأولى كيف يشاء يقدر على الأخرى كيف يشاء .

وليس قول رسول الله ﷺ فى نزوله بأعجب من قول الله ـــ تبارك وتعالى ـــ ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[2] فلما قدر على هذا يقدر على ذاك ، فهذا الناطق من قول الله ـــ عز وجل ـــ وذاك المحفوظ من قول رسول الله ﷺ بأخبار ليس عليها غبار .

فإن كنتم من عباد الله المؤمنين لزمكم الإيمان بها كما آمن بها المؤمنون ، وإلا فصرحوا بما تضمرون ، ودعوا هذه الأغلوطات ، التى تلوون بها ألسنتكم ، فلئن كان أهل الجهل فى شك من أمركم ، فإن أهل العلم من أمركم لعلى يقين »[3] .

وقال أبو عمرو ، الطلمنكى : « أجمعوا ـــ يعنى أهل السنة والجماعة ـــ على أن الله يأتى يوم القيامة ، والملائكة صفا صفا ، لحساب الأمم وعرضها ، كما يشاء وكيف يشاء ، قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[2] وأجمعوا على أن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا ، على ما أتت

---

(١) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٢٢ من سورة الفجر .
(٣) الرد على الجهمية لعثمان بن سعيد الدارمى ص ٧٩ ـــ ٨٠ .

به الآثار ، كيف شاء ، لا يجدون فى ذا شيئا »[1] .

ولا يعرف عن السلف وأهل العلم المقتدى بهم من أنكر النزول ، أو تأوله ، فإنه مثل صفات الله الأخرى ، كالاستواء ، والمجىء ، والرضا ، والغضب ، بل والخلق ، والرزق ، والإحياء والإماتة ، فمن آمن بشىء من ذلك لزمه الإيمان بالباقى ، لأن الباب واحد ، ولا يجوز فيه قياس أو تمثيل ـــ تعالى الله عن قول أهل الباطل من المحرفين بالتأويلات الفاسدة ، والمعطلين .

وما ذكره الحافظ فى شرحه لهذا الحديث عن البيضاوى من قوله :

« لما ثبت بالقواطع أنه سبحانه منزه عن الجسمية ، والتحيز ، امتنع عليه النزول ، على معنى الانتقال من موضع إلى موضع ، أخفض منه .

فالمراد : نور رحمته ـــ أى ينتقل من مقتضى صفة الجلال التى تقتضى الغضب والانتقام ، إلى مقتضى صفة الإكرام التى تقتضى الرأفة والرحمة »[2] .

فهذا من كلام أهل البدع الذين اعتاضوا عن كلام الله ورسوله بنحاتة أفكار أهل الاعتزال ، والتجهم ، الذين لم يعرفوا من أوصاف الله ـــ تعالى ـــ إلا ما يعرفونه من أنفسهم ، فقاسوا نزول الله ، واستواءه على عرشه ، ومجيئه يوم القيامة على نزولهم ، من أعلى إلى أسفل ، واستوائهم على ما هو مرتفع ، ومجيئهم من مكان إلى آخر .

ولهذا قال : منزه عن الجسمية ، والتحيز ، لأنه اعتقد أن هذه الصفات لا تثبت إلا للجسم ، والمتحيز ، مع أن الجسمية والتحيز من الألفاظ المجملة

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٥٧٨ .
(٢) الفتح جـ ٣ ص ٣١ .

التى تحتمل حقا وباطلا .

فإن كان يريد بالجسمية : القائم بنفسه البائن عن غيره ، فالله تعالى قائم بنفسه ، وبائن من خلقه ، وإن كان يريد بالجسمية الذى تصح الإشارة إليه ، ويكون فى مكان فالله تعالى يشار إليه وتتوجه قلوب عباده إليه من فوقهم وهو فوق عرشه مستوٍ عليه كما علم المؤمنون .

وإن كان يريد بالجسمية البدن ، والجسد المركب من الأعضاء واللحم والدم ونحو ذلك ، فالله تعالى ليس كمثله شيء ، وهو منزه عن ذلك ، ولم تدل النصوص على هذا .

وإن كان يريد بالمتحيز الذى تحوزه الأشياء وتحيط به ، فالله تعالى أجل وأعظم من أن يحيط به شيء مخلوق .

وإن كان يريد أنه تعالى منحاز عن خلقه فلا يحيطون به ، وليس حالا فيهم ، ولا شيء من مخلوقاته فيه ــ تعالى وتقدس ، فالله تعالى كذلك ، وقد علم أن مراد هؤلاء تعطيل الله تعالى عما وصف به نفسه وعما وصفه به رسوله ، ولكنهم لم يجرؤا على رد ذلك صراحة ، فجاؤا بمثل هذه الألفاظ المجملة ، التى يظنها من لا يعرف مرادهم مرادا بها التنزيه ، وهم يريدون تعطيل الله من أوصافه .

ولا يجوز أن يرد كلام رسول الله ﷺ بمثل هذه الأغلوطات التى يزعم البيضاوى وفريقه أنها أدلة قطعية ، والحقيقة أنها شبهات تقطع المفتون بها عن سبيل الهدى .

ثم نقول لهؤلاء : أأنتم أعلم بالله من الله ؟ أم أنتم أعلم بالله من رسوله ؟ أم أنتم أعظم تنزيها لله من رسوله ؟ أم أنتم أقدر على البيان من رسوله ؟ أم أنتم أحرص على هداية الأمة ، وسلامة عقيدتها من رسول الله ﷺ ؟ أم أنتم أشد غيرة على الله من رسول الله ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

قال شيخ الإسلام : « إذا قال [أهل التأويل] : النزول ، والاستواء ونحو ذلك من صفات الأجسام ، فإنه لا يعقل النزول ، والاستواء إلا لجسم مركب ، والله منزه عن هذه اللوازم ، فيلزم تنزيهه من ذلك .

أو قالوا : هذه حادثة ، والحوادث لا تقوم إلا بجسم مركب .

وكذلك إذا قالوا : الرضا والغضب ، والفرح ، والمحبة ، ونحو ذلك هو من صفات الأجسام .

فيقال لهم : وكذلك الإرادة ، والسمع والبصر ، والعلم ، والقدرة ، من صفات الأجسام ، فكما لا يعقل ما يسمع ، ويبصر ، ويريد ، ويعلم ، ويقدر إلا جسم .

وإن قالوا : سمعه ليس كسمعنا ، وبصره ليس كبصرنا ، وإرادته وعلمه وقدرته .

قيل : وكذلك نزوله ، واستواؤه ، ورضاه ، وغضبه ، وفرحه ، ليس كنزولنا واستوائنا ، ورضانا وغضبنا ، وفرحنا .

فإن قالوا : لا يعقل فى الشاهد نزول إلا انتقال ، فيقتضى تفريغ مكان ، وشغل آخر .

قيل : كذلك لا يعقل فى الشاهد إرادة إلا ميل القلب إلى جلب ما يحتاج إليه المريد وينفعه ، وفى ذلك فقره إلى ما سواه ، ودفع ما يضره .

والله أخبرنا كما فى الحديث الإلهى بقوله : « إنكم لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ولن تبلغوا ضرى فتضرونى » . فهو منزه عن الإرادة التى لا يعقل فى الشاهد إلا هى ، وكذا السمع لا يعقل إلا بدخول صوت فى الصماخ ، وذلك لا يكون إلا فى جوف ، والله منزه عن ذلك ، فهو أحد صمد ، كما قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وغيرهما من السلف : « الصمد » الذى لا جوف

له »[1] .

والمقصود أن هؤلاء المؤولة ، أهل التحريف يلزمهم على أصلهم أن لا يثبتوا لله صفة ، وكفى بذلك، ضلالا وكفرا .

أو أن يؤمنوا بصفات الله — تعالى — كلها ، على ما جاءت بها النصوص بلا تحريف ، ولا تمثيل ، على ما يليق بعظمة الله وجلاله ، كما أخبر تعالى بأنه لا سمى له ، ولا ند له ، ولا مثيل له ، فإن الباب واحد .

ويجب أن يؤمن بصفات الله تعالى على وتيرة واحدة ، وأن يطرح القياس وتوهم التمثيل ، ويسلم للنص .

وما ذكره الحافظ ، عن ابن العربى ، أنه اختار التأويل ، وأن النزول راجع إلى أفعاله ، لا إلى ذاته ، بل ذلك عبارة عن ملكه الذى ينزل بأمره ونهيه إلى آخر كلامه المتهافت .

فيقال : أولا بئسما اخترت ، فإنك اخترت الباطل ، ثم يقال له : أيضا أخبرنا من أين ينزل أمره ونهيه ؟ وأنت وقبيلك تنكرون أن يكون الله فوق مخلوقاته ؟

أينزل أمره ونهيه من العدم ؟ ويلزمكم أن يكون الملك الذى ينزل بأمره ونهيه — كما تزعمون — أكمل من رب العالمين ، لأنه كان عاليا ، ومن يكون أعلى فهو أكمل ممن هو أسفل منه .

ثم يقال له أيضا : الملائكة لا تزال تنزل إلى الأرض ، وإلى السماء الدنيا وغيرها بأمر الله ، بالليل والنهار ، فما بال هذا النزول يتجدد له ثلث الليل الآخر ؟

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٣٥٢ ملخصا .

ويقال له أيضا : إن فى الحديث قوله ــ تعالى ــ : « من يسألنى فأعطيه ؟ من يدعونى فأستجيب له ؟ من يستغفرنى فأغفر له » وهذا لا يجوز أن يقوله إلا رب العالمين ، وهل يجوز أن الملك يقول من يستغفرنى وهذا كاف فى إبطال قول المتأولين ، كما يبطل قول الحافظ : « مما يقوى التأويل ما رواه النسائى فى بعض طرق الحديث : « ينادى مناد ، هل من داع فيستجاب له » الحديث ، وزعم القرطبى أن هذا يزيل الإشكال .

ونحن نقول لهؤلاء : إن الإشكال لازم لمذهبكم ولن ينفك عنه ، ولن تجدوا ما يؤيده وإن أجهدتم أنفسكم ، فهذه الرواية لا تخالف اللفظ الصريح الواضح الذى ضيق خناقكم ، وقد جاء فى بعض طرقه عند النسائى وابن ماجة قوله : « لا أسأل عن عبادى غيرى » .

مع أنه يجوز أن الله تعالى مع قوله ذلك يأمر من ينادى ، ولكن المنادى لا يقول : « من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له » .

ومن زعم أن النبى ﷺ قال : أن الله يأمر مناديا يقول ذلك ، فهو كاذب لأنه خلاف المستفيض المتواتر عنه أن المنادى هو رب العالمين .

وأما قول البيضاوى : « إن ذلك عبارة عن نور رحمته » إلى آخر ما قال .

فيقال : رحمة الله ــ تعالى ــ تنزل كل وقت وآن ، لا يختص نزولها بوقت معين ، ونور الرحمة لا يقول : من يسألنى فأعطيه إلى آخره .

« والأمر والرحمة إما أن يراد بهما أعيان قائمة بنفسها كالملائكة ، أو يراد بها صفات ، وأعراض .

فإن أريد الأول ، فالملائكة تنزل كل وقت ، والنزول المذكور فى الحديث خص بجوف الليل ، وجعل منتهاه السماء الدنيا ، ومعلوم أن الملائكة نزولهم لا يختص لا بهذا الزمن ، ولا بذاك المكان .

وإن أريد صفات ، وأعراض ، مثل ما يحصل فى قلوب العابدين فى وقت السحر من الرقة ، والتضرع ، وحلاوة العبادة ، ونحو ذلك ، فهذا حاصل فى الأرض ليس منتهاه السماء الدنيا .

ونزول أمره ورحمته لا يكون إلا منه ، وحينئذ فهذا يقتضى أنه فوق العالم ، فنفس تأويلهم يبطل مذهبهم .

وكذلك يبطله ما جاء من ألفاظ الحديث ، مثل قوله : « ثم يعرج » وفى لفظ « ثم يصعد » .

يضاف إليه قوله : « ينزل إلى السماء الدنيا فيقول : من ذا الذى يدعونى فأستجيب له ؟ من ذا الذى يسألنى فأعطيه ؟ من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له ، حتى يطلع الفجر » .

ومعلوم أنه لا يجيب الدعاء ، ويغفر الذنوب ، ويعطى كل سائل سؤاله إلا الله ، وأمره ورحمته لا تفعل شيئا من ذلك »[1] .

قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمى : لما أول بشر الحديث بمثل ما ذكره الحافظ . « فيقال : هذا من حجج النساء والصبيان ، ومن ليس عنده بيان ، ولا لمذهبه برهان ، لأن أمر الله ورحمته ينزل فى كل ساعة ، ووقت ، وأوان ، فما بال النبى ﷺ يحد لنزوله الليل دون النهار ، ويوقت من الليل شطره ، أو الأسحار ، أفأمره ورحمته يدعوان العباد إلى الاستغفار أو يقدر الأمر والرحمة أن يتكلما دونه ، فيقولان : هل من داع فأجيبه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فأعطيه ؟

فإن قررت مذهبك لزمك أن تدعى أن الرحمة والأمر هما اللذان يدعوان

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٥ صـ ٤١٥ ــ ٤١٦ بتصرف .

إلى الإجابة والاستغفار ، بكلامهما ، وهذا محال عند السفهاء فكيف عند الفقهاء .

وقد علمتم ذلك ولكن تكابرون ، وما بال رحمته وأمره ينزلان عند شطر الليل ثم لا يمكثان إلا إلى طلوع الفجر ثم يرفعان »[٢] .

وليس نزوله تعالى إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلثه الآخر كنزول المخلوق الذى يتخيله الجهال ، حتى يلزم منه أنه دائم النزول ، وأنه تحت السماوات ، وفوق السماء الدنيا مقدار ثلث الليل على كل بلد ، ولو كان كما يتخيله الجهال لكان النزول ممتنعا وذلك لوجوه .

أحدها أنه لا يكون فوق العرش أبدا ، بل لا يزال نازلا .

الثانى : أنه على هذا التقدير يلزم أن يكون الزمان بقدر ما هو عليه مرات كثيرة ، ليقع النزول فى ثلث ليل كل بلد ، مع أن الليل يختلف طوله وقصره باختلاف عرض البلاد ، واختلاف الأوقات .

الثالث : أنه لو كان كما تخيله الجاهل ، فكيف يبقى عند هؤلاء إلى طلوع فجرهم ، ويكون نازلا عند من هم غربهم ولم يطلع فجرهم وهلم جرا .

والحق أن نزول الله ــ تعالى ــ الذى أخبر به الصادق المصدوق ليس كنزول المخلوق كما يتخيله الجهال بالله ــ تعالى ــ وأوصافه ، بل يمكن أن يكون نزوله فى وقت واحد لخلق كثير ، ويمكن أن يكون قدره لبعض الناس أكثر ، ولا يمتنع على الله ــ تعالى ــ أن يقرب إلى بعض عباده دون بعض ، فيقرب إلى داعيه دون من لم يدعه .

وهذا كما أنه تعالى يحاسب عباده يوم القيامة كلهم فى ساعة واحدة وكل واحد منهم يخلو به ، فيقرره بذنوبه ، وذلك المحاسب لا يرى أنه يحاسب غيره .

---

(١) رد عثمان بن سعيد على بشر المريسى ص ٣٧٨ مجموع عقائد السلف .

وكما أنه سبحانه : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُ بِيَمِينِهِ سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

والمقصود من الحديث قوله : « فيقول : من يدعونى فأستجيب له » إلى آخره لأن هذا من كلام الله الذى يحض به عباده المؤمنين بنزوله إلى التعرض إلى فضله وكرمه ، فيستجيب للداعى ، ويعطى السائل سؤله ، ويغفر لمستغفر ذنبه ، فما أكرم هذا الرب ، وأقربه ممن يؤمن بقربه ، وما أوسع عطاءه ، ولكن أهل التعطيل والتحريف من أبعد الناس عنه ، تعالى وتقدس عما تتصوره أفكارهم المنحرفة .

وقوله وكلامه ــ تعالى ــ غير خلقه ، فأهل التأويل والتعطيل يريدون أن يبدلوا كلامه ذلك ، وقوله . وأما خلقه فإنه لا يبدل . ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ .

١٢٠ ــ قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، أن الأعرج حدثه ، أنه سمع أبا هريرة ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » ، وبهذا الإسناد ، قال الله : أنفق أنفق عليك » .

قوله : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » يعنى أن هذه الأمة آخر الأمم فى الدنيا وعليها تقوم الساعة ، وهم أول الأمم دخولا الجنة ، ويحاسبون قبل الناس كلهم .

والمقصود قوله : « قال الله : أنفق أنفق عليك » إذ هو قول الله رواه رسوله عن ربه ــ تبارك وتعالى ــ وفى هذا القول أمره لنبيه بالإنفاق فى سبيل الله والدعوة إلى دينه ، ووعده ــ تعالى ــ أن ينفق عليه ــ أى يعطيه مايحتاجه لذلك وغيره .

وهذا القول يضاف إلى الله تعالى قولا له حقيقة وليس هو من القرآن ، وقول الله ـــ تعالى ـــ غير خلقه ، وتقدم هذا الحديث .

١٢١ ـــ قال : « حدثنا زهير بن حرب ، حدثنا ابن فضيل ، عن عمارة ، عن أبي زرعة ، عن أبي هريرة ـــ فقال : « هذه خديجة أتتك بإناء فيه طعام ، أو إناء فيه شراب ، فأقرئها من ربها السلام ، وبشرها ببيت من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب » .

قوله : « فقال : هذه خديجة » القائل هو جبرائيل ، كما صرح به فى باب تزويج خديجة .

قوله : « أتتك » فى رواية تأتيك .

قوله : « بإناء فيه طعام ، أو إناء فيه شراب » شك من أحد الرواية ، وفى بعض نسخ البخارى حذفت « فيه » الثانية .

قوله : « فأقرئها من ربها السلام » أى أخبرها . قال الحافظ : « زاد الطبرانى فى الرواية المذكورة : فقالت : هو السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبرائيل السلام .

قال العلماء : فى هذه القصة دليل على وفور فقهها ، لأنها لم تقل : وعليه السلام عرفت أن الله لا يرد عليه السلام ، كما يرد على المخلوقين ، لأن السلام اسم من أسمائه ـــ تعالى ـــ وهو دعاء بالسلامة ، وذلك لا يصلح أن يرد به على الله .

ويستفاد منه رد السلام على من أرسل السلام ، وعلى من بلغه .

واستدل بهذه القصة على أن خديجة أفضل من عائشة ، لأن الله أرسل إليها السلام ، وأما عائشة فأرسل إليها السلام جبرائيل »[1] .

---

(١) الفتح ملخصا جـ ٧ ص ١٣٩ .

قوله : « وبشرها ببيت من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب » تقدم معنى البشارة والقصب هو قصب اللؤلؤ كما جاء مفسرا فى الحديث .

قال الحافظ : « عند الطبرانى فى الأوسط ، عن ابن أبى أوفى « يعنى قصب اللؤلؤ » وفى الكبير من حديث أبى هريرة : « ببيت من لؤلؤة مجوفة » وأصله فى مسلم .

وفى الأوسط من حديث فاطمة : قلت يا رسول الله : أين أمى خديجة ؟ قال : فى بيت من قصب ، قلت : أمن هذا القصب ؟ قال : لا ، من القصب المنظوم بالدر واللؤلؤ والياقوت »[1] .

والصخب : الصياح والمنازعة برفع الصوت . والنصب : التعب .

قال السهيلى : مناسبة نفى هاتين الصفتين : أنها أجابت النبى ﷺ طوعا ، ولم تحوجه إلى رفع صوت ولا منازعة ، ولا تعب فى ذلك ، بل أزالت عنه كل نصب ، وآنسته من كل وحشة ، وهونت عليه كل عسير ، فناسب أن يكون بيتها الذى بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعلها »[2] .

والمقصد من الحديث قوله : « فأقرئها من ربها السلام » إلى آخره ، لأن الله ــ تعالى ــ خاطب جبريل بذلك حينما أرسل معه السلام إليها ، والبشارة فهذا من كلام الله المتضمن الإكرام والإفضال على زوج سيد المرسلين ﷺ ورضى الله عنها وعن سائر أزواجه وأصحابه أجمعين ، وهذا من كلام الله المتعلق بمشيئته الذى أكرم به من شاء من خلقه وهو غير القرآن ، وغير خلقه فإن الخلق لا يرسل به .

١٢٢ ــ قال : « حدثنا معاذ بن أسد ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا

---

(١) المصدر من ١٣٨ ملخصا .

(٢) الفتح جـ ٧ ص ١٣٨ .

معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : قال الله : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِىَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[1] .

فلا يعلم بما أعد الله لهم من الكرامة والنعيم إلا الله تعالى الذى خلقه ولذلك قال : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » فلا أحد يستطيع وصفه لأنه لم يره ، ولم يسمع بمثله ، ولا يتصوره أحد ، وإنما يعلمه الله وحده .

روى مسلم فى صحيحه ، من حديث المغيرة بن شعبة ، يرفعه ، قال : « سأل موسى ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجىء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : أى رب كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ، فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب . فيقول : هذا لك ومثله ومثله ومثله ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت رب ، فيقول هذا لك ، وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ، ولذت عينك ، فيقول : رضيت رب .

قال : رب فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدى ، وختمت عليها ، فلم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر قال : ومصداقه فى كتاب الله ــ تعالى ــ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[2] .

قال القرطبى : « وهذه الكرامة إنما هى لأعلى أهل الجنة منزلا ، كما بينه

---

(١) الآية ١٧ من سورة السجدة .

(٢) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٧٦ .

هذا الحديث »[1] .

والمقصود قوله : « أعددت لعبادى الصالحين » إلى آخره ، فهو من قول الله تعالى الذى خاطب به عباده ، مخبرا إياهم بما أعده ــ تعالى ــ لعباده الصالحين .

والصالح : هو الذى يفعل ما أمره الله به ، ويجتنب ما نهاه عنه ، وإن فرط منه معصية ، بادر بالتوبة والإنابة إلى ربه .

وقول الله وكلامه لا يختص بالكتب المنزلة على رسله كهذه الأحاديث فهى من كلام الله ، وكلامه غير خلقه .

١٢٣ ــ قال : « حدثنا محمود ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا ابن جريج ، أخبرنى سليمان الأحول ، أن طاووسا أخبره ، أنه سمع ابن عباس يقول : كان النبى ﷺ إذا تهجد من الليل قال : « اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت ، وما أعلنت ، أنت إلهى لا إله إلا أنت » .

تقدم شرح هذا الحديث فى باب قول الله تعالى ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ، وبعض ألفاظه تختلف عما سبق ، كما هى عادته إذا أعاد الحديث ،

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٠٤ .

وسبق التنبيه عليه .

وفى هذا الحديث ما كان عليه النبى ﷺ من المداومة على قيام الليل لأن لفظة « كان » تدل على ذلك غالبا .

وفيه إخباته ﷺ فى قيامه ، واجتهاده فى الدعاء والتضرع ، والإخلاص ، والثناء على الله ـــ تعالى ـــ والتوسل إليه تعالى بالإيمان بوعده ووعيده ، وقوله ، والتسليم له .

والإنابة : الرجوع إلى الخير خاصة ، أما الرجوع إلى الشر فلا يكون إنابة ، قال تعالى : ﴿ وَأَنِيبُواْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُ ﴾[1] أى عودوا إلى ما يرضى به عنكم من التوبة والانقياد لأوامره ، والانتهاء عن زواجره .

والمراد من الحديث قوله : « وقولك الحق » أى الثابت الذى فيه الهدى والعدل ، فمحاولة المنافقين والكافرين والمفسدين تبديله ، عدول منهم عن الحق ، ولا يضرون بذلك إلا أنفسهم ، كما أن من زعم أن الله لا يقول ولا يتكلم قد جانب الحق واستبدل به الباطل ، وكلام الله تعالى لانفاد له ، وهو غير خلقه .

١٢٤ ـــ قال : « حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا عبد الله بن عمر النميرى ، حدثنا يونس بن يزيد الأيلى ، قال : سمعت الزهرى ، قال : سمعت عروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيب ، وعلقمة بن وقاص ، وعبيد الله بن عبد الله ، عن حديث عائشة زوج النبى ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فبرَّأها الله مما قالوا ، وكل حدثنى طائفة من الحديث الذى حدثنى ، عن عائشة ، قالت : ولكن والله

---

(١) الآية ٥٤ من سورة الزمر .

ما كنت أظن أن الله ينزل ببراءتى وحيا يتلى ، ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىَّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرؤنى الله بها ، فأنزل الله ــ تعالى ــ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَاءُوا۟ بِالْإِفْكِ ﴾ العشر الآيات » .

« الإفك » : أبلغ ما يكون من الكذب ، والافتراء ، وقيل هو البهتان ، لا تشعر به حتى يفجأك ، وأصله : الإفك ، وهو القلب لأنه قول مأفوك عن وجهه .

فبرّأها الله مما قالوا ، أى بين براءتها من ذلك الإفك ، الذى قاله المنافقون وروجوه فى مجتمع المدينة ، فآذوا به رسول الله ﷺ وأهل بيته وأصحابه .

ولا يزال إلى اليوم فريق ممن يتستر بالإسلام ــ وهو يحاربه ــ ينمِّى ذلك الإفك ، ويشيعه ، ويلفق الكذب والزور ، ويحاول أن يلبس على السذج والمغفلين .

ولا شك أن من يفعل ذلك أنه معاند لله ورسوله ، وسالك غير سبيل المؤمنين ، ومؤذن لله ورسوله والمؤمنين بالحرب ، وليس هو من الإسلام فى شيء ، بل هذا من أعظم الكفر والتكذيب لله ولرسوله .

قال الزمخشرى : « نزلت فيه ثمانى عشرة آية ، كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسلية له ، وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها ، وتطهير لأهل البيت ، وتهويل لمن تكلم فى ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه ، وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة وفوائد دينية ، وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها »[1] .

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٥٣ .

وقال أيضا : « ولو قلبت القرآن كله ، وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله ــ تعالى ــ قد أغلظ فى شىء تغليظه فى إفك عائشة ــ رضوان الله عليها ــ ولا أنزل من الآيات القوارع ، المشحونة بالوعيد الشديد ، والعتاب البليغ والزجر العنيف ، واستعظام ما ركب من ذلك ، واستفظاع ما أقدم عليه ، ما أنزل فيه ، على طرق مختلفة ، وأساليب مفننة كل واحد منها كاف فى بابه ، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى ، حيث جعل القذفة ملعونين فى الدارين جميعا ، وتوعدهم بالعذاب العظيم فى الآخرة ، وبأن ألسنتهم ، وأيديهم ، وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا ، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب[1] الذى هم أهله »[2] .

وقال ابن القيم : « فإن قيل : فما بال رسول الله ﷺ توقف فى أمرها ، وسأل وهو أعلم بالله ، وبمنزلته عنده ، هلا قال : سبحانك هذا بهتان عظيم » .

فالجواب : أن هذا من تمام الحكم التى جعل الله هذه القصة سببا لها ، وابتلاءً لرسوله ، ولجميع الأمة إلى يوم القيامة ، ليرفع بها أقواما ، ويضع آخرين .

ومن تمام الابتلاء أن تأخر الوحى ، ليزداد المؤمنون إيمانا ، والمنافقون إفكا ، ونفاقا ، وليظهر لرسوله والمؤمنين من سرائرهم ، وتتم العبودية والمنة على الصديقة وأبويها .

---

(١) قوله الواجب إشارة إلى أن نفاذ الوعيد واجب ، كما هو مذهب المعتزلة ، وهو غير مسلم ، فإن الله تعالى أخبر أنه يغفر الذنوب ما عدا الشرك لمن يشاء ، فلا يجوز الحكم على الله تعالى بأنه يجب أن يعذب العصاة .

(٢) الكشاف جـ ٣ ص ٥٦ ــ ٥٧ .

والرسول ﷺ كان هو المقصود بالأذى ، فلذلك تولى الله تعالى الدفاع عنه ، والرد على أعدائه ، وذمهم ، وتوعدهم بالعذاب العظيم »[1] .

قولها : « ولكن والله ما كنت أظن أن الله ينزل براءتى وحيا يتلى ، ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم فىّ بأمر يتلى » كانت رضى الله عنها فى نفسها صغيرة ، ولكنها عند الله ، وعند المؤمنين عظيمة كبيرة ، لأنها زوج رسول الله ﷺ وحبيبته ، وقد قال صلوات الله وسلامه عليه ـــ حينما سئل أى الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة ، فقال السائل : ومن الرجال ؟ قال : أبوها ، قلت ثم من ؟ قال : عمر »[2] .

وقال ﷺ : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » أخرجاه فى الصحيحين[3] .

وهكذا أهل الفضل يحتقرون أنفسهم ، ويزدرونها فى حق الله ـــ تعالى ـــ وذاك مما يعلى منازلهم عند الله ـــ تعالى ـــ .

وفيه التصريح بأن الله يتكلم بما يوحيه إلى نبيه ، وكلامه تعالى منه ما يتعبد بتلاوته كالقرآن ، وغيره كهذه الأحاديث التى ذكر البخارى شيئا منها ، وفيه أن كلامه ينزل من الله فالله فوق خلقه ، وكلامه غير مخلوق ، وغير محصور فى الكتب المنزلة ، وهذا هو وجه الدليل منه وقولها : « ولكننى كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرؤنى الله بها » وذلك ليقينها ببراءتها ، وثقتها بأن ذلك سوف يظهر لرسول الله ﷺ فكانت تطمع

---

(١) زاد المعاد جـ ٣ ص ٢٦١ ـــ ٢٦٣ ملخصا .

(٢) رواه مسلم جـ ٧ ص ١٠٩ .

(٣) البخارى جـ ٥ ص ٣٦ ومسلم جـ ٧ ص ١٣٨

وترجو الله ــ تعالى ــ أن يرى نبيه فى المنام ما يكون فيه براءتها ، ولكن الله بر كريم ، وعدل حكم ، له فيما يشرعه من الحكم والمنن على خلقه ما لا يحاط به ، ومن ذلك ما أنزله على نبيه ببراءة زوجه أم المؤمنين ، مما رماها به أهل النفاق والبهت ، فحصل بذلك سروره ، وسرور زوجه ووالديها والمؤمنين إلى يوم القيامة .

كما حصل بذلك فضيحة المنافقين وخزيهم وبيان كذبهم ، وظهور نياتهم الخبيثة ، وانكشاف شيء من مؤامراتهم ضد نبى الله ، وما جاء به من هذا الدين العظيم ، وغير ذلك من الحكم .

قوله : « فأنزل الله ــ تعالى ــ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ العشر الآيات الذى نزل فى هذه الواقعة ثمانى عشرة آية ، كما سبق فى كلام الزمخشرى رحمه الله .

والمقصود من الحديث كما سبق قريبا قولها : « ما كنت أظن أن الله ينزل براءتى وحيا يتلى ، ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىّ بأمر يتلى » لأن فيه التصريح بأن الله يتكلم بأمره ، وما يشرعه لعباده ، وما يحكم به بينهم ، وما يعدهم ، أو يتوعدهم به ، على أعمالهم ، وينزل ذلك منه على نبيه ، الذى يبلغ عنه .

ولا يمكن أن يأمر وينهى ويحكم ، ويعد ، ويتوعد ، ويجزى إلا بقوله الذى يتكلم به ، وليس قوله محصورا فى كتبه التى تعبد عباده بتلاوتها ، فى الصلاة وغيرها ، ولكن كل ما يحكم به بين خلقه ، وما يشرعه لعباده ، وعده ووعيده كله بكلامه .

والمنافقون والكفار يريدون أن يبدلوا كلام الله الذى هو شرعه ، ودينه فيخالفونه ، أو لا يمتثلونه ، والله يجزيهم بما يستحقون ولا يظلمهم .

ولا أحد يستطيع تغيير خلق الله تعالى .

وبهذا وأمثاله يتضح أن قول أهل الاعتزال ومقلديهم من الروافض وغيرهم ممن يزعم أن قول الله تعالى مخلوق قول خطل ، بعيد عن الصواب كل البعد .

١٢٥ ــ قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا المغيرة بن عبد الرحمن ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله : إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة ، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها ، فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة » .

الإرادة : هى العزم على الشيء ، وقد جاء فى رواية ابن عباس بلفظ « الهم » وهو : ترجيح قصد الفعل على الترك ، تقول هممت بكذا ، أى قصدته بهمتى ، وهو فوق خطور الشيء فى القلب .

وقد يطلق الهم على الإرادة .

وهذا الخطاب من الله ــ تعالى ــ للملائكة الموكلين بحفظ عمل الإنسان وكتابته وهو يدل على فضل الله على الإنسان ، وتجاوزه عنه .

قوله : « إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة ، فلا تكتبوها عليه حتى يعملها » .

قد تكون الإضافة فى قوله : « عبدى » بمعنى العابد المطيع ، أى عابدى ، وقد تكون بمعنى المعبد المذلل ، والظاهر أنه مقيد بالمؤمن .

والعمل قد يراد به عمل القلب والجوارح ، وهو الظاهر ، لأنه قد جاء ما يدل على أن عمل القلب يؤاخذ به ، ويجزى عليه ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] .

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الحج .

وفى الحديث الصحيح : « إذا التقى المسلمان بسيفيما فالقاتل والمقتول فى النار ، قالوا : هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال إنه كان حريصا على قتل أخيه »[1] .

وقد جاء قيد الهم بالعزم الجازم ، ففى المسند من حديث خريم بن فاتك : « من هم بحسنة يعلم الله أنه قد أشعر بها قلبه ، وحرص عليها كتبت له حسنة ، ومن هم بسيئة ، لم تكتب عليه ، ومن عملها كتبت واحدة ، ولم تضاعف عليه »[2] .

فهذه النصوص تصلح لتخصيص عموم قوله : « إذا أراد أن يعمل سيئة فلا تكتبوها حتى يعملها » وهذا لا يخالف قوله فى السيئة « لم تكتب عليه » لأن عزم القلب وتصميمه عمل . قوله : « فإن عملها فاكتبوها بمثلها » . يعنى سيئة واحدة ، قال الله تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[4] .

قوله : « فإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة » قيد تركها بأنه من أجل الله ــ تعالى ــ أى خوفا منه ، وحياءً ، أما إذا تركها عاجزًا ، أو خوفا من الخلق ، أو لعارض آخر ، فإنها لا تكتب له حسنة ، بل ربما كتبت عليه سيئة .

---

(١) رواه البخارى فى الإيمان وغيره انظر الفتح جـ ١ ص ٨٤ ومسلم رقم ٢٨٨٨ جـ ٤ ص ٢٢١٣ ، ٢٢١٤ .

(٢) المسند جـ ٤ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٢٢ .

(٣) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ٤٠ من سورة غافر .

وفى حديث ابن عباس : « ومن هم بسيئة فلم يعملها ، كتبها الله له عنده حسنة كاملة »[1] فأكدها بقوله : « عنده » ، وبقوله : « كاملة » ، وهو مقيد بما فى هذا الحديث يعنى أن يكون عدم عملها من أجل الله تعالى .

قوله : « وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة » إلى آخره .

جاء وصفها فى حديث ابن عباس المشار إليه ، بأنها كاملة ، وهذا تفضل من الله تعالى الكريم المنان على عباده ، فله الحمد والمنة ، فأى كرم أعظم من هذا ، الهم بالحسنة يكتب الله به حسنة كاملة ، وعمل الحسنة يكتب به عشر حسنات إلى سبعمائة حسنة ، وفى حديث ابن عباس المشار إليه : « إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة » يعنى أكثر من سبعمائة ، فالحمد لله ذى الطول والكرم فلن يهلك على الله إلا من لا يصلح للتفضل ، وليس هو أهل لذلك .

والمقصود من الحديث كما تقدم فى نظائره السابقة ، قوله : « يقول الله : إذا أراد عبدى » فأسند القول إلى الله ، واصفا له بذلك ، وهذا القول من شرعه الذى فيه وعده لعباده ، وتفضله عليهم ، وهو غير القرآن ، وليس مخلوقا فقوله تعالى غير خلقه .

١٢٦ ــ قال : « حدثنا إسماعيل بن عبد الله ، حدثنى سليمان ابن بلال ، عن معاوية بن أبى مزرد ، عن سعيد بن يسار ، عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « خلق الله الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحم ، فقال : مه ؟ قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة .

---

(١) رواه البخارى فى الرقاق الباب ٣١ وانظر الفتح جـ ١١ ص ٣٢٣ ، ومسلم رقم ١٣١ جـ ١ ص ١١٨ .

فقال : ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يارب ، قال : فذلك لك .

ثم قال أبو هريرة : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ ﴾ .

« أل » فى الخلق تدل على الشمول ، فهى عامة لجميع الخلق ، ويدل عليه قوله : « فلما فرغ » أى انتهى من خلق المخلوقات ، وهو يدل على أن ذلك وقع فى وقت محدد ، وإن كان الله ـــ تعالى ـــ لا حد لقدرته ، ولا يشغله شأن عن شأن ، ولكن اقتضت حكمته أن يجعل لفعله ذلك وقتا معينا ، وهذا من الأدلة على أن أفعاله تتعلق بمشيئته ، فمتى أراد أن يفعل شيئا فعله .

وليس معنى قوله : « لما فرغ » أنه تعالى انتهى من خلق كل شىء ، بل مخلوقاته ـــ تعالى ـــ لا تزال توجد شيئا بعد شىء ، ولكن سبق علمه بها ، وتقديره لها وكتابته إياها ، ثم هى تقع بمشيئته ، فلا يكون إلا ما سبق به علمه ، وتقديره وكتابته ، وشاءه فوجد .

قال ابن أبى جمرة : « ظاهر الحديث الإخبار بعظم ما جعل الله ـــ تعالى ـــ للرحم من الحق ، وأن وصلها من أكبر أفعال البر ، وأن قطعها من أكبر المعاصى »[1] .

قوله : « قامت الرحم ، فقال : مه ؟ قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة » .

هذه الأفعال المسندة إلى الرحم ، من القيام ، والقول ، ظاهر الحديث أنها على ظاهرها حقيقة ، وإن كانت الرحم معنى يقوم بالناس ، ولكن قدرة الله ـــ

---

(١) بهجة النفوس جـ ٤ ص ١٤٦ .

تعالى – لا تقاس بما يعرفه عقل الإنسان ، ولا داعى أن يقال : إن الله – تعالى – جعلها فى جوهر ، وجعل لها حياة ، وأنطقها بعد ذلك ، فقد جاء أن أعمال العبد تأتيه ، وتخاطبه ، وتجادل عنه ، وهذا من جنسه ، والله أعلم .

وقيام الرحم قيام مخصوص ، غير القيام المتبادر من لفظه ، وقد جاء إيضاحه فى الرواية التى ذكرها فى التفسير : وفيه : « قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن »[1] .

قال الحافظ : قال القابسى : « أبى أبو زيد المروزى أن يقرأ لنا هذا الحرف ، لإشكاله ، ومشى بعض الشراح على الحذف ، فقال : « أخذت بقائمة من قوائم العرش » .

وقال عياض : الحقو معقد الإزار ، وهو الموضع الذى يستجار به ، على عادة العرب ، لأنه من أحق ما يحامى عنه ويدفع ، كما قالوا : نمنعه مما نمنع منه أزرنا ، فاستعير ذلك مجازا للرحم فى استعاذتها بالله من القطيعة . انتهى ، وقد يطلق الحقو على الإزار نفسه ، كما فى حديث أم عطية : « فأعطاها حقوه ، فقال : أشعرنها إياه ، يعنى إزاره ، وهو المراد هنا ، وهو الذى جرت العادة بالتمسك به عند الإلحاح فى الاستجارة ، والطلب ، وهذا المعنى صحيح مع اعتقاد تنزيه الله عن الجارحة »[2] .

قلت : هذا على مذهب أهل التأويل المذموم ، والصواب عدم حمل كلام الله ورسوله على الاصطلاحات الحادثة بعد مضى عصر الصحابة وأتباعهم ، لأن الله تعالى ورسوله ﷺ خاطب الناس بلغة العرب ، والمخاطبون فهموا مراده ، وما كانوا يفرقون بين الحقيقة والمجاز ، وتقدمت الإشارة إلى ذلك .

---

(١) البخارى مع الفتح جـ ٨ ص ٥٧٩ .

(٢) الفتح جـ ٨ ص ٥٨٠ .

قال شيخ الإسلام ـــ رحمه الله ـــ فى رده على الرازى فى زعمه أن هذا الحديث يجب تأويله .

قال : « فيقال له : بل هذا من الأخبار التى يقرها من يقر نظيره ، والنزاع فيه كالنزاع فى نظيره .

فدعواك أنه لابد فيه من التأويل بلا حجة تخصه ، لا تصح »[1] .

وقال : « وهذا الحديث فى الجملة من أحاديث الصفات ، التى نص الأئمة على أنه يمر كما جاء ، وردوا على من نفى موجبه ، وما ذكره الخطابى وغيره أن هذا الحديث مما يتأول بالاتفاق ، فهذا بحسب علمه حيث لم يبلغه فيه عن أحد من العلماء أنه جعله من أحاديث الصفات التى تمر كما جاءت .

قال ابن حامد : ومما يجب التصديق به : أن لله حقوا .

قال المروزى : قرأت على أبى عبد الله كتابا ، فمر فيه ذكر حديث أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « إن الله خلق الرحم حتى إذا فرغ منها أخذت بحقو الرحمن » ، فرفع المحدث رأسه ، وقال : أخاف أن تكون كفرت . قال أبو عبد الله : هذا جهمى .

وقال أبو طالب : سمعت أبا عبد الله يسئل عن حديث هشام بن عمار ، أنه قرىء عليه حديث الرحم : تجىء يوم القيامة فتعلق بالرحمن ـــ تعالى ـــ فقال : أخاف أن تكون قد كفرت ؟ فقال : هذا شامى ما له ولهذا ؟ قلت : فما تقول : قال : يمضى كل حديث على ما جاء »[2] .

وقال القاضى أبو يعلى : « اعلم أنه غير ممتنع حمل هذا الخبر على ظاهره ،

---

(١) نقض التأسيس جـ ٣ ص ١٢٧ .

(٢) المصدر المذكور ص ١٢٨ ـــ ١٤١ ملخصا .

وأن « الحقو » و « الحجزة » صفة ذات ، لا على وجه الجارحة ، والبعض ، وأن الرحم آخذة بها ، لا على وجه الاتصال ، والمماسة ، بل نطلق ذلك تسمية كما أطلقها الشرع . وقد ذكر شيخنا أبو عبد الله ــ رحمه الله ــ هذا الحديث فى كتابه ، وأخذ بظاهره ، وهو ظاهر كلام أحمد »[1] .

قلت : قوله : « لا على وجه الجارحة ، والبعض » وقوله : « لا على وجه الاتصال والمماسة » قول غير سديد ، وهو من أقوال أهل البدع ، التى أفسدت عقول كثير من الناس .

فمثل هذا الكلام المجمل لا يجوز نفيه مطلقا ، ولا إثباته مطلقا ، لأنه يحتمل حقا وباطلا ، فلابد من التفصيل فى ذلك ، والاعراض عنه أولى ، لأن كلام رسول الله ﷺ خال منه وليس هو بحاجة إليه فهو واضح . وليس ظاهر هذا الحديث أن لله إزارًا ورداءً من جنس الأزر والأردية التى يلبسها الناس ، مما يصنع من الجلود والكتان والقطن وغيره ، بل هذا الحديث نص فى نفى هذا المعنى الفاسد . فإنه لو قيل عن بعض العباد : إن العظمة إزاره ، والكبرياء رداؤه لكان إخباره بذلك عن العظمة والكبرياء ، اللذين ليسا من جنس ما يلبس من الثياب .

فإذا كان هذا المعنى الفاسد لا يظهر من وصف المخلوق ، لأن تركيب اللفظ يمنع ذلك ، وبين المعنى المراد ، فكيف يدعى أن هذا المعنى ظاهر اللفظ فى حق الله تعالى ، فإن كل من يفهم الخطاب ، ويعرف اللغة يعلم أن الرسول ﷺ لم يخبر عن ربه بلبس الأكسية والثياب ، ولا أحد ممن يفهم الخطاب يدعى فى قوله ﷺ فى خالد بن الوليد « إنه سيف الله » أن خالدا حديد ، ولا فى قوله ﷺ فى الفرس : « إنا وجدناه بحرًا » أن ظاهره أن الفرس ماء

---

(١) إبطال التأويل ص ٢٣٢ مخطوط .

كثير ، ونحو ذلك »[1] .

قوله : « مه » هى كلمة ردع وزجر ، أو استفهام .

قوله : « هذا مقام العائذ بك من القطيعة » الإشارة إلى ما ذكر فى الرواية التى أشرت إليها وهى قوله : « قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن » ، وهذا أعظم مقام ، والعائذ به استعاذ بأعظم معاذ ، وهو دليل على تعظيم صلة الرحم ، وعظم قطيعتها .

والقطيعة عدم الوصل ، والوصل : هو الإحسان إلى ذوى الرحم ، والتودد له والقرب منه ، ومساعدته بإسعافه بما يرضيه ، ودفع ما يؤذيه ، والحرص على جلب ما ينفعه فى الدنيا والآخرة .

قوله : « ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يارب قال : فذلك لك » من وصله الله ، وصل إلى كل خير ، وسعادة فى الدنيا والآخرة ، ولابد أن تكون نهايته مجاورة ربه فى الفردوس لأن الوصل لا ينتهى إلا إلى هناك فينظر إلى وجه ربه الكريم .

ومن قطعه الله فهو المبتوت المقطوع مع عدو الله الشيطان الطريد الرجيم ولو أراد الخلق كلهم صلته ونفعه ، لم يفده ذلك .

فأى تحذير وتهديد أعظم من هذا ، وأى وعد وثواب أكبر من ثواب صلة الرحم ، ولهذا قرأ أبو هريرة الآية مستشهدًا بها ، وفيها أن قطيعة الرحم مجلبة للعنة الله وغضبه وشديد عقابه .

والمقصود من الحديث ما فيه من مخاطبة الله ــ تعالى ــ للرحم ، بقوله : « مه » وقوله : « ألا ترضين » إلى آخره ، وهو خطاب كريم يجب أن يؤمن

---

(١) نقض التأسيس جـ ٣ ص ١٥٧ ببعض التصرف .

به على ظاهره ، وما فيه من وعده ، ووعيده ، وحكمه وشرعه ، وخطابات الله تعالى وكلامه غير محصور فى كتبه المنزلة على رسله ، وكلامه تعالى غير مخلوقاته كما سبق التنبيه عليه مرارا والله أعلم .

١٢٧ ــ قال : « حدثنا مسدد ، حدثنا سفيان ، عن صالح ، عن عبيد الله ، عن زيد بن خالد ، قال : مطر النبى ﷺ فقال : « قال الله : أصبح من عبادى كافر بى ، ومؤمن بى » .

زيد بن خالد الجهنى ، صاحب لوا جهينة يوم فتح مكة ، من أهل بيعة الرضوان ، قال ابن عبد البر : اختلف فى سنة وفاته ، وفى وقتها ومكانها ، اختلافا كثيرا فقيل توفى فى المدينة سنة ثمان وستين ، وقيل بمصر سنة خمسين ، وقيل بالكوفة فى آخر خلافة معاوية ، رضى الله عنه وعن سائر الصحابة أجمعين[1] .

قوله : « مطر » أى نزل عليه المطر ليلا ، وذلك فى الحديبية ، كما جاء مبينا فى هذا الحديث ، ولكن المؤلف ــ رحمه الله ــ اختصره هنا ، واقتصر على محل الشاهد منه .

قوله : « كافر بى ، ومؤمن بى » جاء بيان ذلك فى نفس الحديث ، حيث قال : « أما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بى ، مؤمن بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب » .

---

(١) الاستيعاب جـ ٢ ص ٥٤٩ ، أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٨٤ ، الإصابة جـ ٢ ص ٦٠٣ .

ومعنى الإيمان هنا : الاعتراف بفضل الله ، ونسبة النعم وإنزال المطر والتصرف فى الكون إلى الله ــ تعالى ــ لأنه هو مالك كل شىء ، وخالقه والمدبر شئون خلقه .

ومعنى الكفر فى هذا الحديث : نسبة النعم ، وإنزال المطر ، والتأثير فى الكون إلى غير الله ــ تعالى ــ كقولهم : مطرنا بالنوء الفلانى .

والنوء هو النجم الذى ينزله القمر ، وغيره .

قال ابن عبد البر : « النوء فى كلام العرب : واحد أنواء النجوم ، يقال : ناء النجم ينوء ، إذا نهض للطلوع ، وقد يكون يميل للمغيب »[1] .

فلا يجوز نسبة نزول المطر ، وغيره إلى النجم ، وإن لم يكن ذلك عن اعتقاد ، فإن النجوم لا تفعل شيئا ، وليس لها تأثير ، وتصريف لأحوال الجو وغيره .

أما من اعتقد أنها تفعل شيئا من ذلك حقيقة ، فهو مشرك الشرك الأكبر .

قال ابن عبد البر : « معنى نسبة المطر إلى النوء هو عندى على وجهين :

أحدهما : اعتقاد أن النوء هو الموجب لنزول الماء ، وهو المنشىء للسحاب دون الله ــ تعالى ــ فذلك كافر كفرًا صريحا ، يجب استتابته عليه وقتله لنبذه الإسلام ، ورده القرآن .

الثانى : أن يعتقد أن النوء ينزل الله به الماء ، وأنه سبب الماء ، على ما قدره الله ، وسبق فى علمه ، فهذا وإن كان وجها مباحا ــ فإن فيه أيضا كفرًا بنعمة الله ــ عز وجل ــ وجهلا بلطيف حكمته ، لأنه ينزل الماء متى شاء .

قال الشافعى : لا أحب لأحد أن يقول : مطرنا بنوء كذا ، وإن كان النوء

---

(١) التمهيد جـ ١٦ ص ٢٨٧ .

عندنا : الوقت ، والوقت مخلوق ، لا يضر ولا ينفع ، ولا يمطر ، ولا يحبس شيئا من المطر ، وإنما يقول : مطرنا : وقت كذا ، كما يقول : بشهر كذا ومن قال : مطرنا بنوء كذا ، وهو يريد أن النوء أنزل الماء ، فهو كافر حلال دمه إن لم يتب .

وسمع الحسن رجلا يقول : طلع سهيل ، وبرد الليل ، فكره ذلك ، وقال : إن سهيلا لم يأت قط بحر ولا برد .

وكره مالك أن يقول الرجل للغيم ، أو السحابة : ما أخلقها للمطر .

وهذا يدل على أنهم احتاطوا ، فمنعوا الناس من الكلام بما فيه أدنى متعلق من أمر الجاهلية »[1] .

والمقصود من الحديث هنا : إسناد القول إلى الله تعالى ، وهو قول حقيقة يخاطب به رسله من الملائكة والبشر ، ويبين فيه حكمه وشرعه ، وما يثيب عليه وما يعاقب عليه ، وأنه يقول ، ويأمر ، وينهى متى شاء — جل وعلا ، وأن قوله غير مخلوق ، وغير محصور فى القرآن ونحوه ، وقوله غير مفعولاته .

١٢٨ — قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثنى مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله : إذا أحب عبدى لقائى أحببت لقاءه ، وإذا كره لقائى ، كرهت لقاءه » .

« إذا » هنا ظرف للزمن المستقبل ، وفيها معنى الشرط .

وتقدم الكلام فى صفة محبة الله تعالى وأنه تعالى يحب أهل طاعته من عباده ، وأن ذلك ثابت بكتاب الله ، وسنة رسوله ، وأدلته لا تكاد تنحصر ، ومنكره

---

(١) التمهيد جـ ١٦ ص ٢٨٥ — ٢٨٧ ملخصا .

ضال عن طريق المنعم عليهم ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، سالك طريق أهل الضلال والتحريف والتبديل .

وتقدم كذلك الكلام على حب العباد لله ـــ تعالى ـــ وأن ذلك أصل الدين . ومعنى لا إله إلا الله ، وأن من لم يحب الله ـــ تعالى ـــ حب ذل وخضوع وتعظيم أنه ليس بمسلم ولا يعرف الإسلام .

قال ابن عبد البر : « هذا خبر عن حال الطائفتين عند لقاء ربهم ، فمن أحب لقاء الله ، فهو الذى يحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء ربه عند الموت ، فذاك الذى يكره الله لقاءه »[1] .

وفى هذا الحديث وصف الله ـــ تعالى ـــ بأنه يكره بعض عباده ، وبعض الأعمال كما قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾[2] ، وقال جل وعلا : ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾[3] .

وفى صحيح مسلم ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنعًا وهات ، وكره لكم ثلاثا ، قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال »[4] .

وفيه عن أبى هريرة مرفوعا : « إن الله يرضى لكم ثلاثا ، ويكره لكم ثلاثا » إلخ[5] .

---

(١) من الفتح جـ ١١ ص ٣٥٨ بالمعنى .

(٢) الآية ٤٦ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٣٨ من سورة الإسراء .

(٤) مسلم جـ ٣ ص ١٣٤١ .

(٥) صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٣٤٠ .

وجاء فى الرواية التى ذكرها فى الرقاق بعد قوله : « كره الله لقاءه » قالت عائشة ، أو بعض أزواجه : إنا لنكره الموت ؟ « قال : ليس ذلك ، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله ، وأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا حُضِر بشر بعذاب الله ، وعقوبته ، فليس شيء أكره إليه مما أمامه ، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه » .

قال الزرقانى : « عند حضور أجله إن عاين ما يحب أحب لقاء الله ، وإن عاين ما يكره لم يحب الخروج من الدنيا ، هذا معناه كما تشهد به الآثار المرفوعة ، وذلك حين لا تقبل التوبة ، وليس المراد الموت ، لأنه لا يخلو من كراهته أحد ، ولكن المكروه من ذلك إيثار الدنيا ، وكراهة أن يصير إلى الله ــ تعالى ــ قاله ابن عبد البر »[1] .

والمقصود من الحديث الجملة المذكورة هنا ، إذ فيها قول الله ــ تعالى ــ أنه يحب لقاء بعض عباده ، ويكره لقاء بعضهم .

فالمتقى يحب لقاء ربه عند انقطاع عمله ، وانقضاء أجله ، فيحب ربه لقاءه ليكرمه ، ويجزيه فوق ما يتصوره ، فضلا من ربه تعالى .

وأما الفاجر فإنه عند معاينة رسل الله إليه ، وإخبارهم إياه بعذاب الله يكره عند ذلك ملاقاة الله ، فيكره الله لقاءه ، فأخبر تعالى عباده بهذا قولا منه على لسان رسوله وقوله غير خلقه ، وأقواله تعالى غير محصورة فى كتبه .

وتقدم أن لقاء الله يتضمن معاينته ورؤيته ، وكل أحد من عباد الله سوف يلاقى ربه ، فيسأله عن عمله ، كما فى حديث عدى المتقدم ، والله أعلم .

---

(١) شرح الموطأ للزرقانى جـ ٢ ص ٨٥ .

١٢٩ ــ قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : قال الله ــ تعالى ــ : أنا عند ظن عبدى بى » .

هذا الحديث تقدم فى باب قول الله تعالى ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ .

والمقصود منه هنا واضح كما تقدم فى الأحاديث قبله ، وهو أن الله ــ تعالى ــ تكلم بهذا القول مخاطبا عباده بما يريد منهم أن يفعلوه فيثيبهم عليه . وبما يريد منهم أن يجتنبوه ، حتى لا يعاقبهم ، وتقدم أن الكلام صفة كمال ، وأن الله تعالى متصف بها ، وأن كلامه يتعلق بمشيئته ، فمتى شاء أن يتكلم تكلم ، وكما أنه تعالى فى الأزل يتكلم بما يشاء ، فكذلك فى المستقبل ، وفى كل وقت إذا أراد أن يتكلم ، وكلام الله غير محصور ولا نفاد له ، وهو غير خلقه .

١٣٠ ــ قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثنا مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « قال رجل لم يعمل خيرا قط إذا مات فحرقوه ، وأذروا ، نصفه فى البر ، ونصفه فى البحر ، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابا لا يعذبه أحدًا من العالمين ، فأمر الله البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قال : لم فعلت ؟ قال : من خشيتك ، وأنت أعلم ، فغفر له » .

الظاهر أن هذا الرجل من بنى إسرائيل ، ولهذا أورده المصنف رحمه الله فى أحاديث بنى إسرائيل .

وقوله : « لم يعمل خيرا قط » الظاهر أن المقصود عمل الجوارح ، وأن عنده أصل الإيمان فى قلبه ، فهو مؤمن بالله ، وبالجزاء والحساب ، وهذا واضح

من قوله : « فعلت ذلك من خشيتك وأنت أعلم » .

وفى الرواية التى فى أحاديث الأنبياء : « وكان رجل يسرف على نفسه »[1] .

قوله : « إذا مات فحرقوه » عدل عن خطاب المتكلم إلى الغائب كراهية إسناد هذه الأفعال المخبر عنها ، وهذا أسلوب معروف فى كلام العرب ، إذا كرهوا العمل المخبر عنه ، ذكروه بلفظ خطاب الغيبة كراهة إضافته إلى المتكلم لفظًا .

وقد جاء على الأصل فى الرواية المذكورة فى أحاديث بنى إسرائيل ، من حديث أبى سعيد ، وأبى هريرة ، وحذيفة ، كلهم بلفظ المتكلم « إذا مت فأحرقونى ثم اطحنونى » .

قوله : « وأذروا نصفه فى البر ، ونصفه فى البحر » أى فرقوا أجزاءه المسحوقة فى الريح ، التى تبعثر ذراته بعد التحريق والطحن ، إمعانا فى تفرقة أجزائه ، حتى لا تجتمع ، ظانا أن الله لا يقدر على جمعه وبعثه ولهذا قال : « فوالله لئن قدر الله عليه » أى قدر على جمعى ، وبعثنى حيا بعد الموت ، وفى الرواية المشار إليها : « فوالله لئن قدر الله علىَّ » .

وهذا هو ظاهر الروايات جميعها ، بل هو صريحها ، وما ذكر من التمحلات والتكلفات من كثير من الشراح ، لا داعى لها ، وهى خلاف صريح اللفظ كقولهم : « قدر » من التقدير ، وهو التضييق ، أو قدر على العذاب ونحو ذلك مما يجزم المتتبع لروايات الحديث والناظر فى السياق أنه خطأ محض .

فهو شاك فى قدرة الله على جمعه ، وإحيائه بعد ذلك ، ومع هذا عذره

---

(١) انظر الفتح جـ ٦ ص ٥١٤ .

الله تعالى بجهله ، وحسن قصده ، وهذا يدل على أن الجاهل قد يغفر الله له وإن عمل ما يدل على كفره لو كان عالما .

قال شيخ الإسلام : « فهذا رجل شك فى قدرة الله ، وفى إعادته إذا ذرى ، بل اعتقد أنه لا يعاد ، وهو كفر باتفاق المسلمين »[1] .

وقال : « وهذا الرجل كان قد وقع له الشك والجهل بقدرة الله تعالى على إعادة ابن آدم بعد ما أحرق وذرى ، وعلى أنه يعيد الميت ويحشره إذا فعل به ذلك »[2] .

وقال أيضا : « فهذا شك فى قدرة الله ، وفى المعاد ، بل ظن أنه لا يعود ، وأنه لا يقدر الله عليه إذا فعل ذلك ، وقد غفر الله له »[3] .

وهذا هو المتبادر من الحديث ، فلا يعدل عنه إلا بدليل يوجب ذلك ، وليس هناك ما يوجب صرفه عن ظاهره .

وقال أيضا : « فهذا الرجل اعتقد أن الله لا يقدر على جمعه إذا فعل ذلك أو شك أنه لا يبعثه ، وكل من هذين الاعتقادين كفر ، يكفر من قامت عليه الحجة ، لكنه كان يجهل ذلك ، ولم يبلغه العلم بما يرده عن جهله .

وكان عنده إيمان بالله ، وبأمره ونهيه ووعده ووعيده ، فخاف من عقابه فغفر الله له بخشيته »[4] .

قوله : « فأمر الله البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه » الروايات التى اطلعت عليها كلها بلفظ الماضى الذى وقع وانتهى .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٣ ص ٢٣١ .
(٢) مجموع الفتاوى جـ ١٢ ص ٤٩٠ ــ ٤٩١ .
(٣) مجموع الفتاوى جـ ٢٣ ص ٣٤٧ .
(٤) الاستقامة جـ ١ ص ١٦٤ .

قال الحافظ : « هذا جميعه كما قال ابن عقيل : إخبار عما سيقع له يوم القيامة وليس كما قال بعضهم : إنه خاطب روحه ، فإن ذلك لا يناسب قوله : « فجمعه الله » ، لأن التحريق ، والتفريق إنما وقع على الجسد ، وهو الذى يجمع ، ويعاد عند البعث »(١) .

وأقول : ليس هناك ما يمنع أن يكون ذلك وقع ، بل هذا هو الظاهر من الحديث برواياته المتعددة ، وهو الظاهر من صنيع البخارى رحمه الله حيث أورده فى أحاديث بنى إسرائيل التى وقعت لهم ، وأورده فى هذا الباب مستشهدا به على أن الله ــ تعالى ــ خاطب هذا الرجل ، كما فى سائر أحاديث الباب ، فيكون الله ــ تعالى ــ قد أحياه ، وخاطبه ، ثم مات أخرى كما حصل لقتيل بنى إسرائيل ، الذى أمر الله ــ تعالى ــ أن يضرب بجزء من البقرة فحيى .

أو تكون حياته بعد جمعه حياة برزخية ، يخاطب فيها ويجيب ، ويدرك ويعرف ، كما خاطب الله تعالى والد جابر بعدما قتل ، قال النبى ﷺ لجابر : « ألا أبشرك عما لقى أبوك ؟ إن الله كلم أباك من غير حجاب ، فقال له : عبدى سلنى » الحديث(٢) ، وعلى كل فقدرة الله ــ تعالى ــ صالحة لما ذكر وغيره ، والله أعلم .

قوله : « فقال : لم فعلت ؟ قال : من خشيتك وأنت أعلم فغفر له » . أى لماذا أمرت أولادك بأن يحرقوك ، ويذروك . فى يوم عاصف ، نصفك فى البر والنصف الآخر فى البحر .

وهذا يدل على أن من أمر بشىء ، ففعل حسب أمره ، أنه هو المسئول

---

(١) الفتح جـ ٦ ص ٥٢٣ .

(٢) رواه البخارى فى خلق أفعال العباد ص ٤٢ .

عن ذلك وعليه تبعته ، ولا يرفع ذلك المسئولية عن المباشر للفعل ، ولا سيما إذا كان فيه معصية لله تعالى ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق تعالى .

والله تعالى يسأله ، وهو أعلم بقصده ، وما أراده ، وإنما ذلك لتقريره بذنبه ، حتى يتم الجزاء ، فلما كان الدافع له على ما أقدم عليه هو خوف الله بقصد حسن ، غفر الله له ، وإن كان فعله خطأ ، وجهلًا بقدرة الله ــ تعالى ــ ومع ذلك عذره الله ، وغفر له .

والشاهد منه قوله : « ثم قال : لم فعلت ؟ » لأنه خطاب من الله ــ تعالى ــ لهذا يسأله عن فعله ، الذى خالف فيه مقتضى الإيمان بكمال قدرة الله ــ تعالى ــ وقول الله ــ تعالى ــ وخطابه غير ما يخلقه ، ويفعله مفعولا له ، وكلام الله ــ تعالى ــ داخل فى أفعاله الاختيارية ، ولهذا أخبر تعالى أنه لا نفاد له ، ولا يجوز قصر كلام الله على كتبه .

١٣١ ــ قال : « حدثنا أحمد بن إسحاق ، حدثنا عمرو بن عاصم ، حدثنا همام ، حدثنا إسحاق بن عبد الله ، سمعت عبد الرحمن ابن أبى عمرة ، قال : سمعت أبا هريرة ، قال : سمعت النبى ﷺ قال : « إن عبدا أصاب ذنبا ــ وربما قال : أذنب ذنبا ــ فقال : رب أذنبت ذنبا ــ وربما قال : أصبت ذنبا ــ فاغفر لى ، فقال ربه : أعلم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ، ويأخذ به ؟ .

غفرت لعبدى ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنبا ، أو أذنب ذنبا ــ فقال : رب أذنبت ــ أو أصبت آخر ، فاغفره ، فقال : أعلم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدى .

ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنبا ــ وربما قال : أصاب ذنبا ــ فقال : رب أصبت ــ أو أذنبت ــ آخر فاغفره لى ، فقال : أعلم

عبدى أن له ربا يغفر الذنب ، ويأخذ به ؟ غفرت لعبدى ثلاثا ، فليعمل ما شاء » .

قوله : « إن عبدا أصاب ذنبا » هذا جنس يعم كل من كان بهذه الصفة ــ أى من أذنب ، ثم رجع إلى ربه هاربا من عذابه ، طالبا المغفرة تائبا .

قوله : « أعلم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به » أى أنه حقق هذا العلم باعترافه بالذنب ، وإنابته إلى ربه راغبا فى مغفرته ، خائفا من عقوبته ، فلذلك غفر له ، ثم قال فى الثالثة : « فليعمل ما شاء » يعنى ــ ما دام يذنب ثم يستغفر ويتوب ، فإن ربه ــ تعالى ــ يغفر ذنبه .

ولا يدل ذلك على أنه مصر على الذنب ، فإن الإصرار على الذنب أعظم منه ، ولكنه يتوب ويستغفر ، ثم يغلبه الطبع ، وهوى النفس ، وتزيين الشياطين فيواقع الذنب ، ثم يفر بعد ذلك إلى ربه تائبا نادما ، راجيا خائفا ، فشروط التوبة متحققة فيه ، وهى الإقلاع عن الذنب ، والندم على الوقوع فيه ، والعزم على أن لا يعاوده .

قال القرطبى فى المفهم : « يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار وعلى عظيم فضل الله ، وسعة رحمته ، وحلمه ، وكرمه .

لكن هذا الاستغفار ، هو الذى ثبت معناه فى القلب مقارنا للسان لينحل به عقد الإصرار ، ويحصل معه الندم ، فهو ترجمة للتوبة ، ويشهد له حديث : « خياركم كل مفتن تواب » ، ومعناه : الذى يتكرر منه الذنب والتوبة ، فكلما وقع فى الذنب ، عاد إلى التوبة .

لا من قال : أستغفر الله بلسانه ، وقلبه مصر على تلك المعصية ، فهذا الذى استغفاره يحتاج إلى استغفار .

قلت : ويشهد[1] له ما أخرجه ابن أبى الدنيا ، من حديث ابن عباس ، مرفوعا : « التائب من الذنب ، كم لا ذنب له ، والمستغفر من الذنب ، وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه » . والراجح أن قوله : « والمستغفر » إلى آخره موقوف . وأوله عند ابن ماجه ، والطبرانى ، من حديث ابن مسعود ، وسنده حسن . وحديث : « خياركم كل مفتن تواب » ذكره فى مسند الفردوس ، عن على .

قال القرطبى : « وفائدة هذا الحديث ، أن العود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه ، لأنه انضاف إلى ملابسة الذنب نقض التوبة ، لكن العود إلى التوبة أحسن من ابتدائها ، لأنه انضاف إليها ملازمة الطلب من الكريم ، والإلحاح فى سؤاله ، والاعتراف بأنه لا غافر للذنب سواه »[2] .

والمقصود من الحديث : وقوع كلام الله ــ تعالى ــ مخاطبا هذا العبد المذنب ، وإن كان العبد لا يسمع ذلك الخطاب ، ولم يعلم به ، فهو مما أوحاه الله ــ تعالى ــ إلى رسوله ﷺ وهو واقع من الله تعالى ، فهو دال على مراد الإمام البخارى رحمه الله من أن الله يتكلم متى شاء ، بما يشاء من أمره ، وشرعه ، وتدبيره لخلقه ، وتصريفه ملكه جل وعلا ــ وكلامه لا حصر له ولا نفاد ، وهو غير مخلوق ؛ لأن الكلام صفة المتكلم متعلق به وقائم به ، وأما خلقه فهو مفعول له ، ليس من صفاته ، وإنما هو من مفعولاته . والله أعلم .

١٣٢ ــ قال : « حدثنا عبد الله بن أبى الأسود ، حدثنا معتمر ، سمعت أبى ، حدثنا قتادة ، عن عقبة بن عبد الغافر ، عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ : « أنه ذكر رجلا فيمن سلف ــ أو فيمن كان

---

(١) القائل هو الحافظ ابن حجر رحمه الله .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٧١ ــ ٤٧٢ .

قبلكم ـــ قال كلمة ـــ يعنى أعطاه الله مالا وولدا ، فلما حضرت الوفاة ، قال لبنيه : أى أبٍ كنت لكم ؟ قالوا : خير أب ، قال : فإنه لم يبتئر ـــ أو لم يبتئز ـــ عند الله خيرا ، وإن يقدر الله عليه يعذبه ، فانظروا إذا مت ، فأحرقونى ، حتى إذا صرت فحما فاسحقونى ـــ أو قال : فاسحكونى ـــ فإذا كان يوم ريح عاصف فأذورنى فيها .

فقال نبى الله ﷺ فأخذ مواثيقهم على ذلك ـــ وربى ـــ ففعلوا ، ثم ذروه فى يوم عاصف .

فقال الله ـــ عز وجل ـــ : كن فإذا هو رجل قائم ، قال الله : أى عبدى ما حملك على أن فعلت ما فعلت ؟ قال : مخافتك ـــ أو قال : فرق منك ـــ قال : فما تلافاه أن رحمه عندها .

وقال مرة أخرى : « فما تلافاه غيرها » ، فحدثت به عثمان ، فقال : سمعت هذا من سفيان : غير أنه زاد فيه : « أذرونى فى البحر » أو كما حدث » .

« حدثنا موسى ، حدثنا معتمر ، وقال : لم يبتئر » .

« وقال لى خليفة : حدثنا معتمر ، وقال : لم يبتئز ـــ فسره قتادة ـــ لم يدخر » .

هذا هو الحديث المتقدم قريبا أعاده من طرق أخرى من حديث أبى سعيد الخدرى .

وفيه من الزيادة قوله : « فيمن سلف ـــ أو فيمن كان قبلكم » وتقدم أن الإمام البخارى ـــ رحمه الله ـــ أورده فى أحاديث بنى إسرائيل ، من كتاب الأنبياء مما يدل على أنه منهم والله أعلم .

وفيه أن وصيته وأمره لأولاده كانت عند وفاته ، بقوله : « أى أب كنت لكم » ليكون ذلك أدعى إلى تنفيذ أمره ، فكأنه يقول : ما دمتم تعرفون أنى كنت لكم خير أب ، فمن جزائى عليكم أن تفعلوا ما آمركم به .

وفيه أن سبب أمره لأبنائه بذلك أنه مسرف على نفسه ولم يقدم خيرا فقوله : « لم يبتئز خيرا عند الله » معناه لم يقدم عملا صالحا ، وفسره قتادة بأنه لم يدخر عند الله خيرًا .

والمقصود أنه لم يعمل خيرا يرجو به النجاة .

وفيه قوله : « حتى إذا صرت فحما فاسحقونى ــ أو قال فاسحكونى ــ فإذا كان يوم عاصف فأذرونى فيها » وقد فهم هذا كله من الحديث السابق ، والسحق ، والسحك ، كلاهما بمعنى واحد ــ وهو أن يطحن حتى يصير ذرات صغيرة جدا ، ولهذا أمرهم أن يذروه فى اليوم الذى تكون الريح فيه عاصفا ــ أى شديدة إمعانا فى تفريق أجزائه ، ظنا منه أن الله لا يقدر على إعادته بعد ذلك ، وهذا هو مقصده .

وفيه قول النبى ﷺ : « فأخذ مواثيقهم على ذلك ــ وربى ــ » ففيه مشروعية القسم على الأمر المؤكد تقوية وتأكيدا للسامع حتى لا يرتاب فى ذلك ، والرسول ﷺ هو الصادق المصدوق فيجب تصديق خبره بدون أى تردد ، أو شك ولو لم يقسم ، ولكنه يشرع لأمته صلوات الله وسلامه عليه .

والمواثيق جمع ميثاق ، وهى العهود ، والأيمان المؤكدة على أن يفعلوا ما أمرهم به .

وفيه أن الله ــ تعالى ــ قال له : « كن فإذا هو رجل قائم » وهو ظاهر فيما قلنا أنه واقع فى الدنيا ، وسبق أن حديث جابر يدل على ذلك ، ولفظه : « قال جابر بن عبد الله ــ رضى الله عنهما ــ : قال النبى ﷺ : « ألا أبشرك عما لقى أبوك ؟ إن الله كلم أباك من غير حجاب ، فقال له : عبدى سلنى ،

فقال : يا رب ردنى إلى الدنيا حتى أقتل فيك ، قال : فإنى قد قضيت عليهم ألا يرجعوا ، قال : يا رب فأبلغهم عنا ، فأنزل — عز وجل — ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[1] .

وفيه : أن الله — تعالى — قال له : « أى عبدى ما حملك على أن فعلت ما فعلت » وهو بمعنى ما تقدم .

وقوله : « مخافتك — أو فرق منك » الفرق : هو الخوف ، وهو بمعنى ما تقدم من قوله « خشيتك » .

وفيه قوله : « فما تلافاه أن رحمه عندها — وقال مرة أخرى : فما تلافاه غيرها » . يعنى أنه تعالى عندما قال هذه الكلمة ، رحمه دون إمهال ، بل أسرع إليه برحمته ، فغفر له ، فما أعظم هذا الكرم ، وأوسع هذا الحلم والرحمة ، هذا مع شك هذا الرجل فى قدرة الله ، وعدم إيمانه بما يجب عليه بأنه تعالى على كل شيء قدير ، ولكن رحمة الله تغلب غضبه .

وتقدم بيان الشاهد منه ، وهو قول الله تعالى وخطابه لهذا الرجل مما يدل على أنه تعالى يقول ويتكلم متى شاء ، ويكلم من يشاء ، وكلامه تعالى لا حصر له ولا نفاد ، وهو غير خلقه لأن الكفار والمنافقين يريدون أن يبدلوا كلام الله ، وذلك قد يقع ، وأما خلق الله تعالى فلا تبديل له .

كما فى هذه النصوص إثبات الصفات الاختيارية لله — تعالى — وهى من تمام حمده ، فمن لم يقر بها لم يمكنه الإقرار بأن الله محمود ، ولا أنه رب العالمين .

---

(١) رواه البخارى فى خلق أفعال العباد ص ٤٢ ، ورواه الإمام أحمد ولفظه : « أعلمت أن الله أحيا أباك ، فقال له : تمن ، فقال له : أرد إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى ، قال : إنى قضيت أنهم إليها لا يرجعون » انظر المسند جـ ٣ ص ٣٦١ .

فإن الحمد ضد الذم ، وهو الإخبار بمحاسن المحمود مع المحبة له ، كما أن الذم هو الإخبار بمساوئ المذموم مع بغضه ، وجماع المساوئ فعل الشر ، كما أن جماع المحاسن فعل الخير .

فمن كان يفعل الخير بمشيئته وقدرته استحق الحمد ، ومن لم يكن له فعل اختيارى يقوم به ويفعله بمشيئته وقدرته لا يكون خالقا ولا ربا للعالمين .

وقد علم بالاضطراز أن الله ـــ تعالى ـــ هو الخالق وحده ، وهو الرازق وحده وهو المحيى المميت وحده ، وهذا هو الفعل الاختيارى فوجب إثباته لله ـــ تعالى ـــ .

وكذلك اتصافه بالصفات مثل الرحمن الرحيم ، فإن الرحمن الرحيم الذى يرحم العباد بمشيئته وقدرته ، وكذلك يعذب من عصاه بمشيئته وقدرته فتصرفه فى ملكه دلت عليه أسماؤه وصفاته تعالى ، فمن أنكر صفاته لزمه تعطيله عن تصرفه فى ملكه .

قال تعالى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾[1] فعلق الرحمة والعذاب بمشيئته .

وهو ـــ تعالى ـــ لم يزل بصفاته يفعل ما يشاء له الكمال المطلق فى كل وقت فى الأزل وفى الأبد ، وهذا مما أراده البخارى ـــ رحمه الله ـــ بذكر هذه النصوص خلافا لما يقوله أهل البدع .

---

(١) الآية ٥٤ من سورة الإسراء .

قال : « باب كلام الرب ــ عز وجل ــ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم » .

هذا هو الباب الثامن مما يستدل به الإمام البخارى ــ رحمه الله ــ على إثبات الكلام لله ــ تعالى ــ .

فذكر أولا قوله : تعالى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ثم بوب على قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَـٰهُ ﴾ ، ثم على قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى ﴾ الآيات ، ثم ذكر المشيئة والإرادة إشارة منه إلى أن كلامه ــ تعالى ــ بمشيئته وإرادته ، وأنه إذا شاء أن يتكلم تكلم ، ثم ذكر ما بين الله من حال الملائكة عند سماعهم صوت الله تعالى بالكلام ، وأنهم يصعقون ، فإذا أفاقوا قال بعضهم لبعض : ماذا قال ربكم ، وفيه إثبات الصوت لله تعالى ، وأن كلامه بصوت ، وهذا من أبلغ الأدلة على إثبات الكلام لله حقيقة ، ثم ذكر قول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ يريد بذلك إبطال قول من يزعم أن كلام الله مخلوق ، لأن الخلق لا يبدل بخلاف الكلام ، فإنه يمكن تبديله ، أو يريد أن الأحاديث القدسية من كلام الله حقيقة ، وأن كلامه تعالى لا ينحصر فى كتبه المنزلة ، ثم ذكر هذا الباب الذى نحن فى صدد شرحه ، وهو كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ، يقصد بذلك أن كلامه تعالى لا انقطاع له ولا نهاية بل متعلق بمشيئته متى شاء تكلم ، فكما أنه تعالى تكلم فى الأزل ، وبعده كلما أراد ، فهو يتكلم فى المستقبل وفى الحال حسب إرادته . ثم ذكر قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ ليبين أن كلامه حقيقة ، وأنه يكون خاصا وعاما ، ولهذا أعقبه بقوله : باب كلام الرب مع أهل الجنة ، ثم ذكر مسألة خلق أفعال العباد ، والفرق بين فعل الله تعالى وفعل العبد ، ووجوب عدم مشابهة الرب فى ذلك وغيره ، ولهذا أعقب ذلك بأن ترجم بقول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا

وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ثم بين الفرق بين فعل العبد وما هو صفة لله مثل القراءة والمقروء ، وغير ذلك كما سيأتى إن شاء الله تعالى ، وكل ما ذكره أدلة واضحة صريحة ومخالفتها ضلال بين .

١٣٣ ــ قال : « حدثنا يوسف بن راشد ، حدثنا أحمد بن عبد الله ، أبو بكر بن عياش ، قال : سمعت أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ قال : سمعت النبى ﷺ يقول : إذا كان يوم القيامة شفعت ، فقلت : يارب أدخل الجنة من كان فى قلبه خردلة ، فيدخلون ، ثم أقول : أدخل الجنة من كان فى قلبه أدنى شىء ، فقال أنس : كأنى أنظر إلى أصابع رسول الله ﷺ » .

هذا مختصر من حديث الشفاعة ، وتقدم شرحه .

قوله : « شفعت » مبنى للمجهول ، ومعلوم أنه لا يُشَفِّع فى ذلك الموقف إلا الله ــ جل وعلا ــ ولا تقع الشفاعة إلا بكلام الله وأمره ، وبهذا يُردُّ قول ابن التين ، الذى نقله الحافظ : « أنه قال : هذا فيه كلام الأنبياء مع الرب ، ليس كلام الرب مع الأنبياء »[1] ، وكذلك قوله : « ثم أقول : أدخل الجنة من كان فى قلبه أدنى شىء » يدل على أن الله يكلمه .

والمراد بالشىء : الإيمان ، ويصدق على ما يسمى شيئا ، وهو أقل جزء من الإيمان ، وهذا دليل واضح على تفاوت الإيمان بين الناس ، كما دلت عليه النصوص الكثيرة .

قوله : « كأنى أنظر إلى أصابع رسول الله ﷺ » يعنى أنه كان يشير بأصابعه يصف قلة ما عند هذا المخرج من النار من الإيمان .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٧٥ .

١٣٤ ــ قال : « حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا معبد بن هلال العنزى ، قال : اجتمعنا ناس من أهل البصرة ، فذهبنا إلى أنس ، وذهبنا معنا بثابت البنانى إليه ، يسأله لنا عن حديث الشفاعة ، فإذا هو فى قصره ، فوافيناه يصلى الضحى ، فاستأذنا ، فأذن لنا ، وهو قاعد على فراشه .

فقلنا لثابت : لا تسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة ، فقال : يا أبا حمزة هؤلاء إخوانك من أهل البصرة ، جاءوك يسألونك عن حديث الشفاعة .

فقال : حدثنا محمد ﷺ فقال : « إذا كان يوم القيامة ماج الناس فى بعض ، فيأتون آدم ، فيقولون : اشفع لنا إلى ربك ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بإبراهيم ، فإنه خليل الرحمن ، فيأتون إبراهيم ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله ، فيأتون موسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بعيسى ، فإنه روح الله وكلمته ، فيأتون عيسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بمحمد ﷺ فيأتونى ، فأقول : أنا لها ، فأستأذن على ربى ، فيؤذن لى ، ويلهمنى محامد أحمده بها لا تحضرنى الآن ، فأحمده بتلك المحامد ، وأخر له ساجدا ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب أمتى أمتى ، فيقال : انطلق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال شعيرة من إيمان ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب أمتى ، فيقال : انطلق فأخرج منها من كان

فى قلبه مثقال ذرة ، أو خردلة من إيمان ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجدا ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب أمتى أمتى ، فيقول : انطلق فأخرج من كان فى قلبه أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان ، فأخرجه من النار ، من النار ، من النار ، فأنطلق فأفعل » .

فلما خرجنا من عند أنس ، قلت لبعض أصحابنا : لو مررنا بالحسن ، وهو متوار فى منزل أبى خليفة ، فحدثنا بما حدثنا أنس بن مالك ، فأتيناه فسلمنا عليه فأذن لنا ، فقلنا له : يا أبا سعيد جئناك من عند أخيك أنس بن مالك فلم نر مثل ما حدثنا فى الشفاعة .

فقال : هيه ، فحدثناه بالحديث ، فانتهى إلى هذا الموضع ، فقال : هيه ، فقلنا : لم يزد لنا على هذا ، فقال : لقد حدثنى وهو جميع منذ عشرين سنة ، فلا أدرى أنسى ، أم كره أن تتكلوا .

فقلنا : يا أبا سعيد فحدثناه ، فضحك ، وقال : خلق الإنسان عجولا ، ما ذكرته إلا وأنا أريد أن أحدثكم .

حدثنى كما حدثكم به ، قال : « ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك ، ثم أخر له ساجدًا ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب أئذن لى فيمن قال : لا إله إلا الله ، فيقول : وعزتى وجلالى ، وكبريائى ، وعظمتى لأخرجن منها من قال : لا إله إلا الله » .

تقدم شرحه ، والمقصود منه هنا إثبات كلام الله تعالى لرسولنا محمد ﷺ

فى الموقف ، فإن فيه محاورة بين رب العالمين جل وعلا ، وبين عبده ورسوله محمد ﷺ .

وهو واضح الدلالة على المراد ، من أنه تعالى يتكلم ويخاطب من يشاء من عباده يوم القيامة ، وإذا ثبت ذلك دل على أن كلامه بمشيئته ، وأنه متى شاء تكلم ، يوم القيامة ، وقبلها .

وهذا أمر من ضروريات دين الإسلام ، لا ينكره إلا من هو دخيل فيه ، أو زنديق قد تلبس بثوب الإسلام لأجل النيل منه ، والإجهاز عليه إذا واتته الفرصة ، أو ضال لعبت به الأهواء ، واجتالته شياطين الإنس والجن ، بعيدًا عن الحق والهدى .

ولا يضر ما فى هذه الخطابات الكريمة من الأفعال المبنية للمجهول كقوله : « فأستأذن فيؤذن لى » ، وقوله : « فأخر له ساجدا ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك » لأنه قد علم أنه لا يقول ذلك إلا رب العالمين ، وليس لمخلوق فى ذلك الموقف العظيم أن يأمر ، وينهى ، ويتصرف فى الخلق ، بإدخال بعض العباد النار ، وإخراج البعض منها ، وإنما الفاعل لذلك كله ، والآمر به هو رب العباد — عز وجل — .

وهو الذى يقول لرسوله : « يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع » ، وهو — تعالى — القائل له : « انطلق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال شعيرة من إيمان » .

ودل صراحة على تفاوت هؤلاء المخرجين من النار فى الإيمان ، وقد تكاثرت النصوص على ذلك .

كما دل على أن من معه أصل الإيمان ، ولم يخرج منه بمكفر أنه لا يخلد فى النار ، وإن عظمت ذنوبه ، وإن ضعف إيمانه .

قال القرطبى : « المراد بالإيمان هنا أعمال الإيمان التى هى أعمال الجوارح

فيكون دليلا على أن الأعمال الصالحة من الإيمان .

وقد قيل : إن المراد أعمال القلوب ، ويجوز أن يراد به رحمة لمسلم ، رقة على يتيم ، خوفا من الله ، رجاء له ، توكلا عليه ، ثقة به مما هو أفعال القلوب دون الجوارح ، وسماها إيمانا لكونها فى محل الإيمان »[1] .

والظاهر أن المراد أصل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، إذ هو الباعث على عمل ما ذكر ، ولكن قد يكون الإيمان ضعيفا فلا يقوى على دفع صاحبه إلى العمل .

ودل على تكرار الشفاعة مرات متعددة ، وذلك من رحمة الله بعباده ولهذا يفتح الله ــ تعالى ــ على نبيه من المحامد والثناء ما يرضى به عنه ويأذن له بالشفاعة ، وما لم يكن ﷺ يعرفه من قبل .

واستدل بهذا على أن أسماء الله ــ تعالى ــ لا حصر لها ، لأن الثناء على الله ــ عز وجل ــ يكون بأسمائه الحسنى وصفاته .

وفى الحقيقة الشفاعة لله ــ تعالى ــ فهو الذى يأمر بها فيقول لنبيه « اشفع » ويشفعه ، وتقدم أن حقيقة الشفاعة : رحمة الله تعالى للمشفوع فيه ، وإظهار كرامة الشافع .

ودل الحديث على شفقة النبى ﷺ على أمته .

وقد جاء أن الأنبياء والملائكة والمؤمنين يشفعون ، وتقدم بيان ذلك فى باب قول الله ــ تعالى ــ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

ودل الحديث على عظم ذلك اليوم ، إذ إن أفضل الرسل تحجم عن الشفاعة ، ويعتذرون بأنهم قد أصابوا ذنوبا ، تابوا منها وقبلت توبتهم ،

---

(١) التذكرة جـ ٢ ص ٤١٨ .

ولكنهم يستحيون من الله .

وفيه دليل على جواز وقوع الذنوب فى الجملة من الرسل ، ولكنهم يوفقون إلى التوبة ، والرجوع إلى الله ــ تعالى ــ وسبقت الإشارة إلى ذلك .

قوله : « من كان فى قلبه أدنى ، أدنى مثقال حبة خردل من إيمان » التكرار للتأكيد ، أو التوزيع على الحبة والخردلة ، أى أقل حبة من أقل خردلة من الإيمان » قاله الحافظ(١) .

وقوله : « من النار ، من النار ، من النار » هو للتأكيد والمبالغة .

وتقدم ما فى هذا الحديث من الإشكال ، لأن أوله غير متصل بآخره ، والجواب عنه .

ويستفاد منه أن الشفاعة لا تطلب إلا ممن يملكها .

كما يستفاد أنه لا يطلب من الشافع أن يشفع إلا إذا كان يقدر على الشفاعة بأن يكون حيا حاضرًا ، قادرا على ذلك ، ففيه بيان ضلال الذين يتعلقون بالموتى ، ويطلبون منهم التوسط لهم عند الله ، وهذا عين شرك المشركين الذين أرسلت إليهم الرسل ، ينهونهم عن ذلك ، وينذرونهم عذاب الله إن لم يتوبوا منه .

ودل صراحة على أن الشفاعة لا تنال إلا مَن أمر اللهُ الشافعَ أن يشفع فيه ، ولهذا ذكر أنه فى كل مرة يحد الله له حدا فيقول له : اشفع فيهم ، فهو ــ تعالى ــ يعين له نوعًا متميزًا فيأمره أن يشفع فيهم بحيث لا يمكن دخول من ليس منهم معهم ، ولذلك قال فى الأولى : « من فى قلبه مثقال شعيرة من إيمان » ، وفى الثانية : « من فى قلبه أدنى مثقال حبة خردل » ، وفى الرابعة :

---

(١) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٤٧٥ .

« من قال لا إله إلا الله » ، وهذا يعطى بظاهره أنه ولو لم يكن فى قلبه شيء من الإيمان ، وقد تؤول بأن المقصود الإيمان الزائد على أصل الإيمان الذى يحصل به الخروج من الكفر ، وادعى بعض العلماء الإجماع على ذلك .

والذى يظهر من هذا الحديث ، وغيره مما جاء فى معناه أنه لا يشترط ذلك فالله أعلم .

١٣٥ ــ قال : « حدثنا محمد بن خالد ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسرائيل ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن آخر أهل الجنة دخولا الجنة ، وآخر أهل النار خروجا من النار ، رجل يخرج حبوًا ، فيقول له ربه : ادخل الجنة ، فيقول : رب الجنة ملأى ، فيقول له ذلك ثلاث مرات ، فكل ذلك يعيد عليه الجنة ملأى ، فيقول : إن لك مثل الدنيا عشر مرار » .

قوله : « إن آخر أهل الجنة دخولا » هذا على إطلاقه ، يعنى أنه لا يدخلها بعده أحد ، حيث لم يبق فى النار من يخرج منها ، وهذا أقل المؤمنين إيمانا وأكثرهم معاصى ، ويجوز أن يكون واحدا بعينه وهو الظاهر ، ويجوز أن يكون نوعا ، أو جنسا من هذا النوع ، وقد تقدم فى باب قوله ــ تعالى ــ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أنه بعد إخراج من يخرج من النار يبقى رجل مقبل بوجهه إلى النار فيدعو ربه رب اصرف وجهى عن النار ويقسم لله أنه لا يسأله غير ذلك ثم إذا صرف وجهه عن النار يسأل ربه يارب قربنى إلى الجنة ويقسم لربه ألا يسأله غير ذلك فإذا رأى ما فى الجنة سأل ربه أن يدخله الجنة ، فإذا أدخله الجنة قال له : تمنّ ، فإذا انقطعت أمنيته قال الله له : لك ذلك وعشرة أمثاله معه .

فقد يقال إن ذاك هو المراد هنا ، وقد يكونان اثنين أو نوعين فالله أعلم .

قال عياض : « جاء نحو هذا فى آخر من يجوز على الصراط ، فيحتمل أنهما اثنان إما شخصان وإما جنسان ، وعبر فيه بالواحد عن الجماعة لاشتراكهم فى الحكم الذى كان سبب ذلك ، ويحتمل أن يكون الخروج هنا بمعنى الورود وهو الجواز على الصراط ، فيتحد المعنى إما فى شخص واحد أو أكثر .

قال الحافظ : « قلت وقع عند مسلم ما يقوى الاحتمال الثانى ، وهو أن المراد بالخروج معنى الورود ، ولفظه : « وآخر من يدخل الجنة رجل ، فهو يمشى مرة ، ويكبو مرة ، وتسفعه النار مرة ، فإذا جاوزها التفت إليها ، فقال : تبارك الذى نجانى منك » . »[1] .

قلت : الظاهر أنه رجل واحد ، لا جنس ولا نوع ، فالأحاديث تدل على ذلك ، مثل الخطاب الذى يجرى بينه وبين رب العالمين ، وكل سياق الحديث بألفاظه تدل على ذلك .

وقد ذكر القرطبى فى التذكرة ما يؤيد هذا حيث قال : « قال ابن عمر ، عن النبى ﷺ آخر من يدخل الجنة رجل من جهينة ، يقال له جهينة ، تقول أهل الجنة : عند جهينة الخبر اليقين » ، ذكره الميانشى أبو حفص عمر بن عبد المجيد ، فى كتاب « الاختيار فى المملح من الأخبار والآثار » .

ورواه الخطيب ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن آخر من يدخل الجنة رجل من جهينة ، فيقول أهل الجنة : عند جهينة الخبر اليقين ، سلوه هلى بقى من الخلائق أحد » ورواه الدارقطنى انتهى[2] .

وعند تأمل النصوص يتبين عدم الاتحاد ، فيجوز أن يكون هذا المذكور فى رواية مسلم آخر من يدخل الجنة ممن لا يلقى فى النار ، وإنما يبطىء به

---

(١) الفتح جـ ١١ ص ٤٤٣ .
(٢) التذكرة جـ ٢ ص ٥١٥

عمله على الصراط فيحبو مرة ، ويزحف أخرى حتى يجاوز النار .

والمذكور فى هذا الحديث المشروح هنا آخر من يدخل الجنة ممن يلقى فى النار من أهل الإيمان ، وبذلك تتفق النصوص ، والله أعلم .

قوله : « آخر أهل النار خروجا من النار » يعنى بأهل النار من الموحدين الذين يدخلون النار بذنوبهم ، أما أهل النار الذين ماتوا على الكفر فهم لا يخرجون منها أبد الآباد ، كما قال تعالى : ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا أُوْلَـٰئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾[2] والآيات فى ذلك كثيرة .

قوله : « يخرج حبوا » يعنى يمشى على ركبتيه ويديه ، لا يستطيع الاعتماد على رجليه والمشى عليهما يسمى حبوًا ، قال فى اللسان : « حبا حُبُوًّا : مشى على يديه وبطنه ، وحبا الصبى حَبْوًا مشى على استه ، وأشرف بصدره »[3] .

وقال النووى : « قال أهل اللغة : الحبو : المشى على اليدين والرجلين ، وربما قالوا على اليدين والركبتين ، وربما قالوا : على يديه ومقعدته .

وأما الزحف ، فقال ابن دريد ، وغيره : هو المشى على الاست مع إفراشه بصدره ، فحصل من هذا ، أن الحبو ، والزحف متماثلان ، أو متقاربان ، ولو ثبت اختلافهما حمل أنه فى حال يزحف ، وفى حال يحبو والله أعلم »[4] .

---

(١) الآية ١٠٧ من سورة هود .

(٢) الآية ٦ من سورة البينة .

(٣) انظر اللسان جـ ١ ص ٥٦٠ المرتب .

(٤) شرح مسلم جـ ٣ ص ٣٩ .

قوله : « فيقول له ربه : ادخل الجنة ، فيقول : رب الجنة ملآى ، فيقول له ذلك ثلاث مرات ، وفى كل ذلك يعيد عليه الجنة ملآى ، فيقول : إن لك مثل الدنيا عشر مرار » هذا هو محل الشاهد من الحديث ، لما فيه من كلام الله تعالى ومخاطبته لهذا الرجل ، الذى هو آخر من يدخل الجنة ، وهو دليل أيضا على جواز تكليم الله تعالى لمن هو أعلى منزلة منه ، كما جاءت النصوص فى ذلك ، وتقدم بعضها .

وهذا الحديث اختصره هنا ولفظه كما فى كتاب الرقاق ، قال : قال النبى ﷺ : « إنى لأعلم آخر أهل النار خروجا منها ، وآخر أهل الجنة دخولا ، رجل يخرج من النار حبوا ، فيقول الله : اذهب فادخل الجنة ، فيأتيها ، فيخيل إليه أنها ملآى ، فيرجع فيقول : يا رب وجدتها ملآى ، فيقول : اذهب فادخل الجنة ، فيأتيها ، فيخيل إليه أنها ملآى ، فيرجع فيقول : يا رب وجدتها ملآى ، فيقول : اذهب فادخل الجنة ، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها ـــ أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا ، فيقول : تسخر منى أو تضحك منى وأنت الملك ؟ فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ، وكان يقال : ذلك أدنى أهل الجنة منزلة »[1] .

وواضح من هذا أن الله يكلمه بدون واسطة ، وأن ذلك يتكرر ، ثم يقول له فى النهاية : إن لك مثل الدنيا عشر مرات ، ولهذا بهت الرجل من ذلك ورأى أنه لا يستحق ولا قريبا من ذلك ، فقال : أتسخر منى ـــ أو قال : أتضحك منى وأنت الملك ؟ .

ففيه إثبات الضحك لله تعالى ، وأنه يسخر من بعض خلقه ، ومثل هذه الأفعال الصادرة من الله تعالى يجب أن تثبت له ـــ تعالى ـــ على ما يليق بعظمته

(١) انظر البخارى جـ ٨ ص ٩٩ .

وفق ما جاء النص بها ، فلا يجوز تأويلها بما يغير معناها ، ولا تعطيلها ، بل يؤمن بها على ما جاءت ، وكما أخبر بها رسول الله ﷺ فهو أعلم بالله من غيره ، وأحرص على هداية الأمة ، وإبعادها عن الضلال ، وهو أقدر الخلق على البيان ، وإيضاح الحق .

١٣٦ ــ قال : « حدثنا على بن حجر ، أخبرنا عيسى بن يونس ، عن الأعمش ، عن خيثمة عن عدى بن حاتم ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه ، فلا يرى إلا ما قدم من عمله ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة » .

تقدم هذا الحديث فى باب قول الله ــ تعالى ــ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وفيه : « ليس بينه وبينه ترجمان ، ولا حاجب يحجبه » وهو واضح الدلالة على عموم كلام الله ــ تعالى ــ للمؤمنين ، لأن قوله : « ما منكم من أحد » نكرة سبقت بالنفى فهى من صيغ العموم ، غير أن قوله : « منكم » يجوز أن يكون قيدا فى المؤمنين ، ويخرج من ذلك العموم الكفار لأنهم ليسوا منا .

وقوله : « سيكلمه ربه » السين للاستقبال من الزمان ، لأن هذا التكليم لا يكون إلا يوم القيامة ، والترجمان : هو الواسطة التى تنقل الكلام من المتكلم إلى المكلم ، سواء اختلفت اللغة ، أو لم تختلف .

قال فى اللسان : « التُّرجُمان ، والتَّرجَمان : المفسر للسان ، وهو الذى يترجم الكلام أى ينقله من لغة إلى لغة »[1] وليس هذا من تمام التعريف ، بل

---

(١) اللسان جـ ١ ص ٣١٦ .

لا يلزم أن يكون نقله من لغة إلى أخرى .

ومعنى ذلك أن العبد سيقف بين يدى الله ـــ تعالى ـــ يوم القيامة ، فيحاسبه على ما كلفه به من دينه هل قام به ، أو أهمله ، ويحاسبه على أعماله . وكل تصرفاته ، وذلك بدون واسطة من خلقه ، بل هو جل جلاله يتولى ذلك بنفسه ، فيكلم عبده ويسائله .

وقوله : « فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم » أى أن أعماله تكون حاضرة عن يمينه ، وعن شماله ، فالحسنات عن يمينه ، والسيئات عن شماله ، لا يغادره فى ذلك الموقف شىء منها ، ولهذا قال : « فلا يرى إلا ما قدم » ، وقد يكون كما قال ابن هبيرة : إنه ينظر عن يمينه وعن شماله كحالة الذى دهمه أمر عظيم ، فهو يتلفت يطلب النجاة ، أو الغوث .

قوله : « وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه » وذلك أن النار فى ذلك الموقف حائلة بين الناس وبين الجنة ، فلا بد من ورودها لكل أحد ثم ينجى الله الذين اتقوا ، ويذر الظالمين فيها جثيا .

ولهذا قال : « فاتقوا النار ولو بشق تمرة » يعنى نصفها ، والمقصود تقديم العمل الصالح الذى يكون واقيا لصاحبه من النار ، وساترا له منها ، وهذا يدل على وجوب تقديم العمل الصالح ، المنبعث عن تقوى الله ـــ تعالى ـــ والإيمان به ، وبملاقاته ومحاسبته ، ويدل على نفع العمل الصالح ولو قل .

قوله : « قال الأعمش » إلى آخره يقصد بذلك بيان صحة السند لأن الأعمش قد صرح بالتحديث ، فأمن التدليس بذلك .

١٣٧ ـــ قال : « حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن عبد الله ـــ رضى الله عنه ـــ قال : جاء حبرٌ من اليهود ، فقال : إنه إذا كان يوم القيامة ، جعل

الله السماوات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والماء والثرى على أصبع ، والخلائق على أصبع ، ثم يهزهن ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الملك ، فلقد رأيت النبى ﷺ يضحك ، حتى بدت نواجذه ، تعجبا ، وتصديقا لقوله ، ثم قال النبى ﷺ ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾ .

تقدم هذا الحديث فى باب قوله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ وتقدم الكلام عليه هناك .

والمقصود منه هنا قوله : « ثم يقول : أنا الملك ، أنا الملك » فإنه خطاب لخلقه ولا سيما الذين كانوا ينازعونه فى ملكه فى الدنيا من الجبارين ، والمتكبرين ، ولهذا جاء فيه بعد قوله : « أنا الملك » قوله : « أين ملوك الدنيا » كما تقدمت الإشارة إليه .

١٣٨ ــ قال : « حدثنا مسدد ، حدثنا أبو عوانة ، عن قتادة عن صفوان بن محرز ، أن رجلا سأل ابن عمر كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى ؟ قال : يدنو أحدكم من ربه ، حتى يضع كنفه عليه ، فيقول : أعملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، ويقول : عملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، فيقرره ، ثم يقول : إنى سترت عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم » .

النجوى هى المحادثة بين اثنين أو أكثر سرا ، بحيث لا يسمع حديثهم من قرب منهم والمقصود هنا : كلام الرب ــ تعالى ــ مع عبده سرا .

قال فى اللسان : « نجاه نجوًا ، ونجوى : ساره ، النجوى ، والنَّجِىُّ : السر ، والنجوى ، السر بين اثنين ، يقال : نجوته نجوًا ، أى ساررته ، وكذلك

ناجيته ، والاسم النجوى »[1] .

قال الحافظ : « المراد من النجوى فى الحديث : المناجاة التى تقع من الرب ـــ سبحانه وتعالى ـــ يوم القيامة مع المؤمنين »[2] .

قوله : « يدنو أحدكم من ربه » فى الرواية الأخرى . « يدنو المؤمن من ربه » .

والله ـــ تعالى ـــ وصف نفسه بأنه يدنو ، ويقرب من بعض عباده ، دون بعض ، وقد تكاثرت النصوص فى ذلك ، حتى بلغت ما يقرب من خمسمائة آية فى كتاب الله ـــ تعالى ـــ كلها تدل على أنه ـــ تعالى ـــ يقرب من بعض خلقه ، ويدنو إليهم ، كقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[3] .

وقوله ـــ تعالى ـــ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ ﴾[4] .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾[5] ، وقوله ـــ تعالى ـــ ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾[6] ، وقوله : ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾[7] والآيات فى هذا كثير جدا .

وكذلك ما تقدم من الأدلة على علو الله ـــ تعالى ـــ واستوائه على العرش ، تدل على ذلك ، فإنه إذا كان الله ـــ تعالى ـــ على العرش أمكن القرب منه

---

(١) اللسان جـ ٣ ص ٥٩٢ المرتب .
(٢) الفتح جـ ١٠ ص ٤٨٨ .
(٣) الآية ٢٨١ من سورة البقرة .
(٤) الآية ٢٢٣ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٧ من سورة الزمر .
(٦) الآية ١٥٦ من سورة البقرة .
(٧) الآية ٣٩ من سورة النور .

بالصعود إليه والعروج ، كما عرج بالنبى ﷺ إليه ، وكذا الملائكة وبعض الأرواح وغير ذلك ، وببعض هذه النصوص الكثيرة يحصل العلم الضرورى ، لمن آمن بها ، وبما دلت عليه ، من أن الله ـــ تعالى ـــ يقرب إلى عباده ، ويقربون إليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إذا دَعَانِ ﴾[1] .

ودلالة النصوص الشرعية على هذا من أعظم المتواترات ، والعلم بها مستقر فى فطر المسلمين ، عامتهم ، وخاصتهم ، كما أنه مستقر فى فطرهم أن الله فوقهم .

وليس من الخلق أحد إلا ويعلم أن عباد الله منهم المقرب إلى الله ـــ تعالى ـــ ومنهم المبعد الملعون المطرود ، وكلهم يسمون الطاعات قربات ، يتقرب بها العبد إلى الله ـــ تعالى ـــ ، وكلهم يرفعون أيديهم إلى الله ، وكونه تعالى فوقهم يستلزم أنه يقرب إليه بالعلو والصعود ، كما رفع عيسى بن مريم إليه ، والملائكة الذين يحفظون أعمال بنى آدم إذا صعدوا إليه سألهم ، كيف تركتم عبادى .

والأدلة على هذا الأصل العظيم لا حصر لها ، واتفق السلف الصالح ، ومن تبع كتاب الله ، وسنة نبيه وآمن بهما على القول بذلك ، والإيمان به .

« قال الخلال فى السنة : أخبرنا جعفر بن محمد الفريابى ، حدثنا أحمد بن محمد المصرمى ، حدثنا سليمان بن حرب ، قال : سأل بشر بن السرى حماد ابن زيد ، فقال : يا أبا إسماعيل الحديث الذى جاء . « ينزل الله إلى السماء الدينا » ، يتحول من مكان إلى مكان ؟

فسكت حماد . ثم قال : « هو فى مكانه ، يقرب من خلقه كيف شاء »[2] .

---

(١) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

(٢) بيان تلبيس الجهمية جـ ٣ ص ١٨٤ المخطوط .

وقال شيخ الإسلام : « أهل السنة يثبتون أن الله على عرشه ، وأن حملة العرش أقرب إليه ممن دونهم ، وأن ملائكة السماء العليا أقرب إلى الله من ملائكة السماء الثانية ، وأن النبى ﷺ لما عرج به إلى السماء صار يزداد قربا إلى ربه بعروجه ، وصعوده . وعروجه إلى الله ــ تعالى ــ لا إلى مجرد خلق من خلقه ، وأن روح المصلى تقرب إلى الله فى السجود ، وإن كان بدنه متواضعا ، وهذا هو الذى دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة »[1] .

فالله ــ تعالى ــ يقرب بنفسه إلى من يشاء من خلقه ، وهو فوق عرشه ، عال على خلقه ، ولا يجوز تأويل النصوص فى ذلك مثل قوله ﷺ : « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه » .

ولا يلزم أن يكون كل نص فى القرب يراد به قرب الله تعالى بنفسه ، بل ينظر فى النص الوارد فى ذلك ، فإن دل على قربه بنفسه حمل عليه كما فى هذا الحديث ، وإن دل على قرب ملائكته ورسله حمل عليه ، كقوله ــ تعالى ــ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾[3] .

وهذا الحديث ظاهر فى أن العبد يدنو من ربه ، بل هو نص صريح فى ذلك ، فصرفه عن ظاهره تحريف لكلام رسول الله ﷺ وتلاعب به ، يعد من عظائم الذنوب ، يجب على المؤمن التحرز منه .

وما نقله الحافظ عن ابن التين أنه قال : « يعنى يقرب من رحمته ، وهو

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٧ .
(٢) الآية ١٦ من سورة ق .
(٣) الآية ٨٥ من سورة الواقعة .

سائغ فى اللغة ، يقال : فلان قريب من فلان ، ويراد الرتبة »[1] . فهو تأويل الجهمية المعروف الذى ذكره السلف عنهم ، وردوه ، وبينوا أنه مخالف لقول الله ــ تعالى ــ ولقول رسوله ﷺ ولعقيدة أهل العلم والإيمان ، وهو سلوك غير سبيل المؤمنين .

قال شيخ الإسلام : « وبيان بطلان هذا التأويل من وجوه :

أحدها أن ما يدنو إليه العبد من الرحمة ، والإيمان ، وغير ذلك ، إما أن تكون أعيانا قائمة بأنفسها ، أو صفات قائمة بغيرها ، فإن كانت صفات ، فمعلوم أن القرب إلى الصفة لا يكون إلا بالقرب إلى الموصوف نفسه .

فأما قربه من صفته القائمة به دون قربه من نفسه ، فظاهر البطلان والفساد ، ولهذا لم يقله أحد من العباد ، بل الذى يحيل القرب إلى نفسه هو للقرب إلى صفاته أشد إحالة ، إن كان يثبت له صفة .

ومن المعلوم أن قوله : « يدنو العبد من ربه ، حتى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه ــ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : أعرف رب » وقوله : « إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه » ، وقوله : « فيدنيه الله منه فيضع عليه كنفه » ، [وقوله : « يدنو أحدكم من ربه فيضع عليه كنفه][2] ، كل هذه الألفاظ صريحة واضحة ، كل من سمعها علم بالاضطرار أن الذى يدنى العبد ، ويضع عليه كنفه ، ويقرره بذنوبه ، ويغفرها له هو الله ، لا أحد من خلقه ، فكيف يجوز أن يقال : لا يدنو العبد من ربه ، وإنما يدنو من بعض مخلوقاته[3] . وهل ذلك إلا بمثابة من يقول إن من يقرره بذنوبه هو بعض مخلوقاته . كما يقوله الجهمية ، القائلون بأن الله ــ تعالى ــ لا يقوم به كلام ،

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٧٧ .

(٢) هذا لفظ الحديث المشروح هنا ولم يذكره الشيخ .

(٣) لأن الرحمة التى فسروا بها دنو العبد هو الثواب واللطف والإحسان ، فهى إذًا مخلوقة .

وإنما الكلام يقوم ببعض مخلوقاته ، وهو أيضا بمنزلة أن يقال : إن الله لا يغفر له ، وإنما يغفر له بعض مخلوقاته .

وهذا مما يعلم بالاضطرار أنه خلاف ما أخبرت به الرسل ، وأنه شرك صريح فى إلاهية الله وربوبيته ، ولهذا قال بعض السلف : إن من زعم أن قوله لموسى ﴿ إِنِّى أَنَا رَبُّكَ ﴾ مخلوق ، فهو كافر ، لأنه جعل هذا الكلام قائما بمخلوق يلزم أن يكون هو الرب ، وسائر تأويلات الجهمية وأهل الباطل من هذا الجنس .

الثانى : أن هذا الدنو ، ووضع الكنف ، والمخاطبة تكون وقت السؤال ، والعبد خائف غير آمن ، ولا ظهر له أنه يغفر له ، ويرحم ، كما هو صريح الحديث الصحيح بقوله : « يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره ، فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أى رب ، حتى إذا قرره ، ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم » .

فإذا كان العبد حين هذا الدنو من الله ، والمخاطبة ، والتقرير بذنوبه يرى أنه قد هلك قبل أن يذكر له الرب ـــ تعالى ـــ أنه غفر له ، امتنع أن يكون ما ذكره من دنوه من الله ، هو دنوه من رحمته ، وأمانه وتعطفه .

الثالث : أن الرحمة والعطف ، والأمان ، إن كانت صفات لله تعالى كان القرب إليها قربا إلى الموصوف ، كما تقدم ، وإن كانت أعيانا قائمة بنفسها مخلوقة لله ـــ تعالى ـــ فمن المعلوم أن حين الحساب فى عرصات القيامة لا يكون هناك أجسام مخلوقة من الرحمة التى أعدها الله ـــ تعالى ـــ لعباده .

ولكن هو يحكم بالعفو والمغفرة ، ثم ينقلون إلى دار الرحمة . فا متنع أن يكون أحد حال المحاسبة مقربا إلى أجسام هى رحمة قبل أن يؤذن لهم فى دخول الجنة .

الرابع : أن يقال : من المعلوم أن الله تعالى أخبر فى كتابه بأصناف ما ينعم

به على عباده من المآكل والمشارب ، والملابس ، والمناكح والمساكن ، وقد أجمل ما لم يفصله فى قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ .

وهذه الأمور يباشرها المؤمن مباشرة ، لا يكون جزاؤه مجرد قربه منها دون مباشرتها ، بل ذلك يكون حسرة وعذابا ، فدعوى الإكرام بمجرد التقريب من هذه الأمور ، دون مباشرتها كلام باطل ، لا حقيقة له .

الخامس : أن المؤمن لم يزل فى رحمة الله فى الدنيا ، والآخرة ، فلا يجوز تخصيص حال السؤال بقربه من رحمته ، دون ما قبل ذلك وما بعده ، بل هو ما زال مباشرا لما يرحمه الله به قبل وبعد ، فأى فائدة فى أن يوصف بالقرب من شيء مازال مباشرا له ، لا ينفصل عنه .

السادس : أنه فى العرض على الله يظهر له من الأهوال والشدة ما يكون أعظم عليه وأشد لرهبه وألمه من كل ما كان قبل ذلك وبعده ، فكيف يجوز تخصيص أشد الأحوال عليه بأنه يقرب فيه مما يرحم به ، مع أن ما قبلها وما بعدها كان ما يرحمه به إليه أقرب ، وهو له أعظم مباشرة ونيلا .

السابع : أن قولهم : « يقرب من رحمة الله ، وأمانه ولطفه ، ونحو ذلك » من تأويلهم ، لا ريب أنه من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه .

ومن المعلوم فى اللغة العربية أن هذا لا يجوز إلا إذا أقترن بالكلام ما يبين المحذوف ، فلا يقال : جاء زيد والمقصود غلامه ، أو رسوله[1] .

والحديث نص فى أن الله ـــ تعالى ـــ هو الذى يدنى عبده من نفسه ، ولهذا لا يسمع أحد هذا الكلام ، فيفهم أن الله يدنيه من شيء آخر ولا يخطر هذا ببال المستمع ، فكيف يجوز أن يكون الرسول ﷺ أراد الباطل الذى قالوه .

---

(١) وهذا يرد ما نقله الحافظ عن ابن التين أن ذلك سائغ فى اللغة كما تقدم ذكره .

الثامن : أن قوله : « فيدنيه منه ، فيضع عليه كنفه ، ثم يقرره بذنوبه » الجمع بين الإدناء ووضع الكنف ، وتقريره بذنوبه قرينة تعين أن الله تعالى هو الذى يدنى إليه عبده ، ويضع عليه كنفه ، فيستره من الناس ، كما صرح به فى الحديث .

التاسع : أن هذا الحديث دل على ما دل عليه القرآن من وقوف العباد على الله ، وخطابه لهم ، ومن المعلوم بالاضطرار من رسالات الرسل ، ومن دين الإسلام أن هذا إنما هو يوم القيامة ، وأن أحوال العباد مع الله يوم القيامة غير أحوالهم فى الدنيا ، وعلى قول هؤلاء المؤولة لا فرق بين الدنيا والآخرة ، فإن الله لا يقرب إليه شىء لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولا يقفون على ربهم ، لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ، ولا يصيرون إليه ، وإنما ذلك كله إلى بعض مخلوقاته ، ومقدوراته ، كما أن خطابه لهم عند الجهمية وأتباعهم »[1] معناه أنه يخلق كلاما فى بعض مخلوقاته يكلمهم منها ، وعند الأشاعرة الذين هم فرع عن الجهمية يخلق إدراكا فى العباد يفهمون به المعنى الواحد القائم بذاته ــ تعالى ــ وهذا تكذيب لكتاب الله ولرسوله ، ومناقضة لدين الإسلام الذى فطر على قبوله العباد .

قوله : « حتى يضع كنفه عليه » جاء الكنف مفسرا فى الحديث بأنه « الستر » ، والمعنى : أنه ــ تعالى ــ يستر عبده عن رؤية الخلق له لئلا يفتضح أمامهم ، فيخزى ، لأنه حين السؤال والتقرير بذنوبه تتغير حاله ، ويظهر على وجهه الخوف الشديد ويتبين فيه الكرب والشدة .

قال الأزهرى : « قال الليث : الكنفان : الجناحان ، وأنشد :

سِقْطان من كنفى نعام جافل .

---

(١) انتهى من بيان تلبيس الجهمية جـ ٢ ص ١٧٧ المخطوطة .

وكنفا الإنسان : جانباه ، وناحيتا كل شيء كنفاه .

وقولهم : فى حفظ الله وكنفه أى فى حرزه وظله ، يكنفه بالكلاءة وحسن الولاية وقال ابن المبارك « يضع عليه كنفه » يعنى ستره »[1] .

« قال الخلال فى كتاب السنة باب يضع كنفه على عبده ، تبارك وتعالى . أخبرنى محمد بن أبى هارون ، ومحمد بن جعفر ، أن أبا الحارث حدثهم قال : قلت لأبى عبد الله : ما معنى قوله : إن الله يدنى العبد يوم القيامة ، فيضع عليه كنفه ؟ قال هكذا نقول : يدنيه ويضع كنفه عليه ، كما قال ، يقول له : أتعرف ذنب كذا .

قال الخلال : أنبأنا إبراهيم الحربى قال : قوله : فيضع عليه كنفه ، يقول : ناحيته .

قال إبراهيم : أخبرنى أبو نصر ، عن الأصمعى ، يقال نزل فى كنف بنى فلان ، أى فى ناحيتهم »[2] .

قوله : « فيقول : عملت كذا وكذا ؟ فيقول نعم ، ويقول : عملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، فيقرره » هذا هو المقصود من إيراد الحديث هنا لأن فيه مخاطبة الله لعبده وتقريره بذنوبه ، ثم يقول له : « أنا سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم » وهو واضح جدا فى أن الله يكلم عباده يوم القيامة ، ويخاطبهم مخاطبة فيها محاسبتهم وتقريرهم بنعم الله عليهم ، وبذنوبهم ، ويخاطبهم فى غير ذلك كما تقدم .

فمنكر هذا ضال وسالك غير سبيل المؤمنين ، وسوف يوليه الله تعالى ما تولى ويسلك به غير سبيل المؤمنين فى الآخرة ، وذلك هو الخسران المبين .

---

(١) تهذيب اللغة جـ ١٠ ص ٢٧٤ وقول ابن المبارك رواه البخارى فى خلق أفعال العباد .
(٢) نقض التأسيس جـ ٢ ص ١٨٥ .

قوله : « ثم يقول : إنى سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم » هذا أيضا صريح فى أنه تعالى يكلم عباده بذلك ممتنا عليهم بأنه قد ستر عليهم فى الدنيا حيث كانوا يبارزون الله بالذنوب ، فيستر عليهم مع عصيانهم له ، ثم غفرها لهم فى الآخرة .

فهذا الكرم العظيم ، والحلم الواسع ، والفضل الجزيل .

والمغفرة : هى محو الذنب ووقاية تبعته .

وعلى كل فالدلالة من هذا الحديث ظاهرة جدا وصريحة فيما ذكره من أجله ، وهو كونه تعالى يتكلم إذا شاء بما شاء ، ويكلم من يشاء من عباده ، إما إكراما له ، أو امتنانا عليه ، أو تهديدًا له وتوبيخًا ، أو غير ذلك .

فمن نفى ذلك عن الله ـ تعالى ـ فقد قال خلاف قول الله ورسله وأتباعهم ممن فهم مراد الله ورسوله ، وسوف يجزيه الله تعالى بما يستحق .

وقد جاء ما يدل على أن الله تعالى يكلم بعض أهل النار ، كما فى الصحيحين ، عن أنس ، عن النبى ﷺ قال : « يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذابا : لو كانت لك الدنيا ، وما فيها ، ومثلها معها أكنت مفتديا بها ؟ فيقول : نعم .

فيقول : قد أردت منك أهون من هذا وأنت فى صلب آدم ، أن لا تشرك بى ، فأبيت إلا الشرك »[1] .

---

(١) البخارى انظر الفتح جـ ٦ ص ٣٦٣ وجـ ١١ ص ٤١٦ ومسلم جـ ٤ ص ٢١٦٠ .

قال : « باب ما جاء فى قوله عز وجل : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ » .

« قال الأئمة هذه الآية أقوى ما ورد فى الرد على المعتزلة .

قال النحاس : أجمع النحويون على أن الفعل إذا أكد بالمصدر لم يكن مجازا ، فإذا قال : « تكليما » وجب أن يكون كلاما على الحقيقة التى تعقل »[1] .

« وقد استقر مذهب أهل السنة والجماعة وأعلام الملة ، وجماهير الأمة فى شرق الأرض وغربها ، على أن الله يتكلم حقيقة ، متى شاء ، وأن القرآن ، والتوارة والإنجيل كلام الله ـــ تعالى ـــ وأن كلامه صفة له ، لا يكون منفصلا عنه ، كما لا يكون كلام المتكلم منفصلا عنه قائما بغيره ، ومعلوم بالحس أن الكلام لا يقوم بنفسه ، ومن قال إن كلام الله منفصل عنه ، أو أنه يقوم بغيره فإنه بذلك ينكر كلامه الذى هو رسالته ، ويدفع حقيقة ما أنبأت به الرسل ، وأعلمته أممهم ، ويلحد فى أسماء الله وآياته ، ويجعله مثلا للميت ، والمعدوم .

وهذا كله كفر وضلال ، ومن أجل ذلك كفر أئمة الإسلام من يقول : إن كلام الله مخلوق .

والكلام صفة المتكلم ، والقول صفة القائل ، وكلام الله ليس بائنا منه بل أسمعه لجبريل ونزل به على محمد ﷺ كما قال ـــ تعالى ـــ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[2] .

ولا يجوز أن يقال : إن كلام الله فارق ذاته ، وانتقل إلى غيره ، بل يقال

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٧٩ .
(٢) الآية ١١٤ من سورة الأنعام .

كما قال السلف : إنه كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، فقولهم منه بدأ رد على من قال : إنه مخلوق فى بعض الأجسام ، ومن ذلك المخلوق بدأ .

فبينوا أن الله هو المتكلم به ، فمنه بدأ ، لا من غيره ، وإليه يعود ــ أى لا يبقى فى الصدور منه شيء ، ولا فى المصاحف حرف فى آخر الزمان ، إذا ترك العمل به وعطل ، رفع إلى قائله رب العالمين ، أو أنه إليه يعود صفة له »[1] .

قال عبد الله ابن الإمام أحمد : « سمعت أبى يقول : من قال : القرآن مخلوق فهو عندنا كافر ، لأن القرآن من علم الله ــ عز وجل ــ .

قال الله ــ عز وجل ــ : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَاجَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[4] ، وقال عز وجل : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[5] والخلق غير الأمر »[6] .

« والوصف بالتكلم كمال ، وضده نقص ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٢ ص ٥٦١ .
(٢) الآية ٦١ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ١٢٠ من سورة البقرة .
(٤) الآية ١٤٥ من سورة البقرة .
(٥) جزء من الآية ٥٤ من سورة الأعراف .
(٦) كتاب السنة جـ ١ ص ١٠٣ .

وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾[1] فكان عباد العجل مع كفرهم أعرف بالله من المعتزلة ، فإنهم لم يقولوا لموسى : وربك لا يتكلم ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾[2] .

فعلم أن عدم رجوع القول ، ونفى التكلم نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل .

وغاية شبهة النفاة أنهم يقولون : يلزم من إثبات الكلام ، التشبيه والتجسيم ، لأنهم توهموا أن كلام الله يلزم له من اللوازم ما لكلام المخلوق .

ونحن نقول : إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله ، وبذلك تنتفى شبهتهم .

وقد قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[3] فهذا كما هو ظاهر ، كلام حقيقى ، يسمع من هذه الأعضاء ، فالمؤمنون يؤمنون بذلك مع عدم علمهم بكيفيته .

فإذا كان هذا فى مخلوق ، فكيف الخالق جل وعلا ؟ ومثل ذلك تسبيح الأشياء التى تسبح بحمد الله تعالى ، ومنه تسبيح الطعام بين يدى رسول الله ﷺ والصحابة ، وتسبيح الحصا ، وسلام الحجر عليه ، كل ذلك حق على ظاهره ، قد سمعه المؤمنون ، وآمنوا بما لم يسمعوه ، ولم يعلموا كيفيته ، وهو كلام بصوت يسمع ، وهذه ليس لها أفواه يخرج منها الكلام والصوت الصاعد المعتمد على مقاطع الحروف »[4] .

وقد سمع موسى عليه السلام كلام الله منه ـــ تعالى ـــ بدون واسطة ،

---

(١) الآية ١٤٨ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٨٩ من سورة طه .

(٣) الآية ٦٥ من سورة يس .

(٤) شرح الطحاوية بتصرف ص ١٨١ .

وكذلك جبريل ــ عليه السلام ــ يسمع كلام الله بدون واسطة ، فيبلغه الرسل بأمر الله له ، هذا ما يعتقده المسلمون من دينهم ، وهو أمر ظاهر .

« وحقيقة كلام الله ــ تعالى ــ الخارجية : هى ما يسمع منه ، ومن المبلغ عنـه .

فإذا سمعه السامع ، علمه وحفظه ، فكلام الله مسموع ، معلوم ، محفوظ .

فإذا قرأه السامع ، فهو مقروء له ، متلو ، فإن كتبه ، فهو مكتوب له مرسوم وهو حقيقة فى هذه الوجوه كلها ، لا يجوز نفيه ، فلا يكون مجازا فيها ، إذ المجاز يجوز نفيه ، وأن يقال : ليس فى المصحف كلام الله ، ولا قرأ القارىء كلام الله .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَٰمَ اللهِ ﴾[1] وهو لا يسمع كلام الله من الله ، وإنما يسمعه من مبلغه عن الله ــ تعالى ــ وهذه الآية تدل على بطلان قول من يقول : إن المسموع عبارة عن كلام الله .

[والحق] أن المسموع هو كلامه ، وليس عبارة عنه ، كما تزعمه الأشعرية ومن جعل ما فى المصحف عبارة عن كلام الله ، فقد خالف ما أنزل الله على رسوله ، وسلك غير سبيل المؤمنين ، وكفى بذلك ضلالا »[2] .

والكلام اسم للفظ والمعنى جميعا ، لأن النبى ﷺ قال : « إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هو التسبيح والتكبير وتلاوة القرآن »[3] .

---

(١) الآية ٦ من سورة التوبة .

(٢) شرح الطحاوية ص ١٩٤ .

(٣) رواه النسائى جـ ٣ ص ١٣ والإمام أحمد المسند جـ ٥ ص ٤٤٧ .

وقال : « إن الله يحدث من أمره ما يشاء ، وإن مما أحدث ألا تكلموا فى الصلاة »[1] .

واتفق العلماء على أن المصلى إذا تكلم فى الصلاة عامدا لغير مصلحتها بطلت صلاته ، كما اتفقوا على أن ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيوية وطلب لها ، وما أشبه ذلك لا يبطل الصلاة ، وإنما يبطلها الكلام الملفوظ به ، فعلم بذلك بطلان قول من يجعل كلام الله معنى قائما بالنفس .

وفى الحديث المتفق عليه قوله ﷺ : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم ، أو تعمل »[2] ففرق بين حديث النفس فجعله معفوا عنه ، وبين الكلام ، فدل على أن حديث النفس لا يسمى كلاما حتى ينطق به ويتلفظ به ، وهذا باتفاق من يعتد بقوله من العلماء .

وعلى كل فإنكار كلام الله ضلال وكفر ، وإنكار للرسالة ، والشرع ، لأن الشرع أمر ، ونهى ، فإذا لم يكن الله يأمر وينهى ، فليس له شرع ولا رسالات وقد أوجد هذا القول لهدم الإسلام ، والعلماء عرفوا ذلك ، ولهذا يقول الإمام البخارى فى مبدأ كتابه « خلق أفعال العباد » : باب ما ذكر أهل العلم للمعطلة الذين يريدون أن يبدلوا كلام الله — عز وجل — ثم روى ، عن عبد الله بن إدريس ، أن رجلا جاء إليه ، فقال : يا أبا محمد ما تقول فى قوم يقولون : القرآن مخلوق ؟ فقال : أمن اليهود ؟ قال : لا ، قال : فمن النصارى ؟ قال : لا ، قال : فمن المجوس ؟ قال : لا ، قال : ممن .. ؟ قال : من أهل التوحيد .

---

(١) روه أبو داود جـ ١ ص ٥٦٧ والنسائى جـ ٣ ص ١٩ والإمام أحمد جـ ١ ص ٤٠٩ ، ٤١٥ ، ٤٣٥ .

(٢) انظر الفتح جـ ٥ ص ١٦٠ ومواضع أخر ولكن بلفظ « ما وسوست به صدورها » ومسلم جـ ١ ص ١١٦ .

قال : ليس هؤلاء من أهل التوحيد ، هؤلاء زنادقة ، من زعم أن القرآن مخلوق ، فقد زعم أن الله مخلوق ، يقول الله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم فالله لا يكون مخلوقا ، والرحمن لا يكون مخلوقا ، والرحيم لا يكون مخلوقا وهذا أصل الزندقة ، من قال هذا فعليه لعنة الله »[1] .

قال شيخ الإسلام : « القول بأن القرآن مخلوق معناه أن الله لم يصف نفسه بالكلام أصلا بل حقيقته أن الله لم يتكلم كما أفصح به رأسهم الأول ، الجعد ابن درهم ، حيث زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، لأن الخلة إنما تكون من المحبة ، وعنده أن الله لا يحب شيئا فى الحقيقة ولا يحبه شيء فى الحقيقة ، فلا يتخذ شيئا خليلا .

وكذلك الكلام يمتنع عنده على الرب — تعالى — وكذلك نفت الجهمية والمعتزلة ، وغيرهم أن يكون لله كلام قائم به ، أو إرادة قائمة به ، وادعوا ما باهتوا به صريح العقل المعلوم بالضرورة ، أن المتكلم يكون متكلما بكلام يكون فى غيره .

وقالوا أيضا — يكون مريدا بإرادة ليست فيه ، ولا فى غيره ، أو الإرادة وصف عدمى ، أو ليست غير المرادات المخلوقة ، وغير الأمر وهو الصوت المخلوق فى غيره .

فكان حقيقة قولهم التكذيب بحقيقة ما أخبرت به الرسل ، من كلام الله ومحبته ومشيئته ، وإن كانوا قد يقرون بإطلاق الألفاظ التى أطلقتها الرسل [تسترًا] وهذا حال الزنادقة ، والمنافقين »[2] .

والبخارى — رحمه الله — أراد بهذا الباب الرد على هؤلاء ونحوهم ، الذين

---

(١) خلق أفعال العباد ص ٢٩ — ٣٠ .

(٢) التسعينية ص ٤٢ .

ينكرون كلام الله حقيقة ، وإذا وصفوا الله بالكلام فمرادهم أن الله خلق كلاما فى غيره ، إما فى الهوى ، أو بين ورق الشجرة التى كلم منها موسى ، أو فى غير ذلك .

ولا يشك من عرف ما جاءت به الرسل أن هذا تبديل للحق بالباطل ، وللحقيقة التى فطر الله عليها عباده واللغة التى اتفق عليها بنو آدم إلا من اجتالته الشياطين فغيرت فطرته .

فالمتكلم هو الذى يقوم به الكلام ، ويتصف به ويصدر منه ، كما أن المحب من يقوم به الحب ، والقادر من تقوم به القدرة ، والعالم من يقوم به العلم .

وعلى قول أولئك الضلال الذين يرد عليهم الإمام البخارى فى هذا الباب وغيره أن الذى قال لموسى عليه السلام : ﴿ إِنَّنِى أَنَا ٱللَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِى ﴾[1] أنه الشجرة ، وهذا الكفر ما وراءه كفر .

ويلزم على قولهم أن كل كلام خلقه الله هو كلامه ، والله خالق كل شىء فيدخل فى ذلك أفعال العباد ، وحركاتهم ، وكلامهم ، فيلزم أن يكون كلامهم كلاما له بما فيه من الكذب والكفر وقول الزور ، وغير ذلك ، حتى نباح الكلاب ، فأى قول أفسد من قول هذا لازمه ، وأى ضلال أبعد منه .

وكلام أئمة الإسلام فى بيان بطلان هذا القول كثير جدا .

قال الإمام ابن جرير رحمه الله : « وأما قوله : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ فإنه يعنى بذلك ــ جل ثناؤه : وخاطب الله بكلامه موسى خطابا .

وقد حدثنا ابن حميد ، قال حدثنا يحيى بن واضح ، قال : حدثنا نوح

---

(١) الآية ١٤ من سورة طه .

ابن أبى مريم ، وسئل كيف كلم الله موسى تكليما ؟ فقال : مشافهة »[1] .

وذكر البخارى عن ابن عباس قال : لما كلم الله موسى كان النداء فى السماء ، وكان الله فى السماء »[2] .

ولهذه الخصوصية التى خص الله موسى بها ، صار له بذلك شرف وفضل على غيره من الأنبياء ، ولهذا يذكر الناس له هذه الفضيلة فى الموقف إذا طلبوا منه الشفاعة .

١٣٩ ــ قال : « حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، حدثنا عقيل ، عن ابن شهاب ، حدثنا حميد بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : أنت آدم الذى أخرجت ذريتك من الجنة ، قال آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وكلامه ، ثم تلومنى على أمر قدر على قبل أن أخلق فحج آدمُ موسى » .

اختصر الإمام البخارى ــ رحمه الله ــ هذا الحديث ، وفى بعض ألفاظه الثابتة فى الصحيحين قوله : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟

فقال له آدم : أنت موسى الذى كلمك الله تكليما ، وكتب لك التوراة ، فكم تجد فيها مكتوبا ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ قبل أن أخلق ؟

قال : « بأربعين سنة ، قال : فحج آدم موسى » . يعنى غلبه بالحجة .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٩ ص ٤٠٣ تحقيق محمود شاكر .

(٢) خلق أفعال العباد ص ٤١ .

قال شيخ الإسلام : « قد ظن كثير من الناس أن آدم احتج بالقدر على نفى الملام على الذنب ، ثم صاروا لأجل هذا الظن ثلاثة أحزاب :

فريق كذبوا بهذا الحديث كأبى على الجبائى ، وغيره ، لأنه من المعلوم بالاضطرار أن هذا خلاف ما جاءت به الرسل ، ولا ريب أنه يمتنع أن يكون هذا مراد الحديث ، ويجب تنزيه النبى ﷺ بل جميع الأنبياء ، وأتباعهم أن يجعلوا القدر حجة لمن عصى الله ورسوله .

وفريق تأولوه بتأويلات معلومة الفساد ، كقول بعضهم : حجه لأنه أبوه ، والابن لا يلوم أباه .

وقول بعضهم : حجه لأن الذنب كان فى شريعة ، والملام فى أخرى .

وقول بعضهم : لأن الملام كان بعد التوبة ، وقول بعضهم : لأن هذا تختلف فيه دار الدنيا ودار الآخرة .

وفريق ثالث جعلوه عمدة فى سقوط الملام عن المخالفين لأمر الله ورسوله . والصواب : أن موسى لم يلم آدم إلا من جهة المصيبة التى أصابته وذريته بما فعل ، لا لأجل أن تارك الأمر مذنب عاص ، ولهذا قال : لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ، ولم يقل : لماذا خالفت الأمر ولماذا عصيت ؟

والناس مأمورون عند المصائب التى تصيبهم بأفعال الناس ، أو بغير أفعالهم بالتسليم للقدر ، وشهود الربوبية كما قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾[1] قال ابن مسعود هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم[2] .

---

(١) الآية ١١ من سورة التغابن .

(٢) فى الدر المنثور أخرجه سعيد بن منصور انظر جـ ٨ ص ١٨٤ .

وفى الصحيح ، عن النبى ﷺ : « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا يعجزن ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلت ، لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله ، وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان »[1] فأمره بالحرص على ما ينفعه ، وهو طاعة الله ورسوله ، فليس للعباد أنفع من طاعة الله ورسوله ، وأمره إذا أصابته مصيبة أن لا ينظر إلى تقدير ما لم يقع ، وهو قوله : لو أنى فعلت كذا وكذا ، لكان كذا وكذا ، فإن هذا ليس فيه إلا التحسر ، والمضرة ، ولكن لينظر إلى الواقع ، ويوقن بأنه بقدر الله تعالى وقضائه ، ولابد من وقوعه ، فلا مخلص منه ، فيرضى به ويسلم لقدر الله — تعالى — وقضائه ، كما قال بعضهم : الأمر أمران :

أمر فيه حيلة ، فلا تعجز عنه ، وأمر لا حيلة فيه ، فلا تجزع منه .

وما زال أئمة الهدى يوصون الإنسان بأن يفعل المأمور ، ويترك المحظور ، ويصبر على المقدور ، وإن كانت المصيبة بفعل آدمى ، فلو أن رجلا أنفق ماله فى المعاصى ، ومات ولم يخلف لأولاده مالا ، أو ظلم الناس بظلم صاروا يبغضون أولاده من أجل ظلمه فلا يعطونهم ما يعطون أمثالهم ، فهذه مصيبة فى حق الأولاد حصلت بسبب أبيهم .

فإذا قالوا لأبيهم : أنت فعلت بنا هذا ، قيل لهم : هذا كان مقدرا عليكم ، وأنتم مأمورون بالصبر على ما يصيبكم ، والأب عاص لله فيما فعل من الظلم ، أو الإنفاق فى المعصية ، ملوم على ذلك ، لا يرتفع عنه الذم والعقاب بالقدر السابق .

فإن تاب توبة نصوحا ، وقبل الله توبته ، وغفر له لم يجز ذمه حينئذ ولومه بحال ، لا من جهة حق الله ، ولا من جهة المصيبة التى حصلت لغيره بفعله ،

---

(١) رواه مسلم جـ ٤ ص ٢٠٥٢ رقم ٢٦٦٤ .

إذ لم يكن هو ظالما لأولئك ، فإن تلك المصيبة مقدرة عليهم ، وهذا مثل قصة آدم ، فإنه لم يظلم أولاده ، وإنما ولدوا بعد هبوطه من الجنة ، وهبط هو وحواء ، ولم يكن معهما أولاد ، فلم يظلم أولاده ظلما يستوجب ملامه منهم ، وكونهم صاروا فى الدنيا دون الجنة أمر مقدر عليهم .

وهو قد تاب من ذنبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾[1] .

وموسى أعلم من أن يلومه على ذنب قد علم أنه تاب منه ، وآدم أعلم من أن يحتج بالقدر على أن الذنب لا ملام عليه ، وقد علم أن لعن إبليس بسبب ذنبه ، وهو مقدر عليه .

ولو كان الاحتجاج بالقدر نافعا من الذنب لفعله آدم ، ولكنه تاب من الذنب واستغفر ربه »[2] .

فتبين أن آدم حج موسى لما قصد موسى لوم آدم على ما كان سببا فى مصيبة أبنائه ، وأن آدم احتج بأن هذه المصيبة سبق بها القدر ، ولابد من وقوعها كما قال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[4] .

وسواء فى ذلك المصائب التى تحصل بأفعال العباد ، أو غيرها ، فإن على

---

(١) الآيتان ١٢١ ، ١٢٢ من سورة طه .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٨ ص ٣٠٣ ـــ ٣٢٢ ملخصا .

(٣) الآية ١١ من سورة التغابن .

(٤) الآية ٢٢ من سورة الحديد .

العبد الصبر والتسليم ، ولا يسقط بذلك لوم الجانى وعقابه .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾[1] ، وحكم الله نوعان : خلق ، وأمر ، فالأول ؛ ما يقدره من المصائب .

والثانى؛ما يأمر به وينهى عنه ، وهو شرعه ودينه ، والعبد مأمور بالصبر على النوعين ، فعليه أن يصبر على فعل المأمور ، وترك المحظور ، وعلى ما قدره الله وقضاه »[2] .

« فالمصائب الحاصلة بقدر الله التى لم يبق فيها حق يؤخذ ، أو ذنب يعاقب عليه ، ليس فيها إلا التسليم للقدر ، وقصة آدم من هذا القبيل ، فإن موسى لامه من أجل ما أصابه وذريته .

وآدم قد تاب من الذنب الذى هو سبب المصيبة ، وغفر له ، والمصيبة كانت مقدرة ، فلا حيلة أمامها إلا التسليم والرضى .

ولهذا قال : « أنت موسى ، الذى اصطفاك الله برسالاته وكلامه ، ثم تلومنى على أمر قد قدر على قبل أن أخلق » .

وقوله : « احتج آدم وموسى » . أى كل واحد منهما ذكر حجته أمام الآخر ، وهذا يجوز أن يكون بعد وفاة موسى ، أو أنه فى الرؤيا ، فإن رؤيا الأنبياء وحى .

« وقال ابن عبد البر : « مثل هذا يجب فيه التسليم ، ولا يوقف فيه على تحقيق لأنا لم نؤت من جنس هذا العلم إلا قليلا »[3] .

---

(١) الآية ٤٨ من سورة الطور .
(٢) الفتح جـ ١١ ص ٣٢٤ ــ ٣٢٥ ملخصا .
(٣) الفتح جـ ١١ ص ٥٠٧ .

والمقصود هنا قوله : « أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وكلامه » والاصطفاء هو الاختيار والتفضيل ، وفرق بين الرسالة والتكليم ، فهو قدر زائد على الرسالة ، لأنها تحصل بإرسال ملك إليه أو بالوحى .

وأما التكليم فهو بإسماعه كلامه ، وهذا الذى اختص به موسى من بين الرسل ، فدل هذا على أن الله تعالى كلمه بدون واسطة ، بل أسمعه كلامه منه إليه ، وهو أمر واضح .

وجاء فى رواية ذكرها الحافظ : « قال : أنت كلمك الله من وراء حجاب ولم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه »[1] .

« قال ابن عبد البر : هذا الحديث أصل فى إثبات القدر ، وأن الله قضى أعمال العباد ، فكل أحد يصير لما قدر له بما سبق فى علم الله تعالى ، وليس فيه حجة للجبرية »[2] .

وقال الخطابى ــ رحمه الله تعالى ــ « قد يحسب كثير من الناس أن معنى القدر من الله والقضاء منه ، معنى الإجبار ، والقهر للعبد على ما قضاه وقدره ويتوهم أن فلج آدم فى الحجة على موسى إنما كان من هذا الوجه ، وليس الأمر فى ذلك على ما يتوهمونه .

وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه بما يكون من أفعال العباد وأكسابهم ، وصدورها عن تقدير منه ، وخلق لها ، خيرها وشرها ، والقدر : اسم لما صدر مقدرًا عن فعل القادر ، كما أن الهدم ، والقبض ، والنشر أسماء لما صدر عن فعل الهادم ، والقابض ، والناشر .

يقال : قَدّرْت الشىء ، وقدرته ، خفيفة وثقيلة ، بمعنى واحد .

---

(١) الفتح جـ ١١ ص ٥٠٨ .

(٢) المرجع المذكور ص ٥٠٩ .

والقضاء فى هذا معناه الخلق ، كقوله — تعالى — ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾[1] أى خلقهن .

وإذا كان الأمر كذلك : فقد بقى عليهم من وراء علم الله فيهم ، أفعالهم وأكسابهم ومباشرتهم تلك الأمور ، وملابستهم إياها عن قصد وتعمد ، وتقديم إرادة واختيار ، فالحجة إنما تلزمهم بها ، واللائمة تلحقهم عليها .

وجماع القول فى هذا الباب : أنهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر لأن أحدهما بمنزلة الأساس ، والآخر بمنزلة البناء ، فمن رام الفصل بينهما رام هدم البناء ونقضه[2] .

وإنما كان موضع الحجة لآدم على موسى — صلوات الله وسلامه عليهما — أن الله — سبحانه — إذا كان قد علم من آدم أنه يتناول الشجرة ويأكل منها ، فكيف يمكنه أن يرد علم الله فيه .

وبيان هذا فى قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فأخبر قبل كون آدم أنه إنما خلقه للأرض ، وأنه لا يتركه فى الجنة ، حتى ينقله عنها إلى الأرض ، وإنما كان تناوله من الشجرة سببا لوقوعه إلى الأرض التى خلق لها وليكون فيها خليفة ، وواليا على من فيها ، وإنما أدلى آدم عليه السلام بالحجة على هذا المعنى ، ودفع لائمة موسى عن نفسه على هذا الوجه ، ولذلك قال : « أتلومنى على أمر قدره الله على قبل أن أخلق » .

فإن قيل : على هذا يجب أن يسقط اللوم أصلا .

---

(1) الآية ١٢ من سورة فصلت .

(2) يعنى تقدير الله للأشياء ، وسبق علمه بها ، وأفعال العباد وأكسابهم وإرادتهم واختيارهم ، فالقدر بمنزلة الأساس ، وأفعال العباد مبنية عليه .

قيل : اللوم ساقط من قبل موسى ، إذ ليس لأحد أن يعير أحدا بذنب كان منه ، لأن الخلق كلهم تحت العبودية أكفاء سواء .

وقد روى : « لا تنظروا إلى ذنوب العباد كأنكم أرباب ، وانظروا إليها كأنكم عبيد » .

ولكن اللوم لازم لآدم من قبل الله ــ سبحانه ــ إذ كان قد أمره ونهاه فخرج إلى معصيته ، وباشر المنهى عنه ، ولله الحجة البالغة ــ سبحانه ــ لا شريك له .

وقول موسى وإن كان فى النفوس منه شبهة ، وفى ظاهره متعلق لاحتجاجه بالسبب الذى جعل أمارة لخروجه من الجنة .

فقول آدم فى تعلقه بالسبب الذى هو بمنزلة الأصل أرجح وأقوم والفلج فيه قد يقع مع المعارضة بالترجيح كما يقع بالبرهان الذى لا معارض له والله أعلم »[1] .

فحجة آدم عليه السلام ظهرت لأن ما قدر عليه أمر لا يمكن تغييره ولا رده بل هو قدر قدره العليم القدير ، فلا يمكن دفعه ، ولا رفعه بعد وقوعه فليس أمامه إلا التسليم ، ومع ذلك لا يكون القدر حجة فيما لم يقع لأن الإنسان مأمور بفعل الطاعة ، واجتناب المعصية ، وهو لا يعلم ما هو المقدر عليه حتى يقع ، فإذا وقع الأمر ، وتعذر دفعه هناك يسلم للقدر ، ويقول قدر الله وما شاء فعل ، ويستغفر من ذنبه ويتوب إلى ربه .

١٤٠ ــ قال : « حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا هشام ، حدثنا قتادة ، عن أنس ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « يجمع المؤمنون يوم القيامة ، فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ، فيريحنا

---

(١) معالم السنن جـ ٧ ص ٦٩ ــ ٧٢ .

من مكاننا هذا ، فيأتون آدم ، فيقولون له : أنت آدم أبو البشر ، خلقك الله بيده ، وأسجد لك الملائكة وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربنا حتى يريحنا .

فيقول : لست هناكم ، فيذكر لهم خطيئته التى أصاب » .

تقدم الكلام على هذا الحديث ، والمراد منه هنا قوله فيه : « ولكن ائتوا موسى ، عبدا آتاه الله التوراة ، وكلمه وقربه نجيا » . فهذا واضح كل الوضوح فى الدلالة على ما أراده من إثبات كلام الله حقا ، والرد على من ينكر ذلك إما صراحة كفعل الجهمية والمعتزلة ، أو مراوغة كالأشعرية أو بعضهم وكلهم ضالون فى هذا الباب .

١٤١ ــ قال : « حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنى سليمان ، عن شريك بن عبد الله ، أنه قال سمعت ابن مالك يقول : ليلة أسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم فى المسجد الحرام ، فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم ، فقال أحدهم : خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه ، وتنام عينه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم .

فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل ، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه ، فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشوًّا إيمانا وحكمة ، فحشا به صدره ولغاديده ــ يعنى عروق حلقه ــ ثم أطبقه ، ثم عرج به إلى السماء الدنيا ، فضرب بابا من أبوابها ، فناداه أهل السماء : من هذا ؟ فقال : جبريل ، قالوا : ومن معك ؟ قال : معى محمد ، قال : وقد بعث ؟ قال : نعم .

قالوا : فمرحبا به وأهلا ، فيستبشر به أهل السماء ، لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به فى الأرض حتى يعلمهم .

فوجد فى السماء الدنيا آدم ، فقال له جبريل : هذا أبوك فسلم عليه ، فسلم عليه ، ورد عليه آدم ، وقال : مرحبا ، وأهلا يا بنى ، نعم الابن أنت .

فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان ، فقال : ما هذان النهران يا جبريل ؟

قال : هذان النيل والفرات ، عنصرهما .

ثم مضى به فى السماء ، فإذا بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فضرب يده فإذا مسك أذفر ، قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى خبأ لك ربك .

ثم عرج إلى السماء الثانية ، فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى ، من هذا ؟ قال : جبريل ، قالوا : ومن معك ؟ قال محمد ﷺ قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : مرحبا به وأهلا .

ثم عرج به إلى السماء الثالثة ، وقالوا له مثل ما قالت الأولى ، والثانية .

ثم عرج به إلى الرابعة فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالـوا مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السادسة ، فقالوا له مثل ذلك .

ثم عرج به إلى السماء السابعة ، فقالوا له مثل ذلك ، كل سماء

فيها أنبياء قد سماهم ، فوعيت منهم إدريس فى الثانية ، وهارون فى الرابعة ، وآخر فى الخامسة لم أحفظ اسمه ، وإبراهيم فى السادسة ، وموسى فى السابعة بفضل كلامه لله ، فقال موسى : رب لم أظن أن ترفع على أحدا ، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله ، حتى جاء سدرة المنتهى ، ودنا الجبار رب العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله فيما أوحى خمسين صلاة على أمتك ، كل يوم وليلة ، ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى ، فقال : يا محمد ماذا عهد إليك ربك ؟ قال عهد إلى خمسين صلاة كل يوم وليلة .

قال : إن أمتك لا تستطيع ذلك ، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم فالتفت النبى ﷺ إلى جبريل ﷺ كأنه يستشيره فى ذلك فأشار إليه جبريل أن نعم ، إن شئت ، فعلا به إلى الجبار ، فقال : وهو مكانه يا رب خفف عنا فإن أمتى لا تستطيع هذا ، فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه .

فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ، ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال : يا محمد والله لقد راودت بنى إسرائيل قومى على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه ، فأمتك أضعف أجسادا وقلوبا ، وأبدانا وأبصارا وأسماعا ، فارجع فليخفف عنك ربك كل ذلك يلتفت النبى ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ، ولا يكره ذلك جبريل ، فرفعه عند الخامسة ، فقال : يارب : إن أمتى ضعفاء أجسادهم وقلوبهم ، وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنا .

فقال الجبار ــ جل جلاله ــ : يا محمد ، قال : لبيك وسعديك ، فقال : إنه لا يبدل القول لدى ، كما فرضت عليك فى أم الكتاب ، قال : فكل حسنة بعشر أمثالها ، فهى خمسون فى أم الكتاب ، وهى خمس عليك ، فرجع إلى موسى ، فقال : كيف فعلت ؟

فقال : خفف عنا ، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها .

قال موسى : قد والله راودت بنى إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ، ارجع إلى ربك ، فليخفف عنك أيضا .

قال رسول الله ﷺ : يا موسى قد والله استحييت من ربى مما اختلفت إليه ،

قال : فاهبط باسم الله .

قال : واستيقظ وهو فى مسجد الحرام » .

« الإسراء » ، من سرى ، وأسرى ، إذا سار ليلا .

والصواب أن الإسراء وقع له ﷺ مرة واحدة وكذا المعراج ، وهو فى مكة قبل الهجرة ، وأنه يقظة لا منـاما ، وأنه بروحه وجسده .

قوله : « ليلة أسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة ، أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه » ، ذكر البيهقى بسنده من طريق موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب قال : « أسرى برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة » .

ثم قال : « وكذلك ذكره ابن لهيعة ، عن أبى الأسود ، عن عروة بن الزبير ، وروى السدى ، قال : « فرض على رسول الله ﷺ الخمس فى بيت

المقدس ليلة أسرى به ، قبل مهاجره بستة عشر شهرا »[1] .

قوله : فى بيت المقدس ــ يعنى أن أول صلاة صلاها بعد فرض الصلوات فى بيت المقدس ، وهى صلاة الفجر ، فعلى قول الزهرى ، وعروة يكون الإسراء فى ربيع الأول ، وعلى قول السدى يكون فى ذى القعدة ، ومن زعم أنه فى رجب فليس له مستند ، قال ابن كثير : لا أصل لذلك[2] .

قوله : « أنه جاءه ثلاثة نفر » قال فى اللسان : « النفر بالتحريك : ما دون العشرة من الرجال ، وقالوا : النفر ، والقوم ، والرهط : جموع لا واحد لها من لفظها »[3] .

وجاء أن منهم جبريل ، وهذا ظاهر من الحديث لا خفاء فيه ، وميكائيل .

قوله : « قبل أن يوحى إليه » هذه الجملة مما أنكره العلماء على شريك ، وخطئوه فيها ، منهم الخطابى ، وابن حزم ، والقاضى عياض والنووى .

وخرجها ابن كثير على أن المجىء مرتين ، الأولى قبل أن يوحى إليه ، فكانت تلك الليلة ولم يكن فيها شىء ، والثانية وهى التى حصل فيها شق الصدر ، ثم الإسراء ، والعروج إلى السماء . وعبارته :

« وفى سياق حديث شريك غرابة من وجوه ، منها قوله : « قبل أن يوحى إليه » والجواب أن مجيئهم أول مرة كان قبل أن يوحى إليه ، فكانت تلك الليلة ، ولم يكن فيها شىء ، ثم جاءه الملائكة ليلة أخرى ، ولم يقل فى ذلك « قبل أن يوحى إليه » ، بل جاءوه بعد ما أوحى إليه ، فكان الإسراء قطعا بعد الإيحاء ، إما بقليل كما زعمه طائفة ، أو بكثير نحو عشر سنين كما زعمه

---

(١) دلائل النبوة جـ ٢ ص ١٠٧ .
(٢) انظر السيرة له جـ ٢ ص ٩٤ .
(٣) اللسان جـ ٣ ص ٦٨٧ المرتب .

آخرون وهو الأظهر »[1] .

قال الحافظ : « وصرح الخطابى ، وابن حزم ، والقاضى عياض ، والنووى بأن شريكا انفرد بهذه اللفظة ، وفى دعوى التفرد نظر ، فقد وافقه كثير بن خنيس ، عن أنس أخرجه سعيد بن يحيى الأموى فى كتاب المغازى من طريقه »[2] .

ثم قال : « قوله : « فلم يرهم » أى بعد ذلك ، « حتى أتوه ليلة أخرى » ، ولم يعين المدة التى بين المجيئين ، فيحمل على أن المجىء الثانى كان بعد أن أوحى إليه ، وحينئذ وقع الإسراء والمعراج »[3] ، أى بعد النبوة والوحى .

ويجوز أنه يقصد بقوله « قبل أن يوحى إليه » أى فى شأن الإسراء والمعراج ، أى أنهم فاجئوه بدون سابق إعلام له بذلك .

قوله : « وهو نائم فى المسجد » وفى آخره « واستيقظ وهو فى المسجد » وبهذا ونحوه تعلق من يقول : إن الإسراء والمعراج وقعا مناما .

والحق أنهما وقعا يقظة لا مناما ، وأن ذلك ببدنه وروحه ، وهو قول جمهور أهل السنة ، والدليل قوله سبحانه : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ والتسبيح إنما يكون عند الأمور العظيمة والآيات الباهرة ، ولو كان مناما لم يكن فيه كبير أمر ، لأنه لا يستنكر .

ومما يدل على ذلك إنكار كفار قريش له ، وتعظيمهم إياه ، واستبعادهم وقوعه ، حتى ارتد بسبب ذلك بعض من أسلم ، ولو كان مناما لم ينكره

---

(١) السيرة لابن كثير جـ ٢ ص ٩٨ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٨٠ .
(٣) المرجع .

أحد ، وأيضا فالعبد اسم لمجموع الروح والبدن .

ودلالة الأحاديث على ذلك ظاهرة ، فعلى هذا يكون قوله ، « وهو نائم فى المسجد » يعنى ذلك المجىء الأول الذى لم يحصل فيه الإسراء ، ثم المجىء الثانى كان يقظان .

ويحمل ما فى آخر الحديث على الإفاقة مما كان فيه من شغل البال بمشاهدة الآيات العظيمة والملكوت ، وقد ينشغل الإنسان بما يقع له من أمر مهم ، فإذا انجلى عنه ذلك الأمر كأنه أفاق من نوم ، كما جاء فى قصة ذهابه إلى الطائف ، وفيها : « فلم أفق إلا وأنا بقرن الثعالب » .

ويجوز أنه نام بعد رجوعه ، وكان إذا أوحى إليه يستغرق قلبه فى الوحى ، فإذا انقطع الوحى سرى عنه ، فيجوز أن يكون هذا مثله .

قوله : « فقال أولهم : أيهم هو » يدل على أنه كان نائما مع جماعة .

قال الحافظ : « قد جاء أنه كان معه عمه حمزة ، وجعفر بن أبى طالب »[1] .

« فقال أحدهم : خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة » كانت هنا تامة والتقدير : وجدت تلك الليلة ، ولم يحصل فيها شىء من الإسراء ، وذهبوا ولم يرهم .

« حتى أتوه ليلة أخرى » بعد زمن طويل ، كما تقدم ، وبهذا يرتفع الإشكال فى قوله : « قبل أن يوحى إليه » وقوله : « وهو نائم » .

قال الحافظ : « وبه يسقط تشنيع الخطابى ، وابن حزم وغيرهما بأن شريكا خالف الإجماع فى دعواه أن المعراج كان قبل البعثة »[2] .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٨٠ .
(٢) المصدر .

ومما يدل على ذلك قوله لما استفتح جبريل باب السماء : « أبعث إليه ؟ » قال نعم ، يعنى أنه أرسل إلى الناس .

قوله : « فيما يرى قلبه ، وتنام عينه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء » .

هذا من الخصائص التى خص بها الأنبياء ، ومعنى يقظة القلب أنه يدرك الحسيات المتعلقة به ، كالألم والحدث ونحو ذلك ، لا ما يتعلق بالعين من رؤية الأشياء ، قاله النووى(١) .

قوله : « فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم » هذا يختلف مع رواية الزهرى ، عن أنس ، عن أبى ذر ، أنه قال : « فرج سقف بيتى وأنا بمكة » وفى رواية الواقدى بأسانيده ، أنه أسرى به من شعب أبى طالب ، وفى حديث أم هانئ عند الطبرانى : « أنه بات فى بيتها ، ففقدته من الليل ، فقال : إن جبريل أتانى » .

قال الحافظ : « والجمع بين هذه الأقوال : أنه نام فى بيت أم هانئ ، وبيتها عند شعب أبى طالب ، ففرج سقف بيتها ، وأضافه إليه لكونه يسكنه ، فنزل منه الملك ، فأخرجه إلى المسجد ، فكان به مضطجعا ، وبه أثر النعاس ، ثم أخرجه إلى باب المسجد ، فأركبه البراق »(٢) .

قوله : « فتولاه منهم جبرائيل ، فشق ما بين نحره إلى لبّته » يعنى أن جبريل شق صدره ، وبطنه ، فاستخرج قلبه وأحشاءه فغسلها بماء زمزم بيده حتى أنقاه من كل ما فيه من دخل ، ثم أتى بطست من ذهب ، وفيه تور من ذهب ، وهو إناء صغير ، قد يكون من صفر ، أو من حجر ، والطست مملوء إيمانا وحكمة ، فحشا به صدره ، ولغاديده ــ يعنى عروق حلقه ثم أطبقه فخاطه ،

---

(١) نقله الحافظ فى الفتح جـ ١ ص ٤٥٠ .

(٢) الفتح جـ ٧ ص ٢٠٤ .

ولم يتألم من ذلك أو يتأثر ، وقد جاء أن أثر الشق بقى فيه واضحا .

و « اللبة » هى موضع القلائد فى أعلى الصدر ، وهى التى ينحر البعير منها .

وتكرر شق صدره ﷺ .

قال الحافظ : « ثبت ذلك فى غير رواية شريك فى الصحيحين ، من حديث أبى ذر ، ووقع أيضا له ذلك عند البعثة ، كما أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده ، وأبو نعيم فى الدلائل ، ووقع أيضا فى حديث أبى هريرة — وهو ابن عشر سنين ، كما فى المسند من زيادات عبد الله »[1] .

قوله : « ثم عرج به إلى السماء الدنيا » حذف قبل هذا جملة من الحديث مما هو ثابت فى الروايات الأخرى ، لأن القصة واحدة ، وتقدير المحذوف : ثم أتى بالبراق ، فركبه ، فأسرى به إلى المسجد الأقصى ، فربط البراق وصلى ركعتين تحية المسجد ، ثم عرج به .

والعروج هو الصعود ، والارتقاء ، وعروجه ﷺ هذا آية باهرة من آيات الله العظيمة ، التى لا يدرك حقيقتها العقل البشرى ؛ لأن ارتفاع السماء عن الأرض ارتفاع هائل ، لا يعلم قدره إلا الله — تعالى — ، وقد تبين للناس اليوم أن الإنسان إذا ارتفع عن الأرض إلى حد قريب ينعدم الأكسجين الذى به الحياة فيختنق ويموت فى لحظات ، وما فوق السماء الدنيا إلى التى تليها مسافة بعيدة جدا ، لو قدرت بسير الإنسان ، وما يستخدمه من آلات حديثة لكانت بمئات السنين ، وربما بآلاف السنين ، وهكذا كل ما بين سماء وأخرى ، ومع هذا كله يذهب الرسول ﷺ ببدنه وروحه ويجاوز السماوات السبع بارتفاع

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٨١ .

لا يعلم قدره إلا الله ــ تعالى ــ فى ما يقرب من اثنتى عشرة ساعة ، ثم يعود ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

والتسبيح يكون عند الأمور العظيمة الدالة على قدرة الله ، كما سبق .

فإن قيل : لماذا لم يذكر المعراج فى القرآن ، مع أنه آية عظيمة دالة على عظيم قدرة الله ــ تعالى ــ قيل : لأن الإسراء قد ذكر ، وهو من جنسه من حيث قطع المسافة الشاسعة فى الوقت القصير ، ولأنه يدل عليه .

ولأن إخبار الرسول ﷺ به ، وبما وقع فيه كاف عن ذكره فى القرآن .

قوله : « فضرب بابا من أبوابها » يدل على أن السماء مبنية بناء محكما ولها سمك وكثافة ، وأنها لا تدخل إلا من أبوابها .

قوله : « فناداه أهل السماء ، من هذا ؟ » يدل على سماكة السماء وكثافتها وأن من فيها لا يرى من يأتى من أسفلها ، فدل على بطلان قول أهل الهيئة قديما بأن السماء شفافة ، لا تستر من فوقها ، ولا من تحتها وهذا من خرصهم الذى لا يستند إلى برهان .

ودل أيضا على بطلان قول ملاحدة هذا العصر الذين ينكرون وجود السماء المبنية المحكمة ، ويقولون إنما هو فضاء تسبح فيه الكواكب ، وهذا خلاف نصوص الشرع ، وخلاف الواقع ، وهم لا يؤمنون إلا بالمحسوس .

قوله : « فقال : جبريل » يدل على أن المسئول عند الاستئذان يسمى نفسه العلم حتى يعرف ، ولا يأتى بكلام مبهم مثل قوله : « أنا » ونحوه مما لا يعين المستأذن .

« قالوا : ومن معك ؟ قال : معى محمد ، قال : وقد بعث إليه ؟ » مقتضى السياق أن تكون « قال » الأخيرة للجمع .

وهذا يدل على حراسة السماء ، وأنه لا يدخلها أحد إلا من أمر الله بإدخاله .

وقولهم : « وقد بعث إليه » يعنى بعث نبيا ، فهو يدل على أنهم لم يعلموا ذلك والظاهر كما قال القسطلانى أن المعنى : أبعث إليه فى المجيء إلى السماء ، لأن البعثة لا تخفى عليهم . وعلى كل فهو يدل على أن معراجه ﷺ بعد النبوة وهو أمر ظاهر .

« فقالوا : فمرحبا ، وأهلا » أى أتيت مكانا رحبا واسعا ، وفيه لك أهل يفرحون بقدومك ، وهذا كلام مشهور ، تقوله العرب لمن يستضيفها ولمن تكرمه ، ومعناه : أنك حللت فى مكان رحب ، سهل واسع ، لا ضيق عليك فيه ، وأنت عند من هو مثل أهلك ، يفرح بك ويكرمك .

قوله : « فيستبشر به أهل السماء » يدل على أن عندهم علما بأنه سيبعث نبيا ويعرج به ، ويدل على حبهم له وفرحهم برؤيته ﷺ .

« لا يعلم أهل السماء بما يريد به فى الأرض حتى يعلمهم » لأنهم لا يعلمون الغيب ، وهو يرد قول بعضهم أنه مرسل حتى إلى الملائكة ، لأنهم ليسوا بحاجة إلى رسالته ، ولو أرسل إليهم رسولا لكان من جنسهم ، كما جرت سنة الله فى خلقه ، وكيف يرسل لمن فى السماوات ؟!

« فوجد فى السماء الدنيا آدم ، فقال له جبريل : هذا أبوك ، فسلم عليه » وهكذا فى كل سماء يجد فيها أنبياء ، فيعلمه جبريل من هم ، ويأمره بالسلام عليهم ، وهم فى السماوات حسب منازلهم عند الله ، فمن هو أفضل فمنزلته أرفع ، والرسول ﷺ لا يعرفهم حتى يعلمه جبريل بهم مما يدل على أنه لم يرهم قبل هذا اللقاء .

« فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان ، فقال ما هذان النهران يا جبريل ؟

قال : هذا النيل والفرات ـــ عنصرهما » أى أصلهما ، أو ما يمدان منه ،

وهذا يدل على أن ذينك النهرين ليسا النيل والفرات ، لأن النيل والفرات فى الأرض وذانك النهران فى السماء .

وفى حديث مالك بن صعصعة أنه رأى فى أصل سدرة المنتهى أربعة أنهار وذكر منها النيل والفرات ، فيجوز أن يكون ذلك مثل ، والله أعلم بذلك .

« ثم مضى به فى السماء ، فإذا بنهر عليه قصر من لؤلؤ ، وزبرجد ، فضرب يده فإذا هو مسك أذفر ، قال ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى خبأ لك ربك » وهذا مما استشكل فى هذا الحديث ، لأنه ثبت أن الكوثر فى الجنة ، والجنة فى السماء السابعة ، كما جاء فى المسند من حديث أنس « دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ ، فضربت بيدى فى مجرى مائه فإذا مسك أذفر ، فقال جبريل هذا الكوثر الذى أعطاك الله تعالى »[1] .

قال الإمام أحمد : « حدثنا محمد بن فضيل ، عن المختار بن فلفل ، عن أنس بن مالك قال : « أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة ، فرفع رأسه متبسما ، إما قال لهم ، وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله ﷺ إنه أنزلت على آنفا سورة ، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر » حتى ختمها ، فقال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : هو نهر أعطانيه ربى — عز وجل — فى الجنة ، عليه خير كثير ترد عليه أمتى يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب ، يختلج العبد منهم ، فأقول : يا رب : إنه من أمتى ، فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك »[2] .

يجوز أن يكون رآه فى السماء الدنيا وأصله فى الجنة ، أو أنه مثل له والله على كل شىء قدير .

---

(١) انظر المسند جـ ٣ ص ١٠٣ ، ١١٥ ، ٢٦٣ .

(٢) المسند جـ ٣ ص ١٠٢ .

وقال القرطبى : « والصحيح أن للنبى ﷺ حوضين أحدهما فى الموقف قبل الصراط ، والثانى فى الجنة ، وكلاهما يسمى كوثرا ، والكوثر فى كلام العرب : الخير الكثير »(١) .

قال الحافظ : « فيه نظر ، لأن الكوثر نهر داخل الجنة ، وماؤه يصب فى الحوض ، ويطلق على الحوض كوثر لكونه يمد منه »(٢) .

وظاهر الأحاديث مثل قوله ﷺ : أنا فرطكم على الحوض ، وقوله لأنس لما طلب منه أن يشفع له يوم القيامة وقال : أنا فاعل ، قال : أين أجدك قال : « اطلبنى أول ما تطلبنى على الصراط ، قلت : فإن لم ألقك ؟ قال : أنا عند الميزان ، قلت : فإن لم ألقك ؟ قال : أنا عند الحوض »(٣) وغير ذلك ظاهرها أن الحوض فى الموقف ، وفى حديث لقيط ما يدل على أنه بعد الصراط فإن فيه « فينصرف نبيكم وينصرف على أثره الصالحون ، فيسلكون جسرا من النار ، يطأ أحدكم الجمرة فيقول : حس ، فيقول ربك : أوانه ، ألا فيطلعون على حوض الرسول على أظمأ والله ناهلة رأيتها أبدا »(٤) .

« قال القرطبى فى المفهم تبعا للقاضى عياض : مما يجب على كل مكلف أن يعلمه ويصدق به أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ قد خص نبيه محمدا ﷺ بالحوض المصرح باسمه وصفته ، وشرابه فى الأحاديث الصحيحة الشهيرة ، التى يحصل بمجموعها العلم القطعى »(٥) .

قوله : « ثم عرج إلى السماء الثانية ، فقالت الملائكة له مثل ما قالت فى الأولى » .

---

(١) التذكرة جـ ١ ص ٣٦٢ .
(٢) الفتح جـ ١١ ص ٤٦٦ .
(٣) رواه أحمد والترمذى انظر المسند جـ ٣ ص ١٧٨ والترمذى .
(٤) رواه عبد الله ابن الإمام أحمد فى زوائد المسند جـ ٤ ص ١٣ وفى السنة جـ ٢ ص ٤٨٥ .
(٥) الفتح جـ ١١ ص ٤٦٧ .

يعنى أن جبريل استفتح ، فقالوا من ؟ فأخبرهم كما مضى .

قوله : « كل سماء فيها أنبياء ، قد سماهم فأوعيت منهم إدريس فى الثانية ، وهارون فى الرابعة ، وآخر فى الخامسة ، لم أحفظ اسمه ، وإبراهيم فى السادسة وموسى فى السابعة » قال الحافظ : « كذا فى رواية شريك ، وفى حديث الزهرى عن أنس ، عن أبى ذر ، فذكر أنه وجد فى السماوات آدم ، وإدريس ، وعيسى ، وإبراهيم ، ولم يثبت منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم فى السماء الدنيا ، وإبراهيم فى السماء السادسة » وهو موافق لرواية شريك ، والأكثرون خالفوا ذلك ، فذكروا أن موسى فى السادسة ، وإبراهيم فى السابعة ، كما فى رواية قتادة ، وسياق روايته يدل على رجحانها ، فإنه ضبط اسم كل نبى ، والسماء التى هو فيها »[1] .

وقد حاول الحافظ أن يجمع بين الروايات بأن موسى كان وقت العروج فى السادسة ، وإبراهيم فى السابعة ثم انعكس الأمر عند هبوطه .

وهذا جائز ، ولكن يحتاج إلى دليل ، قال : ويحتمل أنه لقى موسى فى السادسة ثم صعد معه إلى السابعة ، لأنه هو الذى صارت المحاورة بينه وبينه من أجل تخفيف الصلوات فالله أعلم »[2] .

والراجح ما صرح به فى هذه الرواية ، وقد نص على أن سبب رفعه إلى السابعة ما خصه الله به من التكريم بكلامه ، كما قال :

« وموسى فى السابعة بتفضيل كلامه لله » وفى بعض النسخ « بتفضيل كلام الله » وهى أظهر على المراد ، لأن المقصود إثبات تكليم الله تعالى لموسى ، وليس تكليم موسى لله تعالى .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٨٢ .

(٢) المرجع .

وهذا هو محل الشاهد من الحديث ، وإن كان بقية الحديث فيه دلالة واضحة على تكليم الله ــ تعالى ــ لمحمد ﷺ ويجوز أن البخارى أراد ذلك أيضا فكأنه يقول : كما أن الله تعالى قد كلم موسى تكليما وموسى فى الأرض فقد كلم عز وجل محمدا وهو فوق سبع سماوات .

قوله : « فقال موسى : رب لم أظن أن ترفع على أحدا » وفى رواية : « أن يرفع » بالياء ، قال ابن بطال : « فهم موسى من اختصاصه بكلام الله ــ تعالى ــ فى الدنيا دون غيره من البشر كما قال تعالى : ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى ﴾[1] أن المراد بالناس البشر كلهم ، وأنه استحق بذلك أن لا يرفع عليه أحدا ، فلما رفع محمدا ﷺ علم أنه فضل عليه ، ومن ذلك قال هذا القول »[2] .

قوله : « ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله ، حتى جاء سدرة المنتهى » .

قال الحافظ : « هذا مما خالف فيه شريك غيره ، فإن الجمهور على أن سدرة المنتهى فى السابعة ، وعند بعضهم فى السادسة ، ولعل فى السياق تقديما وتأخيرا ، وأن ذكر سدرة المنتهى قبل قوله : « ثم علا به فوق ذلك » وفى رواية أبى ذر : « ثم عرج بى حتى ظهرت بمستو أسمع فيه صريف الأقلام »[3] أى صوت كتابة الأقلام ، التى تكتب ما أمر الله به من تقدير ، وأمر ونهى .

ثم قال الحافظ : « وفى رواية ميمون بن سياه عن أنس عند الطبرى بعد ذكر إبراهيم فى السابعة ، فإذا هو بنهر » فذكر أمر الكوثر .

---

(١) الآية ١٤٤ من سورة الأعراف .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٨٣ بتصرف .

(٣) المصدر نفسه .

قال : ثم خرج إلى سدرة المنتهى ، وهذا موافق للجمهور ، ويحتمل أن يكون المراد بما تضمنته هذه الرواية من العلو البالغ لأعلى سدرة المنتهى وما تقدم لأصلها »[1] .

قوله : « ودنا الجبار ، رب العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى » .

وفى رواية ميمون بن سياه ، عن أنس « فدنا ربك ـــ عز وجل ـــ فكان قاب قوسين أو أدنى » .

وفى رواية البيهقى من طريق ثابت البنانى ، عن أنس قال : « فدنا فتدلى فأوحى إلى عبده ما أوحى »[2] .

وفى رواية أبى سعيد التى رواها البيهقى وغيره : « وكان بينى وبينه قاب قوسين أو أدنى »[3] .

وذكر السيوطى أن ابن مردويه أخرج حديث أنس من طريق كثير بن خنيس وفيه « فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى »[4] .

قال الخطابى : « ليس فى هذا الكتاب ـــ يعنى صحيح البخارى ـــ حديث أشنع ظاهرا ، ولا أشنع مذاقا من هذا الفصل ، فإنه يقتضى تحديد المسافة بين أحد المذكورين وبين الآخر ، وتمييز مكان كل واحد منهما ، هذا إلى ما فى التدلى من التشبيه والتمثيل له بالشىء الذى تعلق من فوق إلى أسفل .

---

(١) المصدر .

(٢) دلائل النبوة جـ ٢ ص ٣٨٤ .

(٣) المصدر المذكور جـ ٢ ص ٣٩٥ .

(٤) الدر المنثور ج ٥ ص ١٩٠ .

ثم اختار أن هذا الحديث رؤيا منام ، أو أن أنسًا حكاه من تلقاء نفسه لم يعزه إلى النبى ﷺ »[1] .

أقول : أما كون هذا الفصل شنيعا ظاهرا ومذاقا ، فذلك فى نظر الجهمية الذين يزنون كلام الله وكلام رسوله بما يظنونه براهين عندهم ، وهى مجرد شبهات وأوهام ، أو يزنون كلام الله ورسوله بأذواقهم .

وهذه الشناعة التى يظنها الخطابى ــ عفا الله عنا وعنه ــ قد ترد لو كان ما يختص الله به من الأفعال والصفات على وفق مذاق أهل التعطيل ومذهبهم ، وقياساتهم الفاسدة .

أما إذا كان العبد منقادا لما جاء به الرسول ﷺ وموقنا بأن رسول الله ﷺ أعلم بالله ، وأخشى له من كل الناس قاطبة ، وأنه أقدرهم على البيان والإفصاح عما يريد ، وهو أيضا أنصحهم للأمة ، وأحرصهم على هدايتها ، إذا كان العبد موقنا بذلك كله ، فلن يكون هذا الفصل وأمثاله مما جاء به الرسول ﷺ شنيعا لا ظاهرا ولا مذاقا كما زعم الخطابى .

وأما محاولته الطعن فى راوى الحديث ــ أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ، وأنه إنما حكى هذا القول من عند نفسه ، وقد سبق أن قال فى عبد الله بن مسعود مثل هذا ، وهذا زلة منه عظيمة ، وخروج عن نهج أهل الحق ، وهذا ما يتمناه كل زنديق ، ورافضى خبيث ، حتى يتسنى لهم إبطال الشرع كله ، لأن كل أحد يمكنه أن يقول ما شاء إذا انفتح هذا الباب ، وهو الطعن فى الصحابة بأنهم لم يفهموا ما يقولون ، وينقلون الباطل ، والضلال كما هو مقتضى قول الخطابى .

مع أن قوله هذا خلاف ما اتفق عليه أئمة الإسلام من المحدثين والفقهاء ،

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٨٣ .

وأن مرسل الصحابى له حكم الاتصال ، لأنه لا يخلو إما أن يكون رواه عن صحابى أو سمعه من الرسول ﷺ .

وكذلك طعنه فى شريك بن عبد الله غير مقبول ، بل هو خلاف الحق .

« قال أبو الفضل ابن طاهر : « تعليل الحديث بتفرد شريك ، ودعوى ابن حزم أن الآفات منه شىء لم يسبق إليه ، فإن شريكا قبله أئمة الجرح والتعديل ووثقوه ، ورووا عنه ، وأدخلوا حديثه فى تصانيفهم ، واحتجوا به ، وروى عبد الله بن أحمد الدورقى ، وعثمان بن سعيد الدارمى ، وعباس الدورى ، عن يحيى بن معين : لا بأس به »[1] .

وقال ابن عدى : « مشهور من أهل المدينة ، حدث عنه مالك وغيره من الثقات ، وحديثه إذا روى عنه ثقة لا بأس به ، إلا أن يروى عنه ضعيف » .

قال ابن طاهر : « وحديثه هذا رواه عنه ثقة وهو سليمان بن بلال »[2]

ثم إن شريكا لم ينفرد بهذا اللفظ كما تقدم .

وأما قول الخطابى : « إن ذلك يقتضى تحديد المسافة بين أحد المذكورين وبين الآخر ، وتمييز مكان كل واحد منهما » .

فجوابه أن كثيرا من النصوص فى كتاب الله وسنة رسوله تقتضى ذلك بل تدل عليه نصا ، وقد سبق فى باب قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ من ذكر بعض النصوص فى ذلك ، وبعض أقوال أئمة السلف ما فيه مقنع لمن يريد الحق .

وأما المكابر والضال فلا حيلة فيه إلا طلب الهداية له من الله تعالى .

---

(١) إذا قال يحيى بن معين : لا بأس به ، فمعناه عنده ثقة .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٨٥ .

ثم مفهوم هذا القول من الخطابى أنه لا تمييز بين مكان الخالق والمخلوق ولا مسافة ، ولا تحديد ، وهذا لا يعدو أمرين لا ثالث لهما :

إما أن يكون الرب ــ تعالى ــ حالا فى الخلق ، ومداخلا لهم ، فهو فى كل مكان ، لا يختص به مكان دون آخر ، حتى أجواف الحيوانات والناس والأمكنة الخبيثة ، وهذا مذهب الحلولية الذين هم من أضل خلق الله وأبعدهم عن معرفة الله والتمييز بينه وبين خلقه ، وهذا غاية الكفر ومنتهاه .

الثانى أنه لا مكان لله أصلا ، ومن ليس له مكان بمعنى أنه ليس فى جهة فهو عدم لا وجود له ، والعدم هو إله المعطلة والملاحدة .

ومعلوم ثبوت وصف الله تعالى بالقرب ، والدنو ، من بعض خلقه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾(١) .

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى لما رفعوا أصواتهم بالتكبير قال لهم النبى ﷺ : « اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إن الذى تدعون سميع بصير قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » وقد تقدم والنصوص فى هذا كثيرة .

قال شيخ الإسلام : « قرب الله سبحانه ودنوه من بعض مخلوقاته ، لا يستلزم أن تخلو ذاته من فوق العرش ، بل هو فوق العرش ويقرب من خلقه كيف شاء ، كما قال ذلك من قاله من السلف .

وهذا كقربه إلى موسى لما كلمه من الشجرة ، وقال تعالى : ﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴾(٢) .

---

(١) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٥٢ من سورة مريم .

والنداء هو رفع الصوت ، والنجى هو القريب لمن يكلمه ويناجيه ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴾ ، والمنادى لموسى هو ربه ـــ تعالى ـــ وهو المناجى له أيضا ، ونداؤه ومناجاته قائمة به ـــ تعالى ـــ ليست مخلوقة منفصلة عنه ، ووقعت مناداته ومناجاته لرسوله موسى فى وقت واحد معين .

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى ، أنهم كانوا مع النبى ﷺ فى سفر ، فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير ، فقال : « أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا قريبا ، إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

وفيها « يقول الله تعالى : من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ، ومن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة »[1] .

« والذين يثبتون تقريبه العباد إلى ذاته ، وهو القول المعروف للسلف والأئمة ، وهو قول الأشعرى ، وغيره من الكلابية ، فإنهم يثبتون قرب العباد إلى ذاته ، وكذلك يثبتون استواءه على العرش بذاته ونحو ذلك ، ولكنهم يقولون الاستواء فعل يفعله فى العرش ، فصار مستويا عليه .

وأما دنوه وتقربه من بعض عباده ، فهذا يثبته من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه ، ومجيئه يوم القيامة ، ونزوله ، واستواءه على العرش ، وهذا مذهب أئمة السلف ، وأئمة الإسلام المشهورين ، وأهل الحديث ، والنقل عنهم بذلك متواتر .

وأول من أنكر هذا فى الإسلام الجهمية ، ومن وافقهم »[2] .

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث ابن عمر قال : سمعت النبى ﷺ

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٤٦٣ ـــ ٤٦٤ ملخصا .
(٢) المصدر ص ٤٦٦ .

يقول : « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع عليه كنفه ، فيقول : أعملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، ثم يقول إنى سترت عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم » .

وسبق الكلام عليه قريبا .

وفى لفظ : « يؤتى بالمؤمن يوم القيامة فيدنيه الله منه فيضع عليه كنفه » .

قال أبو يعلى : « غير ممتنع حمله على ظاهره ، وأنه دنو من ذاته ، وقد أخذ أحمد بظاهره ، فى رواية أبى الحارث ، وقد سأله : ما معنى قول النبى ﷺ إن الله يدنى العبد يوم القيامة ، فيضع عليه كنفه ؟ قال : هو كما قال ، ونقول به ، فقد نص أحمد على الأخذ بظاهره »[1] .

قوله : « فأوحى الله فيما أوحى إليه خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة ، ثم هبط بهم حتى بلغ موسى ، فاحتبسه موسى ، فقال : يا محمد : ماذا عهد إليك ربك ؟

قال : « عهد إلى خمسين صلاة كل يوم وليلة » .

استدل بذلك على عظيم قدر الصلاة عند الله ، والاهتمام بها ، وأنها من أفضل ما تفضل الله به على هذه الأمة ، لأنها صلة بين العبد وربه وقرب منه ، فينبغى للمسلم أن يهتم بها ويجتهد فى أدائها فى خشوع وحضور قلب .

وقد كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وقال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴾[3] .

---

(١) إبطال التأويل ص ١٥٥ مخطوط .
(٢) الآية ١٥٣ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٤٥ من سورة البقرة .

ومما يزيد فى أهميتها أن الرسول ﷺ لم يذكر أنه فرض عليه فى ذلك الموقف القريب إلى الله تعالى إلا الصلاة .

وقد علم موسى ﷺ أن الله سوف يفرض عليه فروضا ، ولهذا استوقفه .

وفى ذلك بيان نصحه وشفقته على هذه الأمة ، فصلاة الله وسلامه علية وجزاه الله خير الجزاء حيث جعله الله سببا لتخفيف الواجب على هذه الأمة .

قوله : « إن أمتك لا تستطيع ذلك ، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم ،

فالتفت النبى ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك ، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت » وهذا كله بإرادة الله ، فهو ــ جل وعلا ــ الذى ألهم موسى ﷺ أن يسأل نبينا ﷺ وأن يأمره بالرجوع إلى الله ليطلب التخفيف ، فالحمد لله الذى أتم نعمته على عباده وأظهر فضل أوليائه من رسله .

قوله : « فعلا به إلى الجبار » فيه دلالة صريحة واضحة على علو الله ــ تعالى ــ وأن الذى يصعد فى العلو ، يقرب من الله ، وأن الذى فى السماء أقرب إليه ممن فى الأرض ، وأن من فى السماء السابعة أقرب إليه ممن هو تحتها ، وهذا أمر فطر الله عليه عباده ، لا ينكره إلا الجهمية والمعتزلة ، ومن سلك نهجهم ممن اجتالتهم الشياطين فغيرت فطرهم ، وزينت لهم تعطيل الله تعالى مما وصف به نفسه ، وقد سبق الكلام فى ذلك .

قوله : « فقال وهو مكانه » الضمير عائد إلى الرسول ﷺ أى وهو فى مكانه الذى أوحى الله إليه فيه قبل نزوله إلى موسى .

« يا رب خفف عنا ، فإن أمتى لا تستطيع هذا » إلى آخره استدل بهذا أهل الأصول على جواز النسخ قبل التمكن من العمل ، وعلى كل ففى هذا عظيم فضل الله ومنته على عباده ، حيث أمر وأوجب ثم لطف فخفف ورحم .

قوله : « ثم احتبسه موسى عند الخمس ، فقال : يا محمد والله لقد راودت

بنى إسرائيل قومى » إلى آخره ، هذا يدل على كمال نصح نبى الله وكليمه موسى ﷺ لهذه الأمة ، ويدل على أن بنى إسرائيل قد فرض عليهم صلوات هى أقل مما فرض على هذه الأمة ، كما يدل على أن الخلق يضعفون كلما تأخروا فى الزمن ضعفوا فى جميع خلقهم وقواهم .

« فقال الجبار : يا محمد ، قال : لبيك وسعديك ، قال : إنه لا يبدل القول لدى كما فرضت عليك فى أم الكتاب ، قال : فكل حسنة بعشر أمثالها فهى خمسون فى أم الكتاب ، وهى خمس عليك » هذا المقطع من الحديث صريح فى أن الله ــ تعالى ــ كلم نبينا ﷺ بلا واسطة ، وأنه سمع كلامه ، وخطابه بقوله : « يا محمد » وأجابه النبى ﷺ بقوله : لبيك وسعديك .

وهذا ما قصد البخارى رحمه الله إثباته وإيضاحه ، ولا يخفى وضوحه .

وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ الذى كتب فيه كل ما هو كائن .

وجعل الله إعطاء هذه الأمة بالحسنة عشر حسنات تخفيفا .

ثم أمسكه موسى وأمره بالرجوع ، وطلب التخفيف شفقة منه على هذه الأمة أن تعجز عن أمر الله فتهلك ، فجزاه الله أعظم ما يجزى به أولياءه .

ما أعظم نصحه وشفقته ﷺ .

« قال رسول الله ﷺ يا موسى قد ــ والله ــ استحييت من ربى مما اختلفت إليه » أى من كثرة التردد إليه ، وفيه دليل على أن هناك مكانا معينا كان يتردد إليه هو أقرب إلى الله تعالى من المكان الذى فيه موسى ﷺ .

لما قال لموسى ذلك قال له : فاهبط باسم الله متبركا به ومستعينا .

قوله : « واستيقظ وهو فى المسجد الحرام » تقدم الكلام على هذه الفقرة .

« قال القرطبى : يحتمل أن يكون استيقاظا من نومة نامها بعد الإسراء ، لأن إسراءه لم يكن طول ليلته ، وإنما كان فى بعضها .

ويحتمل أن يكون المعنى : أفقت مما كنت فيه مما خامره من مشاهدة الملأ الأعلى لقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾[1] .

قال ابن كثير بعد ما ذكر روايات الإسراء والمعراج : « إذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها ، وحسنها ، وضعيفها ، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، وأنه مرة واحدة ، وإن اختلفت عبارات الرواة فى أدائه ، أو زاد بعضهم فيه ، أو نقص منه ، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء ، عليهم السلام .

ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة ، فأثبت إسراءات متعددة ، فقد أبعد وأغرب ، وهرب إلى غير مهرب ، ولم يتحصل على مطلب ، وقد صرح بعض المتأخرين بأنه ﷺ أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط ، ومرة من مكة إلى السماء فقط ، ومرة إلى بيت المقدس ، ومنه إلى السماء ، وفرح بهذا المسلك ، ورأى أنه ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات .

وهذا بعيد جدا ، ولم ينقل عن أحد من السلف .

ولو حصل هذا التعدد لأخبر به الرسول ﷺ أمته ، ولنقله الناس .

والحق أنه أسرى به مرة واحدة ، يقظة لا مناما من مكة إلى بيت المقدس راكبا البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ، ربط الدابة عند الباب ، ودخله فصلى فى قبلته تحية المسجد ركعتين .

ثم أتى بالمعراج ، وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها ، فصعد فيه إلى السماء الدنيا ثم إلى بقية السماوات السبع ، فتلقاه من كل سماء مقربوها ، وسلم على

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٨٧ .

الأنبياء الذين فى السماوات بحسب مراتبهم ، حتى مر بموسى الكليم فى السادسة . وإبراهيم الخليل فى السابعة ، ثم جاوز منزلتهما صلى الله وسلم عليهم أجمعين .

حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف أقلام القدر بما هو كائن ، وغشى سدرة المنتهى من أمر الله فراش من ذهب ، وألوان متعددة ، وغشيتها الملائكة ورأى جبريل على هيئته التى خلق عليها ، له ستمائة جناح ، ورأى البيت المعمور ، وإبراهيم مسندا ظهره إليه ، ورأى ما يدخله من الملائكة كل يوم سبعون ألف ، لا يعودون إلى مثلها أبدا .

ورأى الجنة والنار ، وفرضت عليه الصلوات ، ثم هبط إلى بيت المقدس ، وهبط معه الأنبياء ، فصلى بهم فيه ، يحتمل أنها صلاة الصبح .

ثم خرج راكبا البراق ، وعاد إلى مكة بغلس »[1] .

والمقصود أن الله موصوف بالتكلم فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وأنه يكلم من يشاء من عباده بما يشاء ، وأى وقت شاء ، وقد كلم الله — تعالى — موسى كلاما حقيقيا سمعه موسى من الله ، وموسى فى الأرض ، والله فى السماء ، وكذلك كلم محمدا وهو فى السماء كما فى هذه القصة ، قال — تعالى — مخاطبا موسى عليه السلام : ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى ﴾[2] ، وهذا بيان أوضح من النهار فى أن الله — تعالى — خص موسى فى الدنيا من بين الناس بكلامه ، وفيه الدليل على أنه تعالى إذا شاء أن يكلم أحدا من خلقه لم يمنعه مانع ، وأنه متصف بالكلام المتعلق بمشيئته دائما .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٢ — ٢٣ .

(٢) الآية ١٤٤ من سورة الأعراف .

قال : « باب كلام الرب مع أهل الجنة » .

مراده بيان أن الله ــ تعالى ــ متصف بالكلام فى كل وقت إذا شاء لأن الكلام متعلق بمشيئته ــ تعالى ــ فأى وقت شاء أن يتكلم تكلم ، وقد سبق أن الكلام صفة كمال ، وفقده نقص يتقدس الله عنه ، وسبق ذكر أنواع من كلام الله تعالى .

١٤٢ ــ قال : « حدثنا يحيى بن سليمان ، حدثنى ابن وهب ، قال : حدثنى مالك ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ قال : قال النبى ﷺ : « إن الله ــ تعالى ــ يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبدا » .

الظاهر أن هذا الخطاب الكريم من الله تعالى لعموم أهل الجنة ، وأنه بعد استقرارهم فيها .

وأما قول الحافظ فى استظهاره ، أن هذا يقال للذين يخرجون من النار ، بناء على أن هذا الحديث مختصر من الحديث الطويل السابق ــ الذى فيه المرور على الصراط ، وفيه رؤية المؤمنين لربهم فى الموقف كما تقدم فى باب قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ فليس فيه ما ذكر هنا ، فيحتاج إلى دليل ، وقد دل هذا الحديث بظاهره على أن هذا القول من الله تعالى لعموم أهل الجنة .

قال الحافظ : « هذا الخطاب غير الخطاب الذى لأهل الجنة كلهم ، وهو فيما أخرجه مسلم ، وأحمد ، من حديث صهيب ، رفعه : « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد ، يا أهل الجنة ، إن لكم موعدا عند الله ، يريد أن ينجزكموه » الحديث .

وفيه : « فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه » ، وفيه : « فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه »[1] .

وسبق معنى لبيك ، وسعديك .

قوله : « والخير فى يديك » أى أن الخلق لا يملكون لأنفسهم ، ولا لغيرهم نفعا حتى تمن به عليهم ، فكل خير مصدره منك ، وكل شر فهو من المخلوق .

قوله : « فيقول : هل رضيتم » هو جل وعلا يعلم أنهم قد رضوا ، ولا يخفى عليه شىء فى صدورهم ، ولكن يريد تقريرهم بالمنة والفضل الذى يسديه إليهم ، وكل فضل نالهم ، فهو ــ تعالى ــ ابتدأهم به من غير استحقاق له ، ولا حق لهم عليه بل بمحض فضله ، ومنته ، وأول ذلك أن جعلهم مسلمين ، ثم يسر لهم العمل الصالح الذى كان سببا لدخولهم الجنة ، ثم ثبتهم على الهدى حتى وافوه مؤمنين فما أعظم منته عليهم .

قوله : « فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك » .

ولا يحسن أن يقولوا غير هذا ، وقد أعطاهم فوق ما يتصورون ، فلا بد من الرضا ولهذا لما قال : « ألا أعطيكم أفضل من ذلك » يقولون : وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فهم يستبعدون أن يكون شىء أفضل مما هم فيه .

---

(١) الفتح جـ ١١ ص ٤٢٢ .

قوله : « فيقول : أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبدا » .

قال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1] .

فرضوان الله تعالى عليهم أكبر من الجنة وما فيها ، وبذلك تمت سعادتهم ، وكملت حياتهم ، وطابت لذتهم لما رضى سيدهم عنهم .

والحديث واضح الدلالة على مقصود الترجمة ، ففيه التصريح بأن الله تعالى يقول لأهل الجنة ، فيسمعون قوله ، ويجيبونه ، ويخاطبهم ويخاطبونه ، وقد علم أن ذلك يتكرر ، وسبق أن كلام الله تعالى بمشيئته ، فكلما شاء أن يتكلم تكلم ، ويكلم من يشاء من خلقه .

١٤٣ ــ قال : « حدثنا محمد بن سنان ، حدثنا فليح ، حدثنا هلال ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى هريرة ، أن النبى ﷺ كان يوما يحدث ، وعنده رجل من أهل البادية ، أن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه فى الزرع ، فقال : أو لست فيما شئت ؟ قال : بلى ولكن أحب أن أزرع ، فأسرع ، وبذر فتبادر الطرف نباته ، واستواؤه ، واستحصاده ، وتكويره ، أمثال الجبال ، فقال الله ــ تعالى ــ « دونك يا ابن آدم ، فإنه لا يشبعك شىء ، فقال الأعرابى : يا رسول الله لا تجد هذا إلا قرشيا أو أنصاريا ، فإنهم أصحاب الزرع ، فأما نحن فلسنا بأصحاب زرع .

فضحك رسول الله ﷺ » .

---

(١) الآية ٧٢ من سورة التوبة .

أهل البادية ، خلاف الحاضرة ، لعدم الساتر فيها من المبانى ونحوها وغالبا يكون عندهم جرأة على الكلام ، وعدم مجاملة ، ولذلك كان الصحابة — رضوان الله عليهم — يحبون أن يكون معهم عند رسول الله ﷺ الرجل العاقل من أهل البادية ، حتى يسأل رسول الله ﷺ فيستفيدوا من جوابه .

قوله : « إن رجلا من أهل الجنة » إلخ قد فهم الأعرابى أن هذا الرجل كان فى الدنيا زراعا ، ففيه دليل على إلف النفوس لما تزاوله من الأعمال ، حتى تحبه ، ويصير من مشتهياتها ، ويكون لها فيه متعة وراحة ، وهذا الرجل بقيت معه هذه المحبة إلى الجنة .

وفيه أن ما يشتهيه أهل الجنة من أمور الدنيا يمكن حصوله لهم ، وأنهم يطلبون ما أرادوا من ربهم تعالى .

قوله : « أولست فيما شئت ؟ » يعنى لست بحاجة إلى الزرع ، فكل ما تريده من مأكول ، أو مشروب ، أو غير ذلك بين يديك .

وقوله : « بلى ، ولكن أحب أن أزرع » يعنى أن ذلك ليس عن حاجة ، وإنما هو مجرد محبة للزرع الذى كان يزاوله فى الدنيا .

قوله : « فأسرع ، وبذر ، فتبادر الطرف نباته ، واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال » يعنى أن الله أذن له فبذر ، وخرج الزرع فاستوى وانحصد ، واجتمع حبا متراكما أمثال الجبال فى لحظة واحدة ، لأن الجنة ليس فيها نصب وكد وتعب ، وإنما فيها تنعم وراحة ، وما يشتهون .

وهذا من عجائب قدرة الله القادر على كل شىء .

« فيقول : دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شىء » دونك منصوب على الإغراء ، أى خذ ثمار الزرع الذى طلبت .

ولا يفهم من قوله : « فإنه لا يشبعك شىء » أن الجنة يحصل فيها حاجة

وجوع ، ولكن يدل على أن نفس الإنسان فيها من الشره فوق ما تحتاجه ، وقول الأعرابي : لا نجد هذا إلى آخره ، من باب المزاح ، والاعتزاز بأن هذا الرجل ليس من الأعراب ، وإنما هو من أهل الزرع في الدنيا وهم الحاضرة وفيه تعريض بذلك الرجل حيث طلب من الله ما لا يحسن طلبه ، لأنه لا حاجة له فيه .

والشاهد من الحديث واضح جدا ، فإن هذا الرجل خاطب ربه فكلمه ، وتكرر كلامه معه ، وهو من الأدلة الدالة على اتصاف الله تعالى بالكلام ، وتعلقه بمشيئته ، فمتى شاء الكلام تكلم .

قال : « باب ذكر الله بالأمر ، وذكر العباد بالدعاء والتضرع ، والرسالة ، والبلاغ ، لقوله : ﴿ فَٱذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ ﴾ .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونَ * فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ غمة : هم وضيق .

قال مجاهد : اقضوا إلى ما في أنفسكم ، افرق : اقض .

وقال مجاهد : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ إنسان يأتيه ، فيستمع ما يقول ، وما أنزل عليه ، فهو آمن حتى يأتيه فيسمع كلام الله ، وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء .

والنبأ العظيم : القرآن ، صوابًا : حقًّا في الدنيا وعمل به » .

مقصوده بهذا ، بيان الفرق بين فعل الله وما هو صفة له ، وبين فعل العبد

وما هو صفة له ، والرد على الذين لم يفرقوا بين ذلك ، كما أوضح ذلك فى كتابه « خلق أفعال العباد » قال ــ رحمه الله ــ بعد ما ذكر حديث أبى هريرة : « يقول العبد الحمد لله رب العالمين ، فيقول الله حمدنى عبدى » الحديث قال : « فبين أن سؤال العبد غير ما يعطيه الله للعبد ، وأن قول العبد غير كلام الله ، هذا من العبد الدعاء والتضرع ، ومن الله الأمر والإجابة »[1] .

وقال : « وأما قوله : فهل يرجع إلى الله إلا باللفظ الذى تلفظ به .

فإن كان الذى تلفظ به قرآنا فهو كلام[2] .

قيل له : ما قولك تلفظ به ؟ فإن اللفظ غير الذى تلفظ به ، لأنك تلفظت بالله ، وليس الله هو لفظك ، وكذلك تلفظ بصفة الله بقول الله ، وليس قولك : الله : هو الصفة ، وإنما تصف الموصوف ، فأنت الواصف ، والله الموصوف بصفته ، وكلامه ، فهو الله »[3] .

يعنى أن اللفظ غير المتلفظ به ، فإذا قرأ القرآن فاللفظ هو فعل العبد وصوته بحركة لسانه وما يلزم للتلفظ ، وأما الملفوظ به فهو كلام الله ــ تعالى ــ وكذلك إذا وصفت الله بقوله ــ تعالى ــ الذى وصف به نفسه ، كقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ فلفظك بهذه الآية ليست هى الصفة ولكن لفظك بها فعلك ،تصف الله بما قاله ــ تعالى ــ واصفًا به نفسه هذا معنى قوله « وليس قولك : الله هو الصفة ، إنما تصف الموصوف فأنت الواصف ، والله الموصوف بكلامه » ثم قال :

---

(١) خلق أفعال العباد ص ١٠٥ تحقيق عبد الرحمن عميرة .
(٢) هذا قول من يقول : اللفظ هو الملفوظ ، وهو قول باطل بين بطلانه البخارى بهذا الكلام .
(٣) خلق أفعال العباد ص ١٠٨ .

« كالواصف الذى يصف الله بكلام غير الله » يعنى أن العبد إذا وصف الله بكلام الله الذى وصف به نفسه ، فالوصف فعل العبد ، والكلام الذى وصف به الله هو كلامه ـــ تعالى ـــ وصفته ، وهو ـــ تعالى ـــ الموصوف ، وهذا معنى قوله : « وأما الموصوف بصفته وكلامه فهو الله » . ثم قال :

« ففى قولك : تلفظ به ، وتقرأ القرآن ، دليل بين أنه غير القراءة ، كما تقول : قرأت بقراءة عاصم ، وقراءتك على قراءة عاصم ، لا أن لفظك وكلامك ، كلام عاصم بعينه ، ألا ترى أن عاصما لو حلف أن لا يقرأ اليوم ثم قرأت أنت على قراءته لم يحنث عاصم »[1] .

يعنى أن قولك : تلفظت به ، كقولك : قرأت القرآن ، فالتلفظ مثل القراءة وهما غير المتلفظ به ، والمقروء ، كما تقول قرأت بقراءة عاصم ، يعنى قرأت على قراءة عاصم ، أما قراءة عاصم فهى فعله . ثم قال :

« وقال أحمد رحمه الله : لا يعجبنى قراءة حمزة ، ولا يقال : لا يعجبنى القرآن »[2] ، وهذا واضح ، فإن المراد فعل حمزة ، وما فيه من المد الطويل ، فأحمد كره فعل حمزة ، لا ما يقرأ حمزة ، ثم قال :

« واعتل بعضهم[3] فقال : ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ . قيل له : إنما يقال حتى يسمع كلام الله ، لا كلامك ، ونغمتك ولحنك ، لأن الله ـــ عز وجل ـــ فضل موسى بكلامه ، ولو كنت تسمع الخلق كلام الله ، كما أسمع الله موسى ﷺ لم يكن لموسى عليك فضل ، إذا سمعت كلام الله وسمع موسى كلام الله ، قال الله عز وجل : ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى ﴾[4] .

---

(١) خلق أفعال العباد ص ١٧٢ تحقيق بدر .

(٢) المصدر .

(٣) يعنى بعض الذين يرون أنه لا فرق بين اللفظ والملفوظ .

(٤) الآية ١٤٤ من سورة الأعراف .

حدثنا عبيد الله بن عمر ، حدثنا سليمان بن بلال ، عن شريك بن عبد الله ، عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ ليلة أسرى به قال : « رأيت موسى فى السماء السابعة بتفضيل كلام الله »[1] .

يعنى أن استدلال من يزعم أن لا فرق بين اللفظ والملفوظ ، بقوله تعالى : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللهِ ﴾ ـــ استدلال باطل ، لأن السامع لذلك يسمع كلام الله بصوت المبلغ ولفظه ، لا بصوت الله ـــ تعالى ـــ ولفظه ، ولو كان الأمر كما زعم هذا المستدل ، لم يكن هناك فرق بين موسى حين كلمه الله ، وبين من يسمع كلام الله ممن يتلوه ، ويقرؤه ، ثم استدل بالحديث حيث رأى موسى فى السماء السابعة بتفضيله بكلام الله له ، ولهذا قال :

« وإن ادعيت أنك تسمع الناس كلام الله ، كما أسمع الله كلامه لموسى [لما] قال له : ﴿ إِنِّى أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ فهذه دعوى الربوبية ، إذ لم تميز بين قراءتك ، وبين كلام الله ، فإن الله تعالى قال : ﴿ فَٱذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ ﴾ ﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ ﴾ [وهذا] يشرح أن ذكر العبد ربه غير ذكر الله عبده ، لأن ذكر العبد الدعاء والتضرع ، وذكر الله الإجابة ، كما قال الله عز وجل ، وقال النبى ﷺ : « إنى لا أقول إلا ما فى القرآن » .

حدثنا ضرار ، حدثنا صفوان بن أبى الصهباء ، عن بكير بن عتيق ، عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبى ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : من شغله ذكرى عن مسألتى ، أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

وقال النبى ﷺ : « بينا أنا فى الجنة ، سمعت صوت رجل بالقرآن » . فبين أن الصوت غير القرآن .

حدثنا إسماعيل ، حدثنا أخى ، عن سليمان ، عن موسى بن عقبة وابن

---

(١) خلق أفعال العباد ص ١٠٨ .

أبى عتيق ، عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا أنا أمشى فى الجنة ، سمعت صوت رجل بالقرآن ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : هذا حارثة بن النعمان ، فذلكم البر ، فذلكم البر » ، وكان حارثة من أبر الناس .

ويقال له : أصفة الله ــ جل ذكره ــ وعلمه ، وكلامه ، وأسماؤه ، وعزته ، وقدرته ، بائن من الله ــ تعالى ــ أم لا ؟

أو قولك وكلامك بائن من الله أم لا ؟ »[1] .

يعنى أن كلام الله مثل صفاته الأخرى ، من العزة والقدرة ، لا يكون شىء منها مفارقا لله ــ تعالى ــ وبائنا منه ، بخلاف كلام الخلق ، وأقوالهم فإنها بائنة من الله ، وليست من صفاته ، بل صفات لمن قالها ، وتكلم بها ثم قال :

« وقال الله ــ تعالى ــ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾[2] وقال عز وجل : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾[3] فالإبلاغ ، والإنذار من نوح ، وهو نذير مبين ، يأمرهم بطاعة الله ، وأما الغفران ، فإنه من الله ، لقوله ــ عز وجل ــ : ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ .

فذكر الدعاء سرا وعلانية من نوح ، وذكر فعل نوح بقومه . ثم قال : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ ، فذكر خلق القوم طورا بعد طور .

وقال عز وجل : ﴿ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ

---

(١) المصدر .
(٢) الآية ٣٩ ، ٤٠ من سورة النجم .
(٣) الآية ١ من سورة نوح .

بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[1] .

حدثنا موسى ، حدثنا سليمان ، عن ثابت ، عن أنس — رضى الله عنه — قال : لما نزلت ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِٱلْقَوْلِ ﴾ وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت ، فجلس فى بيته ، وقال : أنا الذى كنت أرفع صوتى فوق صوت النبى ﷺ وأجهر له بالقول ، وقد حبط عملى ، وأنا من أهل النار ، ففقده النبى ﷺ فأتاه رجل فقال : إنه يقول : كذا وكذا ، فقال النبى ﷺ هو من أهل الجنة وكنا نراه يمشى بين أظهرنا ، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة .

فلما كان يوم اليمامة كان من بعضنا بعض الانكشاف ، فأقبل وقد تكفن وتحنط ، وقال : بئس ما تعودون أقرانكم ، فقاتل حتى قتل »[2] .

وقد سمى ابن عمر الصوت بالقرآن عبادة .

حدثنى أبو يعلى محمد بن الصلت ، حدثنا أبو صفوان ، عن يونس ، عن الزهرى ، عن سالم ، عن أبيه قال : « أول ما ينقص من العبادة التهجد بالليل ، ورفع الصوت فيها بالقراءة » .

وقال النبى ﷺ : « لا يجهر بعضكم على بعض بالقراءة » .

وقال ابن مسعود : قال النبى ﷺ لقوم كانوا يقرأون القرآن فيجهرون به : « خلطتم علىَّ » ، يقول : علت أصواتكم فشغلتمونى برفعها فوق صوتى ، فخلطتم علىَّ ، فنهى النبى ﷺ أن يرفع بعضهم على بعض صوته ، ولا يخلطون على الناس فى جهرهم ، وأصواتهم ، ولم ينه عن القرآن ، ولا عن كلام الله الذى كلم به موسى قبل أن يخلق هذه الأمة .

---

(١) الآية ٢ من سورة الحجرات .

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير بأسانيد عدة ، انظر جـ ٢ ص ٥٦ — ٦٠ .

حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنى معاوية ، عن ربيعة بن زيد ، عن إسماعيل بن عبيد الله ، عن أم الدرداء ، أنها قالت : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، وإن صليت فهو من ذكر الله ، وكل خير تعمله ، فهو من ذكر الله ، وكل شر تجنبه فهو من ذكر الله ، وأفضل ذلك تسبيح الله » .

وقال موسى : ﷺ : ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى * يَفْقَهُواْ قَوْلِى ﴾(1) .

وقال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾(2) .

وقال بعضهم فى قوله عز وجل : ﴿ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ قال : الصوت الحسن .

وقال عز وجل : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ فبين أن التنزل غير الأمر .

وقال بعضهم : إن أكثر مغاليط الناس من هذه الأوجه ، الذين لم يعرفوا المجاز من التحقيق ، ولا الفعل من المفعول ، ولا الوصف من الصفة .

ولم يعرفوا الكذب لم صار كذبا ؟ ولا الصدق لما صار صدقا ؟

فأما بيان المجاز من التحقيق ، فمثل قول النبى ﷺ للفرس : « وجدته بحرا » . وهو الذى يجوز بين الناس . وتحقيقه أن مشيه حسن .

ومثل قول القائل علم الله معنا ، وفينا ، وأنا فى علم الله ، إنما المراد من ذلك أن الله يعلمنا ، وهو التحقيق ، وأشباهه فى اللغات كثيرة .

وأما الفعل من المفعول : فالفعل إنما هو إحداث الشىء ، والمفعول هو الحدث ، لقوله : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾(3) .

---

(1) الآية ٢٧ من سورة طه .
(2) الآية ٢٣ من سورة الذاريات .
(3) الآية ٣٢ من سورة إبراهيم .

فالسماوات ، والأرض مفعوله ، وكل شيء سوى الله ، بقضائه فهو مفعول فتخليق السماوات فعله ، لأنه لا يمكن أن تقوم سماء بنفسها من غير فعل الفاعل ، وإنما تنسب السماء إليه لحال فعله .

ففعله من ربوبيته حيث يقول : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ و « كن » من صفته ، وهو الموصوف به ، كذلك قال رب السماوات ، ورب الأشياء .

وقال النبى ﷺ : « رب كل شيء ومليكه » .

وكذلك مؤدى جميع لغات الخلق ، من غير اختلاف بينهم ، وإنما هو الفاعل والفعل ، والمفعول .

فالفعل صفة ، والمفعول غيره ، وبيان ذلك فى قوله ـــ تعالى ـــ ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾[1] .

ولم يرد بخلق السماوات نفسها ، وقد ميز فعل السماوات ، من السماوات وكذلك فعل جملة الخلق .

وقوله : ﴿ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ فقد ميز الفعل والنفس ، ولم يصر فعله خلقا .

وأما الوصف من الصفة : فالوصف إنما هو قول القائل ، حيث يقول : هذا رجل طويل ، وثقيل ، وجميل ، وحديد ، فالطول ، والجمال ، والحدة ، والثقل إنما هو صفة الرجل ، وقول القائل وصف .

كذلك إذا قال : الله رحيم ، والله عليم ، والله قدير ، فقول القائل وصف وهو عبادة ، والرحمة ، والعلم ، والقدرة ، والكبرياء ، والقوة كل هذا صفاته »[1] .

---

(١) خلق أفعال العباد ص ١١٤ .

يعنى أن فعل الواصف الذى هو قوله يصف الموصوف إذا تكلم بذلك ونطق به ، يسمى وصفا ، وهو عبادة إذا كان يصف الله ــ تعالى ــ لأنه يثنى عليه بذكر صفته .

وأما الصفة : فهى قائمة بالموصوف ، لا تفارقه ، مثل رحمة الله ، وعلمه وقدرته ، وقوته ، وعزته ، وكبريائه ، وغير ذلك من أوصافه .

ثم قال : « وأما الكذب من الصدق : فقول القائل : فلان ها هنا وهو غائب ، فهو كذب .

فلو كان حاضرا لكان صدقا ، والكلمة واحدة ، وإنما صار كذبا وصدقا لحال المعنى .

وكذلك لو أن رجلا قال : إن الله رحيم ، ويرحم ، والله عليم ويعلم ، والله قدير ويقدر ، والله سميع ويسمع ، ولم يكن لقوله معنى كما وصفنا فى شأن الكذب والصدق ، لكان قوله كذبا ، وإنما صار هذا القول صدقا وعبادة وطاعة لحال المعنى .

واختلف الناس فى الفاعل والمفعول ، فقالت القدرية : الأفاعيل كلها من البشر ، ليست من الله .

وقالت الجبرية : الأفاعيل كلها من الله .

وقالت الجهمية : الفعل والمفعول واحد ، لذلك قالوا : « كن » مخلوق .

وقال أهل العلم : التخليق فعل الله ، وأفاعيلنا مخلوقة ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾[1] يعنى السر والجهر من القول .

---

(١) الآية ١٣ ، ١٤ من سورة الملك .

ففعل الله صفة الله ، والمفعول غيره من الخلق .

ويقال لمن زعم أنى لا أقول : القرآن مكتوب فى المصحف ، ولكن القرآن بعينه فى المصحف ، يلزمك أن تقول : إن ما ذكر اللهُ فى القرآن من الجن ، والإنس ، والملائكة ، والمدائن ، ومكة ، والمدينة ، وغيرهما ، وإبليس ، وفرعون ، وهامان ، وجنودهما ، والجنة ، والنار : عاينتهم بأعيانهم فى المصحف ، لأن فرعون مكتوب فيه ، كما أن القرآن مكتوب فيه .

ويلزمك أكثر من هذا ، حين تقول فى المصحف [الله لأنه مكتوب فيه ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ . وهذا أمر بين ، لأنك تضع يدك على هذه الآية ، وتراها بعينك][1] .

فلا يشك عاقل بأن الله هو المعبود ، وقوله : ﴿ ٱللَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[2] هو قرآن .

وكذلك جميع القرآن هو قوله — تعالى — والقول صفة القائل ، موصوف به .

فالقرآن قول الله عز وجل .

والقراءة ، والكتابة ، والحفظ للقرآن ، هو فعل الخلق ، وهو طاعة الله ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ ﴾[4] .

---

(١) ما بين الحاصرتين تصرفت فيه بالتقديم والتأخير ؛ لأن فيه ارتباكا وتعقيدا والمقصود منه واضح ، وأظن أنه حصل فيه الاضطراب من النساخ .

(٢) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة و ٢ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ١٠٦ من سورة الإسراء .

(٤) الآية ٢٩ من سورة فاطر .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[1] وقال عز وجل : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[2] فذلك كله مما أمر الله به .

ولذلك قال : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فالصلاة بجملتها طاعة الله ، وقراءة القرآن من جملة الصلاة .

فالصلاة طاعة لله ، والأمر بالصلاة قرآن ، وهو مكتوب فى المصاحف ، محفوظ فى الصدور ، مقروء على الألسن .

والقراءة ، والحفظ ، والكتابة مخلوق ، وما قرئ ، وحفظ ، وكتب ليس بمخلوق .

ومن الدليل عليه أن الناس يكتبون الله ، ويحفظونه ، ويدعونه ، فالدعاء والحفظ والكتابة من الناس مخلوق ، ولا شك فيه .

والخالق الله بصفته .

ويقال له : أترى القرآن فى المصحف ؟ فإن قال : نعم ، فقد زعم إن من صفات الله مايرى فى الدنيا ، وهذا رد لقول الله عز وجل : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾[3] فى الدنيا ، وإن قال : يرى كتابة القرآن فقد رجع إلى الخلق .

ويقال له : هل تدرك إلا اللون ؟ فإن قال : لا ، قيل له : وهل يكون اللون إلا فى الجسم ؟ فإن قال : نعم فقد زعم أن القرآن جسم يرى »[4] .

يعنى أن الذى فى المصحف هو كتابة القرآن ، والكتابة فعل العباد ، أما القول فلا يرى ، وإنما يسمع ، وهو صفة القائل قائم به .

---

(١) الآية عدد من آيات سورة اقتربت الساعة .
(٢) الآية جزء من الآية ٦٧ من سورة المائدة .
(٣) جزء من الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .
(٤) خلق أفعال العباد ص ١١٤ — ١١٦ .

والمقصود أن وجود القرآن فى المصحف ليس كوجود الأعيان المشاهدة ، وإن كان له وجود حقيقى ، فقد اتفق المسلمون على أن القرآن فى المصحف قال ابن القيم : « من المعلوم بالفطرة المستقرة عند العقلاء قاطبة أن الكلام يكتب فى المحالّ من الرق ، والخشب وغيرهما ويسمى محله كتابا ، ويسمى نفس المكتوب كتابا .

فمن الأول قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ . ومن الثانى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ .

والقول بأن الكلام فى الصحيفة من العلم العام الذى لم ينازع فيه أحد من العقلاء إذا سلمت الفطرة من الانحراف ، وقد قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾[1] وفى حديث ابن عمر : نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو[2] ، ومعلوم بالضرورة أنه لا محذور فى السفر إلى أرض العدو بالمداد والورق ، وإنما المحذور أن يسافر بالكلام الذى تضمنه الورق »[3] . وسيأتى مزيد لهذا فى موضعه .

وقد أطلت النقل عن البخارى رحمه الله لأن ذلك مراد فيما ترجم به ، فهو كالشرح له ، وبذلك وضح مقصده وضوحا جليا .

فقوله : « ذكر الله بالأمر » أى أمره الذى يأمر به عباده ، وهو صفته ، فإذا أمرهم فقد ذكرهم ، وكذلك إذا رحمهم وأنعم عليهم ، فقد ذكرهم .

« وذكر العباد بالدعاء والتضرع ، والرسالة والبلاغ » أى ذكرهم الله بأن

---

(١) الآية ٢١ ، ٢٢ من سورة البروج .

(٢) رواه مسلم رقم ١٨٦٩ جـ ٣ ص ١٤٩٠ ــ ١٤٩١ والإمام أحمد فى المسند جـ ٢ ص ٧ ، ٦٣ ، ١٢٨ وغيرهما ورواه البخارى . جـ ٤ ص ٤٥ باب السفر بالمصاحف إلى أرض العدو .

(٣) مختصر الصواعق ص ٤٤٣ ــ ٤٤٤ ملخصا .

يدعوه ، ويتضرعوا إليه ، ويفعلوا ما أمرهم به ، ودعاؤهم بذكر أسمائه وصفاته وثناؤهم عليه بها .

وكذلك القيام بإبلاغ رسالته ، التي أرسل بها رسله .

قوله : « لقوله تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ ﴾ قال الحسن : اذكرونى فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسى » . وقال سعيد بن جبير : « اذكرونى بطاعتى ، أذكركم بمغفرتى » وفى رواية « برحمتى »[1] .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى اذكر لقومك ، وقص عليهم خبر نبى الله نوح ﷺ حين قال لقومه يبلغهم رسالة ربه إليهم ، وذلك من ذكره لربه ، إن كان عظم عليكم ، وشق بكم قيامى فيكم أذكركم بنعم الله وأخوفكم نقمه ، وأدعوكم إلى طاعته وتوحيده بالعبادة والطاعة ، إن كان ذلك عظم عليكم فتهيئوا واستعدوا لما تريدون أن تصنعوه بى ، فإنى توكلت على الله لا على غيره فسوف يكفينى ويحمينى ، أما أنتم فأجمعوا قوتكم ، واستعينوا بمعبوداتكم من دون الله ، واحذروا أن يكون أمركم عليكم وبالًا وعذابًا ونكالًا ، وهمًّا وضيقًا ، لأنكم تحاربون الله ورسوله ومن كان حربا لله ورسوله ، فهو مخذول ، ومرذول ومقهور .

﴿ ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أى عجلوا إلى بما تريدون أن تصنعونه بى ، ولا تؤخرونى ساعة ، فهو ﷺ يتحداهم بذلك لأنه واثق بالله تمام الثقة ، فلم يستطيعوا أن ينالوه ، وهذا من علامات نبوته ، كيف رجل واحد ، لا جنود معه ولا سلطة ، يقف أمام هذه الأمة العظيمة يتحداهم بأن ينزلوا به كل ما يستطيعون من عذاب ، ويستحثهم على ذلك فلا يستطيعون أن يصلوا إليه بأذى مع عداوتهم الشديدة له .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٩٦ .

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ أى إن أعرضتم عما أدعوكم إليه ، فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ولم أطلب منكم على ذلك شيئا من أموالكم ، ولكن أجرى على ربى ، فهو الذى سيجزينى على إبلاغ رسالته إليكم ، وهذا كله من ذكر نوح عليه السلام لربه .

﴿ وَأُمِرْتُ إِنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ يعنى أمرنى ربى أن أسلم له وأنقاد لأمره ، مذعنا ، خائفا من عذابه ، راجيا ثوابه ، وهذا من ذكر الله تعالى لعبده ورسوله نوح عليه السلام .

« افرق » اقض . كلمة افرق فى آية أخرى ، ولكن عادة البخارى رحمه الله أنه يذكر النظير مع نظيره ، لاجتماعهما فى المعنى ، ولهذا ذكر قوله تعالى : ﴿ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ لمناسبته مع قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ .

وما ذكره عن مجاهد فى الآية واضح ، ومراده أن المستجير يسمع كلام الله من المبلغ بصوت المبلغ ، ونطقه ، وصوته ونطقه من فعله ، وهو مخلوق ، أما المبلغ المنطوق به ، فهو كلام الله ــ تعالى ــ وصفته ، كما تقدم بيان ذلك من كلام البخارى ــ رحمه الله .

وقوله : « صوابا : حقا فى الدنيا وعمل به » . قال ابن بطال : « يريد قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أى حقا فى الدنيا وعمل به ، فهو الذى يؤذن له فى الكلام ، بين يدى الله بالشفاعة لمن أذن له .

قلت[1] : وهذا وصله الفريابى ، عن مجاهد ، بالسند المذكور .

قال الكرمانى : عادة البخارى أنه إذا ذكر آية لمناسبة الترجمة يذكر معها ما يتعلق بتلك السورة ، التى فيها تلك الآية مما ثبت عنده من تفسير ، ونحوه على سبيل التبعية ، وكأنه لم يظهر له وجه مناسبة هذه الآية الأخيرة بالترجمة .

---

(١) القائل هو الحافظ ابن حجر رحمه الله .

والذى يظهر فى مناسبتها أن تفسير قوله ﴿ صَوَابًا ﴾ يقول الحق والعمل به فى الدنيا يشمل ذكر الله باللسان ، والقلب مجتمعين ، ومنفردين ، فناسب قوله : « ذكر العباد بالدعاء والتضرع » انتهى[1] .

قال : باب قول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ وقوله جل ذكره : ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ .

قال فى اللسان : « الند بالكسر : المثل والنظير ، وهو مثل الشىء الذى يضاده فى أموره ، ويناده — أى يخالفه .

قال الأخفش : الند : الضد ، والشبه ، وقوله : « يجعلون لله أندادًا » أى أضدادا ، وأشباها ، قال : حسان :

أتهجوه ولست له بنـد فشركما لخيركما الفـداء

أى لست له بمثل فى شىء من معانيه »[2] .

وقال ابن جرير فى قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ : الأنداد جمع ند ، والند العدل ، والمثل ، كما قال حسان ، ثم ذكر البيت . ثم قال : يعنى بقوله : ولست له بند : لست له بمثل ، ولا عدل ، وكل شىء كان نظيرا لشىء وشبيها فهو له ند ، ثم ذكر بسنده إلى قتادة ، قال : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ أى عدلاء ، وعن مجاهد : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ أى عدلاء .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٩٠ .

(٢) اللسان جـ ٣ ص ٦٠٧ المرتب .

وعن ابن عباس وابن مسعود : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ أى أكفاء من الرجال تطيعونهم فى معصية الله .

وعن ابن أبى زيد : الأنداد : الآلهة التى جعلوها معه ، وجعلوا لها مثل ما جعلوا له ، وعن ابن عباس : أشباها .

وعن عكرمة : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ أى تقولوا : لولا كلبنا لدخل علينا اللص الدار ، ولولا كلبنا صاح فى الدار ، ونحو ذلك ، فنهاهم الله ــ تعالى ــ أن يشركوا به شيئا ، وأن يعبدوا غيره ، أو يتخذوا له ندا ، وعدلا فى الطاعة ، فقال : كما لا شريك لى فى خلقكم ، وفى رزقكم الذى أرزقكم ، وملكى إياكم ، ونعمتى التى أنعمتها عليكم ، فكذلك فأفردوا لى الطاعة ، وأخلصوا لى العبادة ، ولا تجعلوا لى شريكا وندا من خلقى ، فإنكم تعلمون أن كل نعمة عليكم منى »[1] .

وفى الدر المنثور : « أخرج الطستى ، عن ابن عباس ، أن نافع بن الأزرق . قال له : أخبرنى عن قول الله ــ عز وجل ــ ﴿ أَندَادًا ﴾ ؟ قال : الأشباه والأمثال ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول لبيد :

أحمد الله فلا ند لــه   بيديه الخير ماشا فعــل

وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد ، والبخارى فى الأدب المفرد ، والنسائى وابن ماجه ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، عن ابن عباس قال : قال رجل للنبى ﷺ : ما شاء الله وشئت ، فقال : جعلتنى لله ندا ، ما شاء الله وحده .

وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ،

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١ ص ٣٦٨ ــ ٣٦٩ تحقيق محمود شاكر .

والبيهقى عن حذيفة بن اليمان ، عن النبى ﷺ قال : « لا تقولوا ما شاء الله وفلان ، قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان » وذكر أحاديث فى ذلك[1] .

وهذا يدل على أن جعل الند لله عام فى الأفعال ، والأقوال ، والنيات ، ويكون فى الشرك الأكبر ، والأصغر ، كما فى الرواية عن عكرمة : هو قول الرجل : لولا كلبنا لدخل علينا اللصوص .

وكذلك فى كل ما هو لله فشرك المخلوق فيه ، مثل أن يجعل كلامه تعالى ككلام عباده ، أو صفة من صفاته ، كصفة عباده ، فيكون بذلك جعل لله ندا ، وهذا مراد البخارى رحمه الله من الاستدلال بهذه الآيات التى ذكرها هنا .

قال ابن كثير : « وقال ابن إسحاق : حدثنى محمد بن محمد ، عن عكرمة ، أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره ، وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول ﷺ من التوحيد هو الحق الذى لا شك فيه ، وهكذا قال قتادة .

ثم ذكر عن ابن أبى حاتم بسنده إلى ابن عباس : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ .

قال : الأنداد : هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل ، وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلان ، وحياتى ، ويقول : لولا كلبة هذا ، لأتانا اللصوص ، البارحة ، ولولا البط فى الدار ، لأتى اللصوص .

وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : « لولا الله

---

(١) الدر المنثور جـ ١ ص ٨٧ — ٨٨ .

وفلان ، لا تجعل فيها فلانا ، هذا كله به شرك »[1] .

وهذا تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعظم ، وذلك أن الشرك أن يجعل المخلوق مشاركا لله فى شيء من خصائص الله مطلقا ، كما سبق قريبا فالحلف بغير الله شرك ، سواء كان المخلوق به معظما كالنبى والكعبة ، أو غير معظم ، ويدخل فى ذلك مراد البخارى كما أشرت إليه .

« قال ابن بطال : غرض البخارى فى هذا الباب ، إثبات نسبة الأفعال كلها لله ــ تعالى ــ سواء كانت من المخلوقين خيرا أو شرا ، فهى لله ــ تعالى ــ خلق وللعباد كسب ، ولا ينسب شيء من الخلق لغير الله ــ تعالى ــ فيكون شريكا وندا ، ومساويا له .

وقال الكرمانى : الترجمة مشعرة بأن المقصود إثبات نفى الشريك عن الله سبحانه ــ تعالى ــ فكان المناسب ذكره فى أوائل كتاب التوحيد .

لكن ليس المقصود هنا ذلك ، بل المراد بيان كون أفعال العباد بخلق الله ــ تعالى ــ إذ لو كانت أفعالهم بخلقهم لكانوا أندادا لله ، وشركاء له فى الخلق ولهذا عطف ما ذكر .

وتضمن الرد على الجهمية فى قولهم : لا قدرة للعبد أصلا ، وعلى المعتزلة ، حيث قالوا : لا دخل لقدرة الله ــ تعالى ــ فيها .

والمذهب الحق : « أن لا جبر ولا قدر ، بل أمر بين أمرين »[2] .

يعنى لا جبر كما تقوله الجهمية الذين جعلوا العبد كالآلة ، لا قدرة له ولا اختيار .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٧ ــ ٥٨ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٩١ . .

ولا ينفى تقدير الله تعالى لأفعال العباد فى الأزل ، وخلقها ، كما تقوله المعتزلة ، بل الحق إثبات قدرة العبد ، وأنه يفعل باختياره ، وإرادته لا أحد يجبره على الفعل ، والله ــ جل وعلا ــ خلقه وخلق أفعاله ، وقدر عليه كل ما يجرى عليه قبل إيجاده ، وكتب ذلك ، وعلمه تعالى محيط بكل شيء ونفس فعل العبد ، وإن كان الله خالقه ، فالعبد هو الفاعل لفعله حقيقة فهو المتحرك بالأفعال ، باختياره ، وبه قامت أفعاله ، ومنه صدرت والله خالقه ، وخالق أفعاله .

قال الحافظ : « غرضه هنا الرد على من لم يفرق بين التلاوة والمتلو ، ولذلك أتبع هذا الباب بالتراجم المتعلقة بذلك مثل باب : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ وباب ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِ ﴾ ، وغيرهما .

وهذه المسألة هى المشهورة بمسألة اللفظ ، ويقال لأصحابها اللفظية .

وقد ظن بعضهم أن البخارى خالف أحمد ــ فيها ، وليس كذلك ــ بل من تأمل كلامه لم يجد فيه خلافا معنويا .

لكن العالم من شأنه إذ ابتلى فى رد بدعة يكون أكثر كلامه فى ردها ، دون ما يقابلها .

فلما ابتلى أحمد بمن يقول : القرآن مخلوق ، كان أكثر كلامه فى الرد عليهم حتى بالغ ، فانكر على من يقف ، ولا يقول : مخلوق ، ولا غير مخلوق ، وعلى من قال : لفظى بالقرآن مخلوق ، لئلا يتذرع بذلك من يقول : القرآن بلفظى مخلوق ، مع أن الفرق بينهما واضح لا يخفى عليه ، لكنه قد يخفى على البعض[1] .

---

(١) قوله : « حتى بالغ فأنكر على من يقف » إلى آخر كلامه عن أحمد ، كلام غير سديد ، بل إنكار أحمد رحمه الله ذلك ، لأن الواقف لم يفرق بين الحق والباطل ، والواجب أن يعرف الحق ويقول به ، ولا يقف مترددا ، لأن وقوفه يوهم باطلا .

وأما البخارى ، فابتلى بمن يقول : أصوات العباد غير مخلوقة ، حتى بالغ بعضهم ، فقال : والمداد ، والورق بعد الكتابة .

فكان أكثر كلامه فى الرد عليهم ، وبالغ فى الاستدلال بأن أفعال العباد مخلوقة بالآيات والأحاديث ، وأطنب فى ذلك حتى نسب أنه من اللفظية »[1] .

وقال أبو بكر الضبعى : « لم يزل الله متكلما ، ولا مثل لكلامه ، لأنه نفى المثل عن صفاته ، كما نفى المثل عن ذاته ، ونفى النفاد عن كلامه ، كما نفى الهلاك عن نفسه ، فقال : ﴿ لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى ﴾ وقال : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[2] .

فيجب التفرقة بين ما هو لله صفة وفعلا ، وبين ما هو للمخلوق صفة وفعلا وأن يوحد الله فى خصائصه وحقوقه ، وأن لا يجعل لأحد من الخلق شركة فى صفات الله وأفعاله ، ومن ذلك الفرق بين أفعال التالى لكتاب الله ، وما هو صفة لله وهو كلامه المتلو .

ومذهب أهل السنة أن الله خالق كل شىء . وهو ربه ومالكه ، وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه على كل شىء قدير ، وأنه خلق العبد هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا .

وإن العبد فاعل لأفعاله حقيقة ، وله مشيئة وقدرة حقيقة كما قال تعالى :

= وكذلك قوله : لفظى بالقرآن مخلوق ، أو غير مخلوق ، يوهم باطلا ، لأنه قد يراد باللفظ ، الملفوظ وهو القرآن ، وإذا قال غير مخلوق : يدخل فيه فعل القارئ من حركات لسانه ، وصوته ، وفعل القارئ مخلوق ، فهذا هو مراد أحمد رحمه الله ، ولدقته قال البخارى رحمه الله : أنهم لم يفهموا كلام أحمد ، ولذلك أنكره ابن قتيبة .

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٩٢ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٩٢ .

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ فَمَن شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[2] فبين تعالى أن العباد لهم مشيئة يفعلون بها إذا شاؤا ، وأنها تابعة لمشيئة الله لأنه المالك لكل شيء المتصرف فيه .

وزعمت المعتزلة أن أفعال العباد القبيحة ، من الكفر والمعاصى غير داخلة فى مشيئة الله ، وتقديره ، لأن الله منزه عن فعل القبيح باتفاق المسلمين .

وقالت الجبرية : ليس للعبد فعل فى الحقيقة ، والأفعال كلها لله ، والعبد كاسب لا فاعل ، وقدرة العبد لا تأثير لها فى حدوث مقدورها ، غير أن الله — تعالى — أجرى العادة بخلق مقدورها مقارنا لها ، فيكون الفعل خلقا من الله ، وإبداعا وإحداثا منه تعالى ، وكسبا من العبد لوقوعه مقارنا لقدرته ، والعبد ليس محدثا لأفعاله ، ولا موجدا لها ، وهذا قول الأشعرية . ومع ذلك ينكرون أن يكونوا جبرية ، لأنهم يقولون : نحن نثبت للعبد قدرة حادثة ، والجبرية لا تثبت ذلك .

وفرقوا بين الكسب الذى أثبتوه للعبد ، وبين الخلق الثابت لله بأن الكسب : عبارة عن اقتران قدرة العبد الحادثة بالمقدور ، والخلق هو المقدور بالقدرة القديمة .

وبأن الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه ، والخلق هو الفعل الخارج عن محل القدرة عليه .

وهذا فرق لا حقيقة له ، فإن كون المقدور فى محل القدرة ، أو خارجا

---

(١) الآيتان ٢٨ و ٢٩ من سورة التكوير .

(٢) الآيتان ٢٩ و ٣٠ من سورة الإنسان .

عن محلها لا يعود إلى نفس تأثير القدرة فيه .

والصواب أنه لا فرق بين كون العبد فاعلا الفعل ، أو كاسبا له ، فإن الكسب مرادف للفعل والعمل ، فيقال : فعل وعمل ، وكسب وأوجد ، وأحدث ، وصنع كلها بمعنى واحد .

وعمل العبد ، وصنعه ، وإحداثه ، وكسبه ، مقدور له بقدرته الحادثة وهو قائم فى محل القدرة .

والاقتران الذى ذكروه ، لا يكون كسبا ، ولا فعلا ، وإنما هو تخيل لا حقيقة له .

وأصل خطئهم من عدم التفريق بين الخلق والمخلوق ، والفعل والمفعول وزعمهم أن الله ــ تعالى ــ ليس له أفعال تقوم به ، وأن فعله للشىء هو عين المفعول .

ومن المستقر فى الفطر والعقول أن فاعل الإيمان هو العبد المؤمن ، وفاعل الكفر هو العبد الكافر ، وفاعل الصدق هو الصادق ، وفاعل الكذب هو الكاذب ، وفاعل الظلم هو الظالم ، كما أن فاعل الأكل هو الآكل وفاعل الشرب هو الشارب .

وهكذا كل فعل لابد أن يقوم بالفاعل ، كما أن العالم من قام به العلم والحى من قامت به الحياة ، وكل صفة تقوم بالمتصف بها .

والقرآن مملوء بما يدل على هذا كقوله ــ تعالى ــ ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾[2] وقوله : ﴿ إِنَّ

---

(١) الآية ١٧ من سورة السجدة .

(٢) الآية ١٠٥ من سورة التوبة .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[١] وأمثالها كثير جدا .

واتفق العقل مع الشرع على أن العبد يحمد ، ويذم على فعله .

قال شيخ الإسلام : « قول القائل هذا فعل هذا ، وعمل هذا ، لفظ فيه إجمال ، فإنه تارة يراد بالعمل نفس الفعل ، وتارة يراد مسمى المصدر ، فيقول : فعلت هذا ، أفعله فعلا ، وعملت هذا أعمله عملا ، فإذا أريد بالعمل نفس الفعل الذى هو مسمى المصدر ، كصلاة الإنسان ، وصيامه ، ونحو ذلك ، فالعمل هنا هو المعمول ، وقد اتحد هنا مسمى المصدر والفعل .

وإذا أريد بذلك ما يحصل بعمله كنساجة الثوب ، وبناء الدار ، ونحو ذلك فالعمل هنا غير المعمول ، قال الله تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾[٢] فجعل هذه المصنوعات معمولة للجن .

ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فإنه فى أصح القولين « ما » بمعنى الذى ، والمراد به ما تنحتونه من الأصنام ، كما قال تعالى : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٣] أى والله خلقكم ، وخلق الأصنام التى تنحتونها ، ومنه حديث حذيفة ، عن النبى ﷺ : « إن الله خالق كل صانع وصنعته »[٤] .

لكن قد يستدل بالآية على أن الله خالق أفعال العباد من وجه آخر ، فيقال : إذا كان خالقا لما يعملون من المنحوتات ، لزم أن يكون هو الخالق لتأليف

---

(١) الآية ٢٧٧ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٣ من سورة سبأ .

(٣) الآيتان ٩٥ ، ٩٦ من سورة الصافات .

(٤) رواه البخارى فى خلق أفعال العباد ص ٣٩ .

الذى أحدثوه فيها ، فإنها إنما صارت أوثانا بذلك التأليف ، وإلا فهى بدون ذلك ليست معمولة لهم .

وإذا كان خالقا للتأليف كان خالقا لأفعالهم .

والمقصود أن لفظ الفعل ، والعمل ، والصنع ، وأنواع ذلك كلفظ البناء والخياطة والنجارة ، تقع على نفس مسمى المصدر ، وعلى المفعول .

وكذلك لفظ التلاوة والقراءة ، والكلام ، والقول ، يقع على نفس مسمى المصدر ، وعلى ما يحصل بذلك من نفس القول ، والكلام .

فيراد بالتلاوة ، والقراءة نفس القرآن ، المقروء المتلو ، كما يراد به مسمى المصدر ، فإذا قال القائل : هذه التصرفات فعل الله ، أو فعل العبد ، فإن أراد بذلك أنها فعل الله بمعنى المصدر ، فهذا باطل باتفاق المسلمين ، وبصريح العقل ، وإن أراد أنها مفعولة مخلوقة لله كسائر المخلوقات ، فهذا حق »[1] .

فالذين أنكروا أن يكون لله تعالى فعل يقوم به ، لم يفرقوا بين فعله ومفعوله ، وخلقه ، ومخلوقه .

والفرق واضح ، فأعمال العباد مخلوقة لله ـــ تعالى ـــ مفعولة له ، ليست هى نفس فعله ، وإنما هى فعل العباد ، قائمة بهم ، وهى أيضا مفعولة لهم إذا أريد بالفعل المفعول .

وخلق الله تعالى لمخلوقاته ليس هو نفس مخلوقاته كما تقدم التنبيه على ذلك .

فأفعال العباد مخلوقة لله كسائر مخلوقاته ، ومفعولة له ، وهى فعل العباد حقيقة ، وقائمة بهم حقيقة .

فالكفر ، والكذب ، والظلم ، ونحو ذلك من القبائح يتصف بها من قامت

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٨ ص ١٢١ ـــ ١٢٢ .

به وفعلها ، ولا يتصف بها من خلقها ، وجعلها صفة لغيره .

فكما أن الله ـــ تعالى ـــ لا يكون متصفا بما خلقه فى خلقه من الألوان والروائح ، والطعوم ، فكذلك لا يكون متصفا بالفعل الذى خلقه فى عباده ، وجعله وصفا لهم .

وبهذا تزول شبهة المعتزلة ومن وافقهم ، فى نفيهم الأفعال القبيحة أن تدخل تحت مشيئة الله وخلقه محتجين بأنه تعالى منزه عن القبيح والله أعلم .

قوله : ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أول الآية : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[1] .

ينكر تعالى على المشركين الكافرين به ، الذين يعبدون معه غيره ، من الأوثان التى لا تملك لهم ، ولا لنفسها نفعا ، ولا ضرا ، ومع ذلك يجعلونها نظراء وشبهاء لله رب العالمين ، فى التوجه إليها بالعبادة ، يطلبون منها أن تتوسط لهم عند الله وتشفع لهم ، وهى ملك لله يتصرف فيها كيف يشاء .

والمقصود من الآية أن من سوى المخلوق بالله فى صفة من الصفات ، أو فعل من الأفعال ، أو فى ما يجب له من الحق فقد جعل لله ندا ، وأشرك بالله غيره .

فقول الله ، وكلامه ، لا يشبه قول عباده وكلامهم ، فمن زعم أن قول العباد يشبه قول الله فقد جعل لله ندا ، وكذلك سائر أوصافه .

قوله : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ .

---

(١) الآية ٩ من سورة فصلت .

قال ابن جرير : « يقول تعالى لنبيه ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك من الرسل لئن أشركت ليحبطن عملك يقول : لئن أشركت بالله شيئا يا محمد ليبطلن عملك ، ولا تنال به ثوابا ، ولا تدرك به جزاء إلا جزاء من أشرك بالله .

وهذا من المؤخر الذى معناه التقديم أى أوحى إلى الذين من قبلك من الرسل مثل الذى أوحى إليك ، فاحذر أن تشرك بالله شيئا فتهلك[1] .

وفى هذه الآية تعظيم أمر الشرك لأن الله تعالى وجه الخطاب إلى رسوله ﷺ بأنه لو أشرك لحبط عمله ، وأصبح من الخاسرين ، فكيف بغيره من سائر الناس ، ومثلها قوله ـــ تعالى ـــ بعد ما ذكر فضل الأنبياء ونعمته عليهم : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[2] .

ووجه الاستدلال بالآية التحذير من الوقوع فى أى نوع من أنواع الشرك مثل أن يعتقد أن صفة الله كصفات الخلق ، أو كلامه ككلامهم ، فمن وقع فى ذلك ، فقد وقع فى الشرك المحبط للأعمال ، وصاحبه من الخاسرين .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ هذه الآية فى سياق ثناء الله تعالى على عباده المؤمنين ، الذين يخشونه ، ولا يخشون أحدا غيره ، ويتجهون إليه بالدعاء والعبادة وحده ، ويبيتون ليلهم سجدا لله وقياما ، رجاء ثوابه ، وخوفا من عقابه .

وهذه الآية بمعنى الحديث الآتى ، وقد جاء فى رواية ، أن ابن مسعود لما ذكر الحديث عن النبى ﷺ قال : فنزل تصديق ذلك : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ الآية .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١١ ص ١٦ طبعة بولاق .

(٢) الآية ٨٨ من سورة الأنعام .

والمقصود الثناء على المؤمنين الذين لا يدعون مع الله إلها آخر غيره ، ومثل ذلك الابتعاد عن القول بأن شيئا من أوصاف الله وأفعاله يكون مثل أوصاف المخلوقين وأفعالهم ، تعالى الله وتقدس .

فمن ابتعد عن الشرك كله بأنواعه ، فهو المستحق لثناء الله ، وهو عبد الله المستوجب لوعده بقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[1] .

ولكون الشرك يقع من الناس كثيرا ، وأكثرهم يجهل أنواعه ، ذكر قول عكرمة : « ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ ﴾ ، و ﴿ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ، فذلك إيمانهم ، وهم يعبدون غيره » . يعنى أن إيمانهم هو إقرارهم بتوحيد الربوبية وعلمهم بأن الله هو المتفرد بالخلق .

روى ابن جرير ، عن عكرمة ، فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ قال : هو قول الله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ، فإذا سئلوا عن الله ، وعن صفته ، وصفوه بغير صفته ، وجعلوا له ولدا ، وأشركوا به »[2] .

قوله : « وما ذكر فى خلق أفعال العباد وأكسابهم » يعنى أن أفعالهم ، وأكسابهم مخلوقة لله تعالى ، وإن كانت فعلا لهم حقيقة ، ولا فرق بين الفعل ، والكسب كما قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ فالكسب هو العمل .

والذين يجعلون أفعال العباد ، وأكسابهم فعلا لله تعالى مشركون ،

---

(١) الآيتان ٧٥ ، ٧٦ من سورة الفرقان .

(٢) انظر تفسير الطبرى جـ ١٦ ص ٢٨٧ تحقيق محمود شاكر .

لأنهم جعلوا له ما للمخلوق .

كما أن الفريق الضال الآخر الذين يجعلون العباد خالقين لأفعالهم ، وموجدين لهم مشركون بذلك . وهذا وجه إيراد البخارى رحمه الله للآيات التى سبق ذكرها . وتقدم الكلام على أفعال العباد .

ثم استدل على دخول أفعال العباد فى مخلوقات الله — تعالى — بقوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ فدخلت أفعالهم فى عموم ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ، ودل قوله : ﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ على أنه تعالى : أتقن ذلك ، غاية الإتقان حيث خلقها وجعلها مفعولة للعباد ، واقعة منهم ، بإراداتهم ، واختيارهم ، لم يرغموا عليها ، بل فعلوها راغبين فى فعلها ، مختارين لها ، ولذلك استحقوا عليها الثواب ، والعقاب .

قوله : « وقال مجاهد : ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ يعنى بالرسالة ، والعذاب .

يعنى أن تنزل الملائكة هو فعلهم بأمر الله تعالى لهم طائعين ممتثلين أمر ربهم فالنزول منهم فعل لهم يستوجبون به الثناء من الله لأنهم أطاعوه بذلك فأفعالهم قائمة بهم يفعلونها باختيارهم ، كبنى آدم .

وأما قوله : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ ﴾ فهو فعل الله ، والضمير فى ﴿ لَهُ ﴾ عائد إلى الذكر . فى قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ .

وقوله : ﴿ عِندَنَا ﴾ أراد به بيان أن هذا فعل الله الخاص به .

وبين ذلك بقوله : ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ « المبلغين المؤدين من الرسل »أى المؤدين الرسالة ، كما أمرهم الله .

فالصدق : فعل الصادقين ، والصادق ، هو المتصف بالصدق ، الذى قام به الصدق فعلا له ، فالصدق فعلهم وعملهم ، والله تعالى يسألهم عن عملهم .

والسؤال من الله فعله ــ تعالى ــ وقوله ، يسأل به الرسل ، عن تبليغهم ما أمرهم بإبلاغه لعباده ، وزاد ذلك إيضاحا بقوله :

﴿ وَٱلَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ القرآن : ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ المؤمن ، يقول يوم القيامة : « هذا الذى أعطيتنى عملت بما فيه » .

فبين أن القرآن ــ الذى فسر به الصدق ــ غير التصديق ، بل التصديق فعل المصدق ــ وهو المؤمن ، أو الرسول ــ وهو عمله الذى يثاب عليه .

ولهذا يجيب ربه إذا سأله يوم القيامة : « ماذا عملت بما علمت ؟ » قائلا : هذا الذى أعطيتنى ــ يعنى القرآن ــ عملت بما فيه ، فتبين أن القرآن غير عمل القارىء ، فتحريك اللسان ، والشفتين ، والصوت ، ورفعه ، وخفضه ، هو عمل الرجل الذى يقرأ ، وأما المقروء المتلفظ به . فهو القرآن كلام الله ، وكلام الله غير عمل القارىء ، ولهذا قال : هذا الذى أعطيتنى عملت بما فيه مجيبا ربه .

١٤٤ ــ قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن أبى وائل ، عن عمرو بن شرحبيل ، عن عبد الله ، قال : سألت النبى ﷺ : أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : « أن تجعل لله ندا ، وهو خلقك » ، قلت : إن ذلك لعظيم ، قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك » ، قلت : ثم أى ؟ قال : « ثم أن تزانى بحليلة جارك » .

الذنوب تتفاوت فى العظم ، فبعضها أعظم من بعض ، فيكون ما يترتب عليها من العقوبات كذلك .

وأعظم الذنوب الشرك بالله تعالى ، قال تعالى عن لقمان : ﴿ يَـٰبُنَىَّ

لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[1] فالشرك أعظم الذنوب عند الله ، فلذلك حرم على صاحبه الجنة ، وأخبر أن مأواه النار ، وأنه لا يخرج منها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴾[4] .

فلذلك يتعين على المرء أن يجتهد غاية وسعه فى التعرف على أنواع الشرك ، حتى يجتنبها ، لأنه إذا لم يعرفها يوشك أن يقع فيها وهو لا يشعر ، فيكون فى ذلك هلاكه الأبدى . وتقدم القول فى الند .

قوله : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » أسند الجعل إلى العبد لأنه فعله ولهذا استحق عليه عقاب الله وعذابه .

وقوله : « وهو خلقك » يعنى أن الدلائل على وجوب عبادة الله وحده ، وإخلاص العبادة له واضحة جلية ، مثل كونه تعالى هو المتفرد بالخلق ، والإيجاد من العدم وبالرزق ، فهو المستحق للعبادة وحده .

وقول عبد الله : « إن ذلك لعظيم » يعنى أن عظمه وقبحه مستقر فى نفوس العقلاء ، والناظرين فى شرع الله ، ودلائل وجوب عبادته .

قوله : « قلت : ثم أى ؟ » يعنى ما هو الذنب الذى يلى الشرك فى العظم عند الله .

---

(١) الآية ١٣ من سورة لقمان .
(٢) جزء من الآية ١٦٧ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٧٢ من سورة المائدة .
(٤) الآية ١١٦ من سورة النساء .

« قال : « أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك » . قتل النفس بغير حق عمدا عظيم جدا ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[1] .

وفى الحديث الذى رواه أبو داود ، عن عبادة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال المؤمن معنقا صالحا ما لم يصب دما حراما ، فإذا أصاب دما حراما بَلَّحَ »[2] أى لا يزال مسرعا فى سيره إلى الله ، وإنما يحبسه ويمنعه من السير إصابته الدم الحرام ، ومعنى « بلح » انقطع من العجز والإعياء ، فلم يستطع المشى . وهذا جزء من حديث طويل ، ولفظه :

« عن أم الدرداء ، قالت : سمعت أبا الدرداء يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل ذنب عسى الله أن يغفره ، إلا من مات مشركا ، أو مؤمن قتل مؤمنا متعمدا » .

فقال هانى بن كلثوم سمعت محمود بن الربيع يحدث ، عن عبادة بن الصامت أنه سمعه يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قتل مؤمنا فاعتبط بقتله ، لم يقبل الله منه صرفا ولا عدلا » ، قال لنا خالد : ثم حدثنى ابن أبى زكريا عن أم الدرداء ، عن أبى الدرداء ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزال المؤمن معنقا صالحا ما لم يصب دما حراما ، فإذا أصاب دما حراما بلَّح »[3] .

وعن البراء بن عازب ، أن رسول الله ﷺ قال : « لزوال الدنيا أهون

---

(١) الآية ٩٣ من سورة النساء .

(٢) سنن أبى داود جـ ٤ ص ٤٦٤ .

(٣) انظر السنن جـ ٤ ص ٤٦٣ ــ ٤٦٤ رقم ٤٢٧٠ .

على الله من قتل مؤمن بغير حق »[1] ، والأحاديث فى هذا فيها كثرة .

والقتل مع عظمه يتفاوت ، فبعضه أعظم من بعض ، وأعظمه أن يقتل الرجل ولده ، لأن الله جعل له من الشفقة ، والحنو ، والحب ما لا ينكر ، وأمر الله تعالى بمراعاة حقه ، فإذا بدل مكان الإحسان الواجب له أعظم إساءة وهى القتل استحق على ذلك أعظم العقوبة ، فكيف إذا كان الباعث على القتل خوف الفقر ، وأن يشاركه فى مأكله ، فإنه ينضاف إليه بذلك جرائم أخرى قوله : « قلت : ثم أى ؟ قال : ثم أن تزانى بحليلة جارك » ، الزنا جريمة نكراء ويتفاوت جرمه حسب قرب المزنى بها وبعدها عنه ، وحسب الحقوق التى تجب مراعاتها أكثر فى الشرع .

فإذا كانت ذات قرابة من جهة النسب فالزنا بها أعظم ، وكذلك إذا كانت زوجة قريب منه ، أو زوجة من له حق الجوار ، فإن جريمة ذلك أعظم مما لو زنا بمن هى بعيدة عنه قرابة وجوارا .

قوله : « أن تزانى » يدل على المفاعلة ، ومعنى ذلك أن تطاوعه المرأة على الفاحشة ، وفى ذلك دليل على أنها إذا لم تطاوعه فالذنب أعظم .

والحليلة : هى التى يحل وطؤها ، وتحل معه فى فراش واحد .

والشاهد من الحديث قوله : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » .

فالإنسان هو الذى يجعل الند ، ويفعل ذا حقيقة ، فهو فعله الذى يباشره ويقوم به ، ويتصف به ، فإذا فعل ذلك فهو المشرك ، ولذلك استحق العذاب العظيم ، وأضيف إليه الذنب لأنه صدر منه .

---

(١) رواه ابن ماجه فى السنن جـ ٢ ص ٨٧٤ رقم ٢٦١٩ قال المنذرى : إسناده حسن ورواه النسائى رقم ٣٩٨٧ .

فتبين الفرق بين قول الله ـــ تعالى ـــ وفعله ، وبين قول العبد وفعله ، وهو ما أراده المؤلف .

فإذا قرأنا القرآن فإنما نقرؤه بأصواتنا المخلوقة التى لا تماثل صوت الرب تعالى ، وما نقرؤه من القرآن فهو كلام الله ـــ تعالى ـــ مبلغا عنه ، لا مسموعا منه ، وإنما سمعه منه جبريل ، ونحن نقرؤه بحركاتنا ، وأصواتنا .

فالكلام كلام البارى ، والصوت صوت القارىء . وهذا ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ ، فهو يسمع كلامه ممن يقرؤه عليه ويبلغه إياه ، لا من الله تعالى .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

روى مسلم ، عن أنس ، قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال : « أتدرون مم أضحك ؟ قال : قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : « من مخاطبة العبد ربه ، يقول : يا رب : ألم تجرنى من الظلم ؟ قال : يقول : بلى ، قال : فيقول : فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى ، قال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام الكاتبين شهودا ، قال : فيختم على فيه ، فيقال : لأركانه انطقى ، قال : فتنطق بأعماله ، قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام قال : فيقول : بعدًا لكُنَّ ، وسحقا ، فعنكن كنت أناضل »[1] .

« قال ابن بطال : غرض البخارى فى هذا الباب إثبات السمع لله ، وأطال فى تقرير ذلك وتقدم فى أوائل التوحيد فى قوله : ﴿ وَكَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

والذى أقول : أن غرضه فى هذا الباب إثبات ما ذهب إليه أن الله يتكلم

---

(١) مسلم جـ ٨ ص ٢١٧ .

متى شاء »[1] .

والظاهر أن غرضه فى هذا الباب قريب من الذى قبله ، وهو بيان أن أعمال العباد واقعة بفعلهم ، وأن الكلام يكون صفة لمن تكلم به ، فالأعضاء حين تشهد على صاحبها تنطق بكلام لها حقيقة ، مضاف إليها على الحقيقة فهو صفة لها لأنه قام بها ، فكذلك كل متكلم فكلامه فعله ووصفه .

وهذا يدل على أن المتكلم بكلام لغيره لا يكون ذلك الكلام مضافا إليه وصفا له ، بل هو ناقل أو مبلغ ، وأما حركة لسانه وشفتيه ، وتصويته به فهى أفعاله ، والمصوت به الذى تحرك اللسان والشفتان به هو كلام ذلك الغير ، كما تقدم .

وأعمال العباد كلها مخلوقة محدثة .

قال البخارى رحمه الله : « وكل من لم يعرف الله بكلامه ، أنه غير مخلوق فإنه يُعَلَّمُ ، ويُرَدُّ جهله إلى الكتاب والسنة ، فمن أبى بعد العلم به كان معاندا ، لقوله : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾[2] .

فأما ما احتج به الفريقان لمذهب أحمد[3] ، ويدعيه كل لنفسه ، فليس بثابت كثير من أخبارهم ، وربما لم يفهموا دقة مذهبه ، بل المعروف عن أحمد ، وأهل العلم أن كلام الله غير مخلوق ، وما سواه مخلوق ، وأنهم كرهوا البحث ، والتنقيب عن الأشياء الغامضة ، وتجنبوا أهل الكلام ، والخوض ،

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٩٦ .

(٢) الآية ١١٥ من سورة النساء .

(٣) يعنى : الذين يقولون : ألفاظنا ، وتلاوتنا للقرآن مخلوقة ، فإن حقيقة قول هؤلاء أن القرآن مخلوق ، والفريق الثانى الذين يقولون : تلاوتنا للقرآن غير مخلوقة ، وألفاظنا به غير مخلوقة .

والتنازع ، إلا فيما جاء فيه العلم ، وبينه رسول الله ﷺ .

حدثنا إسحاق ، أنبأنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده ، قال : سمع النبى ﷺ قوما يتدارءون فقال : « إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه بعضا ، ما علمتم منه فقولوا وما لا ، فكلوه إلى عالمه » .

وكل من اشتبه عليه شيء فأولى أن يكله إلى عالمه ، كما قال عبد الله بن عمرو ، عن النبى ﷺ ولا يدخل فى المتشابهات إلا ما بين له .

حدثنا أحمد بن أشكاب ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن عمارة بن القعقاع ، عن أبى زرعة ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » ثم ذكر حديث ابن مسعود الآتى .

ثم قال : حدثنا موسى ، عن وهيب ، عن داود ، عن الشعبى ، فى بيع المصاحف « أنه لا يبيع كتاب الله ، وإنما يبيع عمل يديه » .

ثم ذكر آثارًا فى ذلك ، وذكر قول النبى ﷺ فى أبى موسى : « أوتى مزمارا من مزامير آل داود » ، وقوله : « زينوا القرآن بأصواتكم » ثم قال :

« وعامة هذه الأخبار مستفيضة عند أهل العلم ، ولا ريب فى تخليق مزامير آل داود ، وندائهم ، لقوله عز وجل : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ثم ذكر قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ ، ثم قال : « فبين أن التلاوة من النبى ﷺ وأصحابه ، وأن الوحى من الرب » . ثم ذكر أحاديث وآيات وآثارًا كثيرة ، ثم قال : « ومما يقوى قول الشعبى فى بيع المصاحف أنه إنما يبيع عمل يديه ، قول زياد بن لبيد — رضى الله عنه — للنبى ﷺ :

« كيف يرفع العلم وقد ثبت ووعته القلوب »[1] فهذا الذى ذكره يبين ما أراده هنا ، وهو ظاهر من الآية التى ترجم بها ، عند التأمل ، لأنها فى سياق ما ذكره الله عن أهل النار ، من كلام أعضائهم ، قال الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ ﴾ الآية .

قال ابن كثير : « أى تقول لهم الأعضاء والجلود ، حين يلومونها على الشهادة عليهم : « ما كنتم تكتمون منا الذى كنتم تفعلون ، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر ، والمعاصى ، ولا تبالون منه فى زعمكم ، لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم »[2] .

وبهذا يتبين أن هذا قول الأعضاء ذكره الله عنها على ما سيقع يوم القيامة .

ولهذا لا يقال : إن هذا ليس كلام الله ، بل هو كلام الأعضاء حكاه الله عنها ، لأن الأعضاء لم تتكلم إلى الآن ، وإنما ستتكلم يوم القيامة ، والله عز وجل علم ما سيكون وما تتكلم به ، فذكره لعباده ليحذروا الوقوع فيما يوجب شهادة الأعضاء عليهم ، فهو كلام الله تكلم به ، وأخبر به عما سيقع وحتى الكلام الذى وقع وذكره تعالى عمن قاله ، فإن ذلك يكون كلامه كما حكى عن الأنبياء وقومهم وغيره .

والمقصود أن الاستدلال بالآية المذكورة على أن أعمال الإنسان وأقواله ـــ ومن ذلك قول الأعضاء ـــ تقع منه على الحقيقة ، وتقوم بهم ، وعليها

---

(١) انظر كتاب خلق أفعال العباد ص ٧٠ ـــ ١٠٥ تحقيق بدر .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٩٦ طبعة الحلبى .

يستحقون الجزاء ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وأن أعمال العبد مخلوقة لله تعالى لأن الله هو الخالق وحده ، وجعلهم عاملين لها حقيقة ، وتقدم بيان ذلك .

١٤٥ ــ قال : « حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا منصور ، عن مجاهد ، عن أبى معمر ، عن عبد الله ــ رضى الله عنه ــ قال : اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشى ، أو قرشيان وثقفى ــ كثيرة شحم بطونهم ، قليلة فقه قلوبهم ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع ما نقول ؟ فقال الآخر : يسمع إذا جهرنا ، ولا يسمع إن أخفينا ، وقال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا ، فإنه يسمع إذا أخفينا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ الآية .

قوله : « كثيرة شحم بطونهم » كثيرة صفة لشحم وأنثه لأن شحم مضاف إلى البطون ، وكذا صفة القلوب ، والمعنى أن هؤلاء كبار الجسوم لكن فقههم قليل ، ولهذا صدرت منهم تلك المقالة الدالة على قلة فهمهم .

والشاهد من الآية لمقالتهم هذه قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ كما فى قول أحدهم : إن جهرنا سمع ، وإن أخفينا لم يسمع ، والآخر الذى هو أفقه من هذا علق علم الله بذلك بقوله : إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا فهو شاك فى ذلك ، ولهذا وصفهم عبد الله ــ رضى الله عنه ــ بقلة الفقه ، وتقدم وجه استدلال المؤلف بذلك .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ ، ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ ، وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين ، لقوله

تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

وقال ابن مسعود عن النبى ﷺ : « إن الله عز وجل يحدث من أمره ما يشاء ، وإن مما أحدث أن لا تكلموا فى الصلاة » .

يريد بهذا بيان أن الله ـــ تعالى ـــ يحدث ما يريد إحداثه ، فى أى وقت أراد ، وأن إحداثه ذلك من أفعاله التى هى أوصاف له ، فيحدث الأمر من أمره ـــ تعالى ـــ والكلام ويطلق عليه أنه حدث ، ومحدث ، لأنه وجد بعد ما قبله ويسمى كلامه حديثا ، ويطلق عليه أنه حادث ، ومحدث بمعنى الجديد الذى تكلم به بعد كتبه السابقة له ، ولهذا قال : وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين .

فمن ذلك كلامه ، ومخاطبته لمن يريد أن يخاطبه من خلقه ، وأمره لمن يأمره ، ونهيه ، وإجابته لمن يدعوه ، وإحياؤه لمن يريد حياته وإماتته لمن يريد أن يميته ، وإذلال من يريد ذله ، وإعزاز من يشاء ، وهدايته من يشاء ، وإضلال من يشاء ، وتصرفه فى خلقه وملكه كيف يشاء .

« قال عبيد بن عمير : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ قال : من شأنه أن يجيب داعيا ، ويعطى سائلا ، أو يفك عانيا ، أو يشفى سقيما » .

وقال مجاهد : « كل يوم يجيب داعيا ، ويكشف كربا ، ويجيب مضطرا ، ويغفر ذنبا » .

وقال قتادة : « لا يستغنى عنه أهل السماوات ، والأرض ، يحيى حيا ، ويميت ميتا ، ويربى صغيرا ، ويفك أسيرا ، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم ، ومنتهى شكواهم » .

وقال سويد بن جبلة : إن ربكم كل يوم فى شأن ، فيعتق رقابا ، ويعطى

رغابا ، ويقحم عقابا »[1] .

وروى ابن جرير ، عن عبد الله بن مثيب الأزدى ، قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ فقلنا : يا رسول الله وما ذاك الشأن ؟ قال : « أن يغفر ذنبًا ، ويفرج كربًا ، ويرفع قومًا ويضع آخرين »[2] وعلقه البخارى جازما به ، عن أبى الدرداء ، موقوفا »[3] ، ورواه ابن ماجة مرفوعًا[4] .

ونقل الحافظ فى كلامه على هذه الترجمة قول ابن بطال ، وقول الكرمانى وغيرهما ، وأطال فيما هو بعيد عن مراد البخارى ، لأنهم يحاولون شرح ما ذكره على ما يتفق مع عقيدة الأشاعرة ، مع أنه مباين لها .

قوله : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ قيل هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ أى دنت القيامة وقربت ، والناس عنها غافلون لا هون فى دنياهم .

وإذا جاءهم ذكر من الله جديد ، قريب العهد بالله ، فيه تذكيرهم وأمرهم بالأخذ لما فيه سعادتهم ، وفيه عظتهم عن التشاغل بالدنيا ونسيان الآخرة استمعوه سماع غافل لاه لاعب .

قال ابن كثير : « أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحى الذى أنزل الله على رسوله . فقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ أى جديد إنزاله »[5] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٧٠ طبعة الشعب .
(٢) انظر تفسير الطبرى جـ ٢٧ ص ٧٩ .
(٣) انظر البخارى جـ ٦ ص ١٨١ .
(٤) انظر السنن جـ ١ ص ٧٣ رقم ٢٠٢ ورواه ابن حبان فى صحيحه ، عن أبى الدرداء ، مرفوعا قال : « من شأنه أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ويضع آخرين » الإحسان جـ ٢ ص ٣٨ .
(٥) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٢٥ .

وقال أبو جعفر بن جرير ــ رحمه الله ــ « يقول ــ تعالى ذكره ــ : ما يحدث الله من تنزيل شيء من هذا القرآن للناس ، ويذكرهم به ، ويعظهم إلا استمعوه ، وهم يلعبون »[1] .

وقوله : « لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » لما ذكر الله ــ جل وعلا ــ حكمه فى المطلقة ، وأمره بأن تطلق لعدتها ، وأمر بإحصائها ، ونهى عن إخراجها من بيت زوجها ، مادامت فى العدة ، وأنها لا تخرج منه إلا أن تأتى بفاحشة مبينة ، وأخبر ــ تعالى ــ أن هذا من حدوده التى حدها ، ونهى عن تعديها ، وأن من تعداها فقد ظلم نفسه . بعد ذلك قال تعالى : ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ .

يعنى يحدث للزوجين حالا غير ما كانا عليه وقت الطلاق ، بأن تتبدل الكراهية رغبة ، والبغض حبا ، وأن يراجع الرجل نفسه فيندم على ما حصل منه ، والزوجة كذلك .

قال ابن جرير : « ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ : يقول ــ جل ثناؤه ــ : لا تدرى ما الذى يحدث ، لعل الله يحدث بعد طلاقكم إياهن رجعة »[2] .

والمقصود الذى أراده المؤلف ــ رحمه الله ــ من هاتين الآيتين ، أن الله تعالى يتكلم بعد أن لم يكن تكلم بذلك الكلام بعينه ، ويأمر ، وينهى بعد أن لم يكن أمر بذلك المأمور ، وذلك المنهى عنه بعينه لمن وجه إليه الأمر والنهى ، وهذا هو معنى الحدث الذى أراد بيانه ، وهو الفعل المتجدد الذى يتعلق بمشيئته تعالى سواء كان كلاما ، أو أمرا ، أو نهيا ، أو إحياء لميت ، أو إماتة لحى ، أو هداية ضال ، أو ضلال غاوٍ ، أو تغيرا لحكم شرعه قبل

---

(١) جـ ١٧ ص ٢ .

(٢) تفسير الطبرى جـ ١٢ ص ٨٧ .

ذلك ، أو إذن به ، أو تغيير ما فى نفوس بعض خلقه ، أو غير ذلك مما يشاؤه ويريده ـــ جل وعلا ـــ ، كما تقدم فى معنى قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ . قال شيخ الإسلام : « هذا يدل على أن الذكر منه محدث ومنه ما ليس بمحدث ، لأن النكرة إذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره ، كما لو قال : ما يأتينى من رجل مسلم إلا أكرمته ، وما آكل إلا طعاما حلالا ، ونحو ذلك .

ويعلم أن المحدث فى الآيتين ليس هو المخلوق ، الذى يقوله الجهمية .

ولكنه الذى أنزل جديدا ، فإن الله كان ينزل من القرآن شيئا بعد شيء فالمنزل أولا قديم بالنسبة إلى المنزل آخرا ، وكل ما تقدم على غيره فهو قديم فى لغة العرب ، كما قال : ﴿ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ وقال : ﴿ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾[1] .

ومراد الإمام البخارى ـــ رحمه الله ـــ من هاتين الآيتين الرد على من ينكر أفعال الله تعالى من القول ، والفعل ونحوهما مما يتعلق بمشيئته وإرادته وقدرته ، فإن هذا الأصل أنكرته الجهمية ، والمعتزلة ومن تشعب عنهما ظانين أنه لا يمكن إثبات حدوث العالم وإثبات وجود الخالق له ـــ تعالى ـــ إلا بإثبات حدوث الأجسام ، ولا يمكن إثبات حدوث الأجسام إلا بإثبات حدوث ما يقوم بها من الصفات والأفعال المتعاقبة ، التى يسمونها الحوادث ، فلذلك قالوا : كل من قامت به الحوادث أو كان محلا لها فهو حادث .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٢ ص ٥٢٢ .

وهذا الذى حدا بهم إلى إنكار صفات الله ، وأفعاله القائمة به المتعلقة بمشيئته وقدرته .

وعليهم توجه رد الإمام البخارى ـــ رحمه الله ـــ فى هذا الكتاب ، كما قال : « باب ما جاء فى تخليق السماوات والأرض وغيرهما من الخلائق ، وهو فعل الرب ، وأمره ، فالرب ـــ تعالى ـــ بصفاته وفعله وأمره وكلامه هو الخالق المكون ، غير المخلوق ، وما كان بفعله وأمره وتخليقه وتكوينه ، فهو مفعول مكون مخلوق » .

ثم بعد ذلك قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ ولم يقولوا : ماذا خلق ربكم » .

ثم ذكر قول عبد الله بن مسعود : « إذا تكلم الله بالوحى » إلى آخره ، وذكر حديث عبد الله بن أنيس وفيه : « فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب » .

وذكر حديث أبى هريرة : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها » إلى آخره ، وحديث أبى سعيد الخدرى : « يقول الله يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فينادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار » إلى آخر ما ذكره من الأبواب التى من تدبرها ، وتأمل ما تحتها من النصوص تبين له دقة فهمه رحمه الله ، وتبين له بطلان مذهب أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة والأشعرية وغيرهم .

ولكن المشكلة أننا لم نعثر على شرح لكتابه ، على نهجه ، يوضح مراده ويبسط حججه ، ويبينها إلى الآن ، بل كل الشروح التى وصلت إلينا تقرر عكس مراده ، والله المستعان .

والمقصود أن الإمام البخارى رحمه الله يرى أن الله تعالى يوصف بأنه يحدث

ما يشاء من القول ، والأمر ، والفعل ، وهذا ما دل عليه العقل والفطرة وكتب الله ، ولهذا قال : « وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين ، لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ » .

فكما أنه تعالى لا مثل له فى ذاته ، كذلك فى أفعاله ، وأوصافه وأحداثه التى يحدثها مما يتعلق بمشيئته ، وهى أفعاله ، وهذا هو الحق الذى دلت عليه نصوص الكتاب والسنة .

قوله : « وقال ابن مسعود ، عن النبى ﷺ إن الله عز وجل يحدث من أمره ما شاء ، وإن مما أحدث أن لا تكلموا فى الصلاة » .

هذا طرف من حديث رواه أبو داود ، وأحمد ، والنسائى ، وابن حبان فى صحيحه وصححه ، من طريق عاصم بن أبى النجود ، عن أبى وائل ، عن عبد الله ، قال :

« كنا نسلم فى الصلاة ، ونأمر بحاجتنا ، فقدمت على رسول الله ﷺ وهو يصلى ، فسلمت عليه فلم يرد على السلام ، فأخذنى ما قدم وما حدث ، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال : « إن الله — عز وجل — يحدث من أمره ما يشاء ، وإن الله — تعالى — قد أحدث أن لا تكلموا فى الصلاة ، فرد على السلام »[1] .

وفى رواية النسائى : « وإن مما أحدث » ، وأصل القصة فى الصحيحين .

فقوله ﷺ : « إن الله يحدث ما يشاء ، وإن مما أحدث أن لا تكلموا فى الصلاة » موافق لقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ ولا يصف الله — أعلم منه — تعالى — ولا أعلم من رسوله بعده ، ومن لم يرض بما قاله الله ورسوله فبعدا له .

١٤٦ — قال : « حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا حاتم بن

---

(١) انظر سنن أبى داود جـ ١ ص ٢١٢ باب رد السلام فى الصلاة وانظر المسند جـ ١ ص ٤٠٩ ، ٤١٥ ، ٤٣٥ وانظر الإحسان جـ ٤ ص ٧ وانظر النسائى جـ ٣ ص ١٩ رقم ١٢٢١ .

وردان ، حدثنا أيوب ، عن عكرمة عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ قال : « كيف تسألون أهل الكتاب عن كتبهم وعندكم كتاب الله أقرب الكتب عهدا بالله ، تقرءونه محضا لم يشب » .

يعنى أن الله قد أغناكم بما جاءكم به نبيكم ﷺ فقد أنزل الله عليه آخر الكتب التى قضى الله ـــ تعالى ـــ أن تنزل إلى الأرض من عنده ، فهو أحدثها بالله ، وأقربها عهدا به ، وقد وصل إلينا خالصا ، ليس فيه ما يداخله من غيره ، فكيف بعد ذلك يسوغ للمسلم أن يذهب يسأل اليهود ، أو النصارى عما فى أيديهم من كتبهم .

وقد أعلمنا الله ـــ تعالى ـــ أنهم حرفوها ، وزادوا فيها ونقصوا منها ، ثم كذبوا على الناس بأن قالوا : هذا من عند الله ، كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[3] إلى غير ذلك مما ذكره الله تعالى عنهم من الكذب ،

---

(١) الآية ٧٩ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٧٨ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ٧١ من سورة آل عمران .

والتزوير ، وتحريف كلام الله عن مواضعه ، وتغييره وتبديله .

والشاهد فيه قوله : « وعندكم كتاب الله أقرب الكتب عهدا بالله » . وهذا معنى كونه محدثا ، يعنى أنه قريب عهده بالله تعالى بأن تكلم به وأنزله بعد الكتب السابقة ، بل تكلم به تعالى فى مناسبات تعرفون كثيرا منها .

ومعنى قوله : « محضا لم يشب » : يعنى أنه لم يخالطه شيء من غيره .

١٤٧ ــ قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى ، أخبرنى عبيد الله بن عبد الله ، أن عبد الله بن عباس قال : يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذى أنزل الله على نبيكم أحدث الأخبار بالله ، محضا لم يشب ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله ، وغيروا فكتبوا بأيديهم ، قالوا : هو من عند الله ليشتروا بذلك ثمنا قليلا ، أو لاينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ، فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذى أنزل عليكم » .

هذا يدل على أنه كان من المسلمين فى عهد ابن عباس من يسأل أهل الكتاب ويكتب أخبارهم وذلك فى آخر عهد الصحابة ، وكان الصحابة ينهون عن ذلك ، ويحذرون منه ، لأنهم يعرفون كذبهم ، وتحريفهم لكتاب الله ، ولاستغنائهم بما جاء به نبيهم ﷺ .

وقد روى البخارى أن أمير المؤمنين معاوية ــ رضى الله عنه ــ أنه كان يحدث رهطا من قريش بالمدينة ، وذكر كعب الأحبار ، فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين ، الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب »[1] أى نجرب عليه الكذب فى أخباره .

---

(١) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٣٣٣ .

« روى الإمام أحمد ، وابن أبى شيبة من حديث جابر ، أن عمر أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من أهل الكتاب ، فقرأه عليه ، فغضب ، وقال : « لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به ، أو بباطل ، فتصدقوا به ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى » ورجاله ثقات إلا أن مجالدا فيه ضعف »[1] .

ولهذا نهى ابن عباس عن سؤالهم ، وبين أنه ليس هناك ما يدعو إلى سؤالهم وقد أغنى الله المسلمين بكتابه الذى تولى حفظه بنفسه ، فلا يقدر أحد على تغييره وتبديله ، وهو أيضا آخر الكتب نزولا من عند الله فهو أحدثها به نزل عليكم بعد كل الكتب التى يحدثونكم عنها .

مع أن الذى عندهم قد اختلط الحق فيه بالباطل ، فلا يتميز ، وما كان فيه من حق فهو منسوخ بالقرآن الذى جاء به خاتم النبيين ﷺ .

ومما يدل على أن أهل الكتاب لا يريدون الحق كونهم لا يسألون المسلمين عما جاء به نبيهم ، وهذا مما يمنع من سؤالهم . وقد سبق ذكر بعض الآيات التى تنص على تحريفهم وتبديلهم الكتاب بما يكذبونه ليشتروا به من حطام الدنيا ما استطاعوا ، فمثل هؤلاء حرام سؤالهم ، لأنهم يضلون من سألهم .
والشاهد قوله : « وكتابكم الذى أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله » ، والحديث هو الجديد ، ضد القديم ، وهذا معنى قوله فى الآية ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ أى جديد وقوله : « محضا لم يشب » أى خالصا ، لم يخالطه شيء من غيره .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ وفعل النبى ﷺ حين ينزل عليه الوحى » .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٣٤ .

يقصد بهذا التمييز بين فعل العبد ، وفعل الرب تعالى وصفاته .

فتحريك النبى ﷺ لسانه بالوحى هو فعله ، ولكن المحرك به اللسان هو كلام الله وصفته ، ولهذا قال :

« وفعل النبى ﷺ حين ينزل عليه الوحى ، يعنى أنه كما قال ابن عباس : يعالج من الوحى شدة ، وكان يحرك شفتيه بالقرآن ، وذلك عندما يتلوه عليه جبريل ، فيحرك لسانه وشفتيه بما يقرؤه جبريل خوفا من أن يفوته شيء منه ، فنهاه الله تعالى عن ذلك حيث يقول :

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ أى تستعجل بحفظه مخافة أن يفوتك فلا تحفظه .

وتكفل الله له بأن يحفظه إياه ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ يقول تعالى لنبيه : لا تستعجل إذا سمعت جبريل يقرأ عليك القرآن فتحرك به لسانك وشفتيك مخافة أن لا تحفظه ، بل أنصت ، واستمع لما يقرأه جبريل ، فنحن نجمعه ، فلا يذهب منه شيء .

و « قرآنه » يعنى قراءته التى يقرؤها عليك جبريل ، فإذا قرأه فاتبع قرآنه » فكان ﷺ يستمع لما يقرؤه عليه جبريل ، فإذا انتهى قرأه النبى ﷺ .

وهذا الذى كان النبى ﷺ يفعله من تحريك شفتيه ولسانه وما يعالج من الشدة ، كل ذلك فعله وعمله ، وهو مخلوق .

أما ما يحرك به لسانه وشفتيه ، فهو كلام ربه جل وعلا ، ومثل ذلك جبريل .

قال المؤلف فى بدء الوحى ــ بسنده عن ابن عباس ، فى قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل

شدة ، وكان مما يحرك شفتيه ، فقال ابن عباس : فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله ﷺ يحركهما ، وقال سعيد : أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما فحرك شفتيه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴾ قال : جمعه لك فى صدرك ، وتقرأه . ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾ قال : فاستمع له وأنصت . ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ ثم إن علينا أن تقرأه ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبى ﷺ كما قرأه »[1] ، وسيأتى قريبا .

وقال فى خلق أفعال العباد : « سمعت عبد الله بن سعيد يقول : سمعت يحيى بن سعيد يقول : مازلت أسمع من أصحابنا يقولون : إن أفعال العباد مخلوقة ، ـــ يعنى حركاتهم ، وأصواتهم ، واكتسابهم ، وكتابتهم مخلوقة ، فأما القرآن المتلو المبين المثبت فى المصاحف ، المسطور ، المكتوب ، الموعى فى القلوب ، فهو كلام الله ، ليس بمخلوق ، قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ ، فذكر أنه يحفظ ويسطر »[2] .

وقال أيضا : « فأما المداد ، والرق ، ونحوه فإنه مخلوق ، كما أنك تكتب « الله » ، فالله فى ذاته هو الخالق ، وخطك ، واكتسابك من فعلك خلق ، لأن كل شىء دون الله بصنعه ، وهو خلق ، وقال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾[5] .

وقال أيضا : « وقال النبى ﷺ لجبريل حين سأله عن الإيمان ، قال : أن

---

(١) البخارى جـ ١ ص ٤ .
(٢) خلق أفعال العباد ص ٤٧ .
(٣) الآية ٢ من سورة الفرقان .
(٤) الآية ٤ من سورة الزخرف .
(٥) خلق أفعال العباد ص ٤٩ .

تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، قال : فإذا فعلت ذلك فأنا مؤمن ؟

قال : نعم ، ثم قال : ما الإسلام ؟ قال : تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله .

فذكره ، قال : إذا فعلت ذلك فأنا مسلم ؟ قال : نعم .

فسمى الإيمان ، والإسلام ، والشهادة ، والإحسان ، والصلاة بقراءتها وما فيها من حركات الركوع ، والسجود فعلا للعبد »[١] .

وقال : « قال الله عز وجل : ﴿ لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ، ولكنه كلام الله تلفظ به العباد ، والملائكة ، وبَيَّنَ ذلك ما حدثنى به عبد العزيز ابن عبد الله ــ وذكر سنده ــ إلى النبى ﷺ قال : « إذا أحب الله عبدا ، نادى جبريل : يا جبريل أحب فلانا ، فينوه بها جبريل فى حملة العرش ، فيحبه أهل العرش ، فيسمع أهل السماء السابعة لغط أهل العرش ــ وذكره »[٢] .

فحب جبريل ، ونداؤه لأهل العرش وأهل السماوات هو فعل جبريل ، وهو مخلوق .

وأما حب الله للعبد ونداؤه لجبريل فهو فعله تعالى .

وقال أيضا : « قال معاوية : لو شئت أن أحكى لكم قراءة رسول الله ﷺ لفعلت .

وسئل النبى ﷺ : أى الناس أحسن قراءة ؟ قال : « الذى إذا سمعته رأيت عليه أنه يخشى الله عز وجل » .

---

(١) المصدر ص ٥٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٢ ــ ٧٣ .

ويذكر عن سعد ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ خير الذكر الخفى .

وقال تعالى : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾[٢] .

وسمع معاذا قارئا يرفع صوته بالقرآن ، فقال : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ » .

حدثنا مسدد ، حدثنا معتمر ، سمعت أبى ، سمعت أبا عثمان يقول : ما سمعت صنجا قط ، ولا بربطا ، ولا مزمارًا أحسن صوتا من أبى موسى ، إلا فلانا ، إن كان ليصلى بنا فنود أنه قرأ البقرة من حسن صوته .

ويذكر عن عبد الرحمن بن غنم ، عن معاذ أنه قال : يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول ، ويكتب علينا ؟ قال : وهل يكب الناس على مناخرهم فى جهنم إلا حصائد ألسنتهم » .

فبين النبى ﷺ أن أصوات الخلق ، وقراءتهم ، ودراستهم وتعليمهم ، وألسنتهم مختلفة ، بعضها أحسن ، وأزين ، وأحلى ، وأصوت ، وأرتل ، وألحن ، وأعلى ، وأخف ، وأغض ، وأخشع .

وقال تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾[٣] ، وأجهر ، وأخفى ، وأمد ، وأمهر ، وألين ، وأخفض من بعض »[٤] .

---

(١) الآية ٥٥ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٢٠٥ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ١٠٨ من سورة طه .

(٤) خلق أفعال العباد ص ٧٢ ــ ٧٣ .

قوله : « وقال أبو هريرة : عن النبى ﷺ : « قال الله ـــ تعالى ـــ أنا مع عبدى إذا ذكرنى ، وتحركت بى شفتاه » .

هذا التعليق وصله المؤلف فى خلق أفعال العباد(1) .

ومراده من الحديث أن قوله : « وتحركت بى شفتاه » وكذا قوله : « إذا ذكرنى » أنه فعل العبد وعمله الذى يجازيه الله عليه ، والشفتان واللسان تتحرك بذكر الله واسمه وصفته ، لابذاته تعالى .

فمثل ذلك قراءة القرآن ، فإن اللفظ والصوت والحركة فعل العبد ، وهو مخلوق ، وأما ما يلفظ به ويقرؤه فهو كلام الله تعالى ، وقد تكرر هذا لأن المؤلف يكرره ، لأنه قد بلى بمن يقول قراءة العباد غير مخلوقة .

قال رحمه الله : « القراءة هى التلاوة ، والتلاوة غير المتلو ، وقد بينه أبو هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ عن النبى ﷺ قال : اقرءوا إن شئتم : يقول العبد : « الحمد لله رب العالمين » ، فيقول الله : حمدنى عبدى ، يقول العبد : « الرحمن الرحيم » ، فيقول ـــ عز وجل ـــ أثنى على عبدى ، يقول العبد : « مالك يوم الدين » فيقول الله : مجدنى عبدى ، يقول العبد : « إياك نعبد ، وإياك نستعين » ، فيقول الله : هذه بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل » .

فبين أن سؤال العبد غير ما يعطيه الله للعبد ، وأن قول العبد غير كلام الله ، هذا من العبد الدعاء ، والتضرع ، ومن الله الأمر والإجابة .

ثم روى عن أبى الدرداء : « سئل رسول الله ﷺ أفى كل صلاة قراءة ؟ قال : « نعم » ، فقال رجل من الأنصار : وجبت هذه ، قال النبى ﷺ : « اقرءوا إن شئتم » .

---

(1) ص ١٤١ تحقيق بدر .

فالقراءة لا تكون إلا من الناس ، وقد تكلم الله بالقرآن من قبل ، وكلامه قبل خلقه .

وسئل النبي ﷺ أى الصلاة أفضل ؟ قال : « طول القنوت » فذكر النبي ﷺ أن بعض الصلاة أطول من بعض ، وأخف وأن بعضهم يزيد على بعض فى القراءة ، وبعضهم ينقص ، وليس فى القرآن : زيادة ولا نقصان ، فأما التلاوة فإنهم يتفاضلون فى الكثرة والقلة والزيادة والنقصان .

وقد يقال : فلان حسن القراءة ، ورديء القراءة ، ولا يقال : حسن القرآن ، ورديء القرآن .

وإنما نسب إلى العباد القراءة ، لا القرآن ، لأن القرآن كلام الرب جل ذكره .

والقراءة فعل العبد ، لا يخفى معرفة هذا القدر إلا على من أعمى الله قلبه ، ولم يوفقه ، ولم يهده سبيل الرشاد .

وليس لأحد أن يشرع فى أمر الله — عز وجل — بغير علم ، كما زعم بعضهم : أن القرآن بألفاظنا ، وألفاظنا به شيء واحد ، التلاوة هى المتلو ، والقراءة هى المقروء .

فقيل له : إن التلاوة فعل التالى ، وعمل القارئ ، فرجع ، وقال : ظننتهما مصدرين .

فقيل له : هلا أمسكت ، كما أمسك كثير من أصحابك ؟ . ولو بعثت إلى من كتب عنك ، فاسترددت ما أثبت ، وضربت عليه ؟

فزعم أن كيف يمكن هذا وقد قلتُ ، ومضى ؟

فقيل له : كيف جاز لك أن تقول فى الله — عز وجل — شيئا لا يقوم به شرح وبيان ، إذ لم تميز بين التلاوة والمتلو ؟

فسكت إذ لم يكن عنده جواب »[1] .

١٤٨ ــ قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا أبو عوانة ، عن موسى بن أبى عائشة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ قال : كان النبى ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، وكان يحرك شفتيه ، فقال لى ابن عباس : أحركهما لك كما كان رسول الله ﷺ يحركهما ، فقال سعيد : أنا أحركهما كما كان ابن عباس يحركهما ، فحرك شفتيه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَه ﴾ ، قال : جمعه فى صدرك ، ثم تقرؤه ، ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾ ، قال : فاستمع له وأنصت ، ثم إن علينا أن تقرأه ، قال : فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل عليه السلام استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبى ﷺ كما أقرأه » .

قوله : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ أى لا تحرك بالقرآن لسانك ، فدل على أن المحرك به غير الحركة والتحرك ، فذلك فعل العبد ، بخلاف المحرك به فإنه القرآن .

قوله : « يعالج من التنزيل شدة » أى أنه كان يتحمل هما ، ويعانى كربا وخوفا من أن يذهب عنه ما يلقيه جبريل إليه ، فلذلك كان يحرك لسانه وشفتيه بترديد ما يقوله جبريل ، لعله يثبت معه ، وقد وصف ابن عباس لسعيد بالتمثيل مما يدل على أن ابن عباس قد شاهد رسول الله ﷺ فى تلك الحالة .

---

(١) خلق أفعال العباد ص ١٠٤ ــ ١٠٥ والظاهر أن هذه المحاورة بين البخارى وبعض من خالفه فى ذلك .

فلما نهاه ربه تعالى : عن ذلك الفعل ، وأخبره أنه سوف يثبته فى صدره . وإنما عليه أن يستمع إلى جبريل ، وأن الله يتولى جمعه فى صدر النبى ﷺ وحفظه ترك ما كان يفعله وهذا من الحفظ للقرآن الذى أخبر تعالى أنه يحفظه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ .

فكان النبى ﷺ يستمع إلى جبريل ، فإذا انتهى قرَأه النبى ﷺ كما قرأه جبريل .

قوله : « لتعجل به » أى إن تحريكه لسانه به ليتعجل بحفظه خوفا من فواته عليه أو نسيانه ، فقال الله تعالى ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ قال ابن عباس : فى صدرك ثم تقرؤه كما كان جبريل يقرؤه .

قوله : ﴿ وقُرْءَانَهُ ﴾ يعنى قراءته ، والمقصود قراءة جبريل له ، وبهذا سميت القراءة قرآنا .

قوله : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾ أى إذا قرأه عليك جبريل الذى أمره الله بذلك ، فاتبع قراءته ، فإسناد الفعل إلى ضمير المتكلم المعظم ، الذى هو الله ـــ تعالى ـــ لأنه جل وعلا هو الآمر ، وهو المتكلم به وجبريل رسوله إلى محمد ﷺ والرسول يبلغ رسالة من أرسله .

قال فى خلق أفعال العباد : « حدثنا عبيد الله بن موسى ، وذكر سنده إلى سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ ؟ فقال : قال ابن عباس : كان يحرك لسانه إذا نزل عليه ، فقيل ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ يخشى أن يتفلت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ أى جمعه فى صدرك ﴿ وقُرْءَانَهُ ﴾ أن تقرأه ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ ﴾ يقول : أنزل عليه ، ﴿ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أن نثبته على لسانك »[1] وفى رواية : « قال :

---

(١) ص ٨٤ ورواه فى الصحيح جـ ٦ ص ٢٠٣ .

علينا أن نجمعه فى صدرك ﴿ وَقُرْءَانَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾ فإذا أنزلناه فاستمع ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ علينا أن نبينه بلسانك ، قال : فكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله »[1] .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ .

قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله : « يقول جل ثناؤه : أخفوا قولكم ، وكلامكم أيها الناس ، أو أعلنوه وأظهروه ، ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ يقول : إنه ذو علم بضمائر الصدور التى لم يتكلم بها ، فكيف بما نطق به وتكلم به ، أخفى ذلك أو أعلن ، لأن من لم تخف عليه ضمائر الصدور ، فغيرها أحرى أن لا يخفى عليه .

﴿ أَلَا يَعْلَمُ ﴾ الرب جل ثناؤه ﴿ مَنْ خَلَقَ ﴾ من خلقه ، يقول : كيف يخفى عليه خلقه الذى خلق ، ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ﴾ بعباده ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ بهم وبأعمالهم »[2] .

قال الحافظ : « أشار بهذه الآية إلى أن القول أعم من أن يكون بالقرآن أو بغيره .

فإن كان بالقرآن ، فالقرآن كلام الله ، وهو من صفات ذاته فليس بمخلوق لقيام الدليل القاطع بذلك ، وإن كان بغيره فهو مخلوق ، بدليل قوله تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ بعد قوله : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

قال ابن بطال : « مراده إثبات العلم لله صفة ذاتية ، لاستواء علمه بالجهر

---

(١) انظر الصحيح جـ ٦ ص ٢٠٣ .

(٢) تفسير الطبرى جـ ٢٩ ص ٥ طبع بولاق .

من القول والسر »[1] .

قلت كلا القولين لم يردهما البخارى ، أما قول ابن بطال ، فلا يتفق مع أحاديث الباب ، وظاهر أنه لم يرد ما زعمه ابن بطال .

وأما قول الحافظ : فينطبق على مذهب الأشاعرة الذين يجعلون كلام الله صفة ذاتية ــ يعنى أنه معنى قائم بذات الله تعالى ، والبخارى ــ رحمه الله ــ من أبعد الناس عن مثل هذا القول الباطل ، المتناقض .

والصواب أنه أراد بيان أن أفعال الله وأوصافه لا تشتبه بأفعال العباد وأوصافهم ، فإن أقوال العباد الموصوفة بأنهم يجهرون بها أو يسرونها هى أقوالهم وأعمالهم التى يجازيهم ربهم عليها بالثواب أو العقاب .

أما كلام الله تعالى وفعله فلا يكون وصفا للعباد ، بأنه قول لهم أو فعل لهم .

وقد بين مراده هذا فى كتابه خلق أفعال العباد ، فقال : « فأما المتلو فقول الله الذى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾[3] وقال عبد الله بن عمرو ، عن النبى ﷺ : « يمثل القرآن يوم القيامة رجلا ، فيشفع لصاحبه » ، وهو اكتسابه وفعله .

قال الله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[4] ، قال صعصعة ، عم الفرزدق لما سمع النبى ﷺ يقرأ هذه الآية : حسبى قد علمت فيم الخير ، وفيم الشر .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠١ .

(٢) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٣) الآية ٢٩ من سورة الجاثية .

(٤) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

وقد دخل فى ذلك قراءة القرآن ، وغيرها .

وقد بين الله ذلك قولا للمخلوقين حين قال : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[1] .

فأخبر أن العمل من الحياة ، ثم بين خلقه فقال : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[2] .

مع أن الجهمية ، والمعطلة إنما ينازعون أهل العلم على قول الله ، أن الله يتكلم ، وإن تكلم فكلامه مخلوق ، فقالوا : إن القرآن بعلم الله مخلوق ، فلم يميزوا بين تلاوة العباد ، وبين المقروء .

وقد رفع أبو بكر صوته بقوله : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾[3] »[4] .

يعنى أن الصوت الذى صوت به أبو بكر ورفعه هو من عمله وصفته ، أما المصوت به فهى آية من كتاب الله ، وهو كلام الله ، فيجب التفريق بين ما هو من فعل العبد وصفته ، وبين ما هو من فعل الرب وصفته .

وبهذا يتضح مراد البخارى ، وأنه ليس كما ذكر الحافظ ، وابن بطال ، والغريب أنه ذكر عن ابن المنير ما هو الصواب ، ولم يقتنع به فيما يظهر .

قال ابن المنير : « قصد البخارى الإشارة إلى النكتة التى كانت سبب محنته حيث قيل عنه : أنه قال : لفظى بالقرآن مخلوق ، فأشار بالترجمة إلى أن تلاوة الخلق تتصف بالسر والجهر ، وذلك يستدعى كونها مخلوقة » .

---

(١) الآية ٢ من سورة الملك .

(٢) الآيتان ١٣ و ١٤ من سورة الملك .

(٣) جزء من الآية ٢٨ من سورة غافر .

(٤) خلق أفعال العباد ص ٧٤ ــ ٧٥ .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِ ﴾ ثم قوله : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ تنبيه على أن قولهم مخلوق ، وقوله: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ يعنى بقراءتك دل على أنها فعله ، وقوله : « من لم يتغن بالقرآن » فأضاف التغنى إليه دل على أن القراءة فعل القارئ »[1] .

قوله : « يتخافتون » : يتسارون ، بيان لقوله تعالى : ﴿ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾[2] بأن المخافتة من الإسرار ، وذلك من أعمالهم .

١٤٩ ــ قال : « حدثنى عمرو بن زرارة ، عن هشيم ، أخبرنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ قال : نزلت ، ورسول الله مختف بمكة ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ، ومن أنزله ، ومن جاء به ، فقال الله لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم ، ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ .

فقوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ واضح فى أن المقصود القراءة ، وأن الجهر فعل النبى ﷺ ، وكذا الإخفات الذى نهى عنه ، ومثلهما التوسط بينهما كل ذلك فعله ، ولذلك صح أن ينهى عنه ، ولا يقول أحد بأن النهى عن القرآن ، أو عن الصلاة .

وبينه بقوله : « فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ، ومن جاء به » ، فنهاه الله تعالى عن رفع الصوت به لئلا يسبه المشركون ، كما نهاه عن الإسرار به لئلا يخفى على أصحابه ، وأمره بأن يقرأه قراءة يسمع بها أصحابه الذين معه ، ولا يسمعه المشركون الذين

---

(١) المتوارى ص ٤٢٨ .

(٢) الآية ١٠٣ من سورة طه .

خارج البيت الذى هو فيه ، وهذا معنى قوله : وابتغ بين ذلك سبيلا .

فتبين بهذا أن القراءة غير المقروء ، وأن الصوت غير المصوت به ، وأن الجهر والإسرار ، والتوسط بينهما كل ذلك فعل القارئ ، التالى ، وهو من عمله الذى يؤمر به ، أو ينهى عنه ، ويجازى عليه .

أما المقروء ، والمصوت به فهو قول من كان ذلك القول له ، وصفته .

فإن كان من القرآن فهو قول الله ـــ تعالى ـــ وإن كان من غيره فهو قول ذلك الغير الذى قاله مبتدءا .

وقول عائشة فى الآية المذكورة : أنها نزلت فى الدعاء ، لا يخالف ما ذكره ابن عباس ، لأن الآية تنزل فى سبب معين ويدخل فى معناها غير ذلك المعين الذى نزلت من أجله .

وقد أمر الله تعالى بإخفاء الدعاء بقوله تعالى : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾[2] مع أن القراءة والصلاة من دعاء العبادة .

ووجه الدليل من الآية واضح وبين فيما سبق .

١٥٠ ـــ قال : « حدثنا إسحاق ، حدثنا أبو عاصم ، أخبرنا ابن جريج ، أخبرنا ابن شهاب ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » ، وزاد غيره « يجهر به » .

« ليس منا » يعنى من المسلمين ، وهو وعيد لمن لم يفعل ذلك .

والأولى أن لا يتعرض لمثله بالتأويلات التى تخرج الكلام عن مراد المتكلم .

وسبق القول بأن الصواب فى التغنى أنه تحسين الصوت وتزيينه بالقرآن .

---

(١) الآية ٥٥ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٢٠٥ من سورة الأعراف .

وجاء الأمر به كما رواه المؤلف رحمه الله فى خلق أفعال العباد ورواه غيره قال : « حدثنا عمر بن حفص ، حدثنا أبى عن الأعمش ، سمع طلحة ، عن عبد الرحمن بن عوسجة ، عن البراء ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : « زينوا القرآن بأصواتكم »[1] .

وتفسير التغنى بالجهر لا ينافى ما ذكرته ، لأن السلف يفسرون الكلام ببعض مادل عليه ، ومقصودهم بهذا التفسير أن لا يدخل فيه ما يشبه الغناء فإنه مكروه كراهة شديدة ، أو محرم .

قال الكرمانى : « لم يتغن به » أى يجهر بقراءة القرآن ، وقيل يستغنى به .

وأشار بالترجمة إلى أن تلاوة الناس تتصف بالجهر ، والإسرار ، وذلك يدل على أنها مخلوقة لله تعالى ، وكذا قوله : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ دليل على أن قولهم مخلوق ، وكذا قوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ أى بقراءتك يدل على أنها فعله ، وكذا قوله : « من لم يتغن بالقرآن » أضاف الفعل إليه »[2] .

وقال أيضا : « يجهر به » يتغنى ، ومعناه يجهر به بتحسين الصوت ، وتحزينه وترقيقه ، ويستحب ذلك ما لم تخرجه الألحان عن حد القراءة ، فإن أفرط حتى زاد حرفا ، أو أخفى حرفا فهو حرام »[3] .

وقال الخطابى : « أن العرب كانت تولع بالغناء والنشيد فى أكثر أحوالها فلما نزل القرآن أحب أن يكون هِجِّيراهم مكان الغناء ، فقال : ليس منا من لم يتغن بالقرآن »[4] .

والشاهد من الحديث أن التغنى ، والجهر فعل العبد ، وهو مخلوق .

وأما المتغنى به المجهور به فهو كلام الله تعالى .

فتبين بذلك الفرق بين أفعال العباد ، وأوصافهم ، وأوصاف أعمالهم وبين فعل الله ، ووصفه ، ومرادنا بفعله الذى هو وصفه ، لا مفعوله كما هو اصطلاح الأشاعرة .

---

(١) ص ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٣ من طرق عدة وأحمد جـ ٤ ص ٢٨٣ وابن أبى شيبة جـ ٢ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .
(٢) شرح الكرمانى جـ ٢٥ ص ٢١٩ .
(٣) المصدر جـ ١٩ ص ٣٠ .
(٤) المصدر جـ ١٩ ص ٣١ .

قال : « باب قول النبي ﷺ : رجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل يقول : لو أوتيت مثل ما أوتى هذا فعلت كما يفعل .

فبين أن قيامه بالكتاب هو فعله » .

هذه الترجمة كالتى قبلها ، وكذا الأبواب الآتية كلها فى بيان أن أعمال العباد منوطة بهم يفعلونها باختيارهم ، وأنها مخلوقة مثلهم .

وذلك مثل أصواتهم وتحريك ألسنتهم وشفاههم ، وحفظهم ودعائهم ، وتبليغهم ، وصلاتهم ، وكون الإنسان خلق هلوعا جزوعا منوعا ، فهذه أوصاف الإنسان ، والله خلقه كذلك .

وكذا روايتهم ، وبيانهم عن معانى كلام الله ، وأصواتهم حسنها وقبيحها ، ومهارتهم بالقرآن وغيره ، وكتابتهم ، وأدواتهم التى يكتبون بها ، وغير ذلك كلها عمل لهم ، وهم وأعمالهم مخلوقون .

فقوله : « آتاه الله القرآن » يعنى يسر له حفظه ، وأقدره عليه ، فحفظه وعمل به .

« فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار » أى يتلوه ويتهجد به فى الصلاة وخارجها أوقات الليل والنهار ، وهذا من أفضل الأعمال التى يؤجر عليها العبد .

فدل ذلك على أن تلاوته القرآن من عمله وعمله مخلوق ، فلزم أن تكون غير المتلو .

فالتلاوة عمل العبد ، وفعله ، والمتلو قول الرب تعالى وصفته كما تقدم .

« ورجل يقول : لو أوتيت مثل ما أوتى هذا فعلت كما يفعل » . هذا يبين أن التلاوة ، والقيام بالقرآن فعل التالى ، وعمله كما هو واضح .

ولهذا قال : « لو أوتيت مثل ما أوتى هذا فعلت كما يفعل » . قال البخارى رحمه الله : « فبين أن قيامه بالكتاب هو فعله » .

وذكر ما ذكره هنا فى كتابه خلق أفعال العباد بنصه[١] ثم ذكره بسنده قال ابن المنير : « ثبت عن البخارى أنه قال : من نقل عنى أنى قلت لفظى بالقرآن مخلوق فقد كذب ، وإنما قلت : إن أفعال العباد مخلوقة ، قال : وقد قارب الإفصاح فى هذه الترجمة بما رمز إليه فى التى قبلها »[٢] .

قوله : « وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ .

أى من الدلالات الواضحة على وحدانية الله ، ووجوب عبادته ورجوعكم إليه للحساب والجزاء ، وأن الأمر والملك كله له ، خلق السماوات والأرض ، وما فيهما من العجائب ، والآيات الدالة على الله ، ومن ذلك اختلاف ألسنتكم ، أى أصواتكم بحيث لا يلتبس صوت واحد بآخر على كثرتهم ، وكذا اختلاف اللغات ، واختلاف الألوان ، فهذا بشرته بيضاء ، وهذا سوداء ، وبين ذلك .

والمقصود أن إضافة الألسنة إلى الناس يدل على أنها أعمالهم وأوصافهم فإذا قرأ القارىء كلام الله ـــ تعالى ـــ فالصوت صوت القارىء والكلام كلام البارى .

فكما أن الألوان صفتهم فكذلك النطق ، والتكلم ، والتصويت .

قال فى خلق أفعال العباد ، بعد أن ذكر هذه الآية : « فمنها العربى، ومنها العجمى ، فذكر اختلاف الألسنة والألوان ، وهو كلام العباد » .

---

(١) ص ١١٨ تحقيق عميرة و ص ١٩٦ بدر .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٣ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُون مِّما أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[1] .

قوله : « وقال جل ذكره : ﴿ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ » .

قال الحافظ : « الآية الأولى : المراد منها اختلاف ألسنتكم » لأنها تشمل الكلام كله ، فتدخل القراءة ، وأما الثانية فعموم فعل الخير يتناول قراءة القرآن والذكر ، والدعاء ، وغير ذلك ، فدل على أن القراءة فعل القارئ »[2] .

وقال المصنف فى خلق أفعال العباد : ﴿ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ ﴾ . فأثبت الخير منهم فعلا »[3] .

يعنى أن الله ــ تعالى ــ أمر عباده أن يفعلوا الخير ، فدل على أن ذلك فعلهم ومن فعل الخير قراءتهم القرآن ، وذكرهم لله تعالى ، ودعاؤهم إياه ، فالقراءة والذكر والدعاء فعل لهم يثابون عليه كما تقدم .

١٥١ ــ قال : « حدثنا قتيبة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحاسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل ، وآناء النهار ، فهو يقول : لو أوتيت مثل ما أوتى هذا ، لفعلت كما يفعل ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه فى حقه فيقول : لو أوتيت مثل ما أوتى عملت فيه مثل ما يعمل » .

قد ذكر هذا الحديث فى فضائل القرآن بأتم من هذا اللفظ ، ونصه :

---

(١) ص ١٩٥ ــ ١٩٦ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٢ .

(٣) ص ١٩٧ .

« أن رسول الله ﷺ قال : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل علمه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل ، وآناء النهار ، فسمعه جار له ، فقال : ليتنى أوتيت مثلما أوتى فلان ، فعملت مثل ما يعمل ، ورجل آتاه الله مالا ، فهو يهلكه فى الحق ، فقال رجل : ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل » .

وترجم له هناك بقوله : « باب اغتباط صاحب القرآن » فجعل هذا من الغبطة ، وليس من الحسد ، وتسميته حسدا من باب التجوز .

قال الحافظ : « معنى قوله : « لا تحاسد إلا فى اثنتين » أى لا رخصة فى الحسد إلا فى خصلتين ، أو لا يحسن الحسد ـــ إن حسن ـــ ، وأطلق الحسد مبالغة فى الحث على تحصيل الخصلتين »[1] .

وقال النووى : قال العلماء : الحسد قسمان : حقيقى ، ومجازى ، فالحقيقى : تمنى زوال النعمة عن صاحبها ، وهذا حرام بإجماع الأمة ، مع النصوص الصحيحة .

وأما المجازى : فهو الغبطة ، وهو أن يتمنى مثل النعمة التى على غيره ، من غير زوالها عن صاحبها ، فإن كانت من أمور الدنيا كانت مباحة ، وإن كانت طاعة فهى مستحبة ، والمراد من الحديث ، لا غبطة محبوبة إلا فى هاتين الخصلتين ، وما فى معناهما »[2] .

قوله : « آتاه الله القرآن » أى منَّ عليه بحفظه ، وهى من أعظم المنن ، فإذا انضم إلى ذلك العمل به تمت عليه نعمة الله ، وذلك الذى قصد بقوله : « فهو يتلوه آناء الليل ، وآناء النهار » ومعنى : يتلوه : يقرؤه ، ويعمل به .

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٧٣ .
(٢) شرح مسلم جـ ٦ ص ٩٧ .

وآناء الليل والنهار : ساعاتهما ، يعنى أنه يلازم ذلك فى غالب أوقاتهما .

قوله : « فهو يقول : لو أوتيت مثل ما أوتى هذا لفعلت كما يفعل » هذا هو الذى أطلق عليه بأنه حسد ، وهو حسد جائز ، لأنه يتمنى الخير من غير ضرر بالغير .

فهو لم يتمن زوال ما أوتى صاحب النعمة ، كما يفعل إخوان الشياطين ، ولكنه تمنى أن يكون مثله ، قد أوتى القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار .

وكذلك الآخر الذى تمنى أن يكون له من المال مثل ما للمنفق ماله فى وجوه الخير .

ولم يرد زوال النعمة عن ذلك المنفق .

والشاهد من الحديث قوله : « آتاه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار » فحفظ القرآن ، وتلاوته ، والقيام به كل ذلك عمل الإنسان ، وهو مخلوق أما القرآن المحفوظ فى الصدور ، والمتلو المقوم به فهو كلام الله جل وعلا .

١٥٢ ــ قال : « حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، قال الزهرى ، عن سالم ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ قال : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل ، وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار » .

هذا الحديث كالذى قبله فنكتفى بما تقدم .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ .

قال الكرمانى : « لابد فى الرسالة من ثلاثة أمور ، المرسِل ، والمرسَل إليه ،

والرسول ، ولكل منهم أمرٌ ، للمرسِل الإرسال ، وللرسول التبليغ ، وللمرسَل إليه القبول والتسليم »[1] .

قلت بقى أمر رابع ، وهو الرسالة التى يرسل بها الرسول ، وهى أوامر الله ونواهيه ، وحكمه لمن أرسل إليهم ، أما الإرسال فهو تكليف الرسول بالرسالة واكتفى عن ذلك بقوله : « وللمرسَل إليه القبول والتسليم » لأن القبول والتسليم يكون للرسالة .

قال ابن جرير : « أمر الله نبيه بإبلاغ أهل الكتاب والمشركين ما أنزل الله عليه فيهم ، من معايبهم ، وما أمرهم به ، ونهاهم عنه ، وأن لا يشعر نفسه حذرا منهم أن يصيبوه بمكروه إذا قام فيهم بأمر الله ، وأن لا يتقى إلا الله ، فإنه كافيه كل أحد ، ودافع عنه كل مكروه .

وأعلمه أنه إن قصر عن إبلاغ شىء مما أنزله إليه فيهم فهو من عظيم ما ارتكب من الذنب بمنزلة ما لو لم يبلغ من الرسالة شيئا » ثم روى عن ابن عباس : « إن كتمت آية مما أنزل عليك من ربك لم تبلغ رسالاتى »[2] .

ومقصوده بهذا الباب أن إبلاغ الرسالة من الرسول فعل له يثيبه الله عليه ، وأن الكلام الذى جاء به يبلغه صفة لربه ، وأنه ليس فيما بلغه ما يدل على قول الذين يقولون بخلقه ، أو خلق شىء منه .

قال فى خلق أفعال العباد ، بعد ما ذكر قوله ﷺ : « ألا رجل يحملنى إلى قومه ؟ فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى » .

فبين النبى ﷺ أن الإبلاغ منه ، وأن كلام الله من ربه ، ولم يذكر عن أحد من المهاجرين والأنصار ، والتابعين لهم بإحسان خلاف ما وصفنا ، وهم

---

(١) شرح الكرمانى للبخارى جـ ٢٥ ص ٢٢١ .
(٢) تفسير الطبرى جـ ١٠ ص ٤٦٧ ملخصا .

الذين أدوا الكتاب والسنة بعد النبى ﷺ قرنا بعد قرن »[1] يعنى أنه ليس فيما بلغه النبى ﷺ شيء مما يقوله الجهمية وأشباههم .

وقال : « ما جاء فى قول الله عز وجل : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ ، وقول النبى ﷺ : « بلغوا عنى ولو آية » ، « وليبلغ الشاهد الغائب » ، وأن الوحى قد انقطع ، ثم ذكر حديث عائشة « من زعم أن محمدا كتم شيئا من الوحى ، فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ .

وقال صالح : ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى ﴾[2] وقال شعيب : ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾[4] .

فبين أن الرسالة من الله ، والإبلاغ من الرسل ، ثم روى خطبته ﷺ يوم النحر ، وفيها : « اللهم هل بلغت ، فليبلغ الشاهد الغائب ، ولا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » .

وقال ابن عباس : « والذى نفسى بيده إنها الوصية إلى أمته » .

وروى عنه أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : « ما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولكن بعثنى الله إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت

---

(١) خلق أفعال العباد ص ٦٠ .

(٢) الآية ٧٩ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ٩٣ من سورة الأعراف .

(٤) الآية ٢٨ من سورة الجن .

لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوه إلى أجل لأمر الله ، حتى يحكم الله بينى وبينكم »[1] .

وذكر أحاديث فى هذا المعنى .

وقال أيضا : « وقال الله عز وجل : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ فذلك كله مما أمر به ، ولذلك قال : « وأقيموا الصلاة » فالصلاة بجملتها طاعة الله ، وقراءة القرآن من جملة الصلاة ، فالصلاة طاعة الله ، والأمر بالصلاة قرآن ، وهو مكتوب فى المصاحف ، محفوظ فى الصدور ، مقروء على اللسان ، والقراءة والحفظ والكتابة مخلوق ، وما قرئ وحفظ وكتب ليس بمخلوق .

ومن الدليل عليه أن الناس يكتبون « الله » ويحفظونه ، ويدعونه ، فالدعاء والحفظ ، والكتابة من الناس مخلوق ، ولاشك فيه .

والخالق الله بصفته .

ويقال له : أترى القرآن فى المصحف ؟ فإن قال نعم ، فقد زعم أن من صفات الله ما يرى ، وهذا رد لقول الله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ فى الدنيا . ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ .

وإن قال : يرى كتابة القرآن، فقد رجع إلى الحق .

ويقال له : هل تدرك الأبصار إلا اللون ؟ فإن قال : لا[2] . قيل له : وهل يكون اللون إلا فى الجسم ؟ فإن قال : نعم ، فقد زعم أن القرآن جسم يرى »[3] .

وقال أيضا : « قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن

---

(١) خلق أفعال العباد ص ١٢٥ ــ ١٣٨ .
(٢) أى اعترف بأن الأبصار لا تدرك إلا اللون .
(٣) خلق أفعال العباد ص ١١٥ ــ ١١٦ .

رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ، فذكر إبلاغ ما أنزل إليه ، ثم ذكر فعل تبليغ الرسالة ، فقال : إن لم تفعل فما بلغت رسالته » فسمى تبليغه الرسالة وتركه فعلا .

فلا يمكن لأحد أن يقول على الرسول : « إنه لم يفعل ما أمر به من الرسالة » .

ثم روى عن ابن عباس ، أن النبى ﷺ خطب الناس يوم النحر ثم رفع رأسه إلى السماء فقال : « اللهم هل بلغت ؟ اللهم هل بلغت ؟ اللهم هل بلغت ؟ » .

قال ابن عباس والذى نفسى بيده إنها الوصية إلى أمته ، فليبلغ الشاهد الغائب ، وذكر حديث أبى الأحوص ، عن النبى ﷺ قال : « وأتتنى رسالة من ربى ، فضقت بها ذرعا ، ورأيت أن الناس سيكذبوننى ، فقيل لى : لتفعلن ، أو لنفعلن بك »[1] يعنى أنه إذا بلغ فقد فعل ما أمر به وتلاوته ما أنزل عليه من تبليغه ، وذلك فعله .

ومقصوده من الآية أن تبليغ الرسالة ، وعدمه كلاهما فعل للعبد وهو مخلوق ، والرسالة هى أمر المرسل ، ونهيه وقوله ، وهو الله تعالى وذلك ليس بمخلوق .

وقوله : ﴿ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ ﴾ أى تفعل التبليغ لعموم ما أنزله الله إليك ، ولا تذر منه شيئا ، وهذا يدل على بطلان ما لم يبلغه من الأعمال ، والاعتقادات وغيرها ، لأنه ﷺ بلغ كل ما أنزله الله عليه .

وقال الحافظ : « احتج أحمد بهذه الآية على أن القرآن غير مخلوق . لأنه

(١) المرجع نفسه ص ٧٥ ــ ٧٦ .

لم يرد فى شيء من القرآن ، ولا من الأحاديث أنه مخلوق ، ولا ما يدل على ذلك .

وذكر عن الحسن البصرى أنه قال : « لو كان ما يقول الجعد[1] حقا لبلغه النبى ﷺ »[2] .

قوله : « وقال الزهرى : من الله ـــ عز وجل ـــ الرسالة ، وعلى الرسول ﷺ البلاغ ، وعلينا التسليم » .

يعنى أن الرسالة من الله أمرا وقولا له ، وذلك مما يضاف إليه فعلا ووصفا ، وعلى الرسول البلاغ ، وهو : إيصال أمر الله وقوله إلى الناس ، وإفهامهم إياه ، وأمرهم بقبوله ، وترغيبهم على ذلك ، وتخويفهم من عذاب الله إن لم يقبلوا رسالاته ويمتثلوا أمره ويجتنبوا نهيه ، وهذا عمل الرسول ، وفعله الذى يثيبه الله عليه ، أو يعاقبه على تركه .

« وعلينا التسليم » أى التسليم للرسالة بقبولها والانقياد لها ، وعدم المعارضة ، والعمل بفعل المأمور ، واجتناب المحظور ، وهذا فعل العباد الذى عليه يترتب الثواب ، أو العقاب عند المخالفة .

قال الحافظ : « أخرجه الحميدى فى النوادر ، ومن طريقه الخطيب[2] قال الحميدى : « حدثنا سفيان ، قال : قال رجل للزهرى : يا أبا بكر ، قول النبى ﷺ : ليس منا من شق الجيوب ، ما معناه ؟ فقال الزهرى : من الله العلم ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم » . وأخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب الأدب »[3] ورواه ابن أبى عاصم فى الزهد ، ولفظه : « أخبرنا دحيم ، أخبرنا

---

(١) هو الجعد بن درهم أول من أنكر صفات الله تعالى ومحبته لعباده فقتله خالد بن عبد الله القسرى أحد قواد بنى أمية سنة ٣٢ .

(٢) فى الجامع .

(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٤ .

الوليد بن مسلم ، عن الأوزاعى ، عن الزهرى ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، قال الأوزاعى قلت للزهرى : يا أبا بكر ما هذا الحديث ؟ قال : فقال : من الله العلم ، ومن الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم »[١] .

قوله : « وقال : ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ .

قال ابن الجوزى فيه خمسة أقوال :

أحدها : ليعلم محمد ﷺ أن جبريل قد بلغ إليه ، قاله ابن جبير .

الثانى : ليعلم محمد ﷺ أن الرسل قبله قد بلغوا رسالات ربهم ، وأن الله قد حفظهم ، ودفع عنهم ، قاله قتادة[٢] .

الثالث : ليعلم مكذبو الرسل أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ، قاله مجاهد .

الرابع : ليعلم الله — عز وجل — ذلك موجودا ظاهرا يجب به الثواب ، فهو كقوله : ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ ﴾[٣] .

الخامس : ليعلم النبى ﷺ أن الرسل قد أتته ، ولم تصل إلى غيره ذكره الزجاج[٤] .

قلت : هذا بمعنى الأول ، ومعناه ! ليعلم محمد ﷺ أن الملائكة التى تنزل بالوحى أو يحرسون من ينزل به من استراق الشياطين . أنهم جاءوه بما أرسلوا به كاملا .

---

(١) كتاب الزهد لابن أبى عاصم ص ٣٣ — ٣٤ .

(٢) اختار هذا القول ابن جرير .

(٣) الآية ١٤٢ من سورة آل عمران .

(٤) زاد المسير جـ ٨ ص ٣٨٦ .

والقول الثانى هو الأولى ، والأقرب ، ويليه الرابع ، ولكن وجوب الثواب وجوب تفضل وكرم من الله تعالى ، والقول الثالث داخل فى معنى الآية ، فإن الله تعالى يؤيد رسله بالآيات الدالة على صدقهم ، حتى يتيقن قومهم صدقهم .

والمراد من الآية هو مادلت عليه الآية الأولى، فإن الرسل لهم أفعال وأعمال يعملونها ، وتطلب منهم ، وتضاف إليهم على أنها أعمالهم حقيقة ولا تشتبه أعمالهم ، وأفعالهم بأفعال الله ، وأوصافه تعالى .

قوله : « وقال تعالى : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى ﴾ .

المراد منها ظاهر مما سبق قبلها كما أوضحناه .

قوله : « وقال كعب بن مالك حين تخلف عن النبى ﷺ : ﴿ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ .

قال الحافظ تقدم هذا مسندا فى تفسير براءة فى حديثه الطويل ، وفى آخره . قال الله تعالى : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ ومراد البخارى تسمية ذلك عملا[1] .

قال الكرمانى : « ومناسبته للترجمة : التفويض ، والانقياد ، والتسليم ، ولا ينبغى لأحد أن يزكى عمله ، بل يفوض إلى الله سبحانه وتعالى »[2] .

قال بعض المتأخرين : موضع احتجاج البخارى « وقال كعب حين تخلف » لأن القول والتخلف فعل كعب » وهذا غير صحيح لأنه لا خصوص لقول

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٤ .

(٢) شرح الكرمانى جـ ٢٥ ص .

كعب ، بل مثل كل قول ، وإنما احتج بقوله : ﴿ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ فهو نص فى أن لهم عملا يجازون عليه بالثواب أو العقاب .

قوله : « وقالت عائشة : إذا أعجبك حسن عمل امرئ ، فقل : ﴿ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، ولا يستخفنك أحد » .

مقصوده أن العمل يضاف إلى العامل فعلا له ، مثل الصلاة ، والقراءة ، والصوم ، والحفظ وهو مخلوق لأنه عمل مخلوق .

أما الأمر بالصلاة والصوم فهو من الله ، وليس بمخلوق .

وكذا القراءة هى فعل القارئ وفعله مخلوق ، وما يقرؤه ليس مخلوقا ، بل هو كلام الله تعالى .

ومعنى قولها : « ولا يستخفنك أحد » أى لا تغتر بعمل أحد يظهر لك منه الخير والصلاح ، فتثنى وتمدح ، فإنه عرضة للانتكاس ، ما لم تره واقفا عند حدود الشرع متأسيا بالأبرار ، متبعا لسنة رسول الله ﷺ .

وقد روى المؤلف هذا الأثر مبسوطا فى كتابه خلق أفعال العباد . حيث قال : « حدثنى يحيى بن بكير ، حدثنى الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، عن عروة ، عن عائشة رضى الله عنها وذكرت الذى كان من شأن عثمان ابن عفان : « وددت أنى كنت نسيا منسيا ، فوالله ما أحببت أن ينتهك من عثمان أمر قط إلا وقد انتهك منى مثله ، حتى والله لو أحببت قتله ، لقتلت ، يا عبيد الله بن عدى لا يغرنك أحد بعد الذى تعلم ، فوالله ما احتقرت أعمال أصحاب النبى ﷺ حتى تهجم النفر الذين طعنوا فى عثمان فقالوا قولا لا يُحْسن مثله ، وقرءوا قراءة لا يُحْسن مثلها ، وصلوا صلاة لا يصلى مثلها ، فلما تدبرت الصنيع إذاهم والله ما يقاربون أعمال أصحاب النبى ﷺ .

فإذا أعجبك حسن قول امرئ فقل ﴿ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ فلا يستخفنك أحد »[١] .

يعنى أن أولئك الخوارج كانوا يجتهدون اجتهادا فى العبادة ما اجتهده أصحاب النبى ﷺ . ولكنهم يرتكبون العظائم والجرائم ، وهذا بمعنى قول الرسول ﷺ فى وصفهم : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصومه مع صومهم » .

قال الحافظ : « وأخرجه ابن أبى حاتم ، من رواية يونس بن أبى يزيد ، عن الزهرى أخبرنى عروة ، أن عائشة كانت تقول : « احتقرت أعمال أصحاب النبى ﷺ حين نجم القراء الذين طعنوا على عثمان ، فذكر نحوه وفيه : « فوالله ما يقاربون عمل أصحاب رسول الله ﷺ فإذا أعجبك حسن عمل امرئ منهم فقل : اعملوا » إلخ[٢] .

والمراد بالقراء : الخوارج الذين خرجوا على أمير المؤمنين عثمان ، وأنكروا عليه أشياء الحق فيها معه ، وبعضها هو معذور فيها ، فاقتحموا عليه بيته فقتلوه ، وفتحوا بذلك على الأمة فتنة لا تزال الأمة تصلى نارها .

قوله : « وقال معمر : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ ﴾ هذا القرآن : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ بيان ودلالة ، كقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ هذا حكم الله ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لا شك .

﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ ﴾ يعنى هذه أعلام القرآن ، ومثله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ يعنى بكم » .

معمر هو ابن المثنى ، أبو عبيدة ، قال الحافظ : « ومناسبة الآية لما تقدم ،

---

(١) خلق أفعال العباد ص ٥٦ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٥ .

من جهة أن الهداية نوع من التبليغ »[1] يعنى الهداية المضافة إلى الرسول ﷺ فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وأقول : يجوز أنه أراد أن الهدى فى القرآن ، وما خالفه فهو ضلال .

وأن المتقين إذا حصل بينهم خلاف يرجعون إلى القرآن ، فيحصلون على الهدى ، وقد أوضح الله تعالى فى القرآن أن أعمال العباد مخلوقة ، فمن خالف ذلك ضل فى هذه المسألة ، كما أن هذا القرآن مما جاءنا به الرسول ﷺ وبلغنا إياه .

ولهذا قال فى تفسيره : « بيان ودلالة » أى مبين للحق ، ودال عليه ، كما أنه مبين للباطل ، ومحذر منه .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ . يعنى هذا الكتاب الذى بين أيديكم تقرءونه ، فيه الهدى لمن اتبعه واتقى ، وبين أن الإشارة المستعملة للبعيد ، قصد بها القريب ، على خلاف المعتاد فيها .

وبين أن هذا يستعمل أحيانا ، فمثل له بقوله : ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ أى هذا حكم الله الذى حكم به بينكم .

ثم فسر قوله : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ بأنه : لاشك فيه ، أى فى هدايته ودلالته على الحق ، فمن اهتدى به فهو المهتدى ، ومن جانبه وترك مادل عليه فهو الضال .

ثم ذكر ما هو نظير ذلك فى الإشارة إلى البعيد ، والمراد القريب . وهو قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ . قال : يعنى هذه أعلام القرآن ، أى دلائله وبيناته الدالة على الصراط المستقيم ، وهى الفارقة بين الحق والباطل ، ثم قال :

---

(١) الفتح جـ ٣ ص ٥٠٦ .

« ومثله » أى ومثل هذا الاستعمال بالإشارة إلى القريب بما هو للبعيد .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ يعنى بكم ، أى أن الضمير الذى جعل للغائب ، قصد به فى هذه الآية الحاضر ، فيكون مثل الإشارة للقريب بما هو موضوع للبعيد ، وهذا سائغ فى اللغة .

وعلماء البلاغة يقولون : إذا خرج اللفظ عما وضع له فمقصود به نكتة بيانية ، فالإشارة التى للبعيد إذا استعملت للقريب ، دل على علو مكانة المشار إليه ورفعته .

قوله : « وقال أنس : بعث النبى ﷺ خاله حراما إلى قوم . وقال : تؤمنونى أبلغ رسالة رسول الله ﷺ فجعل يحدثهم » .

هذا طرف من حديث أخرجه فى عدة أماكن من كتابه الصحيح . منها فى الجهاد فى أبواب متعددة ، وفى أحدها قال : « بعث النبى ﷺ أقواما من بنى سليم إلى بنى عامر ، فى سبعين ، فلما قدموا قال لهم خالى : أتقدمكم ، فإن أمنونى حتى أبلغهم عن رسول الله ﷺ وإلا كنتم منى قريبا ، فتقدم فأمنوه ، فبينما يحدثهم عن النبى ﷺ إذ أومئوا إلى رجل منهم فطعنه فأنفذه ، فقال : الله أكبر ، فزت ورب الكعبة ، ثم مالوا على بقية أصحابه فقتلوهم إلا رجلا أعرج صعد الجبل ، فأخبر جبريل ـ عليه السلام ـ النبى ﷺ أنهم قد لقوا ربهم ، فرضى عنهم ، وأرضاهم ، فكنا نقرأ : بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضى عنا ، وأرضانا ، ثم نسخ بعد ، فدعا عليهم أربعين صباحا ، على رعل ، وذكوان ، وبنى لحيان ، وبنى عصية ، الذين عصوا الله ورسوله »[1] .

---

(١) انظر البخارى جـ ٤ ص ٢٢ .

والمقصود أن تبليغ الرسالة عمل الرسول ، ونقل قول المرسل إلى المرسل إليه فلذلك قال : « أتؤمنونى أبلغ رسالة رسول الله ﷺ فجعل يحدثهم » فحديثه إياهم عن رسولِ الله ﷺ هو إبلاغهم الرسالة ، وهو ما فيه أمره ونهيه مما هو شرع لله الذى كلف العباد به .

والله تعالى كلف رسله إبلاغ قومهم ، وعلى ذلك يجزيهم ما يستحقون من الأجر ، والجزاء يكون على عمل العامل .

١٥٣ ــ قال : « حدثنا أبو الفضل بن يعقوب ، حدثنا عبد الله ابن جعفر الرقى ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، حدثنا سعيد بن عبيد الله الثقفى ، حدثنا بكر بن عبد الله المزنى ، وزياد بن جبير بن حية ، عن جبير بن حية ، قال المغيرة : أخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا ، أنه من قتل منا صار إلى الجنة » .

هذا قطعة من حديث طويل يخاطب به المغيرة بن شعبة ــ رضى الله عنه ــ ترجمانِ عامل كسرى ، لما سأله : ما أنتم ؟ قال : « نحن أناس من العرب كنا فى شقاء شديد ، وبلاء شديد ، نمص الجلد والنوى من الجوع ، ونلبس الوبر ، والشعر ، ونعبد الشجر والحجر ، فبينا نحن كذلك ، إذ بعث رب السماوات ورب الأرضين ــ تعالى ذكره وجلت عظمته ــ إلينا نبيا من أنفسنا ، نعرف أباه وأمه ، فأمرنا نبينا ، رسول ربنا أن نقاتلكم ، حتى تعبدوا الله وحده ، أو تؤدوا الجزية ، وأخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا أنه من قتل منا صار إلى الجنة ، فى نعيم لم ير مثلها ، ومن بقى منا ملك رقابكم »[١] .

والمقصود قوله : « أخبرنا نبينا عن رسالة ربنا » ، فهذا من الإبلاغ الذى

---

(١) انظر الصحيح جـ ٤ ص ١١٨ باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب .

أبلغهم ، وكل ما أخبرهم به من أمر ، أونهى ، أو وعد ، أو وعيد ، أو قصص ، عن الأنبياء وأممهم ، أو غيرهم ، وغير ذلك ، فإنه من إبلاغ الرسالة التى أرسل بها .

ودل قوله : « عن رسالة ربنا » أن الرسالة تكون بالكلام الذى يخاطب به المرسل الرسول ، وإبلاغ المرسل إليهم ذلك الكلام هو إبلاغ الرسالة ، وإبلاغ الرسالة فعل الرسول وقوله وعمله ، وهو غير الرسالة ، وهو مخلوق .

فالرسالة قول المرسل ، وأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وإخباره عن جزائه وغير ذلك ، وهذا ليس فعلا للرسول ، بل كلام الله بأمره ونهيه .

١٥٤ ــ قال : « حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن إسماعيل ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت من حدثك أن محمدا ﷺ كتم شيئا .

ــ وقال محمد : حدثنا أبو عامر العقدى ، حدثنا شعبة ، عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : من حدثك أن النبى ﷺ كتم شيئا من الوحى ، فلا تصدقه ، إن الله تعالى يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ .

هذا الحديث تقدم بعضه فى باب قوله تعالى : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ ﴾ .

وقولها « فلا تصدقه » يعنى أن من زعم ذلك فهو كاذب ، ولا يكفى أنه لا يصدق بل لا يصح إسلامه ، ويجب تعريفه أن الرسول ﷺ بلغ رسالة ربه فإن اعترف بذلك وآمن به وإلا قتل مرتدا .

ومقصودها ــ رضى الله عنها ــ أن الرسول ﷺ بلغ جميع ما يلزم الأمة فى دينها ، وما يصلحها وينفعها ، ولم يترك شيئا مما ينبغى العمل به أو علمه

واعتقاده إلا وأخبر به وبلغه كما أمر .

فكل ما لم يخبر به أو يأمر به أمته فليس من رسالته ، وهو بدعة منكرة .

فيجب الوقوف مع ما جاء به من الكتاب والسنة ، ولابد أنه ﷺ امتثل ما أمره الله به من إبلاغ الرسالة قولا وعملا ، فبلغها على الوجه الأتم الأكمل .

وسبق أن إبلاغ الرسالة من فعله وقوله وعمله وفعله وعمله مخلوق فلا يلتبس ذلك بقول الله وكلامه الذى هو الرسالة ، فهذا صفة الله والإبلاغ فعل الرسول ، وهذا التفريق هو ما قصده الإمام البخارى رحمه الله .

١٥٥ ــ قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن أبى وائل ، عن عمرو بن شرحبيل ، قال : قال عبد الله : قال رجل : يا رسول الله ، أى الذنب أكبر عند الله تعالى ؟ قال : أن تدعو لله ندا وهو خلقك ، قال : ثم أى ؟ قال : ثم أن تقتل ولدك أن يطعم معك ، قال : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك .

فأنزل الله تصديقها : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ ﴾ الآية .

تقدم الكلام على هذا الحديث ، ومقصوده هنا أن ما بلغه الرسول ﷺ أمته سواء كان من قوله الذى هو سنته ، أو مما أنزله الله عليه قولا لله تعالى فإن ذلك كله من تبليغ الرسالة ، فحين أخبر السائل بما هو أعظم الذنوب ، أنزل الله عليه تصديق ما قاله من كلام الله الذى تعبد عباده بتلاوته ، مع أنه ﷺ لا ينطق عن الهوى ، وإنما عن الوحى الذى يوحيه الله إليه .

قال الحافظ[1] : « مناسبة هذا الحديث للترجمة أن التبليغ على نوعين .

أحدهما ، وهو الأصل أن يبلغه بعينه ، وهو خاص بما يتعبد بتلاوته ، وهو القرآن .

وثانيهما : أن يبلغ ما يستنبط من أصول ما تقدم إنزاله ، فينزل عليه موافقته فيما استنبطه ، إما بنصه ، وإما بما يدل على موافقته بطريق الأولى ، كهذه الآية ، فإنها اشتملت على الوعيد الشديد فى حق من أشرك ، وهى مطابقة للنص ، وفى حق من قتل النفس بغير حق ، وهى مطابقة للحديث بطريق الأولى ، لأن القتل بغير حق وإن كان عظيما لكن قتل الولد أشد قبحا من قتل من ليس بولد للقاتل ، وكذا القول فى الزناة ، فإن الزنا بحليلة الجار أعظم قبحا من مطلق الزنا .

ويحتمل أن يكون نزول هذه الآية سابقا على إخباره ﷺ بما أخبر به لكن لم يسمعها الصحابى إلا بعد ذلك .

ويحتمل أن يكون كل من الأمور الثلاثة[2] نزل تعظيم الإثم فيه سابقا ولكن اختصت هذه الآية بمجموع الثلاثة فى سياق واحد مع الاقتصار عليها ، فيكون المراد بالتصديق الموافقة فى الاقتصار عليها .

فعلى هذا فمطابقة الحديث للترجمة ظاهرة جدا والله أعلم[3] .

« واستدل أبو المظفر ابن السمعانى بآيات الباب وأحاديثه على فساد طريقة المتكلمين فى تقسيم الأشياء إلى جسم وجوهر وعرض ، وقالوا : الجسم ما اجتمع من الافتراق ، والجوهر : ما حمل العرض ، والعرض مالايقوم

---

(١) أصل الكلام للكرمانى انظر شرحه جـ ٢٥ ص ٢٢٤ ولكن الحافظ تصرف فيه .
(٢) يعنى المذكورة فى الحديث ، وهى الشرك وقتل الولد خشية الفقر والزنا بحليلة الجار .
(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٧ .

بنفسه ، وجعلوا الروح من الأعراض ، وردوا الأخبار فى خلق الروح قبل الجسد ، والعقل قبل الخلق[1] ، واعتمدوا على حدسهم ، وما يؤدى إليه نظرهم ، ثم يعرضون عليه النصوص ، فما وافقه قبلوه ، وما خالفه ردوه ، ثم ساق الآيات ونظائرها مما فيه الأمر بالتبليغ .

قال : وكان مما أمر بتبليغه التوحيد ، بل هو أصل ما أمر به ، فلم يترك شيئا من أمور الدين أصوله ، وقواعده ، وشرائعه إلا بلغه ، ثم لم يدع إلى الأستدلال بما تمسكوا به من الجوهر والعرض ، ولا يوجد عنه ولا عن أحد من أصحابه من ذلك حرف واحد فما فوقه .

فعرف بذلك أنهم ذهبوا خلاف مذهبهم ، وسلكوا غير سبيلهم ، بطريق محدث مخترع ، لم يكن عليه رسول الله ﷺ ، ولا أصحابه رضى الله عنهم .

ويلزم من سلوكه العود على السلف بالطعن ، والقدح ، ونسبتهم إلى قلة المعرفة ، واشتباه الطرق .

فالحذر من الاشتغال بكلامهم ، والاكتراث بمقالاتهم ، فإنها سريعة التهافت ، كثيرة التناقض ، وما من كلام تسمعه لفرقة منهم إلا وتجد لخصومهم عليه كلاما يوازنه ، أو يقاربه ، فكل بكل مقابل ، وبعض ببعض معارض ، وحسبك من قبيح ما يلزم من طريقتهم أنا إذا جرينا على ما قالوه ، وألزمنا الناس بما ذكروه ، لزم من ذلك تكفير العوام جميعا لأنهم لا يعرفون إلا الاتباع المجرد .

ولو عرض عليهم هذا الطريق ما فهمه أكثرهم ، فضلا عن أن يصير منهم صاحب نظر .

---

(١) لم يصح بذلك خبر عن رسول الله ﷺ بل الأخبار تدل على نقيضه .

وإنما غاية توحيدهم التزام ما وجدوا عليه أئمتهم فى عقائد الدين والعض عليها بالنواجذ ، والمواظبة على وظائف العبادات ، وملازمة الأذكار ، بقلوب سليمة طاهرة عن الشبه والشكوك .

فتراهم لا يحيدون عما اعتقدوه ، ولو قطعوا إربا إربا ، فهنيئا لهم هذا اليقين ، وطوبى لهم هذه السلامة .

فإذا كفر هؤلاء ، وهم السواد الأعظم ، وجمهور الأمة فما هذا إلا طى بساط الإسلام ، وهدم منار الدين ، والله المستعان »[1] .

وتقدم بعض ما يتعلق بذلك فى أول الكتاب .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ ﴾ .

وقول النبى ﷺ : « أعطى أهل التوراة ، التوراة ، فعملوا بها ، وأعطى أهل الإنجيل ، الإنجيل ، فعملوا به ، وأعطيتم القرآن ، فعملتم به » .

قال الحافظ : « مراده بهذه الترجمة أن يبين أن المراد بالتلاوة : القراءة ، وقد فسرت التلاوة بالعمل ، والعمل من فعل العامل »[2] .

أقول : مراده بيان أن التلاوة والقراءة فعل العباد ، وأن المتلو غير التلاوة ، والمقروء غير القراءة ، كما سبق بيانه .

وهو ينوع الأدلة على ذلك ويكررها ليتضح الأمر ، ويتبين الحق لأنه ـــ رحمه الله ـــ قد ابتلى بمن يقول : التلاوة هى المتلو ، والقراءة هى المقروء ،

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٧ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٨ .

وذلك غير مخلوق ، ورمى بأنه يقول : لفظى بالقرآن مخلوق . وقد صرح بأن ذلك كذب عليه .

قال شيخ الإسلام : « إذا قرأ الناس كلام الله ، فالكلام فى نفسه غير مخلوق إذا كان الله قد تكلم به ، وإذا قرأه المبلغ لم يخرج بذلك عن كونه كلام الله ، فإن الكلام كلام من قاله مبتدئًا ، أمرا يأمر به ، أو خبرا يخبره ، وليس هو كلام المبلغ له عن غيره ، إذ ليس على الرسول إلا البلاغ المبين .

وإذا قرأه المبلغ فقد يشار إليه من حيث هو كلام الله ، فيقال : هذا كلام الله ، مع قطع النظر عما بلغه به العباد من صفاتهم ، وقد يشار إلى نفس صفة العبد ، كحركته ، وصوته ، وقد يشار إليهما .

فالمشار إليه الأول غير مخلوق ، لأنه كلام الله ، والمشار إليه الثانى مخلوق ، لأنه صفة العبد ، والمشار إليه الثالث منه ما هو مخلوق ، ومنه ما ليس بمخلوق .

وما يوجد فى كلام الآدميين من نظير هذا ، هو نظير صفة العبد ، لا نظير صفة الرب .

وإذا قال قائل : القاف فى قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِى ﴾ كالقاف فى قول الشاعر « قفا نبك من ذكرى حبيب ؟ » .

قيل : ما تكلم الله به ، وسمع منه لا يماثل صفة المخلوقين .

ولكن إذا بلغنا كلام الله ، فإنما نبلغه بصفاتنا ، وصفاتنا مخلوقة والمخلوق يماثل المخلوق .

وكلام المتكلم فى نفسه واحد ، فإذا بلغه المبلغون تختلف أصواتهم به فإذا أنشد منشد قول لبيد : ألا كل شىء ما خلا الله باطل .

كان هذا الكلام كلام لبيد لفظه ومعناه ، مع أن أصوات المنشدين له تختلف ، وتلك الأصوات ليست صوت لبيد .

وكذلك من روى حديث النبى ﷺ بلفظه ، كقوله : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » كان هذا كلام رسول الله ﷺ لفظه ومعناه ، ويقال لمن رواه : أدى الحديث بلفظه ، وإن كان صوت المبلغ ليس هو صوت الرسول .

فالقرآن أولى أن يكون كلام الله لفظه ومعناه ، وإذا قرأه القراء فإنما يقرءونه بأصواتهم .

ولهذا قال الإمام أحمد ، وغيره من أئمة السنة : من قال : اللفظ بالقرآن أو لفظى بالقرآن مخلوق فهو جهمى ، ومن قال : إنه غير مخلوق فهو مبتدع ، لأن اللفظ يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظا ، وذلك فعل العبد ويراد به القول الذى يلفظ به اللافظ ، وذلك كلام الله ، لا كلام القارئ فمن قال : إنه مخلوق فقد قال : إن الله لم يتكلم بهذا القرآن ، وإن هذا الذى يقرؤه المسلمون ليس هو كلام الله .

ومعلوم أن هذا مخالف لما علم بالاضطرار من دين الرسول .

وأما صوت العبد فهو مخلوق ، وقد صرح أحمد وغيره أن الصوت المسموع صوت العبد ، ولم يقل قط : إن من قال صوتى بالقرآن مخلوق فهو جهمى وإنما قال : من قال : لفظى بالقرآن ، والفرق بينهما واضح .

والفرق بين لفظ الكلام ، وصوت مبلغه فرق واضح .

فكل من بلغ كلام غيره بلفظ ذلك الغير ، فإنما بلغ لفظ ذلك الغير لا لفظ نفسه ، وهو إنما بلغه بصوت نفسه ، لا بصوت ذلك الغير .

واللفظ ، والقراءة ، والتلاوة ، والكتابة ، ونحو ذلك لما كان يراد به المصدر الذى هو حركات العباد ، وما يحدث عنها من أصواتهم ، وشكل المداد ، ويراد به نفس الكلام الذى يقرأه التالى ، ويتلوه ، ويلفظ به ، ويكتبه منع أحمد وغيره من إطلاق النفى والإثبات الذى يقتضى جعل صفات الله مخلوقة ، أو جعل

صفات العباد ومدادهم غير مخلوق »[1] .

ومما يدل على أن التلاوة فعل التالى ، وأنها غير المتلو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾[2] . أى وأمرت أن أتلو القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾[3] وغير ذلك من الآيات فقد أمر الله عبده ورسوله بالتلاوة ، كما أمره بالعبادة ، فدل ذلك على أن التلاوة من العبادة التى يفعلها العبد ، وتضاف إليه فعلا له ، ويثاب عليها ، والأدلة على أن التلاوة غير المتلو كثيرة قد ذكر المؤلف رحمه الله جملة كبيرة منها فى كتابه خلق أفعال العباد ، بالإضافة إلى ما ذكره فى هذا الكتاب .

فمن ذلك قوله ﷺ : « زينوا القرآن بأصواتكم »[4] وتقدم .

وحديث البراء بن عازب ، سمعت النبى ﷺ يقرأ فى العشاء « بالتين والزيتون » ، فما سمعت أحدا أحسن صوتا ، أو قراءة منه » .

فالقارئ يكون حسن الصوت وقبيح الصوت ، لأنه فعله ، وقد جعل الله اختلاف ألسنة الناس وألوانهم من الآيات الدالة عليه ــ تعالى ــ وعلى وجوب عبادته وحده ، ولهذا اتفق العلماء على أنه لا يجوز الحلف بكلام أحد من الخلق ، لأنه لا يجوز الحلف بالمخلوق ، وكلامهم مخلوق .

قال البخارى رحمه الله تعالى : « وليس لأحد أن يحلف بالمخلوقين ، ولا بأعمالهم ولا بكلامهم ، ولا كلام الكفار والمنافقين ، ولا بقول إبليس .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٢ ص ٧١ ــ ٧٥ ملخصا .

(٢) الآيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة النمل .

(٣) الآية ٢٧ من سورة الكهف .

(٤) رواه البخارى فى خلق أفعال العباد ص ١٥٩ ــ ١٦٠ .

فمن حلف بقول المجوس أو نحوهم لم يلزمه حنث .

وإنما يذكر عن ابن مسعود ، وإبراهيم ، وعن النبى ﷺ مرسلا « من حلف بسورة من القرآن فعليه بكل آية منها كفارة » ، فأما أصوات المخلوقين فليس فيها كفارة »[1] .

وقال : حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا عبيد الله ، عن نافع ، عن ابن عمر رضى الله عنهما كان فى خاتم رسول الله ﷺ : « محمد رسول الله » .

وقد كتب النبى ﷺ كتابا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم » وقرأه ترجمان قيصر ، على قيصر وأصحابه .

ولا نشك فى قراءة الكفار ، وأهل الكتاب أنها أعمالهم ، وأما المقروء فهو كلام الله العزيز المنان ، ليس بمخلوق ، فمن حلف بأصوات قيصر ، وبنداء المشركين الذين يقرون بالله لم يكن عليه يمين دون الحلف بالله ، لقول النبى ﷺ : « لا تحلفوا بغير الله » .

وليس لأحد أن يحلف بالخواتيم ، والدراهم البيض[2] ، وألواح الصبيان التى يكتبونها ، ثم يمحونها مرة بعد مرة ، وإن حلف ، فلا يمين عليه ، لقوله عز وجل : « فلا تجعلوا لله أندادا »[3] .

وقال : « فإن احتج محتج فقال : قد روى « إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » . قيل له : لو صح هذا الخبر لم يكن لك فيه حجة ، لأنه قال : « كلام الله » ، ولم يقل : قول العباد المؤمنين والمنافقين ، وأهل الكتاب الذين يقرءون بسم الله الرحمن الرحيم ، وهذا واضح بين عند من كان عنده أدنى معرفة ، أن القرآن غير المقروء .

---

(١) خلق أفعال العباد ص ١٩٦ عقائد السلف .

(٢) يعنى التى كتب عليها اسم الله أو شىء من القرآن .

(٣) خلق أفعال العباد ١٩٧ عقائد السلف .

وليس لكلام الفجرة وغيرهم فضل على كلام غيرهم ، كفضل الخالق على المخلوق وتبارك ربنا وتعالى ، وعز وجل عن صفة المخلوقين .

وإن قال قائل : فقد روى عن النبى ﷺ : « إنكم لن ترجعوا إلى الله بشىء أفضل مما خرج منه » .

قيل له : أليس القرآن خرج منه ، فخروجه منه ليس كخروجه منك ، إن كنت تفهم ، مع أن هذا الخبر لا يصح ، لإرساله وانقطاعه .

فإن قال : فإن لم يكن الذى يتكلم به العبد قرآنا ، لِمَ تُجْزِهِ صلاته ؟

قيل له : قال النبى ﷺ : « لا صلاة إلا بقراءة » .

وقال أبو الدرداء : سئل النبى ﷺ : أفى كل صلاة قراءة ؟

فقال : « نعم » .

والقراءة هى التلاوة ، والتلاوة غير المتلو ، وقد بينه أبو هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « اقرءوا إن شئتم ، يقول العبد : « الحمد لله رب العالمين » فيقول الله : حمدنى عبدى ، يقول العبد : « الرحمن الرحيم » يقول الله — عز وجل — : « أثنى علىّ عبدى » ، يقول العبد : « مالك يوم الدين » يقول الله : مجدنى عبدى ، يقول العبد : « إياك نعبد وإياك نستعين » ، يقول الله : هذه بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل » .

فبين أن سؤال العبد غير ما يعطيه الله للعبد ، وأن قول العبد غير كلام الله ، هذا من العبد الدعاء والتضرع ، ومن الله الأمر والإجابة .

وسئل النبى ﷺ أى الصلاة أفضل ؟ قال : « طول القنوت » .

فذكر النبى ﷺ أن بعض الصلاة أطول من بعض ، وأخف ، وأن بعضهم يزيد على بعض فى القراءة ، وبعضهم ينقص ، وليس فى القرآن زيادة ولا نقصان ، وأما التلاوة فإنهم يتفاضلون فى الكثرة والقلة ، والزيادة

والنقصان ، وقد يقال : فلان حسن القراءة ، أو ردىء القراءة ، ولا يقال حسن القرآن ، أو ردىء القرآن ، وإنما نسب إلى العباد القراءة ، لا القرآن ، لأن القرآن كلام الله عز وجل ، والقراءة فعل العبد ، ولا يخفى هذا القدر إلا على من أعمى الله قلبه[1] .

قال : « وأما قوله : « فهل يرجع إلى الله إلا باللفظ الذى تلفظ به »[2] فإن كان الذى تلفظ به قرآنا فهو كلام الله ؟ قيل له : ما قولك تلفظ به ؟ فإن اللفظ غير الذى تلفظ به ، لأنك تلفظت بالله ، وليس الله هو لفظك ، وكذلك تلفظ بصفة الله ، تقول : الله ، وليس قولك : الله هو الصفة ، وإنما تصف الموصوف ، فأنت الواصف ، والله الموصوف بكلامه ، كالواصف الذى يصف بكلام غير الله وأما الموصوف بصفته وكلامه فهو الله »[3] .

يعنى أن الذى يقرأ كلام الله ، فما يلفظ به هو كلام الله ، وليس هو كلام القارىء وإنما للقارىء حركة لسانه وشفتيه وصوته ، وذلك فعله .

وإذا قرأ صفة الله فى القرآن التى وصف الله بها نفسه ، فليس القارىء هو الواصف لله — تعالى — وإنما يتلفظ بصفة الله التى قالها الله — تعالى — واصفا بها نفسه .

« قال الضحاك : لم يحرم الله على بنى إسرائيل طعاما ، وإنما حرموه على أنفسهم اتباعا لأبيهم ، ثم أضافوا تحريمه لله — عز وجل — فكذبهم الله — تعالى — فقال : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَىٰةِ ﴾ أى قل يا محمد لهم : ائتوا بالتوارة ، التى فيها التحريم والتحليل ﴿ فَٱتْلُوهَا ﴾ أى فاقرءوها حتى يتبين

---

(١) خلق أفعال العباد ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

(٢) يعنى المحتج بقوله ﷺ : « إنكم لن ترجعوا إلى الله بشىء أفضل مما خرج منه والعبد لا يرجع إلى الله إلا بعمله ، فيكون لفظه بالقرآن عمله » .

(٣) خلق أفعال العباد ص ٢٠٤ .

ما قلتم ، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، فيما ادعيتم ، فلم يأتوا بها خوفا من الفضيحة »[1] .

فالتلاوة فى هذه الآية هى القراءة ، وهى فعل العبد وعمله ، والمتلو كتاب الله وكلامه .

قوله : « وقول النبى ﷺ : « أعطى أهل التوراة التوراة » إلى آخره معنى أعطى هنا : أنزل عليهم ، أى أنزل الله التوراة على موسى ، فعمل بها قومه ، باتباعها وتلاوتها للتفهم والتعبد .

وأنزل الله الإنجيل على عيسى ، فعمل به من شاء الله أن يعمل من النصارى بأن آمنوا به واتبعوه ، وقرءوه للفهم والعبادة .

ومثل ذلك أهل القرآن ، ففى ذلك دليل على أن التلاوة من عمل العباد ، وكسبهم ، وأنها غير المتلو ، كما تقدم إيضاح ذلك .

قوله : « وقال أبو رزين : يتلونه حق تلاوته : يعملون به حق عمله » .

أبو رزين هو مسعود بن مالك الأسدى الكوفى ، من كبار التابعين .

ومعنى ذلك أن التلاوة ، يراد بها القراءة كما سبق ، ويراد بها الاتباع والعمل .

قال الراغب : « التلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة ، تارة بالقراءة ، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهى ، وترغيب وترهيب ، وهو أخص من القراءة ، فكل تلاوة قراءة ، وليس كل قراءة تلاوة »[2] .

---

(١) تفسير الخازن جـ ١ ص ٣٨٢ .
(٢) المفردات ص ٧٥ .

وقال الأزهرى : « قال الليث : يقال : تلا يتلو ، يعنى قرأ ، قراءة ، وتلا إذا تبع ، فهو تال أى تابع »[1] .

« وقال أبو زيد فى قوله ـــ عز وجل ـــ يتلونه حق تلاوته » قال : يتبعونه حق اتباعه .

وقال مجاهد : يعملون به حق عمله .

وقال ابن عباس : يتبعونه حق اتباعه ، فيعملون به حق عمله .

وقال أبو عبيدة فى قوله : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴾ قال : ما تتكلم به ، كقولك : يتلو فلان كتاب الله أى يقرؤه ، ويتكلم به .

وقال عطاء : ﴿ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴾ : ما تحدث ، وما تقص »[2] .

فتبين بهذا أن التلاوة تطلق على القراءة ، وعلى الاتباع ، وإذا قيل : تلاه حق تلاوته ـــ يكون المعنى ـــ عمل به حق عمله ـــ يعنى ـــ العمل الكامل والاتباع فى كل ما جاء به .

قوله : « يقال : يتلى : يقرأ » هذا تفسير لقوله تعالى : « إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ أى يقرأ عليهم .

قال ابن جرير : ﴿ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ يقرأ عليهم ، وذكر بسنده إلى يحيى بن جعدة أن ناسا من المسلمين ، أتوا نبى الله ﷺ بكتب قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود ، فلما نظر فيها ألقاها ، ثم قال : « كفى بها حماقة قوم ، أو ضلالة قوم ، أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم ، إلى قوم غيرهم » فنزلت : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ

---

(١) تهذيب اللغة جـ ١٤ ص ٣١٦ .
(٢) المصدر المذكور جـ ١٤ ص ٣١٩ .

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَاءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَاءِ ﴾ ، والذى يتلى عليهم هو آيات الفرائض من المواريث وغيرها .

قال الحافظ : « هذا الذى ذكر البخارى هو كلام أبى عبيدة فى كتاب مجاز القرآن . ﴿ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ يقرأ عليهم . وقوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَـٰبٍ ﴾ ما كنت تقرأ كتابا قبل القرآن »[2] .

أقول : الآية التى ذكرها البخارى لم يتكلم عليها أبو عبيدة فى كتابه مجاز القرآن وهذه التى ذكرها غير تلك ، فكيف يقال إن ما ذكره البخارى هو كلام أبى عبيدة ، وإن كان نظيرا له فليس هو[3] .

قوله : « **حسن التلاوة : حسن القراءة للقرآن** » ، يعنى أن التلاوة فعل العباد وليس هى المتلو ، ولهذا يوصف التالى بأنه حسن التلاوة ، أو سيئها ، ولا يجوز أن يوصف القرآن بذلك .

قال البخارى ـــ رحمه الله ـــ : « القراءة لا تكون إلا من الناس ، وقد تكلم الله بالقرآن من قبل ، وكلامه قبل خلقه .

وسئل النبى ﷺ أى الصلاة أفضل ؟ قال : « طول القنوت » ثم ذكر ما تقدم قريبا[4] .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢١ ص ٧ وقال السيوطى : أخرجه الدارمى ، وأبو داود فى المراسيل وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والإسماعيلى . انظر الدر المنثور جـ ٦ ص ٤٧١ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٩ .

(٣) انظر مجاز القرآن جـ ٢ ص ١١٦ .

(٤) انظر خلق أفعال العباد ص ١٦٦ تحقيق بدر .

قوله : « لا يمسه » لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن ، ولا يحمله بحقه إلا الموقن ، لقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[1] .

يعنى أن الطهارة المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ هى الطهارة من الشرك ، والكفر ، والغفلة والإعراض ، ويتبع ذلك الذنوب .

قال الفراء : « ويقال : لا يمسه : لا يجد طعمه ونفعه إلا المطهرون ، من آمن به »[2] .

« وهذا من باب الاعتبار والقياس ، لأنه إذا كان ورق المصحف لا يمسسه إلا المطهرون ، فمعانيه لا يهتدى بها إلا القلوب ، الطاهرة .

ومثل هذا قول النبى ﷺ : « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب » فإذا كان الملك لا يدخل البيت الذى فيه كلب ، فكذلك المعانى التى تحبها الملائكة لا تدخل القلب الذى فيه أخلاق الكلاب »[3] .

قال الحافظ : « حاصل هذا التفسير ، أن معنى : لا يمس القرآن . لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به ، وأيقن بأنه من عند الله ، فهو المطهر من الكفر ، ولا يحمله بحقه إلا المطهر من الجهل والشك . لا الغافل عنه الذى لا يعمل [به] فيكون كالحمار الذى يحمل ما لا يدريه »[4] .

« وعلى القول بأن المراد بقوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ هو

---

(١) الآية ٥ من سورة الجمعة .
(٢) معانى القرآن جـ ٣ ص ١٣٠ .
(٣) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٥٥١ ــ ٥٥٢ بتصرف .
(٤) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٩ .

اللوح المحفوظ ، أو المصحف ، فكما أن اللوح المحفوظ الذى كتب فيه حروف القرآن لا يمسه إلا بدن طاهر ، فكذلك معانى القرآن لا يذوقها إلا القلب الطاهر ، وهو قلب المتقى . وهذا قول طائفة من السلف »[1] .

« والصحيح أنه يجب الوضوء لمس المصحف ، وهو مذهب الأئمة الأربعة لما فى الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ لعمرو بن حزم ، وفيه « وأن لا يمس القرآن إلا طاهر » . قال الإمام أحمد : لا شك أن النبى ﷺ كتبه له . وهذا هو المعروف عن الصحابة ، سعد ، وسلمان ، وابن عمر »[2] .

واختلفت أقوال السلف فى المراد بالكتاب ، وبالمطهرين . فقيل : الكتاب هو ما بأيدى الملائكة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ ، وهذا اختيار الإمام مالك ، فعلى هذا يكون المراد بالمطهرين الملائكة .

وقيل : المراد بالكتاب المصحف الذى كتب فيه القرآن . قال القرطبى : وهو الأظهر ، واستدل بما فى كتابه ﷺ لعمرو بن حزم ، وبحديث ابن عمر : أن النبى ﷺ قال : « لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر » ، وبقول أخت عمر له ، لما دعا بالصحيفة قبل أن يسلم : « لا يمسه إلا المطهرون »[3] .

وقال ابن كثير : « وقال آخرون : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ من الجنابة والحدث فلفظ الآية خبر ، ومعناها الطلب » .

والمراد بالقرآن ها هنا : المصحف . كما روى مسلم ، أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو ، مخافة أن يناله العدو » . واحتجوا

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٣ ص ٢٤٢ .

(٢) المرجع قبله جـ ٢١ ص ٢٨٨ و ٢٦٦ ببعض التصرف .

(٣) انظر تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٢٥ ــ ٢٢٦ .

بما فى كتاب عمرو بن حزم ، وبما روى أبو داود فى المراسيل من حديث الزهرى ، قال : قرأت فى صحيفة عند أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، أن رسول الله ﷺ قال : « ولا يمسن القرآن إلا طاهر » . وهذه وجادة جيدة ، ومثل هذا ينبغى الأخذ به .

وقد أسنده الدارقطنى ، عن عمرو بن حزم ، وعبد الله بن عمر ، وعثمان ابن أبى العاص ، ، وفى إسناد كل منها نظر »[1] .

« قال ابن عبد البر : كتاب ابن حزم روى مسندا من وجه صالح ، وهو كتاب مشهور عند أهل السير ، معروف عند أهل العلم ، معرفة يستغنى بها فى شهرتها عن الإسناد »[2] .

قوله : « **وسمى النبى ﷺ : الإسلام والإيمان ، والصلاة عملا** » .

قال الحافظ : « أما تسمية الإسلام عملا ، فاستنبطه من حديث سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام ، فقال النبى ﷺ : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، وقال عن الإسلام : أن تسلم وجهك لله وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » الحديث .

فسمى الإيمان ، والإسلام ، والصلاة بقراءتها ، وما فيها من حركات الركوع والسجود فعلا »[3] .

قلت : الظاهر أن مراده ما ذكره فى خلق أفعال العباد ، حيث قال :

حدثنا أبو اليمان ، أنبأنا شعيب ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : سئل النبى ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٢ ملخصا .
(٢) انظر الموطأ جـ ١ ص ١٩٩ .
(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٩ .

قال : « إيمان بالله ، وجهاد فى سبيله » ورواه فى الصحيح من حديث أبى ذر فى العتق فى باب أى الرقاب أفضل ، ورواه فى كتاب الإيمان : باب من قال : إن الإيمان هو العمل لقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وفى أماكن أخر وسيأتى فى آخر الكتاب .

وقال بعد ما ذكره فى خلق أفعال العباد : « فجعل النبى ﷺ الإيمان والتصديق ، والجهاد ، والخير عملا »[1] .

وهذا واضح جدا ، ولم يختلف فيه أهل السنة ، وهو دليل على أن القراءة ليست هى المقروء ، لأنها من عمل القارىء الذى يؤجر عليه .

وإذا ثبت أن الإيمان من عمل المؤمن ، فمثله الإسلام ، لأن الرسول ﷺ جعل الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان وحج البيت .

وأما كون الصلاة عملا فهو ظاهر جدا .

قوله : « **وقال أبو هريرة : قال النبى ﷺ لبلال : « أخبرنى بأرجى عمل عملته فى الإسلام ؟ قال : ما عملت عملا أرجى عندى أنى لم أتطهر إلا صليت** » . ذكر هذا الحديث بسنده موصولا فى مناقب بلال ، ووجه الدلالة منه أنه سمى الصلاة عملا ، مع ما فيها من القراءة والتكبير ، والتسبيح والتحميد ، وغير ذلك .

قوله : « **وسئل : أى العمل أفضل ؟ قال : « إيمان بالله ورسوله ، ثم جهاد ، ثم حج مبرور** » تقدم قريبا ، والاستدلال به واضح ، فإنه جعل الإيمان والجهاد والحج عملا .

---

(١) انظر خلق أفعال العباد ص ٤٨ ــ ٥٣ .

١٥٦ ـــ قال : « حدثنا عبدان ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا يونس ، عن الزهرى ، أخبرنى سالم ، عن ابن عمر ـــ رضى الله عنهما ـــ أن رسول الله ﷺ قال : « إنما بقاؤكم فيمن سلف من الأمم ، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، أوتى أهل التوراة ، التوراة ، فعملوا بها حتى انتصف النهار ، ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا ، ثم أوتى أهل الإنجيل ، الإنجيل ، فعملوا به حتى صليت العصر ، ثم عجزوا ، فأعطوا قيراطا قيراطا ، ثم أوتيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس ، فأعطيتم قيراطين قيراطين ، فقال أهل الكتاب : هؤلاء أقل منا عملا ، وأكثر أجرا ؟ قال الله : هل ظلمتكم من حقكم شيئا ؟ قالوا : لا . فقال : فهو فضلى أوتيه من أشاء » .

تقدم هذا الحديث فى باب المشيئة والإرادة ، ومعنى قوله : « إنما بقاؤكم فيمن سلف من الأمم » أن بقاء هذه الأمة فى الدنيا كنسبة ما بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس بالنسبة لليوم .

فالمعنى : أن مدة هذه الأمة بالنسبة إلى من سبقها من الأمم قليلة .

وإذا كان مدة مجموع الأمة قليلة لزم أن يكون عمر كل فرد منها قصيرا ، وكأن الحديث قصد به الإخبار بقلة بقاء هذه الأمة فى الدنيا ، وبكثرة أجرها ، وفضلها ، ولذلك ضرب المثل لها ولأهل الكتاب ، لأن اليهود والنصارى ، وهذه الأمة كلهم أعطوا كتبا جاءتهم من الله ليعملوا بها ، ورواية الترمذى توضح ذلك ونصها :

« إنما أجلكم فيما خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغارب الشمس ، وإنما مثلكم ، ومثل اليهود والنصارى ، كرجل استعمل عمالا ، فقال : من يعمل لى إلى نصف النهار على قيراط قيراط ، فعملت اليهود ، على قيراط قيراط .

ثم أنتم تعملون من صلاة العصر إلى مغارب الشمس على قيراطين قيراطين ، فغضبت اليهود والنصارى ، وقالوا نحن أكثر أعمالا ، وأقل عطاء ؟

قال : هل ظلمتكم من حقكم شيئا ؟ قالوا : لا . قال : فإنه فضلى أوتيه من أشاء » هذا حديث حسن صحيح »[1] .

ففى هذا أنه ﷺ أخبر عن شيئين : أحدهما : مدة بقاء هذه الأمة فى الدنيا بالنسبة لمن سبقها من الأمم ، وأنه مثل نسبة ما بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس بالنسبة لليوم الكامل .

والثانى مَثَلُ هذه الأمة ، ومثل اليهود والنصارى . « فعلى هذا لا يكون قوله : أوتى أهل التوراة » إلى آخره شرح ، وتفصيل لما تقدم كما قاله الحافظ ، وإنما هو كلام مستأنف ، أريد به بيان فضل هذه الأمة على اليهود والنصارى ، وكثرة أجورها .

قوله : « أوتى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ، ثم عجزوا » كأنه أريد منهم أن يعملوا جميع النهار ، ولهذا قال : « ثم عجزوا » أى عن العمل بقية النهار .

قوله : « فأعطوا قيراطا قيراطا » أى كل فرد منهم أعطى قيراطا .

قوله : « ثم أوتى أهل الإنجيل » إلى آخره ، مثل سابقه .

« ثم أوتيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس » أى أن هذه الأمة أكملت العمل الذى طلب من اليهود والنصارى فعجزوا عن أدائه ، فلذلك أعطوا ضعفى ما أعطى من قبلهم من الأجر .

ويفهم منه أن هذه الأمة يستمر عملها بالقرآن إلى قيام الساعة ، لأنه

---

(١) جامع الترمذى جـ ٥ ص ١٥٣ .

قال : « فعملتم به حتى غربت الشمس » . كما يدل على حسد اليهود والنصارى للمسلمين على ما هم عليه من الحق ، ويدل على عظم فضل الله على هذه الأمة .

والمقصود منه فى هذا الباب قوله : « أوتى أهل التوراة التوراة » إلى آخره .

فإنه يدل على أن العمل فعل العباد ، ومن ذلك قراءة الكتاب الذى أوتوه ، وتلاوته ، وأن ما يعطيه الله العبد غير عمله ، بل هو جزاء عمله .

وكذلك الكتاب الذى آتاه الله اليهود والنصارى ، والمسلمين ليس هو عملهم وتلاوتهم ، فالذى أوتوه وحى أنزله الله على رسله إليهم ، وعملهم به هو فعلهم من تلاوته ، وامتثال أوامره ، والانتهاء عن مناهيه .

قال فى خلق أفعال العباد : « باب قول الله عز وجل : ﴿ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ فمنها العربى ، ومنها العجمى ، فذكر اختلاف الألسنة والألوان وهو كلام العباد ، وقال تعالى : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

وقال النبى ﷺ : « رجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل يقول : لو أوتيت مثل ما أوتى هذا لفعلت كما يفعل » .

فبين أن قيامه بالكتاب هو فعله .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ ﴾ . فأثبت الخير منهم فعلا »[1] .

معنى قيام العبد بالكتاب هو فعل العبد الذى يجازى عليه ، وليس هو الكتاب وبهذا يتضح مراده بهذه النصوص .

---

(١) خلق أفعال العباد ص ١٩٥ ــ ١٩٧ ملخصا .

قال : « باب : وسمى النبى ﷺ الصلاة عملا . وقال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » .

يعنى أن الصلاة فعل من أفعال العباد ، وفيها قراءة القرآن ، وأقل ذلك قراءة الفاتحة ، لأن الصلاة لا تصح بدون قراءة الفاتحة ، فتبين بذلك أن القراءة ليست هى المقروء ، وإنما هى عمل العبد وفعله وكسبه ، فالقراءة من جملة الصلاة ، وقد سمى النبى ﷺ الصلاة كلها عملا .

١٥٧ ـــ قال : « حدثنى سليمان ، حدثنا شعبة ، عن الوليد .

وحدثنى عباد بن يعقوب الأسدى ، أخبرنا عباد بن العوام ، عن الشيبانى ، عن الوليد بن العيزار ، عن أبى عمرو الشيبانى ، عن ابن مسعود ـــ رضى الله عنه ـــ أن رجلا سأل النبى ﷺ أى الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة لوقتها ، وبر الوالدين ، ثم الجهاد فى سبيل الله » .

الرجل السائل هو ابن مسعود كما صرح به فى الرواية الأخرى .

وهو يدل على حرص الصحابة على فعل الأفضل ، وتحريهم الأعمال الفاضلة فى التقديم ، لأن عمر الإنسان قصير ، وربما شغل عن كثير من العمل ، وفى كثير من الأوقات .

قال ابن دقيق العيد : « سؤاله عن أفضل الأعمال طلبا لمعرفة ما ينبغى تقديمه ، وحرصا على معرفة الأصل ليتأكد القصد إليه ، وتشتد المحافظة عليه ، ولعله أراد بالأعمال هنا ، الأعمال البدنية ، كما قال الفقهاء : « أفضل عبادات البدن الصلاة » ، فلا تكون أعمال القلوب داخلة فيه ، فعلى هذا لا تعارض بينه وبين حديث أبى هريرة ، أفضل الأعمال إيمان بالله »[1] .

---

(١) شرح العمدة جـ ١ ص ١٣١ ـــ ١٣٢ ملخصا .

وقال الحافظ : « محصل ما أجاب به العلماء عن الأحاديث التى اختلفت فيها الأجوبة ، بأن كل واحد منها أفضل الأعمال ، أن الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين بأن أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه ، أو بما لهم فيه رغبة ، أو بما هو لائق بهم .

أوكان الاختلاف ، باختلاف الأوقات ، بأن يكون العمل فى وقت أفضل منه فى غيره ، فقد كان الجهاد فى ابتداء الإسلام أفضل الأعمال ، أو أن « أفضل » ليست على بابها ، بل المراد بها الفضل المطلق »[1] .

« الصلاة لوقتها » يعنى فى الوقت الذى عينه الشارع ، وهو وقت الاختيار .

وبر الوالدين : التوسع فى الإحسان إليهما ، وضده العقوق .

ويراد بالبر أيضا التوسع فى فعل الطاعة كما فى قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ إلى آخر الآية[2] .

والجهاد : استفراغ الوسع وبذل الجهد فى قتال العدو ومدافعته وهو ثلاثة أنواع : جهاد العدو الظاهر من الكفار وغيرهم .

وجهاد العدو الخفى ، وهو الشيطان ، وجهاد النفس ، وكلها يشملها الحديث ، وتدخل فى قوله تعالى : ﴿ وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وغير ذلك من النصوص الآمرة بالجهاد .

والمقصود من الحديث هنا : تسمية الصلاة عملا ، حيث أجاب النبى ﷺ

---

(١) الفتح جـ ٢ ص ٩ ملخصا .
(٢) الآية ١٧٧ من سورة البقرة .

السائل الذى قال : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : « الصلاة لوقتها »فجعلها عملا ، ومعلوم أن الصلاة فيها قراءة القرآن ، فدل على أن القراءة من عمل العبد لأنها فعل القارىء كما سبق .

وتقدم نقل كلام البخارى فى هذا وقوله : « قد بين النبى ﷺ أن سؤال العبد غير ما يعطيه الله للعبد ، وأن قول العبد غير كلام الله ، هذا من العبد الدعاء والتضرع ، ومن الله الأمر والإجابة .

والقراءة لا تكون إلا من الناس ، وقد تكلم الله بالقرآن من قبل ، وكلامه قبل خلقه »[1] .

يعنى أنه جعل القراءة إلى إرادة المخاطبين فى قوله : « إذا قال العبد الحمد لله رب العالمين » قال الله حمدنى عبدى ، وقول العبد : الحمد لله » إلخ هى قراءته فهو يقرأ الفاتحة ، وهى من كلام الله تعالى .

وقوله : « وقد تكلم الله بالقرآن من قبل ، وكلامه قبل خلقه » يعنى جنس الكلام لأن الكلام هو الذى يوجد به الخلق عندما يقول الله له كن يكون موجودا ولا يدل ذلك على أن القرآن قديم كما يقوله أهل البدع ، فالله تكلم بالقرآن ثم أنزله على رسوله ﷺ .

قال : باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ .

قال ابن جرير : « الهلع : شدة الجزع ، مع شدة الحرص والضجر ، وروى بسنده عن ابن عباس : الهلوع هو الجزوع الحريص ، وعن سعيد بن جبير : هلوعا : شحيحا جزوعا .

---

(١) انظر خلق أفعال العباد ص ١٦٤ .

وعن عكرمة : ضجورا ، وقال الضحاك : بخيل منوع للخير ، جزوع إذا نزل به البلاء »[1] .

وقال الفراء : « الهلوع : الضجور ، وصفته كما قال الله تعالى : ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ فهذه صفة الهلوع . ويقال منه : هلع ، يهلع هلعا مثل جزع ، يجزع جزعا »[2] .

وقال المبرد : « الهلع : من الجبن عند ملاقاة الأقران ، يقال : نعوذ بالله من الهلع . ويقال : رجل هلوع ، إذا كان لا يصبر على خير ، ولا شر ، حتى يفعل فى كل واحد منهما غير الحق ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾[3] .

وكل هذه الأقوال متفقة فى المعنى ، والمعنى : أن هذه الأوصاف المذكورة خلقت فى الإنسان ، ولكنها فعله الذى يصدر منه عن إرادته فيلام عليها أو يثنى عليه بها ، فهو ضجور غير ثابت ، قليل الصبر ، ومنوع هلوع ، فإذا أصابه الخير منع ، وإذا وقع فى شدة جزع ، وذلك كله فعله المضاف إليه فعلا له على الحقيقة ، والله خلقه على ذلك ، فدل هذا على أن الله تعالى خالق أفعال الإنسان كما أنه خالقه .

قال الحافظ : « مقصود البخارى : أن الصفات المذكورة بخلق الله تعالى فى الإنسان ، لا أن الإنسان يخلقها بفعله »[4] .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢٩ ص ٧٨ .
(٢) معانى القرآن جـ ٣ ص ١٨٥ .
(٣) الكامل جـ ٣ ص ١٠٩٢ .
(٤) الفتح جـ ١٣ ص ٥١١ .

١٥٨ ــ قال : « حدثنا أبو النعمان ، حدثنا جرير بن حازم ، عن الحسن ، حدثنا عمرو بن تغلب ، قال : أتى النبى ﷺ مال فأعطى قوما ، ومنع آخرين فبلغه أنهم عتبوا ، فقال : إنى أعطى الرجل ، وأدع الرجل ، والذى أدع أحب إلى من الذى أعطى ، أعطى أقواما لما فى قلوبهم من الجزع والهلع وأكل أقواما إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير ، منهم عمرو بن تغلب ، فقال عمرو : ماأحب أن لى بكلمة النبى ﷺ حمر النعم » .

عمرو بن تغلب ، النمرى ، من النمر بن قاسط ، ويقال : العبدى من عبد القيس من أهل حوثا ، قرية من قرى البحرين ، صحابى جليل القدر .

روى عنه الحسن البصرى ، ولم يرو عنه غيره فيما قاله غير واحد .

وقال ابن عبد البر : روى عنه أيضا الحكم بن الأعرج ، وعداده فى أهل البصرة وهو كغيره من كثير من الصحابة الذين لم تعرف أخبارهم ، ولم تدون مآثرهم ، فعليهم رضوان الله ورحمته أجمعهم »[1] .

قوله : « أتى النبى ﷺ مال » إلخ هذا المال إما من الخمس الذى أفاءه الله على رسوله ، أو من الغنائم ، أو من الزكاة .

وفى الرواية التى ذكرها البخارى فى الجمعة : « أتى بمال ــ أو سبى »[2] .

وكانت سنته ﷺ أنه إذا جاءه شىء من المال وزعه فى مصالح الإسلام ولا يدخر شيئا ، ومن المصالح إعطاؤه من لم يتمكن الإسلام من قلوبهم فيؤثروا

---

(١) انظر تهذيب الكمال جـ ٢ ص ١٠٢٧ مخطوط ، ورجال البخارى للكلاباذى جـ ٢ ص ٥٣٧ .
(٢) انظر الفتح جـ ٢ ص ٤٠٣ .

الآخرة على الدنيا ــ يعطيهم خوفا عليهم من الجزع ، وعدم الصبر ، فيتزعزع إيمانهم ، فهذا الذى جعله يعطى قوما ، ويمنع آخرين ، يمنع كُمَّلَ الإيمان الذين ذاقوا طعمه وحلاوته ، التى لا تعادلها الدنيا بأسرها ، بل ولا شيئا منه ، ولهذا قال : ﷺ : « وأكل أقواما إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير » .

« فبلغه أنهم عتبوا » . قال الأزهرى : « قال ابن شميل ، وابن المظفر : العتب : الموجدة ، تقول : عتب فلان على فلان ، إذا وجد عليه »[1] .

والمعنى : أنه صار فى نفوسهم عليه شيء بسبب منعهم من هذا المال ، لأنهم يرون أنهم أحق من غيرهم ، وذلك لخفاء الأمر عليهم ، وإلا فالمتعين الرضا بما يفعله الرسول ﷺ والتسليم لأمره وفعله ، وهذا شأن الصحابة رضوان الله عليهم غالبا .

« فقال : إنى أعطى الرجل ، وأدع الرجل ، والذى أدع أحب إلىَّ من الذى أعطى » إلخ .

يعنى أن تخصيصه بعض الناس بالعطاء ليس دليلا على أنه ﷺ يحب المعطى أكثر من غيره ، بل يعطيه خوفا عليه من الجزع ، وعدم الصبر على بلوى الإعواز ، وقلة ذات اليد ، فإذا لم يحصل لهؤلاء ما يتطلعون إليه من العطاء كان ذلك عونا للشيطان عليهم ، فى إرجاعهم عن الإسلام ، أو اعتراضهم على النبى ﷺ فيكون فى ذلك هلاكهم .

أما الذين أودع الله فى قلوبهم الخير والغنى بالإسلام ومحبته والرغبة فيه ، والرجاء لما أعد الله لهم فى الآخرة ، فإنهم أحب إلى رسول الله ﷺ ممن أعطاهم من ذلك المال وغيره ، ولم يثنه عن عطائهم إلا ما علمه من الغنى فى قلوبهم ، وثقتهم بوعد الله لهم ، وإيمانهم الذى لايتزعزع ، وحبهم لله ورسوله ، بحيث يحبون ما أحبه الله ورسوله ، فلا يرون أن غير ما فعله أحسن مما فعله .

---

(١) تهذيب اللغة جـ ٢ ص ٢٧٧ .

قال الحافظ : « وفيه أن الرزق فى الدنيا ليس على قدر درجة المرزوق فى الآخرة ، ففى الدنيا تقع العطية والمنع بحسب السياسة الدنيوية ، فكان ﷺ يعطى من يخشى عليه الجزع ، والهلع لو منع ، ويمنع من يثق بصبره واحتماله ، وقناعته عنه بثواب الآخرة .

وفيه أن البشر جبلوا على حب العطاء ، وبغض المنع ، والإسراع إلى إنكار ذلك قبل الفكرة فى عاقبته إلا من شاء الله .

وفيه أن المنع قد يكون خيرا للممنوع ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ، ومن ثم قال الصحابى : « ما أحب أن لى بتلك الكلمة حمر النعم » ، والباء فى قوله : « بتلك » للبدلية ، أى ما أحب أن لى بدل كلمته [النوق الحمر] لأن الصفة المذكورة تدل على قوة إيمانه المفضى به إلى دخول الجنة ، وثواب الآخرة خير وأبقى .

وفيه استئلاف من يخشى جزعه ، أو يرجى بسبب إعطائه طاعة من يتبعه ، والاعتذار إلى من ظن ظنا ، والأمر بخلافه »[1] .

والمقصود من الحديث قوله ﷺ : « لما فى قلوبهم من الجزع ، والهلع » ، وقوله : « وأكل أقواما إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير » ، فإن الهلع والجزع ، وكذلك غنى القلب والإيمان ، كل ذلك وصف للإنسان ، وهو فعله وعمله ، والله خالقه .

فإن الله خلق الإنسان وخلق أفعاله ، فجعله فاعلا لهذه الأشياء .

قال الكرمانى : « الغرض من هذا الباب إثبات أن أخلاق الإنسان ، من الهلع ، وضده ، والضجر ، وعدمه ، والانقياد ، والامتناع وغيرهما بخلق الله تعالى »[2] .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥١١ .
(٢) انظر شرح الكرمانى جـ ٢٤ ص ٢٢٧ ــ ٢٢٨ .

قال : « باب ذكر النبى ﷺ وروايته عن ربه » .

قال العينى : « أى هذا باب فى ذكر النبى ﷺ وروايته عن ربه — أى بدون واسطة جبريل ﷺ — ويسمى بالحديث القدسى »[1] .

وكذا قال أكثر الشراح .

وقال الحافظ : « يحتمل أن تكون الجملة الأولى محذوفة المفعول ، والتقدير : ذكر النبى ﷺ ربه عز وجل .

ويحتمل أن يكون ضمِّن الذكر معنى التحديث ، فعداه بعن ، فيكون قوله : « عن ربه » متعلق بالذكر والرواية معًا ، وقد ترجم هذا فى كتاب خلق أفعال العباد بلفظ : ما كان النبى ﷺ يذكر ويروى عن ربه » . وهو أوضح »[2] .

وأقول : إن مراده أن الرسول ﷺ يروى عن ربه ما قاله — تعالى — وأنزل عليه ، فالرسول ﷺ يذكر بلفظه الذى هو فعله كلام ربه تعالى وكلام الله تعالى غير فعل الرسول ولفظه ، فاللفظ للرسول والملفوظ به هو كلام الله ، فهذا الباب كسابقه مما فيه التفريق بين فعل العبد المخلوق ، وبين ما هو وصف لله غير مخلوق ، وهذا هو الذى تتفق معه الأحاديث التى ذكرها ، والله أعلم .

١٥٩ — قال : « حدثنى محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا أبو زيد سعيد بن الربيع الهروى ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أنس — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ يرويه عن ربه عز وجل : « قال : إذا تقرب العبد إلىَّ شبرا ، تقربت إليه ذراعا ، وإذا تقرب إلىَّ ذراعا تقربت منه باعا ، وإذا أتانى مشيًا أتيته هرولة » .

---

(١) عمدة القارى جـ ٢٥ ص ١٨٨ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥١٢ .

قال شيخ الإسلام : « ظاهر الخطاب أن أحد التقديرين من جنس الآخر ، وكلاهما مذكور بلفظ المساحة .

فلا يخلو إما أن يكون ظاهر اللفظ فى تقرب العبد إلى ربه هو تقرب بالمساحة المذكورة ، أو لا يكون .

فإن كان ذلك هو ظاهر ذلك اللفظ ، فإما أن يكون ممكنا ، أو لا يكون .

فإن كان ممكنا ، فالآخر أيضا ممكن ، ولا يكون فى ذلك مخالفة للظاهر .

فإن لم يكن ممكنا فمن أظهر الأشياء للإنسان علمه بنفسه وسعيه ، فيكون قد ظهر للمخاطب معنى قربه بنفسه .

وقد علم أن قرب ربه إليه من جنس ذلك ، فيكون الآخر أيضا ظاهرا فى الخطاب ، فلا يكون ظاهر الخطاب هو المعنى الممتنع ، بل ظاهره هو المعنى الحق .

ومن المعلوم أنه ليس ظاهر الخطاب أن العبد يتقرب إلى الله بحركة بدنه شبرا ، وذراعا ، ومشيا وهرولة »[1] .

وبهذا يظهر معنى الحديث ، وأنه ليس المراد منه التقرب إلى الله تعالى بحركة البدن بهذه المقادير ، والهيئة ، وإنما المقصود التقرب إلى الله تعالى بالإنابة والرجوع وإقبال القلب ، وفعل الطاعات التى تقرب العبد إلى ربه ، وقد قال الرسول ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد »[2] .

وتقدم أن قرب الله تعالى ودنوه من بعض مخلوقاته لا يستلزم خلوه من فوق عرشه ، بل يقرب إلى من يشاء من عباده وهو فوق عرشه ، لا يكون

---

(١) نقض التأسيس جـ ٣ ص ٢١ — ٩٢ مخطوط .
(٢) سبق تخريجه فى الجزء الأول ص ٢٦٨ .

شيء من خلقه فوقه أبدا ، ولما قرب كليمه موسى إليه نجيا كان — جل وعلا — فوق عرشه ، وكذلك غير موسى إذا قربه إليه ، فإنه يقرب إليه وهو فوق عرشه — تعالى وتقدس — ، وسبق الكلام على هذا الحديث[1] .

والشاهد من الحديث قوله : « يرويه عن ربه — عز وجل — قال إذا تقرب » إلى آخره فالرسول ﷺ يروى عن ربه هذا الكلام ، الذى تكلم الله به فرواه عنه ، سواء كان ذلك بواسطة جبريل — وهو الظاهر — أو بغير واسطة والصحابة سمعوا هذا الكلام بلفظ الرسول ﷺ وصدقوا بأنه كلام الله رواه رسوله عنه .

١٦٠ — قال : « حدثنا مسدد ، عن يحيى ، عن التيمى ، عن أنس بن مالك ، عن أبى هريرة قال : « ربما ذكر النبى ﷺ » قال : « إذا تقرب العبد منى شبرا تقربت منه ذراعا ، وإذا تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا ، أو بوعا » .

الباع معروف ، وهو قدر مد اليدين ، من أطراف أصابع اليد إلى أطراف الأصابع الأخرى ، والبوع بفتح الباء مصدر باع ، وبالضم جمع باع .

قوله : « وقال معتمر : سمعت أبى ، سمعت أنسا ، عن أبى هريرة ، عن ربه — عز وجل — قصده التصريح بأنه مرفوع ، وأن النبى ﷺ رواه عن ربه عز وجل .

١٦١ — قال : « حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، حدثنا محمد بن زياد ، قال : سمعت أبا هريرة ، عن النبى ﷺ يرويه عن ربكم ، قال لكل عمل كفارة ، والصوم لى ، وأنا أجزى به ، ولخلوف فم

---

(١) يراجع الجزء الأول ص ٢٦٧ .

الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

قوله : « لكل عمل كفارة » يعنى جزاء وثوابا معينا ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ولكن الصوم يضاعف بدون حساب .

والسبب أنه يكون خالصا لأنه سر بين العبد وربه ، فإنه يمكنه أن يظهر للناس أنه صائم وهو يأكل فى الخفاء ، فإذا التزم العبد الصوم دل على خوفه من الله ، ورجائه لثوابه . وتقدم شرح الحديث والمقصود منه ظاهر ، وهو كالذى قبله .

١٦١ ــ قال : « حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ح .

وقال لى خليفة : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن أبى العالية ، عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه ، قال : « لا ينبغى لعبد أن يقول : إنه خير من يونس بن متى » ، ونسبه إلى أبيه » .

يونس بن متى ، هو نبى كريم من أنبياء الله ــ تعالى ــ الذين جاءوا بالهدى والنور لإخراج الناس به من الظلمات .

« قال العلماء : إنما قال ﷺ ذلك تواضعا إن كان قاله بعد أن علم أنه أفضل الخلق ، وإن كان قاله قبل علمه بذلك فلا إشكال .

وقيل : خص يونس عليه السلام بهذا القول لما يخشى على من سمع قصته أن يقع فى نفسه تنقص له ، فبالغ ﷺ فى ذكر فضله لسد هذه الذريعة .

وقد روى قصته السدى بأسانيده ، عن ابن مسعود وغيره : أن الله بعث يونس إلى أهل نينوى ــ وهى من أرض الموصل ــ فكذبوه ، فوعدهم بنزول

العذاب فى وقت معين ، وخرج عنهم مغاضبا لهم ، فلما رأوا آثار ذلك خضعوا لله ، وتضرعوا ، وآمنوا ، فرحمهم الله ، وكشف عنهم العذاب ، وذهب يونس ، وركب سفينة فلجّت به ، فاقترعوا فيمن يطرحونه فوقعت القرعة عليه ثلاثا ، فطرحوه ، فالتقمه الحوت »[1] ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فاستجاب الله له ، وأمر الحوت بطرحه على ساحل البحر ، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين تظله » والظلمات هى ظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل .

وما ذكره من أنه خص بالذكر إلى آخره هو المناسب لما جاء من النهى عن المفاضلة بين الأنبياء لئلا يفضى ذلك إلى تنقص أحد منهم .

ولهذا جاء فى رواية لهذا الحديث ذكرها البخارى فى الأنبياء . بلفظ « ما ينبغى لعبد أن يقول : إنى خير من يونس » .

وفى أخرى : « لا يقولن أحدكم : إنى خير من يونس »[2] .

قال الحافظ : « وعند الطبرانى : « لا ينبغى لأحد أن يقول » إلى آخره .

وفى أخرى : « عنده ما ينبغى لأحد أن يقول : أنا خير من يونس » . وهذا يؤيد أن المراد تفضيله على النبى ﷺ »[3] .

وهذا يدل على أن المقصود النهى عن المفاضلة بين أنبياء الله ، لئلا يكون ذلك طريقا إلى تنقص أحد منهم .

والمراد من الحديث قوله : « فيما يرويه عن ربه » فهذا لفظ الرسول ﷺ يروى هذا الكلام عن ربه ، يعنى أن الله تكلم به فرواه لنا عنه رسوله ﷺ بلفظه الذى هو فعله ، وهو مخلوق ، وما رواه فهو كلام الله غير مخلوق .

---

(١) الفتح جـ ٦ ص ٤٥٢ .
(٢) الفتح جـ ٦ ص ٤٥١ .
(٣) الفتح جـ ٦ ص ٤٥١ .

« ونسبه إلى أبيه » يعنى أن « متى » هو أبوه وليس ذلك اسم أمه ، وأراد به الرد على من زعم أن « متى » اسم أمه كما روى عن كعب الأحبار .

١٦٢ ــ قال : « حدثنا أحمد بن أبى سريج ، أخبرنا شبابة ، حدثنا شعبة ، عن معاوية بن قرة المزنى ، عن عبد الله بن المغفل المزنى قال : رأيت رسول الله ﷺ يوم الفتح على ناقة له يقرأ سورة الفتح — أو من سورة الفتح ، قال : فرجع فيها .

قال : ثم قرأ معاوية يحكى قراءة ابن مغفل ، وقال لولا أن يجتمع الناس عليكم لرجعت كما رجع ابن مغفل يحكى النبى ﷺ ، فقلت لمعاوية : كيف كان ترجيعه ؟ قال : آ آ آ ثلاث مرات » .

عبد الله بن مغفل بن عبد غنم المزنى أبو سعيد ، ذكر البخارى عن يحيى ابن معين أنه كان يكنى أبا زياد ، وهو من مشاهير الصحابة رضوان الله عليهم وهو أحد البكائين فى غزوة تبوك ، أسفا على فوت تلك الغزوة عليهم ، وشهد بيعة الرضوان وهو أحد العشرة الذين بعثهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ليفقهوا الناس بالبصرة وهو أول من دخل من باب مدينة تستر ، توفى فى البصرة سنة تسع وخمسين أو سنة ستين ، أو إحدى وستين رضى الله عنه ، وعن جميع إخوانه صحابة رسول الله ﷺ[١] .

« يوم الفتح » هو فتح مكة ، وكان فى رمضان ، من سنة ثمان من الهجرة .

وسورة الفتح نزلت فى غزوة الحديبية ، وكانت فى ذى القعدة سنة ست فى قول الجمهور ، نزلت فى مرجعه منها ، والفتح المذكور فى السورة هو صلح الحديبية على قول أكثر المفسرين من الصحابة وغيرهم ، ولا ينافى ذلك دخول

---

(١) انظر الإصابة جـ ٤ ص ٢٤٢ ، والاستيعاب جـ ٣ ص ٩٩٦ .

فتح مكة فيه وقراءته ﷺ سورة الفتح فى ذلك اليوم يدل على أن فتح مكة داخل فى قوله ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ .

« فرجع فيها » بتشديد الجيم ، أى ردد الصوت فى حلقه ، وجهر به مكررا بعد إخفائه .

قال المؤلف فى فضائل القرآن : « باب الترجيع ، ثم ذكر هذا الحديث — وفيه — قال : رأيت النبى ﷺ يقرأ ، وهو على ناقته — أو جمله — وهى تسير به وهو يقرأ سورة الفتح — أو من سورة الفتح ، قراءة لينة ، يقرأ وهو يرجع »[(1)] .

قال الحافظ ابن كثير : الترجيع : هو الترديد فى الصوت ، كما جاء أنه يقول : آ آ آ ، وكأن ذلك صدر من حركة الدابة تحته ، فدل على جواز التلاوة عليها ، وإن أفضى إلى ذلك ، ولا يكون ذلك من باب الزيادة فى الحروف ، بل هو مغتفر للحاجة ، كما يصلى على الدابة حيث توجهت به مع إمكان تأخير ذلك والصلاة إلى القبلة »[(2)] والصواب أنه قصد الترجيع وليس ذلك من حركة الدابة كما زعم ابن كثير ، وكثيرا ما كان ﷺ يقرأ فى أسفاره ، ولم يذكر ذلك عنه إلا فى هذه الواقعة ، فدل على قصده ذلك .

قال الحافظ : « الترجيع : هو تقارب ضروب الحركات فى القراءة ، وأصله الترديد وترجيع الصوت ، ترديده فى الحلق ، وقد فسره بقوله : آء آء آء ثلاث مرات » بهمزة مفتوحة بعدها ألف ساكنة ، ثم همزة أخرى .

قالوا : يحتمل أمرين : احدهما أن ذلك حدث من هز الناقة .

والآخر أنه أشبع المد فى موضعه فحدث ذلك ، وهذا أقرب ، لأنه قال :

---

(١) انظر الفتح جـ ٩ ص ٩٢ و جـ ١٣ ص ٥١٥ .

(٢) فضائل القرآن فى آخر تفسير ابن كثير جـ ٤ ص

« لولا أن يجتمع الناس عليكم لرجعت » .

وقد ثبت الترجيع فى غير هذا الموضع ، كما فى الشمائل للترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وابن أبى داود ، واللفظ له من حديث أم هانئ « كنت أسمع صوت النبى ﷺ وهو يقرأ ، وأنا نائمة على فراشى يرجع القرآن » .

والذى يظهر أن فى الترجيع قدرًا زائدا على الترتيل ، فعند ابن أبى داود عن علقمة ، قال : بت مع عبد الله بن مسعود فى داره ، فنام ، ثم قام ، فكان يقرأ قراءة الرجل فى مسجد حيه ، لا يرفع صوته ، ويسمع من حوله ، ويرتل ولا يرجع .

قال ابن أبى جمرة : معنى الترجيع تحسين التلاوة ، لا ترجيع الغناء ، لأن القراءة بترجيع الغناء تنافى الخشوع الذى هو مقصود التلاوة .

قال : « وفى الحديث : ملازمته ﷺ للعبادة ، لأنه حالة ركوبه وهو يسير لم يترك العبادة بالتلاوة ، وفى جهره فى ذلك إرشاد إلى أن الجهر بالعبادة قد يكون فى بعض المواضع أفضل من الإسرار ، مثل إرادة التعليم ، وإيقاظ الغافل ، ونحو ذلك »[1] .

والمقصود أن الترجيع فعل الرسول ﷺ بحركة لسانه وشفتيه يرجع كلام ربه الذى أبلغه الأمة عن الله تعالى .

فالمسموع بصوته هو كلام الله ، والصوت هو صوت المبلغ ، ولهذا يرفعه إن شاء ، ويخفضه ، ويرجعه إن شاء ولا يرجعه ، لأنه فعله يتعلق بإرادته ، وهو يبلغ كلام الله بأى وجه كان من أوجه التبليغ بصوته الذى يؤدى به

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٩٢ ببعض التصرف .

عن الله سواء رجع الكلام ، أو لم يرجع ، فلا يخرجه ذلك عن كونه كلام الله ، أبلغه إلى أمته عن ربه بصوته وروايته ولكن هو يتصرف بصوته فيرفعه تارة ، ويخفضه أخرى ، ويرجع الكلام مرة ، ويترك الترجيع أخرى إذ ذلك فعله الذى يفعله إذا شاء .

قال : « باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها ، لقول الله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

تقدم الكلام على هذه الآية ، ومراده أن التفسير والإيضاح والتفهيم لكلام الله من فعل المفسر ، والمبين الموضح لمن لا يفهم ذلك الكلام ، وهذا كله فعل العباد وهو مخلوق ، كما أن القراءة ، والكتابة ، والحفظ فعل العبد وهو مخلوق .

وأما المكتوب المقروء والمحفوظ إذا كان من كتب الله ، فهو كلام الله .

وكذلك التفسير ، والتبليغ ، والتبيين ، فعل العبد المفسر المبين ، وهو مخلوق وأما المفسر المبين المبلغ فهو كلام الله .

ومثل ذلك الترجمة من لغة إلى أخرى ، فإن الترجمة فعل المترجم ، ولهذا استدل فى كتابه خلق أفعال العباد ، على أن كلام العباد مخلوق ، وهو من أفعالهم بقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ ثم قال : « فمنها العربى ، ومنها العجمى ، فذكر اختلاف الألسنة والألوان ، وهو كلام العباد »[1] .

وروى عن حماد بن زيد أنه قال : « من قال : كلام العباد ليس بمخلوق فهو كافر »[2] .

---

(١) انظر ص ١٩٦ .

(٢) المصدر ص ١٩٣ .

وقال أيضا : « وقد كتب النبى ﷺ كتابا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم » وقرأه ترجمان قيصر ، على قيصر وأصحابه ، ولا نشك فى قراءة الكفار ، وأهل الكتاب أنها أعمالهم ، وأما المقروء ، فهو كلام الله العزيز المنان ، ليس بمخلوق فمن حلف بأصوات قيصر ، وبنداء المشركين الذين يقرون بالله لم يكن عليه يمين دون الحلف بالله ، لقول النبى ﷺ : « لا تحلفوا بغير الله »[1] .

يعنى أن الصوت الذى تكون به القراءة ونحوها فعل ذلك المصوت ، وفعل العبد مخلوق .

قال الحافظ : « وجه الدلالة من الآية ، أن التوراة بالعبرانية ، وقد أمر الله تعالى أن تتلى على العرب ، وهم لا يعرفون العبرانية ، فقضية ذلك الإذن بالتعبير عنها بالعربية »[2] . وتقدم وجه مراده بالباب .

قوله : « وقال ابن عباس : أخبرنى أبو سفيان بن حرب أن هرقل دعا ترجمانه ثم دعا بكتاب النبى ﷺ فقرأه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله ، إلى هرقل ، و ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ الآية .

أبو سفيان كنية ، ويكنى أيضا بأبى حنظلة ، واسمه صخر بن حرب بن أمية مشهور باسمه وكنيته ، أسلم عام الفتح وكان رئيسا لقومه قبل ذلك ، وشهد مع النبى ﷺ حنينا والطائف ، وروى أن عينه أصيبت يوم الطائف ، فقال له رسول الله ﷺ إن شئت دعوتُ فردت عليك ، وإن شئت فالجنة ، قال : الجنة ، مات فى خلافة عثمان سنة أربع وثلاثين ، وقيل غير ذلك ، رضى الله عنه وعن أصحاب رسول الله جميعا[3] .

هرقل : هو ملك الروم : هذا اسمه وهو بكسر الهاء وفتح الراء وسكون

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٨ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥١٦ .

(٣) انظر الإصابة جـ ٣ ص ٤١٢ والاستيعاب جـ ٢ ص ٧١٤ .

القاف ، ولقبه قيصر ، وهو لكل من ملك الروم كما أن كسرى لقب لمن ملك الفرس .

وهذا جزء من الحديث الطويل المذكور فى بدء الوحى وغيره .

قال الحافظ : « ووجه الدلالة منه أن النبى ﷺ كتب إلى هرقل باللسان العربى ، ولسان هرقل رومى ، ففيه إشعار بأنه اعتمد فى إبلاغه ما فى الكتاب على من يترجم عنه بلسان المبعوث إليه ليفهمه ، والمترجم المذكور هو الترجمان » .

واستدل فى خلق أفعال العباد بقصة هرقل على أن القراءة فعل القارئ .

فقال : قد كتب النبى ﷺ إلى قيصر : « بسم الله الرحمن الرحيم » وقرأه ترجمان قيصر على قيصر وأصحابه ، ولا يشك فى قراءة الكفار أنها أعمالهم ، وأما المقروء فهو كلام الله ــ تعالى ــ ليس بمخلوق ، ومن حلف بأصوات الكفار ونداء المشركين لم يكن عليه يمين ، بخلاف ما لو حلف بالقرآن »[1] .

وتقدم نقل هذا ، والحافظ تصرف فيه .

وفيه دليل على جواز إرسال الكتب التى فيها شىء من القرآن إلى الكفار ، وفيه كتابة « بسم الله الرحمن الرحيم » فى أول الكتب ، وبداءة صاحب الكتابة بنفسه ، وفيه قرن العبودية بالرسالة .

١٦٣ ــ قال : « حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عثمان بن عمر ، أخبرنا على بن المبارك ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ،

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥١٦ .

ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ لا تصدقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، و ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ ﴾ الآية .

المقصود بأهل الكتاب هنا اليهود ، والعبرانية لغتهم التى أنزلت التوراة بها ، وقد أخبر الله تعالى أنهم تعمدوا تحريفها ، والزيادة فيها والنقصان منها ، لتتفق مع أهوائهم ، وما يريدون ، فإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يوثق بترجمتهم وتفسيرهم لها ، مع أن الله تعالى قد أغنانا عما فى أيديهم بما أنزل علينا من كتابه المهيمن على جميع الكتب قبله ، وبما جاء به نبينا ﷺ من الحكمة التى تفسر القرآن وتبينه .

روى الإمام أحمد ، وابن أبى شيبة من حديث جابر أن عمر أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه عليه ، فغضب ، وقال : « لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق فتكذبوا به ، أو بباطل فتصدقوا به ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى » قال الحافظ : « رجاله موثقون إلا أن مجالدا فيه ضعف »(1) .

وقد أمرنا الله تعالى أن نقول : ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(2) .

وكان رسول الله ﷺ كثيرا ما يقرأ هذه الآية ﴿ قُولُوٓاْ آمَنَّا ﴾ والآية التى فى سورة آل عمران ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ ﴾

---

(1) الفتح جـ ١٣ ص ٣٣٤ .

(2) الآيتان ١٣٦ و ١٣٧ من سورة البقرة .

الآية[1] فى ركعتى الفجر .

وفى الدر المنثور : « أخرج ابن أبى حاتم ، عن معقل بن يسار ، قال : قال رسول الله ﷺ : « آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن »[2] .

قوله : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » . قال الحافظ : أى إذا كان ما يخبرونكم به محتملا ، لئلا يكون فى نفس الأمر صدقا ، فتكذبوه ، أو كذبا فتصدقوه فتقعوا فى الحرج ، ولم يرد النهى عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه ، نبه على ذلك الشافعى رحمه الله .

ويؤخذ من هذا الحديث التوقف عن الخوض فى المشكلات ، والجزم فيها بما يقع فى الظن ، وعلى هذا يحمل ما جاء عن السلف من ذلك »[3] .

والمقصود أن الترجمة والتفسير ليست هى ذلك الكتاب المترجم أو المفسر ، ولا تسمى الترجمة أو التفسير قرآنا ، أو إنجيلا ، أو توراة .

« بل اتفق المسلمون على جواز مس المحدث لكتب التفسير ، واتفقوا على أنه لا تجوز الصلاة بتفسيره ، وكذلك ترجمته بغير العربية عند عامة أهل العلم ، وتجويز إقامة الترجمة مقامه فى بعض الأحكام لا يقتضى تناول اسمه لها ، كما أن القيمة فى الزكاة إذا أخرجت عن الإبل أو البقر أو الغنم لم تسم إبلا ولا بقرًا ، ولا غنمًا ، بل تسمى باسمها كائنة ما كانت »[4] .

---

(١) الآية ٨٤ من سورة آل عمران .

(٢) جـ ١ ص ٣٣٨ .

(٣) الفتح جـ ٨ ص ١٧٠ .

(٤) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٥٤٢ .

« مع أن أكثر المنتسبين إلى العلم من المسلمين لا يستطيعون القيام بترجمة معانى القرآن ، وتفسيره ، وبيانه ، فلأن يعجز اليهود عن ترجمة ما عندهم ، وبيانه أولى .

لأن عقل المسلمين أكمل ، وكتابهم أقوم قيلا ، وأحسن حديثا ، ولغتهم أوسع ، لا سيما إذا كانت تلك المعانى غير محققة بل فيها باطل كثير ، فإن ترجمة المعانى الباطلة وتصويرها صعب ، لأنه ليس لها نظير من الحق من كل وجه »[1] .

والمقصود أنه إذا ترجم كتاب الله من لغة إلى أخرى فإن الترجمة ليست هى كلام الله ، وإنما هى ترجمة لكلامه تعالى ، وهى غير المترجم بل هى عمل المترجم ، ومعلوم أن عمل الإنسان مخلوق مثله .

وليس الأمر كما تقوله الأشعرية إن كلام الله لا يختلف باختلاف اللغات ، فبأى لسان قرئ فهو كلام الله .

بل إذا ترجم من لغة إلى أخرى ، لم يكن هو كلام الله تعالى ، وهذا هو ما أراد البخارى بيانه فيما يظهر والله أعلم .

١٦٤ ــ قال : « حدثنا مسدد ، حدثنا إسماعيل ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أتى النبى ﷺ برجل ، وإمرأة من اليهود ، قد زنيا ، فقال : ما تصنعون بهما ؟ قالوا : نسخم وجوههما ، ونخزيهما ، قال : ﴿ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ﴾ فجاءوا فقالوا لرجل ممن يرضون : يا أعور اقرأ ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها ، فوضع يده عليه ، قال : ارفع يدك فإذا

---

(١) المرجع جـ ٤ ص ١١٧ .

فيه آية الرجم تلوح ، فقال : يا محمد : إن عليهما الرجم ، ولكننا نتكاتمه بيننا ، فأمر بهما فرجما ، فرأيته يجانئ عليهما الحجارة » .

قد أمر الله نبيه أن يحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله عليه أو أن يعرض عنهم ، فإنهم لا يضرونه شيئا .

وأخبر تعالى أنهم إذا جاءوه ليحكم بينهم ليس قصدهم حكم الله ، فإنهم يعلمونه فى كتابهم ، وإنما يحكمونه رجاء أن يحكم بينهم بما يهوونه ، قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

فنهى الله ـــ تعالى ـــ رسوله أن يحزن على المسارعين فى الكفر من أهل الكتاب وأهل النفاق ، الخارجين عن طاعة الله ، وطاعة رسله ، المقدمين لآرائهم وأهوائهم على شرائع الله تعالى ، ومن الذين أظهروا الإيمان بألسنتهم ، وقلوبهم خاوية منه منطوية على الكفر بالله ورسله وعبادة الشهوات ، وهم ما بين يهودى قد نصب العداء لله ولدينه ومن اتبعه ، فهو يجهد نفسه فى محاربته ، أو زنديق كره الحق ومن جاء به ومن اتبعه ، وكل منهم قد أكل قلبه الحقد على هذا الدين ، وعلى من اتبعه ، وكل منهم سماع للكذب يقوله ،

---

(١) الآيات ٤١ ـــ ٤٣ من سورة المائدة .

وينميه ، ويسمعه ويقبله ، وأكال للسحت غير مبال بعاقبته ، وهم مع ذلك أهل تحريف ، وتزييف اتباعا لأهوائهم وبعدا عن الحق ، ومحاربة له ، يوصى بعضهم بعضا بعدم قبول ما يخالف أهواءهم وأنظمتهم التى وضعوها ، ووفق ما يشتهون ، وما توحيه إليهم شياطينهم أولئك الذين أراد الله تعالى فتنتهم ، فلا أحد يملك هدايتهم ، لأن قلوبهم نجسة فلا تقبل طهارة الإيمان ، وإنما هى محل للكفر وكل خلق خبيث .

وقد خير الله رسوله بين الحكم بينهم وبين الإعراض عنهم ، وأمره إن حكم أن يحكم بينهم بالعدل ، وإن كانوا أعداء لله ورسوله ، فإن الله حكم عدل يحب العدل وأهله .

وأخبر تعالى أن أمر هؤلاء عجيب ، كيف يحكمونك وعندهم كتاب الله التوراة فيها حكمه واضح لهم ، ولكنهم يعرضون عنه طلبا لما يهوونه ، وليس هذا شأن المؤمنين ، ولكنه نهج الكافرين .

روى أبو داود من حديث أبى هريرة قال : « زنى رجل من اليهود ، وامرأة ، فقال بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى هذا النبى ، فإنه نبى بعث بالتخفيف ، فإن أفتانا بفتيًا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله ، قلنا : فتيا نبى من أنبيائك .

قال : فأتوا النبى ﷺ وهو جالس فى المسجد فى أصحابه ، فقالوا : يا أبا القاسم ما ترى فى رجل وامرأة زنيا ؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدراسهم ، فقام على الباب ، فقال : « أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ما تجدون فى التوراة على من زنى إذا أحصن ؟ قالوا : يحمم ويجبه — والتجبيه : أن يحمل الزانيان على حمار ، وتقابل أقفيتهما ، ويطاف بهما —

قال : وسكت شاب منهم ، فلما رآه النبى ﷺ سكت ألظ به النشدة ، فقال : اللهم إذ نشدتنا فإنا نجد فى التوراة الرجم .

فقال النبى ﷺ : فما أول ما ارتخصتم أمر الله ؟

قال : زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا ، فأخر عنه الرجم ، ثم زنى رجل فى أمرة من الناس ، فأراد رجمه ، فحال قومه دونه ، وقالوا : لا يرجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه ، فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم .

فقال النبى ﷺ : « فإنى أحكم بما فى التوراة » فأمر بهما فرجما .

قال الزهرى : فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ ﴾ كان النبى ﷺ منهم »[1] .

فهذه القصة تبين سبب مجيئهم إلى النبى ﷺ وأن الذى جاء بالزانيين هم اليهود ، رجاء أن يحكم عليهما بغير ما أتى فى التوراة من الرجم ، ولكنه ﷺ أحيا حكم الله فيها بعد ما أماتوه .

قوله : « ما تصنعون بهما ؟ » يعنى ما هو حكم الله فيهما الذى فى كتابكم ، فكتموه ، وقالوا : « نسخم وجوههما ، ونخزيهما » أى نسود وجوههما بالفحم ، ويركبان على حمار يطاف بهما فى الطرق ، قفا كل واحد إلى قفا الثانى ، وهذا هو الخزى الذى يفعلونه بهما .

فقال لهم النبى ﷺ : ﴿ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ أن ما ذكرتم هو حكم الله فيهما الذى فى التوراة .

ومعلوم أنهم ينقلون ما فيها بالعربية كما هو ظاهر لأن الرسول ﷺ لا يعرف العبرانية .

« فقالوا لرجل ممن يرضون : يا أعور اقرأ ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليه » يرضون ــ يعنى يثقون به ، وأنه موافق لهم على كتمان

---

(١) السنن جـ ٤ ص ٥٩٨ رقم ٤٤٥٠ وفيه رجل مجهول .

آية الرجم ، ويحتمل أن الكتاب الذى يقرأ بغير العربية ، وأنه يقرأه ويترجمه ، ويحتمل أنه قد ترجم إلى العربية ، فعلى الأول وضعه يده على الموضع الذى فيه آية الرجم لإخفائها عمن يعرف لغتهم ممن أسلم ، أو لا يوافقهم ، وعلى الثانى ظاهر .

قوله : « ارفع يدك ، قيل : إن القائل عبد الله بن سلام ، كما فى بعض الروايات ، وهذا يؤيد الاحتمال الأول .

« تلوح » يعنى أنها واضحة لمن يقرأ ذلك الكتاب .

« نتكاتمه فيما بيننا » يعنى يتواطئون على كتمانه ، وعدم إظهاره لأحد .

« يجانئ عليها الحجارة » يعنى أنه يقيها بنفسه عن الحجارة .

والمقصود أن الأمر بتلاوة التوراة على من لا يعرف اللغة التى كتبت بها لابد أن يكون ذلك عن ترجمة لها ، ثم اعتماد تلك الترجمة مما يقتضى الاكتفاء بترجمة المترجم وإن كان واحدا .

والترجمة ليست هى المترجم ، وإنما هى فعل المترجم وعمله .

وفعله وعمله مخلوق ، وهذا هو المراد بالاستدلال بهذه القصة .

وفيه دلالة ظاهرة فى أن اليهود كانوا ينسبون إلى التوراة ما ليس فيها . وأنهم يعرفون الحق ، ولا يتبعونه ، بل يتعمدون تركه .

قال : « باب قول النبى ﷺ : « الماهر بالقرآن مع السفرة البررة ، وزينوا القرآن بأصواتكم » .

قصد البخارى ـــ رحمه الله ـــ بهذا الباب زيادة إيضاح ما سبق فى الأبواب قبل هذا ، من أن التلاوة فعل التالى ، فهى داخلة فى أفعال العباد ، ولهذا

توصف بالمهارة ، وهى جودة الحفظ ، وعدم التردد فى التلاوة ، وتوصف بالحسن والمد ، والترتيل ، والتطريب ، وتحسين الصوت ، وبأضداد ذلك ، كما سبق وصفها بالترجيع ، والخفض ، والرفع ، ومد الصوت .

وهذا كله يحقق أن التلاوة فعل القارئ الذى يقرأ القرآن .

قوله : « الماهر » قال الأزهرى : « الماهر : الحاذق بكل شيء ، وأكثر ما يوصف به السابح ، يقال مهرت بهذا الأمر أمهر به مهارة ، إذا صرت به حاذقا »[1] .

قال الحافظ : « الماهر : هو الحاذق ، والمراد به هنا جودة التلاوة مع حسن الحفظ .

والمراد بالسفرة : الكتبة جمع سافر ، مثل كاتب وزنه ومعناه ، وهم هنا الذين ينقلون من اللوح المحفوظ[2] وصفوا بالكرام لكثرة طاعتهم ، وبعدهم عما يشين .

والبررة : المكثرون فى الطاعة ، المبالغون فيها .

وقال الحافظ : « المطيعون ، المطهرون من الذنوب ، والكرام : المكرمين عند الله »[3] .

ومعلوم أن إكرام الله لهم لطاعتهم ، وبرهم .

ورواية مسلم : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه ، وهو عليه شاق ، له أجران »[4]

---

(١) تهذيب اللغة جـ ٦ ص ٢٩٨ ــ ٢٩٩ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥١٨ .
(٣) المصدر المذكور .
(٤) انظر مسلم جـ ١ ص ٥٤٩ ــ ٥٥٠ رقم ٧٩٨ .

فالمهارة بالقرآن : جودة الحفظ ، وجودة التلاوة ، من غير تردد فيه ، لأن الله تعالى يسره عليه كما يسره على الملائكة الكرام البررة ، فكان مثلهم فى قراءة القرآن ومعهم فى الدرجة عند الله تعالى .

وتقدم الكلام على معنى قوله : « زينوا القرآن بأصواتكم » ، وأن المراد به تحسين الصوت حتى يجذب المستمع إلى الإصغاء إليه ، ويجد به لذة ، وينفتح له قلبه وتحسين الصوت فعل العبد ، ووصفه ، ولهذا قال فى خلق أفعال العبد :

« فبين النبى ﷺ أن أصوات الخلق ، وقراءتهم ، ودراستهم وتعليمهم ، وألسنتهم مختلفة ، بعضها أحسن ، وأزين ، وأحلى ، وأصوت وأرتل ، وأعلى ، وألحن ، وأخف ، وأغض ، وأخشع ، قال تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَٰتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ ، وأجهر ، وأخفى ، وأمهر ، وأمد ، وألين ، وأخفض من بعض ، ثم ذكر بسنده عن عائشة رضى الله عنها ، عن النبى ﷺ قال : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يشتد عليه له أجران »[1] .

١٦٥ ـــ قال : « حدثنى إبراهيم بن حمزة ، حدثنى ابن أبى حازم ، عن يزيد ، عن محمد بن إبراهيم عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، أنه سمع النبى ﷺ يقول : « ما أذن الله لشىء ، ما أذن لنبى حسن الصوت بالقرآن ، يجهر به » .

رواية مسلم : « ما أذن الله لشىء ، ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به »[2] .

وكأنه قوله « يجهر به مدرج فى الحديث ، ومعنى « ما أذن » ما استمع

---

(١) خلق أفعال العباد ، ص ٩٣ ـــ ٩٤ .

(٢) انظر صحيح مسلم جـ ١ ص ٥٤٥ .

لشيء كاستماعه لنبى حسن الصوت ، يتغنى بالقرآن ، فالله تعالى يحب حسن الصوت فيمن يتلو كتابه ويستمع لذلك الصوت أكثر من غيره ، وإلا فهو تعالى لا يفوت سمعه صوت .

والقرآن هنا اسم جنس لكل كتاب أنزله الله تعالى على نبى من أنبيائه .

وقوله يجهر به تفسير لقوله يتغنى به ، وهو كلام لأحد رواة الحديث وتقدم شرح هذا الحديث فى باب قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ .

والمقصود منه هنا قوله : « ما أذن لنبى حسن الصوت بالقرآن » فأضاف حسن الصوت إلى النبى ، لأنه فعله وعمله ، وبين أنه مطلوب منه ، ومحبوب لله تعالى فتبين بهذا أن التلاوة وتحسين الصوت بها ، والجهر بها وخفض الصوت كله فعل العبد ، والعبد وأفعاله مخلوق .

وأما القرآن الذى يحسن صوته به ، ويرفعه أو يخفضه ، فهو كلام الله غير مخلوق .

١٦٦ ـــ قال : « حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، عن يونس ، عن ابن شهاب ، أخبرنى عروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيب ، وعلقمة بن وقاص ، وعبيد الله بن عبد الله ، عن حديث عائشة ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، وكل حدثنى طائفة من الحديث قالت : فاضطجعت على فراشى ، وأنا حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله يبرئنى ولكن والله ما كنت أظن أن الله ينزل فى شأنى وحيًا يتلى ، ولشانى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىَّ بأمرٍ يتلى ، وأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ ﴾ عشر الآيات كلها » .

« الإفك » هو الكذب الظاهر البين ، وهو من عظائم الذنوب .

« طائفة من الحديث » أى قطعة منه ، وهو جمع حديثهم ، ولم يكونوا متفقين على جميعه ، والقائل هو ابن شهاب الزهرى .

« وأنا حينئذ أعلم أنى بريئة » يعنى أن ما قاله أهل الإفك بعيد عنها ، وليست من أهله ، فهى أعلم بنفسها ، وعلى يقين من أن الله سيظهر براءتها لنبيه وعباده ويجزى الأفاكين ، الذين آذوا رسول الله ﷺ وأهله والمؤمنين .

قال أبو بكر ابن العربى : « كل من سب عائشة ــ رضى الله عنها ــ بما برأها الله منه فهو مكذب لله ، ومن كذب الله ، فهو كافر ، وهذا قول مالك ، وهو أمر واضح لأهل البصائر »[1] .

وقال القاضى أبو يعلى : « من قذف عائشة بما برأها الله منه كفر ، بلا خلاف .

وقد حكى الإجماع على هذا غير واحد ، وصرح غير واحد من الأئمة بهذا الحكم .

فروى عن مالك : من سب أبا بكر جلد ، ومن سب عائشة قتل ، قيل له : لم ؟ قال : من رماها فقد خالف القرآن ، لأن الله تعالى قال : ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال أبو بكر بن زياد النيسابورى : سمعت القاسم بن محمد يقول : لإسماعيل بن إسحاق : أتى أمير المؤمنين بالرقة برجلين شتم أحدهما فاطمة ، والآخر عائشة فأمر بقتل الذى شتم فاطمة ، وترك الآخر ، فقال إسماعيل : ما حكمهما إلا أن يقتلا ، لأن الذى شتم عائشة رد القرآن ، وعلى هذا مضت سيرة أهل الفقة والعلم ، من أهل البيت وغيرهم .

---

(١) أحكام القرآن جـ ٣ ص ١٣٥ .

وقال أبو السائب القاضى : كنت يوما بحضرة الحسن بن زيد الداعى ، وكان بحضرته رجل ، فذكر عائشة بذكر قبيح من الفاحشة ، فقال : يا غلام اضرب عنقه ، فقال له العلويون : هذا رجل من شيعتنا ، فقال : معاذ الله هذا رجل طعن على النبى ﷺ قال الله تعالى : ﴿ ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ أُوْلَـٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ ، فإن كانت عائشة خبيثة فالنبى ﷺ خبيث ، فهو كافر فاضربوا عنقه ، فضربوا عنقه وأنا حاضر ، رواه اللالكائى ، وروى عن محمد بن زيد ، أخى الحسن بن زيد ، أنه قدم عليه رجل من العراق ، فذكر عائشة بسوء ، فقام إليه بعمود فضرب به دماغه فقتله ، فقيل له : هذا من شيعتنا ، ومن بنى الآباء ، فقال : هذا سمى جدى ــ يعنى رسول الله ﷺ ــ قرنان[1] ومن سمى جدى قرنان استحق القتل فقتله .

وأما سب غير عائشة من أزواج النبى ﷺ ففيه قولان : أحدهما أنه كساب غيرهن من الصحابة .

والثانى وهو الأصح أنه من قذف واحدة من أمهات المؤمنين ، فهو كقذف عائشة رضى الله عنها .

وذلك لأن هذا فيه عضاضة على رسول الله ﷺ وأذى له أعظم من أذاه بنكاحهن بعده ، وهذا ظاهر[2] .

« وأن الله يبرئنى » أى أنها على علم ويقين بأن الله تعالى سيظهر براءتها لنبيه ، بأمر يطلعه عليه إما رؤيا يريها إياه ، أو غير ذلك ، غير أنها ما كانت تنتظر أن ينزل فى شأنها وحيا من كلامه تعالى يتلى إلى يوم القيامة كما وقع

---

(١) قال الليث : القرنان نعت سوء فى الرجل ، الذى لا غيرة له ، قال الأزهرى : هذا من كلام حاضرة العراق ، ولم أر البوادى لفظوا به ، ولا عرفوه » تهذيب اللغة جـ ٩ ص ٩٣ .
(٢) من الصارم المسلول ص ٥٦٥ ــ ٥٦٧ .

لأنها فى نفسها أقل قدرا من أن تتطلع إلى هذا الأمر العظيم .

فأنزل الله ــ عز وجل ــ فى براءتها بضعة عشر آية .

والمقصود قولها : « والله ما كنت أظن أن الله ينزل فى شأنى وحيا يتلى ، ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىَّ بأمر يتلى » ، فبينت أن التلاوة غير المتلو المنزل ، فالتلاوة فعل العباد ، والإنزال والإيحاء والتكلم فعل الله وصفته ، كما قال المؤلف فى خلق أفعال العباد : « فبينت بقولها « ما كنت أظن أن الله ينزل فى شأنى وحيا يتلى » إن الإنزال من الله ، وإن الناس يتلونه »[1] .

قال العينى : « مطابقته للترجمة فى قوله : « بأمر يتلى » أى بالأصوات فى المحاريب والمحافل »[2] وتقدم شرح الحديث فى باب قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ .

١٦٧ ــ قال : « حدثنا أبو نعيم ، حدثنا مسعر ، عن عدى بن ثابت ، أراه عن البراء ، سمعت النبى ﷺ يقرأ فى العشاء : ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ فما سمعت أحدا أحسن صوتا ــ أو قراءة منه » .

ذكر هذا الحديث فى كتاب الصلاة ، وفيه أنه كان فى سفر ، وذكر الحافظ فى شرحه أن فى رواية النسائى ، أنها فى الركعة الأولى ، وذكر فى تفسير سورة ﴿ وَٱلتِّينِ ﴾ أن فى كتاب الصحابة لأبى على ابن السكن فى ترجمة زرعة بن خليفة ، رجل من أهل اليمامة ، أنه قال : سمعنا بالنبى ﷺ فأتيناه ، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا ، وأسهم لنا ، وقرأ فى الصلاة بـ ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ و ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ .

---

(١) خلق أفعال العباد ص ٨٦ .

(٢) عمدة القارى جـ ٢٥ ص ١٩٣ وأخذه من الكرمانى انظر شرحه جـ ٢٥ ص ٢٣٤ .

ثم قال : « فيمكن أن تكون هى الصلاة التى عين البراء بن عازب أنها العشاء ، ويقوى ذلك أنا لا نعرف فى خبر أنه قرأ بالتين ، إلا فى حديث البراء ابن عازب ، ثم حديث زرعة المذكور »[1] .

وفيه أن النبى ﷺ كان يقرأ فى الصلاة أحيانا بقصار المفصل .

وفيه استحباب تحسين الصوت بالقرآن فى الصلاة وغيرها .

والمقصود قوله : « فما سمعت أحدا أحسن صوتا ـــ أو قراءة منه » فجعل الصوت والقراءة له ، فدل على أن الصوت ، والقراءة ليست هى المصوت به ، المقروء ، وهو واضح ، والإمام البخارى رحمه الله يكرر ذلك ، وينوع عليه الأدلة ، لأنه قد خفى على بعض العلماء ، ولأنه قد ابتلى بمن يقول : إن القراءة هى المقروء ، والتلاوة هى المتلو ، ونسب إليه زورًا أنه يقول : لفظى بالقرآن مخلوق ، وهو برىء من ذلك .

١٦٨ ـــ قال : « حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا هشيم ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ قال : كان النبى ﷺ متوار بمكة ، وكان يرفع صوته ، فإذا سمع المشركون سبوا القرآن ، ومن جاء به ، فقال الله ـــ عز جل ـــ لنبيه : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ .

تقدم شرح هذا الحديث ، والشاهد منه هنا قوله : « يرفع صوته ، فإذا سمع المشركون سبوا القرآن » وقوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ ويعنى بالصلاة القراءة ، فالصوت له ـــ أى للقارىء ـــ ورفعه وخفضه وصف للصوت ، وهو الذى إن شاء رفعه ، وإن

---

(١) الفتح جـ ٢ ص ٢٥٠ وجـ ٨ ص ٧١٣ ـــ ٧١٤ .

شاء خفضه ، فذلك فعله ، وهو وفعله مخلوق ، أما القرآن الذى يسر به صوته ، أو يخافت به ، أو يبتغى به بين ذلك سبيلا ، فهو كلام ربه غير مخلوق ، بل هو وصف له .

١٦٩ ــ قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثنى مالك ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة ، عن أبيه ، أنه أخبره أن أبا سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ قال له : إنى أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت فى غنمك ، أو باديتك فأذنت للصلاة ، فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا أنس ، ولا شىء إلا شهد له يوم القيامة ، قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله ﷺ » .

« تحب الغنم والبادية » محبته للبادية تابعة لمحبة الغنم ، لطلب المراعى لها وذلك لا يكون إلا فى البادية غالبا ، والبادية خلاف الحاضرة التى فيها البناء والمدن .

وهى مأخوذة من البدو والظهور ، لأنها ليس فيها ما يسترها من المبانى والحيطان فهى صحراء ، لا عمارة فيها .

« فأذنت للصلاة » الأذان : هو الإعلام بدخول وقت الصلاة ، وطلب حضور المصلين لأدائها جماعة ، ولا يسمى أذانا إلا إذا كان برفع الصوت .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾[2] ولما نزل قول الله تعالى : ﴿ وَأَذَٰنٌ

---

(١) الآية ٧٠ من سورة يوسف .

(٢) الآية ٢٧ من سورة الحج .

مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾[1] أمر رسول الله ﷺ برفع الصوت بهذه البراءة فى ذلك اليوم ، قال أبو هريرة : كنت مع على بن أبى طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فكنا ننادى : أن لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله ــ أو أمده ــ إلى أربعة أشهر ، فإذا مضت الأربعة الأشهر ، فإن الله برىء من المشركين ورسوله ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك ، قال : فكنت أنادى حتى صحل صوتى »[2] . أى بحح صوته لشدة رفعه .

« فارفع صوتك بالنداء » أى اجتهد فى رفع صوتك ، ولا تألوا ، وإلا فأصل الأذان لا يكون إلا برفع الصوت .

قال الحافظ : « فيه إشعار بأن أذان من أراد الصلاة كان متقررا عندهم ، لاقتصاره على الأمر بالرفع دون أصل التأذين .

واستدل به الرافعى على استحباب الأذان للمنفرد ، وهوالراجح عند الشافعية »[3] .

« فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ، ولا إنس ، ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة » .

مدى الصوت نهايته ، وأقصى ما يبلغه ، والمعنى أن كل من سمع صوته من عاقل وغيره ، من البهائم والجمادات ــ فإن لها سماعا يعلمه الله تعالى ــ فإنها تشهد للمؤذن بالتوحيد عند الله يوم القيامة ، وهذه فضيلة عظيمة

---

(١) الآية ٣ من سورة براءة .

(٢) مسند الإمام أحمد جـ ٢ ص ٢٩٩ .

(٣) الفتح جـ ٢ ص ٨٨ .

للأذان ، فينبغى أن يحافظ على ذلك ويحرص عليه .

وفى سنن أبى داود ، والنسائى عن أبى هريرة : « المؤذن يغفر له مدى صوته ويشهد له كل رطب ويابس » ، قال الخطابى : « المعنى أنه يستكمل مغفرة الله إذا استوفى وسعه فى رفع الصوت ، فيبلغ الغاية من المغفرة ، إذا بلغ الغاية من الصوت ، وقيل المعنى : لو قدر أن المكان الذى يصل إليه صوته لو كان له ذنوب تملؤه لغفرت »[1] .

« وقال النوربشتي : المراد من هذه الشهادة ، اشتهار المشهود له يوم القيامة بالفضل وعلو الدرجة ، كما يفضح بالشهادة قوما ، فكذلك يكرم بالشهادة آخرين »[2] .

وقال الكرمانى : « رفع الصوت بالقرآن ، أحق بالشهادة ، وأولى »[3] .

يعنى أن ذلك مراد البخارى من الحديث .

والظاهر أن مراده : أن أصوات العباد من أفعالهم التى يثابون عليها . أو يعاقبون ، ومن ذلك القراءة ، والتلاوة ، فهى فعل التالى الذى يثاب عليها .

١٧٠ ـــ قال : « حدثنا قبيصة ، حدثنا سفيان ، عن منصور ، عن أمه ، عن عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ قالت : كان النبى ﷺ يقرأ القرآن ، ورأسه فى حجرى ، وأنا حائض » . ترجم لهذا الحديث فى الحيض : باب قراءة الرجل فى حجر امرأته وهى حائض . وكان أبو وائل يرسل خادمه ، وهى حائض إلى أبى رزين فتأتيه بالمصحف ، فتمسكه بعلاقته ، ثم ذكر الحديث بلفظ : « كان يتكىء فى حجرى ، وأنا

---

(١) معالم السنن جـ ١ ص ٣٥٤ والنسائى جـ ٢ ص ١٣ .

(٢) الفتح جـ ٢ ص ٨٩ .

(٣) انظر شرحه للبخارى جـ ٢٥ ص ٢٣٥ .

حائض ، ثم يقرأ القرآن » وفعل أبى وائل يدل على جواز حمل الحائض المصحف ، ولكن من وراء حائل ، وكذا أبو رزين لو كان ذلك غير جائز عنده لم يمكنها من حمله ، إلا أن يقال : إنه لم يعلم بحالها .

والحجر بفتح الحاء وسكون الجيم وكسرها ، هو حضن الإنسان ما بين يديه من ثوبه .

قال ابن دقيق العيد : « فيه إشارة إلى أن الحائض لا تقرأ القرآن ، لأن قولها : « فيقرأ القرآن » إنما يحسن التنصيص عليه إذا كان ثمة ما يوهم منعه ، ولو كانت قراءة القرآن للحائض جائزة لكان هذا الوهم منتفيا ، أعنى توهم قراءة القرآن فى حجر الحائض ، ومذهب الشافعى الصحيح امتناع قراءة الحائض القرآن »[1] .

والمقصود من الحديث هنا أن القراءة غير القرآن ، إذ لو كانت القراءة هى القرآن لما جاز أن يقرأ ورأسه فى حجر عائشة ، وهى حائض .

« قال ابن المنير : ظن الشارح[2] أن غرض البخارى إثبات جواز قراءة القرآن بتحسين الصوت ، وليس كذلك .

وإنما غرضه الإشارة إلى ما تقدم من وصف التلاوة بالحسن ، والتحسين ، والترجيع ، والرفع ، والخفض ، ومقارنة الحالات البشرية ، كقولها « يقرأ القرآن فى حجرى وأنا حائض .

فكل ذلك يحقق : أن القراءة فعل القارى ، وأنها متصفة بما تتصف الأفعال به ، ومتعلقة بالظروف المكانية ، والزمانية »[3] .

---

(١) شرح العمدة جـ ١ ص ١٢٧ .
(٢) هو ابن بطال .
(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٥١٩ وانظر المتوارى لابن المنير ص ٤٣١ .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ .

أمر الله تعالى عباده أن يقرءوا ما تيسر من القرآن ، وهذا من اليسر عليهم إذ قيد ذلك بما تيسر ولم يكلفهم قراءته كله .

والقراءة التى أمر الله عباده بها هى فعلهم ، ومعلوم أنهم يتفاوتون فى القراءة ، وفى الحفظ والتحصيل ، وفى جودتها والمهارة فى القرآن ، وفى الفهم ومعرفة المراد من الخطاب ، وغير ذلك . وهذا كله فعلهم وعملهم ، الذى يجازون عليه ويثنى عليهم به ، ويمدحون ، وهذا مراد البخارى رحمه الله تعالى من ترجمته بالآية وسواء أريد بالقراءة الصلاة ، أو نفس القراءة ، فإن القراءة ركن فى الصلاة ، وقد يعبر عن الشيء بركنه .

قال الخازن : « فيه قولان : أحدهما أن المراد بهذه القراءة ، القراءة فى الصلاة لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة ، فأطلق اسم الجزء على الكل .

الثانى أن المراد بما تيسر منه دراسته ، وتحصيل حفظه ، فيقرأ ما سهل عليه حفظه »[1] .

وقال الحافظ : « المراد بالقراءة الصلاة ، لأن القراءة بعض أركانها »[2] .

قال ابن جرير : « يقول : فاقرأوا من الليل ما تيسر لكم من القرآن فى صلاتكم ، وهذا تخفيف من الله — عز وجل — عن عباده فرضه الذى كان فرض عليهم ، بقوله : ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾[3] .

وقال القرطبى : « فيه قولان : أحدهما أن المراد نفس القراءة أى فاقرأوا فيما تصلونه بالليل ما خف عليكم .

---

(١) تفسير الخازن جـ ٧ ص ١٧٠ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٢٠ .
(٣) تفسير الطبرى جـ ٢٩ ص ١٤١ .

والثانى : « فاقرأوا ما تيسر منه » أى فصلوا ما تيسر عليكم ، والصلاة تسمى قرآنا ، كقوله : ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ أى صلاة الفجر[١] .

١٧١ — قال : « حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، حدثنى عروة أن المسور بن مخرمة ، وعبد الرحمن بن عبد القارىّ حدثاه ، أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول : سمعت هشام ابن حكيم يقرأ سورة الفرقان ، فى حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره فى الصلاة ، فتصبرت حتى سلم ، فلببته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ؟ . قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت : كذبت ، أقرأنيها على غير ما قرأت .

فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت : إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، فقال أرسله ، اقرأ يا هشام ، فقرأ القراءة التى سمعته ، فقال رسول الله ﷺ كذلك أنزلت .

ثم قال رسول الله ﷺ : « اقرأ يا عمر » ، فقرأت ، فقال : كذلك أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرأوا ما تيسر منه » .

هشام بن حكيم بن حزام الأسدى ، هو وأبوه صحابيان ، ممن أسلم يوم الفتح له فضائل جمة ، وكان يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، فلذلك كان

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ١٩ ص ٥٣ — ٥٤ .

عمر رضى الله عنهما إذا بلغه الشيء المكروه يقول : أما ما عشت أنا وهشام فلا يكون ذلك .

قال الحافظ : « تأخر موته إلى خلافة على بن أبى طالب ، ووهم من زعم أنه استشهد فى خلافة أبى بكر ، وتوفى قبل والده رضى الله عنهما ، وعن جميع صحابة رسول الله ﷺ[1] قال ابن سعد توفى أول خلافة معاوية »[2] .

قوله : « فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة » إلخ ، يعنى أن قراءة هشام تختلف عما قرأه عمر عن رسول الله ﷺ فى ألفاظ كثيرة ، فلذلك ظن عمر رضى الله عنه أن ذلك غلط من هشام .

« فكدت أساوره » بالسين المهملة ، أى أواثبه وأجرره قال النابغة :

« فبت كأنى ساورتنى ضئيلة   من الرقش فى أنيابها السم ناقع »

أى واثبتنى ، وفى رواية مالك : « أن أعجل عليه » .

ومعنى كدت : قربت من أن أفعل فيه ذلك .

« فتصبرت » أى حملت نفسى على الصبر ، حتى ينتهى من صلاته ، وفى رواية مالك : « ثم أمهلت حتى انصرف » يعنى من صلاته كما قال هنا : « حتى سلم » .

« فلببته بردائه » أى أدرت رداءه على رقبته ، وجمعت طرفيه عند لبته وأمسكته خشية أن ينفلت ، ولهذا قال : « فانطلقت به أقوده » يعنى بردائه « فقلت من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ؟ » ظن عمر — رضى الله

---

(١) انظر الفتح جـ ٩ ص ٢٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ٥٢ وانظر الاستيعاب ص ١٥٣٨ والإصابة الترجمة رقم ٨٩٦٥ وأسد الغابة جـ ٥ ص ٣٩٨ .

عنه ـــ أن هشاما أخذ هذه السورة عن غير رسول الله ﷺ فأخطأ الذى أقرأه ، أو أنه لم يتقنها فوقع فى مخالفة ما تلقاه عمر من رسول الله ﷺ ، ولهذا لما قال هشام أقرأنيها رسول الله ﷺ قال له عمر : كذبت أقرأنيها على غير ما قرأت » وكان عمر رضى الله عنه شديدا فى أمر الله تعالى ، ولهذا ذهب به يقوده بردائه حتى دخل به على رسول الله ﷺ فقال له : « إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان » إلى آخره ، وقد علم أن من قرأ القرآن على غير ما أنزله الله تعالى فقد ارتكب جرما يستحق العقاب عليه ، وهذا هو الذى حمل عمر على ما فعله رضى الله عنه .

« فقال : أرسله ، اقرأ يا هشام ، فقرأ القراءة التى سمعته » يؤخذ من هذا مشروعية التثبت فى الأمور ، ووقوف الحاكم بنفسه على الحقائق ، وإن كان المخبر موثوقا به .

« فقال رسول الله ﷺ : « كذلك أنزلت » يعنى أنزلت من عند الله على ما قرأه هشام ، ولم يكن مخطئا كما ظنه عمر رضى الله عنه .

« ثم قال رسول الله ﷺ اقرأ يا عمر ، فقرأت ، فقال : كذلك أنزلت » يعنى أن الله أنزل هذه السورة على ما قرأه عمر ، فعمر وهشام كلاهما مصيب فى قراءته ، لأن القرآن نزل على أكثر من حرف ، بل على سبعة أحرف .

وأما قول الحافظ : « وكان سبب اختلاف قراءتهما أن عمر حفظ هذه السورة من رسول الله ﷺ قديما ثم لم يسمع ما أنزل فيها . بخلاف ما حفظه وشاهده .

ولأن هشاما من مسلمة الفتح ، فكان النبى ﷺ أقرأه ما نزل أخيرًا فنشأ اختلافهما من ذلك »(١) . ففيه نظر إذ لو كان الأمر على ما ذكره لقال

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٢٦ .

الرسول ﷺ لعمر : إن هذه الأحرف التى سمعتها من هشام نزلت بعد ما قرأت هذه السورة ، ولكنه قال بعد ما سمع قراءة كل واحد منها كذلك أنزلت ، فتبين أن كلا من الحروف التى قرأها هشام ، والحروف التى قرأها عمر نزلت من عند الله .

وليس فى قراءة هشام زيادة عما عند عمر فى الآيات ، وإنما هناك اختلاف فى الحروف فقط ، ومن أجل ذلك قال لكل واحد منهما بعد ما سمع قراءته « كذلك أنزلت » ويوضح ذلك قوله « إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه » أى لا تتكلفوا التزام حرف واحد ، فإن الله تعالى قد أوسع عليكم ، ويسر لكم قراءة القرآن على سبعة أحرف ، رحمة منه وفضلا فله الحمد والمنة .

قال الجزرى : « نزل القرآن على سبعة أحرف للتخفيف على هذه الأمة واليسر بها ، والتهوين عليها شرفا لها وتوسعة ورحمة ، لأن العرب الذين نزل القرآن بلغاتهم ، لغاتهم مختلفة ، ويعسر علىَ أحدهم انتقاله من لغته إلى غيرها ، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولا بالتعليم والعلاج ، لاسيما الشيخ والمرأة الكبيران ، ومن لا يقرأ كتابا ، كما أشار إليه النبى ﷺ بقوله : « بعثت إلى أمة أميين فيهم الشيخ الفانى ، والعجوز الكبيرة »[(١)] .

ومعنى الحرف كما قال أهل اللغة : حرف كل شىء طرفه وحافته ، وأحد حروف التهجى كأنه قطعة من الكلمة[(٢)] .

وقد اختلف العلماء فى تعيين الحروف السبعة اختلافا كثيرا ، وأشكل ذلك على كثير من العلماء .

---

(١) النشر جـ ١ ص ٧١ ــ ٧٢ ملخصا .

(٢) سيأتى معنى الحرف أيضا فى كلام ابن قتيبة .

فقيل الحروف السبعة : سبع لغات من لغات العرب مفرقة فى القرآن ، ورد هذا القول ابن جرير ، وابن عبد البر ، وغيرهما ، ودل على عدم صحتة هذا الحديث ، لأن هشاما وعمر كلاهما قرشى ، فلغتهما واحدة ، ولا يعقل أن الرسول ﷺ يعلم الرجل القرآن بغير لغته .

وقيل المراد بها : تأدية المعنى الواحد باللفظ المرادف ، ولو كان من لغة واحدة ، لأن هشاما وعمر لغتهما واحدة ، وقد اختلفت قراءتهما .

اختار هذا القول ابن جرير الطبرى ، وابن عبد البر ، وقال : إنه قول أكثر العلماء وهذا هو الصواب كما يأتى بيانه .

« وقال الدانى : معنى نزول القرآن على سبعة أحرف يحتمل وجهين ، أحدهما أنه نزل على سبعة أوجه من اللغات متغايرة فى القرآن » .

الثانى أنها قراءات سميت أحرفا لعادة العرب فى تسمية الشىء باسم ما هو منه .

وقد أجمع العلماء على أنه لم يقصد أن كل حرف يقرأ على سبعة أوجه إذ لا يوجد ذلك إلا فى كلمات معدودة نحو « أف » و « جبريل » و « أرجه » و « هيهات » و « هيت » .

كما أجمعوا أنه ليس المراد بالأحرف السبعة قراءات القراء السبعة الذين اشتهروا بذلك ، لأن أول من جمع قراءاتهم ابن مجاهد فى أثناء المائة الرابعة .

وأكثر العلماء على أنها لغات ، كما قال أبو عبيد إنها سبع لغات متفرقة فى القرآن[1] .

وهذا خلاف ما قاله ابن عبد البر إن أكثر أهل العلم على أن المراد تأدية

---

(١) النشر جـ ١ ص ٧٤ ــ ٧٥ ملخصا .

المعنى الواحد بألفاظ مترادفة ، وإن كان ذلك فى لغة واحدة كما سبق قريبا ، وتقدم أن هذا الحديث يؤيد صحة هذا القول ، ويرد ما قاله الدانى إنه قول أكثر العلماء .

قال الجزرى ـــ رحمه الله ـــ « مازلت أستشكل هذا الحديث ، وأفكر فيه ، وأمعن النظر من نيف وثلاثين سنة حتى فتح الله على بما يمكن أن يكون صوابا إن شاء الله تعالى .

وذلك أنى تتبعت القراءات صحيحها وشاذها ، وضعيفها ، ومنكرها فإذا هو يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه من الاختلاف ، لا يخرج عنها .

(١) إما فى الحركات بلا تغير فى المعنى والصورة نحو « البخل » بأربعة ، و « يحسب » بوجهين .

(٢) أو بتغير فى المعنى فقط ، نحو ﴿ فَتَلَقَّـى ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَـٰتٍ ﴾[١] ، ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ و « أمه »[٢] .

(٣) وإما فى الحروف بتغير المعنى ، لا الصورة نحو « تبلوا » و « تتلوا » ﴿ نُنَحِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ﴾ ﴿ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾[٣] .

(٤) أو عكس ذلك [أى بتغير الحروف مع اتفاق المعنى] نحو « بصطة » و « بسطة » و « الصراط » و « السراط » .

(٥) أو بتغيرهما نحو « أشد منكم » و « أشد منهم » ، و « يأتل » و « يتأل » و ﴿ فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ و ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ .

---

(١) يعنى بنصب آدم ورفع كلمات عكس القراءة المشهورة .

(٢) بالتاء المربوطة ، وبالهاء .

(٣) الأولى بالحاء المهملة ، والثانية بالجيم المشددة .

(٦) أو بالتقديم والتأخير نحو ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ و ﴿ وَيُقْتَلُونَ فَيَقْتُلُونَ ﴾ و ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾ و ﴿ جَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْحَقِّ بِالْمَوْتِ ﴾ .

(٧) أو فى الزيادة والنقصان نحو « وأوصى » و « وصى » و ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴾ و « والذكر والأنثى » .

وأما اختلاف الإظهار ، والإدغام ، والروم والإشمام ، والتفخيم ، والترقيق والمد والقصر ، والإمالة والفتح ، والتخفيف والتسهيل ، والإبدال والنقل ، ونحو ذلك مما يعبر عنه بالأصول ، فهذا ليس من الاختلاف الذى يتنوع فيه اللفظ والمعنى[١] .

وقال ابن قتيبة — رحمه الله — « وقد غلط فى تأويل هذا الحديث قوم ، فقالوا : السبعة الأحرف : وعد ، ووعيد ، وحلال ، وحرام ، ومواعظ ، وأمثال ، واحتجاج .

وقال آخرون : هى سبع لغات فى الكلمة ، وليس شىء من ذلك لهذا الحديث بتأويل .

ومن قال : فلان يقرأ بحرف « أبى عمرو »[٢] أو بحرف « عاصم »[٣] ، فإنه لا يريد شيئا مما ذكر ، وليس يوجد فى كتاب الله تعالى حرف قرئ على سبعة أوجه يصح فيما أعلم .

وإنما تأويل قوله ﷺ : « نزل القرآن على سبعة أحرف » . على سبعة أوجه من اللغات ، متفرقة فى القرآن ، يدلك على ذلك قول رسول الله ﷺ :

---

(١) النشر جـ ١ ص ٧٧ — ٧٨ .
(٢) هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار المازنى المقرى أحد الأئمة السبعة توفى سنة ١٥٤ هـ .
(٣) هو عاصم بن أبى النجود المقرى المشهور توفى سنة ١٢٧ هـ .

« فاقرءوا كيف شئتم » ، وقصة عمر مع هشام ، وقوله ﷺ : « إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف ، فاقرءوا ما تيسر منه » .

فمن قرأه ، قراءة عبد الله بن مسعود ، فقد قرأ بحرفه ، ومن قرأ قراءة أبى بن كعب ، فقد قرأ بحرفه ، ومن قرأ قراءة زيد بن ثابت ، فقد قرأ بحرفه .

والحرف يطلق على أحد حروف المعجم ، وعلى الكلمة الواحدة ، وعلى الكلام المؤلف فى معنى ، أو معان كثيرة ، كما يقال : قال الشاعر فى كلمته — يعنى قصيدته .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾[3] ، أراد سبحانه وتعالى من يعبد الله على الخير يصبه ، من تثمير المال ، وعافية البدن ، وإعطائه السؤال ، فهو مطمئن مادام ذلك له .

وإن امتحنه الله تعالى باللأواء فى عيشه ، والضراء فى بدنه وماله ، كفر به .

فهذا عبد الله على وجه واحد ، وهو معنى الحرف ، ولو عبد الله على الشكر للنعمة ، والصبر للمصيبة ، والرضا بالقضاء ، لم يكن عبد الله على حرف .

وقد تدبرت وجوه الخلاف فى القراءات ، فوجدتها سبعة أوجه .

أولها : الاختلاف فى إعراب الكلمة ، أو فى حركة بنائها بما لا يزيلها عن صورتها فى الكتابة ، ولا يغير معناها ، نحو قوله تعالى : ﴿ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ

---

(١) الآية ٧٤ من سورة التوبة .
(٢) الآية ٢٦ من سورة الفتح .
(٣) الآية ١١ من سورة الحج .

أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ و ﴿ أَطْهَرَ لَكُمْ ﴾[1] ﴿ وهَلْ نُجَـٰزِى أَلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ ﴿ وهَلْ يُجَازَى إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ ، و ﴿ يَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ و البَخَلِ[2] ﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ « وميسُرة »[3] .

الوجوه الثانى : أن يكون الاختلاف فى إعراب الكلمة ، وحركات بنائها بما يغير معناها ، ولا يزيلها عن صورتها فى الكتابة ، نحو قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ و « ربُّنا باعَدَ بين أسفارنا »[4] وقوله تعالى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ وتَلِقُونَه[5] و ﴿ ٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ وبعد أمه[6] .

الوجه الثالث : أن يكون الاختلاف فى حروف الكلمة دون إعرابها ، بما يغير معناها ، ولا يزيل صورتها ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ وننشرها ، وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ وفرغ .

الوجه الرابع : أن يكون الاختلاف فى الكلمة بما يغير صورتها فى الكتابة ، ولا يغير معناها ، نحو قوله تعالى : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ وقوله : « الازقية واحدة » وقوله : ﴿ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ و « كالصوف المنقوش » .

الوجه الخامس : أن يكون الاختلاف فى الكلمة بما يزيل صورتها ، ومعناها ، نحو قوله : « وطلع منضود » فى موضع و ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ فى موضع آخر .

---

(١) الثانية بنصب الراء .
(٢) بفتح الخاء .
(٣) بضم السين .
(٤) الأولى بفتح الباء على صورة الدعاء ، والثانية بضم الباء وفتح العين والدال خبر .
(٥) بفتح التاء ، وكسر اللام ، وضم القاف من الولق ، وهو الكذب .
(٦) أى بعد نسيان له .

الوجه السادس : أن يكون الاختلاف فى التقديم ، والتأخير ، نحو ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾ وفى موضع آخر « وجاءت سكرة الحق بالموت » .

الوجه السابع : أن يكون الاختلاف بالزيادة ، والنقصان ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ و « إن [الله] الغنى الحميد » .

وكل هذه الحروف كلام الله تعالى أنزل به الروح الأمين ، على رسوله ﷺ وكان يعارضه فى كل سنة ، فى شهر رمضان ، وفى السنة التى توفى فيها رسول الله ﷺ عارضه مرتين ، فيحدث الله إليه من ذلك ما يشاء ، وينسخ ما يشاء ، وييسر على عباده ما يشاء ، فكان من تيسيره أن أمره أن يقرىء كل قوم من العرب بلغتهم ، وما جرت عليه عادتهم .

فالهذلى يقرأ « عتى حين » يريد ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ، لأنه هكذا ينطق بها .

والأسدى يقرأ « تِعْلمون » و « تِعلم » و « يَسْوَدُّ وجوه » و « الم إِعْهَدْ إليكم » .

والتميمى يهمز ، والقرشى لا يهمز ، فلو أمر كل واحد أن يلتزم لغة غيره لصعب عليه مفارقة ما جرت عليه عادته ، وما نشأ عليه ، ولم يمكنه ذلك إلا بمشقة ، وبعد رياضة طويلة .

فأراد الله رحمة منه ، ولطفا بعباده أن يجعل لهم متسعا فى لغاتهم يناسب تيسيره عليهم فى الدين .

فإن قيل : أليس هذا اختلافا ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ .

قيل : الاختلاف نوعان : اختلاف تضاد ، وهو الذى نفاه الله تعالى عن

كتابه ، مثل أن ينهى عن شى ، ويأمر به فى مكان آخر ، أو ينفى الشىء ، ويثبته فى مكان آخر ، ونحو ذلك ، وهذا لا وجود له فى كتاب الله تعالى .

الثانى : اختلاف تنوع وتغاير ، وهو جائز فى الكلام ، وكثير ، لأن كل واحد لا ينافى الآخر ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ بفتح التاء من « علمت » وضمها ، لأن موسى عليه السلام خاطب فرعون بهذا ، وهذا ، فأنزل الله المعنيين جميعا .

ومثلها قوله تعالى : « ننشرها » و « ننشزها » فالانتشار : الإحياء ، والإنشاز : هو التحريك ، والحياة حركة ، فلا فرق بينهما .

وكذلك « فزع عن قلوبهم » و « فرغ » ، لأن فزع : خفف عنها الفزع ، وفرغ أزيل ، وأخليت منه ، وكل ما فى القرآن من تقديم وتأخير ، أو زيادة ، أو نقصان فعلى مثل هذه السبيل .

فإن قيل : هل يجوز أن نقرأ بجميع هذه الأوجه ؟

قيل : كل ما كان منها موافقا لرسم المصحف [وقرأ به الأئمة ، ونقل نقلا متواترا] جاز لنا أن نقرأ به ، لأن الصحابة قد أجمعوا على ما فعله أمير المؤمنين ، وحرقوا ما خالف المصحف الإمام ، فلا يجوز لأحد أن يخالف المصحف الذى أجمع عليه الصحابة ، رضوان الله عليهم ، كما لا يجوز أن نكتب مصحفًا مخالفا له[(١)] .

وقال الحافظ : « اختلف العلماء فى المراد بالأحرف السبعة على أقوال كثيرة ، أبلغها أبو حاتم ابن حبان إلى خمسة وثلاثين قولا .

وقوله : ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ ، يدل على التوسعة فى القراءة ،

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٣٤ ــ ٤٢ ببعض التصرف والتلخيص .

والتيسير ، وهذا يقوى قول من يقول : المراد بالأحرف تأدية المعنى باللفظ المرادف ، ولو كان من لغة واحدة لأن هشاما ، وعمر لغتهما واحدة ، ونقل ابن عبد البر عن أكثر أهل العلم أن هذا هو المراد بالأحرف السبعة .

وذهب أبو عبيد ، وآخرون إلى أن المراد اختلاف اللغات ، واتفقوا على أنه ليس المقصود أن كل كلمة تقرأ بسبع لغات .

ولا يقصد أن التوسعة فى القراءة تقع بالتشهى حسب مراد المتكلم ، إذا أراد أن يغير الكلمة بمرادفها ، بل لابد فى ذلك من السماع من الرسول ﷺ . ولهذا جاء أن كل واحد من المختلفين الذين على عهد النبى ﷺ يقول : أقرأنى النبى ﷺ ، وإن كان وجد من كان يقرأ بذلك وإن لم يكن مسموعا من النبى ﷺ مثل قراءة ابن مسعود ﴿ عَتَّىٰ حِينٍ ﴾ بلغه هذيل ، وقد أنكر عليه عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ وكتب إليه : « إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل ، فأقرىء الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل ، وهذا قبل أن يجمع أمير المؤمنين عثمان ــ رضى الله عنه ــ الناس على مصحف واحد ، بقراءة واحدة .

وحاصل ذلك أن معنى قوله : « انزل القرآن على سبعة أحرف » أنه أنزل موسعا على القارىء أن يقرأه على سبعة أوجه ، بأن يقرأ بأى حرف أراد منها على البدل من الآخر ، وذلك لتسهيل قراءته ، إذ لو أخذوا بأن يقرأوه على حرف واحد لشق عليهم »[1] .

وقال ابن عبد البر : « وفى حديث عمر مع هشام رد لقول من قال : إنها سبع لغات لأن عمر قرشى عدوى ، وهشام بن حكيم بن حزام قرشى أسدى ، ومحال أن ينكر عليه عمر لغته ، كما أنه محال أن يقرىء رسول الله ﷺ واحدا

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٣٠ .

منها بغير ما يعرفه من لغته .

والأحاديث الصحاح المرفوعة كلها تدل على نحو ما يدل عليه حديث عمر هذا .

وقالوا : إنما معنى السبعة الأحرف ، سبعة أوجه من المعانى ، المتفقة المتقاربة بألفاظ مختلفة ، نحو أقبل ، وتعال ، وهلم ، وعلىّ . وعلى هذا الكثير من أهل العلم »[1] .

وهذا هو الصحيح والأخبار الصحيحة ، والآثار عن علماء الأمصار تدل على صحة هذا القول ، وأنه الصواب ، مثل ما رواه الإمام أحمد ، وابن جرير ، وابن عبد البر ، عن أبى بكرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : قال جبريل : اقرأوا القرآن على حرف ، فقال مكائيل : استزده ، فقال : على حرفين ، حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف ، فقال : كلها شاف كاف ، ما لم يختم آية عذاب برحمة ، أو أية رحمة بعذاب ، كقولك : هلم ، وتعال ، وفى رواية ابن عبد البر : « فقال مكائيل استزده ، حتى بلغ إلى سبعة أحرف ، فقال : اقرأه فكل شاف كاف ، إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة ، وعلى نحو : هلم ، وتعال ، وأقبل ، واذهب ، وأسرع ، وعجل »[2] .

وروى الإمام أحمد ، والطبرى من حديث أبى هريرة ، أن النبى ﷺ قال : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، غفورا رحيما ، عزيزا حكيما ، عليما حكيما ، وربما قال : « سميعا بصيرا »[3] . قال ابن عبد البر :

---

(١) التمهيد جـ ٨ ص ٢٨١ .

(٢) المسند جـ ٥ ص ٥١ والطبرى جـ ١ ص ٢٣ والتمهيد جـ ٨ ص ٢٩٠ .

(٣) المسند جـ ٢ ص ٣٣٢ وتفسير الطبرى جـ ١ ص ٤٢ .

« وقوله : سميعا عليما ، وغفورا رحيما ، وعليما حكيما ، أراد به ضرب المثل للحروف التى نزل القرآن عليها ، وأنها معان متفق مفهومها ، مختلف مسموعها لا يكون فى شىء منها معنى ، وضده ، وما أشبه ذلك ، وهذا كله يعضد قول من قال : إن معنى السبعة الأحرف ، سبعة أوجه من الكلام المتفق معناه ، المختلف لفظه ، نحو هلم ، وتعال ، وعجل ، وأسرع ، وانظر ، وأخر »[1] .

وذكر عن الزهرى أنه قال : « إنما هذه الأحرف فى الأمر الواحد ، ليس تختلف فى حلال ، ولا حرام »[2] .

وذكر عن أبى بن كعب أنه كان يقرأ ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ ﴾ « مروا فيه ، سعوا فيه » كل هذه الأحرف كان يقرؤها أبى بن كعب ، فهذا معنى الحروف المراد بهذا الحديث[3] .

وروى ابن جرير أن أنس بن مالك قرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَصْوَبُ قِيلًا ﴾ فقال بعض القوم : يا أبا حمزة إنما هى « وَأَقْوَمُ » فقال : أقوم ، وأصوب وأهيأ واحد »[4] .

وروى عن سعيد بن المسيب : أن الذى ذكر الله ــ تعالى ذكره ــ أنه قال : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ إنما افتتن أنه كان يكتب الوحى ، فكان يملى عليه رسول الله ﷺ : سميع عليم ، أو عزيز حكيم ، أو غير ذلك من خواتم الآى ، ثم يشتغل عنه رسول الله ﷺ وهو على الوحى فيستفهم رسول الله ﷺ ؟

فيقول : أعزيز حكيم ؟أو سميع عليم ؟ أو عزيز عليم ؟ فيقول له رسول الله

---

(١) التمهيد جـ ٨ ص ٢٨٤ .
(٢) التمهيد جـ ٨ ص ٢٩١ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٥٢ .

ﷺ أى ذلك كتبت ، فهو كذلك ، ففتنه ذلك ، فقال : إن محمدا وكل ذلك إلىّ فاكتب ما شئت ، وهو الذى ذكر لى سعيد بن المسيب من الحروف السبعة[1] .

ومما يسئل عنه ، هل هذه الحروف السبعة موجودة فى المصحف الذى بين أيدى المسلمين ؟ أو إنها كانت زمن الرسول ﷺ ، والخليفتين بعده ، وصدرا من خلافة عثمان ــ رضى الله عنهم ــ ثم لما جمع عثمان الناس على مصحف واحد ، تركت تلك الحروف الستة ، أو بعضها ؟

قال الحافظ : « قال أبو شامة : وقد اختلف السلف فى الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، هل هى مجموعة فى المصحف الذى بأيدى الناس اليوم ، أو ليس فيه إلا حرف واحد منها ؟

مال ابن الباقلانى إلى الأول ، وصرح الطبرى ، وجماعة بالثانى ، وهو المعتمد .

وقد أخرج ابن أبى داود فى المصاحف ، عن أبى الطاهر بن أبى السرح ، قال : سألت ابن عيينة عن اختلاف قراءة المدنيين ، والعراقيين. هل هى الأحرف السبعة ؟ قال : لا ، وإنما الأحرف السبعة مثل : هلم ، وتعال ، وأقبل ، أى ذلك قلت أجزاك » قال : وقال لى ابن وهب مثله .

والحق أن الذى جمع فى المصحف هو المتفق على إنزاله ، المقطوع به ، المكتوب بأمر النبى ﷺ وفيه بعض الأحرف التى اختلف فيها من الأحرف السبعة ، لا جميعها ، كما وقع فى المصحف المكى ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَـٰرُ ﴾ فى آخر براءة ، وفى غيره بحذف « من » .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٥٤ تحقيق محمود شاكر .

وكذا ما وقع من اختلاف مصاحف الأمصار فى عدة واوات ، ونحو ذلك وهو محمول على أنه نزل بالأمرين معا ، وأمر النبى ﷺ بكتابته لواحد ، أو اثنين ، [وعلمه بعض الصحابة] ، وما عدا ذلك من القراءات مما لا يوافق الرسم ، فهو مما كانت القراءة جائزة به توسعة على الناس ، وتسهيلا ، فلما آل الأمر إلى ما وقع من الاختلاف فى زمن عثمان ـــ رضى الله عنه ـــ وكفر بعضهم بعضا ، اختار الصحابة ـــ رضى الله عنهم ـــ الاقتصار على اللفظ المأذون فى كتابته ، وتركوا الباقى .

قال : الطبرى : وصار ما اتفق عليه الصحابة من الاقتصار على حرف واحد ، كمن اقتصر مما خير فيه على خصلة واحدة ، لأن أمرهم بالقراءة على الأوجه المذكورة ، لم يكن على سبيل الإيجاب ، بل على سبيل الرخصة .

قلت : ويدل عليه قوله ﷺ فى حديث الباب ﴿ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ وقال أبو العباس ابن عمار : أصح ما عليه الحذاق أن الذى يقرأ الآن بعض الحروف السبعة المأذون فى قراءتها ، لا كلها ، [فما وافق رسم المصحف من تلك الحروف جازت القراءة به مع التواتر] ، وما خالفه مثل : « أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج » ، ومثل : « إذا جاء فتح الله والنصر » فهو من تلك القراءات التى تركت ، إن صح سندها ، ولا يكفى صحة سندها فى إثبات كونها قرآنا ، ولا سيما والكثير منها مما يحتمل أن يكون من التفسير الذى قرن إلى التزيل ، فصار يظن أنه منه »[1] .

وقال البغوى فى شرح السنة : « المصحف الذى استقر عليه الأمر هو آخر العرض على رسول الله ﷺ فأمر عثمان ـــ رضى الله عنه ـــ بنسخه فى المصاحف وجمع الناس عليه ، وأذهب ما سوى ذلك قطعا لمادة الخلاف ،

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٣٠ .

فصار ما يخالف خط المصحف فى حكم المنسوخ ، والمرفوع ، كسائر ما نسخ ، ورفع ، فليس لأحد أن يعدو فى اللفظ إلى ما هو خارج عن الرسم »[1] .

قال ابن عبد البر : المصحف الذى بأيدى الناس اليوم هو منها حرف واحد وعليه أهل العلم .

ثم ذكر عن مالك أنه سئل عمن يقرأ بمثل ما قرأ عمر بن الخطاب ، « فامضوا إلى ذكر الله ؟ » فقال : ذلك جائز ، قال رسول الله ﷺ : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، فاقرءوا منه ما تيسر » ، مثل « تعلمون ، ويعلمون لا أرى فى اختلافهم فى مثل هذا بأسا .

ثم قال : قال ابن وهب : أخبرنى مالك بن أنس ، قال : أقرأ عبد الله بن مسعود رجلا : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾ فجعل الرجل يقول : طعام اليثيم ، فقال له ابن مسعود : طعام الفاجر ، فقلت لمالك : أترى أن يقرأ كذلك ؟

قال : نعم ، أرى ذلك واسعا .

قال : معناه عندى أن يقرأ به فى غير الصلاة[2] ، وإنما ذكرنا ذلك عن مالك تفسيرا لمعنى الحديث ، وإنما لم نجز القراءة به فى الصلاة ، لأن ما عدا مصحف عثمان فلا يقطع عليه ، وإنما يجرى مجرى السنن ، التى نقلها الآحاد ، لكن لا يقدم أحد على القطع فى رده .

وذكر عن ابن القاسم أنه قال : أرى أن على الإمام أن يمنع من يبيع مصحف ابن مسعود ، وأن يضرب من قرأ به ، ويمنعه .

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٣٠ وانظر شرح السنة جـ ٤ ص ٥١١ وقد تصرف الحافظ فيه .

(٢) الظاهر أن ابن مسعود أراد أن يفسر الأثيم ويبين معناه له .

وقد قال مالك : من قرأ فى صلاته بقراءة ابن مسعود ، أو غيره من الصحابة مما يخالف المصحف ، لم يصل وراءه .

وعلماء المسلمين مجمعون على ذلك ، ألا قومًا شذوا ، لا يعرج عليهم .

وهذا كله يدلك على أن السبعة الأحرف التى أشير إليها فى الحديث ليس بأيدى الناس منها إلا حرف زيد بن ثابت الذى جمع عليه عثمان — رضى الله عنه — المصحف .

وذكر بسنده إلى أبى الطاهر ، قال سألت سفيان بن عيينة عن اختلاف قراءة المدنيين ، والعراقيين هل تدخل فى السبعة الأحرف ؟ فقال : لا . وإنما السبعة الأحرف كقولهم : هلم ، أقبل ، تعال ، أى ذلك قلت أجزاك .

قال أبو طاهر : وقاله وهب .

قال أبو بكر محمد بن عبد الله الأصبهانى المقرئ : ومعنى قول سفيان هذا أن اختلاف العراقيين ، والمدنيين ، حرف واحد ، من الأحرف السبعة ، وبه قال محمد بن جرير الطبرى .

وقال أبو جعفر الطحاوى : كانت هذه السبعة للناس فى الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غيرها ، لأنهم كانوا أميين ، لا يكتبون إلا القليل منهم ، فكان يشق على كل ذى لغة منهم أن يتحول إلى غيرها من اللغات ، ولو رام ذلك لم يتهيأ له ، إلا بمشقة عظيمة ، فوسع لهم فى اختلاف الألفاظ ، إذا كان المعنى متفقا ، فكانوا كذلك حتى كثر من يكتب منهم ، وحتى عادت لغاتهم إلى لسان رسول الله ﷺ فقرأوا بذلك على تحفظ ألفاظه ، فلم يسعهم حينئذ أن يقرأوا بخلافها .

وبان بما ذكرناه أن تلك السبعة الأحرف إنما كانت فى وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك ، ثم ارتفعت تلك الضرورة ، فارتفع حكم هذه السبعة

الأحرف ، وعاد ما يقرأ به القرآن إلى حرف واحد »[1] .

فإن قيل : هذه الأحرف أنزلها الله ، وعلمها الرسول ﷺ الصحابة فثبتت لديهم من كلام الله ، وتركها ، وعدم الاعتناء بها وحفظها ونقلها يكون تفريطا من الأمة بما كلفت بحفظه .

قيل : الأمر كذلك أن الله أنزلها قرآنا ، والرسول ﷺ علمها الصحابة ، وحفظهم إياها ، ولكن الأمة لم تفرط بحفظها ، ولم تضيع ما كلفت به ، وإنما جعل الأمر إليها ، فخيرت فى قراءة القرآن بأى حرف من الأحرف السبعة شاءت ، مثل تخييرها فى كفارة اليمين بين ثلاثة الأشياء ، المذكورة فى الآية ، إما عتق رقبة ، أو إطعام عشرة مساكين ، أو كسوتهم ، فلو أجمعوا على التكفير بواحدة من الثلاث دون حضر التكفير بأى واحدة من الثلاث شاء المكفر لكان ذلك صوابا ، مؤديا للواجب من حق الله تعالى فكذلك مسألة الأحرف السبعة ، فإن الله خيرهم فيها توسعة لهم وتسهيلا عليهم ، فإذا رأت الأمة الاقتصار على حرف واحد ، من الأحرف السبعة ، لأمر أوجب ذلك ، من خوف الاختلاف ، والكفر الذى قد يكون من بعضهم لبعض بسبب القراءة بالأحرف السبعة . كان الصواب ، بل الواجب هو الاقتصار على حرف واحد منها ، مع أمن الاختلاف ، والتفرق . وهذا ما أدركه الخليفة الثالث ، ووافقه عليه أصحاب الرسول ﷺ فكان فيه الخير ، والرشد ، والهدى وقد أوضح ذلك الإمام ابن جرير فى مقدمة التفسير[2] .

ومقصد البخارى قوله : ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ فأسند القراءة إليهم مما يدل على أنها فعلهم ، ولما فيها من وصف التيسير ، فإنهم يختلفون فى ذلك ،

---

(١) التمهيد جـ ٨ ص ٢٩١ ــ ٢٩٤ .

(٢) انظر جـ ١ ص ٥٨ بتحقيق محمود شاكر .

فمنهم من ييسر له أكثر مما ييسر لغيره ، ولما فيه من اختلاف قراءتهم ، فكل واحد منهم قرأ بغير قراءة الأخر ، فالاختلاف وصف لقراءتهم ، لا للقرآن ، وهذا كله يدل على أن ذلك فعلهم ، وهو المقصود .

قال : باب قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

وقال النبى ﷺ : « كل ميسر لما خلق له » . يقال : ميسر : مهيأ .

وقال مجاهد : يَسَّرْنَا القرآن بلسانك ، هَوَّنَّا قراءته عليك .

وقال مطر الوراق : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ قال : « هل من طالب علم فيعان عليه » . قال العينى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أى سهلناه للادكار والاتعاظ .

﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ متعظ ، وأصل « مدكر » مفتعل من الذكر ، قلبت التاء دالا ثم أدغمت فى الأخرى[1] .

قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : ولقد سهلنا القرآن ، بيناه ، وفصلناه للذكر ، لمن أراد أن يتذكر ، ويعتبر ، ويتعظ ، وهوناه .

ثم روى عن مجاهد أنه قال : هوناه ، وعن ابن زيد ، قال : بيناه .

ثم قال : وقال بعضهم : هل من طالب علم ، أو خير فيعان ، وهو قريب المعنى مما قلناه »[2] .

وقال ابن كثير : ﴿ وَلَقَدْ يسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ أى سهلنا لفظه ، ويسرنا معناه ، لمن أراده ليتذكر الناس ، كما قال تعالى : ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ

---

(١) عمدة القارئ جـ ٢٥ ص ١٩٥ .

(٢) تفسير الطبرى جـ ٢٧ ص ٩٦ .

لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[2] ، وقال مجاهد : يعنى هونا قراءته .

وقال السدى : يسرنا تلاوته على الألسن .

وقال الضحاك : عن ابن عباس : « لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله ــ عز وجل »[3] .

﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ استفهام أريد به الحض على التذكر ، ولابد قبل التذكر من التعلم ، فالله تعالى قد سهل طريق حفظ القرآن ، وفهمه ، وثمرة ذلك العمل به ، والاتعاظ بمواعظه .

قال ابن كثير ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أى فهل من متذكر بهذا القرآن الذى يسر الله حفظه ومعناه ، وقال محمد بن كعب القرظى : فهل من منزجر عن المعاصى ؟[4] .

وقال القسطلانى : « ولقد سهلناه للحفظ ، وأعنا عليه من أراد حفظه ، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه ، ويروى أن كتب أهل الأديان كالتوارة والإنجيل ، لا يتلوها أهلها إلا نظرا ، ولا يحفظونها ظاهرا كالقرآن »[5] .

وقول مجاهد ، تقدم أن ابن جرير رواه بسنده عنه ، وقال الحافظ : رواه الفريابى فى تفسيره بسنده .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة ص .

(٢) الآية ٩٧ من سورة مريم .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٥٣ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) إرشاد السارى جـ ١٠ ص ٤٦٩ .

وقوله : « هونا قراءته عليك » لا يريد اختصاص النبى ﷺ بذلك ، فإن ظاهر الآية يدل على العموم ، ولهذا قال : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ، وإنما يريد تهوين قراءته على كل من أقبل عليه صادقا ، ويدخل فى ذلك فهم معانيه ، فإن الله تعالى قد يسرها لمن تدبره .

وقول مطر الوراق ، سبق أن ابن جرير رواه بسنده ، وقال : إنه قريب المعنى مما قلناه ، يعنى فصلناه ، وبيناه ، لمن أراد الفهم والتذكر ، والاتعاظ ، وذلك لما فى لفظ التيسير مما يدل على التسهيل ، والإعانة ، وما يدل عليه الاستفهام من إرادة ذلك ، والله أعلم .

ومقصود البخارى أن حفظ كتاب الله ، وفهمه ، والتذكر به والاتعاظ ، وكذلك تلاوته وقراءته كل ذلك عمل العبد الذى يطلب من ربه أن يعينه عليه ، ويسهله له ، وقد وعد بذلك جل وعلا .[1]

أما المفهوم المحفوظ المتلو فهو غير فعل العبد المخلوق ، بل هو كلام الله وصفته .

١٧٢ ــ قال : « حدثنا أبو معمر ، حدثنا عبد الوارث ، قال : حدثنا يزيد ، حدثنى مطرف بن عبد الله ، عن عمران ، قال : قلت : يا رسول الله فيما يعمل العاملون ؟ قال : كل ميسر لما خلق له » .

هذا السؤال تكرر لرسول الله ﷺ من عدد من أصحابه ، فبين لهم أن الله تعالى قد علم أهل الجنة وأهل النار قبل وجودهم ، وأنه تعالى قد كتب ذلك فى الأزل ، ونهاهم ﷺ أن يتكلوا على ذلك الكتاب ، ويدعوا العمل . وكأنه عرض لهم إنه إذا كان أهل الجنة قد علموا ، وكتبوا وكذلك أهل

---

(١) إرشاد السارى جـ ١٠ ص ٤٦٩ .

النار ، فلا فائدة فى العمل والاجتهاد ، فإنه لابد من حصول المكتوب فأجابهم عن ذلك بقوله : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له.» يعنى أن الذى كتب من أهل الجنة سوف يهيىء الله له أسباب عمل أهل الجنة ، وييسرها له فيعملها ، فتكون سببا لدخوله الجنة .

وكذلك الذى كتب من أهل النار ، لابد أن يعمل عملا يستحق به دخول النار ، وقد أوضح ذلك النبى ﷺ إيضاحا تاما .

ففي سنن أبى داود ، والترمذى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل عن هذه الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنَ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال : « إن الله — عز وجل — خلق آدم ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون .

فقال رجل : يا رسول الله ففيم العمل ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الله — عز وجل — إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ، فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ، فيدخله به النار »[(١)] .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين

---

(١) انظر السنن لأبى داود جـ ٥ ص ٧٩ — ٨٠ ، والترمذى جـ ٥ ص ٢٦٦ رقم ٣٠٧٥ وقال : حديث حسن ، ومسلم ين يسار لم يسمع من عمر . ورواه الإمام أحمد فى المسند جـ ١ ص ٤٤ ، ٤٥ ، وابن وهب فى كتاب القدر ص ٧٣ .

ألف سنة ، قال : وكان عرشه على الماء »[1] .

وفيه أيضا عن أبى الأسود الدِّئَلِىّ ، قال : قال لى عمران بن الحصين : أرأيت ما يعمل الناس اليوم ، ويكدحون فيه أشىء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق ؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم ، وثبتت الحجة عليهم ؟

فقلت : بل شىء قضى عليهم ، ومضى عليهم .

قال : فقال : أفلا يكون ظلما .

قال : ففزعت من ذلك فزعا شديدا ، وقلت : كل شىء خلق الله ، وملك يده فلا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون .

فقال لى : يرحمك الله إنى لم أرد بما سألتك إلاحزر عقلك ، إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله : أرأيت ما يعمل الناس اليوم ، ويكدحون فيه ، أشىء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم ، وثبتت الحجة عليهم ؟

فقال : لا بل شىء قضى عليهم ، ومضى فيهم ، وتصديق ذلك فى كتاب الله ــ عز وجل ــ ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَٰهَا ﴾[2] .

وروى ابن وهب عن عبد الله بن عمرو ، قال خرج علينا رسول الله ﷺ وفى يده كتابان ، فقال : « هل تدرون ما هذان الكتابان ؟ » فقلنا : لا ، إلا أن تخبرنا يا رسول الله ، فقال : للذى بيده اليمنى ، « هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل الجنة ، وأسماء آبائهم ، وقبائلهم ، وأجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ، ولا ينقص منهم أبدا .

---

(١) انظر جـ ٤ ص ٢٠٤٤ رقم ٢٦٥٣ .
(٢) صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٤١ رقم ٢٦٥٠ .

ثم قال للذى فى شماله : هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل النار ، وأسماء آبائهم ، وقبائلهم ، وأجمل على آخرهم ، فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا .

فقال أصحابه : ففيم العمل يا رسول الله ؟ إن كان الأمر قد فرغ منه ؟

فقال رسول الله ﷺ : « سددوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة ، وإن عمل أى عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار ، وإن عمل أى عمل .

ثم قال رسول الله ﷺ بيديه ، فنبذهما ، ثم قال : فرغ ربكم من العباد ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير »[1] .

والأحاديث فى هذا كثيرة ، ففى ذلك أن الله تعالى علم أهل الجنة ، وكتبهم وأرادهم كونا من أهلها ، وكذلك أهل النار ، قبل وجودهم بزمن طويل جدا وقبل أن يعملوا ما يستحقون عليه دخول الجنة أو النار ، وهذا من كمال علم الله تعالى ، وهو مما يجب الإيمان به ، وقد نص الأئمة على كفر من جحده .

قال اللالكائى : « روى عن مالك بن أنس ، والأوزاعى ، وعبيد الله بن الحسن العنبرى يستتابون ، فإن تابوا وإلا قتلوا .

وعن سعيد بن جبير : القدرية يهود ، وعن الشعبى : القدرية نصارى .

وعن نافع مولى ابن عمر : القدرية يقتلون ، وحكى المزنى عن الشافعى : أنه كفرهم ، وعن إبراهيم بن طهمان : القدرية كفار .

---

(١) رواه الترمذى جـ ٤ ص ٢٤٩ ، وابن وهب فى كتاب القدر ص ٨٣ ـــ ٨٧ والآجرى فى الشريعة ص ١٧٣ ، وابن جرير فى التفسير من طريق ابن وهب جـ ٢٥ ص ٩ ، وهذان الكتابان اللذان أخذهما رسول الله ﷺ ليسا هما الكتابان اللذان كتب الله فيهما أسماء أهل الجنة وأهل النار ، وإنما ذلك تمثيل من رسول الله ﷺ وتقريب إلى أفهام الناس بأن الله تعالى علم كل شيء مما سيكون وما يصير إليه العباد وكتبه تأكيدا لعلمه تعالى ، فلا يتغير ولا يتبدل .

وعن أحمد بن حنبل مثل قول مالك »[1] .

وفى هذه الأحاديث بيان أن كل أحد لابد له من عمل يكون سببا لدخوله الجنة أو النار .

فالنبى ﷺ بين أن الله ــ تعالى ــ علم أهل الجنة ، وأهل النار ، وأنه كتب ذلك ، ونهى الناس أن يتكلوا على ما سبق فى الكتاب عليهم ، ويدعوا العمل ، كما يفعله الملحدون ، وقال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، فأهل السعادة سوف تتهيأ لهم من الأسباب ما تمكنهم من عمل أهل السعادة .

وكذلك أهل الشقاء ، لابد أن يعملوا الأعمال التى يشقون بها ، ويستحقون النار عليها .

فالله ــ تعالى ــ يعلم كل شىء على ما هو عليه ، وقد جعل لكل شىء سببا ، وجعل العبد قادرا على العمل الذى كتب عليه ، فيفعله مختارا ، راغبا ، غير مجبر عليه ، ولا ملزم به .

ولهذا يجب على العبد ، مع الإيمان بالقدر ، الاجتهاد فى العمل ، والأخذ بأسباب النجاة ، والالتجاء إلى الله تعالى بأن ييسر له أسباب السعادة ، وأن يعينه عليها .

والله ــ تعالى ــ مع غناه عن الخلق كلهم ، خلقهم ، وأرسل إليهم الرسل تبين لهم ما يسعدهم ، وما فيه شقاؤهم ، وهدى عباده المؤمنين لما خلقوا له ، وهداهم لما اختلف فيه من الحق ، فمنَّ عليهم أن حبب إليهم الإيمان ، والعمل الصالح ، ويسر ذلك لهم ، وأعانهم عليه ، وزينه فى قلوبهم ، وكره إليهم ضده من الكفر والمعاصى ، والفسوق ، وجعلهم راشدين ، وكل ذلك فضل منه

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة جـ ٢ ص ٧٠٦ ــ ٧٠٧ .

وكرم من غير استحقاق لهم عليه ، فإيجادهم من العدم فضل منه ، وإرسال الرسل إليهم تدلهم على الحق فضل منه ، وهدايته لهم فضل منه ، وجميع ما ينالون به الخير من قواهم وغيرها بفضله ، وكذلك إثابته لهم على أعمالهم الصالحة فضل منه وكرم ، وإن كان أوجب ذلك على نفسه ، كما حرم على نفسه الظلم قال تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فهو واجب بإيجابه ووعده ، وهو لا يخلف وعده . وكل ذلك بفضله ومنته والخلق لا يوجبون على الله شيئا ، ولا يحرمون عليه شيئا ، بل هم أعجز من ذلك ، وأقل .

فكل ما يصيب الخلق من النعم فهى من فضل الله ، وكرمه ، وكل ما يصيبهم من النقم فهى بعدل ، وهم يستحقونها جزاءً لأعمالهم ويعفو الله عن كثير .

ولابد للعبد أن يجمع بين أمر الله وقدره ، ووعده ، ووعيده ، لأن من أعرض عن الأمر والنهى والوعد والوعيد معتمدا على القدر ، فهو ضال ، ومن حاول القيام بالأمر والنهى ، وأعرض عن القدر ، فهو أيضا ضال ، ولهذا أمر الله عباده أن يعبدوه مستعينين به على ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

فيعبدونه اتباعا لأمره ، ويستعينونه إيمانا بالقدر ، وذلك أنه لا يقع شيء إلا بعد مشيئته ، وهو الخالق لكل شيء ومن ذلك أفعال العباد ، وإن كانت تقع باختيارهم ، وقدرتهم فهو الخالق لها ، ولا تقع إلا إذا شاء ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] وإذا لم يعن الله العبد على الفعل لم يستطعه .

---

(١) الآية آخر سورة التكوير .

فمن ظن أنه يطيع الله بلا معونته كما تزعم القدرية المجوسية فهو جاحد لقدرة الله التامة ، ومشيئته الشاملة لكل شيء ، وخلقه لكل شيء .

ومن ظن أنه إذا أعين على ما يريد ، ويسر له ذلك كان محمودا ، محبوبا ، سواء وافق ذلك الأمر الشرعى أو خالفه ، فقد جحد دين الله وكذب كتبه ورسله ، ووعده ، ووعيده ، واستوجب غضب الله وعقابه ، وصار من الذين قال الله عنهم : ﴿ لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾[1] .

قوله : « فيم يعمل العاملون ؟ » أى أعمال العباد ، هل قدرها الله عليهم وسبق علم الله بها ، وكتابته لها ، فهم يعملون فى أشياء قضاها الله وفرغ منها ، فلا يمكن أن يقع منهم إلا ما قدره ، وقضاه ؟ وهذا هو الواقع .

أو أنهم يعملون فى شيء لم يقدر ، ولم يكتب عليهم ، بل هو موكول إليهم ؟

وذكر هذا الحديث فى القدر بلفظ : « قال رجل : يا رسول الله أيعرف أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : نعم ، قال : فلم يعمل العاملون ؟ قال : كل يعمل لما خلق له ، أو لما ييسر له »[2] .

فقوله : « فيم يعمل العاملون » ، مرتب على قول النبى ﷺ أنه قد علم أهل الجنة ، من أهل النار ، فكأنه وقع فى نفسه أنه مادام قد فرغ من ما يصير إليه العباد ، وعلم الله أهل السعادة ، وأهل الشقاء قبل وجودهم ، فلماذا العمل ، والإنسان لابد أن يصير إلى ما كتب عليه ، فهى أمور منتهية ، ولابد من حصولها .

---

(١) الآية ١٤٨ من سورة الأنعام .

(٢) البخارى جـ ٨ ص ١٠٤ .

فأجابه النبى ﷺ بما أزال هذا الإشكال بقوله : « كل يعمل لما خلق له » يعنى أن أهل الجنة لابد أن يعملوا أعمالا يستحقون بها دخول الجنة ، وأهل النار لابد أن يعملوا أعمالا يستحقون بها دخول النار .

وقد علم الله أن من يكون من أهل الجنة يعمل عملهم ، وييسر ذلك له ، ويتفضل عليه فيحبب إليه الإيمان ، ويزينه فى قلبه ، ويكره إليه الكفر والفسوق والعصيان ويجعله راشدا مطيعا مهتديًا ، وهذا كله فضل الله ومنته ، وهو معنى تيسره لليسرى ، وأما أهل النار فقد علم الله ــ تعالى ــ أنهم يكفرون ، ويبغضون الإيمان ، ويأبونه ويفعلون ذلك اختيارا منهم ، وحبا له بعكس أهل الإيمان ، وهو معنى تيسيرهم للعسرى ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ وهو معنى قوله ﷺ « كل ميسر لما خلق له » .

ووجه الاستدلال من الحديث أن قوله : « كل ميسر لما خلق له » يدل على أن العبد له عمل ييسر له فيعمله ، فيستحق عليه الجزاء ، وذلك الجزاء هو الذى خلق العبد له ، إما الجنة وإما النار ، فالعبد فاعل على الحقيقة ، فهو المؤمن ، والمصلى ، والعامل حقيقة ، وهو الكافر ، والمنافق ، والعاصى ، والسارق ، والزانى حقيقة ، ولذلك استحق العذاب ، أو الثواب .

وكذلك هو القارىء إذا قرأ كتاب الله تعالى ، فالقراءة فعله ، وكسبه ، وعمله ، والمقروء كتاب الله وصفته التى تكلم به ، وقاله ، وأنزله على رسوله ﷺ ، وقد يسر الله القرآن للذكر ، فإذا تذكره العبد ، وقرأه ، وعمل به فذلك عمله ، يضاف إليه ، ويجزى عليه .

قال الإمام البخارى رحمه الله : « ويقال لمن زعم أنى لا أقول القرآن مكتوب فى المصحف ، ولكن القرآن بعينه فى المصحف ، يلزمك أن تقول :

إن ما ذكره الله فى القرآن من الجن ، والأنس ، والملائكة والمدائن ، ومكة ، والمدينة ، وغيرها ، وإبليس ، وفرعون ، وجنودهما ، والجنة والنار ، عاينتهم بأعيانهم فى المصحف ، لأن فرعون مكتوب فيه ، كما أن القرآن مكتوب فيه .

ويلزمك أكثر من ذلك ، حين تقول : الله فى المصحف ، وهذا أمر بين لأنك تضع يدك على هذه الآية ، وتراها بعينك ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ فلا يشك عاقل بأن الله هو المعبود ، وقوله : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ هو قرآن ، فالقرآن قول الله ــ عز وجل ــ والقراءة ، والكتابة ، والحفظ للقرآن هو فعل المخلوق ، لقوله ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ وقوله : ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ .

والقراءة فعل الخلق ، وهى طاعة الله ، والقرآن ليس هو بطاعة ، إنما هو الأمر بالطاعة ، ودليله قوله تعالى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾[1] وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[3] ، وقال عز وجل : ﴿ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ فذلك كله مما أمر به ، ولذلك قال : ﴿ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ والصلاة بجملتها طاعة لله ، والأمر بالصلاة قرآن ، وهومكتوب فى المصاحف ، محفوظ فى الصدور مقروء على اللسان .

والقراءة والحفظ والكتابة مخلوق ، وما قرئ ، وحفظ ، وكتب ليس

---

(١) الآية ١٠٦ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٢٩ من سورة فاطر .

(٣) الآية ١٧ من سور القمر .

بمخلوق ، ومن الدليل عليه أن الناس يكتبون « الله » ويحفظونه ، ويدعونه ، فالدعاء والحفظ ، والكتابة من الناس مخلوق ، ولاشك فيه ، والخالق الله بصفته[1] .

١٧٣ ــ قال : « حدثنى محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة ، عن منصور ، والأعمش ، سمعا سعد بن عبيدة ، عن أبى عبد الرحمن ، عن على ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ « أنه كان فى جنازة ، فأخذ عودا فجعل ينكت فى الأرض ، فقال : ما منكم من أحد إلا كتب مقعده من الجنة ، أو من النار ، قالوا : ألا نتكل ؟ قال : اعملوا ، فكل ميسر ، ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ الآية .

« أنه كان فى جنازة » قال الأزهرى : « قال أبو العباس : الجنازة بالكسر السرير ، وبالفتح الميت ، وقال الليث : الإنسان الميت ، والشىء الذى قد ثقل على قوم ، واغتموا به ، هو جنازة ، وعن الأصمعى : الجنازة بالكسر هو الميت نفسه »[2] .

وفى المصباح : « جنزت الشىء أجنزه ، من باب ضرب ، سترته ، ومنه اشتقاق الجنازة ، وهى بالفتح والكسر ، والكسر أفصح ، وقال الأصمعى وابن الأعرابى : بالكسر الميت نفسه ، وبالفتح السرير ، وروى أبو عمر الزاهد ،

---

(١) خلق أفعال العباد ص ٨٨ ــ ١٩٠ .

(٢) تهذيب اللغة جـ ١٠ ص ٦٢٢ .

الأعرابى : بالكسر الميت نفسه ، وبالفتح السرير ، وروى أبو عمر الزاهد ، عن ثعلب عكس هذا فقال : بالكسر السرير ، وبالفتح الميت نفسه »[1] .

« فأخذ عودا فجعل ينكت فى الأرض » أى يضرب فيها بذلك العود ، ويكون ذلك عادة من فعل المفكر المهموم .

« فقال : ما منكم من أحد إلا كتب مقعده من الجنة أو من النار » الخطاب وإن كان موجها إلى الحاضرين ، فالمقصود به عموم الخلق من الإنس والجن .

ومعنى كتابة مقعده : أن الله علم مصيره ، ومستقره فى الجنة أو فى النار وكتبه ، وذلك قبل وجوده ، كما سبقت الإشارة إليه .

« قالوا : ألا نتكل ؟ » أى ندع العمل اعتمادا على ما كتب لنا ، وقدر ، فإننا لابد صائرين إليه ، فلا يكون فى العمل تغيير لما كتب ، وهذا الإشكال يعرض لكثير من الناس ، وقد أزاله رسول الله ﷺ بقوله : « اعملوا فكل ميسر » أى ميسر لما خلق له من الجنة أو النار ، فإن كان العبد خلق للجنة والسعادة ، فسوف يهيء الله له من أسباب السعادة ، وييسرها له ويسهلها عليه حتى يتمكن من العمل الذى يكون سببا لذلك ، وإن كان من أهل الشقاء ، فلا بد أن يقبض له من الأسباب ما يتمكن به من العمل للشقاء .

فالله ــ تعالى ــ لا يظلم أحدا ، وقد حرم الظلم على نفسه ــ تعالى ــ وجعله بين عباده محرما ، ولكن لكمال قدرته خلق العبد فاعلا مختارا ، فإما

---

(١) المصباح المنير جـ ١ ص ١٥٣ .

أن يختار طريق الهدى ، أو طريق الردى ، وكل واحد من الفريقين يجد نفسه غير مدفوع إلى ذلك ، بل يفعله عن رغبة منه ، واختيار ، ولو حيل بينه وبين ما يريده لربما قاتل من يحاول أن يصده عن مراده ، والله ـــ تعالى ـــ ييسر للعبد من العمل ما يستحق به ما كتب عليه وقدر ، قبل أن يخلق ، ولهذا قرأ النبى ﷺ قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ .

وتقدم وجه الدلالة من الحديث لمراد البخارى فى الحديث الذى قبله ، وهو أن التيسير يدل على أن العبد الذى يسر له العمل عامل حقيقة ، ويدخل فى ذلك قراءة القرآن ، فهى عمل القارئ ، وأما المقروء فهو كتاب الله تعالى كما سبق .

قال ابن المنير : « ما ذكره البخارى فى هذا الباب راجع إلى ما تقدم من وصف القراءة بالتيسير ، وهذا يدل على أنها فعل [العبد] ، ويشهد [له] قوله : كل ميسر لما خلق له ، ومما خلق له التلاوة ، والله أعلم »[1] .

قوله : « ومما خلق له التلاوة » يعنى أنها عمل الإنسان الذى يترتب عليه مصيره الذى كتب له ، كما مر فى الحديث .

ذكر شيخ الإسلام أن الجهمية افترقت على ثلاث فرق ، فرقة تقول : القرآن مخلوق ، وفرق تقول : كلام الله وتسكت ، وفرقة تقول : الفاظنا

---

(١) المتوارى ص ٤٣٢ .

وتلاوتنا للقرآن مخلوقة .

وحقيقة قول هؤلاء أن القرآن الذى نزل به جبريل على محمد مخلوق لم يتكلم الله به ، وشبهتهم أن أفعالنا ، وأصواتنا مخلوقة ، ونحن إنما نقرؤه بحركاتنا وأصواتنا .

ثم قابل هؤلاء قوم أرادوا ، رد باطلهم ، فوقعوا فى باطل آخر ، حيث قالوا : تلاوتنا للقرآن غير مخلوقة ، وألفاظنا به غير مخلوقة[1] لأن هذا هو القرآن ، وهو غير مخلوق .

ولم يفرقوا بين الاسم المطلق ، والاسم المقيد بالدلالة ، فأنكر الإمام أحمد على هؤلاء وبدعهم ، وأحمد ، وسائر الأئمة ينكرون أن يكون شىء من كلام الله مخلوقا ، حروفه أو معانيه ، وينكرون أن يكون القرآن المنزل ليس هو كلام الله ، كما ينكرون على من يجعل شيئا من أفعال العباد ، أو أصواتهم غير مخلوق .

وكلام أحمد فى مسألة التلاوة ، والقراءة ، والإيمان من نمط واحد ، منع إطلاق القول بأن ذلك مخلوق ، لأنه يتضمن القول بأن من صفات الله ما هو مخلوق ، ولما فيه من الذريعة ، ومنع أيضا إطلاق القول بأنه غير مخلوق ، لما فيه من البدعة والضلال .

وذلك أن التلاوة ، والقراءة ، واللفظ ، قد يراد به مصدر تلا يتلو تلاوة ، وقرأ يقرأ ، قراءة ، ولفظ ، يلفظ ، لفظا ، ومسمى المصدر هو فعل العبد ، وحركاته ، وذلك مخلوق ، ليس هو القول المسموع المتلو .

وقد يراد بالتلاوة ، والقراءة ، واللفظ ، المتلو ، المقروء ، المتلفظ به ، وهو المسموع ، وهذا هو كلام الله ـــ تعالى ـــ ليس بمخلوق .

---

(١) ممن يقول بذلك محمد بن داود المصيصى ، وأبو حاتم الرازى ، وأبو عبد الله بن حامد ، وأبو نصر السجزى ، وأبو عبد الله بن منده ، وأبو إسماعيل الهروى وأبو العلاء الهمدانى ، وأبو الفرج المقدسى انظر مجموع الفتاوى جـ ١٢ ص ٣٦١ .

وقد يراد مجموع الأمرين ، فلا يجوز إطلاق القول بأنه مخلوق ، ولا نفى الخلق عن الجميع[1] .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ .

أى : ليس الأمر ، كما قال المكذبون لرسول الله ﷺ أن ما يقوله شعر ، أو كهانة ، أو أساطير الأولين اكتتبها ، ليس الأمر كذلك ، بل هو قرآن مجيد » قال البغوى : كريم ، شريف ، كثير الخير ، ليس كما زعم المشركون ، أنه شعر ، أو كهانة .

﴿ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ قرأ نافع بالرفع ، على أنه نعت للقرآن ، فإن القرآن محفوظ من التبديل والتغيير ، والتحريف ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ وقرأ الباقون بالجر ، على أنه نعت للوح ، وهو الذى يعرف باللوح المحفوظ ، وهو أم الكتاب ، ومنه تنسخ الكتب ، محفوظ من الشياطين ، ومن الزيادة فيه ، والنقصان »[2] .

و « المجيد » الكريم ، واسع الخير ، كثير الصفات الحميدة .

قال ابن القيم : « المجد مستلزم للعظمة ، والسعة والجلال ، كما يدل عليه موضوعه فى اللغة ، فهو دال على صفات العظمة والجلال »[3] .

والقرآن عظيم ، واسع المعانى ، وكثير الخير ، وفيه الهدى والنور ، وهو جليل القدر ؛ إذ هو كلام رب العالمين .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٢ ص ٣٥٩ ــ ٣٧٤ ملخصا .

(٢) تفسير البغوى على هامش الخازن جـ ٧ ص ٢٣٢ .

(٣) جلال الأفهام ص ٢١٦ .

قوله : « ﴿ وَٱلطُّورِ * وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾ ، قال قتادة : مكتوب » .

قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ : « يقسم تعالى بمخلوقاته ، الدالة على قدرته العظيمة ، أن عذابه واقع بأعدائه ، وأنه لا دافع له عنهم ، فالطور : هو الجبل ، الذى يكون فيه أشجار ، مثل الذى كلم الله عليه موسى ، وأرسل منه عيسى ، وما لم يكن فيه شجر ، لا يسمى طورا ، وإنما يقال له جبل .

﴿ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾ قال قتادة : مكتوب ، قيل : هو اللوح المحفوظ ، وقيل : الكتب المنزلة المكتوبة ، التى تقرأ على الناس ، جهارًا ، ولهذا قال : ﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾[1] .

قال البخارى ــ رحمه الله ــ : « وقال إسحاق بن إبراهيم : فأما الأوعية ، فمن يشك فى خلقها ؟ قال الله تعالى : ﴿ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ وقال : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ ذكر أنه يحفظ ، ويسطر . قال : ﴿ وما يسطرون ﴾ .

ثم روى عن قتادة قال : ﴿ وَٱلطُّورِ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾ قال : المسطور . المكتوب ، ﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ وهو الكتاب ، وروى عن مجاهد : ﴿ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾ وصحف مكتوبة ، ﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ فى صحف »[2] .

« قال أبو عبد الله : فأما المداد ، والرق ، ونحوه ، فإنه خلق ، كما أنك تكتب « الله » ، فالله فى ذاته هو الخالق ، وخطك واكتسابك من فعلك خلق ؛ لأن كل شىء ، دون الله ، صفة ، وهو خلق ، وقال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٠٣ .
(٢) خلق أفعال العباد ص ٤٣ .

شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ وقال : ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾[1] .

قوله : « ﴿ يَسْطُرُونَ ﴾ يخطون » .

تفسير لقوله تعالى : ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ .

قال ابن كثير : ﴿ وَٱلْقَلَمِ ﴾ الظاهر أنه جنس القلم ، الذى يكتب به ، كقوله : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ ، فهو قسم منه تعالى ، وتنبيه لخلقه ، على ما أنعم به عليهم ، من تعليم الكتابة ، التى بها تنال العلوم .

ولهذا قال : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : يعنى : وما يكتبون ، وقال أبو الضحى : عن ابن عباس ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أى : وما يعملون ، وقال السدى : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ يعنى : الملائكة ، وما تكتب من عمل العباد »[2] .

قوله : « فى أم الكتاب ، جملة الكتاب وأصله » .

قال ابن كثير : « قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ يبين شرفه ، فى الملأ الأعلى ، ليشرفه ويعظمه ، ويتبعه أهل الأرض ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى : القرآن ﴿ فِى أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ أى : اللوح المحفوظ ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ﴿ لَدَيْنَا ﴾ أى : عندنا ، قاله قتادة وغيره ، ﴿ لَعَلِىٌّ ﴾ أى : ذو مكانة عظيمة ، وشرف ، وفضل ، قاله قتادة .

﴿ حَكِيمٌ ﴾ أى : محكم ، برىء من اللبس والزيغ ، وهذا كله ، تنبيه على شرفه وفضله »[3] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٤ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢١٢ ــ ٢١٣ .
(٣) المصدر المذكور جـ ٧ ص ٢٠٥ .

« ما يلفظ من قول ، ما يتكلمُ من شيء إلا كُتِبَ عليه ، وقال ابن عباس : يُكتَبُ الخير والشر » .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[1] . قال ابن كثير : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ يعنى : الملائكة ، أقرب إلى الإنسان ، من حبل وريده ، ومن تأويله على العلم ؛ فإنما فر لئلا يلزم حلول ، أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع ، تعالى الله وتقدس ، ولكن اللفظ لا يقتضيه ، فإنه لم يقل : وأنا أقرب إليه من حبل الوريد ، وإنما قال : ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، كما قال فى المختصر : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ . يعنى : ملائكته ، وكما قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ فالملائكة نزلت بالذكر ، وهو القرآن ، بإذن الله ـــ عز وجل ـــ وكذلك الملائكة ، أقرب إلى الإنسان من حبل وريده ، بإقدار الله لهم على ذلك .

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ يعنى : الملكين ، اللذين يكتبان عمل الإنسان .

﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ أى : واحد عن يمينه ، والآخر عن شماله ، مترصد لما يقوله أو يفعله .

﴿ مَّا يَلْفِظُ ﴾ أى : ابن آدم ﴿ مِن قَوْلٍ ﴾ أى : ما يتكلم بكلمة ، « إلا لديه رقيب عتيد ﴾ إلا ولها من يراقبها ، معتد لذلك فيكتبها ، ولا يترك له كلمة ، ولا حركة إلا كتبها »[2] .

وقول ابن عباس ، يفيد أنهما لا يكتبان إلا الحسنات والسيئات ، وظاهر

---

(١) الآيات من ١٦ ـــ ١٨ من سورة ق .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٧٦ .

الآية أنهما يكتبان ، كل ما نطق به الإنسان أو عمله ، لأنه قال : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ .

قال مجاهد : الذى يكتب الحسنات عن يمينه ، والذى يكتب السيئات عن شماله .

وقال أيضا : مع كل إنسان ملكان ، ملك عن يمينه ، وملك عن يساره .

قال : « فأما الذى عن يمينه ، فيكتب الخير ، وأما الذى عن يساره ، فيكتب الشر » .

وقال قتادة : تلا الحسن : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ فقال : يابن آدم ، بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، فأما الذى عن يمينك ، فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن شمالك ، فيحفظ سيئاتك ، فاعمل بما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت ، طويت صحيفتك ، فجعلت فى عنقك معك فى قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة ، فيقال لك : ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ ، عدل واللهِ فَيك من جعلك ، حسيب نفسك »[1] .

« يحرِّفُونَ » يُزيلون ، وليس أحدٌ يزيلُ لفظَ كتابٍ من كتب الله ـــ عز وجلَّ ـــ ولكنَّهم يُحرِّفونه : يتأولونه عن غير تأويله » .

قال الحافظ : « لم أر هذا موصولا من كلام ابن عباس ، من وجه ثابت ، مع أن الذى قبله ، من كلامه ، وكذا الذى بعده ، وهو قوله : « دراستُهم : تلاوتهم » ، وما بعده ، وأخرج ذلك ابن أبى حاتم ، وتقدم فى باب قوله

---

(١) روى هذه الآثار ابن جرير فى تفسيره جـ ٢٦ ص ١٥٩ .

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ عن ابن عباس ، ما يخالف ما ذكر هنا ، وهو تفسير ﴿ يُحَرِّفُونَ ﴾ بقوله : يزيلون .

وقال أبو عبيدة فى مجاز القرآن ، فى قوله يحرفون الكلم عن مواضعه قال : يقلبون ويغيرون .

وقال الراغب : « التحريف : الإمالة ، وتحريف الكلام : أن يجعله ، على حرف من الاحتمال ، بحيث يمكن حمله على وجهين ، فأكثر »[1] .

وقال : « صرح كثير من أصحابنا ، بأن اليهود ، والنصارى بدلوا التوراة ، والإنجيل .

وذكر بعض الشراح ، أن فى هذه المسألة ، أربعة أقوال :

أحدها : أنها بدلت كلها ، وينبغى حمل هذا الإطلاق على أكثرها ؛ لأن الآيات والأخبار الكثيرة ، تدل على بقاء شىء منها لم يبدل ، كقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[2] ، ومنه قصة رجم اليهوديين ، وفيها وجود آية الرجم ، فى التوراة ، ويؤيد ذلك ، قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ .

الثانى : أن التبديل وقع فى معظمها ، وأدلة ذلك كثيرة ، وينبغى حمل القول الأول عليه .

الثالث : وقع التبديل فى اليسير منهما ، ومعظمهما باق على حاله ، قال : ونصره الشيخ تقى الدين ابن تيمية فى الجواب الصحيح .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٢٣ .

(٢) الآية ١٥٧ من سورة الأعراف .

الرابع : « إنما وقع التبديل والتغيير ، فى المعانى ، لا فى الألفاظ ، وهو ما ذكره البخارى هنا »[1] .

والصحيح ، أن التبديل والتحريف ، وقع فى كثير من ألفاظهما ومعانيهما ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾[3] .

قال شيخ الإسلام : « علماء المسلمين ، وعلماء أهل الكتاب ، متفقون على وقوع التحريف ، فى معانى وتفسير الكتب السابقة ، وإن كانت كل طائفة تزعم أن الأخرى هى التى حرفت المعانى .

وأما ألفاظ الكتب ، فقد ذهبت طائفة من علماء المسلمين إلى أن ألفاظهما لم تبدل ، كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكتاب .

وذهب كثير من علماء المسلمين ، وأهل الكتاب إلى أنه بدل بعض ألفاظها .

وهذا هو المشهور عن كثير من علماء المسلمين ، وقاله أيضا كثير من علماء أهل الكتاب ، حتى فى صلب المسيح ، ذهبت طائفة من النصارى إلى أنه لم يصلب ، وإنما صلب الذى شبه بالمسيح ، كما أخبر به القرآن فإنه لما ألقى شبهه على المصلوب ، ظنوا أنه هو المسيح ، أو تعمدوا الكذب .

ثم هؤلاء ، منهم : الذين يقولون : إن فى ألفاظ الكتب ما هو مبدل .

---

(١) الفتح بتصرف جـ ١٣ ص ٥٢٣ ـــ ٥٢٤ .
(٢) الآية ٧٨ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ٤٦ من سورة النساء ، والآية ١٣ من سورة المائدة .

ومنهم : من يجعل المبدل من التوارة والإنجيل كثيرا منهما ، وربما جعل بعضهم المبدل أكثرهما ، لاسيما الإنجيل ، فإن الطعن فيه أكثر ، وأظهر منه فى التوراة .

ومن هؤلاء ، من يسرف ، حتى يقول : إنه لا حرمة لشىء منهما ، بل يجوز الاستنجاء بهما .

ومنهم من يقول : الذى بدلت ألفاظه ، قليل منهما ، وهذا أظهر ، والتبديل فى الإنجيل أظهر ، بل كثير من الناس يقول : هذه الأناجيل ليس فيها من كلام الله ، إلا القليل ، والإنجيل الذى هو كلام الله ليس هو هذه الأناجيل .

والصحيح ، أن هذه التوراة ، والإنجيل ، الذى بأيدى أهل الكتاب ، فيه ما هو حكم الله ، وإن كان قد بدل ، وغير بعض ألفاظهما ، لقول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَم تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللهِ ﴾[1] فعلم ، أن التوراة التى كانت موجودة ، بعد خراب بيت المقدس ، بعد مجيىء بختنصر ، وبعد مبعث المسيح ، وبعد مبعث محمد صلى الله عليهما وسلم فيها حكم الله .

والتوراة التى كانت عند يهود المدينة ، على عهد رسول الله ﷺ وإن قيل : إنه غير بعض ألفاظها بعد مبعثه ، فلا نشهد على كل نسخة فى العالم بمثل ذلك ، فإن هذا غير معلوم لنا ، وهو متعذر ، بل يمكن تغيير كثير من النسخ ، وإشاعة ذلك عند الاتباع ، حتى لا يوجد عند كثير من الناس إلا ما غير ، ومع هذا فكثير من نسخ التوراة والإنجيل متفقة فى الغالب ، وإنما تختلف فى اليسير من ألفاظها .

---

(١) الآيات ٤١ ـــ ٤٣ من سورة المائدة .

فتبديل ألفاظ اليسير من النسخ ، بعد مبعث الرسول ﷺ ممكن ، لا يمكن أحدًا أن يجزم بنفيه ، ولا يقدر أحد من اليهود ، والنصارى أن يشهد بأن كل نسخة فى العالم من الكتابين ، متفقة الألفاظ ؛ إذ لا سبيل إلى علم ذلك .

وذلك أن اليهود قبل مبعث النبى ﷺ وعلى عهده ، وبعده ، منتشرون فى مشارق الأرض ومغاربها ، وعندهم نسخ كثيرة من التوراة .

وكذلك النصارى ، ولم يتمكن أحد من جمع هذه النسخ وتبديلها ، ولو كان هذا ممكنا ، وواقعا ، لكان من الوقائع العظيمة ، التى تتوافر الدواعى على نقلها .

ومثل التوراة ، الإنجيل ، قال الله تعالى : ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ فِيهِ ﴾[1] فعلم ، أن فى الإنجيل حكما ، أنزله الله — تعالى — لكن الحكم من باب الأمر والنهى ، ولا يمتنع أن يكون التغيير والتبديل فى باب الإخبار ، وهو الذى وقع فيه التبديل لفظا .

وأما الأحكام التى فى التوراة ، فما يكاد أحد يدعى التبديل فى ألفاظها[2] .

وبهذا يتبين ، أن ما ذكره البخارى — رحمه الله — أحد أقوال العلماء ، وهو أن ألفاظ كتب الله السابقة للقرآن ، لم تغير ولم تبدل ، وإنما حرفت معانيها ، وأولت على غير تأويلها ، فيكون معنى التحريف ، الذى ذكره الله — تعالى — عنهم : هو تحريف المعانى ، وصرفها عن مراد الله بها ، إلى ما تهوى نفوسهم ، وما يريدون حسب رغباتهم .

---

(١) الآية ٤٧ من سورة المائدة .

(٢) الجواب الصحيح جـ ١ ص ٣٧٩ — ٣٨١ .

ولكن يبقى أن يقال : هل التوراة التى بأيدى اليهود ، والنصارى ، هى التى أنزل الله على موسى وعيسى ، لم يذهب منهما شيء ، ولم يزد عليهما شيء ؟ هذا الذى لا يستطيع أحد أن يجزم به ، فالصحيح ، أنه حصل فى ألفاظهما التبديل والتغيير ، وأن بعض ألفاظها أزيل ، ووضع بدله غيره ، لا كما يقول البخارى ـــ رحمه الله ـــ .

فإن كانت التوراة هذه الموجودة اليوم بأيدى الناس ، فلا شك فى تغيير وتبديل بعض ألفاظها حسب الترجمة العربية .

فقد جاء فى الإصحاح التاسع عشر ، من سفر التكوين ، من التوراة ، قوله : « صعد لوط من زغر ، وسكن فى الجبل ، وابنتاه معه إذ خاف من المقام فى زغر ، وسكن فى مغارة هو وابنتاه معه ، فقالت الكبيرة للصغيرة : أبونا شيخ ، وإنسان ، ليس فى الأرض للدخول علينا كسبيل كل الأرض . تعالى نسقى أبانا خمرا ونضجع معه ، ونبقى من أبينا نسلا ، فسقتا أباهما خمرا فى تلك الليلة »[1] إلى آخر الكلام ، وهو باطل قطعا ، وقد نزه الله نبيه لوطا ـــ عليه السلام ـــ أن يقع على ابنتيه ، فتحبلان منه ، وإنما هذا من وضع اليهود أعداء الله تعالى .

فقوله : « وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله ـــ عز وجل ـــ » غير مسلم ، بل بدل بعض ألفاظها ، كما سبق فى كلام شيخ الإسلام أنه الصحيح .

« قال الزركشى : اغتر بعض المتأخرين ، بما قاله البخارى ، فقال : إن فى تحريف التوراة خلافا ، هل هو فى اللفظ والمعنى ، أو فى المعنى فقط ، ومال إلى الثانى ، ورأى جواز مطالعتها ، وهو قول باطل ، ولا خلاف أنهم حرفوا ، وبدلوا .

---

(١) انظر التوراة السامرية ص ٥٩ .

والاشتغال بنظرها ، وكتابتها ، لا يجوز بالإجماع ، وقد غضب النبى ﷺ حين رأى مع عمر صحيفة فيها شيء من التوراة ، وقال : « لو كان موسى حيا ، ما وسعه إلا اتباعى » ولولا أنه معصية ما غضب .

ونظَّر الحافظ بهذا الكلام ، وقال : « الظاهر ، أنه مكروه كراهة تنزيه ، وقال : الأولى ، التفرقة بين من لم يتمكن ، ويصر من الراسخين من الإيمان ، فلا يجوز له النظر فى شيء من ذلك ، بخلاف الراسخين ، فيجوز لهم ، ولاسيما عند الاحتجاج ، ويدل على ذلك نقل الأئمة قديما وحديثا من التوراة »[1] .

وتحريف معانيها وتفسيرها بغير المراد ، فهذا ظاهر جدا ، ولا ينبغى أن يكون فيه خلاف ، وكثير من آيات القرآن صريحة فى هذا ، وهو مراد البخارى بقوله : « ولكنهم يحرفونه : ويتأولونه عن غير تأويله » أى : يحرفون معانيه ، ويفسرونه بما لم يرده المتكلم ، اتباعا لأهوائهم .

قال ابن القيم : « التأويل : تفعيل من آل يؤول إلى كذا ، إذا صار إليه ، فالتأويل التصيير ، وأولته تأويلا ، إذا صيرته إليه »[2] .

وتسمى عاقبة الشيء تأويلا ؛ لأن الأمر يصير إليها ، وكذلك حقيقة الشيء المخبر به ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾[3] .

وعند المتأخرين ، التأويل : هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه ، إلى ما هو أخفى منه ، لدليل يقترن بذلك ، والدليل قد يكون عقليا ، وقد

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٢٥ .

(٢) انظر الصواعق جـ ١ ص ٧٧ .

(٣) الآية ٥٣ من سورة الأعراف .

يكون شرعيا ، ويسمى التفسير تأويلا .

قوله : « دراستهم : تلاوتهم » .

قال الحافظ : وصله ابن أبى حاتم ، من طريق على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس[1] .

وهذا جزء من قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾[2] .

وفى اللسان : « درست الكتاب ، أدرسه ، درسا أى : ذللته بكثرة القراءة حتى خف حفظه على »[3] ، والمقصود أن الدراسة هى التلاوة ، وهى فعل التالى .

قوله : « واعية : حافظة » .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ والجارية ، هى السفينة ، التى صنعها نبى الله نوح ﷺ وهو أبو البشر الثانى ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ ، فتكون السفينة ، تذكرة لما وقع لقوم نوح ، لما عصوا رسولهم ، فيبتعد المتذكر عن معصية الله ؛ لئلا يصيبه ما أصابهم ، وهذه العظة والتذكرة تعيها الأذن الواعية ، المتيقظة ، المتنبهة .

ومراده ، أن الحفظ والفهم فعل العبد الذى يقرأ ويحفظ ، ويفهم .

قوله : « وأوحى إلىَّ هذا القرآنُ لأنذركم به : يعنى أهلَ مكة ومن بلغ هذا القرآنُ ، فهو له نَذيرٌ » .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٢٥ .
(٢) الآية ١٥٦ من سورة الأنعام .
(٣) لسان العرب جـ ١ ص ٩٦٨ .

الوحى من الله ــ تعالى ــ وهو الإعلام بخفية ، والإنذار فعل الرسول ﷺ ، وإنذاره بالقرآن ، أن يقرأه على الناس ، وقراءته هى فعله ، وهو وفعله مخلوق ، وهذا وجه الاستدلال من الآية .

« ومن بلغ » أى : من بلغه هذا القرآن ، فهو له نذير ، والذى يبلغه ، يسمعه من المبلغ له بصوت ذلك المبلغ ، والصوت من فعل المبلغ ، وهو مخلوق ، والقرآن المبلغ بالصوت كلام الله تعالى غير مخلوق .

وقد أكثر البخارى ــ رحمه الله ــ من الاستدلال لهذه المسألة ، لأنه قد بلى بمن يقول : القراءة هى المقروء ، ونسب إليه ، أنه يقول : لفظى بالقرآن مخلوق .

وهو برىء من ذلك .

قال الحافظ : « هذا الذى ذكره البخارى ، هو قول ابن عباس ، رواه ابن أبى حاتم عنه ، وقال أخرج ابن أبى حاتم فى كتاب الرد على الجهمية ، عن عبد الله بن داود الخرسى قال : ما فى القرآن آية أشد على أصحاب جهم من هذه الآية ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ . فمن بلغه القرآن ، فكأنما سمعه من الله تعالى »[1] .

١٧٤ ــ قال : « وقال لى خليفة بن خياط : حدثنا معتمر ، سمعت أبى ، عن قتادة ، عن أبى رافع ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « لما قضى الله الخلق كتب كتابا عنده ، غلبت ــ أو قال : سبقت رحمتى غضبى ، فهو عنده فوق العرش » .

« حدثنى محمد بن أبى غالب ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٢٦ .

معتمر ، سمعت أبى يقول : حدثنا قتادة ، أن أبا رافع حدثه ، أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتى سبقت غضبى ، فهو مكتوب عنده فوق العرش » .

الكتابة ، هى إثبات الكلام المكتوب ، فى محل الكتابة ، والله سبحانه ، كتب ذلك الكتاب فى شىء تثبت فيه الكتابة ، ويثبت الكلام فى ذلك الشىء بالكتابة ، سواء كان اللوح المحفوظ أو غيره ، فالمقصود إثبات الكتابة للكلام ، وأن كون الكلام فى الكتاب ، ليس ككون الماء فى الإناء ، والعرض بالجوهر ، والرجل فى البيت ، بل هو قسم غير هذا ، وهو معقول يدركه الناس ، ويفهمون معنى كون الكلام فى الكتاب ، وهذا الحديث تقدم شرحه ، وغرضه من الطريق الأخرى ، تصريح أبى رافع ، وقتادة بالتحديث ، فيزول احتمال التدليس .

وقوله : « قبل أن يخلق الخلق » لا يعارض قوله فى الرواية قبلها « لما قضى » لأنه يجوز أن يراد بالخلق ، التقدير والفراغ منه ، وهو غير الإيجاد ، ومعلوم أن خلق الله تعالى لا نهاية له .

وتبين ، أن مقصود البخارى ــ رحمه الله ــ بهذا الباب ، أن يبين معنى كون القرآن فى المصحف ؛ أنه مكتوب مسطور فيه ، مثل ما أن اسم الله فى المصحف ، فإن القرآن كلام الله ، والكلام يقوم بالمتكلم صفة له ، قال شيخ الإسلام : ليس معنى قول السلف : القرآن كلام الله ، منه بدأ ، ومنه خرج ، أنه فارق ذاته ، وحل فى غيره ، فإن كلام المخلوق إذا تكلم به ، لا يفارق ذاته ، ويحل بغيره ، فكيف يكون كلام الله ؟ قال تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ .

فقد أخبر ، أن الكلمة تخرج من أفواههم ، ومع هذا فلم تفارق ذاتهم[1] .

فالقرآن كلام الله ، ويحفظ فى القلوب ، كما يحفظ الكلام ، ومذكور بالألسنة كما يذكر الكلام بالألسنة ، وهو مكتوب فى المصاحف ، والأوراق ، كما أن الكلام يكتب فى الكتاب والورق .

والكلام هو مجموع اللفظ والمعنى ، فاللفظ يطابق المعنى ويدل عليه .

ولا يجوز أن يقال : إن القرآن محفوظ ، كما أن الله معلوم ، وهو متلو ، كما أن الله مذكور ، ومكتوب ، كما أن الرسول مكتوب ، فهذا خطأ ، وضلال .

فليس وجود الأعيان القائمة بأنفسها ، كوجود العبارة الدالة على المعنى المطابق لها ، والفرق ظاهر بين قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ وقوله ﴿ إِنَّهُ لَقُرءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ وبين قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ فإن القرآن ، لم ينزل على نبى قبل محمد ﷺ وإنما الذى فى زبر الأولين ذكره ، والخبر عنه ، كما أن محمدا ﷺ مكتوب عندهم فى التوراة ، والإنجيل فالله ورسوله معلوم بالقلوب ، مذكور بالألسنة مكتوب فى المصحف ، كما أن القرآن معلوم لأهل الكتاب قبلنا ، مكتوب عندهم ، وذلك ذكره والخبر عنه .

ولكن الذى فى المصحف عندنا ، هو نفس القرآن .

ولهذا يجب أن يفرق بين قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ وبين قوله تعالى : ﴿ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ فإن كون الأعمال

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٢ ص ٥١٧ ـــ ٥١٨ .

فى الزبر ، مثل كون القرآن ، والرسول محمد ﷺ فى زبر الأولين .

وأما الكتاب المسطور فى الرق المنشور ، فهو كما يكتب الكلام نفسه فى الكتاب .

فأين هذا من هذا ؟

وذلك أن كل شيء ، له فى الوجود أربع مراتب ، وجود فى الأعيان ، ووجود فى الأذهان ، ووجود فى اللسان ، ووجود فى الكتاب .

والكلام وجوده فى اللسان ، وليس بينه وبين المحل المكتوب فيه ، مرتبة أخرى ، بل نفس الكلام يثبت فى الكتاب ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَتْلُوْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ ﴾ .

وليس فى المصحف من الأعيان إلا ذكرها ، ووصفها ، والخبر عنها .

والكلام فى الكتاب ، ليس هو فيه ، كما تكون الصفة بالموصوف ، والعرض بالجوهر والجسم بالمكان ، وما هو بمنزلة الدليل على المدلول ، كالمخلوق الدال على الخالق . بل هو قسم آخر ، معقول بنفسه ، والناس بفطرهم ، يفهمون معنى كون كلام الله فى المصحف ، وأن كلامه الذى قام به لم يفارق ذاته ، ويحل فى غيره ، ويعلمون أن الذى فى المصحف ، ليس مجرد دليل ، على معنى قائم فى نفس الله ، بل الذى فى المصحف كلام الله ، مطابق للفظه ، ولفظه مطابق لمعناه ، ومعناه مطابق لما فى الخارج ، وهو كلام الله حقيقة لا مجازا .

وهذه مسألة عظيمة ، ضل فيها طوائف من الناس ، والبخارى رحمه الله ممن ابتلى فيها بمن لم يفهم الحق فيها ؛ فارتكب شططا ، ونسب البخارى فيها

إلى الباطل ، ولهذا أكثر من البيان لها كما سبق ، ومنشأ الاختلاف فيها ، يعود إلى أصلين[1] :

أحدهما : مسألة تكلم الله تعالى بالقرآن ، وغيره .

والثانى : تكلم العباد بكلام الله ، وقد حاولت بيان الحق ، فى كلا المسألتين فيما سبق ، قدر ما أوتيت من بيان ، والله المستعان .

قال : باب قول الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

يريد رحمه الله بهذا الباب بيان أن الله ــ تعالى ــ هو الخالق لكل شىء ، وحده لا شريك له فى ذلك ، فيدخل فيه ، أعمال العباد وأفعالهم ، والآية نص فيه ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ سواء كانت « ما » موصولة أو مصدرية ، فعلى التقديرين ، فالآية دالة على أن أفعال العباد مخلوقة ؛ لأن آلهتهم التى يعبدونها صارت على شكل معين ، وهيئة خاصة بعملهم وصنعهم .

وقد أطالوا الكلام فى إعراب « ما » فى هذه الآية ، وادعى بعضهم إجماع أهل السنة على أنها مصدرية ، وشنعوا على المعتزلة ، فى دعواهم : أنها موصولة ، ظانين أنها إذا كانت موصولة ، صارت دليلا على أن العباد يخلقون أفعالهم .

والصواب ، أنها موصولة ، وأنها لا تدل على أن العباد يخلقون أفعالهم ، كما زعم القدرية من المعتزلة .

قال الإمام ابن جرير : « وفى قوله : « وما تعملون » وجهان : أحدهما : أن يكون « ما » بمعنى المصدر ، فيكون معنى الكلام حينئذ : والله خلقكم وعملكم .

---

(١) لخصت هذا الفصل من المجلد الثانى عشر من مجموع الفتاوى .

والآخر : أن يكون بمعنى « الذى » ، فيكون معنى الكلام حينئذ : والله خلقكم والذى تعملونه . وذكر عن قتادة أنه قال : والله خلقكم وما تعملون بأيديكم(١) فهذا يدل على أنها موصولة عنده .

وقال شيخ الإسلام : قال الله تعالى : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ « فما » بمعنى « الذى » ، ومن جعلها مصدرية ، فقد غلط ، ولكن إذ خلق [الله] المنحوت ، كما خلق المصنوع ، والملبوس ، والمبنى ، دل على أنه خالق كل صانع وصنعته(٢) .

والمعنى ، أن الآية فيها التصريح ، بأن أصنامهم من مخلوقات الله ، وإن كان شكلها ، ووضعها ، على صفة معينة من صنعهم ، فإن الله هو الذى أقدرهم على ذلك ، ويسر لهم أسبابه ، ولهذا أخبر تعالى بأنه هو الذى خلق الفلك ، وهى مصنوعة لبنى آدم . قال تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾(٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾(٤) وهذه كلها مصنوعة لبنى آدم ، وهذا يبين وجه دلالة الآية ، المترجم بها ، على أن الله هو خالق أفعال بنى آدم ، فهم وأفعالهم من خلق الله تعالى . وإن كانت « ما » فى الآية موصولة ، فلا داعى للتعسف والتكلف لجعلها مصدرية ، حتى لا يكون فيها متعلق ، للقدرية المعتزلة ، القائلين بأن العبد يخلق فعله بنفسه ، فهذا قول ظاهر البطلان ، وكل باطل لا يؤيده كتاب الله تعالى ، بل يدل على بطلانه .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢٣ ص ٧٥ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٨ ص ٨٩ .

(٣) الآية ٤٢ من سورة يس .

(٤) الآية ٨٠ من سورة النحل .

فقد ضل من أخرج أفعال العباد عن مخلوقات الله تعالى كما ضل من قابلهم ، وقال : إن العباد مجبورون على أعمالهم ، فلا اختيار لهم ولا قدرة .

والحق وسط بين هاتين الضلالتين . وهو أن الله تعالى خلق العباد ، وخلق لهم قدرة ، واختيارا بهما يفعلون ما يريدون فعله ، ويتركون ما يريدون تركه .

وسبب الضلال فى هذه المسألة ، عدم التفريق بين خلق الله ومخلوقه .

« فخلق الله صفته التى يخلق بها الخلق . وأما مخلوقه فهو أثر الصفة ، وهو مفعوله ، وخلق الله ــ تعالى ــ لمخلوقاته ، ليس هو نفس مخلوقاته ، بل خلقه فعله المتصف به ، ومخلوقاته مفعولاته التى يفعلها ويوجدها إذا شاء ، وأفعال العباد مخلوقة له تعالى كسائر المخلوقات ، ومن جملة مفعولاته ، وليست هى نفس فعل الرب ، بل هى نفس فعل العبد ، فالكذب والظلم ، ونحوهما من القبائح ، يتصف بها من كانت فعلا له ، قائمة به ، ولا يتصف بها من كانت مخلوقة له ؛ لأنه ــ تعالى ــ جعلها صفة لغيره ، كما أنه ــ تعالى ــ لا يتصف بما خلقه فى غيره ، من الطعوم ، والألوان ، والروائح ، والأشكال ، وغير ذلك .

فإذا خلق الإنسان أبيض ، أو أسود ، لم يكن ذلك اللون وصفا له ، وكذلك إذا خلق هذا الشىء مرًّا ، أو حلوًا ، أو على صورة قبيحة مذمومة ، لم يكن تعالى متصفا بذلك ، بل المتصف بها من قامت به وفعلها[1] .

وقال أيضا : « القرآن دل على أن مفعولات العباد ، الخارجة عن أنفسهم ، مصنوعة لهم ، وما كان مصنوعا لهم ، فهو من فعلهم ، ومقدورهم بالضرورة ، والاتفاق .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٨ ص ١٢٣ بتصرف .

قال الله تعالى : لنوح عليه السلام : ﴿ وَٱصْنَعْ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ ﴾[2] ، وقد أخبر ـــ تعالى ـــ أن الفلك مخلوقة من مخلوقاته ، مع كونها مصنوعة لبنى آدم ، وجعلها من آياته ، فقال تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾[5] ، وقال تعالى : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . فجعل الأصنام معمولة لهم ، وأخبر أنه خالقهم ، وخالق معمولهم ، فإن « ما » ها هنا بمعنى الذى ، والمراد ، خلق ما يعملونه من الأصنام ، وإذا كان خالقا للمعمول ، وفيه أثر فعلهم ، دل على أنه خالق لأفعال العباد .

وأما قول من قال : إن « ما » مصدرية فضعيف جدا[6] .

وفى قوله تعالى : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ تنبيه لعباد الأصنام ، على فساد ما صاروا إليه من عبادتها ، مع نحتهم إياها بأيديهم ، فكيف تعبدون أصناما تعملونها بأيديكم ؟ والله خالقكم وما تعملونه ، فأوجدكم ، بعد أن لم تكونوا شيئا ، وخلق لكم ما تصلح به حياتكم ، وخلق ما تنحتونه ، فهو الخالق لكل شىء ، فالواجب عليكم أن تعبدوه ، وحده لا شريك له ، فهو المتفرد بالخلق ، والمالك لكل شىء ، فمن

---

(١) الآية ٣٧ من سورة هود عليه السلام .
(٢) الآية ٣٨ من سورة هود عليه السلام .
(٣) الآية ٤١ من سورة يس .
(٤) الآية ٦٥ من سورة الحج .
(٥) الآية ١٢ من سورة الزخرف .
(٦) مجموع الفتاوى جـ ٨ ص ١٦ ـــ ١٧ .

السفاهة ، أن تعبدوا تلك الصور ، التى نحتموها بأيديكم ، ثم سميتموها كذبا وبهتانا آلهة ، وقد علمتم ، أنها ما صارت صورا ، إلا بنحتكم إياها وعملكم ، والله هو الذى أقدركم على عملها ، ومكنكم من ذلك ، فهو الخالق لكم ولما تعملونه بأيديكم .

قال ابن القيم : ما المصدرية وما الموصولة ، يتعاقبان غالبا ، ويصلح أحدهما فى الموضع الذى يصلح فيه الآخر ، وربما احتملهما كلام واحد ، ولا يميز بينهما إلا بنظر وتأمل ، فإذا قلت : يعجبنى ما صنعت ، فهى صالحة لأن تكون مصدرية ، أو موصولة ، وكذلك : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ فتأمله تجده كذلك .

ولدخول إحداهما على الأخرى ؛ ظن كثير من الناس ؛ أن قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أنها مصدرية ، واحتجوا بها على خلق الأعمال ، وليست مصدرية ، وإنما هى موصولة .

والمعنى : والله خلقكم ، وخلق الذى تعملونه ، وتنحتونه من الأصنام ، فكيف تعبدونها ، وهى مخلوقة من مخلوقات الله تعالى ؟

ولو كانت مصدرية ، لكان الكلام إلى أن يكون حجة لهم[١] أقرب من أن يكون حجة عليهم ؛ إذ يكون المعنى : أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وخلق عبادتكم لها ، فأى معنى فى هذا ؟ وأى حجة عليهم ؟[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

يخبر تعالى عباده ، أن كل شيء خلقه ، وحده لا شريك له ، فلا خالق

---

(١) أى : القدرية الذين ينكرون خلق الله لأفعال العباد .

(٢) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١٦٢ .

غيره ، وأنه خلقه ، بقدر قدره وقضاه ، فلا يتعداه ولا يقصر دونه ، فيدخل فى هذا العموم أفعال العباد ، فهى داخلة فى خلقه وتقديره .

قال ابن جرير : « يقول ــ تعالى ذكره ــ إنا خلقنا كل شيء بمقدار قدرناه وقضيناه ، وفى هذا بيان ، أن الله ــ جل ثناؤه ــ توعد هؤلاء المجرمين ، على تكذيبهم بالقدر ، مع كفرهم به . ثم روى عن ابن عباس أنه كان يقول : إنى أجد فى كتاب الله قوما يسحبون فى النار على وجوههم ، يقال لهم : ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ ؛ لأنهم كانوا يكذبون بالقدر ، وإنى لا أراهم ، فلا أدرى ، أشيء كان قبلنا ، أم شيء فيما بقى ؟[1] .

وذكر آثارا بهذا المعنى .

وقال ابن كثير : « وقوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ كقوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ وكقوله : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ أى قدر قدرا ، وهدى الخلائق إليه ، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة ، أئمة السنة على إثبات قدر الله ، السابق لخلقه ، وهو علمه الأشياء قبل كونها ، وكتابته لها قبل برئها ، وردوا بهذه الآية ، وبما شاكلها من الآيات ، وماورد فى معناها ، من الأحاديث الثابتة على الفرقة القدرية ، الذين نبغوا فى أواخر عصر الصحابة »[2] ثم ذكر جملة من الأحاديث المثبتة للقدر ، والتى فيها وعيد من أنكره .

قوله : « ويقال للمصَوِّرِين : أحيوا ما خلقتم » .

يقال لهم ذلك يوم القيامة ، تبكيتا وتعذيبا لهم ، بتكليفهم ما لا يقدرون عليه ، حيث كانوا فى الدنيا ، يضاهئون الله فيما يختص به ، وهو الخلق

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢٧ ص ١١٠ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٢٢ .

والتصوير ــ وسيأتى ذلك إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .

المقصود من الآية هنا ، التفرقة بين الخلق والأمر ، فإن الخلق هو أثر الأمر ، الكائن به الخلق ، فإن الله ــ تعالى ــ إذا أراد شيئا ، قال له كن ، فيكون ، فالقول وصفه ــ تعالى ــ والخلق الذى هو المخلوق مفعوله المكون المخلوق الموجَد بالقول ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ فعطف الأمر على الخلق ؛ لأنه غيره ، وهو ــ تعالى ــ مختص بذلك وحده ، فلا أحد يشاركه فيهما ، وكلاهما عام شامل ، فلا يخرج عن خلقه تعالى مخلوق ، ومن ذلك أفعال العباد .

وأمره ــ تعالى ــ يتناول الأمر القدرى ، والأمر الدينى الشرعى .

قال ابن كثير ــ رحمه الله تعالى ــ « يخبر ــ تعالى ــ بأنه خلق هذا العالم : سماواته ، وأرضه ، وما بين ذلك ، فى ستة أيام ، كما أخبر بذلك فى غير ما آية من القرآن .

والستة الأيام هى : الأحد ، والاثنين ، والثلاثاء ، والأربعاء ، والخميس ، والجمعة ، وفيه اجتمع الخلق كله ، وفيه خلق آدم .

قوله : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ أى : يذهب ظلام هذا بضياء هذا ، وضياء هذا بظلام هذا ، وكل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا ، أى : سريعا ، لا يتأخر عنه ، بل إذا ذهب هذا جاء هذا[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٢٢ .

فالليل بأثر النهار ، والنهار يطرد الليل دائما ، حتى يأذن الله بانقضاء هذا العالم ، وهناك يبدأ اختلال توازنه ، بطلوع الشمس من مغربها .

﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ أى : أنها مخلوقة لله ، مقهورة مسخرة ، لا تخالف أمر خالقها ، الذى سخرها لكم ، فاعبدوه ، فإنه هو المستحق للعبادة دون سواه ، وهو الذى له الخلق والأمر وحده .

﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال ابن الأنبارى : « تبارك » فيه قولان : أحدهما : أن معناه : تقدس ، أى تطهر ، والقدس عند العرب : الطهر ، والماء المقدس : هو الماء المطهر ، والقدوس : الذى طهر من الأولاد ، والشركاء ، والصاحبة .

والثانى : تفاعل من البركة ، أى : البركة تكتسب ، وتنال بذكر اسمه تعالى[1] .

وقال الأزهرى : « أخبرنى المنذرى ، عن أبى العباس ، أنه سئل عن تفسير ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ ﴾ فقال : ارتفع ، والمتبارك المرتفع .

وقال الزجاج : تبارك : تفاعل من البركة ، كذلك يقول أهل اللغة .

وقال : تبارك : تعالى وتعاظم . وقال ابن الأنبارى : تبارك الله ، أى : يتبرك باسمه فى كل أمر . ومعنى تبارك : تقدس ، أى : تطهر ، والمقدس : المطهر .

وقال الليث : تبارك : تمجيد وتعظيم »[2] .

وهذه الأقوال متقاربة ، وكلها حق ، يدل عليها هذا اللفظ ، فهو ــ تعالى ــ عالٍ على خلقه ، فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، وهو القدوس المتنزه عن كل عيب ، أو نقص يلحق خلقه ، أو لا يليق بعظمته ، وكبريائه ،

---

(١) الزاهر جـ ١ ص ١٤٧ .

(٢) تهذيب اللغة جـ ١٠ ص ٢٣٠ .

وهو الذى يبارك على ما يشاء من خلقه ، فيجعله مباركا ، وبذكر اسمه يكثر الخير ، وتحل البركة ، وهو أهل المجد والتعظيم .

قوله : « قال ابن عيينة : بين الله الخلق من الأمر ، بقوله : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ .

قال الحافظ : « روى هذا الأثر ابن أبى حاتم ، موصولا ، فى الرد على الجهمية .

ولفظه : قال : كنا عند سفيان بن عيينة ، فقال : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ فالخلق : هو المخلوقات ، والأمر : هو الكلام .

وفى رواية من طريق حماد بن نعيم : « سمعت سفيان بن عيينة ، وسئل عن القرآن : أمخلوق هو ؟ فقال : يقول الله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ ألا ترى كيف فرق بين الخلق ، والأمر ، فالأمر : كلامه ، فلو كان كلامه مخلوقا لم يفرق »[1] .

وقال البخارى : « والقرآن كلام الله غير مخلوق لقول الله ـــ تعالى ـــ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ فبين أن الخلائق ، والطلب الحثيث ، والمسخرات بأمره ، ثم شرح فقال : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ . قال ابن عيينة : قد بين الله الخلق من الأمر ، بقوله : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ ، فالخلق بأمره ، كقوله : ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾[2] وكقوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[3] .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٣٢ ــ ٥٣٣ .

(٢) الآية ٤ من سورة الروم .

(٣) الآية ٨٢ من سورة يس .

وكقوله : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾[1] ، ولم يقل بخلقه »[2] .

والأدلة كثيرة ، فى التفرقة بين الخلق والأمر ، والمخلوقات وجدت بالأمر ، كما أشار إلى ذلك الإمام البخارى ، بما استدل به من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ . فبين أن تكوين الأشياء وإيجادها ، بقوله ﴿ كُن ﴾ ، وأنه يوجد عقب قوله ﴿ كُن ﴾ .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ . فالسماء والأرض ، مخلوقات بأمره ، الذى هو قوله لها « كونى » ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[3] ، وكل شىء غير الله ، مخلوق بقوله ــ تعالى ــ ومن ذلك أفعال العباد ، فمن أخرج أفعال العباد من خلق الله ، فقد ضل وأشرك فى ربوبية الله تعالى .

قال عبد العزيز الكنانى : « قال الله ــ تعالى ــ ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[4] ، وقال سبحانه : ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[5] فدل ــ عز وجل ــ بهذه الأخبار ، وأشباهٍ لها فى القرآن كثيرة ، على أن كلامه ، ليس كالأشياء ، وأنه غير الأشياء ، وأنه خارج عن الأشياء ، وأنه يكوِّن الأشياء ، ثم أنزل ــ عز وجل ــ خبرا مفردا ، ذكر فيه خلق الأشياء كلها ، فلم يدع منها شيئا ، إلا ذكره ، وأدخله فى خلقه ،

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الروم .
(٢) خلق أفعال العباد ص ٣٧ ــ ٣٨ .
(٣) الآية ١١ من سورة فصلت .
(٤) الآية ٤٠ من سورة النحل .
(٥) الآية ٤٧ من سورة آل عمران .

وأخرج كلامه وأمره من جملة الخلق ، وفصله منها ، ليدل على أن كلامه غير الأشياء المخلوقة ، وخارج عنها ، فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ الآية .

فجمع فى قوله ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ ﴾ جميع ما خلق ، فلم يدع شيئا ، ثم قال : ﴿ وَٱلْأَمْرُ ﴾ . يعنى : والأمر ، الذى كان به الخلق خلقا ، فرقا بين خلقه ، وأمره ، فجعل الخلق خلقا ، والأمر أمرا ، وجعل هذا غير هذا »[1] .

قوله : « وسمى النبى ﷺ الإيمان عملا » .

يعنى ، فى جوابه ﷺ السائل : « أى الأعمال أفضل ؟ » فقال : « إيمان بالله » كما سيأتى ، فالإيمان ، هو عمل القلب وتصديقه ، وقول اللسان ، والعمل بالبدن التابع لذلك من الصلاة ، والحج ، والصوم ، والجهاد فى سبيل الله ، وامتثال أوامر الله ــ تعالى ــ والانتهاء عما نهى عنه ، فهذا كله هو الإيمان بالله ، وهو عمل الجوارح الباطنة والظاهرة .

قال فى خلق أفعال العباد : « وقال النبى ﷺ لجبريل حين سأله عن الإيمان قال : « تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله » . قال : « فإذا فعلت ذلك فأنا مؤمن ؟ » قال : « نعم » . ثم قال : « ما الإسلام ؟ » قال : « تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله » .... فذكره قال : « إذا فعلت ذلك فأنا مسلم ؟ » قال : « نعم » .

فسمى الإيمان والإسلام ، والشهادة ، والإحسان ، والصلاة بقراءتها ، وما فيها ، من حركات الركوع والسجود ، فعلا للعبد »[2] .

---

(١) الحيدة ص ٢٦ ــ ٢٧ .
(٢) ص ٦٠ .

وقال فى الصحيح : « باب من قال : إن الإيمان هو العمل ، لقول الله تعالى ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، وقال عدة من أهل العلم فى قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ . ثم ذكر حديث أبى هريرة الآتى .

وإطلاق العمل على الإيمان ، وكون الإيمان يشمل التصديق ، والقول ، والعمل ، الأدلة عليه كثيرة ، وكلام السلف فيه كثير واضح ، والخلاف فيه واقع من أهل البدع ، كالمرجئة من الجهمية وغيرهم .

قال : « قال أبو ذر ، وأبو هريرة : « سئل النبى ﷺ أى الأعمال أفضل ؟ » قال : « إيمان بالله ، وجهاد فى سبيله » .

ذكر حديث أبى هريرة ، موصولا فى كتاب الإيمان[1] ، وفى كتاب الحج بأتم مما هنا ، وذكر حديث أبى ذر فى العتق ، ولفظه : « سألت النبى ﷺ أى العمل أفضل ؟ » قال : « إيمان بالله ، وجهاد فى سبيله » ، قلت : « فأى الرقاب أفضل ؟ » قال : « أغلاها ثمنا » . وهو صريح ، فى أن الإيمان يسمى عملا ، لأنه صادر من العبد ، وعمل العبد مخلوق ، وهذا هو مراد البخارى ، وقد تقدم مرارا ، الفرق بين عمل العبد ، وكلام الله تعالى إذا قرأه العباد .

ولا يدل عطف الجهاد على الإيمان ، أن الجهاد ليس منه ، بل الأعمال الصالحة ، المعطوفة على الإيمان ، داخلة فيه ، وعطفها عليه ، إما من عطف الخاص على العام ، أو لأن الأعمال لازمة للإيمان ، فإذا لم يأت بها العبد ، دل ذلك على أنه ليس عنده إيمان ، لأن انتفاء اللازم ، يقتضى انتفاء الملزوم .

ولذلك صارت الأعمال ، فى عرف الشرع ، داخلة فى اسم الإيمان .

---

(١) انظر كتاب الإيمان من الصحيح جـ ١ ص ١٨ .

وأيضا فعطف الأعمال على الإيمان ، لرفع توهم أن مجرد الإيمان ، بدون الأعمال اللازمة له ، يوجب الثواب الموعود به فى الآخرة ، وهو الجنة بلا عذاب ، فعطفت عليه تخصيصا ، وتنصيصا ، ليعلم ذلك . هذا هو قول أهل السنة ، وهو الذى دلت عليه نصوص كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ .

بقى أن يقال : إذا كان الإيمان من عمل العباد ، وأعمال العباد مخلوقة ، كما تبين لنا ، فهل الإيمان مخلوق ؟

فالجواب : أنه لابد من التفصيل ، والبيان فى ذلك ؛ لأن هذا السؤال فيه إجمال وإيهام ، فإن أريد بالإيمان ، أعمال العباد ، وتصديقاتهم ، فأعمال العباد كلها مخلوقة .

وإن أُريد بالإيمان ، شىء من صفات الله وكلامه ، وشرعه الذى هو أمره ونهيه ، ووعده ، ووعيده ، وقدره الذى هو علمه ومشيئته وكلامه ، فهو غير مخلوق .

وأما الأفعال المأمور بها والمنهى عنها ، والمقدرات من الآجال ، والأرزاق والأعمال ، فهى مخلوقة محدثة .

قال شيخ الإسلام : « إذا قال : الإيمان مخلوق ، أو غير مخلوق ؟ قيل له : ما تريد بالإيمان ؟ أتريد به شيئا من صفات الله وكلامه ، كقوله : لا إله إلا الله ، وإيمانه الذى دل عليه اسمه « المؤمن » ؟ فهو غير مخلوق . أو تريد شيئا من أفعال العباد ، وصفاتهم ؟ فالعباد كلهم مخلوقون ، وجميع أفعالهم ، وصفاتهم مخلوقة ، ولا يكون للعبد المحدث المخلوق ، صفة قديمة غير مخلوقة ،

ولا يقول هذا من يتصور ما يقول ، فإذا حصل التفصيل ظهر الهدى ، وبان السبيل »[1] .

وقال أيضا : « الشرع الذى هو أمر الله ونهيه غير مخلوق ، وأما الأفعال المأمور بها ، والمنهى عنها ، فلا ريب أنها مخلوقة ، وكذلك القدر ، الذى هو علمه ومشيئته وكلامه غير مخلوق ، وأما المقدرات من الآجال ، والأرزاق ، والأعمال ، فكلها مخلوقة »[2] .

واتفق أئمة المسلمين ، على أن جميع أفعال العباد مخلوقة ، كما ذكر البخارى ــ رحمه الله ــ عن يحيى بن سعيد القطان ، قال : مازلت أسمع أصحابنا يقولون : إن أفعال العباد مخلوقة[3] .

قوله : وقال : « جزاء بما كانوا يعملون » .

العمل الذى جوزوا عليه الجنة ، يشمل الطاعات كلها ، واجتناب المناهى كلها ، فدخل فيه الإيمان ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، والصلاة ، وأداء الزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهاد ، وغير ذلك من الأعمال الصالحة .

و « ما » فى قوله : « بما » يجوز أن تكون موصولة ، أى : بالذى كنتم تعملونه ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى : بعملكم .

والباء سببية ، أى : دخول الجنة بسبب الأعمال الصالحة ، وأما الحديث

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٧ ص ٦٦٤ .
(٢) مجموع الفتاوى جـ ٧ ص ٦٦١ .
(٣) خلق أفعال العباد ص ٤٢ .

« لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » فالباء فيه للعوض والمقابلة ، فالجنة ليست عوضا للعمل ، وإنما هى فضل من الله ، والأعمال الصالحة سبب لدخولها ، كما هو قول أهل السنة ، وكما تدل عليه نصوص الكتاب والسنة ، خلافا للمعتزلة ، أهل القياس الفاسد ، فإنهم يرون الجنة عوضا للعمل .

والمقصود ، أن الآية تدل على أن العمل ، الذى أدخل المؤمنون بسببه الجنة ، فعل لهم يتعلق باختيارهم ، ولهذا جوزوا عليه ، والعباد وأعمالهم خلق لله تعالى .

قوله : « وقال وفد عبد القيس للنبى ﷺ مرنا بجمل من الأمر ، إن عملنا بها دخلنا الجنة ، فأمرهم بالإيمان ، والشهادة ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . فجعل ذلك كله عملا » .

سيأتى الحديث بطوله ، والدلالة منه ظاهرة ، لأنهم قالوا : « نعمل بها » فأمرهم بالإيمان ، والشهادة ، إلى آخر ما ذكر ، فدل ، على أن المذكور كله ، عمل لهم ، ومعلوم أنهم مخلوقون ، فكذلك عملهم مخلوق ، وهو المراد .

١٧٥ — قال : « حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب ، حدثنا أيوب ، عن أبى قلابة ، والقاسم التميمى ، عن زَهْدَم ، قال : كان بين هذا الحىّ من جُرم ، وبين الأشعريِّين وُدٌّ وإخاءٌ ، فكنا عند أبى موسى الأشعرى ، فَقُرِّبَ إليه الطعامُ ، فيه لحمُ دَجاج ، وعنده رجلٌ من بنى تَيْم الله ، كأنه من الموالى ، فدعاه إليه ، فقال الرجل : إنى رأيته يأكل شيئا فقَذِرْتُه ، فحلفتُ لا آكلُه ، فقال : هلم فلأحدِّثك عن ذلك ، إنى أتيتُ النبىَّ ﷺ فى نفر من الأشعريِّين نستَحْمله ، قال : والله لا أحْمِلكم ، وما عندى ما أَحْمِلكم ، فأُتِىَ النبىُّ ﷺ بنهب إبل ، فسأَل عنا ، فقال : أين النفرُ الأشعريون ؟ فأمر لنا بخمس ذَوْدٍ غُرِّ الذُّرَى .

ثم انطلقنا ، قلنا ما صنعنا ؟ ! حلف رسول الله ﷺ لا يحملنا ، وما عنده ما يحملنا ، تَغَفَّلْنَا رسولَ اللهِ ﷺ يمينه ، واللهِ لا نفلحُ أَبدًا .

فرجعنا إليه ، فقلنا له ، فقال : لست أنا أحملكم ، ولكنَّ الله حملكم ، إنى والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيتُ الذى هو خير ، وتحللتها » .

« زهدم » هو ابن مضرّب بتشديد الراء الجرمى ، نسبة إلى جَرْم بن زياد بطن من قضاعة ، « والأشعرى » نسبة إلى الأشعر بن سبأ ، أبى قبيلة من اليمن .

« ود وإخاء » الود : صافى الحب ، وأما الإخاء : فمن الأخوة ، والمصاحبة ، المقتضية للعطف ، والود ، والنصرة . وهذا تعليل لقوله : « فكنا عند أبى موسى الأشعرى » ؛ لأن زهدم من جَرْمٍ .

« فقُرب إليه الطعام » : يؤخذ منه ما كان عليه الصحابة ، ومن سلك طريقهم ، من عدم التكلف لمن يحضر مجالسهم ، وأنهم إذا حضر وقت طعامهم ، قدم على ما هو عليه ، سواء كثر الحضور أو قلوا ، وفيه تهيئة الطعام وإعداده لصاحب البيت ، وفيه دخول الرجل على صديقه ، وعرض الطعام على من حضره ، ولو كان قليلا .

« فيه لحم دجاج » قال الحافظ : « الدجاج : اسم جنس مثلث الدال ، والواحدة دجاجة ، دخلتها الهاء للوحدة ، قاله الجوهرى . سُمى بذلك لإسراعه فى الإقبال ، والإدبار »[1] .

وفيه جواز أكل الدجاج ، وأن الحيوان إذا كان فى جنسه ما يأكل الجلة ،

---

(١) من الفتح ملخصا جـ ٩ ص ٦٤٥ .

لم يلتفت إلى ذلك .

« وعنده رجل من بنى تيم الله ، كأنه من الموالى » بين الحافظ ، أن هذا الرجل هو زهدم ، وذكر رواية الترمذى ، وفيها : « عن زهدم ، قال دخلت على أبى موسى ، وهو يأكل دجاجا ، فقال : ادن فكُل ، فإنى رأيت رسول الله ﷺ يأكله » .

وفى رواية البيهقى ، عن زهدم ، قال : رأيت أبا موسى يأكل دجاجا ، فدعانى ، فقلت : إنى رأيته يأكل نتنا ، قال : ادن فكل »[1] .

ومن أجل ذلك ، جزم الحافظ بأنه زهدم الراوى ، لكن كيف يقول عن نفسه : « كأنه من الموالى » . ويعنى بذلك : العجم ، أطلق عليهم « موالى » ؛ لأن من أسلم على يديه أحد ، دعوه مولًى له ، وهم أسلموا على أيدى الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ .

« فدعاه إليه » أى : إلى الأكل . « فقال الرجل : إنى رأيته يأكل شيئا فَقَذِرْتُه » أبهم المأكول لكراهة ذكره ، كما هى عادتهم فى ما هو مستقذر ، يكنون عنه .

ومعنى « قذرته » استقذرته ، فصار عندى قذرا .

« فحلفت لا آكله » أى : من أجل ما رأى ، لأنه كرهه .

« هلم فلأحدِّثك عن ذلك » هلم : أقبل ، وتعال ، أخبرك عن حلفك ، وأنه لا يمنع من أكله ، لأن الله ــ تعالى ــ جعل له كفارة ، تخرج بها من حرج اليمين .

« إنى أتيت النبى ﷺ فى نفر من الأشعريين » النفر : هم الجماعة من

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٦٤٦ ، ٦٤٧ .

الناس القليلة ، من الثلاثة إلى العشرة ، لا واحد له من لفظه .

« نستحمله » أى : نطلب منه أن يحملنا ، أى : يعطينا من الإبل ما يحملنا ، ويحمل متاعنا ، وذلك فى غزوة العُسْرة « غزوة تبوك » .

قال : « والله لا أحملكم ، وما عندى ما أحملكم » جاء فى رواية فى الصحيح : قال : « فوافقته وهو غضبان » ولهذا أخبره بأنه لا يحملهم ، وأكد ذلك بالقسم ، لأنه بنى على الحال التى هو فيها ، ولم يكن عنده شيء يحملهم عليه ، ولهذا قال : « وما عندى ما أحملكم » .

« فأتى النبى ﷺ بنهب إبل » النهب : الغنيمة ، وهو مصدر ، بمعنى المنهوب ، كالخلق بمعنى المخلوق .

« فسأل عنا ، فقال : « أين النفر الأشعريون » ؟ : فأمر لنا بخمس ذَوْدٍ » الذود من الإبل : ما بين الثنتين إلى التسع ، وقيل : ما بين الثلاث إلى العشر ، وهو لفظ مؤنث ، لا واحد له من لفظه .

« غر الذرى » أى : بيضُ الأَسْنِمَةِ ، فذروة البعير : سنامه ، لأنه أعلى ما فيه ، إما أنه أراد أنها سمان ، فى أسنمتها الشحم الأبيض ، أو أن شعور أسنمتها بيض .

« ثم انطلقنا ، فقلنا ما صنعنا ؟ حلف رسول الله ﷺ لا يحملنا ، وما عنده ما يحملنا ، ثم حملنا » يعنى : أن صنعنا هذا ليس من البر ، بل هو مما يخاف عقباه ، حيث حَمَلْنا رسول الله ﷺ على مخالفة ما حلف عليه ، فأوقعناه فى الحنث ، ولهذا قال : « والله لا نفلح أبدا » أى : لا يحصل لنا الفلاح ، وهو الفوز بالخير والسعادة الدنيوية والأخروية .

« تغفلْنا رسول الله ﷺ يمينه » . أى : أخذنا ما أعطانا فى حالة غفلته عن يمينه ونسيانه لها .

« فرجعنا إليه فقلنا له ، فقال : لست أنا أحملكم ، ولكن الله حملكم » هذه الجملة من الحديث هى محل الشاهد ، فإن الله ــ تعالى ــ هو المتصرف فى عباده ، وعملهم يقع بخلقه ــ تعالى ــ ومشيئته ، فكما أنه ــ تعالى ــ خالق العبد ، فهو خالق أفعاله .

ولهذا أسند النبى ﷺ حملهم إلى الله ، مع أنه هو الذى أعطاهم الإبل لأن إعطاءهم إياها ، بعد إرادة الله وخلقه .

« قال الماوردى : معناه : أن الله ــ تعالى ــ آتانى ما أحملكم عليه ، ولولا ذلك لم يكن عندى ما أحملكم عليه[1] .

قال الحافظ : « المراد منه نسبة الحمل إلى الله ــ تعالى ــ وإن كان الذى باشر ذلك النبى ﷺ فهو كقوله : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾[2] .

« إنى والله ، لا أحلف على يمين ، فأرى غيرها خيرٌ منها ، إلا أتيت الذى هو خير منه وتحللتها » ، فى هذا دلالة ، على أن من حلف على فعل شيء أو تركه ، فرأى أن مخالفة يمينه ، خيرٌ له فى دينه أو دنياه ، فإن المشروع فى حقه أن لا يمضى فى يمينه ، بل يفعل الذى هو خير ، ويكفر عن يمينه .

١٧٦ ــ قال : « حدثنا عمرو بن على ، حدثنا أبو عاصم ، حدثنا قُرَّةُ بن خالد ، حدثنا أبو جمرة الضبعيّ ، قلت لابن عباس : فقال : قدم وفد عبد القيس ، على رسول الله ﷺ فقالوا : إن بيننا وبينك المشركين من مُضَرَ ، وإنَّا لا نصل إليك إلا فى أشهر حُرُم ، فمُرْنا بجُمَل من الأمر ، إن عملنا به دخلنا الجنة ، وندعوا إليها مَن وراءنا ،

---

(١) شرح مسلم للنووى جـ ١١ ص ١١٠ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٣٤ .

قال : « آمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع : آمركم بالإيمان ، وهل تدرون ما الإيمان ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وتعطوا من المغنم الخمس ، وأنهاكم عن أربع : لا تشربوا فى الدُّبَّاءِ ، والنَّقِيرِ ، والظروف المُزَفَّتة ، والحنتمة » .

قوله : « قلت لابن عباس » لم يذكر مقول القول ، وقد بينه فى آخر المغازى فى باب وفد عبد القيس[1] وفيه « عن أبى جمرة ، قلت لابن عباس — رضى الله عنهما — : إن لى جرة ينتبذ لى نبيذ فأشربه حلوا فى جرة ، إن أكثرت منه فجالست القوم ، فأطلت الجلوس خشيت أن أفتضح ، فقال : قدم » إلى آخره .

قال الحافظ : فى قوله : « خشيت أن أفتضح » أى : لأنى أصير فى مثل حال السكارى[2] .

ويجوز أنه يحدث له تسهيلا ، أو رياحا فى بطنه ، ويخشى أن يغلبه شىء من ذلك فيفتضح . والله أعلم .

والوفد : الجماعة المختارة للقاء العظماء ، وعبد القيس قبيلة كبيرة ، كانت مساكنهم فى شرق الجزيرة العربية ، قرب الأحساء ، والقطيف ، وكانت تسمى البحرين[3] قال الحافظ : « الذى تبين لنا ، أنه كان لعبد القيس وافدتان : أحدهما : قبل الفتح ، ولهذا قالوا : بيننا وبينك كفار مضر وكان ذلك إما فى سنة خمس أو قبلها ، وكان عددهم ثلاثة عشر رجلا

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٣٨ .

(٢) الفتح جـ ٨ ص ٨٦ .

(٣) قال ياقوت : « البحرين اسم جامع لبلاد على ساحل بحر النهر بين البصرة وعمان » معجم البلدان جـ ١ ص ٣٤٧ .

وثانيهما : كانت سنة الوفود ، وكان عددهم أربعين رجلا[1] وذكر أدلة ذلك .

ومُضَرُ أبو القبيلة المشهورة ، وهو مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

« فقالوا : إن بيننا وبينك المشركينِ من مضر » يعنى : أن بلادهم بعيدة عن رسول الله ﷺ وفى طريقهم إليه ، المشركون الذين هم أعداء لهم ، فإذا تمكنوا منهم قتلوهم ، وهم بحاجة إلى التعلم من رسول الله ﷺ ولهذا قالوا : « فمرنا بجُمل من الأمر » وفى الرواية الأخرى « بأمر فَصْل » أى بين جامع ، لا نحتاج معه إلى غيره ، وفاصل بين الحق والباطل ، ولهذا قالوا : إن عملنا به دخلنا الجنة .

« وندعو إليها مَن وراءنا » أى : الأوامر التى تأمرنا بها ، نعمل بها ، وندعو قومنا إلى العمل بها .

« وإنا لا نصل إليك إلا فى أشهر حُرم » دليل على تعظيم الأشهر الحرم ، حتى عند المشركين ، حيث لا يتعرضون لأعدائهم فى الأشهر الحرم .

وقد نوه الله تعالى عن حرمتها فى كتابه حين قال : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ .

« قال : آمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع » أى : أربع جمل كما فى سؤالهم ، أو أربع خصال « آمركم بالإيمان بالله » ثم فسر ذلك بقوله : « وهل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة ألا إله إلا الله » أى : أن تشهدوا أن الله هو الإله الحق . المستحق أن يؤله ، ويعبد وحده ، وأن تفعلوا ذلك مخلصين له التأله ، وأن تشهدوا أن كل مألوه غيره باطل وضلال ، من توجه إليه بالعبادة ، فهو

---

(١) الفتح جـ ٨ ص ٨٥ .

من أصحاب النار ، الذين لا يخرجون منها أبدا ، إذا ماتوا على ذلك . هذه الكلمة أصل وأساس ما بعدها ، بل هى أصل الإسلام ، فلا يدخل الإسلام أحد إلا بها ، وبمعرفتها والعمل بها ، تتفاوت درجات الناس عند الله تعالى ، وهى تشمل معرفة القلب وعمله ، وعمل الجوارح ، ولهذا جعلها النبى ﷺ الإيمان ، وأما الإشكالات التى ذكرها الحافظ عن شراح هذا الحديث ، والتقديرات المبنية عليها[1] فهى غير واردة على الحديث أصلا .

ومن تلك الإيرادات ، أن ذكر الشهادة للتبرك ، وليست مرادة لنفسها ، وعليه فأول الخصال : الأمر بالصلاة ، وذلك أن القوم كانوا مؤمنين ، مقرين بالشهادتين ، فلا وجه لذكرها . وهذا من الكلام الباطل لمخالفته لنص الحديث ، والذى حملهم عليه ، مذهبهم بأن الإيمان مجرد التصديق والمعرفة ، وهو مخالف لنصوص الكتاب والسنة ، فإذا لم يقترن بالتصديق عمل صالح ، فلا اعتبار له فى الشرع ، كما أن الإيمان يتجدد ، ويزداد ، والأعمال من الإيمان ، بها يزيد ، وبتركها أو نقصها ينقص .

« وإقام الصلاة » أى : تصلون الصلوات الخمس مقيمين لها ، بأن تأتوا بها قائمة غير ناقصة ، بشرائطها ، وواجباتها ، وما يلزم لها .

« وإيتاء الزكاة » أى : أن تؤتوها مَن فرضها الله لهم ، ممتثلين أمر الله ، خائفين من عقابه لو منعتموها ، راجين ثوابه فى أدائها ، طيبة بها نفوسكم ، محبين لذلك مغتبطين به .

« وتعطوا من المغنم الخمس » أى : خمس ما غنمتم فإنه لله ورسوله ، وهو بمنزلة الزكاة فى الوجوب ، فتعطوه من هو له ، ممتثلين أمر الله فى ذلك ، كما فى الزكاة .

---

(١) انظر الفتح جـ ١ ص ١٣٢ وما بعدها .

وهذه الأوامر الأربع : وهى الإيمان ، وفسره بشهادة أن لا إله إلا الله .

والثانية : إقام الصلاة ، والثالثة : إيتاء الزكاة ، والرابعة : إعطاء خمس المغنم .

وأما النواهى : فهى أن لا يشربوا فى الدُّبَّاء ، وهى ثمر اليقطين إذا يبس فإنه يكون كالجرار ، وإذا وضع فيه نبيذ التمر ، أو غيره أسرع إليه الغليان ، فيكون خمرا ، وكذلك بقية الأوعية المذكورة .

والنَّقِير : وعاء يتخذ من جذوع النخل ، ينقر وسطه حتى يصير شبه الجرة .

والمُزَفّت : هو المطلى بالزفت ، وهو المُقَيّر .

وأما الحَنْتَم فقال فى النهاية : هى جرار مدهونة خضر ، كانت تحمل الخمر فيها إلى المدينة ، ثم توضع فيها ، فقيل للخزف كله حنتم ، واحدتها حنتمة .

وإنما نهى عن الانتباذ فيها ؛ لأنها تسرع الشدة فيها لأجل دهنها .

وقيل : لأنها كانت تعمل من طين يعجن بالدم والشعر ، فنهى عنها ليمتنع من عملها ، والأول أوجه »[1] بل هو المتعين .

والمراد من الحديث قوله : « فمرنا بجمل من الأمر إن عملنا به دخلنا الجنة ، وندعو إليها مَنْ وراءنا ، قال آمركم بأربع » فعملهم الذى بسببه يدخلون الجنة ، هو فعل لهم ، يضاف إليهم حقيقة ، وهم يباشرونه ، ويعملونه حقيقة باختيارهم وإرادتهم ، ومع ذلك هو من خلق الله تعالى ، فهو داخل فى عموم خلقه ، وعموم إرادته ومشيئته ؛ لأنه تعالى هو خالقهم وخالق أعمالهم ، كما فى الحديث الذى رواه البخارى فى خلق أفعال العباد حيث قال : « فأما أفعال

---

(١) النهاية جـ ١ ص ٤٤٨ .

العباد : فحدثنا على بن عبد الله ، حدثنا مروان بن معاوية ، حدثنا أبو مالك ، عن ربعى بن خراش ، عن حذيفة — رضى الله عنه — قال : قال النبى ﷺ : « إن الله يصنع كل صانع وصنعته » فأخبر أن الصناعات ، وأهلها مخلوقة .

حدثنا محمد ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن شقيق ، عن حذيفة — رضى الله عنه — « إن الله خلق كل صانع وصنعته ، إن الله خالق صانع الخُزُمِ ، وصنعته »(1) .

حدثنا أبو نعيم ، حدثنا سفيان ، عن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — : « العجز والكيس من القدر . وذكر أحاديث بهذا المعنى ثم قال : سمعت عبيد الله بن سعيد يقول : سمعت يحيى بن سعيد يقول : ما زلت أسمع من أصحابنا يقولون : إن أفعال العباد مخلوقة .

قال أبو عبد الله : حركاتهم ، وأصواتهم ، واكتسابهم ، وكتابتهم مخلوقة ، فأما القرآن المتلو ، المبين ، المثبت فى المصحف ، فهو كلام الله ليس بخلق »(2) .

١٧٧ — قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث ، عن نافع ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة — رضى الله عنها — أن رسول الله ﷺ قال : « إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ما خلقتم » .

١٧٨ — « حدثنا أبو النعمان ، حدثنا حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : قال النبى

---

(1) قال الأزهرى : قال ابن الأعرابى : الخُزُمُ : الخرازون . ثم ذكر هذا الحديث جـ ٧ ص ٢١٧ تهذيب اللغة .

(2) خلق أفعال العباد ص ٤١ — ٤٢ .

ﷺ : « إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ما خلقتم » .

قال فى اللسان : « فى أسماء الله الحسنى : « المصور » ، وهو الذى صور جميع الموجودات ورتبها ، فأعطى كل شيء منها صورة خاصة ، وهيئة مفردة بها ، على اختلافها وكثرتها ـــ قال : « والصورة فى الشكل »[١] .

وفى متن اللغة : « الصورة : الشكل ، والهيئة ، والحقيقة »[٢] .

وتقدم أن « المصوِّر » من أسماء الله الحسنى ، وأن التصوير ، بمعنى إعطاء كل شيء شكله ، الذى هو عليه ، من خصائص الله ـــ تعالى ـــ ولهذا من تشبه به تعالى فى ذلك ، وصور صور الأحياء ، فإن الله يعذبه أشد العذاب .

وقد تكاثرت النصوص الدالة على شدة عذاب المصورين ، كما فى هذين الحديثين .

قال عكرمة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ نزلت فى المصورين[٣] .

وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود ، قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون »[٤] وفى رواية لمسلم : « إن من أشد أهل النار ، يوم القيامة عذابا المصورين .

وروى مسلم إلى ابن عباس ، قال جاءه رجل ، فقال : إنى رجل أصور هذه الصور ، فأفتنى فيها ، فقال له : ادن منى ، فدنا منه ، ثم قال ادن منى ،

---

(١) لسان العرب جـ ٤ ص ٤٧٣ .
(٢) متن اللغة جـ ٤ ص ٥١٤ .
(٣) رواه ابن جرير فى تفسيره جـ ٢٢ ص ٤٤ .
(٤) انظر الفتح جـ ١٠ ص ٣٨٢ ومسلم جـ ٣ ص ١٦٧٠ رقم ٢١٠٩ .

فدنا حتى وضع يده على رأسه .

قال : أنبئك بما سمعت من رسول الله ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المصور فى النار يجعل له بكل صورة صورها نفسًا فتعذبه فى جهنم »[1] .

وفى روايه له « من صور صورة فى الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ » والأحاديث فى ذلك كثيرة شهيرة .

قوله : « ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم » يقال لهم ذلك تعجيزا لهم وتعذيبا ، يعنى : أوجدوا فيه الروح ، التى بها الحياة ، وليس ذلك بطاقة أحد غير الله ــ جل وعلا ــ وهذا لأنهم ذهبوا يتشبهون بالله تعالى فى التصوير والخلق ، فطغوا بذلك وجاوزوا حدَّهم ، لأن الله تعالى وحده ، هو المصور الذى يصور كل حى ، ويوجد فيه الروح ، فصار جزاء هؤلاء ، أن يعذبوا بما لا يطاق ، ولا يستطاع نسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة .

والمقصود من الحديث ، نسبة الخلق إليهم فى قوله : « أحيوا ما خلقتم » فالتصوير فعلهم وعملهم ، الذى استحقوا عليه العقاب ، لأنهم فعلوه بطوعهم ، واختيارهم ، فهو فعلهم حقيقة ، والله خالقهم ، وخالق أفعالهم ، كما تقدم ، ومن أجل أن ذلك فعلهم حقيقة جوزوا عليه .

١٧٩ ــ قال : « حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا ابن فُضَيل ، عن عُمارة ، عن أبى زُرْعة ، سمع أبا هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « قال الله ــ عز وجل ــ ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، ليخلقوا ذرة ، أو ليخلقوا حبة ، أو شعيرة » .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٦٧١ الحديث رقم ٢١١٠ .

هذا من الأحاديث القدسية التى يرويها النبى ﷺ عن ربه ــ جل وعلا ــ عن طريق الإلهام ، أو المنام ، أو بواسطة الملك ، وهى مضافة إلى الله ــ تعالى ــ قولا له ، ويختلف عنها القرآن ، بأنه كلام الله المنزل على محمد ﷺ نزل به الروح الأمين ، المتحدى به ، أو بسورة منه ، المتعبد بتلاوته .

قوله : « ومن أظلم » يعنى : أن فاعل ذلك ، ظالم ظلما لم يبلغه أحد ، فهو استفهام يفيد كثرة الظلم ، وعظمه ، وإنكاره .

ومعنى « ذهب » : قصد وفعل ذلك .

وقوله : « كخلقى » يعنى : فى الصورة فقط ، وإلا فلا أحد من الخلق ، يقدر أن يوجد حياة فيما يصوره ، مهما أوتى من الفكر ، والإمكانيات المادية ، وغيرها فلن يستطيع ذلك ، ولهذا قال : « فليخلقوا ذرة » أى ليوجدوا فيها الحياة أو ليوجدوها من العدم ، وليجعلوا فيها روحا تحيا بها ، وليس هذا بمقدور الخلق ولو اجتمعوا له .

ثم انتقل بهم إلى ما هو أسهل من ذلك ، وهو الحبة التى تكون بها حياة النبات ، فإذا وضعت فى الأرض ، وسقيت بالماء نبتت بإذن الله ، ولن يستطيع المصورون أن يخلقوا تلك الحبة ، بل ذلك ليس فى مقدور الخلق كلهم .

ثم قال : « وليخلقوا شعيرة » ، والشعيرة أقل قيمة من الحبة ، ولكن فيها من الحياة ما فى الحبة ، فإذا كان المصورون ، وغيرهم الذين يضاهئون الله فى خلقه ، عاجزين عن خلق الحبة والشعيرة ، فضلا عما فيه روح ، فكيف يذهبون يصورون الصور التى فيها مضاهاة لخلق الله تعالى ؟ ولعظيم جرمهم ، استحقوا من العذاب ، ما لا يكون لسائر أهل الكبائر .

والمقصود بالأمر فى قوله : « فليخلقوا ذرة » إلى آخره ، التعجيز وإذلالهم بذلك ، وتعذيبهم .

ومراد البخارى ـــ رحمه الله ـــ نسبة الخلق إليهم فعلا لهم حقيقة ، مع أنهم مخلوقون لله ـــ تعالى ـــ فالله خالقهم ، وخالق أفعالهم ، ولكنه جعلهم فاعلين قادرين على فعلهم ، باختيارهم وقدرتهم التى خلقها الله فيهم ، ولهذا عذبهم على ذلك ، ولو لم يكن فعلا لهم حقيقة ما عذبوا عليه .

قال الحافظ : « الذى يظهر ، أن مناسبة ذكر حديث المصورين ، لترجمة هذا الباب ، من جهة أن من زعم أنه يخلق فعل نفسه ، لو صحت دعواه لما وقع الإنكار على هؤلاء ، فلما كان أمرهم بنفخ الروح فيما صوروه ، أمر تعجيز ، ونسبة الخلق إليهم ، إنما هى على سبيل التهكم والاستهزاء ، دل على فساد قول من نسب خلق فعله إليه استقلالا »[1] .

والصواب ما تقدمت الإشارة إليه من مراد البخارى ـــ رحمه الله ـــ أن الأفعال المسندة إليهم ، أفعال لهم حقيقة ، وهى مخلوق لله ـــ تعالى ـــ فإن الله خالق كل فاعل وفعله ، وهو خالق كل شيء فلا يكون العباد خالقين لأفعالهم استقلالا وإيجادا ، وإنما هم فاعلون لها ، بجعل الله لهم فاعلين ، وإقداره لهم على ذلك ، فجعل القدرة لهم على فعلها ، وأوجد فيهم الإرادة لها والاختيار ، فصاروا فاعلين لها بذلك ، حيث باشروا الفعل بأنفسهم ، فهو فعلهم حقيقة ، ولذلك استحقوا عليها الثواب أو العقاب .

وقال الكرمانى : « لعل غرض البخارى ، فى تكثير هذا النوع ، فى هذا الباب وغيره ، بيان جواز ما نقل عنه أنه قال : لفظى بالقرآن مخلوق ـــ إن صح عنه »[2] .

قال الحافظ : « قلت : قد صح عنه أنه تبرأ من هذا الإطلاق ، فقال :

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٣٥ .

(٢) شرح الكرمانى جـ ٢٥ ص ٢٤٤ .

« كل من نقل عنى أنى قلت : لفظى بالقرآن مخلوق ، فقد كذب علىّ ، وإنما قلت : أفعال العباد مخلوقة . أخرج ذلك غنجار ، فى ترجمة البخارى ، من تاريخ بخارى بسند صحيح إلى محمد بن نصر المروزى ، الإمام ، المشهور ، أنه سمع البخارى يقول ذلك »[1] ومن طرق أخرى .

قال ابن القيم ـــ بعد ما ذكر ـــ ما ذكره البخارى : « وقال جابر بن عبد الله : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور ، كما يعلمنا السورة من القرآن . يقول : « إذاهم أحدكم بالأمر ، فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ، ولا أقدر ، وتعلم ، ولا أعلم ، وأنت علّام الغيوب .

اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ، ومعاشى ، وعاقبة أمرى ، فيسرّه لى ، ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ، ومعاشى ، وعاقبة أمرى ، فاصرفه عنى ، واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم رضنى به ، قال : ويسمى حاجته » قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح[2] .

فقوله : « إذاهم أحدكم بالأمر » صريح فى أنه فى الفعل الاختيارى ، المتعلق بإرادة العبد ، وإذا علم ذلك ، فقوله : « أستقدرك بقدرتك » أى : أسألك أن تقدرنى على فعله ، بقدرتك ، ومعلوم أنه لم يسأله القدرة المصححة [للفعل] ، التى هى سلامة الأعضاء ، وصحة البنية . وإنما سأل القدرة التى توجب الفعل . فعلم أنها مقدورة لله ، ومخلوقة له .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٣٥ .

(٢) هو مخرج فى الصحيحين ، وتقدم فى هذا الكتاب .

وأكد ذلك بقوله : « فإنك تقدر ولا أقدر » أى : تقدر أن تجعلنى قادرا ، فاعلا ، ولا أقدر أن أجعل نفسى كذلك ، وكذلك قوله : « تعلم ولا أعلم » أى : حقيقة العلم بعواقب الأمور ، ومآلها ، والنافع منها والضار عندك ، وليس عندى .

وقوله : « يسره لى » أو « اصرفه عنى » ، فإنه طلب من الله تيسيره إن كان له فيه مصلحة ، وصرفه عنه إن كان فيه مفسدة ، وهذا التيسير والصرف متضمن إلغاء داعية الفعل فى القلب ، أو إلقاء داعية الترك فيه ، ومتى حصلت داعية الفعل ، حصل الفعل ، [وإذا حصلت] داعية الترك امتنع الفعل .

وعند القدرية ، ترجيح فاعلية العبد على الترك ، ليس للرب فيه صنع ، ولا تأثير ، فطلب هذا التيسير منه لا معنى له عندهم ، فإن تيسير الأسباب التى لا قدرة للعبد عليها موجودة ، ولو لم يسألها العبد .

وقوله : « ثم رضنى به » يدل على أن حصول الرضا ، وهو فعل اختيارى من أفعال القلوب ـــ أمر مقدور للرب تعالى ـــ وهو الذى يجعل نفسه راضية .

وقوله : « فاصرفه عنى ، واصرفنى عنه » صريح فى أنه سبحانه هو الذى يصرف عبده عن فعله الاختيارى ، إذا شاء صرفه عنه ، كما قال تعالى فى حق يوسف : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ وصرف السوء والفحشاء : هو صرف دواعى القلب ، وميله ، فينصرفان عنه بصرف دواعيهما .

وقوله : « واقدر لى الخير حيث كان » يعم الخير المقدور للعبد من طاعته وغير المقدور له .

فعلم أن فعل العبد للطاعة والخير ، أمر مقدور لله ـــ تعالى ـــ إن لم يقدره الله لعبده ، لم يقع من العبد .

ففى هذا الحديث الشفاء فى مسألة القدر ، وأمر النبى ﷺ الداعى به أن يقدم بين يدى هذا الدعاء ركعتين ، عبودية منه بين يدى نجواه ، وأن يكونا من غير الفريضة ، ليتجرد فعلهما لهذا الغرض المطلوب .

ولما كان الفعل الاختيارى متوقفا على العلم ، والقدرة ، والإرادة ، لا يحصل إلا بها ، توسل الداعى إلى الله ـــ تعالى ـــ بعلمه ، وقدرته ، وإرادته التى يفعل بها من فضله .

وأكد هذا المعنى بتجرده ، وبراءته من ذلك . فقال : « إنك تعلم ، ولا أعلم وتقدر ، ولا أقدر » ، وأمر الداعى أن يعلق التيسير بالخير ، والصرف بالشر ، وهو علم الله سبحانه تحقيقا للتفويض إليه ، واعترافا بجهل العبد بعواقب الأمور كما اعترف بعجزه .

« ففى هذا الدعاء إعطاء العبودية حقها ، وإعطاء الربوبية حقها ، والله المستعان »[1] .

(١) شفاء العليل ص ١١٠ ـــ ١١١ .

قال : « باب قراءة الفاجر ، والمنافق ، وأصواتهم ، وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم » .

الفاجر هو الخارج عن الطاعة ، فيشمل الكافر والفاسق .

وأما المنافق ، فهو الذى يظهر خلاف ما يبطن ، وأعظم ذلك الكفر والتكذيب ، فمن أبطن الكفر والتكذيب ، فهو المنافق النفاق الأكبر ، وإن تنوع ذلك .

وقوله : « وتلاوتهم » مبتدأ ، وخبره جملة « لا تجاوز حناجرهم » والجملة من المبتدأ والخبر حال .

وهذا الباب كسابقه مما مر ذكره ، يريد به التفرقة بين التلاوة والمتلو ، وأن التلاوة من عمل التالى ، وعمل العباد متفاوت ، فمنه المقبول المرفوع إلى الله تعالى ، ومنه المردود الذى لا يجاوز فم قائله ، وعمل البر المتقى ليس كعمل الفاجر ، والمنافق ، وعمل الشيطان الذى يسترق السمع من الملائكة ، وأخيه الكاهن ليس كعمل الملك .

فهذا التفاوت يدل على أنه عملهم ، وعملهم كله مخلوق . ولهذا قال — رحمه الله — فى خلق أفعال العباد : « وذكر النبى ﷺ قراءة المنافقين والفجار ، فبين ما يتآكلون بقراءتهم . فلا يرتابن أحد فى خلق المنافقين وأصحاب الجحيم وأعمالهم .

حدثنا عبيد الله — هو أبو قدامة — ابن سعيد ، حدثنا حماد بن زيد ، قال : من قال : كلام العباد ليس بمخلوق فهو كافر .

حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا حيوة ، حدثنى بشير بن أبى عمرو الخولانى أن الوليد بن قيس التجيبى حدثه ، أنه سمع أبا سعيد الخدرى — رضى الله عنه — يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يخلف قوم من بعد ستين سنة ، أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيا .

ثم يكون خلف يقرءون القرآن ، لا يعدو تراقيهم . ويقرأ ثلاثة :

« مؤمن ، ومنافق ، وفاجر » . فقال بشير : « فقلت للوليد : ما هؤلاء الثلاثة ؟ قال المنافق كافر به ، والفاجر يتآكل به ، والمؤمن يؤمن به » .

ثم قال : « ومما يدل على أصوات العباد[1] قول النبى ﷺ وأكثر منافقى أمتى قرآؤها » . فعد قراءة المعطلة ، والجهمية ، وأهل الأهواء ، وغيرهم .

وقال النبى ﷺ : « يقرأ القرآن رجال ، يمرقون من الدين ، لا يجاوز حلوقهم ، هم شر الخلق والخليقة » .

وقال : « يتعجلونه ، ولا يتأجلونه »[2] . وهذا يبين مراده من هذا الباب هنا .

قال الحافظ : « التلاوة متفاوتة بتفاوت التالى ، فيدل على أنها من عمله »[3] .

١٨٠ ــ قال : « حدثنا هُدبة بن خالد ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة ، حدثنا أنس ، عن أبى موسى ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كالاترُجة طعمها طيب وريحها طيب ، والذى لا يقرأ كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ، ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن ، كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها » .

---

(١) يعنى أنها مخلوقة لله تعالى مثل سائر المخلوقات .
(٢) خلق أفعال العباد ص ١٩٣ ــ ١٩٤ .
(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٥٣٦ .

ضرب الأمثال يراد به تقريب المعنى إلى الفهم .

والمقصود بالمثل هنا : الوصف والحال ، فالمؤمن طيب فى نفسه ، وما يصدر منه من عمل يكون طيبا ، فلهذا جعل ﷺ مذاقه طيبا ، ورائحته التى تتعدى إلى من حوله طيبة ، وإن كان المقصود بهذا الحديث من يحمل القرآن ويقرؤه ، فغير القراءة من الأعمال يلتحق بها .

فإذا كان حامل القرآن مؤمنا ، عاملا به ، صادف محلا قابلا ، فأثمر .

والأترجة ، تجمع طيب المذاق ، وطيب الرائحة ، وحسن المنظر ، وطيب نكهتها وجودة الهضم ، وفيها منافع أخرى فناسب تمثيل المؤمن القارىء للقرآن بها .

قال الحافظ : « وقع فى رواية شعبة ، عن قتادة « المؤمن الذى يقرأ القرآن ويعمل به » وهى زيادة مفسرة للمراد ، وأن التمثيل وقع بالذى يقرأ القرآن ، ولا يخالف ما اشتمل عليه من أمر ، ونهى . لا مطلق التلاوة »[1] .

قوله : « والذى لا يقرأ القرآن كالتمرة ، طعمها طيب ولا ريح لها » يعنى بالمؤمن الذى لا يقرأ القرآن هو الذى لا يحفظه ، ولا يتلوه ، فالإيمان بالله ورسله وما جاءت به طيب ، ومذاقه حلو ، ولكن إذا آمن بالقرآن ، وعمل به ، وهو لا يقرؤه فاتته الرائحة الطيبة ، والله تعالى يجمع الطيبين فيسكنهم دار الطيبات ، كما يجمع الخبيث بعضه إلى بعض فيركمه فيجعله فى جهنم .

قال الحافظ : « قيل : خص صفة الإيمان بالطعم ، وصفة التلاوة بالريح ، لأن الإيمان ألزم للمؤمن من القرآن ، إذ يمكن حصول الإيمان بدون القراءة »[2] .

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٦٧ .

(٢) الفتح جـ ٩ ص ٦٦ .

قوله : « ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ، وطعمها مر » .

الفاجر أصله ومذاقه مر خبيث ، وإذا قرأ القرآن كان ما يصدر منه من القراءة طيب ، ولكن مصدر القراءة خبيث ، ومثل القراءة بالرائحة التى يدركها من حوله فلما كان هذا العمل طيبا ، صار مثل الرائحة الطيبة ، الصادرة من محل خبيث مؤذ ، ضار ، وإن كان ينتفع برائحته .

قوله : « ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ، طعمها مر ، ولا ريح لها » يعنى : اجتمع فيه خبث الأصل ، وخبث العمل ، فلا نفع فيه لنفسه ولا لغيره ، بل هو ردىء مؤذ فى نفسه ، ولا عمل له ينتفع به .

قال النووى : « فيه فضيلة حافظ القرآن ، واستحباب ضرب الأمثال لإيضاح المقاصد »[1] .

« والمقصود بقارئ القرآن ، مَن حفظه ، وتعاهده بكثرة التلاوة ، للوقوف على أسرار معانيه ، والعمل بأوامره ، والانتهاء عن مناهيه ، والاتعاظ بمواعظه ، والتأدب بآدابه ، لا مجرد الحفظ والتلاوة .

وكلام الله تعالى له تأثير فى باطن العبد ، وظاهره ، إذا كان مؤمنا به ، والعباد متفاوتون فى ذلك ، فمنهم من له النصيب الأوفر من ذلك ، وهو المؤمن المتقى التالى له ، ومنهم من لا نصيب له البتة ، وهو المنافق ، ومن تأثر ظاهره دون باطنه فذلك المرائى »[2] .

والمراد منه للباب ، أن هذا التفاوت ، فى وصف المؤمن القارئ ، وغير القارئ والفاجر والمنافق ، يدل على أن ذلك عملهم ، تفاوت بالإيمان مع

---

(١) شرح مسلم جـ ٦ ص ٨٣ .
(٢) مكمل إكمال الإكمال ملخصا جـ ٢ ص ٤١٥ .

القراءة وعدمها ، وبالفجور والنفاق مع القراءة وعدمها ، فإذا كان ذلك بعملهم ، فأعمالهم كلها مخلوقة كما تقدم إيضاح ذلك .

١٨١ ـــ قال : « حدثنا على ، حدثنا هشام ، أخبرنا معمر ، عن الزهرى . ح

وحدثنى أحمد بن صالح ، حدثنا عَنْبَة ، حدثنا يونس ، عن ابن شهاب أخبرنى يحيى بن عروة بن الزبير ، أنه سمع عروة بن الزبير يقول : قالت عائشة رضى الله عنها : سأل أناسٌ النبىَّ ﷺ عن الكهان ؟ فقال : « إنهم ليسوا بشىء » فقالوا : يا رسولَ الله ، فإنهم يحدِّثون بالشىء يكون حقا ، قال : فقال النبى ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنىُّ ، فيُقَرقِرُها فى أذن وليه ، كقَرْقَرة الدجاجة ، فيَخْلطون فيه أكثر من مائة كذبة » .

قوله : « سأل أناس النبى ﷺ عن الكهان » جاء فى صحيح مسلم ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله إن الكهان كانوا يحدثوننا بالشىء فنجده حقا قال : « تلك الكلمة الحق ، يخطفها الجنى ، فيقذفها فى أذن وليه ، ويزيد فيها مائة كذبة »[1] .

فالسؤال وقع عما يخبرون به ، فلهذا قال : « ليسوا بشىء » أى : أخبارهم باطلة وكذب ، ليست شيئا واقعا ، فلما قالوا : إنهم يصدقون أحيانا ، أخبر ، أن ذلك الصدق ، هو القليل الذى يخطفه الشيطان ، المسترق للسمع ، من الملك الذى يتكلم بالوحى ، فيلقيه فى أذن وليه من الإنس ، الذى هو الكاهن ، ويكذب معها مائة كذبة .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٧٥٠ رقم ٢٢٢٨ .

ويجوز أنهم سألوا عن حكمهم ، وعن إتيانهم ، كما فى صحيح مسلم ، أن معاوية ابن الحكم قال : يا رسول الله ، كنا نأتى الكهان قال : « فلا تأتوا الكهان »[1] .

والكهان : هم الذين يخبرون عن المستقبل غالبا ، استنادا إلى أسباب خفية ، من اتصالهم بالجن ، الذين يسترقون السمع من الملائكة ، وهو الأصل عندهم ، وقد تكون أخبارهم وهمية .

ويطلق اسم الكاهن على كل من يتعاطى علم الغيب ، أو يحكم بغير ما أنزل الله[2] .

وفى كليات أبى البقاء : « الكاهن : هو من يخبر بالأحوال الماضية ، والعرّاف : من يخبر بالأحوال المستقبلة »[3] .

وقال الخطابى : « الكهنة ، قوم لهم أذهان حادة ، ونفوس شريرة ، وطباع نارية ؛ فألفتهم الشياطين ، لما بينهم من التناسب فى هذه الأمور ، وساعدتهم بكل ما تصل إليه قدرتهم . وكانت الكهانة فى الجاهلية فاشية ، خصوصا فى العرب ، لانقطاع النبوة فيهم ، وهى على أصناف : منها ، ما يتلقونه من الجن ، فإن الجن يركب بعضهم بعضا ، إلى أن يسمع أعلاهم شيئا من كلام الملائكة ، كما وصف ذلك فى الحديث ، وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جدا ، كما فى أخبار شق ، وسطيح ، وغيرهما من كبار الكهان ، وأما فى الإسلام ، فقد ندر ذلك جدا حتى يكاد يضمحل .

ومنها ، ما يخبر الجنى به من يواليه ، مما غاب عن غيره ، مما لا يطلع عليه الإنسان غالبا ، أو يطلع عليه من قرب منه .

---

(١) المصدر المذكور جـ ٤ ص ١٧٤٩ رقم ٢٢٢٧ .
(٢) انظر الفتح جـ ١٠ ص ٢١٦ .
(٣) كليات أبى البقاء جـ ٤ ص ١٢٩ .

ومنها ، ما يستند إلى التجربة ، والعادة ، فيستدل على الحادث ، بما وقع قبل ذلك ، وقد يكون ذلك بنوع من السحر ، أو بنوع يضاهى السحر ، مثل : الزجر ، والطرق ، والنظر فى النجوم .

ومنها ، ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس ، وقد يبتلى الله — تعالى — بهذا النوع ، بعض الناس ، فيقع له ماظنه ، فيكون ذلك فتنة له ، ولغيره مع كثرة الكذب فيه[1] .

قوله : « فقالوا : يا رسول الله . فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقا » أى : إن الكهان يخبرون بالأمر ، فيقع مثل ما أخبروا به . فالحق : هو الخبر المطابق للواقع ، يعنى : الصدق .

فقال النبى ﷺ جوابا عن هذا الإيراد : « تلك الكلمة من الحق ، يخطفها الجنى » أى : أن الحق الذى يقع فى خبر الكاهن ، يكون مما خطفه الجنى ، الذى هو الشيطان مسترق السمع ، من الملائكة الذين يكونون فى السحاب ، فيتحدثون بينهم فيما أوحاه الله إليهم ، فيخطف الجنى الكلمة منهم .

« فيقرقرها فى أذن وليه كقرقرة الدجاجة » أى : يرددها مثل ترديد الدجاجة صوتها ، بترجيع ، وزمزمة ، ولهذا صارت أخبار الكهان كذلك .

وهو يرددها لتستقر فى ذهنه ويحفظها ، هذا إذا لم يصبه الشهاب ، الذى يرسله الله عليه ، فأحيانا يقتله الشهاب ، وقد يذهب بعقله ، وقد يسلم .

وسمى الكاهن وليا للشيطان ؛ لأنه يطيعه ويتولاه ، أو أراد العموم فى الكاهن والمنجم ، والعراف ، ونحوهم ممن يتولى الشياطين .

قال الخطابى : « بين ﷺ أن إصابة الكاهن أحيانا ، إنما هى لأن الجنى

---

(١) الفتح مع بعض التصرف جـ ١٠ ص ٢١٧ .

يلقى إليه الكلمة ، التى يسمعها استراقا من الملائكة ، فيزيد عليها أكاذيب ، يقيسها على ما سمع ، فربما أصاب نادرا ، وخطؤه الغالب[1] .

« فيخلطون فيه أكثر من مائة كذبة » أى : الشياطين يخلطون مع الكلمة الواحدة من الحق ، التى سمعوها من الملائكة ، أكثر من مائة كذبة ، ومع ذلك يصدقهم الناس ، من أجل أنهم يصيبون فى واحد من أخبارهم ، البالغة أكثر من مائة ، والباقى كله كذب ، وهذا من العجائب ، ومما يدل على حب النفوس للباطل ، وإلا كيف يصدق ، وهو إذا صدق مرة واحدة ، كذب أكثر من مائة مرة ؟!

قال الحافظ : « والذى يظهر لى من مراد البخارى ، أن تلفظ المنافق بالقرآن كما يتلفظ به المؤمن ، فتختلف تلاوتهما ، والمتلو واحد ، فلو كان المتلوُّعَيْنَ التلاوة ، لم يقع فيه تخالف ، وكذلك الكاهن ، فى تلفظه بالكلمة من الوحى ، التى يخبره بها الجنى ، مما يختطفه من الملك تلفظه بها ، وتلفظ الجنى مغاير لتلفظ الملك ؛ فتفاوتا »[2] .

قلت : هذا بعض ما أراده البخارى ـــ رحمه الله ـــ وتمامه ، أن هذا التفاوت المذكور بينهم ، يدل على أن التلفظ عمل لهم ، وهم وأعمالهم مخلوقون ، كما تقدم إيضاح ذلك . والله أعلم .

١٨٢ ـــ قال : « حدثنا أبو النعمان ، حدثنا مهدِىُّ بن مَيْمُون ، سمعت محمد بن سيرين يحدث ، عن معبد بن سيرين ، عن أبى سعيد الخدرى ـــ رضى الله عنه ـــ عن النبى ﷺ قال : « يَخرُج ناس من قبل المشرق ، ويقرءُون القرآن ، لا يجاوز تراقيهم ، يَمْرُقُون من

---

(١) الفتح جـ ١٠ ص ٢٢٠ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٣٦ .

الدين كما يمْرُق السَّهْم من الرَّمِيَّة ، ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه » .

قيل : ما سيماهم ؟ قال : « سيماهم التَّحْليق — أو قال : التَّسْبِيد » .

هذا الحديث تقدم فى باب قوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ ، وتقدم شرحه هناك ، إلا أن هذه الرواية فيها ما ليس فى تلك ، فنبين ما لم يتقدم ، فمن ذلك قوله : « يخرج ناس من قبل المشرق » . المراد : مشرق المدينة ، وهو العراق أو قربه ، وقد خرجوا فيه كما هو معلوم ، وقاتلهم على ابن أبى طالب — رضى الله عنه — وقتل معظمهم ، ولكنهم لم يزل يخرج منهم طوائف ، حتى صار لهم أسوأ الأثر على الأمة الإسلامية .

ومن ذلك قوله : « ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه » أى المكان الذى خرج منها لَمَّا رمى به ، ومعنى ذلك : أنهم لا يعودون إلى الإسلام أبدا ، وهذا شأن أهل الأهواء ، والبدع ، لأنهم يرون أن ماهم عليه هو الحق ، ومن عداهم فهو على الباطل ، فهم الذين زين لهم سوء أعمالهم فرأوها حسنة .

وقوله : « سيماهم التحليق » أى : علامتهم أنهم يحلقون رؤوسهم . « والتسبيد » : هو التحليق ، أو المبالغة فيه ، وقيل : هو ترك غسل الشعر ودهنه ، وقال الكرمانى هو : استئصال الشعر »[1] .

وقد ذكروا ، أن السلف لم يكونوا يحلقون رؤوسهم إلا فى النسك ، أو لحاجة .

ولا يلزم أن يكون الحلق علامة على الخوارج فى جميع الأزمنة ، فإن عادات

---

(١) انظر شرحه جـ ٢٥ ص ٢٤٨ .

الناس تتغير ، وتختلف .

والمراد من الحديث : أن قراءة هؤلاء لا تجاوز تراقيهم — والتَّرْقُوةَ : هى العظم الناتىء فى أعلى الصدر ، وأسفل الرقبة ، ولكل واحد ترقوتان .

والمعنى : أن القرآن لا يصل إلى قلوبهم ، فلا يفقهونه ، ولا يؤثر فيهم ، مع أنهم يحفظونه ، ويتلونه ، فتلاوتهم لا تنفعهم ، بخلاف المؤمنين المتقين ، فإنهم إذا تلوا آيات الله زادتهم إيمانا ، فهم يزدادون إيمانا بعملهم ، ثم يجزيهم الله على ذلك أفضل الجزاء ، لأن ذلك عملهم ، أما المذكورون فى هذا الحديث ، فلم ينتفعوا بفهم كتاب الله ، فيدخل الإيمان فى قلوبهم ، وإنما يتلونه بألسنتهم ولا يصل إلى القلوب ، فلم يتأثروا بآيات الله تقى ، ولا علما ولا إيمانا ، فعملهم مردود ؛ لأنه لا أثر له فى نفوسهم ، فلم يمتثلوا أمر الله وما أريد منهم ، ولم ينتفعوا بعملهم ، وهذا يدل على أن التلاوة التى انتفع بها المتقون ، ولم تنفع هؤلاء ، أنها عملهم الذى يجزون عليه ، وأعمالهم مخلوقة لله من سائر المخلوقات . وهذا المطلوب .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ . وأن أعمال بنى آدم ، وقولهم يوزن » .

معنى وضع الموازين : إحضارها ، والقسط : العدل .

قال الكرمانى : « القسط : مصدر يستوى فيه المفرد والمثنى والجمع ، أى : الموازين العادلات . وجمع باعتبار العباد ، وأنواع الموزونات .

﴿ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ أى : فى يومها . وقال الزجاج : أى : نضع الموازين ذوات القسط ، وفائدة ذلك إظهار العدل ، والمبالغة فى الإنصاف ، والإلزام ، قطعا لأعذار العباد »[1] .

وقال الخازن : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾ أى : « ذوات العدل ، وصفها بذلك لأن الميزان قد يكون مستقيما ، وقد يكون بخلافه ، فبين أن تلك الموازين تجرى على حد العدل »[2] .

« وقال الزجاج : المعنى : ونضع الموازين ذوات القسط ، والقسط العدل ، وهو مصدر يوصف به ، يقال : ميزان قسط ، وميزانان قسط ، وموازين قسط »[3] .

قال ابن كثير : « الأكثر على أنه ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة »[4] .

قال الحافظ : « اختلف فى ذكر الميزان بلفظ الجمع ، هل المراد ، أن لكل شخص ميزانا ، أو لكل عمل ميزان ، فيكون الجمع على ظاهره ، أوليس هناك

---

(١) شرح الكرمانى جـ ٢٥ ص ٢٤٨ .
(٢) تفسير الخازن جـ ٤ ص ٢٩٦ .
(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٥٣٨ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٣٩ .

إلا ميزان واحد ، والجمع باعتبار تعدد الأعمال ، والأشخاص ، والذى يترجح ، أنه ميزان واحد ، ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله ، لأن أحوال يوم القيامة لا تكيف بأحوال الدنيا »[١] .

« قال أبو اسحاق الزجاج : أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان ، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة ، وأن الميزان له لسان ، وكفتان ، ويميل بالأعمال .

وأنكرت المعتزلة الميزان . وقالوا : « هو عبارة عن العدل .

فخالفوا الكتاب ، والسنة ، لأن الله ــ تعالى ــ أخبر أنه يضع الموازين ، لوزن الأعمال ، ليرى العباد أعمالهم ممثلة ، ليكونوا على أنفسهم شاهدين »[٢] .

قلت : وإنكار المعتزلة ونحوهم للميزان ، وأن الأعمال توزن يوم القيامة ، هو سبب النص ، على وجوب الإيمان به ، فى عقائد أهل السنة ، وإلا فهو من جملة ما اشتمل عليه اليوم الآخر ، والإيمان به ركن من أركان الإيمان ، لا يتم لأحد إيمان إلا به .

قوله : « وأن أعمال بنى آدم وقولهم يوزن » يعنى : أن كل ما يصدر من بنى آدم ، ويترتب عليه الجزاء ، فهو يوزن ، لأنهم متعبدون لله مكلفون بما أراده منهم ، فراقبهم الله على ذلك ، فإذا حضروا لديه يوم القيامة ، جازاهم أتم الجزاء ، وأظهر عدله فى حكمه عليهم ، حتى يعذروا من أنفسهم .

ومراد البخارى ــ رحمه الله ــ أن أعمال بنى آدم وأقوالهم ، مخلوقة لله

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٣٧ ــ ٥٣٨ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٣٨ .

تعالى ؛ فلهذا توزن ، فيجازون عليها ، ومن ذلك قراءتهم القرآن ، وذكرهم لله ــ تعالى ــ بالتسبيح والتحميد والتهليل ، كما يأتى فى الحديث .

قال ابن المنير : « جمع البخارى فى هذه الترجمة بين فوائد : منها ، وصف الأعمال بالوزن .

ومنها ، ادراج الكلام فى الأعمال ، لأنه لما وصف الكلمتين بالخفة على اللسان والثقل فى الميزان ، دل أن الكلام عمل يوزن .

ومنها ، أنه ختم كتابه بهذا التسبيح ، وقد ورد فى الحديث مايدل على استحباب ختم المجالس بالتسبيح ، وأنه كفارة لما لعله يتفق فى أثناء الكلام ، مما ينبغى هجره ، وهذا نظير كونه بدأ كتابه بحديث « الأعمال بالنيات » ، فكأنه تأدب فى فاتحته وخاتمته ، بآداب السنة والحق .

فالأدب فى الابتداء : إخلاص القصد والنية ، وفى الانتهاء : مراقبة الخواطر ومناقشة النفس على الماضى ، والاعتماد فى تكفير ما لعله يحتاج إلى تكفير ، بما جعله الشرع مكفرا للهفوات[1] .

قال الحافظ : « الظاهر أن أعمال بنى آدم ، وأقوالهم كلها توزن ، لكن خص من ذلك طائفتان : الكفار الذين ليس لهم حسنات ، فهم يقعون فى النار من غير حساب ولا ميزان ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾ .

الثانية : المؤمنون الذين لاسيئات لهم ، ولهم حسنات كثيرة ، فهم يدخلون الجنة بغير حساب كما فى حديث السبعين ألفا ، وهم الذين يمرون على الصراط كالبرق الخاطف أو كلمح البصر ، أو كالريح[3] .

---

(١) المتوارى ص ٤٣٢ ــ ٤٣٣ .
(٢) الآية ١٠٥ من سورة الكهف .
(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٥٣٨ .

قوله : « وقال مجاهد : القسطاسُ : العَدْل بالرُّوميَّة » .

يعنى : أن هذه عرِّبت فصارت عربية وأنكر بعض العلماء ، أن يكون فى القرآن شىء من غير العربية ، وهذا حق ، لأن ما عرب ، وأدخل فى اللغة يكون منها .

قال الإمام الطبرى : « كل ما ذكر عن أهل التفسير من الكلمات ، أنها بلسان الحبشة ، أو الروم ، أو الفرس ، أو غيرهم ، معناه اتفاق اللسانين فيها »[1] .

« ويقال : القسط : مصدر المقسط ، وهو العادل » .

قال الأزهرى : « قال الليث : القِسْط بكسر القاف : العدل ، والفعل منه ، أقسط بالألف .

والقَسْط : بفتح القاف : الجور . يقال قَسَطَ يَقْسِطُ قَسَطًا ، وَقُسُوطًا .

والقِسْط بكسر القاف : النصيب ، وقال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ ، قال الفراء : هم الجائرون ، الكفار .

وأما المقسطون : [فهم] العادلون ، المسلمون »[2] .

قال الحافظ : « وقد اعترض على البخارى فى قوله : « القسط مصدر المقسط » لأن مصدر المقسط : الاقساط ، قال ابن بطال ، والكرمانى : إنه أراد بالمصدر ما حذفت زوائده كقول الشاعر : وإن أهلك فذلك قدرى .

يقصد : تقديرى ، فرد إلى أصله »[3] .

---

(١) انظر مقدمة تفسيره .

(٢) تهذيب اللغة جـ ٨ ص ٣٨٨ وانظر معانى القرآن للفراء جـ ٣ ص ١٩٣ .

(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٥٤٠ .

وقيل : إن قسط من الأضداد ، أى : يأتى للعدل ، وللجور .

« وأما القاسطُ فهو الجائر » .

تقد كلام الفراء فيه .

١٨٣ ــ قال : « حدثنا أحمد بن إشكاب ، حدثنا محمَّد بن فُضَيل ، عن عُمَارة بن القعقاع ، عن أبى زُرْعة ، عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال النبى ﷺ : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

المراد بالكلمتين : الجملتان ، « فسبحان الله وبحمده » جملة تامة ، « وسبحان الله العظيم » كذلك . ففيه إطلاق الكلمة على الكلام ، وهو كثير .

وقوله : « حبيبتان إلى الرحمن » فيه أن الله تعالى يحب بعض الكلام ، وبعض العمل أكثر من غيره ، ومحبة الله من صفاته ، التى يجب أن تثبت له ، على ما يليق بعظمته ، ولا يجوز تأويل محبته ، وتحريف الكلم فيها عن مواضعه ، كفعل أهل البدع .

وقد مضى القول فى ذلك .

« خفيفتان على اللسان » أى : عند النطق بهما لا تثقلان اللسان ولا تكلفه ، لسهولة حروفهما ، وخفتهما على اللسان ، مع ما فيهما من الثواب العظيم ، ومحبة الرحمن ــ جل وعز ــ لهما ، فخليق بالعبد أن يكثر منهما ، وهذا يوضح مراد المؤلف ــ رحمه الله ــ وهو أن تكلم العبد ، وتلفظه ، ونطقه بالكلام ، من عمله الذى يجزى عليه ، وعمله كله مخلوق ، مع أنه لا يجوز أن يقال : إن هاتين الكلمتين :

« سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » أنهما مخلوقتان ، وإنما المخلوق فعل العبد وعمله ، وكذا تلاوة التالى ، هى فعله وعمله يجازى عليها ، وتوضع فى الميزان ، أما المتلو ، فهو كتاب الله وكلامه ، وهو غير مخلوق .

فهاتان الكلمتان توزنان ، ويثقل بهما الميزان ، وهذا دليل واضح ، على أن تكلم العبد بالذكر وبالقرآن ، عمل له يثاب عليه ، ويوضع فى ميزانه ، ليعطيه الله أجره عليه وافرا غير منقوص ، ونحن نردد هذا المعنى ونكرره لأن المؤلف ــ رحمه الله ــ صنع ذلك كما سبق أن ذكرناه .

وقد أجمع السلف على أن أعمال العباد مخلوقة ، كما سبق ، وهذا هو المقصود من الحديث الذى أراده المؤلف ، لأن ما يوضع فى الميزان فهو مخلوق ، لأنه من عمل العبد ، وما يتلمس من مقاصد غير هذا ، هى تابعة لهذا ، وليست مقصودة لذاتها .

قوله : « ثقيلتان فى الميزان » قال الحافظ : « هو موضع الترجمة ، لأنه مطابق لقوله : « وأن أعمال بنى آدم توزن »[1] . وما يوزن ، فهو عمل للعبد وهو مخلوق .

« سبحان الله وبحمده » قال الأزهرى : « قال الليث : سبحان الله ، تنزيه لله ، عن كل ما لا ينبغى له أن يوصف به [ونصب على المصدر] . تقول : سبحت الله تسبيحا ، أى : نزهته تنزيها ، وكذلك روى عن النبى ﷺ .

قال الزجاج : سبحان فى اللغة : تنزيه لله ــ عز وجل ــ عن السوء .

قلت : وهذا قول سيبويه . يقال : سبحت الله تسبيحا وسبحانا بمعنى واحد ، فالمصدر تسبيح ، والأسم سبحان يقوم مقام المصدر .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٤٠ .

قلت : ومعنى تنزيه الله من السوء : تبعيده منه ، وكذلك تسبيحه : تبعيده ، من قولك : سبحت فى الأرض ، إذا أبعدت فيها . ومنه قوله ــ جل وعز ــ ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ، وكذلك قوله : ﴿ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴾ هى النجوم تسبح فى الفلك ــ أى تذهب فيه بسطا ، كما يسبح السابح فى الماء .

وكذلك السابح من الخيل ، يمد يديه فى الجرى سبحا ، كما يسبح السابح فى الماء . وجماع معناه : بعده تبارك وتعالى عن أن يكون له مثل أو شريك أو ضد ، أو ند »[1] .

وقال الحافظ : « معنى التسبيح : تنزيه الله عما لا يليق به من كل نقص .

فيلزم نفى الشريك ، والصاحبة ، والولد ، وجميع الرذائل ، ويطلق التسبيح ، ويراد به جميع ألفاظ الذكر .

ويطلق ، ويراد به صلاة النافلة . وسبحان : اسم مصدر منصوب على أنه واقع موقع المصدر ، لفعل محذوف ، تقديره : سبحت الله سبحانا ، كسبحت الله تسبيحا ، ولا يستعمل غالبا إلا مضافا »[2] .

قوله : « وبحمده » . قيل : الواو للحال ، والتقدير : أسبح الله متلبسا بحمدى له ، من أجل توفيقه . وقيل : عاطفة ، والتقدير : أسبح الله ، وأتلبس بحمده ، ويحتمل أن تكون الباء متعلقة بمحذوف متقدم ، والتقدير : وأثنى عليه بحمده ، فتكون سبحان الله جملة مستقلة ، وبحمده ، جملة أخرى .

قال الخطابى فى حديث : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك » أى : بقوتك

---

(١) تهذيب اللغة جـ ٤ ص ٣٣٨ ــ ٣٣٩ .

(٢) الفتح جـ ١١ ص ٢٠٦ .

التى هى نعمة ، توجب على حمدك ، سبحتك ، لا بحولى ، وقوتى »[1] .

قوله : « سبحان الله العظيم » أعاد التسبيح للتكرير والمبالغة فى تنزيهه تعالى ، والإكثار من ذكره تعالى ، وهو من أفضل الأعمال .

ووصفه بالعظمة ، ليستحضر أنه أهل التسبيح ومستحقه دائما ، وأن العبد لن يؤدى حقه ، مهما أكثر من تسبيحه ، وعبادته .

« قال ابن بطال : هذه الفضائل الواردة فى فضل الذكر ، إنما هى لأهل الشرف فى الدين ، والكمال ، كالطهارة من الحرام والمعاصى العظام ، فلا تظن أن من أدمن الذكر ، وأصر على ما شاءه من شهواته ، وانتهك دين الله تعالى وحرماته ، أنه يلتحق بالمطهرين المقدسين ، ويبلغ منازلهم ، بكلام أجراه على لسانه ، ليس معه تقوى ، ولا عمل صالح »[2] .

قال الكرمانى : « هذا الكلام من جوامع الكلم ، وفيه امتثال لقوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ، وتفسير له ، ولما كان ذلك مندوبا إليه ، عند أواخر المجالس ، جعل البخارى ـــ رحمه الله تعالى ـــ كتابه كمجلس علم ؛ فختم به .

وذكر هذا الباب هنا ليس مقصودا بالذات ، بل هو لإرادة أن يكون آخر كلامه تسبيحا وتحميدا[3] .

قلت : بل الظاهر ، أنه مقصود بالذات ، مع ما أشار إليه الكرمانى ، وتقدم بيان ذلك .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٤١ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٤١ .

(٣) شرح الكرمانى جـ ٢٥ ص ٢٥١ .

قال الحافظ نقلا عن شيخه البلقينى : « لما كان أصل العصمة أولا وآخرا ، هو توحيد الله ــ تعالى ــ ختم بكتاب التوحيد ، وكان آخر الأمور ، التى يظهر بها المفلح من الخاسر ، ثقل الموازين وخفتها ، جعله آخر تراجم الكتاب ، فبدأ بحديث : « إنما الأعمال بالنيات » وذلك فى الدنيا ، وختم بأن الأعمال توزن يوم القيامة ، وأشار إلى أنه إنما يثقل منها ، ما كان بالنية الخالصة لله ــ تعالى ــ .

وفى الحديث الذى ذكره ، ترغيب وتخفيف ، وحث على الذكر المذكور ، لمحبة الرحمن له .

والخفة بالنسبة لما يتعلق بالفعل ، والثقل بالنسبة لإظهار الثواب .

وجاء ترتيب هذا الحديث على أسلوب عظيم ، وهو أن حب الرب سابق ، وذكر العبد ، وخفة الذكر على لسانه تالٍ ، ثم بين ما فيها من الثواب العظيم ، النافع يوم القيامة» انتهى[1] .

قال الحافظ : « والذى يظهر ، أنه قصد ختم كتابه ، بما دل على وزن الأعمال ، لأنه آخر آثار التكليف ، فإنه ليس بعد الوزن ، إلا الاستقرار فى إحدى الدارين ، إلى أن يريد الله ــ تعالى ــ إخراج من قضى بتعذيبه من الموحدين ، فيخرجون من النار بالشفاعة ، كما تقدم .

قال الكرمانى : وأشار أيضا ، إلى أنه وضع كتابه قسطاسا ، وميزانا يرجع إليه ، وأنه سهل على من يسره الله ــ تعالى ــ عليه .

وفيه إشعار ، بما كان عليه المؤلف فى حالتيه ، أولًا وآخرا ، تقبل الله تعالى منه ، وجزاه أفضل الجزاء »[2] .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٤٢ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٤٢ .

قلت : كل هذه الأمور ، إن كانت مقصودة للبخارى ــ رحمه الله تعالى ــ فإنها جاءت تبعا لما ذكر ، من أن مراده ، بيان خلق أفعال العباد ، وأصواتهم وكلامهم ، فإنها توزن ، فيجازون عليها ، وأن تلفظهم بالقرآن ، والذكر والتسبيح ، من أعمالهم ، والعباد وأعمالهم من مخلوقات الله ــ تعالى ــ فإنه خالق كل شيء . والله أعلم . وصلَّى ٱللهُ وَسلّمَ على عبده ورسوله نبينا محمد ، وعلى آله وأزواجه وأصحابه أجمعين .

انتهيت من تسويده بعد العصر ، من يوم الأحد ، الموافق التاسع ، من الحادى عشر ، من سنة سبع وأربعمائة وألف ١٤٠٧/١١/٩ هـ .

وانتهيت من تبييضه ، صبح يوم السبت ، الموافق السابع ، من الشهر الرابع ، من سنة ثمان وأربعمائة وألف ١٤٠٨/٤/٧ هـ وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

فهرست الآيات التى استدل بها البخارى
حسب ترتيبه

الآيـة	الصفحة

الآيـــة	الصفحة

فهرست للأحاديث المشروحة فى هذا الجزء

الحديث	الصفحة
١٤ – حديث أنس : « ليصيبن أقواما سفع من النار ... الخ »	١٩٥
١٥ – حديث ابن مسعود : « جاء حبر فقال يا محمد إن الله يضع السماوات على أصبع » . وهو مكرر	١٩٨
١٦ – حديث ابن عباس : « بت فى بيت ميمونة لأنظر كيف يصلى ... الخ » مكرر	٢٠٥
١٧ – حديث أبى هريرة : « لما قضى الله الخلق كتب عنده ... الخ » مكرر	٢١٠
١٨ – حديث ابن مسعود : « إن خلق أحدكم يجمع ... الخ	٢١١
١٩ – حديث ابن عباس : « يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا »	٢٢٢
٢٠ – حديث ابن مسعود فى سؤال اليهود عن الروح . مكرر	٢٢٣
٢١ – حديث أبى هريرة : « تكفل الله لمن جاهد فى سبيله »	٢٢٨
٢٢ – حديث أبى موسى : « الرجل يقاتل حمية ... الخ »	٢٣٠
٢٣ – حديث المغيرة : « لا يزال من أمتى قوم ظاهرين »	٢٣٤
٢٤ – حديث معاوية : « لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله »	٢٣٦
٢٥ – حديث ابن عباس فى قصة مسيلمة وقول النبى له : « لو سألتنى هذه القطعة ...الخ »	٢٤٠
٢٦ – حديث ابن مسعود فى الروح . مكرر	٢٤٣
٢٧ – حديث أبى هريرة : « تكفل الله لمن جاهد فى سبيله » مكرر	٢٤٨

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة
٩٠ – حديث أبى هريرة : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » . مكرر	٢٢٧
٩١ – حديث أبى هريرة : « لا تحاسد إلا فى اثنتين »	٥٣١
٩٢ – حديث أبى سالم : « لا حسد إلا فى اثنتين »	٥٣٣
٩٣ – حديث المغيرة بن شعبة : « أخبرنا نبينا عن رسالة ربنا »	٥٤٥
٩٤ – حديث عائشة : من حدثك أن محمدًا كتم شيئا . مكرر	٥٤٦
٩٥ – حديث ابن مسعود : أى الذنب أعظم . مكرر	٥٤٧
٩٦ – حديث ابن عمر : « إنما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم » مكرر	٥٦٤
٩٧ – حديث ابن مسعود : قلت أى الأعمال أفضل	٥٦٧
٩٨ – حديث عمرو بن تغلب : أعطى قوما ومنع آخرين	٥٧١
٩٩ – حديث أنس : إذا تقرب العبد إلى شبرا .. الخ . مكرر	٥٧٤
١٠٠ – حديث أبى هريرة مثله	٥٧٦
١٠١ – حديث أبى هريرة : الصوم لى وأنا أجزى به . مكرر	٥٧٦
١٠٢ – حديث ابن عباس : لا ينبغى لعبد أن يقول إنه خير من يونس	٥٧٧
١٠٣ – حديث عبد الله بن المغفل فى الترجيع بالقراءة	٥٧٩
١٠٤ – حديث أبى هريرة : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم	٥٨٤
١٠٥ – حديث ابن عمر فى اليهوديين اللذين زنيا	٥٨٧
١٠٦ – حديث أبى هريرة فى التغنى بالقرآن . مكرر	٥٩٣

الحديث	الصفحة

تصويبات واستدراكات

الصفحة	السطر	الخطـأ	الصــواب
٨	١٧	عننى	عنى
٩	١٠	ليست	ليس
١٦	١١	؟	تحذف علامة الاستفهام
١٦	١٣	؟	تحذف علامة الاستفهام
٢٢	١٩	يتأتينا	يأتينا
٢٣	٤	؟	تحذف علامة الاستفهام
٢٨	١٦	تعيين المراد من الحديث	معنى الصورة فى اللغة
٣١	٦	عزيرا بن الله	عزيرا ابن الله
٣٧	٣	نترائى	نترائا
٤٣	١٢	أحمد بن حنبل يقول : من قال : إن الله خلق آدم على صورة آدم	ابن راهوية يقول : قد صح عن النبى ﷺ أنه نطق به
٦٨	٢٣	فقوما	قوما
٧١	٣	وجهه	وجهك
٨١	٢	منع من منع بالاحتجاج	من منع من الاحتجاج
٩٤	١٧	فصوره الله	فصورة الله
١٠٩	١	أبو هريرة	أبو سعيد
١٣٢	١٨	عليهم	عليه
١٤٢	٩	لقاكم	لقياكم
١٤٤	٢	إلا	ألا
١٤٥	١٧	أحدهما	أحدها
١٦٤	١٠	فمراد	فمراده
١٦٦	٨	روايه	رواية
١٨١	١٠	أنه	أنهم
١٩٦	١	بسم الله الرحمن الرحيم	تحذف
١٩٩	١١	قال الراغب : « الأثر	قال الراغب : « الحبر الأثر
١٩٩	١٥	العام	العالم
٢٠٥	١٣	غمرة	عمرة
٢٠٩	١٢	بالسيف	بالسبق
٢١٨	٥	يقول	يعول

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٢٢	٣	سقط رقم الحديث «٨٠»	فستعدل الأرقام بعده
٢٤٤	٩	ذلك	ذلل
٢٧٣	٦	ليلة	ليله
٣٢١	١٨	الفرى	القرى
٣٢٢	٢٠	الفرى	القرى
٣٢٨	٥	وثنائه	وثناؤه
٣٣٥	٨	وإظهارا	وإظهار
٣٣٥	٩	وبيانا	وبيان
٣٦٤	١٩	يتجدد	يتحدد
٤٠١	٦	بالاضطراز	بالاضطرار
٤١٦	١٤	كثير	كثيرة
٤١٩	٢٣	هو	هي
٤٣٤	٢	يعجزن	تعجزن
٤٥٩	٩	وفيها	وفيهما
٤٨٦	٤	المخلوق	المخلوف
٤٩٦	٢	لهم	لها
٥٠٤	٢٠	منه	منهم
٥٠٩	١	إذن	أذن
٥٣٦	٢	أجل لأمر الله	اصبر لأمر الله
٦٠٧	٢	منها	منهما
٦٠٩	١١	فتلقى آدمُ من ربه كلماتٍ	فتلقى آدمَ من ربه كلماتٌ
٦١٥	١٠	بلغه	بلغة
٦١٦	١	منها	منهما
٦١٩	١٥	ثمل	مثل
٦٢٠	١١	اليثيم	اليتيم
٦٢١	٣	ألا	إلا
٦٢١	١٠	وقاله وهب	وقاله ابن وهب
٦٤١	٧	ومن تأويله	ومن تأوله
٦٤١	١٠	المختصر	المحتضر
٦٦١	٨	الماء المطهر	ماء المطر
٦٧٢	١٢	خير	خيرا
٦٨٣	٨	وإذا حصلت	وإذا حصل